Bibliotheca Alexandrina
0136256

كتاب الهلال

أيام وليالى السندباد

ألفريد فرج

سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٤١ - محرم ١٤٠٨ - سبتمبر ١٩٨٧

No . 441 - SEPTEMBER 1987

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ح م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحـــة حسنيـــن

أيام وليالي السندباد

بقلم

ألفريد فرج

دار الهلال

مقدمة

.. في ألف ليلة وليلة تروى حكايات السندباد البحرى بضمير المتكلم .. ومع ذلك تخلو هذه الحكايات من الحديث عن حياته الشخصية ، عن حبه وعن أهله وعن مقامه بداره في بغداد وتجارته في السوق وعلاقاته في المدينة !

وكان السندباد اذا صادف الاخطار والمهالك في البحر يعاهد الله والنفس انه اذا نجا وعاش وعاد الى بلاده لا يرجع الى السفر في البحر ابدا ..

فاذا عاد واقام بداره لا يلبث أن يخون عهده ويعاود السفر في بحار الله وبلاد الله ..

فما الذى كان يعذبه ويضجره ويضنيه في البر .. حتى تهون عليه اهوال البحر ؟!

هذه هي قصة السندباد كاملة .. في البر والبحر ، أمام الحياة والموت ، الحب والهجر ، الوفاء والخيانة ، الثروة والفقر ، الحلم والحقيقة ، غرائب الطبيعة وغرائب المجتمع والناس .. ما حدثتنا به ألف ليلة ومالم تحدثنا عنه ألف ليلة .. ما أباحته لنا وما اخفته عنا وحجبته .

هذه أوراق السندباد كاملة وحياته الشخصية كما عرفتها من بين سطور ذكرياته .. ماعرفناه عنه ومالم نعرفه بعد .. الصفحات الباقية والصفحات التي كانت ضائعة !

أ . ف

الفصـــل الأول :

السرقة

انا الملاح العربى المغترب عبد الله بن شمــان الشهير باسم السندباد البحرى .

اروى لكم سيرة حياتى ..

وسيرتى هى حكاية اغترابى فى بحار الدنيا السبعة ، واغترابى فى بلادى وفى عقر دارى .

صادفت فى أيامى الغرائب والعجائب ، وسافرت فى البحار المجهولة .. ولكنى كنت أعجب أيضا من نفسى ومن الناس ، ومما تنطوى عليه النفوس من أغـــرب النوازع الخطرة .

تاجرت باللؤلؤ والجواهر الثمينة ، فما اكتسبت فى حياتى أثمن من معرفتى بنفسى وبالناس الاخرين .

ركبت الاهوال والاخطار ، وتعرضت للرخ والغيلان والحيتان والمتوحشين .. فما عانيت أكثر ايلاما وافظع هولا من ظلم الانسان .

فى كل مرة واجهت الهلاك فى البحر اقسمت أن نجانى الله واعادنى سالما الى بلادى .. لا أعاود ركوب البحر مختارا ماحييت .

وفى كل مرة عدت الى دارى عانيت الملل والجحود والغدر وتقلب اهواء الناس .. فهربت الى البحـــر من همى ومن عذابى ومن خوفى من غيرى ومن خوفى مـــن نفسى .

ان سيرتى ليست حكاية عن الدنيا ارويها لكم من بعيد ، وانما هى حكاية عن نفسى وعن الناس الاخرين ..

***

لم أكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرى حين مات ابى ، وخلف لى مالا وضياعا وعقاراً ..

فلما وضعت يدى على الثروة عاشرت الخلان والصحاب وتجملت بالجواهر والثياب ، وعشت بقصري فى حارة الكرخ ببغداد حياة اللهو والبذخ ، واضأت ليلى بالمسرات واغرقت أيامى فى الملذآت .

ذات ليلة من تلك الليالى الصاخبة أحاط بى أصدقائى ورفاق انسى من زينة شباب العرب : علي ابن شهبندر تجار بقداد ، والحسنى ابن شيخ السوق ، واسعد الحريره ومحمد الخيام واسماعيل آلبصرى ويونس الزجاج .. وكلّ منهم يزهو شبابا ونضارة وثراء ، كأنهم النجوم فى السماء .

وما اجتمعوا عندى ، ورافقوني فى سهراتى الا لما اشتهرت به امسياتى من غناء وطرب ورقص ومرح وطعام وشراب .. ولحسن ضيافتي وصدق محبتى .

أجتمعنا تلك آلليلة من ليالى الانس فى قاعة قصرى فأكلنا أطيب الطعام وشربنا أجود آلخمر ؛ واخذت بألبابنا الحان العازفين وايقاعات الرقص ، وتسامت بنا النشوة الى أعلى سماء .. حتى ذهلنا وبهتنا وصار ضيوفى يتصايحون بغير حساب :

ـ ليس ازهى من أمســـياتك فى بغداد كلهـا ياعبد الله ! ...

فقلت مكابرا :

ـ فما تقولون بعد استماعكم الغناء فى بيتى ؟

فتسابقوا آلى الصياح :

ـ آه من الغناء في بيتك !.. هات وعجل !..

فتمايلت اعجابا بنفسى ، وصفقت بيـدى صـفقة واحدة انشقت لها ستار القاعة ، واندفعت خلال الشـق جاريتى « حياة » .. وتوسطت القاعة وقد حفت بهـا الراقصات يتثنين على وتائرايقاع العزف .. لترتقى سلمة « حياة » بصوتها القوى العذب ، واصوات العازفين من حولها تشد انطلاق صوتها المتدفق وهى تنشد :

ما كنت الا حلمـــا
رأته عينى فى الوسن
يا ســمح الفعـل ويا
أحسن من كل حسن

فما جهرت حياة بصوتها ، ورمت ذراعيها تريد بلوغ الغاية من لحنها .. حتى شق أصحابى الجيوب ورموا العمائم وأطلقوا الآهات والصيحات :

ـ ليس فى بغداد كلها مثل هذا الغناء ! ...ولا مثل هذا الرقص !.. لله درك ياعبد الله !.. جعل الله ذنوبك كلها على ، أحاسب عنها بدلا منك فى يوم القيـامة !.. جعلنا الله مستحقين لمودتك وفضلك !.. أو نستحق ؟!

سمعت الصيحة الاخيرة بالسؤال فأخذتنى النخـوة

وصحت فوق صياحهم ، وبأجلى من العزف والغناء :

ــ نعم يا أصدقائى وندمائى واضيافى .. ولاثبت لكم صدق محبتى أهديتكم راقصاتى فليختر كل منكم لنفسه جارية وهى له .

فطاش صواب القوم ، واقتحموا الموائد ونظام الرقص ووضع كل منهم يده على احدى الراقصات ، والراقصات يصرخن بدلال ويتكلفن الجزع ..

.. الا أسعد الحريرى لم يبرح مكانه ، وعينه ثابتة على مغنيتى « حياة » .

ــ والمغنية ؟

سألنى بلهفة .. وهى تقعد جنبى . احتضنتها بذراعى فقربت منى شفتيها ولثمتهما وقلت لاسعد :

ــ لا .. فهذه حبيبة روحى وخليلة نفسى وحيـــاة قلبى .

فزفر أسعد الحريرى زفرة صريحة اشمأزت لهـــا نفسى . ومسحت « حياة » جبينى الملتهب بصفحة كفها وقالت بصوت رخيم :

ــ سكرت يا عبد الله .

نظرت حولى وانقبض قلبى فجأة ، وقلت لها :

ــ نعم . فكم أنا وحيد !

***

دقت الاجراس من حولى واقتحمنى الهلع . فقـاعة

انسى وبهجتى .. احتل الدلالون أرجاءها يدقون أجراسهم ويدللون للمشترين على متاعى وآثاث بيتى !

وعلى دقات أجراسهم المشئومة يغشى على وافيـــق لاشهد بعينى رأسى حالى يحول ، ومالى يذهب ..

ضاع كل ما أملك بأسرع مما يجف المـــاء فى قيظ الصحراء . أخذتنى الدهشة واستبد بى الروع . كـــل شىء أحببته فى حياتى ينادى عليه الدلالون ويتزاحـم حوله التجار وعابروا السبيل ويشترون !

والذى يباع ويشترى فى خاطرى ليس آلا لحمى ودمى ونفسى وذكرياتى وأيامى وسعادتى .

وفجيعتى كانت أوجع اذ أشاهد رفاق انسى واصدقاء شبابى وضيوف امسياتى بين المتزاحمين يتسابقون على اقتناء متاعى .

.. على ابن الشهبندر ، والحسنى لبن شيخ السبوق .. أسعد الحريرى ومحمد الخيام واسماعيل البصرى ويونس الزجاج .. وقد ألهاهم انهماكهم فى تسقط اثمن حاجاتى بأرخص الاثمان عن ملاحظتى أو حتى النظـر ناحيتى .

وحول القاعة التى رجعت حيطانهـــا أعذب الغناء والشعر والالحان .. كان الدلالون يجأرون بالصـــوت الأجش :

ـ كوفية النقش ، طولها عشرون ذراعا ..

خمسون طبقا من الفضة الصافية .. مملوك بملابسه ، مطرزة بخيوط الذهب ..

وفى ركن قصى نما الى سمعى صوت محمد الخيـام

يحث اسعد الحريرى :

ـ ماذا تنتظر ؟ ستضيع منك احسن الاشياء .

فقال الحريرى :

ـ انتظر النداء على المغنية . هى وحدها بغيتى .

فتقطعت من الحسرات ، وغشى على لحظة لافيـق وأحد التجار ممن لا يعرفنى ممسك بملابسى يهـزنى ويصيح :

ـ وهذا المملوك .. لاتبيعونه ؟

فقمت ودفعته فى صدره دفعة طرحته أرضا ، وتباعد المحيطون بنا من الذعر وانا اصرخ :

ـ رح فى داهية !

واضطرب الحال ، فتجمع الدلالون حولى يمنعوننى عن التاجر ويتلطفون بى ، وشيخهم يقول :

ـ رويدك ياسيدى .. يكفيك !

***

مالت الشمس ، وقد خلت القاعة تماما فاذا هى ملساء ليس بها شىء قائم .

ولم يبق أحد . ذهب الجميع بكل شىء .

راح الاثاث والجوهر من بعد الدكاكين والعقـارات والضياع والمال ..

وبقيت وحدى فى قاعتى غير مصدق .. و « حياة » بقيت لى معى ، قاعدة فى الركن القصى من القاعة تنظر

الى ، وقد تجردت من حليها وزينتها واتشحت بوشاح خفيف هو كل مابقى لها ، وعودها الذى أسندته على فخذها ، وظلت تنظر مستطلعة .

ولما مضت ساعة لا أكلمها ، ولا نسمع فى قاعتنا نأمة، احتضنت العود وضربت وترا رجعت صداه الابهاء الخاوية ثم عزفت لحنا فيه شجن ، وغنت بصوت ينفذ الى القلب :

سلم الامر للقضـا
فهو للنفس أنفـع
كل ما راح وانقضى
ليس بالحزن يرجع

ثم سكتت ، وارخت جفونها ، فقلت :

ــ تغنين ؟ !

قالت : بدلا من القنوط .

قلت : لا بديل عنه .

قالت : لا يموت الشباب في مثل عمرك كمدا يا عبد الله .

ــ فماذا يفعلون ؟

ــ فكر فى طعامك .

ــ لم يعد تحت يدى ثمن وجبة طعام .

ــ .. وفى طعامى ..

ــ أفكر فيما لا أملك ؟

ــ لابد مما ليس منه بد .

ــ وما هو ؟

ــ تبيعني بشيء تأكل به ..

ــ ماذا قلت ؟

ــ تبيعني بشيء تأكل به ..

قلت : بعت كل شيء احببته في هذه الدار . الذهب والفضة . السجاجيد والاثاث والتحف والثياب . لكي احتفظ بك . أحببتك . انت مابقى لى من مباهج هذه الدنيا ، علاقتي بالحياة . انت مابقى لى من حياة ..

قالت : اما انا او الحياة .. اختر لنفسك .

ــ احبك .

ــ عش من بعدى ولا تمت جوعا بى . هذا مايقول اهل الزمان ..

صحت : ماذا يقولون .. اشترى بقلبى وجبة طعام ؟!

***

هكذا مشت « حياة » ورائى الى السوق فى الصباح ، وسلمتها بيدى للدلال ، ووضعت منديلى على عينى ليشرب من دمعى وأنا اسمع نداءه :

ــ جمالها عذب .. وغناؤها عذب ..

والناس يقولون : ثلثمائة دينار .. وخمسون ..

ابتهلت الى الله بقلب صادق .. قلت : « يارب . يقولون أن قتل النفس حرام وان قتل الغير حرام . وقد قتلت نفسى وزدت فقتلت حياة . فأنزل عقابك بى الساعة ولا تغفر لى شيئا من ذنبى » .

فاذا بالدلال يدفعنى فى صدرى بكيس فى يده :

ــ هاك ياسيدى . خمسمائة دينار ..

فرفعت المنديل عن وجهى ورأيت عينيها الدامعتين تنظران مليا فى وجهى ، نظرة خيل لى انها مثقلة باللوم والعتاب ، فتفجرت بقلبى الحسرات . ورأيت رجلا من خلال دموعى يقتادها من يدها ، عرفت فيه أسعد الحريرى نفسه ، فذهلت عن نفسى وعمن حولى .. لم اشعر بالدلال ، وهو يدفعنى ويجذبنى ويهزنى ويهيب بى :

ــ خذ مالك يافتى . بارك الله لك فيه .

***

وجدت نفسى فى بيتى ، وبيدى كيس نقود .

انكرت بيتى وانكرت نفسى ، ودأهمتنى وحشة ونفرة من بيتى ومن نفسى فخرجت أهيم على وجهى .

لا أعلم كم مضى على من الوقت وانا أذرع حارات المدينة وأسواقها كالتائه ، وبيدى كيس النقود !

ألفيت نفسى فى ساحة المسجد ، وقد قعد الشحاذون والدراويش والتائهون على الارض مستندين الى جداره فى مساحة من الظل .

جلست بينهم واسندت ظهرى للجدار ، فشعرت بأعضائى كلها تحن الى الارض ، فتزحزحت قليلا لارقد ، ووضعت الكيس تحت رأسى .

لعلى نمت برهة .. فما شعرت الا ويد تسحب الكيس

بقوة جعلت راسي يرتطم بالارض . قفزت واقفا ، ورايت اللص يشق الساحة المزدحمة وبيده الكيس فاندفعت وراءه وأنا اصرخ :

ـ السارق ! السارق !..

ثم لم اعد اراه في الزحام . لم اتبين هل انعطف في زقاق أو اختلط بالهرج من حولي حتى تعذر على تمييزه بعد ان اخفى الكيس . وقفت في موضعي اواصل الصراخ وقد تجمع حولي جمهور من الناس يظهرون الجزع والاشفاق . سمعتهم يقولون :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله !.. كل يوم حادث ؟!.. في وضح النهار ؟!.. لم يعد في الدنيا أمان !..

وبعضهم يسألون : كيف سرقت ؟

فتعلقت بالسؤال ، وانا ما ازال اصيح :

ـ خطفوا الكيس من تحت راسي . وانا راقد سرقوه من تحت راسي !..

وآخرون يسألون :

ـ كم سرقوا منك ؟ ماذا سرقوا منك ؟..

فتذكرت « حياة » .. وشققت ملابسي في الساحة بين الجمع ، واطلقت العنان لحسراتي وبدوات غضبي :

ـ سرقوا كل شيء !.. حياتي !..

وبعضهم مايزالون يسألون :

ـ هل تستطيع أن تتعرف على اللصوص ؟..

فجر السؤال النجوم من عيني ، وعلى ضوء برقها

بقوة جعلت راسي يرتطم بالارض . قفزت واقفا ،

من اول أسعد الحريرى ورفاق الندم .. الى هـــذا الخليط الذى أزدحم حولى تلبية لصيحاتى .. ومن خلال الرياء فى تلك الوجوه ، ووراء ما تتظاهر به من الجزع .. رأيت فى الوجوه هنا من لم يسرق وراحـــة من أخطائه الجنائية ، وفضول من ينتوى الحذر والاحتياط وتطلع من يريد تزجية الفـــراغ ومعالجة الملل ، وروح التشفى التى يضمرها من يتهيأ منهم لأرسال النصـــح للمجنى عليه .. وكلهم من أبناء السوق المحيط بساحة المسجد ، ويرددون :

ــ هل تستطيع أن تتعرف على اللصوص ؟..

فدافعتنى الشفقة على نفسى من شر النـــاس .. الى التهور فى الاتهام ، فصحت بينهم :

ــ اتعرف على اللصوص .. نعم استطيع . ليست اللصوص بعيدة عن المكان . انتم اللصوص !

دفعنى بعضهم بأيد منذرة وهم يقولون :

ــ احتشم ياولد !.. امسك ياوقح ! ..

فتوهمت الساحة من غضبى ، ودأفعتهم كأعداء ، وانا اصيح بهم :

ــ لا استطيع أن اتعشى بأكثر مما تتسع له معدتى ، او اشرب اكثر مما تحتمل رأسى ، او البس أكثر ممـــا تطيق سخونة جسمى .. فكيف أفلست أيها اللئـــام وضاعت ثروتى ؟!

فيم تبدد مالى وضاعت حياتى يا ابناء الحـــرام ويا أهل الغش وسوء الطوية واللصوص !..

ذلك اليوم ، فى تلك الساحة ، عاقبنى من لم اعرف .. عقابا طلبته بتهجمى ، واستحققتـــه بجسارتى ، وسأذكره طول حياتى ..

النار لا تحرق المؤمن

قادتنى قدماى الى سوق السجاد .. ودكان الشيخ مصطفى .

كان صديقا لابى حتى آخر عمره . وكم تدللت بين ذراعيه وانا طفل صغير .

تهلل حين رآنى ودمعت عيناه وهو يقبلنى .

قعدت أمامه على مصطبة بالدكان أحكى له خيانة الزمان وآلخلان ، وبين يدى كأس من الشراب المسكر لم تمسسه شفتاى .

فلما اتممت حكايتى هز راسه متعجبا متأسفا وسألنى :

ــ انا لك كأبيك يرحمه الله ، فلم لم تأتنى قبل اليوم ؟

همهمت معتذرا وهو يسترسل :

ــ قبل أن تفلس . قبل ان تبيع اثاث الدار .. قبل ان تبيع الجارية التى أحببتها .. قبل ان يسرقك اللصوص .. لماذا لم تزرنى قط ياعبد الله ؟

ــ كرهت ان أضجرك بهمومى وحماقاتى .

ــ كنت احملك صغيرا على كتفى . كنت العب معك العاب الطفولة فيضحك لنا ابوك .. انا وابوك دللناك وأفسدناك . هذا مرضك ياولدى . وهو مرض لايصيب

الا اولاد الاثرياء . هل بقى عندك شىء ؟

قلت : لا شىء .

ــ الضياع والدكاكين ؟

ــ ذهب كل شىء .

ــ الجوهر والمال والتجارة .

ــ لم يبق شىء .

ــ لا تقنط ياولدى . كان مال ابيك وراح بعد ابيك . لم تخسر شيئا تملكه بعد . اعلم ياولدى أنك لو كسبت مالا بيديك فلن يضيع منك بهــذه السهولة ابدا ، وستحرص عليه ، وستجد ماتتمناه أن شاء الله .

قلت : ماذا أتمنى اليوم ؟

قال : ماذا تتمنى ؟! .. أهذا سؤال ؟!

قلت : هذا هو السؤال . عندى هو السؤال ..

فنهرنى الشيخ صائحا : انس ماكان ياولد ! الدنيا ارحب من كل احزانك ! .. اتزوج احزانك ؟! فص حلقى وانا اقول :

ــ اين المفر من احزانى ؟ .. كل حجر فى الدار ، كل قائم فى السوق ، كل بقعة فى بساتين دجلة .. تثير حسرتى وتنسج خيوط احزانى ..

ــ لا ياولد .. لا .. لم تبلغ العشرين من عمـرك بعد . لا تتلفت وراءك وانظر الى الامام . بدل مكانا بمكان وحياة بحياة . ارحل عن بغداد واتجه للبصرة او للشام او الى مسقط .. وابدا هناك .

ـ نعم ياعمى .
ـ ساعطيك بعض المال .
ـ لا بربك .. فما جئتك لهذا .
ـ ولم لا ؟
ـ اعفنى ولا تخجلنى .
فتح الشيخ عيناه عجبا :
ـ خجول انت ؟! لعن الله شيطانك ! اترك الخجل ياولد واقتحم الحياة !.. بجسارة وقوة عزم اقتحم الحياة ! لا تكن ابدا خجولا أو ضعيفا او مرهف الشعور اذا كنت تريد أن تذوق حلاوة الدنيا اقتحم الناس واقتحم الحياة !.. انظر الى الدنيا فى عينيها واقتحم الناس والحياة ! .. سمعت ؟!.

قمت من عند الشيخ احسن حالا واقوى نفسا .. فبعت دارى واشتريت متجرا بثمنه واكتريت فى قافلة تقصد البصرة .

اخترقت القافلة حوافى الارض المزروعة والصحراء ، فكانها نفذت بين الضدين . وطابت لى وحدتى وعزلتى فى الرحلة وهدات نفسى .

وما وصلنا البصرة حتى انفصلت باحمالى وتجارتى عن القافلة اشق السوق فوجدتها عامرة بالدكاكين والبيع والشراء ، تتجاوب فيها اصوات الدلالين بنداءات بائعى المشروبات الباردة وادعية الدراويش .

وفى صدر السوق لافتة تدل على « الخان » . فقصدته

فاستقبلني صاحبه « جابر » على الباب ..

ــ أهلا وسهلا بسيدي ومرحبا . أدخل للداخل وانا اتولى عنك وضع الاحمال في حاصل الخان ومحاسبة الحمالين ..

اقعدني في صحن الخان جنب نافورة الماء في مجلس ظليل وامر لي بالشراب الحلو والقهــوة ، ومضى عني فافرغ حمولي في حاصل الخان ثم عاد يبش بوجهي ويسامرني .

ــ من أين قدومك ياسيدي ؟

ــ بغداد ..

ــ زينة المدن وحاضرة الدنيا وبيت خيار الناس .

قلت : هل أطمع في أن تجد لي دلالا نشيطا يساعدني في بيع تجارتي ؟

ــ سيكون لك ماتريد .

ــ شكر الله فضلك ..

ــ .. ولو اني كنت اظنك تركب البحر ..

ــ اركب البحر ؟! ..

رددت قوله كرجع الصدى ، وكأني لأول مرة في حياتي اسمع عن ركوب البحر .

قال : شاب في مقتبل العمر مثلك ..

قاطعته منكرا : وما فائدتي من ركوب البحر ؟..

قال : التاجر الذي سيشتري منك تجارتك .. ربما ركب بها البحر وباعها باضعاف ما اشتراها منك ..

ـ بلى .. ولكن البحر ..

ـ ربح وفرجة ، وتجربة ثمينة . .

ـ وهل سافرت انت فى ألبحر ؟

رمى ببصره فى ماء ألنافورة ، واستسلم لخواطره، ثم قال :

ـ نعم . ولكن لكَ ماتريد ياسيدى .

فشردت خواطرى ..

اركب انا البحر ؟!

شيء لم يخطر ببالي قبلها قط .

***

فى العصر قمت اتمشي فى المرفأ ، فهالنى مابه من سفن عملاقة وحركة دائبة .. والعاب الحواة يجتذبون انظار المارة .. وهرولة التجار والحمالين والمتسببين فى الرزق ..

رأيت سفينة كبيرة متصلة بالشاطىء بسقالة ضخمة من ألخشب ، والناس صاعدة عليها . وفوقَ السفينة قبطان له هيبة ، وحوله مساعدوه ، وقد تفرقَ البحارة فى كل موضع من سطح السفينة يعملون بهمة ويتداولون الحبالَ ويرشدون الركاب وألحمالين ، ومساعدو القبطان ينادون :

ـ ياركاب السلامة . اصعدوا الى السفينة .

وعلى الشاطىء كان الناس يلوحون مودعين ، ويشيرون بالمناديل والشرطة تنفخ ابواقها ، وقد ارتفعت الرايات الملونة ايذانا بالسفر ..

اخذتني روعة المشهد ، كأنه عرس مقام ، وتفرقت في خواطري تفاصيله فاستخفتني وأطربتني وحملتني على جناحها من النشوة .. فسرت بمحاذاة الشاطىء أستطلع نهايته حتى وصلت الى بقعة هادئة بعيدة تناهت الى فيها أصوات المرفأ خافتة هامسة .. ورأيت السفن من موضعي أصغر حجما مكللة بأعلامها الملونة وحبالها المتقاطعة .

وفوق الاصوات البعيدة رنت في اذني ضحكات اطفال بريئة قريبة ، ولمحت في الماء القريب طفلين يلعبان ويتماحكان ويتضاحكان وكل منهما يرش الاخر بالماء ويناوره سابحا في مهارة وخفة .

ونظرت الى الماء البعيد فلمحت سفينة تقترب مقبلة من سفر ، فغمرني هدوء وغبطة .. شقتهما بفظاعة صيحة مفجوعة ، فنظرت .. واذا بالطفلين يتسابقان نحو الشاطىء ويصيحان :

ـ غريق !! ..

فتجاوزتهما ببصري .. ورأيت الجثة الطافية المتورمة !

من حولي تسابق الناس مهرولين للنجدة ، بينما جريت انا الى الخان وقد ألم بي غثيان وروع ، فاعتكفت بغرفتي مضطربا مفزعا .

فلما ضقت بعزلتي وبوحشتي في غرفتي هبطت الى صحن الخان ، فألفيت « جابر » يهم بالخروج . أقبل نحوي متسائلا :

ـ اين كنت ؟

ـ فى غرفتى .

ـ اتحب ان تتفرج على الدراويش ؟

ـ ماذا يفعلون ؟

ـ تعال انظر بنفسك .

جذبنى من ذراعى فانقدت له . اخترقنا المدينة الى ظاهرها ، ودخلنا البساتين حتى وصلنا الى باحة واسعة بين الاشجار فى وسطها نار هائلة تتقد بجذوع الشجر الكبيرة ، وقد احاط النار والباحة زحام من الناس المشدوهين ، يتصببون عرقا وتلمع وجوههم .. لفحتنى السخونة فخلعت عباءتى ورميتها على كتفى وانا اخترق الزحام مع صاحبى الى موضع أرى منه مايجرى ..

حول النار تحلق بنيرانها طبالون يدقون طبولهم دقات مدوية موقعة ، ودراويش كثيرون شبه عراة تتوهج أجسادهم كأن النار تتراقص عليها .. ويترنحون على ايقاع الطبول وينشدون وهم يتقدمون فيضربون ألسنة النيران بالايدى والارجل فتتراجع النيران لضرباتهم ولا تصيبهم بشىء .. فيزيدون باقتحامها واختراقها ، ويطأون أخشابها وجمراتها الحمراء ، ثم يتراجعون عنها سالمين لم يصبهم لظاها بسوء ، فيهلل القوم ويكبرون وينخرطون مع الدراويس فى الانشاد والتمايل على أيقاع الطبول فى أنفعال عنيف :

لا تحرق المؤمن .. باذن الله

لا تحرق الداعى .. باسم الله

لا تحرق السائل .. بباب الله

لا تحرق الحاوى .. لسر الله

وجرى الدراويش فى الباحة وقد اخذتهم النشوة يقتحمون الناس ، واختطف احدهم عباءتى من فوق كتفى واقتحم بها النار يضرب الالسنة اللاهبة يمينا ويسارا ، والدراويش يفعلون مثله بملابس أخذوها من الناس ، والدنيا تضج بالانشاد .. واللهب يتراجع مذعورا منكمشا حتى خبا وانطفأ ..

فلما اعاد لى الدرويش عباءتى فحصتها فاخذتنى الدهشة والنشوة :

ـ انظر ياجابر !.. لم تصبها النار ! .. اطفأت النار ولم تصبها النار بشىء !..

فضحك صاحب الخان من قولى .

***

حين وصلنا الخان ، جابر وانا ، الفينا جماعة من التجار والبحارة يأكلون ويسمرون فى صحنه حول النافورة ، واحد البحارة يروى النكات وهم يضحكون .. كان يقول :

ـ نزلنا ثلاثتنا جزيرة المتوحشين فامسكوا بنا واقتادونا الى ملكهم الذى فحصنا مليا ثم قال : قدموا لى هذا مشويا فى الغداء ، والثانى مقليا فى العشاء .. اما ثالثهم فحلوا وثاقه وخلوا سبيله فهو صاحبى وقرا معى مذهب العدل على الشيخ واصل بن عطاء !

وضحك الحاضرون ، ونحن من جملتهم ، بينما صاح احدهم بالبحار :

ـ وانت ؟ ماكان نصيبك في الثلاثة ؟

ـ كنت المشوى في الغداء .

ـ لكنك حي ، فكيف حييت بعد الشي والغداء ؟

ـ مولاى . الناس يقولون حي يرزق .

فباى برهان من براهين المناطقة يستقيم بوهمك انى حى .. اذا كنت لا ارزق ؟!..

وتجاوبت الضحكات .

***

تلك الليلة ارقت ..

قلت لنفسي : اذا كان الرجل بقوة عزمه وايمانه يقتحم النار ليفوز ببضعة فلوس من صدقات الناس ، فكيف اقطع انا رزقي لخوفي من ماء البحر ؟..

خجلت من خوفي ومن ضعفي ، وتخيلت انى اعود الى بغداد بعد بيع متجرى لاعاشر احزانى وذكرياتي واصادف ماصادفت من لؤم اصحابي وشماتة اعدائي .. فحزمت امرى ، وكنت بعد ايام مع الصاعدين السقالة الى سفينة بديعة اكتريت عليها ، وارتفعت اعلامها .. وعلا صياح بحارتها :

ـ ياركاب السلامة . اصعدوا الى السفينة !

نظرت من فوق السفينة فاخذني الطرب من نشاط الحركة في المرفأ وتصاعدت الى انفى رائحة البخور وملأت اذنى ادعية الداعين بالسلامة .

صاح القبطان : ارفع السقالة !..

فردد البحارة صائحين : ارفع السقالة !..

ثم صاح : ابتعدوا عن السفينة !..

وردد البحارة : ابتعدوا عن السفينة !..

فتباعدت الزوارق الصغيرة على عجل ..

ـ القلع الصغير .. ارفع !..

وردد البحارة الصيحة ، فشدت الحبال ، وانتشر القلع العلوى الصغير ككف كبير امتلأ بالريح ، اهتزت له السفينة وتحركت ، فاحسست كان ارضا تنفصل عن الارض بزلزلة ، فتشبثت بحاجز السطح ، ورأيت الشاطىء يدور امامى متراجعا كأن قوة خفية تزيحه .. فاخذنى الخوف ، وهمهمت : « لا اله الا الله .. »

البحارة فى شغلهم منهمكون ، يتحركون هنا وهناك بانتظام ، والقبطان فى وسط السطح يصدر الأوامر فيرددها مساعدوه ..

ـ القلع الكبير .. ارفع !..

نفرت الطيور فى السماء فجاة .. اذ انتشر الشراع الكبير وامتلأ بالهواء فارتجت السفينة ، ومالت يمنة ويسرة ، ثم استقامت وشقت البحر بقوة الريح كطائر عملاق سابح فى الفضاء .

هرولت نحو التجار والمسافرين وقد قعدوا حلقة فوق السطح الامامى ، واخفيت اضطرابى فى جمعهم ، وقد ضرب احدهم اوتار عوده ضربا قويا وغنى :

ماكنت أعلم مافى البين من ألم

حتى تنادوا بأن قد جىء بالسفن

قامت تودعنى والدمع يغلبها
فهمهمت بعض ماقالت ولم تبن
مالت الى وضمتنى لترشفنى
كما يميل نسيم الريح بالغصن
واعرضت ، ثم قالت وهى باكية :
ياليت معرفتى اياك لم تكن
فهاجنى الشوق ، وتذكرت « حياة » ..

سالت دموعى ، وداريت وجهى من الجمع انظر الى الشاطىء الذى يبتعد ، وكان عمـــارته تغرق وتؤذن بالتلاشى ، وسالت نفسى : ياعبد الله ..

انت هارب من دنيا الناس ، ام انت تقتحم المجهول املا فى استرجاع الثروة ؟

رايت من بعيد عمران الناس يغرق فى البحر فنازعتنى مشاعر التشفى ومشاعر الحنين ، والسفينة تبحر فى عباب البحر كانها تعرف قصدها ، وأنا فوقها لا اعــرف ان كنت سعيدا برحلتى أم انا غير سعيد .

الفصل الثالث

الغرق

خرجت السفينة من شط العرب الى عرض البحر ، فاتسعت دائرة الافق ولم اعد ارى أمامى أو ورائى ، عن يمينى او يسارى .. غير الامتداد الازرق يترجرج الى مدى النظر ، وفوقى الشراع الكبير .. فوقه الشراع الصغير .. ككفين ممتلئين بالريح .

عكف المسافرون فى قاعتهم بباطن السفينة ، ولحقت بهم وانا اترنح من اهتزاز العمارة الكبيرة ، فوجدتهم قد أجتمعوا فى حلقات لتناول الغذاء وهم يسمرون .

انزويت وحدى اغالب ما أعانيه من الدوار والشعور بالغثيان ، فمس جارى كتفى برفق :

ـ تفضل الطعام ياأبن العرب .

فما سمعت كلمة الطعام حتى انطلقت أجرى الى سطح السفينة ، متعثرا فوق درجات السلم .. وارتطمت بحاجز السفينة وملت نحو البحر أفرغ جوفى .. فاحسست بيدين تمسكان كتفى ، ورجل يقول :

ـ افرغ ما بجوفك ماشئت ، ولكن امسك الحاجز جيدا ، وبعدها وافنى فى مكانى .

ملت براسي لانظر من يكون ، فاذا هو القبطان نفسه وعدت الى ماكنت فيه وقد تصبب جسمى كله بالعرق

ارتحت قليلا فقصدت مقصورة القبطان في مؤخرة السفينة فرايت بابه مفتوحا وهو مضطجع على اريكه وقد اشتغل بأدواته البحرية . قرأته السلام ودعاني للجلوس وتأملني مليا ..

ـ اول مرة تركب البحر ؟

علمت انه استغرب صغر سني فقلت :

ـ نعم .

ـ ستعتاده ولن يعاودك الدوار .. وبعدها ستحب البحر ..

فتح خزانة خلفه واخرج ورقة مطوية بها مسحوق اذابه في كأس ماء وقدمه لي ..

ـ اشرب ، بالشفاء لكَ .

فشربت واحسست براحة تسرى فى جوفى .

وسألته :

ـ منذ كم وانت تسافر في البحر ؟

ضحك وقال : لعلى سافرت اول مرة وانا فى مثل عمرك .

ـ وما دعاك ..

سألنى باستغراب : وانت مادعاك ؟

ـ بعت قلبى بوجبة طعام ، وسرقني اللصوص ورأيت لؤم الصحاب .. كالمستجير من الرمضاء بالنار ركبت البحر ..

ـ لا لا لا .. لا تقل ذلك ، فالبحر ليس مركب اليائس .. وستقع فى غرامه بعد حين .

مرت الايام طويلة على ظهر السفينة ..
وكان الوقت ظهرا ذات يوم قائظ حين سمعت القبطان ينادي الركاب :
ـ سنرسو هنا بعض الوقت ، فمن أراد منكم ان يجمع من قواقع البحر ويستروح فلينزل على هذه الصخرة .
فما صدقت ان أضع قدمي على أرض ثابتة ، ولو لساعة قصيرة ، فزاحمت النازلين على السقالة الى صخرة خضراء تكاثرت فوقها القواقع فوق بساط من الطحالب .
أرخت السفنة شراعها ، ونزل بعض القوم ممن يشتهون اكل القواقع وبايديهم امواس ينتزعونها بها ، حيث تلتصق القواقع عادة بالصخر بشدة .
تمشيت على الصخرة التى يبلغ طولها خمسة عشر ذراعا وعرضها عدة اذرع .. ووقفت أرقب أحد الركاب وقد انتزع قوقعة على طرف سكين وتناول منها باصبعه ليذوقها ، فلما لاحظنى قال :
ـ لذيذة جداً ، فضلاً عن انها طازجة . ذقها ..
فتناولت قطعة من طرف السكين وذقتها فاستغربت ليونتها ..
ـ سانتزع لك واحدة اخرى .
وغرس السكين تحت قوقعة اخرى .. فما رايت الا خيطا من الدم يسرح على النصل ، فانتزعه الرجل ونظر اليه ثم صرخ :
ـ دم ! .. دماء ! ..

فنظر الجميع الى حيث يشير ، وراوا خيط دماء سارح على الصخرة ، فصاح احدهم :

ــ ليست هذه صخرة . النجاة يا اهل الله ! هـذا حوت عظيم نام وتجمعت على ظهره القواقع والطحالب . النجاة النجاة !

فما رابت الا رجالا يتسابقون فوق السقالة كان الموت في اذيالهم والصخرة ارتجت لحركتهم المفاجئة فمالت السقالة وهم بها متشبثون وانا آخرهم ، والقبطان يصيح من فوق السفينة :

ــ لا تتدافعوا ياركاب السلامة . لاتتدافعوا !

والبحارة يجذبون بقوة من كان في متناول أيديهم من الركاب ، ويمدون الاذرع للاخرين .. والهرج الذى عم فوقى لم يكن شيئا بالنسبة لما شملني من اضطراب وخوف ، وانا متعلق بطرف السقالة ..

وفجاة غاص الحوت في الماء فاثار موجة اهتزت لها السفينة ، ودار الماء من حولى في دوامة انتزعتنى مــن فوق السقالة ، ورمت السقالة نفسـها مسـافة ، واحسست بالموج يجرفنى ويغمرنى ويبرزنى ، وحـولى رجال يصارعون الماء على مقربة منى .. أشفقت عليهم وخفت منهم ، حيث أعلم أن الغريق يغرق من يقترب منه مالم يكن أقوى منه ساعدا . وسـمعت القبطـان يهتف :

ــ الحبال للغرقى ..

فانهالت اطراف الحبال من سطح السـفينة وارتطمت بالماء وقد تعلقت بها علامات طافية ، فمن كان على مقربة

من احدها تعلق به ، وجذبه الملاحون ..

رميت بذراعي ابعد ما استطيع ، فغاص طرف الحبل الذي قصدته وغاب في الماء ، وانجرفت علامته الطافية مبتعدة ..

تعلقت حياتي بذراعي ، وقد اصابهما مس من جنون فافلتا من سيطرتي تماما وصارا يضربان الماء بهـــوس استغربته واخافني فوق فزعي اذ ارى اني ابتعد بسرعة ، مع كل مايبذله ذراعاي من جهد ، عن السفينة !

في لمحة خاطفة رايت رجلا يصارع الموج مثلي على بعد فرسخ مني ، فهالني ان الماء يدفعني بعيدا .. وتناهى الى سمعي من فوق سطح السفينة صياح القبطان وصيحات البحارة تردد خلفه اوامره :

ـ الناظور مكانك . الدفة الى اليمين درجة .. درجة .. درجة ..

وصوته يذوب .. والسفينة بشراعيها الممتلئين بالهواء تدور دورة كاملة ، تبحث عني وعن الفريق الاخر .. فعلمت من وجودي خارج منحنى الدائرة ان تيار الماء كان اسرع من محاولات انقاذي ، وعدمت الامل في نجاتي .

نظرت نظرة ملؤها الحسرة الى السفينة البعيدة وهي تواصل الدوران في دائرة مكتملة ، انا خارجهـــا .. وصيحات القبطان والبحارة تخفت وتبتعد مع املي الذي يتلاشى .. ولاول مرة في حياتي امتلأت اذناي فجـــأة بالصمت المطبق !

اخافني فوق خوفي .. ووهنت قواي .

وايقنت بالهلاك ..

تذكرت جابر والدراويش ..

تذكرت جثة الغريق فى ماء البصرة ..

تذكرت آلامى وعذاباتى التى دفعتنى لركوب البحر .. واصحابى وندمائى الذين تسابقوا يتسقطون كل ما احببته فى حياتى من متاعى بالثمن البخس ..

تذكرت حياة واسعد الحريرى قد اشتراها آخر الامر .. واقتادها دامعة العينين ..

تذكرت لصوص السوق الذين سرقوا دراهمى فى ساحة المسجد ، ومالحقنى من أهل الناحية من اهانات وضرب ..

ولعنت كل هؤلاء ..

الا أن برودة الماء سرت فى دماغى ، او لعل الاحساس بدنو الاجل هو الذى اغرق مشاعرى فى برده .. فالفيت سخطى يتراخى وغضبى يتخلى عنى ..

كانت تسرى من حلقى الى صدرى حسرة باردة مستسلمة ..

واقوى ماكان يستبد بخاطرى فى تلك الساعة ، ويستحوذ على فكرى هو أن تدبيرى كان قاتلى .

سوء تقديرى للعواقب هو الذى رمانى فى مهاوى الفشل والخسران منذ مات أبى حتى هذه اللحظة الرهيبة .

شعرت بصغر نفسى وانا أتذكر لهفتى وانكبابى على الملذات ، ولا مبالاتى وانا اغرق فى الديون . وحماقاتى كلها ..

تمنيت ساعتها لو اني كنت صـــادفت في ايامي مايزجرني ليوجعني ، فأفيق قبل فوات الاوان .

تمنيت لو كان الحظ واتاني مرة بمثل ضربة على الراس تنتشلني من غفلتي ومن غيبتي ..:

ضربة على الراس !!

احسست بها مرة اخرى ، فارتعد جسدي من الروع حيث حسبت ان الجنون والهلوسة قد سبقا المـــوت والهلاك الي ..

الا ان ضربة اخرى علي الراس جعلتني التفت موجها مغضبا ..

فرايت السقالة !

سقالة السفينة يدفعها الموج لتضربني من جديد علي الراس ..

فتحت ذراعي واستقبلتها بالاحضان وهي تقتحـــم ضلوعي ! .

جرفها البحر او القدر لي ، فلقيتها بدمع ينهمر من الفرح ، وبقلب يخفق لاعز حبيب !

ارتقيتها بعد عناء ، ونظرت حولي فاذا دائرة الافـــق مكتملة وقد اختفت السفينة تماما .

ارتخت اعضائي تحت وطأة الانهاك فاغمضت عيني . لعلي نمت فايقظتني برودة الماء ..

فتحت عيني هلعا فوجدتني سقطت في البحر والسقالة تبتعد عني في عتمة المساء . ضربت المـــاء بجنون حتى

ادركتها وارتقيتها وتشبثت بهـــا وانا اقاوم ارتخاء جفنونى ..

حاولت الصراخ او الغناء او الجهر بالحديث ، لاطرد النوم .. فما سمعت صوتى .

اقسمت لنفسى الا انام وشددت ذراعى على السقالة بقوة المستميت .

ولكنى فكرت ان ذلك كله لن ينفعنى ، والسقالة ان فقدتها سأفقد حياتى .

وضعت يدى على راسي أتحسس عمامتى فوجدتهـا محلولة الا انها ماتزال متعلقة بكتفى ، فجذبتها وكانت من قماش طويل فرقدت على السقالة ولففتها حولى وحول الخشب وعقدت طرفيها عقدة مزدوجة فاطمأن بالى قليلا واخذت اجدف بذراعى لانشط نفسى .

ومع ذلك لاشك انى نمت على رغمى .

لا اعرف كم من الزمن ..

ما شعرت الا بهزة كادت تخلعنى من فوق السقالة .. فصحوت ووجدت سفينتى الصغيرة قد ارتطمت بالصخر فى المياه الضحلة .

رفعت بصرى فامتلأت نفسى برؤية الاشجار والاطيار على ارض خضراء ..

حللت وثاقى وجريت الى الشاطىء فارتميت على رمله وحشائشه وتلذذت بلسعة حرارته على جلدى . خيـل لى انى اصيح : نجوت ! نجانى الله ! لم يغرقنى البحر !. غير انى ان كنت صحت فلعل صوتى اغرقه امتلاء اذنى

بمهرجان الاقازيد في السماء وحفيف النسيم في غصون الشجر ..

تفقدت اعضائي فوجدت ساقي وذراعي غارقة في دمي وقد غطتها الخدوش فعلمت أن أسماك البحر حاولت اكلي ولعل الذي صدها انتفاض جسدي او مقاومتي على غير وعي مني ..

تحت ظل شجرة سقطت ، وشعرت بثقل اجفاني المتمددت ، وسرعان ماعدت الى السبات العميق .

***

صحوت لارى سماء ساطعة الضياء ، وسحبا خفيفة تدفعها يد الريح الحانية ، وقمم الاشجار ..

اجتهدت ان اتذكر : اين أنا ؟.. وكيف جئت الى هنا ؟ ..

فلما انتظمت ذكرياتي احسست بالجوع والظمأ ، وبالضيق من ملابسي .. فقمت وخلعتها ، وتلفت حولي فرأيت أشجار جوز الهند ففرحت . جوز الهند طعام وشراب .. ولكن كيف السبيل الى ثماره العالية ؟

التقطت حصاة كبيرة من الارض ، واحتشدت ورميتها عاليا فقصرت عن ادراك الثمار .. ولكن انهالت على ثمار كثيرة من كل الاشجار حولي فانبطحت على بطني وحميت راسي بذراعي ولمحت من موضعي عشرات القرود في أغصان الشجر تتقافز هنا وهناك وقد استخفها فعلي حينئذ قذفت الحجر فصارت تقذفني بجوز الهند جزافا وتتصايح في مرح .

فلما توقفت القذائف رفعت رأسي وقلت :
شكراً يارفاقي !
نزلت القردة من فوق الشجر واحاطت بي ترقبني وتنتظر ما افعل :
تناولت ثمرة وشممتها ووضعت خرقها على فمي وانسالت عصارتها في جوفي فكانت الذ ماشربت في حياتي .
تناولت ثمرة أخرى اشمها فاذا القرود تتناول الثمار مثلي وتشمها وتضعها على أفواهها وتشرب كما أشرب ، وتأكل كما آكل ، وهي ترقبني وتقلدني ثم تتصايح في طرب .
أكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ..
وهم بعد ما أكلوا وشربوا صاروا يتقافزون في مرح ويتخاطفون الثمار من بعضهم البعض ويتقاذفونها وانا اتقي أن يصيبوني بهلدرهم .. ثم يتاملونني وانا اتاملهم ، حتى غلبني الضحك منهم واستلقيت على الأرض فزادهم مرحي مرحا وطربا واحاطوني كأطفال تلعب ، وشاغبوني بالايدى فأخذتهم بين احضاني العب معهم وقد تدفق حناني .. فما كان الطف وارق استقبالهم لي !
أكلت وارتويت وأتنسست برفاقي ففكرت انى ربما قضيت حياتي هنا ، فعلى أن استطلع اين أنا .
مشيت يمنة ويسرة اتفقد المكان ، واتخير المواقع المرتفعة لانظر حول المنطقة .. والقرود من حولي ، تتطلع مثلي ، وتظلل عيونها بأيديها أن فعلت ، وتتبعني أن مشيت ، وتتصايح مرحا أن فاجأتها بالنظر اليها ..

رايت بهاء تلك الجزيرة وثرائها الاخضر الباذخ ، وملأني السرور باشجارها الفارهة المتوازنة وغصونها المتعة والوانها المتفجرة واطيارها الشادية وسمائها الساطعة وبحرها الهادىء الملتف حولها ، وينابيعها العذبة النابعة من الصخر ..

قلت : هذه صورة من الجنة التي وعد الله بهـا المؤمنين ، فهل باذن الله ان اقضي بقية حياتي في هـذا النعيم عوضا عما لقيته من شقاء وعنت في بلادي ؟

ركعت على ركبتي شكراً لله الذي وهبني دون شريك ، هذه الجنة الصغيرة الممتدة .

وقلت : ان كان الله قد خصني بهذا النعيم فعلى ان اصنع كل ما استطيع لتيسير مقامي به .

اول ما فكرت في صنعه بيت يقيني المطر والحـر والبرد ..

صرت انتقي الاغصان الضعيفة وانتزعها من اشجارها .. فما راعني الا نهوض القرود من حولي

يفعلون مثل ما افعل بذكاء واهتمام .

حملت الاغصان على ذراعي ، والقردة من حولي تحمل اغصانها ، وتخيرت مكانا على الشاطىء واسعا ومنبسطا وضعت فيه حملي ، ووضع القرود احمالهم ..

شرعت في بناء الكوخ وتثبيت اركانه بفروع قوية ، ثم ملء الفراغات بالاغصان الاخرى ، وربط أوصاله بالفروع الرفيعة .. والقرود تناولني ما اشير اليـه ، وتشد معي ما اشده ، وتزاحمني فيما أفعله .. ثم يأخذها الطرب فتتقافز متصايحة وتعوقني فانهـرها

وادفعها ؟ لتدفعني .. ثم نعود الى العمل .

قام الكوخ بعد حين ..

فجمعت ملابسي من هنا وهناك وقصدت اقرب نبع ماء وصرت اغسلها جيدا ، والقرود تزاحمني فاعطي بعضها قطعا من ملابسي فتنفعل مثلي ، ثم تتنازع الملابس فاضطر للتدخل لاستنقاذها من ايديهم قبل ان تتمزق .

نشرت ملابسي واستحممت فلما جفت لبستها وجمعت ثماراً والقرود يساعدونني ويفعلون مثلي .. فلما آذنت الشمس بالغروب تعشيت وتعشت قرودي وجمعت بعض الحطب وجلست على باب بيتي وجلست القرود من حولي ينتظرون .

اخذت حجرين واعددت مكان النار وضربت الحجرين التمس الشرر والقرود بيديها احجار مثلي تريد ان تفعل كما افعل .. فما ضربت أحجارها وطق منها الشرر .. رمت الاحجار وقد أخذها الهلع وجرت هنا وهناك وانا أنفخ ناري وأتقرب من دفئها .

عادت القرود بعد ان هدأ روعها لتحيط بي مبتعدة عن النار قدر مايمليه عليها الحذر وتهمهم وتنظر الى في عجب . قلت لها:

ـ مرحبا بكم في داري يا أصدقائي وندمائي واضيافي هل تحبون ان أروي لكم قصة ام اغني لكم أغنية ؟

فأجابوني بصيحات التلطف والموافقة .

***

الفصل الرابع :

جزيرة القرود

لم أعد امشي أو اقعد الا في هالة من رفاقي واصحابي القرود .. او أشرع في عمل الا رافقوني وساعدوني بمحاكاة ما افعل .

بل لقد لاحظت القرود عاداتي فكانوا يسبقونني بفطنتهم الى الموضع الذي أقصده ..

عرفوا ما استطيب من الثمار وما احب فكانوا ينتشرون في الغابة ويتنقلون مسافات فوق فروع الاشجار ليأتوني بما احب .. فاضحك ويضحكون ، أداعبهم ويداعبونني ..

انتظمت جلساتنا آخر النهار أمام كوخي .. اغني لهم فيتمايلون مثلما اتمايل ، ويهمهمون استحسانا ومصاحبة ويتصايحون أن رفعت عقيرتي بلحن قوي .

بل صرت احكي لهم القصص .. فيصفقون ، ثم يهمهمون ويتبعون اشارتي بالسكون أو بالهرج .

عجبت انى أعيش في هذه البقعة النائية عن بلادي ومن ديار اهلي وعشيرتي ، مع كل هذا الجمع الحاشد ممن يوافقونني ولا يخالفونني او يعترضونني او يكيدون لي أو يضمرون لي شرا ..

واعجب منه ان ارى بعيني رأسي كل ما افعله يتردد

ويتكرر وتحاكيه القرود كان الله قد زاد لى فى جزيرتى مرايا فى كل موقع انظر فيه .. تعكس صورة نفسى وتردد ما اريد وتحاكى ما افعل وتكوره على مدى النظـــر بلا نهاية وبغير حساب ..

وهل اعلم ان فى الدنيا سلطانا او ملكا يطمع الا فى بعض ما انعم به من هذا الوفاق والتاييد الوثيق !

واعجب منه ان المماثلة والمحاكاة والموافقة وتكرار افعالى كانت تزج فى نفسى مسرة متدافعة فيغلبنى الضـــحك ويستحوذ على مرح تنفجر ينابيعه من حيث لا اعلم فى مكامن نفسى ،وفى اعماق سريرتى وضـــميرى ! .. فيهترون لضحكى ويتقافزون مرحـين لمـرحى فازداد ضحكا ومرحا واستلقى على ظهرى فيستلقون ويتصايحون حتى استرد انفاسى .

اما ما تفجر بنفسى من حب لقرودى فكان شيئا لم اعهده قط فى حياتى ، وكان تلك القرود اللطيفة أطفال كثيرون فتحوا بقلبى ينابيع أبوة متفجرة لا يعلم الا الله كيف كان ينطوى على زخمها قلب رجل واحد !

الا أن النفس لم تبرأ تماما من القلق ..

فبعد أن اطمأن لى المقام بالجزيرة ، وصنعت أدواتى وغنيت كل ما احفظه من اغان ، ورويت كل ماتعيه الذاكرة من قصص ، واكلت كل مالذ وطاب لى من ثمار الجزيرة ، ولاعبت قرودى كل ماأسعفتنى به فطنتى من العاب .. كانت تعاودنى ذكرياتى فى نوبات مفاجئة بلا أسباب أو مقدمات ، فاستغرب كيف يعاودنى الشـعور الجـارف بالضــيق أو بالغضب أو بالحنــق او بالحســرة

او بالحنين لاشياء ماتت فى حياتى . واتذكرها على رغمى فتنفعل بها نفسي بلا ضرورة ..

فضلاً عن أن القلق كان يساورنى من تدفق مشـاعر المرح بنفسى ، وذلك الحب الجارف المتفجر لقرودى .. كنت أخشى من عمق تدفقهما وقوة امتلاكهما لنفسى أن بعض الهوس ربما يخالطهما ..

ثم انكر على نفسى مايعتريها من القلق .. واعزو هذا القلق الذى ينتابنى فى لحظات هنائى وسعادتى ومرحى الى بقايا امراض الروحية ألتى أصابتنى بها الملمات فى بلادى وما تكبنى به الزمان من مفاجآت أليمة .

*****

كنت قاعدا امام كوخى اغنى لرفاقى ، وقد تحلقوا بى يتمايلون ويهمهمون ، وانا فى اهنأ حال ..

وفجاة .. رايت فى عرض البحر سفينة !

واندفعت ناحية البحر كالمجنون ، والقرود تتبعنى قفزت مخلوعا أصيح : « سفينة ! »

وتصايح من حولى غير فاهمة .

صرت أصيح والوح بذراعى :

ـ يا اهل الله !.. هو هو هوهو ..

والقرود تصرخ من حولى ، وصوتها أحد من صوتى ، غرقت فيه صيحاتى .. فأخذت أدفعهم عنى وازجرهم :

ـ اسكتوا ، لا تصرخوا . سيظنوننا من وحوش الغابة دعونى أصرخ وحدى .. يا اهل الله ، هوهوهوهو .

فما اجدى مع القرود زجر .. فاندفعت أخوض الماء

مبتعداً عنهم والوح بذراعي بجنون .. فلما هالني الا امساك القرود بي ، وتصايحهم وتشبثهم بأعضائي وملابسي مشفقين على من الغرق ، وانا اتملص من أيديهم واضربهم جزافا واواصل الصياح :

ـ أدركوني يا اهل الله .. هوهوهوهو ..

والقرود يتصايحون من حولي لتطغى أصواتهم فوق صوتي ، ويقيدون ذراعي ويخفون جسـمي وملابسي بتزاحمهم لانقاذي !

ابتعدت السفينة .. لم يرني أحد ولم يسمع صياحي احد ، وانا مازلت أدفع القرود واتوسل اليهم واسبهم واتملص منهم .. حتى انقطع أملي في النجاة ، فاندفعت الى الشاطيء كالمطعون اترف رجائي ذاته .. واتكفأت ابكي وأمرغ وجهي في الرمال ..

أحاطتني القرود مهمهمة غير فاهمة ، تلامسني بايديها في تلطف ، وبعضها يتقافز متهللا لنجاتي من البحر !

تمالكت جأشي ونظرت الى القرود في عجب .. وهي تنظر الى في عجب ، وقلت لها :

ـ لا تعرفون ما أنا فيه .. واعجبه اني مالقيت منكم غير الخير ، ومع ذلك أشتاق الى لؤم الناس ، وقسوة البشر .. فويلي من شوقي لاهل الجحود ، وويلي من جحودي اياكم !

***

علمت مما وقع ذلك اليوم مني أني مللت حياتي على الجزيرة .. واشتقت لما هربت منه في دنيا الناس ..

بعد ايام .. كنت فى مجلسى أمام كوخى وقد تحلق بى أصدقائي ينتظرون أن أسامرهم .. فرأيت «حياة» .. تبدت لى فى كامل زينتها بين العازفين تغنى بصوت ملأ الفضاء كله لحنا اثيرا ندي :

قفى ودعينا ياسعاد بنظرة
فقد حان منا يا سعاد رحيل
فياجنة الدنيا وياغاية المنى
وياسؤل نفسى هل اليك سبيل

صحت من الطرب والوجد .. وأنا أشق جيبى ؟ وتجاوبت الصيحات من حولي وكان لها جرس منكر هذه المرة .. مزق الوهم فجاة ، فاذا أنا ارى بعيني تلك القرود من حولى تتقافز كالشياطين !

استبد بى الجزع حتى غشى على ، فلما أفقت بكيت ايامى وتفجعت لضياعى فى هذا المكون السحيق ، وتمنيت لو عدت الى بلادى شحاذا فقيراً تزجره الشرطة !

فى الصباح تذكرت ماحدث لى فتحيرت من أمرى وخفت الجنون ، ولكنى قعدت احدث نفسى ..

انا وحيد !

احس بوحشة وبوحدة وبعزلة تمزق نفسي وتعتصر فؤادى ..

كل ما انا فيه من هناء ، كل ماحولى من نعيم وسلام .. لم يملأ فراغ نفسى أو يغلب شعورى بالانقطاع والضياع ..

ان شيئا مما انعم به غير قادر ان يملأ حياتى أو يملأ

فراغ قلبى .

هذا هو مصدر ما كان ينتابنى من قلق وسبب ماكانت تدهمنى به الذكريات .

انا وحيد ..

كل حديثى وافكارى وخواطرى تجرى فى اتجـــاه واحد ..

لا احد يحدثنى او يجيبنى أن سألت ، او يجادلنى أن تحدثت ..

الطبيعة من حولى لا تتبادل معى اى حوار .

لم استطع ان ارتبط بها بعلاقة ولا هى تسعى لترتبط بى ..

لا يعنيها امرى ولا تخصنى بلفتة واحدة !

لا تعرف الكراهية لانها لا تعرف الحب ..

لا تعرف التواصل لانها لا تعرف الحاجة !

حتى رفاقى من القرود ينظرون الى بالعيون كما انظر اليهم بالعينين .. ولكنهم فى الواقع لا يروننى ولا يفهمون ما انا فيه ، وربما لا يعلمون حتى بوجودى .

تتدفق تصرفاتهم نحوى باعتبـــارى شىء كمــا هم اشياء بالنسبة لى ، يفترضون أنى منهم ، ولست منهم ولا استطيع أن اكون ..

الطبيعة من حولى منقطعة عنى قمم متواصلة ، وتحيطنى بجـــدار رصـــين مصمت وصامت رغم صخبه ... وانا فى داخل هذا الجدار المحيط رهين السجن الانفرادى الموحش .

الاشجار كالقرود والينابيع الجارية والطيور في السماء تتحرك من حولي .. الا ان حركتها لا تلوى على شيء ، ليس لها غاية او هدف تستهدفه ، وتكرر نفسها ويكرر بعضها البعض بلا غرض .. فحركتها في واقع الامـــر سكون ، وصخبها في جوهره صمت ، واسترسالها في تماثله ولا غائيته ليس الا غباء مطبق !

وانا في هذا الكون الصامت الساكن ، الصـــاخب المتحرك في الظاهر .. وحيد ومنقطع بنفسي البشرية التي جبلت على غائية المسعي وبنـــاء الهـوى وتقلب الاشواق وتغير المزاج وتراكم الاطماع والداب والجنون .

اقول لنفسي .. الانسان ليس ابن الطبيعة . الانسان اجتماعي وحضري ، بينما الطبيعة لا تعرف من الـوان الاجتماع غير اجتماع القطيع .. واجتماع القطيع جوهره التماثل والتكرار وهو مايضجرني ويضنيني بالملل الذى يكاد يزهق روحي .

الانسان يكره روح القطيع ، ولا يرى حياة او حيوية الا في المخالفة والمعارضة والمغايرة .. ايقوم الحفر الا على التكامل المتنوع وجوهره اختلاف الحرف وتفـرق الاهواء وتقاطع المصالح ، كما يقوم الكلام على منطـــق اختلاف الراي ..

لا يعزى الانسان الا الانسان ..
ولا يسلي الانسان الا الانسان ..
ولا يحيي الانسان الا الانسان ..

فكيف بي لو اطال الله عمري فوق هذه الجزيرة وعشت

خمسين عاما او ستين عاما هنا .. اياما متشابهة متكررة طويلة كثيرة .. قطيعا لا آخر له من الايام لا يميز احدها عن الاخرين شيء ؟!

افزعني هذا الخاطر فحزمت امري على ان افر من هذه الجزيرة ، ان افر من وحدتي ومن وحشتي ومن جحيم تكرار ايامي .. وان اسعى الى بلاد الناس ، وان كان في ذلك هلاكي !

في الصباح لبست كل ملابسي . ودعت كوخي ونظرت مليا الى رفاقي القرود واختلطت مشاعري وكان قلبي ثقيلا ...

قررت ان ابلغ الطرف القصي للجزيرة وانظر من هناك ان كان ثمة طريق لخلاصي .

مشيت والقرود من حولي ومن خلفي ومن فوقي تتنقل على الاغصان العالية .. يتبعونني ويرافقونني ويسبقونني ..

اخترقنا الغابة ، وعبرنا الجداول ، وارتقينا التلال وانحدرنا في الوديان ..

ارتفعت الشمس الى السماء حتى تصببت عرقا ؛ فحللت عمامتي وادرتها حول وسطي ..

ثم مالت الشمس فاكلت واكلت اصحابي من ثمار الغابة ، واستقبلنا النسمات الرطبة التي انعشت عزمي على بلوغ غايتي ..

وفجاة ، رايت من فوق كل مرتفع ذلك الشيء العجيب ..

قبة بيضاء ملساء عملاقة وسط الحشائش .

كلما اقتربت منها تزداد ضخامة فى عينى .. حتى خلت أن قطرها لا يقل عن عرض سفينة صغيرة .

توقفت القرود واجمة واحجمت عن الاقتراب ، فلما استانفت سيرى سارعت الى ممانعتى وصدى .

مم يخافون ؟!

درت حولها من بعيد ، والقرود يمنعوننى ، فلم أر فيها منفذا او بابا ..

ولكن فجاة .. اظلمت السماء وعصفت الريح وصكت اذنى صرخة رمتنى على الارض ، بينما فرت القرود بين الاشجار وهى تصيح :

نظرت الى السماء ، فما راعنى الا رخ هائل يصفق بجناحيه وقد حجب نور الشمس ، ويهبط متهاديا ليستقر فوق القبة البيضاء .. ففطنت الى انها بيضته ، وأنه قد آب الى عشه آخر النهار .

ضم الطائر العملاق جناحيه وتراخى وهدأ ..

قفز الى ذهنى خاطر جنونى .

اندفعت نحو الرخ فما استطاعت القردة ان توقفنى أو أن تلاحقنى ، وأخرسها الخوف فلم ترد عن همهمة واجفة خائفة ..

ارتقيت اصبع الرخ ودسست راسى فى الزغب المحيط برجله وتحسست النتوءات بين الاصابع حتى وجدت موضعا لجسمى فيها ، فحللت عمامتى واوثقت جسدى باصبع الرخ ، وتمنيت على الله أن يطير العملاق بى الى موضع يكون طريقى الى بلادى .

قضيت الليل يقظا اسمع نداءات خافتسة ترسلها القردة ، مغموسة في اللوعة والحسرة .. الا انني فكرت أن مخيلتي ربما هي التي أضفت عليها هذا الجسرس الحزين ، وعزوت ذلك الى خوفي انا مما قد يصيبني .. فاني اعلم ان القردة قد نسيتني وستعود الى سيرتها الاولى بمجرد ان اغادر الجزيرة . الطبيعة لا ذاكرة لها .

انتزعتني من خواطرى حركة مفاجئة كادت تخلع اعضائي ، فاذا انا في الجو .. وصرخة الرخ تشق أجواز الفضاء .. والجزيرة كلها بما فيها من اشجار وقرود وجداول وتلال تتضاءل بسرعة خاطفة وتنجرف مبتعدة في المسافات السحيقة .

الريش ينشره على وجهي الهواء فيملأ انفاسي برائحته النفاذة ولونه الداكن .

تشبثت بموضعي والريح تكاد تخلعني ..

نظرت من حولي .. سماء فوقها سماء ، ومن تحتي البحر يتسع اتساعا كلما شق الرخ الفضاء ..

داهمنا فجاة جبل شاهق ، ارتفع فوقه الرخ حتى رايت سنه المدبب ..

ثم انحدرنا في واد سحيق ..

رايت الارض تنطلق نحوى بسرعة خاطفة كاني اسقط من حالق ، فادركت ان الرخ يتهيأ للهبوط ..

اعددت ذهني للحظة الخطيرة .. ولكن وهجا بهر بصري ، وتعاكست البروق فاعمتني عن الرؤية ، ولمحت بين ومضات البريق العجيب راس أفعى كاشرة تقترب ، فقدرت انها ربما كانت مقصد الرخ وخفت لقاءهما المميت

وأنا بينهما ، وقدرت أن ذلك اللقاء المخوف سيتم على الارض التي لا ارى لها معالم فتهيات لفك رباطي والفوز بنفسي منهما معا .. فما ان دفع الرخ راسه نحو عنق الافعى ودقمت الافعى انيابها نحو رأس الرخ ، حللت الرباط ورميت بنفسي فارتطمت بأحجار أوجعتني وانقلبت لارى الافعى العملاقة في منقار الرخ تتلوى بعنف وهو صاعد بها في اجواز الفضاء ..

تحسست الحجر من حولي ، مايزال برقه يخطف بصري فدق قلبي بعنف وهتفت :

ـ ماس ! .. الماس !.. وادي الماس !..

جمعت في كفي حفان من الحصوات الصغيرة فارتعد جسدي كله من الهلع حيث اني علمت مما يتواتر من الاحاديث اني ان كنت حقا بوادي الماس فهنا تسكن اشرس الافاعي واضخمها ، وان الوادي ليس الا حفرة في جبل لا سبيل الى الدخول اليها او الخروج منها ..

تلفت حوالي .. لا اسمع غير خشخشات وفحيح الافاعي ، ولا ارى شيئا يتحرك غيرها ، فجمدت جمود الحجر ، حيث اعلم أن الافاعي لا تهاجم الا مايتحرك ، وحبست انفاسي في ذلك المكان ارقب من حولي تلك الوحوش الضارية العملاقة في حركتها الكسول بين برق الماس الخاطف ..

أنا المفلس الضائع ، رماني قدري الساخر الطائش فوق هذه الثروة الطائلة ، في ذلك الوادي المهلك ليتخاطفني الهلع والعجب من نفسي ومن العالم .

تلفت حولي بحذر ، ورايت احاطة الجدار الصخري

بالجب الذى رمانى فيه الرخ ، بين الماس والافاعى ، ومن أعماقى افلتت صرخة رجعها الوادى السحيق !

ياعبد الله .. الناس تسعى سعى المستميت الى الثروة وتتهالك على المال ، ويضفرون من الثراء والموت أقوالا سائرة .. فيقولون أفوز بالثراء او اهلك دونه ، يقولون اللهم اغننى قبل أن اموت ، يقولون هلكت فى جمع ثروتى ، يقولون المال يحيى لا يميت ، ويقولون الفقر المميت .. ولكن من الناس يتخيل الثروة فى الموت او الموت فى الثروة او الموت والثروة كالشىء الواحد .. بعد طول المسعى : قبر من الماس ؟!

وهل كانت الثروة التى لا مزيد عليها ، والهلاك الماحق الا غاية المسعى وآخر النضال وجائزة النصب والعرق والدموع ونهاية كل دروب الشوك ؟!

وهاقد وصلت ياعبد الله الى الغاية .. حد الخطر والبقعة الحرجة .. قبر الماس ، فاذا انت الساعة اعظم الاثرياء ثراء واشد الهالكين هلاكا ..

فافرح ماشاء لك الفرح ، او اغرق فى الهلع كما ينبغى الهلع ..

لم يصبنى الفرح ولم يغرقنى الهلع ، فى تلك اللحظة الرهيبة ، كما جمدت اعضائى انطفأت نفسى واظلمت روحى واصاب عقلى الشلل ولم أعد أعى الا بعيون جاحظة ثابتة .. برق الماس يتقاطع مع برق عيون الافاعى القاتلة !

كنت كالمغشى عليه .. حين رأيت فجأة شيئا يسقط

من حالق ..

تلفت على رغمي فرأيت قطعة لحم طرى من ذبيحة لا يزال دمها لزجا ..

انقض عليها نسر قوى فشالها من الارض الى الفضاء قبل ان تدركه الحيات ، والماسات التصقت بها للزوجتها وتلمع فى الجو ..

حط النسر على اعلى الصخرة واختفى عن ناظرى فى ضجيج مبهم .

قلت : لا يكون هذا الا من فعل البشر !.

سقطت قطعة لحم اخرى ..

فحزمت امرى على الفور !

اخذت اجمع على عجل بعض حصى الماس فى جيوبى وصدرى .. فما ان سقطت قطعة لحم ثالثة حتى جريت نحوها ورقدت تحتها واوثقتها مع جسدى بعمامتى وقبل ان افرغ من ذلك أفزعنى هجوم النسر فوقى حيث انشب اظافره فى قطعة اللحم ورفعنى ، وغشيت لترنحى فى الجو تحت جسده وهو ينظر فى عينى عجبا ودهشة من عجبى ودهشتى وفزعى .

حط النسر بحمله فوق الصخرة فاذا دوى طبول وضجيج يصم الآذان وصيحات وجلبة جعلت الطير العملاق يجفل ويتراجع ..

وحولى انا والطير عشرات الرماح المصوبة وصيحات الحرب المدوية وهجوم الرجال .. فخفت أن يصيبونى

مع النسر فقفزت واقفا أصيح ..

توقف الرماة برهة ، ثم انقضوا على برماحهم صائحين الشيطان !

فصرخت في وجوههم : لا أله الا الله ! ..

ورفعت ذراعي كالمستسلم ، وسقطت ماسات من ملابسي حولي ، وطار النسر ناجيا بنفسه من بيننا .

الفصل الخامس :

الظمأ

ـ خذوا مامعى ولا تقتلونى !

صرخت ، وافرغت جيوبى ونثرت تحت اعينهم ماساتى .. فتوقفوا عن الهجوم مشدوهين .. وقال كبيرهم بلسان عربى :

ـ من تكون ايها الشيطان ؟!

ـ لست شيطانا ولا عفريتا . انا تاجر عربى قادم من البصرة .

تصايحوا بلسانهم بينما قال كبيرهم :

ـ تاجر ؟.. وعربى ؟.. من البصرة ؟!.. فكيف وصلت هنا ؟

ـ حملنى الطير وانا متعلق بقطعة اللحم التي رميتموها فى وادى الماس .

ـ وكيف وصلت الى وادى الماس وليس له مدخل او مخرج ؟

ـ تعلقت باصبع الرخ الذى سافر بى في الجو .. ولما هبط الى وادى الماس ليلتقط احد الثعابين خفت من لقائهما فانفلت منه الى الارض .

ـ واين عثرت على الرخ وكيف تعلقت باصبعه ؟

ـ وجدته فى جزيرة القرود ..

ــ وكيف وصلت الى جزيرة القرود ؟

ــ سقطت من سفينة عربية ونجاني الله من الغرق حيث كان فى العمر بقية فرمانى تيار البحـــر على الجزيرة .

همهم الجميع غير مصدقين ، وقال كبيرهم :

ــ شيء يصعب تصديقه . أما لسانه فعربى ، ولكن سفره اربع سفرات مستحيلة ونجاته من الموت اربـــع مرات .. فى جملة عربية واحدة ، لا يستقيم فى النحو او فى الصرف كما يقولون فى لغتهم ، فضلا عن نجـاته من وادى الماس الذى لم نعلم ان احدا سقط فيه ونجا من افتراس الافاعى . فتشوه .

تقدم الى تفتيشى ثلاثة رجالٍ فما وجدوا على جسدى غير الماسات .

قالوا بلسانهم : ليس معه سلاح .

فتنهد كبيرهم وقال : وهو اعجب مافى قصـــته . ما اسمكَ ؟

ــ عبد الله بن عثمان . انا تاجر عربى من بغداد . كنت مسافرا بتجارة فى البحر وغرقت ، فنجانى الله ..

وتخافتت الاصوات من حولى وشعرت ان القـــوم يتمايلون بغرابة ، وسألنى صوت بعيد غريب :

ــ مابكَ ؟

فوجدتنى على ركبتى خائر القوى متهالكا اقولُ :

ــ الجوع والظمأ والخوف ..

ثم غبت عن الدنيا .

افقت فألفيت نفسي راقدا في فراش وثير ، بخيمة هندية باذخة .. فأول ما احسست به ملامسة جسدى لحرير الفراش فتقلبت عليه ملتذا .

اكلت وشربت .. والهنود يتطلفون بى ، فلما شعرت بارتداد روحى أعدوا لى حماما ساخنا واستعرت موسى لاحلق لحيتى التى طالت مع الايام . فلما رأونى حليقا وهم جميعا ملتحون ضاروا يتفكهون معي ..

فى المساء قعد معي كبيرهم يسامرنى بعد العشاء ، فعلمت منه انهم جماعة من تجار الهند يأتون الى وادى الماس فيذبحون الشاة ويقطعون لحمها ويلقونه طريا فى الوادي ليلتصق به حصى الماس وتاتى النسور فتلتقطه وتحمله الى الجبل حتى تاكله بمنأى عن خطر الافاعى .. فيهجم التجار على النسور حتى تجفل وتترك فريستها بما فيها من ماس .. فيحملونه الى مدينتهم ..

ــ غداً نرحل ونعود الى بلادنا ونقدمك للملك وتحكى له حكايتك وشترى منه الخير .

فى الغد حملت ماساتى وركبت فرسا مثل فرس كبيرهم وتبعتنا البغال بالاحمال وقضينا أياما فى السفر نشق طريقا وعرا فى الجبل وبين شقوق الصخر .. اما ليالينا فقضيناها فى الخيام والسمر ..

فلما انقضت بضعة ايام اشرفنا على المدينة من الجبل واشار كبيرهم بأصبعه .. فرأيت المدينة بيضاء يتوسطها قصر تتفرع من حوله الشوارع الفسيحة والساحات الواسعة .

ولكن استغرق طريقنا اليها اياما اخرى ، فلما ادركنا الوادي لحظت ان بقاعه مجرى نهر كبير ، الا انه جاف تماما ، وقد تشققت ارضه فاصابتني وحشة وداخلني خوف .

قال كبيرهم :

ـ لم تمطر السماء هذا العام فوق الجبال العالية فجف النهر وقتلت ملوحة الارض البذور .. سترى مدينة عامرة مشيدة .. عليها سمات الثراء ، الا انها هالكة من الجوع .

توقفنا بعد عبور النهر الجاف امام سيل من البشر النازحين من النواحي لا تكاد تسترهم ملابس ، ويحملون اليسير من المتاع ، متجهين مثلنا صوب المدينة .

سالت صاحبي : اين هم ذاهبون ؟

قال : اما اثرياء الريف فقد اغلقوا بيوتهم من دونهم . وعندهم ما خزنوه من طعام وماء ، واما هؤلاء الفلاحين الفقراء ، بعد ان ماتت الزراعة ، فهم يسعون الى المدينة التماسا للصدقات . ووجودهم بها شر مستطير لا يعرف عاقبته غير الآلهة .. وسترى منهم من يحتضرون في الطرقات وقد فقدوا القدرة على الحركة .. نجانا الله ممن لا يزال به رمق !

وباشارة من كبيرهم اقتحم حراس القافلة جمهور النازحين يضربون الناس بالسياط ويكشرون لهم عن الانياب ويسبونهم .. ليشقوا لنا عنوة طريقا في الزحام .. وجموع النازحين تنفرج ساخطين لاعنين .. لتمر من بينهم قافلتنا المحملة بالثروات .

دخلنا المدينة من بوابة ضخمة عليها حرس ، واخترقنا ساحة البوابة ودلفنا فى طرق ضيقة ومن حولنا تطولنا وتصيبنا اللعنات .. حتى وصلنا الى ساحة القصر ، فتناهى الينا دوى طبول قوية .

ترجل صاحبى وترجلت مثله .. وتقدمنا بين حشد الناس فى الساحة ، ونظرت فرايت موكبا ملكيا غاية فى الغرابة :

فى صدر الموكب فيل مكسو بالذهب والجواهر ، عليه مظلة قوائمها سبائك ذهبية مجفتة بالفضة ومرصعة بالجوهر .. وتحت المظلة على الفيل شيخ مهيب ملتحى .. لا تستر جسده غير اسمال بالية متهرئة لا تصلح الا كسوة لشحاذ !

حول الشحاذ العجيب ، فوق الجياد المطهمة ، المزينة بالمعادن والجواهر حفنة من الرجال فى أسمال الشحاذين !

وحول الكوكبة العجيبة رجال القصر والكبراء فى ملابس مزركشة غالية مكتملة الزينة بعقود الجواهر والخواتم والحلى الثمينة .

وأمامهم وخلفهم وحولهم فرسان الجيش فى الثياب الزاهية ، يرفعون الرايات الملونة فوق الرماح .

وخلفهم جميعا ، وأمامهم فرق من نافخى الابواق وضاربى الطبول فوق صهوات الجياد يحدثون فى الموكب الحاشد جرس الهيبة والنظام ..

وعلى جانبى الطريق احتشدت جموع غفيرة من الناس والفقراء يكررون الركوع والسجود فى حركة منتظمة

ويهتفون بلغتهم :

ـ راجا .. رآجا .. اعطنا الماء .. اعطنا الماء ..

قلت لصاحبي وانا اشير للشحاذ فوق الفيل الذى انعقد له الموكب الجليل : من هو ؟

فدفعني للسجود مع الساجدين وهو يقول : الملك !

فما ملكت من دهشتي الا ان اطل من الزحام اختلس النظر الى رثاثته العجيبة فى المشهد الباذج المفقود واهتف من ذهولى : سبحان الله !

فما أرى الا اصبع الملك يشير نحو عيني ذاتها اشارة قوية ، فخرج فارسان من صف الحرس والتقطاني من بين الحشد كالفرارة ورمياني بأنشوطة حول عنقي ، فتعلق صاحبي بالحبل يريد استخلاصي من الجند فضربه أحد الفارسين بالسوط رماه على وجهه صارخا .. وسحبني الفارس الاخر من عنقي بالحبل كالبهيم ، وانا متعلق بذلك الحبل بيدي اخشى الاختناق ، حتى وصل بي الى فيل الملك فعلق طرف الحبل بحلقة فى السرج ، ومشيت هكذا مع الموكب مرتعد الفرائض وانا فى انكر حال ، تصك اذني صيحات الجماهير تتحشرج بالجوع والعطش، بالشر والحنق ، وبالامتثال المنذر :

ـ راجا .. راجا .. اعطنا الماء ! ..

فما هانت على نفسي وانهمرت دموعي على رغمي من شعوري بالذلة والخوف وقلت : لا حول ولا قوة الا بالله .. كلما نجوت من مصيبة اقع فى أكبر منها ..

وكان أخشى ما اخشاه ان يغشى علي من الالم والحنق

والحزن فيسحلني الفيل ويشنقني الحبل .

***

توقف الموكب أمام المعبد . استقبل الكهنة الملك ودخلوا حوله من الباب الكبير .. والعساكر تتخاطفني وتدفعني الى داخل المبنى من باب ضيق صغير . فالفيت نفسي في غرفة ضيقة رطبة يقف فيها على حراستي جنديان بالسلاح .

راقبتهما بحذر وحيرة ، فنظر الى احدهما وقال بلسان عربي تشوبه عجمة :

ـ ان كان لك حظ تمطر السماء .

قلت : وأي شان لي أنا بمطر السماء ؟

قال : اعلم ان البلاد ظامئة ، وتقام اليوم هنا صلاة للاله سبقا . لهذا جاء الملك المعبد يتوسل للاله في ثياب الشحاذين . وكل رجل غريب يدخل المدينة اليوم يأخذون فالهم عليه .. ان امطرت السماء بعد الصلاة أكرموه ، وان لم تمطر قصوا رقبته . أنت الغريب الذي دخل المدينة اليوم ..

خفق قلبي بشدة وقلت لنفسي :

ـ يارب المقادير .. اي يوم قدرت لي ان ادخل مدينة المجانين !

فلما رآني الجندي أهمهم قال : نعم نعم .. هذا وقت الصلاة ، تمنى على الهك ان تمطر سماؤنا اليوم .

فاشتعل حنقي بوقود اليأس وقلت مجاهرا :

ـ اللهم اهلك هذه البلاد بالظمأ .. حتى يقتل كبيرهم

صغيرهم ، ويفتك صغيرهم بكبيرهم . اللهم اقتلهم بغبائهم ان لم يفتك بهم ظماهم .. فان قتلهم الناس الابرياء بخرافات الفأل والتطير شر لاتعرفه قردة الغابات : ولا يستحقون معه الحياة ! ..

ضربني الحارس على راسي حتى شجها وسال دمي .. فما تحسست راسي ورايت دمي على يدي حتى اشفقت على نفسي وركعت على ركبتي أصلي ، وقلت من خلال دموعي :

ـ ربي . اتمنى عليك أن تعيدني الى بلادي .. فوالله ان لؤم الصحاب وجشع الدائنين أقل خطراً من افاعي وادي الماس ، وان فراق الحبيب اقل الما من فراق الوطن والناس ، وان الاستماع الى حكايات الرخ لا يخلع القلب كركوبه ، والشحاذة في أسواق بغداد اليق بالمرء واسلم من أخذ الفأل عليه وقتله لان السحاب لم يجد بالمطر .. اتمنى عليك اللهم ان ترسل السماء سيولا على هذه البلاد حتى أرى وطني قبل الهلاك وأعيش فيه أفقر الفقراء ..

قيد الجندي يدي خلف ظهري ، وربط القيد بالحبل حول عنقي حتى صرت مكوما كالفرارة ثم دفعني بغلظة فمشيت منحنيا وعبرنا ممرا ضيقا ودخلنا ساحة المعبد حيث أوقفوني في موضع ، فما حملتني ركبتاي ، فقعدت على رغمي اتلفت وجلا .

في صحن المعبد كان تمثال مقام من الذهب الخالص لشخص جالس له عدة أذرع والكهنة يلوحون اليه بالمباخر ذات الرائحة الثقيلة الطيبة ، وقد أوقدت حوله الشموع .

وحول التمثال جمهرة من الناس يطوفون به ملوحين بالاذرع متمايلين يمنة ويسرة وهم ينشدون بلسانهم ، والكهنة يقودون الغناء ويلهجون باسم الههم : سيفا ..

اظنهم كانوا ينشدون ما يعني ان الجفاف وحش يمتص الماء ، وهلاك ينفث الهلاك ..

واثناء الغناء شقت الجمع فتاة مدهونة بدهان أبيض كالملح وهي في أتم زينة وجمال ومدججة بالسلاح ومدرعة بدرع ثقيل .. رقصت رقصة المهاجم ، فتظاهر الناس بالخوف منها والتراجع أمامها .

والملك بين حاشيته في أسماله البالية على منصة خاصة في جانب القاعة .. وفي كامل السلاح .. تقدم الكاهن وخاطب الملك بقوله :

ــ ملكة الملح ظامئة . التهمت الاشجار والرجال . ملكة الملح جائعة ، تطلب المزيد من الزرع والناس ..

فصاح الملك على هيئة التشخيص والايهام :

ــ اطلقوا السهام !

فانهمرت سهام لينة على الفتاة تكسرت على درعها وهي ترقص وتتقيها . فصاح الملك :

ــ أضربوها بالسيوف .

فتكسرت سيوفهم اللينة على درعها ..

وتعالى الانشاد والهرج واشتدت الحمية وانا مذهول مذعور في موضعي ومازال الحبل في عنقي حتى تقدم الكاهن الكبير من الملك وخاطبه قائلا :

ــ ياملك الزمان وسيد العصر والاوان .. لا يهلك الوحش الا بالماء .. أرمه بالماء !

فاخذ الملك من حزامه قارورة بحجم الكف ، وفعلت حاشيته مثله ، ورموا الراقصة بما في القوارير من الماء، فوقعت على الارض بهيئة من يحتضر ، فكانهم قد رموها بالنار او بالصواعق .. بينما تعالي هتاف الجمهور على دق الطبول ، واخلت جموعهم رعدة فصاروا ينشدون ..

ـ مزيدا من الماء ! آخلطوا بالماء الدماء !

فجرجرني الحراس في صحن المعبد ، والراقصة ماتزال تتلوى بهيئة المحتضر ، ورموني جنبها فتقدم الملك وقرا على راسي قوله :

ـ جئتنا آيها الغريب في غير ميعاد ، فان كنت زائر خير فارمها بما جئتنا به من الماء ، وان كنت زائر شؤم فانثر عليها من دمك ما يقتل شؤمها ويعكر بياض ملحها ..

والناس يصيحون معه :

ـ الماء .. الماء ..

ووقف السياف على راسي ينتظر الاشارة من الملك ، فاغمضت عيني وقلت اشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله .. وغبت عن ضجيجهم وعجيجهم لحظة لافكر فيمن بيده الموت والحياة ، فردني الى ما انا فيه صمت مفاجيء ، وانقطاع صياحهم !.. ففتحت عيني فوجدتهم في أماكنهم مبهوتين كان على رءوسهم الطير ، يتطلعون جميعا الى سقف القاعة ، فتطلعت مثلهم فلم ار شيئا .. ولكني سمعت قصفة رعد مدوية من خلال انهمار المطر كالسيل ..

ثم دبت فيهم الحياة فجأة ، وانفرط نظامهم واختلط حابلهم بنابلهم ، وتسابقوا خارجين من الابواب ومـــن الشبابيك وقد استخفهم الطرب فلم يعبـــأوا بالملك او ينظروا له .. وداسوا على جسدى المسجى والذى كانوا قد هياوه للذبح ، وقد اخذت أتملص بين أرجلهم محاولا التخلص مما أنا فيه .. وأنا فى الحقيقة مثلهم أو أشدهم نشوة بالحياة وتخليطا فى الفهم أو فى الوهم !

داهمنى يقين بأن الله ما ارسل المطر لهؤلاء القـــوم المجانين الا لينقذ حياتى من ايديهم المتجنية .. فما أعجب مايتوهم الانسان فى الشدة ، وما اعجب مايتمناه !..

دخل صاحبى يبحث عنى وخلصنى مما انا فيـــه واخذنى من الحراس الى بيته وأرقدنى على فراشـــه وصار يسقينى ويلاطفنى ويهدىء روعى .

***

مرت الايام وصاحبى الهندى يلاطفنى ويفـرجنى على المدينة التى عمها الفرح واستقامت أحوالها وفتحـت أسواقها ...

وفى المساء كان ينادمنى ويعـرفنى الى أصـــدقائه وضيوفه ...

ألا اننى ظللت اجد غرابة ووحشة ويروعنى ما ألم بى بهذه المدينة اللعينة ..

وكنت اعجب ان تلك الوحوش التى كادت تفتك بى ذات يوم على مذبح الخرافة والوهم .. ماهم الا رجال ونساء

على غاية من الدماثة وهدوء الطبع ورقة الحاشية وكرم لمعاملة ..

ولكن ذلك لم يساعدنى على الائتناس بهم ، وزادنى وحشة ونفرة منهم ، ولعل السبب أن المــرء لا يانس المتناقضات ولا يألف الاضداد فى الشىء الواحد او فى الرجل الواحد .

فمع انى خالطتهم وعاملتهم ومازحتهم .. فانى لبثت بينهم قلقا باغترابى يغلبنى الحذر والتحفظ ، والمــرارة مما فعلوا معى .

***

بعد أيام دعانى الملك الى مقابلته .

ذهبنا الى القصر انا وصاحبى الهندى فاكرم الملك استقبالنا وسالنى عن سفرى فحكيت له حكايتى ..

عجب الملك من نجاتى من جميع المخاطر التى تعرضت لها ، ثم قال لى :

ــ يا ابن العرب . لقد اخذنا فالنا عليك وكنا على وشك الفتك بك . ولعلك غاضب منــا لذلك ، ولكننا سنرضيك بما ينسيك أننا روعناك .

ثم صفق بيديه فدخل الخدم بصندوق فتحه الملك امامى فرأيته مليئا بالجواهر والحلى النفيسة بما يقدر بثروة طائلة فلم أملك نفسى من الطرب .

وكل من كان حاضرا من الوزراء والامراء قدم لى بدوره هدية ثمينة .

فوالله ماكنت احسب فى يوم من الايام انى احوز كل

هذه الجواهر والنفائس التى اهديت لى فى تلك الساعة .. فضلا عن الماسات التى جمعتها من وادى الماس اللعين !!

قامت القاعة امامى فى غشاء من دموعى ، وقلت لنفسى وانا جالس هناك : ياعبد الله . . هل آن للحظ أن ينفخ فى ابواقك ، وهل تصدقك الايام المقبلة بمثل ما كذ بتك الايام الماضية ، وهل يطيب عيشى بعد الشقاء وارى بلادى بعد طول السفر ؟ ...

اقتحم الملك على خواطرى بقوله :

ـ يا عبد الله .. كان فى مدينتنا كاتب عربى ولينـاه الميناء .. وقد مات . فهل تحب ان تقوم بالخدمة مكانه ؟

قلت : نعم يامولاى ..

قال : عليك كلما دخلت الميناء سفينة أن تحصى ماعليها من السلع وتستادى اصحابها المكوس حسب القواعد وتعلمنا بذلك . . وقد وهبناك دار العربى ورواتبه . فلعل هذا يجعلك تحب بلادنا وتطيل اقامتك بها حيث أننا استبشرنا بقدومك ونريد ان نستبقيك ونريك من بلادنا مايعجبك ويمتعك .

وصفق الملك بيديه ، وهو يقول :

ـ هل رايت فى حياتك صنعة اليوجيه ؟

قلت : لا يامولاى .

فتقدم الى وسط القاعة رجلان قعدا القرفصاء امامنا يغنيان بصوت خافت عميق ، ثم هتف احدهما فجأة :

ـ ها ...

وصار جسده يرتفع فى الهواء وساقاه منعقدتان كما هما وكأنه قاعد على الهواء بكل راحة .. فلما رايت الفراغ بين جسده وبين الارض يتسع غامت الدنيافى عينى واحسست برعدة سرت فى أوصالى وتباعدت الاصوات فى أذنى ، وادركنى من بعيد صوت الملك يقول : ماذا بك ؟!

نفتحت عينين ثقيلتين ووجدت الناس من حولى ينظرون الى بعجب ؛ فقلت : عذرا ؛ فقد داهمنى ذعر مفاجىء ..

فضحكوا وتراجعوا الى مواقعهم والملك يقول :

ـ عجبا ! انت ركبت اصبع الرخ فى الهواء ، ونزلت وادى الافاعى .. غرقت فى البحر وعاشرت القرود ، ومع ذلك تخلع قلبك حيلة روحية بسيطة كهذه ؟!

قلت : المرء يخاف ما لايعرف ومالا يفهم يامولاى .

قال الملك : واذا كنت ستخاف مالا تعرف فكيف ستواجه مفاجئات الطبيعة وأطوار البشر ، وكيف تواجه مالا تستطيع قياسه بالحواس ومالا بد لك من أن تفحصه بالعقل .. ومع ذلك فالمرء لا يعرف كل شيء ويريد أن يعرف كل شيء ولن يغنيك جهل او معرفة عن ضرورة الشجاعة والثبات للفحص . تذكر يابنى حكمة ملك عجوز اختبر الحياة .

***

انتقلت الى دار العربى فهاجنى الشوق الى بلادى ، وصرت اتنقل بين قاعاتها وأتلمس بيدى زخارف الجدران ووجدت بالدار مصحفا اخذته بين كفى وقبلته معتزا .

ووجدت كتبا عربية قلبتها بشغف ..

كنت اقعد بين الكتب ساعات متصلة اقرأ حروف لغتي ودموعي تنهمر ..

ثم اخرج الى المرفأ اقعد ساعات اخرى وانا أتطلع الى البحر لا يجالسني فيها غير الامل .

الى ان كنت يوما في بيتي اقرأ فسمعت من يصيح : سفينة !

فكنت في الميناء بدفاتري في استقبالها مع جمهرة من التجار والشغالين والفضوليين .

الفصل السادس :

بغداد .. بغداد

وصلت الى مقعدى فى الميناء ودخل على تجـار السفينة فوجدتهم عربا من البصرة فاستبشرت بهـم وقدمت لهم المشروبات واجلست القبطان بجـوارى وانصرفت لعملى ..

اخذ الحمالون يقدمون الى المتاجر ، وانا احصيها واثمن سلعها واقدر مكوسها حتى فرغت من ذلك ، فقدم لى القبطان ثلاثة اكياس ، وضـعها الحمالون امامى وقال القبطان :

ـ سيدى . هذا متجر لراكب كان معنا وغرق فى البحر ، ونريد أن نبيعه ونأخذ ثمنه الى أهله بمدينـة بغداد دار السلام .

نظرت الى الاكياس فما صدقت عينى ..

ـ هذا الراكب ما اسمه ؟

ـ اسمه عبد الله بن عثمان وهو تاجر من بغداد .

حملقت فى القبطان وهتفت :

ـ لا اله الا الله .. كيف لم اعرفك للوهلة الاولى وكيف لم تعرفنى . انظر الى يارس ودقق النظر ، فانى انا عبد الله بن عثمان ..

ازور القبطان وقال : مابقي لاحد ذمة في هذا الزمان ..

قلت : لا تصدقني ؟!

قال : لانك سمعت مني أن صاحب المتجر غرق في البحر .. تريد ان تأخذ ماله بغير حق ؟!

قلت : انظر الى وجهي !

قال دون أن يعبأ بصراخي :

ـ حرام عليك وانت مسلم .. الرجل غرق امام عيوننا فكيف يبعث حيا على بعد الف فرسخ ..

ـ اسمع الى دعواى !

ـ ساشكوك للملك نفسه ، فهذا المال في ذمتي ولست ابالي في حماية حق الفريق .

ـ كلما طلبت منك التريث تزداد سفاهة . بيني وبينك البرهان ..

ـ اي برهان ؟

ـ اقول لك ما بالمتجر من السلع بالتفصيل واسماء الشهود ، واحكي لك مادار بيني وبينك فوق السفينة من حديث يوم غثيت واعطيتني المسحوق المذوب في الماء ..

ـ اتزعم انك انت ..

ـ اقدم لك البرهان امام الشهود ، وامام ضميرك انك سألتني مادعاك لركوب البحر فقلت لك : بعت قلبي بوجبة طعام وسرقني اللصوص ورأيت لؤم الصحاب ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ركبت البحر .. وانت قلت

لى ان البحر ليس مركب اليائس ، وستقع فى غرامه بعد حين ..

ـ فليحضر كل من شهد غرق الرجل ..

صاح القبطان وتجمع ركاب وبحارة السفينة .

قلت : ولما غطس الحوت وسمعتك تامر بتحريك الدفة لتدور السفينة وتدركنى .. جرفنى البحر بعيدا من السفينة واشرفت على الغرق ، لولا ان السقالة كانت قد سقطت فى البحر أثناء تزاحم الركاب عليها وجرفها الماء فأدركتنى .. وجعلها الله سببا لنجاتى ..

صاح القبطان :

ـ يا اهل الله . اشهد انه هو الرجل ، فهل يشهد معى أحد ليحق لنا تسليمه ماله ..

فكل من كان حاضرا شهد بانى انا عبد الله بن عثمان ، وارتمينا فى أحضان بعضنا البعض غير مصدقين ، وانهمرت دموعى ودموعهم ، وتفرست فى وجوههم وتفرسوا فى وجهى .. وقال القبطان :

ـ ماذا فعل بك الزمان ياعبد الله فتغير وجهك ولم يعد ذلك الوجه الصبى البرىء الرخى الذى رأيناه فى البصرة ..

ذهبنا جميعا لمقابلة الملك ، وروينا له ماجرى فعجب جدا مما سمعه واستأذنته فى السفر مع رفاقى فأذن لى بعد الحاح ..

لم أفترق عن رفاقى منذ تلك الساعة ، فلما جاء وقت الرحيل ودعت الملك ، وودعت صاحبى الهندى فأهدانى

غير مانلت من الهدايا وركبنا متجهين الي البصرة وأنا غير مصدق نعمة الله علي بالعودة ..

في طريق العودة بعنا واشترينا في كل ميناء نزلنا فيه .. حتي وصلنا البصرة فانفصلت عن رفاق سفري واسترحت في خان جابر استروح نسمات بلادي واشنف آذاني بسماع احاديث قومي وإجراس لغتي ..

***

احصيت ماتجمع لي من الثروة في رحلتي فوجدتها اكثر مما ورثته من أبي فحمدت الله أنه عوضني عما ضاع مني وزاده لي .

الحت على فكرة ان اشتري داري ذاتها بحارة الكرخ ببغداد ومنيت نفسي ان تمكنت من الحصول عليها أن يعود لي هنائي واسترد سعادتي .. فأرسلت رسولا سبقني الى بغداد لشرائها بالثمن الذي يطلبه فيها مالكها ، وسرعان ماجاءني خبر منه أنه وفق في شرائها ، واعدادها لاستقبالي . فحزمت أمتعتي وثروأتي ومتجري واكتريت في قافلة وصلت بي الى بغداد ذات صباح ميمون .

شاع نبأ وصولي بغداد ، ومقامي بداري في سوق المدينة فاضطرب أصحابي وندمائي الذين غدروا بي حين أفلست قبل سفري وانكروني وتسابقوا الى شراء أمتعتي بالثمن البخس حين عرضها الدائنون في المزاد ..

خف بعضهم الى بعض ، ونقل بعضهم الى بعض مااعتراهم من القلق والتوجس ، وتناقلوا أنباء الثروة

التى كسبتها فى رحلتى وعدت بها الى بغداد وبعضهم يزايد البعض فى تصديق ماتواتر من مبالغات وخرافات حول مقدارها .. حتى قال اسعد الحريرى ؟

ـ لابد انه منتقم منا ..

فسأله يونس الزجاج :

ـ كيف يمكنه ايذاءنا ؟

ـ انت ابله ؟! نحن تجار صغار وهو قادر بتلك الثروة الطائلة التى عاد بها ان يفلسنا .

فقال الحسنى ابن شيخ السوق :

ـ ابى هرم ورغب فى اعتزال وظيفتـــه ، ولو اراد عبد الله فربما عينوه شيخا للسوق .

وقال الخيام :

ـ جاء اليوم الذى كنت اخشاه !

فاشار عليهم على ابن الشهبندر :

ـ لابد ان نسترضيه .

فسأل يونس الزجاج :

ـ وما الذى عساه يرضيه ؟

فقال اسعد الحريرى بحزم :

ـ نعيد له كل ما اشتريناه من متاعه وجواهره .. هدية .

هتف اسماعيل البصرى منكرا :

ـ هدية !؟

ـ لا يعز عليك ماعندك ، فالذى عندى أعــز منه وأغلى .

ـ وما عندك انت ؟

ـ جاريته « حياة » .. كنت اشتريتها من السوق .

ولكن الآخرين وافقوا على مضض وقالوا :

ـ ماتقول .

فقال اسعد :

ـ نرسل الهدايا مع الرسل ، وننتظر دعــوته فنصالحه .

هكذا طرق رسلهم بابى ، ومعهم الحمالون .

قالوا لمن فتح الباب :

ـ قل للسيد نحن رسل من قبل أعز اصدقائه .. فلان وفلان وفلان .. ومعنا هدايا له .

كنت قاعدا مع الدلالين فى القاعة .. فدعوتهم .

دخلوا وضعوا أحمالهم وسلموا واخذوا يشيرون الواحد بعد الآخر ألى الاكياس وينبئون عما بها من اشــياء ويصفونها ويريدون الكشف عنها .

أشرت لهم بيدي ليتوقفوا ، وقد عرفت انهم يهدوننى أشيائى التى اشتروها من المزاد ..

لهانت على أشياء اشتهوها وهى عندى ، وما هانت على نفسى ..

عجبت ان جراح الامس فغرت أفواهها فجأة .. كان للاشياء ظل قاتم أشاع بنفسى الحسرة والغضب .

لا تموت الجريمة الا بالعقاب ..

وبعض الجرائم لا تقوم أركانها ولا يتسنى معهـــا العقاب .

قلت للدلالين امام الرسل :

ـ هذه الاحمال خذوها للسوق ، وبيعوها كمـــا تشاءون ، وارسلوا ثمنها لشيخ المسجد .. وبلغوه ان يتصدق بالمال عنى للفقراء والغرباء .

فوجدت الرسل وجموا ، وعدوها اساءة لا تليق ، وانتظروا منى كلمة شكر أو دعوة للزيارة ، فما فعلت الا ان اشرت لهم بالانصراف .. فمشوا الى الباب متباطئين ثم التفت لي أحدهم وقال :

ـ والجارية ؟

ـ اية جارية ؟

ـ هي واقفة بالباب ، ومعها وثيقة اهدائها لك ، فافعل ماتشاء !

ومضوا ، وانا فى اثرهم للباب ..

رأيت « بحياة » ..

هاهي ياعبد الله ، مغمضة العينـــين مستسلمة ، ما احسبت بوجودى حتى نظرت الى نظرة مستطلعة مليئة بالسؤال .

خذلني جسدى فلم اعد اقوى على الخطو نحوها ، ولكن روحى كانت قد صحت .. متمردة منتقمة ..

تعصف برجل عجز عن الانتقام !

لبثنا هكذا وقتا .. وكل منا ينظر للآخر .

والذى كان يجيش بنفسى يعز على الوصف والتقصى ، واذا أنا بجر متلاطم فيه الحسرات ، ونوازع الكبرياء ، والعزم على رفض إبتلاع الملح .

ولو ضعفت لها .. فقد ضعفت لتملق الظالمين لضعفى ، وتملقهم ايام الطيش فى صباى .. وقد ضعفت لجرائمهم كلها ، ولخستهم تلك الايام المريرة التى مرت بغير عقاب ..

لو استقبلتها باحضانى اليوم .. فقد خذلت حسراتى واوجاع روحى كلها واستسلمت لقضاء شرهم الذى لم استطع رده او دفعه تلك الايام .

لو استسلمت لشوقى وحبى .. فقد استسلمت لسخرية الظالمين الذى نهشوا ايام صباى وبراءة أملى وصدق نيتى واخلاص مودتى نهش ضباع الفلوات وذئاب الخرائب ..

اما عبد الله الذى كان ، فقد مات ..

واما عبد الله الذى أريد .. فانه يأبى الضعف للماضى أو النكوص والارتداء . .

قلت لها :

ـ لم يعد يصلح لنا اليوم ياحياة ماكان يصلح لنا بالامس ..

فارتعشت جفونها وقالت :

ـ ماتريد ياسيدى .

قلت :!

ـ لست سيدك . انت حرة لوجـــه الله ، فافعلى ماتشائين ...

قالت : ماتقول ياسيدى

قلت : خذى بعض المال ..

قالت : شكرا ياسيدى ..

واستدارت ومشت وانا واقف تعصف بى المشاعر ..

يعلم الله كم بكيت « حياة » قبل ذلك اليوم ، وكم مس عقلى الهوس بها حتى رأيتها فى غربتى راى العين ، وسمعت غناءها بالاذن ، وكم اضنانى الشوق لها فى كل مكان حللت به ..

ولكنى عزمت ذلك اليوم ان اتخلص من هذا كله ، وان ابرا من كل ضعف أو حاجة ، وان احيا قويا كالعاصفة او كموج البحر .. لا احسب لغير قوتى حسابا ..

تلك اللحظة راح صباى بضعفه وبطيشه .. فلا وداع ولا تأسى .. انما ضاع مالا أريد ، وبقيت لى ارادتى .

***

ذهبت للقاضي وسجلت وثيقة عتقى لحياة وارسلت وراءها الرسل ببعض المال فابت ، وما عبأت لذلك .

انصرفت الى بيع متجرى ولقاء التجار والتنزه فى بلادى والاستمتاع بثروتى .

كنت ادعو التجار والدلالين احيانا الى بيتى ونقضى السهرة فى تبادل التلطف والمجاملة . ولكن حذرى كان يمنعنى من الافراط فى التودد الى الناس ، او التبسط فى العلاقات .

لم يعد لي أصدقاء !

فالمرء لا يجدد الصداقات كما يجدد اثاث بيته .. وقد علمتني الحياة الاحتياط .

أأنا وحيد ؟

لست وحيداً كما كنت في جزيرة القرود ، ولا اشعر بما عانيت من الوحشة او النفرة في بلاد الهند ..

انني بين قومي وفي بلادي وعندي من المال ما يكفل لي طيب الحياة ومباهج الدنيا ..

كنت يوما عند الشيخ مصطفى صديق ابي وكنا نتحدث في سائر الشئون حين الح على بالسؤال عن احوالي ، فقلت له :

ـ لقد عدت أحسن مما كنت تاجرا وثريا ، ولكن لم تعد لي بهجتي .

قال الشيخ :

ـ أو تتذمر ؟!

قلت : اعجب اني اشتقت للبحر . واينما نظرت ياعمي لا ارى غير صورة البحر وصخب البحر وهدوء البحر !

قال : لا تبغض الناس ياولدي لتقع في غرام البحر . لا تبغض ماتعلم لتحب مالا تعلم ..

قلت له : ومن ذا الذي يملك هوى قلبه ؟

قال لي : وعلى المرء الا يطيع بالضرورة هوى قلبه ..

تذكرت ساعتها لغير سبب أعلمه ، اني كنت امشي مع

« جابر » صاحب خان البصرة على الشاطىء قبيــل المغرب فمررنا برجل يغني للبحر وحده ، فى خـلوة ، وامتلأت نفسى آنذاك بأغنيته ، وملأت نفسى ثانية وانا قاعد عند الشيخ مصطفى بغير سبب أو عـــلاقة .. فشردت وانا أنصت كأن الرجل حاضر معنا تلك الساعة يرسل صوتا كله شجون :

تائه الاقدار حائر
فعلى البر مهاجـــر
وعلى البحر مسافر
أين فى الدنيا الشواطىء
أين فى الدنيا المرافىء
كيف بالله يثابر
تائه الاقدار حائر ؟

وفجاة افقت ، فضحكت من نفسى .. ولم يعــرف الشيخ مصطفى لماذا اضحك ، ولكنه ضاحكنى متلطفا .

الفصل السابع :

عجوز البحر

كنت قد تعلمت اسوأ درس يمكن أن يتعلمه الانسان .. وهو الا يثق فى الاصدقاء !

درس مؤلم .. افرغ حياتي من كل بهجة ، واورثني مشاعر الوحدة والوحشة والاغتراب فى مسقط راسى وفى عقر بيتى !

اغتال الدرس الاليم سعادتى ..
بعت بضاعتي واغلقت دكاكيني
واشتريت متجرا وتوجهت الى البصرة .. فاكتريت على سفينة مليحة واستقبلت البحر .

قضيت اياما اسامر رفاق السفر من التجار والبحارة، واسمع غناءهم واسمعهم غنائى .. حتى انس لى شيخ من التجار اسمه عبد الرحمن النعمان ، وصار يخصنى بعطفه ونصائحه .

فذات يوم كنا نفطر فى عنبر الركاب والسفينة تتقلب فى بحر مضطرب ، فداهمتنا صيحة من فوق السطح :

ـ الريح تدفعنا للوراء !..

وصار هرج ، وحاول بعض التجار الصعود الى السطح لاستطلاع الامر فمنعهم البحارة ..

علا صفير الريح واخذت السفينة تترنح بعنف، وللبحاره صياح فوق رءوسنا .

« لا حول ولا قوة الا بالله » .. قال الشيخ عبدالرحمن النعمان ، ووضع يده فوق كتفى ، وكانت يده ترتعش .

علا صوت القبطان فوق رءوسنا :

ـ حطوا الشراع الكبير !

ثم صارت همهمة غير مبينة اعقبها صياح القبطان : « اقطع بالسكين ! »

ففهمت ان شدة الريح لم تمكن البحارة من انزال الشراع وانهم يزمعون شقه بالسكاكين .

ولكن امرا صدر من القبطان خلع فؤادى :

ـ الحبال للغرقى !

فعلمت ان الريح اكتسحت بعض البحارة ورمتهم فى البحر ، فتذكرت غرقى ، واخذتنى غيبة ، لم أفق الا والشيخ النعمان يهزنى ويقول :

ـ ياولدى . انت أصبانا واقوانا ساعدا ، وربما كتب الله لك النجاة من دونى ، فهل تصنع المعروف لوجه الله تعالى ؟

قلت وانا شبه غائب :

ـ نعم ياعم . اصنع المعروف .

فدفع الى الشيخ بجلد كاغط ملفوف وقال :

ـ هذه وصيتى ، وفيها مالى عند الناس وما على من مال لهم ، وما يجب ان يصنع القاضى بثروتى بعد قضاء الله . فهل تحملها عنى ؟ واذا كتب الله لك النجاة

بدفعها الى قاضى البصرة ولك الأجر والثواب عن أولادى وعيالى وعنى ؟

قلت : نعم ياعم .

ودسستها فى حزامى . وصكت آذاننا صرخة : الصخور !

ثم ارتجت السفينة وسمعنا لأخشابها قعقعة ، وسقط بعضنا على وجهه بينما صاح القبطان : العشارى ! نظموا الركاب !

فعلمت أنهم سينزلون « العشارى » قوارب النجاة ، فقلبنى اليأس بحيث صاح البحارة من فجوة المدخل للعنبر :

ــ كبار السن اولا . عشرة رجال فقط !

امتنع البعض عن الخروج وتشبثوا بمتاعهم :

ــ ماذا أفعل بنجاتى ان ضاع مالى ؟!

وتعالى الصياح : فداكم المال يارجال !

فايقنت انى آخر من سيصل الى قوارب النجاة بحيث انى اصغر الركاب سناً ، فما أدرى الا وقد اندفعت فى طيش من بين أيدى البحارة فبلغت السطح وقفزت الى الماء كمن يفر من حريق دون أن يحتسب عاقبة الفرار .

ايقظتنى برودة الماء ، فانتبهت لحالى غاية الانتباه ، ولاحظت ان حولى فى الماء رجالا مثلى يصارعون الموج ، بينما السفينة تتارجح فوق البحر كالريشة فى مهب الريح .

فى بحر متلاطم ممتد من الأفق الى الأفق ... ينهار

الانسان ان يولى وجهه . ولكنى عرفت مما نمى الى سمعى مما يقوله اهل التجربة ان افضل مايصنعه الانسان فى مثل هذه المحنة ان يبتعد عن السفينة الغارقة التى تثير من حولها الدوامات .

وهذه كانت وجهتى وماقصدت اليه .

اوليت ظهرى للسفينة ، وضربت الماء بذراعى ، ولم اعد أرى غير امواج كالجبال ترفعنى ثم تخفضنى فى هوة البحر .. واحسست أن الماء يجرفنى حتى لم أعد املك قوة على دفع تياره ، فاستسلمت لدفعه التقط انفاسي ولا ألوى على شيء .

ولما اظلمت الدنيا حولى يئست من نجاتى ولعنت طيشى وناجيت نفسى :

ـ ياعبد الله . غامرت بنفسك .. فلماذا ؟.. ان شعورك بالوحدة وبالاغتراب وضيقك بالناس لم يكن الا نضول ترف وغرور وغطرسة . لم تتعلم من محنتك التواضع والرضى والقناعة والقبول بما قسم لك الله . فحتى تنكر الاصحاب ولومك اياهم ليسا الا علاقة .

والانسان يحيا بالعلاقة سلبا او ايجابا ، اما الانقطاع فموت وضياع .. اين منك الان اصحاب يجحدون او يعطفون !.. لو انك كنت تخليت عن كبرك واحتضنت « حياة » وغفرت للصحاب وتعلمت كيف تمشى على الارض !..

ارتعد جسدى بحيث احسست أن قدمى لامستا الارض !

لا احلم ولا أتوهم .. هى الارض !

وقفت بقدمى الاثنتين ونظرت حولى فرأيت ظلالا داكنة قصدتها كمن يطير ، فاذا أنا فوق الشاطيء جوعـــان عطشان منهوك القوى فرقدت ، وتمرغت في الرمـــال وقبلتها وغمرتها بدموعى فأحسست بهدوء يغمـــرنى .. ونمت .

***

استيقظت والشمس مشرقة .

تحسست جسدى فوجدت أعضائى سليمة .

خلعت قميصى واحسست بكاغظ الوصـــية ثابتا فى حزامى . كنت نشوان بنجاتى :

— لابد لى من الماء ..

توغلت فى حرش أمامى ، وارتقيت فرع شـــجرة ونظرت حولى فلمحت نبعا يلمع ماؤه فى ضياء الشمس فقصدته فرحا واتكببت عليه أعب الماء .

— لا تعب الماء وانت عطشان فتموت ..

رجل يكلمنى . نظرت خلفى ، ورأيته ..

عجوز راقد على الأرض ، ينظر الى بعينين قويتـــين تقيساننى ولا تطرفان ...

قلت : السلام عليكم ياشيخ . من انت ؟

فازور عنى ممتعضا يهمهم : فضولى !

قلت : لا تؤاخذنى ياعم .. فأنا كنت فى ســـفينة غرقت فى هذه النواحى ونجانى الله ، ولا اعلم ما هـــذه الجزيرة او مايكون أهلها .

رماني بنظرة صارمة : وثرثار أيضا !

اضحكني عناده فقلت : لا اقصد مضايقتك . ولكن ماسبب قعودك في هذا المكان ؟

قال : لاني لا اقوى على القفز هنا وهناك مثلك .

قلت : لا بأس عليك . اتطلب شيئا اقضيه لك ؟

قال : وهل انت من اصحاب المروءة ؟

قلت : نعم . انا من اصحاب المروءة .

قال : فاحملني على كتفيك حتى استطيع ان اقطف بعض ثمار الشجر اتبلغ بها .

قلت : حبا وكرامة .

ورفعته حتى أقعدته على كتفيه ، فلف ساقيه حول وسطى بقوة فكانه كتفني تكتيفا ، وصار يامرني بفلظة ، ويرفق أوامره بدفعات من قدميه في جنبي ، وهو يجذب شعري .

ـ هناكَ . اسرع ..

فلما آلمتني دفعات قدميه نفد صبري ، وقلت له : رويدك يارجل . ساقضي لك ماتطلبه ، ولكن لا تدفعني ولا تتعجل .

وهو يقولَ : لا تتذمر ! هناكَ .. اسرع ..

ويلتقط الثمار من فوق الشجر ويلتهمها بشراهة حتى تسيل عصارتها فوق راسي ، وهو لايزال يأمرني ويزجرني ويدفعني .. حتى تعبت ، فقلت له :

ـ كفاك . لقد تعبت .. فانزل على مهلك .

فنزع العجوز عودا رفيعا من شجرة في متناول يده

وساطني به بقسوة وهو يصيح :

ـ تعبت يابن اللئام ؟!

فملت مغضبا حتى اسقطه من فوقي :

ـ انزل ياسفيه !

فاخذ يسوطني وقد شدد ساقيه بحول وسطي حتى ضاق نفسي ، وكاد يغشى على من الالم والاختناق فملت بجذعي فوجدتني سقطت على الارض وهو فوق راسي يضغط بساقيه على عنقي ويسوطني بلا رحمة !

ـ قم حالا والا قتلتك !

فلم استطع التملص من ساقيه وكدت أختنق وتزهق روحي فهتفت :

ـ من انت ايها الشيطان ؟!

قال العجوز بصوت خطير :

ـ الآن عرفتني .

فخلع الرعب قلبي . وساطني حتى قمت صاغرا ، وهو فوقي قابض على جسمي بساقيه فقال :

ـ الان تعرف كيف تخدم سيدك . ان عصيتني أفقأ عينيك باظافري ، أخنقك بساقي حتى ينقطع نفسك . أسوطك حتى تجن من الالم .. ولا خلاص لك . فافعل ماتؤمر به .. افعله بسرعة وبهمة . هيا .. اجري ، أدخل بين الاشجار . تمهل هنا .. لا تقف . اندفع نحو البحر حتى اشم هواءه ، نحو البحر .. آه .. ما ارق النسيم هنا . أريد أن اغفو قليلا . أرقد ..

كادت تتقطع انفاسي من الجري هنا وهناك ، ولكني

حين رقدت طمعت فى الخلاص ان راح فى غفوة .. قال لى وهو يتثاءب :!

ـ نعم . ستتعلم أشياء كثيرة مع الوقت ؛ ولكن اياك والخبث .. فانى لك بالمرصاد .

تركته برهة حتى ظننت انه نام فحاولت التملص من قبضة ساقيه ، فصحا من فوره وساطنى ..

ـ هيا قم . انا استرحت واكتفيت . الى الاشجار .. اسرع ..

تعبت حتى سقطت على ركبتى من الانهاك ، ولكن الم السياط اقامنى واقفا ، اجرى هنا وهناك ، وهو يأكل بشراهة .. وخواطرى تقول :

ـ لعنة الله على الشفقة . اردت ان اصنع خيرا فانقلب شرا علي .

صاح العجوز وهو يسوطني :

ـ تتذمر ياابن اللئام ؟! ندمت حيث اشفقت على ، وانقلب خيرك شرا عليك ؟! اعلم انى قادر على قراءة خواطرك ، فلا تعارضنى أو تشتمنى حتى فى خواطرك !

قلت : سبحان الله !

قال : تذكر الله يابن العصاة ؟!..

وساطنى حتى التهب جسدى بآلام مبرحة ..

ظللت أياما أتدهور فى مراتب الشقاء ، اعمل حتى تنخلع اعضائى من التعب ، وأجرى هنا وهناك ، ليأكل .. ليتنزه .. بنيت له بيتا بالاغصان . اوقدت له

النار وطهوت له الطعام ، وهو فوقى يزجرنى ويسوطنى ويعذبنى ويشتمنى ...

فمرة كنت انزهه على شاطىء البحر ، وكان النسيم رطبا وقد نال منى التعب .. فنظرت مليا الى البحر ، وتذكرت اوطانى وايامى .. فانهمرت دموعى واجهشت بالبكاء ..

قال : تبكى ؟.. هذا افضل لك . ستر تاح بعد البكاء مرتين أو ثلاثة .. فدموعك ستستل من قلبك شوكة الكبر والغطرسة ، وهى مايوجعك فى الحقيقة .. وعندئذ ستخضع ، وتالف ما أنت فيه ، وتجد الراحة فى طاعتى ، وتتمنى رضائى .. من الآن لا تخاطبنى الا بسيدى انا سيدك ، فهمت ؟ تنادينى سيدى .. سمعت ..

قلت : نعم ..

قال : نعم ياسيدى !..

وسألنى ، افقلت ؟

ـ نعم ياسيدى .

فرمى سوطه وقال :

ـ الآن لن احتاج معك للسوط .. وستتعلم أيضا ان كل طعام تأكله ، وكل راحة تنالها .. هى من فضلى ومن كرمى عليك .. وستألف أن تقول لى ألفاظ الشكر والعرفان والخضوع الصادق من القلب .. هيا ياعبد النحس .. الى البيت ..

قلت : نعم .

قال : نعم ياسيدى !
فقلت : نعم ياسيدى .

***

مرة لاحظنى العجوز وانا اثبت فى حزامى الكاغط الوصية ، وكنت اخشى سقوطه ، فصاح بى :
ــ ماهذا الذى فى حزامك ؟ سلاح ؟!
ــ لا . هذا كاغط وفيه وصية ..
ــ ارنى ..
فاعطيته له ، وصار يقرأ منه ..
ــ « وعلى للحاج عبد الصمد القماش اربعة آلاف وخمسون فضة .. ولى عند الجواهرى سبعة الاف .. »
ما هذا ؟
ــ وصية رجل غرق واعطانيها لاسلمها لاهله ..
فرماها مشمئزاً ..
ــ أنتم أيها السفهاء .. الرجل غرق وأكلته حيتان البحر ، ويرسل من قاع الماء يطالب دائنيه .. تعسا لعقولكم !

***

احمد الله أن شقائى لم يكسر شوكة كبريائى ، ولا دموعى اغرقت شعورى بالتمرد ، وان اخفيت شعورى خوف العقاب . مضت الايام والاسابيع .. لم يتوقف عذابى ، وبرحت بى الآلام حتى خشيت من الجنون والهوس او الموت كمدا ..
فمرة ، وانا انزهه على شاطىء البحر رأيت جرة فارغة لعلها سقطت من سفينة فى البحر فاخذتها وحملتها معى

وهو فوقى ، حتى اذا صرنا تحت أشجار العنب صرت أقطف عناقيده واعصرها فى الجرة . فتعجب العجوز مما أفعله وسألنى فقلت !..

ـ أصنع شرابا طيبا لأشربه بعد تخميره .

قلت لنفسى : لعل الخمر أن تعيننى على احتمال شقائى ..

دفنت الجرة فى مكان رطب وتركتها مدة ، ثم رجعت اليها أذوقها فوجدتها قد اختمرت .

سألنى : ما طعمه ؟

قلت : مليح ياسيدى ، يقوى القلب ويشرح الخاطر

قال : اشرب انت اولا لأرى أن كان مليحا حقا

فشربت حتى سكرت ...

طارت تعاستى وتملكتنى نشوة وتبددت مخاوفى وراقت الدنيا بعينى .. فما ملكت نفسى وغنيت فى الفضاء الرحيب :

ضاع الزمان فلا تضع

وقع الرجاء فلا تقع

فصاح العجوز :

ـ ماهذا الهذر ؟

قلت : سيدى . هذا سحر الخمر ونشوته ..

قال : دعنى أذوقها ..

واختطف الجرة من يدى وامالها على فمه فصحت به :

ـ رويدك واحسها قليلا قليلا ..

استغرب طعمها أول الامر ، ولكن حين سرت بحميتها بجسده صار يعبها بنهمه المعتاد ، وانا أهتف به :

ـ لا تفرغها جميعها . دع بعضها لى .

افرغها كلها فى جوفه وصاح وهو يتلعثم :

ـ غننا لعنة الله عليك ..

فغنيت له :

* أغرق همومك فى العنب
وارقص على وقع التعب
ضاع الزمان فلا تضع
وقع الرجاء فلا تقع
واضحك كأنك تحتمل
وانس الزمان وما حمل

وجعل يضحك ويترنح من فوقى فأكاد اسقط على الارض وأصيح به ، وهو يصيح ويهتز يريد أن يرقص ويحاول الغناء معى ، وانا اغنى له ..

احسست قبضة ساقيه على عنقى تتخلخل ، وصوته نخفت .. فعلمت انه اغرق فى السكر وانحلت قواه .. فتجاسرت ورميته من فوقى فسقط على الارض يتخبط .. وهم بالنهوض وهو ينظر لى بعينين تقدحان بالشرر فالتقطت الجرة وعاجلته بها على رأسه فتفجرت دماؤه وانتفض ، ثم سكنت حركته .

فما صدقت والله انى خلصت من شره ، فصرت ادق راسه الميت بأحجار الجرة المهشمة حتى تناثرت دماؤه على جسدى كله مفزعة مقززة .. وأنا أصرخ صراخا

لا اعرف ان كان مصدره الرعب أم السعادة بالخلاص إم الخوف من ان آراه يهب واقفا بمعجزة !

جريت الى البحر ورميت نفسي في موجه أغتسل من دماه ، وأتلفت حولى وقد اضطربت ظهر لبطن ..

وحملنى الجنون اليه ثانية أرجمه بالحجارة واركله بالقدمين واهيل عليه التراب وابصق عليه واشتمه ..

فلما وهنت قواى ، قعدت على الارض أتأمل نفسى واقول .

ـ ياعبد الله .. القسوة أذاقتك الدم ، فصرت قادرا على القتل وسفك الدماء .. آه لبراءة الصبا والشباب ، ووداعا لها ..

وما أفظع الحياة !

وبكيت من فرط اضطرابى .

ومن خلال دموعى رأيت صورة متقطعة لسفينة فى البحر ..

مسحت عينى ونظرت ..

هى سفينة بلا شك ، مالم تكن حلما يهلوس به عقلي الطائر شعاعا .

خلعت ردائى وانا اجرى الى الماء ، وصرت الوح بالثوب وانا اصيح :

ـ هوهوهوهو .. يا أهل الله .. غريق يا اهـــل الله .. هوهوهوهو ..

والفضاء يرجع أصداء صيحاتى .

لا .. انها صيحات البحارة فوق السفينة تهتف لى

وعدها بالنجاة : هوهوهوهو ..

شاهدت البحارة ينزلون قاربا الى البحر وانا اتقافز في المياه الضحلة استعجلهم الوصول الى الشاطىء واصيح من فرط اضطرابي .

ـ نجاني الله ! يا اهل الله ! .. هوهوهو .

رسا القارب على مسافة مني وهبط منه الى الماء بحاران كل منهما شاهر سيفه ووقفا بعيدا عني واحدهما يصيح : قف عندك . لا تقترب .

وقال الثاني : لا تتحرك واجب . من انت وما تفعل هنا ؟

فوقعت على ركبتي في الماء من الخوف ..

ـ انا عربي . تاجر من بغداد . اسمي السندباد . كنت على سفينة غرقت في هذه النواحي . الله نجاني . انا عربي . تاجر أسمي السندباد . غرقت سفينتي .

فقاطعني البحار : معك احد ؟

فقلت : ليس معي احد ..

ـ معك سلاح ؟

ـ ليس معي شيء !

ـ تقدم ببطء .. سنرى ما شأنك وما اتى بك الى هذا المكان .

الفصل الثامن :

الوصية

انتشلتنى السفينة ، واجتمع حولى التجار والبحارة يسألوننى .. ومهما قلت لهم من حكاياتى لايصدقوننى .

ظنوا أن الوهم خالط عقلى مما لقيته من أهوال البر والبحر ، فاشفقوا بى وصاروا يهزون لى رءوسهم متظاهرين بالتصديق ، وهم لا يصدقون .

تصدقوا على بالطعام وبقميص ..

ووصلت السفينة بريح مساعد الى البصرة .

المرفا هو هو .. عامر بالزينات وصاخب بالاحتفالات فرحة الاستقبال للتجار والبحارة ، وأفراح العائدين الى الاوطان لم تذهب مابقلبى من وحشة وحسرة .. فها أنا أعود الى وطنى فقيراً شريداً خاوى الوفاض !

ضاع مالى كله فى البحر .. وفوقه ضاعت أيامى وخلانى ومرح الصبا وبراءته وآماله الحلوة .

أشق طريقى كخيط أسود حزين فى نسيج منشور من البهجة والسعادة .

مشيت بقلب كسير .. أجتاز الضحكات والتبركات والعاب الحواة وغناء المنشدين وطبول الطبالين .. وانا لا أملك حبس دموعى .

توقيت المرور بالسوق وبخان جابر ، حتى لا يرانى

من يعرفنى رثا كالشحاذ .

عطفت على حارة اعرفها ، وتلمست طريقى فى السكك المتعرجة المعتمة الى ضريح « سيدى الغريق » .

هنا يرقد ولى من أولياء الله غرق فى البحر وصار ضريحه عزاء للثكالى والارامل والايتام وضائعى الامل .. يقصدونه للتبرك والدعاء .

زاحمت النساء المتسربلات بالسواد ، والرجال من مشوهى البحر .. ممن فقد ساقا او ذراعا او نور العينين .. يتزاحمون على الضريح يدعون الله ويطلبون الشفاعة .

امهات مايزلن يأملن عودة الابناء ويبكون ..

اطفال يلعبون ويبولون ويتشاجرون فلا تهدىء من مصيبتهم الا الصفعات والركلات .

وشحاذون يطوفون بتلك البراكين الملهوفة يتسقطون الصدقات .

بينما الذباب والهوام تنسج سحابة سوداء تظلل المشهد الكئيب .

هنا شر البحر .. كما أن خير البحر يتلألأ الآن فى سوق البيع والشراء ، وفى الخانات والحانات ودور اللهو والقصف والغناء .

قعدت جنب الضريح فى الهرج المحزون ، وصيحات التفجع من حولى تشق القلب وتثير مواجع نفسى فتطفر من عينى الدموع .

ـ انت التاجر عبد الله عثمان المسمى بالسندباد وتسكن حارة الكرخ ببغداد ؟

صوت آمر .

رفعت عيني فوجدت ثلاثة رجال من شرطة الوالي ، ورئيسهم يسألني . فوقع الخوف على سائر الاحزان حتى لم أملك ان أنكر نفسي .

ـ نعم . أنا هو .

ـ قم . . فالقاضي يطلبك .

فقلت مروعا : ولماذا يطلبني القاضي ؟

ـ عنده شيخ يطلبك . وكلما رست سفينة في المرفأ أرسلنا نسأل أن كان من ركابها من يدعى عبد الله عثمان السندباد .

ـ ولماذا يطلبني الشيخ ؟

قال أحد الشرطة : اما لدين او نفقة طلاق . لماذا تظن الشيخ يطلب مثلك . قم .

جذبوني من ذراعي وشقوا بي السوق ، وكل من مررنا به يسأل : لص أم رافضي ؟!

فيقول الشرطة : لا نعلم . القاضي يطلبه :

ويقول الناس : لا حول ولا قوة الا بالله !

وإنغوص قلبي في جوفي وتخذلني ركبتاي .

رماني الشرطة بين يدي القاضي وهم يقولون :

ـ هذا هو السندباد يامولانا .

قال القاضي : انت الذي حملك الشيخ عبد الرحمن النعمان وصيته على السفينة التي غرقت منذ شهور في عاصفة بالبحر ؟

فرفعت رأسي وسألت باتكار :

ـ ألهذا تقبضون علي ؟

سأل القاضي : الوصية معك ؟
فرميتها له مغضبا ، فأخذها القاضي ونشرها بين يديه وقال : بارك الله فيك ياولدى . هل قرأتها ؟
فهدأ روعى ونظرت أليه متسائلا :
ـ لا . لم اقرأها .
فدفعها لي : خذ واقرأ ذيلها .
اخذتها من يديه ، وقرات في ذيلها : فان اتاكم الشاب الذي عهدت اليه بوصيتي عبد الله عثمان السندباد عملتم بما فيها فله عليكم عشرة آلاف دينار صحيحة جزاء مروءته ووفاء بحق الله » .
رقصت الحروف في عيني .
قال القاضي : أتعرف الشيخ الذي اعطاك الوصية يا عبد الله ؟
قلت : لاى شيء استحق هذا المال ؟
قال القاضي : اتعرف الرجل القاعد جنبي ؟ أنه الشيخ عبد الرحمن النعمان ياولدى ؟.. أعرفته ؟
ونهض الشيخ .
تفرست فيه ، فوالله ماكنت سأعرفه لولا أن دلني القاضي عليه .
كم غيرته المحنة ، فكم ياترى غيرتني المحن ؟!
ارتميت في ذراعيه المفتوحتين ، وبكيت على صدره كطفل جبر الكبار خاطره المنكسر .. والشيخ يربت على ظهري ملاطفا ويقول :
ـ ماذا فعل بك الزمان ياولدى . احمد الله على

النجاة ...

وفجأة تذكرت ...

فانتزعت نفسي من بين ذراعي الرجل ، وهتفت بالقاضي :

ــ مولاى القاضي . اما المال فلا أستحقه ...

واحتج الشيخ :

ــ زن له الذهب يامولاى القاضي وأقض الدين بالشرع ..

صحت : قبل ان تزنوا لي المال لابد ان تحلني ياسيدي القاضي من قسمي . فقد أقسمت على جزيرة الشيطان الا أصنع المعروف في حياتي لاحد ، والا أجعل سبيلا لاحد على بالمروءة . اقسمت بالله لا اصنع المعروف .. فلم أعد استحق الجائزة الا أن يحلني القاضي من قسمي ..

فما سمعت في حياتي أشد اثارة للطرب من كلمات الشيخ وهو يقول :

ــ مازالت براءة الصبا في قلب هذا الولد بعد كل ماعاناه ... فما اعجب ذلك !

***

عدت الى دارى ببغداد مجبورا ، وقد عوضني الله عن بضاعتي التي غرقت في البحر .

سئمت حياة اللهو وصحبة الخلان وليالي الشباب .. ولكني كنت اتطلع بشوق الى اضياف من المسافرين او الغرباء يطرقون بابى فأدعوهم لتؤنس حكاياتهم وحدتي ..

فذات مساء أكرمني الله بثلاثة رجال غرباء طرقوا بابي ليبيعونني محارات بحرية نادرة ، فدعوتهم إلى مائدتي وقلبت بضاعتهم فاعجبني غرابة شكل احدى المحارات وصفاء حجرها ، وتساءلت عن مصدرها ، فترددوا في اجابتي بصراحة ، ولكن احدهم قال : ضعها على أذنك لتسمع .

فما فعلت حتى نحيتها سريعا من شدة اضطرابى ، وتضاحك البحارة لفعلى فأعدت وضعها على أذنى من خجلي ، فسمعت موسيقى وغناء بلغة لا افهمها اعذب واطرب مما نعرف ونغنى ، فكأنها موسيقى السحرة أو الجان فأبعدت المحارة عنى وعاد ثلاثتهم للضحك منى .

ــ ماهي ؟

ــ لا تخف فما هي الا موسيقى وغناء عذب .

ــ لم أر مثل هذا الشيء في البحار ابدا ، ولا سمعت عن مثله .

قال احدهم : من جملة جزر البحر الجنوبي جزيرة الحب . . اذا مرت بها سفينة في المساء اضاءت الجزيرة باذن الله ، وتناهت الى البحارة من شاطئها اعذب أغاني الحب فينجذب البحارة للنزول على شاطئها بحيث تتخايل لهم حوريات بديعات يرقصن اجمل رقص ، فمن جرؤ من البحارة على الدخول في حلبة الرقص او لمس الحوريات يتلاشى بلا اثر .

قلت : عجيب . حديثكم عجيب !

فقال الرجل : هو والله الموت عشقا .

سألته : وهذه المحارة من جزيرة الحب ؟

فقال : مامن رجل نزل الجزيرة وعاد حيا ، ولكنها من بعض الشواطىء القريبة .

فوضعت المحارة على أذني وذهب بى الخيال بعيداً ..

اضفتهم تلك الليلة وناموا عندى فى القاعة فما صحوت الا على صراخ خادمى : سيدى . سيدى !

ـ مابالك ؟

ـ رحل الضيوف بلا اثر .

ـ سرق شيء ؟

فتشنا الدار فوجدنا حوائجنا لم تمسها يد . ولكن ضيوفى تركوا لى المحارة الساحرة ولم يتقاضوا ثمنها ، فعجبت من الامر ولبثت اياما مشغول البال أفكر وقد زاد قلقى واضطرابى لسبب لا اعلمه ..

فما أنقضت أيام حتى أزمعت السفر ، الى البحر الجنوبى بالذات ..

ان كان ماجرى نداء سحرى ما .. ها أنا البى النداء فقد تضاعف بالتدريج ضجرى من القعود فى بيتى ، وشغفى باستطلاع ما سحرنى .

خرجنا على سفينة كبيرة من البصرة ولما توسطنا الماء بريح مساعد عبر فوق الأشرعة سرب من طيور البحر البيضاء تودعنا بتشكيلها البديع ..

ولامر ما ترنح احد الطيور فوق الشراع الكبير واصطدم به صدمة سقط على اثرها فوق سطح المركب يصرخ ، ولما حاول النهوض تعثر وسقط وقد كسرت

ساقه فتعالت صيحته بالشكوى وانقبضت الصـــــدور لصياحه .

قال القبطان : اذبحوه رحمة به !

فهتف بحار عجوز : أعوذ بالله من الشيطان !

قال سيء ياريس . ذبحه يجلب الشؤم !

فاحتج القبطان : الرحمة اولى بالمؤمنين من التطير ..

فقال البحار : فليرحمنا الله .

وهجم عليه احد البحارة فذبحه وهو يقرأ اسم الله . وسال دم الطير على السطح ، ثم رمى جثته فى البحر .. ووقف البحارة يرقبون فصاح القبطان : الى العمل ! الى العمل !

وخاضت مركبنا البحر الجنوبى ، وانتقلنا من جزيرة الى جزيرة ، وبعنا وأشترينا وربحنا وتحدثنا وضحكنا وحكينا الحكايات .. ولكن شيئاً بقى فى صدورنا من قصة الطير ومن قالها السيء .. شيئا خبأناه بعناية فى حنايا الصدور لا نظهره ؛ ولكن نضمره فيشى بوجوده ماعم سلوكنا جميعا من صفة الحذر ..

الفصل التاسع :

حرب الطيور

فوصلنا بمشيئة الله الى جزيرة خضراء رسست السفينة في مياهها وقال القبطان :..

ـ سنتزود من هنا ببعض الفاكهة الطازجة ونبحث عن الماء ، فمن أراد من التجار النزهة على الشاطىء فليصحب البحارة في القوارب ..

وتزاحم جمع من الركاب وأنا من بينهم الى القوارب مع البحارة ، ولما وصلنا الى الجزيرة تفرقنا بين اشجارها مستروحين مستطلعين ، وقد أدهشنا عمق خضرتها وارتفاع أشجارها وكثافة النبات فيها .

وبينما أنا أتعجب من بذخ الطبيعة ترامى الى سمعي أصوات بعض رفاق السفر ..

ـ لو كان هذا قصرا .. فأين بابه ؟

ـ لعله بعض قصور الجن .

ـ انه صخرة .. ولكنها ملساء .

ـ سنرى مايكون .

مشيت اليهم فرأيت آخر المتحدثين يرمي حجراً نحو شيء أبيض عظيم الحجم .. ما ان رأيته حتى صحت في زملائي :

ـ لا تفعلوا يا اهل الله . هذه بيضة الرخ !

وقد تاخرت صيحتى ، ونفذ امر الله وانكسر غلاف البيضة فى موضع سال منه سائلها الاحمر الاصفر ..

كانت البيضة قائمة هائلة بحجم القصر الكبير وسط الادغال ، جريحة تنزف .. وحولها زملاء السفر يحملقون متعجبين .

ـ الان الى الفرار .. الى السفينة .

صحت بينهم ، فاخذهم الروع مثلى ، وتصايحوا مثل صيحتى وتسابقوا نحو الشاطىء وتزاحموا فى القوارب .. قبل ان تظلم السماء . نظرنا فراينا الرخ يحجب عنا الشمس بضخامته ، وقد هبط الى بيضته فلما رأى ثقبها صاح صيحة عظيمة ومال عليها بجناحه يلامسها فى حنان ثم ارتفع يصيح فى غضب وامال عنقه نحونا متوعدا ثم هاجمنا بعنف فالتقط احد البحارة بمنقاره وقذفه فى الفضاء ، فاضطرب شملنا ومن بيده المجداف صار يضرب الماء بجنون ، والاخرون القوا بأنفسهم فى الماء طالبين النجاة .. ومال الرخ بجناحه فضرب أحد القوارب فانقلب على ظهره . ثم ارتفع الرخ فى الجو حتى صغر حجمه وهو يصيح .. ولعله كان يطلب وليفته ، حيث اننا بعد برهة شاهدنا الطائر الآخر مقبلا من ناحية خط الافق يصيح لصيحة رفيقه . فلما اجتمعا فى كبد السماء توجها نحونا منذرين بالشر .

كانت القوارب قد قاربت السفينة ، والسابحون فى الماء يطلبونها بقوة العزم . وعلى السفينة يصيح القبطان فى هرج البحارة والركاب :

ــ ألقوا الحبال للغرقى ..

وتتجاوب صيحاته من نواحى السفينة : الحبال للغرقى .

فترامت الينا اطراف الحبال ، وتسابقنا الى القفز فوق السفينة والقبطان يصيح :

ــ ارفعوا المراسى . ارفع الشراع الكبير .

وتتجاوب أوامره يرددها رؤساء البحارة .

رميت نفسي على سطح السفينة وشعرت بجسمها يرتج كأنما خلعته ريح من مرساها .. وصيحة بحار يقول : الرخ قادم !

فنظرت ورأيت الرخ يملأ الفضاء بجسده العملاق المندفع ، وما أن اقترب من السفينة حتى صرخ ، وضرب الصارى بصدره فتمايلت السفينة حتى خلت أنها ربما تنقلب . وصاح القبطان : دفة مستقيمة . الى الامام . الى الامام !

فعرفت أن القبطان قرر أن ينزل من بالبحر خلفه ليلقى مصيره !

وكان الرخ الثاني يدور فى الهواء فلما واجه مركبنا انقض من عليائه فوقنا . وصاح القبطان :

ــ ادفعوا بالسلاح . كل رجل يدفع بالسلاح .

فانتظمت البحارة والركاب صفوفا شاهرة الرماح والسيوف والخناجر والعصى .. وما أن اقترب جسد الرخ حتى دافعته الاسلحة وانغرس فى جسده بعضها وتفجرت من صدره دماء ، ولكنه لم يأبه لذلك واتجه قاصدا القبطان الذى توسط الجمع وانشب فى جسده اظافره ورفعه فى الجو .. ولكن سرعان ماترنح الرخ ، ورأيناه

يميل يمنة ويسرة مثخنا بالجراح فرمى القبطان ومال نحو الشاطىء . وشاهدنا جسد القبطان يسقط فى البحر بعيدا عن السفينة . فقفز نائبه على الفور الى موقع القائد مكانه .. والناس يتصايحون : سقط الريس . ادركوا الريس ! ..

ولكن نائب القبطان صاح :

ـ الدفة مستقيمة . الى الامام ! واستعدوا بالسلاح .

ولكن أوامره سقطت على آذان اصابها الصمم فجأة ، واجساد غشيها ثبات منذر . وصاح أحد الركاب :

ـ رفاقنا يغرقون . عد أدراجك .

فهتف به نائب القبطان : الى الوراء وأطع !

ولكن فريقا من الركاب لم يمتثلوا وتطايرت همهماتهم : ومن انت حتى تأمر ؟! الريس فى البحر ..

ثم صاح صائحهم : أيها الرجال .. رفاقنا يغرقون !

فصاح نائب القبطان : من عصى أمرى سيقتله رجالى . انا الريس فوق هذه السفينة ..

وصاح أحد التجار : الرجل سيترك الغرقى والقبطان لمصيرهم . الى الخائن !

وهجم على نائب القبطان مع بعض رفاقه بالسلاح ، فأحاط البحارة بريسهم يحملون عنه ، وانذر الموقف بشر مستطير ، والسفينة تبحر مبتعدة بسرعة ، وفريق من أهلها يطوق بالسلاح فريقا مدججا بالسلاح بدوره ..

وفجأة هتف بحار : انه يأتى !

وهتف آخر : اثنان .. ثلاثة !

فصاح نائب القبطان : استعدوا بالنبال ..

ولكن أحد البحارة قال : انهم يحملون احجارا ...

سيرموننا بالصخور !

وكانت طيور الرخ تحمل في مخالبها احجارا كبيرة .

صاح نائب القبطان : الدفة لليمين ..

واقتربت الطيور ، فصاح : الدفة لليسار ..

وتعرج مسار السفينة ، والطيور تهجم بالاحجار ، والركاب يرشقونها بالسهام ..

سقط في البحر حجر ، ثم حجر آخر ، وارتفع رشاش الماء ليصفع كل امرئ على وجهه ، ثم سقط الحجر الثالث فوق مؤخرة السفينة ، واصاب من اصاب ، واهتزت السفينة هزة عنيفة ، حين اخترق الحجر سطحها وسقط في غرفة الدفة . وصاح بحار : انكسرت ذراع الدفة !

وهتف نائب القبطان : كل رجل في مكانه .. يا اهل الله الثبات . النجارون الى الدفة ..

ومن بعيد كنا نرى طيور الرخ مثخنة بالجراح تترنح في الهواء ، وربما عدلت عن مهاجمتنا ، الا انها استدارت الى الفرقة تفتك بهم في البحر .

ولا يمكن ان اصف في كلمات ما اضطرب في صدور الجميع من مشاعر .. ولكن نائب القبطان كان يعرف مايريد ، وقد قرر الفرار الى عرض البحر ، وكل رجل على السفينة تنازعته نوازع القبول والرفض ، الحزن وطلب النجاة ، النجدة والاحساس بالخيبة .. فمن بكى ومن قرأ من كتاب الله بصوت جهير ومن لبث صامتا بلا حراك ومن قدم يدا لمساعدة البحارة والنجارين والجرحى من الرفاق .

- ولكن القدر كان يحتفظ لنا بصرخة اخيرة قبل ان

تبتعد السفينة عن ميدان المعركة .. فقد اصيب احد الركاب بهياج فجأة وصاح :

ـ ايها الجبناء . تخليتم عن الرفاق . ليتنى كنت مع الشهداء الغارقين ولا اكون مع الجبناء الفارين !

واندفع الى جانب السفينة ، ولكن نائب القبطان صاح : امسكوه .

فامسكوه

ـ قيدوه ..

فربطوه بحبل متين قيد ذراعيه ورجليه وعيناه تذرفان دمع الغيظ والعجز .

***

ابتعدت السفينة عن الجزيرة ، وانطلقت فى عرض البحر بمن تحمل من رجال وجراح .. فى مسيرة بطيئة مترنحة ، وقد نشط البحارة وريسهم فى احصاء اعطابها واجتهدوا للحفاظ على توازنها وترقيع ماتمزق من اشرعتها ، واصلاح دفتها ..

وفى النهار الثانى صاح بحار : جزيرة !

فاجتمع كل الرجال فوق السطح يستمعون لنائب الريس : يا أهل الله .. لقد أراد الله لنا النجاة بالوصول الى هذه الجزيرة حيث ان اعطاب السفينة تحتاج الى اصلاح كثير ، الان سننزل كلنا الى القوارب ونلبث على الشاطىء أياما .. فى النهار سيتولى البحارة اصلاح العطب ، وفى الليل سنبيت هنا جميعا مدة ايام ..

ونرجو الا يكون بهذه الجزيرة قبائل من اهل الشر او العدوان او المتوحشين ، واطلب اليكم ان تلتزموا رفقتنا دائما على الشاطىء ، والله الحامى .

نزلنا الى الجزيرة فى القوارب ، وقد كتلنا الخوف والحذر ، واوقدنا النار وجمعنا ثمارا ورتبنا بالاغصان مايشبه السور من حولنا ، وجلسنا الى الطعام رفقة .. وجرى بيننا حديث متقطع ، خافت يشى بما فى نفوسنا من حزن واسى ..

وكنا نرى السفينة جانحة في المياه الضحلة امامنا ، خالية من الناس ، كأنها سفينة للأشباح ، فنحمد الله على النجاة ..

قال نائب القبطان : تجمعوا فى موقع واحد يا اهل الله . البحارة يحيطون الموقع بالسلاح للحراسة . وسيتناوبون الحراسة في الليل . واعلموا أن الله قد ربط مصيرنا بهذه السفينة المحطمة . اذا اصبح الصباح سنبدأ علاج أعطابها بالخشب والقطران حتى تصلح للسفر ، فهى وحدها أملنا فى العودة الى الاوطان .

ثم مشى حتى تجاوز نطاق الحراسة ، وانتحى جانبا في أحد الاحراش وقعد ، فأدركته لمؤانسته فوجدته يبكى وحده فقلت له متلطفا :

— أتبكى ياريس .

فقال : آن أوان البكاء على من خذلناهم من الرجال ، وتركناهم وراءنا فى البحر ، ومن بينهم القبطان وهو

اشجع من عرفت من الرجال .

ـ أكان قريبا لك ؟

فرفع الى وجها مبللا بالدموع :

ـ كان عمي .. اخا ابي !

فلما رأى الدهشة والانكار فى عينى قال :

ـ وهو الذى علمنى أن سلامة الركاب أقدس من سلامة البحارة والقبطان .لم يكن امامنا خيار !

وتناهت الينا من بعيد صيحة بحار :

ـ المتوحشون !

الفصل العاشر

المتوحشون

أطل من فوق ربوة قريبة ثلاثة رجال شقر ..

كان بعض الرجال نائمين ، وآخرون يغسلون ثيابهم في البحر ، وبعضهم يتسامر أو يأكل .. فاذا الرءوس كلها تتجه لمصدر الصيحة وتتطلع نحو الغرباء .

قال البحارة : أنهم متوحشون ..

وتبدت أجساد الرجال الثلاثة العارية البهقاء ، ولكنهم كانوا يبتسمون ، بل كانوا يضحكون .

تجمع شمل أهل السفينة ، خلف البحارة والقبطان وتداخلوا في كتلة واحدة حائرة خائفة والقبطان يقول : لا تبدأوهم بعدوان .

وتقدم الغرباء الثلاثة من الجمع ، بينما ظهر من خلف الربوة مزيد من الغرباء ..

تأملناهم وعجبنا من لون بشرتهم الأبيض وشعرهم الأشقر وعيونهم الصافية الزرقاء وعريهم الكامل .

قلت للقبطان همسا : انهم خطرون .

فقال : لا تسبق الحوادث .. فلعلهم أهل ود .

وبادرهم أحد التجار : السلام عليكم يارجال .

ولكنهم ضحكوا ولم يتكلموا . ولعلهم آمنوا جانبنا بعد المفاجاة ، لانهم اقتربوا حتى صاروا بيننا ومدوا

ايديهم يتلمسون ثيابنا بفضول .. ويضحكون .

وقد سرت عدوى الضحك فى جمعنا ، واذا بعضنا يبادلهم ضحكا بضحك .. ويخاطبونهم ، الا أن الغرباء لا يتكلمون ، وانما يهمهمون ..

قال قائل : عجبا ، انهم لايتكلمون .
فقال آخر : ليست لهم لغة . ولعلهم ليسوا بشرا .
فقلت : ومايكونون ؟
فقال هائل : الا انهم ظرفاء . .
وقال القبطان : كونوا على حذر . .

الغرباء يسمعون فيضحكون ، ويهمهمون ، ويشيرون بأيديهم نحو أفواههم ويهزون الرءوس بعضهم للبعض ويضحكون .

قال بحار : انهم يدعوننا للطعام .
فقال رجل : لعل عندهم طعاما ساخنا .
وقال آخر : الفرار أدعى للنجاة .

وصاح بحار ثان : ياريس . أننا سنلبث هنا اياما قبل ان نصلح السفينة ، واخشى ان رفضنا دعوتهم او جافيناهم أن يغضبوا وهم كثرة .. ونحن على ارضهم .

فقال تاجر : ولماذا نغضبهم اذا كانوا قد بدأونا بالمعروف ..

وقال الريس : لا نعلم أمرهم بعد ..

وقلت : اذا كانوا لايتكلمون فقد علمنا انهم ليسوا بشرا ، ولم اسمع فى حياتى ببشر فى هذه النواحى غير قبائل الزنوج والهنود ..

فقال بحار : ياريس فلتختبر قصدهم . سأتظاهر بالفزع واصطنع الفرار ، فان جروا خلفي وامسكوا بي كانوا يريدون بنا شرا وامامكم الخيار .. اما اذا لم يعبأوا بي وخلوني لحالي فهم مسالمون .

فقال الريس : افعل .

وصاح البحار : الفرار يامسلمين ... الفرار !

وجرى نحو البحر ، ورمى نفسه في الماء ، ولم يتحرك الغرباء ، وانما ازدادوا ضحكا ومرحا وهم يرقبونه في دهشة ..

فقال تاجر : انهم مسالمون ، وهم غير مسلحين .

وكان الغرباء يشيرون بأيديهم الى أفواههم ويضحكون فقال الريس : نقبل دعوتهم للطعام ، ولكن كونوا دائما على حذر ومجتمعين لا يتفرق شملنا ابدا ..

ولكنني لم اكن مطمئنا ، ومع اني لا احب مخالفة الجماعة ، فقد حفزني هاجس قوى لان اقول : انهم ليسوا بشرا ، وهذا ادعى للحذر ..

ولكني مشيت مع جماعتي خلف الغرباء نحو التل حيث احاط بنا كثير منهم ، يلمسون ثيابنا برفق ويضحكون .

بعد التل عبرنا واديا اخضر واخترقنا دغلا كثيفا ثم انتهينا الى ساحة كبيرة حولها تلال وصخور بها فتحات كانها ابواب بيوت هي في الاصل كهوف في الصخر ، وعلى الابواب اوراق شجر كبيرة جدا يقف امامها نساء يرتدين الزهور واطفال عارين تماما .

فما ان دخل ركبنا الساحة حتى صدرت صيحات من اهل القرية جاوبتها صيحات من رفاقنا الفرباء ، وضحكات تجاوبها ضحكات ..

وما أن اقتربنا من وسط الباحة حتى قال احد التجار : نساؤهم فاتنات ، وما الطف زينة الزهور على أجسادهن .

وقال بحار : هاهو الملك .

من فتحة احد الكهوف برز رجل مهيب يتفرس في القادمين . ثم تقدم واهل القرية من خلفه يتجهون نحونا ، فما أن حاذى القبطان في مقدمتنا حتى سقط أمامه على ركبتيه .. وفعل الفرباء مثله . فقال القبطان : افعلوا كما يفعلون ..

فسقطنا على الركب نحييهم بمثل تحيتهم فضحكوا في وجوهنا وضحكنا في وجوههم . وقال الريس : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فما اجابه احد الا بمزيد من الضحكات .

وتقدم الملك فجلس القرفصاء بوسط الساحة وحوله جلس الفرباء ، فجلس القبطان امامه ونحن من حوله :

وشخص الى الساحة رجال بالطبول وقعدوا الى جانب الساحة يدقون عليها دقا لطيفا ، فتقدمت فتيات جميلات مكتسيات بالزهور يرقصن بين القاعدين ... والطبول يتصاعد ايقاعها فيتصاعد ايقاع الرقص حتى وصل هذا وذاك الى ذروة من الانفعال والنشوة اثارت الصيحات من كل جانب . وصاح أحد التجار :

ـ تقولون أنهم متوحشون .. نساؤهم سيجعلوننا متوحشين بعد ساعة زمن ، والله المنجى .

فضحك أهل السفينة ، وضحك الغرباء لضحكنا .. وتآلف الجمع حتى دفع الحماس أحد التجار الى القول : سأهدي الملك .

وقام فقدم له قلادة فقام الملك على ركبتيه وحياه ففعل التاجر مثله ، وصار كل تاجر من رفاقنا يقوم فيهدى الملك ويتبادلان التحية .

الي أن صاح بحار : انظروا .. جاء الطعام .

فنظرنا واذا صف من النساءمقبل علينا وعلى أيديهن اوراق شجر عظيمة كأوراق شجر الموز ، وفوقها طعام سخن لم نتبين عنصره الا أن رائحته ذكية وجذابة ، فوضعوا الطعام امامنا ولم يضعوه امام الملك او اهل الجزيرة فعجبنا من ذلك . وسأل الريس :

ـ لن ياكلوا معنا .

فتتابعت التعليقات :

ـ لعل هذه طريقتهم فى الضيافة .

ـ لعل الطعام مسموم .

ـ أتظنهم يدسون السم لنا وهم يضحكون ؟!

فقلت : يا اهل الله .. هؤلاء قوم لا يتكلمون فأين لنا معرفة مايضمرون ؟

ـ رائحة الطعام رائعة والله .

وقال بحار : لا تقلقوا . انا اذوق لكم الطعام .. ولما اكل قال : طعامهم الذ من نسائهم . وهذه شهادة

صدق لوجه الله ومن صدقنى فليأكل .

وضحك ، فضحك الفرباء .. وضحك رفاقنا ومدوا ايديهم الى الطعام وأكلوا فتصايحوا صيحات الاستحسان ولم يلتفتوا لقولى :

ـ فلينتظر البعض على الاقل ..

واخذتهم النشوة وبانت عليهم شراهة زادت من قلقى وخوفى فلم استمع للريس وهو يقول لى : لذيذ حقا . كل ولا بأس عليك .

فامتنعت .. ودق الطبول صـــار يضم الاذان ، والراقصات نفرت اقدآمهن وصرن يتقافزن كأن بهـــن مس من الجن ...

اما رفاقى فقد ازدادوا جوعا ، وتتابعت أمامهـــم اطباق الطعام وهم يزدادون نهما وآقبالا على الاكـــل وتتعالى صيحاتهم وضحكاتهم بغرابة . ويبدو ان الطعام كان حارا لانى رأيتهم الواحد بعد الاخر يخلعون ملابستهم قطعة فقطعة ويتصببون عرقا من حرارة أجسادهم ..

احسست بوحدة وخوف .. ولاحظت أنهم ينفصلون عنى ولا يأبهون بى ، ويقبلون على بعضهم البعض بمودة وحرارة ، ويضحكون ويمزحون ويمدون أيديهم للراقصات بغير حشمة والراقصات يلاطفنهم واهل القرية يضحكون!

أتت النساء بقرعات الشراب فاحتساها القــوم بتلذذ وشره ، وطلبوا المزيد .. فجيىء لهم بالمزيد .

رقبت اصـحابى وقد زاغت أبصارهم وتفجـــرت شهوأتهم وتعالت صيحاتهم وخلعوا ملابسهم وعـربدوا بعضهم على بعض ..

فلما اكتمل عريهم جاءتهم الفتيات بأوراق شجر عليها زيوت ودهانات غريبة ، فصارت كل واحدة تدعك كـل واحد من اصحابي ، ظهره وصدره وعنقه ورأسه ووجهه فيظهر النشوة ويتصايح تعبيرا عن التلذذ .

ولما كنت في كامل ملابسي لم تقربني الفتيات .. وكل من كان حاضرا من اهل القرية يظهر المرح ويضـحك ويصيح ..

ثم قام الملك ، فقام لقيامه اهل الجزيرة وتقدموا جمعنا فتبعناهم برضا ..

قال أحد التجار : طبعا أن اوان الحمام .

وقد ظن أنهم يأخذوننا للحمام .. حيث كانت أجساد رفاقي سخنة .

مضينا خلفهم ورفاقي اسلس قيادا للغرباء من النائم يضحكون ويتصايحون ولكنهم يطيعون حتى وصلنا الى واد به أشجار قصيرة ذات اوراق ، فدعانا أهل الجزيرة لاكل الاوراق وفعلوا قبلنا ففعل رفاقي مثلهم ..

ودهمني رعب زلزل كياني حيث رايت أهل الجـزيرة يسوقون رفاقي بالعصي الرفيعة ويوجهونهم .. ورفاقي باجسادهم العارية اللامعة قد صاروا كما تخيلت اكثر امتلاء والادهان تلمع على بشرتهم ، لـكن عيونهـم أكثر شرودا ..

وكانوا منقادين للغرباء مرحين ضاحكين مقبلين على اكل الاوراق والحشائش بشره . والقبطان معهـم وفي مقدمتهم يفعل مثلهم .. فقطعتني الحسرة على نفسي وعلى

رفاقي واقتربت من القبطان الذى كنت منذ ساعات قد اعجبت بشجاعته وحكمته وقلت له :

ـ سيدى . سيقتلوننا !

فنظر الى نظرة من لايفهم وقدم لى حفنة من الاعشاب متلطفا ففزعت منه .

فلما اكل رفاقى ماشاء لهم الغرباء ، وازدادوا ودا وقربا معهم ومع بعضهم البعض حتى تشابكت الاذرع .. ساقونا الى الساحة من جديد حيث رايت انهم قد اشعلوا نارا عظيمة وجاء الملك فجلس وجلسوا من حوله واخذت النساء يرقصن من جديد والشمس تميل مع الغروب .. ثم اقام الرجال حاملا فوق النار .

قام الملك فطاف بضيوفه يتحسس كل منهم ويقيس سمنته والرجال يضحكون له وهو يضحك لهم .. حتى اختار اسمنهم واقتاده برفق نحو النار والرجل منقاد له يضحك ، وزملاؤه يضحكون ..

قفزت من الهلع على قدمى وصحت بأعلى صوتى : النجدة يا اهل الله ، سيقتلونه !

فما وجدت من رفاقى غير وجوه باشة ضاحكة ، ومن الغرباء غير ضحكات لطيفة وعيون تستطلعنى ما اقول .

جحظت عيناى وانا ارقب رفيقى والغرباء يقيـــدون قدميه ويديه ويعلقونه على الحامل فوق النار ويضحكون له فيضحك لهم .. فلما مسته النار صرخ وغشى عليــه فمالت رأسه ، ورفاقه يضحكون منه والغرباء يقلبونه على النار ..

صرخت فى رفاقى : افيقوا !

فما سمعت صوتى فى ضجيج ضحكهم .. فتركتهم خلفى وجريت اطلب شاطىء البحر ، وقد طاش صوابى واخطات الطريق ثم عدلت اليها .

ومن عجبى أن أحدا لم يتعقبنى أو يمنعنى مـــن الهرب ..

صرت الهث من الانفعال لا من مشقة الجرى ، وقد اظلمت الدنيا فى عينى مع اقتراب الغروب حتى وصلت بحمد الله الى الشاطىء . واخذت احد القوارب ودفعته بالمجدافين الى عرض البحر ..

ولما تأكدت من نجاتى من المتوحشين نظرت نحو الجزيرة ورايت وهج النار من بعيد فتقطعت حسرة على رفـــاقى واشفاقا من مصيرهم فصرت اضرب راسى وصدرى بيدى واصرخ أستدر الدموع من عينى ودموعى عصية وعيـونى لا تكاد ترى ..

الفصل الحادى عشر

جزيرة الحب

اكان حلما ام حقيقة ؟!

الجنون يداخل عقلى ، وأحس كأنى غارق فى اغماءة عميقة !

احس كأنى منفصل عن العالم من حولى ، وكأنى نائم يداهمنى كابوس ثقيل .

فهل حقا لاقى رفاقى جميعا ذلك المصير المشئوم ، وهل كنت معهم وتخليت عنهم وفررت بنفسي دون أن ادفع عنهم !

الجنون يداخل عقلى ..

وهاهى السفينة المعطوبة على مرمى ذراع منى كسفينة الاشباح وقد تحول كل اهلها ماعدا واحدا الى اشباح تضحك وتقدم اعناقها للذبح بوجه بشوش !

والسفينة الماثلة امامى بكل ماعليها من ثروات وكل ماضمته من ذكريات ومالقيته وواجهته من مخاطر وأحداث .. رابضة فى المياه الضحلة ساكنة صامتة مظلمة كأنها صخرة صماء .

السفينة التى قاومت طيور الرخ بشجاعة اهلها فقدت اهلها وقرت فى الماء بلا مستقبل وبلا أمل ..

فسبحان الذي يعلم الانسان كل شيء برموز حكمته .
والله قد زود الانسان بالعقل وهو أمضى اسلحة الدفاع .
فان انطمس عقله او غاب صار اعزل ضعيفا منقادا الى حتفه بأقل جهد ..

لبثت في قاربى اياما .. كلما جعت ارتقيت السفينة لا تبلغ بالماء والطعام ثم تدهمني الوحشة والحسرة في قاعات السفينة التي تحمل آثار أصحابى فانزل الى قاربى وانام فيه .

في النهار انظر نحو الجزيرة وملء قلبى الأمل أن اجد احد رفاقي قد افاق من غيبته وهرب نحو البحر .. لا احد !

بعد أيام قلت لنفسي : ياعبد الله . ما الذى يبقيك هنا وحدك ؟ الجزيرة لن أجرؤ على نزولها بعد اليوم ، فان فرغ الطعام والشراب في السفينة ماذا تفعل ؟

قررت ان اتحرك والاقي قدرى محاولا النجاة من الموقع المفزع الذي امتلأت ارضه وسماؤه باطياف الفزع والاحزان .

جمعت في قاربى كل ماتيسر من الطعام والشراب حملته من فوق السفينة .. ثم فكرت في الثروات والتجارات التى خلفها فوقها الاصحاب وقررت اخذ ماخف حمله وغلا ثمنه منها وكتابة أسم كل مسافر على بضاعته .. وردها الى أهله ان نجانى الله وعدت الى بلادى سالما .

ففعلت ذلك كله واستخرت الله واعملت المجدافين الى عرض البحر .

أيام بعد ايام قضيتها بين البحر والسماء وحيدا خائفا

اطلب اتجاه الشمال مسترشدا بالشمس نهارا وبالنجم القطبي ليلا ..

اجدف ساعة واستريح ساعة ، انام بالليل او بالنهار واحرك المجدافين كلما سمحت عافيتي ، واشرب او اتناول الطعام بقدر ..

ومع ذلك نفد الزاد ولم اصل الى شيء من الارض .. ماء فوقه ماء .. وسماء على سماء .. ولا شيء بي سوى الجوع والظمأ .

انقطع املي فقلت : لماذا اهدر عافيتي في التجديف وما بقي لي منها الا القليل ولا اعلم اين انا من الكون ؟.

صنعت مظلة فوق راسي ورقدت في القارب وقد تركته لهوى الموج وتيارات البحر وأسلمت قدري لله تعالى وصرت يقظان كالنائم ونائما كاليقظان ارى الرؤى وتنتابني المخاوف واحس بشفتي قد تشققتا ..

بعد حين لم اعد اشعر حتى بآلامي .. صرت مجرد قطرة تنطوي على رمق من الحياة .. سابحة في محيط من الهلاك .. أريد أن أنام فلا اصحو .. وربما يسرقني النوم الى الموت في هدوء وبلا الم ..

وفجأة .. تناهى الى سمعي غناء مطرب !

كانت الدنيا ظلاما وانا راقد في عمق القارب لا اقوى على النهوض ..

تشبثت بجانب القارب ورفعت راسي والموسيقى العذبة تتردد في جوانب الافق فرأيت لدهشتي جزيرة مضيئة امامي وعليها حوريات يرقصن ..

جزيرة الحب ؟!

فركت عيني ومددت يدى فى الماء وبللت راسى ووجهى وانا غير مصدق .

جزيرة الحب !

كما تصفها الحكاية ، نور وبهجة متفجرة .

تحاملت على نفسى وقعدت فى القارب ورايت القارب يندفع بقدرة الله الى الشاطىء منسابا بيسر .

اهتزت أعطافي وتفجرت النشوة فى صدرى وعجبت من نفسى وهى تهجس لى : هنا يموت الناس عشقا !

ومع ذلك لم أتردد فى ان ادلى قدمى فى المـــاء . والراقصات الحسناوات حين رايننى اشرن الى بالاقتراب والدخول فى حلبة الرقص ..

تقدمت غير هياب .. وقد شملنى سرور تطايرت معه من قلبى كل احاديث الموت واستبدت بى النشـوة وانا أهرول فى المياه الضحلة نحو الشـاطىء واملأ عينى بحسن الحوريات البديعات ورقصهن الخلاب وقد تسربت الموسيقى الى شرايينى ودماغى واعصابى وعظامى فصارت منى وصرت منها ..

ولما صرت بين الجميلات .. غنيت على موسيقاهـن ودخلت حلبة الرقص على ايقاعهن فأمسكتنى احـداهن بدلال مثير وهمست فى أذنى : أيها الغريب .. لا تتعجل قضاءك فتدخل حلبة الرقص .. اذا احبتك احـــدى الحوريات واحتضنتك هلكت ..

وكانت اقرب الى من الاخريات ..

فمددت ذراعى احتضنها بشوق ، وشعرت ساعتهـا

اني اتلاشي ، وكنت فرحا بالتلاشي فى احضانها .. غائبا في حبها ..

ولكن شيئا ماضربني على وجهي ..

وسمعت صوتا يقول :

ـ اما قلت لكم انه حي .. انته .. يارجل !

فادرت راسي ونظرت ..

رايت سفينة فوق راسي وعليها بحـــارة ينادونني ، فنظرت حولى فلم أر غير جانب السفينة ملتصـــق بقاربى والشمس فى كبد السماء .

ظللت عيني بكفي .. وسألت :

ـ انا حي ؟

فضحك البحارة وقال احدهم :

ـ تسالنا ام نسالك ؟!

فحاولت ان انهض وماقدرت فملت في القارب حتى سقطت في الماء ونبهتني برودته فعلمت أن أعضـــائي ستخذلني وساغرق .

فهتفت بصوت مبحوح :

ـ النجدة !

وضحك البحارة مني والقوا الى الحبل حتى اتعلق به .

الفصل الثاني عشر :

جوهرة

عشت فوق السفينة كالفتى المدلل .

احكي للتجار حكاياتي .. فمن يصـــدقني ومن لا يصدقني ..

غير ان المصدقين والمكذبين كلهم كانوا ينصتون لي كأن على رءوسهم الطير .. شغوفين مسحورين .

ان المرء قد يروى ماجرى ..

ولكنه لا يستطيع أن يبوح بسر نفسه وما أعتراه من روع أو مرارة الا لاقرب الناس اليه . واقرب الناس الى قد فقدته وضاع مني أثره ..

المرء قد يروى ماحدث ..

الا أن الالام والمخاوف والهواجس والشهوات تظل في النفس أسرارا لا تباح .

عادت سفينتنا الى البصرة التي استقبلتني بالترحاب واستقبلتها بالحب والترحاب .

قصدت الى القاضي وسلمته ثروات الغائبين من رفاق سفرتي المشئومة . ودفعت بمالي وبضاعتي الى الدلال ..

ودخلت السوق فاشتريت افخر الملابس ، ثم مررت بالحمام فأزلت متاعب الرحلة .. وقصدت بعدها خان جابر .

لم يصدق جابر انه يرانى سالما !

عانقنى بشوق الصديق ، وجلس الى يرحب بى ويستمع الى حكاياتى وهو يحمد الله على سلامتى . فلما سالنى عما كسبت من البحر من مال او جوهر .. قلت له :

ـ اننى تعلمت ياصديقى من اهوال البحر درسا هو اثمن كنوزى ..

قال : ماهو ..

قلت : الرضى والقبول . لم أعد ذلك الطفـل الذى يبكى ان تنكر له الاصدقاء ، او يقنط ان دار عليه الزمان تعلمت ان الحياة لها اطوارها وفيها الحلو والمر .. وعلى الانسان ان يرضى بها كما تكون ، وان يقنع بما قسم الله .

دهش الرجل وسالنى :

ـ اتعنى انك لن تخرج ثانية للرحلة فى البحر ؟

قلت : نعم . وقد عاهدت نفسى وانا فى اتعس حال على جزيرة الشيطان بانى ان نجوت وعدت الى بلادى سالما لا اركب البحر ثانية أبدا .

قال : الخيرة فيما اختاره الله .

ثم قال : اذا ما استرحت قليلا .. اتحب ان تصحبنى لتتفرج معى على ماتحب ؟

ـ لا عدمتك . وما يكون ؟

قال كأنه يتشهى : صوت هو من ترانيم الملائكة لمغنية وفدت الى البصرة يسمونها جوهرة ويزعمون انهـا من تلاميذ ابراهيم الموصلى ذاته .. اذا علا صوتها خطف الارواح ، وان خفضته ذهب بالعقول .. سنقوم اليها اذا مالت الشمس برحلة تحت الارض ..

فضحكت من تهويله حتى سقطت فى ذراعيه اتخبط .. وانا اقول : ونعم بالجوهرة !

***

حين مالت الشمس تقدمني جابر فى طريق متعرج خلف السوق حتى اذا أدركنا بابا طرقه ، ففتح الباب وتقدمنا غلام الى قاعة مكتظة بالزبائن آنتحينا منها جانبا وسرعان ما وافانا الغلمان بالشواء والشراب ..

كان الصخب يعلو على غناء المجموعة ، ثم صمت الناس فجأة ، وضرب العازفون لحنا قويا ، وانشقت ستارة .. انجلت عن « حياة » .. حبيبتي ومغنيتي واسعد ايامي الماضية ..

غنت على لحن عميق ممدود :

« آه على بغدادها وعراقها ..

« وظبائها والسحر فى أحداقها .

« ومجالس عند الفرات بأوجه ..

« تبدو أهلتها على أطواقها . »

ثم جرفتني موجة عالية من ترديد مجموعة العازفين ، واذا صوت حياة على قمة الموجة ، يرفرف فى أسمى مكان .. .

نظرت اليها فى عينيها ، فلقيتني بنظرة العارف الواثق مما يعرف ، وباشارة من يدها آنعطف العازفون على لحن من القرار ، وران على القاعة صمت كأن على رءوسهم الطير .. حياة ترتقي سلم الموسيقى بخطو موقع الى أعلى سماء ، وهي تغنى ..

« ولى كبد مقروحة من يبيعنى ..
« بها كبدا ليست بذات قروح .
« اباها على الناس لايشترونها ..
« ومن يشترى ذا علة بصحيح .
« ائن من الشوق الذى بجوانحى ..
« انين غصيص بالشراب قريح . »

فضج الناس من الطرب ، ووقفت فى مكانى كأنى وقفت ببابها أو بين يديها ، وقد غمرنى حبها ، ورايتها من خلال دموعى تتقدم نحوى والموسيقى تردد خطرات غنائها من ورائها ، والمستمعون يهتفون : آه .. آه ..

قالت لى حياة : اهو انت ؟

قلت : بربك انه أنا . فهل نحن فى حلم ؟

قالت : نحن فى اليقظة والحمد لله .

وقلت : وهل طاب لك الزمان ؟

قالت : وهل صفى لك زمانك ؟

قلت : عندى من الدنيا مايكفينى .

قالت : وما عندك ياعبد الله غير المال ؟

قلت : الشوق لك . فهل يرضيك ؟

قالت : وماذا تريد ؟

قلت : ان تعودى الى بيتى سيدة فؤادى .

قالت : طردتنا من بيتك ياعبد الله . فهل نسيت

قلت : هل تغفرين ؟

قالت : وقبلها بعتنا بخمسمائة دينار .. أو قد نسيت .

قلت : انت التي طلبت مني أن أبيعك .

قالت : واحسرتاه .. ألم تكن انت الذي بعت ، وألم تكن انت الذي اخذ الدراهم ؟

انا ؟!

وهل نسيت ؟!

وتقاذفت القاعة أصوات من هنا وهناك .

ــ نحن في الانتظار .. لعله الحبيب القديم .. ما الحب الا للجديد .. كلنا احبابك ياجوهرة .. ولنا نصيب .

قلت : عودي معي الى البيت .. بربك

قالت حياة : انتظر حتى نسأل وجوه الناس . ياقوم . رجل كان قد باعني بخمسمائة دينار ، فلما رأى تعلق القلوب بنا وارتفاع شأننا شعر أن الشاري بخسه الثمن وجاء يطلب حقه ، فان كنت اساوي أكثر من خمسمائة دينار ، فالرجل مظلوم وعليكم ان توفوه الثمن او يردني الى بيته ، فمن كان منكم ذا مروءة فليعطه ما يعوضه ومايفتديني به والا سلمته نفسي . اظهروا مروءتكم .

ودوت الموسيقى لتغني :

« ائن من الشوق الذي بجوانحي ..

« انين غصيص بالشراب قريح . »

ولكن صيحات الناس علت على صوتها :

ــ نحن لها .. نفتديك بالروح .. ما قصدت الا أهلها ..

وقذفوني بالدنانير ، مع الشغب علي والشتائم ، وهم في مرح وصخب ، فما شعرت الا بيد جابر تجذبني بقوة وهو يقول : ستقتلنا عافاك الله . قم بنا في

النو ..

وتناوشتنى الأيدىَ تدفعنى وتجذبنى ، وضحكات السخرية تشمت بى ، ونظرات الوعيد ترصدنى ، وانا هالكٌ متهالكٌ ، قلبى ينتفض من غضب وخوف وحرج وانفعالٍ ؛ وعيناى تتعلقان بهذا الوجه الذىَ ما أحببت فى حياتى مثلما احببته شيئًا ..

غرقت فى المهانة والذلّ والعشق والرفض والويل ، وجابر يجذبنى ، والدنانير تصفع وجهى ، « وحياتى » تغنى ضاحكة بوجهى ..

لعنة ألله على هذه ألدنيا !..

لعنة الله على هذه الحياة !..

صرت أضرب سريرى بقبضتى ، وجابر يهدىء روعى فى الخان ويهيب بى :

ـ هون عليكَ ياعبدَ الله .. ماهكذا يصنع الرجالُ !.
عندئذ أفقت ، وتمالكت نفسى ، وقلت :

ـ غدا اشترىَ متجرى واركب البحر ، لا بقاء لى هنا يوما آخر .

ـ الم تقل لى انك عاهدت نفسكَ الا تركب البحر ؟ هداكَ ألله ..

ـ لابدّ مما ليس منه بدّ ..

الفصل الثالث عشر :

قسمة الكنز

مرت الايام والسفينة تشق الماء فى بحر هادىء وطقس بديع .

قضيت أوقاتى فى السمر واستماع الغناء .. فعاودنى المرح ، وتعلقت بالحياة وخيل لى انى شكيت من حنقى وغضبى واحزانى ..

وكما أن للبحر قدرة على نسج الشعور بالانقطاع عن الدنيا .. فأهل البحر يملكون القدرة على نسج مشاعر التواصل بالبشرية والمؤانسة والطرب والامتاع .

وسطح السفينة فى النهار ، اذا واتى الطقس وهدأ البحر يصبح منتدى للسمر يجتمع فيه رفاق الرحلة بلا كلفة ويتبادلون الأحاديث والنكات .

وكانت الرحلة قد سلخت أسابيع فى جو بديع وبحر هادىء رائق .. فتآلفت القلوب وتعارفت النفوس .

والمرء حسن فى الظروف الحسنة .. لا تدرى مايكون فى المحنة .

ولكنى لا اريد ان اسبق الاحداث ..

كنا فى سمر وضحك وطرب .. ولكن صيحة تناهت الى اسماعنا اسكتتنا على الفور ، والتفتنا مستطلعين .. كرر القبطان :

ـ القوا جميع المراسى !

تهب القاعدون وقوفا ينظرون ..

كانت السفينة فى عرض البحر ، ولا يلوح اى شاطىء فى الافق . وكان البحر هادئا والشمس ساطعــة .. الا ان السفينة كانت تجرى على صفحة الماء بسرعة جواد السباق .. فبهتنا ، وعلمنا ان القبطان يريد ان يثقل حركة السفينة .

وسرعان ما انزلت القلوع ..

ولكن السفينة استمرت فى جريانها ..

ولما جاءت صيحة من غرفة الدفة :

ـ الدفة لاتتحرك ياريس !

شق القبطان ثوبه وصاح :

ـ آن وقت الصلاة يا أهل الله !.. فقد دخلنا بالامر القدر بحر المغنطيس .. وتياره الجارف يستعصى على كل حيلة ، وسيدفع سفينتنا وقوارب النجــاة وكل الاجسام الطافية الى الصخور والهلاك ، مالم تدركنــا العناية الربانية بما يفك اسرنا من التيار . والله هــو المنجى !

انقلب الحال الى صراخ وصياح وابتهال وهرج .. وعم الهلع ، وبهت الجميع ، فمنهم من بكى ومنهم من سجد لله ومنهم من القى بنفسه فى البحر .. فكنا نرى البحر يجرفه حول السفينة بسرعة وهو يتقلب على الماء بلا حول ولا قوة ..

تبدت لنا الصخور والشعاب بهياكلها المرعبة .. تندفع

نحونا باقصى سرعة ، فعلمت أن النهاية قربت فاغمضت عينى وشق صدرى فزع مفاجىء لم يترك لخواطرى اية فرحة للوهم او الذكريات .. واحسست أنى غـائب لا محالة عن الوعى ، ولكن قبل الغيبة الكاملة احسست برجة هائلة وسمعت بأذنى صوت تمزيق الخشب والحديد على أسنة الصخور .. واخذتنى الغشية .

***

خيل لى أنى أسمع ضحكات .

وبين الضحكات سمعت صوت رفيق سفرى «ميسور» يهتف : نجانى الله !..

فتحت عينى فرأيته يجرى على شاطىء ..

تحسست اعضائى فوجدتنى معافى ..

قمت قاعدا ، فرأيت ان البحر رمانى على الشاطىء .. وكان يحف بالشاطىء جرف عالى الصخور ، فهو مساحة من الرمل محصورة كحفرة يغسلها الماء بموجات مندفعة .

اقبل على « ميسور » يعيننى على النهوض :

ــ نجاك الله ياعبد الله . قم !

فقمت مذهولا اقول : الحمد لله .

قال ميسور : تعال ننظر من نجا من الرفاق .

واخذنى من ذراعى .

كان الشاطىء مغطى باكوام من الصناديق والاخشـاب وحطام السفن ، فضلا عن بعض الاجساد .

كان « وليد » اقرب الناس الينا ، فوجدناه جريحا يرقد نصفه فى الماء فجذبناه . ورأينا نور الدين يتكىء

على ذراعه وعيناه تحملقان ، فما أن رآنا حتى صاح : ضاع مالي ! ..

فما ملكت الا الضحك مما يقول .

فحصنا سائر الراقدين فوجدنا بعضهم قد مات ، ولما لمسنا « عبد القادر » انتفض واقفا ، فلما رآنا أخذ يعانقنا بفرح ودموعه تنهمر .

وجدنا « عثمان » قاعدا تحت الجرف في الظل ، فما ان اقتربنا منه حتى صاح : « أبتعدوا أيها الشياطين ! » . واخرج من كمه سكينا يلمع ، فتحاشيناه ..

ووجدنا « عجيبا » يفيق ، فقلت له : تعال معى نداوي رفيقا جريحا .

قال : « مرحبا بأهل الدنيا ! »

فلما ملت على وليد لافحص جراحه حتى سمعت « ميسورا » يهتف :

ــ يا أهل الله ! أرأيتم ماحولكم من حطام السفن ؟! انظروا ماتحت أقدامكم ايها السعداء !

فنظرنا وخطفت قلوبنا المفاجأة ..

فحولنا بين حطام السفن الكثيرة التى اغرقها بحر المغنطيس ثروات متناثرة .. ذهب وجواهر وثياب ملوك وسيوف مرصعة وتيجان وحلى . ودنان الماء وصناديق الطعام وكل ماكانت تحمله سفن غرقت هنا على مر الازمان !

ثروات فوقها ثروات !

اخذ الطرب ميسورا فصار يختطف من تحت قدميه العباءات المرصعة بالجواهر فيرتديها فوق بعضها ويضع

العقود الثمينة في عنقه والخواتم في أصابعه ويشد السيوف الى وسطه وهو يرقص طربا ويغني كطفل ..

استخف الموقف سائر الرفاق بشتى الصور ..

اما « نور الدين » فقد ارتمى يحتضن بذراعيه الثروات واجهش بالبكاء .

واما وليد فقد زحف من بين أيدينا فلما انتبهنا اليه وجدناه ينزف دما وهو يكوم أمامه كومة من الثروات .

وصار ميسون يرمى الاشياء الثمنة لهذا وذاك وهو يصيح :

ــ ارتدوا أيها الرفاق اثمن الثياب والحلى ، فاننا ضيوف الملك قارون ، وسنباهيه بما نحن فيه من ثراء !

ثم التقط مزمارا وعزف عليه بينما تعالت الصيحات : اه .. آه .. اه ! ..

وانطلق الآخرون يرقصون حوله متمايلين .. ولكن شقت مرحهم صيحة من عثمان مخيفة :

ــ ارفعوا ايديكم عن الثروة !

وتقدم خطوتين ، وهو يحدج الجميع بنظرة صارمة . ران الصمت . وجمد الرفاق .

ــ ماذا قلت ؟!

كان عبد القادر اسبقنا للكلام ، فلمع الشر في عيني « عثمان » ، وابرز السكين بيده ، وقال :

ــ اخاف عليكم من غوايتها .

قال ميسور بخفة : عافاك الله من الخوف والقلق ..

فقال عثمان بصوت خطير : وان تقاتلتم عليها سيقتل بعضكم بعضا حتى تفنوا جميعا .

قال « عجيب » مستنكرا : فبماذا تشير ياسيد ؟

قال « عثمان » : سأقسم لكل رجل نصيبا .

فقال عبد القادر : ومن ولاك قاضيا للقسمة ياشيخ ؟!

قال « عثمان » : أنا اقواكم ، وأقدركم على كف شركم .

ولوح بالسكين ...

قلت : وهذا اعجب من كل ماسمعناه سابقا .

فضحك « ميسور » بمرح وقال : واطرف !

قال « نور الدين » بصوت يائس : دعوه يفعل مايريد .

وسأل « وليد » : وكيف تقسم المال بيننا ؟

فهتف عبد القادر : هذا سؤال لا يسأل . فالرجل شرير . والثروة تحق لنا بالتساوى . نقسمها أكواما ثم يختار كل منا قسما بترتيب السن .. الاكبر فالاصغر .

صاح « عثمان » : لا تثرثر انت ! انا اعرفكم جميعا . انتم تجار اشرار مغامرون ، تتبعون الهوى والأمر بالسوء . ويغلبكم الجشع والطمع . وكما تحتاجون أماما يؤمكم فى الصلاة .. تحتاجون سلطانا يكف شركم ويقيم العدل بينكم ويسوسكم .

قال « ميسور » : الرجل بعد أن ترشح قاضيا ولى

نفسه سلطانا !

صاح « عثمان » : أتعرف انت أرضا بلا سلطان ؟!

فقال عبد القادر : الرجل مجنون . هيا نكتفه كتاف المجانين ...

وهم به ، و « ميسور » يقول : بل دعه نضحك منه .. ولكن الضحكة ماتت حيث طعن عثمـــان عبد القادر بالسكين طعنة نجلاء فسقط الرجل يتخبـــط في دمه . وعثمان يصيح فوق صرخته :

ـ الى الوراء أيها الاشرار ! واتركـــوا كل شيء على الارض ..

صاح « نور الدين » : شيطان رصد الكنز !

وصحت انا : لا تلقوا السلاح .

ولكن عثمان سبقنا فالتقط قوسا وأطلق سـهما فوق الرءوس :

ـ ألقوا كل سلاح وكل متاع !

فرمى كل منا مابيده من سلاح ومن متاع .

وتقدم نحونا مهددا ..

ـ الى الوراء . الى الوراء ...

فلم نتوقف الا وارجلنا في الماء ، وهو يقول : من كان منكم يريد أن يكون خادمي وفي طاعتي سينال نصيبا من الثروة ، والآخرون نصيب الذي قتل . الى الوراء ..

فتراجعنا مذعورين في الماء .. الا « عجيبا » ، الذي اقبل على عثمان يهتف : أنا أخدمك ياسيد ، واجعل لي نصيبا من الثروة ! .

فقال له من فوره :
ـ سيكون لك النصف . اجمع كل ماخف حمله وغلا ثمنه وكومه في المكان الظليل تحت الجرف هنـاك ، واسرع !

انطلق « عجيب » بهمة يجمع الثروات .. وقال من بعيد : قرب الماء والطعام ياسيد ..
ـ هذه اجمعها كلها بلا أهمال ..

وقفنا هكذا في الشمس نصف النهار ، و « عجيب » بلم شتات الثروة بهمة ونشاط .. فلما مالت الشمس صرنا نبلل وجوهنا بالماء ونحن وقوف به . فأتى عجيب ببعض الماء يسقي عثمان ، وكان الظمأ قد برح بنا ، فصاح به نور الدين :
ـ اعطنا نصيبا من الماء والطعام ، ولا ننازعك في سائر الاشياء .

قال عثمان : مهما كان عندنا من طعام أو شراب لانفرط فيه ، لاننا لانعلم متى نخرج من هذه الحفرة ، فلا تطلب لنفسك او لغيرك شيئا .
قال نور الدين : سنموت !
فقال عثمان هازئا : عليك رحمة الله !

ارتمى نور الدين وهو يرتعش على ركبتيه وصاح : اذن خذني عبدا طائعا لا يخالفك فى أمر ، واعطنى جرعة ماء !

دفعه عثمان بقدمه : اذهب ألى الشيطان .

فاندفع نحوه نور الدين يصيح : ولو كنت انت الشيطان

نفسه ، فانى خاضع لمشيئتك بجرعة ماء .

ـ ليس عندنا لك نصيب فى شىء ، فابتعد تنجو بحياتك . ! ابتعد !

ولوح فى وجهه بالقوس والسهم فصاح «نون الدين»: لم يقبلنى عبداً بجرعة ماء ، وماء البحر يملأ الافاق ..

ورمى نفسه فى الموج ونحن نحاول ادراكه فما استطعنا من قوة دفع الماء أن ندركه ، بينما صار يتقلب على الموج ويتقاذفه الماء حتى غاب عن انظارنا فى لجة البحر ، فادركنا انه غرق . وتمزقت صدورنا بما وقع ، ولم نعد نملك أنفسنا من الحزن فقعدت فى الماء واحطت وجهى بذراعى لابكى خفية عن زملائى ..

سمعت صوت عثمان يتهدج :

ـ اعط كلا منهم جرعة ماء .

فشربنا ، أنسحب عثمان وعجيب فى ظل الجرف وقد كوما الثروات ورأيتهما يصلحان بعض الصناديق المهشمة ليضعا فيها الكنز ..

قال « ميسور » : فلننطلق لنبحث عن بقايا طعام . أو شراب حتى لا يضطرنا الجوع والظمأ أن نتسول قوتنا .

فانتشرنا نجمع ماعافت نفس عجيب ان يلتقطه من بلح مغموس فى الرمل أو قدر مكسور بقاعه قطرات ماء ، وانتحينا ناحية والشمس تميل فى الافق .

أكلنا ثم قمنا ندفن الموتى ، ونقرأ كلام الله على قبورهم ..

ثم قلت لرفيقى : لا خروج من هذا الجب .. الا ان نصنع سلما من الخشب والحبال نرتقى عليـه الى أعلى الجرف .

سال « وليد » : وهل يتركه لنا آن صنعناه ؟

فقلت : واية حيلة لنا فى ذلك غيرها ؟

انتشرنا نجمع الاخشاب والحبال ، وميسون يقيس ارتفاع الجرف بعينيه ، ويرتب الاخشاب بحيث يصـير السلم متوازن القوة .. فلما أدركنا الليل نمنا ، وصحونا بكرة نعمل بهمة ونشاط .

اخيرا .. اسندنا السلم الى الصخرة ، واتفقنا ان يصعد وليد اولا لانه اخفنا وزنا .. وأن ننتظره ليستطلع المكان فوق ثم نتبعه .

صعد وليد السلم متحاذرا .. درجة درجة ، ونحن نسند اخشابه بأيدينا ..

ولاحظت أن عثمان ورفيقه يرقباننا بانتباه ..

فلما وصل وليد القمة .. اختفى بعض الوقت ، ثم بدا يلوح لنا فوق الجرف ويصيح :

ـ ماء وشجر . نهر صخاب . فواكه من كل صنف . تعالوا تعالوا ..

فهتف عثمان واقفا يصيح به :

ـ أيوجد عمران وبشر ؟

قال وليد : لا .

ـ وهل النهر يصلح للسفر فيه ؟

قال وليد : يلزمكم قارب ..

فصاح به عثمان : الآن فانزل وساقاسمكم الطعـام

والشراب واعطيكم بعض المال اذا صنعتم قاربا ..

فصاح به وليد :

ــ والله لو عرضت علي الكنز كله لا انزل بعد ان فزت منك بحياتي .. فوداعا ايها الرفاق وافعلوا ما بدى لكم ..

اختفى وليد ، بينما اقترب منا عثمان وصاحبه ..

أسر لي ميسور : يحسن ان نطيع .

قلت : نعم ..

قال ميسور لعثمان : واذا اصلحنا قاربا من قوارب السفن المحطمة هنا ، فكيف نستطيع ان نرفعه الى فوق ؟

قال عثمان : سندبر هذا بالحبال ، بعد أن يكون بعضنا فوق وبعضنا تحت .

قدم لنا الطعام والشراب ، واخذ يتلطف معنا بالحديث وقد انتقينا أصلح الاخشاب من عدة قوارب محطمة ، وأقمنا منها قاربا واخذا لا بأس به .. وتدبرنا في رفعه فقال عثمان :

ــ سنرفع الثروة اولا .

صعد عثمان السلم اولا . ثم تبعه ميسور ، وأقاما معا فوق الصخرة قاعدة للرفع تجري الحبال على بكرة ، وارخوا الحبال .. حينئذ صرنا انا وعجيب نربط بهـــا الصناديق ويتعاون عثمان وميسور على ضمان اتزان القاعدة والبكرة من فوق ، ونحن نشد الحبال من تحت لنرفع الصناديق الواحد بعد الاخر .

كنت اشهد فرحة عثمان فوق بوصول الصندوق وهدره مع ميسور .. بينما كان عجيب عندى يرقص طربا ومرحا ويتلطف معى .

وكنت أدعو الله أن يهديهما للخير ، بعدما اقترفا من آثام ، وان ينجينا من الشر .

جاء دور القارب فرفعناه شبرا شبرا على جانب الصخرة ، محاذرين دائما من اصطدامه بالحجر .

وكان التعب والارهاق قد نال منا ، والعرق يتصبب من جسدينا ، وعثمان يهيب بنا من فوق :

ـ الشدة يارجال . كان الله في العون .

فلما حط القارب فوق سحبه عثمان وميسور واختفيا بعض الوقت ، فقلق عجيب وصار يصيح :

ـ عثمان . اخى عثمان .

ثم اشتد به القلق ، فأخذ يرتقى السلم ، ويقول لى :

ـ انتظر حتى أصعد لفوق . حتى لا نثقل السلم بصعودنا نحن الاثنان معا .

ولم يخطر ببالى أبدا ان اسابقه فى الصعود ، او ان الحق به عن قرب ، لخوفى مما سيكون ، ومحاذرة مما سيقع .. وقنعت بالانتظار ، وانا فى اضطراب عظيم .

وكان عجيب قد وصل الى ربع المسافة فوق السلم ، حين بدا عثمان فوق يصيح به :

ـ ياعجيب . اقتل من عندك فقد قتلت من عندى ، ثم الحق بى ..

ففرح عجيب ونزل مجذولا نحوى يشهر السيف . وجريت من خوفى منه . كنت اعزل عن كل سلاح ، وقد

تملك عجيبا جشع يتفجر من عينين وحشيتين ، لم ار في حياتي قط ما اجتمع فيهما من بريق القسوة وبريق السعادة معا .

ولكن ذهني الهمني فالتفت اصيح به :

ـ أدرك الرجل فهو يعطلك ليفوز وحده بالثروة .

فتردد ووقف . ثم حزم أمره وعاد الى السلم يرتقيه بلهفة ويصيح بعثمان ان ينتظر . فما وصل عجيب الى اعلى السلم حتى ظهر لي عثمان .. ودفع عجيبا بقوة فوقع من حالق والسلم فوقه . ولما اقتربت منه وجدته مات ، وعثمان يضحك فوق .

عصف بي الانفعال ..

بللت وجهي بماء البحر وقعدت هناك .. لم اشعر في حياتي بما داهمني آنذاك من الكمد والعجب من الناس . فكم رجلا نجا من العواصف ليلقى حتفه فوق صناديق المال .

لم استعجل تدبير الهرب من هذا المكان النحس . وخليت الوقت لعثمان كي يهرب بثروته ..

التمست الموضع الاول الذي اختاره لنفسه عثمان حيث جمع الطعام والشراب فاصبت بعضا منهما ، وكانت الشمس تميل في الافق فنمت ..

تناوشتني الاحلام المزعجة ، فكنت اصحو فانتبه لما انا فيه فيغشاني حزن فوق حزن واعود للنوم .

في الصباح قمت . فدفنت جثمان « عجيب » ورأيت هدوء ملامحه واسترخاء اعضائه وانا اتامل حكمة الله فاطر السماء والارض ، وصانع النفوس ..

لم يبق امامى الا اصلاح السلم ، وجبر ما انكسر من اخشابه او ما انحل من حباله ..

فلما اتممت ذلك رفعته بكل مشقة على جدار الصخرة واخذت ارتقيه محاذرا خطوة خطوة .

فلما وصلت فوق ، وجدت الدنيا غير الدنيا ..

فانى قادم من فوق ركام السفن والشاطىء الصخرى القاحل ، ومعالم الكوارث ومدافن الموتى .. الى جنة خضراء ذات طيور وحياة ..

اتجهت للنهر ..

فواعجبا !..

رايت القارب محملا بالصناديق ومربوطا بعناية الى الشاطىء ، وفوقه كل الكنوز ..

وعلى جنبه يرقد « عثمان » و « وليد » قتيلين !

فقدرت ان وليدا لم يبتعد عن الموقع بعد ان اعلن عزمه على الرحيل ، وانتظر ، فى مكمن ، فرصة تحين للانتقام او للاستيلاء على الثروة .. كيف ادرى ؟

فلما قتل « عثمان » « ميسوراً » ، ووضع الثروة فى القارب واستعد للرحيل برز له وليد بقضيب من الخشب فضربه على راسه .. ولكن عثمان كان به الرمق بعد ذلك ليطعنه بالسيف فى صدره ..

ورقد الاثنان قتيلين جنب القارب .

فما اتعس المال !

لم استطع البراح الا بعد ان عثرت على جسد « ميسور » .. وحفرت حفرة دفنت بها الرفاق الثلاثة ، وقرات بعضا من كتاب الله ..

ولبثت ساكنا بعض الوقت استجمع شتات نفسي ، ثم القيت جسدي في القارب وحللت رباطه فانساب مع مجرى الماء وقد مالت الشمس للمغيب ؟ ولعلي نمت بعض الوقت ، فلما صحوت كانت النجوم تطل على من الظلام ، والقارب منساب .

تأملت ماجرى واستفزني غضب وانكار .

فقد رايت في حياتي الموت على كل صوره .

رايت الزوابع وشيطان البحر وتحطيم السفن والغرق رايت الرخ والافاعي القاتلة وفتك الصخور .. ومع ذلك لم أر في حياتي اكثر اثارة للنفس بالغضب من رجل قاتل .

فالرجل القاتل هو وحده من دون سائر أدوات الهلاك .. الذي يعرف انه يقتل .

الرجل القاتل شر من كل عواصف البحر ، واخبث .. لان عواصف البحر تمضي في طريقها الخطر بريئة عن العمد والقصد الى القتل .

ها انا اسبح في النهر فوق كنوز قارون ، ولا املك نفسي التي تجيش بالقشعريرة وانا اتذكر كم رجلا فقد حياته فوق هذا الكنز .. وكم من الاصدقاء والرفاق والابناء والارامل يبكون اليوم رجالا ماتوا هنا ، وهم لايعرفون تفاهة السبب الذي قتل به احبابهم !

الفصل الرابع عشر :

أميرة الهند

سمعت ضحكات أنثوية رقيقة ، ثم أحسست باهتزاز الزورق .

قمت من نومي استطلع فرأيت نساء هنديات يهززن قاربي وتتضاحكن مرحات ، فلما رأينني قمت قاعدا في القارب صرخن وجرين متدللات نحو الشاطيء .. فعلمت اني وصلت العمران فدفعت الماء بالمجداف أطلب الشاطيء حيث خرجت البنات ، وربطت القارب الى شجيرة هناك وتبعتهن ، وقد حملني شبابي على الطرب من جمالهن .

فلما دخلت حرشا أطلبهن ، وجدت الجند يحيطون بي متحفزين ، واحدى البنات لاتزال ترتدي ثيابها قد برزت لي تصرخ بالهندية .

ودفعتني في صدري بغضب .. فأحاط الجند بي وهي تصيح بلسانها الهندي .

تملكني الخوف فقلت :

ـ سامحك الله ..

فقالت بلسان عربي : انت عربي ؟!

قلت : نعم :

قالت : وما أتى بك الى هنا ؟

قلت وانا اتحسس موضع ضربتها على صدري : القدر

رماني لألتقي كرم ضيافتكم .

فغالبت الضحك وقالت :

– الا تعلم ان التلصص على البنات وهن فى حمامهن امر يستوجب العقاب ؟.

حمامهن ؟! .. قلت : ظننت ان زورقي يجرى فى النهر ..

فقالت الفتاة : الم تر البوابة على النهر لتعلم انك دخلت بستان الملك ؟

قلت : بستان الملك ؟! أهلكني تيار الماء وانا نائم فى زورقي .

قالت : وهل جئت من بلدكم نائما فى زورق ؟!

قلت : لا والله . فقد كنت فى سفينة غرقت فى بعض النواحي فأصلحت الزورق واجريته فى النهر ..

قالت : سنتحقق من ذلك فى قصر ابى ..

واشارت الى الجند : فاقتادوني الى محل ضيافة الغرباء بجوار قصر الملك ، فوجدته بيتا متواضعا خشنا وقدرت أن هذه المدينة لا تعرف بعد ترف الحياة الناعمة.

***

حمل الى الخدم صناديق الثروة من الزورق ، ففتحتها للمرة الاولى فخطفت بصرى التحف المثمنة وكانت شيئا كثيرا جدا .

صدقني .. لقد أطربني ما أحصيت فى حيازتي من الاشياء الثمينة ، وكنت أحسب اني سأنفر منها لما أريق حولها من الدم . وقدرت أن الاشياء تمضي من يد الى

بد فتذوب من حولها ماارتبط بها من احداث اليمة او ذكريات مؤلمة .

دعاني الملك الى مجلسه فانتقيت من صناديقى بعض الهدايا الثمينة وذهبت اليه فوجدته جالسا بين وزرائه ورجاله والى يمينه ابنته الاميرة .. فراعنى جمالها وهى فى اتم زينتها .

وكان الملك يجلس على سرير متواضع ويتدثر بعباءة خشنة ، وقد ارتدى وزراؤه الملابس فى غير اناقة ، فاحسست بالحرج من كونى قد حرصت على ارتداء اثمن ملابسى واجملها .

سالنى الملك عن حكايتى .. فحكيتها له وهو يضحك ويتمايل من الضحك حتى يضحك معه رجـــاله وهـــو يقول :

ــ زدنا يارجل من عجرك وبجرك واحاديثك المخترعة، ولا تدخر شيئا من اكاذيبك المسلية ..

فقالت ابنته : ولكنى أصدقه يا ابى .

فقال الملك : لانك يا « رانا » لاتزالين طفلة لاتعلمين ما الدنيا ..

قلت وانا اكتم غيظى : فى هذه الدنيا يامولاى اشياء لم أرها فى حياتى ، ولكنى اصدق وجودها ان شـــهد بذلك غيرى .

قال الملك : لا اصدق الا ما أراه ، وقد رأيت فى حياتى كل الاشياء .

قلت : عفوك يامولاى ، لعلك رايت اشـــياء كثـــيرة ،

ولكنك لم تر نبالة وجهك .

طرب قليلا ، ثم ضحك وقال :

ـ وهل يرى الانسان وجهه الا مهتزا على صفحة الماء ؟

قلت : نعم ، فعندى الشيء الذى ترى فيه وجهك كما اراه الآن .

واخرجت من صندوقى مرآة قدمتها له ، فنظر فيها وانزعج ، ونظر حوله فاخذت منه ابنته المرآة ونظرت فيها وشهقت . .

قلت : كل شيء فى صندوقى يامولاى ، هدية لك ، وهى طرائف ليس مثلها عند الملوك ، فدعنى أعرضها عليك .

وضعت بيدى على كتفيه عباءة مرصعة بالجواهر ، وعلى سريره مفرشا من الدمقس ، وتحت قدميه سجادة ثمينة من العراق ، وعلى جانبيه مصباحين من الذهب أوقدتهما فسطع ضوءهما ، وامامه منضدة مطعمة بالصدف والفضة ، ثم قدمت له سيفا مرصعا بالاحجار الكريمة . .

هتفت البنت : ما اجمل هذا !

فقدمت لها من الصندوق ثوبا مطرزا من الموصلى لففته حولها وزينته بالعقود والدبابيس المرصعة ، ووضعت على راسها عمامة موشاة بالذهب والماس ينسدل منها وشاح موشى بخيوط الفضة والذهب .

شمل القاعة طرب وتعالت الصيحات وامسكت الاميرة « رانا » بذراعى وهتفت :

ـ ابقه يا ابي !.. ابقه في بلادنا ليحكي لنا مزيدا من اخبار مالم نر ومالم نسمع به !

***

اهدى لى الملك بيتا فى المدينة ونزلت فى ضيافته اتفرج على بلاده فى النهار ، واعانى السأم فى الليل ، وانتظر . سمعت من الناس أنه قلما تاتى الى هـذه البـلاد سفينة ، ولكن املى لم ينقطع .

فكرت فى أن أعالج السأم بعمل أقوم به .

فمرة كنت فى ضيافة الملك ، وكان يسألنى عن حالى وعما رأيته فى مدينته فقلت له :

ـ يامولاى . لقد رأيت الفرسان فى بلدكم يركبـون الخيل بلا سروج ، والسرج أليق واكثر راحة فى الحرب أو فى السفر .

قال الملك : وماهو السرج ؟

قلت : لو أذنت لى قدمت لك سرجا هدية .

وكان بصناديقى سرج ثمين أحضرته معى .. فخرج الملك الى باحة القصر ومعه ابنته ورجاله فاسرجت له جواده فركب عليه ، واختبر توازنه على الجواد ومشى به وأنا ارشده الى مايصنع بالركاب وكيف يسـوس الجواد . فلما دار فى باحة القصر دورتين ، واطمأن الى السيطرة على الجواد هتف :

ـ ما أيسر الركوب بالسرج !.. كـأنى جالس على سريرى بالذات ! .

فصفقت ابنته من الطرب وسألتنى :

ـ اعندك سرج لى ؟

ولم يكن بصناديقى غير هذا السرج ، فقلت :

ـ اذا سمح لى مولاى فانا اجمع نجارا وحدادا ومنجدا فنصنع سروجا كهذا السرج كما يرى الملك .

فأمر الملك بتنفيذ ذلك .

***

لما رأى أعيان المدينة حفاوة الملك بى ، وانسوا منه الميل لى .. تسابقوا الى زيارتى والتلطف معى واهدائى .. فلم ابخل على احد منهم بهداياى الكثيرة .

فتحت دكان السروجى ، واشرفت على عمل النجار والحداد والمنجد .. وتسليت عن وحدتى وعالجت سأمى بالاستغراق في العمل .

كانت الأميرة تمر بى فى الدكان ، وتغدق على من رقتها ولطفها ..

مرة قالت لى : ياعربى . نسأل عنك كثيراً ، لنطمئن عليك ، وانت لا تسأل عنا أبدا ؟

قلت : بارك الله فيك ولا بارك فى ..

فضحكت وقالت : تلصصت علينا فى الحمام فاغضبتنى ومع ذلك عفوت عنك ، فهل تريد أن اغضب منك ثانية ؟

قلت وانا أتحسس موضع ضربتها على صدرى :

ـ كان عفوك مؤلما يامولاتى فما بال غضبك ؟

ـ فكيف بك أن ذقت عقابى لك بسبب اهمالك السؤال عنى ؟

ـ ان سخطت على فهذا عقاب اليم .

ـ انا ساخطة .
ـ فعلى أن اطلب الصفح وان أسعى الى رضاك .
ـ ولن أرضى حتى تصنع السرج لى وتعلمنى ركوبه كما علمت أبى .
ـ حبا وكرامة ..
ركبنا انا والاميرة فى الخلاء ، على جوادين مسرجين ، وانا ارشدها الى طريقة السيطرة على الجواد والتوازن فوقه واحكام قيادته ..
وكنت اعمد احيانا الى اظهار مهاراتى فتضحك جدا وتريد أن تقلدنى فاحذرها .
لما وصلنا الى ضفة النهر نزلنا نستريح ، وجلسنا بين الزهور البرية . فتذكرت اوطانى ، وما ببلادى من الترف والتمدين والفنون والعلوم وعجبت مما بها أيضا مما يؤلم ، حيث تذكرت « حياة » وما كان منها معى .
قالت الاميرة : ما اطول صمتك ..
قلت : تذكرت بلادى .
قالت : لا تدع الحنين يذهلك عما أنت فيه من راحة البال . انت فى بلد أهله يحبونك ويعظمونك . الا يسرك هذا ؟
قلت : نعم .
قالت : يبدو عليك غير ذلك .
قلت : ليتنى كنت مثلكم ولى عاداتكم وبنفسى مابنفوسكم .
قالت : لا اتمنى لك ذلك . فقد احببناك كما أنت ، ولما عندك من الذكاء والمهارة . لا تأبه لعاداتنا وكن دائما أنت .

قلت : وددت لو استقامت اموری وعشت فی بلادکم

قالت : هذا افضل مما یقال عندنا فی مثل هذا الحال فعندنا یقال : وددت لو اموت عندکم .

وقامت تجری وهی مضطربة ، فعلمت أن الامیرة قد تعلق قلبها بی فاعترانی الخوف .. حیث أن ابنة الملك تكون عادة موضع تنافس بین شباب الاسر الغنیة ، ولعل اظهار هواها یعرضنی لمخاطر لم اطلبها .

عمدت الی العودة للمدینة بسرعة .. فما أن افترق ، کل منا فی سبیله حتی لاحظت هرجا فی السوق ومنادیا یصیح : سفینة ! .. یا أهل البلد .. سفینة !

فخفق قلبی بقوة ، ولویت عنان الجواد نحو المرفأ ، فوجدت سفینة فی الافق تتجه للشاطیء فعمدت الی بیتی بأسرع ما استطیع ، وجمعت ماعندی مما خف حمله وغلا ثمنه فی صنادیق وانا مضطرب من انفعالی . فلما اتممت ذلك فكرت فی زیارة الملك لاستئذانه فی السفر ، فاذا طارق یطرق علی الباب ورجل من الحاشیة یدعونی الی القصر .

كان رجال الملك یحیطون به ، وكل منهم فضلا عن سیدهم ، من اصدقائی وممن انتفعوا بمشورتی وهدایای فلم اضطرب لاجتماعهم علی هذه الصورة ، ولكنی تعجبت من غیاب الامیرة فی ساعة الوداع هذه .

ــ دخلت سفینة المرفأ یاعبد الله ، فهل عرفت ؟

ــ نعم یامولای .

ــ قلما تدخل سفینة فی مرفئنا لان البحر من حولنا خطر . ولكنی علمت أن هذه السفینة تأتی من البصرة ، ولعلك تجد فوقها من تعرف ..

قلت : نعم يامولاى .
قال الملك : فعلام عزمت ؟
قلت : عن أى شىء تسألنى ياملك الزمان
فاستاء وقال : الا تعلم عن اى شىء أسألك ؟!

قلت : لا تؤاخذنى يامولاى ، فمازلت مبهور الانفاس مما سمعت .

قال : لقد أكرمنا ضيافتك يا عربى ، فهل تشكو من اى شىء ؟

قلت : حاشاى . وانا مدين لك الى آخر العمر ..
قال متلطفا : ونحن مدينون لك من حيث علمتنا صنائع كثيرة واضفيت على حياتنا ترفا ولطفا لم نعرفه قبل . ولذلك فقد استشرت رجالى فوافقونى انك عندى اغلى من كل الاشياء التى أحببناها . انت أثمن شىء أملكه . فاطلب ماشئت اقضيه لك .

قلت : أكرمتنى يامولاى فوق ما استحق ، ولا اطلب الا اذنكم فى العودة الى بلادى واهلى .

فغضب وقال : غدر بك لسانك ياعربى ، فما هكذا يكون شكر الملوك على عطاياهم .

قلت : ماذا قلت ليغضبك يامولاى .
قال : أيرد للملك قول أو اشارة ؟!
قلت : لم أرد لك قولا أو اشارة !

فاشار بيده ، فاذا الجند احاطوا بى ، واقتادونى اقتيادا الى باب جانبى بالقاعة فنزلت سلما فما بلغت نهايته حتى وجدت نفسى فى السجن ، واغلقوا على بابه

وذهبوا ..
مضى النهار فلما أتى الليل جاءونى ببعض طعـــام عافته نفسى ..
جافانى النوم ، ولما أصبح الصباح داخلنى الخوف ، فاختلط بالسخط فى نفسى ، فارتبكت ..
السفينة العربية فى المرفأ ..
وأنا هنا سجين لا يعلم عني احد شيئا ، ولو قتلنى الملك ، لن يعرف أحد محنتى !
لما مالت الشمس جاءنى سجانى بالطعام ، فلما رأى طعام البارحة امامى قال :
ـ لم تأكل طعامك .
قلت : لا اريد .
قال : لا تحزن لما أنت فيه وأولى بك أن تسعد باعزاز الملك لك .
قلت : اعزاز الملك ؟!
قال : غدا تذهب السفينة وتعود أعز ندمائه .
قلت : وهل يصفو لى مجلسى معه بعد اليوم ؟
قال : او كنت تحسب أنه يفرط فيك او يتركك تسافر بعد ان احب مهارتك وبديع صنائعك ؟
قلبت رأسى عجبا !
لقد قال لى انت اثمن شيء عندى وأغلى شيء أملكه .. فيالخسة التفكير وحماقة التعبير !
كلما ألتفت ناحية صادفت عجبا ، ومن أعجب ماصادفت أن يصبح كرمى ومساعدتى سببا لعبوديتى ، وأن تصبح مهارتى وذكائى سبب الازدراء بى وسجنى .

قلت للسجان : انا انسان ولست شيئا يكتنزه الملك، او انا من جملة مقتنياته .
قال السجان : وكيف تعجب من ذلك وفى هذه الدنيا كل رجل يملك الآخر . هذا هو الناموس ، مهما زين المنافقون أحوالنا . فهل تعرف فى بلادكم غير ذلك ؟..

تأملت قول السجان ، فعلمت أن الدنيا ضاقت بى . ولا احسب أنى أحسست فى حياتى بالضيق مثلما احسست فى تلك الساعات ..

فانى ماسافرت من بلادى الا لمحب رمانى او محبين امتصوا خيرى ثم نبذونى نبذ النواة ، وكما ركبنى عجوز البحر استغلنى اصدقاء محسوبون على . لقد كنت مجرد شيء هنا وهناك ، أو ليس الافضل ان أكون شيئا مرغوبا فيه ومحبوسا فى قصر الملك ، من أن اكون شيئا رمته الحبيبة فى خان البصرة لجماعة من السكارى يهزأون به او أن اكون شيئا رماه البحر فقيرا مسكينا على حائط ضريح « سيدى الغريق » ؟!

تمردت على نفسى ولعنت المقارنة !
انا لست شيئا ! انا انسان .. ولن أدع لاحد سبيلا

ان يمتلكنى بالمعروف او بالعدوان ، حبا ان انتفاعا او استغلالا .. فأنا انسان !

انا رجل حر ، ولن أدع لاحد سبيلا الى حريتى .
فتح باب الزنزانة فأوقف ذلك خواطرى .
وجدت الاميرة أمامى .

وضعت سبابتها على شفتيها ثم قالت بصوت عال :

ـ قم ياعبد الله ، فالملك يطلبك .

تبعتها صامتا ، والسجان حائر ممتثل .. فاقتادتني في ابهاء القصر حتى وجدت نفسي في الطريق .

كانت الدنيا ظلاما ، وهي تتقدمني وانا اتبعها حتى بلغنا زقاقا يؤدي الى المرفأ .. فتوقفت وواجهتني :

ـ فر بنفسك ياعبد الله . أمامك المرفأ والسفينة ستبحر في الصباح ، وقد اكتريت لك عليها والقبطان ينتظرك ، ولن يعلم أبي الا وانت في عرض البحر سالما ..

ـ وانت ؟

ـ لا تقلق على فابي سيتلطف بي بعد غضب قصير .

قلت : سيدتي . ضحيت برضى ابيك من أجلي .

قالت : أرى دموعا بعينيك .

ـ تعالي معي الى بلادي ..

ـ لا اجرؤ .

ـ تحبينني .

ـ ليتك احببتني كما أحبك .

ـ احبك .

ـ لو كنت اثق في حبك لركبت معك في الحال .

ـ اقسم لك ..

ـ لا تفعل .

وجرت من بين يدي ، وهممت بالمضي الى السفينة ، فما خطوت خطوتين حتى توقفت منفعــــلا : الى اين يا عبد الله . او تترك من احبتك لتعــود تبحث عمـــن نبذتك .. وتتاجر في الخسارة .

عدت ادراجى مسرعا فعند أول منعطف وجدتها واقفة تنتظر ودموعها تنهمر على خديها . تلقيتها فى ذراعى فاحاطتنى بذراعيها وأنا اقول :

ـ يا اميرة فؤادى !.. انا اسيرك واحبك ولا غنى لى عنك فى الدنيا كلها .

فشهقت ونادتنى باسمى وانا أقبلها بشوق فاض منى فعلمت انى ماكتمت حبى لها بصدرى فيما مضى الا اشفاقا من صدها وخوفا من أبيها ، ومن المتنافسين على زواجها علمت كم كنت احبها .

الفصل الخامس عشر :

الحياة بعد الموت

قضيت شهورا في سعادة آنستني في غربتي .

عادت لي مشاعر الطمأنينة وراحة البال التي كانت هجرتني منذ افلست في صباي الاول ..

لم يدخر الملك أو رجاله وسعا في رعايتي والحفاوة بي ...

كنت اقضي نهاري في معملي أدرب الصناع على صنع مختلف الطرائف غير ما علمتهم من صناعة السروج وزينة الفرس ..

وفي المساء كنت في قصر الملك أو في بيتي مع أضيافي نستمع للغناء أو نشاهد الرقص الهندي البديع ، ونقضي جانبا من الليل في السمر .

كانت حكاياتي تشوق كل من اجتمع حولي من أهل المدينة ، فان انقطع الحديث تزاحموا لسؤالي عن بغداد والبصرة وما فيهما من عمران واحوال واشياء . وينصتون مشغوفين ..

وكانت اميرة فؤادي « رانا » تحيطني دائما برقتها وحبها وانسها فلا تغيب عن نظري ساعة الا افتقدتها واشتقت لها .

كما هوت أميرتي ركوب الخيل بعد أن دربتها على ذلك ، فكانت ترافقني كثيرا في ارتياد ما بظاهر المدينة من غابات وأحراش وريف .. فنقضي نهارا في الخلاء الاخضر الغني بالجمال والحياة .

فذات مرة جاءني نجار معملي حزينا وقال لي : عندي نبأ سيء ياسيدي . فقد ماتت زوجة الحداد فهل ترافقني لتعزيته ؟

فاسفت أسفا شديدا وذهبت معه .

عجبت اذ رأيت الحداد في بيته قاعدا . يبكي وهو اشعث الشعر ممزق الثياب يلطم خديه ..

وصاح بنا :

ـ يامصيبتي ! آه مما ألم بي !.. ماذا سيقع لاولادي الصغار المساكين .

وتحتضنه ابنته وهي تصرخ : أنا فداؤك يا أبي . لا تبك وانا فداؤك !

فقدرت انه لابد كان يحب زوجته حبا بالغا ، فواسيته معزيا : يعطيك العمر الطويل يارجل . لا تجزع .

فاعول وقال : ضاع عمري فاين لي به وقد ماتت زوجتي ..

ملت على النجار اهمس له :

ـ لابد انه كان يحب أمرأته حبا فائقا ليجزع عليها هذا الجزع ..

همس لي النجار : انما يجزع على روحه لا عليها .

قلت : يجزع على روحه ؟!

قالَ : لانه يدفن اليوم مع زوجته .
ـ ماذا قلت ؟!

قالَ : هذا ناموس البلد . كلّ زوج تموت زوجته ، او زوجة يموت زوجها .. يدفنان معا
صحت رغما عني : حيا ؟!
همس النجار : نعم .
قلت : ما أفظع العقوبة !

قالَ النجار : ليستَ عقوبة ، وانما رفقة الحيـــاة الدنيا تمتد في الحياة الاخرى .. هذه عقيدتنا .

لاحظت أن الصمت عم البيت ، حيث تناهت الى الحاضرين صيحتى فانتبهوا لما اقولَ .
فخاف النجار وهمس لى : لا تسال !

فصاح الحداد المسكين : دعه يسالَ . دعه يعترض . دعه يتكلم . فهذا الرجل الكريم يأتى من بلاد غير بلادنا وافضل من بلادنا ، ويرى فيما تقضون به على جناية بلا ذنب تفرضونها على وعلى أولادي ، فتقتلون النـــاس بما لا يستحقون ..

حبست لسانى عن كلّ قولَ وناجيت نفسي :
ـ لا اله الا الله .. ماذا يفعل الناس يارب العالمين ؟! ..

وطفرت دموعي وانا انظر للرجلَ الميت الحي أمامى ، وأحسست بغشية .. فجذبنى النجار وقال لى : دعنى آخذكَ للبيت ..

فوالله ما كنت قادرا علي المشي لولا انه أسندنى ، وعاوننى على الذهاب الى بيتى وقد كرهت ايامى ..

لما رأتني زوجتي مريضنا حدثت على ، وسألتني فلم اقل لها شيئا . ولما لزمت البيت جاء النجار يعودني ، فسألته :

ـ بالله عليك قل لي . كان الرجل في غاية الجزع ، ومع ذلك لم يهرب . لم لم يهرب ؟

قال لي : الهرب ذنب يساوي الكفر . فان هرب وعثروا عليه يقتلونه . أين يمكن أن يختفي .. ويهجر العيال ؟ ..

***

لم يهنأ عيشي بعدها ابدا .

كنت ابذل قصاري جهدي للنسيان ، فأعاود العمل والمرح والحديث والاستماع للغناء .. فان سعلت زوجتي او تعثرت في مشيتها اقتلعني الجزع مما أنا فيه فاضطربت نفسي .

وقد كنت أبذل قصارى جهدي لامنع فكري عن الاسترسال ، واتجنب الوحدة ، واطرد مايطرأ على فجأة من أفكار ، واشغل وقتي كله بالعمل او باللهو .. فلا أعدم لحظات تذكر غريبة تملأني كآبة .

كنت اصطاد الغزال مع الملك ، فسبقت الركب وراء الغزال ، واقتحمت بفرسي أخدودا ضيقا بسرعة خاطفة ، ولم تسعفني من خطر شعابه الا مهارتي ، ورميت الغزال فأرديته ، فقال الملك لرجاله :

ـ انظروا جرأة عبد الله وشجاعته .. اقتحم الاخدود

كرجل لا يخشى الموت ..

فتذكرت بسبب كلمته ما أعمد الى نسيانه !

ولما كنا في الخيمة نستريح ، ونتناول المشروبات .. قال الملك : أنظروا هذه الخيمة صنعة ولدي عبد الله . كم هي جميلة ولطيفة ومزينة .. هذا رجـل يحب الحياة !

فتذكرت بسبب كلمته ما اعمد الى نسيانه !

زهدت في عملي ولازمت بيتي وزوجتي ... فكنت استغرق في الحديث معها ، فإن توعكت او اصابها صداع اظهرت اللهفة على رعايتها ، فكانت تضحك وتقول لي :

ـ لم اكن احلم ان تحبني هذا الحب الجياش ياعبدالله. ان سعادتي بك وحبي لك يسموان فوق كل حد ..

فأخجل من نفسي واعطف على حديث آخر .

ومع الأيام صارت خواطري تغلبني على امري وتمتنع على مجاهدتي أياها .. فأطيل الصمت ، او يسرح خاطري رغماً عني ، أو انفرد بنفسي فأخفق في الانتباه لما حولي او لمن حولي .

كنت اتأمل ذاتي ..

لقد صادقت الهلاك بكل الصور ..

اشرفت على الموت اكثر من مرة ، وشاهدت النـاس يموتون بأسباب مختلفة .

وما عرفت اني اتعلق بالحياة بهذه اللهفة التي تـكاد

تعلبني على امرى ..

فاى شيء جرى لى ؟!

شجاعتى تتسرب من بين أصابعى ، وخوف المـوت يغشانى كما يغشى الجبناء أو الاغرار الضعفاء ..

فماذا بك ياعبد الله ؟!

اقول : لعل شبح الدفن بالحياة ، والموت البطيء تحت الارض ، ان يكون اكثر ترويعا للنفس من كل ماشهدت من ضروب الهلاك ! ...

ولكن الذى كان يملأنى مرارة وانكاراً للذات عـواطفى انى لم اكن اخشى الموت لنفسى ، وانما كنت اخشى على نفسى من موت زوجتى .. وهو شعور جوهره خيـــانة الحب والتدليس العاطفى ، والاثرة الخبيثة ..

فكنت انكر على نفسى مالم اعهده من قبل فى خلقى . وانظر لاميرتى التى احبها فاكره افكارى وأثرتى وخـوفى وابغض نفسى ..

ـ بالله عليك قل لى ماذا دهاك ..

ـ ماذا دهانى ؟

ـ منذ أسابيع وانا اراقبك .. تتصرف بغرابة .

ـ اتصرف بغرابة ؟!

ـ لا تردد كلامى كالببغاء ..

ـ لا افهمك .

ـ اتحسبنى طفلة ؟!

ـ لست طفلة ..

ـ تعثرت فاصابك الهلع ، وتوعكت فاصابك الهم ، وما تناولت طعاما الا ذقته قبلى ..

ـ احبك .

ـ اسمت أراك سعيدا . الحب سعادة .

ـ أخاف عليك .

ـ اذا لم تقل لى ستمرضنى .

ـ بربك لا تمرضى .

ـ لابد ان تقول لى . وان كنت تحبنى حقا فلا تكتمنى شيئا .

احبها ، ولن تستقيم مشاعرى أو استرد احترامى لعواطفى الا ان اصارحها .

ـ منذ اسابيع ذهبت اعزى حداد معملى الذى ماتت زوجته . . فعلمت . .

ـ ماذا علمت . .

ـ بدفن الاثنين معا . .

ـ وماذا همك من ذلك ؟

ونظرت الى بعينين واسعتين ، فما ملكت الا ان اجيب مرائيا :

ـ اخاف ان مت فى بلادكم . .

ـ . . ماذا تخاف ؟

ـ أن يصيبك ما أصاب الحداد . . .

فصوبت سبابتها الى وجهى :

ـ كذاب !

ـ بربك . .

ـ حسبتك تحبنى .

ـ احبك . .

ـ بل تخشى على أن اموت فأحرمك الحياة .
ـ اخشى ان اموت انا ..
فغضبت وصاحت :
ـ لا تزد .. فما احببت أنا ذلك المرائي الذي يحدثني الان . ارى المرأة ان مات عنها زوجها تستعجل الدفن وتظهر الزهد في الحياة ، اما الرجل ان ماتت زوجته لا يكف يستعطف الناس ويجأر بالصراخ ..
قلت : كلاهما ظلم .
قالت : ولكنك انت تجاوزت كل حد ، فقد أصابك الجزع من مجرد الخاطر والتصور . من أي عالم انت ؟! مثلك لا قلب له ولم يعرف في حياته الحب . ربما ترمي من احببتها بعد السأم منها او تبيعها بالدراهم ، فأين لك ان تفهم أو تقدر حب ابنة الهند .. صدعت قلبي وأمتهنت حبي فآه من غربتي في بيت حبي ومن ضياعي !

وجرت من بين يدي تجهش الى خارج الدار ، وتبعتها فما أدركتها ، ورأيتها ركبت فرسها . وجريت وراءها اناديها فمن صياحي وبكائها حجم الجواد فسقطت على الارض فجريت اليها واحتضنتها وانا مخلوع القلب ونظرت في عينيها فلم أر الا عتابا رقيقا أدمى قلبي فقلت :
ـ والله احببتك احببتك فوق ماتظنين يا وحيدة قلبي ؟!

فابتسمت ، ثم سقط رأسها على ذراعي فعلمت أنها ماتت ، واحسست كأن سكينا محمي شق قلبي ..

***

ماحدث لي بعد ذلك لا اذكره جيداً ..

فقد قضيت يوما وبعض يوم بين الاغماءة والافاقة ، ورأيت الملك يعزيني ، وغلبه الحزن فبكى أمامي .. ثم رايت حبيبتي راقدة على محفة محمولة وهي بـكامل زينتها وعليها اجمل جواهرها .. ثم احسست بنفسى ماشيا يكاد يحملني أصدقائي من فرط ضعفى ..

وعند فتحة المقبرة ادلوا بجسد حبيبتى والملك يتلطف بى ويربت على كتفي ..

ثم ادلوني في المقبرة بعد ان دفعوا بين ذراعي بكيس فدخلت الظلمة .. ولما أحسست بقدمي تلمسان الارض اغلقت فتحة الضياء فوقى وشملني الظلام ، فتحسست الارض تحتي وقعدت ساكنا محزونا .

علم الله ان حزني على حبيبتي غلب حزني على نفسي فذرفت الدموع هناك حتى تعبت فنمت .

***

افقت من نومي فلم ابصر شيئا في الظلام .

انتباهي .. جوعان ظمآن ، ومن حولي رائحة نفاذة .. تذكرت أنهم أعطوني كيسا بين ذراعي فتلمسته وتحسست مابه ، وما أشد فرحي اذ وجدت به سبعة أرغفة خبز وبعض الزاد وقدر ماء ، فأصبت قليلا من كل شيء خوفا من نفاد الزاد ..

راح الذهول فجعلت اتامل ما انا فيه .

ان لم تقتلني رائحة الموت ، فسيعجل بموتي الجوع والظمأ ..

اعتادت عيناى على الابصار فى الظلام ، ووجـدت الاجساد من حولى متراكمة فقمت افتش عن مكان بعيد منها وافسحت لنفسى مساحة سويتها بقـــدر امـكانى لتكون مقامى ..

عجبت من نفسى بعد ان اشتغلت بهذا الامر ان اهتم براحتى وانا رجل مقضى عليه .

لم اعد اعرف نهارى من ليلى . ولعل هذا ان يـكون السـبب فى اكلى وشربى بلا روية او حساب .. فقـد فرغ زادى بعد مدة .

او لعل يأسى من الحياة او حزنى قد اصابانى بالنهم حتى فرغ زادى ، كما اصابانى بهوس الجوع والعطش بعد أن فرغ زادى ومائى .. فرأيت فجأة رأى العـين الشمس الساطعة على البحر الواسع وسمعت بالاذن صيحة القبطان : الشراع الكبير .. ارفع !! .. فضربت عينى واذنى بكفى حتى عاد يشـملنى الظـلام والسكون فهدأت نفسى .

ولكن فيضا من الضياء غمر الركن البعيد من المقبرة فجأة ، وسمعت اصوات البكاء ، فعلمت انهم يدفنون بعض الناس .. فتملكنى نشاط عنيف وقبضت بيـد حديدية على احدى عظام الميتين .وانا أحملق فى الرجل الحى الذى يدلونه بالحبال وهو يحتضن كيس الزاد .

فلما اغلقت المقبرة وساد الظلام كنت ارى شـــبحه الحائر ، وعلمت انى سأرتكب افظع جريمة ارتكبتها فى حياتى ، فجاهدت لاتمالك نفسى واتحكم فى اطرافى ..

ولكن نفسي افلتت من وثاقي واطرافي خرجت عن طوعي .. فرأيتني كمن يرى شخصا آخر منفصلا عنه .. انقض كعاصفة هوجاء على الرجل المسكين ، والشيطان نفسه يدفع ذراعي .. فهويت بالعظمة على راس الرجل فسقط يتخبط . وثنيت بضربه ثانية حتى تأكدت انه مات .. فانتزعت الكيس من بين ذراعيه وانسحبت الى موضعي البعيد كضبع كاسر .. فأكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ، وانا في غاية الفزع حيث علمت اني لم اعد املك من امري شيئا ، فكأن شهواتي ماردا من الجن انفجر من ذات نفسي منفلتا من كل سيطرة لي عليه .

تصورت بعقل رجل آخر غير الرجل الذي يأكل ويشرب من زاد القتيل بذلك النهم ـ تصورت بعقل الرجل الاخر عثمان .. وقتله رفاقي في الجزيرة اللعينة فتعذبت وعصفت بي خيالات الهوس ، فلم يزدني صراعي مع نفسي الا تمردا وتوحشا وقسوة !

« سأعيش » .. كأن صوتا فوق صوتي يهتف بي . وانكرت الصوت !

لكني انتبهت فجأة .

احسست بشيء غريب يمرق .. فشددت قبضتي على عظمتي وسكنت تماما .

كان حيوانا !

ما تبينت شبحه حتى عاجلته بالانقضاض عليه بعزم شديد .. غير انه افلت من ضربتي وجرى ، فتبعته غير هياب . الا انه اختفى !

نظرت يمينا ويسارا وفوقي فلم ار له اثرا ، ولكن شعاعا بارقا من عيني أثناء البحث فعلمت انى رأيت نجمة فى السماء !

كأن رجلا فى الجحيم رأى طيفا من الجنة !

انشبت اظافرى فى التراب بذلك الموضع كمجنون ، وقد قر فى ذهنى ان ذلك الحيوان قد دخل الى المقبرة وخرج منها من خلال حفرة .. أغرته بحفرها رائحة الموت واشتهاء نهش الاجداث .

حفرت الموضع فوقى فانهال التراب والحصى على وجهى وراسى ، ووسعت الحفرة حتى رايت السماء فوقى فوقعت على ركبتى وذكرت الله أطلب النجاة والغفران وفوق ظهرى مايثقل الجبال من الذنوب .. ثم قمت بهمة فوسعت الفتحة بما يسمح بمرور جسدى ونفذت منها الى الدنيا اشهق لاغترف من هوائها النقى بصدرى ، وصرت أقفز من الفرح حتى ادمى الحصى قدمى .. ولكنى لم اسمح لنفسى بالصياح أو حتى بالهمس .. فقد خفت ان يكون المكان ماهولا .

شحذ خوف الاخطار كل ملكات الحيطة والحذر بنفسى ، فتسللت مجاذرا هنا وهناك استطلع المكان فوجدته قفرا غير ماهول .. فقررت أن انام بقية الليل فى الهواء النقى ، ثم أختبىء بالنهار فى المقبرة .

غفوت حتى ايقظتنى اشعة الشمس فدخلت الحفرة وداريت فتحتها بحجر ، وكمنت فى مكانى انتظر الليل .

فى الظلام اضاءت بذهنى خطة للهرب .

خلعت ملابسي الثمينة وجمعت جواهري ووضعتها في كيس الزاد ومزقت قميصي وقررت ان اخرج في هيئة شحاذ أو ناسك ، واسعى لسرقة قارب في الليل ، واوغل في البحر والله المنجي .

سأحتاج الى زاد .

أتسول الزاد في طريقي ، او اسرق ما تتسنى لي سرقته .

لابد من المخاطرة ، فالقعود في المقبرة موت ، والقعود في هذا البلد سيعرضني للاكتشاف ثم الموت .

حين قدرت ان الليل جاء قمت اقصد الحفرة ، وانا قابض على كيسي وبه جواهري .. ولكن خاطرا ردني الى المقبرة ، حيث تذكرت انهم يلبسون الميت جواهره ..

كان الوحش القاتل قد ملكني فلم أستطع ممانعته . ورأيت نفسي اقلب الاجداث كاللص وانزع ما عليها من جوهر واضعه في كيس ، وأجمع ماتناثر في التراب من جواهر ومعادن وحلي بهمة الغريق يدفع الماء بذراعيه ، ونفسي تنكر على ما افعله ولاتكف .

ولكن قدمي كانتا تتخبطان ويداي ترتعشان .. وانا أدوس فوق الميتين واقترب من جدث حبيبتي .

كانت لحظة خطيرة وكنت اندفع اليها ..

كانت ضربات قلبي تزداد عنفا وانا أقترب من حبيبتي حتى ضميري كان يدفعني بعد أن كان يمنعني كأنه يدفعني للانتقام مني ..

لما رأيتها .. جاشت عواطفي فارتميت على جسدها

ابكى واهتف باسمها واقبلها قبلات الندم واطلب الصفح واسال الله لها الرحمة .

كانت باردة كالثلج .. مفزعة كالموت .

وخلعنى الخوف فجريت حتى خرجت من الحفـرة كطفل مروع .

مضت ساعات قبل أن اثوب الى نفسى .

فلما أفقت الفيتنى ماشيا فى الليـل ، أحمل كيس جواهرى على كتفى كما يحمل الشحاذ كيسه على كتفه . وجدت شجرة فانتزعت منها فرعا واتخذته عصـا اتوكا عليها ..

زدت شعرى تهويشا وزدت وجهى تلطيخا بالتراب وانطلقت ابحث عن زاد وماء .

ولما استطبت برودة هواء الليل .. ومضيت بذهنى خاطرة عجيبة .. وهى أنى لم اكن فى حياتى ابدا غـير هذا الشحاذ السراق الرث الفظ المتوحش المسكين .. احمل جواهرى على كتفى واطلب حياتى من الموت ، وزادى من الجوع ومائى من الظما ، ونجاتى من العاصفة وسعادتى من الشقاء والعدل من الظالمين .. كمن يطلب الماء والزرع من الصخر الصلد .

الفصل السادس عشر :

قطرة ماء

قضيت يومين اسعى فى ريف المدينة ولا اجرؤ على دخولها حتى لايتعرف على أحد ممن خالطت من أهلها ..

ولم اتوان من سرقة بعض البيض من اعشاش الطيور او بعض الخضر من الحقول تحت ستار الليل ، وكلما امنت ..

ولكن بعض الفقراء كانوا يحسنون الى فى الطريق بكسرات خبز آكل بعضها واضع بعضها فى كيسى مع الجواهر والذهب .

ولما رأيت الناس يعاملوننى كشحاذ خطرت لى فكرة .. ان اشحذ خبزى فى المرفأ وانتظر وصول سفينة عربية فاتسلل اليها فى جنح الظلام .

ركبنى الهم والخوف من أن تضبطنى الشرطة وترددت كثيرا .. بسبب لكنتى واعوجاج لسانى فى لغة البلاد ولكن امل النجاة دفعنى الى المخاطرة ، وظننت انى استطيع اصطناع الخرس فلا اتكلم ..

جلست فى المرفأ جلسة شحاذ ولما عبر بى الناس واحسن بعضهم لى أفرخ روعى .. ثم استقر بذهنى ان الناس لابد أن تصدقنى ، ولا حاجة بى للخوف .. حيث

انى فعلا شحاذ .. ومهما كان فى كيسى من جواهر ، ومهما كان فى خزانتك من مال .. فأنا شحاذ ، ونحن فى زمن الشحاذين .

أليس هذا عالمنا الذى نعيش فيه ؟

وهل نحن الا الشحاذون ؟

وها أنا جالس على حافة الماء أنتظر سفينة عربية تحملنى من مدينة قضت على بالموت ، وتمر بى الناس لا تكاد تنظر لى أو ترانى .. ولكنها تزيد همى حيث تشبه الناس فى بلادى فتثير حنينى .

اتشبث بالحياة ، واتذكر أيامى نادما على اغترابى وسفرى من بلادى .

ولماذا اسافر ؟

شىء ما بنفسك ياعبد الله يرميك رغما عنك فيما تكره ويدفعك للهلاك ..

شهوة كامنة للانتحار وقتل النفس ..

وفى صدرك لهب لا ينطفىء ، يؤججه بدواع واهية .. الغضب العاصف ، والقنوط العميق ، والحنق المستعر ، واوجاع تصرخ ، وقلق مستبد ، وشهوة جياشة لعدم التلاؤم ومجافاة الرضى ومجانبة النسيان ومخالفة القناعة بما قسم لك !

فمن أين هذا اللهب العربيد فى قلبك ؟!

وكيف تركته يرعى أيامك ويهلك نفسك ؟!

انت مظلوم الا أنك لم تتحرز من ظلم غيرك ، مجنى عليك وجان ، سجين وسجان ، مقتول وقاتل .. فلم

تتنكب الاخطار وتجار بالرفض وتتلهف على النفى والخروج .. كلما واتتك فرصة للعودة والاستقرار ؟!..

رست سفينة عربية فى الميناء ، ونزل التجار والبحارة يبيعون ويشترون ، فانتظرت حتى جن الليل وتسللت على السقالة فضبطنى البحار الحارس وكاد يصرخ الا أننى وضعت يدى على فمه وجررته الى سطح السفينة وقلت له بالعربية .

ـ انا ملاح عربى وأريد ان اقابل القبطان .

ـ نائم .

ـ ايقظه .

وجررته الى قمرة القبطان وفتحت الباب فهب القبطان فى فراشه يقول :

ـ من تكون ؟

قلت له : انا ملاح عربى تزوجت هندية فلما ماتت دفنونى معها ولكنى هربت من القبر ولجأت اليك

فما ازدادت عيناه الا اتساعا ..

قال : اعد على ماقلت .

فاعدت وزدت ، وهو مصدق ومكذب .. خائف ومطمئن .. قلق وحائر ..

قال : اثبت لى هويتك . .

قلت : ياريس .. هويتى لسانى وعليك أن تسلمنى قاضي البصرة فهو الذى يعرفنى .

قال القبطان للبحار :

ـ احبسه فى مخزن التجار حتى تبحر السفينة .

قضيت فى المخزن يوما وبعض يوم وانا خائف ، فلما

اهتزت السفينة علمت انى سالم وان السفينة سرعان ماتبلغ البحر العميق فى طريق النجاة .. فنمت :

ايقظنى البحار وقادنى الى غرفة القبطان الذى اكرم وفادتى وأطعمنى وسقانى .. وبعد ان استرحت بدلت ملابسى وحكيت له بعض حكايتى فصار يقلب راسه وانا لا اعرف ان كان صدقنى ام لا . ولكنه بعد ذلك صحبنى الى عنبر الركاب وقدمنى الى جمعهم بقوله :

ـ هذا رجل يقول انه تاجر عربى من البصرة ، وان اسمه عبد الله بن عثمان وشهرته السندباد ، وسافر من بلاده منذ عامين ، فان كان عند أحدكم اخبار من بلاده وتخصه فليخبره بما يهمه ..

انهتف احد التجار :

ـ اعرفه .. لعنة الله عليه .. الست الرجل الذى كان يحب المغنية بخان البصرة « جوهرة » واهانهـا فشغبنا عليه ؟ ..

فاطرقت محرجا بينما قام الرجل يربت على ظهرى متلطفا وهو يقول :

ـ لا تنقم علينا لما فعلناه تلك الليلة .. اتعفو ؟
وضحك وهو يضمنى بعطف اخوى .

***

تلقانى جابر صاحب الخان بشوق ..

وتذاكرنا طويلا ماكان بيننا من حكايات المودة ، وحول اخبار زبائنه .. فقال فجاة :

ـ فرت جوهرة من البصرة بعد رحيلك من فـرط ما استعر حولها من تنافس أدى الى نزاع ومشاجرات .. فآثرت السلامة واختفت ليلة ان وقع حادث ادى الى تدخل الشرطة ..

ـ وهل أصابها مكروه ؟

ـ هي لم يصبها أذى . ولكن شابا ثملا أثقل في الكلام تلك الليلة واحتج عليه الزبائن فشهر سكينا ودارت معركة سالت فيها الدماء .. شيء لم يكن يحدث في الايام الحلوة الخالية .. قبل ان يثرى الصعاليك والسوقة من تجارة البحر وسلع الترف ويشغبون على أولاد الاصول ببجاحة وادعاء وتبذل لم نكن نتصور في الزمن الخالى ان يكون من صفات الاثرياء ..

تنهدت وقلت :

ـ تمنيت لو اننى استطعت ان انتزعها تلك الليلة مما هي فيه من مخاطر ..

ـ وهل كان كبرياؤك يسمح لك أن تبقى في الخان بعد ان اثارت الناس عليك ؟

ـ تعسا للكبرياء . لقد أحببتها .. وكان بوسعى انقاذها .

ـ وهل كانت تحبك .. هذا هو السؤال .

ـ كل امـرأة يطيب لها الاستقرار .. لعن الله استكبارها .

ـ وكل رجل يطيب له الاستقرار .. يقولون ، فهل يطيب لك انت ؟

ـ لست مثلها .. فانا

ـ ولم لا . لعلك تحبها لانك مثلها .

ـ قاتلك الله ياجابر .. فانت تعلم انى مثلها ، وانى لذلك اريدها ..

***

كنت قلقا استعجل العودة إلى بغداد ..

كنت اريد ان اختلى بنفسى بين جدران بيتى فى الكرخ اتامل حالى واندم على مااقترفت من ذنوب فى حياتى واناجى ربى .

فما اطعت جابر اذ الح على ان انتظر اكتمال القافلة الشاخصة الى بغداد ، وامرته أن يأتينى ببعض الحرس والمئونة .

ـ الايام اختلفت ياعبد الله ، واصبح الطريق غير مامون ..

قلت : لا عليك من هذا .

فقال : لقد عم الجفاف واحترق الزرع ، وهاجر الفلاحون الى المدن يطلبون الرزق حيث ازداد الاغنياء غنى ، وتجمع الاشرار فى عصابات تهاجم القوافل الصغيرة .. فلا تخاطر بنفسك .

ضحكت من النصيحة ماشاء لى الضحك .

أكتريت ثلاثة جمال وبعض الحراس وانطلقنا فى البادية .

كان الجو لطيفا ، وامتداد الصحراء أشاع بنفسى طمانينة وهدوءا ..

وذات يوم رفع حارس يده وصاح :

ـ حذار .. اللصوص .

نظرت حيث يشير فرأيت جماعة من الفرسان على خط الكثبان مقبلين نحونا .

قلت : مامعنى ذلك ؟

قال : سيهاجموننا .

قلت : لعلهم مسافرين فى حال سبيلهم .

ونشط الرجال فوضعوا الجمال بينهم واحاطوا بها كدائرة مسلحة ، وقال رئيسهم لى :

ـ ادخل فى الدائرة ياعبد الله .

قلت : والله لا افعل .

وسللت السيف وكنت على راس المدافعين ساعة دهمنا الهجوم ، واحد الحراس ينفخ نفيرا عاليا مزعجا استثار فينا الحمية فحملنا على الاشرار حملة رجل واحد ، وسقط الرجال من الجانبين ، واحسست تخاذل رفاقى فقصدت من ظننته رئيسا للصوص وله وجه بشع يشقه ندب غائر فحملت عليه ، واصبته واصابنى اصابة خلعتنى من فوق الفرس فتشبثت بسيور المقود بينما الفرس يسحلنى فوق الرمل ، وسمعت خصمى يصرخ صرخة الظفر ، واحد حراسى يصيح :

ـ النجاة النجاة ..

وكان صوت النفير المزعج آخر ماسمعت قبل أن يغشى على ، والفرس يسحلنى على الرمال الناعمة .

خيل لى انى أسمع اصوات النفير تتجاوب من كل صوب ، ولكنى لم اكن اقوى على تحريك اعضائى ..

احسست انى راقد على الرمل مستوى الجسم ?

وسمعت أصواتا تتحدث .

شيخ يقول : انظرى من جاءنا من الضيفان يا شمس .

وامرأة تقول : رجل جريح ياعم ، وجرحه نازف .

قال الشيخ : أسقيه شربة ماء واغسلى جرحه .

فقالت المرأة : لم يبق عندنا غير قطرات من الماء فى هذا الجفاف اللعين .

قال الشيخ : لقد صارت اذن من نصيبه .

قلت لصاحبة اليدين اللتين تلمسان جرحى :

ـ « حياة » ..

وعجبت انى لقيتها ساعة احتضارى فى الصحراء .

كانت عيناى غائمتين ، ولكن انطبع فيهما شبح لخيمة خلقة ، وعلى بابها شيخ ثابت النظرة الى الامام كأنه أعمى وبيده مسبحة .. ووجه حياة يميل فوقى ، ويداها تبللان جرحى وشفتى .

حاولت النهوض فلم أستطع ..

حاولت الكلام فلم أنبس ..

حاولت ادارة وجهى لانظر حولى فما قدرت ..

ومع ذلك سمعت الشيخ يقول :

ـ من القادم ياشمس ؟

قالت « حياة » : الشرطة ياعم .

وسمعت وقع حوافر الجياد .. وصوت رجل يقول : انت عبد الله بن عثمان السندباد صاحب القافلة ؟

حاولت الكلام فلم أستطع ..

فقال الشرطى : أفق ياسيد .. فقد حفظنا لك

مالك ..

قالت حياة : جرحه غائر دمه ينزف ..

وقال الشرطى : أدركنا القافلة وقبضنا على اللصوص وانقذنا له ماله .. فلابد ان نحمله معنا .

أردت ان اقول فلم استطع النطق :

ــ مال الميتين . كل مال في الدنيا هو مال الميتين .. من لم يسرق الاحياء فهو سراق الميتين !

وسمعت الشيخ يقول : اين يذهبون به ؟

وايديهم تحملنى من كل أطراف جسمى ..

قالت « حياة » : حفظوا على ماله باعم ليفنيه عشا .

وقال العجوز : الله كريم .. حيث دبر له بضع قطرات من الماء فى وعائنا .

وشعرت باهتزاز جسدى ، وأعترانى خوف من السقوط .. فتحت عينى بصعوبة فرايت انى محمول على سحفة سويت فوق الجمل ، مربوطة بسيور ..

حولى بعض الحراس الذين كانوا معى ، وبعض فرسان الشرطة يرمحون حولنا بنشاط .

وخلف الجمل الذى أستويت عليه رجل يتعثر .. قد ربطوه من رسغيه فى ذيل الجمل ، وجهه بشع ويشقه ندب غائر ، وعيناه متحجرتان ..

احسست بالغثيان . لكن الشرطى اقترب منى وعلى وجهه ابتسامة الظفر ، ولما راى عينى تطرقان قال لى :

ــ مالك اعدناه لك .. وقبضنا على السراق .

خذلتنى قواى فلم استطع القول :

ــ مال الميتين . كل مال فى الدنيا مال الميتين .

من لم يسرق الاحياء فقد سرق الميتين ..

***

قضيت شهورا والطبيب يعالج جراحى ..

كنت أتماثل للشفاء ببطء

غير ان شيئا واحدا أستبد بخواطرى .

كنت قد دعوت القاضى الى بيتى ، فور أن استطعت استقباله ، وكلفته أن يبحث فى الموضع الذى هاجمنى به اللصوص فى الصحراء عن شيخ زاهد أعمى وربيبته التى سماها « شمس » .. ولعل أن يكون اسمها « جوهرة » .. أو « حياة » .. فانى رصدت مائة الف دينار وهبتها لهما على قطرة ماء بذلاها لى بسنجية طيبة وانا احتضر ، فحفظت لى حياتى .. فى الموضع الذى هاجمنى فيه اللصوص .

بعد شهور زارنى القاضى ..

قال لى : كلفت رجالى البحث عن صاحبى الهبة ، ومسحنا الموضع الى عشرات الفراسخ فى كل اتجاه ، واستعنا بشهادة رجال الشرطة الذين حملوك وانت جريح .. فلم نعثر الا على شيخ زاهد أعمى ، انكر أن أمرأة كانت معه ، وشهد انه رأى الشرطة تنقذك ، ولكنه أنكر انه اشترك فى ذلك .. ولما اغريناه بالاعتراف بحديث الهبة ضحك وقال : ان كل مال عبد الله لايشترى قطرة ماء فى هذا الجفاف لو نفد الزاد !

الححت على القاضى أن يوالى البحث عن « حياة » .. وعن شيخها الغامض ، وبذلت مالى رخيصا لاسترجاع

هذه اللحظة واهلها .. من بين كل لحظات حياتي .

وكلما مضت الايام يذوب أملي في العثور عليها ويزداد ضيقي وبرمي ..

لم اعد أهنأ ببيع أو شراء ، بغناء أو بسمر ..

لا اعلم ما ألم بي وما يستبد بنفسي من مشاعر متناقضة ..

وجدت نفسي في البصرة ، وفي خان جابر نشرب الشاي ونتسامر .

قال لي جابر :

ـ حسبتك لن تعود الي ركوب البحر ..

فقلت : وانا كنت اظن انى لن أعود الى ركوب البحر .

ـ ماذا يجعلك تضيق بما أنت فيه من راحة ويسر ؟ الذي يضنيك ؟

فاطرقت اتأمل السؤال ..

وسألت نفسي : اعندك ياعبد الله الجواب ..

نحن نتاجر في الجواهر والمعادن الثمينة ، والبدو يموتون من الجفاف ، فهل يثير عجبنا ان تلعننا السماء ، حتى نرى بعيوننا الاشباح ، وتتلبسنا شياطين القلق ؟

الغول

دبرت متجرا وابحرت في دنيا الله ..

طابت لنا الريح شهرا ، وشغلني عن همي رفاق السفر فهدأت نفسي وعدت الى مرحي ونشاطي ولهوي بالسمر ولعب الشطرنج ..

وذات يوم سمعنا صيحة للقبطان فوق ظهر السفينة :

ــ نزل الشراع الكبير ..

جاوبتها صيحات البحارة :

ــ الشراع الكبير .. نزل .

فاندفعنا نستطلع الخبر ، وكان البحر هادئا والريح رخية .. فقال القبطان لنا :

ــ لا تضطربوا يا اهل الله ، فليس الا كسر بذراع الدفة سيجري اصلاحه في الحال .

فلما خلعوا ذراع الدفة انقطع عزم السفينة فسار الموج يدفعها ويجرفها كيف يشاء ، وخاف القبطان أن يفقد السيطرة تماما فصاح : القوا المراسي كلها !

ولما القيت المراسي ثقلت حركة السفينة في البحر ، وصارت تقاوم للثبات .

ولكن « الناظور » فوق صاري الشراع صــــاح : « جزيرة ! » .

فالتفتت جميع العيون الى حيث يشير .. فكأننا

رأينا النجاة باعيننا . وصاح القبطان :

ـ مجاديف اليسار .. وادخلونا فى مياه الجـزيرة الهادئة ..

وانحرفت مقدمة السفينة نحو الجزيرة ، فقال أحد الركاب :

ـ اية ارض هذه ؟.. الله يسلم !

قال القبطان :

ـ لا اعلم اية أرض هذه ، فهى خارج مسارنا الطبيعى، ولكننا سنرسو هنا حتى صباح الغد لاصلاح الدفة ، ويحسن أن نستطلع الحال ..

فلما دخلت السفينة المياه الضحلة قال القبطان :

ـ يامعاذ . خذ عشرة رجال فى قارب واستطلعوا شاطىء الجزيرة بحذر حتى تقضى الليل باطمئنان .

لا اعرف مادفعنى ان اقول :

ـ دعنى اذهب معهم ياريس ، فانى عليم بجـزر المحيط .

قال القبطان :

ـ لا بأس . وانفخوا النفير فى حالة تعرضكم لاى خطر .

اطل علينا الركاب والبحارة من فوق ظهر السفينة ونحن بالقارب نقترب من الشاطىء .

فلما وصلنا الى الشاطىء نزلنا يتقدمنا معـاذ ، الذى قال :

ـ لا تنتشروا . لنتحرك سويا . اتبعونى .

مشينا خلفه ، والى جانبه بحار قد علق النفـير فى عنقه . .

اخترقنا حرشا كثيفا فانقطعنا عن رؤية السفينة وانقطع من فوقها عن رؤيتنا ، ومشينا مسافة ننظر حولنا بحذر ..

ـ جواهر !

صاح حامل النفير فرفع معاذ ذراعيه آمرا بالوقوف فجمدنا ورمينا بصرنا حيث اشار حامل النفير ..

كانت تلمع امامنا فى ضوء الشمس كومة منسقة من الماسات واللآلىء نظمت بهيئة عجيبة ..

همس أحد البحارة : هذا كنز .. الا ان له صاحب نسق حجارته بعناية .

قال معاذ :

ـ ما الذى يحيط بالجواهر ؟ كأنه بيت ؟

فتاملنا مايشير اليه وتعجبنا منه .. فقد كان يحيط بالكنز سيقان غليظة من البوص ليست متصلة كالحائط وليست متفرقة بحيث يمكن النفاذ من خلالها .. ولكننا راينا فيما أمامنا من سيقان البوص فرجة كأنها باب او نجوة . وكانت الاغصان واوراق الشجر متشابكة حول سائر السيقان بحيث لم نتبين تفاصيل هذا العش او البيت او الصندوق العجيب .. فلبثنا ننتظر ما يقول معاذ .

وشوشة الهواء للشجر عن يمين دارت لها ابصارنا ، وقد تيقظت كل حواسنا ..

لا شىء .

فباشارة من يد معاذ .. تقدمنا كتلة واحدة نحو الكنز ونحن نتلفت بانتباه ..

ما أن وصلنا عنده حتى أحطناه كالحلقة وانحنينا

نمد الايدى لنلمس الجوهر وقد بهرنا ضياؤه .

صوت عنيف انتزعنا من جلودنا ، حيث رأينا بابا من جنس سيقان البوص يغلق الفجوة التى دخلنا منها ويدين عملاقتين تربط الباب بحبل سميك !

ومن بين الاغصان وسيقان البوص رأينا عينين لامعتين فى حجم البوص طستين كبيرين ، يتوسطان رأسا بشعا لا تسعه الغرفة المتوسطة ..

ازاح الغول العملاق اغصان الشجر حول بيت البوص ونهض على قدميه فاذا رأسه كأنها فى السحاب ، وحمل البيت بيده فارتج حتى ترنحنا وسقط بعضنا فوق بعض صارخين من الرعب .. وقد ادركنا انه يحملنا فى قفص محكم بعد ان استدرجنا لدخوله ببريق الجوهر ..

نفخ حامل النفير نفيره فارسل صرخة متصلة متلهفة حملتها الريح حتى ترددت أصداؤها من حولنا ..

ولكننا لم نسمع خلاف النفير واصداءه الا وقع أقدام الغول وتكسر الاغصان وعواء الضباع من بعيد ، وكأن الحادث الرهيب قد استنفرها فتبعت صائدنا من بعيد وتنادت بأمل ان تتسقط فى اثر الصياد فتات الصيد بعد الفتك به !

سمع أهل السفينة النفير ، فتطلعوا ناحية الصوت .. وبعد وقت رأوا الاشجار تهتز والاغصان تفترق ثم برز العملاق هائلا يحمل القفص ونحن فيه متجها صوب البحر ، يقصد السفينة ..

سقط الناظرون من الهلع .. الا ان القبطان صاح من فوره على البحارة :

ـ مجاديف اليمين واليسار .. جدف !.. ابتعد عن الشاطيء ..

واخذت السفينة تبتعد ببطء ، والمجاديف تعمل في الماء بهوس .. الا أن العملاق كان يقترب منها بأسرع مما تريد السفينة أن تبتعد عنه ..

وضع الغول قدما في الماء فثار الموج ، ومد يده لصاري السفينة فلم يدركه .. فلبث يفكر لحظة . ثم لامر ما عدل عن ملاحقة السفينة وقنع بغنيمته في القفص وقفل عائدا الى الاحراش ..

كنا في القفص نترنح ونحاول الثبات ، والقفص يتطوح في يد العملاق .

الا أن جناننا قد طار ، وركبنا الهلع ، فتخبطنا بلاحول ولا قوة ..

قال معاذ : لقد ابتعد بنا جدا عن البحر ، فخطوته نصف فرسخ .

وقلت : لقد وصل الى مكانه وهذه ناره .

ساحة واسعة بين الاشجار ، لعله سوى ارضها بيديه ، واوقد في وسطها نارا عظيمة .. حطبها اشجار كاملة ، يرتفع منها الى عنان السماء دخان خانق .

والى جانب النار كومة من الاغصان واوراق الشجر .. وضع الغول صندوقنا على مسافة منها وركع جنبها وكشف بعض الاغصان فرأينا تحتها الوجه البشع للغولة وليفته ، التي كانت راقدة تحت الاغصان مريضة فيما يبدو ..

ربت على راسها بحنان وزأم لها وزامت له ، فكأن

قصف الرعد جعجع فى الفضاء ، ثم اطمأن الى غطائها ومال على النار ينفخ فيها فكأنه أثار عاصفة ارتفعت لها السنة اللهب حتى لفحتنا حرارتها من بعيد ، وصار لها ضياء عظيم .

***

اشار تاجر فوق السفينة باصبعه وصاح :

ـ حريق !

فقال القبطان : بل هى نار الغيلان .

فدق التاجر صدره وشهق :

ـ ايشوون رفاقنا لياكلوهم ؟!

فزجره القبطان بنظرة صارمة وصاح :

ـ اطلقوا ادوات النفير بلا انقطاع .

فكل من كان من البحارة يحمل النفير نفخ فيه .. حتى اتصل النداء ..

***

سمعنا نداء الرفاق فوق السفينة ، ومعناه الوعد بتدبير الانقاذ .. ولكن المصيبة كانت أفدح من غراء الرجاء .

فقد عاد الغول الى ولفيته فقعد جنبها ، وتناول بيده الماء من قدر كبير وصار يبلل جبينها وهى تتنهد بأسى .

صاح احد رفاقنا البحارة :

ـ ياسبحان الله ! كل هذا الحنان ثم يأتى الينا ليأكلنا ..

وسرعان مانهض الغول مقتربا من القفص ، فتفرقنا من الهلع وهو يرقبنا بهدوء . وصاح رجل :

ـ الى السلاح يارجال !

فلولا مانحن فيه من كرب لكان لندائه وقع السخرية ، فماذا تفيد السيوف والسهام في غلظة هذا الجبل العملاق ..

ومع ذلك شهر أكثرنا السيوف من ذهولنا ، وفتح الغول باب القفص فتحة محدودة تسمح لكفه بالنفاذ اليه وصار يتلمسنا باصابعه ، ويقلب الواحد بعد الاخر يقيس لحمه وشحمه ، ثم يدعه الى غيره ، ونحن نضرب اصابعه بسيوفنا فلا تصيبه بأي خدش ، ونتشبث بالابتعاد فلا نقدر على الافلات من يده .. حتى اختار أحد البحارة فأخذه وهو يصرخ ووضعه تحت اصبع قدمه ريثما يغلق باب القفص بالحبل .

برق في ذهني خاطر فانتزعت من كتف معاذ جعبة اسهمه وصحت به : احملني ..

وقفزت فوق كتفه ، فلما ادخل الغول الحبل بين أعواد القفص واراد أن يلفه ليخرج طرفه من بين أعواد الباب .. الصقت جعبة السهام بين الحبل والبوص فلف الغول الحبل حولها وربط ومضى برفيقنا الذي سكت صياحه حتى غلبنا الظن انه غشي عليه من الفزع ..

تطلع الى معاذ يسالني فقلت له :

ـ اذا انتزعنا السهام من جعبتها سيتخلخل رباط الحبل وربما أستطعنا ان نحله ونهرب ..

أخذ الغول البحار في يده فعرضه على وليفته التي

أغمضت عينيها باعياء ، وتناول هو سيخا مصقولا من الزان وحرق به جسد المسكين الذى افاق ليطلق صرخة اخيرة قبل الموت .. ثم سكت .

وضعه الوحشي فوق النار واخذ يقلبه ، ورفاقنا في القفص عراهم التشنج وهوس البكاء .. وشعرت انا بقواى تنهار فسقطت على الارض اخفى عيني بيدى ..

اى موت ردىء .. وهانحن ننتظر مصيرنا كل في دوره !

كان معاذ اشجعنا فاهاب بنا :

ـ تماسكوا ايها الرفاق فلابد من العمل ..

فهب اكثرنا واقفين يتساءلون ، فبدأ معاذ بالصعود على كتف احد البحارة ، والتعلق باحد سهام جبهته حتى انتزعه من مكانه وسقط به على الارض .

كان أنزاع الجبهة من سائر السهام آسهل ، فلما انتهينا من ذلك جذبنا ربطة الحبل الى أسفل ، ولما صارت في متناولنا اعملنا فيها السيوف لتقطيعها ، وتناوبنا على هذا العمل الشاق ساعة ..

فسخ الغول رفيقنا واكل واطعم رفيقته وتجشأ .. وكرع الماء واصدر اصواتا بشعة ، ثم افسح لنفسه جنب رفيقته ونام فصدر عنه شخير مخيف .

اسدل الليل عباءته على الدنيا ..

وجمع القبطان فوق السفينة عشرة من اشجع البحارة قلبا ووضع على راسهم مساعده على العمارى واوصاهم قبل النزول الى قاربهم :

ـ كونوا على حذر . وانظروا اولا ان كان انقاذ رفاقنا ممكن ، فانى لا أريد ان اضيعكم بلا شىء . أن كان

بالجزيرة الكثير من الغيلان فعودوا بسرعة . افضل عندى أن تعودوا يائسين من ان تهلكوا دون أن تفلحوا فى انقاذ رفاقكم . تسللوا متسترين بالظلام فى غاية الحذر ولا تشعلوا المشاعل فى مسيرتكم .

خذوا النفط . استخدموه للدفاع وللهجوم ، واحذروا كمائن الغيلان فهم اذكياء كالبشر فى نصب المكائد . والله معكم .

وعلى الشاطىء تكلم على العمارى فى رفاقه ناصحا : اوصيكم بالصمت والسكون والهدوء . لا تتفرقوا . سنمشى كتلة دائرية لنرى فى كل الاتجاهات .. واتجاهنا نحو النار .

وتقدموا هكذا شاهرى السلاح ، دون اية جلبة ، وفى وسطهم اربعة بحارة يحملون جرتين مليئتين بالنفط ، متجهين فى كتلة واحدة صوب وهج النار .

***

انقطع الحبل ، فلاح لنا امل الحرية ..

قلت لرفاقى :

ـ اذا فتحنا الباب عنوة وجرينا فربما أنتبه من نومه ، وسيسهل عليه جمعنا والفتك بنا ..

قال معاذ : فما الرأى ؟

قلت : لابد ان نصيبه أصابه تعوقه ..

قال أحد البحارة : فلنجرب حظنا والسلام .

قلت خطوته فرسخ ، ولن نصل الى الشاطىء قبل وقت .

ونظرت فى عيون الآخرين ..

وقرات فيها بوضوح ما امتلأ به قلبى من رغبــة فى الانتقام !

همهم بعضهم : نعم . وكيف ؟

قلت : باسيافنا فى ناره ذاتها .

قال احدهم : لم تخدشه سيوفنا .

قلت : فى عينيه ، بسيوفنا متوهجة من النار .. لن يطاردنا وهو اعمى .

قال معاذ : أنا رجلك ..

وقال آخرون : وانا .. وانا ..

قلت : وانا احدكم ، ولنكن اربعة ، نهاجمه كل اثنين من جهة حتى لاندع له فرصة للافلات . وليختبىء الاخرون فى الاشجار ..

امتلأ قلبى بروح العدوان ، وتقدمت مع رفاقى متصلبى الاعضاء الى النار فوضعنا فيها سيوفنا .

وتقلب الغول وزام فارتعشنا من الهلع .. الا ان ايدينا كانت ثابتة على السيوف .. حتى احمرت النصــال وتوهجت ، فأشار بعضنا الى بعض ، وتسللنا نحوه من الناحيتين ، وكان راقدا على ظهره يغط فرأينا أن يقف الواحد على اكتاف الاخر ، فعندما استوينا انا ومعاذ فوق رفيقنا صحت به : الان !

فدفع كل منا سيفيه باليدين فى العين ! وصــدرت صرخة سقطنا من هولها على الارض .. وجرينا متفرقين صوب البحر .

قام الوحش وقامت وليفته فرأت وجهه يتفجر بالدماء وهو ينتزع السيوف من عينيه ، ثم قفز واقفا واندفع

يصرخ فى يأس ، ووليفته تتعلق به وتسقط من الاعياء . ثم ركع على ركبتيه يتحسس وجودنا على الارض فلما لم يعثر على احد منا توعدنا بالصراخ ، وجثت رفيقته التراب على راسها ، ثم نهضت تبحث عنا بعينيها فى الظلام وتعلنه انها تنتقم له ..

تفرق جمعنا بين الاشجار وقد خلع الرعب قلوبنا ، وتقدم الغول ووليفته وراءنا نحو البحر ، فندمت على مافعلت حيث تغلبت شهوة الانتقام على حكمة الراى ، وايقنت باليأس من النجاة وانا أجرى كالمجنون ، والمح رفاقى يجرون متفرقين كالمجانين .

وفجاة .. لمحت جماعة على والبحارة ، الذين بوغتوا بنا ، فجذوا فى مكانهم ..

احسوا بنا نجرى هنا وهناك ، كما احسوا بمطاردة الغول لنا مما أحدثه ووليفته من جلبة . كانت أقدامه تدق الارض كالطبول ، وهو يقتلع الاشجار فى طريقه ويقتحم الاغصان ويصرخ من الغضب ، ووليفته تنادى عليه وقد أعياها الانفعال فهى تمشى خطوة وتقعد تولول برهة ، ثم تنهض من جديد .

صاح على : جهزوا النفط واشعلوا المشاعل .

انما ان هيأ البحارة قدرة النفط حتى ظهر الغول امامهم فهالهم قوته وغضبه وارتعدت فرائصهم من هول منظره وانهمار دمه . لكن على صاح :

ـ اشعلوا الفتيل وتفرقوا .

فأشعلوه وتفرقوا ، وخطا الغول خطوة نحو ماسمعه

من أصواتهم فصار فوق القدرين لحظة انفجارهما فغمره رشاش اللهب وتعلق بكل أنحاء جسده فأخذته الحيرة واستبدت به آلام الحرق !.. لحظة ثم انتبه فجرى نحو البحر يلتمس اطفاء النار .. فلما وصل الشاطىء كان كتلة من الحريق القت نفسها فى الماء فارتفع الموج حتى غمر سطح السفينة واكتسح ساعليها وكل من عليها ولم يتعلق بشيء ثابت ، فلما انداحت الموجة واستوت السفينة نظر من عليها فرأوا الجسد العملاق بلا حراك يطفو على الماء .. فأمر القبطان بالنداء بالنفير على رجساله ، الذين كانوا يجرون هنا وهناك بين الأشجار يلتمسون الشاطىء بكل ثمن .

وصلت الشاطىء بشق النفس ، ورأيت شبح السفينة فى الظلام واضحا وسمعت النفير فقعدت أتنفس الصعداء ..

والتفت يمنة فرأيت الغولة تبكى وتعول فوق جسد رفيقها وتجذبه نحو الشاطىء ثم تنحنى لتمسح وجهها فى جسده المحترق بحنان عميق !

فتعجبت مما عاينت من روع وغضب ، من خوف وشهوة للانتقام ، من ضعف وأقدام وقسوة ..

وتعجبت مما رأيت فى الغيلان من وحشية ورقة ، من قسوة وحنان ..

ولما اكتمل انقاذنا واجتمعنا فوق السفينة ، صار كل رجل يحكى للآخرين ماعنده .. الا أنا ؟ فقد شملتنى مرارة وأستبد بى الضيق حتى زهدت فى الكلام وعافت

نفسى الحدث ، ولم أستطع ابداً أن انسى أننى كنت على يقين من اننا كنا نستطيع الفرار تحت جنح الظلام دون أن نصيب الغولين بالكارثة ، ومع ذلك فقد قلت لرفاقى غير ذلك ، وارادوا أن يصدقونى بكل تعمد .. لا تحركهم الا رغبة جامحة فى الحاق العقاب بالوحش !..

عودة "حياة"

لم تهنأ نفسي بالرحلة بعد ماعانيت ، الا أن السفينة انتقلت بنا بعد ذلك من مرفأ الى مرفأ .. وصرنا نبيع ونشترى ونربح فيما نبيعه وما نشتريه اضعافا .. ثم عادت بنا الى البصرة .

تعجلت الرجوع الى بغداد ، فلما استرحت من عناء السفر شخصت الى السوق حيث رافقني احمد الدلال الذي انست اليه منذ سنوات ، وكان وكيلي في البيع والشراء ..

كان السوق اقل بهجة مما الفت واقل نظافة واكثر ازدحاما ..

كان يتسكع به عدد متزايد من الشحاذين والعاطلين والمتسببين في الرزق بالحمل والمعاونة والنداء على السلع غير العديد من الدراويش والمنجرين والحواة واصحاب المجون والحيل ممن لا مهارة عندهم ..

قال لي احمد الدلال :

ــ اختلفت الاحوال ياعبد الله .. فمع أن سلع الترف صارت اكثر رواجا واغلى ثمنا حيث اشتد عليها الطلب .. فان الريف يزداد فقرا ، والبدو يتزاحمون في المدينة بعد أن قل الزرع وعز الرى ..

قاطعته بقولي :

ـ مر ولم يسلم !

قال : من ؟

فتوقفت واشرت الى تاجر الحرير الذي مر بنا لتوه ، فنظر الى احمد الدلال مليا وقال :

ـ لم يعرفك ياعبد الله ، فكم غيرتك السنون !

في داري تاملت وجهي في المرآة ..

تعسا للسنين ، وسحقا لها !..

.. قررت يومها أن أمر على بعض الاصدقاء لأسمع الغناء وانعم بالسمر ..

لقاني الصديق بالأحضان وأجلسني في صدر السفرة ورأيت أمامي من الطعام والشراب مالذ وطاب ..

وكان المغني ينشد :

« فرغ الدن وراح الاصدقاء .. يافؤادي

« فانشد اللحن باوتار العزاء .. يافؤادي

« فالذي كان بليل ذي صفاء .. يافؤادي

« لن يراه الصبح مرفوع اللواء .. يافؤادي »

فقلت للمغني من مكاني :

ـ اليس عندك ياصاحبي غير هذا اللحن المفجع ؟!

فران الصمت على القاعة .. لم يقطعه غير ضحك صديقي الذي اثار بعض الضحكات .

***

في الصباح احببت ان ازور الصديق الحميم لابي الشيخ مصطفى تاجر السجاد .

كان الرجل قد غلبته الشيخوخة وضعف بصره ، فصار من فرحه بلقائى يتحسس وجهى بيديه ويربت على ظهرى بحنان وشوق .. ويقول :

ــ أنت صديقى وحبيب شبابى .. كم تغيرت !

قلت : مضت سنوات ياعم .

قال : وأين كان مقامك ؟

قلت : فى البحار العالية .

قال : كل هذه السنين ؟

قلت : نعم .

قال : وهل استقام معك الحظ ؟

قلت : نعم .

قال : وبارك الله لك ؟

قلت : أنا الان اغنى مما كان ابى ..

قال : ماشاء الله ..

قلت : واقل قدرة مما كنت على الاستمتاع بالحياة .

قال الشيخ : مازلت تتذمر ؟!

قلت : نعم . متذمر .

قال : مم تشكو ؟

قلت : سأم على الارض ولهفة على ركوب البحر .. وسأم فى البحر ولهفة على العودة للبر .

نظر الى الشيخ وقال :

ــ هل لك زوجة ؟

قلت : لا .

قال : تزوج ياولدى وانجب الأولاد . الزواج يثبتك فى الأرض كشجرة .

قلت : عماه . انفقت المال واطلقت الرسل ورصدت

الجوائز لمن يعثر على حبيبة صباى ، ولم أفز بخبر عنها للان ..

رفع الشيخ حاجبيه وهو يقول :

ــ عجبا ! اقول لك تزوج أمرأة ، وانت تريد ان تتزوج صباك !!..

وانا أشد منك عجبا ياشيخ .. فلا اذكر ان قلبى خفق من بعد صباى ، ولا أذكر أنى احببت نفسى او ايامى الا قبل رواح الصبا وقبل اقبال الحياة !..

***

جلست وحدى فى القاعة أتعشى ..

كان بطبقى الجبن والزيتون وامامى الماء القراح ..

قلت لنفسى : ياعبد الله ، لعل الذى اصابك ليس الا دوار البحر حيث تلبسك كالمرض المزمن ..

واجبت نفسى : انا أغنى الناس .. ومع ذلك فانا افقرهم ، لان لى حاجة . واشعر بالحرمان ..

فما رأيت الا باب القاعة يفتح على مصراعية .. وتدخل « حياة » ..

بهت حتى وقعت اللقمة من أصابعى ، وقالت :

ــ تتعشى وحدك ؟

قلت : لا أصدق عينى ..

وقمت فتلقيتها بالأحضان .. ثم قعدت جنبى تتاملنى بعينيها الواسعتين .. ثم نظرت حولهــا بالقــاعة وقالت :

ــ هذا هو عبد الله بن عثمان السندباد .. هذه داره وهذا ذوقه المرهف وحبه للترف والجمال .. الا ان

المسكين يتعشى وحده ، وداره قارقة فى الصمت ..
فتلقيتها ثانية فى ذراعى وسالت دموعى على كتفيها .

***

بثت حياة الحركة فى بيتى ، فاذا الصخب يعود اليه ، والاصدقاء ..
قررت ان ادعو لحفل لم تر بغداد مثله ، وادعو القاضى ليعقد العقد ..
قالت حياة :
ـ بذرت مالك ياعبد الله فى البحث عنى ..
قلت : وهل وصل اليك أحد من رسلى ؟
قالت : لا . ولكن المدينة كلها كانت تتحدث عما انفقه السندباد للوصول الى بغيته ، ويصفوننى كبنـــات الحواديت ..
قلت : لم يلحق بك أحد من رسلى ؟
قالت : لا . بل جئتك بنفسى وجئت اليك بنفسى .
لم يكن البيت يسعنا .. وكنا نستعجل الوقت وننتهب اللذات ونمرح ونتحدث الليل للصباح ..
ولما اجتمع التجار والاصحاب فى الحفل الموعود ، وبعد ان عقد القاضى العقد وتتابع المغنون .. وقفت حياة بين العازفين وغنت :

« بدت لى فى البستان باسمة الثغر »
مفككة الازرار محلولة الشعر »
وهتفت جوقة العازفين :
« فقلت لها : آه ..
وانشدت حياة :

« فقلت لها اشكو اليك الهوى .. قالت »
« آراك الى صخر شكوت ولاتدرى »
وهتفت الجوقة : آه ..
وانشدت حياة :
« فقلت لها ان كان قلبك من صخر .. »
« لقد نبع الماء الزلال من الصخر »
وهتفت الجوقة : آه .. آه ..
وكل من حضر حل عمامته أو شق جيبه او نهض واقفا غير مصدق والجميع يهتفون :
آه .. آه .. آه
انما سمعنا الا وباب القاعة يفتح عنوة ويظهر منه الدلال ممزق الثياب ملطخ الوجه بالدم ، وما أن توسط القاعة حتى صاح :
- أنتم هنا ياتجار بغداد ، والسوق ينهب !؟
فما رأيت والله الا رجالا يثبون ، ويتخبطون ، ويتسابقون ، ويتعثرون ..

***

ما حلمت ان أرى فى حياتى مشهدا كهذا ..
سوق بغداد العتيد تتناهبه الحرائق ، وذوو الخرق المرقعة على ظهورهم ، والحفاة والمعتوهون وذوو العاهات والصبية ينهبون السلع ، والسيوف والسكاكين والعصى تتقاطع ، وجحافل الناس يهاجمون والجحافل يدافعون ، والحريق يسابق الفريقين ليفوز بنصيب الاسد ، والصياح قد بلغ عنان السماء .. بينما الجواهر تتناثر على التراب والناس تنقض عليها انقضاض الصقور وتتخاطفها تخاطف

الحيوانات للفرائس ، وكل شيء يتنازعه الناس يتمزق .. القماش والسجاد ، بينما تتحطم التحف اللبلور وتمزق الابواب والستور ..

ثم دقت طبول الشرطة ، ودهم السوق فرسانهم بسيوف تبرق فى الصعود وفى الهبوط .. لتضيف الى الصورة البشعة رشاش الدماء . والى الصيحات ترقيما من الحشرجات والآهات ، وسقط من كان على ساقيه ، وطار من كان يمشى على قدمين .. فتناثرت اشلاء فوق اشلاء ، ولم تبق بعد المعركة انفاس تتردد .. غير أصوات ادوات النفير تعلن انتصار الشرطة .. وقد سقط الناس وتبددت السلع الثمينة وانتشر الحريق .

***

قالت بحياة :

ـ لم تفلس ياعبد الله . مازلت غنيا .. فلماذا ركبك الهم ؟

قلت : لا . لم تذهب ثروتى .

قالت : فكيف ذهب مرحك ؟

قلت اتأمل تجربتى مع الاخطار .

قالت : لم لا تبيعها كما تبيع الجواهر ؟

قلت : ابيعها ؟!

قالت : نعم . التاجر يأتى من البحر بالجوهرة الرائعة فما أن يبيعها فى السوق ويقبض الثمن .. حتى ينساها فلا يفكر فيها بعد ذلك ابدا .

قلت : تجربتى اغلى من جواهر التجار ..

فنهضت الى وسط القاعة ووقفت تنادى كالدلالين فى السوق :

ــ هلموا هلموا .. يا أهل بغداد ! سنبيعكم ماهو اغلى من جواهر التجار ، وأثمن من توابل الطعام .. تذكارات السندباد .. من قرأ الحكمة فيها استغنى بالرشد والمعرفة ، وبز أهل الزمان ..

قلت : ماذا تبيعين ؟

قالت وهى تنادى نداء الدلالين :

ــ سن قردة أحبت عبد الله السندباد فى جزيرة القرود ، وظفر الرخ الذى طار به فى السماء .. فص ملح احرق الزرع وله ملكة فى الهند لا يقتلها غير مقدار الحفنة من الماء .. والعصا التى ساق بها شيطان البحر السندباد ، وسخره للخدمة ، حتى سكر الشيطان فقتل العبد سيده .. عود ورد لا يذبل ابدا ولا تذهب رائحته ولا ينبت الا فى جزيرة العشاق ، حيث تحتضن العذارى بحارة السفن فيموتون عشقا !.. هلموا هلموا .. سيف الطاغية عثمان الذى ولى نفسه قاضيا للقسمة فى جزيرة المغنطيس ، وقتل رفاق سفره ليفوز بكنز الاجيال ، ثم قتل غيلة كما قتل الأخرين اغتيالا .. وجاء لكم عبدالله السندباد بالسيف لكى تتأملوه ، وتتعظون بالحكمة المستقرة فوق حده الصقيل !.. وتفرجوا تفرجوا ، على كيس الشحاذ الذى جمع فيه السندباد ثروات الميتين والمدفونين احياء بمقابر الهند ، وكان قد دفن معهم ، الا

أن دليله للنجاة كان سنجبا لطيفا ، كنا سنأتيكم بفروته لولا انه فر منا وفاز بالنجاة ..

استخفنى ظرفها فصحت :

ـ بستين درهم فضة ، نبدأ المزاد !

قالت : بمائة درهم فضة سنبيع كل شيء ، لا نبيع بأقل منها ، حتى لا تضحك الناس منا جيلا بعد جيل وهم يقرأون سائر الخرافات .

أخزى الله شيطانك يا « حياة » .. أخـــزى الله شيطانك ..

***

حملت زوجتى أول أبنائى ..

كنت أضع كفى على بطنها فأحس بدفعات الجنين على باب الحياة ، واعجب فأقول :

ـ سيرث ثروتى ، ولكنه لن يرث حكمتى ..

كما ورثت ثروة ابى ولم ارث عنه الحرص والتدبير ..

فتضحك حياة وتقول :

ـ اتمنى الا يرث عنك القلق والخلط والحيرة والطيش وسوء التدبير والقسوة ياعبد الله .. فهذه كلها بعض صفاتك التى تنطوى عليها ماتسميه أنت حكمتك ..

نعم والله .. الحق معها .

***

كنت مع أضيافى نسمر بعد العشاء ، وقد تبـــارى الحاضرون فى استظهار ابيات الشعر التى تتبلور فيها حكمة العرب السابقين .

سمعنا ابياتا لابن أبى سلمى والفرزدق وأبى العتاهية والمتنبى ، وراعنا مافيها من نصاعة فى البيان وعمق فى الفلسفة ..

ثم هتف بى احد الاصدقاء :

ـ وانت ياعبد الله . لقد سافرت وغامرت وتاجرت وخضت المحن ، قل لنا قولا جامعاً مانعا للحكمة التى استخلصتها مما رأيت وسمعت وعانيت .. ماذا تعلمت وتريد ان تعلم غيرك ؟

كنت ثملا .. وقد طاب الى الطعام والشراب ورفقة السمار ، فجهرت بالقول وقد دفعنى الغرور والتيه بالنفس ان أقول :

ـ رفاقى .. لقد طفت بالبحار اقرأ الانسان واقرأ الطبيعة ، رأيت من صنوف القسوة والوحشية والطغيان فى الطبيعة وفى البشر ماله قوة القوانين الثابتة والحتمية النافذة . وهى قوانين للهلاك الطبيعى وللهلاك البشرى وهلاك الحياة ذاتها .. ولكنى رأيت مع ذلك الطبيعة تتجدد ولاتفنى ، ورأيت البشر يتكاثرون لا ينقرضون ..

انا نفسى تعرضت لكل الوان المخاطر والمهالك .. ونجوت ، واحسست بحنان الشجر والماء ورقة الانسان .

كنت أسأل نفسى دائما : كيف نجوت ياعبد الله ؟

كيف ينجو الناس وتنجو الطبيعة كل يوم تحت الحصار والمداهمة المستمرة لقوانين الهلاك ؟

وعلمت أن البشر كالطبيعة ينطوى على قوة للحياة .. وان الطبيعة وان الطبع لهما قوة للنجاة ، وقوانين للنجاة .

ان قوانين النجاة اقوى من قوانين الهلاك ..
اذا كان الغرق قانون طبيعي نافذ ، فالطفو أيضا من قوانين الطبيعة النافذة .
اذا كان الجشع والظلم والبطش طباع بشرية غالبة ، فالمقاومة والدفاع والتضامن وحب العدل طباع بشرية أغلب منها .
وأن الفضيلة والرذيلة مقاستان بهاتيك القوانين بكل بساطة : كل مايهلك الانسان والزرع خطيئة .. والفضيلة هي مايحيي الزرع والانسان !..
صفق الحاضرون لي طربا .. وتمايلوا من السكر ، وهتف أحدهم :
ـ لله درك ياعبد الله ، أتيت بما لم يأت به الاوائل من الشعراء ، ففنتا صوتا من أصوات حكمتك ..
فضربت أوتار عودي بقوة ، وفكرت في ولدي الذي انتظر ولادته فوق ..
وصحت بأعلى صوتي آملا أن يسمعني :
ـ وهبتك ياولدي للقلق والمعرفة .
وهبتك للتجربة والاخطار والنجاة ..
للطبيعة وللأنسان ولعناية الله ..
ثم غنيت له بصوت قوي :
« لا تخف يابن الرياح »
« من أعاصير الرياح »
« لا تخف يابن الحياة »
« من تباريح الحياة »
« لا تخف يابن الطبيعة »
« من تصاريف الطبيعة »

فكل من كان حاضرا صار يصيح : آه .. آه ..

وما افقنا الا باندفاع احدى الخادمات فى مجلسنا وصياحها :

ـ قم ياعبدالله بارك لزوجتك ولولدك الذى أتى الساعة للقياك ..

فهب ضيوفى يرحبون بالمناسبة ، واهدانى كل منهم هدية .. ولكن ولدى كان هديتى الغالية .

الصين

ما الذى دعاني لركوب البحر ؟

سؤال كان يصرخ فى عينى حياة وهى تودعين وطفلى على كتفها ينظر الى بعينين بريئتين .

مرض لم يشفنى الله منه .

لا أجد جوابا غير انه مرض استحكم بنفسى ولا اشفى منه ..

ملل وضجر واكتئاب ..

لا تسأليني ياحياة . لا يسألنى احد ..

لا المال مطلبى ولا الثروة بغيتى وعندى منها الكثير ، ولكن قلق النفس حملت تجارتى الى البصرة ، وحدثنى جابر عن سفينة تقصد الصين ، ولم اكن قد سافرت اليها من قبل . فسرعان ما اكتريت عليها وكنست فوقها والسفينة تختال فى عرض البحر .

انتقلنا من مرفأ الى مرفأ ونحن فى أحسن حال ، نبيع ونشترى ونتفرج على عمارة جزر البحر .. حتى صرنا فى بحر الصين الكبير .

قضينا اياما طويلة بين الماء والسماء تستعجل الوصول ونقطع الساعات الطويلة بالسمر والغناء ورواية القصص حتى فاجأتنا صيحة القبطان ذات نهار رائق :

ـ يا أهلَ الله .. لقد هاجمتنا الحيتان البيضاء الكبار فخذوا حذركم .

فأطل كل منا من جبهته الى البحر ورأيت على مسافة من السفينة حوتا كبيرا ابيض يقفز فى الهواء ويرتطم بالماء فيرتج البحر كله من حوله حتي تتمايلُ السفينة ويترنح كل من كان على ظهرها او يسقط فيتشبث بأقرب شيء اليه من الخشب او الحبالَ .

وقد أطل برأسه من الماء حوت آخر كبير أقرب مايكون الى السفينة ، وحدجنا بعينه التى رأيناها قبالتنا وهو يشق الماء بقربنا ..

ثم امتلأ الماء بهم ..

هتف القبطان لبحارته :

ـ ادفعوا قاذفات الرماح ..

وتعالت أصوات البحارة : قاذفات الرماح . قاذفات الرماح .

وقالَ الريس : تشبثوا بالحبالَ .

وصاحت البحارة : الحبالَ . الحبالَ ..

فتدلت الحبالَ من الاشرعة وقيدَ كلُ رجل نفسه بطرف من أطرافها . بينما دفع البحارة الآلات قاذف الرماح وهى أشبه بأقواس النشاب القوية وثبتوها على جانبى السفينة .

ورأيت حوتا يندفع نحو السفينة بقوة . وصاح الريس : الدفة لليسار . ثلاثون درجة .. لليسار .

تجاوبه صيحات البحارة : ثلاثون درجة لليسار ..

فارتجت السفينة وهى تنحرف عن مسار الحوت

المهاجم نحو اليسار .. والقبطان يصيح : رماح اليمين .. صوت .. اطلق .

فاندفعت نحو الحوت ثلاثة رماح قويةآخترقت جسمه فتفجر دمه في نافورآت ثلاث ، فغاص في البحر يترنح وارتجت السفينة بدفع الماء من حوله فسقط أحد البحارة في الماء وصاح القبطان : الحبال للغريق !

فرمي له البحارة حبلا تشبث به .. ولكن الحوت ادركه وابتلعه على الفور مع طرف الحبل .

ولكن البحارة انشغلوا من جديد بأمر القبطان : رماح اليمين استعد ..

وكان الحوت الكبير المهاجم من يمين السفينة قريبا جدا ..

صاح القبطان : أطلق !

فانغرست في جسده الرماح ولكن السفينة ارتجت بشدة ، فوقع جزء من الشراع العرضى ودفعنى فى صدرى فقذف بى فى البحر ، وبلغتنى صيحة القبطان حبال للغريق ..

ووجدتنى سقطت فوق جسد الحوت تماما ، وبين الرماح المرشوقة فى لحمه تتفجر تحتها نوافير الدم ، فأمسكت بالرماح بقوة حتى لا أسقط فى الماء فيبتلعنى كما ابتلع رفيقى . ولكنه غاص فى البحر يتقلب من الالم ، وأنا متشبث بالرماح ادفعها بغير وعى فى جسده. وغمرنى الماء حتى أيقنت من الغرق ، ولكن الألم دفع بالحوت آلى صفحة البحر من جديد وقفز فى الهواء وانا فوقه حتى تخلت أنى تحاذيت ناظور السفينة ، ثم سقط فى الماء يشقه بسرعة تثير الدوار ، وتخيلت ساعتها أننى

كنت قد سمعت الناظور وانا بحذائه يصيح : جزيرة !.

ولعل حب النجاة قد هيأ لى مالم أسمع فى الحقيقة .. ولكن املا راودني حين تذكرت انى سمعت فى احاديث البحارة ذات يوم ان الحوت اذا جرح وسال دمه عمد الى المياه الضحلة قرب الشاطىء خوفا من هجوم أسماك القرش ..

كنت فى عمق الماء أكتم انفاسى واتشبث بالرماح من حولى وقدماى على ظهر الحوت الذى يشق طريقه بسرعة فاحس كأن تيار الماء يريد أن يقتلعنى من موقفى وانا اقاوم مقاومة المتشنج ..

ثم انا فى الهواء فوق حوت طائر يشق الهواء فى قفزة عالية فيكاد الريح يقتلعنى وانا أملأ صدرى بالهواء واحس دماء الحوت تتدفق حول قدمى ورشاشها يصفع وجهى فأغمض العينين .

فاذا فتحت عينى برهة هالنى ان صفحة الماء مرشوقة بزعانف أسماك القرش تحوم حولنا وتتهيأ للهجوم على الحوت المحتضر وانا فى مركز الهجوم تماما حيث انى اقف فى حمام الدم الذى تقصده هذه الوحوش الكاسرة .

ـ اسرع ايها المنكود .

كل شىء فى كيانى يصرخ بالحوت ويهيب به ان يمرق من بين أعدائه بما تبقى له من قوة .

فى عمق الماء من جديد احسست بهجوم الاسنان البشعة ، تقتطع من الحوت قطعة وترتد على أعقابها بينمايهجم الآخرون .. تحت اقدامى لا اكاد اراهم فى عكار الدم حول المعركة ..

الان في الهواء وقد تعلقت أنياب الوحوش البحرية بالجسد . وسقطت قبل ان يسقط فيرتطم بالارض الضحلة ارتطاما أطير له أنا في الهواء لاسقط على شاطىء بين الارض والماء فيدفعني الخوف باخر مابقى من قوتى الى الارض الطيبة حيث يشملني الظلام فيلتهسم آلامي المبرحة في غيبة عميقة .

***

لا أعرف كم ساعة او كم يوما قضيت في غشيتي ، ولكني عندما صحوت ونظرت . رأيت الحوت يكاد أن يكون هيكلا عظميا بلا لحم وقد تناثرت أشلاؤه في بحر من الدماء .

أنا عطشان !

أمامي رمال فوق رمال ، وورائي بحر مالح أحمر من الدماء .

تحاملت على نفسي ومشيت وأنا بين اليقظة والنوم .. احسست بالشمس تميل في الافق ثم أحسست بها في كبد السماء وانا لا أعرف يقظان أم نائم ، ولكني أحس بأني امشي على قدمي في رمال بعدها رمال ..

كنت في وسط قرية مهجورة ، وامامي بئر . تحاملت على نفسي وتعلقت بجداره ، وجدت الدلو لم أجد الحبل وجدت الحبل لم اجد الدلو . ملت بجسدي فوق الجدار أطلب الماء بيدين ممدودتين فلا أرى امامي غير ظـلام لا آخر له .. فأنادي :

ـ أدركوني يا أهل الله !

أسقط على ظهري فتبهرني الشمس ، أظلل عيني

وانظر حولى فاذا أنا فى رمال بعدها رمال . لا بئر ولا قرية ولا بشر فاغرق فى الظلام .

احس وانا فى الظلام أن شيئا القى على جسدى . اتمني الا أكون قد قدمت والناس تهيل علىالتراب . اريد ان اتحرك ليعلموا أنى حى .. فلا استطيع .

برد يلفح وجهى .. وشاش ربما . اغيشـــونى مـــن الظلام ..

***

اشم رائحة حساء . افتح عينى . كل شىء غائم من حولى ولكنى احس بشىء جامد بين اسنانى وسخونة حول فمى ..

أطفال فى البحر يرش بعضهم بعضا بالماء . ثم صيحة غريق !

الاطفال يهرولون نحو الشاطىء ، وأنا انظر اليهم بخوف وقير فهم وجسمى يطفو على سطح البحر واريد ان اصيح لست غريقا بعد فادركونى . ولكن لاصوت لى .

هجوم اللصوص على القافلة . اشتباك بالسلاح . اللص ذو الوجه المندوب يدق القلاع براسى وله وخز الابرة فى أذنى ..

اريد ان انتفض من الالم فأحس بيد تدفعنى وابرة فى اذنى تغوص .. اريد ان أفتح عينى ولكنى لا ارى الا وسادة عليها ابر طوال .. ونار تلفحنى من كل جانب .

***

افتح عينى . لا اذكر من انا . لا اعرف اين انا . فوقى

كوخ وحولى أشياء . اريد ان اتحرك فأجد نفسى أتقلب على فرآش ..

وجه يطل على من فوق ، عليه ابتسامة وعينين عجوزتين صافيتين . اهمس :

ـ من انت .

فيقول : سنياهامى . سنياهامى ..

ـ لا افهم ماتقول ولن تعرف ما اقول . حياك الله يامنقذى ..

ـ سنياهامى . سنياهامى .

ـ اى لغة أنقى استغاثنى وقيامك بالنجدة .. لقد تفاهمنا والحمد لله ..

اريد أن انام ..

استيقظ من سخونة لفحت وجهى . الشيخ يقدم لى الحساء .. آشرب وانام .

اصحو على لغط وهمهمات فأجد نفسى اتأرجح على سرير يحمله اربعة رجال . الطيور فى السماء . منقذى يضع جنبى قربة ماء وبعض فواكه . الرجال يمضون بى وهو يبتسم وجمهرة من الناس تنظر من حولى ..

ـ بارك الله فيك .

الطريق طويل ، نمت معظمه وصحوت أقله .. السرير يتارجح دائما . الرجال يهمهمون بأغنية رقيقة . احدهم يطل على من فوق ويجس جبينى بيده .

أطل برأسى .. ناس كثيرون يطلون على برءوسهم . السرير قد تم وضعه على حوامل ثابتة فى الارض . حولى اكواخ وناس كثيرون .. وكل من أطل على يقول :

ـ ميناهايا ..

ويمضى الى سبيله ..
الى ان اطل على شيخ عجوز وقال :
ـ انت عربى ايها الغريب .
فكدت اقفز فى الهواء من الطرب ..
ـ نعم عربى ياعم . ملاح عربى .. أين انا ؟
فوضع الشيخ يده على صدرى واعادنى الى فراشى برفق :
ـ لا باس عليك ومرحبا بك .. أنت ضيفى فلا تقلق .. انت فى الصين .
يارحمة السماء .. ظللى بجناحيك الناس اجمعين ..
صاح الشيخ بالرجال الذين حملوا سريرى الى داره ونقلونى الى فراشه وانصرفوا ضاحكين متفكهين يقولون: سيهاهى .. أنتوماسيهى ياها ..
خرج العجوز وغاب برهة ثم عاد يدفع فتاة صغيرة جميلة وهو يقول :
ـ انظرى يابنتى كم هو ضعيف ويحتاج الى رعايتك .
ونظرت البنت بعينين يلمع فيهما الحنان :
ـ لا تقلق يا ابى .. سيشفى باذن الله .

الفصل العشرون :

زواج اكتمال القمر

قال لي الشيخ :

ـ الميناء القريب من هنا ياولدى هو شينى جى جيك تأتى السفن من العراق وعمان .

فقلت : هل ستأذن لي ؟

قال الشيخ : وهل مللتنا بهذه السرعة ؟ .

قلت : لا والله ..

وقالت البنت : حتى تشفى تماما ..

***

كانت البنت ترعاني كأب أو كزوج ..

وكانت تمشى معى فى الحقول بقدر طاقتى وتجمع الزهور لي وتحادثنى فى كل شيء .

أقول لها : لا اعرف كيف اشكرك ..

فتقول : لا تقل لي هذا أبدا .

ـ لا ينكر الفضل الا لئيم ..

ـ مازلت ضعيفا وتحتاج الكثير .

ـ لست ضعيفا ..

ـ ان جادلتنى سأتحداك .

ـ هيا تحدينى .. فلنتسابق .

وجرينا فى الحقول كطفلين .. ولكن قلبى خذلنى

فقعدت وانا الهث واقول :

ـ لقد نسيت ، ولكن قلبى ذكرنى ..

ـ اى شيء نسيته وذكرك به قلبك ؟

ـ نسيت انى درت حول الخمســـين ، فرحم الله الشباب ..

قالت : وكيف قضيت شبابك ؟

قلت : اتعلم .

كنا ذلك المساء قد فرغنا من العشاء ونحتسى الشاى فقالت البنت فجأة :

ـ وماذا تعلمت ؟

وملأت ناظرى بجمال وجهها الصغير البرىء ومسحة السؤال الصريح يضفى عليها براءة وحلاوة مع الفضول

قلت : مع انى اجيب هذا السؤال طول عمرى على أوجه مختلفة . فان عندى اجابة جديدة اليوم .. نعم . تعلمت ان الحب أقوى من غريزة الامتلاك . وأن ضجرى فى بلادى يرجع ايضا الى انانيتى وطابع الاثرة وحب الذات عندى .. فقد نسيت حبى للحياة فى انقــاض احساسى بفقدان ما أحب ومن أحب وشهوة الاسترجاع التى تنبع من نفس وريد الغضب الذى تنبع منه شهوة الانتقام .. كذلك ضجرت حين استرجعت مافقـــدت وهان على مااسترجعته بعد مشقة ونسيت حبى له .. الآن اتعلم ان الحب يمكن أن يكون بريئا عن شهوة الامتلاك ، وان الغفران يمكن ان يجبر اصداع القلب فيحيا الانسان مع من يحب حياة جديدة تتجاوز بالنسيان ماكان . واذا كان الانسان ينشد السعادة فانه هو الذى يصنع السعادة ايضا كما يصنع الشقاء لنفسه بنفسه . الان وداعـــا

للشعور بمرارة ما ألم بالنفس في طلب السعادة واسترجاع ما نحب ، وداعا للضجر في البيت وفي الوطن ، فلو أعادني الله هذه المرة سالما الى بلادي فاني اعود الصبي الذي كان ينعم بالحياة وبالحب وصفاء الحياة كما كنت قبل رحلة الالام .. الان عرفت أن اصل الاشياء عندي هو ذلك الصفاء والسماحة والطمأنينة التي عبرت الالام في طلبها ثم نسيت أنها كانت مطلبي وغايتي وراحة قلبي ..

وقفت البنت أثناء حديثي وقد اضطرب وجهها وجرت الى الخارج كأنها تريد ان تبكي وحدها .

دهشت وسألت اباها :

ــ ماذا بها ؟

قال الشيخ : ايها الرجل الساذج ، تزعم أنك تعرف مكنون نفسك ولا تستطيع ان تقرأ عيون صبية صغيرة مثلها ؟

ــ لا افهم .

ــ افهم أيها الكهل . البنت تحب .

ــ اتعني ..

ــ نعم .

ــ أنها ..

ــ نعم .

ــ أنا ؟

ــ ولما اظهرت الحنين الى بلدك واهلك غلبها الحزن ..

ــ ولكن ..

ــ اعرف ماتعني . فارق السن .

ــ أيها العم ..

ـ اسمع ياولدى . انا رجل عجوز لم يبق من عمرى الكثير . وسأترك ابنتي للحياة صغيرة ووحيدة ، واحب ان اهبها لك ليطمئن قلبي . انها ذات خيال وذكاء . خذها معك الى بغداد دار السلام ، ابنة متبناة او زوجة او ماتشاء فانى احب ان تعيش ابنتى من بعدى فى ديار الاسلام .

قلت : بل زوجة ياعم ، فما اريد لها أن تشقى بحبها لى ..

قال : اذا اكتمل القمر فى السماء .. تتزوجان على تقاليدنا باذن الله .

***

اكتمل القمر وقد تهيأت القرية للاحتفال بالزفاف فاجتمعت الفتيات حول العروس يكملون زينتها ثم التام شمل الناس فى ساحة القرية حيث اجتمع الموسيقيون فى جانب يدقون طبولهم وينفخون فى ابواقهم واخذنى الشباب الى ناحية الساحة بينما اخذت الفتيات عروسى الى الناحية الاخرى وبدأ الرقص والغناء على نظامهم .

انتشرت حول الساحة اطباق البخور وكانت له رائحة قوية نفاذة تزيل التوتر وتريح الجسد وتثير الخيال وتحلق بالنفس فى أجواء بديعة بحيث يزداد كل شيء جمالا وعمقا وشفافية .

اقتحم الساحة فجاة مجموعة من الشباب على هيئة الطيور الجارحة يرقصون رقصة عنيفة وهم يصفقون بالاجنحة .

ثم اندفعت العروس وسطهم ترقص على أيقاعهم وكل من اقتربت منه يختطف جزءاً من ملابسـهـا فتندفع صاحباتها الى الحلبة يغطون بالزهور ما تعـرى مـن جسمها ..

داهمنى غضب واحسست بالنار تجرى مع دمى فى العروق واندفعت بين الراقصين أطلب انتزاع البنت من بينهم فصاروا يصفعونني بأجنحتهم حتى غلبونى على امرى ورفعونى فوق الاجنحة وخيل لى أنهم قد طاروا بى فى الهواء ، فصرخت من السخط ومن الهلع .. وأنا ارقب أقترابنا من قرص القمر واتساع دائرته ، فلما بهرنى ضوؤه انطلقت من حلقى صرخة : لا اله الا الله !

فتفرقت الطيور من حولى واخلوا سبيلى لاسقط من حالق وقد أيقنت انى هالك .

ولكنى ذهلت حيث وجدتنى اهبط على الارض برفق واقف على قدمى .. وتقدم منى طفلان فى يد كل منهمـا قضيبان من الذهب يدق الواحد بالاخر فيصدر رنينا واضحا .

قال أحدهما : اذا رأيت التنين فلا تخف ، واضربه بقضيب الذهب حتي يموت ، وعنـدئذ سـتجد زوجتك .

وسلمنى القضيبين فى يدى ودفعنى الى وسـط الساحة حيث طلع على تنين أحمر عملاق ، يتطاير الشرر من عينيه ويزمجر فى غضب .. فمن فزعى هجمت عليه مثلما هجم على وضربته على رأسه بالقضيبين فراغ منى ودار حول نفسه ثم عاد يهاجمنى أبشع مما كان .. فما ان اقترب رأسه المروع منى حتي عاجلته بضربتين فصرخ

صرخة عالية وانقلب على جنبه فاندفع نحوه الشباب يصيحون ويضربونه ، بينما تبدت لى عروسى من فوق زحامهم تقترب نحوى ، فى كوكبة من ألنبات وقد اكتست تماما بالزهور والاطفال حول الساحة فى يدى كل منهم قضيبان من الذهب يدق الواحد فوق الاخر على ايقاع الموسيقى العالية .

ولكن الذى سلبنى كل رشد انى رأيت القمر يكبر حجمه ويقترب من الساحة ويسطع ضوؤه بينما دخان المباخر يتكاثف والناس تقترب من حولى وعروسى تطمئن على صدرى ..

***

عشت فى هناء مع زوجتى ، لا يقلقنى غير ما يصيب اباها من ضعف ووهن ، وما يصيب ابنته من قلق وخوف .

قال لى أبوها وهو على فراش المرض :

ـ اذا قضيت ، فهل عندك من المروءة أن ترعى ابنتى من بعدى .

قلت : عماه. لقد رعتنى ورعيتنى فى ضعفى واحتضارى فهل تظننى انسى ؟

فاغمض عينيه وهو يذكر اسم الله .

لم يلبث ابوها ان مات ، فاخذت ابيع املاكه حسب وصيته واتجهز للسفر مع ابنته الى بلادى .

اشتريت بالمال متجرا وسافرنا الى شن جاى واكترينا على سفينة عربية متجهة الى البصرة .

كانت زوجتى فى احسن حال تتلهف على رؤية بغداد

وقد زايلها الحزن وتطلعت الى حياة جديدة .

الا أن دوار البحر غلبها على أمرها بعد ايام فمرضت واخلدت اعنى بها انا والقبطان ومساعدوه ، واحكي لها عن غرائب البحر وعجائب بغداد ..

ولكن عجبي صار يزداد من ازدياد ضعفها . وخيل لي أن فتاتي الجميلة الطيبة تزداد شفافية ورقة اليوم بعد اليوم .

كانت تذبل امامي دون أن تتوجع .

وفي ليلة قالت لي : القمر مكتمل الليلة .

قلت : كيف تعرفين وانت في باطن السفينة .

قالت : احصي الوقت .

قلت : هو مكتمل كما تقولين .

قالت : خذني الى ظهر السفينة لاريك شيئا .

فحملتها الى ظهر السفينة وارقدتها على فراش مرتجل فأشارت بيدها الى القمر وقالت :

ـ اذا تغير شكل القمر بحيث طابق وجهه وجهي فاني قد ذهبت .

فظننت ان تخاريف المرض هي التي أملت على محبوبتي قولها ، ولكني حين نظرت الى وجه القمر رأيت وجهها فيه ، فنظرت اليها فوجدتها قد ماتت ، فلم أصدق عيني وصرخت من روعي صرخة جمعت البحارة والتجار من حولي مشفقين علي .

أنخلع قلبي لموتها وصرت ابكي كطفل فقد امه في الحريق وذهلت عن نفسي وعن رفاق سفري وهم يقيمون طقوس الجنازة كالمتبع في البحر . وسمعت النفير والآذان ورأيت جسد حبيبتي يهوى في البحر .

***

عودة الغائب

ابتلع البحر جسد حبيبتي الصغيرة ..

وغرقت انا في استظهار احزاني وأيامي .

لماذا يسافر المرء ، ولماذا يحب ، ولماذا يعود الغائب وحيداً .

زهدت في البيع والشراء ، ولبثت فوق السفينة لا ابرحها .. واصدقائي من التجار والبحارة يهبطون الى الموانى ويعودون اكثر مرحا واكثر صخبا مما ذهبوا ..

والسفينة تنتقل من جزيرة الى جزيرة في بحر الصين وتستشرف آفاق البحر الجنوبي وتعود فتدور نحو البصرة .. وبيننا وبين البصرة آلاف الفراسخ ومسافات يزيدها الحنين مسافات .

لم تبرح خيالي صورة حياة وطفلي واربعة عيونهم دامعة تودعني .. الان ست عيون دامعة لا تعرف لا لماذا كتب علينا السفر في بلاد الله وبحار الله الواسعة .

واقسى مافي السفر الا يعرف المسافر قصده ووجهته ونهاية رحلته .

***

كنت في عرض البحر لا اعرف موقعي من الدنيا ..

حين تلقت حياة استدعاء من قاضي البصرة فأخذت ولدي من كفه وسافرت الى هناك .

دخلت حياة بيت القضاء ووقفت بين يديه وفي يدها ولدى تقول :

ـ طلبتنى يامولاى القاضي .

فقال القاضي للحاجب : ادع لى الريس فضل الله .

وتفرس القاضي فى وجه حياة وقال :

ـ أنت زوجة عبد الله بن عثمان المعروف بالسندباد وساكن حارة الكرخ ببغداد ؟

قالت حياة : نعم يامولاى .

ـ وعندك مايثبت ذلك ؟

ـ هذه شهادة بذلك من قاضي بغداد .

ـ وهل له منك ولد .

ـ هذا ولده عبد الله .

ـ وهل عندك مايثبت انه ولده ؟

ـ هذه شهادة بذلك من والى بغداد صدق عليها القاضي أيضا .

ـ منذ كم من السنين سافر عبد الله .

ـ سافر بعد ولادة الولد بست شهور كاملة .

ـ ولنا وقت ونحن نبحث عنك ونطلبك .

ـ ما ان تلقيت الطلب حتى اتيت .

ـ اعلمى ياسيدتى أن عبد الله بن عثمان مات ، واوصى لك وللولد بماله .. والصبر من الايمان .

وهل يغنى المال عن الحبيب ؟!

***

في اليوم التالي حضر الريس أبو الفضل وقدم أمام القاضي تجارة السندباد وماله ووصيته وساله القاضي واجابه ، وحكى أن عبد الله سقط من السفينة أثناء هجوم الحيتان الكبار عليها ؛ فلما نجت السفينة من الهجوم باذن الله أحصى القبطان تجارة السندباد وماله ، وتولى الوكالة عنه في البيع والشراء ، وكانت في متاعه وصية حفظها الى أن يسلمها الى قاضي البصرة مع المال .

اقامت حياة وولدها عبد الله في خان جابر الى ان يتم بيع تجارة السندباد .

بعد العصر ذات يوم جلسا حول النافورة ولحق بهما جابر وقد غلبته الشيخوخة ، وتذكر جابر بهما ماكان من امره مع السندباد ؛ فأخذ يروى طرفا من احاديثه معه ؛ حتى انهمرت دموع الصبي عبد الله ، واخفى عينيه بكفه ..

فقالت حياة :

ـ لا تبكي ياعبد الله . ادع له بالرحمة ولكن لاتبكى ، لم يكن أبوك يحب البكاء ..

***

لم يكن اهل الخان يشغلهم مايجرى بالمرفا . وكانت سفينة ترسو برفق جنب الشاطىء والمنادى يهتف : سفينة الصين !

وبعد حين أخذ الحمالون ينزلون احمال الركاب بينما الركاب يهبطون على السقالة الخاصة ويمرون بالشرطى الذى يدون اسماءهم في السجل ويتحقق من هويتهم ،

فلما رأى الرجل سأله :
ـ الاسم ؟
ـ عبد الله بن عثمان السندباد .
فقال الشرطى : اسمك ؟
وقال الرجل : عبد الله بن عثمان السندباد .
فهتف تاجر فى المرفأ :
ـ يا اهل الله .. حى يرزق عاد ، عبد الله بن عثمان السندباد .. أسرعوا الى القاضى وبلغوا أهله فى الخان !
وجرى الناس كل فى اتجاه .
أما أنا ، عبد الله بن عثمان فقد اخذنى الذهول مما رأيت ، وسمعت الاشارة الى الخان والى القاضى ومع اننى لم أفهم تماما المقصود فقد استبد بى القلق واللهفة ونحيت الشرطى بيدى وجريت فى الاتجاه الذى يجرى اليه الناس ، فما وجدتنى الى فى مواجهة الخان وقد سبقنى من سبقنى اليه فانشق الزحام عند الباب عن حياة .. وولدى .. فى وجهيهما استطلاع غير مصدق واضطراب لا يستقر فمددت ذراعى اسبق بهما خطاى ومدا الاذرع يسبقان بها الخطى ، فكانا فى صدرى ، وكنت فى صدرهما ، كانا كولدى الغائبين العائدين وكنت كالولد الغائب العائد اليهما من البحار المجهولة ، فيالتلك اللحظات .

***

فى الطريق الى بغداد حطت القافلة فى موضع ظليل للراحة ، وقعدت بين حبيبتى وولدى نشرب الشراب ..

ونظرت حياة الى مليا وسالتني :

ـ ماذا جنيت من اسفارك الطويلة المضنية ياعبد الله ؟

فقلت : حبكما . حب دياري وبلادي واهلي ..

قالت : اما كان ذلك اقرب اليك قبل السفر ؟

قلت : كان ذلك اقرب الى وكان ابعد عني .. فما اقرب القلب وما اعجب النفس .

قالت : وهل تتمنى الآن لو انك لم تسافر ؟

قلت : ولو اني تمنيت ذلك كما تحبين ، أكنا اليوم فيما نحن فيه من مودة سابقة واجتماع سعيد ؟ تذكرى ياحياة .. قبل سفرى اول مرة اين كنت واين كان الحبيب عبد الله ، فلو اني لم اسافر هل كنا سنصبح نحن الثلاثة مانحن الان ؟

***

هذه اوراقي وقصتي كما كتبتها يد الاقدار ، وكما املتها النفس على . وقد انتهت بعون الله بعد سفرتي وعودتي من الصين ولقائي باهلي .

انا الملاح العربي عبد الله بن عثمان المعروف بالسندباد

انتهت

فهـــرس

	ص
مقدمة	٧
السرقة	٨
النار لا تحرق المؤمن	١٩
الغرق	٣٠
جزيرة القرود	٤٢
الظمأ	٥٦
بغداد .. بغداد	٧١
عجوز البحر	٨٢
الوصية	٩٦
حرب الطيور	١٠٤
المتوحشون	١١٢
جزيرة الحب	١٢١
جوهـرة	١٢٦
قسمة الكنز	١٣٢
أميرة الهند	١٤٧
الحياة بعد الموت	١٦٠
قطرة ماء	١٧٤
الغـول	١٨٥
عودة "حياة"	١٩٨
الصيـن	٢١٠
زواج اكتمال القمر	٢١٨
عودة الغائب	٢٢٥

رقم الايداع : ٥١٩٤/ ١٩٨٧

الترقيم الدولى : ٨ - ٣١٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤
13079 ـ تليفون ٤٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئه ١٠٠ قرش

سوريا ٢٧٠٠ ق س لبنان ١٢٠ ليرة الاردن ٦٠٠ فلس الكويت ٦٠٠ فلس العراق ١٦٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات البحرين ١٣٠٠ فلس الدوحة ١٣ ريالا دبى ١٣ درهما ابو ظبى ١٣ درهما مسقط ١٣٠٠ بيسه تونس ١٧٥٠ مليما المغرب ٢٠ درهما غزة والضفه ١ دولار البرازيل ٦٠٠ سنت داكار ١٥٠٠ فرنك ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة جيبوتي ١٥٠ بنيا

السندباد البحرى حكاية من حكايات الف ليلة وليلة المشهورة ، ولكن الكاتب الكبير الاستاذ الفريد فرج يعالجها بشكل جديد تماما .. فهى عنده ليست مجرد قصة مغامرات فى البحر ، وإنما قصة حياة كاملة فى البر والبحر ، قصة حب وقلق وبحث عن المصير ، فهى بذلك قصة حياة وجدانية للناس فى عصر المغامرات البحرية الكبيرة .

والفريد فرج كاتب ارتبط اسمه باستلهام التراث والقصص الشعبية إلا انه عرف باسلوب خاص فى معالجة الواقع الساخن من خلال استلهام التراث .

وروائية « ايام وليالى السندباد » هى احدث حلقة فى انتاجه المسرحى والروائى اللامع ، واحدث حلقة فى علاقة الكاتب الحميمة مع الف ليلة وليلة .

سلسلة
ثقافية
شهرية

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

محمود محمد شاكر

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ ، سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٤٢ - صفر ١٤٠٨ - اكتوبر ١٩٨٧

No : 442 october 1987

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ح . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان :
حلمـــــي التونـــــي

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

بقلم

محمود محمد شاكر

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم ٧

الحمدُ لله وحدَه ، وصلَّى الله على سيِّد خَلْقِه محمدٍ ﷺ .

وبعد ، فقد كان صَعْباً أن لا أستجيبَ لأخى وصديقى الأستاذ مصطفى نبيل ، رئيس تحرير الهلال ، فإنّ له فى القلب حُبًّا ومنزلةً . فمَنْ هو أولى منه بحُسْن الاستجابة ؟ فقد قرأ كتابىَ « المتنبى » ، الذى تولَّت طبعهُ مكتبةُ الخانجى بالقاهرة ، ودارُ المدنى بجدّة ، ونشرتاهُ فى أوائل هذه السنة ، (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) ، ورأى فى صدر الكتاب كلماتٍ قلائل ، كتبتُها وسميتُها : « رسالةٌ فى الطريق إلى ثقافتنا » ، ورأى أيضاً أنها رسالةٌ قائمةٌ برأسها ، خليقةٌ أن تنشر منفردةً ، فطلب أن ينشرها . وما أظنُّ أنّه طلبَ ذلك إلاَّ وهو موقنٌ بحُسْن استجابتى ، فكيف أُخْلِفُ ظنَّه ؟ عزيزٌ علىّ أن أفعل .

فهذه الرسالة عندى جزءٌ لا أجدُه ممكناً أن ينفصِل عن كتابى « المتنبى » ، فإذا استجبتُ لما طلبه وفعلتُ ، فقد انتزعتُها انتزاعاً عنيفاً من جِذْرها ، وكان عزيزاً علىَّ أيضاً أن أفعل ذلك . ووقعت فى الحَيْرةِ ، ولكن كان ما شاءَ الله أن يكون ، وكانت الغلبةُ لما رآه هو ، وذهبَ ما أراهُ أنا أدراجَ الرياح .

أكانت حيرتى ، لأنى كتبتُها وأنا مُريدٌ للكشف عن جذور التاريخ الذى أدَّى إلى فَسَاد حياتنا الأدبيّة والسياسية والاجتماعية والدينية ،

وما نشأ فيها من المناهج التى كانت ، ولا تزالُ ، تسودُ الحياة الأدبية والثقافية ، فرفضتها رفضاً ، ثم اخترت لنفسى منهجاً كان كتابى « المتنبى » تطبيقاً له على وجهٍ من الوجوه ؟

أمْ كانت حيرتى لما هو راسخٌ فى طِباعى من القَلَق والتردُّدِ عند كُلِّ مفاجأةٍ لا أتوقَّعها ، فلم أجدْهُ ممكناً ولا جائزاً أنْ تنفصل الرسالة عن جِذْرِها فى الكتاب ؟

أم كانت حيرتى لأنّى أَلِفتُ أن أجدَها حيث وَضَعْتُها ، فغطَّى على بَصَرى هذا الإلْفُ ، فلم أرَ ما رآه هو مستسَاغاً عند الوَهْلة الأولَى ، وأنا كالذى قال أبو الطيّب :

خُلِقْتُ ألوفاً ، لو رَجَعْتُ إلى الصِّبَا لفارقْتُ شَيبى مُوجَعَ القلب باكيَا

أىُّ ذلك كان ، فالرسالة بين يديك ، فاقرأْها ، وكن حكَماً بينى وبينه ، وانظُر أيُّنا المصيبُ وأيُّنا المخطىءُ . ولا حيلةَ لى ، فقد كان ما شاء الله أن يكون ، وبرغمى خرجت الرسالةُ مستقلَّةً ، والسلَّام .

أبو فهر
محمود محمد شاكر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ :

« ألَا لاَ يَمْنَعَنَّ رجُلاً هَيْبَةُ الناس ، أن يقول بحقٍّ إذا عَلِمَهُ » (١)

الحمدُ لله حمداً يُبَلِّغنى رضاهُ ، وإن كانَ جَهْدُ الحمدِ لا يَفِى بشُكْرِ نِعْمة واحدةٍ من نِعَمِه . اللهمَّ تجاوزْ عن تقصيرى فى حَمْدك ومَرْضاتك . اللهمَّ إنِّى فقيرٌ فأغْنِنِى ، وضعِيفٌ فقوِّنى ، وحَائرٌ فسدِّدنى ، ومَرِيضٌ فآشفِنى ، وجاهلٌ فعلِّمنى ، وعاصٍ مُذْنِبٌ فتُبْ علىَّ إنك أنتَ التوَّاب الرحيم . اللهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ صلاةً أزْدَلِف بها إلى مغفرتِك ،

---

(١) هو من حديث أبى سعيد الخدرى ، من خطبة خطبها رسول الله ﷺ ، رواهَا أحمد فى المسند بطولها ٣ : ١٩ ، والترمذى فى السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب ما جَاء ما أخبر به النبى ﷺ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة » ، ورواه مختصراً كما أثبتُّهُ أحمد فى المسند ٣ : ٥ ، ٧١ ، وابن ماجه فى السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وسلِّم عليه تسليماً يَحْشُرنى فى زُمْرةِ أوليائه ، ويُدْخِلُنى فى شَفاعته يومَ لا شفيعَ إلاّ بإذنك . وصلِّ اللهُمَّ على أَبوَيْهِ الرسولين الكريمين إبْرٰهيم وإسْمٰعيلَ ، وعلى سائر المُخْلَصين من أنبيائك ورُسُلك . ربِّ آغفر لى وآرحمنى برحمتك التى وسعت كُلَّ شىءٍ .

...

كلمةٌ لابُدَّ منها ، إلى قارىء كتابى هذا : « المتنبِّى »
لكَىْ تكونَ على بيِّنةٍ ....

١ – آعلم أنّى قَضيتُ عشرَ سنواتٍ من شبابى ، فى حَيْرَةٍ زائغة ، وضَلالةٍ مُضْنِيةٍ ، وشكوكٍ مُمَزِّقةٍ ، حتى خِفْتُ على نفسى الهلاكَ ، وأن أخسرَ دُنْيَاىَ وآخِرتى ، مُحْتَقِباً إثْماً يَقذفُ بى فى عَذَابِ الله بما جَنَيْتُ . فكانَ كُلّ همّى يومئذٍ أن ألتمِسَ بَصيصاً أهتدى به إلى مَخْرجٍ يُنْجِينى من قَبْرِ هذه الظُّلُمات المُطْبِقةِ علىَّ من كُلِّ جانبٍ . فمنذُ كنت فى السابعةَ عشرةَ من عمرى سنة ١٩٢٦ ، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦ ، كنتُ منغمِساً فى غِمارِ حياةٍ أدبية بدأتُ أحسُّ إحساساً مُبْهماً متصاعداً أنّها حياةٌ فاسدةٌ من كُلِّ وجْهٍ . (١)

---

(١) انظر مقدمة كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٠ ، ١١ ومواضعَ أُخر مما كتبتُ .

فلم أجدْ لنفسى خلاصاً إلاّ أن أرفُضَ متخوِّفاً حَذِراً ، شيئاً فشيئاً ، أكثرَ المناهج الأدبيّة والسياسية والاجتماعية والدينية التى كانت يومئذٍ تَطْغَى كالسيل الجارِفِ ، يهدمُ السدودَ ، ويُقوِّض كُلّ قائمٍ فى نفسى وفى فِطْرتى .

ويومئذٍ طوَيْتُ كُلَّ نفسى على عزيمةٍ حذّاء ماضيةٍ : أن أبدَأَ ، وحيداً منفرداً ، رحلةً طويلةً جدًّا ، وبعيدةً جدًّا ، وشاقَّةً جدًّا ، ومُثِيرَةً جدًّا . بدأتُ بإعادة قراءة الشعر العربيّ كُلِّه ، أو ما وقَع تحتَ يدى منه يومئذٍ على الأصحّ ، قراءةً طويلةَ الأناةِ عند كُلّ لفظٍ ومعنىً ، كأنّى أُقَلِّبُهما بعقلى ، وأَرُوزُهما (أى : أى أَزِنُهما مختبراً) بقلبى ، وأُجُسُّهما جَسًّا ببصرى وببصيرتى ، وكأنّى أريدُ أنْ أتحسَّسَهما بيدى ، وأَسْتَنْشِيَ (أى : أَشَمَّ) ما يَفُوحُ مِنهُما بأنفِى ، وأَسَّمَّعَ دَبِيبَ الخفىِّ فيهما بأُذنَىَّ = ثُمَّ أتذوَّقهما تذوُّقًا بعقلى وقلبِى وبَصيرتى وأَنامِلى وأنفى وسَمْعى ولسانِى ، كأنى أطلُبُ فيهما خَبيئاً قد أخفاهُ الشاعرُ الماكرُ بفنّه وبراعتِه ، وأتدسَّسُ إلى دَفينٍ قد سقط من الشاعر عَفْواً أَوْ سَهْواً تحت نَظْم كلماتِه ومعانيه ، دون قَصْدٍ منه أو تَعَمُّدٍ أو إرادةٍ . (١)

(١) قد حسمتُ قضية « التذوُّق » ، ولم سمَّيْتُ منهجى منهج « التذوُّق » ، فى كلمتين نشرتهما فى مجلة الثقافة فى العددين : ٦١ (أكتوبر سنة ١٩٧٨) / ٦٣ (ديسمبر سنة ١٩٧٨) ، وأنّى لا أعنى به ما يجرى على ألسنة الكتاب : « يتذوَّقُ الجمال » و « يتذوقُ الفن » ، فهذا كلامٌ غيرُ دالٍّ على منهج . وليس هذا مكانَ =

٢ – لا تقُلْ لنفسك : « هذا مَجازٌ لفظىٌّ » ! كلَّا ، بل هو أشبهُ بحقيقةٍ أيقنتُ بِها ، لأنّى سخَّرتُ كُلَّ مافطرنى الله عليه ، وأيضاً ، كُلَّ معرفةٍ تُنال بالسَّمْع أو البَصرِ أو الإحساس أو القراءة ، وكُلَّ ما يدخُل فى طَوْقى من مراجعة واستقصاءٍ بلا تهاونٍ أو إغفالٍ = سخَّرتُ كُلَّ سَلِيقةٍ فُطِرتُ عليها ، وكُلَّ سَجِيَّةٍ لانَتْ لى بالإدراكِ ، لكَىْ أنفُذَ إلى حقيقة « البَيَانِ » الذى كرَّم الله به آدمَ عليهِ السلام وأبْناءَهُ من بعدِه . وهذا أمرٌ شاقٌ جدًّا ، كانَ ، ومُثِيرٌ جدًّا ، كان ، ولكن المطلبَ البعيدَ هوَّنَ عندى كُلَّ مشقَّةٍ وضَنًى .

٣ – اكتسبتُ يومئذٍ بعضَ الخبرةِ بلغة « الشعر » ، وبفنِّ الشُّعراءِ وبراعاتِهم . ثُمَّ آنفتحَ لى ، فى خلالِ ذلك ، بابٌ آخر من النَّظر . قلت لنفسى : « الشعر » كلامٌ صادرٌ عن قلبِ إنسانٍ مُبِينٍ عن نفسه . فكُلّ « كلامٍ » صادرٍ عن إنسانٍ يريدُ الإبانة عن نفسه ، خليقٌ أنْ أُجْرِىَ عليهِ ما أجريتُه على « الشعر » من هذا « التذوّق » الشامِل الذى وصفته آنفاً . فأخذتُ أُهْبَتى لتطبيق هذا « التذوّق » على كُلِّ كلامٍ ، ما كانَ

= بيانه مرةً أخرى . ولم أتمّ كتابة هذه المقالات ، وسأنشرها قريباً بعنوانها : « المتنبى ليتنى ما عرفْته » .

هذا الكلامُ . فأقدمتُ إقدامَ الشبابِ الجرىء على قراءَة كُلِّ ما يقع تحتَ يَدِى من كُتُب أسلافنا : من تفسيرٍ لكتاب الله ، إلى علوم القرآن على اختلافها ، إلى دواوين حديث رسول الله ﷺ وشُرُوحها ، إلى ما تفَرَّع عليه من كُتُب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل ، إلى كُتُب الفقهاءِ فى الفقه ، إلى كتب أصول الفقه وأُصولِ الدين (أى : علم الكلام) ، وكتُب الملل والنِّحَل ، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة ، وكتب النَّحْو وكتب اللغة ، وكُتُب التاريخ ، وما شئت بعد ذلك من أبواب العلمِ . وعَمَدتُ فى رحلتى هذه إلى الأقدمِ فالأقدمِ . كُلُّ إرْث آبائى وأجدادى ، كنت أقرؤه على أنّه إبانَةٌ منهم عن خَبايا أنفسهم بِلُغتِهم ، على اختلاف أنظَارهم وأفكارهم ومناهجهم . وشيئاً فشيئاً انفتح لى البابُ يومئِذٍ على مِصْراعَيْه . فرأيتُ عجباً من العَجَبِ ، وعَثرتُ يومئِذٍ على فيضٍ غزيرٍ منْ مُسَاجَلَات صامتَةٍ خفيَّةٍ كالهمسِ ، ومساجلاتٍ ناطقةٍ جَهِيرة الصوت ، غيرَ أنَّ جميعَها إبانَةٌ صادقةٌ عن هذه الأنفس والعقول .

أمدَّتنى هذه التجربةُ الجديدة بخِبْراتٍ جَمَّةٍ متباينة متشعِّبةٍ ، أتاحت لى أنْ أجعل منهجى فى « تذوّق الكلام » منهجاً جامعاً شاملاً مُتشعِّبَ الأنحاءِ والأطْرافِ ، يزدَادُ مع تطاوُل الأيام رَحابةً وسَعَةً ، وحِدَّةً ومَضاءً ، ونَفَاذاً ودِقّة ، وشُمولاً واستقصاءً .

٤ — ولا أزعُمُ ، مَعَاذَ الله ، أنِّى ابتدعتُ هذا المنهج ابتداعاً

بلا سابقةٍ ولا تمهيد ، فهذا خَطَلٌ وتَبجُّحٌ . بل كُلُّ ما أزعُمهُ أنّى بالجُهْد والتَّعب ، وبمعاناة التفتيش فى هذا الرُّكَامِ من الكلام ، جمعتُ شَتَات هذا المنهج فى قلبى ، وأصَّلت لنفسي أصولَه ، مع طول التنقيب عنْه فى مَطاوِى العِبَارات التى سبق بها الأئمةُ الأعلام من أصحاب هذه اللغة ، وهذا العلم ، فى مباحثهم ومساجلاتهم ومُثَاقَفاتهم وما يتضمَّنه كلامهم من النقد والاحتجاج للرأى . وكلُّ ما وقفتُ عليه من ذلك ، كان خفيًّا فَٱستَشْفَفْتُه ، ودَفِيناً فَٱستَنْبطتُه ، ومشتَّتاً فجمعتُه ، ومفكَّكاً فلاءَمْتُ بين أوْصالِه ، حتى استطعتُ بعد لَأْيٍ أن أمهِّد لفكرى طريقاً لاحباً مُستَتِبًّا يَسيرُ فيه ، أى صيرتُه « منهجاً » التزمتُ به فيما أقرأُ وما أكتب .

ومع ذلك ، فقد كنت أتوهَّم فى سنة ١٩٣٥ حين فرغتُ من إجراءِ منهجى فى « تذوّق الشعر » على كل كلامٍ غير الشِّعر ، أنِّى قد سَبَقْتُ إلى ذلك ، حتى كانت سنة ١٩٥٦ ، أى بعد أكثر من عشرين سنة ، حين طُبعتْ « الرسالة الشافية » للإمام الجُرْجانىّ ، (١) (عبد القاهر بن عبد الرحمن الجُرْجانى ، المتوفى سنة ٤٧٤ تقريباً) ،

---

(١) نشرها الأستاذان محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، فى سلسلة « ذخائر العرب » (دار المعارف) . ثم نشرتها أنا ملحقةً بكتاب « دلائل الإعجاز » للجرجانى فى سنة ١٩٨٤ ، (مكتبة الخانجى بالقاهرة) .

فوقفت على فصل نفيس جدًّا كتبه الإمام الجرجانى الكبير ، هو أوضح ما قرأته قَطُّ ، فى إجراء « التذوُّق » على كُلِّ كلامٍ ، فى كُلِّ عِلْمٍ ، مَهما ظننتَ أنّه أبعدُ علمٍ من إجراء « التذوُّق » عليه . وكلامُ هذا الإمام الجليل ، وإن لم يكن صريحاً كُلَّ الصراحة فى الدلالة على منهجى ، إلاّ أنّه أشبهُ شيءٍ به . و « الرسالة الشافية » رسالةٌ فى إعجاز القرآن ، من غير الوجه الذى بَنى عليه كتابه « دلائل الإعجاز » . وهذا الفصْل من الرسالة ، (١) بيانٌ لحالِ المعانى : « وأن الشاعرَ يسبقُ فى الكثيرِ منها ، إلى عبارة يُعْلَم ضرورةً أنها لا يجيءُ فى ذلك المعنى إلاّ ما هو دونها ومنحطٌّ عنها ، حتّى يُقضَى له بأنّه غَلَبَ عليه واستبدَّ به » ، وذكر أشعاراً قد بلغت الغايةَ فى معناها ، ولم يبق لطالبٍ بعدها مطلبٌ . ثم قال (ص : ٦٠٤ / الفقرة : ٢٩) :

« وكذلك السبيلُ فى المنثورِ من الكلام ، فإنّك تجدُ متى شئتَ فصولاً تعلمُ أن لن يُستَطاعَ فى معانيها مِثْلُها . فمِمَّا لا يخفَى أنَّهُ كذلك

---

(١) يقع هذا الفصل فى طبعتى لكتاب « دلائل الإعجاز » من ص : ٦٠٢ إلى ص : ٦١٠ .

قولُ أمير المؤمنين علىٍّ بن أبى طالب رضوان الله عليه : « قِيمةُ كُلِّ آمرىءٍ ما يُحْسِنُه » ، وقولُ الحسن (البصرى) رحمةُ الله عليه : « ما رأيتُ يقيناً لا شَكَّ فيه ، أشْبَهَ بشكٍّ لا يقينَ فيه ، من الموت » ، ولن تَعْدَم ذلك إذا تأمَّلتَ كلامَ البلغاءِ ونظرتَ فى الرسائل » .

ثم قال عبد القاهر بِعَقِبِ ذلك مباشرةً = وهنا موضع الاستدلال ، وفيه نظرٌ جيِّد ظاهرُ الجَوْدة والبراعة والتيقُّظ :

« ومن أخصِّ شيء يُطَّلَبُ ذلك فيه ، الكتبُ المبتدأ الموضوعةُ فى العلوم المستخرجة ، فإنّا نجدُ أربابها قد سَبَقُوا فى فصولٍ منها إلى ضَرْبٍ من النَّظْم واللفظ ، أعْيَا من بعدهُمْ أن يطلبُوا مثلَهُ ، أو يجيئُوا بشبيهٍ له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظُوا تلك الفصُولَ على وجهها ، ويُؤدُّوا ألفاظَهم فيها على نِظَامِها وكما هِىَ . وذلك مثلُ قول سيبويه فى أوّل الكتاب ، (١ : ٢) :

« وأمَّا الفعلُ فأمثلةٌ أُخِذَتْ من لفظ أحداثِ الأسماء ، وبُنِيَتْ لما مضَى ، وما يكونُ ولم يَقَعْ ، وما هو كائنٌ لا ينقطع » .

= « لا نعلمُ أحدًا أتى فى معنى هذا الكلامِ بما يوازنُه أو يُدانيه ، ولا يقعُ فى الوهْمِ أيضاً أن ذَلك يُستَطاع . ألا ترى أنّه إنّما جاء فى معناه

قولُهم : « والفعلُ ينقسم بأقسام الزمان ، ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، وليس يخفى ضَعْفُ هذا فى جَنْبِهِ وقصورُهُ عنه . ومثلُهُ قوله (أى قول سيبويه أيضاً فى الكتاب ١ : ١٥) : « كأنهم يُقَدّمون الذى بيانُه أهمُّ لهم ، وهم بشأنه أعْنَى ، وإن كانا جميعاً يُهِمَّانهم ويَعْنِيانهم » ، = وإذا كانَ الأمرُ كذلك ، لم يمتنع أن يكونَ سبيلُ لفظ القرآنِ ونَظْمه هذا السبيلَ ، وأن يكون عجزُهم عَنْ أن يأتوا بمثله فى طريق العَجْزِ ، كما ذكرنا ومَثَّلنا » ، انتهى كلام عبد القاهر .

• • •

٥ — فهذا الإمامُ البارع اليقِظُ ، لمْ يَجِدْ = وهو يعالجُ قضيّةَ إعجاز القرآن العظيم ، ويمارسُ تطبيقَ فكرته المبتدعة التى سبق بها الناسَ ، وهى قضية « اللفظ والنَّظْم » ، وهُمَا عَمودُ مذهبه فى إعجاز القرآن وفى البلاغة والكلام البليغ = لم يجد غَضَاضةً فى تطبيق فكرته فى الإعجاز ، على حدٍّ من حدود « الفعل » ، وهو الحدّ الذى كتبه إمامُ النحو سيبويه ، ولم يستنكِفْ أن يجعله قريناً للكلمات الجامعة الشريفة ، التى يُهْدَى إليها شاعرٌ مبينٌ أو ناثرٌ بليغ ، ولم يتوقّف فى الحُكم عليها بأنها من الكلمات الشريفة الجامعة ، ممّا لا يقع فى الوَهْم أنّ أحداً يستطيع أن يأتى فى هذا

المعنى بكلامٍ يُوَازِنُها أو يدانِيها ، وأنها كلامٌ بيِّنٌ قد بلغ الغاية فى البيان ، « ولم يبق لطالبٍ بعدهُ مَطْلبٌ » .

وعبد القاهر حكَم حُكْماً لم يبيِّنْ لنا مَأْتَاهُ ولا تفصيلَه حين قال : إن المعنى الذى جاءَ فى معنى كلام سيبويه هو قولهم : « والفِعْلُ ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، ثم قال : « وليس يخفَى ضعفُ هذا فى جَنْبه وقُصُوره عنه » ، ولم يزد على هذا شيئاً . وقبل كُلّ شىءٍ ، فهذا الذى استضعفهُ إلى جَنْب كلام سيبويه ، إنما هو نصُّ كلام أُستاذه وإمامه الذى يُغَالى فى أستاذيته ويقدِّمه تقديماً على سائر النحاةِ ، أبى علىّ الفارسىّ فى كتابه « الإيضاح » فى النحو ، والذى عُنِى هو نفسه بشرحه شَرْحين : أحدهما كتاب « المُغْنِى » ، وهو شرح مطوَّل فى ثلاثين مجلَّدةً ، والآخر هو « المقتصد » وهو مختصرٌ منه فى مجلَّدَتين ، ولم أجد عبد القاهر فى « المقتصد » ، [1] تعرَّض لنقد حدِّ شيخِه الفارسىّ ، ولا بيَّن لنا عن وجه ضعفه أو قُصوره . ووجدتُه صعباً عسيراً أنْ يُدْرك

---

(١) انظر كتاب « المقتصد » لعبد القاهر ١ : ٨٢ ، ٨٣ ، طبع فى العراق سنة ١٩٨٢ .

القارىء مَأْتَى هذا الحكم ، وإن كان عبد القاهر قد قال إنه « ليس بخَفِيٍ » ، مع أنه خَفِيٌّ بلا شكٍّ فى خفائه . فرأيته واجباً أن أجتهد اجتهاداً فى بيان مَأْتَى هذا الحكم ، لكى يتّضح لك معناهُ فى كلام عبد القاهر . (١)

فسيبويه حينَ حدّ « الفعل » فى أول كتابه ، لم يُرِدْ أمثلتَهُ التى هى عندنا : فعلٌ ماضٍ نحو « ذهبَ » ، ومضارعٌ نحو « يذهبُ » ، وأمرٌ نحو « آذهبْ » ، بل أراد بيانَ الأزمنةِ التى تقترن بهذه الأمثلة كيف هى فى لسان العرب ، فجعلها ثلاثة أزمنة :

فالزمن الأول ، هو المقترن بالفعل الماضى الذى يدلُّ على فِعْلٍ وَقَعَ قبل زمن الإخبار به كقولك : « ذهب الرجلُ » ، ولكن يخرجُ منه الفعل

---

(١) الآن ، وأنا أطبع الكتاب ، وافانى ولدى الكريم الدكتور عبد الرحمن ابن سليمان العثيمين ، بالصفحات الأولى من شرح كتاب سيبويه للإمام أبى سعيد السيرافى القاضى النحوىّ (الحسن بن عبد الله بن المزربان / ٢٨٨ - ٣٦٨ هـ) فلم أرهُ صنع شيئاً فى شَرح عبارة سيبويه ، وإنّما هو ما دَرَج عليه النحويُّون فى أقسام زمان الفعل : « ماض ، وحاضِرٌ ، ومستقبل » لا غير ، فيكون ما كتبتهُ لك بَعْدُ أوّلَ بيانٍ عن جميع عبارة سيبويه بلا إغفالٍ لشيءٍ منها كما أغفلوه .

الذى هو على مِثَال الماضى أيضاً ، ولكنه لا يدلُّ على وقوع الحدث فى الزمن الماضى ، نحو قولك فى الدعاء : « غَفَر الله لك » ، فإنّه يدخل فى الزمن الثانى ، كما سأبيِّنُهُ بَعْدُ .

وأمّا الزمن الثانى ، فهو الذى عبَّر عنه سيبويه بقوله بعد ذلك : « ومَا يَكونُ ولم يَقَعْ » ، وذلك حين تقول آمراً : « آخرُجْ » ، فهو مقترنٌ بِزَمنٍ مُبْهم مُطْلَقٍ مُعَلَّقٍ لا يدلُّ على حاضر ولا مستقبل ، لأنه لم يقع بعدُ خروجٌ ، ولكنه كائنٌ عند نفاذِ « الخروج » من المأمور به = ومثلُه النهىُ حين تقول ناهياً : « لا تَخْرُجْ » ، فهو أيضاً فى زمن مُبْهم مُطْلَقٍ معلَّقٍ ، وإن كان على مِثَال الفعل المضارع ، فقد سُلبَ الدلالة على الحاضر والمستقبل لأنه لم يَقَعْ ، ولكنه كائنٌ بامتناع الذى نُهِىَ عن الخروج = ومثلُه أيضاً فى مثال المضارع فى قولنا : « قاتلُ النفس يُقْتَلُ ، والزَّانى المُحصَنُ يُرْجَمُ » فهما مِثَالانِ مضارعان ، ولا يدلّان على حاضر ولا مستقبل ، وإنما هما خبران عن حُكْم ، ولم يقَعا عند الإخبار بهما ، فهما فى زمنٍ مُبْهمٍ مُطْلَقٍ مُعلَّق ، وهما كائنان لحدُوث القتل من القاتِلِ عند القِصَاصِ ، وحدوثِ الزِّنا من الزانى المُحْصَن عند إنفاذِ الرَّجْمِ = ويدخُلُ فى هذا الزمن أيضاً نحو قولك : « غَفَر الله لك » فى الدعاء ، وهو على مثال

الماضى ، فإنك لا تريدُ إخباراً عن غُفْران مَضَى من الله سبحانه ، ولكن تريد غُفْراناً من الله يكون ، ولكنه لم يقع بعدُ ، وترجو بالدعاءِ أن يقع .

وأما الزمنُ الثالث ، فهو الذى عبَّر عنه سيبويه بقوله : « وما هو كائنٌ لم ينقطع » ، فإنه خبرٌ عَن حَدَثٍ كائِنٍ حينَ تخبرُ به ، كقولك : « محمد يَضْرِبُ وَلَدَه » ، فإنّه خبر عن ضَرْبٍ كائنٍ حين أخبرتَ فى الحال ولم ينقطع الضربُ بعد مُضِىِّ الحال إلى الاستقبال = ويُلْحقُ بهذا الزَّمنِ الثالِث أيضاً مِثالُ الفعل الماضى كقوله تعالى : « وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحيماً » ، فهو خبرٌ عن مَغْفرةٍ كانت ولا أوَّلَ لها ، وهى كائنةٌ أبداً لا انقطاعَ لها ، لأنها من صِفَات الله سبحانُه هو الأوّلُ والآخرُ .

وبهذا البيان المُوجَز الذى أرجو أن أكون قد وُفِّقت فى بيانه ، يتبيَّن لك صِدْقُ عبد القاهر = بلا إبانةٍ كانت منه = فى الحُكم على عبارة أبى علىٍّ الفارسىّ بالقُصور والضعْف إلى جانب عبارة سيبويه الجامعة المُبِينة ، فإن أبا على الفارسىِّ ، مع نَصِّه فى عبارته على « أقسام الزمان » حيث قال : « والفعل ينقسِم بأقسام الزمان : ماضٍ ، وحاضرٌ ، ومستقبلٌ » ، فإنه أسقط الزمن الثانى كُلَّه ، وهو الزمن المبهم المُطْلق المُعلَّق الذى دلَّت عليه عبارة سيبويه ، وكذلك فعلَ سائرُ النحاةِ ، فقد أسقطوا هذا الزمن إسقاطاً كاملاً ، ولم يُعْنَوْا به أىَّ عناية فى حدّ

« الفعل » ، فلم يذكروا بأىِّ زمنٍ يقترن فعلُ الأمر والنهى = ولم يذكروا اقترانَ هذا الزمن الثانى بالفعل المضارع = ولا اقترانَهُ بالفعل الماضى أيضاً فى الدُّعاء = ولم يذكروا فى حدّهم هذا دخولَ الفعل الماضى فى الزمن الثالث ، زمنِ الفعل المضارع فى الحال والاستقبال ، كما مثَّلْتُ .

* * *

فأنتَ تراهُ عِياناً الآن ، أنّ سيبويه قد استطاع فى جملةٍ واحدة قصيرةٍ لا تتجاوز سطراً واحداً ، استطاع أن يُلمَّ بجميع الأزمنة المقترنة بأمثلةِ الفعل ، دون أن يُخلَّ بشىء منها . فهى جملةٌ محكمة شديدةُ الإحكام ، عجز النحاة من بعده أن يلمُّوا بها فى حدودهم التى كتبوها عن حدّ الفعل . فأىَّ رجُل مُبِينٍ كان سيبويه !

● وأقول أنا : كان سيبويه رحمه الله ، حين كتب هذه العبارة وأمثالَها فى كتابه ، فى قمَّة الصفاءِ ، وفى ذِرْوَة اليَقَظَة ، تَسْمُو به أنبلُ عاطفةٍ من الوفاءِ لشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدى ، (المتوفى سنة ١٧٥ ، أو قبلها) والذى مات ولم يجْمَع علمَهُ المستفيضَ فى كتابٍ جامعٍ . فبعد موت الخليل = كما حدَّثَنَا نصرُ بن علىّ بن نصر بن علىّ الجَهضَمىُّ روايةً عن أبيه = أن سيبويه لقى أَبَاهُ علىَّ بن نصر بن علىّ الجَهْضَمىّ (المتوفى سنة ١٨٧) ، وهو قَرِينُ سيبويِه فى الأَخْذِ عن الخليل

والاختصاص به ، فقال له سيبويه : « يا عليُّ ، تعالَ نتعاوَنُ على إحياء علم الخليل » = فتقاعس عليٌّ ، (أى تأخَّرَ ولم يتقدَّم) ، وخذلَ سيبويه فيما أرادهُ ، فحَمِىَ قلبُ سيبويه ، وعزم على أن ينفردَ بإحياء علم الخليلِ . فانبَرَى بكُلّ ما فى قلبه من الدِّيانَةِ ، والأمانةِ والحبِّ والإخلاص ، مُستقِلاً وحدَهُ بالعِبْءِ ، وحلَّق وحدَهُ كالعُقَابِ فى جوِّ العربية ، يُجَلِّى بعينيه النافذتين كُلَّ علم الخليل وغير الخليلِ ، وكُلَّ أساليب العربية ، وينقضُّ على المعانى بضبطٍ وإحْكَامٍ كإحكام العُقَاب الصَّيُود ، بكُلّ ما فى قلبه من القُدْرة على الإبانة والقُدْرة على الاستبانة . وهذا ظاهرٌ جلىٌّ لمن يقرأُ كتابَ سيبويه بتذوُّقٍ وتأمُّلٍ وأناةٍ ، ولكن أينَ هذا القارىء ! فمن أجل ذلك كان كتاب سيبويه بحراً زخّاراً ، لم يبلُغْ مبلغَهُ فى الجودةِ والبيان عن معانى النحو نحوىٌّ واحدٌ ممَّن جاء بعدهُ وعبَّ من عُبَابه . وحُقَّ لعبد القاهر الإمامِ أن يجرىَ عليه مذهبه فى قضية « النظم واللفظ » ، وأن يختارَ مِن عباراته عبارةً مُبينةً جامعةً ، ويجعلها قرينةً لأشرف العبارات المبينة فى شِعْر الشعراء ، وفى كلام البُلَغاء ، كعلىٍّ رضى الله عنه ، والحسن البصرىِّ رحمه الله .

* * *

٦ – أظُنُّنى قد أثقلتُ عليك ، أيها القارىء لكتابى هذا : « المتنبىّ » ، وأبْعَدْتُ بك الرحلة ، ولكننى لم أبْعُدْ بك ، فى الحقيقة ، لأنّى

أردتُ أن تقفَ بالدليلِ الواضح ، على أن المنهج الذى استطعتُ أن أمهِّده لفكرى ، كان نابعاً من صميم المَنَاهج الخفيّة التى سنّ لنا آباؤنا وأسلافُنَا طُرُقَها = وأن كُلَّ جُهْدى فيه ، هو معاناةٌ كانتْ منّى لتبيُّن دُرُوبها ومسالكها ، ثم إزالةُ الغبارِ الذى طَمَس معالمَها ، ثم أن أجْمَعَ ما تشتّت أو تفرّق من أساليبِها ، معتمداً على دلالاتِ اللسانِ العربىِّ ، لأنّ كُلَّ ذلك مخبوءٌ تحت ألفاظ هذا اللسان العربىّ ، ومستكِنٌّ فى نَظْم هذا اللسان العربىّ ، وهذا يكادُ يكون أمراً مسلَّماً ببديهة النظر فى شأن كل لغة وتُرَاثها . والذى لا يملكُ القدرة على استيعابِ هذه الدُّلالات وعلى استشفافِ خفايَاها ، غيرُ قادرٍ البتَّةَ على أن يُنشِئ منهجاً أدبيًّا لدراسةِ إرْثِ هذه اللغة ، فى أىّ فرعٍ من فروعِ هذا الإرْثِ ، إلاَّ أن يكون الأمر كُلُّه تبجُّحاً وغَطْرسةً وزَهْواً وغروراً وتغريراً ، كما هو الحال فى حياتنا الأدبيةِ هذهِ الفاسدَةِ .

هذا هو جوهَرُ حديثى عن منهجى فى « تذوُّق الكلام » كُلِّه شعراً ونثراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وعلماً يُكتبُ أو يُستخرجُ ، لأنّ ذلك كُلَّه إنَّما هو إبانةٌ عمَّا تموجُ به النفوسُ ، وتَنْبِضُ به العقول . ففى نَظْم كُلِّ كلام وفى ألفاظه ، ولابُدَّ ، أثرٌ ظاهرٌ أو وَسْمٌ خفىٌّ من نفس قائله وما تَنْطوى عليه من دَفِينِ العواطِفِ والنوازِعِ والأهواء من خيرٍ وشرٍّ أو صدق وكذب =

ومن عَقْل قائله ، وما يكمُن فيه من جَنِينِ الفِكْر ، (أى مستوره) ، من نظرٍ دقيقٍ ، ومعانٍ جليَّةٍ أو خفيَّةٍ ، وبراعة صادقةٍ ، ومَهارَةٍ مُمَوَّهةٍ ، ومقاصدَ مَرْضيّةٍ أو مُستَكرهةٍ . فمنهجى فى « تذوُّق الكلام » ، مَعْنِيٌّ كل العناية باستنباط هذه الدفائن ، وباستدراجها من مكامِنها ، ومعالجةِ نَظْم الكلامِ ولفظه معالجةً تُتيح لى أن أَنْفُضَ الظَّلامَ عن مَصُونها ، وأُمِيط اللثامَ عن أخفى أَسْرارِها وأَغْمَضِ سرائرِها . وهذا أمرٌ لا يُسْتَطاعُ ولا تكون له ثَمَرةٌ ، إلاّ بالأناةِ والصبْر ، وإلاّ باستقصاء الجُهْد فى التثبُّت من معانى ألفاظ اللغة ، ومن مَجَارِى دلالاتها الظاهرةِ والخفيّة ، بلا استكراهٍ ولا عَجَلةٍ ، وبلا ذهابٍ مع الخاطر الأوّل ، وبلا توهُّمٍ مُستَبِدٍّ تُخْضِعُ له نَظْمَ الكلام ولَفْظَه .

* * *

٧ — وأمرٌ كريهٌ ، أيها القارىء ، وبَغِيضٌ إلىَّ كُلَّ البُغْضِ ، أنْ أُحدّثك عن أعمالى ، ولكن لابُدَّ مما ليس مِنْه بُدٌّ ، لكى تكون على بيِّنةٍ .

قد مضى الشبابُ وطُوِى بِسَاطُه ، ومضت تلك الأيامُ الغوابر المضيئةُ فى حياتى ، حتى كانت سنة ١٩٣٥ ، وأنا فى السادسة والعشرين من عُمرى ، حين آستوَىَ لِىَ المنهجُ واستبانَ . فكانَ أَوّلَ عملٍ طبّقتُ فيه منهجى فى « تذوُّق الكلام » ، شعراً ونثراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وعلماً

يُكْتب أو يُستَخرج ، هو كتابى « المتنبىّ » ، الذى تولت نشره مجلة « المقتطف » فى عدد يناير سنة ١٩٣٦ . كان كتابى خالياً من كُلِّ إبانةٍ عن هذا المنهجِ أو إشارةٍ إليه . فكانَ صدورُه يومئذ مفاجأةً وجَّهتْ أنظار الأُدباء جميعاً فى كُلِّ بلدٍ ينطقُ اللسان العربىّ ، إلى آسمٍ مَجْهول وكاتبٍ مغمورٍ ، وأصبحتُ فى خَفْقَةٍ كخَفْقةِ البرقِ آسماً مشهوراً عندهم وكاتباً مذكوراً .

وأنتَ لم تشهد تلك الأيَّامَ كيف كانت ، ولا تجدُ اليومَ من يحدّثُك عنها غَيْرى . وكُلُّ ما بقىَ منها أنَّك تعرفنى اليومَ معرفةً مبهمةً بلا دليلٍ يرشدُك ، إلاّ هذا الصيتُ الكاذبُ الذى لا أظنُّ أنَّ له عندك حقيقةً تعرِف بها صدقَهُ ، والذى أُكْسِبْتُنِيهِ تلك المفاجأةُ المثيرةُ المتقادمة المُوغِلَةُ فى البعد عنك .

كانَ السببُ فى هذه المفاجأةِ المثيرة ، أنّ جمهرة الأُدباءِ والقارئين يومئذٍ ، وقعُوا على كتابٍ فيه ترجمةٌ للمتنبىّ ، مكتوبٍ على مَنْهَجٍ وجدُوهُ فريداً متميِّزاً ، مبايناً مَدَبُّه كلَّ المباينةِ ، لجميع المناهج الأدبية المختلفة المألوفة ، والتى كانت تغمرُ ساحة الأدب ، ولا تزالُ تغمُرُها مع الأسف . وهذا أمرٌ تستطيع أن تستوثِقَ من صِحَّته بالنظر فى كُلِّ ما كَتبَ الكاتبون عن الشِّعر والشعراء وغير الشعراء قبلَ هذا الكتابِ . كانُوا يُحِسُّون

إحساساً خفيًّا بهذه المباينةِ الظاهرةِ ، وقد عبَّر عن هذا الإحساس الخفىّ أقرانى وأساتذتى وشيوخى الكبار ، مُعَارِضِين أو مُثْنِينَ ، كُلٌّ عبَّر بطريقته وأسلوبه عن هذا الإحساسِ الخفىّ ، بكلامٍ مكتوبٍ ، أو حديثٍ جرَى بينى وبينهُم . (١) ولأنى أصدرتُ هذا الكتابَ خِلْواً من مقدّمة تتحدَّثُ عن منهجى الذى بَنَيْتُ عليه ترجمتى للمتنبىِّ ، فقد كان ما لا بُدَّ أن يكونَ . فالحياةُ الأدبيَّةُ الفاسدةُ الَّتى سنَّ للناس سُنَنها شيوخُنا الأدباءُ الكبارُ ، والتى نعيش فيها إلى هذا اليوم = وآفاتٌ أخرى كانوا يتعايشون بها ، وبثُّوها فى تلاميذهم وأشياعهم = كلُّ ذلك لم يَكُنْ يُتِيح لأحدٍ ، إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ ، أن يجدَ من وقته ساعاتٍ للتأمُّل والأناةِ والصبْرِ ، للبحث عن هذا المنهج الغريب غير المألوف الذى وجده أمَامَهُ مطبّقاً فى كتاب

---

(١) ستجد طرفاً من ذلك فى « قصة هذا الكتاب » ، وما كتبه الرافعى ومصطفى عبد الرازق ، وأخوه على عبد الرازق ، ومحمد هاشم عطية ، وعبد الوهاب عزام ، وفؤاد صروف ، وقرينى وأخى سعيد الأفغانى ، وما فعله العقاد ، وما قاله طه حسين ، (انظر باب « الغمرات ثم ينجلين » ص : ٧٥ – ٧٩ = وما كان فى أوّل لقاء لى بالدكتور طه ص ٩٩ – ١٠٤ ، ٥٢٣ ، وأما سعيد الأفغانى ، فكلامه وكلامى مثبت فى ص : ٥٣٣ – ٥٧٤ ، وكلمة الرافعى مثبة فى ص : ٥٧٧ – ٥٧٩ ، وفؤاد صروف فى تقديمه الكتاب ص : ١٢٩ – ١٣٤) .

كاملٍ ، وأحسَّ به كُلٌّ منهم إحساساً خفيًّا دعاهُ إلى المعارضة أو الثناءِ . وهذا خِذْلانٌ كبيرٌ ، غَفَر الله لنا ولهم ، وتجاوَز عن سيِّئاتنا وسيِّئاتهم .

كانَ ما لابُدَّ أن يكونَ ، فبقي منهجي مَنْهجاً غيرَ بيِّنٍ ، بل صارَ منهجاً مغموراً تطمِسُ مَعالمَهُ المناهجُ الفاشيةُ الغالبةُ على هذه الحياة الأدبية الفاسدة . ثم جاءَ من بَعْدِ الأساتذة الكبارِ أجيالٌ صَنَعَتْهُم السُّنَن التي سَنُّوها في حياتنا الأدبية ، والأساتذةُ الكبار هُم القِمَمُ وهم القُدْوَة ، فاتَّسَع الخَرْقُ بفعل مُرُور الأيّام والسنين ، وفسد الأمرُ فسَاداً وبيلاً . فكان لابُدَّ أن يبْقَى منهجي هذا مطموساً مغموراً ضَرْبَةَ لازبٍ . وضربَة لازبٍ أن يكون كذلك ، لأنّي أنا أيضاً قد رضيتُ لكتابي « المتنبيّ » ولمنهجي فيه أن يبقَى مطموساً مغموراً مُدَّة أربعين سنة ، منذ خرج للناس لأوّل مرةٍ في سنة ١٩٣٦ ، إلى أن كانت سنة ١٩٧٧ ، حين أعدتُ نشرهُ . ولكن ههنا حديثٌ آخرُ سأحدِّثك عنه بَعْدَ قليلٍ .

٨ - لا تَحْسَبْ أنّي قد فارقتُ منهجي وأغفلتُه مدّة أربعين سنةٍ ونيِّف ، ولا تَقُل : أنت الملومُ ! فَلِمَ توانَيْتَ ونَكَصْتَ وتَثاقلتَ فلم تنصرْ منهجك ولا بيَّنْتَهُ للناس ؟

فأقول لك = إن كنتَ مِمَّنْ يُريدُ أن يَعرفَ ، أمّا الذي لا يُريدُ أن يعرفَ فليس بيني وبينه عَمَلٌ = : إن منهجي في « تذوّق الكلام » شعراً

ونثراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وبياناً عن عِلْمٍ مُسْتَخْرجٍ ، وكلاماً قاله الناسُ فى الأمسِ البعيد ، وكلاماً يقوله الناسُ فى هذا اليوم القريب ، منهجٌ متراحبٌ متشعِّبُ الأنحاء كما حَدَّثتُك آنفاً ، وهو مطبَّقٌ تطبيقاً بيِّناً فى كُلِّ ما كتبه هذا القلمُ الذى أكتب به الآن إليك . مطبَّقٌ هذا المنهجُ فى مقالاتى التى نشرتُها فى الصحف والمجلات قديماً وحديثاً ، سواءٌ كان ما كتبتُهُ بَحْثاً أو نَقْدًا أو تعبيراً عن ذاتِ نَفْسى فى كُلِّ مَنْحىً من مناحِى القولِ والبيان ، أو تعليقاً على أصولِ الكتب القديمة التى نَشرتُها وخرجَتْ للناس .

وإنْ شئتَ أن تعلَم ، فاعلم أنَّك واجدٌ منهجى فى « تذوُّق الكلام » فى مقالاتى القديمة والحديثة التى لم أنشرْها بعدُ فى كتاب يقرأُ اليومَ ، وأنتَ واجدُه أيضاً فى كتابى « أباطيلُ وأسمارٌ » وكتابى « برنامجُ طبقات فحول الشعراء » ، وأنت واجدُه أيضاً ظاهراً يلوحُ فى قراءتى وشرحى لكتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلَّام الجمحى ، وفى قراءتى وتعليقى على كتاب « جَمْهرة نسب قُرَيْش » للزُّبَيْر بن بكَّار ، وفى مواضع كثيرة جدًّا متفرقة فى قراءتى وتعليقى لكتاب أبى جعفر الطبرى فى تفسير القرآن ، وفى سائر ما كتب الله لى أن أنشرهُ من الكتب .

بَلْ ... بَلْ أنت واجدُه ساطعاً كُلَّ السُّطوع فى ديوانِ « القَوْسُ

العَذْراءُ » ، حيثُ تجِدُ ثلاثةً وعشرين بيتاً قالها الشمّاخ الشاعرُ فى قصيدته الزائية ، التى وصَف فيها قَوْساً وقَوَّاسَها الذى صنعَها بيديه وسَوَّاها حتى استوتْ ، ففُتِن بحُبِّها قوّاسُها هذا وانطوى قلبه على الضَّنِّ بها . ثم دعاه داعِى الحجّ فأسمعه ، فانطلق خارجاً من باديته ، فوافى بِهَا أَهْلَ المواسم ، فانبَرَى لقوسه هذه تاجرٌ غنىٌّ شديدُ المكر والدَّهاء ، فسَاوَمَه بها فأطالَ المساومة . قوّاسٌ فقيرٌ بائسٌ ، وغنىٌّ مَلِىءٌ ماكِرٌ حُلو اللَّفظ واللسانِ ، فاَغْتَرَّهُ بالمال والغنى حتى ذَهَل بفقره عن نفسه وهواهُ ، وفى غَمْرة ذُهوله أسلم له قوسَهُ وقبضَ المال ، ولم يكدْ حتى استفاقَ ، وتلفّت فلم يجدْ قوسَهُ وحُشاشةَ نفسه ، ولم تقع عينه على هذا التاجر الذى انقضّ على قوسه كالعقاب الكاسِر وطَار بها حيثُ لا يُرَى ، فأجهش البائس المسكين بالبكاء ، ونظر إلى المال الذى فى يديه ، وفاضتِ العينُ عبرةً ، وسقط فى هاوِيةِ الأحزانِ ، وتساقطت نَفْسُه بعد فراقها حَسَرَاتٍ ، « وفى الصَّدْر حَزَّازٌ من الوَجْدِ حَامزُ » .

كنت قديماً قد تذوّقتُ ، فيما أتذوّق من الشعر العربى ، بيَاناً حافِلاً غزيراً فى أبيات الشمّاخ الثلاثة والعشرين . تذوّقتُها غائصاً فى أغوارِ دِلالة ألفاظها وتراكيبها ونظمها ، بل غُصْتُ تحت تيَّار معانيها الظاهرة ، وفى أعماق أحرُفِها ، وفى أنغامِ جَرْسِها ، وفى خَفَقَات نَبْضِها ، وفى دَفْقِها

السَّاربِ المتغلغِلِ تحت أَطْباقها ، فأَثَرْتُ بهذا التذوُّق دفائنَ نَظْمها ولفظها ، واستدرجتُ خَباياها المتحجِّبة من مَكامنها ، وأَمَطْتُ اللثامَ عن أخفَى أسرارها المكتَّمة ، وأغمضِ سرائرها المُغَيَّبة ، حتَّى صرتُ كأنى أقرأ قصةً طويلةً فى كتابٍ منشورٍ . ومضت السنون الطِّوال حتى كدتُ أنساهَا . ثم جاء يومٌ أذكرنى هذه القصة الطويلة ، فانبعثتْ فجأةً من مَرْقَدِها ، وانبعثتُ أنا أَقُصُّ قصَّة القَوْسِ وقوَّاسِها ، كما كانت أفضَتْ إلىَّ به أبيات الشمَّاخ ، وضَمَّنْتُها قصيدةً تزيدُ على ثلاثمئة بيتٍ ، كُلُّ ما فيها نَبِيثةٌ مستخرجةٌ من بَيَان أبيات الشماخ ، ومن رِكَاز نَظْمها وكلماتها ، بلا استكراهٍ لِقِصّةٍ أو معنىً أو صُورة . (الرِّكازُ : كنزٌ مدفونٌ فى باطن الثرى فى مَعْدِنِه = والمَعْدِن : هو الذى نسمّيه اليوم « المنجم » كمنجم الذهب والفضة وغيرهما من كنوز الأرض ، كريمِها وخَسِيسها) . [1] .

---

(١) نشرت « القوس العذراء » أول مرة فى مجلة الكتاب (دار المعارف) فى عدد أول فبراير سنة ١٩٥٢ ، وكتب الأستاذ عادل الغضبان كلمةً فى التنويه بها . ثم نشرتها فى كتاب سنة ١٩٦٤ ، فكتب عنها الدكتور زكى نجيب محمود كلمة نفيسة (ضاعت منى مع الأسف) ، وكتب كاتب فقال إنها « قصيدة لغوية » ، يعنى أنها متنٌ منظومٌ لحفظ غريب اللغة ! ، ثم بعد ثلاثين سنة ، (سنة ١٩٨٢) ، كتب عنها الدكتور إحسان عباس والدكتور مصطفى هدارة ، فى كتاب « دراسات عربية =

فهذا ، كما ترى ، منهجٌ متشعِّبٌ مطبَّقٌ على أصنافِ الكلامِ العربيّ ، قراءةً له ، أو بياناً عنه . وببديهة العقل لم يكُنْ من عَمَلِى ، ولا هو من عَمَلِ أىِّ كاتبٍ مُبينٍ عن نفسه ، أن يبدأ أوّلَ كُلِّ شىءٍ فيُفيضَ فى شرح مَنْهجه فى القراءة والكتابة = وإلاَّ يَفْعَلْ ، كان مقصِّراً تقصيراً لا يُقْبَلُ منه بل يُرَدّ عليه = ثم يكتبُ بعد ذلك ما يكتُبُ ليقول للناس : هذا هو منهجى ، وها أنذا قد طبَّقْتُه . هذا سخْفٌ مريضٌ غير معقولٍ ، بل عكسُهُ هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبِّقاً منهجَهُ ، وعلى القارىء والناقد أنْ يستشِفّ المنهجَ وَيتَبيَّنه ، محاولاً استقصاءَ وجوهه الظاهرة والخفيَّة ، ممّا يجدُه مطبّقاً فيما كتب الكاتب . ولكن فسادُ حياتنا الأدبية ، هو الذى يُحيلُ العقولَ أحياناً ، حتى تَغْفُل عن أبسط قواعد البديهة فى العقل الإنسانى . وكفى بهذا فسادًا وبيلاً .

فرغْتُ ، وأسألُ الله المغفرة ، من هذا الكلام البغيض إلىّ ، متحدّثاً

= وإسلامية » ، الذى أُهدى إلى بمناسبة بلوغى السبعين (ص : ٣ – ٤٥٧/١٥ – ٤٧٨) ، وكتب الدكتور محمد أبو موسى رسالة نشرها وسماها « القوس العذراء وقراءة التُّراث » .

عن أعمالى ، والذى هو شيءٌ أوجبتْهُ الصورة ، كما يقول المتنبى فيما يُرْوَى عنهُ حين سُئِل عن خبر نبوّته !! والآن ....

* * *

٩ - كان منهجى ، كما نشأ واستَتَبَّ فى نفسى ، كان منهجاً يَحْمِلُ بطبيعة نشأتِه رَفْضاً واضحاً قاطعاً غير مُتَلَجْلج ، لأكثر المناهج الأدبيَّة التى كانت فاشيةً وغالبةً وصارَ لها السيادةُ على ساحة الأدبِ الخالص وغير الأدبِ الخالص إلى يومنا هذا ، كما حدثْتُك آنفاً (الفقرة : ١) .

فَلِكَىْ تكونَ علَى بيِّنةٍ مرَّةً أخرى ...

فاعلم ، قَبل كُلِّ شيءٍ ، أنّ تسميتها « مناهج » ، تجاوُزٌ شديدُ البُعْد عن الحقيقة ، وفسادٌ غليظٌ وخَلْطٌ ، إذا كنتَ تريدُ أن تكونَ على ثِقَةٍ من معنى هذه الألفاظ التى تجرى الآنَ بيننا ، ولكن قد كان ما كانَ ، فهكذا اصطلحوا على تسميتها !

وقديماً تناولتُ لفظ « المنهج » ، وحاولتُ البيانَ عنه فقلت : [1]

---

(١) قلت ذلك فى كتابى « أباطيلُ وأسمارٌ » ، ص ٢٣ - ٢٥ ، بل الفصل =

« ولفظُ « المنهج » ، يحتاج مِنّى هنا إلى بعض الإبانة ، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون فى مثل هذا الشأن ، بل أريد به « ما قَبْلَ المنهج » ، أى الأساس الذى لا يقومُ « المنهجُ » إلاّ عليه .

« فهذا الذى يسمَّى « منهجاً » ينقسِم إلى شَطْرين : شطرٍ فى تناوُل المادّة ، وشطرٍ فى معالجة التطبيق .

« فشطرُ المادة يَتطلّب قبلَ كلِّ شيء ، جَمْعَها من مَظانّها على وجْهِ الاستيعاب المتيسّر ، ثمّ تصنيفَ هذا المجموع ، ثُمَّ تمحيصَ مُفْرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزائها بدقّةٍ متناهيةٍ ، وبمهارةٍ وحِذْقٍ وحَذَرٍ ، حتّى يتيسّر للدارسِ أن يرى ما هو زَيْفٌ جليًّا واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غَفْلةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّع .

« أمّا شطرُ التطبيق ، فيقتضى ترتيبَ المادّةِ بعد نَفْى زيفها وتمحيصِ جيِّدها ، باستيعابٍ أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهَوَى أو التسرُّع . ثُمّ على الدارس أن يتحرّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائق بموضعاً

= كُلّه ، بل الكتاب كُلُّه ، مشتمل على بيانٍ لما يسمَّى « منهجاً » ، ومُتَّصلٌ بما أقوله هنا اتِّصالاً لا انفكاك له . فإن كنت جادًّا فى طلبِ المعرفة فاقرأه ، لأنّى هنا موجزٌ أشدَّ الإيجاز .

هو حقُّ موضعها ، لأنَّ أخفَى إساءَةٍ فى وَضْع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يُشوِّه عَمُودَ الصورة تشويهاً بالغَ القُبْح والشَّناعة » .

وأزيدُك الآنَ : أنَّ « شطر التطبيق » هو الميدان الفسيح الذى تصطرع فيه العُقول ، وتتناصَى الحُجَج ، (أى أن تأخذ الحُجَّة بناصية الحجة كفِعل المتصارِعينِ) ، والذى تسمعُ فيه صليلَ الألسنة جَهْرةً أو خُفْيَةً ، وفى حَوْمته تتصادُم الأفكارُ بالرِّفق مرّةً وبالعنفِ أُخرى ، وتختلفُ فيه الأنظارُ اختلافاً ساطعاً تارةً ، وخابياً تارةً أخرى ، وتفترق فيه الدُّروب والطرقُ أو تتشابكُ أو تلتقى . هذه طبيعة هذا الميدانِ ، وطبيعةُ النازلِ من العلماءِ والأدباءِ والمفكِّرين . وعندَئِذٍ يمكنُ أن يَنشأَ ما يُسَمَّى « المناهج » و « المذاهب » .

ولكىْ لا تقع فى الوَهْم والضلالِ ، ولكَىْ لا يُغرِّرَ بك أحدٌ من المتشدِّقين من أهل زماننا هذا بالثرثرة ، فآعلمْ أنَّ حديثى هنا هو عن الذى يسمَّى « المنهج الأدبىّ » على وَجْه التحديد = أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر وَالأدبَ بجميع أنواعه ، والتاريخ ، وعلمَ الدِّين بفروعه المختلفة ، والفلسفةَ بمذاهبها المتضاربة ، وكُلِّ مَا هو صادرٌ عن الإنسانِ إبانةً عن نفسِه وعن جماعته = أى يتناول ثقافتَهُ المتكاملةَ المتحدِّرة إليه فى تيَّارِ القرون المتطاوِلة والأجيالِ المتعاقبة . ووِعاءُ ذلك كُلِّه ومستقرُّه هو اللغة

واللسانُ لا غيرُ. فإيَّاكَ إيّاكَ أن تنسَى ذلك، واجعلْهُ منكَ على ذُكْرٍ أبدًا. وَاذْكُرْ أيضاً أن هذا الذى أقولُه لك ههنا عن «المنهج»، إنَّما هو أصلٌ أصيلٌ فى كُلِّ أمَّةٍ، وفى كُلِّ لسانٍ، وفى كُلِّ ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومِلَلِهم ومواطنهم.

١٠ — وإذنْ، فكيف نشأ الخِلاف، ولِمَ نشأ الخِلاف، بينى وبين هذه «المناهج الأدبيّة» السائِدةِ، كانت ولا تَزالُ، فى حياتنا الأدبية، حتى رفضتُها رَفْضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير مُتلجلجٍ، مُنْذُ بدأت قديماً أحسُّ إحساساً مُبْهَماً أنّ حياتنا الأدبية حياةٌ فاسدةٌ من كُلِّ وجهٍ، كما حدَّثتك آنفاً؟ (اقرأ الفقرة : ١).

فأنا الآن مُجيبُك عن هذا السؤالِ بإيجازٍ جامعٍ، على طُولِه، فإنَّ هذا الإحساسَ القديمَ المبهمَ المتصاعِدَ بفساد الحياة الأدبية، قد أفْضَى بِى، كما حَدَّثتك فى الفقراتِ الثلاثِ الأُوَل : (١ — ٣)، إلى إعادة قراءة الشعر العربىّ كُلِّه أوّلاً، ثم قراءَةِ ما يقع تحت يدى من هذا الإرْثِ العظيم الضّخم المتنوِّع من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ، وأصول فقهٍ وأصول دين (هو علم الكلام)، ومِلَلٍ ونِحَلٍ، إلى بحر زاخرٍ من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة، حتى قرأتُ الفلسفة القديمةَ والحسابَ القديم والجغرافية القديمة، وكُتُبَ النجوم وصُوَر الكواكب، والطبَّ القديم ومُفْرَدات

الأدوية ، وحتى قرأتُ البَيْزرة والبَيْطرة والفِراسةَ .... بل كلَّ ما استطعتُ أن أقف عليه بحمد الله سبحانه ، قرأتُ ما تيسَّر لى منه ، لا للتمكُّن من هذه العلوم المختلفة ، بل لكى ألاحظَ وأتبيَّن وأُزيحَ الثَّرَى عن الخبىء والمدفونِ .

تبيَّن لى يومئذٍ تبيُّناً واضحاً أن شَطْرى المنهج : « المادة والتطبيق » ، كما وصفتُهما لك فى أوَّل هذه الفقرة ، مكتملانِ اكتمالاً مُذْهِلاً يحيِّر العقلَ ، منذ أوَّلِيَّة هذه الأمَّة العربيّة المسلمةِ صاحبةِ اللسان العربىّ ، ثم يزدادان اتِّساعاً واكتمالاً وتنوُّعاً على مرِّ السنين وتعاقُب العلماءِ والكتَّاب فى كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، وأقول لك غير متردِّدٍ أنّ الذى كان عندهم من ذلك ، لم يكن قطُّ عند أمَّةٍ سابقةٍ من الأمم ، حتى اليونان = وأكادُ أقول لك غير متردِّدٍ أيضاً أنّهم بلغوا فى ذلك مَبْلغاً لم تُدْرِك ذِرْوته الثقافةُ الأوربيَّة الحاضرةُ اليومَ ، وهى فى قمَّة مجدِها وازدِهَارِها وسَطْوتها على العلمِ والمعرفة .

● كنتُ أستشِفُّ « شطرى المنهج » ، كما وصفتُهما ، تلوحُ بَوادرُهُ الأُوَل منذ عهد علماء صحابة رسول الله ﷺ ، ومَنْ حُفِظَت عنهم الفَتْوى منهم ، كعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عُمَر = كانت كاللَّمحة الخاطفة والإشارةِ الدالَّة . ثم زادت وضوحاً عند علماء التابعين كالحسن

البصرى ، وسعيد بن المُسَيَّب ، وابن شِهاب الزهرىّ ، والشَّعْبىّ ، وقَتادةَ السَّدُوسىّ ، وإبرهيم النَّخعِىّ . ثم اتَّسع الأمْرُ واستعلنَ عند جِلّة الفقهاءِ والمحدِّثين من بعدهم ، كمالك بن أَنَس ، وأبى حنيفة وصاحبيه أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانىّ ، والشَّافعىّ ، واللَّيْث بن سعد ، وسُفْيان الثَّورِىّ ، والأَوزاعىّ ، وأحمد بن حَنْبل ، ويحيى بن مَعِين ، والبخارىّ ، ومُسلم ، وأبى عَمْرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأبى جعفر الطَّبَرى ، وأبى جعفر الطَّحاوىّ . ثم استقرَّ تدوينُ الكُتُب فصارَ نَهْجاً مستقيماً ، وكالشمس المشرقة ، نُوراً مستفيضاً عند الكاتبين جميعاً ، منذ سيبويه ، والفَرَّاء ، وابن سَلَّام الجُمَحىّ ، والجاحظ ، وأبى العباس المبَرِّد ، وابن قُتَيْبة ، وأبى الحسن الأشعرىّ ، والقاضى عبد الجبار المعتزلىّ ، والآمدىّ ، وعبد القاهر الجُرْجانىّ ، وابن حَزْمٍ ، وابن عبد البَرِّ ، وابن رُشْد الفقيه وحفيده ابن رشدٍ الفقيه الفيلسوف ، وابن سينا ، والبَيْرونىّ ، وابن تَيْمِيَةَ ، وتلميذه ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة ، وآلافٍ لا تُحْصى حتى تنتهى إلى السُّيوطىّ ، والشَّوكانىّ ، والزَّبيدىّ ، وعبد القادر البغدادىّ فى القرن الحادى عشر الهجرىّ .

• سُنَّةٌ متَّبعةٌ ودَرْبٌ مطروقٌ فى ثقافةٍ متكاملةٍ متماسِكةٍ راسخة الجذورِ ، ظلَّت تنمو وتتَّسع وتستولى على كُلِّ معرفةٍ مُتاحَةٍ أو مُسْتخرجَةٍ

بسلطانِ لسانها العربيّ ، لم تَفْقِد قطُّ سَيْطرتَها على النَّهْج المستبين ، مع اختلاف العقول والأفكار والمناهج والمذاهب ، حَتّى اكتملت اكتمالاً مُذْهلاً فى كُلّ علمٍ وفنٍّ ، وكان المرجُوُّ والمعقولُ أنْ يستَمرَّ نموُّها واكتمالُها وازدهارُها فى حياتنا الأدبية العَربية الحديثة رَاهِناً ، (ثابتاً) ، إلى هذ اليوم ، لولا .... ولكن صيرْنَا واحسرتاهُ إلى أن نقول مع العَرجْيّ الشاعر : « كانَ شيئاً كانَ ، ثم آنقَضى » . (١)

* * *

١١ — وشىءٌ لو أنا أغفلتُه ههنا ، ولم أبيِّنه لكَ ، فكأنّى أغفلتُ جوهرَ القضيّة كُلِّها وطمستُه طمْساً ، أَعْنى قضيّة « المنهج » ، ولدخلتُ بك دخولاً فى حَوْمة الفسادِ المُطْبِق الذى عمَّ وسادَ حياتَنا الأدبية وطَمَّ وطغَى . وحسبُكَ بهذا مِنّى ، لو فعلتُ ، غِشًّا لك ، وإهداراً لكرامة

---

(١) من بيتين تترقرقُ فيهما عَبَراتُ الأسَى كُلِّه ، وحَسَراتُ العُمْر كُلِّه ، يقول :

يا لَيتَ شِعْرِى ، هَلْ يَعُودَنَّ لى ... ذَا الوُدُّ من لَيْلَى كما قد مَضَى ؟
إذْ قَلْبُها لِى فارِغٌ كُلُّــه ... أَمْ كانَ شيئاً كانَ ، ثم آنْقَضَى

البيانِ ، وخيانةً للأمانة التى حُمِّلناهَا كما حُمِّلها أَبُونا الشيخُ آدمُ عليه السلام . وبعدَ ذلك ، فكأنى ، لو فعلتُ ، قد آستهنتُ بك وبعقلك ، لأنِّى كتمتُ عنك ما أنا حقيقٌ بإبانته ، وَمَا أنتَ صاحبُ الحقِّ فى استبانته .

فالذى نبَّهتكَ إليه فى أوَّل الفقرة التاسعة آنفاً ، (٩) ، وسَمَّيتُه « ما قبل المنهج » بشطريه فى « المادة » وفى « التطبيق » وقلت لك : « إنه أَصْلٌ أصيلٌ فى كُلِّ أمةٍ ، وفى كُلِّ لغةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كل ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألوانِهم ومِلَلِهم وأوطانِهم » = هو ، بلا ريبٍ ، أصلٌ أصيلٌ فى « العلوم البَحْتَة » ، كما نسمِّيها اليوم ، كالحساب والجبر والكيمياء ، كما هو أصلٌ أصيلٌ فى « آداب اللسان » ، كالأدب والتاريخ وعلوم الدين وعلم الفلسفة . والنَّاس لا يحتاجُون إلى ما سمَّيتُه « ما قبل المنهج » احتياجاً مُلْزِماً ، إلاّ بعدَ أن تستوفِى « العُلوم البَحْتة » ، مثلاً ، قَدْراً صالحاً من النموِّ والاتِّساع ، حتَّى يُحْتَاجَ إلى إعادةِ النظر للفصل بين تداخُلِ أجزائها بعضِها فى بعضٍ ، لتصحيح مَسِيرة العلم ، وإعطاءِ كُلِّ علمٍ حقَّه من الوُضوح ، حتى يستقيم لكلِّ علمٍ نَهْجُهُ وطريقُه ونُموُّه بلا خَلْطٍ وبلا تزييف . و « ما قبل المنهج » هو فى « العلوم البحتة » ضربةُ لازبٍ ، وإلا آرْتكستْ فى ظُلُماتِ الجهالة والغموضِ .

فمُمكِنٌ ، بل هو شرطٌ ملزمٌ ، أن يبرأ « جمع المادّة » و « التطبيق » جميعاً من الغَفْلة والإغفالِ والتسرُّع والهَوى .

أمّا « آدابُ اللِّسان » فإنّ الناسَ لا يحتاجون إلى ما سمَّيته « ما قبل المنهج » إلاّ بعد أن تستوفى « الآدابُ » نموّها عن طريق « اللُّغة » التى هى وِعاءُ المعارف جميعاً ، وبعد أنْ تستوفىَ أيضاً نموَّها عن طريقِ « الثقافة » التى هى ثَمَرةُ المعارِف جميعاً ، وبعد أن تستوفىَ حظًّا من القوّة والتماسُك والشمولِ والغَلَبَة على أصحابِ هذه « اللغة » وهذه « الثقافة » = حتّى يُحْتَاجَ عندئذٍ إلى إعادة النظر للفصل بين تداخُل أطرافِها بَعْضِها فى بعضٍ ، طلباً لتصحيح المَسيرة ، وطلباً للوضوح ، وطلباً للنَّهْجِ السَوِىّ والطريق المستقيم .

فهذا ، كما ترى ، مَيْدانٌ لا يُطيق النزول فى أَرضه وبحقّه ، إلاَّ من أُوتِى حظًّا وافراً من البَصر النافذ ، والإخلاص المتجرِّد لطلب الحقِّ وإدراكِه . وبطبيعة هذا المَيْدانِ ، تدخُل نَفْسُ النازِلِ فى أرضه عاملاً حاسِماً فى شَطْرَى « ما قبل المنهج » : تدخُل أوّلاً من طريقِ معرفة « اللغة » التى نشأ فيها صَغيراً = وتدخل ثانياً من طريق « الثقافة » التى ارتضَعَ لِبَانَها يافِعاً = وتدخُلُ ثالثاً من طريق أهوائِه ومَنازِعِهِ التى يملكُ ضَبْطَها أوْ لا يملكُه ، بعد أن آستوَى رجُلاً مُبِيناً عن نَفْسه . فهذا الثالث هو

موضع المخافَة ، الذى يستوجب الحذَر ، ويقتضيك حُسْن التحرِّى .

• فمن طريق « اللغة » التى نشأ فيها صغيراً ، فإنَّه يُسَدِّدُه أو يَتَهدَّدُه ، الإحاطةُ بأسرارِ « اللغة » وأساليبِها الظَّاهرةِ والباطنةِ ، وعجائبِ تَصاريفها التى تجمَّعت وتشابكتْ على مرِّ القرون البعيدة ، فصارت ألفاظُها وتراكيبُها الموروثة والمُستَحْدَثةُ تحملُ من كُلِّ زمانٍ مضَى وكُلِّ جيلٍ سبقَ ، نَفْحَةً من نَفَحات البيان الإنسانىّ بخصائصه المعقَّدَة والمكتَّمة ، أو خصائصه السَّمْحة والمُستَعْلِنة . وبين تمام الإحاطة باللغة وقُصُورِ الإحاطةِ بها ، مزالِقُ تزلُّ عليها الأقدامُ ، ومَخاطِرُ يُخْشَى معها أن تنقلبَ وُجوه المعانى مُشوَّهة الخِلْقةِ مستنكَرةَ المَرْآةِ ، بقَدْرِ بُعدْها عن الأسرار الخفيّة المُستَكِنَّة فى هذه الألفاظ والتراكيب ، وهذا بابٌ واسعٌ يحتاجُ إلى بيانٍ لا يُحاطُ به فى مثل هذا الموضع . ولكن كُنْ أبداً على حذرٍ ، فإنَّه ممكنٌ أيضاً كُلَّ الإمكان ، أن يدخُلَ عليك من هذا الباب مَكْرُ الماكر ، وعَبَثُ العابث ، واحتيالُ المُحتالِ ، « حتَّى ترىَ حَسنَاً ما ليس بالحَسَنِ » ، كما قال الشاعر .[1]

---

(١) هو من قول الشاعر :

يُقْضَى على المَرْءِ فى أيَّام مِحْنَتِهِ   حتى يَرَى حَسَناً مَا لَيْس بالحَسَنِ

٢ - ● ومن طريق « الثقافة » فإنّ « الثقافة » ، فاعلمْ ، تكادُ تكونُ سِرًّا من الأسرارِ الملثّمةِ فى كُلِّ أمّةٍ من الأُمَم وفى كُلِّ جِيلٍ من البشر . وهى فى أصلها الراسخِ البعيد الغَوْر ، معارفُ كثيرةٌ لا تُحْصَى ، متنوِّعةٌ أبلغَ التنوُّع لا يكادُ يحاطُ بها ، مطلوبةٌ فى كُلِّ مجتمعٍ إنسانّي للإيمان بها أوَّلاً عن طريقِ العَقْل والقلبِ = ثم للعمَلِ بها حتّى تذوبَ فى بُنْيانِ الإنسانِ وتَجْرى منه مَجْرَى الدَّمِ لا يكادُ يُحسُّ به = ثم للانتماءِ إليها بعقله وقَلْبه وخيالِه انتماءً يحفظُه ويحفَظُها من التفكُّكِ والانهيار ، وتحوطُهُ ويحوطُها حتى لَا يُفْضِى إلى مَفَاوِزِ الضيَّاع والهلاكِ . وبين تَمام الإدراكِ الواضح لأسرار « الثقافة » وقُصُور هذا الإدراكِ ، منازِلُ تلتبِسُ فيها الأمورُ وتختلط ، ومَسالِكُ تَضِلُّ فيها العقولُ والأوهامُ حتى ترتكِسَ فى حَمْأَة الحَيْرة ، بقَدْرِ بُعْدها عن لُبَاب هذه « الثقافة » وحقائِقِها العَمِيقةِ البعيدةِ المتشعِّبةِ . فهذا أيضاً بابٌ واسعٌ جدًّا يَحْتاج إلى تفصيلٍ لا يُحَاط به فى مثل هذا الموضع . وكُنْ أبداً على حَذرٍ ، فإنّه ممكنٌ كُلَّ الإمكانِ أن يَدِبَّ إليكَ منه دبيباً خفيًّا ، مَكْرُ الماكر ، وعَبَثُ العابثِ ، واحتيالُ المُحْتالِ ، حتّى « تحسَبَ الشَّحْمَ فيمن شَحمهُ وَرَمٌ » ، كما يقول المتنبىّ .[1]

---

(١) هو قوله معاتباً لسيف الدولة :

= أُعِيذُها نَظَراتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُه وَرَمُ

٣ - ● ومن طريق « الأهواء » ، وهى التى تَسْرِى فى خَفَاءٍ وتَدِبُّ ، إلاَّ أنَّها لا تَدِبُّ ولا تأتيك إلاَّ متبرِّجةً فى تَمامِ زِينتها من « اللغة » ومن « الثقافة » ، مُتَردِّيةً بِرداءِ بَراءة القَصْد وخُلُوصِ النيّة ، متحلِّيةً بجواهر الدقّةِ والاستيعاب والتمحيص والمهارةِ والحِذْق ، حتّى يُتاح لصاحبها أن يقتنِصَ غَفْلَتَك ، ويتلعَّبَ عندئِذٍ بك وبعقلك ما شاءَ له التلعُّب ، من حيثُ يُوهِمُك أنّه قد استوعبَ لك جمع « المادة » ، ويُهوِّل عليك تهويلَ السَّحرةِ بما يحشُدُ تحت عينيك ويستكثر ، مُخْفِياً عنك بتمويهه من « المادةِ » ما قد يُبْطِل ما أراد به سِحْرَ عينيك واهتبالَ غَفْلتك ، ثم استلحاقَ عَقْلِك بعقله ، إذْ أنتَ عندئِذٍ مفتونٌ بالزِّينة المتبرِّجَة ، وبتحاسِين رِداءِ البراءة وخُلُوص النيَّة ، وبالحُلِيِّ النفيسة المتلألئة التى يتطلَّبها « ما قبلَ المنهج » بشَطرَيْه : « المادة » و « التطبيق » ، إذْ أنت هائمٌ معه ، مُرِيداً أوْ غير مريدٍ ، « فى إثْرِ كُلِّ قبيحٍ وجْهُهُ حَسَنُ » ، كما يقول أبو الطيب .[1]

* * *

---

(١) هو من قوله يذكر أهلَ العشق :

= مِمَّا أضَرَّ بأهْلِ العِشْقِ أنَّهُمُ ... هَوُوا ، وما عَرَفُوا الدُّنيا وَمَا فَطِنُوا

تَفْنَى عُيُونُهُمُ دَمْعاً ، وَأَنْفُسُهُمْ ... فى إثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

١٢ - ● قد بيَّنتُ لك ما آستطعتُ طبيعةَ هذا المَيْدان ، مَيْدان « ما قبل المنهج » ، وطبيعةَ النازلين فيه من الكتاب والعلماءِ والمفكِّرين ، ثُمَّ المخاوفَ التى تتهدَّدُ « ما قبل المنهج » بالتدمير وبالفسادِ حتى يُصبحَ رُكاماً من الأضاليل ، وحتى تفسُدَ الحياةُ الأدبيةُ فساداً يستعصى أحياناً على البُرْءِ . وأمرُ النَّازلين فيه أمرٌ شديدُ الخَطَر ، يحتاجُ إلى ضبطٍ وتَحَرٍّ وحذَرٍ . ولا يغُرَّنْك ما غَرِى به ، (أى أُولِع) ، بعضُ المتشدِّقين المُموِّهين : « أنَّ القاعدةَ الأساسيّة فى منهج ديكارت ، هى أن يتجرَّدَ الباحثُ من كُلِّ شىء كانَ يعلمُه من قبلُ ، وأنْ يستقبِلَ بحثَهُ خالِىَ الذِّهنِ خُلُوًّا تامًّا ممّا قيلَ » ، (فى الشعر الجاهلى : ١١) فإنّه شىءٌ لا أصلَ له ، ويكادُ يكونُ ، بهذه الصِّياغةِ ، كذِباً مُصفًّى لا يشُوبُه ذَرْوٌ من الصِّدْق ، (والذَّرْوُ : دقيق التراب) ، بل هو بهذه الصورة خارجٌ عن طَوْقِ البشر . هَبْهُ يستطيعُ أن يُخْلِى ذهنَه خُلوًّا تامًّا ممًّا قيل ، وأن يتجرَّدَ من كُلِّ شىءٍ كانَ يعلمهُ من قبلُ ، أفَمُستطيعٌ هُوَ أيضاً أن يتجرَّدَ من سُلطان « اللغة » التى غُذِى بها صغيراً ، وبها صار إنساناً ناطقاً بعدَ أن كانَ فى المَهْد وليداً لا ينطقُ ؟ أفمُستطيعٌ هو أن يتجرَّد من سَطْوةِ « الثقافة » التى جَرَتْ منه مَجْرَى لِبانِ الأمِّ من وَليدِها ؟ أفَمُستطيعٌ هو أن يتجرَّد كُلَّ التجرُّد من

بَطْشةِ « الأهواء » التى تستكينُ ضارعةً فى أغوارِ النفس وفى كهوفِها ، حتى تَمْرُقَ من مَكْمَنها لتستَبدَّ بالقَهْرِ وتتسلَّطَ ؟ = كلامٌ يجرى على اللِّسان بلا زِمامٍ يضبطُهُ أو يكبَحُه ، مَحْصولُه أنَّهُ يتطلَّب إنساناً فارغاً خاوياً مكوَّناً من عِظامٍ كُسِيتْ جلداً ، لا أكثر !!

فإذا كانَ « ما قبل المنهج » مُهَدَّدًا بالغوائلِ كُلَّ هذا التهديد ، كما بيَّنْتُه لك فى الفقرة السالفة ، (١١) ، غوائلِ قُصُور الإدراك من ناحيةٍ ، وغوائلِ الأهواءِ التى تبدأُ بالخاطر الأوّل الذى يستهوى الباحثَ ، وتنتهى إلى المكرِ والعَبَث والكذِب وخيانةِ الأمانةِ = إذا كان هذا ، كما وصفتُ لك ، فما الذى يَعْصِم من هذا الوباءِ الحالِق الذى يَحْلِق المعرفة حَلْقاً من أصولها ؟

فالعاصمُ يأتى من قِبَلِ « الثقافة » التى تذوبُ فى بُنْيان الإنسان وتَجْرى منه مَجْرَى الدَّم لا يكادُ يُحِسُّ به = لا من حيثُ هى معارفُ متنوِّعةٌ تُدْرَكُ بالعقل وحسبُ ، بل من حيثُ هى معارفُ يُؤْمَن بصحَّتها من طريق العقل والقلبِ ، ومن حيثُ هى معارف مطلوبةٌ للعمل بها ، والالتزامِ بما يوجبُه ذاك « الإيمان » ، ثُمّ من حيثُ هى بعد ذلك انتماءٌ إلى هذه الثقافة انتماءً يَنبغى أن يُدْرِكَ معه تمامَ الإدراك أنّه لو فرَّط فيه لأدّاهُ

تفريطُه إلى الضياعِ والهلاكِ ، ضَياعِه هو ، وضيَاعِ ما ينتمى إليه .

فرأسُ الأمر ، كما ترى ، هو ما يتعلَّقُ بنفس النازل ميدانَ « ما قبل المنهج » . وهو بهذه المَثَابَةِ أصلٌ « أخلاقىٌّ » قَبْلَ كُلِّ شىء وبعدَ كُلِّ شىءٍ . وإغفالُ هذا « الأصل الأخلاقىّ » من قِبَل نازل هذا الميدان ، أوْ من قِبَلَ المتلقّى عنه ، يجعل قضية « المنهج » و « ما قبل المنهج » فَوْضَى مبعثرةً لا يتبيَّنُ فيها حقٌّ من باطلٍ ، ولا صِدْقٌ من كذبٍ ، ولا صحيحٌ من سقيمٍ ، ولا صوابٌ من خطإٍ . ولذلك قلتُ فى الفقرة الحادية عشرة إنّه موضع المَخافة الذى يستوجبُ الحَذَر ، ويَقْتَضِيك حُسْنَ التحرِّى ، أى دِقَّته ، ثم أَتْبَعْتُه بما قلت لك فى أوّل هذه الفقرة الثانية عشرة .

* * *

ورأسُ كُلِّ « ثقافةٍ » هو « الدين » بمعناه العامّ ، والذى هو فِطْرةُ الإنسانِ ، أىَّ دينٍ كانَ = أو ما كان فى معنى « الدين » = وبقدرِ شُمول هذا « الدين » لجميع ما يكبَحُ جُموح النفس الإنسانية ويَحْجِزُها عن أنْ تَزِيغَ عن الفِطْرةِ السَّوِيَّة العادلة = وبقَدْر تغلغُلِه إلى أغوارِ النفس تغلغُلاً يجعل صاحبَها قادراً على ضبطِ الأهواء الجائرةِ ، ومُرِيداً لهذا الضَّبْط = بقَدْر هذا الشمول وهذا التغلغُلِ فى بُنْيان الإنسانِ ، تكونُ قوَّة العَواصِم

التى تعصِمُ صاحبها من كُلّ عيبٍ قادحٍ فى مَسيرة « ما قبل المنهج » ، ثم فى مَسيرة « المنهج » الذى ينشعبُ من شَطْرِه الثانى ، وهو « شَطر التطبيق » .

* * *

وهذا الذى حدَّثتُك عنه ، ليس خاصًّا بأُمَّةٍ ، بل هو شأْن كلّ جيلٍ من الناس وكُلّ أُمَّةٍ من الأمم ، كان لها « لغة » وكان لها « ثقَافة » ، وكان لها بعد تَمامِ ذلك « حضارةٌ » مؤسَّسةٌ على لُغتها وثقافتها . فهذا « الأصلُ الأخلاقىّ » هو العامِلُ الحاسمُ الذى يمكِّنُ لثقافة الأُمّة بمعناها الشامل ، أنْ تبقَى متماسكةً مترابطةً تزدادُ على الأيَّام تماسُكاً وترابُطاً ، بقدر ما يكونُ فى هذا « الأصل الأخلاقىّ » من الوضوح والشُّمول والتغلغُل والسيطرةِ على نفوس أَهْلِهَا جميعاً ، سواءٌ فى ذلك النازلون فى مَيْدان « ما قبل المنهج » أو فى مَيْدان « المنهجْ » نَفْسِه ، وهم العلماء المفكرّون والأدباء ، والمُتَلقُّون عنهم : تلامذةً كانوا ، أو أشباهَ تلامذةٍ من قارىءٍ أو سامِعٍ أوْ كلّ متطلِّبٍ للمعرفة . وكُلّ اختلالٍ يَعْرِضُ فيُضْعِف سَيْطرة هذا « الأصل الأخلاقىّ » ، أو يُؤدّى إلى غُموضه أو غِيابه أو تَناسِيه أو قِلّةِ الاحتفالِ به ، فهو إيذانٌ بتفكُّك الثَّقافة وانهيار الحضارة

إيذاناً صارخاً لا مَعْدَى عنه ، مَهْما بلغتْ هذه الثقافةُ وهذه الحضارةُ ، فى ظاهر الأمرِ أو فى العِيَانِ ، مبلغاً سامقاً من الغَلَبة والانتشار ، ومهما كانَ لها من اللَّألاءِ والتَّبرُّج والزِّينة ما يَفْتِنُ العقولَ ويَسْبِى القلوبَ .

والحديثُ عن هذا « الأصلِ الأخلاق » فى كُلِّ ثقافة يطولُ ويتشعّب ، ولكن من المهمِّ أن تَعلمَ أنّه ليس قواعدَ عقليّةً ينفردُ العقلُ بتقريرها ابتداءً من عند نفسِه ، لأن القواعد العقليّة مهما بلغت من القوةِ والسيطرةِ لا تستطيع أن تقوم بهذا العِبْءِ ، لسبب لا يمكن إغفالُهُ فى مثل هذه القضيَّة ، وهذا السبب هو أنّ الأمرَ كُلَّه متعلّقٌ بالإنسان نفسه . وكل إنسانٍ صندوقٌ مُغْلقٌ ، فيه من الطبائع والغرائز والأهواءِ المتنازعة بين الخير والشرِّ ، وفيه أيضاً من القوّةِ والضعفِ ، مقاديرُ مختلفةٌ لا تكادُ تُضْبَطُ أحوالُها وآثارها ، وأيضاً لا يكادُ يُضْبَطُ تَقلُّبها تَقَلُّباً يُفْضِى إلى الحيرةِ فى شأن صاحِبها . وكما لا يتشابه اثنانِ من البشر فى الخِلْقة والصُّورة والملامح ومَعارف الوجُوهِ ، فكذلك لا يتشابه اثنانِ فى الطبائع والغرائز والأهواءِ ، ولا فى مقادير القوةِ والضعف ، ولا فى مقادير الأحوالِ والآثار والتقلُّبات التى تَعْرِضُ لها وتنشأُ عَنْها . فالضابطُ لهذا الموجِ المتلاطِمِ المتصادِمِ فى الصندوق المُغْلَق ، لابُدَّ أن يكونَ كَامناً فى سَرِيرةِ الإنسانِ نفسه ، مُسَيْطِراً عليه سيطرةً مستمرّةً لا ينالُها الوَهَنُ ، وفيه قوّةٌ شاملةٌ قادِرةٌ على

أن تُمسِك بهذا الموج المضطربِ إمساكاً لا يضطرب ، ويكون أيضاً رقيباً يَقِظاً ملازماً لا يغفُلُ ، يكبحُ المرءَ عند كُلِّ مُنْعَرَجٍ يَنْعرِجُ به إلى طريق الجَوْر فى كُلِّ خُطْوةٍ يَخطُوها ، وينبِّهُه ويُوقِظُه عند كُلّ التفاتةٍ تصرفُ وجهه عن سلوك الطريق المستقيم . فالقواعد العقلية المجرَّدة ، لا تكاد تقومُ بهذا العِبْءِ كُلِّه ، بل « العقائِدُ » وحدها هى صاحبة هذا السلطان على الإنسانِ ، لأنها إمّا أنّ تكون مغروزةً فى فِطْرته منذُ خُلِق إنساناً عاقِلاً مُبايناً لسائر الحيوانِ ، وإمّا أن تكون مكتسبَةً ، ولكنها مُنَزَّلةٌ مَنْزِلة العقائد المغروزة فيه ، ولأنّها جميعاً هى التى يرتضعُها من أمِّه وأبيه وجَماعته منذُ كان وليداً إلى أنْ يَشِبَّ ويَعْقِلَ . ولذلك قلتُ لك آنفاً إنّ هذا الضابط الرقيب يأتى من قِبَلِ « الثقافة » ، ورأسُ الثقافة هو « الدين » أو ما كانَ فى معنى « الدين » .

وأسلافُنا ، نحن العربَ والمسلمين ، قد مَنَحُوا هذا « الأصلَ الأخلاقىَّ » عنايةً فائقةً شاملةً ، لم يكنْ لها شبيهٌ عند أمةٍ سبقتْهُم ، ولم يُتَحْ لأُمّة لحقَتْهُم وجاءتْ بعدهُم أن يكون لها عندهُم شبيهٌ أو مقاربٌ . وهذه العناية بالأصل الأخلاقىّ هى التى حَفِظَتْ على الثقافة الإسلاميّة تماسُكها وترابُطها مدّةَ أربعةَ عشَر قرناً ، مع كُلِّ ما مرَّ عليها من القوارِ والنكَبات ووقائع الدهرِ على طولِ هذا المَدَى ، ومع كُلِّ ما آنتابها مر

الضَّعف ، ومعَ كُلِّ ما آعتوَرَها أو دخلَ عليها من التقصير والخَلَل . وبقاءُ هذا التماسُك على طول القرونِ ، هو وَحْدَه إحدى عجائبِ الحضاراتِ والثقافاتِ التى عرفَها البَشَرُ . (١)

* * *

١٣ - لم أنتهِ بعدُ إلى جوابِ السؤال الذى بدأتُ به الفقرة العاشرة : كيف نشأ الخلافُ ، ولِمَ ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ؟ ولا يأتيك الجوابُ صريحاً بيِّناً أميناً ، إلاّ بَعْدَ أن أقُصَّ عليك

---

(١) كان ينبغى هنا أن أتمّم القول فى نشأة « الأصل الأخلاق » الذى بُنِيَتْ عليه ثقافتنا ، منذُ حدث أوّل خلافٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، بين أبى بكر وعمر وزيد بن ثابتٍ فى جمع القرآن العظيم وكتابته بين دَفَّتين ، ثم ما تلا ذلك من طلب التوثُّق فى رواية حديث رسول الله ﷺ ، ثم ما كان من أمر علماء الصحابة فى الفتوى ، ثم ما كان من أمر التابعين ثم مَنْ بعدهم حتى نشأ علم الجرح والتعديل ، وهو علمٌ فريدٌ لا مثيلَ له عند أمّةٍ من الأُمَم . ثم غلبة هذا « الأصل الأخلاق » على الثقافة العربية الإسلامية كُلِّها ، فى جميع علومها ، وعناية هذه الأمّة بإفراد هذا الأصل بالتأليف ، كالذى أُلِّفوه فى آداب العالم والمتعلم ، والفقيه والمتفقّه ، وعلم النظر والمناظرة ، وعلم الجدل ، وعلم آداب الدرس ، إلى غير ذلك ممّا هو اليومَ مجهول أو كالمجهول لانصراف الناس عنه ، وتركهم جمعَ شتّاته وإعادةَ النظر فيه .

قِصةَّة تاريخ طويل سوف أختصره لك اختصاراً مُوجَزاً أشدَّ الإيجاز ما استطعتُ . وذلكَ لأنّ هذا الفَسادَ لم يدخُلْ على ثقافتنا دخولاً يُوشِك أنْ يَطْمِس مَعَالمها ويُطْفِىءَ أنوارهَا ، إلاّ بعد التصادُم الصامتِ المخيف الذى حَدَث بيننا وبين الثقافة الأُوربيّة الحاضرةِ . وإذا نحنُ أغفلنا هذا التاريخ ولم نتبيَّنْه تبيُّناً واضحاً ، فكأننا أغفلنا القضيّة كُلَّها ، وأسقطناهَا إسقَاطاً من عُقُولنا ، وخالفنا سُنَّة العُقَلاءِ المميِّزين فى التبصُّرِ والتَّبيُّنِ وتَرْكِ التساهُلِ عند مَوَاطن الخَطَر ، وصار كلامُنا فى « الثقافة » سُدًى كُلُّه وهَدَراً ، ثم عَبَثاً وثرثرةً وتَغْريراً ، كما هو حادثٌ الآن فى حياتِنا الأُدبيةِ هذه الفاسدةِ ، وصارَ الأمرُ كُلُّه جُبْناً عن طَلَب الحقِّ ، واستنَامةً لِخِداعِ الباطِل وتَسْوِيلةِ الخفِيِّ ، واستدراجِه إيَّانَا إلى سَرَابٍ مُهْلِكٍ .

* * *

● هُم ، أعنى الأُوربيِّين ، يرونَ أنّ أُوربّة سقطت فى حمأة « القرون الوسطى » المظلمة ، منذ سقوطِ الإمبراطُورية الرومانية سنة ٤٧٦ ، أى قبل الهجرة بنحو مئة وخمسين سنة ، والحقيقة أنّ أُوربة التى هى قلبُ القارّة ، كانت ساقطةً فيما هو أسوأ من « القرون الوسطى » قبل ذلك بقرون طويلة . كانوا فى جاهليةٍ جهلاءَ ، أهلُها هَمَجٌ هامجٌ ، لا دِينَ يجمعهُم ، حتى جاء « عصر النهضة » فى القرن السادسَ عشر الميلادى

(١٦٠٠ م) ، أى بعد عشرة قرونٍ . وفى خِلال هذه الفترة حدث أمرانِ مُهِمّانِ ، إغفالُ النظر إليهما من قِبَلِنا نحنُ ، يُضِرُّ بتصوُّرِنا للحقيقةِ التى ينبغى أن يعرفَها صغيرُنا وكبيرُنا ، ورجَالُنا ونساؤنا ، على وجهها الصحيح ، لا على الوجْه الذى عُلِّمنَاهُ فى المدارس صغاراً ، بل لا نزالُ نُعلِّمه أولادَنا ، وكانَ من أهمِّ أسبابِ فسادِ حياتنا الأدبيّة إلى اليوم .

● الأمر الأوّل : « الحروبُ الصليبيَّةُ » التى بدأتْ سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) ، أى بعد ستة قرون من سقوط الإمبراطورية الرومانية ، فى خلالها كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلبَ على رُقْعة ممتدّةٍ من حدود الصين إلى الهند ، إلى أقصى الأندلس ، إلى قلب إفريقية ، وأنشأ حضارةً نبيلةً متماسكةً كاملةً ، بعد أنْ رَدَّ النصرانيَّة وأخرجها من الأرض ، وحصرَهَا فى الرقعة الشماليَّة التى فيها هذا الهمجُ الهامجُ الذى كان يعيش فيما يعرف اليوم باسم « أوربة » . وظلَّ الصِّراعُ مُشتعلاً مُدّة خمسة قرون ، بين النصرانية المحصورة فى الشمالِ وبين الإسلام الذى يتاخِمُها جنوباً . ولكنّ جيوشَ النصرانية لم تستطع أن تفعلَ شيئاً يُذْكَرُ ، مع تطاوُلِ الأمر . وتدبَّر الأمرَ قَادةُ النصرانيَّة ، وهم رجال الكنيسة وملوك الإقطاع ، وداخلتْهم الخشيةُ ، وخافوا أن يُفْضِى الأمرُ إلى زَوال سلطان النصرانية عن جنوبِ أوربة ، كما زال بالأمس عن الأندَلُس . فرأوا أنْ يَتَّجهُوا إلى

الشمالِ ، ليدخلُوا فى النصرانية هذا الهمج الهامجَ الذى لا دين لَهُ يجمعُه ، ليكون بعد قليلٍ مددًا لجيوشٍ جرَّارة تطبقُ على ثغور الإسلامِ وعواصمه فى الشام ومصر ، (الثغور ، والعواصم ، هى البلاد المتاخمة لحدود العدوّ من النصارى وغيرهم) .

انطلق الرهبانُ يجوبونَ شمالَ أُوربة ليدخلُوا الهمجَ الهامجَ فى النصرانية ، ويُعِدُّوهُمْ إعداداً عظيماً لخوض المعركة العُظْمى بين الإسلام والنصرانية ، وكانَ جزءًا من هذا الإعدادِ : تبشيعُ « الإسلام » فى عيونهم ، وأن أهلَ الإسلام وثنيُّون ، وأن رسولَ الإسلامِ كانَ وكان ... فلم يتركوا باباً من الكذبِ والتمويهِ والبشاعة إلاّ دخلوهُ ، ليُقِرُّوا معانِيَهُ فى قَرَارة نفوس أتباعهم من الهَمَج الهامج ، ليكون حقًّا مَحْضاً ، قد نطق به راهبٌ أو ناسكٌ أو قِسِّيس ، فهو مُنَزَّهٌ لا ينطقُ إلا بالحقّ . فهذا الحقُّ إذَنْ ، هو عندهم قَسِيمُ الدِّين الذى آمنوا به واعتنقوهُ .

وجاءت سنة ١٠٩٦ م ، (٤٨٩ هـ) ، وجُيِّشتِ الجيوشُ من هذا الهَمَج الهامج من التُّرمَنْديِّن والصقالبة والسكسون ، بقيادة الرهبانِ وملوكِ الإقطاع ، وبدأت « الحرب الصليبية » ، واكتسحت فى طريقها أهل النَّصرانية وسفحت دماءهُم بفَظَاظة ، وبدأت تكتسِحُ ثغور الإسلامِ وعواصمه الشماليةِ وتسفح الدماءَ المسلمة ، واستمرَّت قائمةً قرنين

كاملين . كانت فرحةً رائعةً ، ولكنها انتهت بالإخفاقِ وباليأْس من حربِ السلاح فى سنة ١٢٩١ م ، (٦٩٠ هـ) ، بعد أن تركتْ فى أنفُس المقاتلين الهَمَج بصيصاً من اليَقَظة والتنبُّه ، باحتكاكهم المستمرّ بحضارة راقيةٍ كانت تَفْتِنُهم ، وتبعثُ فى نفوسهم الشكَّ فيما كانوا قد سمِعُوه من رُهْبانهم وملوكهم ، وتُثيرُ فى نفوس العائدين إلى مواطنهم ضروباً مختلفةً من القلَق ، هى على قِلّتها يُخْشَى أن تنتشر فى جماهير هذه الأمم الجاهلة ، فتُضْعِفَ حَميّتهم ونَخْوتَهُم . وكانتْ حسرةً وغُصّةً فى قلوب الرُّهْبان والملوك والمثقّفين ، وحاولوا أن يستبقوا هذه الصورة المشوَّهة عن الإسلام والمسلمين قائمةً راسخةً فى أنفُس الجماهير المتحمِّسةِ للدفاع عن نصرانيتها الجديدة . هذه واحدة .

● الأمر الثانى : بَطَل عمل السلاح بالإخفاق واليأس ، وخمدت الحُروب تقريباً بين الإسلام والصليبيّة نحو قرنٍ ونصفِ قرنٍ ، ثم وقعت الواقعة . اكتُسِحَت الأرض المسيحيّة فى آسية ، فى شمال الشام ، ودخلت برُمّتِها فى حَوْزة الإسلام . وفى يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأُولى سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، سقطت القسطنطينيّة عاصمة المسيحية ، ودخلها « محمد الفاتح » بالتكبير والتهليل ، وارتفع الأَذانُ فى طرف أوربة الشرقى . إذنْ ، فقد وقعت الواقعة !! واهتزَّ العالم الأوربىّ كُلّه

هزّةً عنيفةً ممزوجةً بالخِزْى والخوفِ والرُّعب والغضب والحِقْد ، ولكن قارَنَ ذلكَ إصرارٌ مستميتٌ على دَفْع هذا الخِزْىِ ، وإمَاطة هذا الخوفِ والرُّعْب ، وإشْعالِ نيرانِ الغضب والحِقْد ، بحميَّةٍ تأنَفُ من الاستكانة لذُلِّ القَهْر الذى أحدثهُ « محمد الفاتح » ورجالُه من المسلمين الظافرين .

ومنْ يومئِذٍ ، بدأتْ أوربّة تتغيَّر ، لتخرجَ من هذا المأزِقِ الضَّنْك . وبهمَّةٍ لا تَفْتُر ولاَ تعرفُ الكَلَلَ ، بدأ الرهبانُ وتلاميذهُم معركة أخرى أقسَى من معارك الحرب ، معركة المعرفةِ والعلم الذى هيّأ للمسلمين ما هيّأ من أسباب الظَّفَر والغَلَبة . لقد علمُوا الآنَ أن معركة السلاحِ لن تُغْنى عنهم شيئاً ، وهذه أمواجُ المسلمين تتدفَّقُ فى قلب أوربّة غرباً ، ويدخُلُ الإسلامَ سِلْماً بلا إكراهٍ جماهيرُ غفيرةٌ ، كانوا بالأمس نَصارَى متحمِّسين فى قتالِ المسلمين ، الوثنيِّين ، كما أوهمَهم الرهبان ، فلم يُغْنِ هذا الإيهامُ عنهم شيئاً .

* * *

١٤ — وهذا المأزِقُ الضَّنْكُ فى حياةِ المسيحية ، له تاريخٌ قديمٌ سابقٌ لا يمكنُ إغفالُه ، بل ينبغى أن يكون واضحاً لنا كلَّ الوضوح ، لأنّ غموضَه سببٌ كبيرٌ من أسباب فَسَاد حياتنا الأدبيّة إلى هذا اليوم ، بل إلى هذه الساعة التى تقرأ فيها كلامى . فعند مجىءِ الإسلامِ ، كان سلطانُ

الكنائس المسيحيةِ مبسوطاً على الشام ، ومصرَ ، وشمالِ إفريقية ، وأرض الأندلُس منذ قرون طويلة سبقتْ . وفى طَرْفة عينٍ ، فى أقلَّ من ثمانين سنةً ، تقوَّضَ فجأةً سلطان المسيحية على هذه الرقعة الواسعة المتراحبة وزالَ زوَالاً سهلاً ، وتقوَّض أيضاً سُلطانُها على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها ، ودخلوا دخولاً سهلاً يسيراً فى الإسلام طوعاً بلا إكراهٍ = بل أعجبُ من ذلك ، صاروا هُمْ جُنْدَ الإسلامِ وحُمَاةَ ثُغُوره وعواصمه ، وقارعُوا النصرانيَّةَ وحصروهَا فى الشمالِ الأوربىّ = بل أعجبُ من ذلكِ أيضاً ، أنْ دخلُوا فى العربيّة دخولاً غريباً وصارَ لسانُهم لسانَها = بل أعجبُ من ذلك أيضاً ، أنْ خرجَ من أصْلاَبِهم كثرةٌ كاثرةٌ من العلماء الكبار الذين يجاهدون فى سبيلِ الله بأموالهم وأنفسهم ، وبالعِلْم وبالسيف . وصارت دارُ الإسلامِ كُلُّها ديارَ ثقافة وعِلْمٍ وخُلُقٍ وحضارةٍ تبهر الأنظارَ والعقول ، فى المشرقِ حيث مَقَرُّ الخلافة فى دمشقَ وبغدادَ ، وفى المغربِ حيث ديارُ الأندلس . كيف حَدَثَ هذا ؟ سؤال جوابُه جوابٌ طويلٌ ليس هذا مكانَه ، ولكنّه كان سؤالاً يتردّد فى ضميرِ المسيحيّة كُلِّها .

كانَ جُزْءًا من جواب هذا السؤالِ أنْ جاهدت الدولة البيزنطيّة فى الشمال أن تستردَّ ما ضاعَ ، وظَلَّتْ أربعةَ قرونٍ تحاول أن تعود فتخترقَ

هذا العالم الإسلامى من طرفه الشمالىّ عند الشام ، وذهبَ جهدُها هدراً ، ولم يُغْنِ عنهم السلاحُ شيئاً . وكُلّ يوم يمرُّ ، يزدادُ رعايَا الرُّهبان والملوك انبهاراً بالإسلام وخُلُقه وثقافَته وحضارته ، ولم ينجُ من هذا الانبهار لا الملوك ولا الرهبانُ أنفُسُهم . وضاق الأمرُ ، وكاد اليأسُ يُخَامِر قلبَ المسيحيّة ، لا تدرى ماذا تفعل فى تساقط رعايَاها فى الإسلام ، أو فى ثقافته وحضارته ، طوعاً بلا إكراهٍ . ما معنى هذا ؟ أيكونُ معناه أنّ المسيحية على ما هى عليه غير مُقْنِعةٍ لجماهير الرّعايَا ؟ ولم يُجِيروا جواباً ، ولا وجدُوا لأنفُسهم مخرجاً ، وَالْتَقَتْ حَلْقَتا البِطَان ! (البِطانُ : حِزام الرحل على البعير ، وهو مَثَلٌ يضربُ للأمر إذا اشتدَّ وضاق) .

ثُمَّ جاءَ ما يبدِّد هذا اليأسَ : هذه هى الجيوش الجرَّارة من الهَمَج الهامِج تتدفّقُ من قلب أوربة ، تريد أيضاً مرة أخرى ، اختراقَ العالم الإسلامىّ من شماله فى الشام . ونَشِبَت الحروبُ الصليبيَّة التى ستستمرُّ قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١ م / ٤٨٩ - ٦٩٠ هـ) ، فى خلالها استولَوْا على جزءٍ من أرضِ الشام ، وأقام به بعضهم إقامةً دائمة ، وأنشأُوا ممالكَ ، وخالطوا المسلمين مخالطةً طويلة ، وأحرَزوا من كنوز العالم الإسلامى ثروةً هائلةً يستمتعون بها ، وعَرَف الهمجُ الهامجُ ما لم يكنْ يعرفُ ، وامتلأت قلوبهم شهوةً ورغبةً فيما فَتَنَتْهم بِه ديارُ الإسلام

وحضارته . ويعود العائدون بعد كل حملةٍ من الحملات السبع الصليبية إلى ديارهم وأهليهم ، يتحدَّثون بما رأوا ، ويَصِفون ما حازوا ، ويبالغون فى كُلّ ذلك ، وينبهر السامعون ويتوقون إلى الرحلة والانضمام إلى كتائب المجاهدين الصليبيين ، لتحقيق آمالهم فى الغنى والثروة والاستمتاع ، ولكن طول معاشرة هذه الجماهير للمسلمين أحدث لكثير منهم قَلَقاً فى صدق ما كانوا يسمعونه من الرهبانِ المتحمِّسين المحرِّضين على الحربِ ، وهُمْ يُبَشِّعون لهم أمرَ المسلمين ودينهم وأخلاقَهم ، وحمل العائدون أيضاً هذا القَلَق وتحدَّثوا به . هكذا كان شأنُ جماهير الهمج الهامج فى ديارهم ، فإذا طالَ هذا وتكاثر ، فإنه ممّا يهدِّدُ المسيحية فى عُقْر ديارها فى الشمال كُلّه ، بلا شكٍّ .

وانتبه بعض الرهبانِ والملوك وعُقَلاء الرجالِ ، وبحثوا عن مخرجٍ قبلَ أن يتفاقم الأمر . فكانَ بيِّنًا لعقلائهم أن سِرَّ قُوَّة الحضارة الإسلامية هو العلمُ ، علمُ الدُّنيا وعلم الآخرة . فعلم الآخرةِ ، وهو الدينُ ، مُقْنِعٌ لجماهير البَشَر ، فهم يدخلونه طوعاً واختياراً = وعلم الدُّنيا ، كما رأوا ، هو الذى مكَّنَ لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوةَ الهائلةَ المتماسكةَ التى شعَروا أنها مستعصيةٌ على الاختراقِ ، وهذه الأُبَّهة الهائلة التى تعيش فيها دارُ الإسلامِ .

ومضى نحو قرنٍ ونصفٍ من الحملات الصليبيَّة ، وأصبح الأمْرُ أشدَّ حَرَجاً ، وصارَ بيِّناً أن الحروبَ الصليبيَّةَ تُوشِكُ أن تَؤُوبَ بالإخفاقِ مرَّةً أُخرى . فانبعثَ منهم رجالٌ يطلبونَ العلم والمعرفة فِى أرض الإسلام ما استطاعوا ، فى المشرق وفى الأندلس ، وظهر رجالٌ من طَبَقة « روجر بيكُنْ » الإنجليزى ، (١٢١٤ – ١٢٩٤ / ٦١١ – ٦٩٣ هـ) ، ممَّن شامُّوا العربَ والعربيَّةَ ، وجاهدوا فى التعلُّم جهادَ المستميت بصبرٍ ودَأْبٍ ، ليزيحوا عن أنفسهم وأهليهم غوائلَ الجَهْل . وهبَّ رجالٌ من الرُّهْبان ذوى الحَمِيَّة أحسُّوا بالخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية التى لم تَحْمِ رعاياهُم من التساقُط السَّهل فى الإسلام على طولِ القرون ، هبُّوا لإصلاح هذا الخَلَل . فكان من أكبرهم رجُلٌ ذكىٌّ متوقِّد ، جاهدَ جهاداً عظيماً فى سبيل دِينه ، أراد أن يزيلَ جهالة الرُّهْبان والملوكِ ، ويمكِّن لهم حُجَّة مُقْنِعةً تَحُول بينهم وبين هذا الانبهار بالإسلام وثقافته وحضارته . ذلك الرجل هو « تُوما الإكوينىّ » الإيطالىّ الكاثوليكى ، (١٢٢٥ – ١٢٧٤ م / ٦٢٢ – ٦٧٣ هـ) ، وبذكائه وحميَّته وإخلاصه ، استطاع أن يحصِّل قَدْراً كبيراً من العلم والمعرفة ، مُتَّكئًا اتِّكاءً كاملاً على القَدْر الذى استطاعَ أن يَفْهمه ويَظْفَر به من عند كتاب الإسلام وعلمائه وفلاسفته ومُتكلِّميه ، كابن رُشْدٍ وابن سينا وغيرهم ، مريداً بكُلِّ ذلك إصلاحَ الخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية ، والذى أضعفَ سُلْطان الكنيسةِ والرُّهبان على نفوس

رعاياهُم الذين لا سبيل لهُمْ إلى معرفة شيءٍ من دينهم إلاّ عن طريق الكنيسة والقِسِّيسين والرُّهْبَان . ولكن كان العائقُ عن أن تُؤْتِى هذه النهضَةُ ثمارَها يومئذٍ أنَّ لُغَةَ الرهبانِ ثم العلماءِ كانت هى اللاتينيَّة القديمة ، وهى لُغَةٌ لا تعرفُها جماهيرُ رعايَا الكنيسة ، وكانت أوربّة كلها تتكلَّم لغاتٍ كثيرةً مختلفةً ، ولَهَجاتٍ شديدةَ التبايُن ولكنَّها لغاتٌ قَلِقَةٌ فى دور التكوين . وكان أكثر هذه الجماهير أُمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتب ، فأصبح الرهبانُ والعلماء يسيرون فى طريقٍ ، ورعايَا الرُّهبان يسيرون فى طريقٍ آخر ، فهُمْ قطيعٌ يَنْعِقُ فيه ناعقٌ بما لا يسمَعُ إلاّ دُعَاءً ونداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يعقِلونَ .

وقَضَى الله قَضَاءَه فى السابعَ عشرةَ من جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ (١٧ من يونيه سنة ١٢٩١ م) ، وسقَطَ آخرُ حِصْنٍ كان للصليبيِّين فى الشام ، ورجعت آخر فُلُولِ الحملات الصليبيَّة إلى مواطنها متهالكةً يائسةً مُسْتَخْذِيَةً صُفْرَ الوجوهِ من الخِزْى والعارِ ، وفى قلوبِها حَسْرَةٌ قاتلةٌ على ما خرجَ من أيديها من متاع الدُّنْيا وبَهْجَتها وزُخْرُفها ، وفى سِرِّ أنفُسِها يأسٌ مُحيِّرٌ ويَقينٌ مفزِعٌ : أنَّ دارَ الإسلام دِيَارٌ ممتنعةٌ على الاختراقِ امتنَاعاً لا سبيلَ إلى تجربته مرَّةً ثالثةً .

وأيضاً ، قَضَى الله قضاءَهُ المستورَ الذى لم يَكْشِفْ عنهُ الحجابَ

بعدُ : أنْ لا تكون الحربُ الصليبيَّة شرًّا محضاً على المسيحيّة المحصورة فى الشمالِ ، بلْ قَدَراً مقدوراً يَحمِلُ لَهَا فى طِيَّاتِه خيراً محجوباً ، ليكونَ غداً ، بهذا الخيرِ الجنينِ ، عُقُوبةً لعبادِه فى دار الإسلامِ ، إذْ أعجبتهم كَثْرتُهمُ ، وغرَّتهم قوَّتهم ، وتاهُوا بما أُوتُوا من زُخْرف الحياةِ الدُّنيا ، وركبَ كثيرٌ من عامَّتهم محارمَ الله ، وخالطوا مَعَاصِيَ قد نُهُوا عنها ، ونَسُوا حظًّا منَ الحقِّ الذى فى أيديهم لا يأتيه الباطِلُ من بين يديه ولا من خَلْفه ، وتركُوا محجَّةً بيضاءَ لا يضِلُّ سالكُها ، واتَّبعوا السُّبُل فتفرَّقت بهم عن سبيله سُبحانه ، فأورَثَهم بذنوبهم غفلةً سوف تَطُول بهم حتّى يفتحُوا أعيُنهم فجأةً على بلاءٍ ماحقٍ . فقضى ربُّك أن تعيشَ أوربة كُلُّها قرناً ونصفَ قرنٍ بعد إخفاق الحروب الصليبية ، (١٢٩١ - ١٤٥٣م / ٦٩٠ - ٨٥٧ هـ) فى إصرارٍ لا يتزعزعُ ، وفى دأْبٍ لا يعوقه ملَلٌ ، على أن تُصْلح الخَلَل الواقعَ فى الحياة المسيحية ، وعلى تحصيل العلم والمعرفةِ من دار الإسلام بكُلِّ وسيلةٍ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، رَجاءَ أن تجد مخرجاً من هذا المأزِقِ الضَّنْكِ الذى حُصِرتْ فيه . وهو تاريخٌ طويلٌ حافلٌ يُعْجِزنى أنْ أقصَّه عليك الآنَ .

* * *

١٥ — وبغتةً ، وقعت الواقعةُ فى يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة

سنة ٢٩/٨٥٧ مايو سنة ١٤٥٣ ، ودَخل « محمد الفاتح » حصنَ المسيحية الشمالية المنيع الشَّامخ ، مدينةَ القسطنطينية ، وقُضِيَ الأمر الذى فيه تَسْتَفْتِيان ، دخَلها قُبيلَ العصر على صَهْوة جوادِه المطهَّم ، (الضَّخم البارع الجمال) ، واتجهَ إلى « كنيسة أيا صوفيا » ، وجماهيرُ رعايَا الكنيسة يصلُّون ويبتهلون ويسألون الله أن يَدْفَعَ عنهم بَلاء « التُّرك » ، (أى المسلمين) . فلمَّا علم الراهبُ بقدومه أمَرَ بفتح باب الكنيسةِ على مِصْراعيه ، وارتاع المصلُّون وماجُوا واضطربوا ، ودخل « محمد الفاتح » ، فتقدَّم إليهم أنْ يُتِمُّوا صلاتَهُم آمنين غير مروَّعين ، وأمَّنهم على أموالهم وأعراضِهم ، وأن يعودوا إلى بيوتِهم سالمين . ودنت صلاة العَصْر ، وقامَ أحد العلماءِ فأذَّن للصلاة ، وصلَّى المسلمُون العصر فى « كنيسة أيا صوفيا » ، ومن يومئذ حُوِّلت فصارت مسجداً . وانتشر الخبر كالبرقِ فى أرجاء أوربة ، ومادَت الدُّنيا بالخبر ، واهتزَّتْ دُنيا المسيحية الأوربية هِزَّة لم تعرف مثلَها قطُّ ، ولم يبق عليها راهبٌ ولا ملكٌ ولا أميرٌ ولا صعلوكٌ إلاّ انتفض انتفاضَةَ الغضَبِ لدينه . وما هو إلاّ قليلٌ حتى انطلقَ « محمد الفاتح » ، وانساحت كتائب الإسلام فى قلب أوربَّة ... يا لها من فجيعةٍ !! وكانَ ما كانَ ....

بيدَ أنّ هذه الواقعةَ الباطشةَ على عُنْفِها ، وعلى سُرعة ما تلاها من

تدفّق كتائب الإسلام مُنْسَاحةً فى قلب أوربّة ، لم تَفُتَّ فى عضُد المسيحية الشمالية ، بل على العكس ، زادها الإحساس بالخِزْى والعار حماسةً وتصميماً وتَحرُّقاً وحقداً خَالط كُلّ نفسٍ من الخاصة والعامّة ، وصارَ هَمُّ « الترك » ، (أى المسلمين) ، همًّا مؤرِّقاً للعالم والجاهِل والصغير والكبير والذكر والأنثى ، وهام الرهبانُ وغير الرُّهْبَان فى جَنَبات أوربة غضاباً يحرّضون رعاياهُمْ على قتالِ هذه « التُرك » ، (أى المسلمين) ، بكُلِّ لسان قادرٍ على الإثارة وعلى التبشيع ، تَبشيع هذه « الترك » . وكلما ازدادَ « الترك » توغُّلاً فى أُرض أوربة « المقدسة » ، ازداد الخوفُ ، وازداد التحريضُ على البغضاءِ والحِقْد ، ومع البغضاء المكتومةِ والتحريض ، زادَ التصميم على المقاومة . وتمضى الأيام والسنون وتتطاوُل ، وأوربّةُ بأسْرِها لا تنامُ إلاَّ على فراشٍ من الرَّمْضاءِ اللاذعة ، لا يدعُ لجنبٍ ساعةً من طُمَأْنينةٍ ، يفزّعُه شبح « التُّرك » ، وذكرى قرونٍ طويلةٍ من الإخفاق والمَهَانَة والعار ، ولا قَرارَ على دَوِىّ أصواتٍ صارخةٍ تُهيب بهم إلى رَفْع هذا العارِ ودَفْعه عن دينهم وعن أنفُسهم وعن أوطانهم بكُلّ سبيلٍ . وكذلك رسَختْ فى العظامِ الحيّة ، لا فى النفوس وحدها ولا فى العقول ، بغضاءُ ساريةٌ مشتعِلة للفظ « الترك » ، (أى المسلمين) ، لا تزدادُ على الأيّام إلا توهُّجاً وانتشاراً ، ونزلتْ من النفوس منزلةَ « الدِّين » الراسخ فى أعماقِ الفِطْرة .

وهذه البغضاءُ المشتعلةُ النافذة فى غَوْر العظامِ هى التى دفعت أوربّة دفعاً إلى طلبِ المخرج من المأزِق الضَّنْك ، وهى التى أيقظْت الهِمَم يَقظَةً لا تعرف الإغماضَ . وباليقظة المتوهِّجة دارَ الصِّراع فى جَنَباتِ أوربة بين جميع القُوَى التى كانت تحكُمُ جماهير الهَمَج الهامِج . ومن قلب هذا الصراع خرجت طَبقة إصلاحٍ خَلَل المسيحية الشمالية مرةً أخرى ، فخرج الراهب الألمانىُّ « مَرْتِنْ لُوثَرْ » (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م / ٨٩٤ - ٩٥٣ هـ) ، والراهبُ الفرنسىّ « حون كِلِفنْ » ، (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م / ٩١٤ - ٩٧١ هـ) ، وخرج السياسى الإيطالىُّ الفاجر « نيكولو مَكْيافِلّى » ، (١٤٦٩ - ١٥٢٧ / ٨٧٠ - ٩٣٤ هـ) ، وخرج أيضاً صراعُ اللغات واللهجاتِ المتباينة ، طلباً لاستقرارِ لغةٍ موحَّدة لكُلّ إقليمٍ ، وإخراجِ سيطرة « اللاتينية » العتيقة من طريق الرهبان والعلماء والكتاب ، لكى يُمْكن نشر التعليم على أوسع نِطاق بين جماهير الهَمَج الهامج من رَعايَا الكنيسة .... وتاريخٌ طويلٌ حافلٌ متنوِّعٌ ، وجهادٌ مريرٌ قاسٍ ، فى سبيل اليَقَظة العامّة والتنبُّه والتجمُّع لإعداد أمّةٍ مسيحية قادرةٍ على دَفْع رُعْبُ « الترك » ، (أى المسلمين) ، عن أرض أوربة « المقدسة » . وبدأت اليَقَظَةُ ذاتُ الهَدَف الواحِد الذى لا يغفُل عنه راهبٌ ولا عالم ، ولَا صغير ولا كبير ، ولا عامىٌّ ولا مُتَعلِّم ، ولا رجُل ولا امرأة . ومَعَ اليَقَظَةِ تفجَّرَ أعظَمُ سَيْلٍ يكتسحُ أُمِّيَّة الهَمَجِ الهامِجِ ويخرجُه من أغلالِ الجهالة ، ويجعلُ

هذا الهدف الواحدَ مستقرًّا فى جوفِ العظام ، مع البغضاء والحِقْد ، ومع التصمِيم والإرادة ، ومع اليقظة والتَّنَبُّه ، وطالت الليالى والأيام ، فما هو إلّا قليلٌ حتى كانَ ما كان ....

* * *

وبغتَةً ، كما كان اقتحامُ المسلمين قلب أوربة بغتةً ، تَهاوتِ الحواجز التى كانت تمنَعُ حركة اليقظة والتنبُّه فى أعقاب الحروب الصليبية لأن تُؤْتِى ثِمارها ، (كما أشرت إليه آنفاً فى الفقرة الرابعة عشرة) ، وخرجت أوربّة من أصفادِ « القرون الوسطى » ، ودخلَتْ بعد جهادٍ طويل مريرٍ فى « القرون الحديثة » كما يسمُّونَها . ومع تقوُّض هذه الحواجز ، ظَهَرت براعيمُ الثِّمار الشهية ، وبظهورها غضّةً ناضرةً ، زادت الحماسةُ ، وتعالت الهِمَمُ ، ومُهِّدَ الطريقُ الوَعْر ، ودَبَّت النَّشْوةُ فى جماهيرِ المجاهِدِين ، وتحدَّدت الأهدافُ والوسائلُ ، وتبيّنَ الطريقُ اللاحِب . ومن يومئذٍ بدأ الميزانُ يَشُول ، فارتفعتْ إحدى الكِفَّتَيْن شيئًا مّا ، وانخفضتِ الأخرى شيئاً مّا . ارتفعت كِفَّةُ أورُبَّة بهذه اليقظةِ الهائلة الشاملة التى أحدثتها الهزائم القديمة والحديثة ، وانخفضت كِفَّةُ المسلمين بهذه الغفلةِ الهائلة الشاملة التى أحدثها الغرورُ بالنَّصر القديم وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية . وكذلك شال الميزان ، وكانت فرحةٌ محسوسةٌ فى جانب ، وكانت غفلةٌ

لا تُحَسُّ فى جانب . تاريخٌ طويلٌ مضَى وغابَ ، وتاريخٌ طويلٌ سوف يأتى ، ثم لا يعلمُ إلّا اللهُ متى يكون غيابُه .

* * *

١٦ - والآنَ تستطيعُ أن تتبيَّن أربعَ مراحلَ واضحةً للصراع الذى دار بين المسيحية الشمالية والإسلام :

● المرحلةُ الأولى : صراعُ الغَضَب لهزيمة المسيحية فى أرض الشام ودخولِ أهلها فى الإسلام ، فبالغضب أمَّلت اختراقَ دارِ الإسلامِ لتَسْتَرِدَّ ما ضاعَ ، تدفَعُها بَغْضاءُ حَيَّةٌ متسامحةٌ ، لم تمنَعْ ملكاً ولا أميراً ولا راهباً أن يُمِدَّ المسلمين بما يطلبونَهُ من كُتب « علوم الأوائل » ، (الإغريق) ، التى كانت تحت يد المسيحية يعلوها الترابُ . وظلَّ الصراع قائماً لم يفتُر ، أكثر من أربعة قرونٍ .

● المرحلة الثانية : صراعُ الغضَبِ المتفجِّر المتدفِّق من قلب أُوربة ، مشحوناً ببغضاء جاهلةٍ عاتية عنيفةٍ مكتسحةٍ مُدمِّرةٍ سفَّاحةٍ للدماء ، سَفَحت أوّل ما سفَحَت دماءَ أهل دينها من رعايا البيزنطية ، جاءت تريدُ هى الأُخرَى ، اختراقَ دار الإسلام ، وذلك عهد الحروب الصليبية الذى بَقِى فى الشام قَرْنين ، ثم ارتدَّ خائباً إلى مواطنه فى قلب أوربّة .

• المرحلة الثالثة : صِراعُ الغَضَبِ المكظومِ الذى أورثه اندحارُ الكتائب الصليبيّة ، من تحتِه بغضاءُ متوهّجةٌ عنيفةٌ ، ولكنَّها متردِّدَةٌ يكبحُها اليأسُ من اختراق دار الإسلام مرَّةً ثالثة بالسلاح وبالحرب ، فارتدعَتْ لكى تبدأ فى إصلاح خَلَل الحياة المسيحية ، بالاتّكاءِ الشديد الكامل على علومِ دار الإسلام ، ولكى تستعدَّ لإخراج المسيحيّة من مأزِقٍ ضنْكٍ مُوئِس ، وظلَّت على ذلك قرناً ونصف قرنٍ .

وهذه المراحلُ الثلاث ، كانت ترسُفُ فى أغلالِ « القرون الوسطى » ، أغلالِ الجَهْلِ والضياع . ولم تصنع هذه المراحل شيئاً ذا بالٍ .

• المرحلةُ الرابعة : صراعُ الغَضَبِ المشتعل بعد فتح القسطنطينيّة ، يزيدُه اشتعالاً وتوهُّجاً وَقودٌ من لَهيب البغضَاءِ والحِقْد الغائر فى العِظام على « التُّرك » ، (أى المسلمين) ، وهُمْ شبحٌ مُخِيفٌ مندفعٌ فى قَلْبِ أوربّة ، يُلْقِى ظِلَّه على كُلِّ شيءٍ ، ويفزِّعُ كُلَّ كائنٍ حيٍّ أو غيرَ حَيٍّ بالليل وبالنَّهارِ . وإذا كانت المراحلُ الثلاثُ الأوَل لم تصنع للمسيحيّة شيئاً ذا بالٍ ، فصراع الغضب المشتعل بلهيبِ البغضاء والحقد هو وحدَهُ الذى صنَع لأوربّة كُلَّ شيءٍ إلى يومنا هذا .

صنَع كُلَّ شيءٍ ، لأنه هو الذى أدَّى بهم إلى يَقَظةٍ شاملة قامتْ

على الإصرارِ ، وعلى المجاهدة المُثَابرَةِ على تحصيل العلم وعلى إصلاح خَلَل الحياة المسيحية ، ولكنْ لم يكن لها يومئذٍ من سبيلٍ ولا مَدَدٍ ، إلّا المَدَدُ الكائن فى دار الإسلام ، من العِلْم الحىّ عند علماء المسلمين ، أو العلم المسطَّر فى كتُب أهلِ الإسلام . فلم يتردّدُوا ، وبالجهاد الخارق ، وبالحماسة المتوقّدة ، وبالصبْر الطويل ، انفكّتْ أغلالُ « القرون الوسطى » بغتَةً عن قَلْب أوربّة ، وانبعثت نهضةُ « العصور الحديثة » مستمرَّةً إلى هذا اليوم .

من يومئذٍ ، عند أوَّل بَدْءِ اليَقَظة ، تحدَّدَت أهدافُ المسيحيَّة الشمالية ، وتحدَّدَت وَسائلُها . لم يَغِبْ عن أَحدٍ منهم قطُّ أنهم فى سبيل إعدادِ أنفُسهم لحرب صليبيّةٍ رابعة ، لأنّهم كانوا يومئذٍ يعيشون فى ظِلِّ شَبَحٍ مُخِيف متوغِّل فى أرض أوربّة المقدسةِ ببأسٍ شديدٍ وقوّة لا تُرْدَع ، بل هو شَبَحٌ متجوِّل يطوف أنحاءَ القارة كُلّها ، لا يَطْرِف فيها جَفنٌ حتَّى يَراهُ مَاثِلاً فى عينه آناءَ الليل وأطراف النهار ، « التُّركَ التُّركَ » !! . وهذه « التُّرك » ، وهم المسلمون ، طلائعُ عالمٍ إسلامىّ زاخِرٍ هائلٍ مُخيفٍ غير معروفٍ لهم مَا فى جَوْفِه ، مسيطِرٍ على رقعةٍ متراحبةٍ ممتدَّةٍ من الأندلسِ إلى أطرافٍ تحيط بأرض روسيا ، إلى جوف قارَّة آسية ، إلى جوفِ قارّة إفريقية . وهُم يعلمون الآن علماً ليس بالظنِّ ، أنَّ السلاحَ ، فى هذه

المرحلة الرابعة ، (وهو يومئذٍ قريبٌ من قريبٍ) ، ليس يُغْنى غَنَاءً حاسماً ، فقد وعظتْهُم المراحِلُ الثلاثُ الأُوَل ، فنَحَّوْا أمرَهُ جانباً إلى أن يحِينَ حينُه ويُصْبِح قادراً وحاسماً . لمْ يبق لهُمْ ، إذنْ ، إلا سلاحُ العَقْل والعلمِ والتفوُّق واليَقَظة والفَهْم وحُسْنِ التدبير ، ثم المَكْرُ والدهاءُ واللِّين والمداهنة وتَرْكُ الاستشارةِ ، استثارةِ عالَمٍ ضَخْمٍ مجهولٍ ما فى جوفِه ، ولا قِبلَ لهم بتدفُّق أمواجِه الزاخرة ، والتى كان « التركُ » الظَّافرونَ طلائعَها الظاهرة لهمْ عياناً فى قلب أوربة . وهذه رعايا المسيحيَّة أمامَ أعيُنهم تتساقَطُ فى الإسلام ، مرَّةً أخرى ، طائعةً مختارةً ، وتدخُل بحماسَةٍ ويقينٍ ثابتٍ فى جحافِلِ الإسلام الطاغية ! يا لها من فَجيعة !! ويرتاعُ مع كُلِّ فَجْرٍ قلبُ المسيحية ، ويَغْلِى رهبانُها ورعاياهم بُغْضاً للإسلام ، وحماسةً وغضباً للمسيحية ، ويَرْسخُ الإصرارُ فى القلوبِ على دَفْع غائلةِ الإسلام ، وعلى التماس قهرِه بكُلِّ وَسيلةٍ ومن كُلِّ سبيل ، وتَتَلَهَّبُ أمانىُّ الاستيلاء على كُنُوزه الباهرة التى لا تنفدُ ، والتى غالَى فى تصويرها لهم العائدونَ من الحرب الصليبيّة الثالثة ، (وهى الحملات السبع المعروفة باسم « الحروب الصليبية ») ، وصارتْ أحلاماً بهيجةً يحلُمُ بها كُلّ صغير وكبير ، وعالم وجاهلٍ ، وراهبٍ ورعيّةٍ ، بل صارت شهوةً عارمةً تدبُّ دبيباً فى كُلّ نَفسٍ ، بل صارت غريزةً مستحكمةً من غرائز النَّفْس الأوربية . هذا إيجازٌ شديدٌ لما كان ، وليكنْ منْك على ذُكْرٍ أبدًا لا تنساهُ .

كان كُلُّ مَدَد اليَقَظةِ ، كما قدّمتُ ، مُستجلَباً كُلُّه من علوم دار الإسلام ، من العِلْم الحىِّ فى علمائه ، ومن العلم المُسَطَّر فى كُتبه . والسبيلُ إلى ذلك فى الأمرين جميعاً كان معرفةَ لسانِ العربِ . ولن أقصَّ عليكَ التاريخ الطويل ، ولكن آعلم أنّ لسانَ العربِ كان له السيادةُ المطلقةُ على العالم ، قروناً قبل ذلك طِوالاً ، وكانت المسيحيّة الشماليةُ مجاورةً لهذا السُّلطان المطلق ، ومصارعةً لأهله صراعاً طويلاً تارةً ، ومخالطةً لهم بالتجارة والرحلة وغيرهما زمناً طويلاً تارة أخرى ، ولذلك كان هذا اللسان العربىّ ، معروفاً معرفةً جيدةً لطوائف من العامّة والخاصّة فى ديار بيزنطة من ناحية ، وفى قلبِ أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس . ولن أشغل نفسى بالحديث عن هذا التاريخ ، وقد مَضتْ من قَبْلُ إشارةٌ إليه خاطفةٌ ، فالذى يعنينى هنا ما كان عند بَدْءِ اليقظة فى أوربّة . فبالهمّة والإخلاصِ والعَقْل أيضاً ، كانَ لابُدَّ لهُمْ من أن يزدادَ عَدَدُ الذين يعرفونَ اللسانَ العربىّ ويجيدونه زيادةً وافرةً ، (١) لحاجتهم يومئذٍ إلى أنْ يعتمدُوا اعتماداً

---

(١) لم يقتصر أمرهم على تعلم اللسان العربى ، بل انطلقوا يتعلمون كُلّ لسانٍ كان فى دار الإسلام ، كالتركى والفارسىّ وغيرهما من لغاتٍ كانت للمسلمين منطوقة ، أو فى القراطيس مكتوبة .

مباشِراً على الاتّصال بالعِلم الحىّ فى علماء الإسلام ، لكى يتمكّنُوا من حلّ الرُّموز اللُّغوية الكثيرة المسطَّرة فى الكتب العربية ، ولا سيّما كتبُ الرياضة والجبر والكيمياء والطبِّ والفلك وسائرُ علوم الصناعة التى قلَّ من يعرفُها .

فكانَ من الأهدافِ والوسائلِ ، كما ذكرتُ قبلُ ، بَعْثَةُ أعدادٍ كبيرة ممَّنْ تعلَّموا العربيةَ وأجادوها إجادةً مّا ، تخرجُ لتسيح فى أرض الإسلام ، وتجمع الكُتُب شراءً أو سَرِقةً ، وتُلاَقى الخاصَّةَ من العلماءِ ، وتُخالطُ العامة من المثقَّفين والدَّهماء ، وتُدَوّنُ فى العقول وفى القراطيسِ ما عَسَى أن ينفعهم فى فهم هذا العالم الذى استعصى على المسيحية واستعْلَى قروناً طوالاً . يخرجون أفواجاً تتكاثر على الأيّام ، ويجوبون أرجاء هذا العالم ، ويعودون لإتمام عملين عظيمين : إمدادِ علماءِ اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب الَّتى حازُوهَا أو سطَوْا عليها ، وإطلاعِهم عَلَى ما وقفوا عليه فيها ، باذلين كُلَّ جُهْدٍ ومَعُونةٍ فى ترجمتها لهم ، وفى تفسير رُموزها بقدر ما استفادُوا من العلم بها = وأيضاً إطلاعِ رُهْبان الكنيسة وملوكها على كُلِّ ما علموا من أحْوال دار الإسلام ، وما رأوه عياناً فيها ، وما لاحظوهُ استبصاراً . وكانَ أهَمَّ ما لاحظوه أو خَبَروه ، هذه الغَفْلة المُطْبِقة على أرضِ الإسلامِ ، والَّتى أورَثَتهم إياها الاستنامةُ إلى النَّصْر القديمِ على المسيحية ،

والاغترار بالنصرِ الحادثِ بفتح القسطنطينية ، ثُمَّ سماحةُ أهلِ الإسلام عامَّتِهم وخاصَّتِهم مع مَنْ دينُه يخالفُ دينَهُمْ ، ولا سيَّما اليهود والنَّصارَى ، لأنهم أهلُ كتابٍ وأهلُ ذِمَّةٍ ، ولأنهم أتباعُ الرسولين الكريمين مُوسَى وعِيسَى آبنِ مَرْيمَ عليهما السلام ، ولأنّ دينَ أحَدِهم لا يَسْلَم لهُ حتّى يؤمِن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُلِه لا يُفَرِّق بين أَحدٍ من رُسُله سبحانه = وأُعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذى يَسَّر لهم أن يجوبوا فى الأرض غير مروَّعين ، ويسَّر لهم خاصةً أنْ يُدَاهنوا العلماء والعامَّة وينافقوهُمْ ويوهموهُم بالمكر والمِحَالِ أنّهم طُلاّبُ علم لا غيرُ ، خالصةٌ قُلُوبهم لحبّ العلم والمعرفة ، والله عليمٌ بالسَّرائِر .

* * *

ومن يومئذٍ نشأت هذه الطبقةُ من الأُوربيّين الذين عُرِفوا فيما بعدُ باسم « المستشرقين » ، وهُمْ أهمُّ وأعظَمُ طبقةٍ تمخَّضَت عنْها اليَقَظَةُ الأوربيّة ، لأنّهم جُنْدُ المسيحية الشمالية ، الذين وَهَبُوا أنفُسهم للجهادِ الأكبر ، ورضُوا لأنفُسهم أن يظلُّوا مَغْمورين فى حياةٍ بدأت تموجُ بالحركة والغِنَى والصيتِ الذائع ، وحبَسُوا أنفُسهم بين الجُدْران المختفية وراءَ أكداسٍ من الكُتُب ، مكتوبةٍ بلسانٍ غيرِ لسان أُمَمهم التى ينتمون إليها ، وفى قلوبهم كُلُّ اللَّهيب المُمِضّ الذى فى قلب أوربَّة ، والذى أحدثته

فجيعةُ سقوط القسطنطينية فى حوزة الإسلام ، ولكن لا همَّ لهُمْ ليلاً ولا نهاراً إلاّ حيازةُ كنوزِ علم دار الإسلام بكُلِّ سبيلٍ ، تتوهّجُ أفئدتهم ناراً أعتَى من كُلِّ ما فى قُلوب رُهبان الكنيسة ، ولكنّهم كانوا يملكونَ من القدرة الخارقة أن يخالطوا أهل الإسلام فى ديارهم ، وعلى وجوههم سِيمِيَاءُ البراءة واللين والتواضع وسلامة الطويّة والبِشْر . وبفَضل هؤلاءِ المتبتِّلين المنقطعين عن زُخْرف الحياة الجديدة = وبفضلهم وحدهُم وبفَضْل ملاحظاتهم التى جمعوها من السياحة فى دار الإسلام ومن الكتب ، وبذَلوها لمُلوك المسيحية الشمالية ، نشأت طبقَةُ السّاسة الذين يُعِدُّون ما استطاعوا من عُدَّةٍ لردّ غائلة الإسلام ثُمَّ قَهْرِه فى عُقر دياره ، ولتحقيق الأحلام والأشواق التى كانت تُخَامرُ قلبَ كُلِّ أوربى ، أن يظفَر بكنوزِ الدُّنيا المدفونة فى دار الإسلام وما وراء دار الإسلام ، وهم الذين عُرِفوا فيما بعدُ باسم رجال « الاستعمار » = وبفضلهم وحدهم أيضاً ، وبفضْل ملاحظاتهم التى زوَّدوا بها رُهْبانَ الكنيسة ، ثارت حميَّة الرهبانِ ، ونشأت الطائفة التى نَذَرت نَفْسها للجهادِ فى سبيل المسيحيّة ، وللدُّخول فى قلب العالم الإسلاميّ لكى تُحَوِّلَ مَنْ تستطيع تحويله عن دينه إلى الملّة المسيحيةْ ، وأَنْ ينتهى الأمْرُ إلى قَهْر الإسلام فى عُقْر داره ، = هكذا ظنُّوا يومئذٍ = وهذه الطائفة هى التى عُرِفت فيما بعدُ باسمِ رجال « التبشير » .

فهذه ثلاثةٌ متعاونةٌ متآزرةٌ متظاهرةٌ ، وجميعُهم يدٌ واحدةٌ ، لأنهم إخوةٌ أعيانٌ ، أبوهم واحدٌ ، وأمُّهم واحدةٌ ، ودينُهم واحدٌ ، وأهدافُهُمْ واحدَةٌ ، ووَسَائلهم واحدةٌ . ليس من هَمِّى هنا « التبشير » ، فقد فرغتُ من بعض شأنِه فى كتابى « أباطيلٌ وأسمارٌ » ، وليس من همّى هنا « الاستعمارُ » ، لأنّا ذُقْنا طرفاً من أفاعيله تجربةً ومعاشرةً ، وإن كان من خِذْلان الله لنا أنّا لم نفهمه فهماً نافذاً شاملاً على الوجه الصحيح ، ولكن هَمّى هنا مصروفٌ إلى « الاستشراق » لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الأدبية والاجتماعية = ولأن حاجَة « التبشير » وَ « الاستعمار » إليه ، حاجةٌ كانت ملحّةً ، وهى إلى اليوم حاجةٌ دائمةٌ ، لا يستغنيان عنهُ ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاتِه طَرْفَةَ عينٍ . ومرةً أخرى ، لا تنسَ ما حييتَ أنّ هذه الثلاثة إخوةٌ أعيانٌ لأبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة ، لا تُفَرِّقْ قطُّ بين أحدٍ منهم .

* * *

١٧ — من العسيرِ ، إن لم يكن من المُحَالِ الممتنع ، أن أقصَّ عليكَ فى كتابٍ كبيرٍ ، قصةَّ شعوبٍ مختلفة كثيرةِ العدد ، تطاولت عليها أيامٌ وتتابعتْ سنون ، منذ ذَرَّتْ عليهم شمْسُ اليقظة ، ثم انبسطت عليهم أشعّتها ، حتّى تحرّكت أوصالُ كُلِّ حيٍّ من جماهيرها الغفيرة ، هذا

محالٌ . أفتظنُّ ، إذنْ ، أنى قادرٌ على مثل ذلك فى ورقاتٍ قلائلَ ؟ كلاَّ فما هو إلا هذا الوصفُ السريعُ الخاطف .

تهاوَتْ فى أوربّة سُدود الجَهْل ، وانبثقت اليقظة ، وفُتِحت بعض مغاليقِ خزائن العلم ، وانقشعت ظُلمة « القرون الوسطى » ، ولاحت تَباشيرُ فجرٍ جديدٍ ، واصطفَّ الهَمَجُ الهامجُ كتائبَ تزحفُ فى أيديها مصابيح ينبعث منها بصيصٌ يُضيءُ ليكشف غَيَاهِبَ الظُّلُمات ، واستنارت الطُّرُق ، وازدحَمَ على سُلُوكها كل مُطِيقٍ للزَّحْفِ . وبالصبْر وبالجُهْد وبالجرأة وبالعزيمة وبِنَبْذِ التوانى ، صارت أوربّة قوةً تُمدُّها فُتُوح العلم الجديد بما يزيدُها بأساً وصرامةً .... ولا أقولُ شال الميزانُ ، بل أقولُ بَطَلَ عملُ الميزان ، وصارَ فى الأرض عالَمَانِ : عالَمٌ فى دار الإسلام مُفَتَّحةٌ عيونُهم نيامٌ ، يُتاخم من أوربّة عالماً أيقاظاً عيونُهم لا تنامُ ، وقُضِيَ الأمر الذى فيه تستفتيان ! وبدأت « المرحلة الرابعة » فى الصراعِ بين المسيحية المحصورة فى الشمالِ ، وبين دارِ الإسلام التى تحجُبُ عنهم من ورائها عالماً مُبْهماً مترامىَ الأطرافِ ، (انظر أول الفقرة السالفة : ١٦) .

وكان ما كانَ ... فمع اليقظة ازدادت « الأهداف » وضُوحاً وَجلاءً ، وازدادت « الوسائلُ » دقّةً وتحديداً وشمولاً ، بعد أن وَعَظت أوربّة المراحلُ الثلاثُ الأُوَلُ التى لم تصنع للمسيحية المحصورة فى الشمالِ شيئاً

ذا بالٍ . « الأهدافُ » معروفةٌ لك الآن ، أكبرُها شأناً هو اختراقُ دار الإسلام ، ثم تمزيقُها من قلبِها ، ثُمَّ الظَّفر بالكنوز الغالية التى كانت ، ولم تَزَل ، تراوِدُ كُلَّ قلبٍ ينبضُ فى أوربة بأحلامٍ شَرِهةٍ مسعورةٍ إلى الغنى والثروةِ والمتاعِ ، غَرَستْ بذورَها فى أعماق النفوس أحاديثُ العائدين من حملات الحروب الصليبية القديمة . أمّا « الوسائل » فقد وُضِعتْ لها قواعدُ راسخةٌ تُجنّبهم أخطاءَ المراحلِ الثلاثِ السابقة التى مُنِيَت بالإخفاق . كان على رأسِ هذه القواعد : تنحيَةُ السلاحِ جانباً ، بعد أن ثبت لهم إخفاقُه فى اختراق دار الإسلام ، لأنّه يستثير ما لا يعلمونَ مَغَبَّته من سوءِ العواقب ، وكفى بالتجارب الثلاثِ الغابرة واعظاً . فمن يومئذٍ صارتِ القاعدةُ الراسخةُ فى سياسة أُوربّة هى اجتنابَ استثارةِ هذا العالم الضَّخْم المُبْهَم الذى كان « الترك » هم طلائعَهُ المظفَّرةَ الناشبةَ أظافيرُها فى صميم المسيحية الشمالية فى قلب أوربة = ثمَّ العملَ الدائبَ البصيرَ الصامتَ الذى يُتيح لهم يوماً مّا تَقْليمَ هذه الأظافِرِ وخَلْعَها من جُذُورها = ثم استنفَادَ قُوَّته بالمناوشةِ والمُطاولة والمثابرةِ ، بالدهاءِ والمَكْر والسياسة والصَّبْر المتمادِى ، حتَّى يأتِىَ عليه يومٌ لا يَمْلكُ فيه إلاَّ أن يستكينَ ويستسلمَ ، وليكُنْ كُلُّ ذلك من وراءِ الغَفْلة ، وبالدهاء والرِّفْق تارةً ، وبالتنمُّر والتكشير عن الأنيابِ تارة أخرى ... وكذلك كان ما كانَ ، وما هو كائنٌ إلى هذه الساعة ، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ :

• وفَضَّت المسيحية الشمالية قيودَ الحصار عن نفسها ، وخرجتْ جحافِلُها مكتسحةً تجوبُ البحرَ والبرّ . انطلقت الأساطيل من شواطىء أوربة مُزَوَّدةً بالعُدَّة والعَتَاد والرجال الأشدّاء والمغامرين ، والعلماءِ والرهبان ، وهدفُها أن تطوِّق دار الإسلام محيطةً بها من شواطىء المغربِ إلى شواطىء الهند ، تتحسَّس مواطنَ الضعف فى أقاليمها المتطرّفة ، فانقضُّوا على الضعيف والعاجزِ والغافل ، وخادعوا ونافقوا ، وآستغفلُوا وأرهبُوا ، وأستنزفُوا ونهبُوا ، وازدادوا شَهوةً وشَراهَةً وجُوعاً إلى الكنوز المخبوءةِ فى قلب دار الإسلامِ ، واستطعفوا وسيطروا ، ولهيبٌ فى القلوب لا تطفأُ نارُه . وفَجْأة ، وبمعونة البحّارين المسلمين العرب ، عَثَر كولمبس (١٤٥١ - ١٥٠٦ م / ٨٥٥ - ٩١٢ هـ) على أرض الهنود الحُمْر (أمريكا) . وما هوَ إلاّ قليلٌ حتى تدفَّق السيل الجارف من أوربة ، يجذبُه بريقُ الذَّهب والغنَى ، وملأ المغامرون القُساةُ الغِلاظُ الأرضَ البِكْرَ ، وزحفوا فيها واستباحوها ، وسَفَحُوا دماءَ الملايين سفحاً مُبيراً ، غَدْراً وخِسّةً ، لا يردَعُهم رَادعٌ عن استئصال شأفتهم بقسوةٍ وعُنْفٍ ، وشَفَى كُلُّ أوربىّ غليلاً كانَ فى قلبه مُعَدًّا لدار الإسلام ؛ واتَّجهتْ أساطيلهم إلى إفريقية تختطف آلافاً مؤلَّفةً من الآمنين السُّود مسلمين وغير مسلمين ، رجالاً ونساءً وصغاراً ، يحملونهم فى السفن إلى هذه الأرضِ الجديدة البعيدة ، أرضِ الهنود الحُمْرِ ، وتهلكُ فى هذه الرحلات آلافٌ كثيرة منهمْ تحت

السِّياط ، وتبقى آلافٌ قليلةٌ تُلْقَى على البَرِّ لتكون تحتَ أيديهم بَهائمَ مُسخَّرةً بالذُّل لعمارة الأرض . وظهر الفسادُ فى البرّ والبحر ، وبلغت أوربة مبلغاً يزيدُها فجوراً وشراهةً وسفكاً للدماء ، وغطرسةً فوق ذلك تزدادُ على الأيام تعالياً فى نَشْوة عارمةٍ ، نشْوةُ السكرانِ الثَّمِلِ إلى جانبها إفاقَةٌ منْ سُكْرٍ ! وصارت أوربّة عالماً مخيفاً مرهوبَ الجانب ، وتزدادُ كُلَّ يومٍ ثقافةً وعلماً ، وفهماً ويقظةً ، وتجربةً وخبرةً فى كُلِّ خيرٍ وشرّ ، وتَزدادُ أيضاً نِفاقاً وخُبثاً ومكراً وغَدْراً بالآمنين حيثُ كانوا فى أرجاء عالمٍ كانت تحجُبُه عنهم دارُ الإسلام قُروناً طويلة . أما دار الإسلام ، فعَلى الأيّام وَهَنت قُوَّةُ طليعتِه المسلمةِ الناشبةِ فى قلب أوربّة ، وصارتْ داراً محصورةً فى الجنوبِ ، بعدَ أنْ كانت حاصِرَةً للمسيحية فى الشمال . وكذلك بدأت حضارةٌ عتيقةٌ تتضعضَعُ قُواها وتَرِثُّ حبالُها ، وقامت فى الأرض حضارةٌ جديدة غُذِيت بالدَّمِ المسفوح ، ومُزِجَت ثقافتها بالمكر والغَدْر والدهاء والخُبث ، تؤزُّها نارُ أحقادٍ مُكتَّمةٍ ، ثم صارتْ لهيباً يؤُجُّ أُجّا = حضارةٌ سوف تطبِّق وجه الأرض ، وهى بذلكَ كُلّه حضارةٌ إنسانيّةٌ عالميةٌ ، أليس كذلك ؟ ويزيدُها إنسانيةً وعالميةً أنها جاءت مبشِّرةً بدينٍ جديدٍ ، عقيدتُه مبنيَّةٌ على البغضاء والحِقْدِ والجَشع والغَدْرِ وسَفْكِ الدماء .

• ومَعَ هذه الأساطيل الفاجرة ، خرجتْ من مَكامِنها أعدادٌ

وافرةٌ من رجالٍ يجيدون اللسان العربيّ وألسنةَ دار الإسلام الأُخَر ، ومنهم رُهبان وغير رُهبانٍ ، وركبُوا البّر والبحرَ ، وزحفُوا زَرَافاتٍ ووُحداناً فى قلبِ دار الإسلام : على ديار الخلافة فى تركية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوفِ إفريقية وممالكها المسلمة = خرجُوا وفى القلوب حميَّة الحقد المكتَّم ، وفى النفوس العزيمة المصمِّمَة ، وفى العيون اليقظةُ ، وفى العقولِ التنبُّهُ والذكاءُ ، وعلى الوجوه البِشْرُ والطَّلاقةُ والبراءَةُ ، وفى الألسنة الحلاوةُ والخِلابَةُ والمُمَاذقة ، ولَبِسُوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِيّ : زِيّ التاجر ، وزِيّ السائح ، وزِيّ الصَّديق الناصِح ، وزِيّ العابد المُسْلم المتبتِّل = وتوغَّلُوا يستخرجون كُلّ مخبوءٍ كان عنهم من أحوالِ دار الإسلام ، أحوالِ عامَّتِه وخاصَّتِه ، وعلمائه وجُهَّاله ، وحُلَمائه وسُفَهائه ، وملوكه وسُوقته ، وجيوشِه ورعيَّته ، وعِبَادته ولهوِه ، وقُوّته وضعفه ، وذكائه وغَفْلته ، حتّى تدسَّسُوا إلى أخبار النساءِ فى خدُورهنّ ، فلم يتركوا شيئاً إلاّ خَبَرُوه وعَجَمُوه ، وفَتَّشوهُ وسَبَرُوه ، وذاقُوه واستشفُّوه . ومن هؤلاءِ ، ومن خِبْرتهم وتجربتهم ، خرجت أهمُّ طبقةٍ تمخَّضَت عنها اليقظةُ الأوربية « طبقة المستشرقين » الكبار ، وعلى علمهم وخبرتهم وتجاربهم ، رَسَتْ دعائِمُ « الاستعمار » ورسَخَتْ قواعد « التبشير » كما وصفتُ لك أمرَهم فى آخر الفقرة السادسة عشرة = وٱلْتَقَت حَلْقَتَا البِطَان ، هذه المرَّة ، على دار

الإسلام ، واسترخَتْ حَلْقتَاهُ عن المسيحية الشمالية ، (انظر أول الفقرة : ١٤ ، ص : ٥٤) .

● وما هو إلاّ قليلٌ حتى كان تحت يد « الاستشراق » آلافٌ مؤلَّفةٌ من مخطوطاتٍ من كُتُبِ دار الإسلام نفيسةٍ منتقاةٍ ، مُشْتراةً أو مسروقةً ، موزَّعة مفرَّقة فى جميع أرْجاء أوربّة وأدْيِرتها ومَكْتباتها وجَامعاتها ، وأُكبَّ عليها « المستشرقون » المجاهدون الصابرون ، الذين هجروُا دُنْيا النَّاسِ المائجة بكُلِّ زُخْرُفٍ ومتاعٍ ، وعكفُوا بين جُدْرانٍ صامتةٍ مُغْلَقةٍ ، وأكداسٍ من الأوراقِ المكتوبة بلسان غير لسانِ أقوامِهم ، يَقْضُون سحابَةَ النَّهارِ وزُلَفاً من الليل يَفْرِزونها ورقة ورقةً ، وسطراً سطراً ، وكلمةً كلمةً ، بصبرٍ لا ينفَدُ وعزيمةٍ لا تكِلُّ ، ويُكابدون كُلَّ مشقةٍ فى الفَهْم والوقوف على أسرارِ المعانى المخبوءة تحت رموز الألفاظ العربيّة أو غير العربيّة فى كل عِلْم ومَعْرفة وفنّ ، دِيناً كانَ أو أدباً أو لغةً أو شعراً أو تاريخاً أو علمَ بُلْدان ، (جغرافية) ، أو طِبّاً أو رياضةً أو فلكاً أو صناعاتٍ وآلاتٍ ، كُلُّ ذلك يدرسونه بدقّةٍ ونظامٍ وترتيبٍ ، وبتعاوُنٍ كامِلٍ بينهم مهما تباعدت بلادهم وأوطانهم . ثم لا تنقطِعُ لهم رحلةٌ فى قلب دار الإسلام وفى أطرافِها ، يَجُسُّون ويُجرِّبون ويختبرون ، ويتعلَّمون ويسألون ،

ويجمعون كُلَّ خِبْرة وكُلِّ تجربةٍ وكُلَّ معرفةٍ ، وكُلّ صغير وكبير يُعينُهم على الدرْسِ والاستفادةِ ، وعلى فَهْم أسرارِ هذا العالَم الغَرِيب الذى كان بالأمسِ ممتنِعاً على الاختراق قروناً طِوالاً .

ولما كانت هذه المخطوطات التى يعكُفُ نَفَرٌ منهم على دراستها متفرقةً فى البلاد ، وحَبِيسةً تحت يد عَدَدٍ قليل جدًّا ، قد يكون رجلاً واحدًا فى قرية أو دير ، عَمَدوا إلى نشر بَعْضِها مطبوعةً ، لتكون تحت يد كُلِّ دارس مستشرِقٍ فى أىّ بلدٍ كانَ من بلاد أوربّة ، (١) ولكى تكونَ الفائدةُ أكثر تماماً ، والجُهْدُ أكثرَ جَدْوى ، أنشأوا أيضاً مجلاَّت بكُلِّ لسان من ألسنتهم ، ينشُر فيها كُلُّ مستشرقٍ نتائجَ بحثِه ودِراستِه ، ويعرضُ كُلُّ

---

(١) لا تصدِّق من يقول لك إن « الاستشراق » قد خدمَ اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها ، لأنه نَشَر هذه الكتب التى اختارَها مطبوعة ، فهذا وهْمٌ باطلٌ . كانوا لا يطبعون قطُّ من أى كتاب نشروه أكثر من خمسمئة نسخةٍ ، = ولم تزل هذه سُنّتهم إلى يومنا هذا = توزّعُ على مراكز الاستشراق فى أوربة وأمريكة ، وما فَضَل بعد ذلك وهو قليلٌ جدًّا ، كانت تسقُط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخةُ والنسختان والعشرة على الأكثرَ ، لم يسعَوْا قَطُّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين ، كما يسوِّقون بَضائعهم وتجاراتِهم وسائر مَا ينتجونَ ، بين هذه الملايين طلباً لربْح المالِ . هدفهم كان مَا قلتُ لك لا غيرُ .

تَجارِبه وخبرته وملاحظاته ، لتكون عَوْناً لكُلِّ دارسٍ مستشرقٍ وغير مستشرق ، وهى مجلاَّت الدراسات الإسلامية أو الشرقية . بل سَمَتْ هِمَّتُهم فبدأوا صُنْعَ « جماهر الإسلام » التى يسمونها « دوائر المعارف الإسلامية » ، [١] وكذلك صار « الاستشراقُ » فى أوربة كُلِّها هيئةً واحدةً ، لها هدفٌ واحدٌ ، ونِظامٌ واحدٌ ، وهِمَّةٌ واحدةٌ ، وفَهْمٌ واحدٌ ، وأسلوبٌ واحدٌ ، ونَظَرٌ مُشْتَرَكٌ واحدٌ ، إلى حضارةِ دار الإسلام قديمها وحديثها .

● كان هذا « الاستشراق » فى نَأْنَأَتِه الأُولى ، بعد سبعة قرون من الصِّدام الذى انتهى بإخفاق الحروب الصليبية قائماً على أفرادٍ قلائل : إمّا طالبِ معرفةٍ وعلم يتعلَّم من العربِ المسلمين ليَقْشَع الجهل عنْ نَفْسه وقومه ، كما فعل « بيكُنْ » وطبقتُه = وإمّا راهبٍ ذى حميَّةٍ ودفاعٍ عن دينه ، حينَ أحسَّ بالخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية ، فكُلُّ همِّه أن يُصلْح خَلَل

---

(١) « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » كما هو شائع ، اخترتُ أن أسمِّيها « جَمْهَرَة » ، كما سمّى أسلافنا كتبهم « جمهرة اللغة » و « جمهرة الأنساب » و « جمهرة الأمثال » ، وبينتُ ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ٢٧٣ ، ٢٧٤ . وجمع « جَمْهَرة » « جماهر » .

المسيحية ويمكّنَها من حُجَّةٍ مُقْنِعةٍ تحولُ بين الناسِ وبين الانبهار بالإسلام وثقافته وحضارته والتساقُط فيه ، مُتَّكِئاً على ما عند دار الإسلام من العلم ، كما فعل « تُوما الإكْوِينيّ » ، (انظر ما سلف فقرة : ١٤ ص : ٥٦ ، ٥٧) .

أمَّا فى أوّل نأنأتِه الثانية ، عند فجر اليقظَةِ الأوربيّة ، فكانت بَعْثاته فى دار الإسلام تعود من جَوْلتها إلى أوربّة لأداءِ عملين عظيمين هما : إمدادُ علماء اليقظةِ بمزيدٍ ممّا وقفوا عليه من كُنُوز العلم فى دار الإسلام ، يفسِّرون لهم رموزَها ، ويُترجمونَ لهم ما استطاعوا فهمَه ، ثم إطلاعِ رُهبان الكنيسة وملوكها على ما علموا ولاحظوا من أحوال المسلمين ، (انظر ما سلف الفقرة : ١٦ ، ص : ٦٨ ، ٦٩) .

= أمّا عند انبثاق اليَقَظة واستحكام أمرِها ، حين صارت ضوءًا شاملاً يَسْرى فى جماهيرَ غفيرةٍ مُتَنوِّعة الأهداف والأهواء والأغراض ، فقد هبَّت أفواجٌ منها زاحفةً زحفاً متتابعاً على دار الإسلام وغير دار الإسلام ، مُصْعِدةً فى طريقها إلى التفوُّق والغَلَبَة والانتشار ، بلا قِرْنٍ ، (أى نظيرٍ) ، يكافئُها فى اليقظة والتنبُّه والتصميم ، يَصُدُّها ويُكَفْكِفُ من غُلَوائها ، ويعوقُ من زَحْفها = وعندئذٍ أيضاً كان « الاستشراق » قد كَسَب هو أيضاً يقظةً فائقةً ، وبصيرةً نافذَةً ، وتنبُّهاً لامعاً ، وتكوّنت الطبقة الأولى من « المستشرقين » الجادِّين النابهين ، التى سوف تَرِثُها طبقةُ

أساطين « الاستشراق » ودَهَاقِينِهِ الكبار ، (« الدُّهْقانُ » وجمعه « دهاقين » : الرجل الحديد الماضى القويُّ على التصرُّف) ، فهؤلاءِ جميعاً الذين وقع عليهم العبءُ الأكبر فى تيسير الأمرِ للزحوفِ الأوربية المتتابعة المستمرة التى اقتحمت دار الإسلام فاستعمرتها ، وغيَّرت وجه الحياةِ فيها تغييراً بعيدَ الغَوْرِ ، لم يزلْ سارياً إلى يومنا هذا كما سترى .

* * *

١٨ — ينبغى أن يكون بيِّناً لكَ أنّ أوربة عند استواءِ يَقَظتها ، أدركت إدراكاً واضحاً أن الذى بلغتْهُ قد ضمنَ لها التفوُّق الحاسمَ ، وأنّها مُقْبلةٌ على زَحْفٍ شاملٍ يخترق قلبَ دار الإسلامِ ، لا بقعقعة السلاح ، بل بوسائل أُخَرَ أمضى من وقع السلاحِ ، أدرك ذلك ساستُها ورهبانُها وعلماؤها وعامَّةُ جماهيرها المثقفّة . وهذا الزحفُ الصامتُ المصمِّمُ الخَفِيُّ الوَطْءِ ، سوف يضُمُّ ألوفاً مُؤَلَّفةً من أشتات الناس ، ما بين تاجر وصانِع ومُغَامِرٍ ومدرّسٍ وسائحٍ ومبشّرٍ وجنديٍّ وسياسّيٍ وراهبٍ وطالب معرفةٍ وأفّاقٍ وصفَّاقٍ ومتكسّبٍ . والنيَّة أن تتكوّن من هؤلاءِ الأشتاتِ جالياتٌ كبيرةٌ تُقِيم فى دار الإسلامِ ، تعاشر المسلمين فتطولُ عشرتهُم أو تَقْصُر ، ولكل امرىءٍ منهم اتجاهٌ أو هَوًى أو أسلوبٌ أو فهمٌ . فأمْرٌ مخوفٌ أن يخالطُوا عالَماً له دينٌ وحضارةٌ باقيةٌ الآثار ، كان لهُ الغلبةُ والتفوُّق

والسيادةُ من قبلُ قروناً طِوالاً ، كما جرَّبوا وعلمُوا = أمرٌ مخوفٌ أن يخالطوه دون أن يكون لهذا العالم عند أكثرهم صورةٌ مستقِرَّةٌ فى أنفسهم ، تحميهم من التفرُّق والضياعِ فيه ، وتُحَصِّنُهم أيضاً من الانبهار بالإسلام وحضارته كما انبهرَ أسلافٌ لهم غَبَروا ، فصارَ حَتْماً أن يكونَ فى مُتناوَل هؤلاءِ صورةٌ للإسلام وحضارته ، مكتوبةٌ بدقّة ومهارةٍ ، ومُقْنِعةٌ أيضاً لكلِّ عقلٍ مُتَطلِّع ، يُصَوِّرها لهم خبيرٌ ثقةٌ مأمونٌ عندهم .

و « المستشرقون » المتبتِّلون ، بلا شكٍّ عندهم ، هم أهلُ الخبرةِ بكُلِّ ما فى دار الإسلامِ قديماً ، وما هو كائنٌ فيها حديثاً = من دَقيق العلومِ عند خاصّة المسلمين ، إلى خفِىِّ أحوال المسلمين من عاداتِهم ومَعَايشهم وطرائق أفكارهم وخصائص حياتهم ، إلى علمٍ وثيقٍ بشأن دُوَلهم وأقاليمهم وبُلْدانهم التى تُغَطِّى أكبر رُقْعةٍ من الأرضِ . وهُمْ قد جمعوا كُلَّ ذلك وعكفُوا عليه وتأمَّلُوه ودرسوه ونظَّمُوه ورتَّبوه بعنايةٍ فائقةٍ ، وبهمَّةٍ وجَلَدٍ وتنبُّهٍ ونَفَاذ بَصَرٍ . فكُلُّ دارسٍ منهم مأمُونٌ عند كُلِّ أوربِّىّ ، من أوّل طبقة الرُّهبان والسَّاسة إلى آخر رجلٍ من جماهير الناس = مأمونٌ على ما يقولُه ، مصدَّقٌ فيما يقولُه ، فى أُمورٍ لا سبيلَ لأَحدٍ منهم إلى مَعْرفتها ، لأنها تتعلَّقُ بأقوامٍ لِسانُهم غير لِسَانِهم ، ولا يقومُ بِها إلاَّ دارسٌ صابرٌ ذو معرفةٍ بهذا اللِّسان الغريبِ ، مُتَّصِفٌ بصفتين لابُدَّ منهما حتّى يكون مأموناً مُصَدَّقًا :

الصِّفة الأولى : أنّ فى قلبه كُلَّ الحميَّة التى أثارها الصراعُ بين المسيحية المحصورة فى الشمال ، وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق على مدى عشرة قرونٍ على الأقلّ = وأنّ فى صميم قلبه كُلَّ ما تُكِنُّه المسيحيَّة الشمالية من البغضاء النافذة فى غَوْرِ العِظام ، والتى أورثتها الحروب المتطاولة ، كما وصفتها لك آنفاً فى الفقرة الخامسةَ عشرة والسادسة عشرة ، (ص : ٦٠ – ٦٦) .

الصِّفة الثانية : أنَّ فى صميم قلبه كُلَّ ما تحملُه قلوبُ خاصَّةِ الأوربيِّين وعامَّتهم ، ومُلوكهم وسُوقَتِهم ، مِن الأحلامِ البهيجة والأشواق الملتهبة إلى حِيازة كُلّ ما فى دار الإسلام من كنوز العلم والثروةِ والرفاهية والحضارة . أحلامٌ وأشواق أورثَهم إياها الاحتكاكُ المستمرُّ قروناً بهذه الحضارة الزاهية الغنيَّة التى كانت يومئذٍ فى دار الإسلام .

وبهاتين الصِّفَتين يكون مؤهَّلا لحمل هُموم المسيحية الشمالية التى ظلَّت قروناً محصورة فى الشمال ، ودليلُ إخلاصه المُطْلَق لهذه الهموم ، هو تبتُّله الذى يقطَعُ ما بينه وبين زَهْرة الحياة الدُّنيا وزينتها من حوله ، حبيساً بين جُدْرانٍ تَضُمّ رُكاماً من أوراقٍ قديمةٍ مكتوبةٍ بلسانٍ غيرِ لسانِ قومه ، قد رَضِى لنفسه أن يبقَى اسمُه فى دنيا الناسِ مغموراً غير مشهورٍ (انظر ما سلف ص : ٦٨ ، ٦٩) .

وبديهيٌّ أن يكون « المستشرقون » ، كما عرفتَ صفتهم ، هُمْ أسبقَ النّاس إلى معرفة هذه الحاجةِ المِلحَّةِ التى تضمنُ للزَّحْف الأكبر على دار الإسلام أن يسيرَ على هُدًى لا يختَلُّ ولا يضِلُّ ، ويَعصِمُ أكبر قَدْرٍ ممكِنٍ من أشتات الزاحفين ، حين يدخُلُ دار الإسلام ليطُولَ مُقامُهم بها ، ويجرى بينهم وبين مَنْ يخالطونهم ما يجرى بين الناس من التفاوُض وتجاذُب الأحاديث = يَعْصِمُه أن يَنْبهر بما يَرَى أو يسمَع ، أو أن تضعفَ حَمِيَّته ، أو تَلينَ قَنَاتُه ، أو يتردَّدَ ويتلجلجَ . لابُدَّ إذنْ من أساسٍ يرتكزُ عليه تفكيرُه ، ومن صُورةٍ سابقة شاملةٍ ثابتةٍ يثقُ بِها ويطمئنُّ إليها ، ويثقُ أيضاً بصدقِها وأمانتها ، حتّى يتمكَّن من أن يرفُض أكثر ما يرى وما يسمع ، إذا هو خالفَ ما يعتقدُ أنّه الصورة الوثيقة المأمونة التّى سوّغَهُ إيَّاها دارسٌ عارفٌ بأحوالِ هؤلاء الناس . واستقلَّ « المستشرقون » بحَمْل هذا العِبْءِ الجديد الثالث ، (انظر ما سلف ص : ٧٧) ، فكتبوا لجماهيرهم آلافاً من المقالات ، ومئاتٍ من الكُتُب ، تَناولتْ كُلَّ شيءٍ يخُصُّ أممَ دار الإسلام فى مَاضيها وحاضِرها . كتبوا فى القُرآن ، وفى حديث رسول الله ﷺ وسيرته ، وفى تفسير القرآن ، وفى الفِقْه ، وفى تفاصيل شرائع الإسلام ، وفى تاريخ العرب والمسلمين ، وفى الأدب ، واللغة ، والشِّعْر ، وفى الفنون والآثار ، وفى علم البلدان ، (الجغرافية) ، وفى تراجم رجال الإسلام ، وفى الفرق الإسلامية ، وفى الفلسفة عند المسلمين ، وفى علم الكلام = فى كُلِّ

ما ذكرتُ وما لم أذكُرْ ، كتبوا وألَّفوا وصنَّفُوا ، لكن لهدفٍ واحدٍ لا غيرُ : هو تصويرُ الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مُقْنعةٍ للقارىء الأوربىّ ، وبأسلوبٍ يدلُّه على أنّ كاتبها قد خبرَ ودرس وعرفَ وبذلَ كُلّ جُهْد فى الاستقصاء ، وعلى منهج علمىّ مألوفٍ لكُلّ مثقفٍ أوربّى ، وأنه وصَل إلى هذ النتيجة التى وضعها بين يديه ، بعد خبرةٍ طويلة وعَرَقٍ وجُهْدٍ وإخلاص ، حتى لا يشُكَّ قارىءٌ فى صدق ما يقرؤه ، وأنّه هو اللبابُ المُصَفَّى من كُلّ كَدَرٍ ، والمبَرَّأُ من كُلّ زَيْفٍ ، وأنه الحقُّ المبينُ والصِّراطُ المستقيم .

● كان جوهرُ هذه الصُّورةِ ، المبثوثُ تحت المَباحثِ كلِّها ، هو أن هؤلاءِ العربَ المسلمين هم فى الأصل قومٌ بُدَاة جُهَّالٌ لا علمَ لهم كانَ ، جِيَاعٌ فى صحراءَ مجدبَةٍ ، جاءَهم رجُلٌ من أنْفُسِهم فادَّعى أنّه نبىٌّ مرسلٌ ، ولَفَّق لهم ديناً من اليهوديّة والنصرانيّة ، فصدَّقوه بجهلهم واتَّبعوه ، ولم يلبث هؤلاء الجياعُ أن عاثوا بدينهم هذا فى الأرضِ يفتحونها بسيوفهم ، حتى كان ما كان ، ودانَ لهم من غَوغاءِ الأمم مَنْ دان ، وقامت لهم فى الأرض بعد قليلٍ ثقافةٌ وحضارةٌ جُلُّها مسلوبٌ من ثقافات الأمم السالفة كالفُرسِ والهند واليونان وغيرهم ، حتّى لُغَتُهم كُلُّها مسلوبةٌ وعَالَةٌ على العِبْرية والسُّريانية والآراميّة والفارسيّة والحَبَشيّة . ثم كانَ من تصاريف

الأقدار أن يكون علماءُ هذه الأمّة العربية من غير أبناءِ العرب ، (المَوَالى) ، وأنّ هؤلاءِ هم الذين جعلُوا لهذه الحضارة الإسلامية كُلِّها معنىً . هذا هو جوهرُ الصورة التى بثَّها المستشرقون فى كُلِّ كُتُبهم عن دين الإسلامِ ، وعن عُلومِ أهلِ الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتِهم ، وأنّ هذه الحضارة إنّما هى إحدى حضاراتِ « القُرون الوسطى » المظلمة التى كان العالم يومئذٍ غارقاً فيها = يعنون عالمَهُم هم = يَجْرِى عليها حُكْمُ قُرونهم الوسطى ! بثُّوا تلك الصورة فى كُلّ كُتُبهم بمهارة وحِذْقٍ وخُبْثٍ مُعْرِقٍ ، وبأسلوبٍ يُقنِع القارىء الأوربىّ المثقَّف الآن كُلَّ الإقناع ، وتنحطُّ فى نَظَره حضارة الإسلام وثقافته انحطاطَ « القرون الوسطى » ، ويزداد بذلك زَهْواً بأنّ أسلافَهُ من اليونان والآريِّين كانوا هم رَكائز هذه الحضارة المزيَّفَةِ الملفَّقةِ ديناً ولُغَةً وعلماً وثقافةً وأدباً وشعراً ، ويزداد بذلك الأوروبىُّ ، أيَّا كانَ ، غطرسةً وتعالياً وجَبَريَّةً ، ولا يرَى فى الدُّنيا شيئاً لَهُ قيمةٌ ، إلَّا وهو مستمدٌّ من أسلافِه اليونان والآريين والهَمَج الهامج !

ومن خِلالِ الصراحَة العارية التى طرحتْ كُلَّ حجابٍ ، أو الصراحة المتحجِّبة بالبراءة وخلوص النيَّة وحبِّ العلم ، أو بالصراحة الحييّة التى أمالَها الخَفَرُ ، (شدّة الحياء) ، إلى التبرُّج بحبِّ الإنصافِ ، استطاع « الاستشراق » أن يجعل هذه الصورة حيَّةً متحركةً فى جميع كتبه

ومقالاته ودراساته ومباحثه على اختلافها ، حتى الدراسات التى تستعصى على قَبُول هذه الصورة واضحةً لم تخلُ من غَمْزٍ خَبِيءٍ ولَمْزٍ خفىٍّ يستدعى حُضُور هذه الصورةِ بطريقةٍ مَّا . وكذلك نجح « الاستشراق » فى تحقيق هدفه كلَّ النجاح ، واستطاعَ أنْ يُدْرِجَ الإسلامَ وشرائعه وثقافته وحضارته فى مُستَنقع « القرون الوسطى » الذى طَمَرته « النهضةُ الحديثة » ووَطِئَهُ « عصر الإحياء والتنوير » بأقدامِه وَطْأَةَ المُتَثاقل .. وبذلك عَصَم العقلَ الأوربىَّ المثقَّف من أن يزِلَّ زلَّةً ، فيرى فى دين الإسلام أو فى ثقافته وحضارته ، ما يوجبُ انبهارَه كما انبهر أسلافٌ له مِن قَبْلُ تساقطوا فى الإسلام وثقافته وحضارته طواعيةً ، ثم صاروا ، مع الأسف ، من بُنَاة مجده على مدى اثنى عشر قرناً على الأقلِّ . واعلم أنى على عَمْدٍ هُنَا أتناسى عمل « الاستشراقِ » فى السَّطْو على الكنوز المخبوءَة كانتْ فى علم دار الإسلام ، ثم ما بذلوه فى نقله سِرًّا إلى علمائهم فى زمنِ التَّأْناَة وما بعدها ، لِيَبْنُوا عليه حضارتهم العظيمة القائمة اليوم بيننا ، وكيف أغلقُوا الأبواب على ذِكْر ما سَطَوْا عليه بالضَّبَّة والمفتاح ، حتى لا يعلم خَبيئته أحدٌ ، حتى ولو كان أوربيًا قُحًّا = وأتناسَى على عَمْدٍ منِّى أيضاً حديث السفاهةِ والبذاءةِ التى جرت على ألسنة دَهَاقينهم من المطاعن فى القرآن العظيم ، وفى رسول الله ﷺ وصَحابته ، إمدَاداً لهيئات « التبشير » ، للقيام بعملها

النبيل فى دار الإسلام وفى توابعه التى كانت محجوبة عنهم ، ثم انفسح لها الطريق مع الزحف الأكبر .

* * *

• وبيِّنٌ لك الآنَ بلا خفاءٍ أنّ كتب « الاستشراق » ومقالاتِه ودراساتِه كُلَّها ، مكتوبة أصلاً للمثقَّف الأوربىّ وحدَه لا لغيره = وأنَّها كُتبتْ لهُ لهدفٍ مُعيَّنٍ ، فى زَمانٍ معيّنٍ ، وبأسلوبٍ معيَّنٍ ، لا يرادُ به الوصول إلى الحقيقة المجرَّدة ، بل الوصولُ الموَفَّقُ إلى حمايةِ عَقْل هذا الأوربىّ المثقَّفِ من أن يتحرَّكَ فى جهةٍ مخالفةٍ للجهة التى يستقبلها زحفُ المسيحية الشمالية على دار الإسلام فى الجنوب = وأن تكون لهُ نظرةٌ ثابتةٌ هو مقتنعٌ كلَّ الاقتناع بصحَّتها ، ينظر بها إلى صُورةٍ واضحةِ المعالم لهذا العالم العربىّ الإسلامى وثقافته وحضارته وأهله = وأن يكونَ قادراً أيضاً على خَوْضِ ما يخوضُ فيه من الحديث مع من سوف يلاقيهم أو يعاشرهُم من المسلمين ، وفى عقله وفى قلبه وفى لسانه وفى يقينه وعلى مدِّ يده ، معلوماتٌ وافرةٌ يثِقُ بها ويطمئن إليها ويُجادلُ عليها ، دون أن تضعفَ له حَمِيَّةٌ ، أو تلينَ لهُ قَناةٌ ، أو يتردَّد فى المنافحة عنها أو يتلَجْلج ، أيًّا كان الموضوع الذى تدفعه المُفَاوضةُ إلى الخوض فيه .

و « الاستشراق » لا يُذَمُّ لأنه فعَل كُلَّ ذلك ، لأنّه بلا شكٍّ قد

أدّى ما عليه لبنى جِلدته أحسنَ أداءٍ وأتمَّه ، ونصر أهل دينه وأخلصَ لهم كُلّ الإخلاصِ ، وكافحَ فى سبيلِ هَدَفه بكُلّ سلاحٍ أجادَ صَقْله وتقويمهُ = أمّا الذى هو حقيقٌ بالذمِّ والمَعَابةِ ، فالعربيّ أو المسلم العاقلُ الذى يظنُّ نفسه عاقلاً ، والبصيرُ منّا الذى يظنُّ نفسه بصيراً ، ثم لا يكاد عقلُه يدركُ شيئاً هو أبين بياناً من البدائه المسلَّمة ، ولا يكادُ بَصَرُهُ يَرى ما هو أظهرُ ظهوراً من الشمس الساطعةِ .

فما كتبه « الاستشراق » ، من حيثُ هى كُتُبٌ أو دراساتٌ مكتوبةٌ للمثقّف الأوربىّ خاصةً ، ولهدفٍ بعينه ، حقيقةٌ باحترام كُلّ أوربىّ مثقَّف = أو من كان بمنزلة الأوربىّ المثقَّف فى الغُرْبة عن العربيّة والإسلام = لأنها يَسَّرت له ما لم يكن ليتيسَّر البتَّةَ : أنْ يَعرفَ أشياءَ كثيرةً متنوِّعةً هو عن عالَمها غريبٌ كُلّ الغُرْبة ، وأن يَرَى عالَمَها فى صورةٍ واضحةٍ مصوَّرةٍ بمهارةٍ ، ومصنوعةٍ بأسلُوب مُقْنِع مقبولٍ لا يرفُضُه عَقْلُه ، بل لعله يرتضيه كُلّ الرضَى . ولأنّ هذا العالَم الذى يراهُ مصوَّراً عالمٌ غريبٌ عنه ، ولا سبيلَ لهُ إلى معرفة الحقيقة فيه ، لولا الجُهْد العظيمُ الذى بذلهُ دهاقينُ المستشرقين الكبارُ فى تصويره ، فهو غيرُ حريصٍ بعد ذلك على التحقُّقِ من صحَّة التفاصيل التى تكونت منها الصورة ، ولا هو قادرٌ على التشكُّك فى سلامَتها من الآفات ، ولا يخطُر بباله أن يسألَ

نفسه : أهي صادقةٌ أم كاذبةٌ ؟ أهي مطابقةٌ للحقيقة أم غير مطابقةٍ للحقيقة ؟

• أمّا من حيثُ هي كتُبٌ أو دراسَاتٌ علميّةٌ جديرةٌ باحترام مثقّفٍ غير أوربيّ ، أي من أبناءِ العربِ والمسلمين خاصةً ، أي أبناء لُغة العرب وأبناء دين الإسلام ، فهذا عندئذٍ موضعُ نَظَرٍ = لأن الأمرَ ، ولا خيارَ لي أو لك فيه ، يختلفُ اختلافاً بيِّناً حينئذ ، ويتطلّب النظرَ في أمرين : أمرِ الكاتبِ وأمرِ المكتوبِ معاً ، وهذا يردُّك لَا محالةَ إلى ما كتبتُه لك آنفًا في شأن « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، (ما سلف ص : ٢٩ - ٤٦) ، سواءً كان الكاتب عربياً أو غير عَرَبِيّ ، (أي مستشرقاً أوربيًّا) . ولذلك يحسنُ بكَ هنا أن تُعِيد قراءته بتأنٍّ وحذرٍ ، لأنه غير لائق أنْ أعيد ذكرهُ في هذا الموضع مفصَّلاً ، وإنما هي الإشارة إليه لا غيرُ . وآعلمْ أنّي سأبيِّنُ لك الأمر هنا في حالةٍ واحدةٍ ، هي حالة استحقاقِ الدراسة أن توصف بأنها « علميَّة » ، وهلْ هو أمرٌ ممكنٌ أنِ يكون ما كتبه « المستشرقون » دراسةً « علميَّة » بمعناها الصحيح ، الموجبِ للاحترام والتقدير . وكُنْ أبداً على ذُكرٍ بأنى ما قلته عن « المنهج » و « ما قبل المنهج » هو : « أصلٌ أصيلٌ في كُلِّ أمّةٍ ، وفي كُلِّ لسانٍ ، وفي كُلِّ ثقافة حازها البشرُ على اختلافِ ألسنتهم وألوانهم ومللهم ونِحَلِهم » (ص : ٣٢) ، فهو أمرٌ لا يختلف فيه

اثنان من البَشَر مهما تبايَنا لغةً وثقافةً وديناً ، ولا تقوم فى أمّةٍ ثقافة أو حضارةٌ إلاّ بالالتزام بهذا الأصل الأصيل فى ثقافتها أو حضارتها . (اقرأ بدقة ما كتبته آنفاً من ص : ٢٩ - ٤٦) .

* * *

١٩ - « ما قبل المنهج » ، كما علمتَ ، مكوّن من شطرين : « شطر جمع المادة » و « شطر التطبيق » ، فلننظُر الآن أين يقع « المستشرق » منهما ليكون الأمر واضحاً لك كُلَّ الوضوح ، وأنا محدِّثك عنهما بإيجازٍ شديدٍ جدًّا ، وفيما مضَى قبلُ بلاغٌ يضيءُ لك الطريق .

● فالشطر الأوَّلُ ، « شطر جمع المادة » كما قلتُ : « يتطلَّبُ جَمْعَهَا من مَظانِّها على وجهِ الاستيعابِ ، ثم تصنيفَ هذا المجموع » ، (ص : ٣٠) ، وهذا ممكنٌ للمستشرق إمكاناً مّا ، مع ما فيه من العَوائق الجليّة ، بَلْهَ العوائقَ الخفيَّة التى تحتاجُ إلى بَسْط وإيضاح = « ثم تمحيصُ مفرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزاء تراكيبه بدقّةٍ متناهيةٍ ، وبمهارةٍ وحِذْقٍ ، حتّى يتيسَّر للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ واضحاً جليًّا ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّعٍ » ، (ص : ٣٠) . وهذا مبنىٌّ على ما سبقَه ، فهو ممكنٌ للمستشرق بعضُه بصورة مّا ولهدَفٍ مّا ، ومستحيلٌ بعضُه أن يكون منْه عندهُ مثقَالُ

ذرةٍ بصورة أُخرَى ، لأنه يدخُل فى حديثٍ آخرَ سيأتى بعد قليلٍ ، وهو حديث « اللغة » و « الثقافة » و « الأهواء » .

● وأمّا الشطرُ الثانى ، « شطر التطبيق » ، فكما قلتُ لك : « فيقتضى ترتيب المادة ، بعد نَفْى زَيْفها وتمحيص جيّدها ، باستيعاب أيضاً لكلّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع » ، (ص : ٣٠) . وهذا ، بلا شكٍّ ، مترتّب على الشطر الأوّل كُلّه ، فما كان ممكناً فيه فهو ممكنٌ هنا ، وما كان غيرَ ممكنٍ فهو هنا أيضاً غيرُ ممكنٍ = « ثم على الدارس أن يتحرَّى لكلّ حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقُّ موضعها ، لأن أخفى إساءةٍ فى وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يشوّهَ عمودَ الصورة تشويهاً بالغَ القُبْح والشّناعة » ، (ص : ٣١) ، وهذا غيرُ ممكنٍ البتّةَ ، بل هو ممتنعٌ ، بل هو مستحيلٌ ، لأن عمَل « الاستشراق » كُلَّهُ مبنىٌّ على رسم صورةٍ محدَّدةٍ قائمةٍ فى نفسه ، منصوبةٍ لعينيه ، يرسمُها لهدفٍ معيّنٍ مقصودٍ لذاته ، ومن أجلِ إحداثِ هذه الصورة المُقْنعة للمثقّف الأوربى يُعَانى مشقة « جمع المادة » ، ويَكِدُّ كدًّا فى ممارسةِ « التطبيق » . وقد بيَّنت لك آنفاً « أهداف الاستشراق » ، (فى الفقرتين : ١٦ ، ١٧) ، وكشفْت لك حقيقة « الصورة » ، (فى الفقرة : ١٨ ، ص ٨٥ ، ٨٦) . فهذا العملُ وحدَه ، أو هذا القصدُ المتعمَّدُ وحدَه ، آفةٌ خبيثةٌ كافيةٌ وَحْدَها فى

إسقاط عمل « الاستشراق » كُلِّه إلى حضيضِ الفسادِ والإفسادِ فى « ما قَبْل المنهج » ، ومُفْضِيةٌ بعد ذلك إلى قَذْفِ عمله كُلِّه منبوذاً خارجَ حدود كُلِّ ما يمكنُ أن يُوصف بوجهٍ مَّا أنَّه « عملٌ علميٌّ » خالصٌ . ومُحَقَّرٌ لعقله مَنْ لا يُدْرِكُه مِنَّا ، فدَعْ عنك مَنْ يرتَضِيه ؟ ومُغَطًّى على بَصيره من لا يُبْصِرهُ ، فما ظَنُّك بمن يُنافحُ عنه ؟ فإنه كما قلت آنفاً : « أبينُ بياناً من البدائه المسلَّمة ، وأظهرُ ظُهوراً من الشمس الساطعة » ، (فقرة : ١٨ ، ص : ٨٩) .

* * *

• والنازلون فى مَيْدانِ « المنهج » ومَيْدانِ « ما قبل المنهج » من الكُتَّاب والعلماء ، فى كُلِّ لغةٍ ، وفى كُلِّ أُمَّةٍ ، وفى كُلِّ مِلَّةٍ ، وفى كُلِّ ثقافة ، لهم شروطٌ مُحكَمَةٌ لا يُمكِنُ إغفالُها البتّةَ ، فهى أركانٌ لا يقوم بناءٌ إلا عليها ، ولا يُمكنُ أن يسمَّى « كاتباً » أو « عالماً » أو « باحثاً » إلاّ من حاز أكبر قَدْرٍ من هذه الشروط ضَربةَ لازبٍ . ولم تُوجَد علي الأرضِ أمةٌ واحدةٌ سمحت لأحدٍ أن ينزلَ ميدان « ما قبل المنهج » وميدان « المنهج » فى أيِّ علم كان أوْ فَنٍّ ، إلاّ وهو مُطيقٌ للنزول فيه بحقِّه ، فإذا اجترأ مجترىءٌ عارٍ من الشروط وفعل ، نُفِىَ وطُرِدَ طَرْداً ، وأبَوْا منْ أن يعدُّوه فى الكُتَّاب كاتباً ، أو فى العلماء عالماً ، أو فى الباحثين باحثاً ، وأُلْقِى عملُه كلُّه فى

سَلّة المهملات ، كما يقولون . وجماعُ الشُّروط كُلِّها فى هذا الشأن مَنُوطٌ بثلاثةِ أمور : لُغَتِهِ التى نشأ فيها صغيراً ، وثقافةِ أمّته التى ينتمى إليها وآرتضَع لِبَانها يافِعاً ، وأهوائِهِ التى يَملكُ ضَبْطها أوْ لا يمِلكُه بعد أن استوَى رجلاً مُبيناً عن نفسه ، (انظر ما سلف ص : ٣٧) .

● أمّا « اللُّغَة » التى نشأ فيها صغيراً ، فشرطُ نُزُوله الميدانَ : أن يكون محيطاً بأسرارها الظاهرةِ والباطنةِ ، وبين تَمام الإحاطة بها وقصورِ هذه الإحاطة ، يرتفع قدْرُ ما يكتُبه ، أو ينزلُ إلى حَضِيض الإسقاط والإهمال ، مع مخاوفَ ذكرتها لك آنفاً ، (ما سلف ص : ٣٨) .

● وأمّا « الثقافةُ » ، وهى سرٌّ من الأسرار الملثّمة ، وحقائقها عميقةٌ بعيدة الغَوْر متشَعِّبةٌ ، وقِوامُها « الإيمانُ » بها عن طريق القلب والعقل = ثم « العملُ » بما تقتضيه حتّى تذوبَ فى بُنْيان الإنسان وتجرى منه مَجْرى الدّمِ لا يكاد يحسُّ به = ثم « الانتماءُ » إليها انتماءً يحفظُه ويحفظُها منَ التفكُّك والانهيار ، وبين تمام الإدراكِ لأسرار « الثقافة » وقُصور هذا الإدراك ، يرتفع أيضاً قَدْرُ ما يكتُبه ، أو ينزلُ إلى حضيض الإهمال ، (ما سلف ص : ٣٩) .

● وأمّا « الأهواءُ » فهى الداء المُبِيرُ ، والشرُّ المستطيرُ ، والفسادُ الأكبر ، إنْ هو ألمَّ بأىِّ عملٍ إلمامَةً خفيَّةَ الدبيبِ بَلْهَ الوَطْءَ المتثاقل ،

أحَالَهُ إلى عمل مُسْتَقْذَرٍ منبوذٍ كَرِيهٍ ، حتى ولو جاءكَ هذا العمل فى أحسن ثيابه وحُلِيِّه وعطوره وأتمِّها زينةً ، من دقَّةٍ واستيعابٍ وتمحيص ومَهارةٍ وحِذْق وذكاءٍ ، ثم يزدادُ بشاعةً إذا كان الكاتب مُلمًّا تمام الإلمام بأسرار « اللغة » وأسرار « الثقافة » ، لأنه حينئذ منافِقٌ خبيثُ النِّفاقِ ، وخائنٌ لئيمُ الخيانة ، (ما سلف ص : ٣٩ ، ٤٠) .

● وهذه شروط لا يختلفُ فى شأنها أحدٌ قطٌّ فى كلّ ثقافةٍ وفى كُلّ أُمّة . فإذا كانَ لا يُعَدُّ كاتباً أو باحثاً أو عالماً من أبناء اللغة وأبناءِ الثقافة أنفسِهم ، إلاّ من اجتمعت له هذه الشروط ، فإذا عَرِيَ منها لم يكن أهلاً للنزول فى ميدان « المنهج » ، فإذا فعلَ فهو متكلِّمٌ لا أكثرُ ، ثم لا يُلْتَفتُ إلى قوله ولا يُعْتَدُّ به عند أهل البحثِ والعلم والكتابة = إذا كان هذا هكذا ، فينبغى قبلَ كُلِّ شيءٍ ، أن نعرفَ من هو « المستشرق » الذى ينزلُ هذا الميدان ؟ وهل يمكنُ أن يكون داخلاً تحت هذه الشروط المحكمة المتَّفَق عليها فى كُلِّ لغة وثقافة ؟

* * *

● و « المستشرق » فتىً أعجميٌّ ، ناشيءٌ فى لسان أُمَّته وتعليم بلاده ، ومغروسٌ فى آدابها وثقافتها ، (ألمانى ، أو إنجليزى ، أو فرنسىّ) ، حتى آستوى رجُلاً فى العشرين من عُمُره أو الخامسة والعشرين ، فهو

قادرٌ أو مُفْتَرضٌ أنه قادرٌ تمامَ القُدْرة على التفكير والنظر ، ومؤهَّل أو مُفْترضٌ أيضاً أنَّه مؤهَّل أن ينزلَ فى ثقافته ميدانَ « المنهج » و « ما قبل المنهج » بقدمٍ ثابتةٍ . نعم ، هذا ممكنٌ أن يكون كذلك = ولكن هذا الفتى يتحوَّلِ فَجْأةً عن سلوك هذه الطريق ليبدأ فى تعلُّم لُغَةٍ أخرى ، (هى العربية هنا) ، مفارقةٍ كُلَّ المفارقة للِّسان الذى نشأ فيه صغيراً ، ولثقافته التى ارتضع لِبَانها يافعاً ، « يدخُل قِسْم « اللغات الشرقية » فى جامعة من جامعات الأعاجم ، فيبتدىء تعلُّم ألف باء تاء ثاء ، أو أبجد هوّز ، فى العربية ، ويتلقّى العربيةَ نحوَها وصَرْفَها وبلاغتَها وشِعْرَها وسائرَ آدابها وتواريخها ، عن أعجميّ مثله ، وبلسانٍ غير عربيٍ ، ثم يستمِعُ إلى مُحَاضِرٍ فى آدابِ العربِ أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسانٍ غير عربّي ، ويقضِى فى ذلك بضع سنواتٍ قلائل ، ثم يتخرَّج لنا « مستشرقاً » يُفْتِى فى اللسان العربيّ ، والتاريخ العربىّ ، والدين العربى » !! (١) عَجَبٌ ، وفوق العَجَب !

---

(١) ما بين القوسين منقولٌ من فصل كتبته فى كتابى « برنامج طبقات فحول الشعراء » (ص : ١١٥ - ١٢٧) ، وفيه تفصيلٌ وبيانٌ وأدلَّةٌ على فساد عمل « الاستشراق » ، وعلى التهويل فى شأن علم « المستشرقين » بالعربية ، فاقرأه هناك .

كَيْفَ يجوزُ فى عَقْل عاقلٍ أن تكون بضعُ سنواتٍ قلائلَ كافيةً لطالب غريبٍ عن « اللُّغة » ، وهذه حالُه ، أن يُصْبح محيطاً بأسرار اللغة وأساليبها الظاهرةِ والباطنةِ ، وبعجائب تصاريفها التى تجمّعتْ وتداخلتْ على مرِّ القرون البعيدة فى آدابها ، (انظر ما سلف ص : ٣٨) = وأن يُصْبح بين عَشيّةٍ وضُحَاها مؤهَّلاً للنزول فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ؟ كيفَ ؟ مع أنَّ هذا الشرط صعبٌ عسيرٌ على الكثرة الكاثرة من أبناءِ هذه اللغة أنفُسهم ، ولا يبلُغ هذا المبلغَ إلا القليلُ منهم ؟ كيف يجوز هذا فى عقل عاقلٍ ؟ هذا ، مع أنه أيضاً تعلَّمها تلقّياً من أعجميّ مثله ، ولم يخالط أهلَها مخالطةً طويلةً متمادِيةً تُتيح له التلقِّىَ عنهم تلَقِّياً يبصِّرُهُ ببعض هذه الأسرارِ . غَايةُ ما يمكنُ أنْ يحوزَهُ « مستشرق » فى عشرين أو ثلاثين سنة ، وهو مقيمٌ بين أهل لسانه الذى يَقْرَعُ سمعَه بالليل والنهار : أن يكون عارفاً معرفةً مَّا بهذه « اللغة » ، وأحسنُ أحواله عندئذٍ أن يكون فى منزلة طالبٍ عربيٍّ فى الرابعة عشرة من عمره ، بل هو أقلّ منه على الأرجح ، أىْ هو فى طبقة العوامِّ الذين لا يَعْتدُّ بأقوالهم أحدٌ فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » . أليس كذلك ؟ هذا على أن « اللغة نفسهَا هى وِعاءُ « الثقافة » ، فهما متداخلان ، فمحالٌ أن يكونَ محيطاً أيضاً بثقافتها إحاطةً تؤهِّلُه للتمكُّن من « اللغة » ، فمن أين يكون « المستشرق » مؤهَّلاً لنزول هذا الميدان ؟

● وإذا كان أمر « اللغة » شديداً لا يسمحُ بدخول « المستشرق » تحت هذا الشرط اللازم للقِلَّة التى تنزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فإن شرط « الثقافة » أشدُّ وأعتى ، لأنَّ « الثقافةَ » ، كما قلتُ آنفاً : « سِرٌّ من الأسرارِ الملثَّمَة فى كُلِّ أمّة من الأمم وفى كُلّ جيلٍ من البشر ، وهى فى أصلها الراسخ البعيد الغَوْرِ ، معارفُ كثيرةٌ لا تُحْصَى ، متنوِّعةٌ أبلغَ التنوُّع لا يكاد يُحاط بها ، مطلوبةٌ فى كُلّ مجتمع إنسانىٍّ ، للإيمان بها أوَّلاً من طريق العقلِ والقلبِ = ثم للعمل بها حتى تذوبَ فى بُنْيان الإنسان وتجرى منه مَجْرى الدم لا يكادُ يحسُّ به = ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه انتماءً يحفظُهُ ويحفظُها من التفكُّك والانهيار » ، (ص : ٣٩) وهذه القيود الثلاثة ، « الإيمان » و « العمل » و « الانتماء » ، هى أعمدةُ « الثَّقافة » وأركانُها التى لا يكون لها وجودٌ ظاهرٌ محقَّقٌ إلاَّ بها ، وإلاَّ انتقض بُنيان « الثقافة » ، وصارت مجرَّدَ معلوماتٍ ومعارفَ وأقوالٍ مطروحةٍ فى الطريق ، متفككةٍ لا يجمع بينها جامعٌ ، ولا يقوم لها تماسُكٌ ولا ترابطٌ ولا تشابكٌ .

● وبديهىٌّ ، بل هو فَوْقَ البديهىّ ، أنّ شرط « الثقافة » بقيوده الثلاثة ، ممتنعٌ على « المستشرق » كُلَّ الامتناع ، بل هو أدخلُ فى باب الاستحالة من اجتماع الماءِ والنار فى إناءٍ واحدٍ ، كما يقول أبو الحسن التِّهامىُّ الشاعرُ :

وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِباعِهَا مُتَطَلِّبٌ فى الماءِ جُذْوَةَ نَارِ

وذلك لأن « الثقافة » و « اللُّغَة » متداخلتان تداخُلاً لا انفكاكَ له ، ويترافَدانِ ويتلاقَحانِ بأسلوبٍ خفيٍّ غامضٍ كثير المداخل والمخارِج والمسارب ، ويمتزجان امتزاجاً واحداً غير قابلٍ للفَصْلِ ، فى كُلِّ جِيل من البشر وفى كُلِّ أمّةٍ من الأمم . ويبدأ هذا التداخُل والترافُد والتلاقُح والتمازُج منذُ ساعة يولدُ الوليد صارخاً يتلمّس ثَدْى أمّه تلمُّساً ، ويسمعُ رَجْع صوتِها وهى تُهَدْهِدُه وتُنَاغِيه ، ثم يظلُّ يرتضعُ لِبَان « اللغة » الأوّل ، ولِبانَ « الثقافة » الأوّل ، شيئاً فشيئاً ، عن أمّه وأبيه حتى يَعْقِل ، فإذا عَقَل تولّاهُ معهُما المعلّمونَ والمُؤَدِّبون حتى يستحصِدَ ، (أى يشتدَّ عودُه) ، فإذا استحصدَ وصارَ مُطيقاً إطاقةً مَّا للبصر بمواضع الصواب والخطأ ، قادراً قدرةً مَّا على فَحْص الأدلّة واستنباطِها فناظر وباحثَ وجادَلَ ، فعندئذٍ يكون قد وضعَ قَدَمَه على أوّلِ الطريقِ = لا طريقِ « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فهذا بعيدٌ جدًّا كما رأيتَ = بل على الطريق المُفْضى إلى أن تكون له « ثقافة » يؤمن بها عن طريق العقل والقلب = ويعمل بها حتى تذوبَ فى بنيانِه وتجرى منه مَجْرى الدم لا يحسُّ به = وينتمى إليها بعقلها وقلبه وخياله انتماءً يحفظُه ويحفظُها من التفكُّك والانهيار ، كما أسلفتُ .

وهذا ، كما تَرَى ، شرطٌ لازمٌ للبدءِ فى الإحاطة بأسرار « اللغة » ، ثم « اللغةُ » ، بعد ذلك ، هى التى تمهِّدُ له الطريق إلى الإحاطة بأسرار « الثقافة » ، لأنّ أمر « الإحاطة » عندئذٍ منوطٌ كُلُّه بالقدرةِ على تمحيص مفردات « اللغة » تمحيصاً دقيقاً ، وتحليل تراكيبها وأجزاءِ تراكيبها بدقّة متناهية ، وبمهارة وحِذْق وحَذَرٍ ، حتى يَرَى ما هو زَيْفٌ جليًّا واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ولا هوًى ولا تسرُّع ، (انظر ص : ٣٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤) = ثم منوطٌ أيضاً بالقدرة الفائقة على النظر فى « الثقافة » وعلى ترتيبِ مادَّتها بعد نَفْى زَيْفها وتمحيص جيِّدها ، باستيعابٍ لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع ، متحرِّياً وَضْعَ كُلِّ حقيقة من الحقائق فى حقِّ موضعها ، لأنّ أخفى إساءةٍ فى وَضْع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يُشوِّه عَمُود الصورة تشويهاً بالغ القُبْح والشَّناعة ، (انظر ص : ٣٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤) .

* * *

فقَبْلَ كُلِّ شىء ، أنَّى للمستشرق أن يحوزَ ما لايحوزُه إلاّ من وُلد فى بُحْبوحة اللغة وثقافتها منذُ كان فى المهد صَبِيًّا ، ثم نُشِّىء فيها وارتضَع وأُدِّب حتى عَقَل واستحصد ؟ غيرُ ممكنٍ . وهَبْهُ ممكناً أن يأتىَ « المستشرق » علىَ الكِبَر فيعاشر أصحاب هذه اللغة وهذه الثقافة

ويخالطَهُم دهراً طويلاً ، وهبهُ ممكناً أيضاً أن ينسىَ كل ما نَشأ هو فيه صغيراً وأُدِّب ، أفَممكنٌ هُو أن يحوزَ ذلك كُلَّه ، وهو مقيمٌ فى بلاده بين أهله وعشيرته ، بأن يتعلم على الكِبَر من معلّم يعلّمه لغةً وثقافةً هما معاً أجنبيَّان عنه وعن معلّمه جميعاً ؟ غيرُ ممكنٍ . أقْصَى ما يبلغُه هذا « المستشرق » بعد عشراتِ السنين من الدَّأب والجهد ، وبعد أن تَشيبَ قُرونُهُ ، (والقرون ضفائر شعر الرأس) ، أن يكُون شادياً لا أكثر ، (و « الشادى » ، الذى تعلَّم شيئاً من العلم والأدب ، أى أخذَ طرَفاً منه) ، أى أنه إنَّما تعلَّم لغةً أجنبيّةً عنه وبَسْ . [1] هذا صَرِيحُ العقل ، إذنْ فخبِّرنى : أهو ممكنٌ أن يكونَ مُجرَّدُ تعلُّم لُغَةٍ أنت فيها شادٍ ، كفيلاً بأن يجعلك كاتباً أو باحثاً فى أسرار هذه اللغة وفى ثقافتها ، مهما كانت منزلتُك أنت فى لُغتك وثقافتك ؟ أمُمكن هو ؟ مجرَّدُ خُطور إمكانِ هذا فى وَهْمك ، مُخْرِجٌ لك من حدِّ العقل . فأعجبُ العجبِ ، إذن ، أن يَعُدَّ أحدٌ شيئاً مما كتبه « المستشرقون » فى لغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا ، داخِلاً فى حدِّ الممكِن ، وأنْ يراهُ مُتضمِّناً لرأى حقيقٍ بالاحترام والتقدير ، فضلاً عن أن يكـون « عمـلاً علميًّـا » أو « بحثاً

---

(١) « بَسْ » بمعنى « حَسْبُ » و « فقط » ، مستعملة فى العامية ، ولكنَّها قديمةٌ جدًّا ، ويقالُ إنّ أصلها فارسىٌّ .

منهجيًّا » نسترشدُ به نحنُ فى شؤون لُغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا ، كما هو السائد اليوم فى حياتنا هذه الأدبيّةِ الفاسدةِ . أليس هذا شيئاً لا يُطَاق سَمَاعُه ولا تصوُّرهُ ؟ ومع ذلك فهو كائنٌ معمولٌ به بلا غَضَاضة ، أليس هذا غريباً ! أليس غريباً جدًّا أن لا يكون لمثلِ هذا شبيهٌ البَتَّةَ فى أى لغةٍ وأىّ ثقافة كانت فى الأرضِ ، أو هى كائنةٌ اليوم ؟ وقلت يوماً : « أرأيتَ قطُّ رجُلاً من غير الإنجليز أو الألمان مَثلاً ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، كان مسموعَ الكلمة فى آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لُغتها ، وفى تاريخ الأمّة الإنجليزية ، وفى حياة المجتمع الإنجليزى ، يدينُ له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم » ؟ [1] أليس غريباً أن يكون غيرُ الممكنِ ممكناً فى ثقافتنا نحنُ وحدَها ، دون سائر ثقافات البشر قديمِها وحديثها ؟ غريبٌ عجيبٌ لا محالةَ . .

* * *

• وأشياءُ قليلةٌ ، ولكنّها عظيمة الخَطَر ، أحبُّ أنْ أنبّهك إليها ، ونحنُ فى حديث « الثقافة » حتّى لا تختلط عليك الأمور . يوجبُ ذلك

---

(١) انظر كتابى « برنامج طبقات فحول الشعراء » ص : ١١٨ .

علىَّ علمى بفساد حياتنا الأدبية الحديثةِ حَاضِرِها وغابِرِها ، ولأنها تسيرُ بنا اليومَ فى طريق الغُموض ، لا فى طريق الوضوح . وقد استشرى خَطَرُ هذه السِّيرة بما شاع فى هذه الحياة من الثرثرة والادِّعاءِ والتحكُّم والعَجْرَفِيَّة وقِلَّة المبالاةِ والزَّهْوِ الفارغ ، فأدَّى بنا ذلك كلُّه إلى أن نألَفَ استعمالَ ألفاظٍ مُوهِمةٍ غامضة الدلالة ، فَضْفاضة المعانى ، بِجُرْأة وبلا أناةٍ وبلا ضبطٍ وبلا تعمُّقٍ . فالأمر يحتاجُ منِّى ومنكَ إلى وقفةٍ متأنِّيَةٍ ، ومُراجعةٍ ضابطةٍ للفظ « الثقافة » ، لأنَّ أمرها أجلُّ وأخطَر ممَّا توهمك به النَّظْرة الأُولى . بيدَ أنِّى لا أستطيع هنا الإفاضةَ فى بيانها ، وما هو إلاَّ الإشارة الخاطفة والتحديدُ لا غيرُ = وأيضاً لأنَّ لفظ « الثقافة » لفظٌ مستحدثٌ فى زماننا هذا ، تَفَشَّى استعمالُه على الألسنة بلا ضابطٍ وبلا دِقَّة وبلا مبالاةٍ .

* * *

- « الثقافةُ » فى جوهرها لفظٌ جامعٌ يُقْصَدُ بها الدلالةُ على شيئين أحدهُما مَبْنىٌّ على الآخر ، أى هما طَوْران متكاملان :

الطَّور الأوَّل : أُصولٌ ثابتة مكتسبةٌ تنغرسُ فى نفس « الإنسان » منذ مولده ونشأته الأولى حتى يُشارف حدَّ الإدراك البيِّن ، جِماعُها كُلُّ ما يتلقَّاهُ عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلِّميه ومؤدِّبيه حتى يصبحَ قادراً على أن يستقِلَّ بنفسه وبعقله ، وتفاصيل ما يتلقَّاه الوليد حتى يترعرعَ

أو يُرَاهق ، تَفُوتُ كلَّ حَصْرٍ بل تعجزُهُ . وهذه الأصولُ ضرورةٌ لأَزمةٌ لكل حَيّ ناشيءٍ فى مجتمعٍ مَّا ، لكى تكون له « لغةٌ » يُبِينُ بها عن نفسه ، و « معرفةٌ » تُتيحُ له قِسْطاً من التفكير يُعينه على معاشرةِ من نشأ بينهم من أهله وعشيرته . وهذا على شدّة وضوحه عند النَّظرة الأُولى لأنّك أَلِفتَهُ ، لا لأنّك فكرّت فيه وعمّقت التفكير ، هو فى حقيقته سِرٌّ مُلَثَّمٌ يحيِّر العُقولَ إدراكُ دَفِينه ، لأنه مرتبطٌ أشدّ الارتباط ، بل مُتغلغِلٌ فى أعماق سِرَّين عظيمين غامضين هما : سِرُّ « النُّطْقِ » وسرُّ « العقل » اللَّذان تَميَّز بهما « الإنسانُ » من سائر ما حَوْلَهُ من الخَلْق كُلِّه ، وتحيَّرت عقول البشر فى كيف جاءَا ؟ وكيف يعملان ؟ لأنّ « الإنسان » لم يَشْهد خَلْق نفسِه حتّى يستطيع أن يستدلَّ بما شَهِد ، لكى يصلَ إلى خَبِيءِ هذين السرَّين الملثَّمين المُستَغْلقين البعيدين ، وإنْ توهَّم أحياناً بالإِلْفِ أَنهما قريبان واضحانِ .

ولأنّ « الإنسانَ » منذ مولِده قد استُودِع فِطْرةً باطنةً بعيدةَ الغَور فى أعماقه ، تُوزِعُه ، (أى تُلْهِمُه وتحرّكه) ، أن يتوجّه إلى عبادةِ ربٍّ يُدرِكُ إدراكاً مبهماً أنّه خالقُهُ وحافظُهُ ومُعِينُه ، فهو لذلك سريعُ الاستجابة لكلِّ ما يُلَبِّى حاجةَ هذه الفِطرةِ الخفيَّة الكامنة فى أغواره . وكُلُّ ما يلبِّى هذه الحاجة ، هو الذى هدَى الله عبادَه أن يسمُّوه « الدِّين » ، ولا سبيلَ البتّةَ

إلى أن يكونَ شيءٌ من ذلك واضحاً فى عقل الإنسانِ إلاّ عن طريق « اللُّغة » لا غيرُ ، لأن « العقل » لا يستطيع أن يعملَ شيئاً ، فيما نعلَمُ ، إلا عن طريق « اللغة » . فالدِّين واللُّغة ، منذ النشأةِ الأُولى ، متداخلانِ تداخُلاً غير قابل للفَصْلِ ، [1] ومن أغفَل هذه الحقيقة ضَلَّ الطريقَ وأوغل فى طريق الأوهامِ . هذا شأن كُلِّ البشر على اختلاف مِلَلهم وألوانهم ، لا تكاد تجدُ أُمَّةً من خلق الله ليس لها « دينٌ » بمعناهُ العامِّ ، كتابيًّا كانَ ، أو وثنيًّا ، أو بِدْعاً ، (« البِدْعُ » ، الدِّينُ ليسَ له كتابٌ أو وَثَنٌ معبود) .

ولذلك ، فكلُّ ما يتلقَّاهُ الوليدُ الناشىء فى مجتمعٍ مّا ، من طريق أبويه وأهله وعشيرته ومعلّميه ومؤدِّبيه ، من « لغةٍ » و « معرفةٍ » = يمتزجُ امتزاجاً واحدًا فى إناءٍ واحدٍ ، رَكيزتُه أو نَوَاتُه وخَميرتُه دِينُ أبويه ولُغتُهما ، وأبلغُهما أثراً هو « الدين » . فالوليد فى نَشْأته يَكونُ كُلُّ ما هو

---

(١) فى حياتنا الأدبية الفاسدة ، تروجُ دعوة خبيثةٌ جاهلةٌ لفصل « اللُّغة » عن « الدِّين » ، وهذا شيءٌ لا يتيسّر إلا بمفارقة دينٍ ، والدخول فى دِينٍ آخر يصنعونه لأنفسهم . ولبيان معنى « الدين » ، أرجو أن تقرأ أولاً ما كتبته فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ٥١٣ – ٥٥٢ ، فهو مهمٌّ هنا جدًّا ، وأن « الدين » عندنا يشتمل على الدلالة على الأُصول الصحيحة المحكمة التى يسترشد بها العقل فى التفكير والنظر والاستدلال .

« لغةٌ » أو « معرفةٌ » أو « دِين » متقبلًا فى نفسه تقبُّل « الدِّين » ، أى يتلقَّاهُ بالطاعةِ والتسليم والاعتقادِ الجازمِ بصحّته وسلامته ، وهذابَيِّنٌ جدًّا إذا أنت دقَّقتَ النظر فى الأسلوب الذى يتلَقّى به أطفالُك عَنْك ما يسمعونه منك ، أو من المعلِّم فى المراحل الأُولى من التعليم . ويظلُّ حالُ الناشىء يتدرَّج على ذلك ، لا يكادُ يَتَفَصَّى شىءٌ من مَعارفه من شىءٍ ، (« يتفصَّى » : أى يتخلَّص من هذا المَضِيق) حتَّى يقاربَ حدَّ الإدراك والاستبانةِ ، ولكنه لَا يكادُ يبلغُ هذا الحدَّ حتى تكون لُغتُه ومَعارفُه جميعاً قد غُمِسَتْ فى « الدين » وصُبِغتْ به . وعلى قدْر شمولِ « الدين » لشؤون حياة الإنسان ، وعلى قدر ما يحصِّل منه الناشىء ، يكون أثرهُ بالغ العمق فى لغته التى يفكِّرُ بها ، وفى معارفِه التى ينبنى عليها كُلُّ ما يوجبُه عملُ العقل من التفكير والنظر والاستدلال . فهذه هى الأُصول الثابتة المكتسبةُ فى زمن النشأةِ على وجه الاختصار .

* * *

الطَّورُ الثانى : فروعٌ مُنْبثقةٌ عن هذه الأُصول المكتسبة بالنشأةِ . وهى تنبثق حين يَخرج الناشىءُ من إسارِ التسخير إلى طَلاقة التفكير . وإنما سمَّيتُ « الطور الأوّل » : « إسارَ التسخير » ، لأنه طورٌ لا آنفكاكَ لأحدٍ من البشر منه منذُ نشأته فى مجتمعه . فإذا بلغَ مبلغَ الرجالِ استوَتْ

مداركُه ، وبدأت معارفُه يتفصَّى بعضُها من بعضٍ ، أو يتداخل بعضها فى بعض ، ويبدأ العقلُ عملَهُ المُسْتَتِبُّ فى الاستقلال بنفسه ، ويستبدُّ بتقليب النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجةِ التعبير عن الرأيِ الذى هو نتاجُ مُزاولةِ العقل لعمله ، فعندئذ تتكوَّنُ النواةُ الجديدة لما يمكن أن يسمَّى « ثقافة » . وبيِّنٌ أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو « اللغة » و « المعارف » الأُوَل التى كانتْ فى طورها الأوَّل مصبوغة بِصِبْغَة « الدين » لا محالة ، حتى لو استعملها فى الخروج على « الدين » الموروث ومناقشته رَفْضاً لهُ أو لبعضٍ تفاصيله . هذه حالُ النَّشأِ الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقلّ المفضِي إلى حَيِّز « الثقافة » .

● و « ثقافة » كل أمّةٍ وكل « لُغَة » هى حصيلةُ أبنائها المثقَّفين بقدْرٍ مشتركٍ من أصول وفروع ، كُلّها مغموسٌ فى « الدين » المتلقَّى عند النشأةِ . فهو لذلك صاحبُ السلطانِ المُطْلَق الخَفِىِّ على اللُّغَة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً ، سلطانٌ لا ينكره إلاّ من لا يُبالى بالتفكُّر فى المنابع الأُوَل التى تجعل الإنسانَ ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه ، ومستبيناً عن غيرِه . فثقافة كُلِّ أمّةٍ مِرْآةٌ جامعةٌ فى حيِّزها المحدود كُلَّ ما تشعَّثَ وتشتَّت وتباعَدَ من ثقافة كُلِّ فردٍ من أبنائها على اختلاف مَقاديرهم ومَشاربهم ومَذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم فى الحياةِ . وجوهَرُ هذه المرآة هو

« اللغة » ، و « اللغة » و « الدين » ، كما أسلفت ، متداخلان تداخُلاً غيرَ قابلٍ للفَصْلِ البتّةَ .

● فباطِلٌ كلَّ البطلانِ أن يكون فى هذه الدنيا على ما هى عليه ، « ثقافَةٌ » يمكن أن تكون « ثقافةٌ عالمية » ، أى ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعاً ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومِلَلِهم ونِحلهم وأجناسهم وأوطانهم . فهذا تدليسٌ كبيرٌ ، وإنّما يُراد بشُيوع هذه المَقُولة بين الناسِ والأمم ، هدفٌ آخرُ يتعلّق بفرضِ سيطرة أمّةٍ غالبة على أممٍ مغلوبَة ، لتبقَى تبعاً لهَا . فالثقافات متعدِّدة بتعدُّد المِلَل ، ومتميِّزة بتميُّز المِلَل ، ولكُلّ ثقافة أسلوبٌ فى التفكير والنظر والاستدلال مُنْتزعٌ من « الدين » الذى تدينُ به لا محالةَ . فالثقافَات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش ، ولكن لا تتداخلُ تداخُلاً يُفْضِى إلى الامتزاج البتّةَ ، ولا يأخُذُ بعضُها عن بعضٍ شيئاً ، إلاّ بعد عَرْضه على أسلوبها فى التفكير والنظر والاستدلال ، فإن استجاب للأُسلوب أَخذَته وعدّلته وخلّصَته من الشوائب ، وإن آستعصَى نَبَذَتْهُ واطَّرَحَتْهُ . وهذا بابٌ واسع جدًّا ليس هذا مكان بيانه ، ولكنّى لا أفارقُه حتّى أنبِّهك لشيءٍ مهمّ جدًّا ، هو أن تفصل فَصْلاً حاسماً بين ما يسمَّى « ثقافة » وبين ما يسمى اليومَ « علمًا » ، (أعنى العُلُوم البَحْتَة) ، لأنّ لكُلٍّ منهما طبيعةً مُباينةً للآخر ، فالثقافة مقصُورةٌ على أمّةٍ

واحدةٍ تدينُ بدينٍ واحدٍ ، والعِلْم مُشاعٌ بين خَلْق الله جميعاً ، يشْتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت الملل والعقائد .

* * *

● فإذا عرفتَ هذا واستبصرت خَبِيئَه ، وأنعمتَ النظر فيه ، فعندئذٍ يُفضى بك النَّظَر إلى أمر « المستشرق » . فهو حين ينظُر فى « ثقَافة » أمّةٍ أخرى غير أمّته ، إنّما ينظر فيها لأحدِ أمرين : إمّا أن ينظر فيها لِيَكْسِب منه شيئاً لأمّتهِ وثقافته ، وإمّا أن ينظُر فيها ليناظِرَ ويناقش . وكلا الأمرين حقٌّ لا ينازِعُه فيه منازعٌ . وفى كلا الأمرين هو واقعٌ فى مأزِقٍ ضيّق : مأزِق « اللغة » ومأزِق « الثقافة » . لا يستطيعُ أن يأخذ إلاّ على قَدْر ما فهم من « لغةٍ » غريبة أصْلاً عن لُغَتِه ، ولا يستطيعُ أن يناقش إلاّ على قَدْر ما يتصوَّرُ أنه استبانهُ وأدركه من « ثقَافة » غريبة عن ثقافته . ولكن ليس هذا شأنه وحدهُ ، بل هو شأنى وشأنك أيضاً فى ثقافة « المستشرق » وأمته التى ينتمى إليها، وعلى نفسِ القاعدة التى ذكرتها لك قبل أسطرٍ .

● ولكن « المستشرق » ، وإن يكن قد فَعل الأمرين جميعاً خدمةً لأمته ، كما مضى ذِكْرُ ذلك فى ثنايَا كلامى ، فإنه قد جاء فدخل مَدْخلاً آخر من غير هذين البابين ، ودخوله من هذا الباب الثالث هو موضع

النِّزاع بيننا وبينَه ، دخَل لا مستفيداً ولا مناقشاً ، بل دخَل باحثاً ودارساً عليه طَيْلَسَان العلم ، (أى الرِّداء المميِّز لأساتذة الجامعات) فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، وهو ميدانٌ له شروطٌ لازمةٌ لا تختلُّ . دخَل فى « لُغةٍ » هو فيها هجِينٌ كُلَّ الهُجْنَة ، (« الهجين » الذى فى نسبه عيب قادحٌ) ، وفى « ثقافة » هو غريبٌ عنها كُلَّ الغُرْبة . ودخوله هذا عمل مُسْتَشْنَعٌ فى ذاته ، لأنه اجتراءٌ على دخول هذا الميدان بغير حقِّه ، ولا يُسْمَح بمثله فى ثقافة أُمَّته هو نفسه ، لأنه لا يملكُ شيئاً ذا بالٍ من مُسَوِّغاته ، ولا تسمحُ به طبيعةُ ما يمكنُ أن يسمَّى « بحثاً » أو « دراسة » ، كما بيَّنت ذلك آنفاً (ص : ٩٥ - ١٠٢) . أمّا « اللغة » فغيرُ ممكن أن يكون فيها إلا طالباً شادياً يعرفها معرفة مّا ، لا تسمح بدخوله تحت شرطها ، كما بيَّنْتُ آنفاً . (ما سلف : ٩٥ - ١٠٢) = وأمّا « الثقافة » ، وشرطها أشدُّ وأقسَى ، (انظر ص : ٣٩ ، ٩٨) فيحولُ بينَه وبينها أهْوَالٌ لا يجتازُها إلاّ من عرفَ « اللغة » معرفةَ أستاذٍ متمكّن ناشيء فى هذه « الثّقافة » وفى لُغتها . وفوق ذلك كلِّه ، « المستشرِق » ناشيءٌ فى لغةٍ وفى ثقافةٍ أخرى قد رسخَتْ فى نفسه وعقله ، وهى بطبيعتها ، كما بيَّنتُ آنفاً ، مصبوغة صِبْغَةً شديدة فى اليهودية والمسيحية ، وهما مِلَّتان تُباينُهما مِلَّةُ الإسلام مُباينةً تبلُغ حدَّ الرَّفْضِ والمناقضة . وثقافتُه هذه تُنازِعُه حيث ذهبَ فى البحث والدرس ، فممكنٌ أن يناقشَ « ثقافة » الإسلام ، ممكنٌ ،

لأن هذا حقُّه ،ولكنه مستحيلٌ كُلّ الاستحالة أن يكون فى ثقافتنا نحنُ « باحثاً » أو « دارساً » يبدِي رأياً يستحقُّ النظر والاحترامَ ، فى قرآنها وحديثها وتفسيرها وفى تفسير شرائعها ، وفى تاريخها وفى آدابها ولغتها وشعرها إلى آخر ما ذكرته آنفاً ، (ص : ٨٤) ، مستحيلٌ ، لأنه ممتنِعٌ عليه امتناعاً لا يملك الفرارَ منه .

بيد أن دوافع « المستشرق » إلى هذا الدخول الجرىء المُستَبْشَع وركوب هذا المَرْكب الوَعْر ، كانت ضرورةً تحملُه على أن يخدم أبناء جلدته وعشيرته وأهلِ مِلّتِه ، بما أوجبَه الصراعُ المحتَدِمُ قروناً بين الإسلام والمسيحية المحصورة فى الشمال ، فانبعثَ يكتُب ما يكتُب حاملاً هُمومِ المسيحية الشمالية فى أعماق قلبه ، (انظر ما سلف ص : ٨٣) ، لأسبابٍ فصَّلتها آنفاً ، و « ليصوِّر الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورةٍ مقنعة للقارىء الأوربىّ (المسيحى) ، وبأسلوب يدلُّ على أنّ كاتبها قد خبرَ ودرس وعرفَ وبذلَ كلَّ جهدٍ فى الاستقصاءِ ، وعلى منهج مألوفٍ لكلِّ مثقف أوربىّ ، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التى وضَعها بين يديه ، بعد خِبْرَة طويلة وعَرَقٍ وجُهْد وإخلاصٍ ، حتَّى لا يَشُكَّ قارىءٌ منهم فى صدق ما يقرؤُه ، وأنّه هو اللُّبَاب المصفَّى من كُلّ كذبٍ ، والمبرَّأُ من كل زَيْف ، وأنه هو الحقُّ المبينُ والصراط المستقيم » ، (اقرأ ص : ٨٥

وما قبلها وما بعدها) . وفَعَلَ « المستشرق » ذلك لأسباب تستطيع أن تُعيد قراءتها فيما سلف ، (ص : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢) .

وهذا العملُ على ما فيه من المَعَابة ، هو بلا شكٍّ أيضاً ، حقٌّ خالصٌ للمستشرق لا ينازعه فيه منازعٌ ، لأنه كتب ما كتبه للمثقف الأوربى المسيحىّ وحدَهُ لا لغيرِهِ (انظر ما سلف : ٨٨) ، حتّى ما كان من ذلك كُلّه سَفاهةً وبذاءةً لا غيرُ (ص : ٨٨) ، كُلُّ ذلك حقُّه ، وما كان فيه من إثْمٍ فحسابُه على الله سبحانه لا علينا . وكُلُّ ذلك أيضاً لا يوجِبُ عندى أن يوصف عمل « المستشرق » هذا بأنّه مبنىٌّ على خُبْثِ الطويَّة ، لأن خُبْث الطويّة يقتضى أن تكون تَعرفُ الحقَّ أبلجَ مستنيراً ، ثُم تَطْمسه مُريداً لإفساد الحقِّ على غيرك . و « المستشرق » بعيدٌ كُلَّ البعد عن أن يعرف الحقَّ مُعْتِماً دامساً ، فكيف يعرفه أبلجَ مستنيراً ؟! و « المستشرق » ، كما علمتَ ، لم يَعْمِدْ إلى إفساد حقٍّ على المثقف الأوربىّ المسيحى ، بل عَمَدَ إلى حياطته حتى لا ينبَهر بدين عدوِّه المسلم انبهاراً مجرّبةٌ عاقبتُه على مرِّ القرون الطوال بالتساقُطِ فى الإسلام . وفوق ذلك كُلِّه ، فإنَّ هذا المسلَكَ ، مسلك « الغايةُ تسوِّغ الوسيلةَ » ، مَسْلَكٌ مألوفٌ مستحسنٌ محبَّبٌ إلى الحضارة الأوربية السائرةِ على هُدَى « مكيافِلّى » الذى هداهُمْ إليه ، ونزل عندهم منزلة « الدين » ، وإنْ كان

دينُنا ، نحنُ المسلمين ، يُنكِره ويأبَاه علينا كُلَّ الإباءِ . وإذا كان من حقّنا أن نصف « المستشرق » بخُبْثِ الطويّة ، فذلك جائزٌ لنا فى عمل آخر من أعماله ربّما أشرتُ إليه فيما بعدُ .

* * *

● أما الأمر الثالث ، وهو أمر « الأهواء » ، (انظر ما سلف ص: ٩٤) ، فلن أضيع وقتى ووقتك فى الحديث فيه ، وإن كان شرطاً مهمًّا ، حَتْمٌ أن يبرأ منهُ كُلّ من ينزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، لأن بديهةَ الفطرة فى الإنسان تقضى بأنَّ « الأهواءَ » مرفوضةٌ فى كلّ عملٍ يستحقُّ أن يوصف بأنه عملٌ شريف أو عملٌ علميّ . وظاهرٌ من كُلّ ما كتبته لك آنفاً أن « الاستشراق » ، من فَرْع رأسه إلى أخْمَص قَدَميه ، غارقٌ فى « الأهواء » . والثقافة الأوربية والحضارة الأوربية تستقبل « الأهواءَ » بلا نكير ولا أَنَفة ، بل هى تسوِّغ استعمالَ رذيلةِ « الأهواءِ » فى الدنيا وفى الناس بلا حَرَج ، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسَّلْب ونَهْب الأُمَم وإخضاعها بكُلِّ وسيلة لسلطانها المتحضِّر !! والدلائل على ذلك لا تخفَى على بصيرٍ ذى عينين تُبْصران ، فهى تسوِّغ ذلك فى العلم وفى الثقافة وفى السياسة وفى الدين وفى كُلِّ شىءٍ ، ما دام جالباً للمنفعة أو دافعاً للمضرة ، بل تسوِّغها أيضاً فى الدعوَى الغريبة العجيبة التى لم يسبق لها مثيلٌ فى تاريخ

الأمم ، دَعْوَى أنها « حضارة عالمية » ، وفحواها أن العالم كُلَّه ينبغى أن يخضع لسلطانها وسيطرتها ، ويتقبَّل برضىً غطْرَستَها وفُجورَها الغنيَّ الأخّاذ الفاتن !

* * *

وأخيراً ، هذا تمام خبر « الاستشراق » وحقيقةِ « المستشرق » الذى انتفض بهموم المسيحيّة الشمالية ، فكتب من الكتب ما كتب لأهل مِلّته وخاضَ فى مَعْمعانِ حياةِ أمّته الثقافية والسياسية مدافعاً شديد الحميّة ، ومحامياً عن أقوامه أبلغَ المحاماة ، وهو شيءٌ لا يَعْنِينا ، أو كان ينبغى أن لا يعنينا هو ولا ما كتبه فى ثقافتنا قُلَامةَ ظُفْرٍ ، لما عرفتَ من استحالة قدرته على مَعْرفة العَرَبيَّة إلا مثلَ تَحلَّة القَسَم ، (أى قليلاً ، بمقدار ما يُكَفِّر المرءُ قَسَمه ولا يُبَالغ) ، ومن عجزه المُطْلَق عن استبانة وجه الحقِّ فى ديننا وثقافتنا ، لأنه مكفوفٌ عنهما بحجابٍ من ثقافته التى نشأ فيها وليداً واستمرَّ حتى شابت قرونُه . فما باله شَغَل نَاسَنَا بالحديثِ عنه ؟ أجلْ ، كيف كان ذلكَ ؟ ولِمَ كان ما كانَ ممّا أفضَى إلى انتدابِه إلى إلقاء محاضرات فى جامعاتنا العربية والإسلامية ؟ وأعجبُ من ذلك استلحَاقُه بهيئات المجامع اللغوية فى بلاد عربية إسلامية ، يا للعجب ! أىُّ ناسٍ نحنُ !

* * *

٢٠ - كيف كان ذلك ؟ ولِمَ كان ما كان ؟ قصَّةٌ طويلةٌ عريضةٌ مِلْؤها الغرائبُ والعجائبُ ، والمضحكاتُ والمبكياتُ ، والحسراتُ والآهاتُ ، من مبدئها إلى منتهاها . ليتنى أستطيع على المكان ، (أى الآن) ، أن أقصَّها عليك كاملةً بتفاصيلها ، ولكن أنَّى يكون لى ذلك الآن ؟ فاقْنَع منّى بالاختصار المُفْهِم ، والإيماءِ الخاطف ، واللُّمْحة الدالّة ، إبراءً للذّمة ، ذِمَّتى أنا ، وأداءً للأمانة التى حُمِّلتُها لأستودِعها بين يديك . وأنتَ مخيَّرٌ بين خُطَّتين لا ثالثةَ لهما : إمّا أن تتقصَّى المكنُونَ الغائبَ من تفاصيلها المشتَّتة فى تاريخك وكُتُبك ، بعقْل وهمَّةٍ و جِدٍّ ويقَظةٍ وبَصَرٍ وإدراكٍ وبأنَفةٍ من قَبول الذُّلّ والعار والمَهانةِ = وإمَّا أن تَمَلَّها فتطرَحَها عن كاهِلك قابلاً لمَزِيدٍ من الذُّلِ والعارِ والمهانةِ ، مُستحلياً خِدَاعَ النفس بأوْهامٍ سوَّلتها لك حياتُنا هذه الأدبيّةُ الفاسدة ، والّتى ألقت بكُلّ فسادها فى حياتنا اللُّغوية والثّقافية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية ، بل فى صميم حياتنا الدينيّة أيضاً ، حتى أوشك أن يضيعَ كُلّ شيءٍ كان غيرَ قابلٍ للضياع . فآختَرْ لنفسك منهما ما شئتَ . فإن آخترت الخُطَّة الأولى ، فاصبر على لأْوائها ومَشقّتها ولا تَجْزَعْ ، وكنْ رابطَ الجأشِ لا تستحوذْ عليك المخاوفُ والرَّهبةُ ، ولا تَهُولنَّك أسماءُ الرجالِ المُحْدَثين الكبارِ الذين نشأوا فى زماننا هذا ، والتى لها دوىٌّ وضَخامةٌ ، فإنّما هى طَبْلٌ فارغٌ ، وزِقٌّ منفوخٌ مِلْؤه هَواءٌ . وآعلم أنَّ الأمرَ جِدٌّ كلّه ،

فإنْ داخلَه الهزلُ خرجتَ منه صِفْرَ اليدين . وَلا يَغرُرْكَ زُخْرفُ الألفاظِ الوَسيمةِ المتلألئةِ ، مثل قولهم : « الجديدُ والقديم » و « الأصالةُ والمعاصَرةُ » ، و « التجديد والتقدُّم » ، و « الثقافة العالمية » و « الحضارة العالمية » و « التخلُّف والتحضُّر » ، فإنما هى ألفاظٌ لها رَنينٌ وفِتْنةٌ ، ولكنها مليئةٌ بكُلّ وهْمٍ وإيهامٍ وزَهْوٍ فارغٍ مُميتٍ فاتكٍ ، تُوغِلُ بنا فى طريق المهالك ، وتستزلُّ العَقلَ حتى يرتطم فى رَدْغةِ الخبالِ ، (أى طينته اللَّزِجة) ، فإن استبان لك أوّل الطريق ولكن هِبْتَ وتردّدتَ ، فاستمعْ عندئذٍ لنَصيحةِ الحسن البصرىّ رضى الله عنه : « إنَّ مَنْ يُخَوِّفُك حتّى تَلْقَى الأَمْنَ ، أشفقُ عليك ممَّن يُؤَمِّنك حتى تلقَى الخوفَ » ، كان الله فى عونى وعَوْنك .

* * *

● غَبَر ما غبَر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينية حصن المسيحية الشمالية الشامخ المنيع ، وعلى تدفّق كتائب الإسلام فى قلب أوربة الغارقة فى حَمْأة قرونها الوسطى ... غبَر ما غبرَ على فَرْحةٍ أذْهلت دارَ الإسلام عن فجيعَتها بسقوط الأندلس كلّه بعد أربعين سنة فى قبضة المسيحية الشمالية يوم سقطت غَرْنَاطةُ آخرُ حصون الإسلام فى الأندلس ،

(٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ... وغَبَر ما غبَر على جَزع المسيحية الشمالية وشعورها بالإخفاق والمذَلَّة والعار ، (اقرأ ما سلف : ٥٩ وما بعدها) ، وعلى ما كان من توغُّل محمد الفاتح فى قلب أوربة وتساقُط رعايا الرُّهبان فى الإسلام طواعِيَةً واختياراً ، ودخولهم بحماسة ويقين فى جحافل الإسلام الزاحفة ، (اقرأ ما سلف : ٦٦) ... غَبَر ما غبَر ، ودخلتْ دار الإسلام فى سِنَةٍ لذيذةٍ أورثتها نشوةُ النَّصْر المؤزَّر ، ودخلت أوربة كُلُّها فى عزيمةٍ حاسمةٍ لتردَّ عن عِرْضِها العارَ ، وبلغَ السَّيْل الزُّبى ، فكانت يقظَةٌ محسوسةٌ فى جانبٍ ، وغَفوَةٌ لا تُحَسُّ فى جانبٍ ، وشال الميزان ، (اقرأ ما سلف : ٦٣ ، ٧٢) ، وانطلقت الأساطيلُ الأوربية تطوِّقُ دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، فإذا دارُ الإسلام محصورةٌ فى الجنوب ، بعد أن كانت حاصرةً للمسيحية فى الشمال ، وشيئاً فشيئاً فقدت دارُ الخِلافة فى القسطنطينية هَيْبَتها وسيطرتَها ، وصارت لأوربّة هَيْبةٌ مرهوبةٌ وسَيْطرةٌ ، (اقرأ ص : ٧٤ ، ٧٥) .

* * *

يومئذٍ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قَرْنانِ ، مئتَا عامٍ ....
ويومئذٍ آنَس قلبُ دار الإسلام رِكْزاً خفيًّا فأرهفَ لهُ سَمْعه . سَمع نَقِيضَ أركانِ دارِ الخلافة وهى تتقوَّض ، فتوجَّس توجُّساً غامضاً لشرّ مستطير آتٍ لا يدرى من أيْن ؟ فهبَّ من جوف الغَفْوةِ الغامرة أشتاتٌ من رجالٍ

أيقظتْهم هَدَّةُ هذا التقوُّض ، فانبعثُوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة فى غَفْوتها . رجالٌ عظامٌ أحسُّوا بالخَطر المُبْهَمِ المُحْدِق بأُمَّتهم ، فهبُّوا بلا تَواطُؤٍ بينهم . كانوا رجالاً أيقاظاً مُفَرَّقين فى جَنَبَاتِ أرضٍ مترامية الأطْراف ، متباعدةٍ أوطانُهم ، لا يجمعهم إلا هذا الذى توجَّسُوه فى قرارةِ أنفسهم مبهماً من خطرٍ مُحْدِقٍ . أحسُّوا الخطرَ فرامُوا إصلاح الخَلَل الواقع فى حياة دار الإسلام : خَلَلِ « اللُّغةِ » و « خلَلِ العقيدة » و « خَلَل علومِ الدين » و « خَلل علوم الحضارة » . وبأناةٍ وصبْر عَمِلوا وألَّفوا وعَلَّمَوا تلاميذهم ، وبهمةٍ وجدٍّ أرادوا أنْ يُدْخِلُوا الأُمَّة فى « عصرِ النهضة » ، نهضةِ دار الإسلام من الوَسَنِ والنومِ والجهالةِ والغفلة عن إرث أسلافهم العِظام . من هؤلاء خمسةٌ من الأعلامِ أذكرهُم لكَ هنا مجرَّد ذِكْرٍ باختصار : (١)

١ – « البغداديّ » ، « عبد القادر بن عمر » ، صاحب « خزانة الأدب » (١٠٣٠ – ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ – ١٦٨٣ م) فى مصر .

٢ – « الجَبَرْتِيّ الكبير » ، « حسن بن إبرهيم الجبرتيّ

---

(١) كتبت فى مجلة الهلال فى عددى مايو ويونيه سنة ١٩٨٢ ، فصْلاً عنهم ، وقطعتنى الشواغلُ عن إتمام القول فى شأنهم وشأن « النهضة » التى أحدثوها ، وأسأل الله أن يوفقنى لإتمامها بعونه سبحانه .

العَقِيلىُّ » ، (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) فى مصر ، وسأحدِّثك عنه بعد قليل .

٣ - « ابن عبد الوهاب » ، « محمد بن عبد الوهاب التميمىُّ النجدىُّ » ، (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) فى جزيرة العرب .

٤ - « المُرتَضَى الزَّبيدىُّ » ، « محمد بن عبد الرزاق الحسينىّ » ، صاحب « تاج العروس » (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٧٢ - ١٧٩٠ م) فى الهند وفى مصر .

٥ - « الشَّوكانىُّ » ، « محمد بن على الخَوْلانىُّ الزَّيدىُّ » ، (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) فى اليمن .

وإذا أنعمت النظر فى هذه التواريخ ، علمت أنَّ « عصر النهضة » عندنا واقعٌ بين منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر ، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، تذكَّرْ هذا ولا تنسَهُ أبداً ، فهو الذى يكشف لك اللِّثامَ عن التغريرِ ، الفاضح الذى طَفَحتْ به حياتُنا الأدبيةُ الفاسدةُ المهلكةُ .

هبَّ « البغداديُّ » فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى (السابعَ عشر الميلادى) ، فألَّف ما ألَّف ليردّ على الأمّة قُدْرتها على « التذوُّق » ، تذوّقِ اللُّغة والشِّعر والأدبِ وعلومِ العربية [١] = وهبَّ « ابن عبد الوهّاب » يكافح البِدَع والعقائد التى تخالفُ ما كان عليه سَلَف الأمَّة من صفاءِ عقيدة التوحيد ، وهى ركن الإسلام الأكبر ، ولم يقنع بتأليف الكتب ، بل نزل إلى عامَّة الناس فى بلاد جزيرة العرب ، وأحدث رجَّةً هائلة فى قلب دار الإسلام = وهبَّ « المرتَضَى الزَّبيديُّ » يبعثُ التُّراثَ اللُّغوىّ والدينىّ وعلومِ العربيّةِ وعلوم الإسلام ، ويُحْيى ما كادَ يخفَى على الناس بمؤلَّفاته ومجالسِه = وهبَّ « الشوكانيُّ الزيدىّ الشيعىُّ » مُحْييًا عقِيدة السلف ، وحَرَّم « التقليد » فى الدينِ ، وحَطَّم الفُرْقَةَ والتنابُذَ الذى أدَّى إليه آختلاف الفِرَق بالعَصبيّة = أما خامسُهم ، وهو « الجبرتىُّ الكبير » ، فكان فقيهاً حنفيًّا كبيراً نابهاً ، عالما باللُّغة ، وعلم الكلام ، وتصدَّرَ إماماً مُفْتياً وهو فى الرابعة والثلاثين من عُمْره ، ولكنه فى سنة ١١٤٤ هـ (١٧٣١ م) ، وَلَّى وجْهَهُ شَطْر « العلوم » التى كانت تُراثاً مستغلقاً على أهل زمانه ، فجمع كُتبها من كُلِّ مكانٍ ، وحَرَص على

---

(١) اقرأ ما كتبته عن « التذوّق » فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٣٤ ، وفى مواضع من هذا الكتاب الذى بين يديك .

لِقاءِ من يعلمُ سِرّ ألفاظها ورُموزها ، وقضى فى ذلك عشر سنواتٍ (١١٤٤ - ١١٥٤ هـ) ، حتى ملك ناصية الرُّموز كُلِّها ، فى الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كُلِّها ، حتى النِّجارة والخِراطة والحِدادة والسَّمْكرة والتجليد والنقش والموازين ، وصارَ بيتُه زاخِراً بكُلِّ أداة فى صناعةٍ وكُلِّ آلةٍ ، وصارَ إمَاماً عالماً أيضاً فى أكثر الصناعاتِ ، ولجأ إليه مَهَرة الصُّنَّاع فى كُلِّ صناعة يستفيدون من علمه ، ومارس كُلَّ ذلك بنفسه ، وعلَّم وأفادَ ، حتَّى علَّم خَدَمَهُ فى بيته ، ويقول ابنه عبد الرحمن الجبرتىّ المؤرِّخ ، (تاريخ الجبرتى ١ : ٣٩٧) :

« وحضَرَ إليه طُلاَّبٌ من الإفرنج ، وقرأوا عليه علم الهندسة ، وذلك فى سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م) وأهدوْا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياءَ نفيسةً ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجُوه من القُوَّة إلى الفعل ، وآستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء ، وجرِّ الأثقال ، واستنباط المياهِ ، وغير ذلك » .

وهؤلاء « الإفرنج » ، هم « المستشرقون » ، كما قصصتُ عليك من أخبارهم ، ومن اتِّصالهم بالعلم الحىّ عند علماء دار الإسلام ، لحلّ رُموز الكتب العربيّة ، (اقرأ ما سلف : ٦٧ ، ٧٦ - ٨٠) . و « الجبرتىُّ الكبيرُ » رحمه الله ، كان على خُلُق أهل الإسلام ، فلم يضنَّ على أحدٍ من هؤلاءِ الإفرنج

بشيءٍ من علمه ، ولا أساءَ بهم الظنَّ ، (اقرأ ما سلف : ٦٩) ، بل عمل بما أدّبه به نبيُّه ﷺ إذ يقول : « مَنْ سُئِل عَنْ علمٍ فكتمهُ ألجمَهُ اللهُ يوم القِيامة بلجامٍ من نارٍ » ، [١] ولو علم « الجبرتى » بخبيئة أنفسهم وهم يتملَّقونه ويتخشَّعُون بين يديه ، فلا أدرى ماذا كان يفعلُ ، وهو الفقيه المُفْتى رحمه الله ؟

هذا طَرَفٌ لا يجزىءُ عن « النهضة » التى كانت فى دار الإسلام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (السابع عشر والثامن عشر الميلادىّ) ، قصصتُه عليك خَطْفاً ، لتعرفَ بعد ذلك ما كان كيفَ كان ؟

● دَوَّت أسماءُ هؤلاء الخمسة فى أرجاء دارِ الإسلام ، وأشتاتِ غيرهُم ، مُؤْذِنةً بيقظةٍ جديدة ، وإحياءٍ لعلم الأمّة ولُغتها وثقافتها ، واستعادةٍ لسيطرةِ الأمّة على أسبابِ حضارتها الزاهرة القديمة ، وإرادةٍ

---

(١) هو حديث أبى هريرة ، رواه أبو داود فى السنن ، « كتاب العلم » والترمذى فى « كتاب العلم » ، ورواه أحمد فى مسنده فى مواضع مختلفة أهمها برقم : ٧٥٦١ (١٤ : ٥ من شرح أخى رحمه الله) ، وكتب أخى فصلاً مهمًّا جدًّا فى حلّ مشكلة تحيط بهذا الخبر .

لبعثِها بعثاً جديداً ، دون شعورٍ واضحٍ أوْ علم مستبينٍ ، بالذى كان يجرى فى ديار المسيحيّة الشمالية من يَقَظة ونهضةٍ وبَعْثٍ جديد .

● ونصيحةٌ وتنبيهٌ : لا تنظُر إلى الفرقِ الهائل الكائن اليومَ بين الشمالِ المسيحى والجنوبِ الإسلامىّ ، فإنَّك إنْ فعلتَ ضَلِلْتَ عن الحقيقة . والحقيقةُ يومئذٍ أنّ الفرقَ بيننا وبينهم كانَ خُطْوةً واحدةً تُسْتدركُ بالهمَّة والصَّبر والدَّأْبِ والتصميم لا أكثر ، بل أكبر من ذلك ، فإن اليَقَظة الأوربيَّة كانت بعدُ فى أوّل الطريقِ وتتّكىء اتكاءً شديداً على ما كانَ عندنا من العلم المسطُور فى كتبنا برموزه التى تحتاج إلى استبانةٍ وفهمٍ ، وعلى العلم الحىِّ الذى عند أهل دار الإسلام ، كما حدَّثك الجبرتىُّ المؤرِّخ عن أبيه الفقيه الجليل الجبرتىِّ الكبير ، (انظر ما سلف قريباً) ، وقراءة « المستشرقين » عليه ليهتَدوا به اهتداءً مّا إلى حلِّ هذه الرموز واستباناتها وفهمها . وكُلُّ الفرق بين اليقظتين يومئذٍ هو أن يَقَظتنا كانت هادئةً سليمةَ الطويَّة منبعثةً من داخِلها ، ليس لها هدفٌ إلاّ استعادَة شبابها ونَضْرَتها فى حدود الإسلام ، وإن كانت يومئذ « يقظةً » متباعدة الدِّيار ، غير متماسكة الأوصال ، ولكنها كانت قريبة التواصُل ، وشيكة الالتئام = وأمَّا يَقظَتُهم هم ، فكانت متفجِّرةً بحقد قديم مكظومٍ شيمتُه السَّطوُ الخفىّ ، وشَمْلُها مجتمعٌ بالضغينة المتقادمة ، وهدفُها إعدادُ العُدّة لاختراق

دار الإسلام بالدّهاء والخِداع والمكر ، كما حدثتُك آنفاً فأطلتُ الحديث ... أىْ هُما يقظتنان كانَتا فى زمنٍ واحدٍ ، إحداهما من طبيعتها الرِّفقُ المُهَذَّب ، والأخرى من طبيعتها العدوانُ الفاجر ، فانظر الآن ماذا كان بعد ذلك ، لأمرٍ أرادَ الله أن يكون . ودَعْ عنك ما تقوله اليوم حياتنا الأدبية الفاسدة .

* * *

● كما قلت لك آنفاً ، كان « المستشرقون » منذ نأْأة « الاستشراق » = وإلى هذا اليوم = يَجُوبونَ دارَ الإسلام من أطرافها إلى قلبها ، يُلاقونَ الخاصةَ من العلماء ، ويخالطون عامَّة المثقَّفِين والدَّهماء ، (اقرأ ص : ٦٨) ، وفى قلوبهم حَمِيَّة الحقد المكتَّم ، وفى النفوس العزيمةُ المصمِّمة ، وفى العيونِ اليقظةُ ، وفى العقولِ التنبُّه ، وفى الوجوهِ البِشْرُ والبراءةُ ، وفى الألسنة الحلاوةُ والتملُّق ، ولَبِسوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِيٍّ ، وتوغَّلوا يستخرجون كُلَّ مخبوءٍ ، (اقرأ ص : ٧٦٠ وما بعدها) = وكانت بلادُهم يومئذٍ قريبة عهدٍ بعصرِ النهضة وعصر اليقظة وعصر الإحياءِ ، فهُم على أتمِّ معرفة بأسرارِ اليقظة كيف تبدأُ وإلى أينَ تنتهى ، فأدركوا إدراكاً واضحاً لا لَجاجةَ فيه ، أن ما كان يجرى فى دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرىّ ، (السابع عشر الميلادى) ، إلى منتصف القرن

الثانى عشر الهجرى ، (الثامن عشر الميلادى) ، إنّما هو « يَقظةٌ » حقيقيّةٌ ، و « نهضةٌ » كاملةٌ ، و « إحياءٌ » صحيحٌ ، مُنْبثق كُلُّه من يَنْبوعٍ صَافٍ عَتِيقٍ ، طَمستْ معالمه كرُّ الدُّهورِ والقرونِ ، هو جميعُه فى حوزةِ دارِ الإسلام ، وهم فى يَقظتهم هذه يومئذ عالةٌ عليه ، ولا يَستْقون إلاَّ من ثِمادِهِ بعد جُهْدٍ جهيدٍ ، (« الثِّمادُ » ، حُفَرٌ فيها ماءٌ قليل) ، فوَجَفتْ قلوبُهم ورَجَفتْ من هَوْلِ ما هم مقبلون عليه ، إذا تَمَّت لدار الإسلام « اليَقَظةُ » واستوت وبلغتْ أَشُدَّها ، واستقامت خُطُواتها على سَنَنِ الطريق .

● وعلى عادة « المستشرقين » التى حدَّثتُك عنها ، (اقرأ ص : ٦٨ ، ٧٦ ، ٨٠) ، وهُمْ حَمَلةُ هُموم المسيحية الشمالية ، والذّادةُ عنها وحُمَاتُها المستبسلون ، هبُّوا هَبّةَ الفَزَع من هذه « اليقظة » فتسارعُوا ينقلون كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ممّا هو جارٍ تحت أعيُنهم فى دار الإسلام ، ووضعوهُ بيِّناً جليًّا ، مشفوعاً بمخاوفهم ومُلاحظاتهم ونُصْحِهم وإرشادِهم ، تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمَرائها ورؤسائها وقادَتها وسَاسَتها ورُهْبانها ، وبصَّروهم بالعواقب الوَخِيمة المَخُوفة من هذه « اليقظة » الوَليدة التى بدأت تَنْسَاحُ فى أرجاء دارِ الإسلام . وتناجَوْا بينهم نَجْوَى طويلةً ، يُقلِّبون النَّظر فى أهدافِهم ووسائلهم ، (اقرأ ما سلف ص : ٦٤ ، ٦٥

وما بعدها) ، وتبيَّنوا الخطرَ الداهِمَ الذى جَاءَ يتهدّدهم ، إذا ما تمَّت هذه « اليقظةُ » واشتدَّ عُودُها ، واستقامتْ خُطُواتُها على الطريق اللاحب . وببديهة العقلِ ، لم يكن للمسيحية الشمالية يومئذٍ خيارٌ ، طريقٌ واحدٌ لا غيرُ ، هو العملُ السَّريع المحكَمُ ، واهتبالُ الغفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، كما حدثتك آنفاً ، ومعاجَلتُها فى مَهْدها قبل أن يتمَّ تمامُها ويستفحلَ أمرُها ، وتصبحَ قوّةً قادرةً على الصِّراع والحركة والانتشار ، فإنْ تمَّ ذلك ، فما هو إلاّ أن تعودَ الحربُ بين الشمالِ والجنوبِ جَذَعةً ، وعندئذٍ لا يضمنُ أحدٌ مغبَّة الصِّراع المشتعِل بين سِلاَحين متكافئين ، وثقافتين مُتَكاملتين . لا يضمنُ أحدٌ لأىِّ الفِئَتين تكونُ الدُّولة والغَلَبة والسِّيادة = ومرةً أُخرى أقول لك : لا تنظُر الآن إلى الفَرْق الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحىّ والجنوب الإسلامىّ ، فإنَّك إن فَعلت ضَلِلتَ عن الحقيقة ، والحقيقةُ يومئذٍ أنّ الفرقَ بيننا وبينهم كان خطوةً واحدةً تُستَدركُ باليقظة وبالهمة والصَّبر والدَّأبِ والتصميم لا أكثر . ولِعِلْمِ « الاستشراق » يومئذ بهذه الحقيقة ، كان فَزَعُهم الأكبر . لا تنسَ هذا أبداً ، وكُنْ على حَذَرٍ من الضَّلالِ ، ومن التضليل والتغرير الذى تعِجُّ به اليومَ حياتنا هذه الأدبيةُ الفاسدة ، وألسنتُها الثرثارةُ المتشدِّقة بأوهام « الأَصَالة والمعاصرة » و « القديم والجديد » و « الثقافة العالمية » ،

وبالقضية الهزليّة : « قضيَّةِ موقفنا من الغرب » ! ياله من عارٍ فاضحٍ ، وياله من عَبَثٍ رزينٍ مُتعاقل ! ما عَلَينا ؟

* * *

● .... « الاستشراق » كما رأيت قبلُ هو عينُ « الاستعمار » التي بها يُبصِرُ ويحدِّقُ ، ويدُه التي بها يُحِسُّ ويبطِش ، ورِجْله التي بها يَمشي ويتوغَّل ، وعَقْله الذي به يفكِّر ويستبينُ ، ولولاهُ لظلَّ في عميائه يتخبَّط . ومَنْ جَهِل هذا فهو ببدائه العقولِ ومُسَلَّمَاتها أَجْهل . فلمّا فَزِع « الاستشراق » فزعَتْ معه كُلُّ المسيحية الشمالية ودُوَلُها التي كانت أساطيلُها تطوّق دار الإسلام من أطرافها البعيدةِ ، وتتوغَّل بسيطرتها على سَوَاحلها ، متحسّسَةً طريقها إلى قلبِ هذه الدَّار المترامية الأطراف ، بالدَّهاءِ وبالمكر وبالخديعة ، وبالتنمُّر أحياناً حين يتطلَّب الأمرُ التنمُّر والتَّرويع .

كانت دُوَل أوربة كُلُّها فى صِراع مستميتٍ فيما بينها على نَهْشِ أطراف دار الإسلام ، واستنزافِ ثَرْواتها وكنوزها وخيراتها بشراهةٍ لا تشبع . وكان أكبر الصرّاع المتوحّش على الطَّرَف البعيد فى الهند ، حيث لا تستطيع طليعةُ الإسلام فى دار الخلافة (تركية) أن تصنَعَ لإنقاذها شيئاً ذا بالٍ ، بل هي يومئذ مشغولة أيضاً بالحفاظ على وُجودها وهَيْبتها لا أكثر . كان

أكبر دولتين يومئذ : إنجلترا وفرنسا ، وكان السَّبقُ لإنجلترا ، فأنشأت ما يسمُّونه « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، وهو أوّل جهازٍ استعماريّ قوىّ وذلك فى سنة (١٦٠٠ - ١٨٥٨ م / ١٠٠٩ - ١٢٧٥ هـ) ، وتبعتها فرنسا فأنشأت جهازها الاستعمارى باسم « شركة الهند الشرقية الفرنسية » (١٦٦٤ - ١٧٦٩ م / ١٠٧٥ - ١١٨٣ هـ) ، ولا يغْررك لفظ « شركة » ، فإنه فى الحقيقة جَيْشٌ غازٍ مسلَّحٌ ، مهمته النهبُ والسَّلْب وقَطْعُ الطريقِ ، وتخويفُ الضُّعفَاء الذى لا يملكون عن أنفسهم دَفْعاً . بدأ الصراعُ بين « الشركتين » فى الهند = أى « اللصّين » = صراعاً مستحرًّا مستميتاً ، وظَلّ محتدماً حتى قضت « الشركة البريطانية » على « الشركة الفرنسية » قضاءً مبرماً ، على يد القائد البريطانى المحنّك « روبرت كلايف » (١٧٢٥ - ١٧٧٤ م / ١١٣٨ - ١١٨٨ هـ) فى معركة فاصلة سنة ١٧٥٧ م / ١١٧١ هـ) وطردتها من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فخرجت هى والأسبان وغيرهم من حَلْبَةِ الصّراع فى الهند دامية وجوههم وأكبادُهم ، واستأثرت إنجلترا وحدها بالصَّيدِ الغزير .

ففى ذلك الوقت جاءَهم النذيرُ ، نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدْلهِمّ الذى تهدّدهم به « يَقظة » دار الإسلام بقيام

محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، وظهورِ الجبرتىّ الكبير (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) فى مصر هو الزَّبيدى ومن قبله البغدادىّ (انظر ص : ١١٨ ، ١١٩) . كان نَذِير « الاستشراق » مروِّعاً وحاسماً . أمَّا إنجلترا صاحبة « الشركة الهندية الشرقية البريطانية » فأسرعَ مُسْتشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، وبالدَّهاء والمكر والدسائس جاءتْ فى زىِّ الناصر والمعين لتتدسَّس إلى يَقظة « ابن عبد الوهاب » = يقظةِ تنقيةِ « الدِّين » مما تراكَم عليه من البِدَع المفسدة لعقيدة التوحيد = لتتَّخِذ بذلك عندها يداً ؛ وبهذه اليد تسيطرُ عليها وتَحتَويها ، وأبعدتْ إنجلترا الرحلة من ناحيةٍ أخرى ، تؤلِّبُ عليها من حولها لتطوِّقها تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . وهذا هو أُسلوب بريطانيا حيثُ حَلَّتْ من الأرض .

وأمَّا فرنسا التى عادتْ من الهند تلْعَقُ جراحَ هزائمها ، فكان وَقْعُ النذيرِ مختلفَ الأثَر ، مختلف الأسلوب ، فى قصةٍ طويلةٍ من تنبُّه « الاستشراق » لما يجرى فى دار الإسلام . فإذا كانت إنجلترا قد ظفرتْ بنصيب الأَسَد فى الهند ، فإن لفرنسا لَنصيباً قريباً تُعِدُّ العُدّة للظَّفر به ، لا يفصِلُ بينها وبينه إلَّا بَحْرٌ ضيِّقٌ ، ممكنٌ أن يكونَ لَها عليه السلطانُ

لأعظم . ومن قبلُ ظلّت تدبِّر الأمر زمناً طويلاً لتظفر بهذا النصيبِ فى مصر وفى الجَزائر ، ومعنى ذلك أنها عادتْ مرةً أخرى تفكِّر فى اختراق دار الإسلام ، الأمرُ الذى كان مستعصياً نحو عشرةِ قرونٍ أو أكثر . وكانَ نذيرُ « الاستشراق » يومئذٍ يحَذِّر المسيحية الشمالية من هذه « اليقظة » المَخُوفَة العواقب ، يقظةِ « اللُّغة » على يد الشيخين الكبيرين البغدادىّ والزبيدىّ وتلاميذهما ، ويقظة « علوم الحضارة » على يد الشيخ الجبرتىّ الكبير وتلاميذه . « يقظةٌ » فى ديارٍ تضُمُّ أقدَم بيتين من بُيُوت العلم على ظهر الأرض ، عاشا جميعاً متواصِلَيْنِ اثنا عشر قرناً مَوْئِلاً للعلم والعلماء ، هما « الجامع العتيق » بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه) و « الجامع الأزهر » بالقاهرة ، وهما اسمان يتردّدان فى أرجاء دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمالِ إلى الجنوب . فاليقظة التى تأتى من قِبَلهما سوفَ تُؤدِّى إلى يقظة دارِ الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليَقَظة المتفجِّرة المتحركة الجديدة فى جزيرة العرب . فإذا تم اندماجُ اليقظتينِ فلا يعلم إلاّ الله كيف يكونُ المصير ؟

* * *

وقيّض الله لفرنسا قائداً أوربيًّا محنّكاً مظفَّراً شديد البأس ، خوّاضاً لغمراتِ الموتِ ، ضرّسته الحروبُ فى أوربة حتى صار اسمُه مثيراً للرُّعب

فى القلوبِ بأنه قائدٌ لا يُقْهر ، هو الصليبىُّ المكيافِلّىُّ المغامر المفتون الفاجر : « نابليون » ، (١٧٦٩ - ١٨٢١ م / ١١٨٣ - ١٢٣٧ هـ) ، فلمَّا فرغ من حروبه فى أوربَّة منصوراً نصراً مؤزّراً ، أصاخَ سمعَهُ لنذير « الاستشراق » ، ولنُصْحه وإرشاده ، فقدَّرَ أنَّ الحِين قدحانَ ليكونَ أوّلَ قائدٍ أوربىٍّ استطاعَ بقوَّته التى لا تُقْهر ، أن يَخْترق قلبَ دار الإسلامِ من الشمال ، وأنْ يُدَاهم « اليَقَظَة » التى أرَّقَت مَنَام « الاستشراق » ، وأن يبطشَ بها فى عُقْر دارها بَطْشة جبَّارٍ عاتٍ لا يُبْقى على شيءٍ ، وفوق ذلك كُلِّه : أن يُردّ لفرنسَا هيبتَها التى ضاعت يوم طردتها بريطانيَا طرداً مخزياً من دار الإسلام فى الهند القصيَّة البعيدة ، وبذلك تنفردُ فرنسا وحدَها بالمجدِ السنىِّ كُلِّه ، وتكلِّلها المسيحية الشمالية عندئذ بأكاليل الغار .

وفى أول يوليه سنة ١٧٩٨ م / ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هَوَى نابليون هُوِىَّ العُقَاب على مَهْد « اليقظة » فى الديار المصرية ، هَوَى على الإسكندرية فجأةً بجحافله وأساطيله مزوَّدةً بكُلِّ أداةٍ للحرب جديدةٍ مما تمخَّض عنه علم أوربة يومئذٍ ، مصطحباً معه عشرات من صغارِ « المستشرقين » وكبارهم ، وطائفةً من العلماء فى كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، معهم كُلُّ غريبةٍ مما كشف عنه العلم المُسْتَحدث . فاستباح الإسكندرية ودمَّر ما دمَّر ، ثم طوَى الأرضِ طيًّا مكتسحاً فى طريقه شمالَ مصر ، حتى دخل

القاهرة فى العاشر من صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢٤ يوليه ١٧٩٨ م) . وذُعِر الخَلْقُ ، فبدأ يُدَاهنُ الناس ، وحاول أن يستميل « المشايخَ » فى رجال الأزهر ، كى يستجيبوا لِمِحَالِه ومخاتلته ، فلمّا رأى امتناعَهُم على تطاوُل الأيام ، عَجل فأطلق جنوده الغُزَاةَ ، ليطفئوا ما استقرَّ فى قلوبِهم من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام ، وأتركُ الجبرتى المؤرخ يصف لك ما حدثَ فى يوم السبتِ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ ، (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ م) ، قال الجبرتىّ ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٢٦) بلفظه :

« بعد هَجْعة من الليل ، دخل الإفرنجُ المدينة كالسَّيْل ، ومرُّوا فى الأزقّة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جُنْد إبليس ، وهدَّموا ما وجدُوه من المتاريس ... ثم دخلو إلى « الجامع الأزهر » وهم راكبون الخُيول ، وبينهُم المُشاَة كالوعول ، وتفوَّقوا (أى : قَاعُوا) بصَحْنه ومقصورته ، وربطوا خُيُولهم بقبلته ، وعاثُوا بالأَزْرِقة والحارات ، وكسرُوا القناديل والسهَّارات ، وهشَّموا خزائن الطَلَبة ، والمجاورين والكَتَبَة ، ونهبوا ما وجدوهُ من المتاع ، والأوانى والقِصَاع ، والودائع والمخبَّآت ، بالدواليب والخزانات ، ودَشّتُوا الكُتُب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها

وأحدثُوا فيه وتغوَّطوا ، وبالُوا وتمخَّطُوا ، وشربُوا الشرابَ وكسروا أوانيه ، وألقوها بصَحْنه ونواحيه ، وكُلُّ مَنْ صادفوه به عرُّوهُ ، ومن ثيابه أخرجوهُ » . (١)

وكانَ ما كان بعد ذلك وقبل ذلك ، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها ، بحقدٍ وشراسة . وبالطبع ، وظاهرٌ جدًّا ، أن « الحملة الفرنسية » بقيادة نابليون ، ومعها مستشرقوها وعلماؤها ، لم يتكبّدوا المشقَّة فما فوقها بقطع البحار ، والبرارى والقِفار ، إلاّ ليخرجوا هذه الأمة من الظُّلمات إلى النور ، أى من عَصر الجهالة المظلمةِ إلى عصر العلم المضىء ، أى لنبدأ « عصر النَّهضة الحديثة » فى بلادنا نحنُ ، أو كما يقالُ !! هكذا ينبغى أن نقول لأبنائنا فى المدارس والجامعات !! ألم أقلْ لك آنفاً إنها قصةٌ مليئة بالمضحكات والمبكيات ، والحَسرات والآهات ؟

* * *

● « قِصَّةٌ مقحمة » ، وأنا أصحِّح تجارب هذه الرسالة لطبعها ،

---

(١) للأستاذ محمد جلال كشك كتاب سماه : « ودخلت الخيل الأزهر » ، فاقرأهُ لأنه مفيدٌ .

وقفتُ على فَصل مهم جدًّا ، كتبه الدكتور زكى نجيب محمود فى الأهرام ، (الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٥ م) ، فرأيتُ أن أُقْحمها بين الكلامين ، لكى تصحّح بها الأخطاء التى وقعت أنا فيها فى سياق الحديث عن « الحملة الفرنسية » بتسرُّعى وجَهْلى وَحِدّتى يقول الدكتور زكى :

« جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ، ووصلت إلى شواطىء الإسكندرية سنة ١٧٩٨ ، أى قُبَيْل فاتحة القرن التاسع عشر بسنتين ، وكان مع الحملة جماعةٌ من العلماء الفرنسيين فى تخصصاتٍ علمية مختلفة ، فكان ممّا صنعه أولئك العلماء ، أن استدعَوْا كبار علماء الأزهر الشريف ، جماعةً بعد جماعةٍ ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجديدة . من ذلك ، مثلاً أن يوقفوهم صفًّا ، مشبّكى الأيدى جاراً مع جاره ، ثم يمسُّون الواقف بسلكٍ مكهربٍ ، فتسرى رعدة الكهرباءِ فى جميعهم ، وأما هُمْ فيأخذهم العجب ، وأما العلماء الفرنسيون فيأخذهم الضّحك . ولقد حدث يوماً أن اغتاظ من تلك الألاعيب الصبيانية أحد الشيوخ ، فقال لهم ما معناه : هل فى علمكم الجديد ، ما يجعل إنساناً موجوداً هنا موجوداً فى بلاد الغرب فى وقتٍ واحد ؟ فأجابوا بقولهم : إنه ليس فى علومهم ذلك ، لأنه محالٌ ، فردّ هو قائلاً : لكن ذلك ممكنٌ فى علومنا الروحانية .

« وإنى لأنظرُ إلى تلك اللحظة التى قال فيها الشيخ ذلك الذى قالهُ للعلماء الفرنسيين على سبيل التحدِّى ، أنظر إليها على أنها لحظةُ البدءِ فى أحد طريقين اتخذناهما من ذلك الحين وإلى هذه الساعة التى أكتب فيها هذه الكلمات . فطريقٌ منها اختاره الرافضون للغرب ، أى الرّافضون للعصر وما أنتجه من علومٍ ترتَّب عليها ما تَرَتَّبَ من حضارة جديدة = وطريق آخر اختاره من أراد منّا ألاّ تُقْفَل أمام العصر الجديد أبوابُنا ونوافذُنا ، وكانت نقطة البدء فى الطريق الثانى هى رفاعة الطهطاوى » .

انتهى ما كتبه الدكتور زكى ، وأنا لا أستطيع أن أعلّق عليه إلاّ بالتسليم الخاشع لبراعته فى تأريخ الحملة الفرنسية والمشايخ المصرية وعلماء الأزهر الشريف ، وإنما أقحمتُه لك هنا متبرِّعاً ، لتستفيد عقلاً جديداً لا يَمْلك مِثْلى أن يُفيدَكَ إيَّاه . ونعودُ إلى ما كنَّا فيه (ثم اقرأ ما سيأتى فى الفقرة رقم : ٢٢) .

* * *

● فاقرأ الآن معى تاريخك بعين عربيَّة بَصيرةٍ لا تغفُل ، لا بعين أوربية تخالطُها نَخْوةٌ وطنيةٌ ، كما فعل أستاذنا عبد الرحمن الرافعى ، غفر الله له ذنوبه ، فى كتابه « تاريخ الحركة القوميّة ، وتطوُّر نظام الحكم فى مصر » .

قضَى نابليون بحملته الصليبية التى غزت مصر ، على أكبر قوةٍ مقاتلةٍ فى دار الإسلام بعد قوّة دار الخلافة . قضى على بأس المماليك المصرية وشتّتهم ومزّقهم كُلّ ممزّقٍ ، وتتبّعهم ينْهبُ القُرى فى الأقاليم ويُبيدُ من أهلها ما يُبيد . وبقى جمهورُ الأمّة فى القاهرة أعزلَ بلا سلاحٍ يدفعُ به عن نفسه ، وبلا حكومةٍ تديرُ شؤونه . واضطرب أمر الناسِ ومَاجَ ، فأنشأ نابليون حكومةً جديدة سماها « الديوان » ، وهو مهزلةٌ من المهازل السخيفة ، ولكنّ حياتنا الأدبية الفاسدة تعدُّ « الديوان » نظاماً جديداً جاءَ يصلحُ فساد نظام المماليك المصرية !! تعدُّه كذلك ، لأنها تنظرُ بعينٍ أوربية تخالطها وطنيّةٌ غافلة . وكُلُّ ما فى الأمر أن نابليون وضع هذا النّظامَ الهازلَ الماكر ، لأنه كان قد قرّر فى نفسه أنّ فرنْسا ينبغى أن تبقى فى مصر إلى الأبد . ومعنَى هذا : أن يكون مَصيرُ مِصر ، هو مصيرُ « الجزائر » التى اقتحمها الفرنسيون بعد ذلك سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦ هـ) ، وفعلوا بأهلها ما فعلوا ، ولا أُظنُّك تجهل ما فعلوا بدار الإسلام فى الجزائر .

بقى هذا القائد المفتون نحو سبعة أشهرٍ فى القاهرة يخرِّبُ ويفعل الأفاعيل ، وفى فبراير سنة ١٧٩٩ م (رمضان ١٢١٣ هـ) خرج منها ليدوِّخ سورية بقوّته التى لا تُقْهر ، وظلّ يقاتل بها نحو ثلاثة أشهرٍ ،

وحاصرَ « عَكّا » ، ولكنّ المقاومة التى لقيها هناك ، اضطرته إلى رفع الحصار عنها فى ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩ م (ذى الحجة ١٢١٣ هـ) بعد أن فقد آلافاً من جيشهِ وعشراتٍ من قُوّاده وعلمائه ومستشرقيه ، وعلى رأسهم المستشرق الداهية « فانتور » خليلُه ومستشارهُ فى شؤون دار الإسلام . كانت هزيمتُه فى « عكّا » هزيمةً منكرةً ، فآبَ إلى القاهرة وفى قلبه الخوفُ من العواقب التى تَفْجَؤه بها دار الإسلام ، واستشفّ ببصيرته وذكائه أنّ أمر الحملةِ قد انتهى إلى غير رجعةٍ ، وأحسَّ بما تغلى به القاهرة غلياناً سوف يُفضِى إلى الانفجار ، فانتهز فرصةَ اضطراب الأمور فى بلاده فرنسا ، واتَّخذ الليل جَمَلاً ، وكرَّ راجعاً إلى فرنسا فى ١٨ أغسطس ١٧٩٩ ، (١٨ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) ، وتَركَ الأمر كُلَّه لخليفته « كليبر » ليعانى منه ما يُعَانى ، وقد كَتَم عنه عزيمَتَهُ على السَّفر ، ثم راوغَه حتّى رحل قبل أن يلقاهُ .

● وما كاد « كليبر » يستقرُّ على عرش خلافة نابليون أشهراً قلائل ، حتى أفاقت القاهرة من ذُهولها واستعدَّت لمقاومة الغزاةِ ، وانفجرت الثورةُ فيها شهراً كاملاً ، (٢٠ مارس – ٢١ إبريل ١٨٠٠ م / ٢٣ شوال – ٢٤ ذى القعدة ١٢١٤ هـ) وارتكب « كليبر » فى سبيل إخمادها أفظع ما يرتكبه قاطع طريقٍ مجنونٌ من الفظائع والجرائم ، وضرب

القاهرة بمدافعه فخرَّب الدُّور والقصورَ والمساجدَ والحمامات والزوايا والقباب والأسوار ، « حتى بقىَ ذلك كُلُّه خراباً متصلاً » ، كما يقول الجبرتى ، مما لاَ تزالُ آثاره شاهدةً باقيةً إلى يوم الناس هذا ، لمن ينظر بعين عربية ، لا بعين أوربية تخالطها وطنيّةٌ ! وأُخمدت الثورة ، وظنّ « كليبر » أن مصر كُلَّها قد دانت له بالطاعة ، ولكنه لم يهنَأ بظنّه هذا شهرين حتى انقضَّ عليه عُقابٌ كاسِرٌ ، هو المجاهدُ « سليمان الحلبىّ » ، فعاجله بطعنة خِنْجرٍ فى قلبه فخرَّ وهو يصيحُ : « إلىَّ أيُّها الحراس » ، « وخَرَّ صريعاً لليَدَيْنِ وللفَمِ » ، وذلك فى يوم السبت (٢١ من المحرم ١٢١٥ هـ / ١٤ يونيه ١٨٠٠ م) . ما كان أذكى نابليون ! لقد توقَّع هذا المصيرَ ، فَنَجَا بجلده هارباً ، وهو يُنْشد ما قاله بشّار بن بُرْدٍ :

إذَا أَنْكَرَتْنِى بَلْدَةٌ أو نَكِرْتُها خَرَجْتُ مَعَ البَازِى عَلىَّ سَوَادُ [1]

● ثم خلف « كليبر » على عرش نابليون فى مصر ، « مينُو » القائد المكيافِلّى الشقىُّ الكذّابُ المنافقُ الأرعن فى يونيه ١٨٠٠ م (المحرم

---

(١) « أنكرته ، ونَكِرْتُه » ، كرهته وأوجست منه خيفة ، و « البازى » ، ضربٌ من الصقور الجارحة ، وهو يخرجُ من وكره بغَلَس قبيل الفجر . و « علىَّ سواد » يعنى خرج فجراً يلفّه سواد الليل . وكذلك فعل نابليون .

١٢١٥ هـ) . كان حاكِماً لرشيد من قِبَلِ نابليون ، فأصاخ سمعَهُ لسخفاءِ « الاستشراق » ومخادعيهم الكبار ، فقرَّر ، أو قرَّروا له ، أن يتقرَّب إلى شعوب دار الإسلام ، بإعلان إسلامِه بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسولُ الله ، وأنّه « أحبَّ الإسلامَ وأهلَهُ ورغب فيهما ، تاركاً لدين النصرانيَّة والأديان الرديئة » ،[1] ثم ظنّ أكذبَ الظنّ أنه من أسرةٍ فرنسية عريقة ، فهو خليق بأن يصاهر أسرةً من أهل رشيد ، شريفَة النسب ، من بيتِ النبوَّة ، فأجمعَ أمره على محاولة التقدُّم إلى الشيخ الجارم العريقِ النَّسب ، أن يزوِّجه إحدى ابنتَيه ، فلم يكد الخبر يَنْمِي إلى الشيخ حتّى أسرعَ مُبادِراً فزوّجهما رَجُلين من المسلمين قبل أن يتقدَّم إليه هذا الخبيث العريقُ الخَباثةِ ، ولكن وقع فى حبائل « مينو » السيدُ محمد البوَّاب أحد أعيان رشيد ، ولا ندرى كيف كان ذلك ،[2] فزوّجه ابنتَه المطلَّقة « زُبَيْدة » فى الخامس والعشرين من شهر رمضان ١٢١٣ هـ ، (٢ مارس ١٧٩٩ م) . وطيَّر « مينو » الخبر يومئذ إلى نابليون بعد رحيله إلى

---

(١) ما بين القوسين هو نصُّ ما جاء فى وثيقة زواجه .

(٢) ولكن من الممكن أن ندرى ، بل نستيقن ، إذا نحن أحسنا معرفة ما فعله جهاز الاستشراق فيما قبل مجيء الحملة ، كما سأشير إليه فى قضية المشايخ والديوان فى الفقرة الآتية رقم : (٢٢) .

فرنسا ، فما أنكر ذلك عليه . ولكن انظر يا سيدى إلى رجل عربىّ مسلم ، فى حياتنا الأدبية الفاسدة ، يكون كُلُّ تعليقه ، بعد أن روى خبر زواج هذا الخبيث بهدوءٍ وأناةٍ فقال : « وكانت حادثَة زواج مِينُو ، فريدةً فى بابها ، لم يسبقْهُ إليها أحدٌ من قوّاد الجيش الفرنسىّ ، فلا غَرْوَ أَنْ كان موضعَ تهكُّم زملائه » . يا سبحانَ الله ! بكل هذه البساطة والسَّماحة فى التعبير ، يعبِّر العربى المسلم ! ويقول : « تهكّم زملائه » ؟ .[1] ألم أقل لك إنها قصةٌ مليئةٌ بالمضحكات والمبكيات ، والآهات والحسرات ؟

وبقى « مينو » فى إمارته ، يلاقى الأَمَرَّين ، وينزل بالناسِ المصائبَ والبلايا ، ويعيثُ هو وبقايا الحملة الفرنسية فى الأرض فساداً وتخريباً ، حتّى انتهى جلاءُ هذه الحملة الجاهلة التى جاء بها الفَتَى الصليبىّ المُخْترق « نابليون » ليخترق دار الإسلام فى أعظم معقل من معاقلها ، حيث « الجامعُ العتيق » بالفسطاط و « الأزهر الشريف » بالقاهرة ، وليدمِّرِ « اليقظة » التى كانت فيها تدميراً لا يُبْقى ولا يذرُ ، ثُمَّ كان الجلاءُ الأخير من الإسكندرية ، يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر ١٢١٦ هـ /

---

(١) هو نص كلام الرافعى فى « تاريخ الحركة القومية » ٢ : ٢١٤ .

٣١ أغسطس ١٨٠١ م ، وخرجت فرنسا من مصر على عَجَلٍ ، ولكن ...

* * *

٢١ - ولكن ، هل يليقُ بى أن أكُفَّ ، وأدعَكَ مُصْغِياً إلىَّ تترقَّبُ بقيَّةَ الحكاية ؟

... رَحلت فلولُ جيش الفتى السفَّاح المغرور « نابليون » ، وجَلَتْ عن بلادٍ واسعةٍ عريضةٍ تركتها بَلْقَعاً تَصْفِر فيه الرِّيح ، وآنكشَحَتْ عن عاصمةٍ عتيقةٍ تركتها خراباً .[1] كان خراباً شاملاً ، وتدميراً لمدينة زاهرةٍ من أجمل مُدُن العالم يومئذٍ ، بعمارتها وفنونها ، وبِرَكها ومتنزَّهاتها ، أقدمَ على تدميرها تدميراً كاملاً بَرْبَرِىٌّ جاهلٌ مُسْتَخْفٍ فى زِىٍّ متحضِّرٍ ! ولكنْ صار هذا التدميرُ ، فى عَيْنِ حياتنا الأدبية الفاسدة ، هو رسولَ الحَضَارة الذى جاء ليخرجنا من ظُلُمات الجهل إلى عصر النُّور والتَّنوير !! لا تضحكْ ولا تَبْكِ ، ولكن أطْرِقْ إطْراقةَ الخِزْىِ والمهانةِ والعار . وكيف لا تطرقُ إطراقة الخِزْى إذا انكشف لك الحجابُ عن نيَّة

(١) لا تحسب أن « انكشح » عاميّة ، بل هى عربية صحيحة . « آنكشح القوم » ، ذهبوا وتفرقوا .

هذا المكيافلّى الخبيث . كان هدفُ هذا البربرىّ المتحضّر (!!) أن يخرّب عاصمةً من أكبر عواصم دار الإسلام وأجملها ، ويتركَها تاريخاً يُرْوَى فى وثائق « علماء الحملة الفرنسية » ،[(1)] أى يتركها أثراً بعد عينٍ ، حتّى إذا تمكّن فى الأرض هو وجِنْسُه ، أنشأ على أنقاضِها البائدة مدينة فرنسيَّةً جديدة ، تعبّر تعبيراً فصيحاً عن العبقريّة الفرنسية ، والفنّ الفرنسى ، والجمال الفرنسىّ ، والرقّة الفرنسية !! يعمُرها يومئذٍ شعبٌ فرنسىٌّ أصيلٌ كريم المحتِد ، يخدُمُه شَعْبٌ عربىٌّ مستأنسٌ مروَّضٌ ترويضاً حسناً على إلْف العادات الفرنسية الشريفة ، والتقاليد الفرنسية النبيلة ، والفجور الفرنسىّ الخالد .... كما سأحدثك عنه فيما بعد ، وليس الذى حدث فى دار الإسلام فى « الجزائر » عنك ببعيد .

ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخرّبة ، وعن الشعب الذى استنزفوا ثروتَه بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات ، حتى سرق « المستشرقون » المصاحبون للحملة الفرنسية ، و « مستشرقون » آخرون من كلِّ جنسٍ ،

---

(١) هو كتابُ « علماء الحملة الفرنسية » المعروف باسم « وصف مصر » وقد سجّلوا فيه كلّ صغيرة وكبيرة فى مصر ، لكى يصبح وثيقة تاريخيّة ، يتلذذون بها حين يقرأونها .

سَرَقُوا كُلَّ نَفيسٍ من الكُتُب ، وكانت القاهرة يومئذٍ من أغنى بلاد العالم بالكتب . ودليل السرقة قائمٌ بين أعيُننا إلى هذا اليوم ، يصيحُ شاهداً على نفسه بالسَّطوِ على ذخائرنا التى يمنُّون علينا بعد ذلك ، فى حياتنا هذه الأدبية الفاسدة : أنهم حفظوها لنا ، ونشروا لنا نفائسها ، (اقرأ ما ذكرته عن هذا النشر فيما سلف ص : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، والتعليق عليه) . دليل السرقة قائم فى جميع مكتبات أوربة ، صغيرها وكبيرها ، فى فرنسا وإنجلترا وهولندة وروسية وغيرها من البلدان ، وفى الأديرة والكنائس ، وفى جميع أرجاء العالم المتحضِّر !! وكان همُّهم الأكبرُ يومئذٍ هو السطوَ على كتب « علوم الحضارة » أوَّلاً ، ثم على كتب « التاريخ » ، ثم على كتب « الآداب » كلِّها بلا تمييز . ورحم الله الشيخ الجبرتىّ المؤرخ ، فإنّه أرّخ لدمار القاهرة ، ولكنّه بغفلته لم يؤرخ لنا تاريخ هذا السطو على كُتُب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمراء والمماليك المصرية إلاّ فى مواضع متفرِّقة قليلةٍ بلا بيانٍ واضح ، وإنّما هى الحسرةُ لا غيرُ . من ذلك أنه ذكر فى مقدمة كتابه (تاريخ الجبرتى ١ : ٦) بعد أنّ عدّد أسماء كتب التاريخ التى كانت فى القاهرة ثُمّ قال :

« قلتُ : وهذه أسماء من غير مسمَّيَات ، فإنا لم نَرَ من ذلك كُلِّه إلا بعضَ أجزاء مدشّتة بقيت فى بعض خزائن الأوقاف بالمدارس ،

مما تداولته أيدى الصحَّافين، وباعها القَوَمَةُ والمباشرون ، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايَا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدُوه إلى بلادهم » ، انتبه لهذا النص فهو مهمٌّ .

ثم قال أيضاً (تاريخ الجبرتى ٣ : ١٨٣) ، وهو يذكر قصة شروط الصلح للجلاء عن القاهرة ، ومن الشروط : أن الفرنسيين : « يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبِهم ، ولو التى شَرَوْها من مصر » ، هكذا فى الشرط ، والصحيح : « ولوالتى سَرَقوها من مصر » . ورحم الله الشيخ الجبرتى ما كان أشدّ غفلته عن أمورٍ كثيرة لم يذكرها واضحةً ، بما فيها مكتبة أبيه « الجبرتىّ الكبير » ، ماذا فعلوا بها ؟ وذلك لأنه كان مشغولاً عنها بتدبير أمرِ نفسه فى مَعْمَعة هذا التدمير الشامل للقاهرة وبيوتها وقصورها ومساجدها وعمائرها . و « لعل له عُذْراً وأنت تلومُ » ..

● لم يكن هذا السَّطْوُ الجائحُ على كُتُب دار الإسلام فى القاهرة ، والذى تولَّى كِبْرَهُ « مستشرقو » الحملة الفرنسية وأعوانهم من اليهود ومستشرقى سائر بلاد المسيحية الشمالية = لم يكن هذا سطواً لمجرّد رغبة « الاستشراق » فى أداءِ عمله ، من استمدادٍ لثقافة أُمَمِه من علم دار الإسلام المسطور فى الكتب ، (اقرأ ما سلف : ٦٧ – ٧١ ، ٧٧ – ٨١) ، ولشدة حاجة يقظتهم ونهضتهم يومئذ إلى هذا العلم ، لا ، بل كانت الغايةُ

الأولى المقدَّمةُ على كُلّ غايةٍ ، هى تجريدَ دار الإسلام فى القاهرة من أسباب « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية لوَأْدِها فى مَهْدها ، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقَم . ووَفْرةُ هذه الكتب النفيسة فى القاهرة يومئذ ، هى التى يَسَّرتْ الطريقَ إلى هذه « اليقظة » التى حمل عِبْءَ البَدْءِ بها « الجبرتىُّ الكبير » وتلامذته ، و « البغدادىُّ » و « الزَّبيديُّ » وتلامذتُهما ، فكان لابُدَّ للاستشراق وفلولِ الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملةُ من أجله ، فهوالهدفُ الأكبر : وَأْدُ « اليَقَظَة » فى عُقْر دارها . وبلا شكٍّ كانت سنوات الحملة الثلاث ، وما أصاب القاهرةَ فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماءِ ، وما عمَّ أحياءَها من الثَّوْارث والفِتَن الكبارِ والصِّغار ، ثم قَمْعِها بفجورٍ وشراسةٍ ، وتحضُّرٍ أيضاً ، = كان ذلك كُلّه حَدَثاً متمادياً كافياً أدّى إلى تشتيت شَمْل تلامذة « الجبرتىّ » و « البغدادىّ » و « الزبيدىّ » وتفرُّقهم فى الأرضِ ، وضَياعِهم فى الهَرْجِ والمَرْج . بل أنا لا أستبعد عن هؤلاء السفّاحين العُتاةِ ، أن يكون دُهاةُ « الاستشراق » على علمٍ بأعيانهم وأسمائهم ، منذ كان « المستشرقون » يتردَّدون على البيت العامِر بالصَّنادقية ، (حارة قرب الجامع الأزهر) ليقرأوا على صاحبه « الجبرتىّ الكبير » ، كما حدثتُك آنفاً ، (اقرأ ص : ١٢١) = لا أستبعد أن يكون وَكْرُ « الاستشراق » قد أغرى سُفَهاء السفّاحين بتعمُّدِ قَتْلِ بعضهم غيلةً أو جَهْرةً ، لا أستبعد ، والله أعلمُ أىُّ ذلك كانَ .

فكانَ السببُ الأكبر الدافِع إلى هذا السطو الجائح ، هو أن يحولوا بين « بقايا البقايَا » من تلامذة أئمة « اليقظة » الثلاثة الكبار ، وبين أسباب « اليقظة » ، وهى الكُتُب النفيسة ، وأن يتركُوهم فى خَرِبة القاهرة حَسْرَى حيارَى حيرة « الجبرتىّ » الصغير المؤرخ ، حين شرع فى تأليف تاريخه ، فافتقد كتب « التاريخ » التى « ذهبت بقايا بقاياها فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم » ، أو كما قال . حسرةٌ قاتلةٌ ، ولكنّ حياتنا الأدبية ، أو نهضتنا الحديثة ، كما يسمُّونها ، لا تلقي بالاً إلى حسرةِ مسكين بائسٍ حائر كالجبرتىّ الصغير !

● وُئِدت « اليقظةُ » أو كادتْ ، وخُرِّبت ديارُها أو كادتْ ، واستُؤصِلت شأْفَةُ أبنائها أو كادت ، واقتُلِعت أسبابُها بالسَّطو أو كادت ، والحمدُ لله على نَعْماءِ « الحملة الفرنسية » التى كان سفّاحُها المُبيرُ « المتحضِّر ! » ينوى أن ينشىء لبقايا السَّيف والتدمير من أبناء القاهرة العتيقة المهدَّمة « قاهرةً جديدةً » ، يستمتعون فيها بجمالها وفنونها ، ومسارحها وملاهيها ، وقُصورِها ومتنزَّهاتها ، ويتبخترونَ فى شوارعها خَدَماً فارِهين للسَّادة الأَحرارِ أبناءِ « الحريَّة والإخاءِ والمساواة » !

لقد شغلتنى قصَّة وَأْد « اليقظة » وقصّة الخرابِ والتدمير ، وقصة السَّطوِ الدنىء = شغلتنى عن نذالة هذا السفّاح الصليبىّ المُبير ، وما كانَ

من بشاعة سفحه الدّماءَ فى القاهرة ، وأوامره إلى قُوّاده فى الأقاليم أن يُوغلوا فى سَفْك دماءِ « التُّرك » ، أى المُسلمين المصريين ، وأن يتشبَّهوا به ، إذ يقتل فى القاهرة وحدها كُلَّ يومٍ خمسة أو ستةً ، ويأمُر أن يُطَاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، ويقول : « هذه هى الطريقة الوحيدةُ لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجِّهُوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، [1] فى قصة طويلة فظيعةٍ ليس لها شبيهٌ ، هى أفظَعُ من بلايا « جنكيزخان » .

... وشغلتنى أيضاً عن « جهاز الاستشراق » ، وهو الجهازُ المستكنُّ فى أحشاء « جهاز الاستعمار » و « جهاز التبشير » ، يَرْبَأُ لهما ويهديهما الطريق ، (« يربأ » ، يَرْقُب من مكان عالٍ ويتطَلّع) ، ولولاه لاستبهمت عليهما المسالك وهامَا فى أودية الضلالِ . كان هذا الجهازُ الخبيثُ المتخفِّى فى عباءَةِ العلم والبحث ، قد اكتسب خبرةً واسعةً جدًّا بدار الإسلام وأهلِها وسكانها، منذُ انساحَ فى قلب دار الإسلام فى تركية

---

(١) اقرأ أخبار ذلك كله فى كتاب الرافعى : « تاريخ الحركة القومية » ١ : ٢٨٣ وما بعدها . والذى قرأت هنا من نص بعض رسائل نابليون إلى قوّاده فى يوليه سنة ١٧٩٨ .

وهو يدبُّ مستخفياً فى أرجائها ، ثم فى الشام ومصر وجوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (اقرأ ما سلف : ٧٦) = ومنذُ مُقَامه فى دار الإسلام فى الهند أكثرَ من مئة وخمسين سنة ، فى ظِلِّ الشركتين الكبيرتين : « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، و « شركة الهند الشرقية الفرنسية » ، وغيرهما من « شركات » دول المسيحية الشمالية ، (اقرأ ما سلف : ١٢٧ - ١٢٩) . كانت خبرةً متغلغِلَةً بجماهير الأمّةِ مجتمعةً ، ثم بطوائفها المختلفة ، ثم بأفرادِ رجالٍ بأعيانهم واحداً واحداً ، معروفِ الاسم والمكانِ والحركة . كانت خبرةً بمواطن الضعف والقوّة ، وبِمَكَامن الهَوى الميَّال الذى يستجيب ، والإرادة المصمِّمة التى تمتنع عن الاستجابة ، أى كانت خبرةً مدروسةً منظّمةً واضحةَ المعالم فى ذهن « الاستشراق » . ومع تطاوُل السنين عليه ، اكتسب لنفسه أعواناً من اليهودِ وشُذَّاذِ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، يستأجرهُم لتوسيع رُقْعة خبرته تارةً ، ولبثِّ أفكارٍ مدروسة بين جماهير دار الإسلام خاصَّتِها وعامّتها ، وللتحكُّم فى تصريف أموره وبلوغ غاياته تارةً أُخرى = ثم للتمكُّن من إشعالِ نارِ الفتنة حين يقتضى الأمْرُ إحداثَ فِتنٍ تفرِّق شَمْل الناس وتمزِّقهم وتشغَلُهم عن الكيد الخفىّ الذى يُرَاد بهم . كُلُّ هذا كان يتمُّ فى هدوءٍ وصبْر وتستُّرٍ ، ومن وراءِ الغَفْلةِ ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قَضيَّتهم ، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التى تتجوَّل فى الطرقاتِ والشوارع فى كُلّ زىّ : زِىِّ

التاجر ، وزىّ السائح ، وزىّ الباحثِ المَنقِّبِ ، وزىّ العالم الذى لا يشغلُه شىءٌ غيرُ العلم ، وزىّ المُسْلمِ الذى رضى بالله ربًّا وبالإسلام ديناً !! (اقرأ ما سلف ص : ٧٦) .

• فالحملةُ الصليبيّة الفرنسية التى استجابتْ لنذير « الاستشراق » ، كان « الاستشراق » مستكنًّا فى أحشائها وأحشاء قائدها العظيم « نابليون » ، يُرشدُهُ « الاستشراقُ » ويهديه . وهى لم تُقْدِم على اختراق دار الإسلام فى مصر ، إلاَّ وهى مُزَوّدة بأدقّ التفاصيل عن هذه الأرضِ وسُكّانها ، ومداخلها ومخارجها ، ومشايخها وعلمائها ، وعامَّتها وسوقتها ، ونسائها ، ورجالها ، وجيشها وشعبِها . جاءتْ ومعها الدَّجّالون العُتاةُ « علماءُ الحملة الفرنسية » ومستشرقوها وخبراؤها وأعوانُها من اليهود وشذّاذ الآفاق ، وكُلُّهم يدٌ واحدةٌ على إحداثِ انبهارٍ مفاجىءٍ يصدِمُ زَعْىَ الشعب خاصتّه وعامَّتِه صَدْمةً تذهِلُه عن المكر المَسْتور المُفضِى إلى تدمير رُوح المقاومة أو إضعافها إضعافاً يُتيح للغُزاة تثبيتَ أقدامهم فى الأرض والسَّيْطرةَ عليها سيطرةً كاملةً ، حتى لا تَدَعَ للمقاومةِ طريقاً إلا طريق الاستسلامِ العاجز للمصير المُظلِم ، مَصيرٍ مُعْتمٍ لا يستفيقُ الشعبُ إلا وهو مُرْتَكِسٌ فى ظلماتِه عاجزاً غير قادرٍ على طلبِ المخرج من ظُلُماتها المدلهمَّة ، فى « قاهرة جديدة » زاهرةٍ زاهية الألوان ، قامت على

أنقاض « قاهرة قديمةٍ » مدَمّرةٍ غابت فى قَتامِ الذكريات !!

* * *

● كانَ أوّلَ الطريــق إلى هذا المصيــرِ المُظْلــم إنشاءُ « الديوان » ، (١) وليس يعنينى هنا من أمرِهِ شىءٌ إلاّ خَبْؤُهُ المدفُونُ فيه ، والخُدْعة التى ينطوى عليها ، فيما تصوَّره « الاستشراق » . وهذا « الديوان » ، أمر بإنشائه نابليون منذ أول يوم دخل فيه القاهرة ، (الثلاثاء ١٠ صفر ١٢١٣ / ٢٤ يوليه ١٧٩٨) ، وذكر فى أمر إنشائه أسماءَ مشايخَ بأعيانهم يتكوّن منهم « الديوان » . وهذا الذكرُ المفاجىءُ وحدَهُ دليلٌ على أن الأمرَ كانَ مُعدًّا إعداداً كاملاً قبل أن تطأ قدمُه أرض مصر ، وأنّ الأسماء قد اختيرتْ بَعدَ تدبيرٍ مُحكَم ودراسةٍ قام بها « الاستشراق » وأعوانُه منذ فكر فى شَنِّ الحملة على مصر . وقاعدة اختيارهم : « أن يكونوا من أعيانِ البلادِ الذين امتازوا بمركزهم العلميّ

---

(١) « الديوان » صورة هزلية « لحكومة دستورية ! » ، كما يتوهَّم الرافعى ! ، تحكمُ القاهرة ، وكان لكل مدينة أخرى ديوانُها الحاكم ، وتستطيع أن تقرأ هذه المهزلة فى « تاريخ الجبرتى » ، أو فى « تاريخ الحركة القومية » للرافعى ، ولكن اقرأها بعين عربيةٍ بصيرة ، لا بعين أوربية تخالطها وطنية قومية ، كما فعل الرافعى وغيرُه .

كفايتهم ، وطريقة استقبالهم للفرنسيين » . [١] ومعنى ذلك أنّه يريدُ أن يُودِع سُلطة الحكومة الظاهرة المموّهَة ، فى يد فئة ذات هَيْبَةٍ عند النّاسِ ، وأن يكونوا جميعاً ممّن يُمكن أن يستجيبُوا بشكلٍ مّا استجابةً تدين بالوَلاءِ لجيشه الغازى ، ليروِّضَ بهم قُوَى المقاومة ويخدعَها ويفتَّ فى عَضُدها . وهذا شىءٌ لا يُقْدِم على مثله بهذه السرعة ، إلا بعد خِبرةٍ سابقةٍ بأصحاب هذه الأسماءِ وبمواطن ضَعْفِهم التى تقعدُ بهم عن المقاومة ، وتُسوِّل لهم أن يُحْسِنوا « استقبال الفرنسيين » الذين انتهكوا حرمة ديارهم وأوطانهم . ولا سبيل إلى معرفة ذلك كُلّه إلاّ عن طريق جهازٍ مدرّبٍ قد طال عَهْدُه باختبارِ النّاس وتقصّى أحوالهم من قريبٍ . وهذا الجهاز هو « جهاز الاستشراق » الذى كان يعرف لغة أهلِ البلاد ، والذى كان يتجوّل فى الأرضِ المصريّة من قبلُ ويلبسُ لأهلها كُلّ زىٍّ ، كما حدثتك آنفاً . وكُلُّ المنشورات التى كان أصدرَها هذا المكيافلّىّ ، لِتُلْقى وتذاعَ على المصريين مُنذ أوّل دخوله أرض مصر ، تدلُّ صياغتُها على أنّ صاحبها وصاحبَ مَضْمونها له خِبرةٌ طَويلةٌ بألفاظ أهل الإسلام ، وبعقائدهم ومشاعرهم . فبيِّنٌ أنّ صاحبَها هو « الاستشراقُ » لا غيرُ ، وهو يظنُّ أنه

---

(١) « تاريخ الحركة القومية » ١ : ٣٠٤ .

قادرٌ بتمويهه ومكره ومداهنته ، أنّه بهذه الصغائر السَّخيفة قادرٌ على أن يخدعَ أُمةً كاملةً عن قتال عَدُوِّها الغازِى ، فكان ردُّ الأمة على هذا الخداع السخيف والتمويه الساذج بألفاظ أهل الإسلام = ثم على خديعة « الديوان » الفاضحة ، هو اندلاع الثورات فى أقاليم الوجه البحرىّ والصعيد ، وأكبرها ثورةُ القاهرة وأحيائها فى يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) ، أى بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض دار الإسلام بجحافله وعُدَدِه ، فارتكب فى قَمْعها من القسوة والتدمير وذَبْح الرجال والنساء أيضاً ، وسَفْح الدماء الغزيرة ما ارتكب ، ولكنّه نَذَر وأَوْفَى بنَذْرِه أن يَزِيدَ ، فيُضَحِّىَ عند مَشْرِق كُل شمس بخمسة أو ستة ، تُقْطَع رؤوسهم ويُطاف بها فى أنحاءِ القاهرة ، كما أسلفت (ص : ١٤٧ تعليق : ١) . ولا شكَّ عندى أنّ هؤلاء الخمسة أو الستة هُمْ من طُلاَّب العلم فى الأزهر ، ومن المحرِّضين على مقاومة هذا الغازى المنتهك لحرمة دار الإسلام = وأنّ « الاستشراق » هو الذى كان يقدِّمهم لهذا الجزّار المُشْمَعِلّ ، (أى السريع النشيط) ، وأنه كان يتخيَّرهم له ، لأنه كان على معرفة سابقة بهم ، وأنهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة « الجبرتىّ الكبير » و « الزَّبيدى » ، أى أنهم كانوا من طلائِع « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية قبل كُلِّ شىء لوَأْدِها فى مهدها .

وإلا فحدِّثنى ما كان معنى اختصاص خَمْسةٍ أو ستة بالذَّبح عند مَشْرِق

كُلِّ شمس ، وهذا هو وجنودُه يعيثُون فى الأرض ويذبحون المئات من صَنَاديد المقاومة ومَغَاوير ثورة القاهرة ؟ ورحم الله « الجبرتىّ المؤرخ » ، فإنه سقط عَنْه فى كتابه أن يقيّد لنا أسماء القتلى ، وصِفَاتهم ، وأسماءَ هذه الذبائح الذى كان يُضَحّى بها جزّار القاهرة . « لعلَّ لَهُ عُذْراً وأنتَ تَلُومُ » !

● كان « الاستشراقُ » كامناً فى أحشاء نابليون . هو الذى يُوَجِّهه ويلقّنُه ويدرِّبُه على أساليب المداهنة التى يظنُّ أنها تروجُ على أهل دار الإسلام ، وكان رأس الاستشراق فى الحملة الفرنسية هو « فانتور » المستشرق الداهيةُ المحنَّك المتسترِّ الخفِىُّ الوطءِ ، [1] (انظر ما سلف ص : ١٣٦) ، كان خليلَ نابليونَ ونَجيَّهُ الذى لا يفارقُه فى الحَلِّ والتَّرْحَال ، فهو الذى أوحَى إليه ما أوحَى ، وأوهَمهُ أن « تدجين » المشايخ الكبارِ من رجال الأزهر فى « الديوان » = (« التدجين » ، الاستئناس ، من قولهم « داجنٌ » لكل ما يألف البيوتَ من طائر أو بهيمة مستأنسة) = ضمانٌ كافٍ لكسب ثقة جماهير دار الإسلام فى مصر حتّى تستكين له

---

(١) قضى « فانتور » أربعين سنة يتجوّل فى دار الإسلام قبل أن يلتحق بالحملة الفرنسية ، قال عنه الجبرتىّ : « كان لبيباً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى » ، تاريخ الجبرتى ٣ : ٦٨ ، وسماه « فنتوره » .

وتخضعَ ، وظَلَّ هذا الوَحْى الجاهل الساذجُ كامناً فى أحشاء الجزّار ، ولم تعظْهُ ثورةُ القاهرة والأقاليم بعد ثلاثة أشهُر من مَجيئه ، ولا وَعَظته هزيمتهُ فى « عكّا » ، فإنّه بعد فراره بنفسِه من مصيرٍ محتومٍ ، كما أسلفت (انظر ص : ١٣٧) ، كتب رسالته إلى « كليبر » كَبْشِ الفداء (!!) يقول له فيها :

« يجبُ أن تحذرَ رُوحَ التعصُّب وتُنَوِّمها إلى أن تتمكّنَ من استئصالها . إذا حُزْت ثقة كبار مشايخ القاهرة ، فإنّكَ تجمع حولكَ أفكارَ مصر بأجمعها ، وأفكار كُلِّ زعيمٍ من زعماء الشعبِ . لا شيءَ أقلُّ خطَراً من المشايخ الذين يرهبونَ القتالَ ولا يعرفون طُرُقه ، ولكنهم مثل القسيسين ، يُوحون بالتعصُّب ، دون أن يكونُوا هم أنْفُسُهم متعصّبين » . (١)

ومسكينٌ هذا الجزّار ، فإنَّ تدجِينَ المشايخ الكِبارِ فى « الديوان » ،

---

(١) هذا من نص ترجمة الرسالة كاملةً فى كتاب أحمد حافظ عوض ، (فتح مصر الحديث : ٤٠٩ ، ٤١٠) ، أمّا الرافعى فى « تاريخ الحركة القومية » ، (٢ : ٩٧ - ١٠١) فإنه بعثر الرسالة بعثرةً مفسدةً ، لينزع منها سُمَّها ، غفر الله ذنوبه ، وسيأتى بعد قليل ما هو أشنع من هذا من فعل الرافعىّ .

لم يمنع الثَّورة أن تقوم ، وذلك لأن « المشايخ الكبار » لهم عند عَامَّة المسلمين ، هَيْبَةُ العلم ، وطاعتُهم واجبةٌ علينا فيما هو طاعةٌ لله ولرسوله ، ولكن هيبةُ العلم ليست بمانعةٍ جماهيرَ الأُمَّة من عِصْيانهم وتَرْكِ طاعتهم إذا هُمْ خالفوا صريحَ أوامِرِ الله وأوامر رسوله ﷺ بقتال الغُزَاة لدار الإسلام ، فإن قتَالَ الغزاةِ عند المسلمين واجبٌ وفرضُ عينٍ على كُلِّ قادرٍ على القتالِ ، إلاّ فى حالةٍ واحدة : إلاّ أن يخافُوا أن يَصْطَلِمَهم العدوُّ لقلَّة عددهم وكثرةِ عدَدِ العدوِّ ، (« اصطلمهم العدوّ » ، استأصل شأْفَتَهم وأبادهم) ، فجائزٌ عندئذٍ أن يُلْقُوا إليهم السَّلَمَ ، (« ألقى إليه السَّلَم » ، استسلم له وصالحه) ، بَيْدَ أنّ فى قتالهم الشهادةُ ، وهى إحدى الحُسْنَيين ، (« الحُسْنيان » ، النصر أو الشهادة) . وفى حالةِ هذا الجزَّار ، أنَّ جيشَهُ قِلَّة فاجرةٌ تغزو كثْرةً مسالمةً تَفَرَّق عنها حُمَاتها من جَيش المماليك المصرية ، فصارَ واجباً على الكثرة أن تقاتل هذه القلَّة بكُلِّ سلاحٍ ما استطاعت إليه سبيلاً . ولذلك لم تستمع الأُمَّةُ عامَّتُها وخاصتُّها للمشايخ المُدَجَّنين فى « الديوان » لمهادنة الغازى ، واستمعت لصِغَار طلبة العلم فى الأزهر الذين رفضُوا نصيحةَ المشايخ الكبار بمهادنة الفرنسيين . رفضوها طاعةً لله ولرسوله ﷺ ، وقامت ثورةُ القاهرة والأقاليم . وموقف « المشايخ الكبار » له تفسيرٌ ليس هذا مكانُه الآن ، ولكنهم ضَعُفُوا وجَبُنوا وأخطأوا على كُلِّ حالٍ (اقرأ الفقرة الآتية رقم : ٢٢) .

وأرجِّح أن هذا الجزَّار وشيطانَهُ المستشرِقَ « فانتور » ، لم تنفعهما عِظَةُ ثورة القاهرة وهزيمة « عكَّا » ، لأن غباءَ « الاستشراق » وغطْرسته وتعاليه لم تمكِّنهما من فهم هذه الحقيقة التى دلَّت عليها الثورة الجائحة التى هدّدت مَصير الحملة الفرنسية وحدَّدته تحديداً ظاهراً أدّى إلى أن يلوذَ جزَّارها بالفرار ، تاركاً مَصير حملته وخليفتِه « كليبر » للمقادير تقْضى فيهما قضاءَها . لم يفهم هذان العِلْجانِ ، (« العِلْجُ » الرجل الشديد من العجم) ، هذه الحقيقة على صورتها الصحيحة ، فسمَّياها « تعصُّباً » ، مع أنها إحدى البدائه المسلَّمة ، لأن دفع عُدوان الغازى وكراهيتَه حقٌّ طبيعىٌّ لكُلِّ جماعةٍ من البشر يغزوها غازٍ فى عُقْرِ ديارها ، بديهةٌ مُسَلَّمة بلا رَيْبٍ = وأخطآ أيضاً فى تشبيه مشايخ دار الإسلام بالقِسِّيسين فى ديار المسيحية الشمالية ، لأن المشايخ لا حُرِّيَّةَ لهم وَراءَ الكتاب والسُّنَّة ، والأمّة كُلُّها مطالبَةٌ أنْ تحاكِمَهم بما يوجبُه الكتاب والسنّة . أما القسّيسون فإليهم وحدهُم الحكْم المطلقُ بآرائهم ، ليس لأحدٍ من رعاياهم أن يسائلهم ، وليس فى أيدى رعاياهم شىءٌ يحاكمونهم إليه ، وإنما هى الطاعةُ المُصْمَتَةُ لحُكمِ الرهبان والقسيسين . وهذا فرقٌ ظاهرٌ بين رعايا الإسلام ورعايا المسيحية ، لا يَعْمَى عنه إلا « مستشرِقٌ » ، وجزَّارٌ .

● أيقنَ الجزّارُ وشيطانُه « فانتور » أن تدجينَ المشايخ الكبار فى

« الديوان » قليلةٌ جَدْواه فيما كانَا يُؤمِّلان من طاعة الجماهير وخضوعها ومُهَادنتها للغُزَاةِ . أرّقتهما خَيْبَةُ الأمل في تدجين المشايخ ، فلمّا خرجا إلى سورية لتَدْويخها وطال حصارُ « عكّا » ، وأَيْقنا بأَخَرَةٍ أنّ الدائرة ستدور عليهما وعلى جيشهما = أَيْقنا أيضاً أنّ محاولة اختراقِ دار الإسلام بالسلاح كانت زلّةً لا تُقالُ عَثْرتُها ، ولكن لا سبيل إلى التراجُع . وكُلُّ الدلائل كانت تدُلُّ على أن دار الإسلام في مصر = بعد تمزُّق جيش المماليك المصرية ، وهم حُماةُ مصر = قد بدأت تُخْرِجُ من غِمَار الجماهير المصرية جيشاً جديداً قادراً على الفَتْك بالحملة القليلة العَدَد ، وإن كانَت مُزوّدةً بأحسَنِ العُدَد . ومع ذلك لم ييأس الجزّارُ المغرورُ أنْ تجرى المقادير على وَفْقِ آماله ، وعَسَى ولعلّ ، فربَّما كانت الغلبةُ لهذه القِلَّة المزوَّدة بما ليس في أيدى الجماهير الكثيفة مِثْلُه من سلاحٍ متفوِّق . عسَى ولعلَّ ، وبَيَّتَا النِيَّة على هذا الأملِ ، وبحثا عن وسيلةٍ أخرى يُقدِّرانِ أن تكون أبلغَ أثراً ، وأجدَى في السيطرة على الجماهير الكثيفة . وانتهى حصارُ « عكّا » بالهزيمة الفادحة ، (انظر ما سلف ص : ١٣٦ ، ١٣٧) ، وتخلَّى عن الجزار شيطانُه ، وهلك « فانتور » فيمن هلك من قُوَّاده وعلمائه ومستشرقيه والآلاف من جُنده الغزاة ، وعاد إلى مصر كاسفَ البال ، ثم رحل عنها بعد قليلٍ إلى فرنسا ناجياً بحُشَاشَةِ نَفسِه من مَصيرٍ كان كأنّه يراهُ ماثلاً عياناً . ولم يكد يستقرُّ حتى أرسلِ إلى « كليبر » ، خليفته على

مصر ، رِسالةً طويلةً مُتفاوتةً مضطربةً عجيبة الاضطراب ، ليسكُن رَوْعَ « كليبر » ويسدِّدَ خُطاهُ فى سياسته فى مصر !! والذى يهمُّنى هنا من هذه الرسالة [1] = وقد اقتبستُ منها آنفاً ، (ص : ١٥٤ / تعليق : ١) = ما جاء فى خواتيمها ، وهو قوله لكليبر ، (هذا النص من ترجمة حافظ عوض) :

« ستظهر السُّفُنُ الحربيّة الفرنسية بلا ريبٍ فى هذا الشتاء أمام الإسكندرية « أو البُرُلُّس أو دمياط . يجب أن تبنى برجاً فى البُرُلُّس .

« اجتهدْ فى جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصاً من المماليك ، حتّى متى « لاحت السفنُ الفرنسية تقبضُ عليهم فى القاهرة أو الأريافِ وتسفِّرهم « إلى فرنسا . وإذا لم تجد عدداً كافياً من المماليك ، فاستَعِضْ عنهم « برهائن من العرب ومشايخ البُلْدَان ، فإذا ما وصلَ هؤلاء إلى « فرنسا يُحْجزُون مدةَ سنة أو سنتين ، يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمّة « (الفرنسية) ، ويعتادونَ على تقاليدنا ولُغَتنا ، ولمّا يعودون إلى مصر ، « يكون لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليه غيرهم .

« كُنْتَ قد طلبتَ مراراً جوقة تمثيلية ، وسأهتمُّ اهتماماً خاصًّا

(١) ينبغى دراسة هذه الرسالة بعنايةٍ ، وبنظر صحيح غير النظر الذى ذهب إليه الرافعىّ فى كتابه .

« بإرسالِها لك ، لأنها ضرورية للجيش ، وللبَدْءِ فى تغييرِ تقاليد البلاد » .

* * *

• وقبلَ كُلِّ شيءٍ ، ينبغى أن أقطع سِياق الكلام ، لأَقف بك على ضرب شَنيع من ضروب فساد حياتنا الأدبية وتلوُّثها بالأَهواءِ الغالبة التى تستخفى ، ثُمَّ تستهين بعقلى وعقلك . فأوّل من وقف على هذه الرسالة أحمد حافظ عوض فى كتابه « فتح مصر الحديث » (ص : ٤٠٧ - ٤١١) فقال :

« وهذا الكتاب (يعنى الرسالة) محفوظٌ بالنصّ الأصلىّ فى وزارة الحربية الفرنسية (وثيقة نمرة ٤٣٧٤) ، ولأهمية هذا الخطاب ، وعدم وجود أثرٍ له فى اللغة العربية ، رأينا أن نأتى على تعريبه بِدِقَّةٍ وإتقان » ، ثم ساق نص الرسالة . وكتاب أحمد حافظ عوض منشور فى سنة ١٩٢٥ ، فجاء الرافعى ، غفر الله له ذنوبه فى ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، فذكرها فى كتابه « تاريخ الحركة القومية » (٢ : ٩٧ - ١٠١) ، أى بعد أربع سنوات ، فقال :

« أما رسالة (نابليون) إلى الجنرال كليبر ، فهى وثيقة على جانبٍ عظيم من الأهمية ، كتبها بإمعانٍ وتفكير ... وهى رسالةٌ مطوّلة أشبهُ بتقرير وافٍ ، لذلك رأينا أن نعرِّبها مع شيءٍ من الشرح والبيان » .

وألغى ذكر أحمد حافظ عوض وكتابِه وترجمته ، مع أنه يعرف الكتابَ وصاحبه بلا شكٍّ عندى أنا خاصَّةً ، [1] واستأنف للرسالة ترجمةً جديدةً ولم يَسُقْها متكاملةً ، بل بعثرها وقطَّعها وجزَّأَهَا فى نحو خمسِ صفحاتٍ من كتابه ، استناداً إلى ما سماه شرحاً وبياناً . فلما جاء عند النص الذى نقلته لك آنفاً ، قال ما يأتى :

« وتعرَّضَ فى رسالته إلى مشروعات استعمارية ومسائل ثانوية
« لم يُفتْه التفكير فيها فى تلك الأوقات العصيبة ، فأوصاهُ باعتقال
« خمسمئة أو ستمئة من المماليك أو من رهائن العرب ومشايخ البلاد
« (العمد) ، وإرسالهم إلى فرنسا ، فى حالة استئناف المواصلات البحرية ،
« ليبقوا بها سنة أو سنتين ، وغايةُ نابليون من ذلك : [أن يروْا عظمةَ
« الأمة الفرنسية ، ويقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ولُغتنا ، ويعودوا إلى
« مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم] » .

---

(١) بل أقول لك : إن كتاب الرافعى إنْ هو إلا تطبيق للبرنامج الذى وضعه أحمد حافظ عوض لتأليف كتابٍ فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر . اقرأ مقدمة كتاب « فتح مصر الحديث » تعلم أنه هو الذى سنَّ للرافعى الطريق بلا شكٍّ ولا ريبة ، ومع ذلك فلم يذكره الرافعى بكلمة واحدةٍ فى مقدمته أو فى كتابه !

« ثم وعدَ الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقةً من الممثّلين كان قد أوصى عليها من قبل [لتسدّ حاجة الجيش ، ولتألفَ البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية] » .

والاختلاف بين النصَّين بيِّنٌ جدًّا ، ودِلالة أحدهما غير دِلالة الآخر ، ومعناهُ غير معناه . فرقٌ بين : « يعتادون على تقاليدنا ولغتنا ، ولمّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم حِزبٌ يضَمُّ إليهم غيرهم » = وبين : « يقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم » ، لأنّ الأوّل دالٌّ على أنه يريدُ أن يَسْتفسدهم ويَبْهرهم ويَعِدَهم ويمنّيهم ، ويكوّن منهم فى مصرَ حزباً تحت سيطرته يكونُ نواةً لحزبٍ أكبر منه . فهذه سياسة متبعة مؤسسة على مكيافليّة نابليون = أمّا الثانى فإنه ينزعُ سَمَّ هذه العبارة ، ويجعل الأمر كُلَّه أمر « اقتباس » من عادات فرنسا وأفكارها وأخلاقها ولُغتها ، ونشر ما يقتبسونه بين المواطنين المصريين ، وهذه مجرّد أمنيَّة ساذجة تكون أو لا تكون .

وكذلك القول فى قوله فى شأن فرقة الممثلين . فَرْقٌ بين : « إنها ضرورية للجيش ، وللبدء فى تغيير تقاليد البلاد » ، وبين : « لتسدّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية » ، فالأوّل دالٌّ على غَرَضٍ مقصودٍ لذاته هو « تغيير تقاليد البلاد » ، فهذه أيضاً سياسة

مكيافيلية = أمّا الثانى فإنه ينزعُ أيضاً سمَّ العبارة ، ويجعلُ الأمر كُلّه مجردّ عرض شيءٍ جديد على الناس حتى إذا استحسنوه أِلفوه ، وهذه مجرّد أمنيَّة ساذجة تكون أو لا تكون . هذا كُلُّه فضْلاً عن مقدِّمة الرافعى التى تجعل هذه السياسة المكيافلية الخبيثة ، مجرد مسألة ثانوية لا خَطَر لهَا ، يا سبحان الله !!

فنصُّ ترجمة أحمد حافظ عوض أولى بالثقة من نصّ ترجمة الرافعى ، وأدَلُّ على سياسة جزَّار القاهرة ومدَمِّرها ومُفْسِدِ أخلاقِ الشذّاذِ من أبنائها ، مدةَ إقامة جيشه فيها . وليس النصُّ الفرنسىُّ بين يدىَّ الآن ، ولكنّى أرى فى أوّلهما الأمانةَ وسلامةَ الطويَّة ، وفى ثانيهما تركَ الأمانة وتبييتَ النيَّة على نزع سمِّ العبارة إكراماً لنابليون العظيم !! مع أن كلا الرجلين فى كتابيهما كان كاتباً مُدَجَّناً ، وكان صَغْوُه ، (أى مَيْله) إلى نابليون العظيم !! وإلى فرنسا مصدرِ النُّور والتنوير !! وكما يقول المثل العامىُّ : « ما أسخم من سِتّى إلا سيدى » !

هذه بين يديك تقاليدُ حياتنا الأدبية الفاسدة فَساداً يستعصى على الإصلاح الشّامل السَّريع الأَمين . وقبيحٌ جدًّا أن تتغاضى حياةٌ أدبيّةٌ عن مثل هذا القُبْح ، فضْلاً عن أن ترضاهُ ، فَضْلاً عن أن تتواصَى به حتى يكونَ سُنَّةً مألوفة ، لا يكادُ ينكرها قارىء أو أديبٌ أو أستاذٌ ، وإلْفُ

القبيح مُتْلِفَةٌ للإحساس والعقل جميعاً ، ولكن لهذا كُلِّه سببٌ واضحٌ ، سوف أحدِّثك عنه فى الفقرة التالية :

* * *

٢٢ – لمّا مضى مئتا عامٍ على فتح القسطنطينية ، حصن المسيحية الشمالية الشامخ فى يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، غرقت دار الإسلام فى غفلة هائلة شاملة أحدثها الغرور بالنصر القديم على المسيحية الشمالية ، وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية وتدفُّق جيوش دار الإسلام فى قلب أوربة ، وعَمِيَتْ دار الإسلام يومئذ عن اليقظة الهائلة الشاملة التى أحدثتها الهزائم القديمة والحديثة فى ديار المسيحية ، والتى قامت على الإصرارِ والمجاهدة والمثابرة وإصلاح خَلَل الحياة المسيحية الشمالية ، حتى آنفكّت عنها أغلالُ « القرون الوسطى » بَغْتَةً ، وانبعثت نهضة « العصور الحديثة » ، فارتفعت كِفَّةُ المسيحية الشمالية ، وانخفضت كِفّة دار الإسلام ، وبدأت « المرحلة الرابعة » للصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٦٢ – ٦٤) .

ويومئذ تحدَّدت أهداف المسيحية الشمالية ، وتحدَّدت وسائلها ، ولم يغِب عن أحدٍ منهم قطُّ أنهم فى سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية

رابعة ، لا بقَعْقعةِ السلاح ، وما هو إلا سلاحُ العمل والعلم والتفوُّق واليقظة والفهم والتدبير ، ثم الصبرُ والمكرُ والدهاء واللينُ والمداهنةُ وتركُ الاستثارة ، استثارةِ عالم ضَخْمٍ مجهولٍ ما فى جوفه ، ولا قِبَل لهم بتدفُّق أمواجه الزاخرة ، والتى كان « الترك » الظافرون طلائِعَها الظاهرةَ لهم عِياناً فى قلب أوربة ، (اقرأ ما سلف : ٦٥ – ٧٤) . وبدأ الزحف البطيء المتتابع الخفىّ الوَطْءِ يَخْترق دار الإسلام فى تركية والشام ومصر والجزائر لابساً كل زِيّ : زِىّ التاجر ، وزىّ السائح ، وزىّ العالم الباحث ، وزىّ المسلم طالب العلمِ ، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة ، وفى الألسنة الحلاوة والخِلاَبة والمماذَقَة . وعلى مرّ الأيّام والشهور والسنوات ، توغّلوا زَرَافاتٍ ووُحْداناً فى قلبِ دارِ الإسلام يأخذون أهلَها من وراء الغَفْلة ، ويستخرجون كُلَّ مخبوءٍ كان عنهم من أحوال الخاصة والعامَّة ، والعلماء والجهلاء ، والحلماء والسفهاءِ ، والملوك والسوقة ، والجيوش والرعية ، ويرُوزون (أى يختبرون) القوّةَ والضعف ، والذكاء والغفلة ، وتدسَّسوا حتّى إلى أخبار النساءِ فى خدورهن ، ولم يتركوا شيئاً إلا خبروه وعجمُوه ، وفتّشوه وسَبَرُوه ، وذاقوه واستشفُّوه ، متعاونين متآزرين ، تحت رعاية « المستشرقين » حملةِ هموم المسيحية الشمالية ، وإرشادهم وتوجيههم ، (اقرأ ما سلف : ٧٦ – ٨١ / ١١٧ – ١٢٦) .

* * *

مضت السُّنون و « الاستشراق » فى عَمَل دائب وتدبيرٍ متمادٍ ، وسياحةٍ فى دار الإسلام ، ولا يكفّون عن إمداد ملوك المسيحية الشمالية بكُلِّ ما علموا من أحوال دار الإسلام ، وما رأوهُ عِياناً فيها ، وما خبروهُ من الغفلة المطبقة على دار الإسلام ، فنشأت بفضلهم طبقة « الساسة » الذين صاروا يُعِدُّون ما استطاعوا من عُدَّةٍ لردّ غائلة الإسلام ثم قَهْره فى عُقْره داره ، وتحقيقِ الأحلام والأشواق التى كانت تُخامِرُ قلب كُلِّ أوربىّ ، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة فى دار الإسلام وما وراء دار الإسلام . وهذه الطبقة من الساسة هم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال « الاستعمار » ، (اقرأ ما سلف : ص ٦٨ – ٧١) . فلما كاد القرن السابع عشر الميلاديُّ ينصرم ، كانت تركية لم تفقد بعدُ هيبتها فى قلوب ساسة المسيحية الشمالية ، ولم تنس ساسة فرنسا خاصةً الحربَ الصليبية السابعة المعروفة باسم « واقعة المنصورة » والتى انتهت بهزيمة الفرنسيين ، والتى هلك فيها ثلاثون ألفاً منهم ، وأُسِرَ فيها لويس التاسعُ ملكُ فرنسَا وطائفةٌ من ضباطه ، وجُعلوا فى « دارِ ابن لقمان » ، وتولّى أمر حراستهم الطواشِى « صَبِيح » ، وذلك كان فى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

وفى أواخر القرن السابع عشر الميلادىّ ، أى بعد أربعة قرون ، كان أوَّل من حرَّض فرنسا على اختراق دار الإسلام فى مصر ، هو الفيلسوف

الرياضى الألمانى « ليبنتز » (جوتفريت فلهلم) (١٦٤٦ – ١٧١٦ م) ، وكان قد التحق بالسلك الدبلوماسى ، وقضى أربعة أعوام فى باريس (١٦٧٢ – ١٦٧٦ م) ، فى بلاط لويس الرابع عشر ، فقدَّم إليه فى سنة ١٦٧٢ م تقريراً يحرِّضه فيه على اختراق دار الإسلام فى مصر ، ويقولُ له فيه : « إنَّكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها فى بلاد المشرق (أى فى دار الإسلام) ، إلى ما شاءَ الله ، وتكسبون عَطْف المسيحية وتستحقُّون ثناءَها ، وهنالك لا تخسرون عطفَ أوربة ، بل تجدونها مجمعةً على الإعجاب بكم » ، فَاَعْجَبْ لفيلسوفٍ رياضيّ ألمانّي لم تشغله رياضته ولا فلسفته عن تحريض فرنسا على غزو مصر ، لتكسبَ عطف المسيحية الشمالية وتستحقَّ ثناءها ، وتضمنَ بسط سلطانها على دار الإسلام إلى ما شاءَ الله !! ، وذلك قبل حملة نابليون بأكثر من مئة سنة .

كان تقرير « ليبنتز » الفيلسوف الرياضىّ !! مُنَبِّهةً لساسة فرنسا على غَزْوِ دار الإسلام فى مصر ، وذلك بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يكن ذلك من « ليبنتز » عَفْو الخاطر ، بل كانَ عن مُتَابعةٍ واعيةٍ لملاحظات « المستشرقين » الذين كانوا يجوبون دار الإسلام ، ويُمِدُّون مثقَّفِى المسيحية الشمالية بما خبروه وسَبَروه من دخائل دار الإسلام فى مصر وغيرِ مصر ، لأن « المستشرقين » كانوا هم حملةَ هموم المسيحية

الشمالية ، والمجاهدين المتبتِّلين فى سبيلها ، كما حدَّثتُك آنفاً فى مواضع متفرِّقة .

وظَلَّ هذا التحريض كامناً فى قلب ساسة فرَنْسا منذ منتصف القرن السابعَ عشر ، وهو ينمو على الأيّام ، وينمو معه الإعدادُ لغزو دار الإسلام فى مصر . ومضت مئة عام حتى كان عهد لويس الخامس عشر ، وكبير وزرائه « الدوق دى شوازل » ، الذى طمع أن تحتلّ فرنسا مصر ، عن طريق المفاوضة مع تركية ، التى بدأت تضمحلّ قوّتها وهيبتُها ، والتى شَحِبَ سلطانُها على مصر وكادَ ينحلُّ ، ولكنه لم يفعل شيئاً حتى سقطت وزارته فى سنة ١٧٧٠ م . وجاء عهد لويس السادس عشر (سنة١٧٧٤ م) ، وكان الكونت « سان بريست » سفير فرنسا فى الآستانة منذ سنة ١٧٦٨ م ، وأقام فيها ست عشرة سنةً يرقب اضمحلالَ تركية ، وكان شديد الاهتمام بدار الإسلام فى مصر ، فكتب غير مرةٍ إلى حكومته يحضُّها على احتلالِ مصر ، تحقيقاً لمطامع « دى شوازل » . فأوفدت الحكومة الفرنسية « البارون دى تُوت » ، المجرىّ الأصل الذى استوطن فرنسا ، أوفدته إلى تركية ، فلما عاد سنة ١٧٧٦ م ، قدّم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية ، بأن تركية فى سبيل الانحلال لا مَحالة ، ونصح الحكومة بالإقدام على احتلال مصر ، فأوفدته الحكومة مرة أخرى إلى ثغور

الدولة العثمانية ، وبدأ رحلته سنة ١٧٧٧ م ، فدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدّم تقريراً إلى الحكومة بيّن فيه مزايا احتلال مصر وسهولةَ تحقيق هذا الاحتلال . ثُم انتهت أيضاً سفارة « الكونت سان بريست » وعاد من الآستانة سنة ١٧٨٣ م ، فقدم إلى حكومته تقريراً ثانياً فى شأن احتلال مصر ، ونصح حكومته بأنّ ذلك يَكْسِبُ فرنسا مركزاً ممتازاً فى العالم . وفى هذا الوقت نفسه ، كان قنصل فرنسَا فى الإسكندرية المسيو « مُور » ، فقدم إلى حكومته تقريراً يتضمّن رأيه فى قرب تفكُّك السلطنة العثمانية ، وينصحها بضرورة احتلال مصر ، فجاء تقريرُهُ مؤيّداً لتقارير « دى سان بريست » و « البارون دى تُوت » ، ولكن الحكومة الفرنسية تردّدت ، ولم تأخذ بنصائحهم . احتفاظاً بسياستها حيال تركية ، القائمِ ظاهرُها على الودّ والصداقة ، وتَحَسُّباً للبوادر التى ظهرت مقدِّمةً للثورة الفُرنسية .

وبدأت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، وانتهت بإعدام لويس السادس عشر فى يناير ١٧٩٣ م ، وتتابعت شكاوى التُّجار الفرنسيين المقيمين بمصر إلى حكومة الثورة ، يشكون ما أصابهم من سوء معاملة المماليك المصرية وما يَلْقَوْنه من العَنَتِ . فعيَّنت الحكومة المسيو « شارل مَجالُون » قنصلاً عامًّا لفرنسا فى مصر سنة ١٧٩٣ م ، وكان « مجالون »

هذا تاجراً فرنسيًّا أقام بمصر أكثر من ثلاثين سنة مشتغلاً بالتجارة ،(١) فأخذ يرسل إلى حكومته التقارير والمذكرات ، مبيِّناً فيها عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار الفرنسيين فى مصر ، ومصرِّحاً بأنَّ هذا العبثَ لا يمكن أن يزول إلاّ إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوةَ فى رَدْعهم ، وحرَّض حكومةَ الجمهورية على أن تتأهّب لاحتلال مصر . وفى سنة ١٧٩٧ م ، ارتحلَ « مَجَالون » إلى فرنسا ، وأخذ يحضُّ رجال الدولة على احتلالِ مصر ، ويبيّن لهم المزايا التى تنالها حكومة الجمهورية بهذا الاحتلال . واقتنع المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية بآراء « مجالون » ، هو ونابليون بونابرت ، فقدم تقريراً إلى حكومة الديركتوار ، ونصح الحكومة بإنفاذِ الحملة . فكان ما كان من حملة نابليون على مصر فى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تمخيض « مجالون » بسنة واحدة .

---

(١) انظر أى خبرة يستفيدها هذا التاجر المثقف من مُقَامه فى دار الإسلام بمصر أكثر من ثلاثين سنة !! وهو بلا شك قد أجاد العربية ، بل لعله لم يدخل مصر إلا وهو عارف بالعربية ، وهو الأرجح ، أى هو فى حَيِّز « الاستشراق » بلا شك ، كما سترى .

لم يكن « الاستشراق » غائباً طرفةَ عينٍ عن مقدّمى هذه التقارير والمذكّرات التى رُفعت إلى الحكومة الفرنسيّة ، بل كان حاضراً حضوراً كاملاً ببديهة العقل ، لأنّه صاحبُ الفضل الأوّل فى نشأة طبقة الساسَة الذين هم رجالُ « الاستعمار » ، والذين توجّهوا كُلّ التوجُّه لإعداد العُدّة لاختراقِ دار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٧٠) ، و « الاستشراق » هو الذى كان يُمدُّهم بخبرته الواسعة المتمادية بأحوال دار الإسلام ، ولولاهُ ما عرفوا قَبيلاً من دَبيرٍ = ولأنّه أيضاً كان دائم الحضور فى دار الإسلام أبداً ، يلاقى الخاصة من العلماء ، ويخالط العامّة من المثقّفين والدهماء ، ويستخرجُ خَبْءَ ما فى هذه الدار من أحوال خاصته وعامته ، وعلمائه وجهاله ، وملوكه وسوقته ، وجيوشه ورعيته ، وكُلّ دقيق وجليلٍ يوماً بعد يوم ، فى ملاحظةٍ واعية لا تغفُل ولا تنام ، (اقرأ ما سلف : ٦٨ ، ٧٦) .

* * *

ولو تأمّلْتَ قليلاً تواريخ تقديم هذه التقارير والمذكرات ، منذ عهد « ليبنتز » سنة ١٦٧٢ م ، ثمّ ما جاءَ بعد مئة عامٍ ، من طَمَع الدوق « دى شوازل » فى مفاوضة تركية فى أمرْ التنازل عن مصر لفرنسا فى سنة ١٧٦٩ م ، وبعده الكونت « سان بريست » والكونت « دى تُوت » وتقاريرهم منذ سنة ١٧٨٦ ، إلى سنة ١٧٨٣ ، وبعدهما المسيو

« بجالون » من سنة ١٧٩٣ - ١٧٩٧ ، قبل حملة نابليون بعامٍ واحد ، بل قبل ذلك أيضاً حضورُ طُلاّب الإفرنج ، (وهم المستشرقون) ، إلى مصر وقراءَتهم علم الهندسة على الشيخ الجَبْرتىّ الكبير فى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م ، (ما سلف : ١٢١) = لو تأملتَ هذه التواريخ لرأيتها جميعاً واقعةً وقوعاً تامًّا فى عَصر يقظة دار الإسلام ونهضتها الصحيحة التى تولَّى أمرها الخمسةُ الكبارُ من رجالنا ، وهم : « البغدادىّ » فى مصر ، (١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) ، ثم « الجبرتىّ » الكبير فى مصر ، (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) ، و « ابن عبد الوهاب » ، فى جزيرة العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، و « المرتضى الزَّبيدىّ » فى مصر ، (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م) ، و « الشوكانى » فى اليمن (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) ، (اقرأ ما سلف : ١١٩) . فهذه « النهضة » وهذه « اليقظة » ، لا يعرفُها على حقيقتها ، ولا يعرف مَغَبَّتها غير « الاستشراق » ، فيومئذ هَبَّ « المستشرقون » ، حَملةُ هموم المسيحية الشمالية ، هَبُّوا هبَّةَ الفزع ، وتسارعوا ينقلونَ كُلَّ صغيرة وكبيرة ، ووضعوه بيِّناً جليًّا تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها وعلمائها ورُهْبانها ، وبصَّروهم بالعواقب الوخيمة المخوفة من هذه « اليقظة » الوليدة ، وبيَّنوا لهم الخطر الداهمَ الذى جاءَ يتهدَّدهم .

إذا ما تمّ تمام هذه « اليقظة » واشتدَّ عُودها ، واستقامت خُطُواتها على الطريق اللاحب = وأنَّهُ ليس للمسيحية الشمالية خِيارٌ سِوَى العمل السريع المُحْكَم ، واهتبالِ الغفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، ومُعَاجَلَتها فى مَهْدِها قبل أن يتمَّ تمامُها ويستفحلَ أمرُها ، وتُصبحَ قُوَّة قادرةً على الصراع والحركة والانتشار ، فإنه إن تَمَّ ذلك ، فما هو إلاّ أن تعودَ الحربُ بين الشمال والجنوب جَذَعةً ، وعندئذٍ لا يضمنُ أحدٌ مَغَبَّةَ الصراع المشتعل بين سلاحَين مُتكافئين ، وثقافتين مُتكاملتين . لا يضمنُ أحدٌ لأىِّ الفئتين تكون الدُّولةُ والغلبة والسيادة . فَزِع « الاستشراق » لعلمه أنّ الفَرْقَ بيننا وبينهم كان يومئذ خُطْوةً واحدةً تُستَدْرَكُ باليقظة وبالهمَّة والصبر والدَّأْبِ لا أكثر ، (اقرأ ما سلف : ١٢٥ - ١٢٧) . وكما ترَى عياناً ، فإن « الاستشراق » هو عينُ « الاستعمار » التى بها يُبْصِر ويحدِّق ، ويدهُ التى بها يُحِسُّ ويبطش ، ورجْلُهُ التى بها يمشِى ويتوغَّل ، وعقلُه الذى به يفكِّرُ ويستبينُ ، ولولاهُ لظلَّ فى عَمْيائه يتخبَّط ، (ما سلف : ١٢٧) .

وقد حدثتُك من قبلُ ، (اقرأ ما سلف : ١٢٨ - ١٣٠) أنَّ نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدلَهِمّ الذى تهدّدهم به يقظة دار الإسلام كان نذيراً مروِّعاً حاسماً . أما إنجلترا فأسرع مستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، حيث قامَ « محمد بن

عبد الوهاب » ، وبالدهاءِ والمكر والدسائس جاءت فى زِىِّ الناصر والمعين ، لتتدسَّسَ إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » ، لتتَّخذ عندها يداً ، وبها تسيطر عليها وتحتويها ، ومن وراء ستار كانت تؤلِّب تركية وتؤلِّبُ جاراتها وتخوِّفهم ، لتطوِّق اليقظة تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . أما فرنسا التى طردتها إنجلترا من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فآبت إلى ديارها تلعقُ جراحَها ، وجعلت تُعِدُّ العُدّة وتفكِّر فى اختراق دار الإسلام فى مصر ، لوأْد « اليقظة » المخوفة العواقب التى بعثها « البغدادىُّ » . و « الزَّبيدىُّ » و « الجبرتىُّ الكبير » فى مصر ، فهى « يقظة » يُخْشَى أن تؤدِّىَ إلى يقظة دار الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليقظة المتفجِّرة المتحركة الجديدة فى جزيرة العرب ، فإذا تمّ اندماج اليقظتين فلا يعلم إلاَّ الله كيف يكون المصير ؟

* * *

أظنُّه باتَ الآن منكشفاً لك كلَّ الانكشاف ، خَبْءُ العلاقةِ بين تواريخ « اليقظة » و « النهضة » يومئذٍ فى دار الإسلام ، وتواريخ التقارير والمذكَّرات التى كتبها رجال « الاستعمار » من ساسةِ المسيحية الشمالية = وبات منكشفاً لك أيضاً كلَّ الانْكشاف ، أنّه لولاَ خبرةُ « المستشرقين » حملةِ هموم المسيحية ورهبانِها المتبتِّلين الذى كانوا يجوبون

دار الإسلام ويُقيمون فيها فيُطِيلون الإقامة ، ثم يُمدُّون هؤلاء الساسة بالملاحظات والمخاوِف ، لَمَا اتفقت هذه التواريخ هذا الاتِّفاق البيِّن الذى عَمِيَت عنه اليوم حياتُنا الأدبية الفاسدة كلَّ الفساد ، وألسنتُها الثرثارةُ المتشدّقة بأوهام « الأصالة والمعاصرة » و « القديم والجديد » ، و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزليّة « قضيّة موقفنا من الغرب » ، على الصورة التى لا يزال يردّدها الدكتور زكى نجيب محمود فيما يكتب ، مستدلاً بحادثة لم تحدُث قطٌّ بين مشايخ الأزهر وعلماء الحملة الفرنسية ، ليس لها سندٌ تاريخىّ صحيح ولا باطل ، وإنما هى كَذِبٌ مُصْمَتٌ ، لا أدرى مَنْ تَكذَّبه ، ففُتِن به الدكتور زكى وحُبِّب إليه تَرْدادُه مرّاتٍ فيما يكتب ، (انظر ما سلف : ١٣٣ - ١٣٥) .

والذى لا شكّ فيه أن « جذورَ قضيَّتنا » كامنةٌ فى نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية ، والذى أدّى إلى انقضاض الفتى الصليبىّ المُخْترِق المُبيرِ « نابليون » بغتةً على دار الإسلام فى مصر ، لوأدِ « اليقظة » و « النهضة » ومعاجَلتها فى مَهْدها قبل أن يشتدّ عودها وتستفحلَ ، فيسفح الدِّماءَ سفحاً لم يفعل مثله « جنكيزخان » ، فيضحِّى عند مشرق كلِّ شمسٍ بخمسةٍ أو ستّة ، ويُطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ويأمر قوّاده أن يتشبَّهوا به ، (ما سلف : ١٤٧ ، ١٥٢) ، ويهديه

« الاستشراق » أن يختارهم من الطلبة النابهين من ورثة « الزبيدىّ » و « الجبرتىّ الكبير » ، (ما سلف : ١٥٢) ، ليستأصل بذلك « اليقظة » من جذورها ، ويشتّت بالإرهاب مَنْ أفلت من براثنه الملوّثة الدامية . ولكى يضمن هذا الجزّار بعد ذلك أن لا يشِبَّ الصراعُ المشتعلُ بين سلاحين متكافئين ، وثقافتين مكتملتين ، وضع هذا الفتى الأهوجُ المحترِق مشروعه الذى بيَّنه لخليفته « كليبر » : « أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد عدداً كافياً من المماليك ، فليستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفّرهم إلى فرنسا ، فيحجزوا فيها مدةَ سنة أو سنتين ، ليشاهدوا فى أثنائها عظمة الأمّة الفرنسية ، ويعتادوا على لُغتنا وتقاليدنا . فإذا عادوا إلى مصر كان لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليه غيرهم » ، ووعد كليبر أن يرسل إليه جوقة تمثيلية « لأنها ضروية للبدء فى تغيير تقاليد البلاد » ، (ما سلف : ١٥٨) = وأرادَ بذلك أن يضمنَ تمزيقَ « الثقافة المتكاملة » التى هى ثقافتنا ، وأن يقتلعها من جذورها ، ويحفرَ لها قبراً تتألّقُ أنوارُه الفرنسية الساطعةُ ، ويدفِن فيه « اليقظة » و « النهضَة » إلى غير رجعةٍ .

ثم يكتب إلى الجنرال « زايونشك » قومندان المنوفية ، فى ٣٠ يوليه ١٧٩٨ م : « يجب أن تعاملوا التُّرْك ، (أى المسلمين) ، بمنتهى القسوة ،

وإنى هنا أقتُل كُلَّ يوم ثلاثة ، آمُرُ أن يُطافَ برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، فهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجِّهوا عنايتكُم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، (ما سلف : ١٤٧) .

وكذلك فعل نابليون نفسه فى القاهرة بالإرهاب ، فسارع الناس إلى إخفاء الأسلحة ، وكانت أسلحة الأهالى والجند الفرنسيين متكافئة ، أما تفوّق الفرنسيين فكان فيما عندهم من المدافع التى استعملوها فى هَدم الدُّور والمساجد ودكِّ القاهرةِ دكًّا متواصلاً . فأراد نابليون « بتجريد البلاد قاطبة من السلاح » ، أن يضمن بهذا « التجريد » أن يُبْطل قدرة « السلاح المتكافىء » على مقاومة جُنْده وإبادَتِهم جَهْرةً واغتيالاً ، وأن يصل بسفحه الدماءَ إلى إخضاع الناس ، كما قال .

هذه هى « جذور القضيّة » التى غَفَل عنها الناس يومئذٍ ، ولا تزال حياتنا الأدبية الفاسدة اليومَ غافلةً عنها كُلَّ الغفلة ، فكتَّابنا ومؤرِّخونا اليومَ هم كما قال المتنبِّى فى ملوكِ زمانه :

أَرَانبُ ، غيرَ أَنَّهُم مُلوكٌ ، مُفَتَّحةٌ عُيُونُهُم نِيَامُ

والأرنبُ تنامُ مفتوحةَ العين ، فربما جاءها القنَّاصُ فوجدها كذلك ، فيظنُّها مستيقظة ، فإن كان على علم بحالها أخذها من قريبٍ أخذًا هيِّناً بلا مَؤُونة ولا تعبٍ !!

* * *

ولكن ، لا أستطيع أن أتركك حتى تكون على بيِّنة واضحةٍ من عمل « الاستشراق » فى دار الإسلام ، فإنه كان عملاً دائباً طويلَ الأمدِ ، متعدِّدَ وجوه النَّشاط ، منذ أخذ يَدِبُّ دبيباً مستخفياً فى تَأَنِّاةٍ زحفه الخفِىّ الوطء على دار الخلافة فى تركية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (ما سلف : ٧٦ ، ١٤٨) . فعلى تطاوُل السنين ، ومع ازديادِ خبرته يوماً بعدَ يوم بكلِّ صغيرة وكبيرة فى دار الإسلام ، ومع شُعوره بالأمنِ وهو يجوبُ دار الإسلام غيرَ مُرَوَّع ، ولسماحةِ أهل الإسلام عامَّتهم وخاصَّتهم مَع مَنْ دينُه يُخالف دينَهم من اليهود والنصارى ، لأنهم أهلُ كتابٍ وأهلُ ذِمّةٍ من أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام ، فيسَّر ذلك لهم خاصةً أن يُداهِنوا العلماء والعامّة ويُنافِقُوهم ويُوهِموهم بالمكر والمِحَال أنّ صدورَهم بريئةٌ ، وقلوبَهم خالصةٌ لحُبِّ العلم والمعرفِة = وأيضاً لِمَا كانت دار الإسلام غارقةً فيه من الغَفْلة المُطْبِقة التى أورثتهم إيَّاهَا الاستِنَامة إلى النصر القديم على المسيحية الشمالية ، واغترارهم بالنصر الحادث القَريب بفتح القسطنطينية وتدفُّق جيوش الترك المظفّرين فى قلب ديار المسيحية الشمالية ، (انظر ما سلف : ٦٩) = كلُّ ذلكَ زاد « الاستشراق » أماناً واطمئناناً ، وأغراه إغراءً شديداً بإعدادِ العُدَّة لتحقيق « الأهدافِ » و « الوسائل » التى طوَى عليها قَلْبَه ، بفهم وبَصيرة وإخلاص وعقلٍ

وصبرٍ ودهاءٍ ورِفقٍ وتستُّرٍ ، (اقرأ ما سلف من : ٦٨ - ٧٣) .

ومن يومئذٍ بدأ « الاستشراق » تحقيقَ الزَّحف الشامل الذى يُعَدُّ لاختراق قلب دار الإسلام بلا قعقة سلاح ، زحفٌ صامتٌ مصمِّمٌ خفىُّ الوَطءِ ، سوف يضمُّ ألوفاً مؤلَّفة من أشتاتِ الناس على اختلاف أجناسِهم ، ما بين تاجرٍ وصانع ومُغامرٍ وسائحٍ ومبشّرٍ وسياسىٍّ وراهب وطالبِ معرفةٍ وأفّاقٍ وصَفّاقٍ ومتكسِّبٍ ، والنيَّة أن تتكون على الزمن من هؤلاءِ الأشتاتِ جالياتٌ كبيرة تقيم فى دار الإسلام ، تعاشرُ المسلمين فتطول عِشْرتُهم أو تقصر ، (اقرأ ما سلف : ٨٠ - ٨٢) . كان « الاستشراق » هو الذى يُعبِّىءُ هذه الجيوشَ ويُحمِّل أفرادَها ما يحملُه هو من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذِّيهم بكلّ ما فى قلبه من الأحقاد المكتَّمة ، ولهيب البغضاء الغائرة فى العِظَام ، ويدرِّبهم على الدهاءِ والمكر ، وعَلى اتخاذ أقنِعة البراءة والبِشْر والمداهنة والنِّفاق فى معاشرة أهلِ دار الإسلام ، ويُعينُهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبُّه ، ومراقبة كُلِّ صغيرة وكبيرة من أحوالِ مَنْ يخالطونهم من العامةّ والخاصة ، والملوك والسُّوقة ، والرجال والنساءِ .

وتطاولت السُّنون حتى استطاعَ « الاستشراق » أن يكوّن فى قلب دار الإسلام جالياتٍ صغيرةٍ متخيَّرةً بفهمٍ ودقّةٍ من شعوب المسيحية الشمالية ، عمادُها الرجالُ الذين يحترفونَ التجارة ، ويعرفون العربية وغيرها

من لغات دار الإسلام ، ويقيمون فى دار الإسلام مُدَداً طويلةً ، حتى يألَفُوا الناسَ ويألَفهم الناسُ ، ويتقوّضَ جدارُ التوجُّس والتخوُّف والشّك فى هذه الأشباح الغريبة التى تتجوَّل فى الطُّرُقات والشوارع آمنةً غيرَ مفزَّعةٍ ولا مروَّعةٍ . فلما كان زمانُ « اليقظة » و « النهضة » فى دار الإسلام فى مصر خاصة ، فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (القرن السابعَ عشر والثامنَ عشر الميلادىّ) ، (انظر ما سلف : ١٧١) ، هبَّ « الاستشراق » هَبّة الفزِع الأكبر ، وكان نذيرُه الحاسمُ المروِّعُ للمسيحية الشمالية بالخطر المدلهمّ الذى تهدّدها به « اليقظة » و « النهضة » التى انبعثت من مصر خاصة = يومئذ كانت الجاليات الصغيرة قد صارت جالياتٍ كبيرة من تُجّار شعوب المسيحية الشمالية ، وتفاقم أمرها حتى أفزع المماليك المصرية ، وارتابوا فى هذه الكثرة التى أخذت تتوافد زَرافاتٍ ووُحداناً باسم التجارة ، وخامرهم الشك فى مقاصدهم وفى تحرُّكاتهم ، فأخذوا يفرضون الإتاوات الثقيلة المختلفة على متاجرهم ، ويسومونهم العَنَتَ والمشقّة حتّى تَبُور تجارتهُم ، وحتى يضطروهم إلى الرحيل عن مصر . فأوعز « الاستشراق » الفرنسيُّ خاصة إلى التجار أن يَجأروا إلى حكومتهم بالشكوى من سوء ما يصيبهم من معاملة المماليك المصرية ، وعلى رأس هؤلاء التجار « مجالون » الذى كان تاجراً مقيماً فى مصر أكثر من ثلاثين سنة ، (انظر ما سلف : ١٦٩) ، والذى ظل يقدِّم إلى حكومة فرنسا

التقارير والمذكرات عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار الفرنسيين ، وأنه لا سبيل إلى إزالة هذا العبث إلاّ إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوّة فى رَدْعهم ، وذلك (سنة ١٧٩٣ م) وما بعدها ، ثم رحل « مجالون » إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ م ليحضَّ رجال الدولة على احتلال مصر . فاستجابَ له « تاليران » وزير الخارجيةّ ، و « نابليون بونابرت » ، فكانت « الحملة الفرنسية » على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تحضيضه بسنة واحدة ، (ما سلف : ١٦٩) .

وفى خلال هذه الفترة ، ما بين ما كان من تحريض الفيلسوف الألمانى « ليبنتز » لويسَ الرابعَ عشر الفرنسى على غزو مصر فى سنة ١٦٧٢ م ، (انظر ما سلف : ١٦٦ ، ١٦٧) ، وبين صَرْخة « مجالون » فى سنة ١٧٩٣ م وسنة ١٧٩٧ م = كان « الاستشراق » يتولى فى مصر عملاً خبيثاً آخر ، ويجنِّد فيها جُنْداً من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم ، ويحمِّلهم ما فى قلبه من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذّيهم بالأحقاد المكتَّمة ، وبلهيب بغضائه الغائرة فى العظام ويدرِّبهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداهنة والنفاق فى معاشرة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبُّه والمراقبة = ويحشُدُ معهم أيضاً طوائف من يَهود الشمال ومن اليهود المقيمين فى دار الإسلام

فى مصر ، ويسترِلُّ طوائف من شُذَّاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، كنصارى الشام وسِفْلة المغاربة ، يستأجرهم لتوسيع خبرته تارة ، وتارة أخرى لبثِّ أفكارٍ دَرَسها « المستشرقون » ، أو ظنوا أنهم درسوها وأتقنوها ، ويحاول « الاستشراق » أن يُشيعها بين جماهير دار الإسلام فى مصر خاصتِّها وعامَّتها ، وللتحكُّم فى تصريف أموره وغاياته ، ثم للتمكُّن من إشعالِ نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداثَ فِتَنٍ تُفرِّق شَمْلَ الناس وتمزِّقُهم وتَشْغَلُهم عن الكيد الخفىّ الذى يُراد بهم . وكلُّ هذا كان يتمُّ فى هدوءٍ وصبرٍ وتستُّرٍ ، ومن وراءِ الغفلةِ ، غَفْلَةِ أهل دار الإسلام عن جذور قَضيَّتهم ، (اقرأ ما سلف : ١٤٨) . وقد ظهر أثر هذه الحشود جليًّا واضحاً فى زمان الحملة الفرنسية ، وفى البلايا التى حدثت منهم خلالَ ثورات القاهرة التى اشتعلت على جيش الغزاة الفرنسيين ، مما كاد يفتُّ فى عَضُد الثوَّار ويبعثر خطاهم ويشتِّت شَمْلهم . وتستطيع أن تقف على جليَّة أمر هذا البلاء فيما أثبته الجبرتىُّ الصغير فى تأريخ الحملة الفرنسية من كتابه ، وفى الجزء الأول والثانى من تاريخ الحركة القومية للرافعىّ ، [1]

---

(١) انظر ما كتبته عن الرافعى فيما سلف : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ - ١١١ .

لولا ما فى هذا الكتاب من الغفلة وسوء التأويل للأحداث والألفاظ ، فاحذره أشدّ الحذر .

***

وفى خلال هذه الفترة أيضاً ، تكاثر عدد « المستشرقين » حملةِ همومِ المسيحية الشمالية ، وتوافدوا على مصر فى كلِّ زِيٍّ : زِيِّ طلبة العِلْم والمعرفة ، وزِيِّ السائح المتجوِّل فى ربوعها شمالاً وجنوباً ، وأخطرُهم شأناً مَنْ لبس منهم زيَّ أهلِ الإسلام ، وجاوَر فى الأزهر ، ولازَمَ حضورَ دروسِ المشايخ الكبار ، وصلَّى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم ، وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلماً لا يرتابُ فيه أحدٌ ، ولا يعرف أحدٌ حقيقتَه أو أصل بلاده التى جاءَ منها ، وإنّما هو مسلم كسائر المسلمين الذين يجاورون فى الأزهر من كل جنس ولونٍ . وكثيرٌ من هؤلاءِ من أقامَ فى دار الإسلام إقامةً طويلةً متمادِيةً ، كالمستشرق الداهية المحنَّك المتستّر الخفىّ الوَطْءِ « فانتور » ، الذى قضى أربعين سنة يتجوّل فى دار الإسلام ، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية ، فكانَ شيطانَ نابليون ومستشاره وخليلَه ونجيَّه الذى لا يفارقُه فى الحَلّ والتَّرحَال ، (انظر ما سلف : ١٣٧ ، ١٥٣ – ١٥٥) ، وكان ، كما قال الجبرتى : « لبيباً متبحرّاً يعرفُ اللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنسى » ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٦٨) . ومع أن الجبرتىّ

الصغير لم يحدِّثنا عنهم قَطُّ فى تاريخه قبل الحملة الفرنسية ، لأنه كانَ غافلاً كُلّ الغفلة ، إلاّ أنه حدثنا عنهم زمن الحملة الفرنسية فقال :

« وكثيرٌ من الكتب الإسلامية مترجَمٌ بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشِّفاء للقاضى عياض ، ويُعَبِّرون عنهم بقولهم : « شِفاءٌ شريفٌ » ، والبُرْدَةَ للبُوصيرى ، ويحفظون جملةً من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سُوَراً من القرآن ، ولهم تطلُّع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهادٌ كبيرٌ فى معرفة اللغة والمنطق ، ويَدْأَبون فى ذلك الليلَ والنهارَ . وعندهم كتبٌ مُفْرَدَة لأنواع اللغاتِ وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهُلُ عليهم نَقْلُ ما يريدون من أىِّ لغةٍ كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت » ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٣٤ ، ٣٥) .

وهذا الذى حدثنا عنه الجبرتى بعد الحملة لا يتمُّ لأحدٍ إلاّ بعد أن يكون قد أطال الإقامة فى دارِ الإسلام ، وبعد التلقِّى الطويل عن المشايخ الكبار والصغار ، وبعد الاندماج الكاملِ بأهلِ الإسلام . وأغفالُ الجبرتىّ الحديثَ عن أحد منهم قبل الحملة ، دليلٌ بَيِّنٌ على أنّ ذلك كُلَّه قد تَمَّ فى خفاء وتستُّرٍ ، لم يُتِح لمثل الجبرتىّ أن يتنبّه لهم ، أو أن يعرفَ من أمرِ وجودهم فى مصر شيئاً يحمله على التنبُّه . و « فانتور » الذى أقام فى دار الإسلام فى مصر وغيرها أربعين سنة ، لم يعرف الجبرتى عنه شيئاً إلاّ بعد

مجيئه مرافقاً للحملة الفرنسية ، فلقيَه عندئذ مكشوفَ القناع ، فوصَفه لنا بما وصفه ، كما مرَّ آنفاً .

ولم تكن إقامة « المستشرقين » فى دار الإسلام فى مصر ، لمجرَّد طَلَب العلم والمعرفة ، بل كانوا يتجوَّلون ويراقبون عمل الجاليات التى حشدُوها وتولَّوا تغذيتَها وتربيتَها على ما فى قلوبهم من حمل هموم المسيحية الشمالية ، وإعانتها بخبرتهم الواسعة على اليقظة والتنبُّه والمراقبة = وأيضاً كانت إقامتهم لمراقبة « يقظة » دار الإسلام التى أفزعتهم حتى أرسلوا نذيرهم الحاسم المروِّع للمسيحية الشمالية = وأيضاً لتكون خبرتُهم بجماهير الأُمة مجتمعةً وبطوائفها المختلفة ، خبرةً متغلغلةً تفضى إلى خبرةٍ بأفراد رجالٍ بأعيانهم واحداً واحداً ، معروفاً عندهم باسمه ومكانه وحركته ، وبمواطن ضعفه وقُوّته ، وبمكامِن الهوى المَيَّالِ الذى يستجيبُ ، والإرادة المصَمِّمة التى تمتنع عن الاستجابة . فهى خبرةٌ مدروسة منظَّمة واضحة المعالم فى ذهنِ « الاستشراق » ، (ما سلف : ١٤٨) .

* * *

● وفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م) ، لا يُدرى كيف اختلَّت هيبة المشايخ الكبار فى قلوب بعض المماليك ، فأخذوا بالعَسْفِ القبيح أحد المشايخ ، (هو الشيخ عبد الباقى

ابن الشيخ عبد الوهاب العفيفى) ، أهانوه وقبضوا عليه ، ووضعوا الحديد فى رقبته ورجليه ، وأحضروه فى صورة منكَرةٍ ، وحبسه الأمير المملوك فى حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين . فركب الشيخ علىٰ الصعيدىّ العدوىّ والشيخ الجدَّاوىّ وجماعةٌ كثيرة من المتعمِّمين . وقال الشيخ الصعيدىّ العدوىّ للأمير : ما هذه الأفعال وهذا التجارى (أى الجرأة) ؟ فقام الأمير على أقدامه وصَرَخ : واللهِ أكسِرُ رأسك . فصرخ عليه الصعيدىّ وسبّه وقال له : « لعنك الله ولعن اليَسَرْجىّ (تاجر الرقيق) الذى جاء بك ، ومَنْ اشتراك ومن جعلك أميراً » . وتوسّط بينهما الحاضرون من الأمراء يسكِّنون حِدّته وحِدَّتهم ، وأحضروا الشيخ عبد الباقى من السجن ، فأخذوه (أى المشايخ) وخرجوا به وهم يسبُّونه وهو يسمعهم . (الجبرتى ٢ : ١٨) .

● واتّفق فى ذلك الوقت أيضاً أن امرأة ذهبت تشكو الشيخ عبد الرحمن العريشى (مفتى الحنفية) إلى المملوك يوسف بك ، فأحضره وحبسه عند الخازندار ، فركب إليه شيخ السادات ، وكلمه فى أمره وطلبه من مَحْبِسه . فلما رأى العريشىُّ شيخ الساداتِ رمَى عمامته وصرخ وخرج يعدو مسرعاً مكشوفَ الرأس وهو يقول : « بيتُك خرابٌ يا يوسف بك » ، وكان يوسف جالساً مع شيخ السادات فقام على أقدامه ، وصار يصرخُ على خدمِه : « اقتلوهُ » ، وشيخ السادات يقول

له : « أى شيء هذا الفعل ؟ اجلس يا مبارك » . ونزل الشيخ وأخذ العريشىّ فى صُحبته إلى داره ، وتلافوا القضية وسَكَّنوها . يقول الجبرتى : « ثم حصل ما حصل فى الدعوى المتقدمة وما ترتب عليها من الفتنة ، وقَفْل الجامع (الأزهر) ، وقتل الأنفس » (الجبرتى ٢ : ١٨) .

● وقد نقلتُ هاتين الحادثتين لأنهما بدءُ الانشقاق الذى حدث بين المماليك والمشايخ ، ولأنهما نبَّها المشايخ إلى عسف المماليك وجَوْرهم ، ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك ، وكانت ثورة الجماهير على مظالم المماليك ، وذهابهم إلى الجامع الأزهر ، وشكواهم إلى المشايخ ، فيترك المشايخ دروسهم ، ويغلقون الجامع الأزهر ، ويخرجون على رأس الجماهير ، ويطالبون المماليك برفع الظُّلم عن الناس ، حتى كانت آخر حادثة وقعت بينهم فى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ م ، (أى قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات) ، حين جاء أهل قرية بشرقية بلبيس يشكون الأمير محمد بك الألفى وأتباعه الذين ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ الشرقاوى ، فاغتاظ حين سمع شكواهم ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق والحوانيت . ثم ركبوا فى ثانى يوم ومعهم خلقٌ كثير من العامّة وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات . فأرسل لهم المماليك أميراً يسألهم عن مطالبهم ، فقال

المشايخ : « نريد العدل ، ورَفْع الظلم والجور ، وإبطالَ الحوادثِ والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » . فقال لهم : « حتى أبلِّغ » ، وانصرف ولم يَعُدْ لهم بجواب ، وانفضّ المجلس . وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف من العامّة والرعية ، وباتوا بالمسجد . وفى اليوم الثالث اجتمع الأمراء وأرسلوا إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات ، والسيد النقيب (نقيب الأشراف عمر مكرم) ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، ومنعوا العامة من السير خلفهم ، ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحطّ الأمر على أنهم تابوا ورجعوا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح بينهم على أن يرفعوا عن الناس المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ، وأن يكفُّوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، ويسيروا فى الناس سيرة حَسَنَةً . وكان القاضى حاضراً بالمجلس ، فكتب حُجَّةً عليهم بذلك . فوقع الأمراء عليها ، [1]

---

(١) أخطأ الجبرتى خطأ كبيراً حين لم يثبت فى كتابه نصّ هذه الوثيقة ، كاملةً وعليها توقيع الأمراء ، ولكن مضمونها على كل حالٍ أفضل مئات المرات من وثيقة « الماجنا كارتا » (سنة ١٢١٥ م) ، التى حاول الإنجليز ، فيما بعد ذلك بقرون ، تفسيرها على أنها ضمانة للحريات . وقد ضاعت هذه الوثيقة فيما ضاع وأتلف فى زمان الحملة الفرنسية .

ورجع المشايخ وحول كل واحدٍ منهم وأمامه وخلفه جملةٌ عظيمة من العامة وهم ينادون : « حَسْبَ ما رسم ساداتُنا العلماء ، بأنّ جميع المظالم والحوادث والمكوس بَطَّالة من مملكة الديار المصرية » = ويعقّب الجبرتى على ذلك بقوله : « وفرح الناس وظنُّوا صحَّته ، وفتحت الأسواق ، وسكن الحال على ذلك نحو شهرٍ ، ثم عاد كُلّ ما كان مما ذُكِر وزيادة »

(الجبرتى ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩) .

● وأخفى الجبرتى عنّا كُلّ ما كانَ فى سنة ١٢١٠ / ١٧٩٥ م ، وبدأها بقوله : « لم يقع فيها من الحوادث التى يُعْتَنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » ، وبدأها بسطر واحدٍ فى غُرة ذى الحجة ، ثم شرع يذكر الوفيات ، (٢ : ٢٦٢ إلى ٢٦٧) . ثم جمع السنتين ١٢١١ ، ١٢١٢ هـ / ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ م ، معاً وقال أيضاً : « لم يقع فيهما من الحوادث التى تقيَّد فى بطون الطروس سوى ما تقدمت الإشارة إليه ... وحضر طائفة الفرنسيس إثر ذلك فى أوائل السنة التالية ، كما سيأتى خبر ذلك مفصلاً » ، ثم شرع فى ذكر الوفيات (٢ : ٢٦٧ — ٢٧٥) ، ختامَ الجزء الثانى من تاريخه . وهذا أمر غريبٌ جدًّا ، كأنّ مظالم المماليك التى عادت جَذَعة ، ونَقْضَهم الحُجَّة التى وقَّعوها بعد شهرٍ واحدٍ من تحريرها ، لم يكنْ لها وقعٌ عند جماهير الناس ولا عند المشايخ . هذا

أمرٌ مستبعدٌ بلا شك ، وإنما شُغِل الجبرتى عن سَرْد حوادثها بما نزل بالبلاد من البلاء الماحق بحضور الفرنسيس ، فاختصر السنوات الثلاث اختصاراً ليس له شبيه فى كتابه .

* * *

● كُلُّ هذا كان يَقَعَ بمرأًى ومَسْمعٍ من « المستشرقين » وأعوانهم ، وأدرك « المستشرقون » أن هذه الحوادث المتتابعة التى انتهت بإعلانِ المماليك تَوْبتَهم ورجوعهم عن مظالمهم ، حتى اضطرُّوا إلى توقيع وثيقةٍ يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، وتعهَّدوا فيها برفع المظالم عن الناس ، إنما كان نتيجةً متوقَّعَةً نابعةً من « اليقظة » و النهضة » التى أخذت تَعُمُّ دار الإسلام فى مصر = وتبيَّنوا أيضاً أنّ مشايخ الأزهر قد صاروا طليعةَ هذه « اليقظةِ » وقادتَها ، وأن سُلْطانهم على العامّة والجماهير ، قد أرهب المماليكَ وأفزعهم . ولولا أن الجبرتىّ قد أخفَى عنا موقف المشايخ والجماهير فى ثلاث سنواتٍ بعد توبتهم ، ثم نقضهم العهدَ وعودَتِهم إلى الجور والظُّلم ، لرأينا الصِرَاع واضحاً جليًّا بين المشايخ قادةِ الجماهير ، وبين المماليك الذين غرَّهم ما كانوا يتمتَّعون به من السلطان على الجماهير ، وما استمرأُوه من إيقاع الجور والمظالم ، وسكوت الجماهير واستكانتهم لهم زمناً طويلاً قبل ذلك = ولعرفنا أيضاً أسماء كثير من المشايخ

الذين كانوا طليعةَ « اليقظة » وقادتَها فى هذه المُدَّة من تاريخ دار الإسلام فى مصر = ولربَّما عرفنا أيضاً أسماء مَنْ آنحاز من أمراء المماليك يومئذ إلى المشايخ والجماهير ، وآنشقَّ عن جَمْهرة الأمراء المماليك الذين أصرُّوا على جورهم ومظالمهم وعِنادهم ، ورجعوا عن تَوْبتهم التى شهدوا بها على أنفسهم فى الوثيقة أنهم تابوا ورجعوا عن المظالم .

● ومع ذلك ، فقد أوقفنا الجبرتىُّ على أسماء ستة من المشايخ الكبار الذين شاركوا فى الثورة على المماليك وهم : « الشيخ العَريشى » مفتى الحنفية ، و « الشيخ السادات » ، والسيد نقيب الأشراف « عمر مكرم » ، و « الشيخ عبد الله الشرقاوى » شيخ الأزهر ، و « الشيخ البكرى » ، و « الشيخ محمد الأمير » . وهؤلاء الستة كانوا ضمن التسعة الذين سجَّل أسماءهم « نابليون » فى أمره الذى أصدره بتكوين « الديوان » فى أوّل ساعةٍ وَطِئت قدمُه فيها القاهرة ، (يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ هـ / ٤ يوليه سنة ١٧٩٨ م) ، وكان تمام التسعة : « الشيخ مصطفى الصاوى » ، و « الشيخ سليمان الفيومى » و « الشيخ موسى السرسىّ » ، فرفض ثلاثة من الستة الأُوَل أن ينضمُّوا إلى الديوان ، وهم : « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » ، فأحلّ محلَّهم نابليون ثلاثةً آخرين هم : « الشيخ مصطفى الدمنهورى » و « الشيخ يوسف الشبراخيتى » و « الشيخ محمد الدواخلى » .

كيف استجابَ هؤلاء التسعة من المشايخ العُلماء الكبارِ لغازٍ مسيحيّ بهذه السُّرعة العجيبة ؟ كيف استجابوا وهم يعلمون صريحَ أوامر الله وأوامر رسوله بقِتال الغُزَاة لدار الإسْلام ؟ كيف استجابوا وهم كانوا بالأمس القريب قد ثاروا على الأمراء المماليك يطالبونهم بإقامةِ الشَّرْعِ ؟ كيف خافوا وضَعُفوا وأخطأوا الطريق ، وكان لهم مندوحة فى رفض الاستجابة ، كما فعل ثلاثة من إخوانهم العلماء الكبار ؟ ينبغى أن يكون لهذه السرعة فى الاستجابة بلا تردُّد تفسيرٌ يقبله العقل ، ويمهِّد لهم عُذْراً يقبله العقل أيضاً على مَضضٍ .

● لمّا أظلَّ زمانُ مجىء الحملة الفرنسية ، وكان معلوماً بلا شَكٍّ للمستشرقِين المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، نَشِط « الاستشراق » وأعوانه وجالياته من شذَّاذ الآفاق الذين عبَّأهم وجنَّدهم ، كما أشرت إليه فيما سلف (ص : ١٨١) = نَشِط « الاستشراق » نَشاطاً سريعاً خفِيَّ الوَطْء فى ميادين مختلفة ، لبثِّ أفكار درسوها وأُحكموها ، وأرادوا أن يشيعوها بين جماهير دار الإسلام فى مصر ، للتحكُّم فى تصريف أموره وغاياته ، وللتمكُّن من إشعال نيران الفِتَن حين تنزل الحملة الفرنسيَّة أرض مصر ، ليفرِّقوا بهذه الفِتن شَمْل الناس ويمزِّقوهم ويَشْغَلوهم عن الكَيْد الخفىّ المكيافيلّى الذى يُرَادُ بهم ، (ما سلف : ١٤٨ ، ١٨١) .

كان أكبرُ نشاط « الاستشراق » موَجَّهاً إلى المشايخ الكبار الذين ثاروا بالأمس القريب على طائفة الأُمراء من المماليك المصرية مرَّات ، حتَّى خضعوا ووَقَّعُوا على وثيقةٍ يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، ويتعهَّدون فيها برفع المظالم التى أوقعوها على جماهير الأمة ، وبالتزام أوامر الشَّرع ، ولكنهم لم يَفُوا بذلك ، فنقضوا الوثيقة ، وعادوا بعد شهر واحد إلى جَوْرهم ومظالمهم وزيادة ، كما قال الجبرتى فيما سلف قريباً . ولا شكَّ أن نقضَ هذه الوثيقة ، قد أورث قلوب المشايخ الكبار غضباً وكراهيةً لطائفة الأُمراء المماليك الذين لا يَرْعَون لله إلاًّ ولا عهداً ولا ذِمَّةً ، ولا يُقيمون للشرع حُرْمةً ، ولا للمشايخ هيبَةً ولا كرامة . كان هذا كُلُّه معلوماً واضحاً عند « الاستشراق » وأعوانه وحواشيه .

فلما دنا نزولُ جُنْد الفرنسيس ثغر الإسكندرية ، كانت الأخبار قد وصلت إلى القاهرة غامضةً ، فلم يهتم أمراء المماليك بشيءٍ من ذلك ولم يكترثوا به اعتماداً على قُوَّتهم ، فقالوا وزعموا : أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفُون فى مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم ، (الجبرتى ٣ : ٣) . وعندئذ خرج « الاستشراق » من مكامنه ، وخرج « المستشرقون » الذين كانوا يتزَيَّون بزىِّ أهل الإسلام ، ويجاوِرُون فى الأزهر لطلب علم الدين والدُّنيا مسلمين ، ويخالطون المشايخ الكبار فى دروسهم وبيوتهم ، لا يميِّزهم شىء

عن سائر المسلمين المجاورين فى الأزهر من كلّ جنسٍ ولونٍ = وطافُوا على المشايخ الكبارِ ، وبرفْق ودَهاءٍ ومكْرٍ فاتحوهم فى شأن الفرنسيس الذين شاع أنهم قد دَنا نزولهم أرضَ مصر ، فنصيحةً لله ولرسولهم وللمسلمين بيّنوا لهم أنهم على علم بشأن هؤلاء الفرنسيس ، وأن الذى يحملهم على القدوم إلى الديار المصرية هو ما كان المماليك يعاملون به الجالية الفرنسية بإذلال واحتقار ، ويظلمون تجارهُم بأنواع الإيذاء والتعدّى ، كما يظلمون جماهير أمة الإسلام فى مصر بألوانٍ من الجور والظلم والمهانة ، وإقدامهم على مخالفة الشرع ، وعلى نقض العهود والمواثيق ، وجُرأتهم على هيبة المشايخ الكبار بلا رعاية لكرامتهم = وأنّ كُلَّ هدف الفرنسيس هو رفع الظلم الواقع على تُجّارهم ، وتخليص حقّ الأمة الإسلامية من يد الظالمين ، والقضاء على دولة المماليك الفاسدة الظالمة ، ووضع أمور البلاد فى يد العلماء والفضلاءِ من أهالى مصر .

وظلُّوا يَفْتِلُون لهم فى الذّرْوةِ والغاربِ برفقٍ ودهاء ، حتى انتهوا إلى أن الفرنسيس لم يُقْدِموا على نِيَّة القضاء على دولة المماليك ، إلاَّ باتفاقٍ مع السلطان العثمانى ، لأنهم أحبَّاؤه المخلصون ، والمماليك كثيراً ما امتنعوا عن طاعة السلطان ولم يمتثلوا لأمره = وأنهم يحترِمون النبىّ ﷺ والقرآن العظيم ، وأنهم هم الذين نزلوا فى رومية وخرّبوا كرسىّ البابا الذى كان دائماً

يَحُث النصارى على محاربة المسلمين . واستمع المشايخُ لهذا وأمثاله ، ولقِلّة علمهم بما هو خارجٌ عن حدود القاهرة ، ألانَ مثل هذا الحديث قلوب أكثرهم وغرَّتهمُ الأمانىّ ، وعدُّوه نصيحةً لله ولرسوله وللمؤمنين .

وكان آخرون من « المستشرقين » لهم مودَّة بالمماليك ، يُفَاوِضونهم ويهوِّنون عليهم شأن الفرنسيس ، ويُمَنُّونهم بالظفر عليهم إذا هم أقدمُوا على دخول القاهرة ، ويزيدونهم إصراراً على الغرور بقوّتهم ، وأنهم إذا جاءت الإفرنج ، فهم قادرون على أن يدوسوهم بخيولهم . أمّا الذين كانوا منهم يطوفون بالمشايخ ، فكانوا يخوِّفونهم من تهوُّر المماليك ، وأنهم لا علمَ لهم بقوَّة الفرنسيس ، وما فى حَوْزتهم من المدافع والأسلحة ، مما لا يملِك مثله المماليك ، وأنّه إذا وقعت الواقعة ، لم تُغن عن المماليك مدافعهم وأسلحتهم ، وأنهم سُرْعان ما يفرُّون من وجه الفرنسيس ، ثم يتفرَّقون شَذَرَ مَذَر ، ويتركون القاهرة مكشوفةً بلا حامٍ يحميها أو يدافع عنها .

وكان آخرون من « المستشرقين » يتأهَّبون لإحداث فتنةٍ كبيرة ، إذا ما دخلت جيوش الفرنسيس القاهرة ، فطافوا بالكنيسة القبطية المصرية ، وحاولوا أنْ يستثيروا حَمِيَّتها ، وأن يُغْروها بأنّ استجابتَهم للفرنسيس إنما هو نُصرةٌ لدين المسيح على دين الإسلام ، وأن واجبهم ديانةً أن يناصروا الفرنسيس ، ويناصبوا المسلمين العداءَ ، حتى تعلوَ راية المسيحية ، ويصبح

المسلمون أتباعاً لهم ورعيَّة لا سلطان لها ، لا يملكون إلا الطاعةَ المستكينة لدين المسيح . بيد أنّ الكنيسة القبطية أعرضتْ عنهم وعن إغرائهم ، لسبب بيَّنه لنا المستشرق الإنجليزى « إدوارد وليم لين » فى كتابه « المصريون المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم » ، بعد جلاء الفرنسيين عن مصر بأربع وثلاثين سنة (سنة ١٨٣٤) فقال :

« ومن أكثر الخاصيات اعتباراً فى خُلُق الأقباط تعصُّبهم الشديد ، وهم يكرهون المسيحيين الآخرين جميعاً كراهية شديدة ، (يعنى المسيحيين الشماليين) ، تَفُوق أيضاً كراهية المسلمين للكفار فى الإسلام . ويعتبرهم المسلمون مع ذلك أكثر المسيحيين مَيْلاً للإسلام » .[(١)]

---

(١) ترجمة كتاب لين « المصريون المحدثون » : ٤٦٣ ؛ الطبعة الثانية : فى باب « الأقباط » ، على ما فى هذه الترجمة من ضعف العبارة . ولأن الكنيسة القبطية ، لم تكن مطمئنة إلى هؤلاء المسيحيين الشماليين وترتاب فيهم ، هجاهم لين هجاءً شديداً (ص : ٤٦٣) ، وهجا بطرك الأقباط ، وزعم أنه كان مستبدًّا يُغْرى على شهادة الزور ، وأنّ القسس والرهبان جهلاء خادعون خائنون ، يسعون وراء المنفعة الدنيوية واللذات الجنسية ، وأنهم يتسوَّلون ويستدينون نقوداً لا يردُّونها . وهذه شيمة المسيحية الشمالية فى الافتراء والطعن على من لا يستجيب لهم . وانظر إلى حقد « الاستشراق » الذى ظلّ كامناً أربعةً وثلاثين سنة ، ثم استعلنَ .

لذلك لم يَستجب للمستشرقين أحدٌ من رجال الكنيسة القبطية ، وأخفقوا إخفاقاً كاملاً ؛ فولّوا وجوهم شَطْر طائفة الأقباط الأغنياء الذى كان عملهم جباية الأموال ، وضبط ماليّة المماليك ، فاستعصى عليهم أكثرهم ، واستجاب لهم جابى المملوك « محمد بك الألفى » ، وهو المعروف باسم « المعلّم يعقوب » ، وجمع لهم من سِفْلة القبط وعامتهم وغوغائهم عدداً كبيراً ، وانضمّ جهرةً إلى الفرنسيس ، فكوّن منهم « نابليون » فيما بعد جيشاً سماه « جيش الأقباط » ، على كراهية الكنيسة القبطية وعلى غير رضاها . وهذا الخسيس « المعلم يعقوب » ، كان هو وجيشهُ فتنةً كبيرةً ، وبَلاءً ووبيلاً . (١)

* * *

● لما وقعت الواقعة ، ونزل جند الفرنسيس أرضَ الإسكندرية ، واجتاحوا بلاد الوجه البحريّ يحرقون القُرَى ويسفكون الدماءَ ، سبقهم إلى القاهرة منشور نابليون المؤرخ آخر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، وكتبه

---

(١) تستطيع أن تقف على أخبار هذه الفتنة فى تاريخ الجبرتى ، وفى كتاب الرافعى ، وفى كتاب الأستاذ محمد جلال كشك ، الذى سمّاه : « ودخلت الخيل الأزهر » .

المستشرقان « فانتور » و « مارسل » = رأى المشايخ فيه جُلَّ ما طرق أسماعهم من حديث المستشرقين الذين كانوا يتزيَّون بزيِّ الإسلام ، وجاءتهم أنباء حرائق القُرَى وسفك الدماءِ ، حين قاوم المصريون الجيش الغازى ، كما توعَّد نابليون فى منشوره كلَّ من يقاومه . ثم بعد أيام قلائل وصلَ نابليون مشارف القاهرة ، ولقى جيشه جيش المماليك المصرية ، ودارت الدائرة على المماليك ، وأخذهم الرُّعْب ، وتفرَّقوا شَذَر مَذَر ، وتركوا القاهرة عاريةً مكشوفةً ليس لها حامٍ يَحْميها ، فكان ذلك كُلُّه مِصْداقاً لما سمعه المشايخ من « المستشرقين » ، فوجَفَت قلوبُهم ، وخافُوا أن يَحِلّ بالقاهرة ما حلَّ بقُرى الوجه البحرىّ من الفظائع . فلمّا دخل نابليون القاهرة ، وأصدر أمره بتكوين « الديوان » من تسعةٍ من المشايخ الكبار ، استجاب ستة منهم لدعوة نابليون ، ثم استجاب أيضاً ثلاثة آخرون لتمام التسعة ، بعد رفض « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » أن يستجيبوا لدعوته . والذى دعا هؤلاء للاستجابة خوفُهم على مصير القاهرة التى تُرِكت بلا حامٍ يحميها ، بعد أن خَذَلها حُمَاتها من صناديد الحرب والقتال ، وهم المماليك المصرية . فلم ير المشايخ سبيلاً إلى حَقْن دماء العامّة رجالاً ونساءً إلاّ المهادنة ، وإلا الصبرَ والسكينة حتى يكشف الله هذه الغُمّة بما شاءَ سبحانه .

فكانت استجابة هؤلاء المشايخ التسعة لتكوين « الديوان » منهم أوَّل زَلَّة ، وكانت هذه الاستجابة أيضاً أوّل نجاحٍ حازه « الاستشراق » فى « تدجين » بعض المشايخ الكبار ، ولكن لم تلبث الأُمَّة خاصتها وعامتها أن رفضت الاستماعَ إلى هؤلاء المشايخ « المدجّنين » ، واستمعت إلى آخرين من المشايخ ، وإلى صِغار طلبة العلم بالأزهر الذين رفضوا نصيحة المشايخ التسعة الكبار ، وقامت ثورة القاهرة وثورات الأقاليم ، بعد ثلاثة أشهر من « تدجين » التسعة الكبار ، ومن دخول جزّار القاهرة أرضاً لم تطأها من قبلُ قدم غازٍ صليبىّ محترقٍ كالميكافلىّ « نابليون » ، الذى غرَّ هؤلاء التسعة ، وخدعهم بحُسْن استقباله لهم وتوقيرهم خِداعاً لهم بمداهنته ومكره ودهائه ، (اقرأ ما سلف : ١٤٩ - ١٥٨) .

وكان بعد ذلك ما كان من سفحِ الدماءِ ليلاً ونهاراً ، جَهْرةً وخُفيةً ، لم يستثن الجزّار ولا خلفاؤه شيخاً فانياً ، ولا طفلاً رضيعاً ، ولا امرأةً عاجزةً ، حتى انكشح هو وجُنوده من أرضِ مصر بعد ثلاث سنوات خَزَايَا مقهورين ، (ما سلف : ١٣٦ - ١٤١) .

* * *

٢٣ - لم تذهبْ معاناةُ دار الإسلام فى مصر من بلايا السنوات الثلاث هَدَراً ، فإن ثوراتها على جُنْد الفرنسيس قد أخرجت من غِمارِ

الناس ومن مشايخ الأزهر قادةً جُدُداً قد تَجَّذهم الصِّراعُ والقتالُ وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأصبحوا هم حُماةَ القاهرة والسَّاهرين على الذِّيادِ عنها ، على قُرْب عهدهم بمزاولةِ الحماية والدِّفاع . ومضت أربعُ سنوات بعد رحيل الفرنسيس ، واضطربت أمور إدارةِ البلاد ، ولكن ظلَّ المشايخ الكبار والقادةُ الجُدُد من جماهير الشعب فى مصر ، رُقَباءَ على كُلّ مَنْ يحاول أن يتصدّر لإدارة أمور البلاد ، وخاصةً المماليك الذين عادوا بعد غيابهم ثلاث سنوات ، كانوا فيها معزولين عن مباشرة ما كانوا يباشرون من قبل الحملة الفرنسية من الإدارة وحماية البلاد . وأخيراً استقرَّ رأىُ المشايخ والقادةِ على إسناد الأمر إلى رجل كانت تركية بعثته مع ثلاثمئة من الجُنْد فى أواخر أيام الحملة الفرنسية ، وكان اسمه « محمد على سِرْشِشْمَة » ، و « سرششمة » دَرَجةٌ بسيطةٌ يلقَّبُ بها قائد عددٍ من الجنود فى الدولة العثمانية ، كان ذلك فى سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) .

كان « محمد على سرششمة » هذا ، الذى أسند إليه أمرُ ولاية مصر فى سنة ١٨٠٥ ، (١٢٢٠ هـ) ، فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان جاهلاً لم يتعلم قطُّ شيئاً من العلوم ، وكان لا يقرأ ولا يكتب ، وقضى أكثر عمره تاجراً يتاجر فى « الدخان » ، ثم انضمَّ إلى الجند ، ولكنّه كان ذكيًّا داهيةً عريقَ المكر ، يلبسُ لكل حالةٍ لَبُوسها ، وكان مُغامراً لا يتورّع عن

كذِبٍ ولا نِفاقٍ ولا غَدْرٍ . وفى أثناء مُقامه فى مصر من سنة ١٨٠١ م إلى سنة ١٨٠٥ م ، يراقبُ اضطراب أمورها واختلال إدارتها ، وبنظره الثاقب وذكائه ، خالط المشايخ والقادة والمماليك الذين حاولوا العودةَ إلى ولاية الأمور فى مصر ، فنافقهم جميعاً ، وأظهر لجميعهم المودَّة والنُّصح وسلامَة الصدرِ ، حتّى انخدع به المشايخُ والقادةُ ، وآثروا وِلايته على ولاية المماليك ، فنصَّبوهُ والياً على مصر ، وعلى رأس من انخدع به « السيد عمر مكرم » ، أكبر قائد للمشايخ والجماهير ، فبذل كُلَّ جهده فى إسنادِ ولاية مصر إليه . وكان ما أرادَ اللهُ أن يكون .

• لم يكن « الاستشراق » ، وخاصة « الاستشراق » الفرنسيُّ ، غافلاً عن هذا المغامر الجديد وعن خلائقه ، بل كان مراقباً له كُلَّ المراقبة من أوّل يوم جاءَ فيه إلى القاهرة ، ومراقباً أيضاً لكلّ ما كان يجرى فى مصر منذ رَحِيل الحملة الفرنسية . فلما تمت ولاية « محمد على سرششمة » على الديار المصرية ، أحاطت به قناصلُ المسيحية الشمالية إحاطة كاملة = و « القناصلُ » هم « الاستشراقُ » نفسُه فى صورته السياسية = فبدأوا يَفْتِلون له فى الذِّرْوة والغارب ، ويُوغِرون صدره على المشايخ والقادةِ الذين نَصَّبوه والياً على مصر ، ويخوِّفونه عاقبة سُلطانهم على جماهير الأمّة . وصادفَ ذلك استجابةً طبيعيةً ، لما فى قلب هذا المغامر الجرىء من الدّهاءِ

والخُبْث وتَرْك التورُّع عن الغَدْر وإنكار الجميل وحُبِّ التفرُّد بالسلطان الذى نَاله بغتةً ، ولم يكُنْ قطُّ فى حياتِه يتوهَّمُ أن ينالَهُ أو ينالَ ما هو دُونه بكثير .

فكانت أوَّل غدرةٍ غَدَرها « محمد على سرششمة » هذا بالذى نصبَّه والياً على مصر ، وبذل له فى ذلك كُلّ جُهْدٍ ، وهو قائد الأمَّة مشايخِها وجماهيرِها ، نقيبُ الأشراف « السيد عمر مكرم » ، فإنه بمكره ودهائه أوقع بينه وبين بعض المشايخ ، ثم انتهى الأمر بأنْ نزعَ عنه نقابة الأشراف ، ثم نفاه إلى دمياط فى أول رجب ١٢٢٤ هـ (١٢ أغسطس ١٨٠٩ م) ، أى بعد ولاية هذا المغامر الغدّار بأربع سنوات فقط ، وبقى السيد عمر فى منفاهُ الأوّل هذا عشر سنوات ، حتى استدعاه إلى القاهرة فجاءِها فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ (٩ يناير سنة ١٨١٩ م) ، ثم عاد ونفاه مرة أخرى إلى طنطا ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧ هـ (١٥ إبريل سنة ١٨٢٢ م) ، فتوفِّى رحمه الله فى تلك السنة نفسها . ثُم استدار بعد ذلك على المشايخ يوقع بينهم ، ليُوهِى سلطانهم على جماهير الأمّة ، ويُفتِّت قُوَّة الجماهير بعَسْفه وظلمه وإرهابه وجبروته ، بعد القضاء على قادتهم وتشتيتِ شَمْلهم ، وكذلك كان ، والأمر لله من قبلُ ومن بعدُ . وكذلك ظَفِر « الاستشراق » بالمشايخ الكبار ، ومَهَّدَ لعزل الأزهر ومشايخه عن

قيادة الأمة ، وأوغَر صدر هذا الجبَّار ، ومكَّن فى قَرارة قلبه بُغضَ الأزهر وشيوخِه وطلبةِ العلم المجاورين فيه ، وانفردَ هو بأذُنِ هذا الجاهلِ الجرىء المستبِدّ ، يُوحُون إليه بما يريدون وما يُبيِّتون ، ويُتِمُّون ما بدأوا به من وَأْدِ « اليقظة » التى تهدِّدهم بها دارُ الإسلام فى مصر ، على يد مسلمٍ جاهلٍ غِرٍّ أهوج ، لا يعرفُ كثيراً ولا قليلاً من « الثقافة المتكاملة » التى حَفِظتْ دار الإسلام قروناً طوَالاً ، وكانت لُبَّ « اليقظة » و « النهضة » الوليدة التى كان قريباً جدًّا أن تُؤْتِىَ ثمارَها .

* * *

● وثبَّت هذا الطاغية « محمد على سرششمة » قواعد مُلْكه ، وازداد إطباقُ « القناصل » و « المستشرقين » على عقله وقلبه ، وخاصةً الفرنسيون منهم ، وكانت إنجلترا ومستشرقوها ما فَتِئت تخوِّف الدولة التركية وتؤلِّبها على مَهْد « اليقظة » فى جزيرة العرب ، والتى قامَ بها وأسّسها « محمد بن عبد الوهاب » (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، (انظر ما سلف : ١١٩ ، ١٢٩ ، ١٧٣) . واستجابت دار الخلافة بغفلتها إلى هذا التأليب ، حتى جرّدت حملات متتابعة لقمع « اليقظة الوهابية » ، وآبت فى جميعها بالإخفاق . ثم منذ ولى « محمد على سرششمة » جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتال الوهابيين

وتتابع هذا الطلب من سنة ١٨٠٧ م إلى سنة ١٨١٠ م (١٢٢٢ - ١٢٢٥ هـ) ، فلم يستجب لنداء تركية ، ولكن « الاستشراق » بقناصله زيَّن أخيراً لمحمد على سرششمة أن يستجيبَ ، ليحقق مآربهُ فى وَأْد « اليقظة » التى كادت تعمُّ جزيرة العرب ، وأمدُّوه بالسلاح الذى يعينه على خوض الحرب ، وذلك فى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، (أى بعد ولايته مصر بست سنوات) ، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب ، ودارت الحربُ التى لم تنته إلا بعد ثمان سنوات ، فى سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م ، وفقدت الجيوش المصرية آلافاً من أبنائها ، ولقيت هزائم كادت تودى بها . وأخيراً تم النصر لمحمد على سرششمة ، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحلُّه مسلم ، واستباح الديارَ والأموالَ والنساءَ ، وهدم المُدُن ، فكان هو وابنُه إبرهيم وسائر أولاده طُغَاةً من شرِّ الطُّغاة . وكانت حرباً طاحنة لا معنًى لها ، ولا ينتفع بها إلاَّ مؤرِّثوها من دُهاة المسيحية الشمالية .

وكذلك أدرك « الاستشراق » ، وأدركت المسيحية الشمالية ، مأرباً من أكبر مآربِها فى وأْد « اليقظة » التى كانت تهدِّدهم بها دار الإسلام فى جزيرة العرب ، والتى كانت تخشى المسيحية الشمالية أن تنضم هذه « اليقظة » إلى « اليقظة » الكائنة فى دار الإسلام فى مصر ، فيومئذ لا يعلم

غير الله ما تكون العواقب ، كما أسلفتُ (انظر : ١٧٣) ، وتمَّ كُلّ ذلك على يَدِ مسلمين جَهَلة يُوجُهِهم « الاستشراقُ » والمسيحيةُ الشمالية من حيث لا يُبْصرون ولا يعلمون ماذَا يُراد بهم ، ولا إلى أيِّ هُوَّةٍ من الهَلَكة يُساقون . والأمرُ لله من قبلُ ومن بعدُ .

* * *

● يقول الكاتب المؤرخ المُدَجَّن « عبد الرحمن الرافعى » فى كتابه : « تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثالث ، عصر محمد على » (ص : ٤٥٢) فى باب « البَعْثات العلمية » :

« لو تأمّلت مليًّا فى العصر الذى نشأت فيه هذه الفكرة ، واختلجت فى نفس محمد على ، لعجبتَ لعبقريته كيف أنبتت هذا المشروع ، ففى ذلك العصر لم يفكّر حاكم « شرقىّ » ولا حكومة شرقية فى إيفاد مثل هذه البَعْثات . وهذه تركية = وسلطانُها كان يملكُ من الحَوْل والسلطة أكثر مما يملك محمد على = لم تفكّر حينذاك أصلاً فى إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوربية ، فصدور هذه الفكرة ، فى ذلك العصر ، وفى الوقت الذى كان محمد على مشغولاً فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدلُّ حقيقةً على عبقرية نادرةٍ وهمَّة عاليَة » ... تأمّلْ ثم تأمّل ، ويَا للعجب لهؤلاء المؤرخين المُدَجَّنين !

والحقيقة أن فكرة « البعثات العلمية » لم تكن نابعة من عقل هذا الجنديّ الجاهل « محمد على » ، بل كانت نابعةً من عقولٍ تخطّط وتدبرّ لأهدافٍ بعيدة المدَى ، استغلّت ما فى نفسه من المطَامع ، وحُبِّه للسيطرة ، أحاطت به « القناصل » وهى تراقب أهواءَه ومَطامعه ، فجعلت تغذّيها وتزيدها توهُّجاً ، لتجعله قُوّةً فى قلب دار الإسلامِ ، تُنَازِع دارَ الخلافة فى تركية سلطانَها ، وتنشقُّ عنها انشقاقاً يزيدُ فى تفكُّك دار الإسلام ، ويُسْرِع فى انهيار دار الخلافة ، وفى تمزيقها وضَعْفها وارتخاء قَبْضَتها على أطراف دار الإسلام ، ويمهِّد للمسيحية الشمالية السبيلَ إلى تخطُّف أقاليم دار الإسلام بعد أن تصير أشلاءً ممزقةً عاجزةً عن الدفاع عن نفسها = على أن تكون هذه القوَّة الجديدة ، قُوَّة محمد على ، فى قبضة المسيحية الشمالية ، تصرِّفها كيف تشاء ، وتقضِى عليها قضاءً مُدمِّراً يومَ تحتاجُ إلى هذا التدمير . ولذلك كانت هذه البعثات الصغيرة كلها ، منذ سنة ١٨١٣ م ، تتعلق بالصنائع التى تتعلَّق ببناء الجيش المصرىّ لا أكثر ، وكانت هذه البعثات أيضاً قليلةَ العدد ، ينتفع بها محمد على فى حروبه فى جزيرة العرب (من سنة ١٨١١ – ١٨١٩ م) ، وفى تخطُّفِ أجزاءٍ أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة ، ليزيد هذا التخطُّف فى ضعفها وتفكُّكها . هذه كانت غاية « القناصل » الذين أحاطوا بمحمد على إحاطةً كاملةً ، وصارُوا عقله الذى يفكِرُ به ، وصارَ هو دُمْيَةً فى

أيديهم يحرّكونها إلى غاياتهم ومقاصدهم .

ولما فرغ « محمد على » من تحطيم « اليقظة » التى كانت فى جزيرة العرب ، سنة ١٨١٩ م ، وعلا بذلك شأنُه ، وأرسى قواعد ملكه فى الديار المصرية = كان فى فرنسَا رجُل كبيرٌ ممَّن شاركوا فى الحملة الفرنسية ، كان مهندساً بارعاً ، وكانت له منزلة كبيرة عند « نابليون » والمستشرق « فانتور » خليلِ نابليون ونَجِيِّه ، وانتُخِب بعد عودته إلى فرنسا عضواً بالمجمع العلمى الفرنسىّ ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يخصُّ مصر ، هو المسيو جُومار (أدم فرنسوا جومار - ١٧٧٧ - ١٨٦٢ م) . فلما رأى نجاح « القناصل » فى إغراء « محمد على » بإرسال البعثات إلى أوربة ، ما بين سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٩ م = أسرع جومار يحثُّ « الاستشراق » الفرنسىّ وقناصله فى مصر ، على إغراء محمد على بإرسالِ بَعْثات كبيرة إلى فرنسا ، ليجعلها تحت إشرافه ، ولينفِّذ مشروع « نابليون » الذى بيَّنه لخليفته « كليبر » فى رِسالته إليه ، (انظر ما سلف : ١٥٧ وما بعدها) .

وإذا كان « نابليون » = بتخطيط المستشرق « فانتور » = قد بنى مشروعه على أن يجتهد « كليبر » فى أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد العدد كافياً ، فليستعض عنهم برهائن من العرب

ومشايخ البلدان ، ويسفّرهم إلى فرنسا ، فإذا ما وصلوا حُجِزوا مدَّة سنة أو سنتين ، يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمّة الفرنسية ، ويعتادون على لغتها وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر ، كان لفرنسا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم = إذا كان مشروع نابليون ، الذى يرادُ به تكوين حزب للفرنسيين فى مصر ، معتمداً على الوُلاة من المماليك ومشايخ البلدان الذين يتولّون حُكْم البلادِ فى زمانه ، فإن « جومار » قد طَوَّر هذا المشروع تطويراً كبيراً ، بعد خمسٍ وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ م = ويكوِّن حزباً لفرنسا فى مصر أخطر من حزب نابليون .

لقد سنحت لجومار أعظمُ فرصةٍ باستجابة محمد على لإرسال بَعْثات إلى أوربة ، فبنى مشروعه ، لا على كبارِ السنّ من المماليك ومشايخ البلدان ، بل على شبابٍ غَضٍّ يَبْقَون فى فرنسا سنواتٍ تطول أو تقصُر ، يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسَا وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزباً لفرنسا ، وعلى مرّ الأيام يكبرون ويتولَّوْن المناصبَ صغيرَها وكبيرَها ، ويكون أثَرُهم أشدَّ تأثيراً فى بناء جماهيرَ كثيرة تبثُّ الأفكار التى يتلقَّونها فى صميم شعب دار الإسلام فى مِصْر . هكذا طوّر جومار مشروع نابليون الذى لم يستطع « كليبر » أن يحققه وهلك دونه .

* * *

نجح جُومار ، ونجح « الاستشراق » وقناصله فى إغراء محمد على بإرسال بَعْثةٍ كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا فى يوليه سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤٢ هـ) ، وتتابعت هذه البعثات إلى سنة ١٨٤٧ م (سنة ١٢٦٤ هـ) ، وكانت كلُّها تحت إشراف « جومار » يصنعُها على عينه . كانوا شبَّاناً صغاراً ، ليس فى عقولهم ولا قُلُوبهم إلا القليلُ الذى لا يُغنى من « الثقافة المتكاملة » التى عاشت فيها أمَّتهم قروناً متطاولةً ، ووضعهم جومار تحت أيدى « المستشرقين » يوجِّهونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التى يريدونها ، ويُعْطونهم القدرَ اليسيرَ المتَّفَق عليه بينهم من العلوم التى يدرسونها ، ثم يردُّونهم بعد سنوات قلائل إلى مصر ؛ وإلى دولة محمد على التى أسَّسها ، وهو ودولته فى قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ومَشُورتهم ، لا يستطيع فكاكاً منها ، لأنه كان جاهلاً لم يتعلَّم علماً قطُّ ، حتى الخط والكتابة لم يتعلمهما إلاّ وهو فى الخامسة والأربعين من عمره (سنة ١٨١٥ م / ١٢٢٩ هـ) .

كانت أوّل بعثة فى سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤١ هـ) ، فيها ٤٤ تلميذاً ، أدخلهم مسيو جومار المدارس الفرنسية ، ليتلقَّوا اللُّغة والعلومَ والفنون ، ثم أعيدوا بعد سنوات قلائل إلى بلادهم يتولّون المناصب والأعمالَ . وهذا شيءٌ غريبٌ جدًّا أن يكون هؤلاء الشبان قد حازوا فى

سنواتٍ قلائل من العلوم والفنون التى شابت نواصى العلماء فى سبيلها ، ما يؤهلهم للتدريس والصناعات والأعمالِ وجلائل الأمورِ . شىءٌ غريبٌ جدًّا !! وهم قبل سَفَرهم لم يحصّلوا من هذه العلوم والفنون الجديدة شيئاً يذكر ، أليسَ هذه الدعوى غريبة كل الغرابة ؟

● وكانَ فى هذه البعثة الأُولى ، رجُلٌ قد خرج مع البعثة إمَاماً لها ، ليراقب أفرادَ البعثة ، ويصلِّى بهم الصلوات الخمسَ ، هو « رفاعة رافع الطهطاوىّ » ، وُلِدَ بمدينة طهطا بمديرية جرجا سنة ١٢١٦ هـ ، (١٨٠١ م) فى أسرة رقيقة الحالِ ، فأتمَّ حفظ القرآن ، وقرأ شيئاً من مُتون العلم المتداولة على بعض العلماء فى بلده ، ثم تُوفِّى والده رحمه الله ، فرحل إلى القاهرة وهو فى السادسةَ عشرةَ من عمره ، (١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م) ، وانتظم فى سلك طلبة الأزهر ، يتلقّى العلم عن شيوخه ثمانى سنوات ، وكان محبًّا للأدب . وفى سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م عُيِّن واعظاً وإماماً فى أحد ألايات جيش محمد على . فهذا إذن شابٌّ فى الثالثة والعشرين من عمره ، لا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغاً له شأنٌ يذكر فى « الثقافة المتكاملة » التى عاشت فيها أُمَّته ثلاثةَ عشر قرناً فى حضارة متكاملةٍ متراحبةٍ مترامية الأطرافِ ، متباينةِ الدّرجات ، متنوّعة العلوم ، قد بلغت فى العَظَمةِ والجلالةِ مبلغاً لم تدركه قبلها أمةٌ من الأمم .

ثم يُخْتارُ هذا الشابّ فى سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٦ م ليصحبَ بعثة إلى فرنسا ، يكون إماماً لأعضائها . كان ذكيًّا ، نعم . كان محبًّا للعلم والأدب (أدب عصره وشعر عصره) ، نعم . كان قوىَّ العزيمةِ ، نعم . كان نابهاً بين أَقْرانه ، نعم ، ولكنَّه على ذلك كُلّه فى الخامسة والعشرين من عمره ، غَرِيرٌ بَيِّنُ الغَرارة ، طَرِىُّ العُود ، قد جاء من أقصى الصَّعيد ، ومن ظُلُماته وبؤسه وفقره وخَصاصته ، وهو فى السادسة عشرةَ من عمره ، ثم أقام تسعَ سنواتٍ فى القاهرةِ ، فى حَوَارى الأزهر المهدَّمة المخرَّبةِ بيوتُها بفعل الفرنسيس ، الضيِّقة طُرُقاتها ، المظلمة أزِقَّتُها = ثم يركبُ سفينة فرنسية تتلألأُ أنوارُها تَرْمِى به إلى قلب باريسَ (فى القرن التاسع عشر) ، بحدائقها وميادينها وأنوارِها ومبَاهجها ، وما لا رأته من قبلَ عينٌ كعينه ، وما لاَ خَطَر على قلبٍ كقلبه . أىُّ فِتْنةٍ تذهبُ بعقل هذا الفتى ، وترجُّه رجًّا لا قِبَل لمثله باحتماله ؟ وكذلك كان !

أىُّ صَيدٍ سمينٍ تلقَّفه « المسيو جومار » بخبرته وحُنْكتِه وتجربته وبَصَره النافذ ؟ فتًى ناشئٌ فى قلب الأزهر ، ذكىٌّ ، محبٌّ للعلم والتحصيل ، قوىُّ العزيمة ، رآه مفتوناً بالأرض التى وطئتها قدمُه ، لم يَرَ مثلها من قبلُ ، ورآه مُقْبِلاً بأقصى عزيمته على تعلُّم لُغَته الفرنسيَّة ، معجباً بها وبأهلها كُلَّ الإعجابِ ، فأخذه « جومارُ » من قريب ، فكان له صيداً

أىّ صيدٍ ! يقول الرافعى المؤرخ المدجَّن فى كتابه (٣ : ٤٧٦) : « ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحدٍ منهم إلى الاغتراف من مناهل العلم فى فرنسا (!!) ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاعة ، فكان ذَا نفس طامحةٍ إلى العُلا ، فأخذ يدرسُ اللغة الفرنسية ، وعَكفَ عليها من تِلقَاء نفسه ، رغبةً منه فى تحصيل علومها وآدابها » . ويقول رفاعة الطهطاوى نفسه أنه قضى فى تعلّمها ثلاث سنوات .

ولم يكَدْ حتى أخذ « المسيو جومار » بناصيته ، وأسلمه لطائفة من « المستشرقين » ، يصاحبونه ويوجّهونه ، وعلى رأسهم أحد دهاقين « الاستشراق » الكبار ودُهاته ، وهو المستشرق المشهور البارون « سلفستر دى ساسى » . لم يكن لهذا الفتىَ الأزهرى الصعيدى المفتون مَخْلَصٌ من أحابيلهم ودَهائهم ومَكْرهم ورقّة حاشيتهم ومداهنتهم ، فاستغلّوه أبرعَ استغلالٍ ، وصبُّوا فى أُذُنيه ، وطَرحوا فى قَرارةِ قلبه معانىَ وأفكاراً قد بيّتُوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتِها حين تَنْمو فى دَخِيلة نَفْسه ، (١) وهم يزيدونه فتنةً بإشهاده روائع المحافِل التىَ تتألّق أنوارها ،

(١) انظر مثال ذلك ، ما ضمنه كتابه : « أنوار الجليل ، فى أخبار مصر =

وتتألق تحت أنوارها أيضاً مفاتن النساء الكاسيات العاريات ، والرجال ذَوِى الأُبّهة يختالون فى شمائل الرقّة الفرنسية ، فزادوهُ فِتْنةً ، وزادوا غفلته غَفْلةً ، وانتزعوه انتزاعاً مما كان يعيش فيه من ظُلمات الصعيد وبُؤسه وفَقْره ، ومن حوارى الأزهر المخرَّبة وطرقاتها الضيقة وأزقّتها المظلمة ، حتى نَسِى نفَسهُ التى صاحبَها خمساً وعشرين سنة ، وتنكّر لماضِيه القريبِ وأعرضَ عنه ، وسارع ينجُو بحياته الجديدة من خطاطيفِه التى تلاحقه .

وقضى رفاعة رحمه الله ست سنوات فى باريس من سنة ١٢٤١ — ١٢٤٦ هـ ، (١٨٢٦ — ١٨٣١ م) ، قضى ثلاث سنوات منها فى تعلُّم اللغة الفرنسية كما قال هو بلسانه ، وفى الثلاث الأُخَر درس التاريخ ، والجغرافيا والفلسفة ، والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلّفات فولتير وجان جاك روسُّو ، ومنتسكيو ، وقرأ بعض الكتب فى المعادن ، وفنّ العسكرية ،

= وتوفيق بنى إسمعيل » من الدعوة إلى استعمال العامية « التى يقع بها التفاهم فى المعاملات السائرة ، ولا مانع أن تكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصولٌ على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بالنسبة لهم عميم ، وتصنَّفُ فيها كتب المنافع العمومية ، والمصالح البلدية » ، أو كما قال رحمه الله !! انظر كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٥٩ ، ١٦٠ .

والرياضيات ، (انظر كتاب الرافعى ٣ : ٤٧٦ وما بعدها) = فحدِّثنى بربِّك كيف تكون دراسة هذه المتنوعات فى ثلاث سنواتٍ ، إلاّ أن يكون ذلك كُلُّه خطفاً كحَسْو الطائر ، وأن يكون ما ألَّفه رفاعة وكتبه سطواً مجرَّدا على كُتُبٍ كُتِبَتْ فى هذه العلوم المختلفة المتباينة ، والله أعلم بما فيها من الزلل والخطأ وسوء الفهم . ولكن رفاعة الطهطاوى على ذلك كُلُّه إمَامٌ جاء يُخرج مصر وأهلَها من الظُّلُمات إلى النُّور !! يا للعجب !

ولكنّ هذا الرجل الطيِّب يُحَمَّل من العبقرية فى إنشاءِ « مدرسة الألسن » ، ما حُمِّل محمد على ، الجاهل الذى لم يعلم قطُّ ، من العبقرية فى الاهتداء إلى إرسال « البعثات العلمية » إلى أوربة ، وفرنسَا خاصةً ! (انظر ما سلف : ٢٠٥) ، وقصة إنشاء « مدرسة الألسن » ، فى سنة ١٨٣٦ م (أى بعد عودته بخمس سنوات) ليستْ من فكر رفاعة الطهطاوىّ ولا من بنات عبقريته ، ولكنها ثمرةٌ من ثمار « الاستشراق » ودُهاته الذين احتضنوهُ وربَّوه وغذَّوْه ونشَّأوه مدةَ إقامته فى باريز ، وكما يقول الرافعى : « كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلّية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهى أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق ، فلا غَرْوَ

أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر » ، ما أعجب أحكام هذا المؤرخ المدجَّن !

وبأقلّ التأمُّل فى مناهج « مدرسة الألسن » تعلم يقيناً لا شكَّ فيه أنَّ رفاعة الطهطاوى نفسَه لم يكنْ مؤهَّلاً لتدريس أكثر هذه العلوم ، ولا كان فى مصر يومئذ من المصريين مَنْ هو مؤهَّلٌ لتدريسها ، فلا مَناصَ من استقدام منْ يُظَنُّ فيه أنه مؤهَّل لتدريسها من الأجانب ومن « المستشرقين » خاصةً ، وكذلك كان ، فكان هؤلاء الدُّهاة من صنائع « الاستشراق » هم الذين تولّوا تثقيف ١٥٠ تلميذاً كان رفاعة الطهطاوى يختارهم صغاراً من مدارس الأرياف والأقاليم ، ومن طلبة الأزهر . وبذلك وضَع رفاعة الطهطاوى أساساً لمدرسةٍ مُلَفّقة ، (لا كلية ، كما يقول الرافعى) مبتورة الصِّلة كُلَّ البَتْر ، من مركز « الثقافة المتكاملة » التى كان الأزهر مَهْدها على قرون متطاولةٍ ، وكان هو وحده على طول هذه القرون ، مركز ثقافة دار الإسلام فى مِصر . وكذلك أحدث رفاعة الطهطاوى صَدْعاً مُبيناً فى ثقافة الأمَّة ، وقَسْمها إلى شطرين متباينين : « الأزهر » فى ناحية ، و « مدرسةِ الألسن » فى ناحية ، وكذلك حقَّق رفاعة لدهاة « الاستشراق » أهمَّ ما يتوقون إليه ، من وَأْدِ « اليقظة » الواحدة المتماسكة التى كان الأزهر مركزها منذُ عهد « البغدادى » ، و « الزَّبيدى »

و « الجبرتىّ الكبير » = وفى وقت كان فيه محمد على الجاهل يحطِّم أجنحة الأزهر ، ويضعُه فى قفص لا يستطيع الإفلاتَ مِنه ، ويدبِّر كل مكيدة لإسقاط هيبته وهيبة مشايخه ، ويعزلهم عن جمهور الأمَّة عزلاً بين قُضْبان من الحديد وجُدْرانٍ من الصُّخور = ومرَّت الأيام والسنون ، وهذا الصَّدع يتفاقم ، حتى انتهينا إلى ما نحنُ عليه اليوم من الانقسام والتفريق ، وذهبت « الثقافة المتكاملة » فى دار الإسلام فى مصر أدراجَ الرياح .

* * *

٢٤ – وُئِدت « اليقظة » التى كان الخمسةُ الكبارُ أبطالَها وصناديدَها ، (ما سلف : ١١٨ ، ١١٩) ، وكانَ ذلك نصراً مؤزَّراً ناله « الاستشراق » بدهائه ومكْره وثاقبِ نظَرِه ، نالَهُ من وراءِ غَفْلةِ دارِ الإسلام فى مصر ، ومن وراء الجَهْل الذى أُسنِدتْ إليه أمورُ البلاد ومصائرُها ، وأقام « الاستشراقُ » على قبرِ « اليقظة » بناءً جديداً راسخَ الأُساس ، ظَلَ يرعاهُ ويحوطُه ويزيدُه رُسوخاً ومتانةً واتِّساعاً وسُمُوقاً ، يضمن للمسيحية الشمالية الغلبةَ والسيطرةَ وتمامَ التمكُّن من إخضاعِ دار الإسلام لأهدافه وغاياته ، بلا قعقعة سلاحٍ ، وبلا مُواجهةٍ بين « ثقافتين متكاملتين » تتصارعان كِفاحاً ، فإمَّا تتعايشان على هذا الصراع ، وإمَّا يحكُمان السلاحَ حتى يُقْضَى لإحداهما على الأخرى بالغلبة ، ثم

يصطلحان على حُسن المعايشة وإيثار السِّلم . أمّا الآن فقد انقلبت الموازين ، ومُزِّقت « الثقافة المتكاملةُ » فى دار الإسلام ، وانفردت « الثقافة المتكاملة » فى ديار المسيحية الشمالية ، بلا قِرْن يكافئها وينازلُها ، وإنّما هو الخضوعُ والاستكانةُ لا غيرُ . وقُضى الأمر الذى فيه تستفتيان !

وذهبَ محمد على سرشمشة ، وذهَبَ ملكُه وهلك ، وجاء من بعده أولاده وهم فى قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ، والتصدُّع فى ثقافة دار الإسلام يتفاقم ، والبعثاتُ الخاضعةُ المستكينة تتوالى ويقعُ أعضاؤها فى قبضة « الاستشراق » يصنعُ أعضاءَها على عينه ، والبليّة التى أحدثها رفاعة الطهطاوى تتعاظم ، وصارَ الأزهر الذى كان فى يديه تعليم الأمّة أسيراً يرسُفُ فى أصفادِه وأغلاله منتبذاً ناحيةً ولا يدخُلهُ إلاَّ أبناءُ الفقراء والمساكين = ونازعتْه تعليمَ الأمّة المدارسُ الجديدة التى وضع أساسها رفاعة الطهطاوى فى مدرسة الألسن ، وانشطر تعليم الأمة شطرين ، ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، يدخلها أبناء الموسرين والمستورين ، وجعلت الهوّة بين الأزهر والمدارس تتّسع ، وأصبحت المناهج تتباينُ تبايُناً شديداً . أمّا مناهج الأزهر فى عُزْلته فجعلت تضعُف وتَذْوِى وهى على بنائها القديم ، وأما مناهج المدارس فجعلت تنمُو ولكنّ نموَّها قائم على القشور التى تغُرّ ولا تُغْنِى فتيلاً ، على نفس الأساس الذى وضعه رفاعة الطهطاوى ،

وجعلت تزدادُ تباعُداً مقطوعَ الأواصِرِ من « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها الأمّة قروناً متطاولة . لم تكن هذه المدارس نابعةً من « الثقافة المتكاملة » التى تجدّد نفسها تجديداً يزيدها قوةً ووضوحاً ، بل كانت غِراساً غريباً يزيدها بُعْداً وانقطاعاً عن أصول « الثقافة المتكاملة » لدار الإسلام فى مصر ، ولا تَكسِبُها قوّةً ووضوحاً ، بل تكسِبُ أبناءَها تنكُّراً وإعراضاً واحتقاراً أيضاً لتلك « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها أُمّتهم = وكذلك صارَ أبناؤها حِزْباً جديداً ، مَيْلُه وحُبُّه وإكبارُه للمصدر الذى صَدَر عَنْه ما تعلَّموه ولم يتعلموا غيره ، كما أرادَ نابليون بمشروعه الذى عَهِد به إلى خليفته « كليبر » ، (انظر ما سلف : ١٥٨ وما بعدها) ، وطوّرهُ تطويراً كبيراً المسيو جومار (انظر ما سلف : ٢٠٦ - ٢٠٨) . وتمَّ بذلك البلاءُ الماحق ، والأمرُ لله من قبل ومن بعدُ .

ومضت الأيام والسنونُ ، حتى جاءَ الاحتلال الإنجليزى فى ثانى ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) ، وبظلَّ يرسِّخ قدميه فى البلاد ، وبعد قليل رأى « الحزبَ » الذى أنشأه « الاستشراقُ » الفرنسيُّ غالباً على جمهور طلبة المدارس ، فبدأ « الاستشراق » الإنجليزى يدمِّر كل ما أنشأه الفرنسيس من مدارس ويشتتها ، فلما استقرت أقدام الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، رأى « الاستشراق » الإنجليزى أن يبدأ فى

تكوين « حزب » قوىّ يناصره عن طريق التحكُّم فى التعليم ، فأسند أمر التعليم إلى قِسّيس مُبَشِّرٍ عاتٍ خبيثٍ هو « دنلوب » ، فذُعر « الحزب الفرنسىّ » ، وَنشرت جريدة الأهرام التى كان صَغْوُها كلُّه إلى الفرنسيس ، خَبَرَ « دنلوب » بعبارة دالّة كل الدلالة على هذا التحوُّل العظيم الذى أفزع حِزْب فرنسا ، فنشرت فى عددها المؤرخ ، يوم ١٧ مارس سنة ١٨٩٧ م ما يأتى :

« قُضِى الأمر ، وصدر الأمْرُ العالى بتعيين المستر دنلوب سكرتيراً عامًّا لنظارة المعارف ، وقد شرعَ المستر دنلوب ، بعد الاتفاق مع اللورد كرومر ، فى هدم الدراسة الثانوية التى هى أعظمُ أركان المعارف » .

فانظر إلى قول الأهرام « قُضِى الأمْرُ » ، وما تحمله هذه الجملة القصيرة من الرُّعب الدّالّ على فزع « الاستشراق الفرنسىّ » من هذا الحَدَث المؤدِّى إلى القضاءِ على « حزب فرنسا » الذى أنشأته المدارس القديمة ، وتخوُّفِه من هذا « الحزب الإنكليزى » الجديد الذى يتولَّى « الاستشراق الإنجليزى » إنشاءَه عن طريق المدارس التى سوف يشرف عليها « دنلوب » القِسّيس المبشِّر الداهية .

ونقول نحنُ أيضاً : « قُضِى الأمر » ، وجاء « الاستشراق الإنجليزى » ليُحدِث فى ثقافة الأمة المصريّة صدعاً متفاقماً أخبثَ وأعتى

من الصَّدْع الذى أحدثه « الاستشراق الفرنسى » ، ووضع دنلوب أُسُس « التفريغ » الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أى تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفِّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ومَهَّدَ إلى ملئِه بماضٍ آخر بائدٍ فى القِدَم والغموض ، لم يبق من ثَقافته شىءٌ البتّة ، ليزاحم هذا الماضى الفارغُ بقايَا الماضى المتدفِّقِ الحىِّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس فى حيرةٍ مدمِّرةٍ بين انتماءين ، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة فى كتب أسلافهم ، وبين الانتماءِ إلى الفرعونية التى بادت وبادت ثقافتها ولم يبق منها إلاّ أطلالٌ من الحجارة ، مهما بلغت فى العظَمة والجلال ، فهى فارغة من ثقافةٍ حيَّةٍ تتدفَّق فى القلوب والعقول والألسنة ، إنّما هى آثارٌ لا تُغْنِى شيئاً ولا تُؤْتِى ثَمرة .

وأيضاً فإن هذا « التفريغ » سوف ينشىءُ أجيالاً من « تلاميذ المدارس » تَتهتَّك علائقُها التى تربِطُها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعيًّا وثقافيًّا ولُغَويًّا ، حتى يتمَّ تفريغها تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلّه ، ثم يملأ هذا الفراغَ علومٌ وآدابٌ وفنونٌ لا علاقة لها بماضيهم ، وإنّما هى علوم الغُزاةِ ، وفنونُ الغُزاةِ ، وآداب الغُزاةِ ، وتاريخُ الغُزاة ، ولغاتُ الغُزاةِ . ومع كُلِّ ذلك ، فإن هذا القدرَ من العلوم والفنون والآداب إنما هى قُشُورٌ

ومقتطفاتٌ تُوهمُ النفوسَ الظامئة المُفَرَّغة بأنها نالت شيئاً يُذْكر ، والحقيقة أنّها نالتْ غذاءً تعيشُ به مَوْتى فى صورة أحياء لا غيرُ .

● وقد قصصتُ قصَّة هذا التفريغ فى مقدّمتى لكتابى « المتنبِّى » وسميتها « لمحة من فساد حياتنا الأدبية » ، (اقرأ المقدمة : ٢٠ - ٢٩) ، وقد قصصتُ عليك هنا قصة هذا الفساد العريق من حيث بدأ إلى حيثُ انتهى . فهذا كُلّه جوابُ السؤال الذى بدأتُ به الفقرة العاشرة (ص : ٣٢) :

« وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولِمَ نشأ الخلافُ ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدةِ ، كانت ولا تزالُ ، فى حياتنا الأدبية ، حتى رفضتُها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجلج ، منذ بدأتُ قديماً أُحسُّ إحساساً مبهماً أنّ حياتنا الأدبية فاسدةٌ من كُلِّ وجه ، كما حدَّثتك آنفاً ؟

(اقرأ الفقرة : ١) .

ومع طول حديثى هنا ، فإنى اختصرتُه اختصاراً أرجو أن يكون غير مُخِلٍّ ، وعسى أن أكون قد أدّيتُ بعضَ أمانةِ القلم وبعضَ أمانةِ العلم ، وأدَّيتُ أيضاً ، أيها القارىء ، بعضَ حقِّك علىّ = وعَسَى أن أكون قد بلغتُ مبلغاً يُرضى الله ورسولَه فى اتّباع أمره إذ قال ﷺ : « ألا لاَ يَمْنَعَنَّ رجُلاً هَيْبةُ الناسِ ، أن يَقُولَ بحقٍّ إذا عَلِمه » ، وهو حديثه ﷺ الذى

بدأتُ به هذه الرسالة ، (اقرأ ص : ٥) ، والحمدُ لله وحده ، وصلَّى الله على محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه وخِيرتِه من خلقه ، وعلى التابعين وتابعيهم ، حَفَظَةِ العلم ، والناطقين بالحق والداعين إليه ، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله . اللهمَّ اغفرْ لى ما قدَّمتُ وما أخَّرْتُ ، ومَا أسررتُ وما أعلنتُ وما أسرفتُ ، وما أنت أعلم به منِّى ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، لا إله إلاَّ أنت .

* * *

ذَيْلُ الرسالة

والآن ، لم يبقَ إلا أن أضَع بين يديك قصَّةَ « التَّفريغ الثقافى » ، الذى ختمتُ به كلماتى آنفاً فى « رسالةٌ فى الطريق إلى ثقافتنا » ، أنقلها من كتاب « المتنبّى » ، [ص : ١٩ - ٣٤] ، فى التصدير الذى سمَّيتُه : « لمحةٌ من فساد حياتنا الأدبية » ، وفيها شهادتان :

شهادتنى أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيلُ المدارس المفرَّغ من كُلّ أصولِ ثقافة أمته ، وهو الجيلُ الذى تَلقَّى صَدْمة التدهوُرِ الأولى ، حيث نشأ فى دُوَّامةٍ من التحوّل الاجتماعى والثقافى والسياسى .

وشهادةُ الدكتور طه حسين من مَوْقع « الأُستاذيّة » لهذا الجيل .

فاقرأها بتدبُّرٍ وأَناةٍ ، حتَّى تُلِمَّ بأطراف البلاءِ الذى حاق بى وبك وبأمتك العربية الإسلامية ، وحتى لا تدخُلَ تحتَ المعنى الذى قالَهُ أبو عُبادة البحترىّ :

وِمنَ العجائبِ ، أعيُنٌ مفتوحَةٌ وعقولُهُنَّ تجُولُ فى الأحْلامِ

= أحلامِ « النهضة » و « التجديد » و « الأصالة والمعاصرة » و « الثقافة العالمية » ، وأحلامٍ أخرى كثيرة لا تنقضى !! أحلامٌ جعلتْ صَدْمة التَّدهُور مستمرّةً مُتَمادِيةً متفاقِمةً إلى هذه الساعة التى تقرأُ فيها هذه الرسالة ، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

* * *

قلتُ : « ومرَّت الأيَّام والليالى والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ وهى السنة التى كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبى » ، وهمّى مصروفٌ أكثرُهُ إلى « قضية الشعر الجاهلىّ » ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضةً لأحدٍ من الناس . ومشت بى هذه القضية فى رِحْلة طويلة شاقَّة ، ودخلت بى فى دُرُوب وَعْرةٍ شائكةٍ ، وكُلَّما أوغلتُ انكشفت عنى غِشَاوةٌ من العَمَى ، وأحْسَسْتُ أنى أنا والجيلُ الذى أنا منه ، وهو جِيل المدارس المصرية ، قد تمَّ تفريغُنا تفريغاً يَكادُ يكون كاملاً من مَاضِينا كُلِّه ، من علومه وآدابه وفُنُونه . وتَمَّ أيضاً هَتْك العلائق بيننا وبينه ، وصارَ ما كان فى الماضى متكاملاً متماسكاً ، مِزَقاً متفرِّقة مبعثرةً تكاد تكون خاليةً عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلَّ الفارغُ فارغاً أبداً ، فقد تَمَّ مَلْءُ هذا الفراغِ بجديدٍ من العلوم والآداب والفنون ، لا تمتُّ إلى هذا الماضى بسببٍ ، وإنَّنا لَنستقبلُه استقبالَ

الظَّامىء المحترق قطراتٍ من الماء النَّمير المثلَّج .

* * *

فى خلال هذه الأعوام ، تبيّن لى أمرٌ كان فى غاية الوضوح عندى . وهو قصّة طويلةٌ قد تعرَّضت لأطرافٍ منها فى بعض ما كتبتُ ، (١) ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيِّناً عندى أننا نعيش فى عالم منقسمٍ انقساماً سافراً : عالمُ القوَّة والغنى ، وعالمُ الضعفِ والفقر = أو عالم الغُزاةِ الناهبين ، وعالم المستضعفين المنهوبين . كانَ عالم الغزاةِ الممثَّل فى الحضارة الأوربية ، يريد أن يحدث فى عالم المستضعفين تحوُّلاً اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا ، فهو صَيْدٌ غزيرٌ يُمِدُّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلوِّ والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحوُّل عملٌ سياسىٌّ محضٌ ، لا غايةَ لهُ إلاّ إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تامًّا لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفد ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أنّ هذا العمل السياسىَّ المحضَ المتشعِّبَ ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأولى لعهد

---

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » .

محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كُلّها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل ابن إبراهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرةً على كُلِّ شىء ، وعلى التعليم خاصة ، إلى أن جاء « دنلوب » فى (١٧ مارس ١٨٩٧) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدمِّر الذى لا نزالُ نسيرُ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا .

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدّد الجوانب ، وكان قوامُه إعدادَ أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادةَ هذا التحوُّل الرفيق العميق ، ويرادُ منهم أن يؤسِّسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوُّل إلى غايةٍ يرادُ لنا أن نبْلُغها على تمادى الأيام . وكان الغُزاةُ يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكارٍ يردّدونها ترديد الببّغاوات ، تتضمَّن الإعجاب المزهُوَّ ببعض مَظَاهر الحياة الأوربية ، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكاشفوا أُمّتهم بأنّ ما أعجبوا به هو سرُّ قوة الغزاة وغلبتهم ، وأن الذى عندنا هو سِرّ ضعفنا وانهيارنا .

وقد وجدتُ ذلك ظاهراً ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاعة الطهطاوى وأشباهه . ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده

لا يكفى ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسعُ انتشاراً . فكان الرأىُ أن تنشأ أجيالٌ متعاقبةٌ من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحوّل ، عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلِّه ، مع هَتْك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئاتٍ من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عددُ من تضمُّ من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاةُ ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمرًّا على ما أرادوا ! بل زادَ بشاعةً وعمقًا فى سائر أنحاء العالم العربىّ والإسلامىّ = بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاجُ إلى ملء بماضٍ آخر يغطّى عليه ، فجاءوا بماضٍ بائدٍ مُعْرِقٍ فى القِدَمِ والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفّق الحىّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصِل .

فى ظلّ هذا التفريغ المتواصل ، وهذا التمزيق للعلائق ، وهذه الكثرة

التى تخرجُ مفرَّغة أو شِبْهَ مفرّغة إلى « البعثات » ، وهذا التحوُّل الاجتماعىّ والثقافى والسياسى المضطرب ، وهذا التغليب المتعمّد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل فى النفوس من ثقافة ماضية حيَّة حياةً مَّا ، وباقيةٍ على تماسكها وتكاملها = فى ظل هذا كُلِّه ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقومُ على أصلٍ واحدٍ فى جوهره ، هو ملءُ الفراغ بما يناسبُ آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ ، فهى تحدثُ فى النفوس تطلُّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أىُّ شأنٍ ، يعتمد اعتماداً واضحاً على المسرح الأوربىّ فى تكوينه كُلِّه . وأيسر سبيلٍ كانَ إلى إمدادِه بمادّته ، هو « السطو » على مؤلفاتِ المسرح الأوربىّ ، مسلوخةً يعادُ تكوينُها بألفاظ عربيّة ، أو عامية على الأصحّ ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمُّون هذا حياءً ومكراً : « التمصير » !! بيد أنه عبثٌ مجرّدٌ ، وسطوٌ لا رقيبَ عليه . أمّا الكتَّاب الجادُّون ، فكان أكثرهُم يعتمد على تلخيص نتاج الفكر الأوربىّ فى الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً مَّا ، وإن كان أكثره خطْفاً وسطواً ينسبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيبٍ ولا محاسب .

والقِصَّةُ أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوَّر فيها

الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرقَّع بأفكارٍ مسلوبةٍ مختطفة ، ثم توزَّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو والانتهاب والتقليد . [وهذا أمرٌ لم يزل مستمرًّا بقوَّةٍ إلى يومنا هذا] .

وبالثرثرة واللجاجة فى الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفةً لا غُبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمة مغريةٍ تقبلها النفوس بلا ممانعة ، وهى قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! والنظر فى حقيقة هذه القضية يفضى إلى شيئين ظاهرين : ميلٍ ظاهرٍ إلى رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرافض ملمًّا إلماماً مًّا بحقيقة هذا « القديم » = وميلٍ سافرٍ إلى الغلوّ فى شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبُه متميِّزاً فى نفسه تميُّزاً صحيحاً بأنه « جدّد » تجديداً نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافةٍ متكاملة متماسكة ، بل كان ما يميِّزُهُ أن الله قد يسرَّ له الاطلاع على آداب وفنونٍ وأفكارٍ تَعِبَ أصحابها فى الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

* * *

هذه خُطُوط من صُورةٍ ، لجانب من الحركة الأدبية والثقافية فى

ذلك العهد ، وأكثرها باقٍ إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاعٍ له .

ولكن هذه الصورة لا تتمّ وحدها . وفى خلال التحوُّل الاجتماعى الثقافيّ المتصاعد المتكاثر ، كان هناك جانبٌ راكدٌ مختنقٌ ، لم يفرَّغ هذا التفريغ ، ولكن ضُرِبَ عليه حصارٌ مفزعٌ وبيلٌ مُهينٌ . هذا الجانب كان هو الوارث للماضى المتكامل المتماسك ، ولكنه كان يزدادُ على مَرِّ الأيَّام تخلخُلاً وتفككاً وحيرةً وانطواءً . يمثّل هذا الجانب جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبرهمّ هذا الجانب ، فى هذا اليمِّ المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضى محافظةً مّا ، ولكنّ قبضَته كانت تسترخى شيئاً فشيئاً تحت الحِصار ، وتحت القذائف المدمِّرة التى يُرْمَى بها ، والتى تزلزِلُ نفوس أبنائه من قواعدها . وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفْتَح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخُلَ عليه نفس العوامل التى أدَّت إلى تفريغ « تلاميذ المدارس » من ماضيها ، وإلى تهتُّك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبيّة الغازية المتصاعدة تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

وقد كانَ ، واحتاج شقُّ الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوّعة ، والذى يُهِمّنى منها هنا هو ما يتعلّق بأمر « السطو » لا غيرَ .

كانَ الذى يحولُ بينهم وبين بلوغ هذا الغرضِ ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهُم لسانٌ غير العربية ، قلّما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، فى مصر خاصةً ، إلى إجافة بابٍ يتيحُ لهم أن يطّلعُوا = أو يُصدمُوا على الأقلّ ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأيٍ فى آداب العربية وعلومها وفُنونِهَا وتاريخها ودينها أيضاً !! كان هذا موفُوراً فى مؤلفات « المستبشرقين » عامّةً ، لأنّه هو كلّ عملهم فى « الاستشراق » المرتبط كلّ الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أى بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كلّه . [1] فكان لابُدَّ ، إذن ، من نشر هذه الأفكار على نِطاق واسعٍ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

انبرى لذلك رجالٌ كثيرون فى مصر والشام وغيرهما ، لا يربطهم فى أنفسهم بهذا الماضى إلا اللسانُ العربىُّ وحده ، أما ضمائرهم فمرتبطة بشىء آخر . فكتبوا مقالاتٍ ، ونشروا كُتُباً فى آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلة معرفتهم بها معرفة تتيح لهم الكتابة ، ولكنها كانت معبّرة عن اتّجاه « الاستشراق » لا غير ، فكانت كُلُّها « سطوًا » مجرّداً على آراء المستشرقين ومناهجهم فى النظر ، مبثوثاً فى ثنايَا كُلِّ ما يكتبون .

---

(١) استوفيت بيان بعض هذا فى كتابى (أباطيل وأسمار) .

وكذلك تيسَّر لكل من لا يعرفُ غير العربية لساناً ، أن يجدَ ، على مدّ يده ، شيئاً « جديداً » يقالُ عن ماضيه ، وبمناهج لم يألفها أيضاً . ولكنْ حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عامًّا مؤثّراً تأثيراً نافذاً فى جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أنهم رجال وَفَدوا إلى مصر مع استقرار الاحتلال الإنجليزى فيها (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشُّبْهةُ فيهم تُوجب الحذَر منهم ، فأضعف الحذَرُ أثَرَ ما يكتبون فى أكثر القراء من هذا الجمهور ، وإن كان لهم فى جمهور « تلاميذ المدارس » المفرَّغين من ماضيهم أثر بليغٌ . ومع ذلك ، فإن الهدفَ لم يذهب هَدَراً ، فإنه على الأقلّ ، فتح الباب ويسَّر السبيلَ للسَّاطين ، وجعل « السطو » المباشرَ أمراً مألوفاً لا غبار عليه ، بل زاد فقرَّب إلى الأذهان سبيلَ الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره فى الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صارَ الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » فى دراسة آداب أمةٍ مّا وفى دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدّد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولَّى صياغتها مَنْ هو لَصِيقٌ دَخِيل عليها وعلى لسانها ، ولم ينشأ

فيه ، وإنما تعلّمه على كِبَرٍ فهو لا يعلم منه إلا أقلّ القليل ، ومَنْ هو نابتٌ فى لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوّقِ آدابها تذوّقاً شاملاً = والتذوّق وحدة عُقْدة العُقَد = ومَنْ هو مسلوبٌ كُلَّ إحساسٍ بتاريخها كُلِّه فضْلاً عمّا يكنُّه فى سريرته من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجدّدة فى تشويه صورتها تشويهاً متعمَّداً لأغراضٍ « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا ؟ أمْ أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنًى ، إلاَّ أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة فى أنفس أهلها = ثم لا يأتى التجديد إلاّ من متمكّن النشأةِ فى ثقافته ، متمكّن فى لسانه ولغته ، متذوِّقٍ لما هو ناشىء فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مغروسٍ تاريخُهُ فى تاريخها وفى عقائدها ، فى زمانِ قُوَّتها وضعفها ، ومع المتحدّر إليه من خيرها وشرِّها ، مُحِسًّا بذلك كُلِّه إحساساً خالياً من الشوائب = ثم لا يكون « التجديدُ » تجديداً إلاّ من حِوَارٍ ذكىٍّ بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقَّدة التى تنطوى عليها هذه الثقافة ، وبين رؤية جَدِيدةٍ نافذة ، حين يلوحُ للمجدِّد طريقٌ آخرُ يمكنُ سلوكُه ، من خلاله يستطيع أن يقطعَ تشابكاً من ناحية ، ليصلَه من ناحية أخرَى وَصْلاً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحلّ عُقْدةً من طرفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوةً ومتانةً وسلاسة .

فالتجديد إذن حركةٌ دائبةٌ فى داخل ثقافة متكاملة ، يتولاّها الذين يتحركون فى داخلها كاملةً حركةً دائبةً ، عِمَادُها الخِبرَة والتذوُّق والإحساسُ المرهفُ بالخطر ، عند الإقدام على القَطْع والوَصْل ، وعند التهجُّم على الحلّ والرَّبْط . فإذا فُقِد هذا كُلُّه ، كان القطع والحلُّ سِلاحاً قاتلاً مدمّراً للأمة ولثقافتها ، وينتهى الأمر بأجيالها إلى الحَيْرةِ والتفكُّك والضَّياع ، إذ يورِّث كُلُّ جيل منها جِيلاً بعده ، ما يكون به أشدَّ منه حَيْرَةً وتفكُّكاً وضياعاً .

هذه هى العاقبة التى تفرضُ نفسها فرضاً .

فما ظَنُّك إذن بالعاقبة ، إذا كان القطع والحلُّ مُراداً لذاته ، وكان مُراداً أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصلٌ وربطٌ فى داخل التكامل والتماسُك الذى يجعل لهذهِ الثقافة معنًى وحياةً وحركة ؟ = وما ظنك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكارُ « المجدِّدة » إلاّ ترديداً لصياغة غريبة ، صاغها غريبٌ عن الثقافة ، منتسبٌ إلى ثقافة غازيةٍ مُباينةٍ ، وهو مع ذلك ناقص الأَداة ، لا خبرةَ له بتشابكها وعُقَدِها ، ثم هو فى نفسه لا يضمر لها إلاّ التدمير والاستهانة ، لغرضٍ راسخ فى قرارة النفس ؟ = ثم ما ظَنُّك أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيدُ على أن يكون « سَطْوًا » مجرَّداً على هذه الصيغ الغريبة ، ثم إقحامُها

إقحاماً على ثقافتهم ، لا لحاجة أدّى إليها النظر والفكر والتدبُّر ، بل بالهوى وحبِّ الظهور من مُفَرَّغٍ ، أو من شبيهٍ بالمفرَّغ ، من ثقافته المتكاملة المتماسكة ؟ ما أبشع العواقبَ عندئذٍ ، وأبشعُها التَّدهْوُرُ المستمرُّ !

وكذلك كان مقدَّراً لجيلنا نحنُ ، جيل المدارس المفرَّغ ، أن يتلَّقى صدمة التدهوُر الأُولى ، لأنه نشأ فى دُوّامةٍ دائرةٍ من التحوّل الاجتماعى والثقافى والسياسىّ . جئنا فى أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهى التى يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من فَوْرهم فى تقسيم عالمنا وتبديده ، وأخذ كلُّ مستعمر منهم يشدّد قبضته على ما وقع فى يده من الغنائم . وبالدهاء والمكر والسطوة ، جعل يدفَع هذا التحوّل دفعاً شديداً ، لكى يتمَّ له أن يُخْضِع عالمنا « المتخلّف » لحاجات عالمه « المتحضّر » !! وجئنا أيضاً ، فى مصر ، مع الرجّة العظمى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتى انتهت بعدَ قليل بفجيعةٍ مزَّقت الأمة تمزيقاً مفزعاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتعدّد الأحزاب ، وتكالب كلِّ حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضِّرة !! وتبدّدت نفوسُنا وتفتّتت ، تحت ضغط هذا التحوّل السريع المُتَمادِى المُرِيب المروِّع .

وفى ظلِّ هذا كُلِّه ، كما قلتُ ، انتعشت الحركة الأدبيّة والثقافية

انتعاشاً غير واضح المعالم [1] = وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنَّ الأُساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علائقهم بثقافة أمتهم غيرَ ممزَّقةٍ كُلَّ التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرَّغ ، فقد تمزقت علائقنا بها كُلَّ التمزيق ، فصار ما يكتبه الأُساتذةُ ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطِلاً أو كالباطل . فهو لا يقع منّا ومن أنفسنا بالموقع الذى ينبغى له من الفهم ، ومن الإثارة ، ومن الترغيب فى متابعته ، ومن إعادة النظر فى ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غيرَ مفهومٍ البتة ، فهو يمرُّ عليه مروراً سريعاً لا أثر له . أمّا الذى أخذهُ جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تضمَّنته كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرفض الخفىّ للثقافة التى كان ينبغى أن ننتمى إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التى أولع الأُساتذة بتلخيصها لنا ، لكى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه فى التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك فى خلال ما يكتبونه !! وغابَ عن الأُساتذة الكبار أن الزَّمن الدوّار الذى يُشيبُ الصغير ويُفْنِى الكبير ، هو الذى سيتولىّ الفصلَ بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلّمُون اليومَ على أيْدِيهم .

* * *

(١) انظر ما سلف ص : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

والقصةُ تطولُ ، ومع ذلك فليس هذا مكانُ قَصِّها على وَجْهها ، إذا أنا أردتُ أن أقيِّدَ ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا أيضاً . ويكفى أن أقول : إن جيلنا ، جيلَ المدارس المفرَّغ ، كان فى خلال ذلك قد كَبِرَ ، وانفلق عن فريقين : فريقٍ قانعٍ بما تجود به عليه أقلامُ الأساتذة الكبار من « تخليصٍ » و « تجديدٍ » ، فهو لا يزالُ إليهم متطلّعاً ، وبهم متعلّقاً ، ثم لا يزيدُ = وفريقٍ يسَّر الله له السبيلَ إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطَّلع على أصول ما كانوا يلخّصُونه ، وما كانوا « يجدّدون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصحّ . وأحسَّ أيضاً أن « الأصل » الذى يقرؤه بلغته ، مضىءٌ حىٌّ ، مكثّفٌ ، عميقُ الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كابٍ لونُه خامدةٌ حياتُه ، متخلخِلٌ ، قريبُ المتناوَل .

ومع هذا الذى أحسّ به ، فإنه من حيث لا يدرى يشعر بتفوُّق هؤلاء الاساتذة الملخّصين المجدّدين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسيرٌ هيِّنٌ . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانتْ علائقَ لم تمزق كلَّ التمزيق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يُعْطوا تلخيصهم نفحةً من سرّ أنفسهم يمتازون بها ،

وأن يكونوا أقدرَ منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكّنهم من الاختيار ، ثم من نَفْيِ ما هو غَثٌّ أو ساقطٌ ، ومن إخفاء « السطو » إخفاءً فيه ذَرْوٌ من المعرفة . أمّا هُمْ ، فقد فُرِّغُوا تفريغاً يكاد يكون تامًّا من أصول ثقافتهم التى ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسُّون فى أنفُسهم ما يشبه العجزَ ، إذا ما قارنوا بين أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة .

وهذا هو الموقف العصيبُ الذى كان فيه جيلُنا يومئذٍ ، ثم استمرَّت عليه الأجيال بعدَنا ، وهى تشعُرُ شعوراً واضحاً بتفوُّق هذا الجيل من الأساتذة الكبار « الملخِّصين » و « المجدِّدين » ، مع أنّ الأمرَ ، كما قلتُ ، قائم فى الحقيقة على « السطو » البيِّن أو الخفِّى ، على أعمالِ ناسٍ آخرين يكتبون فى لُغَاتِهم بألسنتهم ، ويعبِّرون عن أنفُسِهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحنُ ! ومع ذلك فإن جيلَنا والأجيالَ التى تتابعت بعده ، لم تُرِدْ أن تكشف هذه الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمرَ أنفُسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئا آخر سوى منهج « التلخيص » و « التجديد » ، على السُّنَّة التى سَنَّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهمُ شىء يقولونه ، حين يَرِثون موقعَ الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلَّة « التجديد » و « عالمية الثقافة » و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التى أشرت إليها آنفاً ، وتكاتموا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمرُ بعد ذلك كما قيل فى المثل : « خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفِرِى » !!

* * *

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرِّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التى صوَّرتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصوّرتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد فى سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

ومعلومٌ أن الدكتور طه فى سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته « فى الشعر الجاهلىّ » ، زعمَ أن له منهجاً يدرسُ به تُراث العرب كُلَّه ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشكّ » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف : « يقلب العلم القديم رأساً على عقبٍ . وأخشى إن لم يمْحُ أكثره أن يمحوَ منه شيئاً كثيراً » [فى الشعر الجاهلى ص : ٣] .

ثم انطلق فى كتابه هذا مستخِفًا بكُلِّ شيءٍ ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج الملازمة لهذا المذهب الذى يذهبُه المجدّدون عظيمة جليلة

الخطر ... وحسبُك أنَّهم يشكُّون فيما كان الناسُ يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناسُ على أنه حقٌّ لا شك فيه . وليس حظُّ هذا المذهب منتهياً إلى هذا الحدّ ، بل هو يجاوزهُ إلى حدود أخرى أبعدَ منه مدًى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها » [فى الشعر الجاهلى : ٦] .

* * *

والاستخفافُ الذى بنى عليه الدكتور طه كتابه معروفٌ ، أمَّا الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافُه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاءِ المحضِ بأقوال السلف . وأمَّا الذى كان يدورُ بين طلبته الصغار « المفرَّغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكانَ شيئاً لا يكادُ يُوصف ، لأنه كان استخفافَ جاهلٍ واستهزاءَ خَاوٍ ، يردِّدُ ما يقوله الدكتور ، لا يعصمهُ ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيامِ ، كانت العاقبة وخيمةً جدًّا . كَبِرَ الصِّغارُ الذين تأثَّروا بما قاله فى سنة ١٩٢٦ ، فقد فَطَمتهم السنُّ ، وفَطَمتْهم معرفةٌ جديدة حازوها ، وتنكَّروا ، أو كادوا ، للثَّدْى الذى كان يُرْضعهم . وخرجت « الطلائع » تدفعها الحميّة وطلبُ الصَّدارة فى ميدان

« التثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنَّهم جاؤوا يزاحمون الأساتذة الكبارَ فى مواقع الأستاذية . وساروا على نفس النَّهج الذى مَهَّدوهُ لهم من « التلخيص » لفكر « الحضار الحديثة » = أى الحضارة الأوربية = والذى هو فى حقيقته سطوٌ مجرَّدٌ ، ولكنَّهم لم يسيروا سيرة الأساتذة فى معالجة « القديم » حتَّى يُخَيِّل للناس أنه إحياءٌ للقديم وتجديدٌ له ، بل كانَ الغالبُ على أكثرهم هو « رفضَ القديم » والإعراضَ عنه والانتقاصَ له والاستخفافَ به . وعندئذ أحسَّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذى أضاء لهم الطريق بالضجَّة التى أحدثها كتابه « فى الشعر الجاهلى » .

* * *

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذى تولَّى هو كِبْرَ إحداثه ، ظاهراً جدًّا ، ففى يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : « فى الشعر الجاهلى » ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر فى جريدة الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكانَ مُحَصَّلها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوَّل فى سنة ١٩٢٦ ، الذى أعلنه فى أوَّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما نُسَمِّيه شعراً جاهليًّا ، ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى مُنْتَحَلة مُخْتَلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثِّل

حياة المسلمين وميولَهم وأهواءَهم أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشكّ فى أنَّ ما بقى من الشعر الجاهلىّ الصحيح قليل جدًّا ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلُّ على شىء » ، [فى الشعر الجاهلى ص : ٧] .(١)

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ،(٢) وأدار الحديث بينه وبين صاحبٍ له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقُّون علينا حين تكلّفوننا قراءةَ شعركم القديم هذا ، وتلحُّون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوُّقه ، لأنكُم تنكرون الزمنَ إنكاراً وتُلْغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأوّل قبل الهجرة أو بعدها .. » ، إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقةَ إحساسه بآراء من يُحِيطون به من جيلنا الذى بلغ الفِطَامَ واستقلَّ .

---

(١) قد بينت فى بعض مقالاتى أن الدكتور طه ، قد رجع عن أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى ، بهذا الذى كتبه ، وببعض ما صارحنى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطئون فى العَلَنْ ، ويتبرأون من خطئهم فى السِّر !!

(٢) انظر « حديث الأربعاء » الجزء الأول (من ص ٩ – ١٧)

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعاء ج : ١) : « وقد تحدَّث إلىّ المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يَكْثُرون ، ويظهر أنهم سيكثُرون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه !

وسأحاول هنا أن ألخص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظى ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

« والذين يظنُّون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا
« خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى
« عقولنا شرًّا غير قليل ... فكانت الحضارة الحديثة مصدر
« جمودٍ وجهلٍ ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل
« أيضاً .

« هذا الشابّ ، أو هذا الشيخ ، الذى أقبل من أوربة
« يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسنُ الرطانة بإحدى اللغات
« الأجنبية ... يجلسُ إليك وإلى غيرك منتفخاً متنفِّشاً ،
« مؤمناً بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،
« ثم يتحدَّثُ إليك كأنه ينطق بوَحْى أَبُولُّون . فيعلن إليك
« فى حَزْم وجَزْم أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس

« قد أظلهم عصر « التجديد » ، وأنَّ الأدب القديم يجبُ
« أن يُتْرَك للشيوخ الذين يتشدّقون بالألفاظ ، ويملأون
« أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ،
« وأن الاستمساك بالقديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى
« أمامٍ هو التطوُّر ، وهو الحياةُ وهو الرقىُّ . هذا الشاب
« وأمثاله ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم
« هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر
« القديم ولا تنفِرُ منه ولا تنصرف عنه ، وإنّما تحبِّبُه وترغِّبُ
« فيه وتَحُثُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ منه متينٌ ...

« هذا الشابُّ ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ،
« أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشرُّه ليس مقصوراً
« عليه ، وإنمايتجاوزه إلى غيره من الناس . فهو يتحدَّث ،
« وهو يعلِّمُ ، وهو يكتُبُ ، وهو فى هذا كُلِّه ينفُثُ السُّمّ ،
« ويفسد العقول ، ويمسَخُ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
« لكلمة « التجديد » . فليس التجديد فى إماتة القديم ،
« وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلُح منه للبقاء .

« وأكادُ أتّخذ الميلَ إلى إماتة القديم أو إحيائه فى

« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم
« ينتفعوا بها ، فالذين تُلْهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم
« حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،
« ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنّما اتخذوا
« منها صُوَراً وأشكالاً ، وقلّدوا أصحابها تقليد القِرَدَةِ ،
« لا أكثر ولا أقلّ !!

« والذين تَلْفِتُهم الحضارة الحديثة إلى أنفُسِهم ،
« وتدفَعُهم إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بأن
« لا حياةَ لمصر إلاّ إذا عُنِيتْ بتاريخها القديم وبتاريخها
« الإسلامىّ ، وبالأدب العربىّ قديمه وحديثه ، عِنَايتَها بما يمسُّ
« حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ،
« وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن
« ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين » .

* * *

وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سنُّوا لمن بعدهم السُّنَن فى الحياة الأدبية وفى مناهج تفكيرها ، شهادة مهمّةٌ جدًّا لتاريخ الحياة الثقافية التى امتدَّت بعدهم إلى يومنا هذا ، بَلْ هى تكشف

عن جُذُور التدمير المفزِع الذى يشمل اليوم المُجْتَمع العربىَّ كُلّه حيث تُنْطَق العربيّة ، (١) لا بَلْ حيثُ يَدِينُ غيرُ العرب بالإسلام ، ويُوجب عليهم إسلامُهم أن يضعُوا العربية فى المقامِ الأوَّلِ ، لأن إسلامَهم لا يكون إسلاماً إلاّ بالقرآن ، وهو الذى نزل عليهم بلسان عربىّ مبين ، وإلاّ بسنَّة الرسول الأمىّ العربىّ ، ﷺ ، وهى أيضاً بلسان عربىّ مبين .

وليس من همّى هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضِّح مَدَى صِدْقها حيث صدق توقُّع الدكتور فى تكاثر عَدَد مَنْ وَصَفَهُم من « المثقفين » فى شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نقصها ، تشمل عامة المثقفين فى زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكنْ الذى يجب علىَّ أن أقوله أن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هى وجهٌ آخر

---

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفزِع الذى يشترك فى جريمته مثقفون كثيرون ، فى الأدب ، وفى العلم ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى الاجتماع ، وفى السياسة ، وفى الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « ينفث السم ويفسد العقول ويمسخ فى نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصراً على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت دخولاً مفزعاً عن طريق الإذاعة والتليفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

لشهادتى التى كتبتُها هُنا ، قالها هو من موقع « الأستاذية » ، وقُلْتها أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرّغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذى تلقَّى صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ فى دُوّامةٍ من التحوُّل الاجتماعى والثقافىّ والسياسىّ ، كما أشرت إليه آنفاً [ص : ٢٣٤] .

ثم قلتُ فى ختام ما سمّيتهُ « لمحة من فساد حياتنا الأدبية » [كتاب المتنبى : ١٢٢ ، ١٢٣] .

أمّا الآن ، فإنى أتلفّت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أُشفِق من مَغَبّة السُّنن التى سَنَّها لنا الأساتذة الكبار ، كسنّة « تلخيص » أفكار عالَم آخر ، ويقضى أحدُهُم عمره كله فى هذا التلخيص ، دُونَ أن يشعُر بأنّه أمرٌ محفوفٌ بالأخطارِ ، ودون أن يستنكف أن ينسبُه إلى نَفْسه نسبةً تجعله عند الناسِ كاتباً ومؤلّفاً وصاحبَ فكرٍ ، هذا ضربٌ من التدليس كريهٌ . ومع ذلك فهو أهوَنُ من « السطو » المجرَّد ، حين يعمد الساطى إلى ما سطا عليه ، فيأخذهُ فيمزّقه ثم يفرِّقه ويُغرقه فى ثرثرةٍ طاغيةٍ ، ليخفى معالمَ ما سطا عليه ، وليُصبح عند الناس صاحب فكر ورأى ومذهبٍ يُعرفُ به ، ويُنْسَبُ كُلُّ فضله إليه . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أهونُ من

« الاستخفاف » بتراثٍ متكامِلٍ بلا سببٍ ، وبلا بحثٍ ، وبلا نظر ، ثم دعوة من يَعلمونَ عِلماً جازماً أنه غير مطيقٍ لما أطاقوا ، دعوته إلى الاستخفافِ به كما استخفُّوا . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهونُ مما فعلوهُ وسنُّوه من سُنّة « الإرهاب الثقافىّ » الذى جعل ألفاظ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلُّف » و « التقدّم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضى » و « ثقافة العصر » = سياطاً مُلْهِبَةً : بعضُها سياطُ حثٍّ وتخويفٍ لمن أطاعَ وأَتَى ، وبعضها سِياطُ عذابٍ لمن خالف وأَبَى .

أتلَّفتُ اليوم إلى ما أشفقْتُ منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار ! لقد ذهبُوا بعْدَ أن تركُوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدُوا ، حياةً أدبيَّةً وثقافية قد فسدت فساداً ووبيلاً على مَدَى نصفِ قرنٍ ، وتجدّدت الأساليب وتنوَّعَت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقاً عليه طَيلسانُ « البحث العلمى » و « وعالميّة الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصولُه إلا ترديداً لقضايا غربية ، صاغها غُرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كُلِّ قضيّة ، واختلط الحابل بالنابل . قُلْ ذلك فى الأدب والفلسفَة والتاريخ والفنِّ أو ما شئت ، فإنّه صادقٌ صدقاً لا يتخلَّف . فالأديب مصوِّرٌ بقلم

غيره ، والفيلسوف مفكّر بعقل سواهُ ، والمؤرِّخ ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنّان نابضٌ قلبُه بنبضٍ أَجْنبىّ عن تراثِ فنِّه .

وأما الثرثرةُ والاستخفافُ ، فحدِّثْ ولا حرج ؛ فالصبىُّ الكبير يهزأ مزهوًّا بالخليل وسيبويه وفلانٍ وفلانٍ ، ولو بُعِث أحدهم من مرقده ، ثم نظر إليه نظرةً دون أن يتكلَّم ، لألجمه العرَقُ ، ولصارَ لسانُه مُضْغَةً لا تتلجلجُ بين فكَّيْه ، من الهَيْبة وحدَها ، لا من علمه الذى يستخفُّ به ويهزأ .

واللهُ المستعانُ على كُلِّ بليَّة ، وهو المسئول أن يكشفَها ، وهو كاشفها بمشيئته ، رَحمةً بأمة مسكينة ، هؤلاء ذُنوبُها كانوا ، وأشباهٌ لهم سبقُوا ، وغفرانَك اللهمَّ .

أبو فهر

محمود محمد شاكر

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

فهرس

رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

٧ ـ مقدمة / ٩ ـ فاتحة الرسالة / ١٠ ـ مدخل الرسالة وبدء الرحلة / ١٢ الرحلة الى المنهج / ١٣ الاهتداء الى المنهج ، وعبد القاهر الجرجانى وسيبويه / ١٧ ـ تفسير جديد لأزمنة الفعل عند سيبويه / ٢٢ ـ سبب تأليف سيبويه كتابه / ٢٣ ـ منهجى فى تذوق الكلام / ٢٥ ـ منهجى فى التذوق ، وكتابى « المتنبى » كيف استقبل / ٢٦ ـ كتابى « المتنبى » كيف استقبل / ٢٨ ـ لم أفارق منهجى قط فى مقالاتى وكتبى / ٢٩ ـ لم أفارق منهجى فى « القوس العذراء » (وهى شعر) / ٣١ ـ تذوق شعر الشماخ / ٣٣ ـ كلام فى « المنهج » و « ما قبل المنهج » ما هو ؟ / ٣٤ ـ « ما قبل المنهج » ، المادة ، والتطبيق / ٣٦ ـ كيف نشأ الخلاف بينى وبين المناهج الأدبية السائدة / ٣٧ ـ أصول « المنهج » من عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم / ٣٩ ـ أصول « ما قبل المنهج » ، وبيان ذلك / ٤٢ ـ أصول « ما قبل المنهج » ، اللغة وأسرارها / ٥٣ ـ أصول « ما قبل المنهج » ، الثقافة وأسرارها ، « البراءة » من « الأهواء » / ٤٥ ـ العواصم التى تحمى « ما قبل المنهج » / ٤٦ ـ العواصم التى تأتى من قبل « الثقافة » / ٤٧ ـ رأس كل ثقافة هو « الدين » ، الأصل الأخلاقى / ٤٨ ـ « الأصل الأخلاقى » الفريد بالكمال فى ثقافتنا / ٥١ ـ تاريخ نشأة الخلاف بينى وبين المناهج / ٥٣ ـ التفسير الصحيح لقضية « الحروب الصليبية » / ٥٥ ـ إخفاق « الحروب الصليبية » ، ثم فتح القسطنطينية / ٥٦ ـ تاريخ « المسيحية

الشمالية » فى المأزق (أوربة) وتفسيره / ٥٧ ـ إخفاق « الحروب الصليبية » وعودتها إلى ديارها (أوربة) / ٦٠ ـ ظهور « بيكُن » و « توما الأكوينى » وطبقته ، واستمدادهم من المسلمين/٦٢ ـ فاجعة فتح القسطنطينية وأثرها فى أوربة/٦٣ ـ فتح القسطنطينية لم يكن شرا على أوربة / ٦٥ ـ الاصلاح الدينى فى أوربة ، « لوثر » و « كلفن » ، واستمدادهم من المسلمين / ٦٧ ـ مراحل الصراع بين المسيحية الشمالية ودار الاسلام / ٦٨ ـ المرحلة الرابعة هى التى أدت الى « عصر النهضة »/ ٦٩ ـ إعداد أوربة نفسها لحرب صليبية رابعة/٧١ ـ مدد « عصر النهضة » كله مأخوذ من دار الاسلام/ ٧٢ ـ بدء ظهور طبقة « المستشرقين » وأهدافهم ووسائلهم/٧٤ ـ وصف حقيقة طبقة « المستشرقين » وعملهم للتبشير والاستعمار/٧٥ ـ أهداف المسيحية الشمالية وحقيقتها ٧٦ ـ أهداف المسيحية الشمالية ووسائلها / ٧٨ ـ إنفك حصار المسيحية الشمالية باكتشاف أمريكا ، وكيف كان ذلك/٧٩ ـ ابادة الهنود الحمر هو خلق الحضارة الأوربية ، « الاستشراق » / ٨١ عمل « الاستشراق » ، و « المستشرقين » ونهب تراثنا / ٨٢ حقيقة « الاستشراق » ، وظهور دهاقينه الكبار / ٨٥ ـ « المستشرق » حامل هموم المسيحية الشمالية وممثل أهدافها/٨٦ ـ لاى هدف كتب « المستشرقون » ما كتبوا ؟ وصفة « المستشرق » / ٨٨ ـ ماكتبه « المستشرقون » موجه إلى المثقف الأوربى لا غير/٨٩ ـ الصورة التى صوروا بها العالم الاسلامى للمثقف الأوربى/٩٠ ـ عمل « الاستشراق » موجه للمثقف الأوربى لحمايته / ٩٢ ـ « الاستشراق » يطلب إقناع المثقف الأوربى لحمايته / ٩٣ ـ كتب « المستشرقين » لاتوصف بأنها علمية / ٩٥ ـ أسباب نفى صفة « العلمية » عن كتب « المستشرقين » / ٩٧ ـ

« المستشرق » عار من شروط « المنهج » وما قبل المنهج/٩٩
- نشأة « المستشرق » تمنعه من الدخول تحت شروط « المنهج » الثلاثة / ١٠٠ - شروط « المنهج » : « اللغة » و « الثقافة » و « البراءة من الأهواء »/١٠٥ - تتمة القول فى خلو المستشرق من شروط « المنهج » / ١٠٦ - سر « الثقافة » الملثم ، ولم / ١٠٧ - طوران فى الطريق إلى « الثقافة » : الدين واللغة ١١١ « الدين واللغة » غير قابلين للفصل/١١٢ - « ثقافة عالمية » كلمة باطلة ، ولم ؟/١١٣ - لغة المستشرق و « ثقافته » تخرجه من شروط « المنهج » / ١١٥ - دوافع « الاستشراق » فى الكتابة حق له / ١١٧ - ختام قضية « الاستشراق » / ١١٩ قصة ملؤها المضحكات والمبكيات / ١٢٠ - كيف كان الأمر فى القرن الحادى عشر الهجرى/١٢١ - « النهضة » ورجالها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرين / ١٢٤ - الجبرتى الكبير والأفرنج « المستشرقون » / ١٢٦ - الفرق بيننا وبين أوربه فى ذلك الوقت / ١٢٨ - « الاستشراق » وتخوفه من نهضتنا يومئذ/١٢٩ - « الاستشراق » ونذيره للمسيحية الشمالية / ١٣١ - « الاستشراق » وعمله للاستعمار/١٣٢ - صراع بريطانيا وفرنسا فى دار الاسلام فى الهند/١٣٤ - وقع نذير « الاستشراق » فى فرنسا ، نابليون / ١٣٥ - « نابليون » السفاح مدمر القاهرة/١٣٧ - قصة مقحمة/ ١٣٨ - حقيقة « الحملة الفرنسية » فى مصر/ ١٣٩ - « مينو » الخبيث ، وجلاء الفرنسيين عن مصر / ١٤٥ - تدمير القاهرة على يد نابليون وحملته/١٤٦ - الحملة الفرنسية ومستشرقوها وسرقة نفائس الكتب/١٤٩ - سرقة الكتب لوأد اليقظة ، وسفح دماء رجالها / ١٥٠ - سفح الدماء لوأد اليقظة / ١٥٢ - جهاز « الاستشراق » وعمله فى دار الاسلام / ١٥٣ - « الاستشراق »

وفكرة نابليون فى خديعة « الديوان »/ ١٥٦ - « الاستشراق » كامن فى أحشاء جزار القاهرة نابليون / ١٥٧ - سياسة جزار القاهرة فى « إنشاء الديوان »/ ١٦٠ - إخفاق نابليون ومستشرقيه فى ترويض الجماهير المصرية / ١٦٠ - خيبة أمل الجزار فى « تدجين المشايخ »/ ١٦١ - رسالة نابليون الى خليفته كليبر وخطرها / ١٦٣ - نص الرسالة كيف عبث بها الرافعى ، فضيحة !! / ١٦٧ - « المستشرقون » وأهدافهم ووسائلهم وزحفهم البطىء / ١٦٩ - « ليبنتز » الفيلسوف الألمانى يحرض فرنسا على غزو مصر / ١٧٠ - تقارير الساسة الفرنسيين الداعية لغزو مصر/١٧٣ - تواريخ التقارير مطابقة لتاريخ « اليقظة » فى مصر /١٧٨ - إرهاب نابليون ومقاصده فى رسالته الى « كليبر » / ١٨٠ - مقاصد « نابليون » وارهابه وجذور قضيتنا مع الغرب/١٨١ - عمل « الاستشراق » ، والزحف الشامل على دار الاسلام/ ١٨٢ - جاليات المسيحية الشمالية فى قلب دار الاسلام ١٨٤ - تعبئة « الاستشراق » اليهود والأرمن والأروام والمالطيين/١٨٦ - « المستشرقون » وإقامتهم الطويلة فى دار الاسلام فى كل زى / ١٨٧ - عمل « الاستشراق » فى إقامته الطويلة بدار الاسلام فى مصر ١٨٨ - بدء سقوط هيبة المشايخ عند المماليك المصرية/ ١٩٠ - الثورة على المماليك ، والمشايخ الذين كانوا على رأسها/١٩٣ - ثورة المشايخ على المماليك جزء من « اليقظة »/١٩٥ - المشايخ الثوار ، كيف استجابوا لدعوة نابليون لانشاء « الديوان » / ١٩٦ - ماكان « الاستشراق » يوحيه الى المشايخ عند دنو الحملة الفرنسية / ١٩٧ - ماكان « المستشرقون » يفعلونه مع المماليك ، ومع الكنيسة القبطية / ١٩٩ - حقد « الاستشراق » على الكنيسة

القبطية لما لم تستجب لاغرائهم / ٢٠٠ ـ سر استجابة المشايخ لنابليون وديوانه / ٢٠٢ ـ اسناد المشايخ ولاية مصر لمحمد على / ٢٠٣ ـ صفة أخلاق محمد على ، ومراقبة « الاستشراق » له / ٢٠٥ ـ غدر محمد على بالذى ولاه مصر ، السيد عمر مكرم / ٢٠٦ ـ إحاطة « القناصل » بمحمد على ، وتحريضه على غزو جزيرة العرب / ٢٠٨ ـ قصة فكرة البعثات الى أوربه / ٢١٠ ـ « جومار » وتطويره مشروع نابليون الى بعثات طلبة / ٢١٣ ـ رفاعة الطهطاوى وخبره ، ومافعل به « المستشرقون » / ٢١٧ ـ حقيقة « مدرسة الألسن » التى أنشأها رفاعة الطهطاوى وخطرها / ٢١٩ ـ خاتمة الرسالة ، وتتمة القول فى خطر « مدرسة الألسن » ٢٢٠ ـ الاحتلال الانجليزى لمصر ، وجعل التعليم كله فى قبضة المبشر « دنلوب » / ٢٢٢ ـ « تفريغ » طلبة المدارس من ماضيهم ، وبعث الانتماء إلى « الفرعونية » البائدة / ٢٢٣ ـ ختام الرسالة ، والحمد لله وحده ، ٢٢٦ ـ ذيل الرسالة ، قصة « التفريغ الثقافى » . .

● ● ●

رقم الأيداع : ٥٩١١ / ٨٧
الترقيم الدولى : ٧ - ٣٢٥ - ١١٨ - ٩٧٧ IsBn

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣
13079 ـ تليفون ٤٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئه ١٠٠ قرش :

سوريا ٢٧٠٠ ق . س لبنان ١٢٠ ليرة الاردن ٦٠٠ فلس الكويت ٦٠٠ فلس العراق ١٦٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات البحرين ١٣٠٠ فلس الدوحة ١٣ ريالا دبى ١٣ درهما ابو ظبى ١٣ درهما مسقط ١٣٠٠ بيسه تونس ١٧٥٠ مليما المغرب ٢٠ درهما غزه والضفه ١ دولار البرازيل ٦٠٠ سنت داكار ١٥٠٠ فرنك ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة جيبوتي ١٥٠ بنيا

يناقش هذا الكتاب واحدة من أخطر قضايا ثقافتنا .. بل قضية القضايا فيها وهى الوضع الحالى لثقافتنا العربية الاسلامية بعد الغزو الأوربى ، حيث لم يكن هذا الغزو جيوشا فقط ، بل كان جحافل من المستشرقين بدأت منذ عهد النهضة الأوربية الزحف على بلادنا بغرض مزدوج .. أولهما محاولة السطو على كل ما تقع عليه أيديهم من كنوز حضارتنا .. بل حضارات الشرق جميعا ، علومها وفنونها وآثارها ، والغرض الثانى هو تمهيد الأرض للجيوش الغازية بما فى ذلك محاولة اخضاع العقل العربى عن طريق إعادة تصدير ما وقع تحت إيديهم من معارف عن بلادنا وثقافتنا بالصورة التى تلائم أغراض الغزاة ..

ومايزيد من أهمية هذا الكتاب أن كاتبه علم كبير من أعلام ثقافتنا العربية ، وهو الأستاذ محمود محمد شاكر ..

وقد ولد أبوفهر ، محمود محمد شاكر فى الاسكندرية فى العاشر من محرم عام ١٣٢٧ هـ أول فبراير ١٩٠٩ م من أسرة معروفة ، ورحل إلى الحجاز حيث أنشأ مدرسة ابتدائية فى جدة ..

تفرغ فى عام ١٩٢٩ للكتابة والدراسات الأدبية.. واشترك فى تحرير عدد من الصحف والمجلات ، وأصدر عددا من المؤلفات الهامة فضلا عما حققه من عيون التراث العربى .. وقد كرمته الدولة بمنحه جائزة الدولة التقديرية فى الأدب لعام ١٩٨١ ، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة فى عام ١٩٨٢ ، كما فاز بجائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب عام ١٩٨٣ ..

سلسلة
ثقافية
شهرية

التاريخ الذى أحمله على ظهرى

الثمار

الدكتور سيد عويس

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »
KITAB ALHILAL
العدد ٤٤٣ - ربيع الاول - نوفمبر ١٩٨٧
NO · 443 NOVEMBER 1987

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحـــة حســـنين

التاريخ الذى أحمله على ظهرى

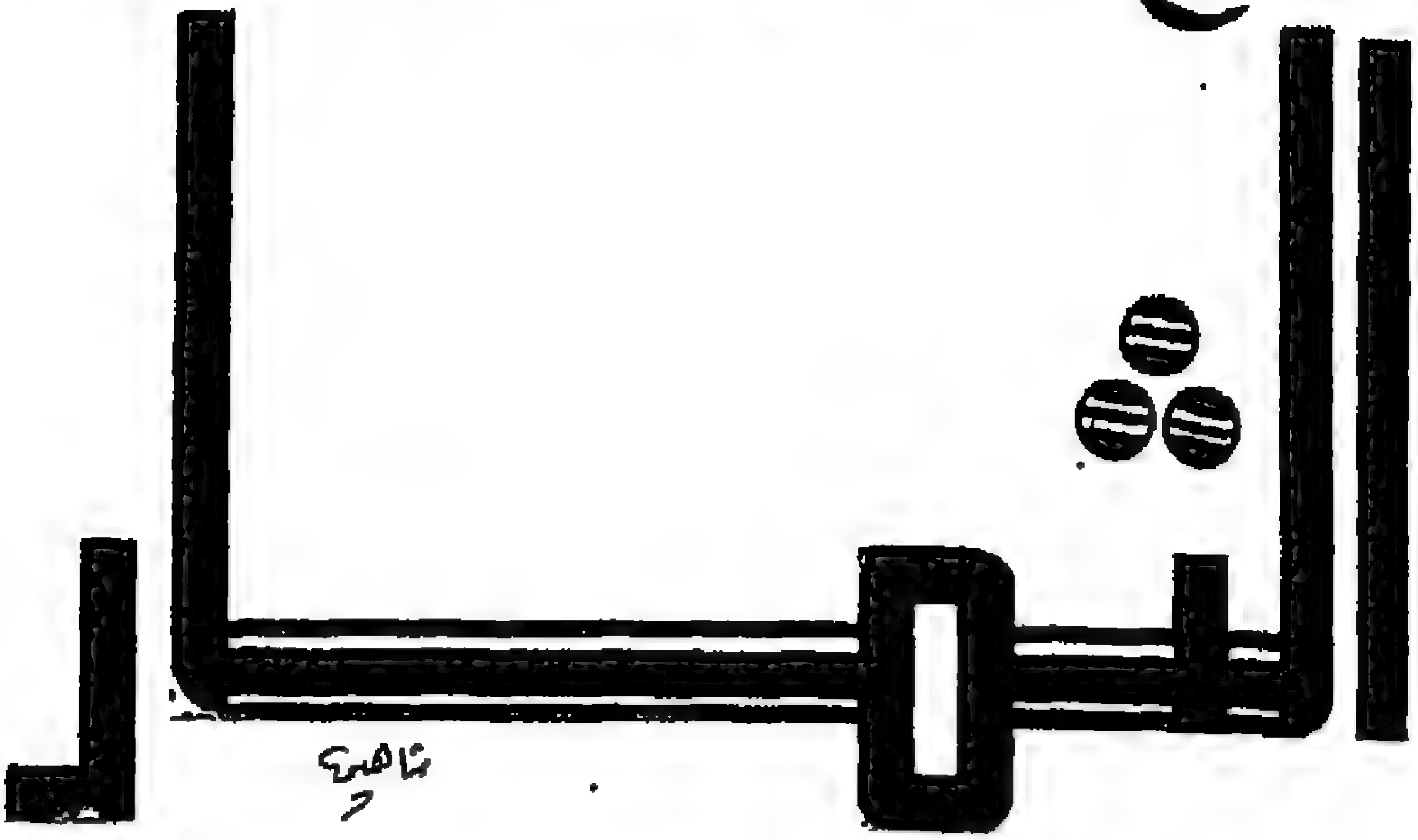

بقلم:
الدكتور سيد عويس

دار الهلال

- ١ -

١٢٥ يوما فى مواجهة الضياع

ووجدت نفسى وجها لوجه امام زوجتى والاعزاء أحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد وكأننا كنا على موعد . لقد دهشوا جميعا عندما راونى أمامهم دون سابق انذار ، فأنا لم ابلغهم بموعد حضورى على وجه التحديد . ولـكن الدهشة ذهبت وحل محلها تيار المحبة الذى غمـرنا جميعا . وجدت نفسى فى أحضانهم ووجدوا انفسهم فى احضانى . كانت الغيبة عنهم طويلة ، وكان شـوقى اليهم عظيما عظيما . غمرنا تيار المحبة لحظات لا يمـكن ان تكون فى حسبان الزمان . وجدتهم غير ماكانوا عليه عندما تركتهم فى يوم ١٥ من شهر أغسطس عام ١٩٥٣ . ونحن الآن فى يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . لقد كبرت اجسامهم أجل ، ولكن شبح الاسى والمعاناة كـان يطل من العيون . وياويلتى من اشعاع الاسى والمعاناة الذى كنت أراه وكان يحز فى قلبى وكاد أن يقطعه اربا اربا . والشقة لقد تغيرت معالمها ونقص الكثير من اثاثها . ورايت كل شىء وسمعت كل شىء وانطبع على صـفحات قلبى كل شىء . ثم صمت . كان فرحى باللقاء كبـيرا حقا ، ولكننى كنت أرنو آلى ماوراء اللقاء .. الى المستقبل القريب والى المستقبل البعيد . ماذا يخبىء الدهر لى ياترى ؟ كنت اتساءل . ولكن سرعان ما اعتذرت لاعضاء

اسرتي الحبيبة طالبا بعض الراحة من عناء السفر . والحق يقال ان عنائي لم يكن ماديا بالدرجة الاولى ولكن كان هذا العناء معنويا قبل كل شيء . وعندما اضطجعت على السرير أو مايشبه السرير لم تستطع أن تجد الراحة الى كياني سبيلا . كنت أسبح في بحور الضباب الفكري . ولم يخرجني مما كنت فيه الا أن أقول « يابركة دعاء الوالدين » . واطل على التفاؤل بالحياة برأسه فانفرجت اسارير مشاعرى بالغبطة ورأيت ان لا مناص من انفراج الازمة ، وقلت صامتا « اشتدى يا أزمة تفترجى » .

انني الآن فى الشارع ولا عمل لى اذهب اليه لكى إحصل على قوتي وقوت أعضاء أسرتي . ولم أفكر فى احد من الناس ألجأ اليه في محنتي ، ولم يفكر احد فى الحضور الى . فكل أعضاء جماعتي المرجعية قد علموا بعودتي كما علموا بحصولي على درجة الدكتوراه . ولكنهم كانوا يعلمون ايضا أن عباس عمار الذى كان وزيرا للشئون الاجتماعية عندما كنت أعمل بها مفتشا فى ادارة الاحداث قد رفتني . فأصبحت معزولا ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا . وأبى الجميع ، ولم أكن أتوقع ذلك ، الا ان يتركوني وشأني . وأحسست بأنني ، على الرغم من انني توجت جهودى المضنية بالنجاح ، شخص منبوذ . ويبدو انني كنت مريضا ولم اكن على بينة من امرى . كنت اشعر بأن راسي يحمل شيئا ثقيلا كأنه الجبل ، ولم أدر تشخيص ذلك . وكنت ترانى دائما على السرير مضطجعا أفكر وافكر وافكر . كان فى جعبتي ما يمكن أن يسد رمقي ورمق أعضاء اسرتي لمدة لاتزيد على ثلاثة شهور . ولكن اعضاء اسرتي لايحتاجون فقط الى سد

الرمق . انهم كما رايتهم يحتاجون الى اكثر من ذلك . ان احمد فى كلية الهندسة وامال ستجلس الى امتحان الثانوية العامة وسمير وتيسير ومسعد سيجلسون الى امتحان الاعدادية على الرغم من فروق الاعمار . وكانت مهمتى ان ارفع معنوياتهم حتى يجتازوا امتحاناتهم بنجاح، ولكن المعنويات لكى ترتفع فى مسيس الحاجة الى أمور مادية هامة . فالملبس الانيق والاكل . وقد كانوا فى مرحلة النمو لايزالون — فى مسيس الحاجة الى تعدد أصنافه ، فضلا عن « المصروف اليومى » الكافى .. كل أولئك وغيرها كثير امور مادية تيسر ارتفاع معنويات الانسان منا فضلا عن الشباب أو من فى حكمهم .

واننى اذكر اننى على الرغم من كل شىء فقد نمت . لا ادرى كم ثانية أو كم دقيقة او كم ساعة استغرق فى فى خلالها نومى . ولكنى عندما استيقظت وبدا لى أننى من فرط ماوصل اليه مستوى مرضى أننى لم أنم الا قليلا جدا ، وجدت والد زوجتى ووالدتها وبعض اخواتها واخوتها قد حضروا مسلمين مهنئين بالعودة .. اقصد عودتى . وكان الشيخ زكى والد زوجتى رجلا صالحا حقا كريما حقا . جاء الجميع وكانوا يحملون معهم بعض الطعام الذى أعدته والدة زوجتى احتفاء بالعودة . كان الطعام متعدد الاصناف . وقد تعودت هذه السيدة أن تفعل ذلك من حين الى حين وبخاصة اذا كانت ظروف الحياة التى تواجهها أسرتى الصغيرة وأنا ظروفا غير مواتية . وكان الشيخ زكى يزورنى كلما عدت من الخارج قبل هذه العودة وبعدها عندما اتيحت لى الفرصة للسفر وكان يردد هذا الشيخ الكريم الصالح قولته المحببة :

« انفاس معدودة في أماكن محدودة »

فقد كان يرى ان سفري امر مكتوب علي ، فأنا اذ اذهب الى الخارج أو الى اى مكان فى داخل بلادى الخالدة مكتوب على أن « أتنفس » فى الاماكن التى أزورها الهواء الذي يحيط بها حتى أتركها الى غيرها . فأنا مكتوب على أن أتنفس هواء مدينة لندن اذا ذهبت الى مدينة لندن ، ومكتوب على ان أتنفس هواء مدينة الاسكندرية اذا ذهبت الى مدينة الاسكندرية وهكذا .

« أنفاس معدودة فى أماكن محدودة »

انه قدري كما يلمح الشيخ أنني ذهبت الى الولايات المتحدة فالهواء الذي مكتوب على أن أتنفسه كان موجودا هناك . ولم يكن يعلم أو ربما كان يعلم أن الامور فى هذه الدنيا لا يمكن أن تكون بهذه البساطة . ولم يكن يدرى أو ربما كان يدرى أن الظواهر مادية كانت أو غير مادية وان كل انماط السلوك لا يمكن أن توجد فى ضوء احد العوامل اذا أعتبرنا التنفس لهواء معين عاملا من عوامل السفر الى المكان الذى فيه هذا الهواء المعين وليس مجرد نتيجة .

جاء أعضاء اسرة زوجتى التوجهية الينا فأحسست بأن الدنيا بخير . جاءوا بالنبات الطيبة كما جاءوا بما أشبع بطون ابنائي وزوجتى واشبع بطنى كذلك . وجلسوا معنا ماشاء لهم من الوقت ثم عادوا الى بيتهم وتركونا . كنت واعضاء الاسرة ننظر الى بعضنا البعض وتتحدث نظراتنا بمعان شتى . وفضلت أن أصمت لكى أفكر ، وكان عشمى أن ينجح الابناء فى امتحاناتهم . وكان قد بدأ امتحان بعضهم وانتهي امتحان البعض الاخر . وانتظرت كما انتظروا النتائج . ولكنى لم أستطع صبرا فذهبت الى

كلية الهندسة لكي أعرف نتيجة العزيز أحمد . لم أقل له اني ذاهب من أجل ذلك . ولم اقل لاحد ايضا . ولكني عندما ذهبت وجدت أن النتيجة قد ظهرت وأن اسم أحمد لم يكن في كشف الناجحين . وعلمت أن لديه فرصة للاعادة وكانت الصدمة الاولى ولكنها لم تزعزع الثقة في المستقبل . فمن حق أحمد أن يعيد دراسته تحت اشرافي . لقد قام بأدوار اجتماعية عديدة وهو في سنه الغضة . وله كل العذر والاعتذار . ومن حقه على ان أقف بجانبه سندا وحاميا ومشجعا . ونجح سمير وتيسير ومسعد في الشهادة الاعدادية ، وكنت فرحا ولكنني أيضا كنت قلقا . انني اعرف في ضوء خبراتي قدرات هؤلاء الاعزاء . وكان على أن اختار لهم المدرسة التي تتفق مع هذه القدرات أو كان على أن أشترك مع كل واحد منهم في هذا الاختيار . وتم اختيار « معهد مكانيكا الطائرات » لسمير . لقد كان شابا فارع الطول يمارس الرياضة وبخاصة لعبة « كرة السلة » وكان من الناحية الجسمية سليما معافى . واختارت تيسير أحدى المدارس الثانوية الفنية وقد شجعتها على هذا الاختيار فقد لاحظت الوانا شتى من ميولها الفنية ، كانت تحب القراءة ، وكانت تعشق الذهاب الى السينما ، وعندما تكتب كان القلم بين اصابعها مطواعا معطاء ، وكان حديثها لا يمله انسان . فقلت في نفسي انها اولى بالمدرسة الثانوية الفنية والمدرسة الفنية أولى بها . اما مسعد فقد اختار المدرسة الثانوية العادية ، ومنها وكان هذا طموحه كما كان طموحي أن يذهب الى الجامعة ، وكل ميسر لما خلق له . وانتظرنا نتيجة امتحان العزيزة آمال ، ولما توجت مجهوداتها بالنجاح وحصولها على الشهادة الثانوية العامة ، واجهت

امرين هامين : الاول الكلية التى قدر لها أن تلتحق بها وكانت كلية الاداب قسم اللغةالعربية : جامعةعين شمس . أما الامر الثانى فقد كان تدبير المصاريف التى كان يجب أن أدفعها لكي تلتحق في الموعد المحدد لالتحاقها بالكلية وكان الامر الثانى فى ضوء الظروف التى كنت أعيشها عقبة كأداء .. ولكننى تذرعت بالصبر . وتذرعت بالقول القائل :

« الصبر مفتاح الفرج »

كنت أقول ذلك وكنت مضطرا لاقول ذلك . وكنت اجدنى في دهشة من أمرى . ماذا حدث لى وقد حصلت ماحصلت من العلوم والمعارف ، وعشت التجارب تلو التجارب ، وآمنت أو كدت ان افعل ذلك بالعديد من من الافكار التى ترى أن الانسان فى ضوء مايملك من قدرات استطاع ويستطيع أن يقهر مايواجهه من عناء أو ضياع ؟ ماذا حدث لى ؟ اهى ردة الى ماضى الترهات والخرافات والتواكل « لا التوكل » ؟ أو اننى اذ اعيش فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى الذى لم يتخلص من هذه الترهات والخرافات .. حتى الآن ، فانا تحت رحمة هذه العناصر الثقافية التى لا تزال تملؤه ولم تجد حتى الآن فعلا وقولا من ينقيه منها . أو اننى اذ أعيش المرض الذى ينخر فى جسمى والذى لم أتعرف عليه ولم اكن ادرى شيئا عنه حتى الآن ، اصبحت شخصا لا يستطيع مقاومة ما أواجهه فى هذه الفترة من حياتى ؟

وكان مكانى المفضل حجرة النوم . القى جسدى على سريرى وافكر فيما انا فاعل . ماذا أفعل من اجل احمد وماذا افعل من اجل آمال . اننى اعيش منعزلا ثقافيا

لا ادرى شيئا خارج الحجرة التى أعيش فيها ولا يدرى احد عني شيئا . او لعلهم يدرون ويدعون غير ذلك . لقد تجاسرت يوما وخرجت من البيت الى المقهى الذى تعودت ان اجلس على أحد كراسيه ويجلس من حولى من يجلس لنتسامر ولكى ينالهم « مشروبا » قبل سفرى الى الخارج في المرة الاخيرة . فماذا وجدت ؟ وجدت كرسيا فجلست عليه ولم أجد أحدا يحاول أن يحوم حولى حتى الرجل الذى كان يعمل فى مؤسسة الزفاف الملكى « مساعد طباخ » ولم يكن يسكن بعيدا عن مسكنى ، كان قد اتى الى ليجلس بجوارى فى المقهى ، ولما علم اننى لا اعمل ولا وظيفة لى واننى فى حقيقة الامر اعيش وكأننى المنبوذ فلا سلطان لى على أحد وأن كان المجتمع كله يفرض سلطانه وسلطته بل قهره على – تركنى ولم يعد يجلس بجوارى فترة من الوقت حتى اذا مابدت خيوط الامل فى عمل لى بدأ يعود أدراجه . اننى كنت ضائعا حقا واحترم اعضاء اسرتى الصغيرة صمتى وعزوفي عن الدنيا الا ان اقرا صحيفة او كتابا . أننى فى حقيقة الامر لم أكن صامتا الا عن الكلام ولكنى كنت أعيد « أفلام » تاريخ حياتى منذ ان وعيت وحتى اللحظة التى كنت فيهـا كنت استرجع الماضى وارى نفسي من خلاله في كل فترات حياتى الماضية . ووصلت الى نتيجة حاسمة . وجدتنى فجاة افكر في الانتحار . وكانت فكرة لم تمكث الا برهة وجيزة بددتها نظرتى الى احدى صورى الفوتوغرافيـة المعلقة على حائط الحجرة ومن حولها صور فوتوغرافيـة اخرى لبعض ابناء مؤسسة الزفاف الملكى ، وكان منهم كما اذكر الان رجب حافظ واحمد شحاته وعبد الكريم ومسعد الحلوانى وعطية ابو دقه وعبد الرحيم الصـغير

والاكس . ودهشت جدا لما وصلت اليه حالتي ، ولكنني تجلدت واسترجعت رباطة جأشي ، وتذكرت أعضـــاء أسرتي الصغيرة : زوجتي واحمد وآمال وسمير وتيسير ومسعد . وقلت لنفسي ماذنب هؤلاء ؟ انهم بالضرورة لا جريرة لهم فيما حدث أو يحدث لي . ولم أبد لنفسي عذرا في التفكير في الاقدام على هذه الفعلة الخبيثة . صحيح لقد كان من حقي ان أعذر فهاأنذا قد حصلت على درجة الدكتوراه ، وهاأنذا أجدني « وفي رقبتي » زوجة شابة وابناء في عمر الورد ينتظرهم المستقبل وينتظرون المستقبل ، وهاأنذا مع كل ذلك ينبذني المجتمع في شخص أعضاء جماعتي المرجعية وغيرهم من أعضائه نبذ النواة لقد وجدتني اذ هنت على هؤلاء هانت على الحياة . انني هنا وقد جئت بعد غيبة طويلة كنت في خلالها أعب من الوان العلوم والمعارف عبا لا يابه بي أحد . ولم اكن في يوم من الايام منافقا وان تعامل معي المنافقون ، فأبعدت نهائيا ان اعرض نفسي على أحد . لم أندم أبدا لانني قطعت ألكارت الذي أعطتني اياه رفيقة السفينة الامريكية زوجة الرجل الدبلوماسي الذي لم اره أبدا . فهل كان على أن اذهب الى السفارة الامريكية والروح الاستعمارية التي عشتها في مناخ مجتمع الولايات المتحدة الثقـافي قد أطلت براسها لتحكم العالم وبخاصة وقد ملكت دولة هذا المجتمع « القنبلة الذرية » وتهدد بها كل من يتجاسر على الوقوف في سبيلها ؟ وهل اذهب الى الصاغ مجـدي حسنين الذي في ضوء موقفه قد بارك وضع أعضـــاء المجتمع المصرى المثقفين المناضلين من الوفديين أو مـن الاخوان المسلمين أو من معتنقي المبادىء الماركسية وغيرهم في الاغلال ؟ انني رفضت ذلك رفضا . وكنت اقول كيف

اضع يدى فى يد هؤلاء او اولئك . ان هؤلاء واولئك كانوا فى رايى فى ذلك الحين أعداء مصرنا الخالدة الحقيقيين . كيف السبيل الى بناء المجتمع الرشيد بدون اعضاء المجتمع المصرى المثقفين المناضلين ؟ انهم صفوة المجتمع فى ذلك الحين وهم فى ضوء نشاطاتهم وممارساتهم ولى الناس بالقيادة والحكم . وأذا كانت ثورة عام ١٩٥٢ ى ثورة المستقبل المشرق لمجتمعنا المصرى ، كما كنت اقول ، فمن واجبها تجنيد كل أنثى قادرة وكل ذكر قادر لبناء هذا المستقبل . ان الوطنية لا يمكن ان تحتكر فالوطن وطن الجميع ، ومن حق جميع القادرين ان يؤدوا واجبهم المقدس نحو الوطن مصرنا العزيزة الخالدة .

ومر شهر او كاد فاذا بى أجد زميلى المغفور له « الاستاذ ابراهيم المنوفى » يدق على باب شقتى مساء ذات يوم من الايام فى خلال شهر يونيو عام ١٩٥٦ . وفتح باب الشقة وقابلته بفرح فهو ليس فقط كان زميلا ولكنه كان صديقا بل كان أخا . كان رجلا مكافحا حقا وترك بصماته فى العمل الاجتماعى وبخاصة فى العمل الاجتماعى الريفى الذى بدأه فى قرية « شطانوف » فى اول شهر أكتوبر عام ١٩٣٩ . ويبدو أن الاستاذ ابراهيم شعر بما كانت الشقة عليه من حال فاقترح على أن نخرج لنجلس على مقهى « الفيشاوى » بجوار مسجد « الامام الحسين » ، وكان هذا المقهى قريبا من المنزل الذى اسكن فيه ، وكثيرا ماجلسنا هو وانا عليه فى الايام الماضية . وفتح الاستاذ ابراهيم الحديث وذكر لى اننى فى ضوء ظروف جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق « حيث ان السيدة الزا ثابت المديرة فى أوروبا فى الوقت الحاضر ، وبالنسبة الى ظروفى الراهنة ، راى مجلس ادارة الجمعية تعيينى

مديرا مؤقتا للجمعية ، حتى تعود السيدة الزا ، براتب قدره عشرون جنيها مصريا شهريا وأن أمنح كذلك خمسة جنيهات مصاريف الانتقال . ثم أعطاني صورة من محضر الجلسة الذى سجل هذا القرار كان يحتفظ بها ، ونص هذا المحضر اذكره فيما يلى :

« اجتمع مجلس الادارة في الساعة التاسعة من مساء يوم الاربعاء الموافق ٢٠-٦-١٩٥٦ برئاسة السيد الاستاذ محمد فتحى وحضور السادة الاساتذة عبد العزيز فتح الباب واحمد ابو ريه وابراهيم المنوفى . وتغيب السيد الاستاذ كمال عبد السلام لوجوده خارج القطر وقام باعمال السكرتارية السيد الاستاذ ابراهيم المنوفى .

وقد نظر المجلس فى النقاط الآتية :

١ - تلى محضر الجلسة السابقة ووفق عليه .

٢ - وافق المجلس على الصرف في عام ٥٦-١٩٥٧ على ضوء ميزانية عام ١٩٥٥ حتى تتم الموافقة على مشروع الميزانية .

٣ - قرر المجلس منح الدكتور سيد عويس نفس المكافأة التى كانت تتقاضاها السيدة الزا ثابت وهيعشرون جنيها شهريا وان يمنح كذلك خمسة جنيهات مقابل مصاريف الانتقال فى جمع التبرعات ومايستلزمه نشاط الجمعية من انتقالات وذلك من تاريخ اول يونيو وهو تاريخ استلام العمل وذلك الى حين عودة السيدة الزا ثابت من الخارج .

٤ - قرر المجلس قبول الدكتور سيد عويس عضوا بمجلس الادارة فى احد المكانين الخاليين بالمجلس .

السكرتير	الرئيس
« ابراهيم المنوفى »	« محمد فتحى »

وعندما افترقنا ابراهيم المتوفي وانا وتركته في طريقي الى منزلي حيث اسكن لم اكن اشعر بشيء الا بالغبطة والسرور والحبور . فقد تأكد لي أن الله ستار . وأن الخير في هذه الدنيا موجود . صحيح ان الشر كذلك موجود ، وهو والخير في صراع دائما . ولكن في ضوء ظروفي انتصر الخير وكان انتصاره أكيدا . وزاد كل ذلك من تفاؤلي بالحياة وبالمستقبل : مستقبل أعضاء أسرتي الصغيرة ومستقبلي . ان قرار مجلس ادارة الجمعية المشار اليه يسر لي ان اعمل في سبيل تكوين المواطن الصالح في مجتمعنا . فالجمعية تعمل منذ اللحظة الاولى في سبيل تحقيق هذا الهدف . وأنا ماذهبت لكي أدرس دراساتي العالية الا لكي أتأهل لهذا العمل تأهيلا منتظما اقصد تأهيلا علميا . وهاهي ذي الفرصة قد واتت لكي احقق عمليا في ربوع حي بولاق الذي كان ، ومازال ، يعج بالاطفال والصبيان والفتيات والشبان والشابات والرجال والنساء . يملئون بيوتهم القابعة في هذا الحي كما ينتشرون في الشوارع والحارات والازقة التي توجد في ثناياه . ان الهدف الاول في سبيله الى التحقيق مما اسعدني . اما الهدف الثاني ، كما يعلم القارىء ، وقد كان البحث عن حقائق المجتمع المصري الثقافية : الظواهر منها والعلاقات الاجتماعية وانماط سلوك بنية فلعلي أن احد السبيل الى تحقيقه عن طريق الجمعية أيضا . ومع ذلك فانني كنت على يقين انني سأعمل بالجمعية بصفة مؤقتة اي انه عندما تحضر السيدة الزا من الخارج وتعود الى قواعدها أترك مقعدي ولكني لن اترك العمل في الجمعية لتحقيق هذين الهدفين متطوعا . فقد كنت أعتبر

ولا ازال ، « حي بولاق » وقد كان موضوعا للدراسة في رسالة الدكتوراه وانا اقارنه « بحي روكسبرى » بمدينة بوستن ، انه حي ممثل لمصرنا الخالدة أقصد مجتمع مصرنا الخالدة ، كان هذا الحى حيا قديما ، وكانت ترجع نشأته الى عصر الفاطميين « ٣٦٢ ـ ٥٦٧ هـ : ٩٧٢ ـ ١١٧١ م » . وكان هذا الحى فى آحدى فترات التاريخ عبارة عن جزيرة تسمى « جزيرة الفيل » ، وعندما انحسر الماء عن هذه الجزيرة فى خلال عام ٥٧٠هـ « ١١٧٤ م » ثم استمر الماء ينحسر عاما بعد عام ، واصبحت الجزيرة صالحة للسكن بدأ الناس فى خلال عام ٧١٣ هـ « ١٣١٣ » يسكنون فى الرقعة التى انحسر الماء عنها . وبدأوا يبنون فيها المساكن ، وكان من الذين بداوا هذا البناء السلطان والامراء والجند والتجار والكتاب ثم أعضاء المجتمع الآخرون . وعندما انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق ، امتدت العمارة فيه الى أبعد مدى على شاطىء النيل ، واصبح المكان يجتذب كل راغب فى البناء بعيدا عن الاماكن المزدحمة فى القاهرة .

والملاحظ ان حي بولاق يقع فى الجزء الغربى من محافظة القاهرة ، يحده من الجهة الشمالية خط سكك حديد الوجه القبلى الذى يبدأ من نهاية كوبرى امبابة على الضفة الشرقية لنهر النيل وينتهى الى بداية منطقة السبتية . ويحده من الشرق بداية منطقة السبتية وشارع خط سكك الحديد مارا بسوق الخضار الى شارع الجلاء . ويحده من الجنوب شارع الجلاء حتي يلتقى مع « كورنيش النيل » عند آخر « مترو مصر الجديدة » . ويحده من الغرب « الكنيسة الانجليزية » ، ويسير شمالا

من طريق كورنيش النيل الى أن ينتهى عنـــد كوبرى امبابة .

وقد لمع اسم حى بولاق فى التاريخ . فقد اشترك ابناؤه فى كثير من الحركات الوطنية . نجد انهـم قـد دافعوا عن الوطن فى خلال الحملة الفرنسية « ١٧٩٨ ــ ١٨٠٢ م » ونجد انهم شاركوا الشعب المصرى ثورته فى عام ١٩١٩ . وقد تميز هذا الحى بانفراد ابنائه باشعال ثورة عام ١٩٣٠ ، حيث اندلعت هذه الثورة من مدرسة الصناعات الزخرفية وكان وقودها عمال الورش الاميرية « العنابر » .

وقد سكن حى بولاق فى فترة من حياته التجار . ونجد حتى الان فيه آثار « الوكالات » الكبيرة التى كـــانت مراكز التجارة فى خلال هذه الفترة . نجد مثلا وكالات الارز والبلح والسكر والمشنات والذهب والخـــروب . وكانت تعلو هذه الوكالات « أربع » سكنية تحمل اسم هذه الوكالات ، اما الاربع فقد كانت مقسمة من الداخل الى ممرات وحوارى وبها منازل . ومـــن الغـــريب ولعله ، فى ضوء ظروف الحى التاريخية والثقـــافية الاجتماعية والاقتصادية ، أن لا يكون غريبا ــ ان بعض ابناء الحى فى الوقت الذى بدانا فيه العمل الاجتمـــاعى فيه وحتى كتابة هذه السطور ، لايزالون يمتلكون بعض هذه الوكالات . وان اناسا آخرين يمتلكون المنازل التى تعلوها . وتعرف الملكية الاخيرة بملكية الهواء .

وقد تغير التركيب السكانى فى حى بولاق ، فى خلال حياته ، مرات . ومن هذه المرات ماحدث فى عهد « محمد على « ١٨٠٥ ــ ١٨٤٩ م » عندما انشئت المطبعة الاميرية

وعلى اثر ذلك ظهرت فئة العمال . وأزداد عدد هذه الفئة عندما انشئت الترسانة البحرية وورش عنابر السكك الحديدية . وبمرور الزمن بدأت كثافة الحى فى الازدياد واذا رجعنا الى الاحصاءات الرسمية عن سكان حى بولاق قبل انشاء الجمعية وعند انشائها لوجدنا أن سكان الحى قد بلغ عددهم فى عام ١٨٩٧ حوالى ١٨٦٣ نسمة اما فى عام ١٩٤٧ « عام انشاء الجمعية » .فقد ارتفع هذا الرقم الى حوالى ٢٣٢٤٢٣ نسمة . وربما كانت هذه الزيادة الكبيرة من العوامل فى انخفاض المستوى الاقتصادى وبالتالى المستوى الصحى والثقافى الاجتماعى للسكان .

ويعتبر حى بولاق احد احياء مدينة القاهرة الشعبية ويسكنه أناس شتى من العمال الحرفيين والتجار وصغار الموظفين والباعة المتجولين وغيرهم . ومعظمهم قد هاجروا من الريف ، من الوجه البحرى ومن الوجه القبلى ، وبخاصة بعد الحربين العالميتين الاولى والثانية . وقد تركزت هذه الفئات وبخاصة أبناء الوجه القبلى فى شياخة الترجمان . وبداوا يتكدسون فى هذه الشياخة حتى أن الحجرة الواحدة كان يسكنها أكثر من عشرة أشخاص فى بعض الاحيان .

ونظرة الى حى بولاق ككل فى ذلك الحين ، عند بداية العمل الثقافى الاجتماعى الرشيد عن طريق « جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » ، وحتى الان مع بعض التغييرات التى حدثت فى ضوء تغيير المجتمع القاهرى المعاصر ، بله المجتمع المصرى المعاصر ـ نلاحظ انه حى شعبى بمعنى الكلمة ، اى انه حى يعيش فيه بنات البلد

وابناء البلد . وعلى الرغم من وجود جيوب ثقافية يعيش فيها اعضاء من الوجه القبلى ومن الوجه البحرى ومن بلاد النوبة « بعد بناء السد العالى الذى بدأ بعد خطاب جمال عبد الناصر فى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٦ الذى اعلن فيه تأميم قناة السويس وكان ذلك فى مدينة الاسكندرية » - فان من الملاحظ أن المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يعيش فى ظله بنات حى بولاق وابنائه ، يتميز بوجود العناصر الثقافية التقليدية . فظاهرة التدين على الرغم من كل شىء تعطر هذا المناخ . ونلاحظ ايضا انتشار المساكن على الطراز القديم ، والشرفات ذات الاسياخ أو القضبان الحديدية ، على الرغم من الاستغلال السيء لهذه الشرفات . فالمفروض أن تكون الشرفة هى المتنفس الوحيد الذى يمكن أن يرى سكان المنزل النور من خلاله وينظروا الى الدنيا من حولهم عن طريقه . ومع ذلك فاننا نجد ان العكس صحيح . اى أن وظيفة الشرفة الحالية غير الوظيفة المتوقعة . فهى أى الشرفة بمثابة « الكرار » اى هى عبارة عن مخزن يوضع به خزين المنزل من بصل وثوم وجبنة قديمة وصفائح فارغة .. الخ او يوضع به كل « الكراكيب » التى لاتلزم المنزل . او توضع به انواع شتى من الطيور والدواجن التى تجتذب فضلاتها الذباب والحشرات . وانتشار الباعة المتجولين فى حى بولاق ظاهرة لاتخفى على احد . وشوارع الحى وحاراته وازقته لها مظاهر عديدة ، منها كثرة الاطفال والصبية والشبان الذين يملؤن هذه الشوارع والحارات والازقة وهم يلعبون « كرة الشراب » ، ومنهسا المياه القذرة ذات الرائحة الكريهة التى لا تخلو منها حارة او

يخلو منها زقاق ، ومنها انتشار أكوام القمامة ، ومنها استيطان الذباب والحشرات لمعظم بقاع الحى ، ومنها الاتربة المتنوعة التى تملأ جو المنطقة وتنبعث من الارض ومن المداخن ومن دكاكين « الحدادة والسباكة » وغيرها .

واذا كانت ظاهرة التدين تعطر المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يعيش فى ظله أعضاء حى بولاق ، فهناك بعض الظواهر الاخرى التى تلوث هذا المناخ . منها العبارات النابية التى تصدر عن الرجال والنساء والشبان والشابات والفتيان وحتى الاطفال ، وبخاصة العبارات التى تمس قداسة الدين أو تسب الأم والاموات ، ومنها لعب القمار الذى يعتبر من وسائل شغل أوقات الفراغ فى الحى سواء كان يمارس فى المقهى او فى الحارة ، ومنها الجرائم العديدة التى يرتكبها اعضاء الحى سواء كانت جنايات أو جنحا او مخالفات ، ومنها بل من أهمها تعاطى المخدرات والاتجار فيها وبخاصة الحشيش والافيون والشجار الذى لا ينقطع والذى قد يسفر عنه جرائم القتل أو الضرب الذى يفضى الى الموت ، وفضلا عن ذلك العديد من الجرائم الاخرى غير المنظورة واهمها الجرائم الجنسية . وفى ضوء هذه الامور نلاحظ وجود ظاهرة الازدواجية الثقافية واضحة فى المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يعيش فى ظله أعضاء المجتمع البولاقى واضحة وضوح الشمس . ومع ذلك فاننا نجد أن أعضاء هذا المجتمع ذكورا كانوا أو اناثا يعملون ، وبخاصة الذكور ، فى أغلب الاحيان ، من اجل الحصول على « لقمة العيش » . وهم يعتبرون « الجرى وراء لقمة العيش »

عبادة . فهم من أعضاء المجتمع المصرى المنتجين ، يعطون دائما اكثر مما يأخذون . ولعل المراة فى حى بولاق تؤكد هذا الانتاج حتى فى أعمالها كربة بيت . فهى تنتج الاطفال وهى تهتم بتربيتهم وحتى اذا استهلكت مايعطيه زوجها من « عرق جبينه » « اى مايحصل عليه من دخل » ، فهى تصرف مايعطيه فى سبيل اطعامه واطعامها وابنائهما . ويلاحظ ان هذا النوع من الاستهلاك هو فى حقيقة الامر استثمار ، مثله فى ذلك مثل الصرف على الملبس والماوى وان كان الاطعام فى نظر أعضاء حى بولاق اولى واهم . فهم يقولون عن اطفالهم مثلا « اكلهم تجارة ولبسهم خسارة » وهم يقولون أيضا على وجه العموم « ياواخد قوتى ياناوى على موتى » !

والمراة البولاقية على وجه العموم هى « بنت بلد » تعمل منذ أن تستيقظ فى الصباح المبكر طوال النهار وحتى منتصف الليل . ويلاحظ انه على الرغم من أن نسبة النساء العاملات فى الحى اللاتى تكون فى نطاق قوة العمل نسبة ضئيلة ، فان عمل المراة البولاقية كربة بيت مثلها مثل أختها التى تسكن الريف المصرى ، عمل فى معظم الاحيان منتج ولا يمكن الاستغناء عنه . واذا كان لا يمكن الاستغناء عن عمل ربة البيت فى حى بولاق ، فالملاحظ انه عمل شاق ، وهو أيضا عمل متنوع ، وهو كذلك عمل متواصل . والملاحظ ان المسئولية الكبيرة التى تحملها المراة فى حى بولاق على كتفيها مسئولية ينوء بحملها بعض الرجال . فالدخول فى هذا الحى ضئيلة « ولعلها فى ضوء الظروف الراهنة وقت كتابة هذه السطور أن ارتفعت هذه الدخول وان كان سوء

التصرف فيها قد حيد هذا الارتفاع » وعدد الابناء كثير وربما لايمكن أن نتصور ماكانت تعانى منه المرأة فى حى بولاق فى الماضى ومازالت تعانى منه فى الوقت الحاضر فأغلبية السيدات مازلن يلبسن فى معظم الاحيـــان « الجلباب الأسود والطرحة الســـوداء » . ومازالت الواحدة منهن تحمل الاثقال المادية ، تارة بيديها ، وتارة اخرى على رأسها ، وهى تسير فى الشارع لاتئن ولا تتعب . وتجدها باستمرار فى خدمة الزوج والابناء حتى ترحل عن دنياها التى لم تعرف فيها الا الكثير من القهر والشقاء . ويفتر الرائي للكثيرات من نساء حى بولاق وهن يزين انفسهن بالمصوغات الذهبية سواء كان ذلك فى الرسغين أو فى الاذنين أو حول الرقبة « وبخاصة فى الوقت الراهن » فالملاحظ فى ضوء العرف أن تتخلص المرأة من هذه الادوات التى تخلع عليها الزينة عنـــدما يضطرها الزوج أو الاب أو الاخ الى ذلك اضطرارا . أى أن مثل هذه المرأة التى تتزين بما تتزين من أدوات الزينة الذهبية هى فى حقيقة الامر مجرد خزانة تودع فيها هذه الادوات لتؤخذ عند الطلب الذى لاراد له . وفضلا عن كل ذلك نجد المرأة البولاقية ، مثلها مثـــل الاناث المصريات بعامة ، هى التى تحمل التراث الثقافى المصرى وتنقله من جيل الى جيل . وتراها كأنثى فى معظم الاحيان وانت تنظر الى عينيها تحمل الأسى والحـــزن . فهى تستعذب العذاب عند الحزن وفى مواقف القهر . ومع ذلك فانك تراها ايضا مع اخواتها اول المزغردات وقت الفرح وهى فى الحالة الاخيرة كأن لسان حالها يقول :

« النهاردة قهر وبكرة قهر هو العمر فيـــه كـام شهر » .

وضحت هذه الصورة الذهنية عندى عن حى بولاق وانا عائد الى منزلى بعد أن ودعت الزميل ابراهيم المنوفى حاملا الخبر السعيد بأننى سأعمل عملا مؤقتا بجمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق . وقد كان الطريق الى المنزل وكأنه مفروش بالورود . وقد حملت للسادة اعضاء مجلس ادارة الجمعية فى قلبى بل فى كيانى الاعتراف بالجميل وبخاصة الاستاذ الكبير المستشار محمد فتحى . كنت وانا فى ضوء ظروفى الشخص المستضعف وماكنت املك الا أن أعترف بهذا الجميل ، وقد استمر اعترافى به حتى لحظة كتابة هذه السطور ، بل اننى ساظل اعترف بهذا الجميل ماحييت . اننى أحسست فى ذلك الحين بأن المبلغ الذى اعتمد لى صرفه نظير عملى المؤقت مبلغ غير متوقع . وان لم يكن مبلغا كبيرا فان المعروف « ان النقابة تسند الزير » كما يقولون . وقد عزمت ان ابدأ فورا فاذهب الى عملى فى اليوم التالى على ان اتخذ المنهج العلمى منهجا لعملى الذى بلورته فى ذهنى لكى يهدف الى تحقيق الاهداف التالية :

ــ العمل على دراسة ومعالجة المشكلات الاجتماعية .

و ــ بذل المساعدات الاجتماعية للاسر التى تحتاج الى مساعدة .

و ــ اثارة الوعى الثقافى الاجتماعى والصحى بين الاهالى .

و ــ الاسهام فى المشروعات الاجتماعية العامة .

وكانت هذه الاهداف هى الاهداف التى يعتبر تحقيقها فى حقيقة الامر رسالة الجمعية . اى اننى لا ادعى اننى خلقت هذه الاهداف من العدم وان كنت قد اسهمت فى وضع مضمونها . وبادرت فى اليوم التالى لمقابلتى

للزميل ابراهيم المنوفي الى الذهاب الى مقر الجمعيـة وكان فى « شارع قطب الدين موسى » بحى بولاق : شياخة الفرنساوى . وكان هذا المقر عبارة عن خمس حجرات وصالة فضلا عن دورة مياه وحجرة المطبخ التى اصبحت مكانا « للبوفيه » حيث يقوم « عم جاد » الساعى الوحيد بالجمعية باعداد القهوة والشاى لمن يرغب مـن موظفي الجمعية أو من الضيوف وكان عم جاد والسيدة الزا التى كانت تشغل وظيفة « المدير » فضلا عن رئاسة مجلس ادارة الجمعية منذ انشائها فى شهر يونيو عا ١٩٤٧ الموظفين الوحيدين اللذين كانا يعملان طوال الوقت اما باقى الموظفين من أخصائيات اجتماعيات واخصائيين اجتماعيين وكتبة فقد كان الجميع يعملون فى الجمعية بعض الوقت . وعندما وصلت الى المقر وجدتنى كنت أول الواصلين بعد عم جاد الذى وجدته قابعا فى مـكانه فى البوفيه . وقد استقبلنى وبدا لى أنه كـــــان يعلم بامر تعيينى ، كما بدا انه أصبح شخصا غير الشخص الذى كنت أعرفه . كان يبدو لى شخصا ذا شخصية ترتفع عن مستواها الذى كان . كانت الثقة بالنفس تشع من عينيه . واحسست بان دوره كساعى قد أصـبح دورا آخر اعلى . وعندما جاء بعد فترة ليست قصـيرة « سيد افندى » الكاتب ، جاء الى حجرتى وسلم وبدا لى انه كذلك قد تغير مثل عم جاد ، ولم ألبث ان عرفت العوامل التى كانت من وراء تغيير كل من عم جاد وسيد افندى . علمت ان الاول قد أصبح عضوا فى لجنـة سياسية فى الشياخة التى يقع فيها مقر الجمعية . وقد نال من الاصوات ، اصوات الناخبين فى هذه الشياخة ، عددا كبيرا اهله لكى يكون من أوائل اعضاء اللجنة المنتخبين

وقد علمت أيضا أن الناخبين قد أعطوا اصواتهم لعم جاد لان الجمعية أصبحت مقرا لتوزيع « الزيت والدقيق » المتبرع بهما من بعض الهيئات الاميريكية فى ذلك الحين . وقد باركت هذا التوزيع وايدته الحكومة حتى تحظى بتأييد الشعب المصرى . كان عم جاد بالمشاركة مع سيد الندى كاتب الجمعية يقومان بعملية التوزيع كيفما يشاءان ولم استطع ان اقحم نفسى فى هذه العملية التى عندما رايتها حفزنى ضميرى لكى أدرس الظروف الراهنة لما اصبحت عليه الجمعية . وقد وجدت أن فصول محو الامية مازالت قائمة ، وان العمل فى نادى الفتيات الذى كان يقوم بالاشراف عليه « الزميل فهمى محمد حسن » يسير على مايرام . وكان العمل فى نادى الفتيان الذى كان يقوم بالاشراف عليه « الزميل منير عبد العزيز » يسير كذلك على مايرام . وقد ذهبت الى مقر الجمعية وكان « الزميل كمال عبد السلام » الذى كان يشغل وظيفة وكيل ادارى ارسلته فى بعثة الى الخارج الادارة التى كان يعمل بها كل الوقت فى الصباح وهى أدارة « رعاية الشباب » الحكومية . ومن ثم فاننى لم أجد بدا من أن اعتمد على نفسى فى كل الامور وبخاصة ماتعلق منها بالشئون الادارية . وحرصت على الدراسة العلمية لكل مايدور حولى بقصد اعداد تقرير أقدمه للسيدة الزا عندما تعود الى قواعدها . ووجدت أن أهم النشاطات فى الجمعية على الرغم من النشاطات الاخرى التى كانت تسير سيرا حسنا ، كانت نشاطات توزيع « الزيت والدقيق » لاهالى الشياخة التى يقع مقر الجمعية بها . كان الناس من اهل هذه الشياخة يأتون الى مقر الجمعية الضيق

افواجا . كانت النساء يأتين قبل ان يأتي الرجال . وكان الجميع خليطا يجمع المستحق ومن لاحق له فيما يأخذ من كميات الزيت أو كميات الدقيق . وكان كل من يأخذ يوقع أو يبصم حسب مايراه سيد افندى تحت اشراف عم جاد وليس العكس . وكانت الكميات التى تؤخذ غير الكميات التي يوقع عليها أو يبصم أمامها بالاستلام . وبدأت زوجة عم جاد تلبس مايبرق من « أســاور » الذهب . وبدأ سيد افندي يلبس مالا يمكن أن يواجهه مايحصل عليه من دخل ، فكان يلبس انواعا فاخرة مـن « البدل والاحذية » . ومع ذلك فقد كنت أراه وكــان الجميع يرونه عندما يؤذن آذان صلاة المغرب يبــادر الى الصلاة ، ويكاد من فى الشارع أن يسمع التكبيرة الاولى عند بدء هذه الصلاة . وانظر الى « الزبيبة » التى تتسع يوما بعد يوم فى وسط جبينه . ومع ذلك فالتبرير لما يفعله كان حاضرا . فهو يأخذ اذا كان يأخذ من زيت ودقيق « الكفرة » وعم جاد يأخذ اذا كان يأخذ فهــو يعول عددا كبيرا من الابناء هم أولى من غيرهم او على الاقل هم مثل غيرهم . وكان لسان حال سيد افنــدى يقول اليس احضار كميات الزيت والدقيق وتوزيعهــا يتضمنان التعب والعناء البشرى ؟ واليس هذان ، اقصد التعب والعناء ، يستحقان اجرا اضافيا هو وعم جــاد يستحقانه عن جدارة ؟ والملاحظ اننى لم اســمع هــذا التبرير من سيد أفندى ولا من عم جاد بأذنى . ولــكنى سمعته من غيرهما . وقد تعمدا أن يصل الى هذا التبرير بطريق غير مباشر . وما كان لى ووظيفتي مؤقتــة أن اقتحم المجهول المعلوم . فالتبرعات العينية توزع تحت

اشراف ومباركة الحكومة . ولعل تدخلي أن يفسر بأنني اقف في سبيل تحقيق أهداف الحكومة . ومن ثم أكون عاملا من عوامل حرمان أهالي شياخة الفرنساوي التي يقع فيها مقر الجمعية والتي أصبح عم جاد بينهم علما من الاعلام المشهورة . ووجدت أن دراساتي عن نشاطات الجمعية ثم اقتراحاتي في ضوء نتائج هذه الدراسات اولى باهتمامي . ووجدتني انادي السيدة الزا لكي تعود حتي تعود نشاطات الجمعية لتحقيق أهدافها التي وضعت لها منذ شهر يونيو عام ١٩٤٧ . وجدتني اناجيهـــا واستحث مجيئها لكي تحاول انقاذ مايمكن أنقاذه . انني ارى أمامي صرحا شامخا يكاد أن يتهدم . ولعل مجيىء السيدة الزا بالتعاون معي ومع المخلصين من أعضـاء الجمعية العمومية ان يكون المنقذ . فالسيدة الزا غيرى مافي ذلك من شك وأنا غيرها مافي ذلك من شك ايضا وان كان تعاوننا لن تشوبه شائبة ولن يكون غير متوقع .

وجاء يوم ٢٥ من شهر يونيو عام ١٩٥٦ ، يوم الاستفتاء على رئاسة الجمهورية الذي كان مرشحها الوحيد الرئيس « جمال عبد الناصر » في ضوء مشروع الدستور الجديد الذي لم أكن أوافق على الكثير من مواده . صحيح انه كان مشروعا ولكنه قبل أن يوضع كان قد بدأ تنفيذه . وانا لم أكن مستعداً أبدا لكي أمارس حقي في هذا الاستفتاء . ولكن في مساء يوم ٢٤ من شهر يونيو عام ١٩٥٦ اى ليلة اليوم السابق على الاستفتاء جاءتني جماعة من شبان حي الدراسة ، التابع لقسم الجمالية . الذي كان منزلي يقع فيه في ذلك الحين . جاءوا وكان

بصحبتهم العزيز أحمد واكدوا لى ضرورة ممارسة حقى فى هذا الاستفتاء . كان اعضاء هذه الجماعة من الشباب المتحمس للثورة ، وكان يدفعهم الى ذلك حبهم لوطنهم مافى ذلك من شك . لم تكن قيم الوصولية والنفاق والقيام بمجرد دور المتفرج « اى اللامبالاة » قد مست شخصياتهم الطيبة فى قليل أو كثير . وقد دعونى ليس الى أن أمارس حقى فى الاستفتاء فحسب ولكن لكى أحضر الى ناديهم ، الذى كان قد افتتحه جمال عبدالناصر للاجتماع بهم مرة او اكثر فى الاسبوع . كانوا شبانا برءاء انقياء ، ولم يكن يعلمون أكثر من انهم يعملون من اجل الصالح العام . كان منهم الطلبة والعمال الاذكياء وكان معظم الطلبة أو كلهم يدرسون فى الكليات الجامعيـة . وعلمت منهم أن المشرف على النادى كان احد الضباط الذى كان يقول انه نشىء فى الحى ، وقد اتخذ الاشراف على النادى وسيلة لكى يعرف الناس من حوله ويجند منهم من يرى ولاءهم له وأن يعرف الناس من حوله من هو وكان مفهوم « ضابط » فى ذلك الحين له لمعان اجتماعى ذو بريق يخطف القلوب بله العقول . وقد حرضنى أعضاء جماعة الشبان على مقابلته بقصد التعرف عليه لانه هو نفسه يرغب رغبة أكيدة فى التعرف على . وذهبت فى يوم ٢٥ من شهر يونيو عام ١٩٥٦ الى مقر لجنة الانتخابات حيث أمارس حقى فى انتخـاب اول رئيس منتخب للجمهورية اقصد المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية . وكنت قد فضلت الذهاب شكلا لا موضوعا . اى أن اذهب ولا انتخب احدا بل اتعمد العمل على الغاء صوتى . وقد فعلت ذلك . وقد كان لهذا الحل الوسط الذى اتخذته وسيلة لارضاء ضميرى . اننى لم اكن على استعداد ابدا

للتعامل المباشر ولا غير المباشر مع الذى امر باعتقال من اعتقل من صفوة شباب الوطن المثقفين . لايمكن ان افعل ذلك ، وان فعلت مضطرا لكى أعيش واغتصب لقمة العيش اغتصابا شريفا من أجل اعضاء أسرتى الصغيرة فانني أكون واعيا بالضرورة بانني لا افعل ولكنني افتعل . وحتى اذا فعلت غير مضطر فأنا اولا وقبل كل شيء فى ضوء تجاربى المنتظمة وغير المنتظمة أمارس رصد مايحدث في المجتمع . ومن حقى أن لا ارتبط الا بهذا المجتمع ككل ان موقفي هذا ، كما كنت أقول لنفسي ، ييسر لى الموضوعية . وبخاصة وأنا لست فى حاجة الى ان أكون غير من أكون وان كنت فى حاجة لكى اعول أسرتى بشرف وذلك كما ذكرت باغتصاب لقمة العيش اغتصابا شريفا . واقول الآن كما كنت أقول من قبل « اغتصب » وذلك لان الوصول الى لقمة العيش الشريفة لم يكن سهلا وكان القابض على قيمه ومبادئه فى ذلك الحين كالقابض على الجمر .

واستمر ذهابى الى الجمعية متصلا فى خلال الايام الباقية من شهر يونيو عام ١٩٥٦ . وفى خلال شهر يوليو من نفس العام ، وكنت اذهب الى النادى الاجتماعى الرياضى بحى الجمالية حيث اجتمع مع بعض الشبان . وقد كان مقر النادى قريبا جدا من منزلى ، أما مبناه فقد اعد خصيصا ليكون ناديا على أرض فضاء اغتصبت اغتصابا بموافقة اولى الأمر . وقد علمت ان العديد من شبان الحى كان قد اسهم مع عاملى البناء وغيرهم بمجهوداتهم متطوعين . وكان هذا الاسهام موضع دهشة للضابط المشرف على النادى « سيد زكى » . وذلك لانه

كان من بين هؤلاء الشبان طلبة من كليات الجامعة . وكانوا على قلة عددهم أول المتحمسين . وكنت كلما أقابل الشبان يجلس معنا الضابط سيد زكي . لم يكن يلبس ملابسه الرسمية .. وكان يبدو أنه يعلم الكثير او كان يدعى انه يعلم الكثير وبخاصة عندما تثار قضية تربوية تتناولها المناقشة بين الحاضرين . وكان حديثه غير العلمى ييسر لى الكشف عن شخصيته وعن الاهداف ـ وكانت كلها ذاتية ـ التى كان يطمع فى تحقيقها . وعرفت الكثير من مآربه وعرف هو انني أعرف هذا ولكن الشبان يلتفون من حولى وكان لا يستطيع ان يفصم عرى هذا الالتفاف بيني وبينهم فأنا اذ أحادثهم تتضمن أحاديثى المنفعة لهم ، وكنت اقولها بكل الحب والاحترام لهم كأشخاص يؤهلون لكى يتحملوا مسئولية المستقبل المشرق لمصرنا الخالدة . ولكن بمرور الزمن شعرت بأننى فى نظر سيد زكى منافس له ، وانا لم افكر فى ذلك قط ، ولم اكن ارغب فى هذه المنافسة ابدا .. وقررت الانسحاب ولكن مالبثت أن « عيننى » عضـوا فى مجلس ادارة « مؤسسة الجمالية » التى كان يرأس مجلس ادارتها والتى كانت « مؤسسة الزفاف الملكى » والتى كنت مديرا لها حتى شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ . ووافقت على هذه التعيين وقد دفعنى الى هذه الموافقة حنينى الى الماضى ورغبتى فى العمل الصالح . ولم أكن أدرى ان هذا التعيين سيكشف لى عن نوعية ادارة المؤسسة ومستوى هذه الادارة الذى جعلها ليست مؤسسة تربوية بل مؤسسة تجارية . كانت المؤسسة على الورق مؤسسة تربى « اليتامى » . وفى الواقع كانت « ورشة » تصنع

المصنوعات التى كان يمولها بعض التجار للبيع فى السوق لحسابهم . وانتهى الامر بأهداف المؤسسة التربوية لكى تكون أهداف مؤسسة تزيد من المكاسب والموارد باسم رعاية اليتامى والمحرومين من الاطفال والصبيان ، فتتضخم الجيوب وحسابات البنوك لمن يهمهم الامر . وكان التعيين فى مجلس ادارة المؤسسة من العوامل الهامة التى أكدت لى ان خير وسيلة للانسحاب أن انسحب وأسرتى الصغيرة من الحى كله الى حى آخر . وقد حدث هذا بعد فترة من الوقت . وكان هدفى ان أبتعد عن المنافسة التى لا ارغبها فضلا عن ان انأى عن خطر الاشتراك فى اعمال لا يقرها ضميرى أو يعترف بها مبدأ من المبادىء التى اعتنقتها . وقد تأكد ذلك عند حضورى اول جمعية عمومية للمؤسسة حيث عرض التقرير السنوى عن الجمعية التى تشرف على المؤسسة ، وأنتهى الاجتماع دون أن يعرض مشروع ميزانية الجمعية . وقد اعترضت على ذلك ولكن لم يعقب على اعتراضى أحد ، وكأن هذا الاعتراض ذهب مع الريح . لم يعقب وأحد من الاعضاء ، ولم يعقب ايضا مفتش وزارة الشئون الاجتماعية الذى كان حاضرا الاجتماع . وزالت دهشتى عندما قيل لى أن سيد زكى كان يعمل فى مكتب وزير الشئون الاجتماعية « حسين الشافعى » وكان يعاونه الضابط « جمال زكى » الذى سعى سعيا حثيثا لكى ينتدب مع السادة الضباط المشرفين على « مشروع معونة الشتاء » كما ذكرت آنفا ، وأرجو أن يعلم القارىء انه لاتوجد صلة قرابة بين سيد زكى المشرف على « النادى الرياضى بحى الجمالية » ورئيس مجلس أدارة « مؤسسة الجمالية » وجمال زكى الذى كان يعمل منتدبا فى « مشروع معونة الشتاء » .

« انظر الجزء الثاني من التاريخ الذي أحمله على ظهري: ماء الحياة » .
وانني أذكر مع الشكر العميق والتقدير اهتمام المستشار محمد فتحي المستمر بي ، فقد فوجئت في خلال شهر يوليو عام ١٩٥٦ به يحادثني تليفونيا ويطلب مني ان اكتب طلبا ارسله الى الاستاذ أحمد محمد خليفة الذي كان يعمل في ذلك الحين في مجلس الدولة « شارع الفلكي » وكان قد عهد اليه بانشاء « المعهد القومي للبحوث الجنائية » حيث انه اي الاستاذ خليفة يحتاج الى أيدي عاملة تتعاون معه على انشاء هذا المعهد ، وقد رشحني المستشار محمد فتحي له مزكيا ومقدرا لخبراتي في مجال العمل في البحث العلمي الجنائي وبخاصة وقد حصلت أخيرا على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع « تخصص علم الجريمة » . وقد بادرت بارسال الطلب فورا . انها لفرصة نادرة : قلت ذلك لنفسي . ولم اكن أعرف عن الاستاذ خليفة شيئا سوى انني قرأت خبرا عنه في « مجلة الصداقة » التي كانت تصدرها السفارة الاميريكية وكان يرأس تحريرها « الاستاذ سيد قطب » وكان الخبر يذكر سفر سيادته الى الولايات المتحدة حيث تتاح له فرصة زيارة المؤسسات الجنائية ومقابلة بعض العلماء المتخصصين في علم الجريمة . وقد وقعت هذه المجلة في يدي لانها كانت ترسل الى على عنواني وانا في « مدينة بوستن » استكمل دراساتي العليا لأحصل على درجة « الدكتوراه المنشودة » . وانني أذكر انني قرأت هذا الخبر قراءة عابرة وقد لفت نظري صورة للاستاذ خليفة منشورة بجواره . وجدتها صورة شاب لم أكن قد رأيته من قبل . ومر الخبر المنشور في مجلة الصداقة

كما مر غيره دون ان أهتم اهتماما كبيرا . تماما كما مر خبر ابلغه لى استاذى « أيدون بورز » عن وجود مندوب مصرى اسمه « السباعى » فى مدينة بوستن لكى يحضر احد المؤتمرات عن الجريمة والمجرمين ، ولم اكن اعرف انه « محمود السباعى » ولكنى ظننته « يوسف السباعى » الذى كان يكتب القصص القصيرة فى « مجلة المسامرات » وعندما ابلغنى استاذى « ايدون بورز » هذا الخبر عجبت من حضور « ضابط جيش » هذا المؤتمر لاننى كنت اعرف ان يوسف السباعى كان ضابطا فى الجيش ولم اكن أعلم شيئا عن محمود السباعى ضابط الشرطة فى ذلك الحين .

وعندما دعيت لمقابلة الاستاذ أحمد خليفة فى مكتبه بشارع الفلكى رأيته رؤية العيان ، وكان بجواره الاستاذ سمير ناجى والاستاذ يوسف أبو زيد وقد انتدبهما للعمل معه فقد كانا زميليه فى فترة من الفترات عندما كان يعمل وكيلا للنائب العام بمحافظة المنيا . وقد وجدت أيضا شابين من مجلس الدولة للعمل الادارى . وجلست مع الاستاذ خليفة نتحدث عن المشروع الجديد أقصد « المعهد القومى للبحوث الجنائية » الجديد : نتحدث عن اهم اهدافه أو عن اهم مايجب أن يكون عليه أهم أهدافه وكان « البحث العلمى الجنائى » الهدف الاول فى رأيى . وفجاة سالنى الاستاذ خليفة وكان قد تقمص دور وكيل النيابة كما بدا لى عما اذا كانت لى علاقة ما بجمعية « الاخوان المسلمين » وبخاصة بالجهاز السرى فيها ، وعندئذ دق جرس التليفون . وكانت فرصة لكى افكر فى الاجابة عن سؤاله المفاجىء . اننى لم أكن على علاقة وطيدة بهذه الجمعية ، وان كنت قد حضرت بعض دروس « الشيخ حسن البنا » وكنت أناقشه فى بعض ماكان

يقول ، وان كنت أعجبت به كمحدث يملك الكلمة ويستأثر بالسامعين ، وان كنت أعرف من أخوته « محمد » و « جمال » كما كنت أعرف بعض الاخوان ومنهم العزيز زميل طفولتى « الشيخ محمد بدر » . وفجأة تذكرت حضور محمد اخ الشيخ حسن البنا الى مجلس الوزراء حيث كنت منتدبا للعمل مع الصاغ مجدى حسنين مدير مكتب رئيس الوزراء فى خلال الفترة من شهر نوفمبر عام ١٩٥٢ حتى ١٤ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ . جاء محمد البنا الى مبنى مجلس الوزراء فى يوم ١٠ من شهر فبراير عام ١٩٥٣ راغبا فى مقابلة الصاغ مجدى حسنين ولما كان الاخير غير موجود وعلم بوجودى طلب مقابلتى . وكان عندما سمح له بالدخول وقابلنى ذكر لى انه جاء لابلاغ الصاغ مجدى بأن موعد ذكرى وفاة الشيخ حسن البنا الرابعة سيكون فى يوم ١٢ من شهر فبراير عام ١٩٥٣ ، وانه يقترح أن يحضر مندوب عن « مجلس الثورة » هذه الذكرى . وقد ابلغت الصاغ مجدى بما ذكره محمد البنا ، وما كان منه الا أن اتصل توا تليفونيا بشخص لم أعرف عنه شيئا وتحدث معه عن هذا الموضوع حديثا تليفونيا لم اسمع منه حرفا . كان الصاغ مجدى يتحدث بالتليفون بأسلوب يسمع المتحدث اليه ولا يسمع احدا يجلس بجواره . أسلوب كان قد تدرب عليه واتقن استخدامه للدرجة انه كان يكروه امامى كلما اقتضى الامر ذلك . وقد حدست فى ذلك الحين أن المتحدث اليه كان « جمال عبد الناصر » . لان « الرئيس محمد نجيب » كان فى حجرته المجاورة ولم يكن هناك داع الى الحديث معه تليفونيا . وقد حدث فعلا ان مثل

الرئيس محمد نجيب ورئيس مجلس الوزراء مجلس الثورة وحضر حفل الذكرى الرابعة لوفاة الشيخ حسن البنا في يوم ١٢ من شهر فبراير عام ١٩٥٣ والقى كلمة يعدد فيها الامجاد التى أوقف حياته فى سبيل تحقيقها.
ولكن هل اقول للاستاذ خليفة كل ذلك او بعض ذلك ؟ هل اقول له ردا على سؤاله الفاجىء لى اننى الان اعيش فى افكار استاذى « البروفسور جون لويس » الماركسى وقرات من الكتب الماركسية كتاب كذا وكتاب كذا ؟ او اننى اتخذ من « التقية » وجاء فأنا امام رجل كنت ارى انه يمثل بالضرورة فى ذلك الحين قوما ظالمين اخشى على نفسى سوءا منهم ، وانه فى ضوء تعاليم السنة يجوز لى ان اصافحهم بلسانى وان خالفتهم بقلبى استدفاعا بظلمهم واذاهم . واذ اصل الى الراى الاخير راى التقية غمرتنى الدهشة فما زالت تعاليم صاحب الفضيلة الشيخ محمود خطاب راسبة في قرارة نفسى . وايقنت منذ ذلك الحين باننى كشخص قد اصبحت نتاج مصادر الثقافة التى مشتها منذ أن ولدت وحتى الان . اى اننى كمصرى لا يمكن ان اكون الا شخصا قد صهرت فى كيانه كل مامر عليه من خبرات ثقافية اجتماعية حتى اللحظة الراهنة . ومن ثم فاننى وان كنت شخصا فريدا فانه تجمعنى مع غيرى من المصريين ثقافات لها جذور قديمة قديمة وحديثة حديثة اى ثقافات مستمرة ومتجسدة وفضلا عن ذلك بالضرورة متطورة .

وعندما انتهت المكالمة التليفونية كنت وصلت الى قرار هو انه لا صلة وثيقة لى بجمعية الاخوان المسلمين وكان هذا صحيحا ، واننى على العكس اجدنى شخصا « ليبراليا »

وأخفيت عنه أنني من طلبة النظرية الماركسية ، أو أن لي أصدقاء مصريين في المعتقلات من الشيوعيين في داخل البلاد وغيرهم ممن تركوا البلاد هاربين أو منفيين . أخفيت كل ذلك عن الاستاذ خليفة ، وقد هز رأسه مغتبطـا وبخاصة عندما كان ردي عن سؤاله رد الواثق بما يقول وذكر لي انني سأسمع منه عن قريب . وكما استقبلني هاشا باشا ودعني الى الباب هاشا باشا كذلك . ولما كنت أهم بالخروج اضطررت لكي أفسح لكي تدخل احدى الآنسات يصحبها والدها . وكانت هذه الانسة احدى الزميلات في المعهد فيما بعد ، اختارها الاستاذ خليفة لكي تكون « السكرتيرة الخاصة » له .

وخرجت الى الشارع سعيدا مؤملا في الخير الذي سيعود على اسرتي الصغيرة وعلى اذا ما تم تعييني في هذا المعهد الجديد ، حيث أجد المجال متسعا للقيام بالبحوث العلمية الجنائية . وقد شعرت بأن الاستاذ خليفة قد استشف حاجتي الماسة الى العمل ، ومن ثم فانه ادخر ما استشفه لكي يستخدمه في الوقت المناسب لقد سعدت بهذا الشاب وكنت أكبره بعشر سنوات . سعدت بذكائه الخارق كما سعدت لانه شاب . وقلت لنفسي هاهو ذا قد برز من بين صفوف الشعب المصري « رفاعة طهطاوي » جديد . كان لم يتزوج بعد ، وكان فارع الطول حلو القسمات . وكان يعرف ماذا يريد . وكان بعيد النظر ذا خيال رائق . أما حديثه فقد كان حديثا ممتعا حقا . وابتسمت لانني شعرت بأن الدنيا تبتسم لي .

كنت انتظر موافقة مجلس ادارة المعهد على تعييني ،

ولكنى علمت أن تعيينى لانه « تعيين جديد » فلابد لى من ان يكشف على طبيا اطباء « القومسيون الطبى » للتأكد من صلاحيتى للعمل . واخذت خطابا بهذا المعنى وذهبت الى ادارة القومسيون . وكانت المرة الثانية التى اذهب اليها فيها . كانت المرة الاولى عندما كنت ابلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة توطئة لتعيينى بمصلحة الحدود « وزارة الحربية » اى فى عام ١٩٣٥ . وهاهى المرة الثانية فى عام ١٩٥٦ أى عندما اصبحت سنى تبلغ الثالثة والاربعين سنة . وشتان بين مارأيت وسمعت فى المرة الاولى وبين مارأيت وسمعت فى المرة الثانية . ازداد الصخب والهرج والمرج فى المرة الثانية ، وبدا لى ان النظام قد اصبح مختلا . واذا كنت قد نجحت فى الكشف الطبى الاول فاننى فى الكشف الطبى الثانى علمت باصابتى بمرض « الضغط الدموى » المرتفع ، وكانت المرة الاولى التى أعرف بمرضى هذا . وقد انزعجت حقا . فأنا مريض والوظيفة التى أرنو اليها تكاد ان تفلت من يدى . ولكن الاستاذ خليفة عندما ذهبت اليه بالنتيجة طيب خاطرى ووعدنى بأخذ قرار من المجلس عند التعيين بالاعفاء من الكشف الطبى . ولكن المرض كان يقلقنى . كان الضغط مرتفعا كما قال أطباء القومسيون . فما العمل ؟ اننى مازلت فى الشارع الا ماكنت أقوم به بالجمعية من أعمال حتى تحضر السيدة الزا لتأخذ ، بحق ، مكانى وكان من رأى الدكتور عبد العزيز عسكر الطبيب النفسانى الذى مازال يعمل فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة منذ تعيينه أن مرضى مرض نفسى وأن على أن لا أخشى شيئا . ماعلى الا أن امرح او احاول

ان أمرح وان أعيش حياتى او احاول ان اتعايش معها بحلوها ومرها . وكانت هذه الجرعة العلاجية التى وصفها لى الدكتور عسكر بردا وسلاما على نفسى . ونظرت الى أمام . . وقلت لنفسى معزيا او احاول أن أكون مطمئنا وانا اترنم :

« ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنها لا تفرج »

ويبدو أن بعض اعضاء جماعتى المرجعية « السابقين» قد عرفوا من امر « المعهد القومى للبحوث الجنائية » ، فوجدتهم يأتون الى منزلى أو الى الجمعية حيث أعمل ، عضوا وراء عضو . جاء « الزميل محمد نور الدين مبارك» وكان يصحبه « الزميل حمدى مصطفى » ، ثم جاء « الزميل عبد العزيز فتح الباب » وغيرهم . وكان الاولان يشجعاننى ويباركان ما أنا مقدم عليه ويصران على ان التحق « بالمعهد » على الرغم من انه قد أنشيء الاتحاد العام « لرعاية الاحداث » وقد تردد اسمى لكى اقوم بادارته . كانا يفضلان لى أن أتمسك بالعمل فى المعهد القومى للبحوث الجنائية مهما كانت الظروف . أما عبد العزيز فتح الباب فقد جاء وهو يعلم بتردد اسمى لكى أعمل فى الاتحاد العام لرعاية الاحداث مديرا له ، ولكنه لم يتحدث معى عن ذلك . كانت له عندى خمسة دولارات ارسلتها له « مس وليامز » التى كانت تعرفه جيداً عندما كان يعيش فى مقر الجمعية التى كانت تشرف عليها وهو يدرس للحصول على درجة الماجستير « من جامعة بوستن » ارسلتها له معى ليشترى بثمنها هدية لنفسه بمناسبة عيدميلاده ــ فما كان منى الا أن أعطيت له النقود المرسلة

اليه . وكان حديث فتح الباب عن أحوالى الشخصيه وتساءل عما — وقد حصلت على درجة الدكتوراه — اذا كنت افكر في الزواج من جديد ، وقد نفيت ذلك بالطبع بعد فترة لم تكن قصيرة فسؤاله أدهشني للدرجة التي احسست فيها أن حلقي قد جف من المفاجأة فلم أستطع الحديث توا . ان هذا الرجل بسؤاله هذا قد أكد كل هواجسي عن أنماط سلوكه التى لاترى الا المصلحة الذاتية فتجرى وراءها . انه لايرى وفاء لأحد ألا لنفسه . ولعله أن يكون معذورا ، ولعلني أن أكون قد خدعت في صداقته بل في حبه كشقيق . ليته يعلم ، وانى له أن يعلم ، كم اكن لهذه الزوجة ، ام اولادى ، الاحترام والمحبة . ليته يعلم معنى « العشرة » التى لاتهون الا على « ابن الحرام » ليته يرى فحوى دروس ماكان وماسيكون وما سوف يكون . وانى له ان يرى وانى له ان يعلم !

ومرت الايام ومرت الشهور وهأنذا استقبل شهر اغسطس عام ١٩٥٦ ثم تبعه شهر سبتمبر عام ١٩٥٦ ولم اسمع شيئا عن التعيين فى المعهد القومى للبحوث الجنائية . كنت أحاول ان اتحدث الى الاستاذ أحمد خليفة تليفونيا فى منزله فلم اجده فى منزله . قيل لى انه فى « المصيف » يلتمس الراحة من العناء ويفكر فيما هو مقدم عليه من مسئوليات . وفى خلال شهر سبتمبر عام ١٩٥٦ نجحت فى الاتصال تليفونيا ووعدنى خيرا ولكن تأكدت له لهفتى الشديدة على ان أعين فى المعهد . وشعرت بسعادته التى لم يفصح عنها لى أبدا ، من أجل هذه اللهفة . فهو فى المركز الاقوى . كان عندما اقترح تعيينى فى المركز القوى واصبح عندما تأكد من لهفتى

الشديدة فى المركز الاقوى . وكنت ، وانا اصدق القارىء ، معذورا فى تصرفاتى فانا فى حاجة ماسة الى العمل . ليس فقط لكى اكسب قوتى بشرف ولكنى لكى أحقق ذاتى فى ميدان البحث العلمى الاجتماعى وبخاصة فى ميدان البحث العلمى الجنائى الذى كنت قد تخصصت فيه فى خلال فترة دراساتى العليا فى الولايات المتحدة . وابلغت أخيرا رسميا بتعيينى بالمعهد فى يوم ٤ من شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ . وهو يوم يجب أن يذكر ولا يجب أن ينسى أبدا . وقد علمت أن احدى خريجات كلية الحقوق قد عينت فى نفس اليوم . وقد دعيت بعد ذلك لحضور أجتماع عقد فى مكتب الاستاذ خليفة بمجلس الدولة بشارع الفلكى . ووجدت قد سبقنى الى الاجتماع « الدكتور حسن الساعاتى » وقد كنت أعرفه من قبل و « القائمقام (العقيد) يسن الرفاعى » و « البكباشى (المقدم) محمود السباعى » ثم « الدكتور محسن عبد الحميد » . وكان الاول يشغل درجة أستاذ مساعد تخصص علم الاجتماع فى جامعة عين شمس ، أما الثانى فقد كان يعمل بمصلحة السجون ، وكان الثالث يعمل فى احدى ادارات وزارة الداخلية ، وكان الرابع يشغل احدى الوظائف فى وزارة الشئون الاجتماعية وكان على الدرجة الخامسة المالية . وقد حضرت هذا الاجتماع بوصفى « خبيرا مساعداً » على الدرجة الثالثة المالية . وراس الأستاذ خليفة الاجتماع عن جدارة على الرغم من انه يكاد أن يكون اصغر الجميع سنا فبما عدا الدكتور محسن ، وكانت ثقته بنفسه موضع اعجابى وغبطتى . وانتهى الامر فى هذا الاجتماع وكان الاول الذى

حضرته الى قرارات هامة منها وأهمها أن يكون تركيز العمل فى المعهد على البحوث ، ومنها أيضا ان ينتقل المعهد الى مقر جديد حيث نرجو الاستقرار وتحقيق الذات له . وقد أخذ بالرأى القائل أن أعضاء المعهد العلميين لا يحتكرون البحث العلمى فى مصر لانهم لا يستطيعون ذلك . أى ان العلاقة المهنية بين المعهد وبين اساتذة كليات الجامعات المختصين ومن فى حكمهم يجب ان تكون متبادلة . وكان الرأى الاخير على علاته فى ضوء الظروف التى نشأ فيها المعهد رأيا حكيما . فالعلم كما يرى العلماء بفروعه المتعددة وبخاصة ماتعلق منها بالسلوك البشرى السوى او غير السوى لا يمكن ان يستوعبه بله أن يتمثله واحد من العلماء او حتى جماعة من العلماء . وتكررت الاجتماعات وتشعبت المناقشات فيها . وقد لاحظت ان القائمقام يسن الرفاعى كان من المهتمين « بفرع علم العقاب » ، وكان البكباشى محمود السباعى أقرب الى الاهتمام بعلم الادارة الجنائية ، فقد كان من ضباط المباحث المرموقين فى وزارة الداخلية وكان يراسه فيما أعلم فى ذلك الحين اللواء عبد العزيز مفرح . وكان الاخير فى ضوء ذكائه وحنكته يترك للسباعى الكثير من الامور ليبت فيها أو لمجرد ابداء الرأى فيها ، فقد كان حاصلا على درجة الماجستير من احدى جامعات الولايات المتحدة وكان تخصصه كما أذكر وقت كتابة هذه السطور « الادارة الجنائية » . وكان الدكتور حسن الساعاتى يستمد مجده العلمى من رسالة عن جناح الاحداث قدمها الى جامعة لندن لنيل درجة الدكتوراه ، وكان قد نشر كتابا فى عام ١٩٥١ بعنوان « فى علم

الاجتماع الجنائي » وكان موضوعه يحتوى على بعض ماتضمنته رسالة الدكتوراه المشار اليها . اما الدكتور محسن عبد الحميد فقد كان يستند على المامه بعلم الاحصاء الذى كان يقول انه استخدمه في معالجة موضوع رسالته التى قدمها للحصول على درجة الدكتوراه ولم اكن أعرف عن هذا الموضوع شيئا وحتى وقت كتابة هذه السطور لا أعرف عنه شيئا . أما الاستاذ احمد محمد خليفة فهو قد تخرج فى كلية الحقوق واشتغل كوكيل للنائب العام ، ودرس فى « معهد العلوم الجنائية » وهو المعهد الذى كان ملحقا بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وكان أحد أساتذته المستشار محمد فتحى الذى آثر الاستقالة من القضاء لكى يتفرغ فيه لتدريس مادة « علم النفس الجنائى » الذى كان يهواه وألف فيه كتبا عديدة دون فيها خبرته النظرية والعملية . وقد اتيحت الفرصة للاستاذ خليفة لكى يقوم بالتدريس فى « جامعة بغداد » عندما كان الاستاذ الكبير والقانونى الضليع « الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا » أحد أساتذتها . وكنت اعلم ان هذه الفرصة قد اتيحت للاستاذ خليفة عندما دعى المستشار محمد فتحى ليقوم بتدريس مادة « علم النفس الجنائى » فى هذه الجامعة . وكان الداعى هو الاستاذ الدكتور السنهورى لصداقته ومعرفته بقدره . وعند الحاحه الشديد على المستشار محمد فتحى رشح الاخير الاستاذ احمد خليفة « انجب » تلاميذه ليقوم بهذه المهمة . وقد تمت الموافقة على ندب الاستاذ خليفة ليقوم بتدريس مادة « علم النفس الجنائى » وفى خلال فترة اقامته بمدينة بغداد أستطاع ان يقوم بتأليف كتاب فى شهر ديسمبر عام ١٩٤٨ بعنوان « اصول علم النفس

الجنائى والقضائى » ، وقد أعاد طبعه بمدينة القاهـرة فى شهر نوفمبر عام ١٩٤٩ ، وظهرت رشاقة لغته فى فصول الكتاب ولمعانها وبخاصة فى الفاتحة التى قدم بها هذا الكتاب . وكنت الوحيد بينهم الذى تخصص فى علم الجريمة كظاهرة اجتماعية ومن ورائى خبرات ميدانية فى مجالاتها فى مصر الخالدة وفى المملكة المتحدة « انجلترا وويلز » وفى الولايات المتحدة « ولايات انجلترا الجديدة وبخاصة ولاية ماساتشوستس » ، فضلا عما حصلت عليه من خبرات اكاديمية ذكرت الكثير منها فى « الجـزء الثانى : ماء الحياة » وكانت من ثمارها رسالة الماجستير التى كان موضوعها « نظام المراقبة الاجتماعية بالمحـاكم فى مصر الحديثة » ورسالة الدكتوراه التى كان موضوعها « تطبيق مفهوم منطقة الجناح فى مجتمع غير غربى : دراسة مقارنة بين حى روكسبرى بمدينة بوستن وبين حى بولاق بمدينة القاهرة » .

وارجو من القارىء الكريم ان لايقف عند الاسـطر الاخيرة من فاتحة كتاب « أصول علم النفس الجنـائى والقضائى » ولكن رجائى أن يلاحظ ان المؤلف كـان مازال فى سن الخامسة والعشرين .. ونحن نعلم فى ضوء ماضمه هذا الكتاب عندما قام المؤلف بتأليفه انه كـان « باكورة » مبشرة ورائدة . ونحن نعلم أيضا ان الكتاب قد ظهر الى الاسواق وكانت مئات الالوف من تلاميـذ المدارس المصرية يهتفون فى ذلك الحين كل صباح وهم وقوف ومعهم اساتذتهم ونظارهم أى بعض قادتهم الثقافيين بالنشيد المعروف الذى كان مطلعه كما اذكر :

« للمليك اهتفوا يا أسود الحمى
للمليك اهتفوا دائما دائما »

— ٢ —

فى يوم ١٦ من شهر اغسطس عام ١٩٣٦ أمضيت فى مدينة لندن معاهدة عام ١٩٣٦ بين مصرنا آلخالدة وبين الحكومة البريطانية الغاصبة ، والملاحظ أنه اذا كان حزب الوفد وأتباعه قد قبلوا هذه المعاهدة واعتبروا بريطانيا الغاصبة منذ توقيعها « الدولة الصديقة » ، واذا كان من نتائج هذه المعاهدة ، بموجب « اتفاقية مونترو » فى يوم ٨ من شهر مايو عام ١٩٣٧ ، زوال الامتيازات الأجنبية الذى انقرض به نظام المحاكم المختلطة وحققت مصرنا الخالدة بذلك رسميا سيادتها على الاجانب فى التشريع والادارة والقضاء ثم قبول مصرنا الخالدة فى يوم ٢٦ من شهر مايو عام ١٩٣٧ عضوا فى « عصبة الأمم » ، الا أن هذه المعاهدة كانت قاصرة قصوراً بليغا ، وذلك أن أية معاهدة تحالف بين دولتين مستقلتين لايمكن كما قضت به هذه المعاهدة أن تبيح لاحدى الدولتين « بريطانيا » ابقاء قواتها الحربية فى بلاد حليفتها « مصر » لاى غرض ما أو تخولها حق احتلال موانيها ومطاراتها وجميع طرق مواصلاتها البرية والمائية فيها فى أية حرب او بحالة خطر الحرب او توقع طوارىء دولية . ومع ذلك فقد بدت ، بعد معاهدة عام ١٩٣٦ ، الطاقات الخلاقة لبنات مصرنا الخالدة وأبنائها وكأنها قد فك عقالها . فتدفقت هذه

الطاقات تسعى فى كل اتجاه نحو التغيير الى الافضل وكان هؤلاء البنات والابناء قد اعتبروا عقد هذه المعاهدة هدنة سياسية مؤقتة . فاذا بهم ينطلقون زرافات ووحدانا لكى يواجهوا ادواء مصرنا الخالدة ومشاكلها المزمنة سواء كانت هذه الادواء والمشاكل ثقافية اجتماعية او اقتصادية او عسكرية او سياسية . او كان هؤلاء البنات والابناء قد راوا القيود السياسية التى كبلت حكومات ذلك العهد بموجب تلك المعاهدة فأحسوا بأن الواجب قد أصبح يملى عليهم ، وقد أصبحوا الى حين اكثر تحررا من هـــذه الحكومات ، التزامات اخرى من نوع آخر . فانطلقوا يقدمون بايمان وشرف على حل هذه الادواء والمشاكل ويحاولون أن يزحزحوا ماتقف أمامهم فى سبيل تحقيق ذلك من عقبات .

فقد أمكن بعد معاهدة عام ١٩٣٦ أن يرشح الجيش المصرى قائدا مصريا مع وجود بعثة عسكرية انجليزية على راس هذا الجيش « كان من ضمن ضباطها الانجليز هاتون بك وجرين بك وغيرهما من حكام مصلحة الحدود الحقيقيين قبل عقد المعاهدة » . وهكذا شهد الجيش تعيين أول قائد مصرى بعد هزيمة الثورة العرابية التى قام بها ضابط وطنى مصرى عندما خاطر الحاكم « الوافد » محمد على وانشا الجيش المصرى وحمل فيه الفلاح المصرى السلاح لاول مرة منذ عصر « قمبيز » (٥٢٥ ق . م) وبـــرز التناقض الدائم الشديد بين قيادة البعثة العسكرية الانجليزية الجاثمة على صدر القوات المسلحة وبين قيادتها المصرية الوطنية وبخاصة بعد اتاحة الفرصـــة للجيش المصرى لكى يزداد عددا ويجند فيه العديد من ابناء الطبقة

المتوسطة ومادونها . وعاش الوطنيون من رجال الجيش صراعا داخليا جادا ، سافرا تارة ومستترا تارة اخرى ، ضد البعثة العسكرية الانجليزية . وكأنما شاءت الظروف ان يتجسم الاستعمار أمام ضباط جيشنا فى داخل تكناتهم فى هذه البعثة التى كانت تمثل الدولة المستعمرة الغاصبة ، فيحفز فيهم روح الغضب ومن ثم يحفزهم للنضال الوطنى ويلح عليهم أن يكونوا على صلة وثيقة بصفوف الحركة الوطنية فى البلاد .

وانني اذكر فى ذلك الحين الصيحات الرشيدة التى كانت تلفت الانظار نحو الريف المصرى وترقية الفلاح واصلاح القرية المصرية . وكنت أقرأ المقالات تلو المقالات المنشورة على صفحات جرائد تلك الفترة ومجلاتها ولاول مرة أسمع الاصوات العالية التى كانت تنادى بالمطالبة بنصيب الفلاح من حماية القانون ، وباصلاح القضاء ، وبتنفيذ القرية النموذجية ، وبالحاجة الماسة الى سياسة قومية ثابتة تتناول جميع وجوه الاصلاح الاجتماعى بعامة والأصلاح الجنائى بخاصة . والمطالبة بالسياسة القومية والثابتة كانت تتضمن بالضرورة اجراء البحوث الواقعية والدراسات حتى يمكن التعرف على العوامل التى تسبب ماكان يقال عنه فى ذلك الحين « الثالوث غير المقدس » أى الفقر والجهل والمرض . وذلك لانه كان قد انتهى أمر أولى الأمر من علماء مصرنا الخالدة الى أن الجهود فى سبيل مواجهة هذا الثالوث لا يمكن ان تؤتى ثمارها المرجوة الا اذا أسست على نتائج بحوث ودراسات متعمقة ودقيقة للظروف الاجتماعية كما كانت قائمة فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين . لقد

راى هؤلاء العلماء ، وهم أساتذتى ، انه لم يكن كافيا مثلا ان نقرأ الاحصاءات الجنائية عن حجم الجريمة فى المجتمع المصرى وصورها . وانه لم يكن كافيا أيضا ان تكتب المقالات عن أزدياد الجريمة او عن نقصها على وجه العموم او عن ازدياد بعض صورها ونقص البعض الاخر . وانه لم يكن كافيا كذلك ان ندرس النظريات المتعلقة بالجريمة او احداها ، فمهما كانت ذات فائدة فانها غير كافية فى حد ذاتها فليس يكفى أبدأ أن يدرس الدارس ان عوامل الجريمة هى كذا وكذا فان العوامل الحقيقية للجريمة فى مصر مثلا قد تكون مختلفة تماما عن العوامل التى يدرسها هذا الدارس لانها قد تكون فى الغالب عوامل تتصل بظروف ثقافية اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة فى البلاد التى صيغت فيها هذه النظريات . وأخيرا لم يكن كافيا أن ندرس أساليب الكشف عن المجرمين ومعاملتهم كما يحدث ذلك فى المجتمعات الاجنبية شرقية كانت او غربية ، وكان من الضرورى أن نتعمق اكثر حتى يتيسر الكشف عن العوامل الكامنة لوجود هذه الظاهرة وعن مدى صلاحية تطبيق هذه الاساليب ومن ثم نستطيع أن نواجهها ونوجهها الى الافضل . ويتيسر فى هذا الضوء للعاملين المصريين فى الميدان « المشرعين والقضاة ورجال الشرطة والاخصائيين الاجتماعيين والمشرفين وغيرهم » أن يؤدوا أعمالهم على اساس الواقع الحى فى المجتمع المصرى . فيقوم المشرع المصرى مثلا ، بمهمته التشريعية عن وعى وغير معتمد اعتمادأ كليا على التشريعات الاجنبية التى تكون فى الغالب منبثقة من واقع مجتمعاتها الاجنبية .

كان علماؤنا المصريون في ذلك الحين وبخاصة من كانت آختصاصاتهم تتعلق بالسلوك الانساني سواء أكان هذا السلوك سويا أم غير سوى ، يدعون الى هذه الدعوة . وقد تأكدت لي صحة هذه الدعوة وسلامتها عندما كانت من حظي دراسة علم الجريمة في « جامعة بوسنتن » تحت اشراف « البروفسور البرت موريس » والبروفسور « أيدون بورز » . كان التأكيد على البحوث الميدانية تأكيدا صريحا . وعلى الرغم من ان منطقة تخصصي كانت « علم الاجتماع التطبيقي » ولم تكن «مناهج البحث في علم الاجتماع » فانه لم تفتني الفرصة لاقوم ليس فقط ببحثي الماجستير والدكتوراه ولكني اشتركت أيضا في بحوث أخرى سواء كانت في القاهرة « بحث مشكلة الفقر في مصر عام ١٩٣٨ وبعض بحوث حالات الاحداث الجانحين في خلال الفترة من شهر يناير عام ١٩٤٤ الى شهر فبراير عام ١٩٥١ مثلا » ، أو كانت في مدينة بوسنتن « بحث جريمة القتل في الولايات المتحدة في خلال فترة دراستي بجامعة بوسنتن » . والملاحظ ان دراساتي الاكاديمية في جامعة بوسنتن كانت في معظمها تستند الى نتائج بحوث ميدانية . فقد كانت هذه الدراسات لها الاولوية عند أكثر أساتذة قسم الاجتماع والانثربولوجيا بالجامعة . وارى أنه ينبغي التنويه بالرواد الذين آقتحموا ميدان البحث العلمي الاجتماعي بمعناه الواسع ، اى الذى يتضمن البحث العلمي الجنائي ، منذ الزمن الماضي السحيق ، في ربوع مجتمع مصرنا الخالدة وغيره من المجتمعات العربية الاخرى ، وكان هؤلاء في الاغلب الاعم من الاجانب ابتداء من « هيرودوت » وعلماء

الحملة الفرنسية و « لين » (منصور أفندى) و « بالمر » (الشيخ ابراهيم) و « فيلبى » و « لورنس » و « كليلاند» و « جون بادو » . قاموا باجراء هذه البحوث من أجل خدمة بلادهم على حساب مصلحة مصرنا الخالدة ويجدر بى ان انوه ايضا بالرواد المصريين الذين اقتحموا هذا الميدان وعلى رأسهم « محمد البابلى » والمستشار «محمد فتحى » و « اسماعيل القبانى » و « عبد العزيز القوصى » و « مصطفى عامر » و « محمد عوض محمد » و « سليمان حزين » ومن ذكرت من قبل (فى الفصل السابق) من أمثال حسن الساعاتى وأحمد محمد خليفة ويسن الرفاعى ثم محمود السنباعى :

وعندما أسفر النضال الوطنى للوطنيين من رجال الجيش المصرى عن تشكيل « حركة الضباط الاحرار » الذين استحقوا فى ذلك الحين لقب « الطلائع الثورية » يساندهم فى تحقيق اغراضهم المناضلون من خارج الجيش الذين كانوا يمثلون الشعب تمثيلا صادقا . وعندما استولت الطلائع الثورية فى ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ على أمور الجيش كله ونجحت فى الاستيلاء على حكم البلاد فى ضوء برنامج تبلور فى شكل المبادىء الستة المشهورة ـ لما حدث كل هذا اتيحت الفرصة لتكوين لجنتين هامتين هما : ـ

ـ لجنة الانتاج .

و ـ لجنة الخدمات .

وقد رأس اللجنة الثانية اى لجنة الخدمات الاستاذ فؤاد جلال ، ونجح الاستاذ خليفة فى الفوز فى الحصول على موافقة هذه اللجنة على انشاء « المعهد القومى للبحوث

الجنائية » ليكون هيئة مستقلة يشرف عليها مجلس ادارة يرأسه وزير الشئون الاجتماعية « حسين الشافعى » .
لقد قدم الاستاذ خليفة مشروعه وآزره فى سبيل الفوز بالموافقة عليه اصدقاؤه وكان على رأسهم الاستاذ « احمد فؤاد » الذى كان مندوب الاتصال بين الضباط الاحرار وبين المنظمات الشيوعية المصرية وعلى رأسها منظمة « حدتو » قبل اندلاع ثورة عام ١٩٥٢ ، والذى كان فى الوقت نفسه يكتب عناوين الظروف التى كانت تودع فيها منشورات الضباط الاحرار والتى كانت ترسل فى خطابات الى سائر ضباط الجيش ، وكان يودعها فى صناديق البريد التى توجد فى القاهرة وفى غيرها من المدن المصرية الكبرى . كان الأستاذ احمد فؤاد ذا حظوة عند الطلائع الثورية من ضباط الجيش وبخاصة « جمال عبد الناصر » . وكان حسين الشافعى يكن له بعض الاحترام ان لم يكن كل الاحترام . وعندما اقتنع بفكرة انشاء المعهد القومى للبحوث الجنائية وبخاصة وكان قد وضع على رأس مجلس الادارة التى تشرف عليه كان النجاح فى تحقيق هدف الاستاذ خليفة نجاحا مؤكداً . وقد يسر هذا النجاح أيضا أو كان من عوامله ان الاستاذ خليفة رفض باباء وبذكاء ان يتعاطى اية مكافأة طوال المدة التى تم فوزه فى الحصول على موافقة لجنة الخدمات على مشروعه ثم الاعداد له علميا واداريا ، وكانت فترة ليست بالقصيرة ، حتى عين بقرار وزارى مديرا للمعهد اى منذ صدور القانون رقم ٦٣٢ لسنة ١٩٥٥ حتى اعد المقر الذى يزاول المعهد نشاطاته فى أول اكتوبر عام ١٩٥٦ .

وصدور هذا القانون كان يعنى فى حقيقة الامر الاعتراف بأن الخطوة الاولى نحو الاصلاح الجنائى هى البدء بالقيام باجراء البحوث والدراسات الدقيقة عن ظاهرة الجريمة فى مصر من حيث عواملها والكشف عن المجرمين ومعاملتهم أحداثا كانوا أو بالغين على ان يقوم باجراء هذه البحوث والدراسات أشخاص مصريون قد تدربوا خصيصا لهذا الغرض . ومن ثم ولدت لاول مرة مهنة البحث العلمى فى مصر وأضيف دور اجتماعى جديد على الادوار الاجتماعية القائمة فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين . وكونه دورا اجتماعيا جديدا فقد توقعت ، كما توقع غيرى ، فى ضوء خبرتى عندما ولدت مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر فى عام ١٩٣٧ وكان من حظى ان اكون من العاملين الاوائل فى ميدانها فى شهر مايو عام ١٩٣٩ بعض العقبات أو ربما الكثير من العقبات وقد ذكرت بعض ماكنا نعانيه فى الجزء الاول من هذا الكتاب . ومع ذلك فان الاستاذ خليفة ومن كان معه من العاملين وبخاصة من اخلصوا اخلاصا حقيقيا للبحث العلمى الجنائى قد اصروا على مواجهة كل العقبات . وكان للذكاء الاستاذ خليفة الخارق وجاء وحماية لهذه المهنة الوليدة ، فقد بدا لنا انه قد ارتبط بها ارتباطا وثيقا وانه آثرها على غيرها مما كان قد يتاح له فى مواقع أخرى . كان ذلك فى يوم ٤ من شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ عندما استقر بى المقام وكان الاستاذ خليفة وكنت معه وكانت معنا الزميلة آمال عثمان ، كنا نحن الثلاثة من العاملين العلميين كل الوقت . وسرعان ما انضم الينا زملاء آخرون بعد فترة وجيزة بعد اجراء الامتحانات التحريرية

والشفوية للذين تقدموا لشغل وظائف « باحث مساعد » في ضوء أعلان كان قد نشر لهذا الغرض . وانني أذكر من هؤلاء الزميلة « هدى مجاهد » والزميلة «صفية قاسم» والزملاء « محمد عزت حجازي » و « مكرم سمعان » و « يوسف صبري » و « زين العابدين سليم » و «احمد الالفي » و « سمير الجنزوري » و « عبدالاحدجمال الدين» و « علي حسن فهمي » . وانضم في العام التالي الى العاملين العلميين بالمعهد زملاء آخرون اذكر منهم الزميلة « ناهد صالح » والزميل « السيد يسن السيد » والزميل « فرج أحمد فرج » ثم الزميل « محمد خيري » وكان الزميلان « سمير ناجي » و « يوسف أبو زيد » منتدبين كل الوقت . أما « الدكتور الساعاتي » و « القائمقام يسن الرفاعي » و « البكباشي محمود السباعي » و « الدكتور محسن عبد الحميد » فقد كانوا منتدبين بعض الوقت ويحضرون في الفترة المسائية فيما عدا « القائمقام يسن الرفاعي » أيام السبت والاحد والثلاثاء والاربعاء . وقد عين الدكتور محسن عبد الحميد بعد فترة كل الوقت في وظيفة « باحث » كما عينت الزميلة « ليلى تكلا » مثله في « وظيفة باحث » لحصولها على درجة الماجستير في ذلك الحين ، وانتدب كل الوقت الزميل « حسن علام » في « وظيفة باحث » كذلك ، وكل من الزميل « يسر أنور » و « رابح لطفي جمعة » في وظيفة باحث مساعد . وانتداب الاخيرين بدا عند انتهاء انتداب الزميل سمير ناجي والزميل أبو زيد .

وقد اختير مقر المعهد في منزل بشارع القصر العالي رقم ١٩ ، وقد استأجرت ادارته شقتين في الدور الرابع

من هذا المنزل وكانتا تحتويان على ١٦ بحجرة ، وقد تيسر بعد توزيعها أن يجلس كل عامل علمى أو ادارى فى مكان مخصص له . وانتهى الامر الى تبنى تعريف « علم الجريمة » بمعناه الواسع أى العام الذى يبحث عن عوامل الجريمة وعن الكشف عن الجريمة والمجرمين وعن معاملتهم ومن ثم قسم العمل بالمعهد الى ثلاثة اقسام هى : —

— قسم بحوث الجريمة .
— قسم بحوث الكشف عن الجريمة والمجرمين .
— قسم بحوث العقاب .

واختار الأستاذ خليفة المسئول الاول عن ادارة المعهد الدكتور الساعاتى ليكون مشرفا على القسم الاول ، والبكباشى محمود السباعى ليكون مشرفا على القسم الثانى وكان يعاونه بعض الضباط الذين كانوا يحضرون معه فى الفترة المسائية واذكر منهم السادة الزملاء عبدالكريم درويش وأحمد والى ومصطفى رفعت ومحمد النبوى اسماعيل . واختار الاستاذ خليفة القائمقام يسن الرفاعى مشرفا على قسم بحوث العقاب الذى كان يحضر فى الفترة الصباحية . ووزع الباحثون المساعدون والباحثون على كل من قسم بحوث الجريمة وقسم بحوث العقاب . وكانت اغلبية المنضمين الى قسم بحوث العقاب من خريجى كليات الحقوق فيما عدا الزميل « فرج احمد فرج » وكان متخرجا فى كلية الاداب تخصص علم النفس .

والملاحظ انه على الرغم من أن الجريمة هى ظاهرة اجتماعية فقد كانت غلبية العاملين العلميين المعينين والمنتدبين من خريجى كليات الحقوق . وقد بان فى المستقبل القريب بعد ذلك الصعوبة الكبيرة فى ايجاد

التفاهم العلمي بين الاخيرين وغيرهم من خريجي الكليات الاخري وبخاصة من كانوا من المتخصصين فى علم الاجتماع . كانت اللغة غير مشتركة وحتى منهج التفكير كنت تجده متباينا . لقد كانت هذه التجربة مفيدة جدا ومثمرة عندما اصبح المعهد القومي للبحوث الجنائية مركزا للبحوث الاجتماعية والجنائية فيما بعد ، لقد تأكد لدى المسئولين على ادارة المعهد أن السلوك الاجرامى هو سلوك بشرى ولا يمكن للقانونيين وحدهم مهما كثروا أن يواجهوه ، ولا يمكن أيضا للاجتماعيين وحدهم أن يواجهوه ، ولايمكن كذلك للنفسيين وحدهم أن يواجهوه . وأقصد بالمواجهة هنا الفهم الموضوعى ومحاولة وضع البرامج للتغيير الى الافضل . كانت خبرتى الميدانية العملية فى مؤسسة الزفاف الملكى وفى مكتب الخدمة الاجتماعية تؤكد لى ان هذين الهدفين « الفهم الوضوعى ومحاولة وضع البرامج للتغيير الى الافضل » يمكن أن يتحققا على عكس الاخرين من الزميلات والزملاء الذين كانوا فى مستويات ارفع او كانوا فى مستويات اقل ارتفاعا . كنت أرى ، ومازلت ، اننا فى ضوء سياسة علمية جنائية تستمد أهدافهـا واساليب تحقيق أهدافها من سياسة علمية اجتماعية ، نستطيع لا ان نقضى على السلوك الاجرامى قضاء مبرمـا ولكن أن نحد من وجوده . وكان الاخرون يرون أن الجريمة باقية وستظل باقية مادامت المجتمعات الانسانية قائمة . كنت متفائلا وربما مثاليا ، ومازلت ، أرى ان المجتمـع الصالح ينتج المواطنين الصالحين وأن المجتمع الطـالح ينتج المواطنين الطالحين . ولكن هيهات أن يقتنع من رجال القانون او تلامذتهم بما كنت أقول ومازلت اقول : كنت

أرى ومازلت أن الشخص المجرم لايمكن أن يكون مجرما طوال الـ ٢٤ ساعة أى فى كل ساعة من ساعات اليوم . فقد يسرق ليعطى أمه الارملة ماتأكله وتقتات منه ، وقد يقتل لان قيمة من قيم المجتمع تعيش فى كيانه وتدفعه الى القتل اخذا بالثأر او اثباتا لغسل آثار نمط من انماط السلوك يراه مجتمعه عارا . وكانت آرائى هذه يعرفها الجميع . كنت اقولها فى الاجتماع الذى كان يرأسه الاستاذ خليفة أو الذى كان يرأسه الدكتور الساعاتى ، وفى الاجتماع الاول كنت أجد المعارضة من الحاضرين وبخاصة من البكباشى محمود السباعى . واننى اذكر اننى كنت ارى ، وكان التعداد العام على الابواب ، ان يبرز سن السابعة فى التعداد الجديد حتى نستطيع ان نحدد بالضبط نسبة الاحداث الجانحين « كانوا من سن ٧ - سن ١٥ فى ذلك الحين » فى ضوء عدد الاحداث من سن السابعة حتى سن الخامسة عشرة ، وليس فى ضوء عدد السكان ، فالسكان منهم الاطفال الذين تكون سنهم أقل من العام وفيهم كبار السن الذين لا يقدرون على ارتكاب احدى جرائم السرقة كالنشل مثلا . فكان السباعى لا يرى ما أراه . وعندما طلبت أن يكون محل الاقامة ومحل الميلاد موجودين فى التعداد العام الجديد اعترض كذلك وخفى عليه أننا اذا عرفنا ذلك كنا أقرب الى الحقيقة عندما نتحدث عن الهجرة وأثرها اذا كان لها اثر فى السلوك الاجرامى او فى غيره من الظواهر الاجتماعية المتعلقة بالبناء الاجتماعى للمجتمع المصرى . وهكذا كانت آرائى فى خلال الفترة الاولى من عملى بالمعهد القومى للبحوث الجنائية ، بحق وبغير حق ، موضوعا للاستهجان

تارة او للسخرية تارة اخرى . ومع ذلك فقد اكتسبت الكثير من المؤيدين وبخاصة في محيط الباحثين المساعدين على الرغم من الغرور الذي قد كان يشع من كيان بعضهم وبخاصة من كان قد تخرج في الجامعة حديثا . وكان ما أسعدني عندما يرجع المسئولون الى رأى كنت قد ذكرته من قبل وكان موضوع معارضة . كانت جملة « انا فرحان » تخرج من فمي تلقائيا . وكنت فعلا اشعر بالسعادة من أجل ماكنت أراه أمراً لا محيص عن الاخذ به . ولم اكن غليظ القلب ابدا وكان قلبي مفتوحا للجميع وكانت كتبي في متناول أيدي الجميع لا اضن على أحد بفكرة او بوقت اناقش معه أمراً غامضا على أو عليه ، أو بكتاب يكون في مكتبتي وهو فى حاجة اليه .. فالمعهد كان لا مكتبة له سوى عدد قليل من الكتب . وانا اذكر ان الاستاذ خليفة قد طلب مني اذا كان لدى من الكتب ما اعطيه للمعهد بالثمن على أن يكون بيعي لهذه الكتب كما قال وهو الرجل القانوني « بيعا وفائيا » اى ان يشتري المعهد هذه الكتب بثمن معين وأستطيع أن استرد الكتب اذا انا دفعت ما اخذت من ثمنها فى اى وقت وقد سعدت من أجل ذلك لامرين :

الاول : انني اعتبرت مكتبة المعهد هي مكتبتي اى ان الكتب في البيت عندي كانها في المكتبة في المعهد .

الثاني : انني كنت فى مسيس الحاجة الى نقود لكي ادفع القسط الاول من مصاريف آمال ابنتي في الجامعة

وذهبت توا الى البيت حيث أودع الكتب وانتقيت خمسين كتابا في علم الاجرام وعلم الاجتماع وعلم الانتروبولوجيا ، وقد كان ثمن كل كتاب مطبوعا على غلافه

الكتاب الجديد والكتاب « المستعمل » على السواء ، وجمعت اثمان الكتب واحداً واحداً كما دفعتها بالتمام والكمال وكان المجموع ١٧٥ دولاراً وكان الدولار في ذلك الحين يوازي حوالى اربعين قرشا صاغا ووضعت الكتب في حقيبة كبيرة وحملتها في تاكسي الى المعهد في اليوم التالي على الاتفاق الذي تم بيني وبين الاستاذ خليفة ورأى كل شيء الكتب واثمانها وعرض على عشرين جنيها مصريا فقبلت لانني كما علمت منه اذاً تيسر لي دفع هذا المبلغ أستطيع ان ارد كتبي الى مكتبتي في منزلي . وانا أذكر عندما كنت أعد الكتب التي انتقيتها واضعها في الحقيبة وانا في منزلي ان حضر الزميل « سعد المغربي » لزيارتي ولما علم بما انا مقدم عليه ثار في وجهي واعتبرني مخطئا اذا انا أقدمت على ذلك وتفذت هذا الاتفاق الذي بدا له انه اتفاق مجحف ولكنني لم آبه لثورته وسخطه على فقد اعطيت كلمتي للاستاذ خليفة وكنت في مسيس الحاجة الى المبلغ الذي اتفق عليه لكي أدفع منه مصاريف ابنتي آمال المدرسية لكي تلتحق بالجامعة في الوقت المناسب .

ولم ينتظم العمل في المعهد في التو واللحظة . فقد كنا في شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ الذي بدأ الاعتداء الثلاثي على مصرنا الخالدة في مساء احد ايامه « يوم ٢٩ من شهر اكتوبر » عندما قامت اسرائيل في ذلك المساء باسقاط قوة من رجال المظلات عند المدخل الشرقي لممر « متلا » مفتتحة بذلك معركة سينا - السويس ولم تكد تمضي ٤٨ ساعة حتى وضحت نوايا بريطانيا وفرنسا بالتدخل العسكري التي افصحت عن مساندتها لاسرائيل بالتدخل عسكريا في مساء يوم ٣١ من شهر اكتوبر حتى بدأت

عمليات جوية واسعة النطاق ضد القواعد الجوية المصرية في منطقة القناة ـ الدلتا لتدمير القوة الجوية المصرية . وكان قد اعد لهذا الاعتداء انتقاما من جمال عبد النـاصر الذى كان يسميه « ايدن » رئيس وزراء بريطـانيا « الدكتاتور الصغير » ، جمال عبد الناصر الذى تجاسر في ليلة الاحتفال بيوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٦ الذى عقد في مدينة الاسكندرية وأعلن قراره الخالد بتـأميم « شركة قناة السويس » . وقد كان الاعتداء الثـلاثى مفاجاة لاعضاء المعهد العلميين وغير العلميين على السواء بل كان مفاجاة للمصريين من كل الطبقات والفئات . وانني أذكر أن الذهاب الى المعهد كان مستمرا ، ولكن العمل كان موقوفا فقد اهتم الجميع بهذا الحادث الجلل وتطوع الجميع بدمائهم فيما عدا من كان لايصلح لاداء هذا العطاء الجليل . وبعد أن تمكنت حكومة مصر بتعبئة واقحـام تأييد دولى ضخم للقضية المصرية ويأتى فى مقدمة هذا التأييد الدولى التأييد واسع النطاق من الشعوب العربية وحكوماتها لموقف مصر . ولقد اتخذ موقف سوريا بصفة خاصة اتجاها اكثر تطرفا فمنذ بداية الهجوم الاسرائيلى ابى الضباط السوريون أن يقفوا مكتوفى اليـدين فى مواجهة العدوان وكان قرارهم بتدمير محطات الضـخ على خط انابيب البترول الموصل من العراق الى البحر الابيض المتوسط عبر أراضى سوريا . ثم بعد ان اتى بعد ذلك دور الاتحاد السوفيتى ، وبالرغم من تعدد وجهـات النظر حول فاعلية تدخله ، وبدأ فى مساء يوم ٥ من شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ فى ارسال رسائله الى كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل التى كانت تحمل التهديد الواضح لهذه

الدول المعتدية ، وبعد ان أدارت مصر المعركة الدبلوماسية في الامم المتحدة ـ بعد كل ذلك ، تعرى العـــدوان والتواطؤ أمام العالم . واضطر رئيس وزراء بريطانيا وقد انهكته احداث مائة يوم وأنهكت بلاده ازمة مالية طاحنة لقبول وقف اطلاق النيران . ثم صمتت اصوات المدافع وخيم الهدوء على جبهة القتال . ومن ثم اتيحت الفرصة لنا نحن اعضاء المعهد القومي للبحوث الجنائية الوليد لكي نبدأ نشاطاتنا . وكان موقع عملي في قسم بحوث الجريمة الذي عين الدكتور الساعاتي الذي كان يعمــل بعض الوقت مشرفا عليه . وكان همي الاول أن نضع برنامجا ييسر لاعضاء القسم على اختلافات مشـــاربهم ومفاهيمهم علم الاجرام فهما موضوعيا وأن يكون هـــذا الفهم مشتركا حتى نستطيع أن نخلق اللغة المشتركة التي يمكن عن طريقها تيسير وحدة تفكيرنا حتى يسهل علينـــا السير على الدرب ومن ثم نصل الى تحقيق الاهـــداف وكنت أقول لنفسي القول الشائع :

« من سار على الدرب وصل »

ولكن بدأ لي منذ اللحظة الاولى أن الدرب كان طويلا طويلا . ومهما يكن من الامر فانني آليت على نفسي البدء وكان الراى السائد عندي ، ومازال ، أنه من الواجب ان تغرس الحاجة الى العمل كفريق في نفوس الزملاء الاعضاء فالعلم اكبر من ان يستوعبه حتى يتمثله شخص واحد . والسلوك البشري يحتاج الى فروع من العلم عديدة وان كل فرع يكمل الفرع الاخر . ولم ينجح هذا الاسلوب من القسم وحتى عندما أتيحت لي الفرصة لكي اقـــوم العمل وذلك لان الساعاتي لم يمكث طويلا في الاشراف على

بالاشراف على القسم من بعده ، فقد كان من رأى ادارة المعهد أن تمنع منعا باتا الوصول الى تكوين ولاء علمي لاحد من الاشخاص مهما بلغ من خبرته المنتظمة وغير المنتظمة شأنا يؤهله للحصول بحق على هذا الولاء . وكنت اعلم ان الولاء العلمى لاحد من الاشخاص سيكون بالضرورة مؤقتا لانني كنت أعي تماما موقف « اسحق بارو » أستاذ « اسحق نيوتن » الذى رأى أقصد الاستاذ أن نيوتن أولى منه برئاسة القسم وكان لايعدو عمر الاخير سن السادسة والعشرين . ان الاستاذ بارو عرف قدر نفسه ولم يطلب من تلميذه نيوتن الولاء العلمى المطلق له . ولكن ادارة المعهد لكى تمنع تكوين رابطة علمية ماكونت مع الاقسام هيئات علمية تدرس بعض الظواهر الاجرامية ووزعت اعضاء المعهد العلميين العاملين كبارا وصغارا على هذه الهيئات التى انتدب من خارج المركز اساتذة لكى يقوموا بالاشراف عليها . واصبح اعضاء المعهد العلميون العاملون لديهم الفرصة لكى يعبوا ليس فقط من الخبرات العلمية للمشرفين من الخارج بل أيضا لكى يقارنوا بينهم وبين المشرفين من داخل المعهد . وكانت أهداف هذه المقارنة لا تخفى على ادارة المعهد فالمعروف ان كل ذى خبرة تكون خبرته بالضرورة محدودة . وما يوجد لدى المشرف من خارج المعهد قد لا يوجد لدى المشرف من داخله والعكس صحيح . ولكن فعل ادارة المعهد هذا والجميع اقصد اعضاء الهيئة العلمية بالمعهد مازالوا فى بداية الطريق كان اذا أحسن الظن به يدل على الطموح الزائد على الحد . اننا نحن المتعلمين وانا اولهم تعلمنا تدريجيا على أيدى أساتذة عديدين . وكان كل

استاذ له مستوى معين من المعرفة والخبرة ، ولكن ترك كل استاذ فينا بصماته على تفكيرنا ومنهج هذا التفكير . ولعله اذا كان القيام بالاعمال العلمية من داخل اقسام المعهد التي أتفق عليها . واشترك في بعض جلساتها كل ذي خبرة بالسلوك البشري السوي وغير السوي على أن يكون ذلك في نطاق نظام كل قسم الذي تحدده لائحة داخلية اي تحدد ادوار كل عضو في كل قسم فضلا عن أدوار السادة العلماء والمتخصصين الذين يرون ويرى المعهد ضرورة اشتراكهم ـ لعل ذلك اذا كان قد حدث كان خيرا كبيرا يعود على البحث العلمي الاجتماعي بعامة وعلى البحث العلمي الجنائي بخاصة بالفائدة المرجوة ولكن هذا الرأي كان يمثل رأي الاقلية التي كنت أرفع لواءها وحدي ، ومن ثم لم يؤبه به امام سلطان الادارة الجارف . ان الادارة قد اخذت برأيي احيانا ، ولم يكن في حقيقة الامر رأيي وانما كان رأي أستاذي « البروفسور البرت موريس » ، الذي كان يتضمن مثلا ، انه قد عفى الزمان على العديد من الافكار المتداولة حول « مفهوم الجريمة » وانه اصبح الاوان قد آن لنبحث عن صورة من صور الجريمة كل على حدة لكي نحاول التعرف على عوامل كل صورة . وذلك لأن جملة « عوامل الجريمة » لا تفيد ولا تسمن من جوع ، فجريمة السرقة غير جريمة القتل او جريمة الاغتصاب ، ومن ثم فان عوامل جريمة السرقة تكون بالضرورة غير عوامل جريمة القتل او عوامل جريمة الاغتصاب وكنت اقول واعيد حتى اقتنعت الادارة اننا اذ نبدا اجراء البحوث الجنائية في المعهد اي البحوث في ميدان الجريمة او ذات الصلة بهذا الميدان فان علينا

أن نختار خصيصا الظواهر اللامعة اجتماعيا مثل «جريمة القتل » و « البغاء » و « تعاطى الحشيش » و « جرائم السرقة عند الاحداث » و « ظاهرة الثأر » . وقد تم اختيار هذه الظواهر فعلا وكونت لها هيئات يشرف عليها مشرفون كانت اغلبيتهم الساحقة من خارج المعهد ، ويتكون اعضاؤها من خليط من العاملين العلميين بالمعهد ومن اعضاء من خارجه . وقد عين نفسه الاستاذ خليفة للاشراف على هيئة بحث جريمة القتل واختار الدكتور حسن الساعاتى للاشراف على هيئة جريمة البغاء والدكتور مصطفى زيور للاشراف على هيئة جريمة تعاطى الحشيش والدكتور عبد العزيز القوصى للاشراف على هيئة جرائم السرقة عند الاحداث والدكتور احمد أبو زيد للاشراف على ظاهرة الثأر . ويلاحظ أن الاستاذ خليفة كان الوحيد من المعهد الذى أتيح له الاشراف على هيئة بحث جريمة القتل وانه لم يكمل هذا البحث فقد تولى الاشراف عليه بعد فترة الدكتور عثمان نجاتى . وكان المشرفون على هذه الهيئات ثلاثة من أساتذة علم النفس وواحدا أستاذا فى علم اجتماع وواحدا متخصصا فى القانون وواحدا أستاذا فى علم الانثروبولوجيا . وكان يشترك من الخارج فى هذه الهيئات اعضاء جلهم من المتخصصين فى علم النفس .

وبعد أن استقرت أمور العمل فى المعهد نسبيا رات ادارته أن يقام احتفال بافتتاحه وقد حدد لهذا الاحتفال يوم ٧ من شهر مارس عام ١٩٥٧ وحضره بعض من الوزراء المعاصرين اذكر منهم حسين الشافعى بوصفه وزيرا لوزارة الشئون وزكريا محيى الدين بوصفه وزيرا للداخلية وكمال الدين حسين بوصفه وزيرا للتربية والتعليم

وغيرهم من المهتمين بشئون المعهد ومنهم كانوا بالضرورة اعضاء مجلس ادارة المعهد والاعضاء العاملين العلميين بالمعهد . وقد حضر هذا الاحتفال بعض الصحفيين اذكر منهم الصحفي الكبير « كامل الشناوي » كما اذكر الصحفي « موسى صبري » . وكان الاخير قد زار المعهد قبل الاحتفال بيوم او بيومين ، أحضرته الزميلة « ليلى تكلا » لكي يقابل الاستاذ خليفة مدير المعهد . وانني أذكر بعد ان ألقى كل وزير كلمة بادر الصحفي موسي صبري الى السؤال عن الفرق بين المعهد القومى للبحوث الجنائية و « معهد العلوم الجنائية » الذى كانت تشرف عليه كلية الحقوق : جامعة القاهرة . وكان هذا السؤال فرصة لكي يتحدث الاستاذ خليفة ويبين بفصاحته المعروفة واسلوبه الرشيق الفرق بين المعهدين وذلك بقصد تأكيد ضرورة انشاء المعهد الذى يديره وبخاصة في الوقت الذى أنشيء فيه . وانني أذكر عندما ابتسم الاستاذ الدكتور محمود مصطفى عميد كلية الحقوق فى ذلك الحين بعد مبادرة الصحفي موسى صبري الى سؤاله وأذكر ايضا — عندما أقر الحاضرون مضمون حديث الاستاذ خليفة وعلى راسهم الوزراء — اختفاء ابتسامة الاستاذالدكتور محمود مصطفى الذى لم ينطق طوال الاحتفال ببنت شفة . وعرفنا نحن العاملين العلميين بالمعهد والمقربين الى ادارته سر مقابلة الصحفي موسى صبري للاستاذ خليفة قبل يوم احتفال الافتتاح والدور الذى أدته بجدارة الزميلة ليلى تكلا فى هذا الشأن . كما عرفنا أيضا المهارة التى يتصف بها الاستاذ خليفة فى المناورة التى دبرها عن حكمة وحرصا على الوليد الجديد اقصد المعهد القومى للبحوث الجنائية الذى وان كانت فكرة ضرورة وجوده

كانت موجودة في المناخ الثقافي الاجتماعي للمجتمع المصري منذ فترة طويلة جدا قبل انشائه فان الفضل في اخراجها الى حيز الوجود وتنفيذها ترجع الى الاستاذ خليفة مافي ذلك من شك .

ومهارات الاستاذ خليفة في ضوء خبراتي العديدة التي نتجت من صحبتي له لفترة تزيد على ستة وعشرين عاما وقت كتابة هذه السطور مهارات كثيرة جدا . انه رجل يرى دائما مالا يراه أحد ، واذا أراد ان يصل الى هدف من الاهداف وصل اليه لايقف في سبيله عائق . فقد كنا مثلا في مقر للمعهد القومي للبحوث الجنائية يحتوي على ١٦ حجرة . وكان الكثير منا يرى أن هذا يكفي وزيادة ولكن الاستاذ خليفة كان يرى أن يكون المقر اكبر من ذلك وأضخم . فهو لاينسى ابدا ملاحظة الدكتور عبد العزيز عسكر الطبيب النفسي الذي كان يزور المعهد وعندما رأى صغر حجم مكتبته ولم يجد امكانية فيها لكي تتسع قال ذلك بصراحته التي أعرفها ولم يبال احدا . كان الاستاذ خليفة يرى ان يحصل على مقر لائق في حي الزمالك ، وسارع محمود السباعي ليخبر أخاه « يوسف السباعي » الذي كان أيضا يبحث عن مقر «للمجلس الاعلى للعلوم والفنون والآداب » الذي كان يرأسه ، وبنفوذ يوسف السباعي حاز قصب السبق وحصل على المقر المنشود . ولكن ذلك لم يثبط عزيمة الاستاذ خليفة الذي بادر وحصل على قطعة ارض في مدينة الاوقاف ، وأراد وحقق ارادته ان يبني بناء حديثا يليق بالمعهد الذي يديره حتى يفرض وجود هذا المعهد ليس فقط على الدولة ولكن على المجتمع كذلك وكان له ما اراد .

وعندما تحققت الوحدة الدستورية رسميا في يوم ٢٢

من شهر فبراير عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا لم يجعل الاستاذ خليفة هذه الفرصة تمر من غير أن يفعل شيئا فسعى سعيه الحثيث حتى صدر القانون رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ باعادة تنظيم المعهد القومى للبحوث الجنائية وجعله « المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية » واصبحت الاغراض التى يهدف المركز الى تحقيقها اكثر شمولا . وقد وضحها هذا القانون بأنها :

« النهوض بالبحوث العلمية التى تتناول المسائل الاجتماعية المتصلة بسائر مقومات المجتمع العربى والمشاكل التى يعانيها لوضع الاسس اللازمة لسياسة اجتماعية وعلاجية وجزائية تتفق واحوال البلاد » .

وقد نص هذا القانون أيضا على ان المركز فى سبيل تحقيق أغراضه يجرى البحوث والدراسات ويعطى منحا دراسية ومكافآت ، وينظم برامج تدريبية وتعليمية ؛ ويوفد البعوث ، ويدعو للمؤتمرات والاجتماعات العلمية كما ان له ابداء الرأى فى مشروعات القوانين الخاصة بالمسائل الاجتماعية والجنائية ، ومنذ صدور هذا القانون فى ضوء الاغراض التى أصبح على المركز ان يقوم بتحقيقها ، أصبح فى الوقت نفسه المجتمع المصرى ميدانا لنشاطات المركز المجتمع المصرى ككل والمجتمعات المحلية التى يضمها سواء كانت حضرية أو ريفية او مجتمعات محلية صحراوية .وفى هذا الضوء كان على المركز مواجهة المشاكل الثقافية الاجتماعية التى بدأت فى المجتمع منذ قيام ثورة عام ١٩٥٢ م والتى صاحبت وتصاحب ظاهرة التغير الاجتماعي المقصود وغير المقصود ، وبخاصة المشاكل التى تترتب عادة على ظاهرة التخلف الثقافى ،

واهمها مشاكل التنمية وهي عديدة وخطيرة في آن واحد .
وظهر اهتمام المركز بالمجتمع السوري عندما ضم أعضاء سوريين الى مجلس ادارته وعندما أرسل بعض أعضائه العاملين العلميين الى « مدينة دمشق » للتشاور مع المسئولين السوريين في أيسر الطرق لتحقيق التعاون العلمي بين مصر وبين سوريا حتى تتحقق أهداف قانون رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ من أجل النهوض ثقافيا واجتماعيا بكل من المجتمعين المصري والسوري معا ، أقصد مجتمع « الجمهورية العربية المتحدة » . ولكن حال بين هذه الامنيات وتحقيقها ضربة « الانفصال » في يوم ٢٨ من شهر سبتمبر عام ١٩٦١ .

ومع ذلك فان ادارة المركز لم تأل جهدا منذ اللحظة الاولى ، وبخاصة عندما أعلنت الاجراءات الاشتراكية المشهورة بـ « اجراءات شهر يوليو عام ١٩٦١ » ، وعندما توقعت هذه الادارة بحق آثارها في التركيب الاجتماعي للمجتمعين المصري والسوري «قبل انفصال سوريا بالطبع» أن تعد الاعداد الضروري لمواجهة هذه الاثار ، فقد فطنت الى أن رسالة المركز قد أصبحت رسالة خطيرة وان المهام الملقاة على عاتقه مهام جادة . وعندما اصبح همها الاول هو المجتمع المصري فقد حاولت ان تجعل المركز مقر اشعاع لهذا المجتمع يحاول ان يأخذ منه ويعطيه ، اي أن يدرسه موضوعيا ليفهمه حتى يمكن ان يواجه مشاكل تنميته ، وهي كما ذكرت آنفا عديدة وخطيرة في آن واحد . فالمجتمع المصري في ضوء تاريخه مجتمع قديم وهو أيضا مجتمع مستمر اي ان ثقافته « حضارته » قديمة قدم الدهر ومستمرة استمرار الحياة . وأن مصادر هذه

الثقافة متعددة . وان تعدد هذه المصادر واضح اذا لاحظنا قدم هذه الثقافة واستمرارها ، وان كان هذا القدم والاستمرار لا يؤكدان بالضرورة تعدد مصادر الثقافة المصرية ، فهما صفتان للثقافة المصرية الاصيلة الاتية من الماضي السحيق والتي نشأت في الغالب في البيئة الطبيعية الاصيلة . وبالاضافة الى هذه الثقافة الاصيلة كان على المركز في ضوء تاريخ المجتمع المصري الطويل مواجهة مصادر ثقافية أخرى . اهمها الثقافة العربية « الدين الاسلامي واللغة العربية بخاصة » والثقافة الغربية « الاوربية والاميريكية منذ الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨ م بخاصة » فالمصري المعاصر نتاج المجتمع المصري منذ اوائل القرن التاسع عشر وحتى الان ، والذي يسكن الحضر بخاصة يعيش في ظل اكثر من ثقافة هي الثقافة القديمة المستمرة « منها اليونانية والرومانية مثلا » والثقافة المسيحية والثقافة العربية والثقافة المملوكية والثقافة العثمانية ثم الثقافة الغربية وبخاصة الاوروبية والاميريكية .

وفي هذا الضوء كونت ادارة المركز في خلال شهر نوفمبر عام ١٩٦١ لجنة من الزملاء مكرم سمعان والسيد يسن السيد وفرج احمد فرج ومنى لاعداد تقرير عن « العلوم الاجتماعية : ماهيتها ومجالاتها واهدافها ودور المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في تحقيق هذه الاهداف » . وقد اعد تقرير عن هذا الموضوع في خلال الفترة من ١٦ ــ ١٨ من شهر نوفمبر عام ١٩٦١ ثم اعدت مذكرة اضافية عن الوحدات المقترح انشاؤها بالمركز في يوم ٢٣ من نفس الشهر . وقد رات ادارة المركز

استبدال الوحدات بالاقسام التى كونت من قبل ان يصدر القانون رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ باعادة تنظيم المعهد القومى للبحوث الجنائية وجعله « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » . وتكوين هذه اللجنة لم يأت عفوا بل جاء بعد ضغط معنوى من الاعضاء العاملين العلميين بالمركز عندما كثر عددهم سنة بعد سنة ولاحظوا إن ادارة المركز قد اهتمت ، وربما يكون هذا الاهتمام عن حسن نية ، باقامة المؤتمرات التى بدأتها فى خلال شهر يناير عام ١٩٦١ « الحلقة الاولى لمكافحة الجريمة للجمهورية المتحدة » ، ورأوا أنها تستعد لاقامة « مهرجان ابن خلدون » فى خلال شهر يناير فى العام التالى « ١٩٦٢ » ورأى هؤلاء الاعضاء وكنت منهم أن القوانين فى بلادنا تصدر من غير الاهتمام بالاجراءات الضرورية لكى تنفذ نصوصها ومن ثم تبقى فترة من الزمان تطول عادة حتى تكون اللجان تلو اللجان للنظر فى هذه الاجراءات . وكان قانون اعادة تنظيم المعهد القومى للبحوث الجنائية قد سار على نفس الوتيرة . كان بعض الاعضاء العاملين العلميين بالمركز وقد خرجوا من الطبقات والفئات التى رحب اعضاؤها باجراءات شهر يوليو عام ١٩٦١ يملؤهم الحماس الواعى من أجل العمل الجاد المستنير لرفعة مصرنا الخالدة وبخاصة بعد قيام ثورة عام ١٩٥٢ التى رأوا فيها مستقبلهم ومستقبل الملايين من المصريين المشرق .

وتضمن التقرير الذى أعددناه كلجنة مقدمة عن تعريف العلم وأهدافه ودوره فى المجتمع الاشتراكى . ثم عرفنا العلوم الاجتماعية وذكرنا اهمها ، وعرضنا المجالات الرئيسية لاهم هذه العلوم فى تقديرنا . ثم اقترحنا بعض

الموضوعات الرئيسية للبحوث التي قدرنا أهميتها البالغة لمجتمعنا المصرى المعاصر . ثم أوردنا بعض الملاحظات المنهجية الهامة ، واخيرا عرضنا لما يقوم به المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية في الوقت الحاضر ومايمكن ان يقوم به في المستقبل باعتباره الجهة الرسمية في الدولة ذات الاختصاص العام في اجراء البحوث الاجتماعية على أختلاف انواعها مستهديا في ذلك بالسياسة الاشتراكية التى تنتهجها الدولة .

ويهمنا في ختام هذا التقرير أن نسجل بعض الملاحظات ذات الاهمية البالغة ونجملها فيما يلي :

١ – ظلت العلوم الاجتماعية متخلفة زمنا ، ليس بسبب عقم في ذاتها أو في وسائل البحث التى تصطنعها ، وانما مرد ذلك التخلف الى التردد في تطبيق نتائج البحوث في ميدانها خشية ان يؤدى ذلك الى تغيير الاسس الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الراسمالية .

غير ان وضع العلوم الاجتماعية فى مجتمع اشتراكى كمجتمعنا يبشر بازدهار وتقدم كبير . ذلك ان المجتمع الاشتراكى مجتمع بناء يواجه المشكلات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة بالوسائل العلمية بغرض تغيير الواقع تغييرا جذريا لتحقيق حياة افضل .

٢ – لما كان المجتمع الاشتراكي يقوم أساسا على تكتيل الجهود نحو رفاهية أعضائه ، فقد كان من الطبيعى أن تنعكس هذه الروح الجماعية على كل أوجه النشاط الانسانى فيه ومن بينها أسلوب البحث فى العلوم مما يقتضى أن تبحث المشكلات بطريقة الفريق .

٣ – ولقد سادت زمنا الفكرة التى تزعم انفصال

العلوم الطبيعية عن العلوم الاجتماعية غير أن النظـرة الاشتراكية ترى وحدة العلوم الطبيعية والاجتماعية وذلك لتشابك الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية . اذ ان الهدف الرئيسى للعلم بوجه عام هو تحقيق رفاهيـة الانسان الذى يتأثر بالظواهر جميعا طبيعية كـانت أو اجتماعية

والمطلع على التقرير المذكور يجد أمورا كثيرة . منها بل اهمها كما سبق أن اوضحت جدية العاملين العلميين الذين قاموا باعداده وحماسهم الواعى للظروف المجتمعية التى اعد فى خلالها التقرير ، فضلا عن عمق تفكيرهم الذى يظهر على كل صفحة من صفحاته ـ ومن الامور الاخرى وهى هامة التغيير الجذرى الذى طرا على المركز من حيث اتجاهاته والاهتمام بالمجتمـع المصرى الذى كان . وقد يجد المطلع على التقرير تعدد مرافق المركـز وتعدد بحوثه ودراساته التى بداها واكملها والتى بمرور الزمن لم يكملها « منها بحث منطقة أسوان مثلا » . وقد أقترح التقرير موضوعات هامة لاجراء البحوث عنها يبلغ عددها ٥٨ موضوعا ، وكلها موضوعات غاية فى الاهمية . قام المركز فى مستقبل الايام ببحث الكثير منها . وقد اقترح التقرير ايضا ١٥ وحدة من الوحدات التى رأى ، فى ضوء ظروف المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، ان يهتم المركز بتكوينها . ونظرة الي الموضوعات المقترحـة والى الوحدات المقترحة لتعطى القارىء فكرة عن كـل ماذكرت عن الزملاء الذين شاركت معهم فى اعداد التقرير المشار اليه . ولا داعى للتكرار ، ويكفى أن اذكر ان احدهم وهو الاستاذ السيد يسن السيد يشغل وقت كتابة هذه

السطور منصب « مدير مركز البحوث الاستراتيجية بجريدة الاهرام » . وان الاستاذ الدكتور فرج أحمد فرج يشغل الان منصب « رئيس قسم علم النفس : جامعة عين شمس » . وان الاستاذ الدكتور مكرم سمعان قد هاجر الى الولايات المتحدة ويشغل في ضوء ما أعلم أحد المناصب المرموقة في أحدى الجامعات .

واذا كنت قد بقيت وحدى بالمركز فقد يرجع ذلك الى تمسكى بالعمل فى ميدانه ، ولانه موقع العمل الوحيد الذى عملت فيه أطول مدة بالنسبة الى مواقع العمل السابقة وعددها سبعة مواقع كانت أطول مدة عملت فى موقع فيها لا تزيد عن ثمانى سنوات ، وكان هذا الموقع هو « مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة» فى حين أن المدة التى مارست فى خلالها العمل « بالمعهد القومى للبحوث الجنائية » الذى أعيد تنظيمه فصار « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » ، تزيد حتى كتابة هذه السطور على الستة والعشرين عاما . « عشرة » طويلة عشت فى خلالها الافراح والاتراح واقصد بالافراح كل ماكان ييسر عمل المركز ليسير قدما فى سبيل تحقيق رسالته . أما الاتراح فان معناها عكس ذلك تماما .

ولم تمر خمسة أيام على تسليم التقرير حتى قدمت اللجنة مذكرة اضافية عن « الوحدات المقترح انشاؤها بالمركز : الاعتبارات التى روعيت فى اختيارها وتكوينها ودور كل منها » . كانت اللجنة لفرط حماسها وجديتها تعمل صباح مساء وفى أيام العطلة الاسبوعية . وكان لايدعوها الى ذلك الا أن تعمل عملا صالحا يخدم المركز محط آمالها وآمال الاعضاء العاملين العلميين فيه فى

الحاضر وفى المستقبل . وقد نقص عدد أعضاء اللجنة التى قدمت المذكرة الاضافية الزميل فرج احمد فرج . وكان اعداد هذه المذكرة فى ضوء خبرة الاعضاء الباقين السابقة وماجد منها . وفى ضوء مناقشات اعضاء اللجنة لاحظوا اهمية انشاء وحدات أخرى هى :

- وحدة قياس الرأى العام والاتجاهات الاجتماعية « انشئت فى خلال عام ١٩٧٨ اى بعد اقتراحها بسبعة عشر عاما » .
- وحدة الفلاحين . « لم تنشأ قط »
- وحدة الادارة العامة . « لم تنشأ قط »

كما وجدت اللجنة من الانسب ادماج وحدات بحوث الجريمة والبحوث العقابية والبحث الجنائى فى وحدة واحدة تشملها جميعا باسم « الوحدة الجنائية » . واصبحت الوحدات المقترحة فى ضوء بعض التعديلات الاخرى ١٦ وحدة بدلا من ١٥ وحدة . وقد أعدت اللجنة فى يوم ٢٣ من شهر نوفمبر عام ١٩٦١ المذكرة الاضافية .

ومر عام أو اقل قليلا عندما أصدرت ادارة المركز قرارا بتشكيل الوحدات التى رات ان لوجودها اهمية فى ذلك الحين . ولم يكن لاحد من العاملين العلميين من ذوى المراكز العالية او غير العالية رأى فى هذا القرار . ولكننى لم اترك الزملاء والزميلات أعضاء المركز العلميين العاملين سواء الذين كانوا يعملون فى « هيئة بحث جرائم السرقة عند الاحداث فى مدينة القاهرة » ، التى قمت بالاشراف عليها بعد آن تركها « الدكتور القوصى » ومعه الاعضاء الذين رأى ضمهم من خارج المركز دون سابق انذار ، وترك ومريدوه البحث وهو شبه « جثة

هامدة » . وانني أذكر أنني تحدثت اليه تليفونيا بشـأن هذا الموقف وطلبت منه العودة لكي يكمل مابدأ فاعتذر لمرضه . وانني أذكر أيضا عندما كنت في مدينة لندن في عام ١٩٦٩ وقابلت الدكتور القوصي في مطار «أثينا» ذكر لي السبب الحقيقي الذي من أجله ترك البحث ورئاسة الهيئة كما ترك مريدوه من أعضاء البحث من خارج المركز وفقا لاوامره . كان السبب كما ذكره أنه لاحظ وهـو يحصل على مكافاته ان هذه المكافأة اقل من المكافاة التي كان يحصل عليها « الدكتور صبري جرجس » الذي كان يشرف على لجنة فرعية لهيئة بحث القتل تقوم بدراسة بعض الشبان المصريين الذين أدينوا في جنـايات قتـل وحكم عليهم بالاعدام أو بالسجن المؤبد او المؤقت . وكان يعاونه « الدكتور عبد المنعم المليجي » الاخصائي النفسي والذي كان يعاون أيضا « الدكتور الساعاتي » في « هيئة بحث البغاء » . كان الدكتور المليجي مهتما بالناحيـة النفسية ، وقد شاركت اللجنة للقيام بدراسة هـؤلاء الشبان دراسة ثقافية اجتماعية . وقد غضب الدكتور القوصي من التفرقة التي لم يجد لها مبررا فترك هيئـة بحث جرائم السرقة واضطرت ادارة المركز أن توكـل الاشراف عليها لي . ولم اترك الزملاء والزميلات أعضاء المركز العلميين العاملين الذين كلفوا بالقيام بتقييم بعض الكتب في علم الاجرام وما يتصل به من علوم تدرس السلوك البشري تحت اشرافي . وكانت هذه الكتب قد قام بتأليفها الدكتور احمد محمد خليفة « وقد أصبح يحمل هذا اللقب منذ خريف عام ١٩٥٩ » والدكتور حسن سعفان والدكتور حسن الساعاتي والدكتور مصـطفي

سويف والدكتور زكريا ابراهيم وغيرهم . كان كل همى ان اغرس فى نفوس الزميلات والزملاء روح العمل كفريق . وكنا نتجادل فى اجتماعاتنا ونناقش بعضنا بعضا كأنداد . وكنت أخطىء وكانوا يخطئون وكان كل واحد منا يعترف بخطئه ويصححه . كان أحدنا ربما لايعلو على ماقد يحدث فى أثنـاء المناقشات وقد يعتبر اثبات خطئه سبة فى حقه ، ولكنى كنت لهم القدوة . كنت احيانا اتعمد الخطأ او اتعمد اننى لا اعرف طالبا هدنة لكى اعود الى مراجعى فى مكتبتى فى المنزل . وكنت أعود قائلا اننى كنت على حق ويكون المرجع عادة معى لكى يرى الجميع مالم يكن قد رآوه . واننى اذكر من هؤلاء الاعضاء وانا اكتب هذه السطور الزملاء محمد عزت حجـازى ومكرم سمعان والسيد يسن السيد وزين العابدين سليم والدكتور محمد ابراهيم زيد « الذى رضى ان يضم الى المركز كباحث مساعد فى ذلك الحين وكان حاصـلا على درجة الدكتوراه من احدى جامعات روما » .

وفى ضوء قرار ادارة المركز رقم ١٠١ لسـنة ١٩٦٢ تشكلت « وحدة بحوث الجريمة والانحراف » وقد عقدت الوحدة « الجديدة » بحضور جميع أعضائها تحـت اشرافى خمسة أجتماعات ايام ٤ـ١٠ـ١٩٦٢ و ٨ـ١٠ـ١٩٦٢ و ١١ـ١٠ـ١٩٦٢ و ١٦ـ١٠ـ١٩٦٢ و ٢١ـ١٠ـ١٩٦٢ . وقد تم فى خلال هذه الاجتماعات وضع مشروع اطار عام لاهداف الوحدة وأساليب تحقيق هذه الاهداف، فضلا عن مشروع برنامج السنة العلمية القادمة ، وفى ضوء هذا المشروع قدم الاعضاء جميعا مذكرات عن كل موضوع تضمنه الاطار . وفى ضوء ما أسفرت عنـه

المناقشات اعد تقرير عن « وحدة بحوث الجريمة والانحراف : أهدافها واساليب تحقيقها » ، قامت باعداده معي لجنة من الزميلة نهى حامد فهمي « التي ضمت الى المركز في ذلك الحين وكانت عضوا بالوحدة الجديدة » ومن الزميل مكرم سمعان ومن الزميل سمير الجنزوري .
وتضمن هذا التقرير تمهيدا عن اهمية وجود « وحدة بحوث الجريمة والانحراف » ، كما تضمن الاهداف التي يجب ان تحققها الوحدة وخاصة فيما يتعلق بجمع واعداد البيانات الاساسية المتعلقة بمجال تخصص الوحدة واقتراح البحوث الجنائية المنطقية بظواهر إجرامية سواء كانت خاصة بالبالغين أو الشباب او بالاحداث والاسهام في اجرائها ومتابعتها ، وكذلك التعريف بمراجع علم الاجرام وتعريب المصطلحات والمفاهيم التي يزخر بها في مراجعه الاجنبية ، وفضلا من كل هذه الامور اسهام الوحدة في عمليات النشر والاعلان بكل أساليبها وصورها الممكنة والاسهام في اعداد البرامج الخاصة بالتدريب وتنفيذ هذه البرامج .

ويبدو انني وزملائي وزميلاتي العاملين العلميين بالمركز والذين كنا نتعاون من أجل تحقيق احلامنا في انشاء وحدة بحوث الجريمة والانحراف ، أو اننا كنا فعلا ، في واد وادارة المركز في واد آخر ـ كنت وزملائي وزميلاتي وكان معنا الزميل القائمقام يسن الرفاعي الذي كان يشرف على « وحدة بحوث العقاب » نعمل من اجل التغيير الى الافضل . كان القائمقام يسن الرفاعي والحق يقال مثالا للعمل الجاد ، العمل الذي كان يعرفه ويتقنه . وفي ضوء ظروفه المهنية كان يمارسه . وكنت بجهدي

المتواضع مع الزملاء والزميلات من جانبنا نعمل أيضا فى ضوء مانعرف وما نتقن وفى ضوء الظروف المهنية التى كنت امارسها فى الميدان التطبيقى من قبل سواء اكان ذلك فى القاهرة ام فى لندن أم فى بوستن . ولكننا كنا فى معزل تام عما كان يخالج ادارة المركز من اهداف اخرى لا تمت الى اعمال المركز والى تحقيق أهدافه بصلة الا اذا اعتبرنا ان المركز وهو وليدها يصعد الى اعلا بالعمل من اجل القيام بتحقيق رسالته وادائها على الوجه الاكمل ولكن اذا صعدت الادارة ذاتها سياسيا الى اعلا . ومن ثم فقد لاحظنا ان الدكتور خليفة وقد اتجه نحو ممارسة السياسة فأعد نفسه لكى يخوض الانتخابات العامة فى عام ١٩٦٤ ، وخاضها دون ان يلتفت الى ماذكرته له من ان ابن خلدون مثلا او رفاعة الطهطاوى او طه حسين قد نالوا كرسى الوزارة ولكن لا يعرفون عند العلماء او الادباء الا بأعمالهم الخالدة . صحيح ان قيام المركز هو عمل لا يمكن ان يمحوه التاريخ . ولكن لا يمكن أن يكون مجرد مبنى أو أن يكون سلما لكى ينال عن طريقه منصبا سياسيا رفيعا لان المركز بأعماله يتبوأ فى نظر كل حكيم المركز الارفع . وقد حاز الدكتور خليفة على عضوية مجلس الامة ، وكان يتوقع فى ضوء تصرفاته المزيد . وكان المنهاج الذى اتبعه الدكتور خليفة سهلا ميسرا . فهو المدير وكانت اوامره لا معقب عليها . فلا لائحة تقيده وان كان الذى يقيده حفنة من البشر هم اعضاء مجلس ادارة المركز الذين فى ضوء اسلوب معاملتهم الذى حذقه الدكتور خليفة الذى كان يصل الى ماينبغى دائما . واذا لقى اعتراضا من أحد فانه يؤجل موضوع المناقشة الذى اعترض عليه الى حين

ان تواتيه الفرصة فيعرضه ويحصل على الموافقة حتما واذا كان المعترض ذا مكانة عند رئيس المجلس « حسين الشافعى مثلا » فالزمن وحده كفيل بان يعطيه الفرصة ليرد الصاع صاعين . وطرد « مظهر بك » وكيل وزارة الشئون الاجتماعية من وظيفته عندما ارتقى الدكتور خليفة الى مركز هذه الوزارة كان عندنا نحن العاملين العلميين وغير العلميين بالمركز خير دليل . وقد أعد الدكتور خليفة نفسه للارتقاء سياسيا الى اعلا عن طريق اقامة المؤتمرات سنويا منذ ان انتقلنا الى المبنى الجديد للمركز ، اقصد المبنى الرشيق الجديد للمركز . ففى شهر يناير عام ١٩٦٠ بدأنا ننتقل الى المبنى الجديد الرشيق من شارع القصر العالى الى مدينة الاوقاف . وفى شهر يناير عام ١٩٦١ « ٢ يناير ـ ٥ يناير عام ١٩٦١ » أقيمت « الحلقة الاولى لمكافحة الجريمة للجمهورية العربية المتحدة » ، وفى شهر يناير عام ١٩٦٢ « ٢ يناير ـ ٦ يناير عام ١٩٦٢ » اقيم « مهرجان ابن خلدون » ، وفى شهر يناير عام ١٩٦٣ « ٢ يناير ـ ٦ يناير عام ١٩٦٣ » أقيمت « الحلقة الثانية لمكافحة الجريمة للجمهورية العربية المتحدة » ، وكان يدعى الى هذه المؤتمرات كبار رجال الدولة ، واننى اذكر ان العديد من كبار المسئولين السوريين قد دعوا جنبا الى جنب مع العديد من كبار المسئولين المصريين لحضور حفلة افتتاح الحلقة الاولى لمكافحة الجريمة . وكان يقال لنا ان عقد هذه المؤتمرات هو دعاية للمهنة الوليدة اقصد مهنة البحث العلمى الاجتماعى . وكنا نحتج صامتين احيانا وباصوات عالية احيانا اخرى ، اذ كنا نجد ان الاعداد

لهذه المؤتمرات السنوية يعنى عدم الأعداد للبناء الاجتماعى المركز ، او انه يؤخر اعداد هذا البناء الذى كان الاكثر اهمية فى رأينا . وكان الدكتور خليفة يرى غير ذلك . وعرفنا بعد فترة لماذا كان يرى غير ذلك .

بدأ الدكتور خليفة مستقبله السياسى عندما فوجئنا بانه عين أمينا للمثقفين فى أحدى لجان « الاتحاد الاشتراكي العربى » الذى كان يرأسها الرئيس جمال عبد الناصر وكان ذلك فى خلال عام ١٩٦٥ ، ثم عندما شكلت وزارة « زكريا محيى الدين » فى خلال نفس العام اختير ليكون نائبا لوزير الشئون الاجتماعية والأوقاف . وقد بانت عليه ملامح التطلع الى اعلا عندما كنت أحضر مؤتمر منظمة الامم المتحدة عن « مكافحة الجريمة والمجرمين ومعاملتهم فى مدينة « أستوكهلم » فى عام ١٩٦٥ . كان قد حضر بالطائرة ويرافقه القائمقام يسن الرفاعى وكنت قد سبقتهما الى مؤتمر آخر عقد قبله فى مدينة « كوبنهاجن » ؟ وعندما ذهبت مع بعض اعضاء المؤتمر الاخير الى أستوكهلم رأيته قد حضر بعد ذهابى اليها بيوم أو يومين . لقد حضر حفل الافتتاح ورأس احدى جلسات المؤتمر وكنت الاحظ عندما نتناول طعام الغداء او العشاء فى أحد مطاعم استوكهلم « يسن الرفاعى كان معنا » ان الدكتور خليفة كان يتجنب التحدث الى اعضاء الوفد السورى الذين كانوا يجلسون حول المائدة المجاورة فى نفس المطعم . لقد قلت لنفسى فى ذلك الحين ان الدكتور خليفة قد أصبح ناصريا ملتزما . وكان بودى ونحن فى بلاد « الغربة » أن اساله سؤالا يتعلق بموضوع السياسة . وذلك لان الدكتور محمد صلاح الدين ونحن

فى بيروت آثر أن يذكر أســـماء من ساعدوه فى اعداد التقرير الذى ألقاه فى « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » فى مدينة بيروت عام ١٩٤٩ ، وكنت منهـم ، وعندما شكرته احتج قائلا انه « رجل سياسة » وأنه لا يدعى أنه « متخصص فى مهنة الخدمة الاجتماعية » وكنت أعتقد ومازلت أعتقد أن الدكتور صلاح الدين قال ماقال لى « جبرا بخاطرى » ، فالسياســـة بمعناها التقليدى لا يمكن فصلها عن العمل الاجتماعى . والعمل الاجتماعى ايا كانت مجالات تطبيقه لايمكن ان ينفصل عن السياسة بمعناها التقليدى . كنت أود ان اقول للدكتور خليفة ذلك فى شكل سؤال . ولكن لم أقل شيئا . وقلت فى نفسى .

« لك ألله يامهنة البحث العلمى الاجتماعى فى مصر »

ولم يعترنى اليأس بالرغم مما كان يحدث فى المركز وهو يخالف ماكان يجب أن يحدث الا بعد ان تأكد لبعض الزملاء أن العمل بالمركز لا يهدف الى العمل العام . وقد سبقنا الى هذه النتيجة الزميل « السيد يسن السيد » فبدأ يكتب المقالات تلو المقالات ويؤلف الـكتب ويؤدى مايطلب منه وتقاعس عن المبادرة . وفعلت ذلك بعد حين لم يكن طويلا . ومع ذلك فانى أذكر أن هزيمـــة عام ١٩٦٧ قد فعلت فى نفوس المصريين جميعا وبخاصـة الذين كانوا يعملون من العاملين العلميين بالمركز ومن على شاكلتهم ، الشىء الكثير . كان أهم ماحدث لى مثـــلا الشعور الرهيب بالذنب . فكنت وكأننى كنت السبب فى هذه الهزيمة . وتمت ليلتها أى ليلة اعلانها على الناس الطيبين من أهل بلادى فى « البلكون » فى العراء .

اننى لم انم . ولكننى جلست أفكر فى ضياع عمرى الذى ذهب هباء . وكان كل مافعلت فى حياتى وكأنه الفعل الذميم . كنت أشعر بأننى لا أساوى شيئا ذا قيمة . ولم يكن بجوارى أحد اتحدث اليه ويتحدث الى . وكان بعض الزملاء فى الخارج يدرسون فى فرنسا أو فى ايطاليا . وكنت أحدث نفسى حديث من يندب حظ وجوده فى هذه الحياة . وعاد بعض الذين كانوا مبعوثين من الخارج بعد هزيمة عام ١٩٦٧ كان منهم كما أذكر الزميل سمير الجنزورى والزميل على حسن فهمى والزميل السيد يسين السيد الذى كان من حظه أن يمكث فى فرنسا مدة ثلاث سنوات . واننى أذكر روايات الزميل على حسن فهمى والزميل السيد يسين السيد عن آثار الهزيمة عليهما ومن كان معهما من المصريين وهم فى بلاد الغربة . وقالا الكثير مما لم نكن نعرف . واننى أذكر عندما جلسنا على « مقهى ريش » وكان معنا آخرون ومنهم الاستاذ الكبير « نجيب محفوظ » وبعض مريديه وكان نجيب محفوظ حريصا على الانصات لكل ماقيل عن الواقعة التى المت بالبلاد ولعله أن استمع لآخرين غير الزميل على حسن فهمى والزميل السيد يسين السيد ، ومن ثم وصل الى النتيجة التى وصل اليها وذكرها فى عبارته المشهورة التى كانت وستظل عبارة بالغة الحكمة :

« تلقى الجيش امرا بالهزيمة فانهزم »

واننى ازعم ان الدكتور خليفة كان يعنى ما يهدف اليه ، فلو انه نال منصب « رئاسة الوزارة » لنظر الى منصب « رئاسة الجمهورية » ليتبوأه . فهو يرى ومعه

كل الحق ان من كان يقابلهم من الوزراء او يجتمع معهم من المسئولين الكبار كانت قدراتهم بالنسبة الى قدراته ضعيفة ضعيفة . فقد كانوا ، وانا اتحدث في ضوء خبراتي عن بعضهم ، لا يملكون حصيلة طيبة من العلم والثقافة . كانوا يتشدقون بالعلم كمجرد لفظ وكانوا لا يستطيعون أن يفرقوا بين « مفهوم العلم » وبين « المفهوم العلمي » . واني لا اتجنى على الدكتور خليفة اذا كنت اراه ، ولا أزال ، يرى أن « السلطة » عنده هي هدف الاهداف . فقد دعيت عندما كنت احضر مؤتمرا في « الكويت في عام ١٩٦٩ » ، الى مائدة طعام اعدها لي ولبعض زملائي بالمركز الاستاذ الدكتور حسن المرصفاوي في بيته وقد كان يشغل منصب « أستاذ » بجامعة الكويت . ودارت الاحاديث في أثناء تناول الطعام . وقالت « سيدة البيت مدام المرصفاوي » عن احدى نبؤات الدكتور خليفة التي تناولت تأكيده على انه لن تمر سنوات ثلاث الا وقد فاز بكرسي الوزارة . ثم تردف هذه السيدة الفاضلة قائلة وقد حدث ماتنبأ به لها ولزوجها وفاز بما أراد في الوقت الذي حدده بالضبط .

ولم يفت ذكاء الدكتور خليفة ان يرتبط دائما بمنظمة الامم المتحدة وبحكومة الولايات المتحدة ، فقد فتح ابواب المركز على مصاريعها لاجراء البحوث لهما . وكان وحده هو الذي يدعى لحضور المؤتمرات وينال شرف « عضوية اللجان » مثل « لجنة حقوق الانسان » وغيرها . ولم يفكر قط في اعداد « صف ثاني » من الزميلات والزملاء العاملين العلميين ليحلوا محله اذا لم تساعده مشاغله على الارتباط بهاتين الهيئتين وغيرهما من الهيئات والحكومات العربية

وقد نجح فى هذا السبيل نجاحا باهرا واصبح ممن يطلق عليهم انه « رجل دولى ».

عرف الزملاء والزميلات الكثير مما ذكرت وربما اكثر مما ذكرت ، ومع ذلك فقد ارتفعنا فوق أمواج اليأس . وقرر الزميل السيد يسن السيد وانا معه ان نعمل عملا من اجل الارتفاع بالمركز الى تحمل مسئولياته واداء رسالته . وكان الدكتور مختار حمزة مدير ادارة التخطيط بوزارة الشئون الاجتماعية منتدبا لادارة المركز يومين فى الاسبوع . وفى ضوء هزيمة عام ١٩٦٧ رأينا ان نواجه هذا المدير الذى كان لا يتقن الا الكلام والمناورات البيروقراطية العقيمة فى ضوء تاريخه العملى فى دواوين الحكومة . وشكلت لجنة فى خلال شهر يناير عام ١٩٦٨ لتعد دراسة عن « تطوير الشئون العلمية بالمركز واعدت هذه الدراسة التى كانت تتضمن المقدمة وموضوع المشكلات النظرية للشئون العلمية بالمركز والمشكلات التطبيقية للشئون العلمية بالمركز فضلا عن بعض المقترحات بشأن تطوير الشئون العلمية بالمركز .

ومرت الشهور تلو الشهور ولم تفعل ادارة المركز شيئا كانت اهتمامات المدير المنتدت فى الاغلب الاعم شخصية فقد كان منذ يوم الاثنين ١٩ من شهر يونيو عام ١٩٦٧ م يرى انه أولى برئاسة مجلس ادارة المركز ، أى بعد ان اختفى شبح الدكتور خليفة بعد هزيمة عام ١٩٦٧ وتوارى خلف جدران منزله. وسعى المدير المنتدت الى تبوء منصب رئيس مجلس الادارة ولكن أعضاء المركز العاملين العلميين كانوا له بالمرصاد . ان هؤلاء الاعضاء وكنت منهم آلوا على انفسهم فى ذلك الحين ان يقابلوا وزير الشئون الاجتماعية

الجديد فى ألعهد الجديد عهد مابعد هزيمة عـام ١٩٦٧ ، وقد رحب هذا الوزير بالمقابلة وكان حديثه مشـجعا وبخاصة عندما وعد بالحضور الى المركز ليناقش معنـا كل ماتبغى مناقشته فيما يتعلق بالنهضة بالمركـز حتى يستطيع أن يؤدى رسالته على الوجه الاكمل . وجـاء « الاستاذ ضياء الدين داود » الوزير المشار أليه وتحدث معنا وتحدثنا معه . كنا نبغى وضع لائحة للمركز يسير على هديها ويعرف كل ذى موقع فيه دوره فى الحاضر ويطمئن على مستقبله .. وكان الحديث طويلا والمناقشـة متشعبة والوعود بالتغيير الى الافضل منهمرة ولكن لم يحدث شىء . وكنت قد عرفت النتائج ومصـيرها من قبل ، وكان العديد من الزملاء العاملين العلميين قـد عرفوا ذلك كذلك . وآليت على نفسى أن أهتم ببعض الدراسات ونشرها فى كتب وكان منها حتى ذلك الحين كتاب « مذكرات يوغسلافية : انطباعات وحقائق وآراء ، عام ١٩٦٤ » وكتاب « من ملامح المجتمع المصرى ألمعاصر ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشـافعى ، ١٩٦٥ » وكتاب « الخلود فى التراث الثقافى المصرى ، ١٩٦٦ » وكتاب « محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة ، ١٩٦٨ » . وجنبا الى جنب أى مع قيامى بتأليف هـذه الكتب لم تنقطع نشاطاتى « بجمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » التى كانت تسير فعلا وحقا فى سـبيل تحقيق رسالتها كمركز للتنمية المحلية فى حى بولاق .
كنت اذهب الى الجمعية مرتين فى الاسبوع ، وقمـت بتجربة انشاء « مركز ثقافى » لاعضاء الجمعية مـن الجنسين ، كانوا يجلسون جنبا الى جنب فى أحد الفصول

وكان البرنامج يتفق مع المستوى العلمى للاعضاء كان منهم الطلبة في المدارس الثانوية وكان منهم الطلبة فى المدارس الاعدادية وكان منهم العمال وكانت منهم ربات البيوت أو اللاتي على وشك أن يكن من ربات البيوت من شابات الجمعية . كان البرنامج نظريا وميدانيا معا وكنت أقوم بتدريس الدروس وبخاصة اللغة الانجليزية وعلوم الرياضة فضلا عن المعلومات العامة وكانت تتضمن التربية الوطنية وقراءة القصص وشرحها فضلا عن المعلومات التاريخية عن مصرنا الخالدة والبلاد الاخرى . وكنت أؤمن فى ذلك الحين ولا ازال انه لو أتيحت الفرصة لهؤلاء الاعضاء وكان معظمهم من شبه الاميين لتيسر لهم الاستيعاب وتمثل كل مايلقى عليهم من حقائق . وقد كانت ضمن البرنامج حصص فى تعليم النسخ على الآلة الكاتبة وكان يشرف على هذا الفرع من البرنامج متخصص فى تعليم النسخ على الالة الكاتبة . وكان هذا الفرع اجباريا وكنا نحيى حفلات السمر فى الجمعية من اغان وازجال وتمثيليات . وكنا وكانت هى أمنيتى نذهب الى المسرح لنشاهد المسرحيات التى تحييها مسارح الدولة وغيرها فى خارج الجمعية . كنت عندما اقترحت هذا النشاط اضع يدى على قلبى ولكن السيدة الزا مديرة الجمعية شجعتنى بتأييدها لى . والمشكلة كانت فى ذلك الحين كيف تذهب العضوات الشابات مع الاعضاءالشبان لقضاء سهرة قد تطول الى مابعد منتصف الليل ، وكان الحل أن تصاحب كل عضوة محرما كأخ او كزوج ، وقد صاحبت آمال ابنتى وتيسير ابنتى والسيدة الزا معنا

الى هذه السهرات الفنية . وكنت أشعر بلون من الافتخار وسيدات الجمعية وشاباتها يأتين معنا وهن لابسات الملاءات السوداوات على حين كانت غيرهن من الاناث الاخريات الحاضرات لمشاهدة المسرحية غير لابسات هذه الملاءات . واننى اذكر اننى كنت وانا عائد مع ابنتى آمال وتيسير الى منزلنا أشعر بالنشوة الثقافية العارمة واتذكر « رفاعة الطهطاوى » و « قاسم امين » واعضاء صالون « مى زيادة » وغيرهم ، وبالحسرة المكتومة كنت أتذكر « امى » التى عاشت بقدر ماعاشت ولم تر « الاراجوز» أو « خيال الظل » أو حتى « صندوق الدنيا » ولكن كان كل مارأت الغناء وبعض ماكانت تتوهمه لونا من ألوان السعادة .

وكان بعض اعضاء المركز العاملين العلميين يرون بعد الهزيمة ان ثورة عام ١٩٥٢ وأن كانت قد قدمت نموذجا ثوريا لديموقراطية الوحدة الوطنية التقدمية فى عصرنا الحاضر وذلك من خلال معارك طرد الاستعمار وتاميم قناة السويس ورد العدوان فى خلال الفترة من عام ١٩٥٥ الى عام ١٩٥٨ ، وان كانت هذه الثورة قد قدمت نموذجيا ثوريا لاقتلاع سلطة الحلف الاستعمارى الاقطاعى الراسمالى وتمهيد الارض لسلطة الشعب العامل - الا انها كانت لا تسلم من العيوب التى مازالت لاصقة بالديمقراطية . فقد كانوا على وعى ، فى ضوء اعلان الثورة بأهدافها الستة ، انها كانت اهدافا عامة اى انها تتسع لمختلف وجهات النظر . فقد كانت تستهدف القضاء على الاستعمار والاقطاع واحتكار راس المال واقامة جيش وطنى وعدالة اجتماعية وديمقراطية . وكانوا

يرون ، بحق ، في ضوء تجاربهم ، ان حركة الحياة الواقعية كثيرا ماتخالف ارادة المصلحين أو الثوار ومثلهم العليا .

وكانوا يرون ، بحق في ضوء ماقامت به ثورة عام ١٩٥٢ وحققته من خلال ثورتها الوطنية بعض خطى الثورة الاجتماعية او انها استطاعت أن تصوغ شكلا من أشكال الديمقراطية الوطنية الثورية ، ومع ذلك فان الفكر الرجعي قد أستطاع أن يسرب مفاهيم كانت تعانى الحركة الثورية من آثارها . ولعل أخطر تلك المفاهيم واكثرها تأثيرا في التطبيق هو مايعرف بـ « تعريف العامل وتعريف الفلاح » . وانه على الرغم من اعتراف الثورة بأن « الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم ، وان اى منهاج آخر لا يستطيع بالقطع ان يحقق التقدم المنشود » ، على الرغم من هذا الاعتراف الواضح نجد أن الاشتراكية التى حاولت الثورة أن تطبقها كانت خليطا بين الاشتراكية والرأسمالية او طريق وسط بينهما . وكنت وهؤلاء الزملاء نرى هذه « البلبلة الفكرية » التى تعمد بعض المسئولين ان يخلطوا بحجة وجود اشتراكيات عديدة ومتنوعة وفقا لتنوع الحضارات والشعوب ، بين الشكل الخاص بكل بلد للانتقال الى الاشتراكية وفقا لظروفه وتقاليد شعبه وبين الاشتراكية نفسها كمبدأ وهدف ونظام لا يختلف فى الاسس العامة باختلاف البلاد . ولم ينس هؤلاء الاعضاء ولم ينس غيرهم عندما مات الزعيم « مصطفى النحاس » فى يوم ٢٤ من شهر اغسطس عام ١٩٦٥ والالاف من اعضاء الشعب المصرى الوفى يقومون بتوديعه الى مقره الاخير فى موكب شعبى جليل ، لم ينس هؤلاء جميعا ما اثارته جنازة الزعيم مصطفى النحاس الشعبية هذه

حفيظة المسئولين . وكان أن قبض على ٢٤ شخصا من الوفديين الذين دفعوا ثمنا غاليا بافتقادهم حريتهم قضوها فى معتقلات القلعة وطرة فى خلال المدة من يوم ٢٥ من شهر اغسطس عام ١٩٦٥ حتى يوم ١٤ من شهر نوفمبر عام ١٩٦٧ .

وكان مصير الدراسة التى قدمتها بعد هزيمة عام ١٩٦٧ واشترك معى الزميل السيد يسن السيد عن « تطوير الشئون العلمية » ان قذف بها المدير المنتدب فى سلة المهملات . وحدث فى ذلك الحين ان استبدل بوزير الشئون الاجتماعية وزير آخر تخرج فى كلية الحقوق وبدت الفرصة مواتية للدكتور أحمد خليفة الذى مكث فى منزله فترة تقرب من عامين لكى يجعل من الوزير الجديد وساطة الى الجهات العليا للعودة الى المركز مجال نشاطه السابق على منصب الوزارة الذى تقلده فى عام ١٩٦٥ . ونجحت الوساطة وعاد الدكتور خليفة باعتباره وزيرا سابقا رئيسا لمجلس ادارة المركز ومديره فى نفس الوقت . عاد وكان المناخ الثقافى الاجتماعى للمركز يمتلىء باشعاعات التمرد بل الثورة على الادارة السابقة فما كان منه ، وكان حصيفا ، الا أن حاول التقصى عن العوامل التى دعت الى ذلك . وكما كانت عودته الى المركز فى يوم ١٧ من شهر فبراير عام ١٩٦٩ معروفة عندما قال وزير الشئون الاجتماعية الجديد « حافظ بدوى » لبعض المقربين له وهو يشير الى حقيبته « أن قرارات عودة الدكتور خليفة هنا » ، كان الدكتور خليفة يعرف كل العوامل التى ادت الى حركة التمرد على الدكتور مختار حمزة المدير المنتدب الذى رجع الى قواعده ، اى الى موقعه

بوزارة الشئون الاجتماعية . وبعد ان مكث الدكتور خليفة فترة يخطط ويدبر رأى ان يجمع من تصورهم القادة لهذه الحركة . وكان كلهم من العاملين العلميين القدامى بالمركز على اختلاف درجاتهم . واستثنى منهم بالضرورة من سافروا الى الخارج فى بعثات علمية او كانوا منتدبين فى بعض الجامعات العربية او ممن تركوا المركز الى الجامعات المصرية بعد حصولهم على درجة الدكتوراه ومن الاخيرين اذكر الزميل الدكتور محمد خيرى . وعقد الدكتور العائد اجتماعات مع الزميلات والزملاء الذين اعتبرهم القادة فى يوم ١٢ من شهر ابريل عام ١٩٦٩ ، بعد ان اصدر « فرمانا » بانهم قد اصبحوا مجلسا للخبراء بتشكيله الجديد . وقد راس الدكتور خليفة رئيس مجلس ادارة المركز هذا الاجتماع . وفى خلال المناقشات استقر الرأى على بعض الامور منها الحاجة الملحة الى سياسة علمية للمركز ووضع خطة تنظيمية لتنفيذها . على ان يبدأ مجلس الخبراء العمل ، فى شكل لجنة لانجاز هذه المهمة وتعرض نتائج دراساته على عدد من المتخصصين فى شكل ندوة فيما بعد . واجتمعت اللجنة فى مساء يوم ٢١ من شهر ابريل عام ١٩٦٩ اول اجتماع لها . واذكر من هؤلاء الاعضاء الزميلة هدى مجاهد والزميلة ناهد صالح والزميل الدكتور محمد عزت حجازى والزميل السيد يسن السيد والزميل على حسن فهمى والزميل صلاح الدين عبد المتعال والزميل الدكتور محسن عبد الحميد الذى كان منتدبا بوزارة الشئون الاجتماعية منذ ان كان الدكتور خليفة وزيرا لها ، وظل منتدبا الى ان نقل الى المركز ليسافر بعد ذلك منتدبا الى السعودية

فى احد معاهد البحوث التابعة لهيئة الامم المتحدة منذ عام ١٩٧١ وحتى كتابة هذه السطور . كان يحضر الدكتور محسن الى اجتماع مجلس الخبراء بتشكيله الجديد متطوعا ولم يكن عضوا دائما فى لجنة وضع « التقرير الاولى » عن السياسة العلمية للمركز ومع ذلك فان الدكتور محسن قدم تقريرا بتصوراته وافكاره فى ضوء خبراته بالمركز منذ انشائه في عام ١٩٥٦ حتى يوم تولى الدكتور خليفة منصب الوزارة فى عام ١٩٦٥ ، اذ كان يعمل طوال تلك المدة بالمركز سكرتيرا فنيا .

واجتمعت اللجنة المنوط بها انجاز المهمة التى كان يرى أعضاء مجلس الخبراء بتشكيله الجديد انجازها وتتضمن الحاجة الملحة الى سياسة علمية للمركز ووضع خطة تنظيمية لتنفيذها اجتماعات اسبوعية ، كان أولها كما ذكرت فى مساء يوم ٢١ من شهر ابريل عام ١٩٦٩ واستمرت بعد ذلك مساء أيام ٢٨ من شهر ابريل عام ١٩٦٩ و ٥ من شهر مايو عام ١٩٦٩ و ١٢ من شهر مايو عام ١٩٦٩ . واجتمعت بالاضافة الى ذلك اجتماعا صباح يوم ١٠ من* شهر مايو عام ١٩٦٩ . وكان الموضوع المعروض على اللجنة التى كنت مقررها هو موضوع السياسة العلمية للمركز ، اما موضوع وضع الخطة التنظيمية لتنفيذ هذه السياسة فقد ارجىء ، بالضرورة، حتى يتم الاتفاق على الموضوع الاول . وقد اسهم الاعضاء فى عرض موضوع السياسة العلمية للمركز ، كما اتيحت لكل واحد منهم الفرصة كاملة للاسهام فى مناقشته . وكان كل عضو يقدم مذكرة مكتوبة تعبر عن وجهة نظره ثم يعرضها فى اجتماع اللجنة ثم يناقشها الدكتور خليفة

وباقى الاعضاء بعد ذلك . وقد اتيحت الفرصة للعضو ان يرد على ملاحظات الاعضاء ان وجدت ، او ان يوضح ماقد يكون قد بدا ، فى أثناءعرض وجهة نظره ، غامضا . وكانت مهمة المقرر ، أى مهمتى ، أن يدون الملاحظات والآراء العديدة التى تبرز فى اثناء المناقشات حتى يستطيع ان يكتب « التقرير الاولى » ملخصا للمادة التى عرضت حول موضوع السياسة العلمية للمركز ، الموضوع الاول ، والملاحظات التى ابداها الاعضاء والاراء التى ذكروها فى ضوء فهمه الموضوعى ؛ وقد سمحت لنفسى وانا اكتب التقرير أن ابرز اوجه الاتفاق بين الاعضاء واوجه الاختلاف بينهم وان ابدى رأيى الخاص فى كل منها . وذلك لان التقرير الذى كلفت بكتابته كان يعتبر تقريرا أوليا قد ييسر فى ضوء مناقشته الموضوعية ، الوصول الى تقرير نهائى يكون أقرب الى وجهة النظر الجماعية للاعضاء .

وانتهت كتابة التقرير الاولى . وعرض هذا التقرير على لجنة اختير أعضاؤها من المتخصصين فى شكل ندوة ، اجتمعوا فى خلال يومى ٥و٦ من شهر يوليو عام ١٩٦٩ م واشترط الدكتور خليفة لكى نحضر أن لانشترك فى المناقشات التى تدور . فكان الاعضاء الذين مع احترامنا لهم جميعا ، قد اتوا من خارج المركز يناقشون تحت رئاسة الدكتور خليفة وحده الامور الجوهرية المتعلقة بالمركز . كان بعضهم يقول قولا حسنا وفى الصميم وكان البعض الاخر لا يقول شيئا . وكان البعض الاخير اذا قال شيئا يقول ما لا صلة له بموضوع الندوة . وكنا نحن أعضاء المركز العاملين العلميين نجلس

حولهم لا نستطيع أن ننبت بنت شفة وقد حز موقفى هذا كما حز هذا الموقف نفس الموقف عند بعض الزملاء ، فى قلوبنا وترك أثرا لم يمح . وقال الجميع أقصد الزميلات والزملاء صامتين أو مسموعين .

« رجعت ريمة لعادتها القديمة »

واكاد اجزم بأن العديد ممن حضروا هذه الندوة من المتخصصين لم يقرأوا التقرير الذى وزع عليهم فى وقت مناسب جدا قبل موعد الندوة . وسجلات المركز تشهد على هذا التقرير . أقصد تشهد على قيمته العلمية وتشهد على جديته كما تشهد على الحماس الذى كان يملأ قلوب الباحثين العلميين بالمركز الذين اشتركوا فى اخراجه الى النور . لقد عقد المركز بعد ذلك مؤتمرات وندوات علمية ولم يرتفع اى مؤتمر ولم ترتفع اية ندوة الى المستوى العلمى الذى وصل اليه التقرير العلمى الذى وضعه الباحثون العلميون : الزميلة هدى مجاهد والزميلة ناهد صالح والزميل الدكتور محمد عزت حجازى والزميل السيد يسن السيد والزميل على حسن فهمى والزميل صلاح الدين عبد المتعال والزميل الدكتور محسن عبد الحميد فى خلال المدة من يوم ٢١ من شهر ابريل عام ١٩٦٩ الى يوم ١٢ من شهر مايو عام ١٩٦٩ . اننى أقرر ذلك وانا اعرف بلا غرور ما اقول . ولكن هؤلاء لعوامل شخصية بحتة تتعلق بذات الدكتور خليفة يجلسون فى مقاعد المتفرجين ويحرمون من الاسهام فى مناقشة السادة الاساتذة المتخصصين الذين دعاهم من خارج المركز ليقولوا كلمتهم فيما فعلوا ولا يترك الدكتور خليفة لهم الفرصة للاسهام فى الرد على مايقولون او لتوضيح ماقد

كان فى كثير من الاحيان يبدو غامضا لديهم . ان هؤلاء جميعا اقصد السادة الذين حضروا ندوة يومى ٥و٦ من شهر يوليو عام ١٩٦٩ قد انتخبهم أعضاء مجلس الخبراء بتشكيله الجديد الذى عمل فى شكل لجنة لانجاز مهمة تتعلق بمستقبل المركز الذى هو مستقبلهم ومستقبل من يأتى بعدهم فهم أصحاب المصالح الحقيقية فى كل هذا النشاط العلمى الذى بذلوه عن طيب خاطر فضلا عن الحض على اخراجه الى حيز الوجود قبل ان يعود الدكتور خليفة رئيسا لمجلس ادارة المركز ومديرا له فى الوقت نفسه وبعد ان عاد وكان مصير التقرير النهائى مصير التقارير السابقة لم يلتفت اليه أحد واصبح بمرور الزمن مجرد ذكرى .

وعلى الرغم من ذلك وماحدث قبل ذلك وماحدث بعد ذلك فى نطاق المركز وفى خارجه ، فاننى كشاهد عيان لنشاطات المركز منذ ان كان « المعهد القومى للبحوث الجنائية » وبعد ان صار « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » اقر واعترف بأن هذه النشاطات وبخاصة ماتعلق منها بالقيام باجراء البحوث والدراسات الاجتماعية قد أكدت مايأتى : –

– ان انشاء المركز فى ضوء ظروف توقيته كان عملا قوميا شجاعا .

– ان المركز قد اضاف دورا اجتماعيا جديدا الى الادوار الاجتماعية التى كانت قائمة فى المجتمع المصرى عند انشائه .

– ان بحوث المركز ودراساته التى قام باجرائها كانت كلها رائدة ، وكانت أيضا قومية واكبت ظروف المجتمع

المصرى الثقافية والاجتماعية بعد ثورة عام ١٩٥٢ وحتى الآن .

ـ ان الحاجة ماسة الى وضع سياسة عامة يعمل فى ضوئها المركز حتى يتيسر التنسيق فى الموضوعات التى يجرى المركز بحوثه ودراساته عليها سواء كانت هذه البحوث والدراسات اجتماعية أو جنائية او نفسية . وقد ظهرت هذه الحاجة جليا فى البحوث والدراسات التى تناولت الموضوعات الريفية والاعلامية والشبابية أو موضوعات المرأة والطفولة .

ـ ان المركز فى ضوء القانون رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ له ابداء الرأى فى مشروعات القوانين الخاصة بالمسائل الاجتماعية والجنائية اى ان راى المركز فى ضوء نتائج البحوث والدراسات التى اجراها كان ومازال استشاريا .

ـ ان المركز قد اشرك العديدين من الخبراء المصريين الاكاديميين وغيرهم فى هيئات البحوث والدراسات التى قام باجرائها .

ـ ان المركز قد كون « كوادر » من الباحثين العلميين من الحقل الاجتماعى سواء كانوا من أعضاء هيئته العلمية او ممن أصبحوا اعضاء فى هيئات التدريس فى الجامعات المصرية والجامعات العربية وغيرهم .

ـ ان المركز قد اتاح الفرصة لتطبيق مناهج البحث العلمى الاجتماعى الجنائى واختبار أدوات جمع البيانات التقليدية ، والتى استحدثها ، فى المجتمع المصرى على تباين بيئاته وقطاعات سكانه .

ـ ان المركز قد رحب بالتعاون مع الوزارات المصرية والهيئات الاجنبية وذلك بتلبية طلباتها الخاصة باجراء البحوث والدراسات عن الموضوعات المقدمة منها . وان كانت الحاجة فى ضوء خبرات المركز السابقة ماسة الى صياغة « دستور أدبى » للعاملين فى ميدان البحوث العلمية الاجتماعية والجنائية ، المواطنين والاجانب ، فى بلادنا ، يحدد مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات ازاء الدولة وازاء المجتمع المصرى ككل .

وفى ضوء ظروف المركز الراهنة ، أى وقت كتابة هذه السطور ، التي أبعدت الكثيرين من الزميلات والزملاء الباحثين العلميين الذين كانوا يعتبرون بحق عمدا صلبة للمركز ـ لا اجد ما أقول الا أن المركز بهم كان يسير قدما احيانا ومتعثرا احيانا أخرى وأنه بغيرهم سيسير حتما قدما احيانا ومتعثرا احيانا اخرى ، وأنه بفضلهم جميعا وبفضل من بقوا فيه من العاملين العلميين والاداريين نشأ دور مهني حديث فرض نفسه على المجتمع المصرى منذ يوم ٤ من شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ عندما استقر بكل من الدكتور خليفة والزميلة آمال عثمان وبى المقام فى مقر « المعهد القومى للبحوث الجنائية » في شارع القصر العالي بجاردن سيتى . واذا كان المركز يسير قدما احيانا ويتعثر احيانا اخرى فان ذلك متوقع لانه فى ضوء رسالته الخطيرة يعتبر مرآة عاكسة لما يدور في المجتمع المصرى من احداث قومية سواء أكانت ثقافية اجتماعية ام اقتصادية أم سياسية . ان العاملين العلميين وغيرهم قد جاءوا من هذا المجتمع وهم اقصد العاملين العلميين

ياخذون من هذا المجتمع عن طريق اجراء بحوثهم ودراساتهم لكى يدرسوا كل او بعض ما يحدث فيه من احداث ، حتى يتمكنوا من الفهم الموضوعى للظواهر والمواقف والعلاقات الاجتماعية فضلا عن انماط سلوك اعضائه وهم يعيشون فى مواقعهم الريفية والحضرية والصحراوية على السواء .

— ٣ —

عندما ذهبت الى المعهد القومى للبحوث الجنائية لاول مرة فى مقره الجديد ، كنت سعيدا جذلان واشعر بالغبطة والامتنان للاستاذ الفاضل المستشار محمد فتحى الذى اشار على بتقديم الطلب الى ادارة المعهد لاشغل احدى وظائفه . وعندما استقر بى المقام فى المعهد وجند من جند من الزميلات والزملاء العاملين العلميين الجنائيين المعينين منهم والذين كانوا منتدبين بعض الوقت واكثرهم كانوا من رجال الشرطة ، أقصد اكثر المنتدبين بعض الوقت فى الفترة المسائية . شعرت توا بأن المناخ الثقـــافى الاجتماعى داخل جدران مقر المعهد غير المناخ الثقافى الاجتماعى خارجها . شعرت بأن معظم أعضاء المعهـــد يمثلون طبقة او فئة خاصة من طبقات المجتمع وفئاته . كانت الطبقة أو الفئة الاعلى . كان الكثيرون منهم يملكون السيارات الخاصة أو كانوا يستخدمون بحكم وظائفهـم السيارات العامة اى سيارات الحكومة . وكنت والبعض من الزميلات والزملاء العاملين العلميين يستخدمون وسائل الانتقالات الاخرى مثل الترام و « الاوتوبيس » ، وكان يشترك معنا جميع الاداريين وكان عددهم قليلا وعمـال المعهد واذكر من الاخيرين عبد الله ومحمد بدر وســعد محمد سعيد وعبد السلام . وكان عبد الله من خـريجى

اصلاحية الاحداث بالجيزة تبرق عيناه بالذكاء وتلمع بالطموح . اما محمد بدر فقد كان عامل مدير المعهد في بيته وقد عينه ليكون العامل الخاص له ينظف مكتبه ويقوم باحضار مايطلبه من اشياء ومن مشروبات له ولضيوفه . اما سعد فقد اختير للتعيين لانه كان يمتهن صناعة الطهو ، وذلك لانه قد يكون مطلوبا اذا مادعا المدير ضيوفا فى منزله فيكون سعد الطباخ الماهر الذى يغنيه عن شراء مأكولات « جاهزة » من خارج المنزل وحتى تتفرغ « ربة الاسرة » بعد زواجه لاستقبال هؤلاء الضيوف .

ولم تمر أيام ووجدتنى فى نظر الاغلبية من العاملين العلميين بالمركز شخصا غريبا . كان يبدو على نوع من الطيبة التى يعتبرها هؤلاء سذاجة . فقد كان العاملون الاداريون وعمال المعهد أصدقائى . وكنت اعامل الآخرين معاملة تلقائية لا نفاق فيها ولا مداهنة . كنت احاول ان ارفع « الكلفة » فيما بيننا . فقد كان فى رأيى ولايزال ان العلم وان رفع مقام صاحبه فأولى بصاحبه أن يتواضع وكان لى فى أساتذتى الكبار صاحب الفضيلة الشيخ محمود خطاب والسيدة الزا ثابت والاستاذ يعقوب فام والبروفسور جون لويس والاستاذ ترى نيومان فضلا عن البروفسور البرت موريس أسوة حسنة . ولكن هذا الاسلوب من المعاملة لم يكن يرضى الصفوة فكانوا يتلذذون بالسخرية منى . فملابسى كانت موضوعا للسخرية ، وحديثى العادى كان أيضا موضوعا للسخرية ، ولم اكن أدرى أى شىء آخر كان موضوعا للسخرية فى ذلك الحين الا أننى لم أكن أعرف شيئا عن « أنبوبة البوتاجاز » الذى

بدا لى ان الجميع يستعملونها فى منازلهم ، وقد عرف أحدهم ذلك أى عرف أننى لا أعرف عندما تحرك سمرها فذكر ذلك لى ولم استجب لملاحظته قطير الخبر . كنت أشعر بنظراتهم ولكنى كنت فى الوقت نفسه أشعر بالحقد الدفين الذى كان يملأ صدور بعضهم عندما نتحدث علما . فقد كان حديثى العلمى على الرغم من النقد المرير الذى لم يكن له أساس والذى كان يوجه اليه ، كان موضع التقدير . وكانوا بعد أن يرفضوا رأيا من آرائى تراهم بعد فترة يرجعون اليه ، بل وكانوا يتبنونه وكأنه كان رأيهم ، وكنت أسعد بذلك السعادة كلها واكرر عبارة « أنا فرحان » ، وهى العبارة التى كان البعض من هؤلاء الصفوة يجعلونها موضوع دعابة فيما بينهم تبلغ فى بعض الاحيان الى مستوى السخرية . وكنت أعرف كل شىء . ولكن كنت فى شغل شاغل عنهم ، كنت انظر الى المستقبل واحاول ان اضرب المثل الطيب لكى تنضج الثمار الطيبة ثمار البحث العلمى الجنائى بخاصة والبحث العلمى الاجتماعى بعامة فى بلدنا الطيب . ومع ذلك فقد كنت تراهم يسعون الى طلب خدماتى ، فيطلب الواحد منهم أن أترجم له مقالا باللغة الانجليزية الى اللغة العربية أو فصلا من كتاب باللغة الانجليزية الى اللغة العربية أو العكس . وكنت أفعل ذلك متطوعا ممتنا . وكان الواحد منهم اذ يذكر اسم « بولين يونج » مؤلفة كتاب « المسوح والبحوث الاجتماعية العلمية » المعروف وكأنه اسم رجل ، أخبره سرا أن من ألف هذا الكتاب سيدة وليس رجلا . واذا تحدثنا عن المحددات التكوينية للشخصية الانسانية ترجم كلمة Constitutional التى تعنى التكوينية

بمعنى « الدستورية » . وكنت لا ارى فى هذا خطأ كبيرا فاللغة الانجليزية او اللغة الفرنسية او اية لغة اجنبية اخرى ليست فى محيط المصريين من امثالنا « لغة الام » .

وانني أرجو أن يتذكر القارىء الكريم دائما انني لا « أقيم » او « أقوم » كما كان يرى ذلك المغفور له « الشيخ محمد ابو زهرة » احدا . فمن انا لافعل ذلك ؟ انني لا اتواضع ولاادعي هذا التواضع ولكنني أقول الصدق انني أقول ماسمعت ومارأيت فى ضوء علاقات اجتماعية دينامية حدثت في نطاق « المعهد القومي للبحوث الجنائية » الذي بعد اعادة تنظيمه اصبح في ضوء القانون رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ « المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية » . ان التاريخ وحده هو خير مقوم . ولعل ماكان يراه مدير المعهد أو مدير المركز لم أكن اراه . لقد اوقع فى الايام الاولى من عمر المعهد عقابا على العامل عبد الله لسبب كان تافها فى نظرى وهو تأخيره عندما أمر لقضاء عمل فى خارج المركز . كان العقاب صارما وذلك لانه وقع قرارا بخصم ١٥ يوما من مرتبه الشهرى الضئيل فى ذلك الوقت . وجاءنى الزميل سمير ناجى غير مؤيد لذلك وانه سيتحدث الى المدير فى هذا الشأن ونسى الزميل لطيبته الشديدة أو لانه لم يكن يعلم قصة الزوج الذى ذبح القطة أمام زوجته وهما يتناولان أول طعام لهما يوم « الدخلة » . قصة شعبية مشهورة لا يعرفها الا من عاش حياتى منذ ان ولدت وحتى لحظة توقيع القرار بخصم ١٥ يوما من العامل عبد الله لانه تأخر . فعاد الى الزميل سمير ناجى بخفى حنين لانه لم يستطع

اقناع المدير الذى كان يمارس سلطاته فى أول عهده بها ، بالغاء القرار أو بتخفيض العقوبة . لم يذكر له المدير الجديد « قصة القطة » المشهورة ولكنه قال فى قالب أدبي رفيع ماتعنى هذه القصة ، قال ذلك فى حقيقة الامر بلغة مايجب أن تكون عليه الادارة الرشيدة كما يراها .

لم يكن الزميل سمير ناجي وحده الذى كان يجيئنى شاكيا او ربما باكيا ليقص على ما لا يؤيده من قرارات تصدرها ادارة المركز ، جاءني في خلال فترة عملى بالمعهد وبعد ذلك بالمركز العديد من الزميلات والزملاء . ومن ثم أطلق على مكتبى « حائط المبكى » أطلقته ادارة المركز وكانت تقهقه . وكنت فى ضوء خبراتى وكبر سنى ، فقد كنت أكبر الجميع سنا ، واعيا بما علمنى أياه أستاذى يعقوب فام وربانى عليه وذلك بأننى كنت أستمع للزميلة أو للزميل بقصد أن تفرغ مافى جعبتها أو يفرغ مافى جعبته . فقد كان أحمد ابنى يكاد أن يكون فى مرحلة أعمارهم . ولكنى كنت أصد كل واشى ، وارفض بشدة ان استمع للدسائس . وأذا كان لدى راى ابديته تاركا لكل شخص ان يتصرف حسب مايريد ويبغى . اننى ل اكن أفرض رايى على احد ، كنت أعاملهم مثل ابنائى تماما دون ماتحيز . ومع ذلك فكم لاقيت الامرين من بعضهم . وبخاصة عندما كان يخيل لهذا البعض أو يتوهم ان أدارة المركز تقف لى بالمرصاد باستعمالها بعض أساليب المعاملة التى قد لا تسرنى ، وكان أقل هذه الاساليب رفض آرائى التى لم اكن اقصد من ورائها ا الخير اي اقصد التغيير الى الاحسن . وفي هذا الصدد أذكر وقد حاولت ان اجعل من اعضاء هيئة المعهد

اسرة متحدة فاقترحت فى ضوء تقرير كتبته تكوين « جمعية ثقافية اجتماعية ترفيهية » تضم جميع الاعضاء. ويبدو انني فعلت ذلك ليس فقط لتحقيق هذا الهدف السامي ولكنى فى ضوء شخصيتى التى كونتها الايام الماضية دفعت دفعا لكى أجعل من اعضاء هيئة المعهد جماعة مرجعية لكل عضو فيها وأنا منهم بالطبع . ورفض الطلب على الرغم من هدفه السامى . وتعلمت منذ ذلك الحين أننى لا انظر الى نفس الاشياء نفس النظرة التى تنظر اليها الادارة . لم احزن كثيرا لرفض الطلب الا لاننى تعودت منذ ان تخرجت لاعمل الاعمال العامة فى «مؤسسة الزفاف الملكى » وفى « مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث » على ان اجعل من كل العاملين اخوة واخوات لى ، وان أجعل من جمعهم اسرتى التى كنت الود بها واسعى لحماية اعضائها الذين كانوا بدورهم يسعون الى حمايتى . ومن ثم وجدت نفسي فى شبه عزلة نفسية . كنا فى المؤسسة وفى المكتب اذا احتاج احدنا الى نقود كونا « جمعية القرض الحسن » توا ولبينا حاجته . وهانذا فى ظروف مالية لم تكن مريحة على الرغم من كبر المرتب والاجر الاضافى الذى أطلق أعضاء المركز العاملين العلميين عليه لفظ « التشحيم » لم اكن استطيع ان ادفع المصاريف الدراسية لكل من احمد وآمال وتيسير ومسعد فقد كان سمير فى معهد داخلى يتناول فيه الطعام ويمنح مايوازى ثمن ملابسه « الميرى » فضلا عن حصوله على مكافأة شهرية تم الاتفاق معه على أن تكون « مصروفه » الشهرى . كان المرتب والاجر الاضافى لا يفى بمصاريف الاسرة التى كنت مسئولا عن اعضائها . وكان يخيل الى

فى ذلك الحين اننى اذ احمل ايرادى الشهرى الى المنزل كأننى احمل « صفيحة ماء » مملوءة . فاذا انا اعطيت ماعندى من نقود أجدنى وكأننى ارمى صفيحة الماء فى صحراء فلا يبين للماء اثر . ومن ثم كنت فى ضوء هذه الظروف اواجه محنة الحاجة الى نقود وبخاصة عندما كان يحل موعد دفع المصاريف الدراسية التى كان على أن أدفعها فى موعدها . ومالبثت أن تجاسرت وطلبت من الزميلة « ليلى تكلا » قرضا أدفعه لها على أقساط شهرية ، فلبت جزاها الله تعالى طلبى فى التو والساعة وكأنها كانت تتوقع هذا الطلب . وظللت أطلب منها القروض كلما دعت الحاجة الى ذلك وادفع لها الاقساط حتى سافرت فى أواخر عام ١٩٥٨ الى الولايات المتحدة لكى تستكمل دراساتها العالية وتحصل على درجة الدكتوراه فى علم الادارة . وقد وقع على سفرها المفاجىء الذى اضطرت لكى تحققه ان تستقيل من المعهد ، وكأنه الصاعقة . تركت الزميلة ليلى المعهد واستقالت لكى تحقق هدفها العلمى وذلك لان ادارة المعهد أبت عليها الموافقة على منحها « اجازة بدون مرتب » .. ولم ينقذنى من « ورطتى » سوى الرجل الفاضل الكريم القائمقام « يسن الرفاعى » الذى قبل عن رضا وطواعية اقراضى ما احتاج اليه من نقود كلما كانت الحاجة الى ذلك ضرورية جدا . وانا اعتبر يسن الرفاعى بالنسبة للمعهد احد العمد الاساسية التى قام عليها . ولا أنسى أبدا عندما ذكرت اسمه امام احد زملائه فى مصلحة السجون فاذا به يصيح قائلا مستهجنا :

« يادكتور .. يسن بك دا عالم .. ياعم دا عالم .. »

اى انه كان يرى أنه لايتسع وقته ليؤدى دوره كضابط كبير في مصلحة السجون ، فهو يقضيه بين عالم كتب « علم العقاب » ، وكأنه كان يرى في ذلك وصمة ! ومن العجيب أن يسن الرفاعى هذا هو نفسه فى مستقبل الايام لم يجد حرجا ليقول لي فى « مدينة استوكهلم » عندما حضر الى مؤتمر منظمة الامم المتحدة فى عام ١٩٦٥ عن « مكافحة الجريمة ومعاملة المجرمين » وكان يصحب الدكتور خليفة الذى أصبح عضوا فى احدى لجان الحزب الاشتراكى التى كان يرأسها الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان عضوا من أعضاء مجلس الامة منذ عام ١٩٦٤ ومتوقعا له أن يحظى بمنصب الوزارة . كان يسن الرفاعى يصحب الدكتور خليفة في الطائرة الى استوكهلم ، حيث كان يعقد المؤتمر المذكور ، وكنت قد ذهبت اليها قبلهما مع جماعة من المهتمين بالجريمة والمجرمين بيوم او يومين لا اذكر . وعندما قابلت يسن الرفاعى وكنا منفردين وجدته يقول لى فى براءة الاطفال ودون ماحرج :

« أنا قلت للدكتور خليفة أن زمان سيد عويس علم أهل السويد اكل الطعمية !!! »

قال لى ذلك وهو يقهقه . وبدا لى أنه كان يحاول تسلية الدكتور خليفة على حسابى . واذا كنت قد احسست بالمهانة فاننى لم احتج عليه ، فقد تبينت لى سخافة العبارة وتذكرت فضل هذا الرجل على عندما كان يقرضنى ما احتاج من نقود لانفق على أسرتى . وقلت لنفسى ولكنى دفعت ما اقترضت ، وفضلا عن ذلك قمت بترجمة ماطلبه منى الى اللغة الانجليزية من دراسات كانت مكتوبة باللغة العربية . وفضلا عن ذلك أيضا استباح

لنفسه أن يأخذ التقرير الذى كتبته « عن البرنامج العلمى لقسم بحوث الجريمة عام ٥٧-١٩٥٨ » بعد قيامى بالاشراف عليه ، وبعد ان نسخ على الآلة الكاتبة من الناسخ ، وكان موظفا اداريا منتدبا كل الوقت للاطلاع عليه قبل أن يكتب هو نفسه التقرير الذى طلبته ادارة المركز منه عن القسم الذى كان يشرف عليه وكان « قسم بحوث العقاب » . لقد استباح لنفسه أن يطلب من « فاروق » « الموظف الادارى » هذا التقرير ولم يستأذن منى . ومع ذلك فاننى مازلت حتى كتابة هذه السطور وبعد كتابتها اكن لهذا الرجل الحب الانسانى والتقدير الكبير ليس فقط لما فعله من مكرمات انسانية لشخصى ومن ثم لاسرتى ولكن ايضا لما فعله من مكرمات علمية للمركز وقام به من أعمال جليلة لدعمه ، وان آثاره اقصد بصماته على شخصيات الزميلات والزملاء الاعضاء العاملين العلميين بالمركز أو الذين تركوه فى مواقع عمل اخرى ، شاهدة على ما أقول .

ان محاولات تسلية الدكتور خليفة على حسابى كانت عديدة ، وكانت تأتى من مصادر عديدة أيضا . كانت بعض هذه المحاولات تظهر أمامى فى الاجتماعات التى كان يعقدها برئاسته ، وكان بعضها لا يظهر امامى ولكنى كنت أعرفه . فالمعهد الى ان اصبح المركز كانت كل علاقاته علاقات الوجه للوجه . وكان مايحدث بين اثنين تسمع عنه فى ألتو واللحظة . وفى ضوء خبراتى العملية فى مصرنا الخالدة وفى الخارج تأكدت أن الواحد منا لايمكن ان يكون محبوبا من الجميع . ان « حزب » الاقلية حاضر دائما فى كل الجماعات . ولكنى فى المعهد وحتى

في المركز بعد ذلك كان أعضاء حزب الاقلية المعادى فى تغير مستمر . فمن كان معك اليوم تجده ضدك غدا ، ومن كان ضدك اليوم تجده معك غداً . ولم تكن محاولات السخرية من الاعضاء وأنا منهم بالضرورة فى كل الاحوال الا مظهرا من مظاهر الشعور بالعداوة . وكنت أمحو هذا الشعور بالعداوة بمواجهة من كان يسخر مني أو حتى من كان يغضب مني . وكانت مواجهتي ناجحة فأنا لا أملك معنويا من الدنيا الا ان أحب الناس كل الناس والا ان احترمهم ، وانا لا املك ماديا من الدنيا الا كتبي التى اقرؤها او اؤلفها . وأصبحت في ضوء الظروف ظروفى لا أرى برجاً مشيداً أحتمي فيه سوى المعهد ثم المركز وسوى « جمعية الخدمات الاجتماعية بحي بولاق » وسوى التدريس في « مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة » وكانت هذه المؤسسات هي مجالاتي التي أنفس فيها عن كروب الحياة بالعطاء للآخرين . قد يكون هذا العطاء خبرة وعلما ، وقد يكون حبا واحتراما ، ولكن لم يكن أبدا عطاء ماديا . ولذلك عندما اهتمت ادارة المركز بوضع الدكتور حسن الساعاتي مشرفا على قسم بحوث الجريمة تأكدت من انه لن يستمر لانني كنت أعلم في ضوء قراءتي لرسالته التي قدمها للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة لندن في عام ١٩٤٦ عن موضوع « جناح الاحداث» والتي وضعها على أحد « الرفوف » بالمعهد لتكون فى متناول من يستطيع قراءتها فقد كانت مكتوبة باللغة الانجليزية ــ عرفت مدى خبرات الرجل فى ميدان الجريمة والجناح . لقد رحبت به مشرفا لقسم بحوث الجريمة لاعمل معه تحت اشرافه . انه حاصل على درجة الدكتوراه

فى علم الاجتماع فى عام ١٩٤٦ وشارك بعد عودته من الخارج السيدة الفاضلة زوجته فى افتتاح « معهد الخدمة الاجتماعية للفتيات » بجاردن سيتى . اما انا فقد حصلت على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا : تخصص علم الجريمة فى عام ١٩٥٦ ولكنى عملت فى ميدان الخدمة الاجتماعية والبحث العلمى الاجتماعى ، ولا ازال ، منذ شهر مايو عام ١٩٣٩ . ولكن الدكتور الساعاتى ترك منصب الاشراف على القسم بعد فترة قصيرة . وعندما اصبح المعهد مركزا للبحوث الاجتماعية والجنائية واستقر مقام العاملين فيه بالمبنى الجديد فى مدينة الاوقاف ، جاء الدكتور الساعاتى مستشارا للمركز « بعض آلوقت » ، وأسند اليه الاشراف على « بحث اسوان » الذى كنت قدمت تقريرا عن ضرورة اجرائه الى ادارة المركز فى يوم ٢٣ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٩ عنوآنه :

« مشروع دراسة اجتماعية لمنطقة أسوان : دواعى أجراء الدراسة وطبيعتها »

وكان يتضمن هذا التقرير مايلى :.

- ٢ -

مشروع دراسة اجتماعية لمنطقة أسوان « دواعى اجراء الدراسة وطبيعتها »

١ - أن المجتمعات - كل المجتمعات - لاتثبت على حال بل تحدث فيها تغيرات مختلفة مستمرة ذات سرعة متباينة . وتتوقف هذه السرعة عادة على طرق استغلال الموارد الطبيعية وحاجيات المجتمع نفسه وتقدم العلوم والاكتشافات ، أو سرعة انتشار العناصر الثقافية من مجتمع الى آخر ، ودرجة تقبل المجتمعات لهذه العناصر الجديدة .

٢ - ومجتمع منطقة أسوان - فى الوقت الحاضر - فى طريقه الى التغير . وذلك نتيجة لاستغلال موارد المنطقة الطبيعية ، عن طريق توليد الكهرباء وصناعة السماد واستخراج خامات الحديد والفوسفات وانشاء السد العالى ، فضلا عما يستتبع ذلك من انتشار لبعض العناصر الثقافية الجديدة فيه . ولاشك انه سيترتب على كل ذلك بعض الآثار الاجتماعية فى مجتمع منطقة أسوان .

٣ - وهذه الآثار الاجتماعية ستؤدى حتما الى بعض التغيرات فى البنيان الاجتماعى والوظائف الاجتماعية

لمجتمع منطقة أسوان . وهذا مايعبر عنه بظاهرة التغير الاجتماعى .

٤ ـ ومن اهم مظاهر ظاهرة التغير الاجتماعى النمو السكانى وما يصاحب ذلك من التغير النوعى للسكان ، وتقدم تطبيق العلوم وارتفاع المستوى التكنولوجى ، ويضاف الى ذلك مظهر تراكم او ازدياد العناصر الثقافية .

٥ ـ ويصاحب ظاهرة التغير الاجتماعى حتما ظاهرة اخرى يعبر عنها بظاهرة الانحلال الاجتماعى .

٦ ـ ومن اهم مظاهر ظاهرة الانحلال الاجتماعى وجود تناقض أو صراع بين المعايير الثقافية فى المجتمع ، وضعف سلطان القواعد او المعايير السلوكية فيه ، فضلا عن عدم وجود تعاريف عامة متفق عليها للمواقف الاجتماعية المختلفة ، وظهور مايعبر عنه بالتخلف الثقافى ، وظهور تصدع فى وسائل التفاهم بين أعضاء المجتمع ، وكذلك تصدع فى الجماعات .

٧ ـ ويجب أن نحذر من الخلط بين العملية العامة لظاهرة الانحلال الاجتماعى وبين أعراضها . ومن هذه الاعراض الجريمة والجناح والطلاق ..

٨ ـ وقد استرعى انتباه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية مايحدث الآن فى منطقة أسوان ، من تغير اجتماعى سريع ومايتوقع ان يصاحبه من انحلال اجتماعى وقد لفتت هذه السرعة نظر المسئولين على المركز . واوجب هذا التفكير فى مواجهة هذه السرعة فى التغير والعمل على الوصول الى تحويل هذا التغير الى تطور سليم واستقرار نسبى . فضلا عن انتهاز الفرصة

والقيام بدراسة ظاهرتى التغير الاجتماعى والانحــلال الاجتماعى فى نطاق المجتمع فى الاقليم المصرى .

وهذا يتفق مع اغراض المركز وهى النهوض بالبحوث العلمية التى تتناول المسائل الاجتماعية المتصلة بسـائر مقومات المجتمع العربى والمشاكل التى يعانيها لوضــع الاسس اللازمة لسياسة اجتماعية وقائية وعلاجيــة وجزائية تتفق واحوال البلاد .

٢٣–١٢–١٩٥٩ م　　　　　　د . سيد عويس

ولم يكتب التقرير السابق من فراغ ، فقد تمت زيارة الى منطقة أسوان من قبل فى خلال الفترة من يوم ١٦ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٩ الى يوم ١٨ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٩ . وفكرة القيام باجراء هذا البحث استمدت من بحوث اجريت على « منطقة ديترويت » بالولايات المتحدة كانت وثائقها ضمن ما املك من كتب ووثائق ، وقد قامت باجراء بحوث منطقة ديترويت « جامعــة شيكاجو » وأصدرت نتائج هذه البحوث فى اعوام ١٩٥٢ و ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ . وكان الهــدف من هــذه البحوث التعرف على بعض الملامح الاجتماعية لمنطقــة ديترويت من حيث السمات الاساسية لسكانها ونشاطاتهم فى محيط الكنائس والمنظمات الاجتماعية والاندية فضلاً عن نشاطاتهم السياسية وحياتهم العــادية والاسر التى تضمها المنطقة وانواعها ومستويات دخولها ووجــود اجهزة « التليفزيون » ضمن اثاث البيت من عدمه ، واهم الاتجاهات الاجتماعية فى محيط السكان واســاليب الاهتمام بتربية الاطفال . وبالاضافة الى كل ذلك كانت هذه البحوث تهتم بالعمالة والهجرة ومصادرها ، كمـا

ركزت على العلاقات القرابية فى محيط السكان وغيرها من الحقائق الاجتماعية . وقد قام بالزيارة المشار اليها الدكتور خليفة وصحبنى معه .. وكانت لهذه الصحبة آثار طيبة ، فعن طريقها ارتفعت اسهمى امام العاملين بالمركز سواء أكانوا علميين ام اداريين ام عمالا ! وقد دونت نتائج الزيارة فى تقرير يتضمن مايلى : ـ

تقرير عن الزيارة الاستطلاعية لمنطقة أسوان

فى خلال المدة من ١٦-١٢-١٩٥٩ - ١٨-١٢-١٩٥٩

١ - اهداف الزيارة :

كان لزيارة منطقة أسوان فى الوقت الحالى هدفان :
الاول : بعض الملاحظات على المنطقة « على الطبيعة » .
الثاني : انشاء علاقات مهنية مع المسئولين عن المنطقة.
وقد نجحت الزيارة اذ حققت هذين الهدفين .

٢ - بعض الملاحظات على المنطقة على الطبيعة :

لقد قمنا بزيارة منطقة السد العالى ، فى جولة فى نهر النيل ، ولاحظنا بعض الجماعات تعيش فى جزائر ، كما رأينا مشروع شركة كيما ومشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان . وقد جبنا فى أحياء بندر أسوان فى الأحياء القديمة وفى الأحياء الجديدة . ولاحظنا الاهتمام بتوسيع بعض الشوارع فى البندر .

وقد علمنا أن عدد سكان بندر اسوان يبلغ نحو ٢٥٠٠٠ نسمة . وهم خليط من النوبيين والجعافرة والعبابدة وبعض أهالى الصعيد وبعض الاجانب . ونسبة المسيحيين تبلغ نحو عشرة فى المائة .

ومعظم العمال فى المشروعات القائمة ان لم يكن كلهم من اهالى الصعيد الوافدين الى المنطقة للعمل عن طريق بعض المقاولين . ولا يقوم اهالى المنطقة بالعمل فى هذه المشروعات ويقال أن السبب فى ذلك أن اهالى المنطقة لا يميلون الى العمل العنيف وهم يفضلون - وخصوصا

الذكور منهم ــ أعمال السفرجي والبواب والحدامين على غيرها من الاعمال .

ويلاحظ أن السكان المسيحيين يعملون فى بعض الصناعات الفنية مثل صناعة الترزية واعمال الكهرباء والراديو ، ويعملون كذلك فى التجارة .

وقد أخبرنا بأن معظم أهالى المنطقة يحافظون على اساليب معينة من الحياة فهم ذوو عصبية وهم لايتزوجون من خارج أسرهم « المتعلمون منهم وغير المتعلمين » والذكور يعملون في خارج المنطقة في القاهرة او الاسكندرية مثلا في اعمال السفرجية والبوابين ويتركون نساءهم من ورائهم . وهم يعيشون على الكفاف ويرسلون مايزيد على حاجاتهم الى أهليهم باستمرار .

وقد علمنا أن سكان المنطقة من النوبيين يتحدثون ببعض انواع من اللغات غير العربية « فادجة . ماتوكي » . وهم يحرصون على الابقاء على هذه اللغات حية بينهم . ومع النوبيين يعيش السكان الاصليون وهم من الجعافرة والعبابدة ويتكلمون اللغة العربية فقط .

ويقبل أهالى المنطقة على التعليم ، ولكن النوبيين منهم يجدون صعوبة ، حيث أنهم لا يبدأون تعلم اللغة العربية الا عند بدء التحاقهم بالمدرسة لاول مرة .

وببندر أسوان مدارس اعدادية وثانوية وصناعية للجنسين . وقد بدأ شبان المنطقة يلتحقون بالمدارس الصناعية ، ويفضلونها على الالتحاق بالجامعة . ويتوقع في القريب ان يكون خريجو المدارس الصناعية النواة الاولى للعمال المهرة من أهالى المنطقة . ويلاحظ ان الاهالى

من النوبيين قد بدأوا فى تعليم البنات وذلك لكى يكن اهلا للزواج من الذكور المتعلمين منهم .

وقد علمنا أن بندر أسوان مقسم الى ثمانى شياخات لكل شياخة شيخ مسئول كما هو المتبع فى المدن الاخرى .

اما سكان الجزائر ، فيقال انهم يسكنون جزيرتين . وتوجد فى كل جزيرة مائة بيت . ومعظمهم من النساء والاطفال والرجال كبار السن . ويشرف على هاتين الجزيرتين عمدة .

والعمال الذين يفدون الى أسوان فى الوقت الحاضر يعيشون فى خيام ، ولا يوجد نظام خاص ينظم هجرتهم . فهم يتركون وشأنهم فى يد المقاولين . ومكتب العمال يتدخل فقط اذا مانشب نزاع يتعلق بالعمل او شروطه .

وعدد الجمعيات فى بندر أسوان قليل جدا . والحركة العمالية فى المنطقة ضعيفة وليس لها تنظيم حتى الان . وقد لاحظنا وجود نقابة لعمال الحديد والصلب .

اما جرائم المنطقة فهى قليلة نسبيا . وانواعها غير عنيفة . واكثرها عدداً جرائم هتك العرض ضد الذكور . ويلاحظ أن بعض الاهالى يدمنون شرب الخمر والحقن بحقن « السيكونال » . وهذه الحقن تهرب وتباع عن غير طريق الصيدليات . واذا ضبط تهريبها تقيد الواقعة جنحة . وقد علمنا أن بعض جرائم السرقة قد بدأت تكثر منذ وفود العمال من خارج منطقة أسوان .

وعلى الرغم من وجود عصبيات فى المنطقة ، فان ظاهرة الاخذ بالثأر ليس لها وجود . ويقال ان من عوامل عدم وجودها ان الاهالى لا يعملون فى الزراعة . ومن ثم لاتوجد أراضى تكون محل نزاع بينهم .

ويسود منطقة أسوان فى الوقت الحاضر غلاء اسعار السلع الضرورية مثل اللحوم والخضار وغيرها وذلك لكثرة الطلب « بازدياد عدد الوافدين على المنطقة من الموظفين والعمال وغيرهم » وقلة العرض .

ولم يتيسر لنا الحصول على خريطة منطقة أسوان .

ومن حيث المعلومات التاريخية عن المنطقة أشير علينا بالرجوع الى السيد الدكتور احمد بدوى . مدير جامعة عين شمس .

٣ ـ انشاء علاقات مهنية مع المسئولين عن المنطقة :

لقد نجحت الزيارة فى انشاء علاقات مهنية مع السيد المشرف على مشروع السد العالى والسيد مدير أسوان والسيد حكمدارها والسيد ضابط مباحث السكة الحديد وقد تفضل الجميع بابداء استعدادهم للتعاون مع المركز وموظفيه . من حيث امدادهم بالمعلومات الاساسية ، ومن حيث الاستفادة من استراحات الحكومة .

٤ ـ كلمة ختامية :

ومهما يكن فانه من الصعب الوصول الى صورة حقيقية ـ عن طريق زيارة استطلاعية قصيرة المدى ـ عن منطقة كمنطقة أسوان . فالحياة الاجتماعية فى هذه المنطقة فى الوقت الحاضر معقدة . وستكون بعد زمن قليل اكثر تعقيدا . فهى تتضمن أنواعا كثيرة من الناس ومن المؤسسات الاجتماعية ومن الجماعات كما تتضمن مدى واسعا من أوجه النشاط الانسانى المتخلفة . ولا يمكن ان يجدى فى ابراز كل ذلك التحليل البسيط أو انطباعاتنا الشخصية .

واذا كان هدفنا هو تصوير السمات الاجتماعية

المنطقة فان خير وسيلة هى تطبيق الاساليب الحديثة المستخدمة في العلوم الاجتماعية . ولايمكن تحقيق ذلك الا بالعمل المتقن المستمر على مدى معين من السنين .

د . سيد عويس

٢١-١٢-١٩٥٩

وقد قمت بالاشتراك مع الزميل مكرم سمعان والزميل سمير الجنزورى والزميل حسن الكاشف بوضع أطار العمل الميدانى فى منطقة اسوان . وقد انتهزنا فرصة قيام الدولة بالتعداد العام عام ١٩٦٠ ونجحنا فى نسخ اسماء وعناوين اقامة الاسر التى تسكن بندر أسوان وكل مايتعلق باتاحة الفرصة المواتية للقيام بالبحث الميدانى. وقد اشرفت على عمليات البحث الميدانى وكان الزميل مكرم سمعان الذى سافر مع الزميلين سمير الجنزورى وحسن الكاشف الى أسوان هو المشرف المحلى للعمل الميدانى . لقد قمت بمساعدة الزملاء الثلاثة بوضع صحيفة لجمع البيانات الضرورية وكانت تتضمن عددا بيانات التعداد العادية بيانات اجتماعية واقتصادية رأينا فى ضوء اهداف البحث انها غاية فى الاهمية . كنا نحاول ان نتعرف على الاعمار من سنة فاقل الى أكثر من ٦٥ سنة . .وكانت سن السابعة وسن الثامنة عشرة وسن الحادية والعشرين محل اهتمام البحث ، كما كانت علاقة الزوج بالزوجة القرابية . وغيرها مثل وجود « تليفون » او « سخان » أو « بوتاجاز » أو (جهاز راديو » او « ثلاجة » او وجود « مياه جارية من عدمه » و « نوع موارد المياه وصرفها » .. الخ وكلها حقائق

اجتماعية لم يكن التعداد العام يأبه لها او يهتم بها . وقد اشترك معنا الاستاذ محمود السيد الخبير الاخصائى ليس فقط فى اعداد صحيفة جمع البيانات ولكن أيضا فى الاشراف على التفريغ اليدوى لما جمع من بيانات . كنا اقصد الزملاء وانا نخطط على أساس أن يعاد البحث مرة ثانية وثالثة .. كل عشر سنوات لكى نرصد ظاهرة التغير الاجتماعي المقصود فى المنطقة موضوع الدراسة . ومن ثم يمكننا أن نسهم فى التراث الاجتماعى اسهاما فعالا . وقد كان يبدو لنا أن الدكتور الساعاتى مسرورا لمجرد انه كان يحضر اجتماعا اقصد يرأس اجتماعا مرة فى كل اسبوع او فى كل اسبوعين . وقمنا بكل خطوات الاطار الذى اتفقنا عليه ووضعت متعمدا البيانات المجموعة مجدولة بين يدى الدكتور الساعاتى ليكتب التقرير النهائى باعتباره المشرف عليه أقصد على هذا البحث . وقد مرت السنون تلو السنين ولم يكتب هذا التقرير حتى كتابة هذه السطور . وذلك لان الدكتور الساعاتى تقاعس عن كتابته وعندما تطوعت للقيام بهذه المسئولية فى خلال شهر اتفرغ فيه لكتابة هذا التقرير رفض الدكتور خليفة دون ان يبدى سببا ! واذا كانت ادارة المركز قد شجعت أجراء هذا البحث الخطير وصرفت الاموال بسخاء وسمحت للعاملين العلميين بالمركز بالوقت الكافى ، واذا كانت هذه الادارة لم تحظ بالثمرة المرجوة ، فان العاملين العلميين بالمركز قد افادوا افادة علمية لاتقدر بثمن . صحيح أن وجود التقرير النهائى لبحث منطقة أسوان بين يدى ادارة المركز كان أمرا ضروريا ومتوقعا . ولكن الدكتور الساعاتى وكان يعلم دوره بعد أن اصبح المركز مركزا

للبحوث الاجتماعية والجنائية لم يكن يتوقع أبدا أن توجه ادارة المركز اليه لوما . فوجوده مجرد وجوده عند هذه الادارة كان أمرا مرغوبا فيه . ولتصرف الاموال بسخاء ، وليسمح للعاملين العلميين بالوقت الكافى ، وليبق التقرير النهائى لبحث خطير كبحث منطقة أسوان فى الظلام أبد الدهر . كل ذلك لا يهم أحدا . أما أنا فقد كان موقفى غريبا حقا ، فقد أصبح المركز من حيث بنائه الاجتماعى متباينا . كان بعد الشقة بين العاملين العلميين وبين المدير فى المعهد لا يكاد أن يوجد . فقد كان يقابل كل واحد منهم فى مكتبه وقد كان كل عامل علمى يرغب فى مقابلته لا يستأذن احدا . أما الحال فى المركز فقد صار بعد الشقة اميالا . واصبح المدير لايرى أحدا الا باذن تتحكم فى تحديده « سكرتيرته » التى أصبحت بحكم هذا المنصب التافه محط الانظار التى تتقن التملق كما كانت موضوع تجلة المنافقين والمنافقات . واصبح المركز يتيح فرصة القربى من المسئولين لكل من يقول أو يتقول على أحد من أعضائه . وانا اذكر بهذه المناسبة فرصتين أو موقفين ظهر هذا التملق وهذا النفاق واضحين . كان ذلك عندما كان الدكتور خليفة يزور منطقة اسوان توطئة للقيام باجراء « بحث منطقة أسوان » . كان هذا الرجل كريما معى فلم يدعنى فى المرات التى كنا نجلس فيها على « مقهى أو كازينو » ادفع فلسا . كان يعيش فى فندق فخم وربما كان افخم الفنادق فى بندر أسوان فى ذلك الحين ، وكنت أعيش فى فندق آخر مريح . لان الناس مقامات . وكان يجد فى الاستمتاع بعيدا عنى أمرا مطلوبا ، ومع ذلك فقد كان يدعونى مرة وربما أكثر من

مرة يوميا لنتعاطى مشروبا . وانني أذكر أنه فاجأني وكنا اقصد أللجنة التى كانت تفحص كتب علم الجريمة وما يتصل بهذا العلم قد انتهينا من نقد كتابه « أصول علم الاجرام الاجتماعى » وكان قد تسلم تقرير اللجنة عن هذا النقد قبل السفر الى أسوان بأيام . فاجأنى بأنه سعيد بالتقرير فهو تقرير جاد ، وبكل سذاجة او طيبة المصرى ، وهذا هو اللفظ المناسب ، شكرت له تقريظه وذكرت بحق بأن هذا التقرير كان نتاج عمل جماعى ولم يكن لي الشرف وحدي في اعداده . وبعد إن تمت الزيارة وعدنا الى قواعدنا بالمركز صدر أمر ادارة المركز الى أعضائه العلميين بالاجتماع تحت رئاسة الدكتور خليفة . وتحدثنا فى نقاط « جدول الاعمال » وقبل أن تنتهى الجلسة وكانت الساعة قد قاربت وقت موعد الانصراف ، قام الدكتور خليفة صاحب الكتاب أقصد المؤلف فينا خطيبا وقال بانه تسلم تقرير اللجنة المنوط بها دراسة الكتب المؤلفة فى علم الجريمة ومايتصل به ونقدها ، وهو يرى انه تقرير كتبه اناس « يتلذذون بالنقد اللاذع لاعمال غيرهم تلذذ آكلى لحوم البشر مع العلم بأنه لايوجد فيهم من عانى القيام بتأليف كتاب » . وهذا كان كلامه بالنص وان كان قد قال عبارة « آكلى لحوم البشر » باللغة الانجليزية . ثم رفع الجلسة توا . وذهب الاعضاء كل الى حال سبيله . لم أحدث أحدا ولم يحدثنى احد من أعضاء المركز العاملين العلميين اعضاء اللجنة او غيرهم . ولا اعلم اذا كان من حسن الحظ او من سوء الحظ ان قررت الادارة عقد اجتماع تال فى اليوم التالى مباشرة . وعندما افتتحت الجلسة طلبت الكلمة للتعليق على ماقاله المدير فى نهاية

جلسة اليوم السابق فأبى ان يعطينى الكلمة ولكنى تكلمت وقلت ماكان على ان اقوله أمام الجميع وكنت اهدف الى وضع التقاليد العلمية التى تأبى على أى عالم ان تكون كلمته هى الكلمة الاخيرة فى مجال تخصصه . قلت وكان الجميع يسمعون وينصتون وكأن على رءوسهم الطير . اننى كنت اتوقع من الدكتور المدير ان يسعد فان اعضاء اللجنة قد كدوا وتعبوا من اجل العلم لكى يتضح . وقد رجع كل واحد منهم الى المراجع الاجنبية والعربية التى رجع المؤلف اليها « الذى كان هو نفسه » ومن ثم فتعبير « النقد اللاذع » وتعبير التلذذ بهذا النقد « تلذذ آكلى لحوم البشر » تعبيران ليس لهما موضوع . ان اعضاء اللجنة يستحقون الشكر الجزيل والثناء العاطر ولا يستحقون اللوم . فما كان منه الا ان قال « مدعيا » انه ليس عالما ثم « ساخرا » واننا نحن العلماء وماهو الا شخص يؤدى دور « الديدبان » لكى يحافظ على امن وامان المركز ومن ثم ييسر لنا مسئولياتنا العلمية . وانتهى الاجتماع بعد ان تمت مناقشة نقاط جدول الاعمال . وخرج الجميع وخرجت معهم كل الى حال سبيله . وذهبت الى مكتبى وانتظرت ان يأتى الى احد من أعضاء المركز العلميين فلم يأت احد . ومكثت اربعة ايام كذلك ، فاذا باحد الزملاء يدخل على فى مكتبى وكانت علاقته ب « السكرتارية الفنية » بالمركز التى كان يراسها الزميل الدكتور محسن عبد الحميد ، فى ذلك الحين ، علاقة وثيقة بترت بمرور الايام وصروف الازمان . فاذا بهذا الزميل الذى حمدت له ان « تكرم » وزارنى يقول لى ما مؤداه أن المدير « راجل طيب » ولو كان مديرا غيره وقيل له فى اجتماع عام ماقلته لكان قد أمر بنقلى خارج

القاهرة فورا . ولم ارد عليه فقد كان كلامه سخيفا كلام مراهق لا يرى اكثر من انفه ولا يمكن أن يدرك ماكنت أقصده . فأنا شخص قد وهبت نفسي للبحث العلمى الاجتماعى واذا ما اتيحت لى الفرصة فى مجال التدريس أو فى مجال ممارسة الخدمة الاجتماعية كما كنت أفعل فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وفى جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق ، وذلك بقصد التغيير الى الافضل ، فعلت ذلك عن طيب خاطر .

وكان الموقف الآخر الذى ظهر هذا التملق وهـذا النفاق واضحين فيه ، هو موقفى عندما رشح الدكتور خليفة لخوض انتخابات عام ١٩٦٤ ، وانا اذ اقول عندما رشح فانا اقصد ذلك تماما ، وذلك لانه قد اعترض على عدد كبير من المرشحين ، وكانت أداة الاعتراض هى الاتحاد الاشتراكى . اننى كنت غير موافق على خوض الدكتور خليفة معركة الانتخابات . ولكن رأيي شيء وما كان يراه الدكتور خليفة شيئا آخر . ولم اكن أملك لاسلطة ولا سلطانا بالطبع فى تغيير رأيه . ومن ثم فقد جند جميع أعضاء المركز العاملين العلميين وغير العلميين من أداريين وعمال عاديين لخوض معركة الانتخابات مع الدكتور خليفة كانت « الدائرة » التى رشح ليمثلها دائرة « قسم امبابة » وهى منطقة تجمع بين الريف والحضر أو مايشبه الحضر . ورسمت الخطط لكى يعمل فى ضوئها كل عامل مـن العاملين بالمركز . وقد كان العبء الاكبر فى العمل فى هذه المعركة واقعا على كتف العمال العاديين وبعض الاداريين وانا اذكر منهم على وجه التحديد الحاج غندور والاخ عمر مصطفى . وكان الاول باعتباره من ابناء البلد الاصـلاء

حقا وباعتباره شخصا على وعى سياسي طيب يقـــود الجماعة التى وجهت الى القرى ، أما الاخ عمر فقد كان نصيبه ان أختنق صوته من الهتاف الذي لقنه . كـان هذا الهتاف انواعا ولكنها كانت كلها تهدف الى ابراز مآثر الدكتور خليفة اذا ما اسعد الاهالى « اصحاب الاصوات» الحظ بانتخابه وذلك باعطائه أصواتهم الانتخابية . وقد كان لي دور أيضا فى هذه المعركة فى الجزء الحضرى أو مايشبه الحضرى ، وكان أصحاب السيارات من الزملاء لهم دور كذلك ومنهم كان الزميل احمد الالفى والزميل سمير الجنزورى . اما الزملاء رجال الشرطة فقد كانت ادوارهم عديدة وحاسمة . اصبح المركز فى خلال فترة معركة الانتخابات هذه وكانه مركز خاص للمرشح الدكتور خليفة . لم يكن يؤدى دورا علميا واحداً فى خلال هـذه الفترة . وقد تمردت على نفسي وشعرت بانني باشتراكي مع الاخرين وكان اشتراكا محـــدودا قد ارتكبت خطأ بليغا . فذكرت ذلك لاحدى الزميلات فاذا بها تقول ماقلته لها سرا لسكرتيرة المدير أو ربما للمدير نفسه لا أدرى .
فاذا بالسكرتيرة تبلغنى فى اليوم التالى مبـــاشرة بأن الدكتور خليفة يعفيني من الاشتراك فى المعركة اذا كانت هذه رغبتى . وأنا قلت ماقلت للزميلة ولم يكن ممنـــا احد ، وبعد خمس عشرة سنة أعترفت لى بعد أن اجابت عن سؤالى عن هذه الواقعة وهى تبدى الاسف الشديد قائلة أن الحياة بالمركز قد علمتها الغث من الثمين ، وانها الان عندما سألتها غير ماكانت عندما أسررت لها برايي فى اشتراك جميع العاملين بالمركز فى معركة شخصـــية لا تمت الى أهداف المركز العلمية ورسالته بصلة .

ومن الحوادث التى مرت بى بالمعهد ثم بالمركز ماحدث لقانون انشائه من تغيير . فقد تغير القانون دون ان يعرف احد مرتين . كان القانون الاول يقتدى بالكادر المالى لمجلس الدولة ، وكان قانونا عادلا حقا فهو كان يشترط الخبرة الحقة في اجراء البحوث العلمية الاجتماعية وطول مدتها أكثر مما كان يشترط الحصول على درجة جامعية وكلنا يعلم عددا كبيرا من العلماء النابهين الذين لم يحصلوا على درجات علمية عليا كدرجة « الماجستير » او درجة « الدكتوراه » . ولكن ذلك القانون تغير وتغير كادره المالى واصبح يشترط اى هذا الكادر الحصول على درجات علمية . وكان الحصول على هذه الدرجات لا يتأتى عادة الا عن طريق احدى الجامعات المصرية. وكنانطالب بالتنسيق بين المركز والجامعة ليس فقط بشأن منح الدرجات العلمية العليا ولكن أيضا بشأن تطوير برنامج التعليم فى العلوم الاجتماعية فى الجامعة لتتناسب مع حاجات البحوث العلمية الاجتماعية ، فضلا عن بعض الامور الاخرى ومنها تبادل الخبراء بشكل منظم بين الجامعة والمركز ، وذلك بانشاء نظام التفرغ للبحث العلمى لمدة محدودة كي يتاح للاستاذ الجامعى أن يتحرر من قيود التدريس بالجامعة ويكرس كل مجهوده للبحث العلمى الخلاق فى مشكلة من مشكلات البحث . وكذلك باتاحة الفرصة للباحثين العلميين بالمركز للتدريس بالجامعة على هدى ماوصلوا اليه من نتائج البحوث التى يقومون بها ، ومنها أيضا اعتراف الجامعة بالدبلومات او الدرجات العلمية التي يمنحها المركز لمدربيه . وقد كان تحقيق كل ذلك وغيره ضروريا بعد صدور قرار رئيس الجمهورية

العربية المتحدة بالقانون رقم ٧٩ لسنة ١٩٦٢ وكذلك بقراره رقم ١٢٣٩ لسنة ١٩٦٢ ، حيث اعتبر الكادر المالى لمراكز البحوث مثله مثل الكادر المالى للجامعات . كنت فى ذلك الحين اشغل وظيفة « خبير » بالمركز وكـان مربوطها اكبر من مربوط « المدرس الجـامعى » وكنت احصل على مرتب يزيد على الحد الاعلى لمربوط المـدرس الجامعى . مع ملاحظة أنه بدأ تعيينى بالمعهد فى وظيفة « خبير مساعد » التى صارت « باحث أول » بعد تعديل القانون دون مساس بمربوط الدرجة . وكان هذا التعيين فى هذه الدرجة مجحفا حقا ولكنى قبلته للحاجة الملحـة فى ضوء الظروف التى كنت أواجهها عند التعيين . كان يجب ان أعين فى درجة « خبير » ليس فقط لاننى كنت الوحيد بين اعضاء المركز العاملين العلميين الذين كـانوا يعملون كل الوقت الحاصل على درجة الدكتوراه ، ولكن لانه كانت من ورائى اطول خبرة فى المجالات التطبيقية التى يعمل فيها المعهد ـ وعينت فى درجة « خبير » بعد مرور ثلاث سنوات فى الوقت الذى عندما حصل الدكتور خليفة على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٥٩ صدر قـرار وزارى بتعيينه فى درجة « مستشار » وهى أعلى درجة فى الكادر المالى لقانون المركز المعدل وتعتبر فى الـكادر الجامعى درجة « أستاذ » ، أما درجة خبير فقد كانت تعتبر درجة « مدرس » . وكان من حظ الدكتور خليفة أنه عندما حدث التفكير فى التنسيق بين كادرى مراكز البحوث والجامعة ، كانت قد مرت على تعيينه فى درجة مستشار مدة سنتين أو تكاد ! ومن ثم سـعى الدكتـور خليفة سعيه الحثيث الى ارجاء اصدار قرارى التنسيق

حتى يستكمل المدة القانونية لكى يصبح بعد ذلك توا
أستاذا جامعيا . اما انا فقد أصبحت « مدرسا جامعيا »
على ان ابقى اتقاضى مرتبى الذى كان أكبر من نهاية
مربوط درجة المدرس الجامعى دون ما زيادة او نقصان
حتى تتم ترقيتى الى درجة « خبير أول » اى « أستاذ
مساعد جامعى » . وحدثت هذه الترقية فعلا بعد مرور
تسع سنوات من حصولى على درجة الدكتوراه ، فى
الوقت الذى كانت قد مرت على حصول الدكتور خليفة
أقصد الاستاذ الدكتور أحمد محمد خليفة سنتان على
حصوله على هذه الدرجة . وكان تأثير ذلك وبسبب عدم
وجود درجات مالية أصبحت ترقيتى الى درجة
« مستشار » أى « استاذ جامعى » بعد سبع سنوات
من حصولى على درجة خبير اول . أى اننى حصلت
على درجة « مستشار » بعد مرور ستة عشر عاما على
حصولى على درجة الدكتوراه .

ولعل من واجبى أن أذكر اقتراح المدير عندما كنا
لا نزال نعمل بالمعهد القومى للبحوث الجنائية . كان
الاقتراح فى أحد اجتماعات لجنة كبار المسئولين عن المعهد
فى ذلك الحين . وكانوا كما ذكرت من قبل الدكتور
الساعاتى والقائمقام يسن الرفاعى والبكباشى محمود
السباعى وكاتب هذه السطور . كان الباحثون العلميون
العاملون بالمعهد يقولون عنها « لجنة الخسة » أحيانا .
وعندما حضر « منديس » الاسترالى بلجنته لكى يفاوض
الرئيس جمال عبد الناصر ، تمويها بشأن موضوع تأميم
قناة السويس ، سماها الباحثون « لجنة منديس » مداعبة
منهم اكثر منها سخرية . وكان ذلك فى غضون شهر

اكتوبر عام ١٩٥٦ . وكان المدير يرأس هذه اللجنـــة وكان فى كل مرة يسعدنى بما يبدى من آراء او اقتراحات فى معظم الاحيان . وكان اقتراح اصدار مجلة جنائيـة عن المعهد من هذه الاقتراحات وذكر الموضوع وتركه لكل واحد من الحاضرين للتفكير فيه . وما لبثنا ان سمعنا ان وزارة الداخلية بعد فترة قد أصدرت عنها مجـلـة « الامن العام » ، وقد طلب منى ان اكتب مقـالا فى العدد الاول الذى صدر فى شهر يناير عام ١٩٥٨ ، ومن الصدف الحسنة اننى كتبت مقالا اخر فى العدد رقم مائة الذى صدر فى شهر يناير عام ١٩٨٣ . وكنت انشر المقالات كلما كان يطلب منى ذلك حتى جاء يوم أصـدر فيه المدير « فرمانا » بعدم التعاون مع مجلة الامـــن العام . لقد تغيرت الظروف واصـبحت غير الظروف وسبحان مغير الاحوال . فصدور هذا الفرمان كان وقعه سيئا ليس فى نفسى فحسب بل فى نفس كل من كان يسهم من الزميلات والزملاء فى كتـابة مقـالات لهذه المجلة . والملاحظ أن الفرمان المشار اليه لم يكن ليصدر ابدا قبل صدوره . فالزمن عند الدكتور خليفة كفيل باصلاح الإخطاء ورد اية صفعة صفعات . ولكن اهم عندى « المجلة الجنائية القومية » عندما أصدرها المعهد فى شهر مارس عام ١٩٥٨ واستمر المركز يصدرها حتى كتابة هذه السطور . كان صدور هذه المجلة فرصـــة ذهبية لرئيس التحرير اقصد المدير الذى كان يفعل كل مايريد ويرغب . كانت وسيلة من وسائل جذب أصحاب السلطة من العلماء او غيرهم فى ذلك الحين . وكانت وسيلة للوقوف امام الطموح العلمى الشريف الذى يصدر

عن أى عضو من الاعضاء العاملين العلميين التابهين . كان يكتب أحدهم دراسة علمية قيمة فيبتلعها الاهمال لان الذى كتبها مازال حديث السن . ولعله أن صبر سنوات ان تفسح له المجلة صدرها . وكنت أقف فى سـبيل هذا العنت بالمرصاد . فالعبرة عندى كانت ولاتزال بقيمة الدراسة العلمية وليس بكبر سن كاتبها أو صغره . وكنت ارى ان الباحث الذى يثبت جدارته فى الكتابة العلمية أولى بالتشجيع والترحيب من غيره الذين يشغلون مناصب عالية اعلى . وقد آليت على نفسى أن لا اطلب من رئاسة التحرير فى المجلة الجنائية القومية ومـر بعدها « المجلة الاجتماعية القومية » التى صدرت فى شهر يناير عام ١٩٦٢ نشر أية دراسة لى . فاذا ماطلبت رئاسة التحرير لاى منهما منى هذه الدراسة قدمتها . وا اذكر ان الدكتور خليفة ، وكان يستعد لنشر العدد الثانى من المجلد الاول من المجلة الجنائية القومية ، جاء الى مكتبى ومعه كتاب قام بتأليفه « الدكتور زكريا ابراهيم » ، وكان هذا الكتاب او الكتيب عبارة عن مقالات عن الجريمة والمجرمين . وتساءل الدكتور خليفة عما اذا كنت قرأت هذا الكتاب ، ولم اكن قد قرأته او اعرف عنه شيئا ، ثم طلب منى قراءته وكتابة دراسة نقدية عنه وصفها بأن تكون دراسة أملؤها « بالمسامير » « وكان هذا تعبيره » حتى اذا ماسار عليها تدمى قدميه . ولم انصت الى هذا الطلب ابدا ، وقرأت الكتاب مرة ومرة ووجدت انه مملوء بالاخطاء التى تدل على أن من كتب مضمونه غير متخصص فى علم الجريمة . كان ذلك الكتاب او الكتيب عبارة عن مقالات الصق بعضها ببعض . وكان مضمونها

لا يأتي بجديد فضلا عما به من هفوات . وكتبت الدراسة النقدية في ثماني صفحات من « قطع الفولسـكاب » وقدمتها الى رئيس التحرير الذي بعد أن قرأها طلب اختصارها أو الأذن باختصارها لكي تكون في ثلاث صفحات فقط . وفضلت أن أقوم باختصار الدراسة بنفسي عندما لم يقتنع بغير ذلك . فالدراسة كانت دراسة موضوعية بمعنى الكلمة وكنت قد اعتبرتها دون ماغرور نموذجا كنت أرجو أن يحتذى ، وقمت بعملية اختصار الدراسة وعانيت من ذلك عناء كبيرا كان رئيس التحرير يهدف الى تحقيقه مافي ذلك من شك .

وانني أذكر انه عندما اهتم المعهد في بدء حياته بتدريب باحثيه العلميين الجدد ، اختارت ادارة المركز أساتذة من خارج المعهد ، بل اهتمت بندب احد الاساتذة من « النمسا » هو « رولاند جرا سبرجر » ثم أحد الاساتذة من « ايطاليا » هو « بتينو ديتيليو » ، واذا كان الاول يعرف اللغة الانجليزية وكانت وحتى الآن اللغة السائدة بين العاملين العلميين القدامى والجدد ، فان الثاني كان يحاضر باللغة الفرنسية التي لايعرفها عادة من هؤلاء العاملين الا القليل . وقد بح صوتي لدعوة « البروفسور البرت موريس » أستاذي بجامعة بوستن ليكون أيضا استاذا زائرا فلم يكن لهذا الصوت صدى . وكان اول المحاضرين . وكان الوحيد من داخل المركز ، مدير المركز . كانت محاضرته والحق يقال قيمة وأن كان الجميع كان يعرف الكثير عن مضمونها . وانا أقول ذلك لانني وجميع العاملين العلميين بالمركز كانوا قد تشرفوا بالحضور لسماعها . وقد دعتني ادارة المركز لاكون

المرجم للإستاذ الزائر من النمسا . وانني اذكر له انني عرفت منه امورا لا باس بها عن الجرائم العادية وبعض عواملها في المجتمع النمسوي وبخاصة « جرائم المحارم » أقصد الجرائم الجنسية التي ترتكب بين المحارم وبخاصة بين الاب الذي يكون عادة في سن الخمسين وابنته التي تكون عادة في سن الثامنة عشرة في غيبة امها التي تكون عادة منهمكة في جمع المحصول في فصل الصيف ليلا تاركة وراءها المنزل ، بلا رقيب ، يعربد الشيطان فيه ماشاء له أن يعربد ويوسوس في صدر كل من الاب والابنة ماشاء له أن يوسوس . واعاد في محاضراته ، الكثير لي كنت اعرفه عن علم الجريمة وبخاصة ماتعلق بالجرائم غير المنظورة وغيرها . أما ديتيليو الاستاذ الايطالي الزائر فقد كانت لي معه محادثات وكان الزميل محمد خيري يترجم أسئلتي من اللغة العربية الى اللغة الفرنسية التي كان يتقنها « الموجهة للاستاذ الزائر » كما كان ينقل الاجابات عنها . وكان اختلافنا كبيرا . كان الاستاذ الزائر يرى ان الوراثة تلعب دورها الاكبر في ارتكاب الجرائم وكنت ارى أن العوامل الثقافية الاجتماعية والاقتصادية تؤدي الى ارتكاب الجرائم وكنت لا ارى وجود عوامل اكبر او عوامل أصغر . وكنت ايضا لا اغمط دور الوراثة حقها فيما يتعلق بلون البشرة والعينين وشكل الشعر .. الخ اقصد الوراثة التكوينية فالزنوج في امريكا للون بشرتهم هم مواطنون من الدرجة الثانية ويعاملون في المجتمع الامريكي أسوأ معاملة ، ومن ثم تنتشر فيهم البطالة وتنهش فيهم الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية السيئة نهشا . كنت ارى ان

عوامل ارتكاب الجرائم عوامل دينامية . ومن ثم فالطفل في ضوء هذه الظروف السيئة قد لايجد القنوات الصحية السوية التي تيسر له الذكاء الصحي السوي أو التي تبعده عن الامراض الجسمية والنفسية والعقلية . ولكن ديتيليو كان يرى ان كل انسان في ضوء طبيعته لديه استعداد لارتكاب الجريمة . وكنت أضرب له المثل بالورق الذي كان امامي فأقول اذا سلمنا جدلا بأن هـذا الورق في ضوء طبيعته لديه استعداد لكي يحترق فانه لن يحترق الا اذا وجد الاكسجين الكافي في الحجرة ودرجة من الرطوبة معينة فضلا عن يد تشعل ثقابا ثم تقربه من الورق فيشتعل ، اى ان عدم وجود كل هذه العوامل وغيرها مما لا اعرفه لا يمكن الورق الذى أمامي من ان يحترق ، ووجود هذه العوامل كلها دون تفضيل أهمية عامل على آخر ، اى وجودها في حالة دينامية . نتوقع حدوث حريق الورق . ولكن ديتيليو لم يقتنع بآرائي ، وبآرائه لم اقتنع أنا ايضا . واتضح لي ان ادارة المركز اذ تقاعست عن احضار البروفسور موريس أستاذا زائرا ، وان تكليفي لكي اكون مجرد مترجم لاستاذ نمسوي زائر ، وانها لم تطلب مني القاء محاضرة في الموضوع الذي وهبت حياتي له منذ عشرين عاما حتى ذلك الوقت ، وانها على العكس طلبت مني ومن زملائي وزميلاتي الذين لم يتخرجوا في كليات حقوق حضور محاضرات في قانون العقوبات — كل ذلك كان مقصودا ومحاولة للتقليل من شأني . وأنى للادارة أن تفعل ذلك . لقد فشلت في تحقيق هذا المأرب فشلا ذريعا . فقد رحبت بحضور المحاضرات في قانون العقوبات التي كان

يلقيها « المستشار محمد ابراهيم اسماعيل » وكنت أجلس جنبا الى جنب مع زميلاتي وزملائي ونستمع لهذا الرجل العالم . فانا للعلم مهما كان مصدره خادما ولدعوته ملبيا ولن يضيرني ان اتعلم من المهد الى اللحد . وقد فعلت ذلك ولا ازال حتى كتابة هذه السطور .

وكان من حظ بعض الزملاء السفر الى الخارج . سافروا على « منح » لمدة ستة شهور أو لمدة سنة . وانني أذكر من هؤلاء الزملاء الزميل محمد عزت حجازي الذي سافر الى الولايات المتحدة في غضون شهر يوليو عام ١٩٦٢ . كان من حظه ان يسافر على منحة قصيرة المدى ولكنه جددها بجده وأجتهاده لكي يحصل على درجة الدكتوراه . وفعلا نجح في الحصول على موافقة المسئولين على « اجازة دراسية للحصول على مؤهل » الامر الذي يسر لزوجته الزميلة « يلدز » أمينة المكتبة لكي ترافقه . انه سافر في خلال شهر يوليو عام ١٩٦٢ . وعندما حان الحين سارعت الزميلة الى الحصول على الموافقة على مرافقته . كان ذلك في خلال شهر سبتمبر عام ١٩٦٤ . وانني اذكر انني سعدت بهذا الخبر سعادة كبيرة ، ولكن ادارة المركز وقفت لها بالمرصاد فقد أستعدت الزميلة ورتبت أمتعتها في الحقائب وانتظرت وانتظرت ، ولم تكن تعرف لهذا الانتظار سببا واحدا كنت أسألها متى يتحدد موعد السفر فكانت عيناها تسح بالدموع المنهمرة وتبدي عجزها عن الرد . فهي لا تعرف لان الادارة لم تصرح بعد . وكم عانيت من اجلها فبعد ان كانت الابواب أمامها مفتوحة على مصراعيها كادت أو خيل اليها والى أنها ستغلق . ان الانسان منا كبشر من حق

بمجتمعه عليه أن ييسر له تكوين الاسرة السوية . والمركز اذ يمثل هذا المجتمع فى ضوء نتائج بحوثه العديدة يؤكد ذلك علميا ، فلماذا تقف الادارة هذا الموقف ياترى ؟ هكذا كنت اتساءل وكنت أعرف الاجابة عن هذا التساؤل ولم اكن وجدى يعرف هذه الاجابة بل كان كل الزميلات والزملاء يعرفون . فالعام كان عام ١٩٦٤ اى العام الذى كانت ترتفع فيه هامات الادارة فى شخص الدكتور خليفة رويدا رويدا الى ماكان يصبو اليه : عضوية مجلس الامة ثم الوزارة ثم .. ثم .. ولكن ماطار طير وارتفع الا كما طار وقع . وبعد ان ذرفت الزميلة يلدز الدموع الكافية وافقت الادارة على السفر . وعاد الزميل محمد عزت حجازى حاصلا على درجة الدكتوراه وعادت الزميلة يلدز تحمل معه الخبرات الرفيعة . وقد تركا من ورائهما الذكرى العطرة فى محيط الاساتذة والطالبات والطلبة والاصدقاء وكسبت مصرنا الخالدة من وراء ذلك الكثير الكثير ، وكسب العلم الاجتماعى فى ضوء البحوث والدراسات التى ضمنتها الكتب أو المجلات العلمية الاجنبية والمحلية مايتوج صاحبها الزميل محمد عزت حجازى بالعزة والفخار . واننى اذ أومن بانه لاشىء مطلق اذكر ان للدكتور خليفة ايادى بيضاء على العديدين . فالمعهد القومى للبحوث الجنائية الذى تطور وأصبح المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية كان كل منهما مسرح حياته . فكان يعطى من يشاء ويمنع العطاء عمن يشاء . كنت آخذ واعمل فى ضوء أهدافى ومبادئى من أجل رفعة مكانة مهنة البحث العلمى الاجتماعى فى حدود طاقاتى المحدودة ، فاجد المكافاة المادية الشهرية

« التشحيم » اقل من المكافآت التى يحصل عليها غيرى من الزميلات والزملاء الذين يعملون تحت اشرافى فأهز الكتفين ولا ابالي . وعندما دخلت المستشفى لاجراء احدى العمليات الجراحية وجدتنى « امنح » مالا لم اكن اتوقعه جاءنى به الزميل « صبحى حبيب » وكنت راقدا على سريرى . وعندما اضطررت الى طلب أجازة مرضية بعد اجراء العملية لم ير المدير حكمة فى هذا الطلب . ومنحنى الاجازة المطلوبة دون ان اقوم باجراءات طلبها . كان شهما مافى ذلك من شك . هذا مارأيت فى ذلك الحين ، ولكن بعض الزميلات والزملاء كانوا يرون وجهة نظر اخرى .

وقد كانت كتبى ومذكراتى وحتى رسالة الماجستير والدكتوراه تحت امر الزميلات والزملاء . واننى اذكر ان الزميلة « صفية قاسم » قد طلبت منى نسخة من رسالة الماجستير فاحضرتها اليها فى اليوم التالى . ومرت الايام ولم أتذكر هذه الواقعة الا بعد شهور ، وعندما طلبتها منها قالت وقسمات وجهها تتحلى ببراءة الاطفال انها اعطتها للزميلة « ليلى تكلا » التى كانت فى ذلك الحين فى الولايات المتحدة ! لقد كانت الزميلة صفية أذكى من احدهم الذى صاح فى وجهى عندما طالبته بارجاع كتابى « حقائق من الارقام طبعة ١٩٥٤ » تأليف « م . ج . موورونى » ، قائلا انه رده الى ، ولا يعلم حقيقة ذلك الا الله جل وعلا . وقد سعدت بشراء نسخة من هذا الكتاب القيم عندما سافرت الى لندن عام ١٩٦٩ . وقد ذكرت ماحدث بينى وبين الزميلة صفية للدكتور المدير وكانت دهشتى كبيرة جدا عندما وجدته يقهقه ضاحكا شامتا

ساخرا فى آن واحد . كان من حسن حظى أن لدى نسخة اخرى من الرسالة ، وكان من سوء حظ الزميلة صفية « التى هاجرت الى الولايات المتحدة واصبحت مواطنة امريكية » ان كذبتها الزميلة ليلى تكلا . ومع ذلك فهى أى الزميلة صفية مازالت تصر على اعطاء نسخة رسالة الماجستير الى الزميلة ليلى كلما زارت القاهرة واقابلها سائلا عن هذه النسخة . وكانت قهقهة الدكتور المدير الشامتة الساخرة صدمة لى ، فانا ادعو الى تثبيت مبادىء « آداب » مهنة البحث العلمى الاجتماعى وممارستها ، وكلنا يجب أن ندعو الى ذلك ويجب ان يكون على رأس القائمة المسئول الاول عن المركز . وكان من اثر هذه الصدمة اننى لم اذكر لهذا المسئول شيئا مما فعله بعض الزملاء والزميلات فى الكتب والتقارير العلمية التى اقرضتها اليهم أو اخذوها من وراء ظهرى وبخاصة تقارير الاجتماعات الدولية التى حضرتها فى مدينة « كوبنهاجن » وفى مدينة « استوكهلم » عام ١٩٦٥ . اخذت هذه التقارير من العامل المسئول عن نظافة حجرتى بالمركز نظير دراهم معدودة ، وتجاسر الزميل الذى فعل ذلك بالقول بأنه لم يفعل محتميا وراء ان العامل المذكور لم يكن موجودا بالمركز حيث كان يقضى مدة التجنيد لمدة ثلاث سنوات . اما الزميل الذى اخذ منى « دستور يوغسلافيا » باللغة الانجليزية الذى اشتريته فى خلال وجودى فى مدينة « بلجراد » فى خلال الفترة من شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ ــ الى شهر فبراير عام ١٩٦٤ ــ فهو لم يرده حتى كتابة هذه

السطور اى بعد مرور ٩ : عاما ولعل ضميره ان يستيقظ ويرده الى .

واذا كان عنوان هذا الفصل هو : « ظواهر ومــواقف وعلاقات اجتماعية جديدة » فان مضمونه لن ينفد اذا انا سجلت هذه الظواهر والمواقف والعلاقات الاجتماعية الجديدة . وانا اذا تركت للقلم العنــان لملأت مئــات الصفحات التى تعكس مضمونا هو بدوره كان يعــكس الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية التى كانت تسود مجتمعنا منذ ان بدأت مهنة « البحث العلمى الاجتماعى الجنائى » فيه حتى يوم ١٥ من شهر اكتوبر عام ١٩٧٠ « يوم ولاية الرئيس أنور السادات » . كانت ظاهرة « اللامعيارية » سائدة فى ذلك المجتمع فى خلال هذه الفترة . وكان الاعضاء العاملون العلميــون وغيرهم فى المعهد القومى للبحوث الجنائية ثم فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بعد ذلك يواجهون العواصف التى خلقت هذه الظاهرة . ومــات الرئيس جمال عبد الناصر وبدأ عهد جديد بولاية أنور السادات . واصبح الاخير فى يوم وليلة ملء السمع والبصر ولكن ادارة المركز فى شخص رئيس مجلس ادارتها « الوزير السابق » لم يجد الاهتمام الكافى بشخصه الـكريم . فرأى ان يوطد مراكزه ليس فى المركز فحسب بل أيضا فى الهيئات الدولية ، ان طاقات هذا الرجل كما رأى بحق أو بغير حق اكبر بكثير من أن تستنفد فى المركز ، أى ان تستنفد فى توطيد دعائمه اى توطيد دعائم مهنة البحث العلمى الاجتماعى الجنائى فى مصر . لقــد كان وزيرا يوما ما ، وكان المركز كما كان يقول وهو وزير

مجرد « مطبخ للوزارة » . انه لم يكن يرى المجتمع المصرى القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة لا عن عجز منه ولكن لانه كان لايريد ان يراه ، أنه كان يريد ان يرى امورا اخرى . وقد رأى عندما لم يكن من نصيبه ان يكون احد الوزراء بعد ان توطدت دعائم كرسى رئاسة الجمهورية للرئيس السادات فى يوم ١٥ من شهر مايو عام ١٩٧١ ، ان يقبع فى مكانه مترقبا . ومن ثم وجد فى الوقت متسعا لكى يسعى سعيه الاكيد لينشىء « المركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعيـــة » . ويعتبر هذا المركز هيئة تشرف عليه « منظمةاليونسكو» اى هيئة دولية كادرها المالى كادر دولى ! واصبح هـذا المركز مستقلا عن مركز « الحكومة المصرية » وان افاد منه ومن بعض اعضائه العلميين العاملين وبعض الاعضاء العلميين من خارجه . احتل المركز الجديد دورا من أدوار المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية هـــو الدور الرابع ، وقد بنى خصيصا واثث اثاثا فاخرا واصــبحت له ذاتية خاصة وان لم تكن له مكانة خاصة . كـــان المركز الجديد ولايزال قناة دعاية ذاتية للمسئول عنه . ومن ذلك رأينا نحن العاملين العلميين فى المركز القـديم فى يوم ٢٤ من شهر ديسمبر عام ١٩٧٨ عجبا . كـان يوم الافتتاح الرسمى دعت ادارة المركز الجديد كبـار المسئولين من نواب مجلس الوزراء والوزراء وغـــيرهم وعيرهم . وصكت « ميدالية ذهبية » وعدد محــدود من « الميداليات الفضية » لتوزع على الحاضرين من المدعوين ولم تدع الادارة احدا من العاملين العلميين فى المركـز القديم ، بل لقد ابلغ الجميع وكنت منهم أن لا يبرحوا

مكاتبهم لاى سبب من الاسباب ، ونبه عليهم ان اغلاق ابواب هذه المكاتب وهم فى داخلها يكون افضل . وبدات حفلة الافتتاح ، ودوت « زغاريد » بعض السيدات اللائى يعملن فى الاعمال الادارية فى المركز القديم ، وعندما سمعت هذه الزغاريد علمت أنها دوت لان حفلة الافتتاح للمركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية لم تكن تحت أشراف المسئول عن هيئة اليونسكو الدولية بل كانت تحت اشراف « السيدة جيهان السادات » . وفى سبيل المآرب الشخصية الفانية تستباح قداسة العلم ويهال عليها تراب نعال الجاهلات . وكان حضور السيدة جيهان فى هذه المناسبة وسيلة لكى تتقرب ادارة المركز الجديد الى قمة السلطة والهيلمان فى مصر فى ذلك الحين . اكثر من سبع سنوات مرت والادارة فى شخص مديرها تترقب الفرصة تلو الفرصة ، واذا ماحانت هذه الفرصة انتهزتها . ولكن كما يقول القول المأثور :

« انت تريد وانا اريد والله يفعل مايريد »

اغتيل الرئيس السادات فى يوم ٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٨١ عندما حانت الثمرة لكى تقتطف بعد ان عين الدكتور خليفة بحكم مركزه فى مجلس « خبراء رئيس الجمهورية » برئاسة المهندس / سيد مرعى . ولكن الطاقة التى لم تتبدد فى الافادة من الفرص التى تقرب الى قمة السلطة والهيلمان فى مصر مازالت حامية الوطيس تدبر من اجل الوصول . فاذا كانت الظروف لم تكن مواتية فى المركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية أو فى مجلس خبراء رئيس الجمهورية

فان مرور خمسة وعشرين عاما على انشاء المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية آت فى خلال شهر مارس عام ١٩٨٢ . ولتكن فرصة هذا « اليوبيل الفضى » احدى الفرص من اجل بلوغ المراد ولعلها أن تكون فرصة مواتية . واقيم الاحتفال فى خلال ايام ٧ - ١٠ من شهر مارس عام ١٩٨٢ وحضر المسئولون من كبار رجال الدولة وغيرهم ، ووزعت الاوسمة التى سلمتها الدكتورة آمال عثمان « بنت المركز » بالنيابة عن رئيس الجمهورية محمد حسنى مبارك . فتسلم الدكتور خليفة « وسام الجمهورية من الدرجة الاولى » وتسلمت « وسام الجمهورية من الدرجة الثانية » وتسلم كل من الزميل الدكتور زكريا الدروى والزميل الدكتور عماد الدين سلطان وسام « العلوم والفنون من الدرجة الاولى » .

وفى خلال أيام الاحتفال باليوبيل الفضى وفى يوم ٨ من شهر مارس على وجه التحديد أقيمت ندوة دعي اليها ٢١ شخصا اعتبرتهم أدارة المركز قمما فى حياة مصر الثقافية . وهى ندوة كما جاء فى خطاب الدعوة محدودة لنخبة من المفكرين تعقد ليوم واحد فى موضوع جدير بهذه الصفوة المحبة لمصر هو « دور الفكر فى مصر المعاصرة » . وقد لبى الدعوة من السادة المدعوين ١٢ شخصا فقط كان من بينهم الدكتور أحمد خليفة والاستاذ الكبير توفيق الحكيم والمهندس حسن فتحى والدكتور حسين فوزى والفنان الكبير صلاح طاهر والمستشار طارق البشرى والزميل على حسن فهمى والزميل الدكتور محمد خيرى والدكتور محمد شكرى

عياد والدكتورة نعمات فؤاد والاستاذ الكبير يحيى حقى وكاتب هذه السطور .

وقد سجل كل مادار فى الندوة على شريط « فيديو » وكان كل مادار فى هذه الندوة عبارة عن آراء وأفكار ووجهات نظر تدور كلها حول مصرنا الخالدة ومصيرها . وكان مكان انعقاد الندوة مكتب الاستاذ الكبير توفيق الحكيم بدار جريدة الاهرام . وعندما أناب الدكتور خليفة نفسه لكى يقدم لسيادة رئيس الجمهورية الشكر والامتنان باسمه واسم من حصل على أوسمة من أعضاء المركز « القديم » ، طرح لسيادته موضوع عقد مؤتمر يتحدث فيه المتخصصون فى موضوع مصير مصرنا الخالدة ، واخذ أسم « مؤتمر مصر الغد » وسرعان ماانتشر خبر هذا المؤتمر وذاع فى جميع البقاع . واصبح المركز يستقبل الصحفيين ورجال الاعلام الآخرين وغير هؤلاء من رجال الفكر والسياسة على اختلاف مشاربهم وآرائهم . كان يستقبلهم بالضرورة الدكتور خليفة ومعه حصيلة طيبة من الاراء ومن الأفكار ومن وجهات النظر التى سجلت على شريط الفيديو فى ندوة جريدة الاهرام المشار اليها ، والتى كان من المتوقع أن تتكرر مع تغيير الأشخاص المدعويين او بعضهم والاستبدال بهم آخرون . ولكن هذه الندوة لم تتكرر وربما انها لن تتكرر . والمعلوم لدى المقربين للدكتور خليفة والذين مارسوا معاملته انه عودهم على انه يستطيع عن وعي ولباقة أن يعى مايقوله هو نفسه أو يقوله غيره من آراء ومن أفكار ومن وجهات نظر ولعله ان يكون أقدر الجميع على عرض هذه الاراء والافكار ووجهات النظر ، وأن يكون أقدر أيضاً على كسب

انصات السامع اليها وثقته . ولكن لم يتركه الاخرون من الذين لا يرون سبيله الى تحقيق الاهداف أو من الذين ينافسونه وربما يحقدون عليه . كانوا من المسئولين الكبار فبدأ الصراع العنيف حتى قتل مشروع اقامة « مؤتمر مصر الغد » غيلة وغدرا . وكان الرجل يقول لاصفيائه او الذين كان يتوهم انهم له أصـــفياء مبررا تصرفاته .

« انه يخوض الوحل ليبنى الجسور »

وكان يترك لمن يستمع لهذا القول تفسيرمعنى«ألوحل» ومعنى « بناء الجسور » ثم تراه يقول لهؤلاء الاصفياء ، والقدر يقهقه ملء شدقيه .

« ادعوا لى ان مايدونيش وظيفة تنفيذية »

- ٤ -
رب ضارة نافعة

منذ ان بلغت سن الثامنة والعشرين قد اتيحت لى الفرصة لكى أقوم بعملية التدريس . كنا فى عام ١٩٤١ عندما عهدت الى عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعيـــة بالقاهرة لاقوم بالقاء بعض المحاضرات على طالبات المدرسة وطلبتها فى ضوء خبراتى الاكاديمية والعملية منـــذ ان عملت كأخصائى اجتماعى محترف فى خلال شهر مايو عام ١٩٣٩ . وكنت فى خلال هذه الفترة أكتب المقالات التى كانت تنشر على صفحات الجرائد فى ذلك الحين . وقد اشتركت فى مسابقة فى عام ١٩٤٢ والتى أعدتها « جمعية الاصلاح الاجتماعى » الذى كان يراسها « محمد العشماوى باشا » عن موضوع اجتماعى وفزت بالجائزة الاولى فى هذه المسابقة . وكانت سعادتى ، كما أذكـر الان ، لا تقدر عندما استلمت « شيك الجائزة » ، وكنت أكثر سعادة عندما نشر موضوع الدراسة عن الموضوع الاجتماعى الذى اشتركت فيه فى المسابقة فى « مجلة جمعية الاصلاح الاجتماعى » . وانني أذكر ان مضمون هذا الموضوع كان يتعلق بموضوع معاملة الاحـــــداث الجانحين . وكنت أسميهم فى ذلك الوقت بـ «الاحداث المحرومين » . وحتى بعد أن سافرت الى المملكة المتحدة فى عام ١٩٤٨ لادرس نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم ،

وحتى بعد ان سافرت الى المملكة المتحدة فى عام ١٩٤٨ اكتفيت بأن اكتب المقالات وان اعد المحاضرات واعد التقارير العلمية الدورية ، ولم يكن يدور بخلدى ان اتجاسر واؤلف الكتب ! كنت أهاب القيام بتأليف كتاب فى الموضوع الذى تخصصت فيه كانت حصيلتى عنه الاكاديمية العملية حصيلة كافية . كنت أقول لزميلاتى وزملائى الذين كانوا يلحون على بتاليف الكتب ، انني لن افعل ذلك الا بعد أن أبلغ سن الاربعين حتى أشعر ببلوغ سن الرشد الفكرى فتكون لدى القدرة على العطاء ، ويكفينى ان اتدرب على الكتابة العلمية فيما انا شاغل نفسى فيه اى كتابة المقالات وإعداد المحاضرات واعداد التقارير العلمية الدورية . وحتى عندما اشرفت على « بحث حالة موارد المياه وطرق صرفها فى حى بولاق » وقمت على مسئوليتى بكتابة تقريره النهائى الذى نشر فى شهر يناير عام ١٩٥١ ، وكان قد عاوننى على القيام به الزميل « ميشيل وهبه » والزميل « عبد العزيز راشد » - فاننى لم اكن مستريحا ليكون هذا البحث « القيم » مؤلفا ينسب الى وحدى . لقد كان البحث تحت رعاية جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق . وكان الهدف من اجرائه ان ندق « جرس الخطر » حتى يلتفت اولو الامر المسئولون فى ذلك الحين الى ماوصلت اليه الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية بأحد أحياء القاهرة ، اعنى حى بولاق من سوء وانهيار . كنا فى ذلك الحين نعمل ماكانت ، ولا تزال ، تفعله « الجمعية الفابية » « ١٨٨٣ » التى كانت ترى أن تتنازل الطبقة المتسلطة وان لا تثور الطبقة المقهورة . تماما كما يدعو البعض فى

الوقت الحاضر من ابناء مصرنا الخالدة نفس الدعوة ونحن في عام ١٩٨٣ . اى انهم يدعون نفس الدعوة بعد مائة عام وكان الحياة قد توقفت والظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية المحلية والعالمية هي نفس الظروف ! كانت دعوتنا هذه منذ أكثر من ثلاثين عاما قد أجهضتها الحوادث الجسام التي مرت بها مصرنا الخالدة . كنا قد يئسنا أو كدنا ان نيأس من القادة المصريين في ذلك الحين على اختلاف مشاربهم . وكنا نرجو أن نعمل عملا صالحا من أجل مصر اى كنا نحاول التغيير الى الافضل ، وبدأنا العمل في ميدان مهنة البحث العلمي الاجتماعي كهواة . وضحكنا وكاننا نرثى انفسنا عندما لم نجد لصرختنا العلمية صدى في نفوس احد . ووضع « بحث حالة موارد المياه وطرق صرفها في حى بولاق » على « رف النسيان » . ولكن الحياة تسير بل تتدفق . واذا كان الناس في مصرنا في فترة من فترات حياتها كما يقول « سعد مكاوى »يسيرون نياما ، فانهم لن يستمروا كذلك أبد الدهر . والتاريخ شاهد على ماأقول . أى أن الافكار لايمكن أن تموت . فالافكار الواعدة قد تتوارى حينا فاذا ماوجدت الظروف المواتية تشع أنوارها ساطعة مرة اخرى وتخرج الى حيز الوجود . كنت في ضوء خبراتي التي عشتها اقول ذلك لنفسي . وكنت أؤكد معانيه كلما صدمتنى ادارة المركز نفسيا بالقول أو بالفعل أو بالاشارة اذ أرى كل ما كنت أحلم به لمهنة البحث العلمي الاجتماعي في مصر من ازدهار ينهار أو يكاد . وذلك باستغلالها استغلالا ذاتيا . وقد شاركني بعض الزملاء في الوصول الى هذه النتيجة

المدمرة . بل سبقني البعض فاهتم بدراساته وبحوثه الشخصية واختيار المجال العملي الذي يجد فيه نفسه تنمو وتزدهر . وعلى الرغم من الالم الشديد الذى اثر على صحتي واصابني بالمرض تلو المرض فانني لم أيأس . كنت اقول لنفسي بصوت مسموع احيانا او بصوت خافت احيانا اخرى :

« رب ضارة نافعة »

وعندما بلغ السيل الزبى كانت سني قد قاربت على الخمسين ، فأعددت خطة للبحوث والدراسات التى ازمعت القيام بها وحدي . قمت في أثناء دراستي بجامعة بوستن باعداد بحث الماجستير في عام ١٩٥٤ ثم بحث الدكتوراه فى عام ١٩٥٦ . ثم عندما التحقت بالمعهد القومي للبحوث الجنائية الذى أصبح المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وهبت حياتي لمهنة البحث العلمي والاجتماعي الوليدة . كنت وزميلاتي وزملائي نقوم باجراء البحوث والدراسات التى تطلبها منا الادارة ، وكنا ننشر البحوث والدراسات التى تحتاجها كل من المجلة الجنائية القومية والمجلة الاجتماعية القومية . وعلى الرغم من كل الظروف فان حياتي لمهنة البحث العلمي الاجتماعي مازالت موهوبة لهذه المهنة . ولكن التفكير في القيام ببحوث ودراسات وحدي كان في فترة من فترات حياتي العملية يعتبر خيانة . ولكن ادارة المركز قد خانتني المرة تلو المرة أقصد قد خانت مهنة البحث العلمي الاجتماعي المرة تلو المرة . وكانت المبررات لهذه الخيانة لا منطق فيها يستسيغه فكر انساني رشيد كان أهم هذه المبررات ان مهنة البحث العلمي الاجتماعي

لكي تمتد جذورها في ارض واقع المجتمع المصرى ، فان قليلا من المرونة يصبح أمرا ضروريا . واذا قيـــل ان المسألة الجوهرية هي وجود علم او لا علم ، قيل نحـــن في بلد نامي وكيف السبيل الي ان ننهض نهضة البلاد المتقدمة . واذا قيل ان تعديل قانون المركز كان يجب ان يكون من اجل ان تكون القرارات القومية في ضوء نتائج بحوثه ، كنا نرى ان تعديل هذا القانون كان من أجـل تعديل كادره المالى دون اهتمام بمصالح العاملين العلميين والعاملين الاداريين الذين كانوا لا يألون جهدا في سبيل رفعة المركز علميا .

وجاء عام ١٩٦٣ وكنت قد أكملت بحـث « مـن ملامح المجتمع المصرى المعاصرة ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعي » . وبحثت عن ناشر لكي ينشر هذا الكتاب فلم اجد . ولكنني واصلت الكتابة فظهر من بين يدى أو من تحت « عباءة » الكتاب الاول ، كتاب آخـر هو : « الخلود في التراث الثقافي المصرى » الذى كان من حظه ان تنشره « دار المعارف في مصر » . وعنـدما سافرت الي « يوغسلافيا » في خلال الفترة من يوم ٦ من شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ الى يوم ٦ من شهر فبراير عام ١٩٦٤ ، اعددت نفسي ذهنيا ونفسيا لاكتب كتـاب « مذكرات يوغسلافية : انطباعات وحقائق وآراء » . وكان هو الكتاب الثالث ، بترتيب التأليف وليس بترتيب النشر . وذلك لان الكتاب الاول كان قد نشر في خلال عام ١٩٦٥ . ولنشر هذا الكتاب قصة يجب أن ارويها ، ذلك لانني في خلال عام ١٩٦٤ جازفت بنشر كتـــاب « مذكرات يوغسلافية » من المال الحى الذى أملـكه .

وعندما اكد لى الاستاذ المستشرق عالم الآثار « شـارل كوينز » ان الكتاب الاول كتاب قيم ويستحق النشـر . وتطوع مشكورا لكى يتوسط لنشره ولكن باءت مساعيه بالفشل بحجة كبر حجم الكتاب وكثرة الرسائل المكتوبة بخط مرسليها او بخط آخرين اذا كان المرسل اميا . تركت النسخة الاصلية قبل أن اغادر مصرنا الخالدة الى يوغسلافيا ، وعندما عدت وجدتها لم يجرؤ على نشرها ناشر . ولم أكن أملك ما أستطيع القيـام بعملية طبع هذا الكتاب . وحتى لو كنت قد ملكت المال اللازم لهذه العملية فكيف اجد من يروج للنسخ التى طبعت ؟ ولكنى كنت فى ضوء رأى الاستاذ شارل كوينز قـد اقتنعت بأهمية طبع الكتاب ونشره . ولما كنت اتحاشى دائما ان اطلب طلبا شخصيا من ادارة المركز ، فاننى ترددت فى استعمال حقى فى قيام المركز بطبعه ونشره فى نظير اعطائى عددا معينا من النسخ المطبوعة . انه حق حظى به اكثر من زميل من العاملين العلميين بالمركز وبخاصة الذين يقدمون مادة رسائلهم « مطبوعة » . وعندما يئست بعد بذل الجهود فى نشر كتاب « من ملامح المجتمع المصـــرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامـــام الشافعى » ، سواء أكانت هذه الجهود جهودى أم جهود الاخرين وكان على رأسهم السيدة الزا ثابت والاستاذ شارل كوينز وعالم الاثار الاستاذ « أ . بيانكوف » — ذهبت مدفوعا الى الدكتور خليفة على الرغم من الاحتمالات التى كنت أتوقعها او لا أتوقعها . لم أجد ترحيبا منه ولكنه لم يرفض مبدأ النشر واشترط موافقة مجلس ادارة المركز على ذلك . وتركت النسخة الاصلية الوحيدة بين

يديه ، وذهبت شاكرا . كان على راس مجلس أدارة المركز فى ذلك الوقت « الدكتورة حكمت ابو زيد » . لقد وضعت في هذا المنصب لانها كانت وزيرة الشئون الاجتماعية . فالمركز على الرغم من استقلاله الذاتي فانه كان تابعا لهذه الوزارة . وقيل لى انه عندما عرض موضوع قيام المركز بنشر الكتاب المذكور تجاسرت الدكتورة حكمت وطلبت قراءته للحكم على صلاحيته للنشر فاعطيت اليها النسخة الاصلية لكي تقرأها وتحكم عليها . وكنت على اتصال بهذه الدكتورة من قبل منذ ان كانت « مدرسة » فى كلية البنات التابعة لجامعة عين شمس . كانت تحضر الى المركز ولا تجد أحدا يستقبلها غيرى . كنت ارحب بها في مكتبى وكانت تتجاسر وتطلب فنجان القهوة لكى تستمتع برشفه . وكانت تمكث عندى ماشاء لها الوقت الذى ترغبه . وكنت أعلم وان كانت لا تعلم انها كانت ترغب فى مقابلة الدكتور خليفة . ولكنه كان لا يستقبلها في التو واللحظة . كان يتركها وقتا طويلا حتى يأذن لها بمقابلته . وكانت لاتجد مناصا من الدخول على فى غرفتى تنتظر حتى يحين الوقت لمقابلة الدكتور خليفة . ودارت الايام واصبحت الدكتورة حكمت وزيرة لا يدخل عليها الدكتور خليفة « مرءوسبها » الا بعد أن تأذن له بالدخول . وكانت الدكتورة حكمت قبل أن تكون وزيرة ، وعندما لم تكن تجد مكانا تلجأ اليه عندما تزور المركز الا غرفتى ، غير متزوجة . وبدا لى أنها لن تتزوج ابدا . ولكنها تزوجت ولست أدرى اذا كان قد تم زواجها قبل أو بعد فوزها بمنصب الوزارة . كان حديثها وهى تزورنى حديثا معادا . كانت طموحة جداً فقد

رشحت لانتخابات احدى اللجان ونجحت . وكان يهمها أن تقدم للمركز دراسة كانت قد أجرتها عن مديرية التحرير التى عاصرت انشائها عندما كنت منتدبا من وزارة الشئون الاجتماعية « مصلحة الخدمات » لمكتب رئيس الجمهورية وأعمل مع الصاغ مجدى حسنين . أخذت الدكتورة الوزيرة النسخة الاصلية الوحيدة لكتاب « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » ، ومكثت النسخة لديها تسعة شهور بالتمام والكمال . ولا ادرى ان كانت قد قرأتها او لم تقرأها . انها ارادت أن تعاملنى معاملة « دقة بدقة » لاننى عندما كانت تشرح لى منهج دراسة مديرية التحرير ، كنت اناقشها فى هذا المنهج وفى مدى صلاحيته . ويبدو لى الان ، اى وقت كتابة هذه السطور انها لم تنس مناقشتى لها . كانت فى ذلك الحين تؤدى دورا لم يكن دور الوزيرة التى تراس رئيسى الادارى الدكتور خليفة . وكنت اناقشها فى هذا الضوء ولم اكن اتخيل ابدا كما فعلت ذلك مرارا مع غيرها مع الأسف الشديد ان تكون هذه الدكتورة وزيرة . تسعة شهور مرت منذ ان استلمت النسخة الاصلية . ولم يكن لى من ان افعل شيئا سوى أن اصبر . وكان صبرا مريرا حقا . وكنت لاعزى نفسى اذهب الى الدكتور المدير مرة كل ثلاثة شهور ، كنت فى ذلك الحين اقابله ولا كان يقابلنى الا نادرا : وانظر الى قسمات وجهه التى كانت تنم عن الشماتة وابتسامته التى كانت لا تعنى سوى عدم الاكتراث ، ثم استمع لقوله عندما يعد بالتحدث الى « الدكتورة » فى شأن الكتاب . ثلاث مرات اذهب الى هذا الرجل مرة فى

كل ثلاثة شهور ، وكان يفعل ماذكرت فى كل مرة . وكان فى كل مرة وبخاصة فى المرتين الاولى والثانية يزداد قلقى وهمى . وفى المرة الثالثة تركت مكتبه وانا أكـــاد ان ابكى ، وعندما دخلت الى غرفتي وجدت احد المعارف وانا مع الاسف ألشديد لا اذكر أسمه وقت كتـابة هذه السطور ، فوجئت بانه يرتدى ملأبس ضابط جيش احتياطى برتبة « بكباشى » (مقدم) . فدهش لما رأى من كآبة تنتشر على صفحة وجهى . وعندما سألنى ماذا بى ، قلت له منفجراً « قصة الكتاب وموقف الدكتورة حكمت منه » ، فاذا به يخرج من حقيبة صغيرة كانت فى يده « كتيبا » كان يستعمله فى تسجيل أرقام آلتليفونات .
وبعد ان فتح الكتيب رأيته يقفز الى التليفون ويحدث زوج الدكتورة الوزيرة ويطلب منه أن يطلب منهـــا رد النسخة الاصلية التى تعيش معها تسعة شهور معالموافقة على طبع الكتاب وفى اليوم التالى جاءت النسخة الاصلية بموافقة آلدكتورة الوزيرة ، ثم طبع الكتاب وخـرج الى الناس فى عام ١٩٦٥ .
ولعل قارىء هذا الكتاب أن يجد فيه أول مايجد بعد المقدمة « قصة اختيار موضوع الدراسة » . وقد تعودت ان افعل ذلك فى كل كتبى المنشورة وحتى التى لمـــا تنشر . ومهما يكن من الامر فان الكتاب كان دراسة واقعية اى أن اهم بياناته كانت مستقاة من الرسائل التى يرسلها عن طريق آلبريد ، بعض أعضاء مجتمعنا المعـاصر الى ضريح « الامام الشافعى » يشكون اليه فيها اى يشكون الى الامام الشافعى ، نفسه ، فى هذه الرسائل بعض أحوالهم وما يواجهونه من عنت ومن ظلم ، او يطلبون

منه فيها قضاء بعض الحاجات . ولعل من دواعي السرور والتشريف اللذين يتضمنان الشكر الجزيل والعرفان بالجميل ، التنويه باستقبال هذا الكتاب والاهتمام به . فقد استقبلته اجهزة الاعلام المصرية الجادة استقبالا رشيدا ، كما أهتم به الكتاب والمفكرون المصريون وغير المصريين ، علي وجه العموم ، اهتماما مشجعا ، وقد توج كل ذلك وهو كثير أن تفضلت الدولة فكرمتني وذلك بمنحي جائزتها التشجيعية في علم الاجتماع . وكنت اول من منح هذه الجائزة في علم الاجتماع . وذلك في عيد العلم عام ١٩٦٦ ، كما منحتني الدولة أيضا وسام « العلوم والفنون » من الدرجة الاولي في ذلك العيد . وانني اذكر ماحدث في ذلك اليوم كانه حدث اليوم ، ذلك انه عندما اتخذت مقعدي في المكان المخصص لي ، وجدتني أجلس في الصف الثاني وكان يجلس في الصف الاول الدكتور العالم الفنان حسين فوزي والشاعر أحمد رامي والدكتور محمد عوض محمد . كانوا قد منحوا جوائز الدولة التقديرية في الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية علي التوالي . رأيتهم ورأوني . ولم يحيني واحد منهم ، ولم احيي واحداً منهم . كنت علي وشك ان احيي الدكتور عوض ولكني رفضت ذلك ووجهت الي نفسي اللوم الشديد . وكان بودي أن احيي الدكتور حسين فوزي الذي أحببته من قراءاتي لكتبه ومقالاته ومحاضراته المذاعة عن الموسيقي « البرنامج الثاني » . ولكني لم افعل كان يجلس بجواري الشاعر المصري الكبير صلاح عبدالصبور والفنان المسرحي الفريد فرج . وكان المغفور له الاستاذ انور المعداوي قد منح الجائزة التشجيعية في الاداب

ولكنني لم أسعد برؤيته فقد ترك بصماته على مريديه وكان من بينهم ابني العزيز منسعد . وتركت النـــاس وكانوا جمعا غفيرا . خلاصة الصفوة من اهل البلاد . كان منهم المفكرون ، وكان منهم الوزراء ، وكان منهم الصـحفيون وكان منهم ضباط المباحث منثورين فى كل رقعـة من الحجرة الفسيحة . وحضر الرئيس جمال عبد الناصر . وكان من حوله من كان يعينهم من المقربين . تركت هؤلاء جميعا ورجعت القهقرى الى حيث كنت طفلا اسـكن فى « حارة الشراقوة » شارع البقلى ، حى الخليفـــة ، رجعت ابنا لحارتى وحى الخليفـة . وذكـــرت ابى وطموحاته ، وذكرت أمى والوان حبها للناس التى لم تكن لتنفد . وعشت فى « أفلام » حياتى العديدة فى داخل مصرنا الخالدة وفى خارجها . وفجأة ذكرت المركز الذى تركه الدكتور خليفة ليصبح وزيرا . لقد كان حـاضرا يسمع ويشاهد . ولم أدر ماذا كان يفكر فيه ، تمـاما كما كنت لا أدرى ماذا كان الدكتــور محمد عوض محمد يفكر فيه .

وقد نشر كتاب « الخلود فى التراث الثقافى المصرى » فى عام ١٩٦٦ ، وقد خرج هذا الكتاب كما ذكرت مـن عباءة كتاب « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة أرسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » . واذا كان الكتاب الثانى دراسة واقعية ، فان الكتاب الاول كــان دراســة نظـرية عن الخلود فى التراث الثقـافى المصرى وقد تضمن أهم ماتضمن دراسة عن ظاهرة الموت وعن فكرة الخلود ، اى استمرار وجود الناس الروحى بعد موت ابدانهم ، وهى دراسة مقارنة تهتم اول مـــا تهتم

بمعالجة موضوعاتها فى ضوء التراث الثقافى المصرى : المصرى القديم والمصرى المسيحى والمصرى الاسلامى .

وقد كان لكل من الكتابين المذكورين وقع كبير على كيان تفكيرى ونظرتى نحو الحياة ونحو الاحياء ونحو الموت ونحو الموتى . وقد اثرت المراجع التى رجعت اليها فيهما حصيلتى من الخبرة المنتظمة . وعشت وانا اكتب هذين الكتابين فى اعمال الثقافة المصرية القديمة المتجددة المستمرة . وقد تركت نتائج كل من الدراستين اللتين يضمهما كل من الكتابين لتفصح عما كنت ارغب فى ان يلم به القارىء الذكى . لم افسر نتيجة واحدة من النتائج التفسير العلمى اقصد التفسير الثقافى الاجتماعى العلمى ولم يكن ذلك عن عجز منى ، ولكن لان وضوح النتائج كان كافيا . وكنت ارى ، ولا ازال ، ان الفصل الثالث من كتاب « الخلود فى التراث الثقافى المصرى » عن وعى وهو يتضمن أهم نتائج الفصل الاول واهم نتائج الفصل الثانى يكفى لكى يرى القارىء عن وعى ماكنت ولا ازال اراه . وفى الخاتمة التى كتبتها لكتاب « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » ، اكتفيت لا بالتفسير بل بالاسئلة والتساؤلات ولم أجب عن احدها وتركتها للقراء لكى يعملوا فيها افكارهم وخبراتهم كل حسب مستوى فكره وخبرته ، ولكنى لم اترك القارىء معلقا بل وعدت بالقيام باجراء دراسة علمية ميدانية ، واكدت للقارىء اننى كباحث لن احيد عن الاهتمام بواقعنا الحى فى مجتمعنا وقد اوفيت بوعدى فى دراسة علمية ميدانية اخرى هى : « الخلود فى حياة المصريين المعاصرين : نظرة القادة

الثقافيين المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى » التى نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب فى عام ١٩٧٢ .
والتي أعيد نشرها بعد تبديل رفضت الهيئة المصرية العامة للكتاب ان يضمه الكتاب السابق وهو الفصل الاول وموضوعه « مناقشة موضوعية مع بعض النقاد » ـ باسم « عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى » . وكان من رأيي أن هذا الفصل كان من الواجب نشره، فهو رد علي السادة النقاد الذين أحسنوا النقد والذين اساءوا النقد علي السواء . وكان ضروريا أن يعرف القارىء وجهة نظر المؤلف اقصد وجهة نظرى نحو هؤلاء النقاد الذين انصب نقدهم على الكتابين الاولين ، اقصد كتاب « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » وكتاب « الخلود فى التراث الثقافى المصرى » . وقد كان من نصيب كتاب « عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى » أن ينشر فى مدينة « بيروت » فى عام ١٩٧٣ . وقد شجعنى على نشر هذا الكتاب الاخطاء العديدة التى ملأت صفحات الكتاب الاول ، فقد طبع من غير ان اعطى الفرصة لمراجعة « البروفات » . ومن ثم جاءت الاخطاء التى تجعل القارىء الجاد يفقد طريقه السوى فى أثناء قراءته .

وسأقتصر على عرض كتاب « عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى » . وساعرضه محللا لاهم أهدافه ونتائجه . ولكن قبل ان افعل اجدنى ملزما أمام القارىء لاقول كلمة او

اكثر عن كتاب « مذكرات يوغسلافية » اول كتاب نشر لى فى عام ١٩٦٤ . ان هذا الكتاب يتضمن انطباعاتى وبعض الحقائق والاراء عن المجتمع اليوغسلافى ، اقصــد عن الاماكن والبلاد التى زرتها وعشت فيها مع المواطنين اليوغسلافيين وليس عن كل منطقة من مناطق يوغسلافيا . امددت نفسى ذهنيا ونفسيا كما ذكرت من قبل ، لاكتب هذه المذكرات وقد سميتها «مذكرات يوغسلافية » أسوة ، والقياس مع الفارق طبعا ، بما فعله الكاتب الانجليزى المشهور « شارلز ديكنز » عندما زار الولايات المتحدة فى عام ١٨٤٣ وكتب عنها كتابه « مذكرات امريكية » «طبعة عام ١٩٦١ » . واننى اذكر انه عندما تم طبــع كتابى فى عام ١٩٦٤ رحب به بعض النقاد وكان عــلى راسهم « الشهيد الاستاذ ابراهيم عامر » عندما كــان لايزال يعمل فى « جريدة الجمهورية » ، اى قبل أن ينتقل ليعمل فى « دار الهلال » . واننى اذكر ايضا انه قـد اهتم وانا اتحدث عن « مطار القاهرة الدولى » فى ذلك الحين ، فى هذا الكتات اذ أقول انه فى نظرى مجموعة من القيم الاجتماعية الجديدة قد انبثقت فى مجتمعنــا الجديد المتغير ، ولكونها جديدة فهى الغالبة حتما ، اى وهى فى صراعها مع القيم القديمة ستكون الغالبة حتما .. وذلك :

« لان القيم الاجتماعية القديمة فى المجتمع الجديد المتغير ماهى الا رواسب . رواسب بالية . والباقى من القيم والاتجاهات والاراء ، ومن الامور والاشياء ، لابد ان يتداعى . وهنا اقفت لحظة وجيزة لكي احذر القارىء .. فنحن قوم نسابق الزمن ، ومن ثم يجب ان لا نترك

الزمن يفعل بنا مايريد ، بل يجب أن نرغمه على فعل ماتريده نحن . اي أنه يجب ان لايقتصر دورنا على المشاهدة والانتظار ، مجرد مشاهدة هذه الصراعات ومجرد انتظار نتائجها ، اى مجرد التطلع اليها ثم نهز الكتفين . وارجو ان يلاحظ القارىء قولى « لابد أن يتداعى » واقصد من ذلك انه لابد ان يدرس ويفهم ، حتى يتيسر ضبطه ومن ثم توجيهه او الحد منه فالرواسب المالية ، كما يعلم القارىء ، لا تذهب بين يوم وليلة . وهى تقف اذا تركت عادة ، حجر عثرة فى سبيل التقدم المنشود ، اى اذا تركت ولم تدرس دراسة موضوعية ، اقصد دراسة علمية ونحن نجد فى عصر العلم ان الرواسب البالية عديدة فى مجتمعنا الناهض لا تزال . وهى تنتظر من علمائنا الافاضل القيام بهذه الدراسة العلمية . بل هى تدعوهم الى ذلك وتلح فى هذه الدعوة الحاحا متزايدا .. فهل من مجيب ؟ » .

لفت هذا الكلام وغيره نظر الشهيد ابراهيم عامر فاشار اليه وقرظه . ولم يكن يعلم انني كتبت ما كتبت الا بعد ان قمت بدراسة « ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » ودراسة « ظاهرة الخلود فى التراث الثقافى المصرى » . وذلك لان كتاب « مذكرات يوغسلافية » كما سبق ان ذكرت قد نشر على الملأ قبل هاتين الدراستين واود ان اذكر هنا ان دار الهلال قد دعتنى الى ان اكتب دراسة عن موضوع « المراة كسلعة » ، وقد لبيت الدعوة شاكرا ونشرت هذه الدراسة فى كتاب الهلال عدد شهر مارس عام ١٩٦٥ ، وعندما ذهبت الى الدار كان الشهيد ابراهيم عامر قد انتقل اليها فرايت أن احييه فاستقبلنى

هاشا باشا تملأ وجهه ابتسامته العريضة التى يعرفها عنه جميع من كانوا يتعاملون معه .. كان معه شخص لم أره من قبل . كان أشيب وان بدا فى عنفوان رجولته وسمعت شهيد القلم يقول معاتبا :

« يا أبو حنفى حد يسيب القلم من ايده ؟ حد يسيب سلاحه ، يا أبو حنفى راجع نفسك » . ثم يكرر وهو شبه حانق « يا أبو حنفى حد يسيب سلاحه ، حد يسيب القلم ؟ » .

ثم انصرف هذا الشخص ، وكان يبدو أنه جاء مودعا تاركا مهنة الكتابة لكي يشغل وظيفة تنفيذية دعى الى شغلها . فآثر الوظيفة وترك القلم ولم يستمع لنصائح شهيد القلم ابراهيم عامر . ودفعنى حب الاستطلاع لكى اعرف من الرجل . فقال الشهيد الا تعرفه ؟ انه « محمود امين العالم » . وكنت اعرف هذا الرجل من كتاباته ومن كتبه ولكنني لم اره من قبل وأن كنت أعرف انه امضى سنينا فى المعتقل الذى ترك آثاره الشريرة فأشعل شعر رأسه بياضا وكان مازال فى عنفوان رجولته . ومعذرة للقارىء فأنا لا أستطيع أن أتحدث عن ابراهيم عامر بأبلغ ماسطره « الفنان صلاح جاهين » على صفحات جريدة الاهرام فى يوم ٢١ من شهر فبراير عام ١٩٧٦ . قال الفنان :

« الى الزميل الشهيد ابراهيم عامر »
الموت فى المطبعة
يا مطبعة
يامعبد الديمقراطية العظيم
على مذبحك

قتلوا ابراهيم وكان خسارة ابراهيم
هجموا الوحوش
حرقوا الورق واللى عليه من كلام
بالرشاشات
كسروا المحابر .. دهو سواع القلام
مايهمناش
الفكر عايش فى صميم الفؤاد
والمطبعة
« لساها دايرة بكبرياء وبعناد
نزل الجدع
مامعاهش غير قلبه وغير الكفوف
صحفى اصيل
اعزل يدافع عن صفوف الحروف
ياميت ندم
انفجرت فيه الحروف العزاز
فارت لهيب
طاشت رذاذ والحولت سنم غاز
آه ياصديق
باللى ماعدناش تاني نسمع له صوت
احنا كده
مانموتش غير باللى آحنا نحبه موت . »

وكتاب « عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى » كتاب يضم بحثا ميدانيا كان يتوقعه القراء الافاضل منى . وقد تضمنت مقدمته أهــــداف البحث والاجراءات التي قمت بها في سبيل تحقيق هــذه

الاهداف . وقد أوحى الى كتاب « الآن هـ . جـاردنر » موضوعه « نظرة المصريين القدماء نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى : طبعة ١٩٣٥ » عنوان الكتاب الحـالى وان اختلفت خطة البحث التى يضمهاكل من الكتابين كمـا اختلف منهجهما . والبحث الذى يضـمه هذا الـكتاب لا يهدف الى مجرد تسجيل موضوعاته الهامة قبل ان ينالها التغيير الثقافى الاجتماعى او الى المقارنة بين نظرة بعض المصريين المعاصرين نحو هذه الامور فحسب ، وانما تبدو اهمية هذا البحث فى التعرف بصورة موضوعية على نظرة فئة معينة من المصريين الذين يؤهلهم المجتمع المصرى المعاصر ليؤدوا مهام القادة الثقافيين فى هـذا المجتمع ، نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى ، وما يتضمن ذلك التعرف ايضا على مكانة « الميت » عندهم ، حيث وضع فى الاعتبار انه اذا كانت هذه النظرة نحو هذه الامور بالصورة أو الصور التى تنتهى نتائج هذا البحـث الى الكشف عنها عند هؤلاء القادة الثقافيين فى المجتمـع ، فمن باب اولى ان تكون موجودة فى محيط أعضاء المجتمع فى القطاعات الاخرى . بل ان خطرها ، ان وجد هـذا الخطر ، فى هذه الحالة ، يتزايد ، باعتبار ان تأثير القادة او من فى حكمهم فى تأكيد استمرار وجودها جيلا بعد جيل سيكون بالغا .

وانا كباحث علمى اجتماعى أكون بالضرورة شـخصا متفائلا . وان يكون تفاؤلى بالضرورة أيضا متزنا . فانا فى هذا البحث وفى غيره من البحوث التى قمت او اقوم باجرائها ارصد ظاهرة واتوقع تغييرها أو تطورها . ومن ثم فاننى قمت باجراء هذا البحث بعد صدور القرارات

الاشتراكية في يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٦١ . او بالاحرى بدأت التفكير في القيام باجرائه بعد صدور هذه القرارات مباشرة . اعترافا مني بما ستحدثه هذه القرارات من تغييرات ثقافية اجتماعية فى المجتمع المصرى وما ستحدثه هذه التغييرات بدورها فى نفوس أعضاء هذا المجتمع وفي نظرتهم العامة نحو الحياة وفى نظرتهم الخاصة نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى .

وعلى الرغم من البحوث والدراسات التى قمت باجرائها بنفسي او قمت بالاشراف عليها ، لم أفتأ أن أبحث وأجد في البحث محاولا أن اجيب عن التساؤلات التى ضمتها خاتمة كتاب « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » ، الذى كان اول كتاب أقوم بتأليفه والذى نشر أول مانشر فى خلال عام ١٩٦٥ عندما بلغ عمرى أثنتين وخمسين سنة . وفى عام ١٩٨١ نشر لى كتاب « الابداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين والاولياء فى مصر » والذى تفضل بتمويل نشره العزيز الدكتور مسعد عويس « حصل على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٧١ » . اى ان هذا الكتاب هو احدى المحاولات للاجابة عن التساؤلات المشار اليها ، وأرجو ان لا تكون الاخيرة . وهو يتضمن دراسة عن بعض القديسين والاولياء دراسة ثقافية اجتماعية تاريخية . وقد اضفت البعد التاريخى فى هذه الدراسة ، ايمانا منى فى ضوء بحوثى ودراساتى السابقة وخبراتى الاخرى المنتظمة وغير المنتظمة ، بأن كل شيء له تاريخ ، وبأن المجتمع المصرى ليس قديما فحسب بل هو أيضا مجتمع مستمر . وفى ضوء عنوان الكتاب

الحالي حاولت جاهدا أن ألمس الاسلوب الثقافي « أن وجد هذا الاسلوب » الذى ابدعه هذا المجتمع القديم المستمر ليس فقط فى مواجهة الحياة بل ايضا فى مواجهة الموت . وموضوع الكتاب الحالى لم يأت من لاشيء . اننى استلهمته من تشكيل « المحكمة الباطنية » التى تضمنتها الرسائل المرسلة الى « ضريح الامام الشافعى » ، فقد لاحظت أن هذه المحكمة يرأسها « الامام الشافعى » وان من اعضائها البارزين « الامام الحسين » و « السيدة زينب » . وفى ضوء الاسلوب الذى استخدمته فى معالجة هذا الموضوع ، اقصد الاسلوب الثقافى الاجتماعى التاريخى ، درست الماضى المصرى السحيق وخاصة ماتعلق منه ببعض الآلهة مثل « أوزوريس » و « ايزيس » و « حورس » . كما درست بعض ماتضمنه التراث المسيحى المصرى من قديسين وقديسات مثل « القديس مارميتا » و « القديسه دميانة » و « القديس الانبابفنوتى » و « القديس حنا المعمدان » (النبى يحيى ابن زكريا عليه السلام) . وفى ضوء معالجة موضوع هذا الكتاب وصلت الى بعض النتائج سيجدها القارىء حتما فى ثنايا الكتاب اذا قرأه قراءة متكاملة . وارجو أن يلاحظ القارىء انه على الرغم من المجهود الذى بذل فى سبيل بلورة هذه النتائج فان ماوصلت اليه منها ، من بعض جوانبه ، مازال فى حاجة الى التحقيق العلمى فى ضوء دراسات واقعية أخرى ؛ ومن هذا على وجه الخصوص علاقة « الطرق الصوفية » بنشر الدعوة الى تكريم الاولياء وخلع المناقب عليهم ونسبة الكرامات لهم فضلا من علاقة هذه الطرق ، بطريق مباشر أو غير مباشر

بوعي أو من غير وعي ، بنشر الدعوة الشيعية . ومسالة اخرى في مسيس الحاجة الى التفسير الواضح الذى لا لبس فيه الا وهي عوامل استمرار وجود « محكمة » مثل « المحكمة الباطنية » في وجدان الكثيرين من المصريين المسلمين والتجائهم اليها بدلا من « محكمة الاحياء » . ان هذه الموضوعات وقد مستها الدراسة التي يضمها كتاب « الابداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين والاولياء فى مصر » وعالجتها فى تؤدة مازالت فى حاجة ماسة الى التفسير الواضح الذى لا لبس فيه . انها كما يعلم القارىء من موضوعات « علم الاجتماع الدينى » أو يجب ان تكون من موضوعات هذا العلم . ولعل المستقبل القريب ان ييسر لى الوقت الكافى فاقوم بتحقيق كل هذه الامور . ومهما يكن من الامر فان القارىء الجاد لهذا الكتاب لابد أن يلاحظ ، مالاحظته ، ان مكانة الآلهة المصريين القدماء قد انتقلت فى فترات التحول فى تاريخنا المصرى ، بعملية توفيقية ، الى الانبياء والقديسين ثم الاولياء . أن قارىء كتاب « الخلود فى التراث الثقافى المصرى » المنشور فى عام ١٩٦٦ ، يجد بعض ماذكرته حيث قلت :

« .. فلما دخلت المسيحية ثم الاسلام الى مصر لم يجدا فى شعب مصر ارضا بكرا أو صحراء جرداء ، لان مصر كانت تعرف « أوزوريس واستشهاده ثم بعثه ، كما كانت تعرف شقيقته « ايزيس » قبل ان يطرق آذانها صوت البشارة المرقسية عن « الفادى المخلص » وامه « مريم العذراء » . وكذلك كانت تعرف الوحدانية العالمية قبل ان يغزو ارضها جيش « عمرو بن العاص »

لهذا احتضنت مصر تعاليم هذين الدينين وتمثلت رموزهما واسرارهما الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز واسرار » .
وفى عام ١٩٧٠ نشر لى كتاب « حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة » . والقارىء لهذا الكتاب يجد تأكيداً لما ذكر . بل اننى تجاسرت فأضفت وكنت اتحدث عن مكانة « الامام الشافعى » قائلا :
« ... كان المذهب الاوزيرى فى القديم مذهب الاغلبية الساحقة من أبناء الشعب المصرى . صادف هوى فى نفوسهم كما صادف دواما . واليوم يحل محل هذا المذهب فى شعبيته المذهب الشافعى . فهو أيضا مذهب الاغلبية من ابناء الشعب المصرى المعاصرين !! واذا كان « اوزوريس » اله الآخرة فى العالم السفلى وقاضى القضاة الذى يحاكم أرواح المتوفين ويحاسبهم ويزن أعمالهم ، فان « الامام الشافعى » يبدو فى نظر الكثير من ابناء الشعب المصرى المعاصر وكأنه « أوزوريس » . اى انه توحد به . فهو عندهم قاضى القضاة الذى يرأس هيئة المحكمة الباطنية (اى محكمة الاله الاعظم فى مدينة الاموات التى كان يرأسها أوزوريس بالاضافة الى رئاسته ايضا لـ « محكمة المحاسبة الاخروية » ويحكم فيها بين الناس بالعدل » .
ومن حق القارىء على أن أنوه بكتاب « حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة » الذى نشرته « مكتبة الانجلو المصرية » فى خلال عام ١٩٧٠ . ان قصة القيام بكتابته مثلها مثل الكتب التى أؤلفها

موجودة في ثنايا مضمونه ، ولكن هذا الكتاب بالذات مدين لوجوده الى الاستاذ المفكر النابه « أحمد بهاء الدين » رئيس مجلس أدارة مؤسسة دار الهلال فى ذلك الحين . ففى يوم ٣٠ من شهر يوليو عام ١٩٦٧ كتب الاستاذ احمد بهاء الدين مقالا فى « مجلة المصور » عنـــوانه : « مطلوب دولة عصرية » تستطيع عند الخطر أن تصل الى اقصى درجات التنظيم وتوفر أكبر قـــدر مـــن طاقاتها باقل درجة من الارتباك فى المعركة . ومطلوب « مجتمع عصرى » يعيش وفقا لقيم العصر ومفهوماته . وتساءل المفكر النابه فى اخلاص عن معالم مثل هـــذه الدولة ومثل هذا المجتمع . وبعد نشر هذا المقال بايام دعاني الاستاذ احمد بهاء الدين مع زملاء أفاضل لحضور ندوة ثقافية للتحدث حول هذا الموضوع الخطير . وما ان تركت الندوة حتى ذهبت الى ميدان الســـيدة زينب القريب من « مؤسسة دار الهلال » وجلست على مقهى كان قريبا من مسجد السيدة زينب وانا افكر فيما حدث قبل عقد الندوة فى خلال يوم ٥ من شهر يونيو عـــام ١٩٦٧ وما بعده حتى لحظة عقد الندوة وبدات افـــكر فيما قيل فى اثنائها وفيما قلته من آراء . وفجاة لاحظت « معركة » قامت بين رجل كان يركب « حنطورا » وفي داخله سلال مملوءة بالارغفة المحشوة بقطع من اللحـــم المسلوق وبين رجال وشبان ونساء وشابات اذا مشى واحد منهم هز الارض من ثقل مايملأ « كرشه » من ماكولات . جاء الرجل بسلاله وارغفته تدفعه النيات الطيبة فقد كان كما بدا لى انه يوفى نذرا ، ولكن عصابات المحترفين من المتسولين هجموا على الرجل فلم يعط الفرصة لــكي

يعطى كل واحد منهم نصيبه ، بل على العكس يحدث بسبب مقاومته ان مزقت ملابسه . واسفرت المعركة من انتصار « الخطافين الاقوياء » الذين نالوا الحظ الاوفر ، وترك الكثيرون بلا نصيب . ونال الرجل فضلا عما حدث لملابسه أقذع الالفاظ . كانت بالطبع الفاظ سباب قذفت فى وجهه وكأنها « الصواريخ الموجهة » كان هذا المنظر مؤلما حقا . ورأيت بعينى رأسى ما كنت اذكره فى أحاديثى او فى بعض محاضراتى عن « تحكم الولى فى الأحياء » ، وتذكرت كلام « مولانا » فضيلة الشيخ محمود خطاب عن موضوع النذور اذ كان يقول :

« ولو عرف الناذر بطلان ذلك ما أخرج درهما لأنه اضاعة للمال ولا ينفعه ما يخرجه ولا يدفع عنه ضررا بل فيه المخالفة والمحاربة لله تعالى ورسوله ويجب رد المال الى من اخرجه ، وقبضه حرام ، لأنه اكل مال الناذر بالباطل ، وفيه تقرير للناذر على قبح اعتقاده وشنيع مخالفته ، فهو كحلوان الكاهن ومهر البغى » .

وفى الحال وأنا ارى بعض مايلوث ثقافيا المجتمع المصرى المعاصر من ترهات ولدت فكرة تاليف الكتاب المذكور . مشت اياما بل اسابيع وشهوراً أفكر فى المضمون الذى يجب ان يضمه هذا الكتاب ، وانتهيت بعد معاناة تعودتها الى اطار ذهنى يقدم بعض الدراسات العلمية عن بعض الحقائق الثقافية المعاصرة فى المجتمع المصرى ، اى أن الدراسات المتضمنة فى هذا الكتاب تحاول ابراز بعض الملامح الثقافية الاجتماعية للمجتمع المصرى المعاصر فى ضوء نتائج دراسات سابقة اجريت فى محيط التراث الثقافى لهذا المجتمع . وبعض هذه الدراسات واقعى ،

وبعضها مستمد من مصادر التراث الثقافى النظرى ، ومعظمها دراسات أولية كانت قد أجريت لاول مرة ، وكان هدفى الاول من تأليف هذا الكتاب هو محاولة التعرف على ملامح مجتمعنا المصرى المعاصر من وجهة النظر الثقافية الاجتماعية المتعمقة الشاملة . وذلك لان هذا التعرف اصبح فى ضوء ظروف هذا المجتمع امرا ملحا . لاننا اذا عرفنا هذه الملامح نستطيع أن نفهمها . ومن ثم نستطيع أن نواجهها او نوجهها الى مانصبو الى تحقيقه من آمال واهداف ، داخلية كانت أو خارجية ، على المستوى المصرى او العربى أو الانسانى . وكنت قد تعلمت ، كما تعلم غيرى ، فى ضوء جوادث الفترة التى حدث فيها العدوان الاسرائيلى الامبريالى على بلادنا العزيزة فى يوم ٥ من شهر يونيو عام ١٩٦٧ الى يوم ٩ من شهر يونيو عام ١٩٦٧ ، دروسا عديدة ، ودروس الحياة كما علمتنا نحن المصريين كثيرة جدا . ومادامت الحياة مستمرة فان الدروس بالضرورة تكون مستمرة ودروس الحياة قد تكون دروسا خاصة ، وقد تكون أيضا دروسا عامة . وهى أيضا دروس نافعة او دروس ضارة ويلاحظ ان النفع لا يمكن أن يكون مطلقا وان الضرر كذلك لا يمكن أن يكون مطلقا . فالحياة فى ضوء النظرة العلمية لا يمكن أن تكون شرا مطلقا ولا يمكن أن تكون خيرا مطلقا . واذا كنت قد ذكرت أن الكتاب الحالى يضم دراسات تحاول ابراز بعض الملامح الثقافية الاجتماعية للمجتمع المصرى المعاصر فاننى أعنى ذلك تماما . فانا لم أكن اقصد ابراز مايقال عنه « الشخصية المصرية » او حتى مايقال عنه « الطابع القومى » . لاننى

اعلم تماما أن المجتمع لا يمكن تكون له « شخصية » . وذلك لان مفهوم الشخصية مفهوم نفسي اجتماعي يطلقه علماء النفس الاجتماعي على كل « فرد » له شخصيته . فبنى الانسان كلهم لهم شخصيات ماعدا الاطفال الذين لاتزال شخصياتهم تتكون . وانا لم أتبن فى كل كتاباتى مفهوم « الطابع القومى » ، وهو مفهوم كان قد نحته أحد علماء النفس الاجتماعي واسمه « ج . جورر » . واذا كنت لم اتبن هذا المفهوم لانه مفهوم غامض ، فانني من باب أولى لم اتبن مفهوم « الشخصية العربية » . لقد تحدثت عن المفهوم الاول ذات مرة فى كتابى « عظماء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى » ، وقد اتضح لى كباحث علمى اجتماعى فى ضوء الممارسة أن هذين المفهومين وغيرهما مثل مفهوم « القومية العربية » لا ثمرة فيها فى الوقت الحاضر لانها مفاهيم لا يجد قائلها أو المستمع لها صورة ذهنية واضحة المعالم لها . وقد تحدثت عن هذه المفاهيم مرات بعد ذلك واوضحت وجهة نظرى هذه « انظر : مجلة قضايا عربية عدد حزيران ـ يونيو عام ١٩٧٩ ومجلة الفكر العربى عدد تشرين الاول ـ اكتوبر ـ تشرين الثانى ـ نوفمبر ١٩٨١ والحلقة الدراسية الثالثة لبحوث الاعلام فى مصر ٢٨ ـ ٣١ مايو عام ١٩٨٣ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وغيرها » . ومع ذلك أجد الزميل « السيد يسن » فى كتابه « الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الاخر طبعة عام ١٩٨١ » يقول دون ماسند أو مرجع :

« وتنبغى الاشارة الى موقف الكاتب « الذى هو أنا »

في هذه المقالة « يقصد الدراسة المنشورة في مجـــلة قضايا عربية عدد حزيران – يونيو عام ١٩٧٩ يتعـارض مع موقفه في بعض دراساته السابقة التي تبنى فيهـــا المفهوم واعتمد عليه !! » .

ولعل الزميل السيد يسن يشير الى الدراسة التي قدمتها الى « مركز الدراسات والابحاث الاقتصـــادية والاجتماعية » (الجامعة التونسية) في الندوة التي عقدت في خلال عام ١٩٧٨ عن موضوع « أهم السمات الثقافية الموضوعية للشخصية المصرية » ، وقد شارك الزميل في هذه الندوة مع غيره من الزميلات والزملاء . وسمع كما سمعوا ماقلته عن مفهومي « الطابع القومي » و « الشخصية القومية » وعن غيرهما من المفاهيم مثل مفهوم « طراز الشخصية الاساسية » ومفهوم« الشخصية المتوالية » . كما سمع الزميل والزميـــلات والزمـــلاء اذ قلت :

« ... يرى الداعون أن هذه المفاهيم أو احـــدها وبخاصة مفهوم الشخصية القومية او مفهـوم الطابع القومي انه على الرغم من الصعاب التي تواجهه والضعف في ادوات البحث الميسورة ، والاعتراضات عليه ، فان ذلك يجب ان لايثبط هممنا ، ذلك أننا مازلنا نستطيع أن نتقدم بضع خطوات في دراسة الطابع القومي وتحليله ، وهم يدعون ان فهم هذا الطابع القومي لمجتمعنا وللمجتمعات الاخرى سوف ييسر الاسهام في القضاء على أسباب سوء التفاهم وسوء التفسير التي قد تؤدي الى إشعال الحروب . ولعل قارىء الدراسة الحالية يلاحظ أن نتـائج هـذا الفهم لايمكن أن تكون مطلقة ، اي لايمكن ان تـــكون

ايجابية بالمعاني السابقة . ذلك أن أعداء الشعوب وتجار الحروب ومن على شاكلتهم ، اذا استطاعوا أن يتعرفوا على مفهوم الشخصية القومية لشعب من الشعوب لن يستخدموا معرفتهم الا في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة التي لن تكون بالضرورة نفس مصالح هذا الشعب . ان اعمال الجاسوسية والحرب النفسية ، والاعلام السيىء القصد ، كل هذه تحاول استخدام « مضمون » الشخصية القومية لتحقيق المآرب الانانية على حساب الاخرين ، ومع ذلك فانني ارجو ان يلاحظ القارىء قولى « اذا استطاعوا أن يتعرفوا » . وهم في ضوء غموض المفهوم ومثاليته وعجز استخدام المنهج العلمي السليم في جمع الحقائق عنه ، وغير ذلك مما سبق أن أوضحناه لن يستطيعوا ذلك » .

وارجو أن يلاحظ القارىء أن الافادة من ترديد أحد المفاهيم « الرائجة » في ضوء ظروف ثقافية اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة لا تغني أحدا . وهي ايضا لا تثرى التراث العلمي الاجتماعي « ويتضمن بالضرورة السياسي والنفسي » الذى يجب أن يكون لدى المثقفين العلميين هدف الاهداف . ان الرواج المادي لمفهوم لامع اذا كان يزيف الحقائق ولا يعين على ايضاحها يعني في حقيقة الامر الكساد العلمي . فانه كما هو معروف ليس كل مايلمع يكون بالضرورة ثمينا . فمادة «الصفيح» تلمع ومادة « الماس » تلمع ايضا ولكن شتان بين لمعان كل منهما ، اقصد شتان بين قيمة لمعان كل منهما وبقائه باستمرار لامعا .

وقد ضم كتاب « حديث عن الثقافة : بعض الحقائق

الثقافية المصرية المعاصرة » بين دفتيه الكثير من المواد . وسأتركها للقارىء الفاضل لكى يتفضل بقراءتها انها تشرح المفاهيم العديدة التى استندت عليها الدراسة التى يضمها هذا الكتاب . مفاهيم : الحقيقة والحق العلمي ، والمعرفة والعلم ، والعصرى والمعاصر . ثم مفهوم الثقافة ونظريات التغير الاجتماعي والتغير الثقافي . وأهم عوامل التغير الثقافى ثم بعض العوامل الثقافية المعوقة للتغيير . وبالاضافة الى كل ذلك تضمن الكتاب بعض سمات المجتمع المصرى المعاصر ، وبعض القيم الاجتماعية المصرية ، وبعض مشاعرنا الجماعية ، وبعض انماط التفكير فى محيط المصريين المعاصرين ، واخيرا أهتم مضمون الكتاب باقتراح بعض الاساليب للتغيير الثقافي الاجتماعى الى الافضل .

وقد كان موضوع « مواجهة المجهول » كاحد انماط التفكير في محيط المصريين المعاصرين ، موضوعا شغلنى كثيرا اقصد شغل تفكيرى فترة طويلة من الزمان . فعاش معى فى يقظتى وفى منامى ، وعندما كنت آكل او كنت اشرب ، وعندما كنت أسير فى شوارع المدينة او فى كفور القرية ، وعندما كنت اقرأ صحيفة سيارة او اقرأ كتابا ، وعندما كنت اتكلم او كنت اصمت ، اى أن موضوع مواجهة المجهول كاحد انماط التفكير فى محيط المصريين المعاصرين كان فى خلال الفترة التى كنت أعد فى خلالها الاطار الذهنى لكتاب « حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة » الذى تم طبعه فى خلال عام ١٩٧٠ ـ كان هذا النمط من التفكير فى محيط

المصريين المعاصرين موضوعا يحفزني التفكير المستمر فيه الى اجراء بحثا علميا عنه . وكانت مشكلتى الكبرى بعد ان اوضحت معناه ، وكان هذا أمرا ليس يسيرا ، ان ابدأ ، ولكن كيف ابدأ ؟ تلك كانت المسألة . كنت وأنا أسير في الشارع المصرى أجد البائع المتجول الذى يحمل على رأسه بضاعته واسمعه ينادى عليها لعله ان يجد الشاري الذى يروج له هذه البضاعة بصوته العالى الاجش او بصوته ذى اللحن المميز ، كان هذا وكل بائع مثله يفعل ذلك فى كل يوم ولا يتوقع أحدهم ماذا سيصيب من ارباح يواجه بها نفقات لقمة العيش ، وفي الصباح المبكر كنت اسمع أعضاء أسرة البائع الذى يكون على وشك الخروج ببضاعته . اسمع الدعوات من كل واحد منهم . من الزوجة « ان يفتح الله عليه ويكفيه شر الحاكم الظالم » ومن ابنه أو ابنته أن « يحنن عليه » وكان الابن صغير السن لايعدو السنوات الخمس وكانت الابنة في سن أصغر أو اكبر واسمعها ويهتز كياني اهتزازا عنيفا وهي تقول : « ربنا يحنن عليك يابا وترجع مجبور الخاطر » . وكنت ارى بعيني رأسي قسمات وجه الرجل وهو يواجه المجهول . كان فيها الايمان والثقة ، وكانت العزيمة تطل من عينيه كما كان يطل منهما القلق . وكنت اقول ان هؤلاء البائعين المتجولين وغيرهم كثيرون يواجهون المجهول فى كل يوم بل فى كل ساعة من ساعات النهار . ولكنى كباحث ذى وقت محدود واعمل انا أيضا لاكسب قوتي وقوت عيالى لا استطيع ان اجرى فى شوارع المدينة وحاراتها وازقتها وبخاصة في الصباح المبكر . وحتي أن استطعت ذلك فان وجودى في القرى المصرية

في مثل هذه الساعة المبكرة لمدة طويلة يكاد أن يكون مستحيلا . وبينما انا اسير في الشارع خطر لي ان امتطي « تاكسيا » لاجلس كما تعودت على مقهى رودها من ابناء الشعب ، فوجدت بعد ان اخذت مقعدي بجوار السائق كلمة « البطل » مكتوبة على مركبة التاكسي«أقصد علي هيكلها » ، في مكان بارز فسألت السائق من هو هذا البطل ؟ فأجاب بأنه « البطل الروماني » . فسكت ولم اعلق على اجابته ، ولكنى رأيت مالم يكن في حسبان غيري عندما رجعت الى مكتبي وعلمت أن البطل الروماني هو القديس « مارجرجس » . اذن ان سائق التاكسي قد كتب لفظ البطل تيمنا بهذا البطل ولعله ان يكون ايضا راجيا حمايته ، تماما كما كان يفعل المصريون القدماء فضلا عن المصريين المحدثين مسيحيين أو مسلمين . كان الاقدمون يضعون أطفالهم وانفسهم تحت حماية الآلهة ، وجاء المسيحيون فوضعوا أطفالهم وانفسهم تحت حماية القديسين . ونرى المسلمين يضعون أطفالهم وانفسهم تحت حماية الاولياء . ولا تكون الحماية في كل الاحوال هي الهدف بل نجد التبعية للاله أو القديس أو الولي فضلا عن الولاء لكل هؤلاء . وسائق التاكسي يواجه هو الآخر المجهول منذ أن يبدأ عمله حتى لحظة الانتهاء من هذا العمل . ومنذ تلك اللحظة وجهت عنايتي كل عنايتي الي مايكتبه أصحاب السيارات والاوتوبيسات واللوريات والعربات ، ومايكتبه سائقوها ، من كلمات وعبارات على هياكلها او يعلقونه بالاضافة الى هذه الكلمات والعبارات أو بدونها من أشياء معينة درءا للحسد او طلبا للرزق او رجاء الوقاية من

المجهول . وقد حفزني مالاحظته الي الداب سعيا في اوقات فراغي وراء كل سيارة « ملاكي » ووراء كل سيارة « تاكسي » ووراء كل اوتوبيس وكل لوري ، ووراء كل عربة « كارو » او عربة تبيع المأكولات او المشروبات في احدى عشرة محافظة من محافظات جمهورية مصر العربية. وذلك لكي اجمع ماكتب علي هياكل هذه المركبات . ومر الوقت وانا افعل ذلك . ثلاث سنوات لا اكثر ولا اقل . وكنت ادخل « الجراجات » . وكنت أقف علي ابواب الطرق الموصلة الي محافظة القاهرة . لكي اوفر الوقت . واذا ماسافرت الي محافظة من المحافظات الاحدى عشرة كنت اسجل ما أراه علي المركبات التي تصادفني واصادفها في كل محافظة وكان يرى الناس ما افعل فيهز البعض منهم رءوسهم اسفا لانهم كانوا يظنون انني لست في مستوى عقلي سوي . او كان يبدى البعض الاخر الشك والريبة اللذين يترجمان مشاعرهم المتوجسة نحوي ويحسبون انني من رجال شرطة المرور وقد جئت اكتب لاصحاب المركبات او من يسوقونها المخالفات دون مبرر او جريرة . وقد لاحظت في خلال عملية جمع الكلمات والعبارات المكتوبة علي هياكل المركبات « خمسمائة مركبة » تنوعها وتكرارها وتباين أشكالها ومعانيها . كما لاحظت أن المسألة لاتقف عند حد اثبات أو عدم اثبات وجود اسلوب جديد لمواجهة المجهول في مجتمعنا المصري المعاصر ، بل تتعدى ذلك الي آفاق تمس المناخ الثقافي الاجتماعي لهذا المجتمع ، وتعكس الكثير من العناصر الثقافية غير المادية التي تملأ هذا المناخ وتعيش في كيان اعضاء هذا المجتمع وفي نفوسهم . ولاحظت كذلك ان المركبات التي تكتب عليها الكلمات والعبارات هي في

حقيقة الامر تحمل هذه العناصر الثقافية غير المــادية وتعلن عنها حيثما تسير وكأنها جهاز أعلامى شعبى مــن اجهزة الاعلام فى مجتمعنا المصرى المعاصر يتحرك على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه . وفى ضوء نتــائج البحث الحالى ، وفى ضوء دلالات هذه النتائج ، تبين أن الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل المركبات موضوع الدراسة ، على الرغم من أن بعضها متكرر ، وان معانى بعضها متشابهة ، وعلى الرغم من أن اشكالها متعددة ـ قد اختارها كاتبوها انفسهم بمحض ارادتهم واصروا على كتابتها على هياكل المركبات التى يستخدمونها على الرغم من عدم موافقة الدولة على هذه الكتابة . وانهم اذ يكتبون مايكتبون بمحض ارادتهم ، فانهم فى حقيقة الامر يحاولون أن يسمعوا أصواتهم دون ان يراهم أحد ، اى انهم فى حقيقة الامر يحاولون بمحض ارادتهم أن يهتفوا . وكاتبو الكلمات والعبارات موضوع البحث فى ضوء الظـروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، اى ظروفهم الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، اذ يهتفون بمحض أرادتهم ، قد استخدموا دون ما ارادة احـدى وسائل التعبير عند الصامتين من أعضاء مجتمعنــا المصرى المعاصر ، هى فى حقيقة الامر وسيلة جديدة تجلجل فيها أصواتهم دون ان يراهم أحد ، ويعبرون عن طريقها عــن انينهم وعن آمالهم وافراحهم وأتراحهم واستســلامهم ودعاباتهم ، وعن بعض القيم التى يقدسونها وبعض انماط تفكيرهم . وقد اتممت البحث المشار اليه فى الاسـبوع الاخير من شهر أغسطس عام ١٩٧٠ ، واصررت على طبعه على حسابى وتم نشره فى غضون عام ١٩٧١ بعنوان « هتاف الصامتين : ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات

فى المجتمع المصرى المعاصر » . وكان لنشر هذا الكتاب صدى طيبا حتى ان الاستاذ الكبير احمد بهاء الدين كتب مقالا فى جريدة الاهرام الاسبوعية بعنوان « هتـاف الصامتين » واشار الى الكتاب بعد أن حلل محتوياته وابرز اهم نتائجه ، وذلك بمناسبة مرور الذكرى الثالثة على وفاة الرئيس جمال عبد الناصر .

وفى ضوء نتائج البحث الذى يضمه كتاب « هتاف الصامتين : ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر » ، وفى ضوء دلالات هذه النتائج ، تبين ان مايدعو اليه الجهاز الاعلامى الشعبى الجديد يتضـمن الكثير من العناصر الثقافية غير المادية السلبية « اى التى تكون اهدافها سلبية فى الغالب » التى توجد ولاتزال فى المجتمع المصرى المعاصر ، والتى يتهم لوجودها المجتمع المصرى المعاصر اتهاما صارخا ، فهى تعتبر فى حقيقة الامر امتدادا للعناصر الثقافية غير المادية الباليـــة التى وجدت فى ظل ظروف ثقافية اجتماعية واقتصـــادية وسياسية وبقيت كامنة تظهر كلما اتاح المجتمع المصرى، فى الظروف غير المواتية ، ظهورها لتؤدى وظائفها التى تتفق مع هذه الظروف غير المواتية ـ ومع ذلك فاننـا نلاحظ أن البحث المذكور اذ يبرز هذه العناصر السلبية ، يبرز فى الوقت نفسه الحاجة الملحة الى مواجهتها والى محاولة تغييرها الى الافضل . ولم تبين نتائج هذا البحث هذه العناصر الثقافية غير المادية السلبية فحسب ، بل ابرزت اصالة مجتمعنا المصرى المعاصر ، واصالة روح مصرنا الخالدة وعمقها وروعتها فى شخص عناصر ثقافية غير مادية اخرى تتسم ، على الرغم من كونها مطلقة ،

بالايجابية « أى التى تكون أهدآفها ايجابية فى الغالب » وهى الاخرى فى حاجة ملحة الى تثبيتها ودعمها « وذلك بغرس الحاجة فى نفوس أعضاء الشعب اليها » أو اعادة تفسيرها حتى تستمر وهى فى ثوبها الجديد تتلألأ فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى المواتى « اى الذى تفرزه الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسة المواتية » ، ومن ثم تستمر تشع المحبة والسلام والوطنية ، وتدعو الى الحق والعدل والحرية ، وتطبق كل ذلك تطبيقا انسانيا رشيداً .

ووجدت نفسى فى ضوء هذه النتائج اواجه « ظاهرة الازدواجية الثقافية » وجها لوجه . وقد اكدت هذه المواجهة الكتاب الذى قمت بتاليفه وموضوعه : « حديث عن المراة المصرية المعاصرة : دراسة ثقافية اجتماعية » والذى طبع ونشر فى عام ١٩٧٧ . وكان للسيدة الزا ثابت الفضل الاكبر فى تيسير طبعه ونشره بعد ان أعجزتنى الظروف المعاشية عن القيام بهذا العبء . ولا انسى فى هذا الصدد فضل العزيز احمد عويس الذى ارسل لى بعض النقود وهو يواجه الحياة فى احدى الدول العربية ، مغتربا ويكد ويكافح بشرف من اجل دعم حالته الاقتصادية . ولولا عون هذين الشخصين الكريمين ربما لم يكن قد خرج هذا الكتاب الى حيز الوجود . أنه كتاب عزيز على لا لاننى عانيت فى تاليفه ولكن لان المراة المصرية بأدوارها الاجتماعية العديدة لا تحيا كما كان يرجو لها الامام محمد عبده وقاسم امين ومن قبلهما رفاعة الطهطاوى ومن جاء بعدهم من السيدات الفضليات « عائشة التيمورية وملك حفنى ناصف وهدى

سلطان الشهيرة بهدى شعراوى » وغيرهم من كبار المفكرين المنصفين كالاستاذ سلامة موسى والدكتور طه حسين والاستاذ لطفى السيد . وقارىء الجزء الاول من الكتاب الحالى : « الارض والبذور » بخاصة قد يجد سر اهتمامى الكبير برفع المستوى الانسانى للمرأة المصرية والحرص على كرامتها واحترام مشاعرها كانسانة تكمل الرجل والرجل يكملها . هى تكمل الرجل بادوارها الاجتماعية كأم وكزوجة وكأخت وكابنة وكزميلة وكجارة .. والرجل يكملها بأدواره الاجتماعية كأب وكزوج وكأخ وكابن وكزميل وكجار .. وقصة كتابة هذا الكتاب الذى اهديته الى حفيداتى موجودة بين دفتيه . ومع ذلك فقد لاحظت ان نتائج بحوثه ودراساته التى قمت باجرائها فى الواقع الاجتماعى الحى للمجتمع المصرى المعاصر فى ضوء خبراتى به وهى بالضرورة محدودة ، لانها لا تقول كل شىء ، لانها لا تستطيع أن تقول الا بعض الاشياء . وهى خبرات تتضمن فى بعض الاحيان بعض الانطباعات وبعض الاراء ، وان كان همها الاول أن تقتصر على الحقائق عن طريق ما أجريته من البحوث الميدانية على اختلاف مستوياتها وأن تعتمد على نتائج هذه البحوث — لاحظت ان هذه النتائج تؤكد أن التحدى الحقيقى فيما يتعلق بالمجالات الثقافية الاجتماعية كالعلاقة بين الرجل المصرى والمرأة المصرية والعلاقة بين الاباء والابناء مثلا ، او كالمشاكل التى يواجهها المجتمع المصرى المعاصر كمجتمع نام ، يكون أى هذا التحدى فى مواجهة المشكلة الكبرى الا وهى اختلاف ماهو ايجابى فى التراث الثقافى الاجتماعى المصرى النظرى المتعلق بموضوع العلاقة بين

الرجل المصرى والمرأة المصرية وبين الآباء والابناء مثلا ، او بموضوع المشاكل التى يواجهها المجتمع المصرى المعاصر كمجتمع نام ـ عما يمارسه أعضاء هذا المجتمع . اى مواجهة «ظاهرة الازدواجية الثقافية » التى توجد فى هذا المجتمع . والمعروف أن كل المجتمعات الانسانية المتقدمة منها وغير المتقدمة توجد فيها هذه الظاهرة ، ولكن عوامل وجودها فى مجتمع كالمجتمع المصرى ، القديم قدم الدهر والمستمر استمرار الحياة ، تختلف بالضرورة عن عوامل وجودها فى المجتمعات الانسانية الاخرى . ومظاهر هذه الظاهرة واشكالها تختلف كذلك عن مظاهرها واشكالها فى هذه المجتمعات . والملاحظ ان مفهوم « الازدواجية » قد يطلق عليه مفهوم « الثنائية » فى بعض الاحيان . ولكنى فضلت المفهوم الاول بالمعنى الذى تبناه مضمون كتابى « الازدواجية فى التراث الدينى المصرى : دراسة ثقافية اجتماعية تاريخية » وهو كتاب مازال يحاول ان يجد ناشراً لطبعه وتوزيعه حتى كتابة هذه السطور . وقد فضلت مفهوم الازدواجية لان مفهوم الثنائية مفهوم فلسفى فى اغلب استعمالاته . نجد ذلك عند التحدث عن مفهومى الطبيعى وفوق الطبيعى ، وعن مفهومى الفكر والمادة ، وعن مفهومى النفس والجسد ، وعن مفهومى الاخلاق والسلوك « على اساس ان الخلق شىء نفسى داخلى او هو الدافع الذى يحرك الانسان للفعل اى للسلوك » . ويلاحظ ان معنى مفهوم «الازدواجية» الذى تبنيته هو معنى فكرى يعنى على وجه العموم التناقض بين مايقال وبين مايعمل ، اى التناقض الذى نجده فى أحد معانى المفاهيم على الرغم من عدم

تغيير لفظه « مفهوم الصبر مثلا » . او المتناقض بين مايقال فى مجال معين ومايقال فى نفس المجال ، ومن الامثلة على ذلك مانجده من القيم المتناقضة التى يمارسها اعضاء المجتمع المصرى فى المجالات المتماثلة « اللقمة الهنية تكفى ميه . واللى لك محرم على غيرك مثلا » او التناقض او الصراع بمعنى ادق بين القديم وبين الجديد « الطب الاكلنيكى والوصفات الشعبية مثلا » . والملاحظ ان « التراث الدينى » هو جزء هام من اجزاء « التراث الثقافى » . وهو فى مجتمعنا المصرى المعاصر يمثل أهم القيم الثقافية وربما اكثرها . ولم أعن فى هذا الكتاب بالتراث الدينى على اطلاقه ، بل كان اهتمامى بتراث الدين الاسلامى على وجه الخصوص . ولم يكن فى وسعى ابدأ أن اهتم بالتراث الاسلامى كله . ولكننى عنيت اول ماعنيت ، فى ضوء خبراتى بابراز ازدواجية هذا التراث ، اى التناقض الواضح بين مايقال عن هذا التراث نظريا وبين مايمارس فعلا فى الواقع الحى فى المجتمع المصرى المعاصر فى بعض المجالات التى تدور حول :

- الازدواجية فى العقيدة .
- الازدواجية فى العبادة .
- الازدواجية فى المعاملة .

ومضمون هذا الكتاب فى ضوء نتائجه يرجو القارىء ان لايعتبر ظاهرة « الازدواجية فى التراث الدينى المصرى» بالمعنى الذى تبناه مجرد ظاهرة من ظواهر رواسب الماضى . انها أعمق من ذلك مافى ذلك من شك . وهى ليست منعزلة عن غيرها من ظواهر المجتمع . ذلك لان

الدعوة التى ينشدها الكتاب هى فى حقيقة الامر دعـوة الى مواجهة الواقع الثقافى الحى فى المجتمع المصرى المعاصر بقصد تغيير هذا الواقع الى الافضل . وترتـكز هذه الدعوة بالضرورة على دعائم او مطالب يجب ان تيسر التطوير والتغيير الى الافضل . اى ان مواجهة الواقع الثقافى التى دعوت اليها تعنى فى حقيقة الامر مواجهة مطالب هذا التطوير وهذا التغيير لاننا حينما نواجه هذه المطالب لا يكفى ان نقف عند الامور التى لا نرضى عنهـا بوصفها انها مجرد رواسب . اننى عندما عالجت موضوع « الازدواجية فى التراث الدينى المصرى » فى ضـوء المجالات التى اخترتها لم اكتف بوصفها ، ولكننى فضلا عن ابراز وجودها حاولت أن ابرز ايضا بعض عوامـل وجودها ، ومواقعها ، وصورها أو الاثواب التى تلبسـها فضلا عن آثارها المعوقة لتحقيق اهداف المجتمع المصرى المعاصر وامانيه فى المستقبل المشرق الذى يرنو اليه .

وقد لاحظت ، كما كنت الاحظ من قبل ، أهمية رجال الدين فى المجتمع المصرى المعاصر . وجازفت بنقل احدى التجارب العلمية التى كان من حظى ان اخوضها عنـدما كنت ادرس فى « جامعة بوستن » فى خلال الاعـوام ١٩٥٣ ــ ١٩٥٦ . كنت واحدا من عشرة طلاب يدرسون نظريا وعمليا موضوع « العلاج الجماعى فى مستشـفى بوستن السيكوباتى » . وكان الطلاب التسعة مـن رجال الدين المسيحيين ، وكنت الوحيد الذى لم اكن مـن رجال الدين وكنت فى الوقت نفسه مسلما يؤمن بالدين السماوى اليهودى وبالدين السماوى المسيحى .. وقد راى أستاذى « البرت موريس » أن اخوض هذه التجربة

فى هذا الموقع من الدراسة النظرية والعملية . عشت مع زملائى تحت اشراف وكيل المستشفى « البروفسور روبرت . ذ . هايد » . وكانت هذه التجربة موفقة مافى ذلك من شك . فقد أكدت لى ان العلم والدين لا يتنافران بل على العكس وجدت انه فى ضوء نتائجها التى ضمها كتابى وعنوانه « محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة » ان العلم قد اثبت مايدعو اليه الدين ، وان الدين قد اكد ماوصل اليه العلم . لقد كان من حظ هذا الكتاب ان تتبناه « دار الكاتب العربى للطباعة والنشر » فتطبعه وتوزعه فى عام ١٩٦٨ واتقاضى عن ذلك عائدا ماليا . كنت فى ذلك الحين ومازلت أدعو الى سيادة العلم ومنهجه . فقد لاحظت فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى أنه توجد علوم اربعة . منها بالضرورة « العلم العصرى » الذى بشر ببداياته علماء مسلمون افاضل ابتداء من « جابر بن حيان » ، أى منذ القرن الثامن الميلادى . والذى أكمله علماء الغرب من تلاميذ ومريدى العالم الفيلسوف « ابن رشد » « مات فى عام ١١٩٨ م » . اى ان العلم العصرى كخبرات انسانية منتظمة التى يحصل عليها العالم عن طريق منهج معين هو المنهج العلمى الذى لا يعنى الحفظ والتلقين بل الذى يواجه ظواهر الطبيعة او ظواهر المجتمع مواجهة موضوعية . وهو اذ يفعل ذلك يكون دائما مهتديا بالشعار القائل « لا شىء ياتى من لاشىء » . وهو المنهج الذى يحاول دائما أن يكون منهجا لفهم الحياة بقصد تغييرها . ويسعى دائما الى الاجابة عن السؤالين كيف ؟ ولماذا ؟ اى التعرف على العوامل التى تكون من وراء وجود هذه الظواهر

وعلى القوانين التى تحكمها ، مع ملاحظة انه كمنهج لايبحث ابدا ولا يهمه أن يبحث ابدا عن الاجابة عن السؤال لماذا ؟ على وجه الاطلاق . بل هو فى بساطة يدرس الظواهر المادية والانسانية دراسة واقعية ، اى يقوم بدراسة العلاقات بين الاشياء وقوانين حركتها الداخلية فى ضوء الطبيعة والمجتمع وليس فى ضوء بعض المبادىء المنطقية والعمليات العقلية فحسب . وفى ضوء شعار منهج العلم العصرى « لا شىء مطلق » فاننا نجد انه اذا كان هذا العلم قد يستخدم فى وقت الحرب كسلاح رهيب فتاك « القنبلة الذرية مثلا » فان بعض آثاره التى يصل اليها العلماء فى أثناء الحرب تنقذ الارواح فى وقت السلام . واذا كان العلم العصرى فى بعض المجتمعات الراسمالية المتقدمة قد اسهم فى انتاج الحضارة الاستهلاكية المعاصرة ، التى اختزلت الانسان الى بضاعة تنتج البضاعة وتستهلك البضاعة ، وجعلت منه مستهلكا سلبيا يفعل الحب ولا ينفعل ، والذى اصبح فى كنفها كلما ازداد ثراؤه الكمى بامتلاك الاشياء ازداد فقره النوعى من امتلاك الضجر له وابتعاد حلم السعادة الحقيقية المعاشة التى تجعل منه انسانا كاملا لا انسانا مشطورا على ذاته ومعزولا عن الآخرين الذين لم تعد علاقاته بهم الا علاقات بين اشياء ــ فان ذلك لا يمكن ان يكون مرجعه الى العلم العصرى الذى عرف سر الطبيعة والمجتمع وامكنه بطاعتهما أن يتسلط عليهما ويتحكم فيهما وكان من نتائج ذلك التقدم الهائل الذى نراه جميعا وبخاصة مايتوقعه علماء الفضاء فى خلال السنوات العشر القادمة ٪ اى منذ كتابة هذه السطور ٪

حيث ستكون هناك رحلات فضاء مختلفة لكواكب واقمار « المجموعة الشمسية » فضلا عن رحلات عديدة لمدار الارض واعداد الاجهزة العلمية ماتستطيع ان تستخدم في أكثر من رحلة ولاكثر من سنة ، وحيث توجــد الامكانية ليبدأ الانسان في عصر الفضاء اى عندما يكون هناك انسان يعيش فى الفضــاء من أجـل اســتخدام مايمكن استخدامه في الفضاء للتصنيع الذى ســيكون حتما ارخص من التصنيع في الارض وبخاصة ما تعلق بالنباتات والاعشاب الطبية والعديد من الصناعات الطبية الاخرى مثل الامصال واللقاح والبنسلين . واذا كان مرجع اثار العلم العصرى لايعود الى هذا العلم الذى عرف كما ذكرنا سر الطبيعة والمجتمع وامكنه بطاعتهما أن يتســلط عليهما ويتحكم فيهما ، فان مرجع ذلك يعود الى ارتباط العلم العصرى بايديولوجية معينة او بفلسفة معينة . وانني ارى أن هذا لايعيب هذا العلم فى شيء فالعــلم العصرى يجب ان يكون بالضرورة للمجتمع . والمجتمعات مازالت متباينة . أى ان ايديولوجياتها ، او فلســفاتها السائدة متباينة كذلك . وهذا العلم اذ يتعرف موضوعيا على ماهو كائن فى الطبيعة وفى المجتمعات لكى يفهمها يحاول ان يغيرها الى مايمكن ان يكون احيانا او يغيرها الى مايجب أن يكون احيانا آخرى. ويكون التغيير فى المجتمع الاشتراكى بالضرورة فى سبيل مصلحة الملايين وفى المجتمع الرأسمالى يكون التغيير بالضرورة فى سبيل حفنة من اعضاء المجتمع او حكومة تحكم باسم هذه الحفنــة من الناس الذين لاهم لهم الا أن يملئوا جيوبهــم بالارباح الوفيرة .

وكما يوجد فى مجتمعنا المصرى المعاصر العلم العصرى نجد ايضا « علم السيميا » وهو علم له فروع سبعة او وسائل سبع هى : علم الاعداد وعلم الاوفاق وعلم الحروف وعلم الطبائع الاربعة وعلم الكواكب والافلاك والبروج والمنازل وعلم الاختبارات النجومية وسعدها ونحسها وشرفها واتصالاتها ثم علم الأسماء والرقى والدعوات . والملاحظ ان علم السيميا فى ضوء منهجه « او مناهجه » لا يمكن ان يكون علما عصريا . ومع ذلك نجد الداعين اليه يشيعون بكل الاساليب أن من يمارس فروع هذا العلم أو وسائله يستطيع بها ان يتصرف على جميع مافى الكائنات من خير وشر وجلب وطرد ، فاهداف هذا العلم فى أعمال الخير كالترياق ، وفى أعمال الشر كالسم الناقع . ومفهوم « الخير » هنا مفهوم غامض اى ان معانيه عديدة ، ويتوقف كل معنى على اختيار الممارس ، وما ينطبق على مفهوم الخير يسرى على «مفهوم الشر » كذلك . وهناك علوم أخرى غير علم السيميا بفروعه ووسائله ، وأن كانت تتصل به فى ضوء طبيعته واهدافه . فهناك علم « الكوتشينة » وهناك علم « الفنجان » وهناك « علم الكف » وهناك « علم الطوالع » طوالع الرجال والنساء وما يسمى بالطالع الحدسى وغيرها . وكل هذه العلوم الزائفة التى تسمم الفكر فى مناخنا الثقافى الاجتماعى المصرى تعيش وتزدهر لاتزال . ويبدو ان علم السيميا ومايتبعه من علوم زائفة قد تعمد المتعمدون ان يدخلوها فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى عمداً . وقد ذكرت ذلك فى الجزء الاول من الكتاب: الأرض والبذور ، وفى الجزء الثانى : ماء الحياة بما فيه

الكفاية . ولعل القارىء أن يلاحظ « نجمة داود » التي لا يستثني من وجودها « حجاب » من الاحجبة ذات المقاصد المتعلقة بالرقي والدعوات وشفاء الاطفال من الامراض ووقايتهم وغير ذلك من الاهداف التي يتلهف من اجل تحقيقها العديد من الموطنين المصريين المعاصرين ؟ ويلجاون بكل الوسائل وربما يكون ايسرها دفع الاموال الطائلة لكي يتم المراد !.

ومن المصريين المعاصرين من لايعترفون بالعلوم الزائفة السابقة علينا ، وان اعترفوا بها ممارسة . وهم لايعترفون ابدا بالعلم العصري علينا وضمننا . والعلم عندهم ولا علم غيره هو « العلم اللدني » . وتراهم يقولون كل شيء عن هذا العلم ولا يثبتون شيئا عن وجوده . فلا أدلة عندهم تدل على وجوده او الفائدة المرجوة منه سواء كان ذلك في حياة الدنيا او في حياة الاخرة . وللوصول الى هذا العلم مستويات ومنازل ، وأساليب الوصول اليه عديدة - ومن أساليب الوصول الهامة اسلوب « حلقة الذكر » ذكر الله جل وعلا والصلاة على النبي المختار حيث يترنم أعضاء الحلقة بأوصاف النبي صلى الله عليه وسلم ويرددون اوصافه العديدة . وقد تحدثت عن ذلك من قبل في الجزءين السابقين ، ولعل القارىء الكريم الذي اوصيته راجيا أن « يقرأ الدراسة الحالية بترتيب ورودها » حتى تكون أجدى عليه وأيسر ؟ لانها كتبت لتقرأ كذلك ، اى لتقرأ قراءة متصلة — أن يكون قد اتبع وصيتي هذه .

ولعل العلم الرابع ان يكون خطيراً كذلك . واقصد بهذا العلم « علم الفهلوة » وأقصد بخطورته وقوفه

حجر عشرة امام النهضة التى آن الاوان لكى تنبعث فى مجتمعنا المصرى المعاصر . فالملاحظ أن أعضاء هذا العلم أى أن المصريين المعاصرين الذين يمارسونه هم الذين يدعون العلم بالامور كلها على اختلاف أنواعها . فهم العلماء العصريون تارة ، وهم العلماء المزيفون حفظة التراث المصرى الاصيل تارة أخرى ، وهم العلماء اللدنيون الواصلون العارفون تارة ثالثة . ولعل وجود هؤلاء أن يكون مرجعه الى ضعف العلماء العصريين فى الوقت الحاضر ، ومن ثم الى غلبة العلماء الاخرين . فالملاحظ ان العلماء فى مصر ، أقصد المتعلمين الذين كانوا منذ الماضى السحيق من رجال الدين أو الادعياء منهم حتى وقتنا الراهن ، وان العلماء العصريين الذين بدأوا عندما بدأت الجامعة الاهلية فى عام ١٩٠٨ ، وحتى من بدأ من هؤلاء كان معظمهم ممن تخرجوا فى جامعة الازهر الشريف أمثال مصطفى عبد الرازق وطه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى وغيرهم . وأنا أذكر — وأنا حديث السن وكنت واعيا — ما اصاب طه حسين عندما نشر كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، وانني أذكر أيضا المعارك التى كانت تنشب بين مفكرى مصر ، والمقالات التى كان بعضها يتهم طه حسين ويضمها كتاب « مصطفى صادق الرافعى » « تحت راية القرآن » ، والتى كان بعضها الآخر يتهم المفكرين الاخرين مثل العقاد وسلامه موسى ، وكنت أقرأ ما اسبغه الرافعى ، بحق أو بغير حق ، على هؤلاء المفكرين من القاب ، فقد لقب سلامه موسى مثلا بأنه « عدو العروبة والاسلام » . وكنت اقرأ ماكان يكتبه الرافعى عن العقاد دون أن يذكر اسمه وماكان يكتبه العقاد عن الرافعى دون

ان يذكر اسمه . وقد قرأت في « جريدة الاهرام » في يوم ٢٠ من شهر ديسمبر عام ١٩٣٥ بيانا يقول فيه العقاد انه تخلى منذ امس عن التحرير في جريدة « روزاليوسف اليومية » التى كانت تصدر في الثلاثينيات . ولكن لم ترض الرافعى هذه الواقعة فذكر في احدى مقالاته دون أن يذكر اسم العقاد ، ولكن المتابعين للمعارك الادبية وكنت منهم قرأوا ماذكره الرافعى وفهموا ماذكره عندما كتب :

« قال الرجل : اني خلعت الحذاء . فردت الحذاء قائلة : اني خلعت الرجل » .

ومهما يكن من الأمر فان عدد عوامل وجود المصريين المعاصرين الذين يمارسون علم الفهلوة قد يكون عددا اكبر مما ذكرت . والتعرف على أهل « الفهلوة » ليس صعبا . فانت تجدهم الاشخاص الذين يبحثون باستمرار عن أقصر الطرق وأسرعها لتحقيق الاهداف الدنيوية والاخروية على السواء . وأنت تعرفهم عندما يتجنبون العناء والجهد المطلوبين عادة في اجتياز العقبات للوصول الى تحقيق هذه الاهداف والغايات . فتراهم يتجنبون استخدام الوسائل الطبيعية لتحقيق هذه الأهداف والغايات ، ويكون همهم ليس انجاز العمل على أكمل وجه ، وانما انجازه وتحقيق أهدافه وغاياته حتى لا يقال عنهم أنهم عاجزون عن ذلك . ومن سمات هؤلاء أيضا مانلاحظه عند يعجزون عن تقبل الحقائق الموضوعية ، اى عندما يعجزون عن تقبل الواقع وفقا لما تفرضه الظروف الملحة من تصرف سريع ، مما يضطرهم الى اخفاء العيوب والفشل والنقائص بغية انقاذ المظاهر والحفاظ على ماء الوجه .

انهم الادعياء الذين يعرفون كل شيء ويرون ان غيرهم لا يعرف شيئا . انهم الذين ، فى ظل بعض الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، رفعوا فى يوم منكود شعار « اهل الثقة » أولا ثم « اهل الخبرة » أخيرا وآخرا وكأن الوطنية مقصورة عليهم . والفهلويون فى كلمة قصيرة هم الانتهازيون الملونون المتلونون المنافقون . وقد سجلت كل ذلك واكثر فى بعض الكتب والدراسات التى نشرتها وبخاصة فى مقدمة كتابى « حديث عن المرأة المصرية المعاصرة : دراسة ثقافية اجتماعية » . ولعل قارىء الكتاب الحالى أن يتفضل بالرجوع الى مانشر لى فى هذا الصدد .

وانني اذ أدعو ملحاً الى سيادة العلم العصرى ، ومازلت افعل ذلك ، فانني لاحظت ، ومازلت الاحظ ، ان الكثيرين يرون ان نتائجه غير كافية . فهى لا تتصل بالحقيقة المطلقة بسبب . ونحن فى ضوء الظروف المختلفة التى يواجهها مجتمعنا المصرى المعاصر لسنا فى حاجة الى الحقيقة المطلقة . أن هذا المجتمع فى ضوء ظروفه الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لا يحتاجها . انه يحتاج الى الحقيقة التى تقطع دابر عدونا الماكر الغدار ، والتى تيسر القضاء على الامية وعلى البلهارسيا وعلى الجرائم بانماطها العديدة « الرشوة والتهريب وتعاطى المخدرات والاتجار فيها وغيرها وغيرها » فضلا عن المشاكل الاجتماعية العديدة الاخرى . ان الحقيقة المطلقة لا تواجه هذه المشاكل الاجتماعية الخطيرة ولا تواجه غيرها مثل مشاكل الاسكان والمرور والنقل والمرافق والهجرة الداخلية والصراع الثقافى بين الاجيال . ولايحق للقارىء ان يتهمنى

بأنني مع العلم العصرى على حساب الفن بأنواعه ، لان الفن بأنواعه احد مصادر المعرفة الانسانية ، وهو مصدر هام يحتاج اليه الانسان ماعاش . ولعل الفن الصادق أولى ، فى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر ، بالـــرواج والغلبة . ان الفن الصادق بكل انواعه نشاط انســانى ينبع من الحياة ويصنب فى الحياة وييسر مواجهةالحياة . انني اذ ارفع شعار ان يكون العلم العصرى حكما اعلى فى شئون الفكر فى مجتمعنا المصرى المعاصر ، أؤكد ان الفن الصادق بانواعه فى ضوء انسانيتنا ضرورة لا يمكن ان يستغنى عنها بحال . واذا كان الاقتناء فى مجـــال الثروة والسلع المادية وما شابهها لا يمثل عندى اهمية انسانية كبرى ، فان الاستغناء عن الفن الصادق بأنواعه يعتبر بحق اهدارا للانسـانية .

ولا يحق للقارىء الكريم ان يتهمنى ايضا بأننى مــع العلم العصرى على حساب الدين . فالدين لله والمجتمــع لاعضائه . ان الدين منطقة لها أصولها الجذرية فى مجتمعنا المصرى . وهو منطقة ايمان بما يدعو اليه فى مجالاته العديدة واهمها مجال العقيدة ومجال العبادة ومجـال المعاملة . والدين ذو الاصول الجذرية فى المجتمع المصرى لا يحتاج الى من يحميه من البشر ، فله رب يحميه . وقد اجتمع العلم العصرى مع الدين فى التجربة العلمية التى ضمها كتابى « محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة » . كانت هذه التجربة كما ذكرت من قبل مجرد برنامج دراسى ولعل الخبرة الاساسية فى هذا البرنامج أن يكون مصدرها الحقيقى وجود الفرصة المتاحة لكل طالب لمقابلة زملائه يوميا فضلا عن الطلبة الاخرين ، تحت قيادة الطبيـــب

النفسي المسئول « بروفسور هايد » . وقد تحدد حجم الطلبة فهو كما ذكرت آنفا لايزيد على عشرة أعضاء ، وذلك لامكان مشاركة كل عضو في الخبرة الجماعية . ان البرنامج الدراسي يهتم بالعلاج الجماعي الدينامیکی حيث يشارك كل طالب فيه عن طريق عملية فهم نفسه وفهم الآخرين . فهو يعرض على أعضاء الجماعة مشاكله الخاصة ، كما يعرض مشاكله مع المرضى كأفراد «أشخاص » أو المرضى كجماعة ، فضلا عن مشاكله مع الجماعات الاخرى في خارج المستشفى . وأمام اعضاء الجماعة ، ، جميعهم ، يكشف عن خبيئة نفسه . يكشف عن استجاباته السارة وعن استجاباته غير السارة التي تثيرها هذه الخبرات في نفسه . ومن أهم جوانب البرنامج الدراسي محاولة تقويم العمليات الجماعية لتنظيم الجماعات وتطورها . حيث ان الخبرات التي يحصل عليها الطالب في اثناء هذا البرنامج تتصل اتصالا مباشرا بالخبرات الجماعية التي يقضى معها ــ وهو رجل ديني ــ حياته . ذلك لان اساليب الملاحظة وتقويم العمليات التي يعرفها الطالب بل ويمارسها في اثناء البرنامج الدراسي يمكن تطبيقها على الجماعات التي يعمل معها . الجماعات التي هي في الواقع معين للبحث لا ينضب ، فحاجاتها الى البحث أمر ضروري ، وهي في الوقت نفسه مصدر لهذا البحث . وقد أفدت من كل ذلك فيما بعد ولعل بعض آثار هذه التجربة أن يجدها القارىء الجاد في ثنايا الكتاب الحالي بأجزائه الثلاثة . وقد نجحت الجماعة التي كنت احد اعضائها في اختيار موضوع « الشعور بالعداوة » موضوعا لدراستها . ذلك لان

البرنامج الدراسي كان يقضي بتقديم مشروعا فى تقرير مكتوب فى نهاية فترة الدراسة « فى خلال المدة من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ حتى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ » . وقد استخدم الاعضاء للوصول الى مصادر الشعور بالعداوة اساليب عدة . منها ملاحظة مشاعرهم واستجاباتهم الشخصية فى اثناء وجودهم فى المستشفى . لاحظوا ذلك كجماعة وكأشخاص كذلك ، كما لاحظوا ذلك على بعضهم بعضا . وبهذه الوسيلة أمكنها جمع الحقائق اللازمة ثم أمكنهم أن يضعوا فروضا معينة ثم يحاولوا أثبات صحة هذه الفروض فى ضوء تجاربهم كجماعة وتجاربهم الاخرى كأشخاص يعيشون فى المجتمع. وارجو أن يلاحظ القارىء أن المنهج الذى اتبعته الجماعة مسجل فى كتاب « محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة» ومن حقه اذا وجد الوقت الكافى ان يرجع اليه بالتفصيل ولكن لا يسعنى هنا الا أن اسجل موافقة التعبير السليم عن الشعور بالعداوة ، اجمالا من غير تفصيل ، مع مضمون الآية القرآنية الكريمة :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، أدفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »

« سورة فصلت : آية ٣٤ »

وكان من أهم ماانتهى اليه أعضاء الجماعة هو فرض عام يتلخص فيما يلى :

« أن تهديد أى شخص بالقيام بفعل بغيض او توجيه هذا الفعل البغيض ضده ، يثير عادة أنواعا متباينة من الاستجابات فى نفسه قد يكون الشعور بالعداوة احدها » .

وكان أعضاء الجماعة جميعا على وعى بأن المقصـــود بالتهديد هنا هو الخوف الحقيقى او الوهمى من امـور بغيضة معينة مثل الاذى او الضرر أو التحقير او حرمان الذات حرمانا على مستوى معين . وقد يتحقق هـــذا التهديد عند اعاقة شخص معين من فرصة فهم نفسه حق الفهم او من توقع هذا الشخص تحقيره أو تقييده ، وقد يتحقق هذا التهديد ايضا اذا خشى الشخص من رفض الاعتراف بحاجاته المشروعة أو رفض الاعتراف بحقـوقه كعضو فى جماعة معينة . وفى ضوء كل هذا آثرت ان يضم الكتاب المذكور دراسة احدى الحالات عن شـــاب مصرى ادين فى جريمة قتل مرتين ، وحكم عليه بالاعدام فى كل جريمة اى مرتين كذلك . على أساس ان قتـــل انســان آخر يعتبر « ذروة الشعور بالعداوة » . وكـــان قيامى ببحث حالة هذا الشاب بحثا أجتماعيا تجـــربة مثمرة لى . لقد قمت ببحث حالات عديدة من قبـــل فى محيط الاحداث وفى محيط الشبان ، مصريين وغـــير مصريين ، ولكن لم يكن من بينهـــم شخص قتـــل مرتين وحكم عليه بالاعدام مرتين . لقـــد كان من غير اليسير مقابلة هذا الشاب فى خارج « زنزانته » الا وفى يديه الاغلال وبصحبة احد حراس « سجن الاستئناف » حيث كان يودع فيه . ولكنى فضلت مقابلته دون حراس ويديه حرتين فى الزنزانة . واعترف انه ليلة ذهابى لمقـــابلته لم انم الا غرارا ، فقد خشيت منه الاذى . ولكننى فجأة تذكرت اننى لا اكن لهذا الشاب بوصفى باحثا اجتمـــاعيا علميا شعورا غير انسانى . فأنا كباحث احاول ان ارصد حركاته وسكناته ومشاعره وردود فعله فضلا عن الظروف

الاجتماعية الثقافية والاقتصادية التي عاش فيها منذ ولادته حتى ارتكب جريمتي القتل وبعد ذلك حتى الوقت الذي اراه في خلاله عند مقابلته . وقلت لنفسي انني مادمت لا اكن له في قرارة نفسي شعورا بالعداوة فانه لن يبادلني هذا الشعور ، لأنه لايوجد عامل حقيقي واضح لذلك . ومع ذلك فانه اذا كان هذا التفسير قد يسر لي النوم وقتا يسيرا ليلة ذهابي لمقابلة هذا الشاب ، فانني لن انسي مطلقا وسأظل اذكر دائما الاحساس الذي ملك على نفسي عندما صحبني أحد الضباط في سجن الاستئناف الي « العنبر » من الفناء وفي أثناء طلوعي السلم الذي يؤدي الى العنبر . ولكنني تمالكت نفسي وعادت الى رباطة الجأش لانني كنت سعيدا أترقب التجربة الجديدة في شوق . وعندما عرفت اين يقيم الشاب تركت وحدي ، ورأيت الشاب أنسانا يبتسم لي . ولعل قارىء هذا الكتاب أقصد كتاب « محاولة في تفسير الشعور بالعداوة » أن يلم ببحث حالة هذا الشاب والمعلومات التي جمعت عنه كانسان وعن اسرته والبيئة الخارجية ومغامراته فضلا عن الجريمتين اللتين ارتكبهما واسلوب ارتكاب كل منهما والدوافع الى ارتكاب كل منهما مع ملاحظة أن كل المعلومات التي جمعت قد جمعت بعد ثبوت الادانة والحكم على الشاب موضوع البحث . ولا اخفي سرا اذ اقول انه عندما نفذ هذا الحكم بالاعدام وجدت نفسي أبكي بكاء حارا ، فقد كانت دموعي تسيل ولم استطع أن اوقف سيلها الا بعد فترة غير قصيرة ، وحزنت من اجل قتله أياما وأسابيع وشهورا ، وحتى الآن كلما اذكره اشعر بالأسى والحزن العميق العميق . واذا

كنت قد بكيت في هذه المناسبة فانني قد بكيت في مناسبات أخرى كذلك .. فأنا لم أكن « حائط مبكى » فقط ولكنى كبشر بكيت فى مناسبات وفاة بعض زمـلائى بالمركز ، وبكيت عندما كنت لا اجد مخرجا وانا اواجه العنت وتعمد الاساءة من أدارة المركز ، وبكيت عندما كنت اواجه من زملائى بالمركز ومن بعض تلاميذى من مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة الوآن الجحود وعدم الوفاء . لم اكن كما كانت ادارة المركز تشيع وتذيع مجرد حائط مبكى أفتح صدرى وقلبى على مصرآعيـه لأنين الزميلات والزملاء كلما اصاب احدهم عنت او ظلم من ادارة المركز ، وياليت هذه الادارة كانت فى ذلك موضوعية بل كانت تبدى الوانا من السخرية ، التى كانت تراها لاذعة ، منى . وانى لهذه الادارة أن تعلم اننى ماكنت أفعل ما افعل الا بقصد توطيد دعائم مهنة البحث العلمـى الاجتماعى من أجل مصرنا الخالدة . ولكن يبدو على الرغم من تفاؤلى الكبير ارى الآن اهتزاز قواعد الاريكة التى تقف عليها هذه المهنة الشريفة فى المركز . ولعل هذا الاهتزاز ان يكون مؤقتا ، ولعل الذين فروا من المركز هاربين من المناخ الثقافى الاجتماعى الذى تعيش فيه قيم التسلط غير المبرر فضلا عن قيم التسيب أن يؤدوا الامانة فى مواقع اعمالهم فى مراكز البحوث الاخرى وفى الجامعات وفى غيرها من الهيئات العلمية .

ويبدو أن تجربة « مستشفى بوستن السيكوباتى » كانت لها آثار أخرى فى تفكيرى فقد دعوت فى اجتماعات « مجلس الخبراء » بالمركز مراراً وتكراراً الى اعـداد برنامج تدريبى لرجال الدين من الشباب فى مصر ، مسلمين

كانوا أو مسيحيين . وذلك لكى يتربى من بينهم « كادر » يحمل شعلة التفكير المستنير ويرى أعضاؤه ماكان يراه العلامة « ابن رشد » الذى نجح فى التمييز بين نوعين من الحقيقة : حقيقة الوحى وحقيقة العقل . اى أن دعوته فى القرن الثانى عشر الميلادى كانت دعوة الى تحرير العلم من سلطان الدين ، وفى اقامة دعائم عالم خاص به ـ عالم كان من الممكن أن تقبل حقائق العلم فيه بعيدا عن منطقة الدين . وقد أدى ذلك الى تشجيع التقدم فى تشييد بناء علمى متميز . أو ينحى أعضاؤه منحى « الامام الشيخ محمد عبده » الذى لم يكن يعلم فى « الازهر الشريف » النحو والفقه كما كان يفعل غيره من المشايخ وخاصة المبتدئين بالتدريس . فالنحو والفقه كما يدرسان فى الازهر ، من العلوم النقلية ، وهو اى الامام الشيخ محمد عبده كان يريد أن يربى العقل ، ويفهم الكون ويهذب الخلق . ولكن صيحاتى فى هذا الشأن ذهبت سدى . وكانت تشيعها الكلمات الساخرة تصدر من ممثل ادارة المركز ، ولم يكن مع الأسف الشديد لأحد من الزملاء أعضاء المجلس رأى يسندنى فى دعوتى المتكررة .

واذا كان من حظى أن أبدأ أسهامى مع زملائى طالبات وطلبة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وخريجها فى ارساء مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر منذ عام ١٩٣٧ وحتى كتابة هذه السطور ، فان من واجبى ان اسجل متى وكيف نشأت هذه المهنة ، وقبل ذلك لماذا نشأت ؟ كنت أعى هذه الاسئلة وخطورتها بل وخطورة الاجابة عنها منذ اللحظات الأولى ، اى منذ يوم ١٦ من شهر

اكتوبر عام ١٩٣٧ يوم التحاقى بالمدرسة مع زميــلات وزملاء كان عددهم ٦٥ طالبة وطالبا . وقد أعددت العدة لتسجيل اجاباتى عن الاسئلة المشار اليها . وتبلورت فكرة كتابة كتاب « نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر : تاريخ شخصى » . وخرج هذا الكتاب الى السوق فى عام ١٩٧٣ . ولكن مع الاسف الشديد لم تجد يدا تمتد لشرائه والاطلاع عليه . كنت فى ذلك الحين اقــــوم بالتدريس فى « مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة » . وكنت اقوم بهذه المهمة منذ ان انتدبت للتدريس وكنت اعمل مديرا « لمؤسسة الزفاف الملكي بالعباسية » اى منذ عام ١٩٤١ .. وكانت ادارة المدرسة تنتدب غيرى مــــن الزملاء فى اثناء سفرى الى الخارج ولكن سرعان ماكانت تنتدبنى للتدريس عندما أعود . وسارت الحالة على هذه الوتيرة حتى شهر أكتوبر عام ١٩٧٣ وكان قد اعد كتاب « نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر : تاريخ شخصى» ليبدأ طالبات وطلبة السنة الاولى فى دراسته . فقــد تعودت أن اقوم بتدريس « مادة الخدمة الاجتماعية » « للسنة الاولى » ومادة « علم الجريمة » « للسنة الرابعة» اننى لم أختر هاتين المادتين ولكنهما فرضتا على فرضا . كنت أرغب فى تدريس مادة « علم الاجتماع » او مــــادة « مناهج البحث العلمى الاجتماعي » ولكن ادارة المدرسة رفضت وكدت بدورى ، وبخاصة بعد عودتى من الولايات المتحدة وحصولى على درجة الدكتوراه ، أن ارفض أداء مهنة التدريس رفضا باتا لولا نصيحة أحد زملائى الذى شجعنى على القبول ، ففعلت ذلك . وكانت حجة الزميل ان مادة « مناهج البحث العلمى الاجتماعى » غير موجودة .

فى المنهج الدراسي وعلى واجب كبير فى اقناع ادارة المدرسة لكى توجد هذه المادة الهامة فى المنهج . وقد اقتنعت ادارة المدرسة برأيى بعد مرور اكثر من عامين ولكنها آثرت ان يقوم بتدريسها غيرى . كان لى ان ادرس مادتى الخدمة الاجتماعية وعلم الجريمة . وقمت بهذا الواجب حتى تغير عميد المدرسة وجاء زميل آخر وابى دون ابداء الاسباب ان يعطينى الفرصة لمواصلة واجبى فى تدريس المادتين المذكورتين او غيرهما . وكان ذلك فى بداية العام الدراسى ١٩٧٣ - ١٩٧٤ ، وترتب على ذلك ان « بار » توزيع كتاب « نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر : تاريخ شخصى » لم يشتر من نسخ هذا الكتاب الا عدد محدود من جمهور قرائى . وهذا الجمهور كما يعلم القارىء محدود . ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان وذلك بعد حوالى عشر سنوات من نشره . بدأ المهتمون بالخدمة الاجتماعية يبحثون عن نسخة منه ويلهثون وراءها فلا يجدونها . والملاحظ ان هذا الكتاب قد حوى بين دفتيه قصة كتابته وهو ما اعتدت على القيام به فى كل كتاب ينشر لى ، ثم دراسة مستفيضة عن المجتمع المصرى بعد ثورة عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٣٧ ، ثم موضوع نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر ويتضمن موضوعات شتى منها نبذة وافية عن معاهدة عام ١٩٣٦ وخطوات نحو التغيير الى الافضل قبل هذه المعاهدة والطاقات الخلاقة التى برزت بعد المعاهدة من اجل التغيير الى الافضل والجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ونشأتها ومدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة واهدافها . وفضلا من ذلك تضمن الكتاب اهم المشروعات التى ظهرت

لاول مرة فى المجتمع المصرى وسماها الكتاب « من بواكير مشروعات مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر » ، وتتضمن هذه البواكير :

- بحث مشكلة الفقر فى مصر فى عام ١٩٣٨ .
- مؤسسة الزفاف الملكي .
- تجربة اصلاح القرية المصرية (*)
- مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة

والملاحظ اننى لم أكن لاهدف أبدا الى أن اثقل على القارىء الكريم بالحديث عن نفسى . ولكننى احسست صادقا ان تاريخ نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر هو بعض تاريخ حياتى . فأنا عاصرت احداث نشأة هذه المهنة مرحلة بعد اخرى . وكنت قريبا من الاحداث واسهمت فيها . ولعل هذه المعاصرة وهذا القرب وهذا الاسهام كلها ، أن تؤكد لى وللاخرين أننى اولى بتدوينها على وجهها الصحيح . وأن واجبى ان أفعل ذلك لاننى اصبحت من أعرف الناس بها ، وأكثرهم فهما لها ، وكنت شاهد عيان فيها بل واحداً من الذين وقفوا على مقدماتها . ويكفينى صحبة السيدة ألزا ثابت الطويلة التى لم تنقطع منذ عام ١٩٣٧ وحتى كتابة هذه السطور . والسيدة الزا كما يتضح من فصول الكتاب المذكور قد اسهمت اسهاما فعالا فى بذر بذور مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر وتثبيت جذورها . وهى تعمل منذ ان وطئت قدماها ارض مصرنا الخالدة فى أواخر عام ١٩٣٤ فى ميادين هذه المهنة ومجالاتها حتى وقت كتابة هذه السطور . وقد تفضلت السيدة ألزا باعطائى كل المستندات والوثائق التاريخية منذ انشاء او قبل انشاء

الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية التى تبنت بحق تحقيق انشاء مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر . وهذه المستندات والوثائق لا تزال فى حوزتى حتى الان .

وفى خلال الفترة منذ عودتى من الولايات المتحدة حتى انقطعت الاسباب كانت مادة الخدمة الاجتماعية هى المادة التى احسست بضرورة غرس الحاجة اليها للطالبات والطلبة الذين كنت أقوم بتدريسها لهم . كانوا مازالوا فى دور المراهقة المتأخرة وقد حصلوا على شهادة الدراسة الثانوية وأمامهم المستقبل المشرق للقيام بأدوارهم الاجتماعية فى المجتمع لتغييره الى مايجب ان يكون او الى مايمكن أن يكون . بدأت القيام بهذه المهمة منذ السنة الإكاديمية ١٩٥٦-١٩٥٧ بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة . وأنا من الاشخاص الذين يعشقون مهنة التدريس ، فكنت اعطى لهم خبراتى الواقعية فى ميادين الخدمة الاجتماعية والاكاديمية ما استطعت الى ذلك سبيلا . كنت أفعل ذلك وانا اعلم بمرضى الذى علمت به عند الكشف الطبى بمناسبة التحاقى ب « المعهد القومى للبحوث الجنائية » ، ومع ذلك فلم اكن اضن بشىء . كان هؤلاء الطالبات والطلبة عندى رمزا لكل ماكنت أحلم به من اجل مستقبل مصرنا الخالدة المشرق .

ومر الوقت سراعا كعادته ، ثم فى عام عام ١٩٦٦ وجدت الفرصة سانحة لكى تنشر « دار المعارف كتابى : «الخدمة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا الاشتراكى المعاصر .» وكانت أهم أهداف نشر هذا الكتاب وتدريسه لطلبة وطالبات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، اننا فى ظل المناخ الثورى الذى كان المجتمع المصرى يعيشه فى

ذلك الحين كنا فى مسيس الحاجة الى تربية الـــكادر الثورى . اى ان الحاجة كانت تدعو الى قادة ثوريين كان من بينهم بالضرورة الاخصائيون الاجتماعيون . فالمجتمع المصرى فى ذلك الحين كان يواجه ظاهرة التغيير الاجتماعى التى كانت بدورها تصطحب ظاهرتى « التخلف الثقافى » و « التفكك الاجتماعى » . اى ان هذا المجتمـــع كـــان يواجه مشاكل اجتماعية حتمية ناتجة عن ظاهرة التغيير الاجتماعى التى كان يواجهها بسبب التغيرات المقصودة سواء اكانت ثقافية اجتماعية أم اقتصادية ام سياسـية ام غيرها مما كشفتها الايام بعد ذلك . والملاحـظ ان القيادة الاولى لمهنة الخدمة الاجتماعية قبل ثورة عام ١٩٥٢، كانت غيرها بعد هذه الثورة . ومهما يكن من الامـــر فالاخصائيون الاجتماعيون فى ضوء الطبقات التى أتوا منها كان معظمهم نتاج الطبقات الفقيرة وربما جاء بعضهم من المستوى الادنى لهذه الطبقات . وكنت على الرغم من موقفى السياسى من ثورة عام ١٩٥٢ أو بالاحرى مـــن قادتها وبخاصة بعد عام ١٩٥٤ ، أحاول فى حـــدود طاقاتى ، ان اجعل من الخدمة الاجتماعية « علما » . كان يسيئنى للغاية ان يكتب استاذ يقوم بتدريس الخدمة الاجتماعية كتابا بعنوان « الخدمة الاجتماعية مهنة ذات علم وفن » . وكنت أرى أن مفهوم « العلم » فى ضـــوء تعريفه غير مفهوم « الفن » فى ضوء تعريفه . كنـت ارى ، ولازلت ، أن الخدمة الاجتماعية مثل علم الجريمة « علم اجتماع تطبيقى » . وانه اذا اهتم اساتذة الخدمة الاجتماعية المصريون بالبحوث الواقعية فى المجتمع المصرى الحى يستطيعون الاسهام فى اثراء علم الخدمة الاجتماعية

ليس فقط بين المصريين بل انهم يستطيعون الاسهام في اثراء التراث العلمي للخدمة الاجتماعية سواء كان ذلك في البلاد النامية او في غيرها . وكتبت هذا الكتاب في هذا الضوء ومن حق القارىء ان يقرأه ويحكم له او عليه . ومهما يكن فانني هنا في هذا الجزء من كتاب « التاريخ الذي احمله على ظهري : دراسة حالة » اود ان أضرب مثلا أو مثالين على أهتمامي بموضوع كتاب « الخدمة الاجتماعية ودورها القيادة في مجتمعنا الاشتراكي المعاصر » لقد تجاسرت مثلا بأن اصيغ تعريفا لمفهوم الخدمة الاجتماعية كما كنت أراه في ذلك الحين ، ولا زلت . وذكرت قبل أن افعل ذلك أن من حق المهتمين بالموضوع أن يختلفوا معي على صياغة هذا التعريف ، فان هذا لم يغير ولن يغير من الصورة شيئا . فأنا لم أكن ، ولازلت ، أهدف الى أن أفرض شيئا على أحد ، وانما الهدف الحقيقي هو أن من حق القارىء وليس عليه أن يتمثل هذا التعريف كما كنت ولا أزال اراه . كنت اعيش مجتمعا بدأ لي أنه مجتمع ثوري . وكنت ارجو ان يقوم اعضاء مجتمعنا المعاصر تحت قيادة قادتنا الثقافيين الجادين القادرين ومنهم بالضرورة الاخصائيون الاجتماعيون الجادون القادرون بمواجهة مشاكله وادوائه اى بالتغيير الجذري لكي يستقيم امره وييسر للملايين القادرين التنمية أقصد القيام بها عن وعي وبشرف . ولن يتحقق ذلك كما قلت وأقول وسأقول الا بغرس الحاجة في نفوس هؤلاء الملايين القادرين الى الشعور بالانتماء وذلك باتاحة الفرصة لهم بالاسهام في اتخاذ القرار والاسهام في تنفيذ هذا القرار . وفي هذا الكتاب ايضا

هاجمت « التطوع » في ميادين الخدمة الاجتماعية . واقصد بهذا التطوع « التطوع المشرف » وذلك فان المجتمع المصرى او اى مجتمع آخر لا يقبل ان يدير مستشفى مثلاً شخص متطوع يشرف على متخصصين هم أصحاب مهنة الطب . وكذلك الخدمة الاجتماعية ترحب بالمتطوعين ذكورا كانوا او اناثا شبانا كانوا أو شيبا بشرط ان لايكونوا مشرفين ولكن تحت أشراف أصحاب المهنة . وذكرت اشياء كثيرة أخرى وضربت الامثلة من واقع الخبرات التى واجهتها منذ أن قمت كأخصائى محترف فى مصر فى مؤسسة الزفاف الملكى اى منذ شهر مايو عام ١٩٣٩ ، فضلا عن الخبرات التى أكتسبتها عمليا أو اكاديميا فى « انجلترا وويلز » وفى « أنجلترا الجديدة » وبخاصة فى ولاية « ماساتشوسيت » بالولايات المتحدة .

وللذكرى اقول بأن نسخة من هذا الكتاب قبل طبعه مكثت على مكتب الدكتور احمد خليفة الوزير شهرا . وكنت أود أن يكتب له مقدمة فهو الآن وزير للشئون الاجتماعية ومن حقى عليه وقد تزاملنا فى العمل فترة تبلغ حوالى عشر سنوات فى بذر بذور مهنة البحث العلمى الاجتماعى وتثبيت جذورها أن يبدى لونا من التشجيع لى فيكتب المقدمة ، والكتاب أصبح يقع فى دائرة أختصاصه الحالى ولن يكلفه الكثير اذا فعل ذلك ولم يكن فعله هذا يزيد أو ينقص من قيمة ماكتبت . وعندما ذهبت اليه بالنسخة تركت ورائى كل ماكان يدفعنى او كان لا يدفعنى الى عدم الذهاب ، وطلبت منه ماطلبت كزميل كفاح . ولكنى كنت أحلم حلما من احلام اليقظة . وذلك لانه بعد مرور شهر من تسليمى اياه النسخة أعطاها لى كما هى وهو يقول :

« يا اخى أنت كل سنة تؤلف كتاب »

واخذت النسخة من يده ولم اقل حرفا واحدا وخرجت من مكتبه الفخم حاملا اياها ولم احزن كثيرا او قليلا ولكننى اسفت وسرعان ماذهب هذا الاسف الى غير رجعة . فقد كنت أظن أن الكتاب الحالى اذا كان قد قرأه الوزير ربما طالب بتغيير اسم الوزارة لكى تصبح « وزارة التنمية الاجتماعية » بدلا من « وزارة الشئون الاجتماعية » . فالكتاب يدعو الى تنشئة الانسان المصرى الصالح . أى أنه يدعو الى ان الخدمة الاجتماعية لا تقوم بدور العلاج فحسب ، اقصد علاج المشاكل الاجتماعية بمعناها الواسع التى تعوق تنمية الانسان المصرى وازدهار ملكاته . وكان يدعو الى ان الافراد لا يمكن أن يطلق عليهم افرادا بل يجب أن يطلق عليهم أشخاصا . لاننى منذ ذلك الحين وقبل ذلك الحين وصلت الى أن أعضاء المجتمع أى مجتمع ، ماعدا الاطفال الذين فى هذا المجتمع او ذاك ، هم افراد ذوو شخصيات . وكنت ارى مخالفا لما كان يراه غيرى من أساتذة الخدمة الاجتماعية فى ذلك الحين أن « طريقة خدمة الفرد » لا تعالج فحسب فهى تنمى وتقى ثم تعالج جميعا ، وكذلك « طريقة خدمة الجماعة » و « طريقة خدمة المجتمع » . وهذه الطرق كانت ولا تزال من أهم طرق الخدمة الاجتماعية . كنت الاحظ ، ولا ازال ، ان الشخص من اعضاء المجتمع هو فرد ذو شخصية ويعيش منذ لحظة ولادته فى جماعات « حتى الاطفال غير الشرعيين أن وجدوا » ، وان المجتمعات القومية والمحلية تتكون من جماعات وليست من افراد

ذوى شخصيات أى اشخاص « ماعدا جماعات الاطفال لان شخصياتهم مازالت فى دور التكوين » . وكنت ارى ان الخدمة الاجتماعية بطرقها التى اشرت اليها من قبل اذ يقوم الاخصائى الاجتماعى فى ضوء مبادئها بالعمل فى مجالاتها وميادينها ، لابد فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين وفى كل حين أن تكون اهدافها اهداف التنميــة ثم الوقاية ثم العلاج . وتضمن الكتاب لاول مرة الدعوة الى تطبيق الخدمة الاجتماعية فى مؤسساتها وفى خارج مؤسساتها . وعارضت فكرة ان الخدمة الاجتماعية هى كما كان يدعو بعض الاساتذة فى محاضراتهم وفى كتبهم الى انها مجرد خدمة اجتماعية مؤسسية ! وكنت ومازلت اؤكد على ان تصل الخدمة الاجتماعية الى من لا يصلون اليها سواء اكانوا اطفالا ام احداثا ام شبانا ام شابات ام بالغين .

وفى ضوء تجاربى العملية التى بدأت أخوضها منـذ شهر مايو عام ١٩٣٩ لم أكن ادعو الى ماهو نظرى فحسب . لم افعل ذلك فى ميادين الخدمة الاجتماعية على وجه الخصوص . وكنت اود من الصميم أن اقنع ادارة المركز لكى تقتحم ميادين التطبيق فى ضوء تجارب حيــة فى محيط اعضاء المجتمع الاسوياء وغير الاسوياء والذين فى المؤسسات او فى خارجها « كالمؤسسات العقابية والذين طبق عليهم نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم ويعيشون فى البيئة الاجتماعية كأعضاء المجتمع الاسوياء » . ونجحت فى ميادين الخدمة الاجتماعية وكان فشلى ذريعا فى اقناع

ادارة المركز لانها لم تقبل اقتراحي الذي لايرى ان يكون هم المركز ـ وكان ومازال فى ضوء قانونه ذا رأى استشارى ـ اجراء البحوث ونشرها فى كتب . ان الكتاب الاعظم الحى هو المجتمع المصرى الحى . انه المعمل الثقافى الاعظم وهو الموسوعة الحية الكبرى . وما كان لنا ان نتركه ولا نحاول أن نطبق بعض ماتصل من نتائج أنتجتهـا البحوث التى كنا نقوم بها فى المركز . ولكن ادارة المركز كانت ، ولا تزال مع الأسف الشديد الشديد ، لاترى هذا الرأى . ومن ثم توجهت الى ميادين الخدمة الاجتماعية اسهم فيها بقدر مالدى من طاقة فأطبق مالدى من أفكار نظرية . وكان من حسن حظى ان اسهمت ، كما ذكرت فى الجزء الاول منه هذا الكتاب واكدت ذلك فى الجزء الثانى ، فى انشاء « جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » فى عام ١٩٤٧ . وفى عام ١٩٧٧ اى بعد مرور ثلاثين عاما على انشاء هذه الجمعية تيسر لى فى عام ١٩٧٨ نشر دراسة علمية عن « تجربة فى التنمية الحضرية المحلية : جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق فى ثلاثين عاما » . وفى هذه الدراسة شرحت هذه التجربة من الالف الى الياء . وكان همى ان أبين للقارىء العقبات التى صادفتها قبل أن أبين عوامل نجاحها وازدهارها وتعدد نشاطاتها ومشروعاتها واستمرارها ساعية الى تأدية رسالتها قدما دون ملل أو تقاعس أو يأس . وأنا هنا ارجع فضل وجود هذه العوامل الى العاملين فى هذه الجمعية وعلى رأسهم السيدة ألزا ثابت والسادة الافاضل اعضاء الجمعية العمومية واعضاء مجلس الادارة . ولعل مايهم قارىء هذا الكتاب أن أبين « أهداف الجمعية ومجالات

عملها والاساليب التى انتهجتها لتحقيق هذه الاهداف »
وكانت اهدآف الجمعية ومازالت تنصب على « دعم »
الاسرة البولاقية وتكوين « الكوادر » من الشابات ومن
الشبان لكى يستمر تحقيق الاهداف جيلاً بعد جيل .
اى ليكونوا قادة نابعين من البيئة الثقافية الاجتماعية
البولاقية يستطيعون فى ضوء تكوينهم ان يؤدوا ماعليهم
من واجبات نحو أنفسهم ونحو الحى الذى نشئوا فيه
ونحو الوطن الكبير مصرنا الخالدة ، اى لكى يكونوا
مواطنين صالحين ، ولم تقتصر هذه الاهداف « وهى
أهداف تنموية » على ذلك بل اهتمت بأن يبقى هؤلاء
المواطنون الصالحون دائما صالحين « وهى اهداف وقائية »
أى أنها أهتمت بوقايتهم ثقافيا اجتماعيا من الانحراف
بكل صوره التكوينية والثقافية الاجتماعية والنفسية
والعقلية ، ثم علاج كل من حاد عن الصواب او كان فى
حاجة ملحة جسمية او نفسية او عقلية الى العلاج ، ومن
ثم فقد تعددت مجالات العلاج فى الجمعية وخدماتها .
والملاحظ أن هذه الخدمات كانت ولاتزال تقدم فى ضوء
الشعار القائل : « ساعد العميل لكى يساعد نفسه » ،
اى ان كرامة كل شخص يتقدم بطلب خدمة يجب ان
تكون مكفولة . فهو قبل كل شىء شخص له كيانه وله
قدراته وله آماله ومن حقه آن يعرف كل ذلك وان يفيد
من كل ذلك تحت اشراف الخبرة الرشيدة التى تقدمها
الجمعية لكى يساعد نفسه بنفسه . وباتاحة الفرصة لى
كعضو من أعضاء الجمعية العمومية أولا وكسكرتير عام
للجمعية وبتشجيع السيدة الرا ثابت التى تعتبر بحق
الطاقة الانسانية الرفيعة التى تدير هذه الجمعية تيسر

لنا ان نطبق فكرة « الاحتراف المشرف » وان نطبق ايضا فكرة « التطوع غير المشرف » ، وننجح فى هذا التطبيق نجاحا باهرا . ونجحنا كذلك فى ضوء خبراتنا واستمرارها فى الاعتماد الكلى على الاسلوب العلمى فى مواجهة تحقيق أهداف الجمعية . فقد رأى المسئولون على الجمعية منذ اللحظة الاولى ان الاعتماد على الارتجال فى تحقيق هذه الاهداف غير ذى موضوع . وكان اعتماد الجمعية على ولاء السادة أعضاء الجمعية العمومية عاملا هاما فى استمرارها . والملاحظ أن الاستمرار فى جماعة من الجماعات أو فى مجتمع من المجتمعات يعنى غرس بذور الاصالة والتقاليد السليمة والخط الواضح فضلا عن قيم التعاون الايجابى والتكامل الاجتماعى والتسامح وتثبيت جذور كل ذلك . والملاحظ ايضا أن الاستمرار فى محيط جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق يعنى كل ذلك كما يؤكد الاستقرار . وتحاول الجمعية منذ فترة ليست بالقصيرة ، كاسلوب لتحقيق أهدافها أن تحقق استقلالها ذاتيا ، وذلك بالقيام بالتجارب تلو التجارب لاقامة مشروعات انتاجية تدر عائدا دون ما استغلال ليتيسر للجمعية فى المستقبل القريب الاعتماد على ذاتها اقتصاديا حتى تضمن استمرار وجودها ، وذلك لان الجمعية ترى أن تكوين الكوادر القيادية التى تعمل من اجل التيسير لاعضاء الحى البولاقى القيام تحت اشرافهم بعمليات التنمية الحضرية فى هذا الحى وحده لا يكفى ، وانه من الضرورى ان تحقق الجمعية لهذه الكوادر آن عاجلا وآن آجلا الاستقلال الاقتصادى الذاتى لكى يستمر القيام بهذه العمليات جيلا بعد جيل .

وارجو من القارىء الكريم أن يتأكد من انني على الرغم من الاهتمام بانتاجى العلمى الخاص ، وقد ذكرت بعضه فيما سبق ، أننى لم اهمل أنتاجى العلمى بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . كان بودى أن يكون وقتى كله مكرساً للانتاج الاخير ولكن حالت الظـــروف التى ذكرتها فى الفصلين السابقين دون ذلك . أننى منذ ان وطئت قدماى ارض مصرنا الخالدة بعد عودتى مـــن الولايات المتحدة وقد اتممت دراساتى العليا بالحصـــول على درجة الدكتوراه فى « علم الاجتماع » وكان ذلك فى يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٦ — وأنا كرست حياتى لهدفين ، الأول : أن ادرس المجتمع المصرى دراسة علمية وذلك باجراء البحوث الواقعية لكى احاول أن أعلم وذلك لكى أسهم مع العاملين فى تنمية الانسان المصرى وبخاصة الاعضاء الشابة فيه . وكان من حسن الحظ ان تركت جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق وعندما عـــدت وجدتها فاستانفت نشاطاتى فيها . وكان من حسن الحظ ايضا أن عينت فى المعهد الجديد اقصد « المعهد القومى للبحوث الجنائية » فى يوم ٤ من شهر اكتوبر عــــام ١٩٥٦ لامارس نشاطى فى ميدان مهنة البحث العلمـــى الاجتماعى الجنائى . ولكننى وقد بذلت الجهود من أجل ذلك وجدت أن أهداف هذا المعهد الذى أصبح فى عام ١٩٥٩ « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » غير الاهداف المرجوة ، واحسست كما احس غيرى قبلى أننى أعيش فى متاهات وأن الضباب الفكرى يحيط بى من كل جانب ، فاتجهت متأخرا الى ان أنتج لحســـابى أنتاجا علميا أرجو أن يسهم فى التراث العلمى الاجتماعى .

ولم اهمل عملي في المعهد ولا في المركز . والدليل على عدم اهمالى البحوث والدراسات التى قمت بهـــا او التى اشرفت عليها وكان بعضها وليس كلها مدونا فى احد منشورات المركز الذى نشر فى عام ١٩٧٦ بعنوان « قائمة ببليوجرافية باعمال المشتغلين بعلم الاجتماع فى مصر » واننى اعتز بكل البحوث والدراسات المسجلة تحت اسمى فى هذا المنشور . وبالاضافة الى هــذه البحــوث والدراسات التى كان آخرها فى المنشور قد نشر فى عام ١٩٧٣ ، واصلت القيام بالبحوث والدراسات المتعلقــة باعمال المركز وتلك التى نشرتها فى مجلات علمية اخرى او عرضتها فى مؤتمرات او ندوات . وقد بلغ عدد مانشر او عرض لى من بحوث ودراسات حتى كتابة هذه السطور ١٢٥ بحثا ودراسة . واننى لا استطيع فى هذا الجزء من « التاريخ الذى احمله على ظهرى : دراسة حالة » ان اشير من قريب او من بعيد الى كل هذه البحوث والدراسات . لقد حاولت فى هذا الفصل أن أعالج بعض مانشر لى من كتب حسب موضوعاتها وليس حســب تواريخ نشرها تيسيرا للقارىء لكى يتتبع مصادر أفكارى ومسارها . ولكننى اميل الى ان اذكر بعض البحوث والدراســات الاخرى منها مانشر ومنها مالم يتح له النشر حتى الآن وذلك لدواعى الظروف الامنية التى يجتازها مجتمعنــا المصرى المعاصر . ومن البحوث الاخيرة اسجل فى هــذا الفصل بحثا رائدا مثله مثل البحوث والدراسات الاخرى التى اخذت على عاتقى أن أقوم بها او اشرف عليها . وهو بحث متميز ايضا لانه يتعلق بالقوات المســلحة المصرية . ولن أتحدث عن هذا البحث بالتفصيل ، ومن

بابة اولى فاننى لن أتحدث عن نتائجه ولكنى سأتحدث عن بعض ملامحه ومنها بل أهمها : ـ

ـ موضوع البحث .

ـ طريقة اختيار الموضوع .

ـ المفاهيم .

ـ روح الفريق .

ويتضمن موضوع هذا البحث « دراسة الروح المعنوية لاعضاء القوات المسلحة والعوامل الفردية « الشخصية » والظروف الاجتماعية المرتبطة بارتفاع الروح المعنوية او انخفاضها » . وذلك للتخلص فى ضوء نتائجه من جوانب الضعف « ان وجدت » ودعم العوامل المساعدة على رفع الروح المعنوية . والملاحظ ان الاطار الاسامى للبحث كما طلب من المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائيـة ، كان لموضوع « سمات شخصيـة المقاتل المصرى » . وعندما اسند الى الاشراف على هذا البحث وتم تكوين الهيئـة المشرفة على اجرائه ، لاحظنا منذ أول وهلة فى أول اجتماع عقد لهذه الهيئة التى كانت مشـكلة من بعض الاعضاء العاملين العلميين بالمركز ومن بعض الضبـاط العاملين بالقوات المسلحة ان اجراء البحث المذكور يحتاج لسنوات طويلة لاجرائه ، كما رأت الهيئة انه يمـكن الوصول الى سمات المقاتل المصرى باجراء عدة بحـوث ودراسات اجتماعية نفسية تسهم فى القاء الضـوء على الموضوع الاصلى وتتم على مراحل وتحقق فوائد تطبيقية فى كل مرحلة ، وتتضـافر فى النهـاية لرسم صورة علمية دقيقة لسمات المقاتل المصرى . وفى الاجتماعات التالية تيسر للهيئة حصر اهم الموضوعات الاجتمـاعية

النفسية التي يمكن بحثها في ظل الاطار المقترح . وبلغ عدد هذه الموضوعات احد عشر موضوعا ، وتم عن طريق استفتاء عام اعدته الهيئة لتطبيقه على عينة قوامها مائة من قادة القوات المسلحة لاستطـــلاع رأيهم في اكثر الموضوعات اهمية والحاحا ، والذي يشعرون بضـرورة دراسته أسرع من غيره من واقع خبرتهم العملية في القيادة حتى تتخذه هيئة البحث موضوعا للدراسة الحالية وكانت نتيجة الاستفتاء أن تبين أن موضوع « الروح المعنوية والعوامل المؤثرة فيها » كان اكثر الموضوعات اهمية والحاحا . وقد تبنت هيئة البحث التعـــريف التالي لمعنى مفهوم « الروح المعنوية » « وهو تعريف اجرائي » :

« مقدار حماس المقاتلين واتجاههم الايجابي نحـــو العمل العسكري والظروف المحيطة به « قيادة ، معدات ، شئون ادارية و .. الخ » ، وينشأ هذا الحماس والاتجاه نتيجة للتوحد والاتساق بين أهداف العمل العسكري من ناحية ، واهداف جماعة الافراد الذين يكونون الوحـدة الفرعية الصغرى من ناحية أخرى .

ومن دواعي سروري العميق أن سار العمل في هيئة البحث منذ اللحظة الاولى وحتى تمت كتابة التقـــرير الاولى عن « حالة الروح المعنوية للمقاتلين المصريين » بروح الفريق . فقد كان اعضاء الهيئة يعملون متعاونين في صمت وفي سرية وفي استقلال . لم يتدخـل في شئون أعمالهم أحد من داخل المركز او من خارجه . ومن ثم اتيحت الفرصة لي ان اقود الهيئة كفريق . وروح الفريق التي يجب أن تسود البحوث العلمية الاجتمـاعية

كانت ، ولا تزال ، بين اهم اهدافى منذ ان وطئت قدماى الشقة التى بدأ أن يتخذها « المعهد القومى للبحــوث الجنائية » مقرا له . ومع ذلك فالملاحظ أنه اذا كــانت الهيئة فى خلال فترة تبلغ سنتين وثلاثة شــهور واثنى عشر يوما قد اجتمعت بكامل اعضائها ٧٥ اجتمــاعا فان اللجنة الفرعية التى تكونت من بعض أعضاء الهيئة قد اجتمعت ١٥٥ أجتماعا . والملاحظ أن اللجنة الفرعية كانت مكونة من أربعة اعضاء آثنين من العاملين العلميين بالمركز واثنين من الضباط ، وكلهم أعضاء بهيئة البحث . وكان العبء الاكبر فى الاشراف الميــدانى والقيـــام بالتحليلات الاحصائية قد وقع على كاهلها . وادى الجميع أعضاء هيئة البحث واعضاء اللجنة الفرعية واجباتهم كل فى موقعه احسن الاداء . واننى اذكر الخلافات التى كانت تحدث بين الاعضاء ، ولكنها كانت خلافات آراء وتهدف الى مايفيد البحث حتى يتم على الوجه الاكمل . وبدأ الامل فى العمل كفريق فى هيئات البحوث ولجانها بالمركز يحيا فى نفسى ويعود اليها بعد ان كاد اليــأس من تطبيقه ، فى المناخ الثقافى الاجتماعى الذى كـــان سائدا فى المركز فى الكثير من الاحيان ، ان يملأ على كيانى . وكانت تجربتى فى البحث عن « حالة الروح المعنوية للمقاتلين المصريين » سبيلى الى هذا الامل . وذلك لانها أمدتنى بوضوح وجلاء بعوامل وجوده اى اننا كنا نعمل متعاونين فى صمت وفى سرية وفى استقلال .

ومن البحوث والدراسات التى قمت باجرائها او اشرفت عليها التى اعتز بها ، وبلا غرور فاننى اعتز بكل البحوث والدراسات التى قمت باجرائها او اشرفت عليها على

الرغم من القصور الذي قد يشوب بعضها ، مانشر في المجلة الجنائية القومية وفى المجلة الاجتماعية القومية التي ينشرهما المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية وفى مجلات الامن العام وكلية الشرطة والهلال والفكر المعاصر والطليعة وقضايا عربية وآفاق عربية والمعرفة والفكر العربى . فضلا عن الجرائد والمجلات السيارة ومنها جريدة الاهرام وجريدة الاخبار وجريدة الجمهورية ومجلة المصور ومجلة روزاليوسف ومجلة صباح الخير حواء وغيرها وغيرها . وقد نشرت في « المجلة القومية الجنائية » بحوث ودراسات قمت باجرائها وحدي أذكر منها بحث « حول عقوبة الاعدام فى مصر » « العدد ٢ - ٣ يونيو - نوفمبر عام ١٩٧٨ صفحات ٩٣ - ١١٧ » وقد قدمت هذا البحث للقارىء المصرى المتخصص وغير المتخصص على السواء . فهو يعالج موضوعا حيويا يمس شغاف القلوب ، قلوب الجميع ، ويهتم به الجميع . وفضلا عن ذلك فان هذا البحث قد كتب فى ضوء خبراتى فى محيط الجريمة والمجرمين منذ خريف عام ١٩٣٨ ، اى منذ أن قمت ببحث اول حالة لحدث مصرى جانح فى مدينة القاهرة وحتى الآن « أى حتى الانتهاء من كتابة تقرير البحث » ، حيث اعمل ، ولا أزال حتى كتابة هذه السطور ، بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . ويلاحظ أن هذه الخبرات كانت خبرات منتظمة ومتنوعة أى هى خبرات علمية استقيتها كما ذكرت ذلك من قبل من مجتمعات عديدة مثل المجتمع الانجليزى والمجتمع الامريكي والمجتمع اليوغسلافى والمجتمع السوفييتى فضلا عن المجتمع المصرى . عشتها فى هذه المجتمعات ومارستها

كطالب وكعامل وكزائر في ميادينها ومجالاتها . انني في واقع الامر اذ أقدم للقارىء في البحث الحالى خلاصة هذه الخبرة ، لايمكن ان ادعى ان ما اقدم هو آخر كلمة . فانا اذ أعتز بهذا البحث وبنتائجه لا ادعى الكمال ولا يمكن ان افعل ذلك . وقد تضمن البحث تعريفا للجريمة بوصفها ظاهرة ثقافية اجتماعية تصدر عن شخصية انسانية ولا يمكن أن تكون « شخصية اجرامية» ومن ثم فالجريمة هى سلوك بشرى يكون عادة مخالفا لقانون العقوبات . والملاحظ أنه يوجد فى المجتمع اى مجتمع قوانين ثقافية اجتماعية أخرى عديدة لا يعد من يخالفها او يخالف أحدها بالضرورة شخصا مجرما . فهناك القوانين الثقافية الاجتماعية لدور العبادة ، وللمدارس والجامعات ، ولمصالح الحكومة ، وللاندية الاجتماعية والرياضية ، وللملاعب ودور الثقافة الترفيهية الاجتماعية كالمسرح والسينما مثلا . وفى بعض المجتمعات نلاحظ تسلط القوانين الثقافية الاجتماعية على المسلمين من أعضاء المجتمع فى شهر كشهر رمضان أو فى الاعياد . والمخالفون لهذه القوانين عديدون ولكنهم لايكونون بالضرورة مجرمين، لانهم فى الغالب لم يخالفوا قانون العقوبات السائد فى هذه المجتمعات ، وان كانوا قد خالفوا القوانين الاخرى . وقد أكدت فى هذا البحث ان صفات المجرمين « القتلة وهاتكى الاعراض واللصوص مثلا » التى تتسم بها شخصياتهم وهم يرتكبون جرائمهم ، مثل صفات المخاطرة والاقدام والرغبة فى الكسب ، هى نفس الصفات التى تتسم بها شخصيات رجال الاعمال والعديد من الحكام وهم يؤدون اعمالهم . وفى البحث الحالى حاولت

ان اقنع القارىء بأن المجنى عليه الطبيعى له دور فى ارتكاب الجريمة ضده . أى أن المجنى عليه فى ضوء سلوكه وتصرفاته ، قد يؤدى دورا مهما وأن كان غير متعمد فى ارتكاب الفعل الاجرامى ضده . أى أن اتجاه القانون « الحالى » فى الكثير من الاحيان نحو اثبات أذناب المجرم « الكامل » وبراءة المجنى عليه الطبيعى الكاملة لا يمكن ان يعكس الحقيقة « كاملة » . والمجنى عليه من الاشخاص الطبيعيين فى حالة جريمة القتل مثلا ليس المجنى عليه القتيل فحسب ، بل يتعدى ذلك الى اعضاء اسرته القربين ايضا . فالملاحظ أن الضرر قد وقع على المجنى عليه المقتول وقد تم فقدان هذا الضرر عند لحظة موته ، ولكن اعضاء الاسرة المقربين يبقون فى حزن طويل مستمر بعد ذلك .

وقد تضمن بحث « حول عقوبة الاعدام فى مصر » ملاحظات اخرى عديدة . منها أنه ليس القتلة المدانون وحدهم هم الذين يحكم عليهم بعقوبة الاعدام . وان مرتكبى جرائم الجاسوسية أو بعضهم يحكم عليهم أيضا اذا ما أدينوا والملاحظ أيضا أنه ليس اولئك وهؤلاء فحسب هم الذين اذا ما ادينوا يحكم عليهم بعقوبة الاعدام ، بل نجد فى ضوء وقائع التاريخ ان الكثير من المفكرين واصحاب العقائد والمثل العليا قد ادينوا ظلما وحكم عليهم بالموت . فقد استقبل حياة الخلود كل من المعبود المصرى القديم « أوزيريس » (اول الشهداء) ، والفيلسوف « سقراط » (٤٦٩ — ٣٩٩ ق . م) ، و « القديس مرقس البشير » (— ٦٨م) ، و « الامام » على بن ابى طالب » (٢٣ قبل الهجرة — ٤٠ هجرية أى حوالى ٦٠٠ — ٦٦٠ م » ، والامام « الحسين

ابن على » (ابو الشهداء) « ٦٢٥ — ٦٨٠ م » ، والامام أبو حنيفة النعمـــان بن ثابت « ٦٩٩ — ٧٦٧ م » ، والفيلسوف « جيوراندو برونو » (١٥٤٨ — ١٦٠٠ م) — لانهم وقفوا صامدين يدافعون عن عقائدهم وافكارهم وكأن لسان حالهم يقول كما قال ســـقراط لقضاته : « ... سيذهب كل منا فى طريقه ، أنا فى طريقى الى الموت ، وانتم فى طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم اى الفريقين اهدى سبيلا » ، وكما قال الامام على بن ابى طالب لابنه الحسن في شأن ضاربه : « ابصروا ضاربى ، أطعموه من طعــامى ، واسقوه من شرابى ، واذا انا مت فلا تغالى فى كفنى ، وصلى على ، وكبر على سبعا ، وفى رواية خمسا ، وغيب قبرى » . والتاريخ يزخـر بغير هؤلاء الابطال ، التاريخ القديم والتاريخ الحديث. والحديث عن صرعى التفرقة العنصرية او التفرقة الدينيـــة او التفرقة السياسية والمعتقلات والسجون ، حديث طويل طويل . فنحن فى عصرنا الحالى نعيش خبراتهم فى كل يوم بل فى كل لحظة . ولعل ذلك ان يرجع الى ان الانسان على وجه الارض فى سبيل الخلاص والتحرر من القيود المعنوية والمادية جميعا مازال عليه أن ينـــذر لذلك الضحايا من الشهداء ، اى ان الانسانية فى العصور الماضية وحتى فى العصور الحالية وربما فى العصـــور القادمة كانت ولاتزال فى عطش شديد الى دماء الشهداء او كما قال « العقاد » فى كتابه (العبقريات الاسلامية : المجلد الثانى : عام ١٩٧٤ ، صفحتا ١٥٩ — ١٦٠ » :

« ... مسكينة هذه الانسانية ! .. لاتزال فى عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد

كلما ازدادت فيها آفاق الاثرة والانانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة الزائلة ، او لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد فى هذا الزمن خاصة دون سائر الازمنة الغابرة ، لانه الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الانسانية وجوداً ماديا فعليا واصبح لزاما لها ان توجد فى الضمير وفى الروح فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات .

الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية فى كل شيء الا فى ضمير الانسان وروح الانسان » .

وقد يلخص هذا كله وربما يؤكده ماذكره الشاعر صلاح عبد الصبور فى مسرحيته الشعرية « مأساة الحلاج » (الحسين بن منصور الحلاج ٨٥٨ — ٩٢٢ م » الذى كان مشغولا بقضايا مجتمعه فوقفت الدولة ضده وصلبته فى احدى ساحات بغداد ولسان حاله :

« كان يقول :

اذا غسلت بالدماء هامتى واغصنى
فقد توضأت وضوء الانبياء
كان يريد ان يموت ، كى يعود للسماء
كانه طفل سماوى شريد
قد ضل عن ابيه فى متاهة المساء
كان يقول :
كأن من يقتلنى محقق مشيئتى
ومنفذ ارادة الرحمان
لانه يصوغ من تراب رجل فان
اسطورة وحكمة وفكرة

كان يقول :
ان من يقتلني سيدخل الجنان
لانه بسيفه أتم الدورة
لانه أغاث بالدماء اذ نخس الوريد
شجيرة جديدة زرعتها بلفظي العقيم
فدبت الحياة فيها ، طالت الاغصان
مثمرة تكون في مجاعة الزمان
خضراء تعطي دون موعد ، بلا أوان
وحين أسلمه السلطان للقضاء
ورده القضاة للسلطان
ورده السلطان للسجان
ووشيت أعضاؤه بثمر الدماء
تم له ماشاء
هل نحرم العالم من شهيد ؟
هل نحرم العالم من شهيد ؟ »

وفي ضوء الحقائق الموضوعية نجد ان عدد المحكوم عليهم بالاعدام في مصر في خلال المجال الزمني للبحث اى في خلال الفترة من عام ١٩٢٣ « عام بدء تسجيل المحكوم عليهم بالاعدام في مصلحة السجون » الى عام ١٩٧٣ ، ٧١٤ شخصا . وفي خلال الفترة السابقة على عام ١٩٥٢ اى من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٥٢ نجد ان عدد المحكوم عليهم ٢٧٩ شخصا . وكان عدد المحكوم عليهم بعد عام ١٩٥٢ في خلال نفس عدد السنين اى من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٧٣ ، ٣٢٤ شخصا . اى ان عدد الاشخاص الذين حكم عليهم بالاعدام بعد عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٧٣ قد زاد ، وكان عدد الاشخاص الزائدين ٤٥

شخصا . وقد نفذ حكم الاعدام شنقا حتى يوم ٧ من شهر يوليو عام ١٩٧٤ على ٥٧٣ شخصا والباقى وعددهم ١٤١ شخصا لم ينفذ فيهم الحكم لبعض العوامل أهمها قبول النقض وتحويل التحقيق « ٧٩ شخصا » وقبول النقض او تعديل الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة « ٣٠ شخصا » واستبدال الحكم بالاعدام الحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة بأمر ملكي « عشرة أشخاص » ، ثم ثمانية اشخاص فى انتظار اخطار مصلحة السجون لتنفيذ الحكم بالاعدام ، ثم خمسة اشخاص قبول النقض فى قضاياهم وحكم بالبراءة وتم الافراج عنهم ، ثم خمسة اشخاص لوفاتهم ، ثم اربعة اشخاص لضرب احدهم بالنار عندما حاول الهرب وآخر لانه انتحر شنقا وثالث لصدور امر ملكي بالعفو ورابع لاستبدال الحكم بالاعدام بالاشغال الشاقة ١٥ سنة .

ومن حيث الجرائم التى اتهم بها هؤلاء المحكوم عليهم بالاعدام وثبتت ادانتهم نجد أنها جرائم عديدة . مع ملاحظة ان المحكوم عليه قد يتهم وتثبت ادانته فى اكثر من جريمة . وكان أهم هذه الجرائم جرائم القتل بأنماطها « قتل عمد + قتل عمد باصرار + قتل عمد مقترن بسرقة باكراه + قتل بالسم + قتل عمد باصرار وسرقة واشتراك فى قتل حمار ! » . وكانت نسبة هذه الجرائم بالنسبة للجرائم التى ارتكبها المحكوم عليهم بالاعدام شنقا نحو ٨١٫٨٪ . أما الجرائم الاخرى فقد كانت نسبتها نحو ١٨٫٢٪ ، وهى تتضمن انماطا عديدة اهمها جرائم التجسس وقيادة تنظيم سرى والاتيان بأفعال ضد نظام الحكم وضد سلامة الوطن . أى ان جرائم

القتل قد تتضمن جرائم القتل السياسي ، فنجد منها واهمها جريمة قتل السردار « السيرلي ستاك باشا » التي ارتكبت في نحو الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الاربعاء ١٩ من شهر نوفمبر عام ١٩٢٤ وقضت المحكمة في يوم ٧ من شهر يونيو عام ١٩٢٥ ، بالاعدام شنقا على كل من المواطنين المصريين عبد الفتاح عنايت الطالب بمدرسة الحقوق وعبد الحميد عنايت الطالب بمدرسة المعلمين العليا وأبراهيم موسى الخراط بالعنابر ومحمود راشد المهندس بالتنظيم وعلى أبراهيم محمود البراد بالعنابر وراغب حسن النجار بمصلحة تلغرافات الحكومة وشفيق منصور المحامي ومحمود احمد اسماعيل الموظف بوزارة الأوقاف ، ثم استبدل حكم الاعدام بالنسبة للاول وجعل الاشغال الشاقة المؤبدة . وقد نفذ الحكم باعدام السبعة الباقين شنقا في يوم ٢٣ من شهر أغسطس عام ١٩٢٥ . واذا كان من قتل في جريمة السردار كلهم من المواطنين المصريين ، فاننا نجد أنه قد حكم على اسرائيليين صهيونيين هما « الياهو حكيم » و « الياهو بيث نسوري » بالاعدام شنقا لارتكابهما جريمة قتل سياسي أيضا وذلك بقتل « اللورد موين » الوزير البريطاني المقيم في يوم ٥ من شهر نوفمبر عام ١٩٤٤ ، وقضت المحكمة العسكرية في يوم ٢٢ من شهر يناير عام ١٩٤٥ باعدامهما شنقا ونفذ هذا الحكم في يوم ٢٢ من شهر مارس عام ١٩٤٥ . ومن بين جرائم القتل السياسي جريمة قتل « احمد ماهر » التي حكمت محكمة عسكرية عليا على قاتله المواطن المصري « عيسوي عوض الله » بالاعدام شنقا في يوم ٢٨ من شهر يوليو عام ١٩٤٥ ،

وتم تنفيذ حكم الاعدام فى يوم ١٨ من شهر سبتمبر عام ١٩٤٥ . وقد قتل « محمود فهمى النقراشى » المواطن المصرى « عبد المجيد أحمد حسن » الذى حكمت عليه ايضا محكمة عسكرية عليا بالاعدام شنقا فى يوم ١٣ من شهر اكتوبر عام ١٩٤٩ وتصدق على الحكم فى يوم ٢٨ من شهر ديسمبر عام ١٩٤٩ وتم تنفيذ حكم الاعدام فى يوم ٢٥ من شهر ابريل عام ١٩٥٠ . وقد ادين كل من المواطنين المصريين « مصطفى خميس » « محمد حسن البقرى » فى حوادث كفر الدوار فى عام ١٩٥٢ وقضت محكمة جنايات دمنهور فى يوم ١٦ من شهر اغسطس عام ١٩٥٢ باعدامهما وتصدق على الحكم فى يوم ٥ من شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ وتم تنفيذ حكم الاعدام فى يوم ٧ من شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ . ومن جرائم الاتيان بأفعال ضد نظام الحكم وضد سلامة الوطن الجرائم التى قضت محكمة الشعب فى يوم ٤ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٤ بالاعدام شنقا على كل من المواطنين المصريين محمود عبد اللطيف محمد عامل سباكة ويوسف عز الدين محمد طلعت مقاول متفرغ للعمل الاسلامى وهنداوى سيد أحمد دوير محامى وابراهيم الطيب ابراهيم صقر محامى ومحمد محمد فرغلى من علماء الازهر ومتفرغ للعمل الاسلامى وعبد القادر على عودة قاضى ثم محامى امام النقض . وقد صدق على الحكم فى نفس اليوم الذى نطق به فيه ، اى فى يوم ٤ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٤ وكان تنفيذ الحكم بعد ذلك بثلاثة ايام فقط اى فى يوم ٧ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٤ . ومن جرائم قيادة تنظيم سرى ، الجرائم

التي قضت محكمة أمن الدولة العليا في يوم ٢١ من شهر اغسطس عام ١٩٦٦ بالاعدام شنقا على كل من المواطنين المصريين سيد قطب ابراهيم ومحمد يوسف هواش وعبد الفتاح عبده اسماعيل وعلى عشماوى واحمد عبد المجيد عبد السميع ومجدى عبد السميع متولى وصبرى عرفة الكومى ، ثم استبدل حكم الاعدام للرابع والخامس والسادس والسابع وجعل الاشغال الشاقة المؤبدة . وقد نفذ الحكم باعدام الثلاثة الاول في يوم ٢٩ من شهر اغسطس عام ١٩٦٦ .

والملاحظ أن جرائم القتل من النادر ان تكون من الجرائم غير المنظورة . قد يكون الفاعل في احدى هذه الجرائم مجهولا ويستمر كذلك ، ولكن الجريمة تعرف مادامت الجثة « جسم الجريمة » قد عثر عليها . وذلك على العكس من جرائم الرشوة والجرائم الجنسية وجرائم المخدرات وجرائم التهريب مثلا . فمعظم الجرائم الاخيرة يكون من الجرائم غير المنظورة . ولعل قدرى في ضوء البحث الذى عرضته أن اتاح لى الفرصة لابرز دور المجنى عليه ليس فقط في جرائم القتل بل أيضا في جرائم اخرى مثل جرائم السرقة وجرائم النصب والاحتيال وغيرها . ولعل هذا القدر أيضا أن سدد خطاى فنشرت دراسة في جريدة الاهرام الصادرة في يوم ١٩ من شهر ابريل عام ١٩٦٢ عن موضوع « الجرائم غير المنظورة » بعنوان « التطور الاجتماعي ومشاكل الجريمة : كيف نواجه الجرائم غير المنظورة في مجتمعنا ؟ » . وكان نشر هذا الموضوع لاول مرة ، اى أنه لم يسبقنى من المهتمين بعلم الجريمة في مصرنا الخالدة أحد لكى يبرز هذا المفهوم

الذى له خطره عندما نحاول التعرف على حجم الجريمة فى المجتمع او عن صورها واتجاهاتها نحو النقصان او نحو الزيادة . وفى ضوء نتائج هذا البحث الرائد اتضح أن فئة المجرمين بعامة هم نتاج المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون . فالمجتمع أى مجتمع كما يستحق المواطنين الصالحين الذين يضمهم فهو أيضا يستحق المواطنين المجرمين الذين يوجدون فيه . ويلاحظ قارئ بحث « حول عقوبة الاعدام فى مصر » أن جريمة القتل جريمة خطيرة وينفر منها المجتمع الانسانى مافى ذلك من شك وذلك لان المجتمع يخسر الشخص الذى قتل أو الاشخاص الذين قتلوا . مع ذلك فالملاحظ ان القتل فى المجتمعات الانسانية لايحدث بالضرورة كمخالفة لقانون العقوبات . فالحروب والفيضانات والزلازل وحوادث الطيران وحوادث المرور وغيرها تسبب قتل الابرياء من الاطفال والشباب والرجال والنساء . وقد بين هذا البحث أن القتلة العاديين الذين يدانون ويحكم عليهم بعقوبة الاعدام لا يختلفون كثيراً عن القتلة الاخرين من الاشخاص الطبيعيين كالقتلة فى الحروب وحوادث المرور مثلا . ولا يعنى ذلك ، كما أكد البحث ، أن يترك القاتل العادى الذى يمثل امام المحكمة ويدان وشأنه ، بل يجب ان تدرس حالته حتى نصل الى بعض الحقائق عن شخصيته لكى نيسر له اعادة تنشئته الى حظيرة الانسانية مواطنا صالحا ، ولكى يزداد فهمنا للنفس البشرية مما ييسر عمليات التنشئة الاجتماعية السوية للمادة البشرية فى المجتمع ووقاية اعضائها من الجناح والانماط الاخرى من الانحراف . وقد تبين من البحث ان القاتل العادى

او حتى غير العادي « اى الذى يقتل وهو يحارب او الذى يرتكب جريمة قتل خطأ ايا كانت مثلا » لا يمكن ان يحاسب ويعاقب ، فيعدم الاول ويسجن الثانى ، مثلا ، على أساس انه يملك مايسمى بالارادة الحرة . ومن ثم فهو مسئول عن تصرفاته وافعاله . وذلك أنه لا يوجد انسان عادى يملك هذه الارادة الحرة ، وان ردع المجرم الذى يعدم لا طائل فيه وردع الاخرين لا يثبته الواقع الحى فى المجتمعات الانسانية . فالجرائم لاتزال ترتكب سواء اكانت جرائم قتل عمد ارتكبت مع سبق الاصرار والترصد ام غيرها كالسرقة والتزوير والرشوة .. الخ . صحيح ان الانسان منا لديه ارادة ولكنها ليست حرة حرية مطلقة . انها محدودة فى ضوء الامكانات والقدرات والملاحظ أن القدرات الانسانية قد تكون منتظمة او غير منتظمة والقدرة المنتظمة هى التى تستند الى العلم ، اى تستند الى الفهم الموضوعى للظواهر الانسانية او المادية . وذلك فى ضوء التعرف على القوانين التى تحكم هذه الظواهر الانسانية والمادية ومن ثم فاننى أرى أن قدرة الانسان المنتظمة هى قدرته التى تيسر التغيير ان اقتضت الضرورة هذا التغيير . وكانت من نتائج البحث أن الاحكام بعقوبة الاعدام قد زادت بعد عام ١٩٥٢ « أى فى خلال الفترة من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٧٣ » عنها قبل ذلك « اى فى خلال الفترة من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٥٢ » ، ومن ثم فان الاشخاص الذين حكم عليهم بالاعدام فى الفترة الاولى قد زاد عددهم . وكانت نسبة من حوكم امام محاكم أستثنائية مثل المحاكم العسكرية ومحاكم امن الدولة العليا ومحكمة الشعب ومحكمة الثورة فى

خلال المجال الزمانى للبحث « أى من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٧٣ نحو ٣ر١٦٪ من الحالات التي عرفت فيها جهة صدور الحكم بالاعدام شنقا « اى ٨٩ شخصا من ٥٤٦ شخصا » . وقد حوكم ٧٠ شخصا من الـ ٨٩ شخصا في خلال الفترة من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٧٣ ، اى بعد عام ١٩٥٢ بنسبة نحو ٧ر٧٨٪ ، اما الباقى وقدره ١٩ شخصا بنسبة ٣ر٢١٪ فقد حوكموا امام محاكم استثنائية في خلال الفترة من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٥٢ . وارجو ان يكون القارىء لهذا البحث قد تأكد من انه ليس كل من يرتكب جريمة قتل او جرائم أخرى تستحق عقوبة الاعدام يحكم عليه اذا ما ادين بالاعدام ، وانه ليس كل من يحكم عليه بالاعدام بالضرورة ينفذ فيه هذا الحكم .. كما أرجو من القارىء لهذا البحث ان يكون قد تأكد ان عددا كبيرا من الذين حكم عليه بعقوبة الاعدام من المواطنين المصريين في خلال فترة مجاله الزمانى ونفذ فيهم هذا الحكم ، لا يعتبرهم الكثيرون فى ضوء تغير الظروف الثقافية الاجتماعية والسياسية مذنبين . بل هم فى نظر هؤلاء أبطال وشهداء . والامثلة على ذلك عديدة ومن حق القارىء ان يأخذ بما يراه هؤلاء او لا يفعل ذلك . ومهما يكن من الامر فان المجتمع المصرى باعدامهم قد خسر حتما النفع الاجتماعى الذى يكمن بالضرورة فى شخصية كل منهم . وهو نفع ، فى ضوء مستواهم الثقافى الاجتماعى ، وفي ضوء الاهتمام العام الذى كان يملأ نفوسهم سواء كان اهتماما بالعقيدة او بالوطن أو بالفكر وفي ضوء العصر الذى عاشوا فيه وماتوا نفع ثمين مافى ذلك من شك . .

وارجو أن لا يمل القارىء من تكرار ماقلت من قبل واقول الان من انني لم اطلب من أحد نشر دراسة فى مجلة من المجلات التى تفضلت ونشرت لى دراسات . لا يمكن ان يكون هذا الاتجاه منى غرورا أبدا ولكنه على العكس من ذلك تماما ، أنه الخجل ، كما يبدو ، الذى منذ شبابى وحتى كتابة هذه السطور يمنعنى من الاقدام على ذلك . كنت ومازلت أذا ماطلب أحدهم منى دراسة او مقالا أبادر بتلبية الطلب . فقد كنت أعتبر هذا نوعا من التحدى ومن واجبى ان أواجهه . ومن ثم فاننى اذ أعرض أحدى الدراسات التى تفضلت « مجلة الفكر العربى » بنشرها فى العدد الثالث والعشرين ، تشرين الاول « أكتوبر » تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٨١ . وموضوع هذه الدراسة عن « الطريق الى الوحدة العربية وجهة نظر ثقافية اجتماعية فكرية » ، فاننى أعرضها لوجود خلاف فى الراي حولها . وهو خلاف قد وجد قبل أن تنشر وحاولت ان ارد على من خالفنى وان أبدى رأيى فى صراحة ووضوح فى هذا الموضوع الخطير . ورأيى هنا يكون بالضرورة فى ضوء خبراتى المحدودة وتخصصى المعروف . فانا كنت ومازلت باحثا علميا اجتماعيا ولن اغير جلدى وأسبح فى موجات من كانوا مثلى واصبحوا يلقبون انفسهم بالمتخصصين السياسيين تارة او بالمتخصصين السياسيين الاجتماعيين تارة اخرى او بالمتخصصين الاجتماعيين السياسيين تارة ثالثة . اننى لا اعيب عليهم ان يفعلوا مايفعلون ، ولكن عيبى عليهم ان وجد فهو ينصب على ركوبهم موجات الرواج الفكرى الذى يملأ « الجيوب » بالنقود التى لا يمكن أن تكون

حلالا زلالا . ومن الغريب ان اقتراح عنوان هذا الموضوع لكي اكتب عنه جاءني من شاب توسمت فيه النجابة ومتانة الخلق . كان هذا الشاب هو « دكتور مجدي حماد » . وعندما جاء الى مكتبي لم اكن رأيته قبل ذلك وقدمته الى الزميلة « الدكتورة سهير لطفي » . وعلى الرغم من كثرة أعمالي قبلت ان أقوم بهذا « الواجب » . ومكثت شهراً متفرغا لكتابة هذه الدراسة ، وانتظرت مجيء « الطالب » الدكتور مجدى في الموعد المحدد فلم يحضر الا بعد آن تحدثت اليه تليفونيا . واخذ الدراسة ومرت الايام سراعا ولم اسمع منه شيئاً . وعندما حضرت ندوة من الندوات التى عقدها « معهد التخطيط » عن موضوع « التنمية » فى خلال الفترة من يوم ٢١–٢٤ من شهر مارس عام ١٩٨١ ، وجدت الرجل المطلوب الذى كان طالبا يجلس فى مقاعد المستمعين وانا القى حديثى فى هذه الندوة عن موضوع « ازدواجية العبادة عند المصريين المسلمين » . وعندما سألته عن الدراسة قال انها لم تقبل وذكر بعض الاسباب ، فقلت له بكل وضوح ان لا يهتم بهذه النتيجة أبدا وماعليه الا آن يتفضل بارجاع النص ولكنه أظهر تعذر ذلك ، واصررت على ضرورة ارجاع النص ووعد بذلك ولكنه لم يف بوعده ، لم يفعل مافعله الفنان يحيى حقى الذى كان من الساعين الجادين لنشر كتابى « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » ولكنه فشل مع غيره من أمثال عالم الاثار « شارل كوينز » والدكتور العالم الفنان « حسين فوزى » وغيرهما . ولكن الفنان يحيى حقي بعد نشر كتابى طلب دراسة عنه لكى تنشر فى

مجلة « المجلة » التى كان يشرف على تحريرها . ولاسباب لم أعلمها حتى الان لم تنشر هذه الدراسة ولما طلبت منه النص بادر باعادته الذى نشر بدوره فى كتاب « قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية ، الذى طبعته ونشرته الدار القومية للطباعة والنشر ، عام ١٩٦٥ » . وعندما حاز هذا الكتاب جائزة الدولة التشجيعية فى عيد العلم عام ١٩٦٦ ، كلف الفنان يحيى حقى « نفسه » أن يكتب الزميل الاستاذ الدكتور « حامد عمار » . دراسة فى مجلة المجلة ، وقد تفضل الدكتور عمار بكتابة هذه الدراسة وعنوانها « الدكتور سيد عويس وظاهرة الكتابة للاولياء » . وقد نشرت هذه الدراسة فى مجلة « المجلة » (العدد ١٢٢ السنة الحادية عشرة فبراير « شباط » ١٩٦٧) . ولكن الدكتور مجدى كان أفضل من الأستاذ « رجاء النقاش » الذى عندما كان مسئولا فى دار الهلال عن نشر « كتاب الهلال » ، أقنعنى العزيز الدكتور مسعد عويس بأن يذهب اليه بنسخة من كتاب « حديث عن المرأة المصرية المعاصرة : دراسة ثقافية أجتماعية » لنشره . ومكثت هذه النسخة لدى رجاء النقاش فترة من الوقت ، وعندما ذهب الدكتور مسعد اليه فى موعد حدده له لم يجده بل وجد نسخة الكتاب ومعها خطاب اعتذار ، ومالبث أن ترك رجاء النقاش مصرنا الخالدة ليعمل فى بلد عربى وأنتهى الامر عند ذلك . ولكنى فوجئت فى أحد الايام بمجلة قضايا عربية « السنة الرابعة ، العدد ٥ و ٦ تشرين الاول ــ اكتوبر وتشرين الثانى ــ نوفمبر عام ١٩٧٧ » يحملها الدكتور مسعد فى يده وقد تضمنت موضوعاتها أحد فصول كتاب

« حديث عن المرأة المصرية المعاصرة : دراسة ثقـــافية اجتماعية » وكان موضوع هذا الفصل « ولا يزال » « حول موضوع جسم المرأة المصرية » .. ويبدو أن رجاء النقاش اكتفى بنشر اسمى تحت العنوان ولم يدع أنه المؤلف ولكنه سمح لنفسه بأن يجعل عنوان الدراسة المنشورة « حول موضوع جسم المرأة العربية فى مصر » وترك نص ماكتب فى الفصل كما هو لم يغير منه شيئا . واذا كان الدكتور مجدى فعل مافعل فقد نشرت الدراسة عن « الطـريق الى الوحدة العربية : وجهة نظر ثقافية اجتماعيـــة فكرية » ، وقد تقاضيت ضعف مااقترح الدكتور مجدى من اجر . واذا كنت فى كل كتبى اعترف دائما بالفضل لذويه ، فانى اعترف بفضل الزميلة الدكتورة سهير لطفى فى نشر هذه الدراسة . والدراسة المذكورة تتضمن موضوعات عديدة ، منها أنها تؤكد وجهة نظرى عن مفهوم « الشخصية العربية او المصرية » أو مفهوم « الطـابع القومى » ، وقد نشرت دراستين عن هذا الموضوع فى « مجلة قضايا عربية » ، الاولى عن موضوع « حول مفهوم الشخصية المصرية » « العدد ٥ أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٧٤ » ، والدراسة الثانية عن موضوع « حـول مفهوم الشخصية القومية » « العدد الثانى حزيران ـ يونيو ١٩٧٩ » . وفى هذه الدراسة أقصد الدراسة التى نشرت فى مجلة « الفكر العربى » اكدت وجوب اجـراء بحوث ودراسات واقعية لمجتمعات الدول العربية للتعرف موضوعيا على السمات الثقافية لكل مجتمع فى ضـوء المنهج الذى يسر لى الحصول على السمات الثقافيـــة

للمجتمع المصرى وتضمنتها الدراسة ، أى فى ضـــوء المنهج الذى تتضمن عناصره :

- البعد التاريخى لثقافة المجتمع .
- مدى استمرار هذه الثقافة واستقرارها .
- مدى تعدد مصادر هذه الثقافة وتنوعها .
- ظاهرة الازدواجية « بالمعنى الذى تبنته الدراسة المنشورة » فى هذه الثقافة .

وقد ذكرت فى صراحة ووضوح اننى اذ ادعو الى ذلك ملحا فان هدفى الوصول الى المعرفة الموضوعية لهـــذه العناصر لكى نؤكد مايتماثل منها ومايتشابه ولكى نواجه مايتباين منها او يختلف - فاننى لا ارفع شعار :

« لا وحدة عربية بدون وحدة ثقافية »

وتضمنت الدراسة المذكورة موضوعات اخرى ارجو أن يتفضل القارىء الكريم ويجد الوقت الكافى لكى يقراها قراءة متأنية . ولكنى اختم حديثى عن الدراسة بملاحظة المسها كباحث علمى اجتماعى فى المجتمع المصرى المعاصر منذ فترة غير قصيرة ، وهى اننى أرى أن هذا المجتمـع لا ينبض ضميره بمعنى موحد لمفهوم « المواطن المصـــرى الصالح » . وأننى أجد ان الواقع الحى المعـاصر يؤكد الاختلاف والتباين والتنافر السائد فى مناخه الثقـافى الاجتماعى بشأن هذا الموضوع الحيوى . ذلك لانالتناقض بين مايقال وبين مايعمل أصبح من سمات هذا المناخ . ومهما يكن من الامر فان العبرة عندى ليست الاتفاق على معنى هذا المفهوم فحسب بل ان اكثر من ذلك اهمية هو

الاتفاق على الوسائل التى تحقق اعداد المواطنين المصريين الصالحين . فالاختلاف على هذه الوسائل فى ضوء ظروف المجتمع المصرى المعاصر هو السائد . ويصل هذا الاختلاف فى الكثير من الاحيان الى الصراع الثقافى المرير فقد يتفق البعض على اجهزة تكوين المواطن الصالح . « اجهزة التنشئة الاجتماعية كالاسرة والجيرة والمدرسة والمنظمة الدينية والمنظمة السياسية ومنظمة شغل أوقات الفراغ واجهزة الاعلام والثقافة مثلا » . ولكن الاختلاف والتباين بل والتنافر تكون كلها عادة حول اى الاجهزة اصلح واجدى . وقد يكون الصراع حول ثنائيات مثل « السنة والبدعة » و « العقل والنقل » و « السلف والخلف » و « الاصالة والمعاصرة » و « الكم والكيف » و « القومية والوطنية » و « الحب والحقد » و « العلمانى والكهنوتى » وبين براثن هذا الصراع يعيش أطفال المجتمع حائرين وشبابه قلقين .

واذ أختم الفصل الحالى فاننى أرجو أن يكون عنوانه يؤكد الشعار العلمى القائل انه لا شىء مطلق . فقد يولد من الشر ماهو خير . ولعل قارىء هذا الفصل ان يرى مارأيته فى ضوء الممارسة ومواجهة مواقف الحياة . وارجو رجاء حارا منه وهو يقلب آخر صفحة فيه ان يبدأ صفحة جديدة يحاول أن يملأها بالاعمال الصالحة التى تهدف الى الخير اى التى تهدف الى التغيير الى الافضل ما أستطاع الى ذلك سبيلا . وقد يؤكد ماأقول التقرير الذى رشحنى لنيل « درجة المستشار » بعد ان امضيت حوالى سبع سنوات وأنا قابع فى « درجة

خبير اول » التى فزت بها بعد عمل متواصل لا يكل حوالى ثمانى سنوات أى منذ عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٦٤ . عملت فى خلالها بالمعهد القومى للبحوث الجنائية ثم بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . ونص التقرير المشار اليه يتضمن الاعتراف بأن « الانتاج العلمى للدكتور عويس ينم عن غزارة علمية ودقة وأصالة منقطعة النظير » .

- ٥ -

وأخيرا وليس آخرا

لا اخفى على القارىء الكريم أنني ترددت كثيرا فى كتابة الفصل الحالى . ولكن سرعان ماتبدد هذا التردد عندما ايقنت ان فى كتابته عبرة ودرسا بل ودروسا ربما أفاد منها من يجيئون من بعدى من الزميلات والزملاء . كانت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ نكبة اصابت ابناء الوطن العزيز فى شخص قادتهم ومن اتخذوهم قدوة لهم وبخاصة من كانوا فى نطاق الفئة العمرية الشبابية . اما ابناء الوطن من فئتى العمرية والذين فى مواقع عمل مثل مواقع عملى او مايماثلها او يشبهها فقد كانت تلك الهزيمة هزيمة لنا حقا . لقد كان الشعور بالذنب يهز كياننا النفسى هزا عنيفا ، ولم يكن لنا بدا الا أن ننظر فى امر هذه الواقعة ونقلب صفحاتها للتعرف على عواملها . وقد فعلت ذلك كما سبق ان اوضحت . واشتركت فى الندوات وانتهيت الى محاولة البدء فى كتابة كتاب « حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة » الذى نشر فى عام ١٩٧٠ وفى « نطاق المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية « كان المناخ الثقافى الاجتماعى فى خلال الهزيمة وبعدها مناخا مهزوما ايضا . كانت الادارة لا ترى الا ماهو تحت قدميها ، بل كانت لا ترى سوى ذاتها ومصالحها الخاصة ومادام لا يوجد على مكتب المدير المنتدب ورقة فى حاجة الى الامضاء فالعمل يسير

على مايرام . ذلك كان الشعار السائد . عدم وجود ورقة على المكتب يعني أن مهنة البحث العلمي الاجتماعي تسير في سبيل التوفيق والسداد . كنا نشعر بهــــذه « البيروقراطية » الهابطة والالم يحز في نفوسنا . واذ أقول كنا اقصد العاملين العلميين بالمركز ، وانا منهم ، بخاصة . وكان الدكتور خليفة في منصب الوزارة ومهما كانت الوزارة قريبة من المركز والمركز قريبا من الوزارة فقد كانت أعمال الوزارة العديدة تبعده عن المركز أميالا . والدكتور خليفة على الرغم مما قلت في الاجزاء السابقة عن بعض أعماله كان الشخص الوحيد الذي اســتطاع لفترة حوالي التسع السنوات ان يسير بالمركز الى بر الامان . كان يعرف كل شيء وكل شخص بين جنباته . وقد قاد المركز ومن قبله « المعهد القومي للبحـــوث الجنائية » قيادة الربان الذي يحاول ان يتلمس طريقه في ضوء ظروف المجتمع المصري الثقافية الاجتمـــاعية والاقتصادية والسياسية التي كان يواجهها . كــانت البلاد تحكمها الاقلية القوية التي كانت ترى ان الوطنيــة اصبحت لها حكرا . كانت السجون والمعتقلات مفتوحة لكل من يعارض او حتى يبدي لونا من المعارضة . واصبحنا وبخاصة في الفترة السابقة على الهزيمة نسمع الاقوال الواعدة التي لا تمارس ونرى وبخاصة في خـــلال عام ١٩٦٥ السجون والمعتقلات تفتح أبوابها للجماعات التي كانت قريبة الى قلب الدولة عندما بدأت حركة عام ١٩٥٢ وبعدها الى حين اى عندما اصبحت ثورة بقرارات يوليو عام ١٩٦١ . تماما كما فتحتها لهم في خلال عام ١٩٥٤

وشكلت المحاكم الاستثنائية سواء اكانت محاكم عسكرية ام محاكم امن الدولة العليا ام محاكم الشعب ام محاكم الثورة . كان زملائي وزميلاتي بالمركز ، وكنت معهم ، نرى كل ذلك ونسمع الكثير مما يحز في النفوس ونعيش همومنا ومع ذلك فقد كانت ادارة المركز المنتدبة تحيسا وكانها لاترى ولا تسمع ولا تتكلم . واذا تكلمت كانت تصدر عنها أوامر بيروقراطية هابطة لايخشاها الا الهابطون او المنافقون او اصحاب المصالح . وكنت في هذا الخضم حائرا حقا لا ادرى ماذا افعل . فكرت في الكتابة وبدأت ذلك ، ثم فكرت في السفر الى بلد من البلاد العربية لاعمل في احدى جامعاتها . وكانت جامعة الكويت اقرب الجامعات التي جاءت الى خاطرى ، وذلك لان « الدكتور عثمان نجاتي » الذى كان يشرف على « بحث القتل » يزور المركز من حين الى حين . وكنت أراه وكان يرانى . وعلى الرغم من اختلافى الفكرى معه عندما قدم لكتاب « الدكتور زكريا ابراهيم » الذى نقدته بأمر الاستاذ خليفة « قبل أن يحصل على درجة الدكتوراه » ونشر نقدى في المجلة الجنائية القومية في عددها الثانى المجلد الاول ، شهر يوليو عام ١٩٥٨ - فقد كان الدكتور نجاتى على درجة عالية من تكامل الشخصية فلم يكن بيننا الا الاحترام والتقدير المتبادلان . كان الدكتور نجاتى قد التحق بجامعة الكويت رئيسا لقسم علم النفس بكلية الآداب ، فكتبت اليه في خلال عام ١٩٦٨ لكى ييسر لى الالتحاق بالجامعة اذا استطاع الى ذلك سبيلا . وكان قد انتدب الى نفس القسم الزميلان « حسن الكاشف » و « مصطفى تركى » كمعيدين به . وفوجئت برد أرسله

الدكتور نجاتي مع الزميل حسن الكاشف يعتذر فالجامعة لديها من يكفيها في الوقت الحاضر أي في السنة الاكاديمية ٦٨-١٩٦٩ . ولم أكن لافرض نفسي على احد ، فلم يترك هذا الرد في نفسي اثرا سيئا . ولكن لم تمر أيام فاذا بي استلم بالبريد خطابا من « الدكتور عبد الفتاح اسماعيل » مدير الجامعة وكان مؤرخا في يوم ١٩ من شهر يونيو عام ١٩٦٨ ويقول فيه ان « الاستاذ الدكتور احمد مصطفى ابو زيد » قد قام بتزكيتي للعمل في جامعة الكويت . وانني اعرف الدكتور ابو زيد لانه قام بالاشراف على « بحث الثأر » الذى قام بعبء الاهتمام به وتمويله المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . كنت اعلم انه استاذ مساعد بجامعة الاسكندرية وأن تخصصه كان في « علم الانثروبولوجيا » . وقرأت التقرير النهائي لبحث الثأر بعد أن اتمه وكان تقريرا رائدا حقا يستحق عليه كما يستحق زملائي بالمركز الذين كانوا يعملون تحت اشرافه كل تقدير . وكنت اعلم ايضا أن الدكتور أبو زيد كان منافسا لي في الحصول على جائزة الدولة التشجيعية في علم الاجتماع في عام ٦٥-١٩٦٦ ، وقد كان كتابه عن موضوع « البناء الاجتماعي : مدخل لدراسة المجتمع طبعة عام ١٩٦٥ » . وهو كتاب يختلف عن كتابي « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعي » ولعل قارىء الكتابين أن يلاحظ انصاف لجنة الجائزة التشجيعية في الاجتماع عام ٦٥-١٩٦٦ في ضوء تقرير مقررها وهذا نصه :

تقريــر لـجنــة الجائزة التشجيعية
فــى الاجتمــاع عـــام ٦٥ - ١٩٦٦

عن كتاب ((من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى

يتلخص التقريران المقدمان من الإستاذين الفاحصين فى انه كتاب جديد فى موضوعه لم يسبق اليه المؤلف ـ درس فيه دراسة منهجية علمية ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الأمام الشافعى من الناحيتين الاجتمــاعية والاجتماعية النفسية متتبعا اصولها التاريخية فى المجتمع المصرى على اساس أن دراسة هذه الظاهرة وفهمها فهما واعيا ييسر التحكم فيها وضبطها والحد من قسوة صراعها ذلك لأنها تعكس الكثير مما فى اغوار نفوس العديد من المواطنين الذين يمارسونها . وقد كشف المؤلف فى كتابه عن صلة ظاهرة ارسال الرسائل الى الأمام الشــافعى بموضوع اجتماعى بالغ الأهمية وهو موضوع الجرائم غير المنظورة لان هذه الرسائل تتضمن شكاوى ضـــد أفراد ارتكبوا الوانا من العدوان والظلم على الامـــوال او الاشخاص سواء فى نطــاق الاسرة او فى نطـــاق العمل .

ومنهج الكتاب علمى يستند الى التحليل الاحصائى ومنهج تحليل المضمون والتفسير العلمى الدقيق فى ضوء الفروض التى افترضها واستطاع أن يتحقق من صحتها ..

وللكتاب قيمة علمية ممتازة وهو بحث أصيل مبتكر تظهر فيه الدقة والقدرة على البحث كما أنه يضيف الى العلم شيئاً جديداً بما استطاع أن يكتشفه من حياة المصريين واعتقاداتهم وقيمهم وهو بذلك يرقى الى المستوى المطلوب للجائزة .

وبعد قراءة التقارير ومناقشتها وافقت اللجنة باجماع الآراء على ترشيح كتاب « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » للدكتور سيد عويس لنيل جائزة الدولة التشجيعية فى الاجتماع هذا العام .

مقرر اللجنة

ولعل الدكتور أبو زيد قد زكانى لأنه اعترف لنفسه بأننى طالب علم جاد أو لعله أن زكانى لانه اصبح كما وصفه الدكتور مدير جامعة الكويت فى خطابه المرسل الى انه اى الدكتور أبو زيد « أستاذ » الانثروبولوجيا الاجتماعية بالجامعة . اى انه سيكون رئيسا على وانا مرءوس له حيث اننى كنت فى ذلك الحين فى المركز على درجة « خبير أول » « اى على درجة أستاذ مساعد جامعى » . لم أكن أدرى فى ذلك الحين ولم اكن اهتم لكى ادرى . اننى كنت راغبا فى التغيير ، تغيير المناخ الثقافى الاجتماعى الذى كنت اعيش فى ظله فى المجتمع المصرى بعامة وفى المركز بخاصة . كنت سعيداً لاننى سالتقى هناك كما علمت بالاساتذة الذين اعرفهم من كتاباتهم.

ومؤلفاتهم وكان منهم الدكتور توفيق الطويل والدكتور زكي نجيب محمود والدكتور عبد الهادي أبو ريدة، وذلك لان القسم الذى انضممت اليه كان « قسم الفلسفة والاجتماع » . وكان هؤلاء الثلاثة مدرسى فلسفة وكنت شديد الرغبة الاكيدة فى أن اقابلهم لكى أتحدث معهم واسعد بما عندهم من تجارب أكاديمية قد أكون فى مسيس الحاجة اليها فى حياتى العملية . فأنا كباحث علمي اجتماعي أرى أننى في مسيس الحاجة الى المعرفة الانسانية وأرى فى الوقت نفسه أن مصادر هذه المعرفة الانسانية أو اهم مصادرها هي الفن والدين والفلسفة والعلم العصرى . ومعرفتى بهذه المصادر تيسر لى اتساع افقى لكى ارى المجتمع الانسانى فى أفقه العريض الواسع الشامل ، ومن ثم يكون اختيار موضوعات بحوثى ودراساتى يرقى الى هذا المستوى . ويبدو اننى كنت على عجل من امرى فما اتممت الاجراءات المطلوبة منى الا وسارعت الى المطار لكى امتطى الطائرة الى دولة الكويت . لم يدر بخلدى ان أستأذن « البروفسور جان دوس جالى » الطبيب الذى كان يشرف على حالتى الصحية في السفر فلعله كان ينصحنى بعدم السفر أو لعله كان قد ارشدنى الى مايجب على أن اتبعه وأنا بعيد عنه اذ ساكون فى بلد يختلف مناخه عن مناخ مصرنا الخالدة . لم استأذن البروفسور وسافرت الى قدرى ومع قدرى وحدى . على أن تتبعنى زوجتى بعد ان يستقر بى المقام . وقلت زوجتى فقط وذلك لان العزيز احمد كان قد تزوج وكذلك العزيزة آمال والعزيزة تيسير وسمير العزيز كان على وشك الزواج وكان يعمل فى

« اسوان » . اما العزيز مسعد فقد كان في بعثة في « موسكو » للحصول على درجة الدكتوراه .

ووجدتني في الكويت يوم السبت ١٤ من شهر سبتمبر عام ١٩٦٨ . وصلت الى المطار في منتصف الليل تقريبا . وسأذكر دائما ماقابلني عند خروجي من الطائرة الأمر الذي لم اكن اتوقعه ابدا . صدمني هواء ساخن وحسبت انني اقف امام « فرن » والهواء الساخن يكاد ان يخنقني وتذكرت عمال الافران الذين يقفون امام فوهة الفرن يوميا ساعات وساعات والعرق يتصبب من الجباه ويسير في شعب غضون الوجوه وخلف الآذان . ولم أملك الا أن اتنفس بعمق ومالبثت أن اتبعت شهيقي بزفير مشتعل كنت مرهقا وكنت كذلك خائفا فأنا أواجه المجهول ، ولكنها ليست هذه اول مرة اواجه فيها المجهول . انني في الواقع اواجهه باستمرار وبخاصة في السنين الماضية الطويلة ، اي منذ لحظة ولادتي . ومع ذلك فانني اذ أواجه المجهول هذه المرة أجد مشاعري يختلط فيها الخوف بالامل وبالتفاؤل جميعا . انني في تلك الاونة كنت ابلغ سن الخامسة والخمسين أو يزيد . وأنا في هذه السن وفي ضوء ظروفي السابقة كنت شخصا متعبا وكانت صحتي ليست شابة ومع ذلك فان الامل كان لا يزال يملأ فؤادي . وقد أرجعت الحالة التي وجدت نفسي عليها في ذلك الحين الى الظروف السابقة القريبة ، أقصد الظروف التي كانت تتعلق بالاجراءات المتصلة بالسفر الى دولة الكويت . كان في حقيقة الامر ظروفا رهيبة حقا . ولا ارى داعيا وانا اكتب هذه السطور ان اتحدث عنها . كنت أود ان أكتب عن ركوب الطائرة منذ

ان دخلت باب مطار القاهرة الدولي حتى امرت بركوبها . وكنت اود ان اتحدث عما رايت في أثناء الرحلة وعما سمعت ، وقد رأيت وسمعت أشياء عديدة واحسست بها . وكنت اود ان اتحدث عن الزملاء الذين صحبوني من بيتي الى مطار القاهرة . كان عددهم كبيرا أكبر من اى عدد صحبني مودعا في المرات الست السابقة اى منذ عام ١٩٤٨ . كان يصحبني العزيز احمد والعزيزة آمال والاستاذ لطفي فطيم زوجها والعزيزة تيسير والاستاذ فوزي النجار زوجها ، وقد تفضل وصحبني زملائي العاملون العلميون بالمركز الاساتذة السيد يسن وعلى فهمي وسمير الجنزوري وصلاح عبد المتعال ، وكان العزيز سعد محمد سعيد احد عمال المركز قد اثلج صدري بحضوره كذلك . لقد سعدت بهم جميعا . وكما سعدت بهم جميعا خجلت منهم جميعا . انني في الواقع في ضوء طبيعة عناصر وجداني لا احب مواقف الوداع ولكن ماالحيلة ؟ كان احمد العزيز خير مساعد ، انه شاب شهم وانسان وحبيب ولم يحضر سمير الحبيب فقد كان في عمله ، وكان العزيز مسعد يبعد عن القاهرة اميالا واميالا . وكانت ماما العزيزة « زوجتي » تود الحضور ولكنني خشيت عليها وفي الواقع انني كما يبدو كنت أخشى من نفسي اى انني خشيت من مشاعري وشجني ان تغلبني امامها . وكانت تلك المرة السابعة التي أسافر فيها خارج بلادي ولم يكن من حظي ان تاتي ماما معي مرة واحدة وانني اذكر اننا عندما وصلنا الى مطار القاهرة كنت اود أن اهرب من الجميع لاخلو بنفسي

وانتهزت الفرصة وفعلت ذلك .

ومن الامور التي لا اجد لها تفسيرا ، وربما اذا عرضتها هنا أن يشاركني القارىء الكريم في هذا العجب العجاب او قد يجد له تفسيرا وذلك لانني عندما أعطيت جزءا من النقود عند استلامي العمل بالجامعة ، بادرت بشراء قلم حبر من الذهب . كانت النقود كثيرة مافي ذلك من شك فقد سجل لي أن احصل على مرتب شهري يوازي مرتبي السنوي الذي كنت احصل عليه في وظيفتي بالمركز ، بل اكثر من ذلك . وعجبي الذي أراه الان أي وقت كتابة هذه السطور يرجع حتما الى تعليل الاهتمام بشراء القلم « الذهبي » هذا ، وبخاصة انني عندما كتبت به لاول مرة لم اجد متعة وانا اضعه بين أصابعي ، وليس لدي ما اقول الا انني لم أفكر في شراء مثل هذا القلم من قبل ، ولكنها النقود : نقود الكويت ، اقصد متعة صرف هذه النقود . وكانت اغراءات صرف النقود تنبعث من أسواق الكويت المملوءة بكل الاشياء .. مجتمع عجيب مملوء بالمتناقضات . مجتمع الابل و «الاوبل» . وكان هذا انطباعي عن هذا المجتمع الذي بدأ عندما تأسست امارة الكويت « على الارجح » في عام ١٧٥٦ م ، اي قبل ان يظهر مجتمع الولايات المتحدة في عام ١٧٧٥م وكنت أراه مجتمعا غنيا جدا وفيه أقليات عديدة . وكان الكويتيون ، وربما مازالوا اقلية كبيرة . ولفظ الكويت تصغير للفظ « كوت » اي الحصن أو القلعة التي أنشئت لكي تسيطر على المنطقة الواقعة بين قطر والبصرة . وقد ذكر احد الرحالة ان الكوت في منتصف القرن التاسع

عشر، كانت بلدة صغيرة يقطنها عشرة آلاف نسمة يمتلكون ثمانمائة مركب صيد وكانوا يعيشون على التجارة وصيد السمك والغوص بحثا عن اللؤلؤ . وقد قدر عدد سكان الكويت في اول تعداد رسمى أجرى في عام ١٩٥٧ ب ٢٠٦ آلاف نسمة وكان عدد الكويتيين « والذين تكوتوا من الايرانيين وغيرهم » منهم نحو ٥٥٪ اى ١١٣ الفـــا . والملاحظ فى ضوء اطلاعى على آخر تعداد أجرى فى عام ١٩٨٠ اصبح عدد السكان حوالى ١٫٣٥٦٫٠٠٠ نسمة وكانت نسبة الكويتيين والذين تكوتوا منهم نحو ٤١٫٥٪ وفى ضوء ملاحظاتي في اثناء فترة اقامتى القصـيرة فى الكويت تأكد لدى أن المجتمع الكويتى مجتمع بلا تاريخ حضارى اى بلا ثقافة أو حضارة واضحة . كنت وانا اجوب شوارع المدينة العاصمة أو ازور المدن التى صنعها « النفط » كالاحمدى وميناء الشعبية ، وكنت عنـدما علمت ان العمالة الوافدة تشكل نحو ٧٠٪ من العمـالة الكلية وتصل فى بعض التخصصات الى نحو ٩٠٪ اصارح الآخرين بأن هذا المجتمع مجتمع من الورق . وهو مجتمع يستحق الدراسة الموضوعية وهذا هو واجب العلمـاء والباحثين العلميين واننى أذكر اننى وانا اركب عـربة « تاكسى » قال لى السائق وكان لبنانيا :

« ان هذا المجتمع (يقصد مجتمع الكويت) ارضـه عربية فقط اما ناسه فهم من جنسيات أخرى » .

وقد لاحظت ان مدينة الكويت مدينة كبيرة وان البناء فيها على قدم وساق وتجد شوارعها طويلة جدا وعريضة جدا والسيارات تملؤها . ووجدت انه قلما يمشى الناس فى شوارع الكويت فالاغلبية الساحقة تملك السـيارات

او يركبون « التاكسى » الذى ليس فيه « عداد » . وقد لاحظت أنه كلما صفر رقم السيارة الملاكى كلما عظم شأن صاحبها فقد كنت اركب بجوار مالك سيارة كويتى ورأى ان يفسح الطريق للسيارة التى وراء سيارته عندما سمع صوت « بوقها » يدق دقا متواصلا ، وعندما رأى صاحب السيارة الكويتى الذى كنت اجلس بجواره رقم السيارة التى أفسح لها لتمر قبله سب ولعن ساخطا . وعلمت أنه فعل ذلك لأنه وجد ان رقمها أكبر من رقم سيارته ومن ثم فان صاحبها بالضرورة يجب أن يكون أقل منه قدرا وانه كان ينبغى أن يدرك ذلك ويعلم ان رقم سيارة صاحبى أصغر من رقم سيارته، فلايحاول ان يسبق سيارته ذات الرقم الاصغر ! واننى أذكر عندما ذهبت الى مقر جامعة الكويت لاول مرة ذهبت اليه فى سيارة تاكسى لانه يبعد عن منزلى فلا أستطيع الذهاب اليه الا بهذه السيارة او فى صحبة أحد يملك سيارة . وعندما وصلت الى مقر الجامعة وجدتنى فى « حيص بيص » لا أعرف ما الذى كان على أن أفعله ولكنى من حسن حظى وجدت « الاستاذ نصر » الذى كان يعمل معنا فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بعض الوقت . انه الان يعمل بجامعة الكويت كل الوقت وكان هو بعينه الشخص الذى كان على أن اقابله حيث قمت عنده باجراءات استلامى العمل فضلا عن استلامى مبلغ ٢٥٠ دينارا . كويتيا على سبيل القرض أدفعه عند استلامى اول مرتب شهرى احصل عليه من الجامعة ومن عند الاستاذ نصر ذهبت الى « زميلى الاستاذ محمد حسن كامل » أحد زملاء خريجى الدفعة الاولى من مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى عام ١٩٤٠ ، أى نفس

الدفعة التي كنت احد اعضائها . وكان كما توقعت إخا كريما وشخصا كريما . ومن عنده طلب مني مقـابلة « الدكتور عبد الفتاح اسماعيل » مدير الجامعة . وبدأت اجراءات المقابلة حيث اضطررت لكي أقابل احد سكرتيرى المدير وان اجلس فترة حتى يستأذن لي لكي أمثـل بين يدى المدير . وعندما أذن لى وجدت الحجرة التى فيها مكتب مدير الجامعة فسيحة جدا وان الطريق الى مكتبه طويل بلا ضرورة . ولعله كان يستمد من طـول هـذا الطريق مكانته الرفيعة . وقد مكثت اسير فى هذا الطريق دقائق معدودات حيث وجدته يجلس خلف مكتب كبـير الضخامة فكان يبدو لى أصغر من حجمه . وعندما قام لتحيتي بدا حجمه الطبيعى الذى لم يكن ليلفت الانظار . كان المدير بعد ان حيانى التحية الكريمة والحق يقال يلبس قناعا يحاول به أن يوحى الرهبة فى نفوس من يقابلونه من اساتذة أو غيرهم . وعندما وجدت احد الـكراسي الشاغرة التى أمام المكتب جلست دون أن استأذن ولم يكن للدكتور المدير ان يعترض على ذلك . كان الحديث بيني وبينه حديثا جديا تناول خبراتى وقد أهتم بهـذه الخبرات ذاكرا أن جامعة الكويت هى « جامعة بحوث » قبل ان تكون « جامعة تدريس » . وعلى الرغم من تجربة المقابلة المسرحية فقد حمدت له هذه العبارة وسعدت بها السعادة كلها . ومن حجرة مدير الجامعة الفسـيحة والطريق الى مكتبه الطويل الطويل وجهت الى الذهاب الى « قسم الفلسفة والاجتماع » حيث قابلت رئيسه الدكتور ابو ريدة كما قابلت الدكتور توفيق الطويل والدكتور زكى نجيب محمود وأخيرا قابلت الدكتور أحمد ابو زيد وكان

استقبالهم لي كريما . وبدأ الدكتور زكي نجيب محمود المحادثة معي كما اذكر ، وكان حديثه حول موضـــوع عدم وجود المفكر الذي يجمع في جعبته الالوان العديدة من المعرفة . كان يود ان يعرف عوامل عدم وجود هؤلاء المفكرين في الآونة الراهنة . وقد عجبت لسؤاله هذا في اول الامر وكان على ان اصمت او ان اجيب . وآثرت ان أجيب فقلت ، كما اذكر ، لك يا أستاذنا ان تذهب الى أية مكتبة وبخاصة اذا كانت تحوي موســـوعة من الموسوعات أو اكثر وانت تجد الاجابة عن سؤالك . وزدت قائلا انني أشك في وجود شخص أقصد مفكرا قـــرأ « الموسوعة البريطانية » كلها مثلا او حتى استوعب او تمثل أحد مجلداتها . وتشعبت المحادثات وقد عرفت في أثنائها أن الدكتور ابو ريدة قد قضى أجازته الصيفية في تركيا وهناك بحث عن كتاب من الكتب العربية التي تملأ مكتبة « الآستانة » والتي جمعها العثمانيون بدءا من الفتـــح العثماني لمصرنا الخالدة حيث بدأ لهم أن يجردوها ليس فقط من العلماء والفنانين والحرفيين بل من الـــكتب الثمينة كذلك . وذكر الدكتور ابو ريدة أنه عثر على ضالته في الحصول على نسخة مصورة من كتاب للعالم الكبير « ابو على الحسن بن الهيثم » وأنه يزمع على تحقيقه ثم نشره . فقلت لنفسي ما أسعدني وانا اعيش بين هؤلاء العلماء ! وعندما حان وقت الانصراف عدت الى منزلي في سيارة الزميل محمد حسن كامل الذي عاد ليأخذني الى السوق في الساعة الرابعة بعــــد الظهر لشراء بعض الضروريات . وكنت عندما اعود الى منزلي حيث أعيش في احدى الشقق المؤثثة بالاثاث الوثير التي بهـا ثلاث

حجرات وصالة ومطبخ واسع فضلا عن دورة الميـاه ، كنت اجلس في احدى الحجرات في معظم الاحيـان وحدى . وأنني اقول معظم الاحيان لانني كنت ادعو « بواب » المنزل ليشرب الشاى معى . وكان هذا البواب شابا من ايران دخل دولة الكويت خلسة ، وفي غفلة من المسئولين عين في وظيفته مسئولا عن نظافة المنزل . كنت اسعد برؤياه وبجلوسه معى . كان هو يطمع في نقودى وكنت انا اطمع في أنسه الذى اتعمد ايجاده بالتحدث اليه والاستمتاع بحديثه الخبيث الساذج . وكان الوقت الذى أقضيه خارج الجامعة طويلا طويلا . فلم أكن أعمل شيئا في الجامعة ولكن كان على ان اذهب كل يوم وامكث ساعة او اكثر او أقل ، وكان يطلب منى عـدم المجىء فالدراسة في الجامعة كانت ستبدأ في يوم ١٢ من شهر أكتوبر عام ١٩٦٨ . والملاحظ ان طلب عدم المجىء هذا كان حبيا ولم يكن رسميا فالدكتور ابو ريدة على كبر سنه وطول باعه فيما تخصص فيه كان يخشى مـدير الجامعة وكنت أنظر الى ملامح وجهه وهو يتحدث الى المدير أو يتحدث اليه المدير تليفونيا فارى عجبا . كـان يتحدث وكأنه يتهته او أن حلقه جاف لدرجة أنه كان يكاد ان لا يسمع صوت نفسه . وبعد المحادثة تراه وكأن جبلا قد زحزح عن كاهله ثم يتمتم وكأنه يتحدث الى نفسه قائلا :

« دا المدير ده مابيونش واوامره حامية خالص »

وكنت احاول أن اجعل من الوقت الطويل الذى اقضيه في خارج الجامعة فرصة لاتعرف اكثر على مدينة الكويت نهارا وليلا . كنت أفضل أن أكون وحدى في معظـم

الاحيان . وكان يصحبني الزميلان حسن الكاشف ومصطفى تركي في بعض الاحيان . كنت اذهب الى الاسواق ومنها « سوق الصفا » مثلا لا لاشتري شيئا ولكن لكي ارى واسمع .. ارى الناس والاشياء والظواهر وانماط السلوك والعلاقات الاجتماعية واسمع مايقوله الناس ومايصدر عنهم من تعليقات . وكنت أعى بعض ما يقال اذا كان الحديث باللغة العربية ، ولم أكن أعى شيئا مما يقال اذا كان الحديث باللغة الفارسية . وكانت الاصوات التي تبثها الاذاعات اصواتا شتى ، وكان معظمها اصواتا تتحدث باللغة الفارسية . وكانت هذه الاسواق تعكس الغنى الفاحش وكانت تضم الفقراء والمتسولين . ولن انسى ماحييت عند ماكان يقف الشبان العديدون في مكان خاص من بعد ظهر كل يوم حتى وقت الغروب . كانوا شبانا أقوياء وفيهم الابيض والاسمر والاصفر . وكنت اراهم يعرضون انفسهم على الناس ، أقصد يعرضون عملهم وهم واقفون ينتظرون اشارة « اصبع » واحد ، والكل يرجو أن تكون هذه الاشارة موجهة اليه ، وذلك لكي يجرى المحظوظ الذى أشير اليه ليقضى حاجة لمن اشار اليه نظير أجر لايقبل المساومة . فالعرض أقصد عرض الشبان الاقوياء كان عادة اكثر من الطلب عليهم . وكنت أقف ربما بالساعات لكي ارى هذه المسرحية القبيحة اقصد المستهجنة التي يأباها كل ذى حظ من النخوة واحترام بني الانسان . لقد كانت ظاهرة تحويل الانسان الى سلعة أقصد تحويل الطاقة الانسانية في شخص الشبان الواقفين بالساعات على ارجلهم الى سلعة يشتريها كل قادر على شرائها امرا ممجوجا حقا .

وانظر الى وجوه الذين لم يشر الى احدهم باصبعه عندما
نغرب الشمس وهم يعودون من حيث أتوا . كانت وجوها
كاسفة حقا لا تنظر الى شيء الا الى مواقع أقدامهم . لهف
نفسي ماذا كانوا يحسون به ويشعرون . وكنت أتعمد
الذهاب الي هذا الموقع لارى كيف يصنع المجتمع الكويتي
من الانسان عبدأ . ولم أكن أعجب من ذلك . فلا عجب
لان النظام الاجتماعي في المجتمع الكويتي كان يحتم وجود
المتناقضات . وانني اذكر أن الاوامر قد صدرت الى
اعضاء هيئة التدريس بالجامعة للاجتماع في ساعة معينة
بعد ظهر أحد ايام الاسبوع . وقيل لي أنه اجتماع
سنوي برأسه مدير الجامعة ويخطب في الاعضاء خطبة
عصماء . وحضر الجميع ولم يتخلف احد . وجلسوا في
مقاعد كتبت عليها أسماؤهم حسب درجة كل عضو ، اي
ان عمداء الكليات اولا ثم رؤساء الاقسام ثم الاساتذة
ثم الاساتذة المساعدين ثم المدرسين ثم المعيدين . وبدا
لي ان الاغلبية الساحقة من أعضاء هيئة التدريس
المجتمعين كانوا من المصريين ، وكان منهم من العراقيين
والاردنيين والسوريين الذين كانوا يشكلون الاقلية .
ورايت منظر الاساتذة الاجلاء يجلسون تحت قدمي مدير
الجامعة الذي انفرد بالجلوس على كرسي وحده وأمامه
منضدة لا يشاركه فيها أحد . كان في نظري فرعونا اي
اعادت جلسته وحده الى أعلا والعلماء الافاضل الأجلاء
تحت قدميه صورة « فرعون موسى المصري » . وكانت
صورة بشعة نفرت منها وتوجست الشر ولم اتوقع
الخير . وعجبت لرضاء هؤلاء العلماء الافاضل للقيام
بهذا الدور الوضيع وبررت تصرفهم ولكني لم أعذر واحدا

منهم . واذا كان الاعضاء الجدد قد اخذوا على غـــرة قلت ذلك فى نفسى متسائلا ، فما هى حجة من سبقوهم الا أن تكون مايحصلون عليه من راتب عال جدا ؟ فالنقود هنا كما هى هناك قد أذلت أعناق الرجال الا مـــن رحم ربك . ولم تكن خطبة المدير عصماء . كانت خطبة حديثها طويل بلغت مدته الساعتين . وتحدث فيها عن انشاء الجامعة وتطورها حتى اللحظة التى كان يخطب فيهـــا . وتحدث فيها عما حقق فى الماضى ومايحقق فى الحاضر وما يجب أن يحقق فى المستقبل . كان الاجتماع طويلا فى حجرة لا تكييف فيها . وقد ضمنها بعض نصـــائحه وكأن الذين يجلســون امامه تلاميذ فى « كتاب » . وذكر حادثة عن احد اساتذة الجامعة تضمنت أن هذا الاستاذ لبس « الدشداشة » « أى الجلباب الكويتى القومى » وجاب شوارع المدينة دون ان يلبس « العقال » . وقد لام الاستاذ الذى لم يذكر اسمه على ذلك ونصحه كمـــا نصح جميع الحاضرين فى سخرية أن من يلبس الدشداشة يجب عليه ان يلبس العقال وان لبس الدشداشة بلا عقال يعنى لبس الجلباب المصرى الذى يلبسه المصريون عادة فى قـــراهم وان من حق الجامعة ان تربأ بأســـاتذتها ان لا يفعلوا فى الكويت مايفعلونه فى قراهم . وقد ذكر المدير ماذكر لكى يعلم الحاضرين أن كل مايقوم به عضـــو هيئة التدريس فى الجامعة وفى خارجها لديه به علم فهو قد أعد « طابورا خامسا » تحت أمرته اعدادا كاملا . وقد تأكد ذلك من وقائع حدثت فى أثناء أقامتى القصيرة فى الكويت . فقد تأخر استاذ عن حضور الحصة فى موعدها دقائق ولامه المدير على ذلك فذكر له الاستاذ انه كـــان

يطمئن على زوجته فى المستشفى فأكد المدير انه يعلم ذلك . وأستاذ آخر اراد أن يستعير كتاباً من المكتبة لايقع فى دائرة أختصاصه العلمى فلفت المدير نظره الى ذلك وكانه كان يقول له انه يعلم حركاته وسكناته فى مايقرا او فى مايجب عليه أن يقرأ . وكنت كلما اسمع عن هذه الامور أجد خيفتى تزداد وتزداد وبخاصة فقد كان شعورى بالوحدة يزداد ويزداد ايضا . وكنت اقول لنفسى بالنسبة للشعور بالوحدة أننى عشت كذلك فى كل البلاد الغربية والعربية التى سافرت أليها من قبل فما الذى حدث ؟ وكنت اجيب بقولى أننى كنت فى سن شابة وكانت صحتى كذلك شابة . وكنت التمس العزاء لنفسى بتوقع حضور زوجتى لكى تؤنس وحشتى ولكى اعيش عيشة عادية راضية مرضية . كنت فى مسيس الحاجة الى عون « ماما » والى أنسها حقا . ويالهفى على نفسى عندما كنت اتذكر أحمد وسمير وتيسير ومسعد الاعزاء وكان قلبى وعقلى مع العزيزة آمال التى عينت مدرسة فى وزارة التربية والتعليم فى خارج القاهرة . وكانت فى ضوء ظروفها الخاصة تسعى مع الساعين الى نقلها الى مدينة القاهرة وكنت أسخط أحيانا واقول لنفسى سرا لقد أتعبتنى بلادى العزيزة ، أعطيتها كل ماعندى من عمر ومن صحة ومن وقت ومن كفاح أيجابى جبار ، ولم اقل أعطيتها مالاً او عقارا فأنا رجل فقير منذ ان خرجت الى هذه الدنيا من بطن أمى . وكنت اتساءل واقول لماذا حدث ذلك ؟ لماذا اضطررت الى أن اترك مصرنا الخالدة لاعمل فى الكويت ؟ ثم كنت اعزى نفسى ولعلنى كنت مغرورا أو أقول الصدق فأؤكد لنفسى

انني فى ضوء نتائج اعمالى فى مجتمع بلادى على ان لا أحزن أبداً وأنه يجب على أن اعيش فى الامل .. امل نتائج ماقعلت فى شخص أبنائي وطلبتي وزملائي وغيرهم وغيرهم . وكنت أقارن بين ما أحس به فى عام ١٩٦٨ وانا فى الكويت وبين ماكنت احس به فى عام ١٩٣٩ وانا فى « كوم أمبو » . كنت فى عام ١٩٣٩ اسافر بعيداً عن القاهرة فى عمل . كان عمرى ٢٦ عاما وانا فى عام ١٩٦٨ فى سن الخامسة والخمسين من عمرى . كنت فى كوم امبو قد اعطيت مسئوليات ضخمة فقد كنت أدير مؤسسة للاحداث الجانحين وتركت أسرتى الصغيرة : امى وزوجتى والاعزاء احمد وآمال وسمير فقط وذلك لان العزيزة تيسير والعزيز مسعد لم يكونا قد شرفا الدنيا بوجودهما بعد . وعلى الرغم من صغر السن ومن قلة الخبرات اديت واجباتى . كنت اعيش غريبا مع بعض المصريين وكان اغلب الرؤساء من اليهود . واشهد اننى تعبت جداً . كانت مغامرة وكان الامل أن تكون مدتها قصيرة وكانت فعلاً قصيرة « حوالى ثمانية شهور فقط » . ومع ذلك فاننى لم أكن مسئولاً وحدى عن شقة كبيرة بل كنت اعيش فى فندق آكل فيه وانام ، ولم اكن مسئولاً عن النظافة . وكذلك فعلت فى المملكة المتحدة وفى الولايات المتحدة وفى فرنسا وفى يوغسلافيا وفى الدانيمارك وفى النرويج وفى السويد وحتى فى لبنان وفى سوريا كنت مسئولا عن نفسى فحسب وعن اعمالى فحسب أما المأكل والمشرب والنوم وماتتطلب هذه كلها فالمسئولية كانت تقع على كاهل غيرى . وفى الكويت فى عام ١٩٦٨ كنت فى مجتمع غريب هو شرقى عربى

نعم ولكنى أعيش غريبا وأعيش وحدى وأواجه المسئوليات جميعا وحدى وكان أملى أن أتعود هذه الحياة فالمغريات كبيرة وكثيرة والتحديات أكبر وأكثر .

وكان مجتمع الكويت يقول وكأنه يصرخ زاعقا ان اعضاءه يجب ان يكونوا من أصحاب السيارات الخاصة وآلا يكون « ذنبهم على جنبهم » . لهف نفسي على المشاة في الكويت قلبى وعقلى معهم فأنا الآن واحد منهم . فقد كانت ظروف المواصلات مرهقة جدا وكنت أجدني أفكر احيانا في شراء سيارة ولكنى لا اعرف كيف أسوق السيارة . ولم يكن آلا ان استأجر سائقا فالضرورة كما يقولون لها احكام . واننى أذكر أننى لم أر أحدا من الناس الذين يعيشون في المجتمع الكويتى يضحك .. لم اسمع ضحكة واحدة من كويتى أو غيره من الجنسيات الاخرى . لعلهم اى الناس في المجتمع الكويتى الذى عاصرته ان كانوا مهتمين بأشياء أخرى غير الضحك . انهم يفعلون ذلك مافى ذلك من شك .. المال .. الدنانير ! وكنت انظر الى اساتذة الجامعة وهم يأخذون مرتباتهم ، انظر اليهم خلسة وهم يعدون مايأخذون ، كانت عيون بعضهم تقول أشياء لاتنم الا عن الجشع واللهفة وراء كل دانق . وكان من بين هؤلاء أكثر من عضو من اعضاء قسم الفلسفة والاجتماع .

وفاجأني الدكتور أبو زيد بدعوة الى الاجتماع ولم يجتمع الا هو وانا ، واملى على مايجب على ان اقوم بتدريسه وحدد مواعيد الحصص للبنين وللبنات ، فقد كان أولئك وهؤلاء منفصلين كل فئة في مبنى خاص . وكان مبنى الطالبات البنات بعيداً عن مبنى الطلبة

البنين . وكان على أن اذهب الى مبنى الطالبات ربما بعد الانتهاء مباشرة من الحصة التى قمت بالتدريس فى خلالها للطلبة . ومن ثم فعلى أن ارجو صاحب سيارة يكون ذاهبا الى مبنى الطالبات لكى يصحبنى معه . وجاء يوم الجمعة ٢٧ من شهر سبتمبر عام ١٩٦٨ . وكنت قد تعمدت أن لا أخرج من منزلى يوم الخميس التماسا للراحة فقد حدث قبل يوم الخميس أقصد يوم الاربعاء ان خرجت من الجامعة ظهراً وكان يصحبنى الزميل حسن الكاشف الذى أقترح أن نركب « الاوتوبيس » وكان الجو حارا جداً وكان النهار قد أنتصف ومكثنا فترة طويلة ننتظر الاوتوبيس ولم يأت واذا بالدكتور نجاتى يوقف سيارته أمامنا وطلب منا تكرما منه أن نصحبه ، وكان فى السيارة الاستاذان الدكتور زكى نجيب محمود وتوفيق الطويل وكان الدكتور زكى يجلس بجواره فآثر أن يجلس وراءه بجوار الدكتور الطويل وترك المكان للزميل حسن ولى . وجلست بجوار الدكتور نجاتى ولم اكن اعلم بأن بالسيارة « جهاز تكييف » صوبت فوهته نحو الجانب الايمن من بطنى وكان الهواء الذى تدفق منه بالنسبة للهواء العادى فى خارج السيارة بارداً جداً ، فسرعان ماشعرت بالالم الشديد ولكنى كظمت مشاعرى وطلبت من الزميل حسن الكاشف أن يبعد فوهة جهاز التكييف عنى . وعندما ذهبت الى المنزل بعد ان تفضل الدكتور نجاتى بتوصيلى اليه زاد الالم ولم أعرف ماذا أفعل . ولكن رأيت أن اتعمد أن لا أخرج من البيت التماسا للراحة ولكن يبدو أننى اخطأت . لاننى فى ضوء اوجاعى احسست بوحشة رهيبة وأنا وحدى فى الشقة .

وساورتني الهواجس وكنت في حالة نفسية سخيفة .
وانني اذكر انني قلت لنفسي هربا من حالتي فلأبدأ باعداد المحاضرات التي سالقيها على طلبة وطالبات الجامعة بعد افتتاحها في يوم ١٢ من شهر اكتوبر عام ١٩٦٨ . وكان الدكتور ابو زيد قد كلفني باعداد صحيفة استبيان عن موضوع يتعلق بالشبان العاملين في احد المصانع بالكويت فبدات به حتى اثبت له مدى قدراتي في مجال البحث العلمي الاجتماعي . واذكر للقارىء الكريم انني بدات بهذا العمل غصبا وذلك لان الدكتور ابو زيد لم يقتنع بانه من الواجب الاتصال ببعض من هؤلاء الشبان ومناقشتهم حول الموضوع الذي يراد بحثه اولا ، اي قبل اعداد صحيفة الاستبيان . ولما وجدته مصرا اكدت له أن ماساقوم به يجب ان يخضع للتجربة اي يطبق على عدد من الشبان للتاكد من صلاحية بنوده وصحتها قبل اختيار العينة الممثلة والبدء في مراحل البحث . وعندما وافق وعدت بالقيام بما يطلبه في ضوء خبراتي السابقة . ولكن حدث وانا اعمل منهمكا حتى أنسى ماعندي من آلام لا اعرف مصدرها او ادعي تشخيصها ان جاء احد الزملاء في قسم الفلسفة والاجتماع يعمل معنا في درجة معيد وهو « الاستاذ محجوب » الذي كان يسكن في نفس المنزل الذي كنت اسكن فيه . لقد علمت منه انه يعتبر نفسه بكل الفخر تلميذا للدكتور أبو زيد . وانه سبق أن عمل بالجامعة عاما ، وأنه متزوج وتعيش زوجته وابنه « احمد » الرضيع معه في نفس المنزل اي انني كنت جارا له .
ووجدته في سن العزيز احمد عويس وربما كان اصغر سنا ، وسعدت بمجيئه الى شقتي على الرغم من كل

شيء وبعد ان جلس معى فترة من الوقت وجدته يدعونى الى تناول طعام الغداء فى منزله اقصد شقته . والواقع اننى كما سعدت بمجيئه سعدت ايضا بالدعوة الى الغداء وعندما ذهبت الى شقته وجدت زوجة مثل تيسير ابنتى العزيزة وان ابنه «أحمد» ذكرنى بالعزيز «أسامة» حفيدى لابنتى العزيزة آمال وكان الحفيد الذكر الاول بعد العزيزة الآنسة « منال » ابنة العزيز احمد . واحسست اننى فى شقة لابنى او لابنتى . وقد ابلغنى الاستاذ محجوب انه سمى ابنه احمد تيمنا باسم استاذه الدكتور أحمد ابو زيد وانه على وشك شراء عربة ماركة « اوبل » وسيقوم الدكتور ابو زيد معه ومع زوجته بشرائها او بمعنى اصح باختيارها له وأنه سيترك لزوجته اختيار لونها . كانت جلسة كريمة وكان الحديث وديا ، ولكننى بعد ان تركت هذه الاسرة الصغيرة عادت الوحشة الرهيبة الى نفسى . وبدا لى اننى اخطأت خطأ جسيما بقبولى الاعارة لجامعة الكويت . وبدا لى أيضا انه كان يجب على ان ارفضها شاكرا . أن سنى كبير وان صحتى لم تكن شابة فكيف اتحمل الحياة فى هذا المكان اقصد فى هذا المجتمع وحدى ؟ ويبدو أن متعة الغداء مع أسرة الاستاذ محجوب الصغيرة قد اثارت عندى الشجون فكنت اقول لنفسى صامتا ليتنى كنت قد اصطحبت زوجتى معى او ليت زوجتى كانت قد رافقتنى منذ اللحظة الاولى . ان احساسى بالوحشة جاء فى كل مرة عندما كنت اسافر الى الخارج ، وقد أحسست بهذه الوحشة حتى فى كوم امبو . كنت أعد الايام والاسابيع والشهور . وانا فى ذلك الوقت اى الوقت الذى كنت فيه فى الكويت افعل

ذلك وارى ان امامى ان امكث حوالى ثمانية شهور ونصف الشهر بعيدا عن احبائى وأصدقائى وزملائى . والمسألة فى حالتى الاخيرة لم تكن الوحشة فحسب بل زاد عليها المرض الذى لم اكن اعرف كنهه . وكنت أتساءل وانا جاد مع نفسى وصادق معها كيف السبيل الى الخروج من هذه الورطة ؟ وكنت اقول لنفسى واصدقها القول متمنيا ان حضور زوجتى سوف يعنى استقرارا نفسيا نوعا ما . وقد يكون عاملا هاما فى تحسن صحتى ، حيث أننى أتألم من بطنى من الجانب الايمن من وسطها وأنا لا استطيع ان اطبخ طعاما واذا اكلت فاننى اضطر لاكل الطعام « المعلب » وبعض الفاكهة . وعشت فى مناخ التمنى طويلا . كنت أقول مثلا انه ربما اذا تخيلت اننى سأمكث شهورا ثلاثة او اربعة حتى تأتى عطلة نصف السنة ثم طلب الاذن بالسفر الى مدينة القاهرة فترة العطلة يحيى هذا التخيل فى نفسى الامل . او ربما اذا انتقلت الى فندق لكى أعيش فيه حتى تحضر زوجتى تنفرج ازماتى الصحية والنفسية . ثم اتذكر اننى لم استلم خطابات من زوجتى أو من العزيز احمد او اى انسان منذ أكثر من عشرة أيام . لقد كانت الرسائل العديدة ترسل الى من الاحباء ومن الزملاء ومن غير هؤلاء باستمرار . وأننى اذكر ان أكثر من عشرين شخصا قد ارسلوا لى خطابات مرة ومرة ومرات فما الذى حدث ؟ ولكن نوبات الاوجاع كانت تلهينى عن التفكير فى الاجابة عن هذا السؤال . وكان يزورنى الزميل حسن الكاشف والزميل مصطفى تركى وكان يأتى معهما الاستاذ محجوب

احيانا وكنت اشكو اليهم اوجاعي وضرورة عرضي على طبيب . وكانوا يجمعون على ان المسألة هى حالة نفسية قد مروا بها وماعلى الا ان اصبر ، فالصبر احسن دواء وعلى ان اتخذ مفهوم الصبر شعارا لى. . واذا قلت لهم ماذا تقصدون بمفهوم الصبر ؟ هل ترون أنني أصبر على المكاره سواء كانت تعبا أو قلقا أو مرضا ؟ فكان الرد على ذلك لم يكن اجابة بل سؤالا اليس الهدف من وجودنا جميعا في هذا المجتمع هو المال أو جمع المال ؟ اى ان هدفى الذى لا هدف قبله او بعده من بقائى يجب ان يكون جمع المال وكانت مشكلة مستعصية برزت امامي . وذلك لانه لم يكن المال وحده هدفا لى من قبل قط . انني كنت ارحب بالمال كوسيلة ولم يكن له عندى قيمة كهدف فى ذاته . ومن ثم فانه قد اصبح على لكى اكون شخصا عاديا ان اقنع نفسى لكى يكون جمع المال هدفا لى فى تلك الآونة . وما على الا ان اتذرع بالصبر ولتكن عزيمتى من حديد . ولكن مالبث أن قهرنى المرض واصبحت مشاعرى تشع البؤس والاسى وكنت أردد فى سرى قول من قال :

وان كنت لا آسى على نفسى فمن اذن وان كنت لا ابكى فمن يبكى ؟

وبدا لى انه من الخير الرجوع الى مدينة القاهرة .. فالصحة صحتى فى ضوء الظروف المحيطة بى كانت أفضل الاشياء ومحط الآمال . ان زيارات الزملاء الكاشف وتركى ومحجوب كانت بلسما ولكنى كنت اردد لهم انني فى حاجة الى طبيب . ان الالام الجسمية جسيمة ولا

اطيقها ولم اجرب مرارتها من قبل ولكن لا مجيب . والصراحة والصدق هما الوسيلتان اللتان يجب ان اتذرع بهما . اي وجدتني ان اكون صريحا مع نفسي ومع الاخرين واولهم الدكتور ابو زيد . ولم يكن قد مر على وصولي الى الكويت ستة عشر يوما اى فى يوم الاثنين ٣٠ من شهر سبتمبر عام ١٩٦٨ عندما وصلت الى قرار .. قرار طلب العودة الى حيث جئت . ورايت ان هذا القرار خير من ان اضحك على نفسي . انني وانا مريض الان ولا احد يستجيبه الى مطلبي لاحضار طبيب او ذهابي الى طبيب ، احس بالتعاسة المزدوجة . التعاسة التى منبعها المرض وتلك التى ارآني غير قادر على تحمل مسئولياتي فى الجامعة . كنت قد اتفقت مع الدكتور ابو زيد على القيام بتدريس مادتي « طرق البحث العلمى الاجتماعى » و « نظريات اجتماعية سياسية : الدولة والمجتمع » وقد اعددت العدة للقيام بتدريس هاتين المادتين فضلا عما يطلب منى القيام به من اجراء البحوث الميدانية او غيرها من المهام مثل القاء محاضرات عامة او الانتداب فى لجان معينة او الاشتراك فى ندوات او القاء احاديث تبث فى الاذاعة او فى التليفزيون . كل ذلك بوصفي احد اعضاء هيئة التدريس بجامعة الكويت . ولكن اذا كانت هذه حالتى فى يوم ٣٠ من شهر سبتمبر وانا لم ابدا عمل اى شيء سوى التحضير لما سيكون ، فما الذى سيحدث بعد يوم ١٢ من شهر اكتوبر يوم افتتاح الجامعة وابدا عملي الاساسى فيها ؟ ان الظروف العامة وظروفي الخاصة لاتواتيني بالقدرات المطلوبة ولا بالشجاعة المطلوبة ولا بالتفاؤل المطلوب لمواجهة الحياة فى الكويت

ورايت من الشجاعة ان اثبت على قرارى بالعودة الى حيث جئت . ولكن وجدت الزميل محجوب يرحب بالاستمرار فى تناول طعام الغداء فى بيته حتى تحضر زوجتى ، ثم أستأذن عندما الححت عليه فى المشاركة فى بعض التكاليف ان ياخذ راى استاذه الدكتور ابو زيد . واملت خيرا فلعل الموضوع كله الذى يواجهنى كان مرجعه الى الحنين الى المناخ الاسرى . ولكن الدكتور آبو زيد اشار عليه اقصد على تلميذه بالرفض . وعندما قابلت الدكتور برر ذلك بما قد يلحق « سمعة » الزميل محجوب من سوء الظن ، وكان يقصد بالضرورة أن ماادفعه من بعض التكاليف نظير تناول طعام الغداء قد يمس الزميل محجوب بالرذاذ غير المستحب من التعليقات التى قد تصدر عن الآخرين . وقفل بذلك هذا الرجل بابا كان قد ييسر لى الصبر عما انا فيه أو ربما كان ييسر ذلك فعلا . وماكان منى الا أن الححت فى طلب عرضى على الطبيب وكانت اجابة الرجل ان الاطباء يعملون في المستشفيات وليس لدى أى واحد منهم « عيادة خاصة » . فطلبت الذهاب الى المستشفى . وتركنى بعد ان تأكد من استجابتى لدعوته الى الغداء فى بيته فى اليوم التالى . وذهبت تلبية لهذه الدعوة الكريمة . وقد كانت السيدة الفاضلة زوجته كريمة وقد رحبت بى ترحيبا حارا . ونسيت مرضى واكلت وكان معنا احد اعضاء هيئة التدريس . وتحدثنا بعد تناول الطعام واكد الدكتور ابو زيد وزميله الذى لا اذكر اسمه مع الاسف الشديد وقت كتابة هذه السطور أن الموضوع ليس مرضا بقدر ماهو الحنين الى مناخ الاسرة الذى تعودت عليه ، وصدقت هذا الكلام

فعلا وشعرت بالاطمئنان وحاولت أن انسى ماصدر عنه بشأن الموضوع المتعلق بالزميل محجوب واعتذرت له وعذرته في نفسي ، فأعقل الناس أعذرهم للناس . ولكن ماعدت الى شقتي الا ورأيتني أفرغ مافي جوفي .. كل مافي جوفي ، وبرز قراري بالعودة مرة اخرى وتحدثت بشأنه مع الزميل محمد حسن كامل وقد دهش لهذا القرار لاول وهلة . وبعد نقاش طويل نصحني بأن امكث شهرا آخر ثم اقرر . ولم اقتنع بهذه النصيحة وذهبت توا أي في يوم اول اكتوبر عام ١٩٦٨ الى مدير الجامعة لابلغه بقراري ولم يبد على قسمات وجهه اى أثر ، فقد كان يلبس قناع ابهة موقع عمله وترك لى القرار . ويبدو ان الاخ الزميل محمد حسن كامل قد أبلغ الدكتور ابو زيد بما عزمت عليه فظن خطأ انه اغراني لكي أذهب الى مدير الجامعة فثار في وجهه وكان الرجل ظالما لزميلي ظلما مبرحا . فالقرار كان قراري والمدير اكد في اثناء مقابلته لي ذلك . وقابلني الدكتور ابو زيد ثائرا وكان بحضرة الدكتور ابو ريدة الذى قال لى أن لائحة الجامعة تحتم على دفع ثمن تذكرة الطائرة ذهابا وايابا ورد القرض الذى تسلمته عند استلامي للعمل . فرحبت بذلك على أن أدفع مالدى من نقود في التو والساعة والباقي ادفعه بالتقسيط من مرتبي الذى أحصل عليه من الحكومة المصرية عندما اعود الى المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية مقر عملي بمدينة القاهرة . وتركتهما وانا اشعر ببعض الراحة الى شقتي . ولكن مالبث عدم استلامي لخطابات من العزيز احمد للاطمئنان على زوجتي وباقي أعضاء الأسرة قد شغل بالي . ونمت ليلتي فاذا بالدكتور أبو ريدة يحضر

في صباح اليوم التالي وكان معه الدكتور ابو زيد وطلبا مني الاستعداد للذهاب الى المستشفى فرحبت بذلك فقد كان هذا مطلبي منذ اللحظات الاولى ووجـــدتني في مستشفى حكومي كان في مظهره يبدو وكأنه مستشفى من الدرجة الثالثة وربما أقل من ذلك . وقد قال لي الدكتور أبو ريدة الذى ذهب معي الى المستشفى انه من الافضل لي ان أمكث مدة ثلاثة شهور حتى يرفع عني ثمن تذكرة الطائرة ذهابا وايابا فضلا عن الحصول على مرتبي الشهري لمدة الشهور الثلاثة ورجا الله جل وعـــلا ان لا يستدعي مرضي المكث في المستشفى هذه المدة وان استأنف عملي بالجامعة في أقرب فرصة أى بعد حوالي عشرة أيام . ووضعت في حجرة متواضعة جـدا بالنسبة للحجرة التي وضعت فيها في عام ١٩٥٨ « بمستشفى فيكتوريا » عندما اقتضى الامر اجراء عملية جراحية لي . وكان يزاملني شيخ مريض لا ينام ولا يجعلني استمتع بالنوم ليلا او نهارا . وبدا لي ان هم أطباء المستشفى كان اجراء عملية رسم القلب لي . وجاء المختص ويحمل معه جهازا عتيقا ولكنه كان جهازا كما قال لي هـــذا المختص بعد ان ابديت ملاحظتي عنه سليما . وكـانت النتيجة في ضوء رسم قلبي ان وجد الاطباء انه قلب سليم . ولم يلاحظ احدهم الاوجاع التي ذكرتهـــا في مواضعها في بطني ورأوا ان العناية بالوان الطعام فيها الشفاء . لم يحاول طبيب واحد ان يقترح عمل « اشعة » فلعل العلة ان تكون في « المرارة » أو في « الكبد » او في مكان ما لا اعرفه ! وكان طعام المستشفى فعلا طعاما مفيدا لحالتي بدوته اقل وزنا ولكنى لم إكن اشـكو من

اوجاع وان كنت اشكو من النوم المتقطع . لانني ماكنت البث ان انام لاستيقظ على صوت زميلي المريض فى الحجرة او على صوت جهاز التكييف الذى كان يعمل طوال الوقت . وكنت اتذكر ثورة الدكتور ابو زيد ولم ادر لذلك سببا فأنا شخص مريض فعلا ويبدو انني فى نظره شخص يدعي المرض لانه لم يفعل شيئا فى سبيل الاهتمام بمرضي او ادعائي المرض الا انه والدكتور ابو ريدة انتهيا بعد فترة طويلة الى « ايداعي » بمستشفى من الدرجة الثالثة او اقل من هذه الدرجة . وكنت اتذكر ايضا فى اثناء وجودى بهذا المستشفى موقف هذا الرجل من الزميل محمد حسن كامل واتهامه ظلما بتحريضي على الذهاب الى مدير الجامعة الذى كان يعلم علم اليقين ماكان بينهما من شقاق . وتذكرت فجأة موقفه من الزميلة نجوى حافظ التي وعدها بالتعيين فى جامعة الكويت على درجة معيد ، وعندما ذكرته بذلك ابلغني انه ارسل لها خطابا على العنوان الذى اعطته له لكى تقدم طلبا الى ادارة الجامعة بهذا الخصوص ولكنها لم تفعل ، وماكان مني الا ان ارسلت اليها « تلغرافا » حاضا اياها على ان ترسل هذا الطلب توا وبخاصة ونحن فى اول العام . وارسلت لى فى خطابها المؤرخ فى يوم ٢٨ من سبتمبر عام ١٩٦٨ تبدي قلقها من ضياع الفرصة ، واتضح لنا أقصد لى ومن معي ان ادارة الجامعة اخذت قرارا بالاقتصار على تعيين المعيدين من الكويتيين والكويتيات ولم يبلغ الدكتور ابوزيد ذلك لى ولم يبلغه ايضا للزميلة نجوى ، واعتذر خطأ او كذبا بأن طلب الزميلة نجوى لم يصل فى الوقت المناسب وبدا لى الدور الذى يحاول ان يؤديه هذا الرجـــل

واضحا أنه « دور مورد الانفار » ألذى لاقلب انسانى ينبض فى كيان أطماعه الا مايسر تحقيق هذه الأطماع . انها لديه الهدف والوسيلة جميعا . وقد تأكد لى ذلك عندما جاء الى المستشفى لا ليعودنى بل ليأمرنى امـــــرا بالاستعداد لمغادرته الى أحد فنادق مدينة الكويت هـو فندق « اليونيفرسال » . وعندما طلبت منه أن يستأذن الطبيب المعالج رفض رفضا باتا قائلا انه متفق معه على ذلك من قبل . وتركت المستشفى الى الفندق فى يوم ١٩ من شهر أكتوبر عام ١٩٦٨ . ومكثت فيه حتى يوم ٣ من شهر ديسمبر عام ١٩٦٨ . أى عندما غادرت دولة الكويت وانا فى طريقى الى مدينة القاهرة الحبيبة التى وصلت اليها فى نفس اليوم . ولم تبرح مخيلتى قسمات وجه الدكتور أبو زيد عندما أستقر بى المقام بالمستشفى ، ولم يجد مايقوله الا ان استعد لمواصلة القـــاء دروسى بالجامعة التى كنت قد بدأتها فعلا ولكننى لم اسـتطع المواصلة للالام المبرحة التى كانت تنتابنى من آن لآخر . ووجدت نفسى فى مكان مريح به كل مايحتاج الانسان من وسائل الراحة وهأنذا اتفرغ للجامعة وتتفرغ الجامعـــة لى وبخاصة وقد علمت بوجود الاستاذ الدكتور «عبدالعزيز سامى » طبيب أمراض الصدر ، وكانت صلتى به صـلة انسانية ، بالكويت . رأيت ان اعرف مقر وجوده لأذهب اليه لكى يدلنى على ماذا أفعل ! انه بالطبع لن يكون الطبيب المعالج ولكنه يستطيع ان يشير على بالطبيب الذى يراه أولى بعلاجى . عشت فى هذا الحلم اللذيذ ونظرت الى امام وبدأت اذهب الى الجامعة لكى أؤدى مسئولياتى . وقد سعدت بوجودى بين الطلاب وشعرت بأنهم قد سعدوا

بوجودي ايضا . وكنت استاجر عربة لكي اصل في مواعيدي المقررة التي تعمد الدكتور ابو زيد ان تكون مواعيد مبكرة . ولم يحاول آن يغيرها في ضوء ظروفي او يحاول ان يقترح تغييرها لتيسير القيام برسالتي . لم يفعل ذلك ولم أسأله ان يفعل ذلك . وبدأ الناس يزورونني في الفندق ، وكان من اوائل الزائرين طلبة الجامعة وشعرت ان من بينهم من كان على وعي بما يدور حوله من احداث . وكان سخطهم على مايكتب في جرائد الكويت ضد مصر بعد هزيمة ١٩٦٧ شديدا . وكانوا يخصون جريدة « الرأى العام » التى كانت سطورها تنضح بالشماتة والسم الناقع . وكانوا يرون وكأنهم كانوا يتنبأون بالانتصار على اسرائيل حتما وبخاصة وقد بدأت « حرب الاستنزاف » عقب هزيمة شهر يونيو ١٩٦٧ مباشرة . اى ان الشعب المصرى كان عازما على الاخذ بالثأر منذ اللحظة الاولى . وكان يزورني ايضا الزميل العزيز محمد حسن كامل والزملاء حسن الكاشف ومصطفى تركى ومحجوب . وكنا نتحدث كثيرا عن الجامعة واساتذتها الذين لم يحضر منهم أحد سوى الدكتور أبو ريدة الذى جاء لكي يقنعني بأن اسحب تأكيد استقالتي . وكان لهذا التأكيد قصة فقد كنت في شوق زائد الى مجيىء زوجتي ولم اكن أعلم عوامل تأخيرها الا بعد عودتي الى القاهرة . وكانت تزور العزيزة آمال في شقتها في منزل يجاور منزلي بالقاهرة وعند نزولها على الدرج انزلقت قدماها وكسرت احداهما واضطرت الى الذهاب الى الطبيب الذى عالجها وطلب منها المكث في السرير مدة لاتقل عن خمسة عشر يوما . ولما انتهت المدة المطلوبة وعادت قدمها

الى وضعها الطبيعي ارسـل العزيز أحمد « تلغرافا » بموعد حضورها الى الكويت . وكان عندي الزمـلاء الكاشف وتركي ومحجوب ، كانوا يزورونني في الفندق عندما وصل هذا التلغراف . ولكني لم أفرح بوصـوله وذلك لان الزميل محجوب ذكر فيما ذكر ان اتجـاه الدكتور ابو زيد نحوي قد تغير وأبدى للحاضرين مـدى التغيير الذي طرا عليه . وكان يرى ان التغيير هذا وكأنه لا مبرر له . ولما كنت اعلم مدى ارتباط الزميل محجوب بالدكتور ابو زيد ، فانني تأكدت انه اي الزميل محجوب اذا قال ماقال كان مجرد رسول يبلغ رسالة . وعندها قلت للزميل الكاشف أن يرد على التلغراف المرسل مـن زوجتي بانها لاتحضر في الوقت الراهن لانني بمناسـبة شهر رمضان عام ١٣٨٨ وكان على الابواب ساعود لنحضر الى الكويت سويا . وراجعت مضمون التلغراف المرسل ورجوته ان يتفضل بارساله عن طريق مكتب التلغراف بالمدينة . وقد حدث كل ذلك أمام الحاضرين وكان مـن بينهم الزميل محجوب الذي أبلغ بالضرورة ماحـدث للدكتور أبو زيد . ثم ارسلت تأكيد طلب عودتي الى القاهرة وانقطعت عن الذهاب لالقاء الدروس بالجامعة . وجاء الدكتور أبو زيدة يتحدث الي لكي اسـترد هذه الاستقالة . وكان يقول ضمن ماقال ان الكويت بلد فيه كل مايشتهي الانسان وان التفاح تجده في الاسـواق رخيص الثمن واي شيء تحتاج اليه تجده امامك . لـ يتحدث عن الكتب التي كان يمكن أن اطلع عليها او اطلب شراءها ولم يتحدث عن الصحبة التي سافتقدها بعـد عودتي الى القاهرة الحبيبة صحبة الدكتور الطـويل

والدكتور زكى نجيب محمود وصحبته هو وحتى صحبة الدكتور ابو زيد الذى كنت ومازلت أقدر مستواه العلمى وان اختلفت معه فى اتجاهاته وبعض أنماط سلوكه . لم يتحدث الدكتور ابو ريدة الا عن كل ماهو مادى ، وانى له ان يدرك ما ارنو اليه من هذه الحياة ؟ وانى له ان يعلم علم اليقين كيف بدأت وماذا فعلت فى ضـــوء تاريخى العلمى والعملى ؟ انه لم يكن يرى الا التفاح رخيص الثمن . وكأى مورد أنفار سرعان ما ارسل الدكتـــور ابو زيد الى الزميل « الدكتور محمد عبد الله ابو على » ليعمل بالجامعة . فالانفار موجودون والعرض اكثر مــن الطلب . ولعله كان قد اتخذ من مدير الجامعة قدوة فقد كان الاخير يقول ويكرر القول انه عندما يعود الى مصرنا الخالدة يجد الاكابر « يقصد ذوى المناصب العليا » يجرون وراءه وكان منهم الوزراء ، « وكان يضغط على لفــظ الوزراء » وذلك لكى يعين صديقا او قريبا او محسوبا فى الجامعة . وكنت احسب الايام لكى اعود لعيـــادة الطبيب الذى يشرف على حالتى منذ عام ١٩٥٦ « اى منذ ان عدت من الولايات المتحدة فى المرة الاولى لاستكمل دراساتى العليا بجامعة بوستن » ولكن فوجئت برسالة تليفونية من ادارة الجامعة تطلب منى الاشتراك فى الاحتفاء بالدكتور « جاك بيرك » المستشرق الفرنسى ، فقد رأت الجامعة بمناسبة استدعائه كاستاذ زائر لمدة شهر بهـا ان تحتفى به وذلك بدعوته لتناول طعام الغداء ، وانه يجب على الحضور بهذه المناسبة . وذهبت فى الموعد لارى جاك بيرك الذى كنت أعرفه جيدا كما كان يعرفنى جيدا . وكان المدعوون من اساتذة قسم الفلسفة وعلم الاجتماع . وكانت

احاديث الحاضرين شتى . وبمناسبة او بدون مناسبة ذكر كتابى « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » . ذكر هذا الكتاب جاك بيرك نفسه وعلق عليه . وكانت لحظة ذكر هذا الكتاب لحظة رهيبة أصابت سهما فى أفكار بعض من كانوا من الحاضرين وعلى راسهم الدكتور أبو زيد . وكان تعليق الاستاذ المستشرق الزائر طيبا . وعلى الرغم من ذهابى الى هذا الحفل غصبا فقد كان يستحق ان اذهب اليه . فقد سمعت عدا ذلك احاديث علمية صدرت من جميع الحاضرين . وقد اثلج ذلك صدرى وانسانى بعض مما كنت اواجهه . ولكنى عندما سمعت عن الحفاوة الزائدة على الحد بالاستاذ الزائر الذى خصص له ولسكرتيرته الخاصة مسكن خاص مريح فضلا عن سيارة وسائق تحت أمرهما فى أى وقت والى اى مكان يشاء أن اصبت بغصة وملأت المرارة فمى ، وذلك لان كل هذه الامكانات كانت بالاضافة الى المبلغ من النقود الذى كان الاستاذ الزائر قد اتفق مع الجامعة على أن يتقاضاه وتساءلت من الذى دعا هذا الرجل وهذه السكرتيرة ؟ ولم اعرف ذلك حتى الان . وربما كان الشعور « بعقدة الخواجة » كان الدافع الى هذه الدعوة ، وربما كان المتوقع ان يدعو جاك بيرك احدهم كما دعى هو اقصد يدعوه لزيارة الى « باريس » وربما كان غير ذلك .

وفى أثناء أقامتى بفندق اليونيفرسال فى خلال شهر نوفمبر عام ١٩٦٨ قيل لنا فى احد الايام أنه عطلة بمناسبة زيارة « شاه ايران » . لقد تقرر ان يكون ذلك اليوم عطلة لانه لم يكن عطلة رسمية . فلم أذهب الى

الجامعة ولم اخرج من غرفتى واحسست أن جميع من فى الكويت قد جند للاحتفال بهذه المناسبة «المقدسة ». وكان رجال الامن فى كل مكان . فى الفندق وفى خارج الفندق ونبه على بأن اغلق الستارة التى ارى من خلالها الشارع اذا مافتحت . ووعدت بالاذعان ولكنى لم افعل ، وذلك لأننى فتحت ثغرة ارى منها مايدور فى الشارع الذى يطل عليه الفندق . ووجدت الشاه واقفا فى عربته يحيى الجماهير ومن حوله الدبابات ومن فوقه الطائرات لحراسته . وقيل لى أن العديد من اعضاء الجماهير عندما رأوا الموكب ، قد سجدوا تحت اقدام الشاه وهو يمر امامهم ، ومنهم من استعد للمناسبة فذبح «العجول» تقربا الى جلالته . ومر اليوم بسلام . ولم أدهش لما حدث . وذلك لان المع اعضاء المجتمع الكويتى كانوا من الايرانيين . ويقال ان عدد رجال الشرطة الذين « كوتوا » وكانوا أصلاً من الايرانيين يربو على نصف العدد الموجود من رجال شرطة دولة الكويت ، ويقال ايضا ان عددا كبيرا من ضباط الجيش الكويتى وصف الضباط من الذين كوتوا كانوا أصلا من الايرانيين ، ورجال المال من التجار وغيرهم كانوا من الايرانيين قبل أن يكوتوا . ولعل مايدل على نفوذ هؤلاء ماذكرت من قبل عن اجهزة الاذاعات التى تبث ليلا ونهارا اذاعات مصدرها مدينة « طهران » . وان الحديث فى الاسواق خليط من اللغة العربية واللغة الفارسية وغيرهما . وحتى ماكان يكتب على لافتات المحال التجارية كنت تجد نفس الخليط وخاصة ماكتب عن اصحاب هذه المحلات اصحاب الملايين . واننى أذكر هنا ما لا يمكن أن انساه عندما تورط أحد أساتذة جامعة

الكويت من غير الكويتيين وهو يسير في شوارع الكويت بسيارته بغير السرعة المطلوبة واخذ الي مركز الشرطة ، فما كان من مدير الجامعة الا ان أرسل احد « السعاة » وكان كويتيا لكي يفك أسر الاستاذ الجامعي من مركز الشرطة . وكان الفضل في ذلك مرجعه الى أن جنسية الساعي كويتية . وكانت هذه الجنسية الضمان الذى لا ضمان غيره لكى ينفذ الاستاذ الجامعى غير الكويتى بجلده ويعود الى الجامعة في ركاب الساعي الذى يعمل فيها . وكان الكويتيون والمتكوتون يعملون في وظائف الحكومة وفى الوقت ذاته يعملون في التجارة بكل أنواعها . ومن ثم تجدهم ليس فقط لان جنسيتهم كويتية ولكن لان المال بالملايين يجرى بين أيديهم ومن خلفهم ومن فوقهم ومن تحتهم ، يكتسبون مكانة اجتماعية رفيعة هي في حقيقة الامر في ضوء قيم المجتمع الكويتي ارفع من مكانة الاستاذ الجامعي الذى يمد يده ليأخذ فتات ما أفضلوا . واليد العليا التى تعطى كما كانوا يعلمون جيدا خير من اليد السفلى التي تأخذ . وكنت في حيرة من أمرى عندما أرى ذلك وانا اقوم بمهمتى فى الفصل ، فأرى الطلبة ولا ارى مستقبلا علميا زاهرا لهم . كان هناك البديل أى المال الذي يقتنيه الواحد منهم في سهولة ويسر . وكنت اعتذر للطالبات واعذرهن وذلك لأن وجودهن في فصول الدراسة كان يعنى عندهن اطلاق سراحهن من سجون البيوت . انها فرصة للانطلاق ولا يهم التحصيل الدراسى اذا تحقق أو اذا لم يتحقق . فالامر لديهن سيان وانا لا اعمم ولكنى اذكر انطباعاتى عن الاغلبية من الطلبة والطالبات . كان منهم من يبغى تحصيل العلم فعلا وبخاصة

من جاءوا من دول الخليج وقبلوا فى الجامعة وكان منهم من يرى ان الالتحاق بالجامعة مجرد الالتحاق قد يعنى شيئاً معنويا محببا .

وكان الاساتذة وغيرهم من الموظفين الذين يعملون فى الجامعة وبخاصة المصريون منهم والذين لي علاقة بهم يحرصون على الذهاب فى المواعيد المحددة لهم ثم يعودون بعد أن يؤدوا مسئولياتهم الى بيوتهم . وكانوا لايتزاورون الا قليلا ، في المناسبات مثلا . ولما كانوا قد وطـدوا انفسهم على أنهم فى دولة الكويت لكي يجمعوا الاموال مهما كانت الظروف والاحوال فقد لاحظت انهم كـانوا يعيشون كل فى شقته وكأنهم فى « سجون مكيفة » . وياويل من كان يعيش وحده . كان هذا الشخص يجد السلوى فى مشاهدة التليفزيون ليرى البرامج السخيفة فاذا أصابه الملل فانه يقرأ فى القران الكريم او يقرأ فى كتاب « دلائل الخيرات » أو يقرأ فى كتب دينية اخرى . واذا اكتفى من ذلك فقد يجد ان تناول الطعام هو احسن وسيلة لقتل الوقت . ولا يفكر احدهم فى الذهاب الى النادى الاجتماعى الا نادرا وقد يذهب بعضهم لمشاهدة احد الافلام اذا كان المناخ ملائما فى دار عرض مكشوفة اى وهو فى سيارته عادة . ومن العجيب ان الاحظ انني كلما صاحبت احدهم ممن يملكون سيارة خاصة أجده يقذف من يسيرون فى الطريق حوله بالشتائم . وقـد تكون هذه الشتائم ذات معانى قبيحة جدا . وقد اجده يتمتم بها دون أن يحاول أن يسمعنى اياها . كان هؤلاء الزملاء اصحاب السيارات الخاصة الذين كانوا يتفضلون على بصحبتهم يبرزون بالقول والاشارة انماطا عديدة

من انماط الشعور بالعداوة ولكنهم كانوا يجـــدون المتعة فى كل شهر عندما يقبضون مرتباتهم فتحيد هذه المتعة مايشعرون به من العداوة التى كانت تملأ صدورهم وتجعل حياتهم غير مشرقة بل تجعلهم هم وكأنهم مجرد بضاعة يجرون وراء البضاعة ولا يستطيعون ان ينتجوا البضاعة . ولعل ثورة الدكتور ابو زيد على موقفى من كل هذه الامور وغيرها ان جعلته يشعر بما كان فى قرارة نفسه يود ان يفعله ، ولكنه فى ضوء ظروفه التكوينية ومحدداته النفسية والعقلية فضلا عن محدداته الثقافية الاجتماعية لم يستطع أن يفعل مافعلت . لعله كان يريد ذلك ولكن قيود هذه الظروف والمحددات لم تعطه الفرصة وكان أن ثار لاننى نجحت فيما لم ينجح فيه . وجـدت اللهث وراء المال ، مهما كانت الحجج المبررة ، لا جدوى منه أمام وجود الفرص التى يجب أن يحرص الانسان منا على ان تتفكك هذه القيود . ومن ثم يجد نفسه ويحرص عليها فلا يبيعها بابخس الاثمان وعلى حساب مايعتنق من مثل عليا .

وكنت قد فرغت من كتابى « محاولة فى تفسير الشعور العداوة » وتم نشره فى عام ١٩٦٨ قبل سـفرى الى الكويت مباشرة . وكنت اعيش فى موضوع « مواجهـة المجهول » عند المصريين . وفى اثناء ذلك عندما كنت فى مدينة القاهرة الحبيبة لا ازال ، بدأت دراستى الواقعية وقد لاحظت بعض أصحاب السيارات واللـــوريات او سائقيهما يعلق بالاضافة الى كتابةبعض الكلمات والعبارات على هياكل هذه المركبات التى تعبر فى الاغلب الاعم عن طلب الحماية والوقاية من السوء بكل انواعه ، اشياء

معينة درءا للحسد أو طلبا للرزق أو رجاء الوقاية من المجهول . ومن الامثلة علي ذلك نجد من يعلق امامه او علي عداد سيارة الاجرة « التاكسي » « خمسة وخميسة» او يعلق مايرمز الى رقم خمسة ، او نجد من يعلق مصحف القرآن الكريم من الحجم الصغير او مسبحة او حجابا او عقدا من الودع او من سنابل القمح او قطعة من الشبة ، او يعلق دمية من الدمى على شكل « سمكة» أو « قرن شطة » او « حدوة حصان » .. الخ . ولاحظت وانا اركب احدى سيارات الاجرة التى توجد فى المجتمع الكويتى عادة بلا عداد أن سائقها يضع مايشبه الحجاب معلقا امامه . ومجرد سؤالى عنه وجدت السائق يقطعه اربا اربا ولم يرد علي سؤالى ، وذكرت هذه الحادثة لاحدهم فذكر انه مجرد السؤال عن الحجاب يذهب تأثيره من ثم فتمزيقه فى رأى سائق السيارة كان الحل الوحيد. وهو اذ فعل ذلك كان في حقيقة الامر قد اظهر غضبه الشديد لمحاولة اقتحامى دائرة اسراره المقدسة . ولست ادرى ان كان هذا التفسير صحيحا أو غير صحيح . ولكن هنا فى المجتمع الكويتى وجدت سائقا يفعل مايفعله سائق مصرى . وقد ظهر موضوع « مواجهة المجهول » منشورا فى كتابى « حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة » عام ١٩٧٠ وقد تبع نشر هذا الكتاب كتاب « هتاف الصامتين : ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر ». كما يعلم القارىء فى عام ١٩٧١ . وقد تذكرت الكتاب الاول وكان لايزال تحت التحضير عندما رات ادارة الجامعة ان ترسلنى بالامر الي طبيبين للكشف علي .. وقد ذهبت فى الموعد

الذي حدداه لي وقاما بفحصي فحصا دقيقا وانتهيا الى قرار موحد هو انني بخير وعندما أشرت الى موضع الالم الذي كان ينتــابني بغتة في بعض الاوقات لم يبــد احدهما رأيا محددا . ولكن كان همهما ان يقنعاني بالبقاء لاؤدي رسالتي نظير المال الذي حدد لي مرتبا نظير أداء واجباتي . ولعلهما لم يكونا يعلمان ان هذا لم يكن أملي . لم يكونا يعلمان انني كنت آمل ان لا اكون مجرد شخص موجود في جامعة الكويت بل أن تـكون هذه الجامعــة موجودة في ، مثلها مثل المؤسسات التي تشرفت بالعمل فيها من قبل سواء كانت « مؤسســة الزفاف الملكي » او « معسكر كوم امبو » أو « مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة » أو « المركز القــومي للبحــوث الاجتماعية والجنائية » . ولم يكونا يعلمان او احدهما انني في ضوء الظروف التي وجدت نفسي فيها في المجتمع المصري بعد هزيمة شهر يونيو عام ١٩٦٧ وفي المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بعد أن اختار الدكتور خليفة الوزارة بديلا عن مهنة البحث العلمي الاجتماعي ـ آثرت ان اوجه طاقتي الى خدمة بلد عربي ليس سعيا وراء المال للمال ولــكن لأعمل عملا صالحا واعيش فيه انســانا مرغوبا فيه وذا كرامة ، كما يعيش في شغاف قلبي وكياني . وأقصد بالعمل الصالح أن اسهم في عملية التنشــئة الاجتماعية لشباب هذا البلد في ضوء خبراتي وفي حدود طاقتي ولكن !!

ما كل مايتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لاتشتهي السفن .

وعلى الرغم من اصرار هذين الطبيبين الكريمين على

اقناعى بالبقاء ، فاننى لم اوافق . فقد تذكرت موقف الدكتور ابو زيد منى وثورته بلا مبرر ضدى وتصرفاته التى لايمكن أن تصدر عن شخص يرى نفسه أنه يؤدى دورا رئاسيا بالجامعة الكويتية . كنت على وشك الانفجار بالبكاء أمام هذين الطبيبين الكريمين . كدت أن اقول لهما ماكان يعتمل فى فؤادى ولكننى نجحت فى الاصرار على تأكيد أستقالتى . وتذكرت ماكنا نفعل عندما كان أستاذى يعقوب فام يقع تحت وطأة المرض وكان غير متزوج ، ولا ولد له . وكان يسكن « بنسيونا » فى مدينة القاهرة ، وكان فى ذلك الحين لم يعد الخمسين من عمره — كنا نسعى لاهثين لكى نضعه تحت رعاية الاطباء ، وكنا نفعل ذلك بكل الحب وكل الاحترام . كنا تلاميذه وابناءه وأصدقاءه ومثل ذويه ، ولا نرجو له الا الشفاء العاجل . وتذكرت ايضا وانا فى مدينة لندن مافعلته معى « مسز تريس » التى كنت أسكن فى حجرة من حجرات منزلها فى حى « هولاند بارك » عندما مرضت وارسلت توا رسالة تليفونية للطبيب المعالج لكى يسهر على راحتى بمعالجتى وكان يسكن بجوارى أحد الشبان الذين عاشوا فى مصرنا الخالدة ، فاهتم باحضار الدواء الذى وصفه الطبيب وأحضر العديد من الجرائد والمجلات لكى اتصفحها واقتل عن طريق قراءتها وقتى وانا جالس على سريرى . وكان هذا الشاب « يهوديا » ولكن لانه عاش حتى سن الثامنة عشرة فى ظل المناخ الثقافى المصرى فقد تصرف نحوى وكأنه مصرى اصيل مائة فى المائة . وجاءت صورة أستاذى « البروفسور آلبرت موريس » فى جامعة بوستن تتهادى وتذكرت اهتمامه البالغ عندما صدمتنى

برودة اول شتاء قضيته في مدينة بوستن في عام ١٩٥٣ . تذكرت حرصه الشديد ــ وهو الامريكي الذي يعتقد ان الوقت عنده يعني المال ــ على العناية عندما اوقعني المرض على ظهري طريح الفراش . لم اقل هذه الذكريات وغيرها لاحد من الطبيبين او لغيرهما . ولكنني كنت أقولها لنفسي واتعجب ان المرض اقصد مرضى في مدينة بوستن مثلا كان يلقى الرعاية والعناية والاهتمام الانساني من اناس لا امت لهم بصلة قرابة جنسية كانت أو وحدة دينية . فما بال الذين انتمي اليهم بهاتين الصلتين عندما مرضت في مدينة الكويت اداروا الي مرضي ظهورهم ؟ وسرعان ماجاء الى خاطري رد « احمد لطفي السيد » على « اللورد (كرومر) » في شهر مايو عام ١٩٠٧ الذي نشره في جريدة « الجريدة » اذ يقول :

« علمنا التاريخ ، وطبائع البشر أنه لاشيء يجمع بين الناس الا المنافع فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما ان يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين » .

ويبدو في ضوء ماقاله احمد لطفي السيد ان مرضي قطع مابيني وبين الدكتور ابو زيد من منافع ، تماما كما يحدث عادة من مورد الانفار اذا مرض الانفار أو عجزوا لسبب وجيه عن اداء مايراه المورد امرا ضروريا . وفي ضوء تقرير الطبيبين الكريمين اللذين لا اذكر اسميهما وقت كتابة هذه السطور مع الاسف الشديد ، صرحت ادارة الجامعة باعادة جواز سفري الذي كان محجوزا لديها لي مع خطاب الي ادارة الجمارك الكويتية بالسماح

لى بمغادرة البلاد وكان يوم الثلاثاء ٣ من شهر ديسمبر عام ١٩٦٨ ، الموافق ١٣ من شهر رمضان عام ١٣٨٨ يوم مغادرتى المجتمع الكويتي بعد ان مكثت تحت سمائه ٨٠ يوما . وكان آخر علاقة لى بهذا المجتمع أن دفعت ٧٠ دينارا كويتيا بحجة زيادة وزن حاجياتى عن المعتـــاد تسلمها أحد موظفي الجمارك الكويتية دون ان يعطينى ايصالا بالمبلغ الذى تسلمه .. وعند ذهابى لاستلام جواز سفري جاءنى الدكتور عبد الهادى ابو ريدة وطلب منى ان يسير معى فى فناء الجامعة وكان الجو مشمسا ، وتحدث الى مكررا المأساة حيث كان حديثه حول وجوب بقائى لان ثمن التفاح فى المجتمع الكويتى رخيصا وان كل شيء « مادى » موجود فى هذا المجتمع ، وانها فرصـة مابعدها فرصة يجب على أن اقتنصها والا صارت غصة ، ولم يودعنى احد ولم احزن لذلك كثيرا لاننى كنت انظر الى امام .. كنت اعيش فى كتابى الذى كان تحـــت التحضير ، اقصد كتاب « حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة » ، الذى كما يعلم القارىء الكريم صدر فى عام ١٩٧٠ ، وكان من حســن الحظ ان تقبله القراء قبولا حسنا . وكنت فى لحظاتى الاخيرة وانا فى المجتمع الكويتى اتطلع الى الجلوس الى مكتبى فى مكتبتى لكى اقرأ ولكى أكتب ماشاء لى الوقت لكى اقرأ ولكى اكتب ، وكان التطلع هذا متعة لا يمكن ان تعادلها متعة اقتناء الملايين من الدنانير الكويتية . والجلوس الى مكتبى فى مكتبتى مازال حتى لحظة كتابة هذه السطور اعظم متعة عندى . فالحصول على كتاب ذى قيمة عندى وقراءته لا يعادلهما شيء فى دنياى .

ويكفيني كما يعلم القارىء كتاب المجتمع المصرى الاعظم اقصد موسوعة المجتمع المصرى العظمى ، فهو عندى معمل ثقافي لاينفد ، واذ أعيش فيه فانه يعيش فى . واذا كان لكل انسان غرض يسعى ليدركه ، فانني كانسان خر اجعل ، ولا ازال ، ادراك المعالي لى غرضا ، واقصد بالمعالى هنا ان احاول ان اعرف افضل الاشياء بأفضل العلوم او ان اجعل من علم كل حق وعمل كل نافع هدف الاهداف ، وتحقيق كل ذلك لا يعنى مطلقا ، كما يجب ان يعلم القارىء ، انني عزوف عن اقتناء المال . ولكن المال عندى على الرغم مما يعطى صاحبه من أمن وأمان وسيلة نسبية ولا يمكن أن يكون غاية مطلقة . ومن حق الذين يلهثون وراءه أن يلهثوا فلن يصيبهم من الوجبات اكثر من ثلاث وجبات وربما لا يصيبونها كلها . وأنا راض كل الرضا بالصحة والعافية اسعى اليهما واحافظ عليهما وادعو لاحبائى ان يتمتعوا بهما . وانا راض أيضا كل الرضا بالستر فلا احتاج شيئا الا وأجده ومن ثم اتعفف عن ان أسأل اللئيم حاجتى . ومطلب الصحة ومطلب الستر ليسا لذاتهما وانما لكى أعمل فى دنياى عملا صالحا - اى اؤدى واجبى نحو الناس وبخاصة من كانوا فى مرحلة الشباب ، راجيا ان اكون لهم القدوة الحسنة ، وان احاول دون ماتقاعس عن طريق مهنة البحث العلمى الاجتماعى ان استمر فى دراسة المجتمع المصرى المعاصر ما استطعت الى ذلك سبيلا ، وانا اذ اكرر طلب تحقيق هذه الامال فرجائى ان لا يمل القارىء الكريم تكرارها . فهى حياتى التى لا أحيا الا بها . انني اذ أعيش حياتي أجد انفاسي ترددها وضربات قلبى تعزفها

ومعظم احلامي وانا نائم أو يقظان تدور حولها . واصارح القاريء بأنني اذ كنت أعيش في ظل مناخ هذه الافكار وانا في طريقي الى مدينة القاهرة الحبيبة جالسا على أحد كراسي الطائرة التي تقلني ، اتطلع الى المستقبل متفائلا على الرغم من الاحساس الدفين الذي كان يهتف هتافا صامتا وكأنه يقول لى ان الطريق الذى اخترته هو الطريق الضيق . صحيح أنك قد اخترته عن طواعية ، ولكن هذا الطريق هو طريق القلة وستبقى كذلك مادمت له سالكا . . ورددت على هذا الهتاف الصامت وانا صامت ايضا برجاء تحقيق هذا الهدف فهو املى ورجائى مادامت هذه القلة قلة كريمة مكرمة . وترنمت هاتفا :

تعيرنا انا قليــــل عـــديدنا فقلت لها أن الكرام قليل

وفجأة واجهت الواقع المر في بلادى فتذكرت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ، وتذكرت شماتة الشامتين والتحيز ضد مصر لصالح « اسرائيل » من الامبريالية العالميـة ومن يمشي من أذناب الدول في ركابها ـ ولكنى تذكرت ايضا تاريخ مصرنا الخالدة التى على الرغم مما حدث لها في خلال فترة تزيد على ٢٤٠٠ عام مازالت قابعة صامدة على خريطتها . لقد اندثرت مااندثرت من أمم وحضارات وبقيت مصرنا الخالدة تحيا وتبنى الحضارات . ولمـا مرت كلمة « صامدة » بخاطرى تراءى الصمود الذى يقوم به ابناء مصرنا الخالدة في الوقت الراهن اقصد في المرحلة منذ شهر يوليو عام ١٩٦٧ حتى شهر مارس عـــام ١٩٦٨ . ولاحظت وانا راكب في الطائرة المقلة الى مصرنا الخالدة أننا أقصد المصريين كنا نواجه مرحلة اخرى كانت قد بدأت بعد شهر مارس عام ١٩٦٨ . وقد تأكـــدت

ان المراحل سوف تجيء مرحلة بعد اخرى حتى تطهـــر الارض المصرية من آثار العدوان . وعاد الى نفسى التفاؤل وانا اتذكر معركة « رأس العش » واغراق « ايلات » « وتطوير السلاح » ثم قرار « تجنيد خريجى الجامعة والمعاهد العليا » . وقلت لنفسى ان قيم البذل والتضحية والتعاون قد رفعت عن كاهلها غطاء الكمون وبدأت فى ضوء الظروف الثقافية الاجتماعيةوالاقتصاديةوالسياسية ان تؤدى ادوارها بعد أن حطت عليها او كادت رمـــال النسيان فى ضوء ظروف ثقافية اجتماعية واقتصـــادية وسياسية اخرى . وفجأة وقفت الطائرة ووجدت نفسى كما وجد الركاب القليلون الذين كانوا فيها فى مطـــار القاهرة الدولى . ونظرت فوجدت العزيز أحمد ينتظرنى وعلى وجهه ابتسامةوكان يصحبه العزيز سـعد محمد سعيد أحد عمال المركز . واذا بالدموع تسح مـن عينى سحا . وكانت على خدى تسيل وكانها قطرات المطر ولم ادر حتى الان اى حتى كتابة هذه السـطور هـل كانت دموع فرح أو دموع حزن ؟ انها كانت كما يبدو لى الان وسيلة للتنفيس عما كانت بى من المشاعر الدفينة سواء كانت مشاعر تعكس الالام او كانت تعكس القلق او كانت تعكس الخجل . فقد كانت تراودنى احيانا فكرة الفشل فى مهمتى فى الكويت . وكنت أطردها ولـكنها كانت تطاردنى . وقد سعدت فى خبث بعدم حضور احد من الزملاء فى المطار وقد توقعت ذلك من قبل . فانا لم اكن شخصا ذا حيثية او نفوذ أو سلطة او حتى قوة . انهم لم يفعلوا مافعله زملاء « الصاغ احمد والى » الذى كان على الرغم من رتبته المنخفضة يشغل وظيفة « كاتم أسرار

وزارة الداخلية » ، وكنت أجلس بجانبه فى حجـــره مكتبه ويدخل اصحاب « رتب اللواء » يحيونه التحيـــة العسكرية . وكنت اجد فى هذا حالا معكوسا ولكنه النفاق الذى يصيب بعض اعضاء المجتمع المصرى عندما يواجهون بعض المواقف . كان على الصاغ أحمد والى ان يسافر بالطائرة فى رحلة الى اليابان لفترة قصيرة فودعه العشرات وفى اثناء غيبته عين ألوزير فى منصب كاتم أسرار وزارة الداخلية شخصا آخر . وعاد احمد والى فلم يجد أحدا فى المطار يستقبله ولم يجد سيارة تقله . فكانت الطامة الكبرى ولولا ارادة كان مازال يتحلى بها لحدث لهـذا الرجل ماقد اصاب نفسه أو عقله ، ولكننى فى موقعى غير الصاغ احمد والى فى موقعه . فأنا كنت ولا ازال اعتمد على عملى ولم أكن ولا ازال أعتمد على منصب ، وكنت لا ازال ارى أن شرف العمل فى ميادين مهنـــة البحث العلمى الاجتماعى أو العمل فى ميادين مهنـــة الخدمة الاجتماعية اعظم شرف . وكنت ارى ولا ازال ان هذا العمل أخلد من اية وظيفة او اى منصب ولنا فى « ابن خلدون » و « رفاعة الطهطاوى » و « أحمد لطفى السيد » و « طه حسين » وغيرهم اسوة حسنة .

فهـــرس

صفحه

١٢٥ يوما فى مواجهة الضياع ٧

مشروع دراسة اجتماعية لمنطقة أسوان ١٠٩

تقرير عن الزيارة الاستطلاعية لمنطقة أسوان ١١٣

رب ضارة نافعة ١٤٢

وأخيرا وليس آخرا ٢٢٣

تقرير لجنة الجائزة التشجيعية فى الاجتماع
عام ٦٥ ـ ١٩٦٦ .... ٢٣٧

رقم الايداع : ٥٧٤٣ / ٨٧

الترقيم الدولى : ٩ ـ ٣٢٤ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣
13079 ـ تليفون ٤٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٢٥ قرشا :ـ

سوريا ٤٠٠٠ ق . س لبنان ٣٠٠ ليرة الاردن ٤٠٠ فلس الكويت ٤٠٠ فلس العراق ٢٠٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات الدوحة ١٠ ريالات دبى ١٠ دراهم ابوظبى ١٠ دراهم مسقط ١ ريال تونس ٢ دينار المغرب ٢٠ درهما غزة والضفة ١ دولار ايطاليا ٣٥٠٠ ليرة .

ان كتاب « الثمار » هو الجزء الثالث من كتاب .. التاريخ الذى احمله على ظهرى : دراسة حالة .

والرجاء أن يكون القارىء قد توقع صدور هذا الجزء الذى يحمل مفهوم « الثمار » فالجزء الاول كان يهتم بالارض والبذور ، والجزء الثانى كان اهتمامه بماء الحياة . والثمار اى ثمار لايمكن ايجادها الا اذا وجدت الارض ووجدت البذور ووجد الماء . والاجزاء الثلاثة كتبها الدكتور سيد عويس منذ ولادته وحتى كتابة اخر سطر من سطور الجزء الثالث عن المجتمع المصرى ، فالاول يعكس صورة المجتمع المصرى فى احد احياء مدينة القاهرة فى شخص سكانه الكادحين منهم وغير الكادحين ، وهم يحيون حياتهم بكل انماطها فى العشرينيات . والجزء الثانى يعكس الظروف المواتية وغير المواتية التى واجهها بعض من شغفوا بطلب العلم والمعرفة فى الاربعينيات ومابعدها فى خارج الجمهورية ، وفى داخلها . اما الجزء الحالى فقد اهتم المؤلف اهتماما بالغا بآثار المجتمع المصرى على العاملين فى احدى المؤسسات الاجتماعية التى انشئت فى اواخر الخمسينيات ، سواء كانوا يديرون هذه المؤسسة من أعلى أم كانوا من العاملين الآخرين الذين كانت مكاناتهم الاجتماعية اقل علواً .

وقد حاول المؤلف مخلصا وهو يتحدث عن المؤسسة المذكورة كأحد الباحثين العلميين الاجتماعيين ان يبرز من وجهة نظره وفى ضوء خبرته المصالح التى تصنع نوايا العاملين فيها والتى بدورها تصنع مواقفهم الاجتماعية التى تحدد انماط سلوكهم .

١٢٥ قمرشا

كتاب الهلال

السفر على جواد الشعر

فتحي سعيد

سلسلة
ثقافية
شهرية

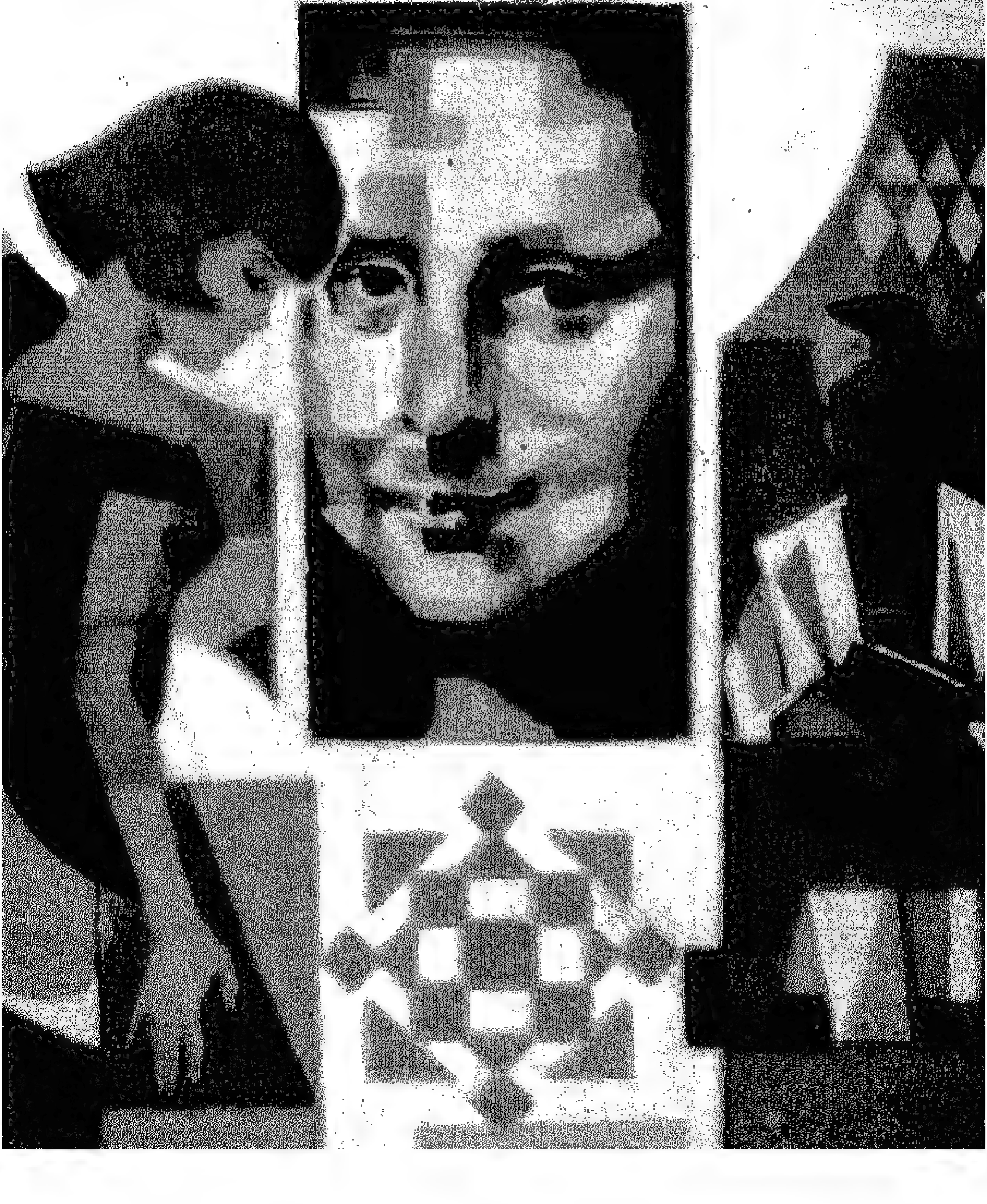

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٤٤ - ربيع الثانى - ديسمبر ١٩٨٧

No . 444 DECEMBER 1987

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحـــة حســـنين

السفر..

شاهيا

على جواد الشعر

بقلم:

فتحي سعيد

دار الهلال

تقديم

لولا جواد الشعر لما حملتني رياح السفر والغربة الى بعيد او قريب ! ولولا الشعر مارأيت صحراء بلادى ونجوعها وقراها وسواحلها وثغورها وبسطاء واديها .

ولولا الشعر مارأيت بساتين الشام وغوطة دمشق وارز لبنان وجبال الالب والبحيرات . وتلال عمان وأوراس الجزائر وابو رقراق المغرب وربوع تونس ونخلات العراق وما عبرت تحت قناطر ارسطو وربوع الاغريق وبوابات روما واقواس باريس وابراج لندن ونوافير مدريد وجبال مكدونيا الخضراء .. ولولا الشعر ما تنسمت ضفاف السين والتايمز والدانوب والتنير والادرياتيك ونهر دريم الاسود ومروج البلقان الشاسعة وعبق الغابات والحدائق ..

كان الشعر جواز السفر والعبور فى رحلة الاغتراب والطواف داخل جدران بلادى وخارجها ..

وكان السفر زادا جديد المذاق يضاف الى مائدة الشعر ليثمر ثمرة شوك قرنفلية فى حدائق التجوال يرطب اريجها المر قيظ الرحلة ولهب المشوار الطويل .

تخلفت كثيرا عن مهرجان العاصمة لاتسكع كثيرا فى مهرجانات الشعر والسفر .

كنت انزوى بعيدا فى مقعد قطار ليلى او ركن سيارة او على ظهر قارب او متن دابة فى شواظ الظهيرة او

فوق ساقى أقطع الاميال تلو الأميال في سفر وترحال افقد العناوين وتفقدنى العناوين ولكن لا أضل الطريق ..

تصرعنى ضربات الشمس فى وقد الصيف الريفي المصرى فى أعماق الصعيد فارتمى بظل شجرة جميز وارفة وفى سمعى دوان يردد قول الشاعر القديم وكأننى أتبين معناه للوهلة الاولى :

يا عمرو الا تدع سبى ومنقصتى
أضربك ... حتى تقول الهامة اسقونى

والهامة هى ، جماع الرأس .. تهتف ظمأى حتى يؤخذ بثأرها فنجد شبعا وريا وتكف عن الصراخ وطلب السقيا .

وتجمدنى جمرات الصقيع الجليدية فى ثلاجات أوربا الشتائية فأتمثل قول الشاعر بعد التعديل :

بلادى وان جارت على « دفيئـــة »
وأهلى وان ضنوا على كــــرام

وكما ركبت القطارات والدواب والسيارات الى السلوم وابو قرقاص وملوى وابنوب ورشيد وابو المطامير واسيوط والمنيا ونجع حمادى وأبو تيج وأسوان وسواحل الثغور والواحات وأطراف الصحراء ...

وكما شاهدت آثار بنى حسن والاشمونين والعمارنة والعرابة والكرنك وابو سمبل وانس الوجود ومقــــابر العلميين والحلفاية والقطارة والنطرون وأضرحة الاوليــاء والقديسين وآبار موط الفرعونية ومقابر البجوات وآثار القصر بأطراف الوادى الجديد .

ركبت الطائرات الى عواصم أوربا وشاهدت اللوفر ومهد الاولمب ومتاحف لندن وميادين روما العتيقة وقباب الفاتيكان ومآذن قرطبة وحمراء غرناطة وآثار توليدو .. والاسكوريال والبراد والاسبانى الشهير وبحيرة أوهريد وجبال الصرب ودايتى تيرانا وقمم بودابست الخضراء ومسلات مصر المسروقة فى كل ميادين العواصم .

كان الشعر هو جوادى الاثير الذى يدق بسنابكه النجوم ويسابق بنات الوهم ويحملنى على ظهره حين يحتلك الليل ويدهام الافق ويفتقد الانس والانيس . ويجيش قلبى بالحنين وطلب النجاة ويؤرقنى الحضور فى ملاعب السباق وتطول بى الوقفات اليومية أمام مرايا العصر حتى تنقشع غشاوات الزبد فيذهب جفاء ! ..

ولم يكن ذلك الا قدراً .. ارتضيته هانئا قريرا لان مقاليده فى يد صديق أمين :

تفــرب لا مستعظما غير نفســه
ولا واجدا الا لخالقه حــكما

وياله من صديق .. يمد اليك يده وقد أطبقت قبضة الحياة على العنق وضاقت الحلقات واستحكمت وغام السمع والبصر .. فيهبط هو .. كطائر النورس المهاجر ليلتقطنى بمنقاره الفضى ويحملنى تحت جناحيه ويطير عبر البحار والمساقات والصحارى .

ينحدر صاحبى المجنح الاصيل لا كجلمود صخر حطه السيل .. ولكن كجواد مطهم هائم يسابق السحب البيضاء والزرقاء ويعتلى قمم الجبال الشماء ويركض بى صوب الشرق والغرب ! .

لا خيل عندك تهديها ولا مال ....

نعم فالشعر فى زماننا فقير . لا عائد منه وماله من وارد الا اذا انشدته فى الموالد والموائد وحلقات الذكر والمناسبات وطواحين الكاسيت الهوائية وملاهى الليل العلنية والسرية وشاشات التلفزيون والفيديو وموجات الاثير الرسمية ..

فليسعد النطق مادام المال لا يوافى والحال ليس شافى !

والخيل ..؟ لا يوجد الا جواد واحد بحرون .. هو جواد الشعر نسيه فرسان هذا الزمان فى زحام الاضواء والاصداء .. وركبوا متونا اخرى أكثر لينا وملاءمة واسلس قيادا ووصولا ..!

هذا الجواد الصديق يحملنى بين الحين والحين كلما اشتاق كلانا للرحيل والسفر .

وفى هذه المرة .. طار بى .. ولم يكد يلتقط انفاسه بعد .. من رحلة الاندلس الذى مر عليها عام بالتمام .. ومدأدها لم يجف بعد ! حتى علك اللجام وجمجم بالصهيل ولكان لو علم الكلام .. مكلمى !.. ودق الارض ايذانا بالسفر .. وانطلق بصاحبه لا يلوى على شيء !.

وكان وراء ذلك وامامه وحوله .. وجه مصر ..

كان اسمها تميمة العبور وجواز المرور وكانه كلمة السر الدفين !

كان وجه مصر هو شمس الدفء لحظة المطر الراعدة وقمر الليل الغريب فى البلد الغريب .

((فتحى سعيد))

سوق عكاظ بين الدانوب وجبال الألب الخضـــراء

* سوق عكاظ جديدة ..

ولكنها ليست فى بطاح مكة وما والاها حيث يلتف النخيل وتنصب فى ظله القباب ويلتقى الحجيج ..

وانما غير بعيد من شواطىء الدانوب وجبال الالب الخضراء حيث تلتف الانهار وتعلو غابات الجوز واللوز والكروم ..

ولم يكن فيها « النابغة » يجلس على مقعده العـالى ليحكم بين الشعراء وتجادله الخنسـاء فى امرؤ القيس وعلقمة وسائر الفحول من شعرائنا الاول يقطعون البيداء فوق ظهور العيس والنجيبات من النوق .

وانما كانوا خليطا من الشعراء .. يسابقون الهـواء فوق ظهور النفاثات ويتكلمون بمختلف الرطانات ويلقون أشعارهم بشتى اللغات .. على ضربات طبول غانا ووتريات السنغال أو دقات كعوب الاسبان والمكسيك ..

ولم تكن أشعارا بالفصحى من لغة « تميم وطيىء » ومن لف لفهما وانما أشعار بالفرنسية والانجليزية والهندية والروسية والتركية وكل ما انزل من لغات لا يفهم أحدنا من الآخر شيئا الا دبيب النغم وحفيف أجنحة الكلمات تنفذ الى الاعماق وتتسرب وكأنها كلمة السر تنفتح لهـا بوابة الشعر على مصراعيها ..

وقلت لنفسى .. ما أبعد المدى بين الامس واليوم ..

- امس وقف طرفة بن العبد باطلال « برقة ثهمد » ينعي محبوبته « خولة » والديار التي لاحت كالوشم الباقي فوق ظاهر اليد ..

واليوم .. يقف شعراء العالم يغنون ويرقصون مابين شتروجا وبيسا راواهريد وسكوبيا ، وبالامس .. مال الغبيط بامرؤ القيس ومعه صاحبته فتزجره لينزل بعد ان ادمى ظهر البعير .

واليوم تميل بنا العربات من احدث الطرز وتدور اسرع من جلمود صخر حطه السيل من عل ..

امس .. اختبأ الملك الضليل .. عند الغدير حيث تستحم العذارى ليحتال عليهن ويترضاهن بعقر مطيته . ليرى منهن مارواه في معلقته وهو في حينه الحدث الخطير .

واليوم .. تسفر الحسان عارية فوق شواطىء البحر وتستلقي الاجساد الفاتنات فوق ماء البحيرة دون حاجة لشاعر يحتال عليهن أو ينحر لهن ناقة أو جملا .. امس .. كان فتى العشرين طرفة .. يتيه ويزهي بأن ندامآه بيض وقينته التي تغني له ولندمائه بضة متجردة ضحوك وطعامه من بقر الوحش التي طاردها حتى خر منهـا ما اكتنز لحما وشحما وصار شوآء شهيا .

واليوم يجد الشعراء بين أيديهم من الندامى والحسان البيض والسمر وسائر الالوان ومن صنوف الطهو والطعام مالا يحصى دون أن يرموا عن قوس أو يطاردوا ــ سربا أو يتكبدوا من أمرهم نصبا . !

نعم .. ما أبعد الليلة عن البارحة !

أمس واليوم وبينهما الوف السنين والاجيال ومع هذا

لم يسقط الجسر الواصل بينهما تحت وطأة الأقدام .

أمس واليوم وبينهما صنوف وألوان من التطـــور والتغير وتعاقب الفصول دون أن يفقد الشعر جدته أو تقتلع شجرته العاصفات ذلك لان الشعر ديوان الشعوب .. وسيد الفنون جميعا .

ولاول مرة يصبح الشعر لغة عالمية تختصر المســافات والحدود لتنصب من الافواه فى القلوب وكأنها ماء النهر المتدفق لا يختلف على منبعه أو تدفقه اثنان ..

فى مهد الاولمب

كان ذلك ذات صباح خريفى .. حين اقلعت الطائرة تسبح بنا فى بحار الفضاء ونسبح نحن داخلها فـوق البحر العريض الممتد تحتنا بلا حدود .. وهى ترفرف عبر زرقة السماء وقد انقشع دخان الأرض وغبار الاحياء فلاحت صافية مجلوة كالمرآة .. أو كأنها قلب الانســان حين يشف ويصفو فيخلو من بقع الحقـــد التى تدمغ صفحات القلوب وتنعكس على جلد الوجوه ..

وعلى صفحة هذه المرآة السماوية الصافية توالت كتل السحب البيضاء تطارد وجه الشمس فتغطيه حينا ويسفر أخرى وكأنهما عاشقان يتحاوران بالاحضان وتكاد لروعة المنظر وجلائه أن تجذب قرص الشمس بيديك جذبا .. أو تقتطف من وجنتيها جمرة متقدة .. أو تركض وراء خصلات السحابات البيض وهى تتدلى من سقف الافق كأنها جدائل شعر فضية ارسلتها فاتنات من بنات الجن على ظهورهن العارية .

وتحت مرمى البصر .. انبسط البحر تسبح فيه اشعة الشمس فكأنه اللجين .. وامتدت حول البحر من كـل

الجوانب « عروس الاولمب » القديمة ومهد الاساطير والفلسفات ، ولاحت « أثينا » عاصمة الاغريق وكأنها لوحة رسمتها ريشة الطبيعة وألقت بها فى مفترق الجبال وفوق شاطىء البحر ..

وانحدرت الطائرة وحطت بنا فوق أرض الاغريق وهبت نسمات اليونان حارة رخية معا .. وطار الخيال يعانق المنظر .. ويركب عربة « زيوس » الذهبية يسابق بها الريح ويطارد آلهات الاولمب .. أو يركب حصان طروادة بحثا عن « هيلينا » المغتصبة أو شوقا لفرجيل وسافور ورهط الشعراء العشاق ..

وطار بى الخيال واوغل .. فرأيت « سقراط » يكتب حكمته الشهيرة على جدرآن معبد دلفى ثم رأيته يقف فى قفص السجن وهو يعطى لكأس السم « شفتى محب يشتهى التقبيلا » .

وتخيلت زوجة « ارسطو » وهى تدلق فوق رأسه جرادل الماء لانه ينفق يومه فى الكلام ويمشى حافيا فى الاسواق يدعو الناس للحكمة والجمال والحب .. بدلا من ان يعود لها بالرزق الوفير ..!

ورأيت « ديموسيس » يمضغ الحصى وينأى عن الناس عند شاطىء البحر ليحل عقده ويصير أشهر الخطباء .

وأبصرت « هوميروس » الأعمى .. يسير فى الاسواق يتغنى بالياذته بين الناس ..

ودعوت نفسى الى « مأدبة أفلاطون » حيث اجتمع زعماء الشعر والسياسة والتراجيديا وآلكوميديا يتحاورون فى فلسفة الحب واستغرقنى الخيال .. ومن الوقت

كلمح البصر .. وعاد الخيال محسوراً وكلت العين من طول التحديق فى المنظر .. ولم أر فى أثينا الا وجهها القديم .. فأسرعت الى البحر اغترف من مائه حفنة موج اغسل بها حبات العرق وغبار السفر والطواف حول القرون ..

وطارت الطائرة .. لتحط مرة أخرى فى عاصمة الجمهوريات الست « بلجراد » لنقضى فيها يوما أو بعض يوم حتى يكتمل عقد الشعراء .. ولم أنم ساعة واحدة ، انطلقت الى الشوارع اجوس فى ربوعها واعماقها واندس فى الزحام وأدخل الحوانيت تحت الأرض وفوقها وأجر ساقى المتعبتين فى استرخاء الغريب حين يحيل غربته الى امتلاء وحين يشم بأنفه ريح الأشياء ويقتضى أثرها بحثنا عن اكتشاف جديد .. أو مغامرة ما .. وقد غامت السماء قليلا ولاحت الشمس قرصا ارجوانيا توارى وراء ستارة سمراء .. ورذاذ المطر ينسال رشيقا رقيقا دون انقطاع وكأنه دموع الشمس تساقط حزنا على اقتراب موعد الرحيل .. والناس تجد الخطى تحت الرذاذ والسماء الرمادية هربا الى جدار أو نفق يحميها من لذع المطر والبرد .. وانا أسير تحت حبات المطر سعيدا بها وكأنها قطع الحلوى تتساقط فى كف طفل جذلان يتسكع لا يلوى على شىء ويترنم بأبيات قديمة وعتها ذاكرة الطفولة لامير الشعراء يصف بها طفولة تلك الأيام :

عصافير عند تهجى الدروس

مهار عرابيد فى اللعب

خليون من تبعات الحياة

على الأم يلقونها والأب

وساقتني قدماي الى ذيل « الدانوب الشهير » وقد مالت الشمس أو كادت .... وخلع الغروب عباءته على الكون فنازعني شوق مبهم دفين ..

هذا هو الدانوب الشهير اذن .. وهذه هي أصداء « شتراوس » العظيم يعزف معزوفته الشهيرة عن الدانوب .. وغمرتني هزة أكثر عنفوانا .. لم تكن من اثر النسمة الماطرة الباردة .. وانما هي هزة الحنين الى جدنا الاصيل العريق اقصد « النيل » لاح لى أمام الدانوب الشهير أنه جد الانهار الاكبر وماذا يكون الدانوب الازرق ذلك الذي يستلقي تحت أقدامي شاحيا نحيلا .. لا يكاد يبين أمام العملاق الاسمر العجوز .. انه احد أحفاد النيل وياله من تمساح كبير أمام سائر الانهار !

العشاء على موائد العشب الاخضر

وغير بعيد من الدانوب .. كانت الحديقة الشهيرة « كليما جدن » فدادين من الخضرة لا يحصرها البصر .. ومساحات من الاشجار والربوات مابين مرتفع ومنخفض .. تتخللها مدرجات ومنحنيات وتماثيل للشهداء والعلماء والشعراء . وقلعة من الفولاذ والطوب الصخرى العتيق تذكرك بالقرون الوسطى . ومدافع ودبابات من آثر الحرب وضعت للذكرى .. وحديقة حيوان ومتحف وقد التفت الافصان الخضراء من كل ناحية انسدلت فوق الصخور والاحجار .. وبعضها شق قلبها وانتشر عبر المكان ..

وعلى مائدة العشب الخضراء الممتدة عبر أرجاء الحديقة الشهيرة المطلة على الدانوب الشهير كان العشاق يتناولون خبز الحب ويغمسونه فى رحيق القبلات ..

كان العشاق يضمون حلوى الشوق واللقاء فى ظـل الهواء الطلق ، وتحت مظلة المطر وقد احتموا من عيون الرقباء بحبات الماء المنهمرة ولاذوا من برودتها بدفء العناق .. وقد غطى الهوى وما القى على الابصار ..

وسرت الهوينى . حتى لا يخدش وقع الاقدام حيـاء العشاق او يعكر عليهم صفو تناول العشاء .. وكأنى انا الذى ارتكب ذنبا أستحق عليه الاختباء !

وعدت أدراجى الى المدينة وقد سجى الليل وهـاج الشعر والهوى فترنمت بهذا البيت القديم :

وذو الشوق القديم وان تعـزى
مشوق حين يلقى العاشـقينا

***

وطارت بنا الطائرة مرة ثالثة .. وحطت على شواطىء البحيرة الكبيرة بحيرة الضوء « أوهريد » حيث استقبلتنا فتيات جميلات كأنهن سرب المها فى الثياب المزركشات يطفن بالحلوى وزهرات القرنفل القانيات .

وارتقينا الجبل فى عربات تضرب فى حواشية ساعات من الزمان بين مروج الخضرة بساتين الكرز والخـوخ واشجار الصنوبر والزيتون حتى صعدت بنا قمة عالية فى قلب الجبل تربع فوقها فندق رائع برتقالى اللون تطل شرفاته على الجبل من ناحية وعلى البحيرة من ناحيـة اخرى ..

انت فى ملتقى الخضرة والجبل وصفو السماء تكاد تخترق عيناك صخور الجبال الشامخة المتاخمة لاجمل المناطق بايطاليا والنمسا والمجر ورومانيا والالبان .... غمضة عين ثم انتباهتها تحملك الى ربوع هذه البلاد ..

لو تجاوزت الجبال التي تحول بينك وبينها .. جبال الالب تجثم على شمالها الغربى والبلقان على شمالها الشرقى ..

أنت اذن تتنفس خليطا من الهواء يحمل نبض كل هذه البلاد .. ويعيد اليك ذكريات « دروس الجغرافيا » وما كنا نلقاه فيها من عنت شديد ..

خليط من كل شيء .. من البحار والبحيرات .. ثلاثمائة بحيرة أشهرها واكبرها « أوهريد ودويران » عشرات البحار والانهار أشهرها « الدانوب وسافا ودريم ، والابيض المتوسط والادرياتيكى » ..

خليط من الجنسيات ..

الباني والاتراك وايطاليون والمان ومجر وغجر ومسلمون ومسيحيون ..

خليط من القوميات والحضارات .. بصمات أوربا الوسطى وحوض البحر والاغريق والرومان وبيزنطة .

خليط من الحروب والغزوات .. الاتراك والبلقان والبندقية والالمان والحربان العالميتان .

خليط من كل لون وشكل . ولكنه يرتدى زيا .. واحدا في كل وقت هو الثياب الخضراء .. حتى واجهات البيوت وأكواخ الفقراء .. تكسوها الغصون الخضر وكأنهم انفقوا العام كله في تسنج حواشيها وتطريزها لتكون ثوبهم المفضل يوم افتتاح المهرجان ..

وياله من مهرجان .. سبعة ايام من الشعر المتواصل . ولا شيء غير الشعر !

ليالى الشعر فى العالمية

اسمه « ليالى الشعر العالمية فى شتروجا »

وشتروجا مدينة وادعة جميلة تستلقى بين أحضان نهر صغير حالم يتدفق من صلب الجبال وأعماق البحيرة الكبيرة ..

وفرقة جسر خشبى يربط الضفتين .. وعليه جلس الشعراء يقولون قصائدهم ..

كأنه خشب القيثارة وهم أوتارها التى تعزف اغانيها فوق الماء .

كان أول مهرجان أقيم عام ١٩٦٢ احتفالا بمرور مائة عام على أكبر شاعرين أخوين من شعراء ماكيدونيا .. كانا طليعة شعر الحب والسلام والطبيعة .. وطليعة النضال والحرية فأسرا وسجنا وعاشت أشعارهما ..

هما الاخوان « ميلادينوف » ولدا على ضفاف نهر « درم الاسود »

« الكسندر وقسطنطين » وحفظ لهما ابناء وطنهم الجميل فأقاموا هذا المهرجان السنوى الشعرى الذى يستضاف فيه الشعراء من كل بلاد العالم وتمنح فى نهايته جائزة « الاكليل الذهبى » وهى سنبلة من الذهب الخالص لشاعر كبير على مجموعته الشعرية الكاملة .. نالها بالتعاقب « بابلونيرودا » شاعر شيلي ، والشاعر الامريكى « أودين » والايطالى « مونتال » والتركى « دوجلاركا » واخيرا « سنجور » شاعر السنغال .

وافتتح المهرجان .. اشعلوا شعلة كبيرة توهجت فى نفس لحظة غروب الشمس وعزفت الموسيقى .. وارتفعت مئات الاعلام فى الهواء .. وتقدم أكبر نجوم المسرح

والسينما يقرأون الاشعار ممثلة كبرى مرة وممثل كبير أخرى .. وهرول الاطفال عراة حفاة من قلب النهر .. واستندت العجائز على جدران المسجد القريب .. واتكا الصبيان والبنات على جذوع الاشجار .. وتوهجت عدسات التلفزيون والصحافة تنقل المهرجان على الهواء وانطلق الشعر في الهواء الطلق .. وتحية للشاعرين « ميلادينوف » قرأوا عدة قصائد لهم .. كان أروعها هذه الابيات :

« من لى بأجنحة النسر
لأطير الى وطنى الحبيب ٢
لأرى ما اذا كانت الشمس هناك
مثلما هى هنا ..
تخترق حجب الظلام لتدفىء القمم
لو يستطيع قلبى أن يثب الى أعلى
على نفثات نافخ المزمار
عندما تنحدر الشمس لكان موتى هينا سهلا .. »

وتتابع الشعراء من بلاد العالم يلقون أشعارهم بلغاتهم الأصلية وتقرأ ثانية باللغات السلافية . مئات من الشعراء والشاعرات : جيلفيك من باريس وتحسين سراج من تركيا ، واريك من النرويج وارمينسكا شاعرة رومانيا وكورفا من أوكرانيا وميجر شاعر أمريكا الجنوبية وهوميرو شاعر المكسيك وازوارد شاعر بلجيكا وبانابيرآنوفا شاعرة هولندا الفتية وجان يريبر ولازار ودوجلاركا وسنجور ومن قبل حضره بابلونيرودا وايلوار ومونتال الايطالى وفازوا بالسنبلة الذهبية وانتهت أولى الامسيات بافتتاح معرض الكتب . كتب الشعراء المشتركين في المهرجان

والفائزين بجوائزه الذهبية مع صورة كبيرة عن كل منهم امتلأت بها جدران وجنبات « بيت الشعر »

وهو ليس بيتا من الشعر العمودى او المرسل وانما بيت من الطوب والحجارة يحتوى مكتبة وقاعات للمسرح والموسيقى وله مدير متفرغ ومهمته الاحتفال بأبيات الشعر والتحضير للمهرجان وترجمة ونشر القصائد الملقاة عاما بعد عام ..

وتوالت الايام شعرا ولا شىء غير الشعر . اليوم التالى فى « بيسارا » ومعناها اللآلىء لالتماع قطرات الماء تحت ضوء الشمس وكأنها حبات اللؤلؤ المذاب .. حلقات بحوث .. واشعار وانخاب ومركزا صحفى كامل للتغطية ..

شعر فى الصباح وفى المساء . وجمهور يزيد ويتضاعف وامسيات متوالية تنتهى كل منها بليلة مفتوحة يقول من فيها شعرا بلا برنامج محدد .. وحلقات من الرقص والغناء الشعبى وتجذبنا الراقصات الحسناوات الى حلبات الرقص نشاركهن رقصاتهن الشعبية .. ولهشنا نحن الشعراء ولم يتعب المستمعون ولا الراقصات ..

***

وحطت بنا الرحال للمرة الرابعة فى بلد جديد نعيد فيه ونزيد ماقلناه طوال ليالى المهرجان .. ونكابد فيها ماكابدناه من قبل واكثر ..

رحلة طويلة على مدى خمس ساعات وعلى ارتفاع هائل فى قلب غابات من الجبال يخترقها قطار الشرق السريع . لم نقطعها بالطائرة هذه المرة وانما فى عربات تسلقت شعاب الجبل وارتفعت حتى لامست الذرى . وهبطت

حتى غاصت فى أعماق المروج وينابيع الماء . واشـعة الشمس تغمرها من كل جانب وكأنها حمام صباحى من الدفء الوثير . حتى انتهت بنا الرحلة فى « سكوبيا » الجميلة عروس مقدونيا التى توالت عليها النكبات منذ كانت مهد الاغريق القديم حتى صارت قطعة من أوربا . والتى استعادت شبابها بعد أن دمرها زلزال عاصف منذ سنوات تسع . وبعد أن اشتعلت فيها النيران حين أمر جنرال النمسا « بيكولوفينى » باحراقها عام ١٦٨٩ .

ومن قبل اقتنصها الاتراك وداسوا فوق ضلوعها عام ١٣٩٢ حتى مزقوا اوصالها فى الحرب العالمية الاولى مابين اليونان والبلغار وفى هذا المكان الذى يجمع بين عراقة الشرق وجدة الغرب .. وكل ذكريات النكبات النازلة . عشنا على نفس الوتيرة الشعر ولا شيء غير الشعر فى المساء .. فوق قمة جبلها الكبير حيث مبنى « المتحف الحديث » تحفة فى المعمار والجمال .. وقد افترش الناس الارض بعد ان اكتظت القاعات . هل يسمعون الشعر . وفى الصباح فى قلب أحد الأنفاق حيث « قاعة البنك » الفاخرة لنقول ماقلناه من شعر .. وليكرر نجوم المسرح والسينما ماقلناه مترجما بلغتهم الاصلية ..

وتساءلت لماذا يعشقون الشعر هنا هذا العشق الغريب ؟

« الدكتور دوشان » أستاذ الادب المقدونى بالجامعة قال : هذه عادة قديمة درجنا عليها انظر بنفسك وابحث عن الجواب .

سألت مرافقى « فلاديمير » ذا اللحية الحمراء والوجه

الطفولي الذى يشبه الايقونة قال : هكذا ولدنا .. نحب الشعر ونقوله . .انا أعشق شعركم العربى والشرقى وأحفظ جبران وطاغور جيداً .

سألت مدير ليالى الشعر نفسه «يوفان ستريز فوسكى» وهو شاعر روائى شهير فقال : لا ادرى بالضبط .. ربما الطبيعة الساحرة ربما حركات النضال والثورات ضد الغزو وربما تنافس كل جمهورية زميلتها فى التعبير عن نفسها بالشعر .

سألت أكثر من واحد « يوبا » شيخ شعراء يوغسلافيا « وايفن لاليدج » الشاعر الأديب و « ميروسلاف ميتروفيش » رئيس الاتحاد الفيدرالى .. ولم أظفر بجواب محدد . وقلت لنفسي وانا أحدق فى روعة الطبيعة حولى .. فيم السؤال ؟ والطبيعة ذاتها قصيدة شعر .. ترى من نظمها ! ؟

وانتهت ليالى الشعر .. وتفرق الخليط وانفرط الركب بعد أن توثقت عرى صداقات فى الأعماق وكاننا أصدقاء أعوام لا أيام .

وتبادلنا الاحضان والقبلات وبعض الدمعات :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
اخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

سنجور :
عصفور افريقيا الرقيـــق

رأيته ثلاث مرات خلال ثلاثة أيام

الاولى .. ذات مساء .. تحت سقف كنيسة عريقة المداخل ملونة برسوم ولوحات لم تبل رغم القــرون . يكاد يضيء فوق جدرانها وجه مريم والمسيح ويجتمع فى صحنها مسجد ومحراب ..

الثانية .. ذات أصــيل فوق جسر خشبى يعتلى نهر « دريم » واحد من الوف الانهار الصغيرة التى تمرح على الشاطيء الادرياتيكى كأنها أحفاد الجبال تدفقت من صلب الصخر لتنتشر فى ربوع البلاد وتصــب فى البحرين الابيض والاسود وأشهرها : فاردار وسافا والداتوب .

والثالثة .. ذات ضــحى وقد أرتفع قرن الشــمس واستطال على مائدة من العشب الاخضر وغداء فى ظـل جبال الاولمب على ضفاف الجمــل واكبر البحيرات البيضاء .

وفى كل مرة لم ار فيه الا وجه العصفور

ذلكم هو سنجور .

عصــفور اسود .. ضامر .. رقيق .. قصير القامة فارع الابتسامة جم الحياء .

ينقل ساقيه فوق الارض وئيد الخطوات يرق بجناحيه كمن يهم بالطيران لاول مرة ..

يدق اديم الارض فى أناة شيخ حكيم وجذل طفل يمشي على حذر ..

وتتلفت عيناه الواسعتان كأنهما قطرتا ندى سقطتنا من عليا الغابات على زجاج النظارة البيضاء ..

بسيط كطفل .. رشيق كنسمة .. أنيق وسيم كأنه قطرة ضوء .

صامت الملامح ، كثير الاطراق كأنه لا يجيد الا فن الصمت ..

هذا هو الشاعر ..

ستة دواوين شعرية وعدة مؤلفات فى الادب والنقد والسياسة ودكتوراه فخرية من جامعة القاهرة عام ١٩٦٨ وجائزة الاكليل الذهبى العالمية فى الشعر عام ١٩٧٥ ..

***

ورحلة طويلة عريضة عمرها تسعة وستون عاما مابين ادغال القارة السوداء ذات اللغات السبعمائة والتى توالت عليها ألوان شتى من الاستعمار فى شكل « ارساليات حضارية » زعموا ظاهرها تأصيل الحضارة وباطنها تشويه معالم القارة ليغترفوا من كنوزها ويعبوا من عرقها الاسود الثمين .

رحلة طويلة قطعها الشاعر الرقيق من احراش الغابة الى رحاب باريس ، لا حالما بالضوء والنبيذ الفرنسى واضواء الليل الباهرة .. بل طالبا للعلم والمعرفة من أجل حرية الشعر والوطن .

رحلة شاقة مضنية جمعت ثلاثة من الرواد من أبناء القارة السوداء .

سيزير وداماس وسنجور .. ربط بينهم الفن والطموح من اجل الوطن فنزحوا من عاصمة الظلام الى عاصمة النور ليصدمهم اول شعار مكتوب فوق بوابات باريس : « انتم سود ونحن بيض » ..

اذن فلنبدأ المسيرة نحو افريقيا الجديدة المستقلة وليصغ عالم البيض الى ايقاع دم الطبول الافريقية ..
« وعندئذ يعود ماكان في أقدم العصور وتتحقق الوحدة ويرتبط الفكر بالعمل والاذن بالقلب والاشارة بالمعنى »

وليكتب الشاعر شعرا اسود بأكثر اللغات تجريدا وهي الفرنسية ليحطم خرافة التفوق الابيض ..

فكان أول افريقي يحصل على درجة « الاجريجاسيون» من السوربون ويطلق أشعاره أشبه بصيحة أفريقية تشق حجب الظلام ، وتمجد الوجود الافريقي ونضال الانسان المقهور فى كل زمان حتى ليهتف « سارتر » معلنا : « ان جزءا كبيرا من روائع الادب الفرنسي يرجع الى انتاج الافريقيين » ..

ذلك بعد أن هتف سنجور معلنا : « لم تعد هناك نبالة الفيلة .. ان هى الا بربرية هى بربرية الوحوش فى بدء العالم » .

موكب مهيب فخيم .. سيارات ذات أبواق وبيارق .. دراجات بخارية تنهب الطريق نهبا .. مرافقون ذوو نياشين واوسمة تلمع فوق السترات اللامعة ..

حرس شرف زاهي الالوان .. اكثر من سلام موسيقى وموائد استقبال وحفلات غداء وعشاء وتذاكر دعوات مذهبات الاركان ..

ذلك هو الرئيس ..

ليوبولد سيدار سنجور رئيس جمهورية السنغال منذ بدأ رحلته الشاقة حتى تحررت عام ١٩٦٠ وظل رئيسها الى الآن وباجماع الجماهير ..

زعيم حزب الاتحاد التقدمى السنغالى فى بلاده منذ بداية نشاطه السياسى مرورا بعدة أحزاب ومعارك سياسية واصدار مجلات وتبنى دعوات تحررية مختلفة .. ومنذ وقع فى قبضة الالمان أسيرا حين أنضم لفرقة المشاة الفرنسية ضد الزحف النازى ..

جناحان قطعا بهما الرحلة الطويلة .. جناح النسر فى معترك السياسة ، وجناح العصفور فى سماء الشعر .

وبين الموكبين : موكب الشاعر الطفولى وموكب الرئيس الرسمى رأيته كثيرا وفى كل مرة لم أر فيه الا وجه العصفور ذلك هو سنجور ..

تحت سقف الكنيسة

اما الكنيسة فكانت لاهل هذه البلاد من القبائل السلافية التى استوطنت شبه القارة البلقانية والتى تناثرت فى أرجائها الكنائس حتى بلغ عددها عدد أيام السنة ..

هى كنيسة « صوفيا » ذات الطراز العتيق وطاها اقدام الغزاة العثمانيين فى زحفهم المغولى .. حيث أحرقوا « ماكيدونيا » أجمل المدن فى الرقعة الاوروبية ودمروا « الجبل الاسود » ملتقى حضارات بيزانطة والرومان ..

واقام الغزاة منبرا فى قلب مذبح الكنيسة ليتحول الى مسجد وتركوه حتى الآن ليكون تذكاراً لهمجية الغزاة .

كان الوقت قبيل الغروب ، والشمس قرص من ذهب خضب وجه الافق ، والقى على اشجار الحور والصنوبر والبلوط المتناثرة فوق الجبال كأنها سيقان عالية من الخضرة لتسلق الفضاء لتحاور وجه السحاب . وقد أعارتها الشمس الغاربة غلالة الشفق تلفها على جسدها الاخضر النحيل وكأنها خرجت لتوها من مياه البحيرة المضيئة ..

ومالت الشمس أو كادت فهبت رعشة باردة ، ونازعني شوق لا يكابده الا من عاني من مشهد يوم غارب في بلد غريب .

وسارت الخطى عبر ازقة مبلطة قديمة عليها بصمات الاتراك لامعة بلا نقطة غبار او قمامة ، وانما غصون خضراء تتدلى من النوافذ وأواني زهور وورود تملأ شرفات البيوت ويسلمك الزقاق الطويل الى زقاق آخر وكأنك تجوس فى أعماق الغورية وتحت الربع .. حتى تنتهى الى الكنيسة العريقة الشهيرة فى فناء الكنيسة غاص سنجور فى مقعد كبير وكأنه بقعة ضوء سوداء التمعت تحت عيون الكاميرات والعدسات التى تكاثرت من كل فج وأمامه خشبة مسرح صغيرة ، واتسعت لاوركسترا واربعة من كبار النجوم : رجل وامرأة من السنغال ومثلهما من مقدونيا يتنافسون فى الابداع والاداء الشعرى لقصائد سنجور باللغتين الفرنسية والصربية ويقوم هو فى هدوء شديد ليتلقى براءة جائزة الاكليل الذهبى للشعر .. التى سيتسلمها غدا فى حفل كبير وتدوي ارجاء الكنيسة بالتصفيق ويتكاثر عليه الجميع حتى لا يكاد يبين وهو يشق طريقه للخارج يلوح بيديه

ويخفض البصر حياء كأنه العصفور .
ذلك هو سنجور الشاعر ..
وتدوى فى الخارج الابواق ، ويشتد أزيز العربات ، ويصطف الحراس ، وينطلق الموكب ينهب الزقـاق نهبا ..
ذلك هو سنجور الرئيس ..
وقلت : ترى هل يذكر الان تلك الابيات الرقيقة من شعره كأنما يصف نفسه ويصف اللوحة كلها :
« اتخيل انك هنا
فهنا الشمس
وذلك العصفور الضائع فى الحقل الغريب
كما لو كان أصيل امسية صيفية متوهجة
الاكليل الذهبى فوق جسر خشبى »
المرة الثانية كانت فوق الجسر الخشبى الذى اتسع لحشد من الشعراء فى أصيل امسية متوهجة فوق نهر « دريم » شريان مدينة « شتروجا » عروس المهرجان العالمى .
اشتعلت الشعلة النارية وانطلقت الصواريخ الزاهية ، وعزفت الموسيقى ، وخرج الاطفال والنساء والشيوخ يفترشون ضفاف النهر ويقفون حول الجسر الخشبى ويسدون الطرقات ، وجلس سنجور بلا حجاب وحراس وسط زمرة الشعراء مابين سود وبيض وصفر يمثلون انحاء العالم . ووقف كبار الممثلين والممثلات يلقون قصائد الشعراء بلغة بلادهم .. ويقف بعدهم الشعراء يلقون قصائدهم بلغتهم هم .
وكان سنجور يحدق باذنيه وعينيه معا ، وهو يصغى

الى الشعراء يحاول أن ينفذ الى قلوبهم من خلال الايقاعات والاداء ، عله يفهم مايقال بعد أن تعددت اللغات ، ويعبر عن ذلك كله تصفيقا أو بايماءة او ابتسامة .. وكان سرا باقي أعماق الشعر آلا يعبأ باختلاف المسافات واللهجات وانما يوحد الشعور بين الشعراء جميعا ..

ويجيء دور سنجور ويتقدم وحيدا هادئا يكاد لايمس الارض بقدميه ليقف أمام الميكروفون وعدسات التليفزيون ليهمس باشعاره همسا .. أشعار قصيرة رقيقة الوقع .. لغة فرنسية كأنها موسيقى تشف عن رقة وعمق فى صوت سنجور ونفذ الشعر الى القلوب رغم اختلاف اللغات ..

ويقف مدير ليالى الشعر ليسلمه الجائزة .

سنبلة كبيرة من الذهب الخالص .. يكاد بريقهـــا يخطف الابصار داخل عليه فاخرة حتى لتنوء بثقلها ذراعا الشاعر فيخف حارسه ليحملها عنه ، وقد تســـابقت العدسات وومضات الضوء تسجل اللحظة التاريخيـــة وتنقلها على الهواء ..

ويعود الى مقعده .. بجانب زوجته الفارعة الجميلة .. بنفس الخطى الوئيدة وهو يقلب عينيه فى الارض ..

ترى أكان يقصد هذه اللحظة المشحونة عندما قال :

« ان الرجل الاسود هو انسان الطبيعة لا يقبل الوساطة بين الذات والموضوع لكنه يقبل كل شيء انغاما وروائح وايقاعات واشكالا والوانا ..

انه يحس الاشياء اكثر مما يراها »

الغداء على مائدة من العشب

المرة الثالثة .. كانت على مائدة من العشب الأخضر

في ظل الجبال الشامخة الخضراء .. وقد غمرت الشمس وجه الارض ..

كان ذلك في الصباح الباكر وقد انطلقت بنا باخرة صغيرة من « اوهريد » عاصمة ملوك مقدونيا الاوائل واجمل البحيرات لتمخر عباب الماء زهاء ساعات ثلاث نسرح البصر خلالها مابين الجبال التى تحجب وراءها رومانيا والبانيا وبلغاريا .. وبين غابات الخضرة التى تكلل كل شيء وسطح البحيرة الشفاف كأنه الضوء ، ودفء الصباح الوثير حتى حط بنا الرحال فوق مروج خضراء تمتد بلا مدى فى سفح حصن شامخ قديم يتبوأ صخرة عالية كأنه حارس من مردة الاولب .

وانفرط الموكب فوق العشب : شعراء من كل فج وصحفيون ورجال اعلام . وموائد صفت بألوان الطعام والنمارق والانخبة ...

واقبل سنجور .. بنفس طلعته الاليفة الودود وعزفت الموسيقى وطافت العذارى بملابسهن الزاهية بحلوى الملبن وزهرات القرنفل الحمراء وتناثرن حوله فى حلقات وكأنه طفلنا المدلل الوحيد ...

وهتف الشعراء وهم يبادلونه الانخاب قائلين :

نخب الشاعر .. لا الرئيس .. فليحيا الشاعر فقط !

وابتسم سنجور .. ولم ينزعج مرافقوه .. بل قال وهو يرفع نخبه :

« نعم الشعر هو الحياة وهو الابدية .. يذهب الجميع ويبقى الشاعر » . وتوالت الهتافات والانخاب ، واشتد رنين الاوتار والتهب الشعراء حماسة وتشابكت الايدي

حول الخصون في رقصة شعبية دائرية تمرق بنا بين الاشجار وفوق بساط الخضرة الممتد وأنهار النبيذ الحمراء ويصفق لها سنجور ويبتسم ويهتز ويود لو انخرط بيننا لولا رتبة الرئيس وما لها من تقاليد .!

وانفلت الوقت كأنه لمح البصر وثقلت الرءوس ، واكتظت البطون ، وآن الرحيل ووقفنا نودع سنجور الوداع الاخير .. فقد انتهت زيارته وآن له أن يحمل غصنه الذهبي عائدا الى بلاده . وكأننا نودع صديقا حميما عاشرناه أعواما لا أياما .

واوشكت ان اهتف ويهتف معي الجميع : لم لا تبقى بيننا ايها العصفور الرقيق .. لديك العشب واجنحة الشمس وريشة السحرة والفراشات البيت القائل :

« عندى رغبة كبيرة أن انام بين العشب وبقع الشمس تطرز جسدى العارى واجنحة الفراشات العريضة الناصعة وكل انواع حيوانات الارض الصغيرة حولى .. »

***

ذلك هو سنجور الشاعر
وذلك هو سنجور الرئيس
ومابين الاثنين لم أر الا وجه العصفور عصفور أفريقيا الرقيق ..

الطفل ذو اللحية البيضاء

نعم .. طفل يحبو للسبعين ..

ولو زعم انه ابن العشرين لصدقته .

قصير القامة يثب ان خطا وكـــانه يرتقى درجا فى الهواء ، ويغدق على المكان هالة من نور تشدك اليــــه وانت لا تعرف من يكون !!

الصدر غابة من شعرات بيضاء تعرى تحت لذع المطر ونسمات البرد القارصة فى وضح النهار ..

والوجه تفاحة بيضاء مشربة بحمرة العافية مسقيـة بالقطرات من معتقات انبذة باريس ..

وعلى الشفتين ابتسامة كانها ليست له لطول ماتركها على حالها من التبسم !

وعين كعين الديك .. تكاد تضىء خلف المنظـــار الذهبى الرشيق .

وعلى الراس تاج من فضة رمادية انسدل حتى غطى الكتفين ..

كانه خصلة الجواد العربى الاصيل .

ولحية بيضاء وارفة .. ربضت على مشارف العنق كحارس لا يريم .. اشبه بطائر البحر « النورس » ان جاز التعبير لمشيته ايقاع ولهرولته حفيف ولحضوره بهجـة وامتلاء ..

باختصار من هؤلاء الذين ينسكبون داخلك للوهلة الاولى وكانك تعرفهم منذ سنين خلت .

***

رايته فى مطار بلجراد .. – أول مرة – لم أعرف من هو ؟ ولكن شيئا ماشدني اليه واخذت الاحقه بالنظرات والتساؤلات :

هل هو رسام ربما ..

فطاقيته الباريسية ولحيته المرسلة تذكرانك بصعاليك باريس من فرسان الفن التشكيلى أمثال « لوتريك » وموديليانى .

هل هو موسيقار ؟ ربما .. فهو يتخطر فى خفة وشجن كأنه « شوبان » شاعر الموسيقى على كل حال .. ليس مخترعا أو عالما أو وزيراً .. فهو طلق المحيا غير متجهم يبدو حالما لا مفكراً .. له لحية « شو » او « تولستوى » .. وليست لحية « أديسون » او « داروين » !

ولم يطل تساؤلى .. فجاة وجدته أمامي وبيننا مرافقنا « دكتور دوشان » أستاذ الادب بجامعة مقدونيا .. وهو يقدم كلينا للاخر تحت لافتة عريضة مكتوب عليها : « ليالى الشعر العالمية فى شتروجا » :

جلفيك .. شاعر فرنسا .. جيل أراجون وايلوارو عاشق الحياة الجوال ..

وتعانقنا بالايدى والنظرات وصدق ظنى وكان شاعرا !

قليل من الفرنسية يصلح الصحبة

كانت اللغة حائلا بيننا .. فهو يتحدث الفرنسية

والالمانية والايطالية فقط !

ولم تهم اللغة .. كلمات متناثرة بالانجليزية التى لا يجيدها وقليل من الفرنسية التى لا أجيدها ..

وقلت له : قليل من الفرنسية يصلح الصحبة ..

وقال ضاحكا : وكثير منها يصلح السهرة !..

وانطلقنا الى فندق « سلافيا » الكبير كان الوقت فى الظهيرة .. والشمس غائمة .. والسحب تركض فى الفضاء الرمادى الحزين ركض الهارب من العاصفة .. وحبات المطر تتساقط فوق أوراق الشجر ونوافذ البيــوت والحوانيت وتغمر وجه الطريق ..

وما ان وصلنا حتى قال لى : دع كل شىء وهيــا الى الطعام فهذا الطقس يحتاج الى أكثر من دفء .

وقلت لنفسي هامسا : بل ان الرفقة الحميمة والصحبة اليانعة هى دفء الرحلة وعون السفر .. فاذا ابتليت فى سفرة بما يعكر الصفو وينشر الصقيع ، ويكشف عن سواد الطوية فما اكدرها من رحلة .. فليكن فى صديقى « جلفيك » عوضا عن فقدان حلاوة الامتاع وطــلاوة المؤانسة فى رحلة الغربة . وكربة الرفقة الباردة .

وهكذا كان .. منذ ضمتنا أول مائدة فى بلجراد العاصمة وعلى مدى موائد أخرى .. مابين شعر وبحث وندوات وعشاء فى « بيسارا » الجميلة وفي « أوهريد » الفاتنة واخيرا فى « ماكيدونيا » العريقة التاريخ كـان خير الصديق فى الرحلة ونعم الخبير بالدروب والمسالك واحسن الذواقين للأطعمة والاشربة .

قلت له : تذكرني بصديق حبيب .. فى فتوتك وشباب شيخوختك وخبرتك فى تعاطى الحياة الفن .

قال : وهل له لحية بيضاء وارفة مثلى .. وهل هو شاعر ؟

قلت : بل حليق الثلاثة .. شعر الرأس واللحية والشارب يهمس بالشعر ويجهر بالموسيقى ويلوذ بصومعته ودفء الاصدقاء .

قال : اذن هو موسيقار .. قبله بالنيابة عنى ولنشرب نخب صديقك الموسيقار العجوز ! .. « مدحت عاصم »

الشعر للحياة .. ولا احب الوقوع فى البراثن .!

وامتدت بنا الرحلة .. قطعنا آلاف الاميال بالطائرات والعربات حتى حط بنا الترحال الى «سكوبيا» عاصمة المقدونيين الاوائل ومهد الفتوحات والاسكندر وسقراط والتلال الخضراء والانهار كأن هو خلالها قرة الاعين وموضع الاكبار دون أن يلهيه ذلك عن انفراط الصحبة .

وقف له « سنجور » شاعر السنغال مصفقا .. والتف حوله رهط من الشعراء من كل فج مرحبين . ومتوجين .. وفى العاصمة العتيقة .. وفى ركن من احدى حدائقها استعنت عليه بشاعرة حسناء ..

غراء فرعاء مصقولة العوارض كقول الشاعر العربى كأنها الظبية فرت عن الخباء .. متدفقة الصوت تنطلق الكلمات من فمها كالقذائف شهباء العينين . قمحية البشرة والشعر . لانوثتها لمسة رجولة تضفى عليها جاذبية وشنوقا ..

استعنت عليه بالشاعرة الهولندية « يانا » ومعناها

القوية الصلبة الجسور وانها لكذلك .. تتحدث عشر لغات وبسرعة الصاروخ ! وشاعرنا ينطلق فى فرنسية عذبة رخيمة .. ويحكى :

لا اذكر متى بدات الشعر .. فى الثامنة مثلا .. تاثرت برامبو وبولير وفرلين وبالادب الالمانى خاصة جيته وريلكة وكنت أحلم دائما وانا أكتب الشعر .. كنت أتخيل نفسى اكتب على جذع شجرة واسمع الاحلام وأرى لها صوتا وانا الان .. اذا لم أحلم لا أكتب .

رامبو ايضا كان يتخيل للحروف أصواتا وألوانا واخترع كيمياء الكلمة .

رامبو حلم بالكلمات وكان يسمع لها أصواتا .. اما انا فعندما استيقظ من الحلم اتذكر الشكل لا الكلمات كما كان يفعل رامبو .

عمرى دون السبعين بعام ولكن عمرى الحقيقى هو الشعر وهو لغة ثانية أرقى من اللغة اليومية وكتبى عشرون كتابا منتشرة فى غرب اوربا أول كتاب عام ١٩٤٢ واسمه « فى الاعماق » والأخير عام ١٩٧٣ واسمه « فوق الارض » . لا اتقيد بمذهب معين ولا أعتبر نفسى شاعرا تقدميا أو رومانتيكيا وانما شاعر طبيعى .. شاعر فقط لا احب الوقوع فى براثن المذاهب .. وأعشق الانسان والحياة والقصيدة الجميلة .. والعالم كله وطنى ... والنساء كلهن زوجاتى وكل الاطفال اطفالى .. لست متزوجا .. ولى ابنة واحدة الكبرى انتحرت .. احتججت على الحياة وفرت منها وهى فى الثانية والاربعين ..

كنت موظفا بوزارة المالية .. وكيل وزارة تقريبا لا علاقة للفن بالنقود ومعاشى لا يكفينى لكثرة نفقاتى ..

لذلك أعيش على بريخت .. أقصد على ترجمة أعماله وأكتب الاغاني .

شعركم العربي وايقاع الجياد

ماذا عن ايلوار وأراجون وناظم حكمت .. باعتبارك معاصرا لهم ؟

اراجون وايلوار ليسا في ذاكرتي رغم معاصرتي لهما .. كبيران ومحبوبان عند الناس .. واراجون لم يقدم جديدا في رأيي .. وايلوار خلق شيئا وأفضله على أراجون ..

وناظم حكمت مثله شعبي ومحبوب ولكني أوثر « بريخت » واراه شاعرا كبيرا .. « وبودلير » كان أشعر من كتب الشعر الحديث .

ما الشعر عندك .. وماذا تقول للشعراء ؟

الشعر شجرة الحياة .. ثابتة الجذور في الارض وتغطي فروعها كل الدنيا ..

والشعر هو الحب والثورة وأهيب بالشعراء أن يثوروا دائما ليصعدوا دائما .

والحب عندي هو الثورة وبلا حب لا تستطيع أن تثور ولذلك أنا في حالة حب دائم .. أنني أحب الحرية والثورة وأعادي الاحتكار والقهر .. وقلبي مع العرب .

شعركم العربي الذي سمعته فيه ثورة وصعود .. لم افهم اللغة ولكنني أحسست انه شعر كبير ومتقدم .. شعرت بايقاعه الذي كان لغة في حد ذاته ..

كأنني استمع في شعركم العربي وقع حوافر الجياد وهي تنهب وجه الارض .. في شعرنا لا تحس بذلك ..

الفرنسية والايطالية تخلوأن من هذا الايقاع رغم شعرهما الجميل ..

والشاعر الكبير هو الذى يجعل الاشياء ممكنة الصعب .. فالحياة جميلة واننى اباركها .. والشعر هو اللغة العالمية لهذه الحياة اذا عزت اللغات .

لم أر مصر قط .. حضرت هنا «شتروجا ومقدونيا» ثلاث مرات وطفت معظم العالم .. وبودى ان أرى مصر قل لهم ان يدعونى .. او تعال انت الى باريس وعد بى للقاهرة ..

***

واندفعت « يانا » الهولندية الشاعرة وهى تقذف الكلمات كالصاروخ وتنهى بيننا الحديث ببيتين من شعرها :

« عندما لايكون أحد يستمع الى لا أحد .. بدلا من الكلمات تشعر الناس وتحس أن العالم كرة وفوقها ندور نحن بالدراجات وفوق الاقدام !. ويوما ويوما ماندور .. ونلتقى فى القاهرة ..

وجه صديقى القديم
فى مهد الاغريق العظيم

● « السبب الوحيد لشقاء الانسان هو انه لا يعرف كيف يستقر هادئا فى حجرته » •

« باسكال »

كنت اسميه مداعبا « الفونس الصغير » تيمناً باسم « الفونس دوديه » الفنان الفرنسى الشهير ..

كان شبيها بالفرنسيين واشبه بالفرنجة من أهل العيون الزرق والدماء الزرقاء .. والرطانة الهوجاء ..

وكان اقرب فى ملامح الوجه والقامة وانسدال خصلات الشعر .. واستدارة الشارب والحاجب الى صورة « ادجار الن بو » الأمريكى القلق الحائر .. الفنان والشاعر الذى وصفه جورج برناردشو بقوله :

« لقد تم اكتشاف أمريكا ولم يتم اكتشاف « بو » هذا الفنان الأشد روعة من الفنانين الرائعين .. هذا المفطور على ارستقراطية الكلمة .. واحسرتاه ! انه لم يعش هناك .. لقد مات هناك .. وتم القاؤه فى حينه كسكير وفاشل رغم أن السؤال يبقى فيما اذا كان قد شرب طيلة حياته حقا بقدر مايشرب الأمريكى السفاح اليوم خلال ستة اشهر ودونما اى تعليق ! !

كان يحمل ذلك الوجه النابليونى الاليف .. العيون التى تشع ذكاء ومكرا .. والجبهة العريضة البيضاء ينسدل فوقها خصلة شعر شقراء والنكتة الباريسية

المدللة المنعمة الكلمات .. بجانب اللهجة المصرية الدفينة بأعماق الحارات .. وطاقة باهرة من الحيوية والنشاط والتدفق الذى لا يعرف الملال أو التعب .. والقامة القصيرة المقتحمة التى يطاول صاحبها بها غيره من العماليق باللسان الطويل وحسن البيان ونزق رعاة البقر ..

يعطيك من طرف اللسان حلاوة
ويروغ منك كما يروغ الثعلب !

كنا نقتسم اللقمة وتذكرة المترو وعلبة السجائر والعشاء الاخير .. وكان يؤثر كلانا أخاه .. يربط بيننا وعد مشترك من الضياع والالفة والغربة والشوق الى التجوال والمغامرة والسفر واقتحام الآفاق ..

وكنا نطوف بأحياء الاسكندرية العتيقة ليلة بعد ليلة نجوب ربوعها وحاناتها ومقاهيها وأفراحها مفلسين سعداء نتحايل على انفاق الليالى بشتى حيل الاذكياء وفنون الصعاليك والمحتالين .

وتعاهدنا الا نفترق .. ولم نفترق الا حينما تحقق حلمه القديم وطار ليعمل فى عواصم أوروبا وآسيا وافريقيا ..

وفى كل عام .. كنا نلتقى ايام العطلة السانحة وقد كبر الابناء والبنات والزوجات واشتعلت رءوس الاباء شيبا ! ..

وكم من مرة عقدنا العزم على اللقاء فى الخارج تتويجا لليالى الضياع فى الداخل .. واجتناء لثمرات الاحلام الليلية على شواطىء الاسكندرية ..

وكان اللقاء متاحا ولا مشكلة هناك .. فهو مسئول مرموق فى أحد مكاتب الطيران له سكن خاص وامتيازات .. ولا عائلة معه تشغله .. وكانت أمنيته الدائمة ان

أهبط عليه فجأة ذات صباح أو مساء .. هنا او هناك .. لا اقول له بعد خمسة وعشرين عاما من الصداقة والاخاء واجترار الاحلام .. ها أنا أطرق بابك ونلتقي بعد حين في مهد الاغريق .. وعلى ضفاف السين او في أعماق الادخال الاغريقية ..

وقد حدث ذلك . فعلتها وهبطت عليه في ذات صباح من أيام الصيف مزودا بمواثيق العهد القديم مرتكزا على رصيد أيام شبابنا الاولى وليالي الكهولة وكل الوشائج الاصيلة التي تسري في العروق مسرى الدم .. بين صاحبين درجا معا على درج الشباب والفتوة واجتمعا معا تحت قبة الجامعة وسقف المسكن الواحد .. وامتدت بينهما ليالي النصر الشاعرية ثم ليالي القاهرة الضائعة سنوات متفرقات حينا متعاقبات احيانا ..

وفجأة يتاح لهما أن يحقق كلاهما حلمه القديم فيعمل في عواصم العالم كما كان يحب ويشتهي ويعمل ذاك في بلاط الصحافة والادب ويلتقيان وقد تحققت الاحلام ودانت لهما الايام ..

وافترقا .. الى حين وعلى أمل في لقاء عابر يتوج احلام الليالي الضائعة ..

وجاء ذلك اللقاء ذات عام .. فماذا كان من صاحبي الهمام ؟

كان ما كان .! ويومها عرفت أن دفء الصداقات القديمة يذوب في جليد الغربة وصقيع الرحيل وان احلام الصبا والشباب تتبدد في عواصم الضباب .. وأن مواثيق الليالي الساهرة المحترقة في مجامر الاوهام تتحول الى بقايا من رماد السأم وهشيم الايام يمل فيها الصاحب صاحبه ويبدله .. وأن الشاعر القديم كان حكيما حين قال :

وليس خليل بالملول ولا الذى
اذا غبت عنه باعنى بخليل !

❋❋❋

عندما هبطت مطار أثينا كان أول شيء فعلته هـــو الاتصال بصديقى المصرى الحميم الذى يعمل فى الخارج دائما .. وكانت أمنيته الوحيدة منذ زمالتنا بجامعــة الاسكندرية منذ ربع قرن من الزمان هو أن يعمل بالطيران .. والتقى به ذات يوم فى احدى العواصم الاوربيـــة وتحققت الامنية .. وجاءت فرصة السفر وآن لحلمنـــا القديم أن يتحقق .. وأن نلتقى فى مهد أرسطو وسقراط وهوميروس وسافوربة الشعر والجمال الذين طالما تذاكرنا كلماتهم وأشعارهم فى سنى الدراسة العامرة وليـــالى الاسكندرية الشتائية ..

وذهبت الى مكتب صديقى الفاخر القابع فى ميـدان السنتاغما « الحرية » ـ الشهير ..

وقبل أن أدخل عليه سمعت صوته يصرخ فى التليفون وفى موظفيه كعادته فى الصراخ عندما يتحدث فعلمت انه بخير وعافية ..

وأخبرته السكرتيرة الحسناء بأن هناك صديقا قديما قادما من القاهرة اليك .. أردتها مفاجأة له وسبقنى هو بالمفاجأة فلطعنى نصف ساعة لايعمل شيئا الا الصراخ .! وهدير الاوامر والزعيق بلا حساب ..

وقلت لنفسي ربما كانت أشغاله كثيرة .. وربما لم يعرفنى بعد .. وكيف ؟ وقد التقينا منذ شهور قليلة فى القاهرة .. ولم يكن لنا حديث سوى هذا اللقاء القريب فى اليونان وشقته الفاخرة على شاطىء البحر ..

وفجأة خرج على صارخا كعهـده واثبا معانقا .. لم

يتغير كثيرا .. نفس الوجه الابيض المشوب بالحمرة والعينين الخضراوين والشعر الاصفر المسدل على جبهته .. وطاقة النشاط التي لا تكل ولا تتوقف .. وتدفق الحديث الصاخب بعدة لغات في وقت واحد .. وتعانقنا .. وقدم بعض الاعتذار .. وبدات الاسئلة .

وبدا الامر وكانني عبء ثقيل عليه او داهية داهمته فجاة واخذ يتعلل بشتى المعاذير .. أولاده واصدقاؤه معه في الشقة وحين جمعنا المساء في بيتــه اخترع موضوعا ملفقا يعني سرعة اخلاء الشقة .. لحضـور موظف جديد ونقله هو الى بلد أخرى .. عدا شـكوى صاحب البيت اليوم من كثرة دبيب الاقدام في شقته !..

قضيت الليلة على ملل .. بعد جولة في المدينة مع ولديه طالبي الطب والهندسة النابغين .. وقضى هــو الليلة خارج البيت .. في بيت صديقة له يونانية تبدو كالشغالات في المطاعم والبيوت وتقيم مع ولدها الصغير الذي لا يكف عن الشغب والصراخ والبكاء .. في شـقة صغيرة من حجرة واحدة بأقصى المدينة ..

ولم أطق العشاء حين دعاني اليه لديها .. بين ضيق المكان وسوقية محبوبته وعذاب « فيكو » المشاكس الصغير وصراخها المتواصل معه . واحتجاج الجيران أصـحاب الشرفات المتاخمة من عربدة الولد وزعيق صاحبي وصراخ ام الصغير !

في الصباح الباكر .. حجزت في فندق « امونيا » حتى لا اكبد صديقي القديم عبئا .. وأوخر عليه اختلاق الاكاذيب والحيل .. ومررت عليه في مكتبه وادعى شيئا من العتاب والغضب على ذهابي الى فندق وبيته مفتوح لصديقه الاثير وأخبرته انني لن أقيم سوى يومين وأواصل

الرحلة وطلبت منه أن يحجز لي تذكرة الى « سكوبيا » بقطار الشرق السريع بالدرجة الاولي والنوم .. وخدعنى صديقي حين قال قد يستغرق عشر ساعات من أثينا الى سكوبيا .. وكأنه يسهل على مهمة مغادرة اليونان بأسرع وقت !.. ووجدت الموعد مناسبا لكي أركب قطار الشرق العاشرة مساء فاصل الثامنة صباحا فألحق افتتـــــاح المهرجان فى السادسة مساء ..

وحملني صديقي بعربته الى المحطة حتي يطمئن تماما بأنني غادرت البلاد وخاب ظني .. حضر القطار متأخرا ساعتين .. واكتظت المحطة بالآف المســـــافرين الذين هجموا على القطار .. وكأنه قطار الصعيد الشهير يحتلون الاماكن جزافا وبالقوة ..

وخذلنى صديقي مرة ثالثة حين وجدت التذكرة عادية وبلا نوم وصار لزاما على أن أبحث لنفسى عن مكان .. ولم أجد سوى طرقات القطار اتسكع فيها .. ونوافذه أطل منها على كتل الظلام والجبال التى يسير فى قلبها القطار .. ويزحف كالثعبان .

وطافت بذهنى صور الطفولة القديمة .. وتذكرت كل ماقرأته فى الروايات البوليسية عن هذا القطار العجيب الذى يطوف بلاد العالم وعواصمها بينما لم يتجاوز القطار فى حياتي رحلة من دمنهور الى قريتي أو الي الاسكندرية أو الى آخر حدود مصر الصحراوية الغربية السلوم .. وكيف يشق ذلك القطار الجبال شقا ويسير فوق البحار بسرعة البرق .. ويكتشف فيه « أرسين لوبين » أغرب الجرائم ويتعقب « هولمز » المجرمين الهاربين والطامعـين فى خزائن النقود وخطف الجميلات ..

وحلمت بقطاع الطرق وفرسان اللصوص بالرغم من

الحراس الفولاذيين . ينحدرون من جوف الظلام ويطلقون سيلا من الطلقات النارية فى الفضاء تتكفىء لو قعها فتاة شقراء على صدرى تحتمى بى .. فينتفض قلبى ويغلى الدم فى عروقى .. واتخيل نفسى ذلك الفارس النبيل الذى يهبط من قلب القطار معتليا ظهر جواد أشهب بغرة فوق الجبين .. ليداهم اللصوص وينقذ الامـــيرة او البطلة الجميلة ويردفها خلفه على صهوة جواده .. وينطلق مترنما بقصيدة شعر ..

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث قط .!

كان الخيال اجمل من الواقع .. وكان سبيلى الوحيد لاختصار المسافات وقتل ساعات الملل ونسيان وجـه صديقى الكذوب ..

فالقطار يتوقف نعم ويتعثر بين حين وآخر .. لا لان قوافل اللصوص تهاجمه او توقفه .. ولكنه تماما مثـل قطار الصعيد فى بلادنا .. فهو مكتظ بالامتعة وبالمسافرين كل يحتل مكان الاخر .. وهو يتسكع فى كل المحطات بلا سبب وكأنه « قشاش » الصعيد الليلى ..

وجوه وسحن مختلفة الجنسيات تتراكم فى ردهات القطار .. بنات وشبان يركبون القطار منذ ثلاثة شـهور يطوفون بالعالم فى ملابسهم الرثة يستلقون على الارض ويدخنون « المخدرات » والمارجوانا .. فى الســجاير والبايب وعلى البيرة .. مفلسون .. صعاليك يشاركونك ساعات الغربة والملل .. ولكنهم عشاق يفترشون بعضهم بعضا فى ممرات القطار ودواوينه !..

تسللت الى عربة الطعام .. بعد لدغة الجوع والبرد .. ورفض عمالها تقديم اى طعام لى ولآخر معى .. فقد جلسوا يأكلون ويشربون غير عابئين على عادة اليوغسلافين

واصلت الوقوف خلف زجاج النافذة .. بعد أن أشرق الصباح واشرقت الشمس قليلا فى الظهيرة .. ثم غابت مع الغروب البارد النسمات ووراء الجبال التى لا تحدها الابصار .. وغابت معها لدغة الجوع الى حين بعد أن قايضت فتيات القطار بجرعات من « آلاوزو » اليونانى الرهيب مقابل لقيمات مطلية بالزبدة والجبن !

لم يقطع القطار المسافة فى عشر ساعات كما قال صديقى المراوغ .. بل قطعها فى سبع عشرة ساعة .. فوصل العاصمة « سكوبيا » فى المساء التالى .. وقد فات موعد الافتتاح ..

وما أن وقف القطار ونزلت الى رصيف المحطة حتى تجمدت من البرد ..

كان المطر ينهمر رذاذا جليديا وكنت بملابس الصيف فوقفت مكانى جامدا مرتعشا لا أقوى على نزع احدى يدى لفتح حقيبتى والتقاط بعض الملابس الثقيلة حتى صادفنى طالبان من السودان وسألانى عن وقفتى هذه وفهما الامر ونابا عنى فى فتح الحقيبة واخراج بعض الملابس الثقيلة تدثرت بها وقادانى الى مقر « أتحاد الكتاب » فى الشارع المجاور للمحطة تماما شارع مكسيم جوركى ..

وجدت « ماريانا » الحسناء الرقيقة .. فى انتظارى وما أن رأت رعشة البرد وحبات الجليد حتى جاءت باطباق من الحلوى واللوز والملبن وعدة أشربة معتقة بيضاء وصفراء وحمراء شربتها تباعا حتى شعرت بقليل من الدفء وكثير من الجوع والرغبة فى الفراش الوثير ..

واتصلت المرافقة الحسناء بادارة المهرجان .. لتعلنهم

بوجودى فى حالة برد واعياء فقرروا ان أقضى الليلة هذه طلبا للراحة ثم اسافر فى الصباح الى « أوهريد » حيث المهرجان ..

ورافقتنى الى فندق العاصمة لاتناول عشاء ساخنا وآوى الى الفراش علنى اظفر بساعات من النوم بعد هذا الارق الطويل .. دون جدوى !

***

فى الصباح الباكر .. تعجلتنى « ماريانا » الحسناء وانا اتناول طعام الافطار فلم اكمله واكتفيت بكوب من عصير البرتقال .. وجرينا معا لنعبر نهر « فردار » بالاتوبيس المنطلق الى مقر المهرجان .. ولحقنا به فى اللحظة الاخيرة .. وانطلق يشق طريقه بين الجبال والوديان .. دون طعام أو تدخين ..

وتوقف الاتوبيس عند قرية غافية فى المروج الجميلة تنبعث من مطعمها الصغير روائح الشواء الشهية .. واكلنا شواء الصباح وشربنا أشربته وقهوته وانتعش القلب وتدفق الدم فى العروق وواصلنا الرحلة .. حتى وصلنا « أوهريد » الجميلة لاجد صديقى « اسكندر » مرافق العام الماضى فى انتظارى لتحملنا العربة فورا الى الفندق البرتقالى فوق الجبل المطل على شاطىء الادرياتيك مرة أخرى ..

لنكرر نفس جولة العام الماضى .. رحلات شعر ولقاءات أدبية فى مختلف الاماكن المتناثرة فى حضن الطبيعة الساحرة .. وعناق الوجوه المسافرة من أجل الشعر والفن لينتهى المهرجان باحتفال كبير فى فندق « الكونتيننتال » الكبير حيث تحدث الشعراء وتبادلوا انخاب اللقاء ..

والقيت كلمة .. هنأت فيها الشاعر الفرنسي الـكبير « جلفيك » بالجائزة التى تنبأت له بها العام الماضى . وراهنته على نخب عظيم على حسابه ان فاز !.

وامتدت مائدة غداء ضمت المئات وقدمت افخر الاطعمة والاشربة وصنوف الحلوى والفاكهة ..

ووقف مدير المهرجان يعلن نهايته ويوجـه الدعـوة لاربعة من شعراء العالم المشتركين فيه للاقامة في العاصمة « بلجراد » أسبوعا آخر ليشاهدوا معالمها ويلتقوا بشعرائها وادبائها ..

وكان الشعراء الاربعة هم شعراء المكسيك والهنـد واسبانيا ومصر .. حيث قضينا أسبوعا فى العاصـمة اليوغوسلافية وضواحيها وفى صحبة أدبائها وشعرائها . لم يعكر صفوها الا وجه جليدى سـميك من الشـعراء لم يتلق نفس الدعوة !

عدت الى اثينا مرة اخرى بالقطار وكانت رحلة عذاب ثانية زادها طولا وسأما توقف القطار ساعات طويلة فى « سالونيكى » الحد الفاصل بين يوغوسلافيا واليـونان لالتقى بوجه آخر وجه صديقى القادم من القاهرة رفيـق الوطن والرحلة .. ولنتسكع أياما فى عاصمة الاغـريق ونطير بعدها الى باريس ..

لقاء تحت الراية الحجريـة الشمطاء

وكأنما انشقت الارض عنه فجأة .. ! تركتـــه في القاهرة منذ أيام .. فاذا به أمامي بقامته الفـــارعة وابتسامته الرائعة .. في منتصف الليل فى « ديفيني » الضاحية الخضراء بأطراف عاصمة اليونان حيث أقيم مهرجان الموسيقى والكروم . الذى يعقد كل عام وتحتشدله العاصمة العتيقة ووفود السواح والزائرين .. على مدى ثلاثة شهور من السهر المتواصل والعزف على مختلف الاوتار طوال الليل وحتى تباشير النهار حيث تراق أنهار النبيذ الحمراء دون الوردية او البيضاء وتنسكب بلا حساب من خلال الصنابير والنوافير النابعة من مناقعه المعتقة المتدفقة فى حدائق الكروم الحبلى بالعناقيد .

وتصدح الموسيقى ورقصات الشعوب من كل فـــج واغنيات الحب والمرح والغربة وتعانق الخصور والصدور فى حلبات الرقص ودوائر الايقاع .. يكاد أن يميد بها المكان الممتد فى ساحة من الخضرة والاشجار والأزهار وجداول الماء تبلغ عشرات الافدنة من حقول قريتنا .. وكأنه رئة المدينة النقية الخضراء ترسل أنفاسها العطرة من بعيد لتلطف من دخان المداخن ..

وقد تناثرت فى هذه الافدنة الشاسعة المطاعم والمشارب الصغيرة وحوانيت البيع والشراء والعاديات التذكارية .. واكشاك التليفون ودورات المياه والمقاعد الخالية وذوريات رجـــال الامن والبوليس والجميع يفترقون وينهلون

مايشاءون بلا ثمن ويملأون القوارير بلا حساب !

والوف المخيمات والمعسكرات الشبابية الصغيرة اتخذها الفتيان والفتيات من الصعاليك والرحالة وعاشقى الترحال القومى الكبير الذى لا يكلفك قضاء الليلة فيه سوى « دولار » واحد رسما للدخول ..

وما كدت أدلف من بوابته واتلفت حتى رمقته من بعيد مبتسما أمامى .! وكأننا نلتقى صدفة فى شوارع وسط المدينة حيث يسكن كلانا . أو يقتنص بعضنا البعض فى حوانيت آخر الليل .

وتصايحنا فرحين وقلت له وأنا أعانقه :

ــ كيف انشقت عنك الارض هنا ؟

وقال لى :

ــ لا غرابة .. بحثت عنك حيث يجب أن ألقاك ..

وجدتك كما أجدك فى القاهرة تعس فى دروب المدينة فالتقطك من دهاليزها الدفينة !.

وضحكنا كثيرا .. كان سعيدا فخورا وقد صدق حدسه وكأنه اهتدى الى فك رموز « حجر رشيد » قبل أن يهتدى اليها « شامبليون » !

كان صديقى هذا الوجه الحميم الذى سقتنا معا جذور القرية وليالى المدينة وغذتنا معا طموحات الفن وغربة التطلع الى غد أجمل وانبل .

لم يكن بالوجه الدميم كصاحبى القديم الذى حدثتك عنه فى الحديث السابق .. ولكنه كان طروبا الوفا ضحوكا ندى اللسان والكف تحلو صحبته وتطيب رفقته بالرغم من ديباجته وولعه بالجدل العقيم .. وصرامته التى تحمل وراءها قلب طفل غرير ! .

وكنت معدا حقيبة يد صغيرة ملأتها بالقوارير الفارغة

التى ملأتها بذورها من النوافير والصنابير الجارية بدم العناقيد التى لا تكف عن الانهمار والعطاء ليغترف منهـا الواردون .. وخبأتها فى ظل شجرة كبيرة نائية علمتها بخيمة عالية لعشاق توارو عن عيون الراصدين وأشعلوا نارا هامدة كنار « ابى الحباحب » ما تكاد تتوهج وتشتعل حتى تنطفىء وتصبح لهبا خامدا لاهثا الدخان .. ولكنه شبح نار يؤنس غربة الساهرين ويدرأ شبهة الناكرين .. فدعوت عليهم بقول شاعرنا :

سقى الله ارض العاشـقين بغيثـه
ورد الى الاوطـان كـل غـريب !

وانطلقنا .. نطـوف فى المكان الذى يشبه فى انفساح مروجه قرية كبيرة .. تلتف فيها الاشجار والأغصـان وتكثر التلال والربوات والخمائل وقد تناثر العشاق فى ظلها .. وخلف الاكمات وأحضان الروابى .

وحملت « حقيبتى النبيذية » من مكانها المأمون .. وصديقى يجادل ويستنكر ويهرف وانا اقول له ونحن نجر الخطى عائدين :

— ستكون لنا زادا فى باريس يوفر علينـا ثمـن الماء ! .

خطرت فكرة السفر الى باريس فجاة وبلا ترتيب حيث أغرانى صديقى الحميم بأن الحق به هنـاك فى اليـوم التالى .

وكان ذلك مستحيلا .. وتم ذلك المستحيل بأن توفرت لى قيمة تذكرة الطائرة .. من القاهرة الى بلجراد بعد أن استعملت القطار ذهابا وايابا بدلا من الطائرة ... وحصلت على تأشيرة دخول باريس بمعاونة كبرى مـن

سفارتنا المصرية هناك .. بالرغم من استحالة ذلك فى يوم او أسبوع وحصلت كذلك على تذكرة مخفضة ضمن فوج مسافر .. واصبح كل شيء ميسورا .. وتسكعت ليلة السفر حتى الصباح وحيدا فى أعماق « آلبلاكا » الحى اللاتينى الساهر وغفوت فى ظل بعض النافورات والغابات ثم آويت الى غرفتى بالفندق قابعا فى الفراش لاطير فى الصباح الباكر الى باريس .. والتقى بصاحبى الحميم فى الموعد المحدد ..

وحيث تواعدنا أن نلتقى .. تحت مسلتنا المصرية .. فهذه اول مرة اسافر فيها اليها ولا علم لى بمعالمها ولا لغتها بعد .. وأولى بنا أن يكون اللقاء فى رحاب قطعة من بلادنا تتوسط أكبر الميادين الفرنسية ولا يضل العنوان اليها وافد غريب !

اهتز مسلتنا تساقط من حجارتها شعاعا من بلادى لا يغيب ولن يغيب .

والرآية الحجرية الشمطاء فى أحجارها نبض ستعرفه دمائى والعروق !

وكنت قد أخذت أوتوبيس المطار من مطار « أورلى » الى « الانفيلد » ثم رحلة داخل المترو الأرضى الى ميدان الأوبرا .. حيث تركت حقائبى فى مكتب الطيران .. بعد ان أرهقنى حملها طوال تلك المسافات .. ومن أمام الاوبرا مباشرة لاح من بعيد ميدان « الكونكورد » الشهير حيث ترتفع مسلتنا العجوز .. وكيف لا تكون عجوزا شمطاء وعمرها سبعة آلاف عام ؟..

وفى الثانية تماما .. كنت جالسا على مصطبتنا الحجرية التى ترتكز عليها مسلتنا الفرعونية ساطعة كالنخيل نحيلة كعود القمح شامخة كذرى الهرم ..

كأنها نخلة الفقراء المهاجرة او منارة الغرباء لملاح تائه قذفت أمواج النهر بزورقه الى شاطىء مجهول ..

ولاحت لى ــ مسلتنا المصرية كالام المغتربة على ارض الوطن تفتح لى ذراعيها كأنها تشتم ريح الضفاف تفوح من ثياب أحفادها العابرين ..

وقد ارتفعت قامتها الشماء فى ميدان « الكونكرد » الشهير ومعناه ميدان الوفاق .. وفيه أعدم لويس السادس عشر فى أتون الثورة الفرنسية وذكرت قول شوقى أمير الشعراء وهو يتريض فى حدائق « اللوكسمبرج » وغابات ابو للون ناعم البال والخيال يترنم فيقول :

اميدان الوفاق وكنت تدعى
بميدان العداوة والشقاق
اتدرى اى ذنب انت جان
واى دم ذهبت به مراق
هوى فيك السرير ومن عليه
ومات السائرون وانت باق
اصابوا واستراح « لويس » منهم
لذا سميت ميدان الوفاق

ومن بعيد اقبل صديقى غير مصدق .! وجدنى جالسا فى انتظاره حسب الموعد تماما .. وانطلقنا الى الميدان الكبير ومنه الى الشانزيليه وعبرنا نهر السين ..والكوبرى العتيق ومشينا نعانق معالم باريس الاولى حتى كلت الاقدام فارتمينا فى اول مطعم .. حتى اذا امتلأت المعدة وطاب لنا الاسترخاء .. قمت فأحضرت حقائبى الى فندق « السلام » فى حى « المونبرناس » العتيق .

حى جبل « مونبرناس » احد آلهة الاغريق المشهور بعرافته .. وبمقهى « الدوم » « القبة » الشهير بندوته

والذى كان ملتقى أندريه جيد وجان كوكتو وســارتر وساجان .

وفي المساء اكملنا جولة التعارف الخاطفة بمعـــالم العاصمة الرشيقة .. جسنا عبر الحدائق المترامية .. شباب وبنات فى كل زاوية ومنعطف .. يتراشــقون بالقبلات عند اشارات المرور .! ومجموعات أخرى يحملون على ظهورهم الامتعة الثقيلة وينامون فى أى مكان فى العتبات والارصفة واسوار السفارات ومقاعد الحـدائق الرخامية ومخادع العشب الاخضر .

مشينا حتى المحطة .. القديمة وتجولنا داخلها .. ركبنا المترو تحت الارض الى محطة « أودين » وتهنا .. كنا نرتعد من البرد والوحشة .. مدينة صامتـة تحت الارض لا ترى فيها الا بعض الوجوه السوداء والغريبة تحملق فى صمت . وتتعقب خطوتك فى صمت وتستل من تحت المعطف سكينا لتسطو عليك ..

كان صاحبى عجولا ملولا .. قال لى : ربما طعننا احدهم بمطواة . ولا أحد يحس بنا ونصبح شــهداء بلا قضية !.

غادرنا النفق الارضى مهرولين لاهثين بحثا عن تاكسى مابين سائق سكران مترنح الى آخر أشد سكرا وترنحا وقد أوغل الليل خريفى النسمات بارد الخطوات حتى عدنا الى الفندق مكدودين مرهقين ..

نامت باريس ولم أنم .! فتحت النافذة بالرغم مـن لفحة البرد أطل على الشارع الكبير ، عبثا أنشر الاوراق واطويها ؟ لا شىء سوى التأمل القهرى ، والمبعثر هنـا وهنـاك يحـاول جهـده استيعاب الصــورة واختزان الرؤى وتنشيط الذاكرة المبددة فى سراديب الضـيـاع

والشتات أوشك الصباح .. وشخير صاحبى يعزف المتناحية الشروق .

افترشت الارض وتركت له الوساد الاثير أملا فى غفوة مختلسة .

ها أنت ياباريس نائمة .. وها أنا ساهر الكلمات والورقات كالسيف المسلط فوق احشاء الظلام ؟

وضفائر الشفق الخريفى النبيل تثاءبت خلف الضفاف تذوب فى السين العريق .

يانهر كن لى النيل والربوات والنخلات والهرم العتيق .

خذ من مسلتك النحيلة اعطنى دفئا يدثرنى فبردك واغل حتى العظام !

وجه مصر فى اللوفر

الايام تنفرط كالماء من بين اليدين .. هاهو اليوم الخامس من أيام الرحلة الباريسية وأنا ألهث فى احشاء العاصمة الجميلة ، يكاد البرد يجمد الاطراف ونوبات الصداع الشتائية الرهيبة .. ومحاورات الشمس بين الظهور والاختفاء ماتكاد تسفر عن وجهها وتبعث الدفء .. حتى تحجبها اوجه السحب الداكنة فتبدو الحياة رمادية شاحبة ، وتزداد باريس اغراء وسحرا .

مدينة تعشقها منذ اليوم الاول .. تحتفظ بطابعها الخاص وملامح تاريخها ..

فى الحرب الاخيرة سلم الفرنسيون باريس بلا مقاومة .. وتقبلت عار الاستسلام على أن تدمر مدينتهم الجميلة لتظل عرسا زائفا اقيم على الدم المسفوك .

تكاد تتساوى البيوت فى الارتفاع واللون لا يوجد فوضى فى قامات العمارات ولا اعتداءات على شاطىء السين بسبب انسيابه الهادىء الرقيق وقد تراقصت على امواجه

الزوارق والمراكب المشعة بالضوء والموسيقى .

وكانت أولى الجولات فى الصباح الباكر فى رحاب « اللوفر » درة باريس المتحفية .. وقد امتدت أمامه حدائق « التويلرى » الواسعة الخضراء .. تشغل ميدانين كاملين على نهر السين .. وحيث كانت متنزه الملوك ومقر القصر الفاخر لأكابر أباطرة العرش الفرنسى العريق .

دفعت عشرة فرنكات رسم الدخول لافاجأ باسم مصر فى المدخل الاول أمامى على لافتة بالخط العريق بينما تبدو تمثال « شامبليون » المدخل وكأنه صاحب الحضارة المصرية وحده ..

ويشمل جناح مصر طابقين ونحو خمس عشرة قاعة مرصعة بالتماثيل والحلى والاوانى والنقوش والخطوط والمقاعد والاسلحة القديمة معروضة بشكل فاخر جدا لا تعرفه مصر صاحبته الشرعية ! وافواج المتفرجين مبهورة امام كل حجر واثر ، طفنا ساعتين بجناح مصر وقد اكتظ بغيرنا من الطائفين .

الجناح الآخر للفن الفرنسى ، لوحات من القرن الخامس والسادس للمشاهير القدامى أمثال « دافيد » السقوف عبارة عن لوحات ناطقة ، الجدران والحجرات وعطر النظافة والهدوء يعبق فى المكان ويلفك بعطر الرهبة والجلال .

كيف كان الملوك يتأملون تلك السقوف وهم يتناولون العشاء على الموائد الملكية فى قاعة الطعام التى تبلغ مساحتها فدانا من الارض ! ..

لقد التوت رقبتى وأصابنى الدوار من كثرة التطلع الى السقوف وتأمل رسومها ! .. اى بذخ وترف كان ؟ وكيف

كان الملوك يتنقلون داخل حجرات القصر ؟.. للاطمئنان على اطفالهم الامراء مثلا واقل قاعة تحتاج الى تاكسى . لاجتيازها .!

واخيرا .. وقفنا خاشعين أمام لوحة « الموناليزا » الشهيرة لدافنشي وكأننا واقفون فى محراب .. حيث وضعت وحدها .. فى اطار زجاجى مضىء .. وأحيطت بأسوار من الحبال ووقف الالوف يتأملونها ويطوفون بها كالحجيج وهى تبتسم منا ابتسامتها الشهيرة ..

القاعات لا تنتهى مكيفة الهواء مزودة بالمقاعد والخرائط والكتب ورجال بوليس .. وفتحت قاعة الملوك فى موعدها المحدد « قاعة ابولون » حيث رصت التيجان المرصعة بالجواهر فى توابيت الزجاج والنور : تاج لويس ، تاج نابليون وهو اجملهم ، تاج شارل ، ثم الاوانى والقنانى واكواب الشراب الفضية والذهبية النادرة والدروع العسجدية الذهبية والخوذات ولجم الخيل وكراسى العرش ولوحات بالحجم الكبير للملوك والملكات ومستشاريهم وعشيقاتهم تزين الأركان وتحكى وتحكى ..

وتستمر الجولة فى أنحاء « اللوفر » ست ساعات على الاقدام ، بدون تدخين او طعام .!

فى المساء واصلت الطواف بالحى اللاتينى الشهير .. حيث كان يعيش فان جوخ وجوجان ولوتريك ينفقون النهار فى الرسم ويعودون الى بيوتهم عبر دروب الحى العتيق .. ويعود اسم المكان لجيل القديس الشهير « مارتن » أو مارتنيج المكان يضج بالحياة مزدحم الازقة « والحارات وربوة عالية مرتفعة الدرجات وحوانيت وبارات ومطاعم ومعارض رسم ورسامون من كل لون يرسمونك على الواقف، ومغنون يحملون الجيتار ويتأوهون

.. وشباب يبيع كل شيء وأي شيء مصريون وعــرب يفتتحون محال الفطائر والفول والكباب كنيســة « القلب المقدس » حضرت بها قداس العشاء التماثيل والزخارف والقبات والبلاط وزجاج النوافذ وأجهزة تشرح لك كل شيء من الكنيسة مقابل بعض الفرنكات وبكل اللغات .

الترف الباذخ يحلق في سماء الكنيسة على ايقاع التراتيل والاناشيد ترف منحدر من عصر الملوك البيض وزيف مستعمراتهم من دم السود في افريقيا درة التاجين الفرنسى والانجليزى .

عبرت القنطرة القديمة على كوبرى السين ، أجر قدمى جرا الى فندقى البعيد .. وفى الصباح الباكر حملت حقائبى مرة أخرى الى « الحى اللاتينى » بحثا عن فندق رخيص فى الحى الذى تتوافر فيه الحيـــاة الليليــة الرخيصة .

وبعد جولات قليلة فى « السان ميشال » والرجوع للخرائط المجسمة فوق الارصفة والميادين .. والطواف فى الازقة والدروب .. حارة الفن ، حارة القديســة مادلينا شارع سان جورج ، فكل الفنادق محجوزة وعثرنا على فندق فى نهاية الشوارع الجانبية للسان ميشال .. رخيص نظيف يمتلكه جزائريان رفضا التحدث بالعربيــة وكأننا من سلالة الفرنسيين الذين احتلوهم قرنا من الزمان وليس من سلالة عربية مثلهم .. وكان لابد من تجمــل جفاء المعاملة وسوء الخدمة ، مقابل خفض النفقــات والحصول على وجبة شهية رخيصة هى « ســـاندوتش الصاروخ » الملآن بالسلطة والبطاطس والجبن والقشبطة والخص فى حجم ذراع طفل صغير وبخمسة فرنــكات فقط .

رودان عاشق السين النبيل والسجينى : عاشق النيل الأصيل

طالت الساعات وقوفا فى طوابير الانتظار الطويلة التى احتشدت منذ الصباح الباكر امام « القصر الكبير » حيث يغفو جدنا الاكبر رمسيس قليلا فى قلب باريس بالرغم من البرد والمطر .

عشر فرنكات رسم الدخول لقاء لحظات فى رحاب الفراعين .

وبالرغم من اننى واحد من احفاد الجد الكبير الا اننى ضحيت برسم الدخول وتكبدت العودة ماشيا على الاقدام لالقى نظرة على الوجه العريق وعلى الوجوه العديدة الاخرى التى اقبلت من كل فج تطوف به طواف العشق والانبهار .

وقد تحول القصر الباريسى العتيق الى مهرجان فرعونى مضىء من بهو المدخل حتى باقى المداخل والادوار

فى المدخل مكتبة فرعونية متكاملة .. كتب وخرائط وصور والبومات وشرائح ملونة ولوحات بمختلف الاحجام واللغات الا اللغة المصرية ! والا الكتب المصرية ! ثلاثة طوابق يشغلها « رمسيس » فى قاعات مكيفة الهواء والاضواء التى تشع من الاسقف والزوايا والاركان واصداء ناى وايقاع دف وخرير ساقية وشادوف وشقشقة طيور وموال مصرى جريح وعطر الضفاف يحيل المكان الى مهرجان .. ويكاد يخطف ابصار الناظرين المبهورين بروعة التاريخ .. رأس رمسيس الذهبية فى خيمة من زجاج

مضيء وتماثيله ومهندسوه وافراد عائلته وعربته الحربية وسهامه المسهومة والأساور والخواتم والقلادات والكراسي الملكية والاواني والحلي والعقود والاقراط والمكاحل والمراود والتوابيت والملكات بالحجم الطبيعي الذهبي .. تمثال الكاتب المصرى .. صقر حوريس الذهبي .. يكاد يرفرف بجناحيه ويطير .. غصون الخضرة تتسلق الجدران .. حراس .. مراقبون وعيون سحرية ترصد خطواتك ودار سينما تعرض أفلاما عن مصر القديمة واكثر من مائة قطعة اثرية مصرية في باريس .. يتألق من خلالها وجه مصر ـ عاليا مضيئا .. وقلت لنفسي وانا اغادر المكان : هذه آثارنا تدل علينا .. فلماذا لا تعرض في بلادنا بهذه الروعة وهذا الجلال ؟..

الصباح العاشر في باريس :

سماء باريس الرمادية تحجب وجه الشمس وتنشر ضفائر الضباب على صدر الصبح الجديد والرذاذ الدؤوب يتساقط ويهمي وكأنه دموع الشمس المختنقة خلف أسراب السحاب ويسكب في القلب رعشة خفية لا يعرفها الا قلب الغريب وبدا كل شيء مغتسلا بماء السماء .. ولاح ميدان « الانفيلد » الكبير لامعا نظيفا وفي وسطه انتصب قصر عتيق كان هو مرماى . ومقهى مجاور يحمل اسم «رودان» اويت اليه من المطر مع قدح القهوة الفرنسية حتى كف المطر فدلفت الى المتحف الكبير .

الازهار من كل لون في حديقته تستحم بقطرات الرذاذ وتنشر عبقا واريجا يشدك الى بعيد حيث كانت كف صاحب هذا القصر تسقي الازهار كل صباح ، وتنحت الصخر والاحجار كل مساء .

كف « شوبان » هذه .؟ مست السمع والبصر ام انملات

من اللظى فوق أطرافها نثرت انها كف « رودان » فتى باريس وفنانها الكبير ، وهذا هو بيته الذى صار متحفا غير بعيد من مقبرة نابليون الزجاجية فى مدخل الانفيلد وكأنما جمعتهما عبقرية الجوار هذا بجسده غافيا مع سائر العظماء وذاك بفنه حيا يحج اليه الاشباه ..

واطل من بعيد وجه صديقى العاشق النبيل بلحيته التى تشبه لحية رودان .. أطل وجه « جمال السجينى » من ضفاف النيل وكأنه يعيد على مسامعى نفس الكلمات فى لقائنا الاخير :

« ان رودان فى أعماقى .. لايفلت أبدا خاصة تمثال المفكر والليلة ورقصة الفالس » .

وها أنا ذا أمامها جميعا أتأملها واتطلع الى وجه صديقى الغائب البعيد وأنا فى بيت صاحبه الذى فى الأعماق ..

هاهى صورة « رودان » تتصدر القاعة فى لوحة كبيرة بالألوان رسمها « بلانش » وهاهو تمثال « رودان » الذى نحته عاشق فنه .. « فلاديل » .. وهاهو تمثال المفكر يكاد ينطق بالتأمل والعكوف العميق ..

أى شبه بينهما عجيب ؟ نفس النبضات والملامح والاحجام . تماثيل بحجم الرجال ورءوس لاصدقائه الفنانين ورسائل الأصدقاء من الفنانين والشعراء ، حتى اللوحات التى تغطى الجدران فى بيت رودان بباريس وبيت السجينى فى القاهرة تغلب عليها نفس الالوان البرتقالية والسوداء ورماديات شطحات الخيال . أى ذراع تلك التى نفذت الى الرخام الأبيض والحديد والبازلت لتبعث فيها الحياة ؟

كم أرقنى هذا السؤال وانا ارقب السجينى يكاد يغوص بجسده كله داخل كتلة الحجر ليحولها الى تمثال

حتى ليكاد ينصهر معها فى لحظات ..

وكلما رفت ذراعه بالازميل داخل الصخر الاصم اشفقت على تلك الذراع التى يضنيها الالم الشديد ولكن صاحبها لا يبوح فهو وحده الذى يعشق الصخر والحجر والذى شق قلبه ليطعم الطين والنهر .

اى سر يكمن فى كفه هؤلاء العباقرة لتلمس كتل الجماد الصماء فتبث فى اعطافها روح الحيــاة ونبض الاحياء ؟

كانت الامسيات الدافئة مع جمال السجينى جانبا جميلا آخر فى حياته كفنان كان يتحول الى عاشق اضناه الوجد وسط حبيباته من العرائس ومئات التماثيل التى تملأ زوايا غرفته وأركان بيته ، يحاورها ويناجيها وهى تصغى لعاشقها الغريب .

كان الفن عنده خلية واحدة الايقاع . ولكن النسيج يختلف مابين اللحن واللوحة والقصيدة وكان يحفر أبيات الشعر فوق صدور التماثيل وتحت اقدامها يؤكد بها وحدة هذا الايقاع .

عازف الصخر والحجر :

اى عشق غريب يضنى قلوب العشاق ويتطلب عضلات المصارعين لا رقة الاطفال . وكان السجينى طفلا فى الستين يشع بالصفاء والدهشة والجمال وذراع لوى بها عنق الصلد والحديد فانشطر ولان وانكسر . !

كان شاعرا قايض الحروف والقوافى بكتل الصخر والجرانيت وترك العزف على الأوتار ليجيد العزف على الاحجار :

شاعر غير انه

ينحت الشعر فى صور

كلّ جلمود صخرة
صار فى كفه وتر
وامتزجت الصورتان ، صورة رودان فارس التماثيل بوجه الفيلسوف ولحية الصوفى ، وايقاعات العاشق .
شاعر فر من دوحة الشعر الى كهوف الجبال ليشعل النار فى عروق الصخور ويعزف بريشته موسيقى الألوان ..
على اليمين جناح كبير فخم زجاجي مكيف منسق .. على جدرانه لوحات رودان البرتقالية فى اغلبها والسمراء فى اغلبها الآخر ..
المرأة شغله الشاغل .. بل الجسد حين يتجسد فى رجل أو امرأة ..
« بودلير » يحتل مساحة كبيرة من الجدران .. ديوان « أزهار الشر » بمسوداته وبخطه وامام كل قصيدة رسم لرودان ثم تمثال بودلير وفكتور هوجو .. وصور « كليمانصو » :
التماثيل تكاد تنطق .. والقبلة الرخامية تكاد تسيل من ضلوع الحجر والبازلت آلتى شكلها رودان بأنامله وسكب فيها من روحه ، تنتهى صالة التماثيل الأولى ، الى جناح جانبى به بيوت زجاجية مضيئة بها الخطابات والبرقيات والكتب المهداة لرودان من أصدقائه وشعراء عصره ومسودات اعمالهم .. رسائلهم اليه امثال :
أميل زولا وريلكه ومالارمريه ولويس ستيفنون وكورنى ورومان وموزارت رولانت وتشارلس موريس . أكثر الخطابات من ريلكه وموباسان وأبو لينير وبودلير والفونس دوديه وانا طول فرانس وجوستاف مولر .

***

بجناح آخر تتصدره لوحة بالالوان لرودان .. وقور هادىء لا تبدو عليه البوهيمية بالرغم من ولعه بالخطوط النسائية وتصوير المراة فى مختلف الاوضاع ..

لوحة اميلى بلانش وتمثال « جلا ديل » ثم تماثيله هو التى نحتها وأشهرها آدم وحواء وهى مستلقية عارية تدير له ظهرها وقد أنهكته التجربة .. ثم تمثال فرنسا شابة يافعة نضرة تتجسد فيها ملامح « جان دارك » وتمثال « رقصة الفالس » « وايفا » تكررت فى تماثيله ولوحاته معا ـ حاملة الجرة ـ حاملة الصخر ـ بجماليون وقد دفن وجهه فى صدر فتاته التى خلقها .. رأس موزارت .. وجوستاف مولر ـ تمثال الامومة ـ المقاومة ـ مدام رودان ـ اميليا رودان ابنته الى آخر قائمة التماثيل بحجم الرجل والمراة الطبيعى من الرخام الابيض والاخضر الزاهى .

وتماثيل أخرى صغيرة منمنمة للطفولة والامومة والمراة .. تتألق عبر غابات من الرموز تمر بها بأعين أليفة .

فى ركن من القاعة « البيانو » الخاص به . خشب عتيق عليه تمثال ناصع البياض من المرمر لامراته .. والوف المشاهدين من كل الجنسيات .. ونشرات ولوحات وكروت سياحية وكتب ملونة وأقلام .. بكل اللغات وبمختلف الاسعار ورسم دخول قدره خمسة فرنكات .. وعائد مادى لم يظفر به رودان وهو حى .. ولم يظفر به السجينى حيا أو ميتا ! ..

وعبرت الحديقة الفيحاء ، وقد هبت رعشة البرد والضباب ، وفاحت زجاجات عطر بودلير قوية تنفذ الى المسام وكأنها تخترق الزجاج الناعمة والذكريات القديمة.

ودار فى رأسى عطر قديم لذكريات آخر الامسيات مع

السجينى وهو يتحدث عن رحلة العمر الذى يقرب من ثمانين تمثالا .. وكأنها ثمانون قصيدة يحفظهـا عن ظهر قلب ..

رحلة بدأت من حارة « الطشتوشى » بحى باب الشعرية حتى يلتقى بمختار ويوسف كامل فيضعهما فى الاعماق بجانب رودان .. وحتى تعرض أعماله فى متحف بوشكين بموسكو وبكين وروما وأثينا وباريس .. وآنتهت فى أحد فنادق مدريد .

وتذكرت كلماته وهو يقول وكأنما يملى وصيته الاخيرة .. قبيل رحلتى لباريس ونصيحته لى بأن أرى متحف رودان وأذكره هناك :

كنت أنظر لجبل المقطم وأتمنى لو أنحته كله ..

والآن أنظر اليه وقد تحول الى مقابر يرقد فيها أهلى .. وجاء الدور على لأرقد بجوارهم !

ولكنه اختار أن يغمض عينيه بعيدة عن سماء مصر ، هناك فى موطن رفاقه الرواد ، جويا .وبيكاسو ولوركا . حيث كان يستعد لاقامة معرضه الاخير فى العاصمة الاسبانية « مدريد » .

حيث سقط السجينى فجأة وعلى غير موعد ، فى غفوة أبدية ومازال فى أوتاره ألحان لم يعزفها على قيثارته الصخرية بعد ..

فوق « مدريد » اخفقة
آخر العهد بالسفر
قام « جويا » مودعا
لرفيق له عبر
وبكاه بشعره
طفل « غرناطة » الغجر !

باريس والمدن الجميلة كالنساء

مازالت باريس عقد الرحلة الماسى ، تتوالى بها الايام والليالى فى حرية وانطلاق لا مؤتمرات رسمية ، ولا ندوات أدبية ولا حفلات استقبال وانما طواف بلا قيود وعلى نفقتى الخاصة وكيفما اتفق .

هاهو حي « البيجال » الشهير ، حى الملاهى وتجارة الجنس والمتعة الرخيصة وهاهو مطعم « مكسيم » العالمى و « الطاحونة الحمراء » « لوحة فان جوخ » الشهيرة التى صارت عنوانا للملهى الليلى الباريسي الشهير وصــالات الرقص والقمار ، وحوانيت الكتب والمجلات العــارية . والناس فى الشوارع يستعملون شفاههم أكثر مما يستعملون اى شيء آخر فى الأكل والثرثرة والقبلات !.

كنيسة « نوتردام » وحديقتها الواسعة ، وكبارى نهر السين الذى يوازى ربع نهر النيل العريق ، نقل الفرنسيون اجمل آثارنا ولم يكن باقيا الا ان ينقلوا نهر النيل !. ذكرت « فيكتور هوجو » الشاعر الكبير ورائعته « أحدب نوتردام » والتى كانت مقررة علينا فى المرحلة الثانوية وكم حلمت ايامها ان أرى تلك الكنيسة التى خلدها هوجو فى رائعته ، جلست فى الحديقة .. وقد تناثرت فيهـــا جوقات الشباب من الجنسين يغنون على آلة غريبة أشبه بالاورج ولها صوت السمسمية ، بعضهم قال شعرا ، والقى خطبة . فتيات ناضرات قرأن أشعار لبودليير وملارميه

امرأة عجوز غنت بصوت متحشرج مشروخ ، جمهور كبير ما الحكاية ؟ مجموعة من الهواة الصعاليك يفضلون جوار الكاتدرائية على شاشة التليفزيون والراديو والصحف فيعرضون لوحاتهم ويرعقون بآرائهم ويقرأون أشعارهم ويغنون أغانيهم ولا يعرف بعضهم بعضا .. وانما ربطتهم رابطة الرحلة والاكتشاف . ومهاجمة أعـــداء السلام والحرية .

للسود فقط

مطعم خاص للسود فقط « هكذا كانت اللافتة » للسود فقط في حي « سان جورج » طرقت الباب فتحت لي زنجية حسناء ، دخلت تجمهروا حولي ورفضوا دخولي لانني لست أسود والمكان خاص بالسود فقط وادعيت انني أسود اللون ، أو أسمره على الاقل وعزفت على وتر القارة المشترك « أفريقيا السمراء » وقرأت أشعارا لعنترة وسحيم وجيمس بالدوين وسنجور بلا جدوى ! ورفضوا لان الشرط هو سواد اللون . وكأن السواد جنسية خاصة لا لون .

ما الفرق بين الاسود والاسمر ؟. أليس كلاهما ضد الابيض ؟ رفضوا هذا المنطق أيضا ..!

تعاطفت معي بعض السوداوات وأيدن وجهة نظري ورقت قلوبهن للأشعار ورفضن الرجال السود وأصروا على تنفيذ الشعار . مهما كانت المبررات والأعذار .

وطال بيننا الحوار رفضوا وجه الافريقي . كشفت لهم عن وجه الصحفي بعد أن رفضوا وجه الشاعر أملا في حوار معهم يصلح للنشر ، ورفضوا أيضا .

عدت للشعر مرة أخرى قلت لهم أنني صديق «سنجور» عصفور افريقيا الاسود وجمعنا معا مهرجان الشـــعر

العالمي في « اشتروجا » وانني صديق شاعرهم الضال « جان بيريفيير » الذي رافقته سبع ليالي في مسروج مقذونيا الخضراء وذكرت لهم أبياتا من قصيدته « كي ترسم عصفوراً » ..

رفضوا كل العروض .. فهذه مملكتهم الليلية السوداء ولا يفتحها الا أبناء جلودهم السود ، ولج بنا الحوار حتى كاد الامر أن يتطور الى أشتباك وعراك وتوقفت الموسيقى وتجمع رواد المطعم كأنني جنس ثالث كريه سيلوث المكان المخصص للسود وكأنهم جنس أرى ولم أغضب سعدت بالمحاولة واحترمت أخوة اللون واعتزازهم بالزنوجة وغادرت المكان وأنا اقول لنفسي :

« والحق أن السواد أول والبياض طارىء ففي غيبة النور وهو مصنوع لا يكون الا الكلام والظلام ملء الارحام وملء القبور فهو أول وآخر والمتنبي يقول : « انما الجلد ملبس،وابيضاض النفس خير من أبيضاض القباب »وغير بعيد وقف صديقي بقامته العالية شامتا وهو يقول :

ذات مرة سيذبحك أحدهم او تنال علقة ساخنة حتى تكف .

أيام عجفاء من السندوتشات وفطائر الصويا والمشي على الأقدام من متحف رودان الى الانفيلد قصر وزارة الدفاع الفرنسية المبنى عتيق ضخم فسيح وميدان أفسح وطابقان بهما كل النماذج الحربية والمعارك الفرنسية مدافع من طراز عام ١٨٠٠ فرنسية بالرسوم وتماثيل دبابات وهياكل عربات .. تمثال « نابليون » بالحجم الطبيعي يتصدر المبنى حجرات طويلة حوائطها مزينة بلوحات نقش فوقها أسماء ابطال وشهداء فرنسا في معركة

« البريتون » واستشهد فيها وحدها أربعمائة وخمسون الفا من الشهداء »

ومن الانفيلد الى « برج ايفل » مسافة اربعين دقيقة سيرا على الاقدام وقد كلت وتجمدت وكل متنى بدوره وعربدت آلام « النقرس » آلعين متنى ومالت الشمس أو كادت فعاودنى شوقى الى النيل وقد لاح برج ايفل على شاطىء نهر السين وسط حديقة واسعة فيحاء وهبت نسمات رصينة ناعمة كأنها نسمات الصيف القاهرية .. ونشرت الشمس فرعا من جدائل ضوئها الوثير ولاحت سماء باريس الرمادية لاول مرة ناصعة صافية .

البرج من حديد مشغول مفتول كأنه تمثال ضخم الجسم صب فيه صاحبه دماءه وعرقه فجوف من الجهات الاربع فسيح القوائم يستطيل ويعلو حتى ينتهى الى عود نحيل فى النهاية يشب نحو السماء .

حديقة ونافورات واكشاك سياحية ومقاعد وتلفريك ومطعم سياحى فى الطابق الثانى من البرج والوف طوابير السياح ومبنى لادارة البرج وتمثال يتوسط الحديقة ذهبى الشكل باريسى القسمات نقش تحته اسم « جوستاف ايفل ١٨٣٢ — ١٩٢٣ » ..

آن الرحيل . الثامنة صباحا وباريس تغتسل بالمطر عارية من مساحيق الليل بعد شمس يومين رائعين الرذاذ يتساقط بلا انقطاع ، الشوارع لامعة السماء رمادية داكنة الشمس تتوارى وراء السحب . ولذعة البرد الخفيفة تتسلل الى الاطراف من جديد .

سرت مسيرة الطواف الاخيرة بشوارع السربون والحى اللاتينى العتيق . القى نظرة الوداع على باريس وهى تتثاءب تنفض الكرى عن عيونها الساحرة . وفجأة مرقت

عربة زاعقة الابراق فى غسق الليل ومعها حشرجات غناء يقول : « السح الدح امبو » .. و « ياعم يا بتاع الجمال » « وزحمة يادنيا زحمة » وتلفت وأنا أتساءل هل تطورت باريس فى عالم الاغنية حتى تطرب لمثل هذه الاغنيات وتذيعها فى الصباح الباكر أم تطورت أغانينا الهابطة فغزت باريس ؟ ونظرت فاذا بنخبة ساهرة ضاحكة من الشباب المصرى تلهو وتلعب وتطلق رآديو السيارة على آخره .. وتمرق بالعربة فى أزقة باريس الفاقية وتطوف في الميدان الكبير فى غفلة من عيون البوليس الفرنسي وكأنهم في بولاق او حى عابدين يتسابقون ويمرقون فى الازقة دون مبالاة !.

القيت نظرة أخيرة علي فندق « فلاندنا » بشارع « جولز » ورأيت لاول مرة تلك اللافتة الرخامية على أبوابه والتى تقول : أن شاعرا ما ليس مشهورا ولا أذكر اسمه قد مر بهذا الفندق وقضى عدة ليال فيه .. وقلت لنفسي ولصاحبى الحميم :

لك أن تفخر بصديقك الشاعر .. فأسماء الشعراء تسجل على لافتات الفنادق ولا تسجل أسماء الروائيين أمثالك .!

ربما شفعت لك صحبة الشعرآء فنقشوا اسمك بجوارى على لوحة رخامية !

وانطلقت وعلى شفتى أصداء قصيدة جديدة لباريس :

ها أنت ياباريس
وها انا طائر رغمي
بعيدا عن صباحك والمساء
ها انت ياباريس والمدن الجميلة كالنساء ...
وكنت لى أحلى النساء .!

كل الطرق تـؤدى الى لندن .. من روما . فيا قلبى لا تحزن !

كانت هذه هى المرة الاولى التى اطأ فيهـا أرض الرومان ولم تكن المرة الاولى التى طار اليها الخيال من خلال رحلة السطور والكتب فى خضارة روما .

هبطنا مطار « دافنشى » فى المساء ، ولم أجد أحدا فى الانتظار بالرغم من رسائل « الحقيبة الدبلوماسية » الى الاكاديمية ، وضعت حقائبى جانبا وبحثت عن عملة للتليفون ولم أجد .!

ناشدت الايطاليين الموجودين فى المطار شيئا من هذه العملة وهى نصف ليرة فضية لا تساوى شلنا رفضوا اعطائى اياها لا أحد يعبأ بك مجرد هزة استخفاف ويسرع الخطى دون رد سؤالك أو نجدتك .!

أخيرا تطوع أحد عمال نظافة المطار ونفحنى بها ، ولم تفلح محاولة التليفون فالاكاديمية مغلقة والمكتب الثقافى في أجازة ، اخذت أوتوبيس المطار الى ميدان المحطة ومنها تاكسي الى شارع « أوميرو » بحدائق بورجيزى حيث مبنى بيتنا المصرى هناك وهو الاكاديمية المصرية .

رطن سائق التاكسي لى ورطنت له ولا لغة بيننا واندفع يكتب فاتورة طويلة ويتحدث ويزعق على طريقة الافلام الايطالية وانا أبادله نفس الزعيق شافعا قولى بالاشارة راسما له الكلمات دون أن يفهم أحدنا حديث الاخر .

زعقت على صديقى الذى سبقنى فى الرحلة اليها وكان على علم بموعد الطائرة واتفاق على نزولنا معا فى نفس

المكان لم يرد .. قرعنا الاجراس لا أحد . عاودت النداء بالصراخ وسائق التاكسى يصرخ بدوره يريد الحساب والعداد يسجل الدقائق الضائعة .

زعقت بأعلى الصوت انادى ليفتحوا لنا الابواب لاصدى لشيء كان محالا أن أعود ادراجى بنفس التاكسى الى احد الفنادق فقد انتصف الليل وانهمر المطر ولا احتمال لوجود مكان فى هذا الوقت وكنت واثقا ان زميل السفر نائم فى الاكاديمية ولابد أن يستجيب للنداء عبثا أغمض عينيه واذنيه وتنكر كالجبناء .!

واخيرا اقبل بعض الشباب مهرولين ، وسائق التاكسى يرطن ويبرطم والفاتورة تتضاعف على حساب العداد .

فاليوم عطلة وللوقوف الطويل ثمن وللحقائب ثمن وللضرائب فوائد فوق ذلك علاوة على الاكرامية ، ودفعت مرغما ودخلت من باب الاكاديمية لاشم ريح مصر فى تمثال « الحمامة » التى يتوسط حديقتها الخضراء الذى صنعه الفنان المصرى « آدم حنين » حيث وقفت الحمامة الصخرية وحيدة بلا أليف على غصنها الحجرى وعشها الصخرى تغنى وتهدل فى صمت أعجمى وكأنها تستقبل هذا الوافد الغريب مثلها .

وذكرت قول الاعرابى المجهول شاعر تلك الابيات الرقيقة :

الا قاتل الله الحمامة غدوة
على الغصن واذا هيجت حين غنت
تغنت بصوت أعجمى فهيجت
هواى الذى كانت ضلوعى اكنت
فما سكنت حتى آويت لصوتها
وقلت أرى تلك الحمامة جنت

ولم تجن الحمامة فهى حجرية صماء — وليست قمرية غناء ، ولكن كدت أجن من نكران الصديق الذى آوى الى غرفته قريرا راضيا وصم أذنيه عن النداء .

تنفست الصعداء وعانقت وجه مصر فى شبابها المغترب وحملوا حقائبى وافردوا لى غرفة فى الطابق الثانى ولا يوجد مسئول واحد يعلم بأمر المبيت المفاجىء فى الاكاديمية . فقد خف الجميع الى مهرجان « فينسيا » السينمائى — يستجمون ويحكمون ويتسوقون ولولا أن سمع صراخنا المصرى هؤلاء الطلاب المصريون ففتحوا لنا الابواب لهمت على وجهى فى ليل روما الرهيب .

تعرفنا سريعا ، واقترحت أن نخرج فى جولة سريعة عابرة لنعانق روما فى منتصف الليل نذود عنا البرد والمطر بدفء الطعام والشراب .

واخترقنا حدائق بوجيزى الشاسعة على الاقدام ، وعبرنا بوابة « السان دى بوبولو « المسلة » ودلفنا الى الشارع الكبير متجهين الى أحد المطاعم الساهرة .

مرت الليلة الاولى ، ومرت بعدها ليال عشر فى روما من التجوال والطواف وأنا نزيل الاكاديمية فى غرفة واسعة من طابقين تطل على الحديقة الفيحاء وكأننى أملك حق الاقامة على أرض مصرية وأن كانت غريبة الديار .

عمر الاكاديمية خمسون عاما منذ قرر ملك ايطاليا أن يمنح قطعة مجانية لمن يريد أن يبنى أكاديمية وقد كان وارتفعت اكاديمية مصر وسط أكاديمية روما والاكاديمية البلجيكية واكاديمية فرنسا .

وكان أول مدير لها الفنان التشكيلى « سحاب »

فى الصباح التالى التقيت بزميلى المصرى الذى صم أذنيه عن نداءات ليلة الوصول بالرغم من اتفاقنا المسبق

فى القاهرة والمشفوع بليلة ساهرة تبادلنا فيها انخاب الشعر والقصة والادب الشعبى .

التقيت به يتبختر فى ممرات الحديقة ــ ومعه ولده ــ قصيرا سميكا عليه قطيفة من نسج أضراسه كما يقول الجاحظ ، خفيض الصوت مراوغ النبرة والنظرة وكأنه فوجىء بى سائلا :

ــ أين كنت بالامس وقد ملأت شارع « عمر الخيام » حيث تقع الاكاديمية صراخا وزعيقا حتى خف لى النيام من طلبة البدروم ، أو لم تسمع وهل نسيت موعدنا فى القاهرة ؟

وتلعثم وهو يقول : اونت صاحب الزعيق الليلى ؟ لقد ظننتك ايطاليا فى مشاجرة ليلية على عادة اهل روما وانا كما تعرف أتجنب مثل هذه الخناقات وقلت له : وهل أهل روما يتشاجرون باللغة العربية وينادون على الاسماء المصرية فى آخر الليل ؟

التف حول نفسه كالدودة فى اغشية الامعاء وهو يسوق المعاذير الزئبقية ويسترسل فى التبرير : وايقنت أن الغربة تفرز الاصدقاء وتكشف عن معدن أصالة الرجال وان ابناء الوطن الواحد قد يلتقون معا على أرض بلادهم ولكنهم يلبسون الاقنعة بعيدا عنها . .

وما لبث صديقى المراوغ أن اختفى فى دروب روما دون رجعة .

***

وجوه مصرية وعربية ، تحتشد فى مهرجانات روما الخريفية فى شهر أكتوبر المجيد .

«ندوة البحر الابيض» « مهرجان فينيسيا السينمائى » ،

معرض الفنون التشكيلية العالمي ، اوبرات فردي العالمية ، والحجز قبلها بشهور .

د . مصطفى بدوى الاستاذ بجامعة اكسفورد .. والمعيد القديم بجامعة الاسكندرية وصديق تلك الايام وانا طالب بها .. وكلانا شاعر على الطريق بعد .

د . لويس عوض واميل حبيبي الكاتب الفلسطيني الجهير والشاعرة سلمى الخضراء وأدونيس الشاعر شاحب الوجه تائه النظرات والمستشرقة الرقيقة الحالمة « هيلاى كلباترك » والمستشرق الامريكى الشاب « جوزيف بيل » شبيه يوسف السباعى قامة وشكلا .

كلهم احتشدوا .. في تلك الندوة برئاسة الدكتور « هانتر » ، عميد الجامعة الامريكية في مصر سابقا ومعهم وفد يهودي برئاسة دكتون موريه عميد الدراسات العربية بجامعة اسرائيل .. الذى كان يلهث بين الجميع ليجرى معهم الاحاديث الصحفية ويغريهم بترجمة اعمالهم

وانزويت بعيداً . واشتريت طعاماً وفاكهة وزادا يكفيني في غرفتي بالاكاديمية ويقيني شر غلاء المطاعم الرومانية ووضعت برنامجا لمشاهدة روما ، وضواحيها ودروبها القديمة والفاتيكان العظيمة .

استخدمت ترام رقم « ٣٠ » مثل ترام شبرا القديم والاتوبيس مابين « فيلمنيو » الى « ميدان كولونو » حيث رئاسة الجمهورية ثم اتوبيس « ٤٩ » الى المحطة « ستاسيا » وغيره لميدان فينسيا نهاية الخط او استعمال في الاحوال النادرة الى فيلامنيو القديمة ووجبة عشاء دافئة بعد الوقوف في طابور طويل امام مطعم « الفم الصغير » السياحى الشهير حيث اكوام من طرح البحر وقواقعه واعشابه وفواكهه وأسماكه وحيتانه وأم الخلول

والارز بالكارى والجمبرى والكابوريا والاسباكتى بقطع اللحم الشهية وسلطات الكرفس وزيوت خيرات البحر ودهونه ومشتقات الاخطبوط وسلال العنب الرائع والتفاح والموز وشجرة الاناناس الخضراء وقوارير الانبذة المراقة بلا حساب ومختلف انواع الجبن والزيتون والمشهيات ساعات من تناول الطعام والشراب والغناء والرقص فى ضوء الشموع وقد عبق المطعم الصغير بروائح الطعام والدخان التى تكاثفت عبر سقفه الخشبى التى تدلت منه ديكورات السفن وشعارات القراصنة والزجاجات المعلقة والرايات السوداء والقناديل الراعشة الضوء ولوحات فى كل ركن وجدار وحركة سريعة متدفقة بين « المطبخ » الذى يديره مصريون وبين « الطلاينة » الذين يمرقون فى الزحام حاملين اطباق الطعام فى خفة وحيوية وابتسامة ترحيب وكان شعب روما كله ينفق ثلث عمره على موائد وحيوية الطعام والضحك الجميل .

كان ذلك أقصى ما أنعم به على نفسى بعد أيام التقشف والاعتكاف الطويل فى غرفتى مسترخيا متأملا اسرح البصر فى حديقة الاكاديمية الفناء واعود الى التأمل الطويل والاسترخاء بعد طول عناء فى متاهات العمل الصحفى وصراعات نيل الجائزة ودوار العاصمة اليومى .

« جولات وجولات عشوائية مشيا على الاقدام حتى اضل الطريق فلا اعدم مقعدا فى حديقة اجلس عليه خالصا فعلى استرق النظر الى العشاق الفانين فى دفء الاحضان تحت رذاذ المطر واواصل السير بين أسواق روما القديمة وكنائسها وميادينها والتسكع طويلا حول اشهر النافورات « بيازا نافورنا » حيث الكنيسة العتيقة وتمثال «بورنيتى» المشهور الذى صمم معظم نافورات روما

واشترك فى بناء الفاتيكان . والذى يمثل عدة أجساد قوية تخترقها نخلة باسقة تتجمع حولها وتصبح رمزا لتجمع العالم هنا ..

وفوق التمثال مسلة رومانية وليست مصرية يعلوها الصليب وهو تقليعة أمر بها البابا فوق كل مسلة وفى هذا الميدان الكبير يجتمع السواح واهل الفن فى عروض موسيقية ومسرحية فى العراء وخاصة فن البانتونيم ..

ويموج الميدان بالرقص والموسيقى ويندفع الشباب يدفعون عرباتهم المجهزة تقدم الطعام والشراب وتتحول الى مسرح لفرقة الموسيقى .

وغير بعيد يرتفع مبنى « البانتوم » الكبير ذو القبة العتيقة مجتمع الديانات فى روما القديمة ومجلس الشيوخ القديم ..

وينهمر المطر ويخف الناس الى المطاعم والمقاهى .. وتناول الطرطوفة ! فى عز البرد ، وهو طبق جيلاتى شيكولاته فاخر بالكريمة لا أستطيع التهامه كاملا وأنا ارتعد من البرد واستحم بماء المطر وتتابع الجولات الى « تراى ستفرى » والضفة الاخرى من نهر « التنر » الذى يجيء ذكره كثيرا فى جداول الكلمات المتقاطعة !

والذى لايزيد عن « ربع النيل » تقريبا ولكن الحفاوة به تصل الى حد المبالغة حيث تمتد الكبارى والقناطر وقد رصف الشاطيء بالخضرة والورود ومخادع العشاق وقد انسابت الزوارق والمراكب الشراعية والمطاعم الصغيرة الأنيقة ثم ميدان « سانت مارية » كعبة الزائرين والساهرين والنشالين والقوادين وصعاليك آخر الليل من لاعبى الثلاث ورقات والفتوات وبائعى كل أصناف

المخدرات علنـــا من أنواع الحقن والمورفين والهـــوريين والاقراص والقنب والافيون .

وقد انتشرت طوابير البغايا من كل لون وقد غســل المطر شعورهن وأذاب المساحيق وقد لعب بهن الشراب ودب فى عيونهن الخدر وشبق النداء !

ودقت أجراس الكاتدرائية العتيقة الساعة الثانية عشر الا ربعا ايذانا باغلاق أبواب المتحف الذى تنتهى زيارته فى الثانية الا عشر دقائق ..

وخرجت ودوار القرون الاولى يتلعب برأسى ، وغادرت الربوة العالية تحت أسوار الفاتيكان التى احتشدت على امتدادها عربات العاديات التذكارية والشطائر والقهوة والباعة الجوالون لأسترخى فى الحديقة الواسعة التى تمتد من واجهة المبنى حتى شارع الترام .. وتنتشر خلالها الاشجار المخروطية الباسقة وتتشعب طرقاتها عبر صفوف من أشجار الكافور والجازورين والصنوبر وقد لاحت من بعيد « قبة الفاتيكان » وكأنها حصن خرافى الظلال يطير به جنى مسحور عبر القرون والعصور ..

***

آن لى الرحيل . لم تعد روما تحتملنى ولم أعد أحتمل بردها والضياع ولا طرقات الريح العاوية طوال الليل على باب غرفتى ولا وحدة المقام وغربة الصحو والمنــام وقد لاحت لى الاكاديمية المصرية وقد خلت من الزائرين سوأى جدرانا صماء تحتوينى فى ظلام الليل وحيداً فى طــابق وحيد ..

ولاحت لى روما كالغانية اللعوب تلهو بالقلوب والالباب وآن لى الفكاك من براثنها الفاتكة الاظافر والانياب .

وأخيرا « سينما الجنس » المجاورة فى ميدان المحطة

ومقاهى الشارع العتيق وملاهيه المتوارية وعصابات الليل التى تحتال عليك وتسلبك ارادتك لتدخل علب الليل ومواخير المتعة الرخيصة . بالاكراه .

ومقهى « دوميه » أشهر واغلى مقاهى روما . وملتقى العرب والاثرياء . « ميدان أوجست » والدرجات العتيقة الصاعدة الى أعلى الحى واسمه الجبل وترتفع فيه مسلة مصرية بين أربع عشرة مسلة تناثرت حولها عربات الحنطور والمشارب والمطاعم كنيسة « سانت مارية » ذات الابواب الثلاثة كل باب يفتح عند مرور ٣٣ سنة « عمر المسيح » ويستمر العمل به .

تحت قبة الفاتيكان

زرت الفاتيكان ، وقلت لنفسى : مكابدة يومين متتاليين .. أم مائتين وسبعين عاما استغرقت بناء الفاتيكان مدينة مستقلة فى أقصى العاصمة بناها أمهر المهندسين وكبار الفنانين كان ذلك يوم الاثنين وفاتنى الدخول المجانى حيث يباح الدخول لزيارتها الاحد الاخير من كل شهر .

السلالم الدائرية الحلزونية التى تصيبك بالدوار وأنت تصعدها الى المتحف ، خريطة ملونة بالحروف الابجدية ، لوحات جاليرى ، وتمثال البابا ، وقاعة اللوحات الكنسية والقديسين ، ولوحة كبيرة من خمسة أجزاء « جلفانو نيوقولا » كل قاعة تؤدى الى الاخرى ولوحات من النسيج تغطى الحائط والمقاعد البابوية والسقوف العالية المزركشة بالذهب والياقوت المحروقى ، سقف الصالة الكبرى من الزجاج المزخرف النادر تكاد تشعله أشعة الشمس .

اجمل اللوحات « روفاييل » من ثلاث قطع وصالات

متفرعة لدافنشي وجلفاتيا بيلثو ولوحة فرانسيسكو والراهبة المتوسلة والدماء والدموع .

واخرى طبيعية صامتة رسمها « بلفيدركه » ولوحة سيرتوماس « لجاليري » وتمثال الرحمة لانجلو .. الذي رسم سقف الكنيسة نائما على ظهره طوال خمسة أعوام .

قاعة كبرى للتماثيل القديمة المهشمة الاعضاء وتعود اغلبها للعصر الروماني القديم ..

مجموعة تماثيل « سوفكل » و « أيكر بون » واجملها تمثال « هوميروس » ذو الوجه المشطور من الرخام المصقول ..

وتستمر الجولة — في أنحاء الفاتيكان على مدى يومين بلا ملل ، قاعة التماثيل الرخامية ، أعمدة من الرخام النادر ، بقايا رءوس رجال التاريخ القدامى والفلاسفة .

واخيرا المطعم الانيق في سطح الدار جنوني الاسعار ومكتب بريد وتليفون دولي وبنك فوري ومكتبة ثم الحديقة الشاسعة والنافورة العريقة ، وتماثيل الرومان تتناثر عبر اسوارها وتحت كل تمثال لوحة رخامية . وشرفات واسعة بكل شرفة شجرة تشق عروق الرخام « وبار » رائع ملحق بالمطعم في قلب الكنيسة المقدسة ومن بعيد تبدو القبة الفاتيكانية الشهيرة .. والنوافذ الزجاجية الصامتة حيث مملكة البابا المقدسة .

غريب فى حى سوهو !

أدرت رقم التليفون وجاءنى صوته من بعيد . من أعماق احدى الضواحى فى لندن وهو يزعق زعقتـه الريفية غير مصدق :

أين أنت ؟

هنا فى روما . وقادم غدا الى عاصمة الانجليز .

وأقسم « فارق منيب » بالطلاق ثلاثا أن أكون ضيفه وانزل عليه ثم نتدبر فيما بعد امر الاقامة وعلى ان اركب اتوبيس المطار الى وسط المدينة وانزل فى محطة « هارو » ومنها استقل تاكسيا الى شارع « هارولاى » حيث يقيم .

وودعت روما غير آسف !. بردها القارص والشتاء ولصوصها الظرفاء والضجيج والعبث والفلاء ، والوجوه المصرية من نزلاء الاكاديمية الغرباء وسوقية اجراءات مطار « دافنشى » العالمى واللهاث بين مكاتبه العديدة حيث جلست عاملات الطيران الايطالى تلاقفك واحدة الى اخرى وهن يرطن ويطرقعن الكلمات مع طرقعات اللادن وقد اوشكت الطائرة على الاقلاع لولا تدخل رجل أمن أمين اجبر واحدة من العاملات على انهاء اجراءات التذكرة وشحن الحقيبة ولحقت بالطائرة فى اللحظات الاخيرة .

وطرت الى لندن ، وفى دقائق انتهت اجراءات المطار الكبير « أوثرون » فى آدب جم وابتسامة ترحيب .

ونفذت كل ما أمرني به فاروق حتى لايقع فى اثم يمين الطلاق .

انتظرت قليلا وقد لفحني برد لندن الانجليزى حتى وصل الاتوبيس بعد أن غيرت بعض العملات وحملنى الى وسط المدينة ومنها الى العنوان وقد زحف الليل وغفت غصون الشجر التى تظلل الشارع وحدائق البيوت وناديت بأعلى الصوت وقد وقف التاكسى أمام رقم ٢٨ : فاروق . فاروق كما كنا نناديه أمام بيته فى حلوان آخر الليل وجاءنى صوته من داخل البيت : ادخل .

وأسرع ولده « خالد » يحمل حقيبتى وقد خفت زوجته الى تستقبلنى بابتسامة راضية .

وكان لقاء !

وجدته كالعهد به - بقامته الفارعة ووجهه الريفى وبسمته العارية وضحكته العالية ممددا فى سرير أبيض فى غرفة الكلى وقد تشابكت وتداخلت حول جسده وفى عروقه مجموعة من الابر والاسلاك والأنابيب وقنانى الدم وبالونات الهواء وقد استلقى فى هدوء تاركا ذراعيه وقدميه وسائر جسده لهذه التوصيلات المعقدة وهب يريد الوقوف لمعانقتى كأنه أسد مكبل بسلاسل الحديد يحاول أن يجرها وراءه ليثبت أنه مازال ملك الغابة .

فزعت من المنظر .. واشرت اليه أن يبقى كما هو .

وجلست غير بعيد منه وهو يطلق التحيات والسلامات والضحكات من سريره الأبيض وانا أحدثه وأراقبه ونحكى عن اخبار القاهرة حتي انهى عملية « غسيل الكلى » الاسبوعى وبدأ ينزع كل ماغرسه فى جسده من أشياء فى صبر وثقة وقام بقياس الحرارة والنبض والوزن

والضغط وسجل كل ذلك في لوحة معلقة على سريره ثم قراها على طبيبه المعالج بالتليفون وأبلغه بنشرته الصحية وكأنه طبيب آخر ومريض في نفس الوقت .

وانتفض فاروق واقفا بعد أن فك قيود أسره فارع القامة متهلل القسمات وعلى ذراعيه بصمات قطرات الدم لم تجف بعد .. لنتعانق طويلا وهو يقهقهه ويتمتم بالتعليقات وينبش ذكريات الشباب القديم .

وقد وقفت زوجته الصامدة في صمت وجلد ترقب المنظر وتجمع النفايات التى ملأت ارض الحجرة من لفافات القطن الملوثة بالدم وفوارغ الابر وقوارير الادوية وبالونات الاكسيجين وعلب الدم وتنظيف جهاز الكلى الرهيب وتغسله وهو شبه غرفة صغيرة ملحقة بحديقة المنزل الخلفية يعيش من خلالها فاروق ويتنفس الحياة طوال اثنى عشر عاما ويتكفل بتكاليفها الباهظة مصر وبعض اجاويد العرب . وياويله حين تتوقف هذه الاعانات فتتوقف معها حياته أو تكاد .

وتألق فاروق .. كان مزودا بطاقة علاجية جديدة وجبة من الصحة والعافية تدفقت في وجنتيه واشراقة وجهه وطلاقة لسانه .. وجبة يلتهمها مرتين كل أسبوع يعدها بنفسه بعد أن دربه الاطباء على طريقة اعدادها .

وتناولنا عشاء من الفول المدمس والجبن ... وكأننا نتسكع في حي الحسين ساهرين حتى الصباح نحكي ونطرب ونشرب ونضحك ونثرثر وقد افترشنا الارض بجوار المدفأة وكأنه الوداع الأخير .

فبعدها .. رحل فاروق مليب صديق القرية ورفيق المدينة بأشهر معدودات !

***

من يومها بقيت رحلة لندن معلقة خلف أذني مدفونة في أوراقي اهرب من أصدائها العادية وأشباحها الضارية واتكاسل عن تسجيلها بعد أن كدت أفرغ من السرد والتسجيل .

كنت أدخر جروف الرحلة في صندوق الصمت طويلا حتى تعتق وتدب فيها الحياة فتخرج حية على الورق . اثقب لها يراع الناي فتتلوى راقصة زاحفة من جحرها الدفين لتريق دمها فوق الورقات وقد فات عليها حين من الدهر يطول أو يقصر ولكن لا يفلت حبلها من يدي أو تطمس معالمها في زحام السفر .

وظلت أيام لندن راكدة في الاعماق وقد توالت عليها رحلات ورحلات فققدت اسبقيتها في التدوين وتوارت وراء تتابع الاعوام وكادت تخبو جذوة الكلمات ..

عشرون يوما في صقيع شتائها ووحدة الطواف بارجائها يلفني ضباب الرؤى وافتقاد الانس والرفيق .

فقد تركت فاروق في عالمه الليلي بعد القائنا الاول ثم جولة نهارية حيث حجز لي شقة من أحد الاصدقاء المصريين رخيصة الثمن في وسط المدينة وما أن وضعت حقائبي فيها فرحا بسعرها ونظافتها حتى بادرني صاحبها بعدة نصائح جادة جعلتني احمل حقائبي مرة أخرى بحثا عن احد الفنادق .

كان على أن أغلق بابها بالمتاريس ولا افتح لاحد وان أسدل الستائر على النافذة حتى أحجب النور عن العيون وان احاذر في الدخول والخروج واستعمال المصعد حتى آمن سطو اللصوص الذي يتوارون في ظلمة مداخل البيوت آخر الليل أو يطرقون أبواب الشقق بشتى الحيل والاساليب وروى لي ما أفزعني من الحكايات .

واعتذرت للصديق الصعيدى صاحب الشقة وبررت له ايثارى للاقامة فى أحد الفنادق رغم غلائهـا لأسباب صحية .

وصاحبنى الى شارع « كونيس واى » بعد جولة تحت المطر بحثا عن غرفة خالية دون جدوى وحجز لى غرفة بسلطاته كصاحب فندق زميل سعدت بها بالرغم مـن ارتفاع سعرها فالفندق فى وسط الشارع ومجاور لعدة مبانى حكومية عليها حراسة ليلية وأمام الفنـدق محطة اتوبيس .

وتجمدت فى الفراش ثلاثة أيام حتى دفعنى الجوع الى الخروج طلبا لشراء الطعام فلا يوجد وجبات فى الفندق ويوجد مطبخ ملحق بالغرفة وبعدها تفقدت المكان وعثرت على فندق أرخص سعرا « بالاس كورت » وتوالت الايام فى جولات عابرة على ضفاف التيمز والأحياء القديمـة القريبة منه وأعماق لندن التى صورها « ديكنز » وعلقنا بها خلال الدراسة ودير كنيسة وستمنستر وليفربول ومعالم لندن العريقة ولانكستر وأكسفورد والبيكاديللى وماريل آرس ودوفلد وقصر باكنجهام والهايدبارك ودقات بيج بن وبرج لندن وتمثال تشرشل ودار البرلمان وساحة الطرف الاغر وشارع الكنيسة ومحطة فيكتوريا ومحلات لندن ذات الطوابق وأسواقها الكبرى فى أكسفورد وريجنت استريت وبيكاديللى وفنادق ومطاعم الايرلس كــورت الساهرة ووجوه العرب المنتشرة وسنجن الهنود والزنوج المقتحمة ونساء الطرقات .

ورحلات طواف بالريف الانجليزى وزيارة قلعة وندسور العتيقة وقلعة هنرى الرابع وكنيسة وندسور ولوحـة العشاء الأخيرة المهداة من جورج الثـالث وطريق آرثر

وملاعب الجولف الشاسعة وقنطرة الملك والمطاعم الدافئة والطرق الملتوية والهدوء الشامل ..

وانتقلت الى فندق ثالث « بارك رويال » على طريق كينز نجتون لانه اكثر رخصا اغرانى به فتيات عربيات يدرسن فى السوربون ومالبثت أن اكتشفت أن صاحبها اليوغسلافى الاصل وزوجته يسرقان النزلاء مقابل هذا الرخص ووجبة الافطار الدسمة ويعطلان المدفأة الا اذا دفعت كل عدة ساعات نصف جنيه استرلينى فى حصالة مثبتة فى المدفأة مثل التليفون .

وتمر الايام باردة وحيدة فقد سافر اغلب الاصدقاء ولم يعد الا اكتشاف مايمكن من لندن بالجهود الذاتية ومن خلال دورة الاتوبيس حولها والسعى فى دروبها وركوب القطار الارضى والتوهان أكثر من مرة فى محطاته المتشابكة . ورحلة شبه يومية لمبنى الاذاعة « البوش هاوس » والتمتع بناديه ومطعمه ولقاء بعض الاصدقاء . وتطول ليالى الغربة والضياع والتسكع فى حى سوهو الساهر حتى الصباح اقفو خطى « ولسن » واحس بالفة المكان الذى قرأته فى مؤلفه الشهير . حيث كانت تحلو جولات آخر الليل فى أزقته وشوارعيه وملاهيه المنتشرة واكلاته العربية ومشاغبات الصعاليك من الشباب الانجليزى أصحاب الرءوس الصلعاء وأصحاب حد الموس يهددون به العابرين ويخطفون القبلات من العابرات ويتأبطون اذرعهن قسراً من اذرعة الفتيان ! ومحلات الجنس وعروضه التجارية الهابطة وحلقات الديسكو وعربدات السكارى ومطاردات الزنوج ولهجات «الكوكنى» المميزة التى لا تفهم منها شيئاً كلما سألت عن شيء !

الشعراء .. أصدقاء الشمس القدامى

● « انا مثل الناس الذين قدموا الى ارض انا من
جنس عربى .
جنس كان صديقا للشمس
انا من اولئك الذين كسبوا كل شىء .
ففقدوا كل شىء .
وروحى هى روح الزبابق العربية » ●

((مانويل تشانو))

الاندلس .. الاسم الذي أطلقه العرب على الجزء الجنوبى من أسبانيا .. غزاه طارق بن زياد عام ٧١٢ بجيش قوامه اثنا عشر مقاتلا فاستولى على جبل الفتح .

ثم هزم ملك القوط لزريق وتوالت الفتوحات بقيادة موسى بن نصير حتى وصلت جنوب فرنسا .

وبسقوط الدولة الاموية استقل عبد الرحمن بن معاوية وخلفه هشام ثم ابنه الحكم ثم عبد الرحمن الثانى ثم عبد الرحمن الثالث « الناصر » فالحكم الثانى وتوالى الخلفاء حتى سقطت فى يد ملوك الطوائف .

ومن أشهر مدن الاندلس قرطبة واشبلية وبلنسية وغرناطة وطليطلة ومن اشهر خلفائها عبد الرحمن الناصر وكانت أسبانيا تحت حكم الرومان .. الى ان أغارت عليها قبائل « الوندال » فى القرن الخامس الميلادى فاطلقوا عليها أسم : فاندلسيا أى بلاد الوندال ..

وجاء العرب فسموها الاندلس ..

وجاء الشعراء الاسبان فنهلوا من مناهل فنونها وقالوا قولتهم الشهيرة :

اذا ذكرت الاندلس فقد ذكر الشعر والغناء

وهانحن فى رحاب الشعر والغناء وقد اختفت الشمس وراء السحب وانهمر المطر واغتسلت الشوارع والاشجار وفروع الخضرة والازهار التى تتسلق جدران البنايات والنوافذ والحانات والحوانيت وجدران الازقة العتيقة والحارات .

الالوان الخضراء تطل من نوافذ البيوت وتملأ مداخلها وساحاتها تتسلق حافة النافورات التى تطالعك فى كل دار .. وتعانق عينيك اينما صعدت البصر ..

دقات « الفلامنكو » الشهيرة تنبعث صاخبة عالية من وراء الكهوف .. تنشد فى صوت جماعى رخيم احدى اغنيات « لوركا » صاحب الديوان الفجرى الذى صور حياة هذه الفئة الراقصة التى برعت فى الغناء والرقص وفن التنجيم واشتهروا بالسرقة والغيرة وخطف الاطفال وهاموا مشردين من موطنهم الاصلى شمال الهند .. ثم انتشروا غربا فى الشرق الادنى وعبروا البوسفور واستوطنوا البلقان ثم واصلوا رحلة اغترابهم وتشردهم تحت الحكم التركى الى المجر وبولندا ووسط اوربا .. ويتميزون بسواد البشرة والشعر ويسمون « جيبسى » نسبة الى مصر فى بعض الاقوال .

ووقع لوركا فى هوى غجرية سوداء الشعر حزينة العيون . وكتب عنها أشهر قصائده شعبية وهى « اغنية الالم الاسود » يصور فيها مأساة هذه المرأة « سوليداد » وآلامها التى هى ألم الجنس الغجرى لا آلامها وحدها :

« لابسة الثياب السود
تظن أن العالم شىء بالغ الصغر
وأن القلب هائل العظمة

لابسة الثياب السود
تظن أن الزفرة الرقيقة
والصرخة العميقة
يذهب بها تيار الريح
لابسة الثياب السود ..
لقد تركت الشرفة مفتوحة
فتسلل منها الفجر
آه .. آه .. لابسة الثياب السود
ويقول محاورا الفجرية الحزينة :
« ياسوليداد مونتويا .. »
ماء النهر في سفح الجبل
مترنم الخرير تنعكس عليه صورة السماء .
ما أنت الا جواد جموح مازال يجرى حتى انتهى الى البحر »

هكذا عزف الشعراء الاسبان على أوتار عربية .. حين رسب في أعماقهم ذلك التراث العريق من فنون الموسيقى والشعر والغناء فتميزت أشعارهم بمذاق عربي وجرت في عروق قصائدهم دماء عربية أندلسية الايقاعات .

ولقد اعترفوا بذلك .. وتغنوا ببلادهم العربية الجميلة .. فهذا أونامونو أكبر شعراء « قشتالة » أجمل بقاع الريف في الاندلس .. يعترف بقوله :

« يا أرض قشتالة
أيتها المعبد الهائل
الى هواك سأرفع أغنياتي
فاذا كانت جديرة بك فلتنزل الى هذا العالم من ذروة عليائك » ..

وشاعر آخر ينفرد بين شعراء الأندلس بوقفته الطويلة

على الاطلال وبحنية الى أجداده أصدقاء الشمس ..
مراثيه لمدينة الزهراء بلغت ديوانا كاملا .. ويصف
فسه فى احدى قصائده بأنه شاعر عربى فيقول شاعر
نرطبة .

« ريكاردو مولينا » :

« الرجال الذين يتغنون بالياسمين والقمر أورثونى
وهواهم وأوارهم ونارهم .
الغرام المضنى للشفاه المتأججة والعبودية للجمال
الذائب الرقة ... »

وتتابع الشعراء جميعا يتغنون بمجد الأندلس القديم وبطبيعتهم العربية الساحرة أمثال : أوناموتو — ومولينا — والشاعرة خوانا كاسترو والشاعر كويباس نابورو — الذين كتبوا ديوانا كاملا بعنوان « مراثى مدينة الزهراء » احدى تحف العرب فى قرطبة .. وأصدرته مديرية ثقافتها .. وتحس فيه بأنفاس الشعر العربى .. وروح الزنابق العربية خاصة وان هؤلاء الشعراء قرأوا الشعر العربى وبخاصة الشعر الاندلسى مترجما الى لغتهم الاسبانية فتسللت اليهم تلك الموسيقى الخفية التى يتميز بها شعرنا العربى ..

هكذا تغنى شعراء اسبانيا بأندلسنا الغابرة .. غرناطة وقرطبة وقشتالة واشبيلية .. موطن الشاعر الكبير « مانويل ماتشادو » الذى تغنى بأجداده العرب واعترف بأنه من جنس عربى قائلا :

« أنا مثل الناس الذين سكنوا أرضى
« أنا من جنس عربى
جنس كان صديقا قديما للشمس
أنا من أولئك الذين كسبوا كل شىء

وفقدوا كل شيء ..

ورحى هي روح الزنابق العربية الاسبانية »

وفي اشبيلية هذه آخر قلاع الاندلس وموطن شاعرنا الاندلسي كانت نهاية العرض الملك شاعر عربي هو المعتمد ابن عباد . الذي أضاع التاج والملك وبكاه حيث لا ينفع البكاء ..

كان « المعتمد بن عباد » أندى ملوك الاندلس راحة وأرحبهم ساحة وذلك كان قصره ملتقى للفن والشعر وموسما للشعراء .. واجتمع ببابه من الشعراء والادباء مالم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره . وكان من ندمائه ورواده ابن زيدون وابن عمار وابن حمدين الصقلي وفي بلاطه عاش الطبيب العربي ابن زهر .

وكان شاعراً رقيقا مترفا لاهيا هام حبا « بالرميكية » الحسناء التي سماها « أعتماد » وكانت شاعرة ساحرة ومن رقيق شعره :

اني رأيتك في المنام ضجيعتي
وكأن ساعدك الوثير وسادي
وكأنما عانقتني وشكوت ما
اشكوه من وجدي وطول سهادي .
وكأنني قبلت ثغرك والطلى
والوجنتين ونلت منك مرادي

كان الشاعر الملك .. بين جواريه وحواريه في غلالة من حرير يتقي بها وقد الصيف .. وهو على شاطيء بركة من مسك وكافور تسبح فيها الجواري وتعرى السيقان والاحاديث ..

وانتبه الشاعر .. فاذا بجنود ابن « تاشفين » تسوقه في غلالته الحريرية .. وتسوق معه عشيرته وأهله الى

السجن .. فذاق الويل هو وبناته وينظر وقد جاء العيد فاذا به مكبل في الحديد وبناته يرفلن في القيود بدلا من ان يرفلن في ثياب العيد فينشد باكيا :

ترى بناتك في الاطمار جائعة
يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والاقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا .!

***

هكذا غنى الشاعر الاسباني الذي تجرى في عروقه ايقاعات عربية واندلسية وقد بهره ذلك التراث العربى فنهل من مناهله ووقف على اطلاله وحن الى رسومه الدارسة .

وهكذا بكى شاعر عربى .. كان ملك أجمل المدن الاندلسية واكبرها ـ فهوى عن العرش ونجم الاندلس يأفل على يديه الى الابد ..

ساعات تحت المطر في
سبيل جويا وبيكاســو

المدينة مازالت غافية بعـد .. والشوارع خاليـة مقفرة في صباح عطلة الاحد ..

والمطر يقظ لم ينم .. ينهمـر بغزارة وينشر في السماء لونا رماديا تركض فيه السحب وتحجب وجه الشمس .

والطابور طويل تحت المطر .. يمتد من تمثال «جويا» في نهاية حديقة المتحف الكبير حتى باب الدخول .

وأخذنا دورنا في الطابور الطويل الممطر ولفحة البرد الصباحية لندخل « برادو » مدريد القومي ومتحف جويا الذي يضم لوحاته ولوحات غيره من رواد الفن الاسباني .

المتحف رهيب كبير عدة طوابق وقاعات .. تشـبه قاعات اللوفر وردهات الفاتيكان ..

اللوحات تغطي الجدران وتصور تطور الفن الاسباني عبر القرون ..

في مدخل المتحف وفي طوابقه مكتبات تبيع كتبـا ولوحات وكروتا سياحية متعددة الطباعات والاحجـام والاسعار لتكون في متناول كل زائر ..

لوحات « جويا » تصدر المكان : الرقص .. والقتال واسرة كارلوس والعارية ولوحة المقاومة الفرنسية ولوحة الجنرال ريكادو .. وسائر اللوحات التى تصور مرحلة تفتحه واشراقه ..

وفى جناح آخر لوحات جويا السوداء الدامية التى تصور مرحلة عذابه وسقوطه وهى الفترة التى سماها النقاد « الفترة السوداء » .

واللوحات تشى بالقسوة والمرارة والسواد والدم .. الوجوه المطحونة والايدى المعروقة والاقدام الناحلة والعيون الجائعة والافواه التى تقطر منها الدماء وتعلو بالصراخ والنحيب .. كأن اللوحات حملت من جويا عدوى جرثومة المرض الذى نزل به فى هذه الفترة السوداء ..

فى القاعات الاخرى والردهات الطويلة تنتشر اللوحات باحجام كبيرة من الرسم والنسيج والتصوير .

لوحات فيلاسفى وموريلو وجيركووباقى رفاق جويا مر اليوم أو كاد ولم تكتمل المشاهدة بعد ومازالت لنا جولة فى عالم الفن .. غير بعيد متحف جويا حيث تنفرد « الجورنيكا » بمكانها الاثير ..

وأخيرا عادت اللوحة الغائبة الى مهدها بعد غربة بدأت عام ١٩٣٧ حتى عادت أخيرا الى الوطن فى عيد ميلاد صاحبها المئوى عام ١٩٨١ .

اللوحة الشهيرة هى « الجورنيكا » التى رسمها بيكاسو فى باريس وصور فيها أهوال الحرب الأهلية الاسبانية .

اللوحة بسيطة صادقة .. أشلاء قتلى وحطام بشر وحيوانات صارخة مذبوحة وانقاض ــ المدينة التى دمرها جنود النازية . تحمل اللوحة اسم مدينة صغيرة باقليم

الباسك شمال اسبانيا هي مدينة « جونيكا » الوادعة الجميلة .. وقد امتلأت أسواق المدينة بالناس وكانت الشوارع فى ذروة الزحام .. وكأن أهل المدينة كلها خرجوا من بيوتهم فى هذا اليوم ليواجهوا مصيرهم المحتوم .. فما لبثت أسراب الطائرات النازية حليفة « فرانكو » أن ملأت السماء فجأة واطلقت جحيما من قنابلها على المدينة الوادعة ولم تكف عن نيرانها المتواصلة الا وقد قتل اغلب اهل المدينة وتحولت البيوت الى انقاض وملأت الجثث ودكت المدينة دكا ! ..

وصور « بيكاسو » هذه المذبحة البشرية فى لوحته الكبرى وبلا تعقيد فى الرمز أو اللون ..

فقد استخدم بيكاسو .. المشهود له بالالوان الصارخة السيريالية .. فى هذه اللوحة لونين فقط .. هما الابيض والاسود مع اطياف رمادية الابعاد يصور بهما لحظة الفزع الرهيبة فى وجوه واحداق الناس مذبحة لم تفرق بين الحيوان والانسان والرجال والنساء والأطفال .

الحصان الابيض الذى يكاد لو علم المحاورة أن يشكو ويتكلم ويبكي .. وهو يعلك النحيب ملوى العنق ..

« الثور » الصامت الحزين فى مدخل باب البيت المشتعل يكاد يرفع عقيرته بأنين مكتوم وقد غرست فيه الخناجر .

صرخة المرأة التى تنعى البيت وقد تناثرت الأشلاء وتناثرت الايدى وجثث الابناء حيث تنطق ملامح النساء بالحزن الدفين من بعيد امرأة تدلف الى الغرفة وفى يدها مصباح غازى وكأنها تبحث بمصباحها الواهن عن جسد طريح ..

« طائر » يصرخ بأعلى الصوت .. وكأنه نعيب البوم فوق الخرائب .. ويعبر عن صرخته الدامية بأن يفتح منقاره بأقصى مايستطيع وكأنه لايشق لتلك الصرخة طريقا على أطراف المناقير ..

ازدحمت كل هذه المناظر فى لوحة بيكاسو .. داخل غرفة بيت تدمره القنابل وتزلزله النيران .

وبالرغم من ازدحام اللوحة بالاشلاء والاجساد الدامية وصرخات الفزع الرهيب .. يظل متأرجحا فى سقف الغرفة مصباح مضىء .. يضىء أجزاء اللوحة العريضة ويعلن انتصار النور على الظلام ..

صور بيكاسو هذه الوحشية فى لوحته التى بلغ طولها « ٢٦ قدما وعرضها ١٢ قدما » وهو فى منفاه بباريس عام ١٩٣٧ واشترط عدم عودتها الى أسبانيا الا بعد ان يسقط الحكم الفاشى وتعود الحرية ..

ومات فرانكو عام ١٩٧٥ وبعده بعامين مات بيكاسو .. وبدأت اللوحة رحلة العودة الى ارض الوطن .. وكان ذلك خلال احتفال كبير لم يشهد له مثيل فى مدريد حيث خصص لها متحف مستقل تنفرد فيه تحت حراسة مشددة ولم تضم الى متحف برادو لحاجتها الى تهوية خاصة حتى لا تتلف الوانها البسيطة .

وذلك بعد نزاع طويل بين أهل « مالاجة » مسقط راس بيكاسو التى طالبت باللوحة باعتبارها لواحد من أبنائها .

ونازعتها مدينة « جرونيكا » صاحبة المأساة باعتبارها احق الناس بها لأنها تصور مأساتها .

وظفرت مدريد باللوحة باعتبارها العاصمة .

عمتنا النخلة العربية ..
أم النخـــلات الأوربيـــة

واريت وجه الشاعر وضعته في جيب معطفي فذاب مع حبات المطر وابرزت جواز سفر الصحفي ـ وجهي الآخر ! أستعين به على الطواف والمشاهدة والتجـــوال والمكابدة لحساب وجه الشاعر الذي لا يغيب ..

قال لي واحد منهم ونحن نتسكع في غسق الليـــل هابطين من « الساكرو مونتي » الجبل المقدس للفلول الغجرية :

عرفت كيف تستغل الصحافة لصالح الشعر . ولم توظف الشعر لحساب صاحبة الجلالة كما فعل آخرون !

وقلت لصاحبي وقد شقشق فجر مدريد :

الشعر وحده صاحب الجلالة أما هي فالمعشوقة الاخرى .. التي في رحابها عشت ربع قرن وفي ظلها سافرت على جواد الشعر .. أشدو كل فجر وضحى واغني عندما يأتي المساء !

لاحت النخلة ونحن ننحـــدر من أعلى الجبـــل الى سفوح قرطبة .. وحيدة نائية تغتسل دموعها بماء السماء المنهمر منذ أشراقة الصباح حتى استدارة الضحى ..

وكأنها تغتسل من غبار السنين الطويلة وهي مهاجرة عن الديار بعيدة المزار وحيدة ـ الخلان والجار .. تبدو عاقرا فلا ضرع لها ولا ثمر وليست بذات طلع نضيد فهي أول نخلة وطأت ارض قرطبة ذات القلوب المشقوقة ـ

زرعها غريب نازح مثلها هو ذلك الفتى العربى الجسور الذى فر بليل وهو يرى عرش آبائه من ملوك بنى أمية ينهار فى دمشق على يد الخليفة العباسى السفاح .. فيهيم على وجهه شريدا طريدا طيلة خمس سنوات فى الشمال الافريقى الى أن يستطيع أن ينتزع له وطنا ويبنى قوائم عرش جديد لاجداده السالفين ويعتلى لاول مرة عرش الاندلس .

ويجلس الفتى الامير عبد الرحمن الاول فى قصره الذى بناه على نسق دمشقى مثل قصور آبائه ليتنسم ريح دمشق الفيحاء ويتشمم عبير غوطتها الخضراء وقد ركضت السحب فى سماء قرطبة واشراب القوم يهرولون الى بساط الخضرة ونقش الوهاد ومروج العشب معانقين ذلك الكائن الفارع النخيل الذى لم تظله سماؤهم من قبل وقد انتصب شامخا عليا يطاول النجوم ويظلل بسعفاته الخضر وجنات الثمر ويساقط رطبا جنيا .. كلما هزت الريح جذع النخلة المغتربة التى كانت احدى الغرائب وفريدة العجائب فى أرض الاندلس .

كان ذلك الكائن الفارع الجديد أول نخلة غرست فى رحم تلك الارض الجديدة عرفتها ربوع الاندلس وصارت فيما بعد أما لكل نخلات الاندلس بل ولكل نخلات أوربا التى لم تعرف النخيل من قبل .. والتى دبجت فيها الرسائل والمقامات وذكرها ناشرو الذخيرة ونفح الطيب مثل مقامة « أبو الحسن الجذامى فى نخلة غرناطة ورسالة ابن برد عن النخلة وكان ذلك الفتى النازح الغريب اول أمير عربى يتربع على عرش الاندلس » !

اطال الفتى الفارس الامير النظر فى النجوم وتطلع الى

عمته النخلة وقد أنس بها بعد وحشة وهي تتوسط حديقة قصره « الرصافة » بعد أن جلبها من مهدها العربى التليد إلى مهدها الاوربى الجديد واحتشدت أمامه صور الرحلة الشاقة الطويلة منذ هاجر حتى استقر .. والتفت اليها يناجيها بلسان عربى لا يفهمه بين شجرات الحور والزيتون والكروم الا شبيهته فى الغربة والنوى والمنبت والثرى نخلته العربية الشماء فيقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى فى التغرب والنوى

وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى

نشأت بأرض انت فيها غريبة

فما لكِ فى الاقصاء والمنتأى مثلى

سقتكِ غوادى المزن فى المنتأى الذى

يسح ويستمرى السماكين بالوبل

وكأن السماء استجابت للفتى النازح فسقت النخلة حتى ارتوت وسقت الوادى الاخضر كله من المطر المنهمر منذ الصباح الباكر وهى تنتفض تحته كالطيور المهاجرة بللها القطر ! لا تحتمى بمظلة ولا جدار ولا تأوى الى جبل يعصمنا من الماء .. فالجبل سقفه السماء ، والسماء مظلة المسافر .. فلا مهرب لنا الا أن تغسل غبار السفر بقطرات المطر وننطلق مرحين كالأطفال يشجيها خرير القطرات وتلعب بأقدامها العارية فى مياهها الجارية ..

ونرقب نخلتنا العربية ونحن نقترب منها دالفين من أبواب قرطبة الممتدة على نهر الوادى الكبير قصبة الاندلس وعاصمتها الاولى ومنارة علومها وفنونها ومهد أعظم

الفلاسفة والشعراء والعلماء والعشاق ومستقر زرياب الذى ازدهر فنه فيها بعد أن فر بليل هو الآخر من وطنه البغدادى .

لم يزرع عبد الرحمن الداخل حفيد هشام ابن عبد الملك منذ هرب من فتكة العباسيين بدمشق ودخل الاندلس فسمى الداخل لانه أول من دخلها وأنشأ امارة قرطبة .

لم يزرع عبد الرحمن صقر قريش الفتى الامير المهاجر نخلة فى أرض قرطبة فقط بل زرع بجانبها عبر ثلاثة وثلاثين عاما .. الشعر والعلم والفن والفلسفة ومجالس الغناء والطرب والموسيقى ومجارى المياه والقصور النادرة والحدائق والبساتين والمكتبات والطواحين الهوائية وقنطرة النهر الكبير وشيد فيها دعائم ملك جديد وطيد وحضارة وارفة امتدت عبر اسبانيا نافذة الحضارة على البحر الابيض ..

تلك الحضارة الاندلسية التى كانت أجمل وأعظم من ان تقارن بغيرها من الحضارات لانها لم تقم على أساس فارسى أو اغريقى او رومانى ولا على أساس قوطى كما كان قائما فى أسبانيا أو بربرى وكما كان فى المغرب .

بل كانت حضارة عربية خالصة نقية دامت أكثر من ثمانية قرون يتسابق الآباء والابناء لتعلية صرحها وتوطيد ملكها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن .. حتى انهارت على رءوس الاحفاد الذين لم يحسنوا الملك ولم ينهجوا نهج الاجداد البناة .. فغرهم الملك وفتنهم اللهو والنعيم .

بنو امية فى قرطبة وتحفتهم الخالدة الجامع الكبير

الذي استغرق بناؤه ٢٥٠ عاما ووضـــع لبنته الاولى عبد الرحمن الداخل واتمه المنصور بن أبى عامر .

وبنو عباد في أشبيلية التى تزهى بأطلال الجيرالدو وبرجها الملون الشهير .

وبنو نصر فى غرناطه حيث جبال الخضرة وقصــر الحمراء العجيب وبجواره قلعة الحمراء العتيقة وقصــر جنة الريف .

كان الحكم مستقرا راسخا فعلا صرح الحضارة العربية وارتفع بينما كان البربر والمسيحيون يعيشون فسادا فى البلاد وكأنما كان العرب أنفسهم حصنا منيعا منحه الله للأندلس ليحميها من الدمار والتخريب ويترك لها هذه الآثار الناطقة حتى اليوم .

وكان عبد الرحمن الداخل .. شاعرا رقيقا .. لم ينس قط وهو الملك المتوج وطنه العربى الاول لم يخفت حنينه الى الديار حيث شــب ونمـــا ولا الى أهليه وأحبته وذويه .. فيقول مناجيا دياره الأولى :

أيهــا الراكب الميمــم أرضى
اقر منى بعض الســلام لبعض
ان جســمى كما علمت بأرض
وفــؤادى ومالــكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنــا
وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفـراق علينــا
فعسى باجتماعنا سـوف يقضى

زرياب النخلة الذهبية السوداء !

لم تكن النخلة العربية الفرعاء هي الريح المطرة القادمة من أرض العرب وحدها .. وانما انتصبت نخلة من أخرى ذهبية الجذوع ولها فروع وثمرات الالحان والنغمات وأصوات العنادل .

نخلة وارفة الظلال .. نشرت ظلها وأنت أكلهـا ألحانا وانغاما وتصاوير تجاوزت حدود الاندلس الى انحـاء اوربا ..

فقد ضاق عندليب زمانه الفتى الفارع الاسـود « زرياب » تلميذ الموصلى الذى حقد عليه وهو معلمه .. وضاق بكيد ذلك المعلم وحسده وغيرته .. كما ضاق استاذه استحق بغروره ــ وطموحه وتطاوله حين نبذ عود سيده بين يدي الرشيد فى مجلس طرب وغناء قائلا يشترط على الامير :

« ان شاء مولاى سماع الغناء الذى ابتكرته فيجب أن اعزف على عودى الذى صنعته بيدى » .

وعزف الفتى .. ومال الخليفة طربا وخلع عليه .. وحشا فمه ذهبا ويكيد له الاستاذ المعلم كيداً حتى يجبره على الرحيل والا فالخطر يترصده والموت يتوعده .

ويتطلع الفتى الاسود الزريابى الصوت واللون ــ فهو « زرياب » لسواد لونه وهو زرياب لانه اسم من أسماء الذهب ــ تطلع الى نخلة بلادة النائية المهاجرة مثله فى ارض قرطبة وقرر أن يأوى الى جذعها ويستظل بفروعها كما فعل من قبل الامير العربى .

ويرحب الامير الجديد عبد الرحمن الثانى بالفتى النازح

فيهبه العطايا والهدايا ويقطعه الدور والبساتين ويفسح له في قصره مكانا رحبا « ٢٠٦ هـ - ٨٢١ م » ..

يتألق نجم زرياب في سماء الاندلس كما تتألق في عصره فنون البناء والعمران في أنحاء قرطبة .

ويتألق على يديه فن الغناء وتتدفق عبقريته في التجديد والابداع وشغل الفتى الموسيقى الدنيا والناس .

وكان زرياب متأنقا قشيبا فكه اللسان عذب الحديث والمسامرة ذواقة للاطعمة والاشربة نديما كريما نظيف الملبس رفيع الذوق راوية للشعر والملح النادرة .. جذاب الوقع والايقاع فالتف حوله كبار القوم وعشقه مسامروه وسامعوه واطلق الامير يده في فن الغناء والموسيقى فأنشأ مدرسة لتعليم الموسيقى وادخل في مناهجها فن العزف على العود والجيتار وولد منهما نغمات جديدة ونشر في الاندلس المزهر والقيثارة والقانون والرباب والناي والمزمار والبوق والدفوف وأضاف الوتر الخامس للعود واستحدث الريشة « مضراب العود » وتخرج على يديه الكثير من أهل الغناء ..

وعاشت قرطبة أزهى عصور الفن والغناء والشعر في ظل الفتى الكردي الوافد من بغداد .. ومازال « حمام زرياب » شاهدا من آثار قرطبة على ذكراه للآن ..

وكأن « مانويل ماتشادو » الشاعر الاسباني الكبير كان يقصد زرياب وقرطبة بخاصة والغناء العربي بعامة بقصيدته الرائعة « أغاني » التي تقول كلماتها :

« خمر وشعور وقيثارة شعر
هي صانعة أغاني أرضي
أغاني .. من يقل أغاني فكأنه قال الاندلس

الزهراء "فرساى" العرب
وزهرة أكليل جبل العروس

كانت الزهراء جارية جميلة حسناء عشقها ثالث خلفاء قرطبة « عبد الرحمن الناصر » وهام بها حبا . وكان للملك محظية أخرى تركت مالا كثيرا وأمر الملك تكريما لوصيتها ان تدفع ثروتها فدية للاسرى المسلمين فى يد الفرنجة .

وطلب الاسرى فلم يجد .. وقالت الزهراء للملك وكان لا يرد لها طلبا :

اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى ..

ولم يجد الملك العاشق بديلا خيراً من تنفيذ وصية الحبيبة الراحلة .. بتخليد ذكرى الحبيبة الزهراء فبنى لها هذه المدينة التى مازالت أطلالها شاخصة دفينة حتى الآن تحفل بالنفائس الفنية والكنوز النادرة التى قد يكتشفها المنقبون حينا بعد حين وقرر الملك ان يبنى مدينة كبيرة تكون تحفة للناظرين تخلد اسم حبيبته الزهراء عبر الزمان وتنافس الاثر الاشم الرابض فوق أرض قرطبة جامعهـا الكبير بأروقته المؤلفة من احد عشر قوسـا على شكل حدوة الفرس تقوم على أعمدة رخامية تعلوها تيجان الكنائس القديمة وتستند جدرانه على ركـائز ثابتة قوية كأنها القلاع .. حتى تحول المسجد الى كنيسة عند سقوط قرطبة عام ١٢٣٦ م ثم بنيت كاتدرائيـة قوطية الطراز فى قلب المسجد ذى الالوان الزاهيـة والزخارف

العربية التى تخطف البصر .. حتى تدمع العين على مجد مضى ..

وأطلق الملك على المدينة الكبيرة الجديدة التى طاولت الجامع الكبير شموخا وشهرة عليها أسم الحبيبة الغالية « الزهراء » وكانت أشبه « بفرساى باريس » أو حدائق التوليرى بقصرها المنيف .

واستقر الخليفة العاشق فى المدينة الجديدة فى القرن العاشر وتوالى من أعقبوه .. واستمر العمل فى المدينة خمسين عاما متواصلة حتى اكتملت الزهـــراء تتألق بقصورها الذهبية ذات الرخام الملون والاحواض المنقوشة بالذهب وصهاريج الزئبق والأبواب التى رصعت بالعاج والابنوس والجواهر النادرة حتى اذا انعكست الشـــمس خطفت الابصار والقلوب وبدت المدينة كما سماها المؤرخون « فرساى المسلمين » بعد أن جعلها عبد الرحمن الناصر مقرا للعرش الملكى ورجال الدولة .. كأنهــا عجيبة جديدة من عجائب الدهر السبع .. تبعد عن قرطبة ثلاثة أميال وتستلقى فى ظل جبل « السيراموريتا » أى « جبـل العروس » وقد حفت بها البساتين وعيون الماء والنوافير والطيور والزهور ..

وهبت رياح الزمن على المدينة وقصرها وعلى الخليفة ومحبوبته الزهراء فاندثروا فى باطن الارض حتى اكتشفت فى القرن الماضى .. بعد عمليات الحفر التى قام بهـــا « ريكاردو بوسكوى » بتكليف من الحكومة الاسبانية واكتشفت الآثار المطمورة تحت الارض مثل قصر الخلافة وقاعة عبد الرحمن الناصر ثم مسجد الزهراء ..

مراثي مدينة الزهراء

وبكى شعراء الاندلس الاسبان مدينة الزهراء بكاء مريرا .. وصدر ديوان كامل يضم « مراثى المدينة » لعدة شعراء اشهرهم شاعر مدينة الزهراء الذى عشق الشعر العربى وتأثر به هو الشاعر : « ريكاردو مولينا » الذى يقول باكيا اطلال آلزهراء :

عظيم مصنع المرمر
القصر النبيل بجدرانه ذات الشرفات
الأبواب المعدنية من الارز والبرونز
بيد أن الأعظم من العظمة ذاتها
هو رغبة القدرة التى تلهب بأجيجها اللاعج الضلوع العزلاء .

***

جميلة القاعة المانوسة المطرزة من أجل الحب
النبع الصافى الموسيقى الذى ينتحب ويغنى ..
بيد أن الاجمل من الجمال ذاته
هو ذلك الشوق المر الذى يستيقظ !

***

ماذا بقى فى المئذنة ؟ وماذا بقى من القصر ؟
ماذا بقى من السلطان ؟ ماذا بقى من الارادة ؟
بقى رنين الحجارة .. ريح حزينة !

***

وشاعر آخر هو « سباستيان نابارو » يكتب أروع القصائد فى بكائيات الزهراء من ارقها قصيدته « آلزهراء وردة » وقد تقمص فيها الروح العربية وعكسها فى وهج الكلمات :

لقد ماتت الازاهير والياسمين وآلزنابق والسرو
وذبلت الزهرة
« وعبد الرحمن » يبحث في الظلال عن الياقوت البارد
في عمامته
وفحول الجياد العربية تحتضر أعرافاً وشقائق نعمان
« وفضل » المغنية تنهض مثل الشحرور الفض
فوق بساط اللهب
والمباخر تتوهج والحكم يحلم بالكتب وقناديل البرونز
والمدينة الوردة تتبختر فوق سوريا وبيزنطة وبغداد
وفارس
والمدينة الدلفى واللبلاب وزهرة العسل تزهر زهرة .
والباز يلمحك منعطفة بالعوسج والكروم
مثل عنقود غنائى بين كهرمان الصهد المشمس
وأبنوس جبل العروس حيث تنتظر العروس !

***

الاظافر المفسدة نخلت المرمر
وخمشت الاقواس ، وشي الدمقس
ولطخت شجر اللوز بالتراب
حمامة لؤلؤية تدمى فى الثرى
من الازرق السماوى الى الوردى
والعشب الاخضر والعاج ..
وربوة بيضاء من الكافور تنساب من أشبيلية الى المغرب
من فلورنسا الى اللوفر ..
وزهرة أكليل الجبل تنتشر مثل ماء الايمان
حينما تهوى الزهراء متناثرة !

***

وكما هوت الزهراء .. هوت بعدها قرطبة الحسناء التى فاقت المدن والامصار وبكى الشعراء العرب قرطبة كما بكى شعراء الاسبان الزهراء :

باربع فاقت الامصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شيء وهو رابعها !

القلوب المشقوقة زينة الدنيا

أغنية بسيطة رقيقة سجلتها راهبة شاعرة هى « هروزفيتا » تعبر فيها عن اعجابها بقرطبة .. ذكرتها المستشرقة الالمانية « زيغريد هونكه » فى كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » وتقول كلماتها :

« قرطبة المدينة الشابة هى زينة الدنيا .. قرطبة شهيرة بجمالها فخورة بقوتها .. قرطبة هى التى حوت كل شيء تزهو به المدن » .

هذه هى قرطبة .. ومعناها القلوب المشقوقة .. التى التأمت على يد العرب .. وقد بلغناها بعد رحلة عبر الجبال استغرقت ست ساعات بالاتوبيس من غرناطة وهو يتلوى بنا يمنة ويسرة وينحدر ويهبط حتى يكاد ينكفيء وتنخلع معنا قلوبنا وتنكفيء . ونتوقف عند بعض القرى لنلتهم بعض الشطائر وأقداح القهوة مستعين بها على البرد والسفر والمطر يغسل الطريق ويسقى الشجر المتناثر حواليه ومروج الخضرة فى قمم الجبال وبطن الوادى والحصون القديمة تلوح من بعيد كأنها أشباح الماضى الصخرية العتيقة وتضاريس الطبيعة

الفطرية التي نحتت منها يد القدرة أروع التماثيل والاشكال وتطوى العجلات الارض طيا تجوس خلال القرى والمدن وقد بدأت الشمس تسفر عن وجهها وتغمر وجه الارض بشعاع من الضوء الحنون فتلوح لنا حصون اسبيخو ومزارع كاسترودل وبرج الشمس فى مدينة « باينا » وكنالس « دل صول » ثم بلدتا لوك وثويروس حيث « كهف الوطواط » التى برزت فيه رسوم وأشكال طبيعية تكونت من الرواسب الصخرية والجيرية التى تدلت من سقوف المغارات وكأنها من أعمال كبار النحاتين والفنانين .

وهبت ريح قرطبة من بعيد ولاحت معالمها رويدا رويدا فتنسكب رعشة خفية فى الاعماق .. نابعة من قلوب الاحفاد وقد هرولوا الى مواطن الاباء والأجداد .. فلم يجدوا الا آثارهم التى تدل عليهم .. وقد فتحت قرطبة ذراعيها لنا .. وكأنها تدرى صلة النسب الغابر وأواصر الدم الراق .. وقد بلغ بنا التعب كل حد من طول الركض فى مدن الاندلس الحبيبة عبر القطار والعربات مرة والطائرات مرة أخرى ..

هى قرطبة اذن وقد حط الرحال بنا .. فى ربوع زينة الدنيا وعاصمة المجد العربى القديم .. وقد جذبت كل الملل والنحل من كل فج وازدهرت الصناعات والحرف وطلاب علم وصناعة وفن وتجارة وحرف تدفقوا عليها وتكاثرت بها البعثات الوافدة من المانيا وفرنسا وانجلترا وسائر مقاطعات اسبانيا طلبا للعلم والفن .. وازدهرت الحركة الفكرية والحضارية ازدهارا يضارع ويفوق الازدهار البغدادى .. وتميزت هذه الحركة بملامح جديدة مستقلة مضيئة بعد أن تحررت من شوائب الاغريق

وعلماء المشرق الاسلامى .. لتطل بوجه أندلس صرف .. فلمعت فى سمائها نجوم العلم والفن والفلسفة والدين امثال :

ابن حزم صاحب الطوق وابن طفيل صاحب حى بن يقظان وابن رشد المعلم الثاني وابن ميمون والقرطبى . وأبو مروان بن زهر أعظم طبيب بعد جالينوس ولسان الدين ابن الخطيب صاحب الوزارتين صاحب كتاب الاحاطة وموشح « جادك الغيث » والبطروجى تلميذ ابن طفيل وابن جبير الرحالة الشهير واخيرا ابن زيدون عاشق ولادة وابن شهيد الاندلس صاحب « التوابع والزوابع » ذلك عدا شهرة جمالها فى مروج الخضرة وجداول الماء والنافورات والبساتين واشجار العنب والسرو والتين والزيتون والجوز واللوز والرمان والكروم عبر حاراتها التى تفوح بعبق التاريخ مثل حارة الازهار واركان الذهب واولاد لارا السبعة وزقاق المنصور وضواحيها الثمانى والعشرين التى امتدت حولها فى عصر الخليفة الناصر . اما احتواؤها كل شىء تزهو به المدن فقد اجتذب بها العواصم الاوربية فى اضاءة شوارعها ورصفها حيث كانت شوارع قرطبة تضاء بمصابيح تثبت على حيطان المنازل وتباشر فيها اعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التى تجرها الثيران تمرق من خلالها ازقتها العديدة المتشابكة المزهوة التى لا تنتهى ولا تكاد تتسع لاثنين معا .. وتقول صاحبة شمس العرب تشرق على الغرب :

« ومضى على ذلك قرنان من الزمان قبل ان تتخذ باريس عام ١١٨٥ من قرطبة مثالا لها فترصف شوارعها وتنظفها ومضى قرن آخر قبل ان تحذو بقية المدن الاوربية حذو باريس . ! »

وتبقى مكتبة قرطبة ذات الربعمائة الف كتاب حدثا عجبا فقد كان حاكمها الحكم مولعا بالكتب والعلم وأخذ يجمع المخطوطات النادرة ويدفع فيها الثمن الكبير واقبل العلماء على « الحكم » .. أشد أمراء الاندلس عنفا وارقهم قلبا .. فشجعهم على البحث والتأليف فصدرت الكتب العديدة وحذا حذوه أمراء الاقاليم .. حتى قال ابن خلدون يسجل هذا الازدهار .

« حينما كان يموت عالم في أشبيلية ويراد ان تباع كتبه بثمن عظيم ترسل الى قرطبة وان مات موسيقى في عاصمة الاندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية الى أشبيلية التي ولع أهلها بالموسيقى أشد الولع »

سقى الله اطلال الاحبة

ومرت السنون وتوالت وقرطبة قصبة الاندلس وزينة الدنيا حتى طويت صفحة الامويين عام ١٠٣١ م وانهار العرش العربي وظلت بقية من صراع كأنها الرمق الاخير في جسد الحضارة العربية المحتضرة هناك تتردد في صدور امراء غرناطة واشبيلية حتى تقطعت الانفاس ودفن الجسد تحت أنقاض القصور والحصون .. وتسربت حضارة العرب الخالدة خلال عمليات الغزو الاوربي والبربري ومعها تسربت بقايا الدم العربي في أوصال الغرب وعروق الشمال الاسباني وحمل الأسرى ريح الاندلس العربية فيما حملوا وانتشرت الجواري العربية في قصور « نورماندى » وغيرها وتزوج الامراء منهن وانتشرت الموسيقى والغناء وأينعت نطفة الدم العربي في

العيون السود والجدائل السود والاهداب الوطفاء والجمال العربى النادر الذى تراه فى ملامح الاندلسيات حتى الآن ..

وتقلص ظل العرب نهائيا .. وطويت صفحتهم فى الثانى من يناير عام ١٤٩٢ عندما علق « الكردينال بدرو » الصليب على قصر الحمراء ..

وأحرق الغزاة والمتعصبون مليونا وخمسة آلاف مجلدا من تراث العرب .. وبكى الشعراء ماحلا لهم البكاء حيث لا يجدى دمع ولا حسرة .. وبقيت لنا من أشعارهم العبرة والتذكار .. وصدق ابن زيدون حين قال :

سقى الله أطلال الاحبة بالحمى
وحاك عليها ثوب وشي منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما
فلكم رفلت فيها الخرائد كالدمى ..
اذا العيش غض والزمان غلام

سقى جنبات القصر صوب الغمائم
وغنى على الاغصان ورق الحمائم
« بقرطبة » الغراء دار الاكارم
بلاد بها شق الشباب تمائمى ..
وانجبنى قوم هناك كرام !

عندما تمطـــر أوتار القيثـارة

الليلة السلطانية الاندلسية التى ترتجف لهـا الارض ويشهق الجسد بالمطر والشوق تحت قمر التمام .. وقد أمطرت أوتار القيثارة الحانا ساخنة كقطرات من دموع عاشق .. هى آهات وانات .

وترتجف الاوتار الحزينة فى الهواء الرطب بالوجـد والشهوة وتحوم الاغنية الاندلسية وكأنها تنبعث من قبور الاجداد لتطاردنى فى الليلة السلطانية الاخيرة فى رحاب الاندلس .

انطوى الليل .. وسكن خرير النهر ونامت المدينـة الا من أصوات الجيتار والقيثار تنبعث مع تباشير الفجر وكأنها تعزف لنا لحن الوداع .

وتختلط أصوات السهارى والسكارى من الشـــباب والحسان عشاق الليل والموسيقى وقد افترشوا الارض تحت أقدام التماثيل والنوافير وفى ظل الكنائس والميادين الصغيرة .. على شــــاطىء نهر الوادى الكبير يغنون ويرقصون ويشربون ويبيعون أرغفة الشواء وشطائر لحم الثور الشهيرة الرخيصة والجبن الابيض الغالى الثمن وطبق ذيل الثور الشهير والمرق الحريف ونبيذ قرطبـة الابيض الشهير ونبيذ « موريليس » المعتق مقابل دراهم معدودة تطعم بها وتصغى الى موسيقاهم وغنائهم وتشاركهم رقصاتهم وانى للنازح الغريب أن يخاصر حسناء اشبيلية

او قرطبية وكل حسناء تخاصر فتاها وتنتحي به مكانا قصيا .. فلا تسمع منهما الا حفيف القبل وهمس الغزل وصنوف التنهدات ..

كانت الليلة الاندلسية توافق عيد العمال .. اشهر اعياد الاندلس .. اضيئت الميادين والازقة وازينت الدروب والعتبات العتيقة واطلت النساء والبنات من نوافذ البيوت كما تطل البدور من وراء السحاب وقد غصت الساحات بالفتيان والفتيات والعشاق والعاشقات والاطفال ساهمون حالمون كانهم الاقمار والازهار وعابروا السبيل مثلي ومثل رفيق الليلة الاخيرة العالم الاديب الفنان . عاشق الجنوب الاندلسي طوال ربع قرن عاشه في ربوعه وجال في دروبه وحفظ خوافيه كانه يجوس في اعماق الحسين والامام .. يطوف معي الليل كله على الاقدام .. نجوب كل هاتيك المجالي ونقف على الاطلال الخوالى .. ويسترق بين الحين والحين نظرة محسورة يتسلق بها كل نافذة ويدق قلبه فوق كل باب وتضطرب انفاسه عند كل منحنى وزاوية كانه يبحث عن كنز مفقود .. أو يشم عطر حبيب قادم من بعيد .! وتدمع عيناه من وراء نظارته السميكة عند كل نخب .. بحثا عن وجه حبيبته القديمة التى عشقها منذ خمسة وعشرين عاما حين وفد للاندلس يعد للدكتوراه في الادب الاندلسى ويصبح الآن رئيسا للقسم الادبى بجامعة القاهرة .

اختلطت على رفيقي الفنان الصعلوك الذيان وتشابهت الاطلال ونسى معالم الآثار الاولى .. وضل الطريق الى بيت ليلاه ويلفنا الصمت وأساله فلا يبوح .فانشده أبيات

المجنون فينتبه وكأنما لدغته أفعى .. وكأنى عـريت سره الدفين :

وكنت اذا ماجئت ليـــلى ازورها
أرى الارض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البعيـــد جليســـها ،
اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها ..

وأين صاحبى من ليلى وقد نأت الطلول وتلفت القلب ونحن نطوى الليل طيا ؟! حتى جفلت أقدامنا الطريق .. وتحير صاحبى لطول ماشربنا وطول ماطاف .. أى طريق يعود بنا الى قلب المدينة وقد آن لنا أن نعود بعد أن كلت الأقدام .. ودبت برودة الفجر فى العظام .. كأنها شعاع الجليد يهبط عبر الممرات والبنايات ..

ولادة ملكة العاشقات

وغير بعيد .. وفى ظل القناديل العربية الشـــاحبة الضوء وقد لف الضــباب ارتعاشـــة ضوئها الذابل .. انتصب تمثال غريب الرمز والتشكيل ارتفع على قاعـدة رخامية عالية .. توسطت حى اليهود .. وحول التمثال والقاعدة سياج من العشب الاخضر وحديقة صغيرة من الزهور النادرة ..

يدان من الرخام المرمرى الابيض ارتفعتا نحو الســماء وقد تشابكت الكفان وتعانقت الانامل وذاب الاثنان فى واحد كأنهما يتحديان الناس أن يفك هذا الرباط اليدوى المقدس واحد منهم وقد نقش تحتهما بيتان من الشـعر بامضاء « ولادة » يقولان لمعشوقها الاثير ابن زيدون :

أغار عليك من عيني ومني
ومنك ومن زمانك والمكان
ولو اني خبأتك في عيوني
الى يوم القيامة ماكفاني ..

وكتبت تحت الابيات هذه الكلمات بالعربية : « التمثال مهدى من مدينة قرطبة والجامعات الاسلامية الى الشاعرين العاشقين ولادة وابن زيدون بمناسبة المئة التاسعة عليهما « ١٠٧٠ - ١٩٧٥ » .

وقلت لصاحبي وقد كلت أبصارنا من التحديق في التمثال في ضوء القناديل الشاحب والتحليق بخيال الماضي البعيد في أجواء قصة هذا العشق الشهير .

هذه هي ولادة بنت المستكفي التي لعبت بعقول الرجال ..

وقال صاحبي : أو تعرف حكايتها .. وحكايات عشاقها ؟

قلت نعم : ويكفي أن اذكر لك ماقاله ابن بسام في كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة يصف ولادة فيقول :

« كانت في نساء أهل زماننا واحدة اقرانها حضور شاهد وحرارة أوابد وحسن منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر يعشو أهل الادب الي ضوء غرتها ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها الى سهولة حجابها وكثرة منتها بها تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم انساب وطهارة أثواب .

كانت فاتنة لعوب وغانية طروب .. تحترف فن

العشق وسلب عقول الرجال خاصة الشعراء منهم من أهل الوسامة والغزل ..

وكانت تعرف مواطن جمالها وبواطن دلالها .. فتميل تتهادى وتتيه خيلاء وزهوا وتطرز أبيات الشعر على ذيل قميصها وهو تخطر بين عيون الرجال الشاخصة الولهى تقرأ على ثوبها هذه الابيات :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها
أمكن صاحبى من صحن خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها

ويعبق العطر وولادة تخطر بثوبها المطرز الحواش بهذا الشعر المثير وتمشي فوق فتات المسك والعنبر .. فقد كانت برزة نزعت حجابها وارسلت شعرها تخالط الشعراء وتساجلهم ويطمع فيها الطامعون فاذا بها أمنع عليهم من الحصون كأنها الصيد الحرام ولا يظفر منها العاشقون الا بالنظرة العجلى .. وهى تعرف ذلك وتعلنه على الناس فتقول :

انى وأن نظر الانام لبهجتى
كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من أنس الحديث زوانيا
ويصدهن عن الخنا الاسلام !

وعدنا بعد الأي .. وانصرف صاحبى العاشق القديم الى فندقه الفاخر وانحدرت الى الزقاق المواجه زقاق المنصور بن محمد رقم ٤ وكأنى اعبر احد أزقة بغداد أو دمشق او حى القلعة المصرى ..

وما أن ضغطت على جرس الباب حتى أطلت العجوز

السمينة القصيرة البيضاء ضاحكة السين والثغر .. لتفتح لي .. واصعد الى غرفتي لارتمي في الفراش وقد تسللت انوار الصباح الاولى من خلال زجاج النافذة وهبت العصافير من أوكارها تزقزق وترف وتلتقط حبات الماء من النافورة الجميلة وتغني للصباح الجديد نشيد البراءة والصفاء ..

ساعة أو ساعتان .. اغفت خلالهما عينان .. ولم تغفل الصور والشجون .. وارتفع صوت السيدة المريح يوقظ النائمين ..

وغادرت فراشي في الساعة السابعة صباحا وخرجت مع نسمات الصباح الاولى القي على الازقة القرطبية تحية الرحيل واعبر البوابة القديمة الى الشارع الرئيسي الكبير لاجلس في الحديقة الصغيرة ذات المطعم الانيق .. ارشف فنجان القهوة المرة الصباحية .. واتسلى بمراقبة الاطفال وقد هبوا مبكرين كالطيور ينتشرون في الحديقة وبيدهم الحلوى كانهم منها بعض الزهور .. ثم ادلف الى المسجد الكبير مرة اخرى اجوس في ردهاته وأبهائه صامتا حزينا .. وادخل الغرفة البللورية بما حوت وراء زجاجها من كنوز وعلى جدرانها لوحات القديسين النادرة وابحث عن القبلة .. لاصلي ركعتين .. فاذا بها محراب من نقوش وتماثيل وايقونات ..

والقي نظرة الوداع الاخيرة متسللا بين الاعمدة الصامتة الخرساء والقباب الزجاجية كهارب من ظله وماضيه ..

واخرج دامع القلب ولأودع الام العجوز صاحبة « بنسيون المنصور » واحمل حقائبي الى محطة القطار عائدا الى العاصمة لانطلق منها الى « توليدو » الاسبانية اي طليطلة العربية القديمة .

نبوءة الفتح القادم
ومائدة الزبرجد الخضراء

ويحكى أن « لوذريق » حاكم طليطلة العاصمة وآخر ملوك القوط السبعة وعشرين رأى بيتا عليه ستة وعشرون قفلا فجمع وزراءه وطلب منهم فتح هذا البيت لظنه أن به كنوزا وفيرة ولكن الوزراء خالفوه ونصحوه أن يقلد الملوك الستة وعشرين السابقين ويضيف قفلا على نحو ما فعل سابقوه أثر توليتهم العرش .

ولكن لوذريق أصر على فتح هذا البيت المقفل ، فجمع له الوزراء أموالا كثيرة عن مقدار مايظنه فى هذا البيت على أن يتركه على حاله فأبى .

وأمر لوذريق بفتح البيت .. ولم يجد بداخله غير مائدة عظيمة من ذهب وفضة مرصعة بالجواهر ومكتوب عليها : « هذه مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام . وبجوارها تابوت عليه قفل ومعلق عليه مفتاح فأمر الملك بفتح التابوت فوجده فارغا ولكن رأى فى جوانبه « صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب وعليهم الفراء وهم معممون ومن تحتهم الخيول العربية متقلدون السيوف المحلاة » وقد كتب فوق تلك الصور سطور بلغة قديمة كلمات تقول :

.. « اذا كسرت أقفال هذا البيت وفتح التابوت تظهر ماقيه من هذه الصور فان هذه الامة المصورة تدخل الاندلس فتغلب عليها وتملكها ! »

ووجم الملك وركبه الهم .. ووجم الوزراء وأحزنهم

لسرع الملك .. وبدأ العمل على تحصين البلاد ضد نبوءة الغزو القادم .!

لم تكن هذه الحكاية سوى رد فعل صامت .. لاستيلاء العرب على بلاد المغرب في الوقت الذى تبوأ فيه لوذريق العرش .. والعرب يكتسحون الديار والقلاع كالسيل المنحدر وكان لابد لهذا السيل أن يجرف كل العوائق في طريقه نحو الفتح الكبير .. ويغرق ربا الاندلس بما فيها من حسن وجمال وبما جمعت من اشتات المنافع وطيب المزارع ووفرة الثمر وعذوبة المياه وجمال نسائها وحسانها اللائي وصفهن طارق في خطبته الشهيرة قائلا :

« وقد بلغكم ما انشات هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات في قصورالملوك ذى التيجان » .

وصاح طارق صيحته الشهيرة أين المفر ؟ والتحم الجيشان وفر لوذريق مدحورا محسورا .! وبادر طارق بالاستيلاء على « طليطلة » قبل أن تتحصن بهنا الفلول الهاربة التي طاردها طارق حتى مدينة المائدة حيث عثر على مذبح كنيستها الذهبى المحلى بأغلى جواهر « طليطلة » واستقر طارق بن زياد بها دون غزوات جديدة ليحبط مؤامرات القوط ويؤمن الطريق لسائر مواكب الفتح ودخل عليه الناس يسألونه : « أنت أمير نفسك أم فوقك أمير ؟! فقال : بل على راسى أمير وفوق ذلك الامير أمير عظيم » ولكن طارق فى اندفاعه نحو طليطلة ترك وراءه ثغرات لقي بسببها حسابا عسيرا وصمدت اشبيلية في

وجه العرب .. وتمركز القوط بها وراء أسوارها الحصينة ... لولا خيانة سكانها اليهود .. الذين فتحوا أبوابها انتقاما من ظلم القوط سادتهم فسقطت أكبر المدن وأخطرها على قوات العرب الزاحفة .

وظلت طليطلة في قبضة طارق .. والمسلمون يواصلون زحفهم ضد مقاومة القوط العنيفة حتى قتل لوذريق .. ودخل موسى بن نصير طليطلة ليحاسب قائده الشاب الظفر حسابا عسيرا .. على اندفاعه مزهوا بخيلاء الفتح تاركا وراءه المدن والحاميات بلا حماية .. وشد وثاقه وقالوا : « ضربه بالسوط وهم بقتله لولا تدخل الوليد ابن عبد الملك والمؤكد انه « وضع السوط على راسه ، فقط . ! »

وانتهت المحاكمة سريعا يقول موسى : « لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الاندلس فاستبحه هنيا مريا فقال طارق « أيها الامير والله لا ارجع عن قصدى هذا مالم انته الى البحر المحيط .. » وهكذا لم يلعب النصر براس القائد الشاب ولم يتجاوز العقاب حدوده وظلت طليطلة قاعدة لتنظيمات حملات الفتح .. ومقرا للمجلس الحربى ومنها انطلقت الفرق والحملات على سائر البلاد حتى بلغت مشارف جبال البرانس وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين .. وعادت الحياة وأقرت العبادات وأمن الناس .

وقد نسبت مائدة سليمان فى بعض لروايات لسليمان لقدمها .. ولما كانت طليطلة مقر البيت المالك فقد نالت كنسيتها أكبر وثمن المنح والهدايا وتنافس الملوك في ذلك اعلاء لذكرهم وتخليدا للعاصمة الجميلة ووصفوها بانها

« مصنوعة من الذهب الخالص مرصـــعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد وقيل انها من زبرجدة خضراء حافتها وارجلها منها وكان لها ٣٦٥ رجلا » « وانها كانت مائدة خوان ليست لها ارجل قاعدتها منها وكانت من ذهب وفضة خليطين فهى تتلون صفرة وبياضا مطوقة بثلاثة اطواق طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد » وكانت بذلك أغلى وأعظم الكنوز التى وجدت فى مدن الاندلس قاطبة علاوة على مائة وسبعين تاجا من الذهب الخالص وكانت المائدة هي درة الهدايا التى احتلت مركز الصدارة فى موكب العودة الى الشام .. فى صيف ٧١٤ م حيث ناءت الدواب بحملها فصنعوا لها مركبات لها عجل « بلغت ثلاث ومائة عجلة » حمل عليها الذهب والفضة والجواهر واصناف الوشى الاندلسي ومالا يحصى من الجوهـر والطرائف » ودخل الموكب العائد بعد أن مر بالثغـور والامصار دمشق فى السادس عشر من يناير ٧١٥ م ومعه ملوك من البربر والروم والاسبان وملوك الرنجة ورءوس البلاد ففرض لهم الشرف .. وخلعت على موسى ابن نصير الخلع ثلاث مرات وقد ناهز الثمانين ودفن فى وادى القرى .

***

وعادت بنا العربة فى الغروب .. وقد مالت الشمس على حافة الافق المندى بدموع الرحيل .. كأنها تنتظر موقع قدميها قبل أن تسقط فى هوة المجهول .. أو تركب جناح الريح الى عوالم اخرى .. تشرق فيهـا من جديد .

والغروب فى الاندلس .. يبدأ فى التاسعة مساء ..

نهار طويل .. وليل أكثر طولا .. يبدأ السهارى وعشاق الليل بعد التاسعة وقد غربت الشمس ومدت حبل الليل الطويل للساهرين .

وبدا الطريق امامنا شاحبا حزينا .. تتناثر حوله الاكشاك الصغيرة حافلة بزجاجات الشراب والعصير والشطائر .. ونتوقف بين الحين والآخر لنلتهم شيئا يعين على بلوغ الطريق .

كنت بدات الرحلة فى الصباح الباكر .. من امام فندق « كريستانا هيلتون » بمدريد الى « توليدو » أو طليطلة موطن النبوءة والغزو الاول .. على بعد اربعين ميلا من الجنوب الغربى لمدريد . وانطلق « خوليو » السائق الاسباني الانيق .. بعربته الفاخرة لايلوى على شيء ولا يجيد سوى الحديث بالاسبانية ومعاقرتي الشراب والتهام الشطائر .. واطباق البحر الشهيرة .. وانواع الجبن الاندلسية اللذيذة .. وفطيرة العجة المجانية .

ولم يكف عن الحديث .. انقل اليه مشاعرى باللغة العربية وبالاشارة والوصف وهو يفعل ذلك حتى دبت بيننا الفة الغرباء حين يلتقون وكل منهم يجهل لغة الاخر .. ولكن تجمعهم لغة مشتركة نابعة من الغربة وافتقاد الانيس .

وانطلقنا ننهب الطريق نهبا ونقف عند الأطلال وبقايا الآثار . حتى بلغنا توليدو « طليطلة » وصعدنا طريقا صخريا مرتفعا يصل الى باب القلعة الكبرى .. لنجوس طوال اليوم في الازقة والدروب القديمة والحوانيت العتيقة التي تشبه حوانيت حى الحسين .. ونعبر الجسور والقناطر ونلوذ باحضان الجبل واودية الماء

الفائرة التى تتدفق خلالها أمواج نهر « تاجه » .

وندخل الكنائس « سانت ماريا » وباب الشمس والقلاع والحصون العتيقة .. والمتحف الحربى القديم والقنطرة الحجرية والقصر ومتحف الرسام جراسكو وقصر جاليانا أو قصر الناعورة وكاتدرائية طليطلة أشهر معالم طليطلة والرادرو .. والاستراحة العربية التى تقع على قمة الجبل المعشوشب على شكل حرف « يو » كانت مستقرا لاحد الامراء صممها الفنان العربى .. على شكل هذا الحرف .. ليرى الامير السعيد .. فى جلسته الحالمة بين نوافير الماء وتماثيل الحيوانات ونادر الزهور كل وافد .. أن كان عدوا أو صديقا ..

بانوراما من صنع الطبيعة ترى منها الوادى .. والمدينة النائمة فى أحضانه تنطق بآيات عربية البيان واللسان ..

وتضم هذه الاستراحة الملكية قصرا عربيا عتيقا مازال على حاله منذ بناه رجال الامير .. الارابسك الرائع والقيشانى المزركش والزجاج الملون المعشق .. والاعمدة والاسقف الخشبية والقناديل المدلاة فى صناديقها الصدفية ودوارق الزجاج الزرقاء والخضراء .. وقد امتدت موائد الطعام لتأخذ نفس الطابع العربى .. يتضوع فوقها عطر الشواء والطعام الفاخر .. وباقات الورد والشموع والنمارق والمفارش المطرزة بطرز عربية رائعة .. وقد اكتظ المكان بالرواد والسائحين .. والتمست ركنا قصيا قبعت فيه وكأننى أوى الى بقايا وطن عربى سالف بعث فى الشعور بزهو الانتماء والخيلاء على كل هؤلاء الوافدين الذين يتفيأون ظل الاجداد ويهيمون فى أودية السحر والخيال لروعة المكان ومايبعثه من عبق

خفي يدور بالإلباب ويلعب بالقلوب .. هو عبق الاجـداد القدامى .. الذين قطعوا هذا الشوط الطويل ليبلغوا هذه الاماكن النائية ويتركوا فيها تلك الآثار الخالدة .. التى تبهر الناظرين ..

ووقفت على حافة الجبل .. وقد انسابت طليطلة عاصمة اسبانيا القديمة تحت اقدام الجبل لوحة خضراء .. تنسكب خلالها المياه .. وتتناثر الابنية والقبـاب والابراج .. وقد انعكست أشعة الشمس الذابنة كانهـا تبكي أصحابها الغابرين وقد تحولت بعدهم الى مقـر كرسي أساقفة اسبانيا وانا أردد قول الشاعر القديم :

كانت لهم في هضاب العز أبنية

فاصبحوا بين مقبور ومسجون !

مملكة القرنفلة والسقوط الأخير

صعدنا الى القصر على درجات عالية متوالية ونظرت الى أعلاه ـ فأصابني دوار لجأت الى صخرة وجلست احتمي بها ربما كان دوار السفر ، وربما كان دوار ارتقاء درجات السلم الصخرية العالية والنظر الى أعالى القصر وقد هبت نسمات باردة عبر مساقط الدروب ، أو ربما كان دوار القرون الثمانية الاولى التى توالت على هذه البلاد العربية الاندلسية بدأها العرب بانتصارات باهرة ، ثم آن لهم أن يستريحوا من الحروب والقتال فبنوا القصور وزرعوا الخمائل والجنان واتكأوا على وسائد العرش الوثيرة لاهين ناعمين حتى أخذهم الدهر على غرة !

استجمعت أنفاسى لارتقى الدرج الصخرى وقد تأبط ذراعى أستاذنا الكبير « يحيى حقى » .. كأنه العصفور الرقيق يحجل بجناحيه بالرغم من الأعوام السبعة والسبعين ، والتقط أنفاسه بدوره ونحن نمشى الهوينى فى ظل الأضواء الخافتة عابرين « باب الرمان » وقد صورت ثمرة الرمان على بابه متجهين الى « الحمراء » التى بنيت من تربة هذه البلاد الحمراء فغلب عليها الاسم كما يقال .

ربوة عالية تحف بها التلال يتربع فوقها القصر المنيف وتحيط بها الأشجار الباسقة والزهور العاطرة وأغاريد الطيور ..

وقد شيد القصر ثلاثة من الملوك أبو الوليد خامس سلاطين بنى الاحمر ثم ابنه الحجاج ثم ابنه الملقب بالغالب بالله .

على اول ابواب الحمراء نقوش وأشعار ونصوص ورموز وطلاسم رمز واضح من كف ومفتاح الكف ترمز للقـوة والاصابع الخمسة وترمز لقواعد الاسلام الخمس كأنمـا تقول الكف : حذار ! حذار من اى مقتحم لحصنى المنيع والا بطشت به .

أما المفتاح فهو رمز مفاتيح الحمراء وكان أهـــل الاندلس يتخذونه شعارا على راياتهم .

والرمزان : الكف والمفتاح يتولان باختصار أن الحمراء لن تسقط ابدا الا اذا تحركت تلك الكف من بطن الحجر لتمسك بالمفتاح وتفتح ابواب الحمراء للاعداء .

وهو رمز أسطورى . فلن تبعث الكف من رقدتها ، ولن يمشى المفتاح ليفتح الابواب !

ولكنه يدل على مدى وثوق العرب من باسهم ومناعة قصرهم الكبير وتدور الايام دورتها وتتحقق الاســطورة ويقتحم أبواب الحمراء بعد انفراط باس العــرب ويسقط العرش الذهبى .

ويبنى الامير المنتصر « فرديناند » والاميرة « ايزابيلا » مذبحا فخما فيه سورة العذراء تحمل السيد المسيح مكان الكف والمفتاح .

وتوالى المسير صعدا الى أبواب القصر وقد اطبـــق الغروب على المبنى العتيق واضاءوا لنا القناديل المرتعشة بضياء راقص طروب وقد لهث القوم لمشقة ارتقاء الدرج العتيق . لتعبر باب الخمر ومن ورائه ساحة الحب

التى تقع فيها احذى جهات قصبة الحمراء حتى تصل اخيرا الى مدخل القصر حيث يجلس الحراس الذين يحصلون رسوم الدخول فى الصباح أو يحرسون القصر في المساء .

وتتكاثر القاعات والساحات والردهات والمحاريب وقد زينت بالايات القرآنية وأبيات الشعر وتقف قليلا عند « الغرفة الذهبية » لكثرة مابها من زخارف ونقوش ذهبية ثم « ساحة الريحان » ثم قاعة « البركة » وقاعة « العرش » حيث تمتد برك المياه والنوافير ونقوش شعرية من شعر « ابن زمرك » تلوى الرقاب لمن يريد أن يقراها ويتتبع كل أبياتها من جدار الى جدار وسقيفة الى أخرى :

تبارك من ولاك أمر عباده
فأولى بك الاسلام فضلا وانعما
فان رعشت زهر النجوم مخيفة
وان مال غصن البان شكرك .. بمما

ونتابع صور الكتابة الموشاة بالزخارف النادرة .. والمنقوشة فى كل مكان تؤرخ بالاشعار سير الملوك وتصف روعة المكان .

وتأتى « قاعة العرش » تحفة المكان حيث تكثر فيها الحنايا المزدانة بالرسوم والخطوط النادرة وتعلوها قبة كبيرة سقفها من ذهب وجوهر وفيها كان السلاطين يستقبلون السفراء والامراء وشهدت نفس القاعة سقوط أميرها الاخير ..

ووصلنا أخيرا الى « ساحة الاسود » وقد لهثت منا الانفاس ونحن نجوس خلال الاعمدة والابهاء .. وقد

اقيمت في الوسط أسود من رخام يتسلل الماء من بين انيابها وسط نافورة نادرة المعمار وقال لي يحيى حقي وهو ينظر الى المنظر الرائع : أتذكر شعرا يصف هذا المنظر ؟.

قلت : أذكر ما كان مقررا علينا في المرحلة الثانوية وكنت انساه دائما وأتلقى جزائي من الاستاذ « حسان » مدرس اللغة العربية كلما تعثرت في تذكر تلك الابيات ولم أكن أعبأ بمضمونها .. حتى أتيح لي أن أراهما كل هذه الاعوام .

وانبرى ، الدكتور عبد الله الطيب « عميد جامعة الخرطوم » .. ليردد لنا الابيات وهي لابن زمرك يمتدح فيها السلطان ويصف النافورة .. وقد نقشت القصيدة بخط ذهبي رائع على جدران القصة الكبيرة التي تتكىء على ظهور الأسود وتصف جريان الماء كأنه دمع الحب العاشق أو النعامة التي تسقي الأسود .

وهل هي في التحقيق غير غمامة

تفيض الى الآساد منها السواقيا

وقد اشبهت كف الخليفة اذا غدت

تفيض الى أسد الجهاد الأياديا

فيامن رأى الاساد وهي روابض

عداك الحيا عن أن تكون عواديا

قلت للصديقين الكبيرين ربما كان « ابن حمد يس الصقلي » اكثر دقة ورقة حين وصف نفس المنظر بأحد قصور اشبيلية حين قال :

وضراغم سكنت عرين رياسة

تركت خرير الماء فيه زئيرا

اسد كأن سكونها متحرك

في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاثها فكأنما
اقعت على ادبارها لتثورا
فكأنما سلت سيوف جداول
ذابت بلا نار فصرن غديرا

***

وعبرنا ساحة الاسود وقد تحول زئيرها خريرا الى قاعة « بني سراج » ذات التيجان الزرقاء والقرميد الاوربي النادر .. والنوافذ الست عشرة والنافورة الرخامية البيضاء التي تجري في جسدها المرمري عروق حمراء ينسبها الناس الى الدم العربي المراق على ارض هذه القاعة وكأنه تسلل منها الى جسد النافورة وجرى فيه وظل محتفظا بلونه حتى اليوم .

وتقول الاسطورة أن أميرا من بني سراج عشق أميرة من البيت الحاكم ، وذاعت قصة العشق وثار السلطان ابو الحسن والد الاميرة واقسم على ذبح آل سراج انتقاما فاحتال عليهم بأن اقام وليمة كبرى تكريما لهم واستدرجهم الى القاعة فردا وراء آخر . واعمل أعوانه فيهم قتلا فلا يعرف الثاني مصير الاول وجرت الدماء أنهارا على الرخام الابيض الناصع وكأن قطرات الدم تجمدت فوق الرخام وظلت حمراء .. شاهدا على مأساة العاشقين ، ومازالت أصداء صليل السيوف تسمع في الليل وتنبعث معها انات انين مكتوم تتردد في ساحة الاسود التي شهدت مذبحة تلك القاعة .

ويمضي الوقت وقد اوغل الليل وهبت نسمات باردة والقاعات لا تنتهي قاعة الملوك ، وقاعة الاختين وبهما

من الرمر المجلو والاخشاب المطعمة بالعاج ونوافــذ المشربيات وزخارف الفسيفساء مايبهرك حتى اليـوم . ونصل أخيرا الى « عين دار عائشة » وهي غرف صـغيرة تعلو احداها الاخرى ، حولها قاعة مربعة من خـلال نافذتها تبصر الوادي المنحدر وميدان البيازين والنهـر الجارى والجبل الاخضر .

وتملأ رئتيك من هواء نقي ينحدر صاعدا من السهول الخضراء يتسلق نوافذ القصر . ويصافح صدورنا . ونحن ندلف الى « حديقة البرتقال » الملحقة بدار عائشة ذات النافورة الباقية ثم برج أبى الحجاج الباسل ، وداخل البرج « مخدع الملكة » ومسكن زوجها الامبراطور الذي أعد لهما حينما دخلا غرناطة .. وتناولته يد التغيير ليلائم الذوق الغربي .

واخيرا .. تنتهي الجولة وقد كلت الاقدام وتقطعت الانفاس عند حمام القصر ذى الغرف الدافئة والساخنة واستراحة من سريرين من طوب مطلى بالالوان الجميلة وبينهما نافورة صغيرة حتى يستريح الأمراء من عنـاء الحمام الدافىء والساخن .. ويتناولون الحلوى والفواكه والشراب المعتق فى أقداح من ذهب وفضة والجـوارى والغلاميات يتخطرن حولهم في أثواب من حرير ودمقس .. يعزفن لهم على الاوتار ويترنمن بأجمل الاشعار وينثرن الطيب والمسك على أجساد الامراء العارية وقد مـال الشرب برءوسهم وكأنهم خلوا من تبعات الحيـاة وأمنوا غدر الدهر وانطبق عليهم قول الشاعر :

تلقـــاه كالفحـل معبودا بمجلسه

له خـــوار ولكن حشوه خـــور

وكيف يشعر من في كفه قدح
يحدو به ملهياه النـاي والوتر ؟!

***

وعدنا أدراجنا وقد أوغل الليل وأرهقنا طول الطواف وقد تأبطني أستاذنا الكبير يحيى حقي بيسراه متكأ على عصاه التاريخية بيمناه وهو يقول :

شابت ذاكرتك فخابت عنك الأبيات !

واطرقت صامتا وتذكرت أمسية اذاعية له منذ سنوات خلت يحكي شريط ذكرياته وينعى على الشعراء تعجلهم وعدم مكابداتهم وساق مثلا ساخرا حين كان يسمع حديثا لبعض الشعراء في الاذاعة يتحدث عن الشعر ويستشهد بأبيات منها هذا البيت الشهير لابن زريق :

رزقت ملكا ولم تحسن سياسته
من يؤت ملك ولا يحسنه يخلعه

ونطقه المتحدث بفتح الياء لا بضمها فمسخ المعنى وكشف عن جهله وتمر الأعوام وهانحن في مهد صاحب هذا الشعر الرقيق .. فقلت له وهو يخطو فوق عتبات الدرج الأخيرة كشاب في العشرين : هاجر بيتك القديم الذي سقته مثلا من عينية ابن زريق اليتيمة الذي اشتهر بها ولا يعرف بسواها والتي يقول فيها :

لا تعذليه فان العـذل يولعه
قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومـه حـدا أضر به
من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبـه بدلا
من عذله .. فهو مضنى القلب موجعه

حتى وصل الى بيته الشهير « رزقت ملكا » وهــو البيت الذي نهرت به ام الامير عبد الله ولدها المخلوع به وهو يبكي كالنساء بعد أن سلم مفاتيح غرناطة .

ولم ينقطع حبل الشعر طوال رفقة كاتبنا الكبير كان يتمثل بقول الشاعر فاذا به يطابق المعنى ويعبر عنه بايجاز واقتدار وكانه يعبر عن جانب الشاعر الخفى فيه وهــو الكاتب والروائى الذى وعى كثيرا من المأثور والمنتقى من التراث . يستشهد به في أحاديثه وخطبه .

وكان اجمل تشبيه قاله في ذكرى طه حسين العاشرة وهو يصف لقاءه بالعميد لاول مرة هذا البيت :

يغضى حيــاء ويغضى من مهابته
فلا يــكلم الا حين يبتســـم

والبيت من الشواهد الاثيرة لدى جمهرة النقاد مما حسن لفظة وسهل معناه وصاحبه شاعر قليل الشــهرة هو « الحزين الكنانى » قاله فى أبيات يمدح بهـا عبد الملك بن مروان .

وحين جمعتنا مائدة العشاء فى بيت سفيرنا المصرى « صلاح خليفة » فى العاصمة الاسبانية فوجئنا به ينحنى على يد يحيى حقى مقبلا بعد عناق طويل .

وحسبته عاشقا لفن كاتبنا الكبير عبر عنه بأدب الابناء فاذا به يعترف بانه تلميذه القديم أيام عمله فى السـلك الدبلوماسى .

ومنه تعلم الكثير واهم ماتعلمه ويعتز به حتى الان هو حبه للغة العربية واجادتها ثم حبه للشعر وطـالت احاديث السمر حول هذا ..

وذكريات يحيى حقى فى العمل الدبلوماسى وقبلهـا

معاونا للادارة دون أن يخلو الحديث من ذكر المأثور من ابيات الشعر يرصع بها حديثه ويضيف اليه عطر الموسيقى وهو يتدفق ويتألق كأنه هديل الحمام الشجي او كأنه العصفور بلله القطر .. يرف بالجناحين مرفرفا نحو حديقة الثمانين !

***

السقوط الاخير

ويحكى أن عائشة الحرة صاحبت الدار المذكورة كانت ابية كريمة تزوجت بالسلطان الغالب بالله التى انجبت منه « أبو عبد الله » آخر ملوك بني الاحمر فى غرناطة . وعشق زوجها غادة اسبانية حسناء « ايزابيلا » وقعت اسيرة فى قبضة جيوشه فاحبها واسلمت وسماها « كوكب الصباح » وهام بها والهته عن زوجه وبنيه وقصره وشعبه . وثار الدم فى عروق عائشة الحرة واستنفرت من حولها للانتقام وطال الصراع بينها وبين الامة الاثيرة وانتصرت عليها كوكب الصباح وأمر السلطان باعتقال زوجته الاولى ، فسجنت هى وولدها وطالبت كوكب الصباح مليكها العاشق بأن يقتل ولده حتى ترضى وهم الملك بذلك . لولا أن هربت عائشة بولدها مع حلفائها وجمعت جيشا من الفرسان وحاصروا السلطان الذى فر منهم واقتحموا القصر وجلس الامير أبو عبد الله على العرش .

وتوالت الاحداث تباعا واستمرت الحرب بين الامراء والطوائف ولجا الاسبان الى الحيلة والخداع ونصروا

الامير الجديد على عمه وطالبوه بالثمن وكان مفاتيح غرناطة وأبى الفتى الامير ذلك واشتعلت الحرب بينه وبين الاسبان وحاصروه حتى استسلم ودخل الامير وزوجته ايزابيلا غرناطة وتسلموا مفتاحها وسجلت اللوحات تلك اللحظة والامير المهزوم يزحف أمامهم بالمفتاح !

***

وخرج أبو عبد الله أو « بيدو أباديل » كما كان يسميه الاسبان يجر أذيال الهزيمة والعار دامع العين موجع القلب يزفر زفرة اخيرة عند صخرة الجبل التى سميت فيما بعد « بزفرة العربى » وصارت مزارا سياحيا خرج يبكى وينتحب كالنساء وتنظر اليه امه عائشة الحرة تنهره وتعنفه على ملك اضاعه ثم يبكيه كالنساء قائلة له : « أجل فلتبكك مثل النساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه مثل الرجال » :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

رقصة الحزن والغضب
في بحور الشعر واللهب

طويت أوراق الرحلة الربيعية بعد أن مرت أيامها كالحلم المرتد الى أعماق القرون والاقبية .. يجوس عبر الردهات الذهبية ثم يهوى كالنجم فجأة محترقا .. يتدثر برماد الارض والذكريات ..!

واذا كانت البلاد السعيدة هي البلاد التي بلا تاريخ .. فان البلاد الشقية هي البلاد ذات التاريخ العريق !.

واي شقاء وحسرة للجذور العربية الواغلة في العروق وهي . تنبت الشوك والحسك والمنون بعد ان كانت تزهر الورد والفاكهة والزيتون ؟.

نات الطلول فتلفت القلب ولاحت المآذن المدببة تمزق ضلوع السحب المسافرة وكأنها تمزق صدر عدو قلب اهليها .. وأسراب الغمام عالقة باعاليها .. كما لو كانت رايات من اللهب حبلى بعصير الزعتر وانقـاض اللحى والعمائم وسأم النراجيل !.

لا غالبا آلا هـــــو الله
سبحانه لا رب الاه
في كل ركن رحت القاه
أعطى وكان لغيرنا الغلب
فاشرب على الذكــرى
في ساحة الحمـرا ..
اطلال من أســـــرى
تبكي مهل يبكي لها العرب

عاد بنا القطار مرة أخرى الى العاصمة لنقضي بهـــا الليلة الاخيرة قبل الرحيل .. ونتسكع فى أسواق المدينة و « قهوة الفنانين الشهيرة » التى اكتظت بأنماط الفنانين والعازفين والشواذ ..

الى أن حط بنا الرحال فى حى « كورال العرب » فى مدريد القديمة .

قطعة حية من المجد العربى القديم .. فوانيس الشوارع وقد ترنح شعاعها يسكب الضوء للعـــابرين من طول ماتصاعدت حوله أبخرة الاشربة المعتقة .. وكأنها سكرت من طول ما سهرت فى حى الانخاب والموسيقى والرقص .

الابواب الخشبية المطعمة بألوان النقش والخـــزف والصدف الانيق والاقبية التى تقودك الى القاع حيث خشبة المسرح والمناضد المفروشة الدوارق المصـــفوفة وضباب الدخان المختلط بأنفاس السكارى .. وأصـــداء الموسيقى الصاخبة ودقات الكعوب المنيفة وطرقعـــات الصاجات الخشبية وهديل القيائر الحزينة .

والراقصة الغجرية تغنى أغنيات الحزن واللهب ... وتحكى الاغنية عن رجل هدد أرضه الا يسقيها أو يرعاها .. فلم تهتم ثم عاد مرة ثانية وهددها الا يحرثها ويرمى فى تربتها البذور فلم تعبأ ..

وفى المرة الاخيرة هددها .. انه سيهجرها ويسافر بعيدا عن أحضانها بلا عودة .

وتصرخ الارض « الام » وتبكى وتنتحب .. وتجثو على اقدام ولدها تمسك به لترده الى أحضانها كيلا يرحـــل عنها .. حتى لا يموت بعيدا عن تراب الوطن .!

« والفلامنكو » .. لغة من خلال لغة .. ولوحة شعرية لرسام مجهول لغة عالمية القاموس والمفردات يحفظونها عن ظهر قلب .. وتحكى عن الفرح الفارق فى انهار الحـزن وتغنى الالم المشوب بالعنف الجميـــلى .. ويعلو خفق قلوب الغجريات الراقصات يعكس نبرات التحــزن على الوجوه ..

قلوب مشدودة الى احباء وعشاق من ابناء العشـيرة وحدها .. ولا تفتح نوافذها لغريب لانه لن يستطيع أن يملأ هذا القلب أو يشغفه حبا .. لان القلب ملآن لحافته مثل زجاجة خمر معتقة مختومة بخاتم الابد .. القوها على صفحة الامواج تتقاذفها دون أن تغوص فى الاعماق او يفتض بكارتها أحد !

تشتد الرقصة رويدا رويدا ـ وتتشكل الاصابع كأنها أوتار مشدودة لكف عاشق ويختلج البدن وتشـــرأب العروق حتى تكاد تتفجر بالدم .

ويحلق الصوت الجميل يعلو ويسمو ينتحب ويحن ويقسو ويجفو ويتوسل ويكاد يجهش بالبكاء دون دموع .

ويتلوى الجسد كشجرة نحيلة سامقة عرفت العشق فتسلقت الجدران والاركان ويتهجد كأنه يؤدى صــلاة الوجد والوصول ـ ويتهدل الشعر الاسود بعد ان انفرط من ضفائره ـ كأنه الليل هبط فجأة وارخى سدوله فوق الارض وينوء بحمله الهواء المثقل بانفاس السهارى :

وتحسر الراقصة عن ساقيها وكأنها « بلقيس » تمشى على الماء .. ويمر لألاء شعاع وردى من النور المختبىء داخل كنوز الجسد .. وترفع أطراف الثوب ذى الطيات المتراكمة وكأنها ترفع ستائر الغرف المخملية عن ضوء الشـمس الوليد .

ويرتفع نشيج الموسيقى ويتسلق صــوت الغجرية الجدران حتى يكاد يخترق سقف المكان .. وهى لتتخطر بضة غير متجردة تتدفق حرارة ودفئا .. وقد توهــج الوهج الكلاسى تحت مصابيح العقيق .

انف اشم مستقيم دقيق وشفتان ممتلئتان كشــقائق النعمان كأنهما نافذتان مغلقتان لا تبوحان بما فى الاعماق .

وفم كالاقحوان كأنه القرنفلة المبتلة برحيق القبــلات وجيد مطوق بأطواق الفل والريحان .. وبشرة شــاحبة شحوب اللؤلؤ الذى لم يعد مكنونا وجسد ممشــوق كالرمح الذى لان وتشكل فانثنى أو كالغصن الذى لوحته الشمس فانحنى ومال على ليونة وانسكاب يكاد يعقــد بالكف والانامل .

« والتنورة الاندلسية » .. على راس الراقصــة وهي تميس سرقت زهر الاندلس وعطرها .. صوت الجيتار الشجي ينبعث من اعماق البحار والغابات .. الظــلال تغمر المكان وعناقيد الشموع شاحبة تشهق باللهب الاخير وبقعة من الضوء المتحرك تغمر جسد المراة ذات الثــوب والتنورة المعقودة مثل تاج اميرة أو مثل « قصعة عائشة بنت طلحة » الشهيرة وقد عقصت طرتها من فوق وشاح مغطى .

انها رقصة الفلامنكو الشهيرة موال الغجر الحزين .. يتوارثه الابناء الجوالون هنا وهناك .. ولد مابين قرطبة وملقة ورحل به الغجر ثلاثة قرون من الاضطهاد والتشرد لا يملون من غناء موالهم الراقص الحزين وكأنه نشيدهم القومى .. يجتمعون حوله فى لحظات الغربة والسفن .

التفت الساق بالساق وكأنهما شلالان من ضــوء

مرمری .. تشكلّ بذوره لطـــولَ الدوران والالتفـــاف كالزنابق البيضاء . حيث تدور الراقصة وتدور وتدق الارض وتقبل وتدبر وتنثنى وتتلوى وتلتاع وتتصدى .. ويدور معها صوتها المحلق فى بحته الاليفة الموحية .

ويتابع الجميع وقد رف على الرءوس طائر الصمت .. يحملقون ويسابقون الايقاعات الراقصة بعيونهم قبل آذانهم .. وكأنهم فى لحظـــة عرس مقدس صائحـــين هاتفين :

« اولى .. او .. لى .. اى الله .. الله » .

وتتوحد ظلال الليلة الاندلسية الاخيرة فى الرقصـــة الفجرية التى لا تنتهى .. ويمتزج دم العنب النبيذى بنفح الطيب الاندلسى .. ويتراقص شعاع الفراشات على الوجوه ويختلط الحلم بالطفولة والشوق بالنغم واللحن بالقلم والشعر بالرقص والبكاء ..

وكان الراقصة .. تلو الراقصة تروض معنى مجهولا او جوادا حرونا .. وكأنها تحتلب ضرعا امتلأت فأرنت حين لمستها الكف الحالبة رنين الوجع والعطاء .. وتذكرت قول امرىء القيس يصف هذه الناقة وقد امتلأ ضرعها وقام حالبها فما تطيق لأصابعه لمسا .. فتصـــدر ذلك الرنين المكتوم وسط الحس القاتى بعد :

اذا ما قام حالبهـــا ارنت
كان الحى صبحهم نعى !

***

ويتارجح القرط المستدير الكبير .. وتتدلى العناقيد من بساتين الكرز .. وتنسدل الاهداب السوداء كأنهـــا مظلة الجداد تحمى الوجه الحزين من دموع المطر .. وقد

اشتعلت بشعلة الرعد وبرقت ببريق مجهول ينتظر مالا يجيء ! .

« الفلامنكو » لوحة تحمل في طياتها نفسية الاسباني الفريدة الالوان وما يحمله من دم عربي مازال عالقا بالعروق وتعكس الصراع والمعاناة وفروسية الحب والكراهية والاخذ والعطاء كل ما عاناه الاسباني هو وبلاده العريقة .

وصوت راقصة الفلامنكو عصارة من اباريق الشرق وأباريق دنانه المعتقات .. وبحته الاليفة المترعة بخمر الليالي .

لوحة من لغة مجهولة .. والوان لا نهائية صامتة ولكنها تحول الصمت الى ايقاع وتتابع الراقصات ولا ينتهى الرقص والغناء .. ويتفصد الجسد عرقا كأنه كرمة أعناب تعتصرها ريح الصبا فتعطى رحيقها في موسم الحصاد الربيعي .

« آه من الحب ..

الذي ذهب ولم يعد !

آه من الحب الذي طارت به الريح » .

هكذا تنطلق الاصوات بالغناء العميق تنشد قصيدة « لوركا » صديق الشعب الغجري والذي صور حياته الدامية في ديوان شعري كامل .. وتحكى قصيدة «الاوتار الستة » وهي أوتار القيثارة التي تبدو على سواد فجوتها المجوفة كعنكبوت تنسج نجمة ضخمة لتصيد الزفرات الطافية على خشبها الاسود .. ويتخيل لوركا أغنيات الغجر متشحة بالثياب السود رمزا للحزن العميق .

وتحكى قصيدة « اغنية الالم الاسود » مأساة امرأة

فجرية هى « سوليداد » تفقد حبيبها . وكأنهـا تعبر بكلماتها عن الالم الاسود الذى هو ألم الجنس الغجرى كله :

ـ « سوليداد .. أى الم اصابك ؟ .
انت تبكين بدموع كعصير الليمون .
وطعم الانتظار المر على شفتيك .
ـ نعم .. أى ألم فظيع يمزق نفسى ؟ .
انا أجرى من بيتى كأننى مجنونة . وضفائرى تسحب على الارض .
من المطبخ الى الفراش ..
ويلى .. على ثيابى الحريرية
ويلى على فخذى الناصعى البياض
ـ سوليداد .. اغسلى جسدك بالماء الذى ينهل منه اليمام واتركى قلبك فى سلام .. ياسوليداد مونتويا .

ونصغى الى الاغنية التى تتردد فى جو الليلة السمراء .. من خلال آهات الاوتار الراجفة والحناجر الجريحة التى تحدثنا عن العيون والشفاه والحب والقدر وتسرى مع الليل كالحمامة الطائرة .. تحمل فى جناحيها الحقيقة الجميلة وترفرف فى عالم الحب الذى طارت به الريح .

ماسر هذا الحزن الدفين الذى يملأ كهوف راقصات الفلامنكو وقلوبهن الوالهة ؟.

يقولون ان الكلمة نداء قديم . نابع من جراح المطاردة وعذاب المنافى من مكان الى مكان .

صيحة الم واستغاثة فى جحيم المعارك الوحشية تطلب الرحمة . حيث كان الغجر يصيحون خائفين وقد داهمهم الغزاة ــ كما ترى بعض الاقوال :

« فلاح منكم . فلاح منكم فلا تقتلونا »
وبقيت الكلمة على الافواه وحولتها اللكنة الاسبانية الى « الفلامنكو » .
وبقدر ماسعدت بمشاهدة رقصة الفلامنكو بقدر مانفرت من مشاهدة مصارعة الثيران وبقدر مارجف قلبى وكلاهما طرفان فى الشخصية الاسبانية .
الرقصة تعبر عن صراع الجسد حين يتوهج ويشتعل ويستحم فى بحار العرق .
والمصارعة رقصة دموية تعبر عن فروسية الرجل ووسامته وقدراته على الاقتحام ورشق السيوف والسهام فى رقبة الثور الهائج بعد ان يتعاقب عليه مساعدوه ويتناولونه بالطعن والوخز حتى ينزف فيتلقاه الفارس البطل برايته الحمراء وقد اثخنته الجراح ، وما هى الا جولة واخرى ، ومحاولة غرس قرون الثور فى جسد قاتله فى وثبة أخيرة حتى يرشقه الفارس بالسهم الاخير فتسقط الضحية ويلوح البطل للجماهير التى تصرخ صرخات الاعجاب الوهيب !.
كلاهما صرخة فروسية وقتال لها طقوس وتقاليد ولكن فروسية الجسد مصحوبة بالرقص والغناء والشوق وفروسية قتل الثيران مصحوبة بالسيف والرمح والدماء . !
فروسية الجسد صلاة حب وعبادة واشتهاء ، وفروسية المصارعة رقصة عنف ومواجهة دموية حمراء !

***

أضواء الفجر تلتمس طريقا لها عبر زجاج النوافذ المعشقة الالوان . . والراقصة لا تهمد تنهى دورها فتنطلق

الاخرى لتبدأ جولة جديدة .. والراقص الفتي يلف ويدور ويغني ويدق الارض بحذائه المدبب اللامع ، يلاحق دقات « الكاستيلينا » الخشبية « صاجات الاندلس » من شجر القسطل لا من النحاس الشرقي ، والعيون السود بدات تغرورق بدموع غامضة ، وفتكات الطرف في أجفانها وسوادها تلمع كأنها السيف في الظلام :

فتكات طرفك أم سيوف أبيك
لا انت راجمة ولا أهلوك
زعموا التكحل في عيونك حلية
تالله ما بأكفهم كحلوك

هل كان الشاعر يقصد تلك العيون صاحبة الفتكات الفارقة في بحار الكحل والعنبر ؟؟!..

وترتعش الاهداب وتنسدل على الوجنات وكأنها ترتشف من رحيق التفاح او كأنها تطبق فجاة كالفخاخ على نظرات الطامعين الزاحفة في مجرى العبير من نهديها !.

شلال هادر من النغم والضراعات العطشى والنداءات المبهمة كأنها الرمق الاخير وتختلط ايقاعات القياثر بهتافات الحناجر ، وريشة عود « زرياب » تكاد تجود بانفاسها الواهية المحترقة واشتعل الوجد وماد القد ، وهتفت وانا اصفق على نغمات الرقصة :

« أولي .. أو .. لي .. الله .. الله . »

ويهدأ الضجيج وتلتفت الراقصة كمن لدغتها أفعى وتطاردك نظرات اللعنة ! جريمة لا تغتفر أن تصدر صوتا او حركة تقاطع طقوس رقصة الجسد وتحاصرك عيون الاستنكار تكاد تفتك بك وانظر حولي لاداري وجهي ولكن

الشعر جواز المرور وصك العبور فى متاهات هـــذه الليالي .

خف صديقي عاشق الاندلس الى جوقة العــازفين والراقصين وتهامس معهم فاذا بالاستنكار يتحول الى تحية حب واذا بالانخاب ترتفع فى صحة الشعر والشــعراء وتراق دوارق « السانجريا » مشروبهم الشهير من عصير العنب والليمون والتفاح ورحيق الازهار والفواكه نخب لوركا وماتشادو واونامونو وبابلونيرودا وابن زيدون .

ودوى المكان بتصفيق الاكف والاوتار والـــكعوب ، واشتعلت الانفاس وماج المهرجان ودقت الاجراس تؤذن بالرحيل .

حزمت حقائبى وحملت ساقى ، وقطرات الطل تهمى من عيون النرجس النعسان من لوعـــة الرحيـــل حتى الاشجار ذات القوام النحيل كانت تعبق ببكاء النـــدى وبوح المواويل !

اليتيمـة .. وشلال الضوء الأسود !

سقطت شعرة سوداء من مفرق امراة سمراء !
امراة دعجاء نجلاء شهلاء .. كحيلة الجفون خمرية العيون
على ربوة من وجنتيها شامة شهباء هى « الخال » الذى تغنى به الشعراء وقيل فيه الموال .
وهى طابع الحسن .. الذى يتحدث عنه العشاق .
فرعاء هدباء وطفاء .. موطأة القد موردة الخد رابية النهدين والزند .
معقودة الصدرين على تاجين من ذهب ولجين فاح فى مجرى العبير منهما أريج سرى بالعطر الطروب فضمخ الأركان فماد المكان وشبت النيران فتمثلت بهذا البيت من قصيدة « اليتيمة » المعروفة :

وبصـدرها حقـان خلتهمـا
كافورتين .. علاهمـا ند

***

واليتيمة قصيدة دالية راقصة الموسيقى من بحر الكامل الذى سمى كاملا لتكامل موسيقاه وتفعيلاته .. نظمت فى وصف حسناء وفى ذكر محاسنها ولمارى عليها الشعراء قديما وادعاها كثرتهم الى أن غلب عليها اثنان

هما أبو الشيص والمكوك اليمنى الكندى .. وتماريا فيها الى أن صحت نسبتها الى « دوقلة المنبجى » الجاهلى باجماع النقاد والرواة .

ولقد وصفت اليتيمة باليتم لتفردها ولقصور صاحبها عن قول سواها اذ لم يعرف له فى الشعر غيرها من القصائد .

ولذلك قصة تروى ...

ذلك ان الاميرة الجميلة « دعد » وكانت شاعرة ساحرة للقلوب والالباب أقسمت ألا تتزوج الا شاعرا يتفوق عليها ويصفها من راسها الى قدميها بقصيدة تروى على مدى الاجيال .

ونظم « دوقلة المنبجى » من شعراء الجاهلية هذه القصيدة طمعا فى الظفر بقلب الاميرة الشاعرة الجميلة .

وحمل « دوقلة » قصيدته وسار من بلدته « تهامة » الى بلدة المحبوبة الحجازية « نجد » .

وفى الطريق صادفه شاعر نازح لنفس الغرض وهو الظفر بقلب الاميرة بقصيدة شعر نظمها فيها ونافس بها غيره من الشعراء .

وتحاور الشاعران .. وتجاورت أعناق المطى وهما يقطعان نفس الطريق الى الرحلة المشتركة ..

وانشد « دوقلة » قصيدته لرفيق السفر .. وما أن سمعها حتى أيقن انه ظافر بقلبها لا محالة ..

فاحتال عليه حتى قتله وسرق القصيدة ونسبها لنفسه وانشدها بين يدى « دعد » وطربت الشاعرة الاميرة للقصيدة حتى مالت .. وفجاة فطنت وكانت ذات فراسة وفطنة الى أن لهجة الشاعر السارق المحتال تختلف عن

لهجة صاحب القصيدة القتيل وهو من أهل « تهـامة » ولها لهجتها وبهذا يعترف الشاعر المقتول بأنه من تهامة وانها من نجد موطن هواه :

ان تتهمى فتهـــامة بـــلدى
أو تنجـدى ان الهـوى نجد

وصاحت دعد : اقتلوا هذا الشاعر فانه قاتل بعلى .

واسروا الشاعر .. واستنطقوه فاعترف بفعلتـــه وقتلوه !

وعاشت القصيدة تروى عبر الاجيال وذاعت قصـــة الشاعر الشهيد المجهول . ألذى قتله رفيق السفر غيلة ليظفر بقلب الأميرة الجميلة .

وبقيت قصيدة « اليتيمة » لدوقلة المنبجي الجاهلى حية نابضة عبر القرون لا يروى له سواها وتغنيه عـن ديوان كامل .

***

وتذكرت القصيدة طوال رفقة السفر مع المرأة السمراء ذات شلال الشعر الاسود .

ونثرت أبياتها عبر مســالك الدروب والمخــاطبات والموقف وانا لا أخشى رفيقا يغتال القصيدة أو الشـاعر لذى يقول :

لهفى على دعد وما خلقت
الا لحر تلهفى دعد
فالوجه مثل الصبح مبيض
والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد

وتلفتت المرأة السمراء لفتة المها ولوت جيدها فشف عن لؤلؤ مسبوك وعنبر مسفوك يكاد ينسكب لفرط نصاعته وليانه ويمتد ويستطيل اذا مال الى أعلى ليقطف من شجر الاراك ! .

والجيد منهـــا جيــد رائعــة
يعطو اذا ماطـــاله المرد

ومشت لا يعيبها قصر ولا طول فقوامها قصد وحفيفها ورد كأنها عود بان تسعى به ساقان كست بواطنها ظواهرا نورا وخمرا من رخام مصقول ونبيذ معسول !

ومشت على قدمين حضــرتا
والينتا فتــكامل القد ..

وتأودت بفتور عين وجسد .. فكاد خصرها يميل وينهد .. وكاد لرهافته ولينه بالكف يعقد :

وبخصرها هيف يزينـــه
فاذا تنــوء يــكاد ينقــد

***

أطلت بنظرة من عل كأنها ملك متوج يمشي على الديباج والحرير ويسير على بساط المسك والزهور لينظـر في أمر رعاياه ويتحكم في شئون محبيه .

يجري في جسدها العارم دم عربي قادم من ينـابيع الشرق المعتق الأفاويق المهشم الأباريق يتدفق نضــارة ويشتعل دفئا وحرارة ويفيض اقتحاما وجسارة .

لله أشـــواقي اذا نزحـت
دار بنـــا ونأى بــكم بعد !

وماست في كبرياء وتيه وهي تسوي بيد الفتنة خصلة

من شعرها الجعدى الفاحم الفروع والاصول .. وقد ارسلته خلفها فتدلى يرفل فوق جسدها كأنه وشــاح الظلام يغطى نوافذ القوام ..

ويزين فوديها اذا حسرت
ضافى الغــدائر فاحم جعد

جيوكاندا عربية .. شرقية العيون والابتسامة رسمتها ريشة القرون المجهولة ..

أومأت لى . فأومات لها ونادت فأطعت .. كأنى منجذب الى قوى خفية تتسلق جدائل شعرها وتنفذ من أهداب عينيها المسبلتين وكأنها غافية بعد .. أو أنها عاشقة نشوى لم تفق .. تنفث السحر فى الاخرين دون عمد منها أو ترصد :

وكأنها وســنى اذا نظــرت
أو مدنف لمــا يفــق بعــد !

كنت اراها كل يوم هنا وهناك .. وكلما يممت وجهى اراها وكأن الأرض تنشق عنها مثل جنيات البحر وعرائس الفردوس المفقود ..

نتلاقى من بعيد .. على نظرة عجلى أو لمحة مختلسة وكأن كلينا لايتعمد اصطياد عيون صاحبه أو يزاحمه فى عرض الطريق ..

كانت تحمل جهاز تسجيل صغير وقلما وورقات بيضاء وكتابا عن « القرطاجنى » نتراسل بالنظرة المخترقــة الصامتة النجوى تشدك اليها بحبال الصمت الطويل حتى اذا اختلجت النظرتان وانطبقت العينان ارخت الأهداب

وغلقت الابواب فى عجل وخجل . فاغفو لحظة فى جبال الكحل الراقد بالاجفان !

وما أن أفيق حتى ترميك وتلقى بك من قمم العيون الى سفح الجفون . فتتدحرج تحت شواظ النظرات وكأنك فلذة من كبد الجبل تنحدر من عاليه آلى واديه !

وسرعان ماتحول بصرها عنك وكأنها أزاحت عن كاهلها عبئا وتجول به وتصول على غير قصد هنا أو هناك .

بفتور عين ما بها رمد
وبها تداوى الاعين الرمد

هرعت الى جوارها وقد افسحت لى مكانا .. وجعلت بيننا الورقات البيض والقلم وكتابها الاثير .

ونظرت الى المقعد الخالى بيننا الا من الورقات والقلم .. وكان اولى أن يكتمل الجوار بلا حواجز وكأنها تريد أن تؤكد بعد المسافات بيننا رغم قرب النجوى والمشاهدة .. وقلت هامسا لها : سلى صاحبك « القرطاجنى » عن هذا البيت :

ليكن لديك لسائل فرج
ان لم يكن فليحسن الرد ..!

وابتسمت ابتسامة متجهمة ولاذت بالصمت عن لا أو نعم !

هبت نسمة ربيعية من خلال نافذة المبنى القديم الذى نحن فيه وسقطت شعرة سوداء من غابة الشعر الطويل الذى يكلل مفرق المراة السمراء . التقطت الشعرة

السوداء وكأنى ألتقط خيطا ضالا انفلت من شلال الضوء الاسود .

وكأنه وتر قيثارة حزينة ترتدى أوتارها ثياب السواد حدادا على لحن لم يتم !

تلوت الشعرة السوداء وتراقصت فوق الورقة البيضاء رقصة الافعى .. نحيلة عاشقة سامقة وامقة يكاد يجرحها حفيف الهواء السارى من النوافذ المشوشية التى تطل على الحديقة الفيحاء فى القاعة الكبرى للمعهد الاسبانى العتيق .. فى محاضرة أدبية يلقيها الدكتور « بدرو مارتينث » ـ المستشرق الشهير :

وبلا قصد أو عمد التقطت الشعرة فى سرعة خاطفة وحنوت عليها وكأنها شعاع قر غاضبا من قبضة الشمس ولاذ بالارض الحنون وطويت عليها صفحات كتاب معى ولفنا صمت حزين .

وانتفضت المرأة السمراء مذعورة مقهورة كأنما لدغتها ذات ناب أو غافلها نشال محترف فى الظلام .. فسرق منها جوهرة التاج .

أو فقدت عزيزا لديها أو كأنى اطلعت منها على عورة أو عريت فيها سريرة وكشفت ماتود ستره ..

مدت يدها وكأنها تتقى سهما رشقت موطن العفة فيها لتسترد الشعرة السوداء !

اشتعلت اللحظة وتوهج الحنين ورعشت الكف المخضبة البنان تحت كفى الراعشة الانامل وهى تحتوى الشعرة وكأنها تقبض على كنز ثمين وشدت المرأة السمراء يدها وكأن نارا مست كفها والمعصمين !

والمعصمان فما يرى لهمـــا
من نعمـــة وبضــاضة زنـــدا
ولهـــا بنـــان لو أردت له
عقدا بكفك أمــكن العقـــد !

تحول الاقبال والود الى اغضاء وصد ..

وتحولت النظرة الغامضة الآمرة الى نظرة وحشـــية نافرة .. كأنها مخلب طائر كاسر يكاد ينشب الاظافر فيك وينقرك ..

وانقلبت الشفة الوامقة المكتنزة الى شفة جاحـــدة متحفزة .

وجمت الحسناء السمراء وأشاحت بوجهها غضـــبى فامسى كل شيء واجما !

وجمت فامسى كل شيء واجمـــا
الليـــل والاصـــباح والديجـــور

ما الذى حدث وأية جناية ارتكبت ؟

وهي الحدث والجناية والقصيدة والرواية ترمى بجدائل شعرها فى طريقى فاعشى ولا ابصر المصير !

وتنشر ضفائرها حولى .. وكأنها فخاخ تطبق على قدمى وتدمى جناحى كالطير الاسير .. فاتعثر واضـــل المسير ! ..

أي جرم وأثم فعلت وهى التى ترسل شواظ النار من عيونها النجلاء كل يوم فى دروب الشعراء والغرباء !

انقطع بيننا حبل الكلام ورف طائر الخصام.. واغتسلت جدائلها السود بامواج العرق التى سالت على النحـــر والصدر ورف قول الشاعر :

وانا أناس لا توسـط بيننـا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

كنا قد اتفقنا على أن نصعد الجبل بعربتها عبر الطريق البرى الى الجنوب الاندلسى ..
وحين التقينا هنا أو هناك .. وجمعنا طريق واحد توقفت غضبى وكأننى ازاحمها الطريق أو أنازعها المكان ليختار كل منا طريقا غير طريق صاحبه وان جمعتنا اسباب الوصول .
وحين ضمتنا موائد العشاء فى المطعم الانيق ..
اشاحت كاشرة كاسدة الغابة الموتورة الحمقاء ..
وانتحت مكانا قصيا ونذرت الا تكلم عشيتها انسيا :

ان لم يكن وصـل لديك لنـا
يشـفى الصبابة فليـكن وعد

***

واشرق الصباح وكفت شهر زاد عن القول المباح ..
وخرجت اجوس فى الطرقات وامشى فى الأسـواق تحت رذاذ المطر الدءوب .
وانتصبت أمامى .. كالسيف فى الظلام .
اقبلت وأدبرت مثل انثى قد تصدت للذكر
تمشى فى خيلاء وحياء ويمنعها من الاعتذار الكبرياء
تحتال على بدء المحاورة زاعمة أنها تضمر الود بعد أرق وسهد .. وتشى عيناها بمعنى الكلمات الدفين دون أن تبوح :

وزعمت أنك تضـــمرين لنا
ودا فهلا ينفــع الـــود ؟

***

حسبتها تريد أن تسترد ماالتقطته من خمائل شعرها المسكي الاثيل فأخرجت الشعرة السجينة من طيــات المنديل ونفخت فيها نفخ المزامير فطارت على قارعـــة الطريق ليغرقها المطر وتحملها الريح الى جبل يعصمها من الطوفان .

تسمرت وتلفتت وطارت نظرتها خلف الرياح وتناثرت جدائلها فى مروج الصباح وكأنها ثكلى ترسل النواح على وليد اختطفته الاشباح !

***

كف المطر عن الانهمار وطوق الوجود لحظة انكسار ..
وغرقت اللحظة فى بحر الاسى والدوار ..
وهمست لى وهى تغض البصر تطلب كتابا بعينه ..
وأعطيتها الكتاب وقلبت صفحاته الاولى فلم تجد كلمــة اهداء ..

وصرفت النظر الى بعيد وكأننى أطارد الشعرة السوداء التى حملتها الريح الى جبل يعصمها من الطوفان !

وإذا المحب شـــكا الصـــدود ولم
يعطف عليـــه فقتـــله عمـــــد !

***

قالت لى السمراء الاخرى تعلق على ماحدث :

هذه بضاعتكم ردت اليكم ..
شرقية غربية من لحمكم ودمكم ..
فمن الشرق ومنكم انحدرت فى أصلابنا نطفة الشوق والالق .
ورثنا عنكم الخوف من الحسد والقلق ومن شر ماخلق .. وصنع الاحجبة والتمائم حتى تتوله المرأة فى حب الرجل وتذوق الويل ولا تنام الليل وتطارده أينما كان كانها الجارية تتعلق بأذيال ثوب سيدها الرجل .
ربما اشتعل قلبها وجدا .. فلما فعلت فعلتك أصابها الخوف والهلع وظنت انك جاعل من الشعرة تميمة أو حجابا سحريا تسحرها به وتجرها خلفك أينما ذهبت حتى تغرقها فى نهر النيل !
وقديما كان فى الناس الحسد وانتم أهل السحر والشعر :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد
وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة
انما العاجز من لا يستبد !
حسد حملنه من اجلها
وقديما كان فى الناس الحسد

***

قلت لنفسى : أية تمائم واحجبة وأى تعاويذ وسحر وحسد ؟
وهل يقوى السحر والساحر على ارغام الحرائر ان تعشق وتحب ؟

وهل تقدر التعاويذ والطلاسم أن تجبر الارواح على العشق والهوى .

وما قول صاحبتي فى قول امرىء القيس حين طرق حبيبته بليل وفي حضنها وليدها الذى علقت فى عنقه التمائم والاحجبة بعد أن أتم حولا من عمره .. فلم ترده التمائم عن غايته ولم تؤرق الاحجبة ضمير ام الوليد فأعطت لكل منهما شقا :

فمثلك انثى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذى تمائم محول
اذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشق وشقى تحتها لم يحول !

الهبوط فوق أرض النسور

قمر الغريب هنا غريب فاشرب على ذكر الحبيب نعم لقد أشرق القمر من وراء السحاب غريبا مثلي .. ينفض عن جسده الفضي بقايا المطر المنهمر طوال ثلاثة ايام .. ودق القمر باب الشرفة ففتحت له وتسلل بأشعته الفضية الى الغرفة وقد رحلت موجة البرد العابرة ولاحت فى ضوئه أشجار السرو والحور الفاخرة . خضراء تستحم بدورها فى ضوء القمر .

واحتفلت بمولد القمر الغريب وشربنا معا نخب الغربة والشعر ولاح الصباح وأشرقت عين السماء صافية لامعة بعد أن غابت طويلا مع شقيقها القمر لتبعث الدفء والحرارة فى سماء روما العتيقة ..

وبدأ حى « النامونتانا » الهادىء الانيق مشرق الملامح تحف به الحدائق والخضرة وزهور « التيوليب » على نواصى الشارع وحزمت حقائبى وحملنى صديقى «كاظم» فى عربته الى المطار فى الظهيرة .. لتحملنى الطائرة من روما الى أرض النسور .

كان موعد الطائرة فى الرابعة والنصف ولم تقلع الا بعد ساعة ! ولاحت الطائرة الرومانية أشبه بعربات البريد القديمة ضيقة سقيمة وعلى سلمها طال وقوفنا ساعة اخرى .. بين التفتيش الدقيق وفحص الاوراق ..

واكفهر الجو فجأة بعد أن اكفهرت وجوهنا من التأخير وتعقيد الاجراءات والتدقيق والتفتيش وبدلا من أن تقطع الطائرة المسافة في ساعة تقريبا من روما الى « تيرانا » قطعتها في أكثر من ساعتين لرداءة الجو وانتشار الضباب ونحن نمسك قلوبنا في عربة البريد الهوائية وهبطنا وقد غمر الليل وجه الارض — ولاحت أضواء « دايتى » جبل تيرانا الشهير تخفق من بعيد فوق أرض النسور التى جعلت من الجبل أوكارها وهى تنقض على الغزاة !

وفي المطار كان حشد من الادباء والفنانين في الانتظار وكان الفن لغة لا تحتاج الى ترجمان كان دفء الاستقبال والحفاوة لا يحتاج الى لغة وقد اختلطت اللغات . . الايطالية واليونانية والتركية والفرنسية والدانيمركية والالبانية . .

واختلطت اللهجات والتحيات على أنخاب « الراكى » معبودهم المعتق وانطلق الموكب الى فندق « دايتى » الشهير لنلقى المزيد من الحفاوة والتكريم وقد بدت « تيرانا » بجبلها الاخضر واشجارها التى تملأ الشوارع في حلة من الضوء ولافتات الترحيب استعدادا للكونجرس الادبى الثالث .

في الصباح الباكر انتزعني عدوى اللدود من الفراش .. تسلل الصقيع من أعلى الجبل لينفذ من جدران الغرفة الواسعة ويتسلل الى العظام .. ونزلت الشمس الدفء تحت رذاذ المطر في الشوارع الواسعة الهادئة وقد هب أهلوها مبكرين للعمل الجاد .. المتحف الكبير .. الحديث المعمار الذى يضم صورا من تراث البانيا وقصص بطولات شعبها في حروبه ضد الغزاة التى توالت

عليه من كل فج وحملتنى العربة فى جولة حول المدينة وصعدنا أعلى الجبل .. الذى تحولت صخوره الى حدائق من الخضرة والزهور .. وتحولت ينابيع المياه فيه الى مياه معدنية نادرة وتساءلت فيم يفكر الجبل الصامت الذى ترتمى المدينة بين أحضان قدميه وكأنها طفلته التى يحتويها من علياه ويمدها بالخير والنماء .

وقالت لى « ديانا » مرافقتى الحسناء : لقد طرح قبلك شاعرنا الكبير « كاداراه » مثل هذا السؤال فى قصيدته التى يقول فيها :

بم تفكر هذه الجبال الشامخه ؟
عندما تغيب الشمس وراء السفح
يتسلق مغامر عند الغسق
حيث تلقى بندقيته ظلا مديدا
على أرض الوطن ..

وفى قمة الجبل الاخضر .. امتدت المقابر الرخامية بين الزهور الحمراء والسوداء والبرتقالية .. مقابر الشهداء الذين صدوا الغزاة .. وكأنها تطل بدورها على الارض التى بذلت من أجلها الدماء وقد غمرت أشعة الغروب قمة الجبل فارتعش القلب فى حضرة الخلود .

افتتاح الكونجرس

خرجت المدينة كلها منذ الصباح الباكر فى مسيرة زاهية الالوان من الادباء والشباب والطلائع ..

الملابس الزاهية الوطنية والرقصات الشعبية للفاتنات من بنات الريف والمدينة والالات الموسيقية العنيفة والاناشيد الحماسية والاعلام والبيارق الملونة .. ويجوب الموكب شوارع المدينة حتى الميدان الكبير الذى يبدو كلوحة

ملونة ، وقد انتصب فيه تمثال « اسكندر بك » فوق حصانه عملاقا رهيبا مثل أبطال الاساطير ، واستقبلنا « أوجولى » رئيس اتحاد الفنانين وكبار رجال الدولة والادباء والشعراء .. وانتقلت الاذاعـــة والتليفـزيون والصحافة لتسجيل لحظة اللقاء الادبى .. ولقـد كان احتفاء الاذاعة والتليفزيون اليومى بهذا المؤتمر الادبى دليلا على الحفاوة بالادب والفن حيث أذاعت أيام المؤتمر على الهواء مباشرة وعقب كل نشرة أخبار يومية ..

وافتتح المؤتمر .. قاعة المبنى فى ساحة دار الاوبرا مكتملة العدد ، وحضر رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والحزب الانفتاح .. والقى « دريتورو أوجولى » كلمة طويلة عن الادب والفن والروابط الثقافية والانجـــازات الهامة فى هذه المجالات وخطط المستقبل الادبية .

وتعاقب الادباء والفنانون من أعضاء اتحاد الفنـــانين وممثلى بلاد الجمهورية الخمسة .. واتحاد الفنـــانين يضم الكتاب والشعراء والصحفيين وأهل الســـينما والموسيقى والمسرح والفنون الشعبية وعلى مدى أربعـــة أيام صباحا ومساء توالت جلسات المؤتمر تحدثت فيـــه الوفود عن مشكلات الفن والادب وسبل تقوية الروابط الثقافية بين الشعوب وهموم الفن العالمية والمحلية .. كانت الكلمات تلقى بلغات أصحابها ثم تترجم الى اللغـــة الالبانية .

وكان المؤتمر ينتهى فى الثامنة مساء كل يوم لنبـــدأ جولة أخرى ليلة فى الاوبرا لمشاهدة « لاترافياتا » رائعة فردى من فرقة الاوبرا الالبانية وليلة مع اوركسترا الموسيقى بقيادة فنانهم الشاب « فهيمى » وليلة مع فرقة الباليـــه

والفنون الشعبية الرائعة .. ولا ينتهي الليل .. وانما تلتقي في ندوات هامشية في الفندق الكبير .. مرة على مائدة « أوجولي » وأخرى على مائدة « كاداراه » ونخبة من الفنانين والشعراء ..

فاتيما كازولي .. أستاذة الأدب الروسي الذكية الرقيقة التي لا تكف عن الحركة والتنظيم كأنها الفراشة ترفرف بين الزهور ..

« ناتاشا لاكو » الشاعرة و « ديانا سيلي » عضوا اتحاد الفنانين « وجواهر سياهيو » الشاعر الشاب المحلق كالنسور لم يفقد ملامح الريف والجبل .

« نيقولا » صاحب جريدة « الكاستلا » ومعناها الفرقلة .. التي تلهب الظهور النقدية الفكاهية « ماتشو » الصحفي العجوز الرقيق « وقاتميري » شاعر الاناشيد الحماسية وضحكات « جمال بيرم » الطفولية شاعر تركيا ورفيقه المتجهم تحسين سراج .

ابتسامة أوجولي ووقار وبساطة كاداراه .. كلاهما عالمي .. ترجمت أعمالهما الى عدة لغات حكايات الأديب السوري « عبد اللطيف الارناؤوط » لهجته الشامية وروحه العربية المتألقة .. انشغال مرافقي البروفسير المترهل العجوز في الأكل والشراب .

« ماريانا لارش » الشاعرة الدانيماركية نحيلة كعود القمح ورقيقة كزهرة .

لازار ووهبي فالا الشاعران الوقوران ولقاء حميم مع السفير الشاب الجديد في القاهرة « أليكس سرجة » حضر ليحيي مصر قبل أن يطير اليها ويدعونا الى الغداء .

وتمتد الندوات والدعوات حتى منتصف الليل ..

وتطلع صحف الصباح لتفرد للمؤتمر وادبائه الاخبار وتترجم الكلمات والاشعار حتى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء .. استقبلا الضيوف الادباء وكانت حفاوتهم بمصر أكثر الحفاوات . قال لى الرئيس :

« لقد بذلتم العرق والدم لتبنوا الاهرامات .. أما نحن فقد حبتنا الطبيعة الجبل دون عناء ! »

وقلت للرئيس : « لو أن الطبيعة حبتنا جبلا مثلكم بلا عناء لبنينا الاهرام فى كل الحالات » .

وتميزت اللغة العربية دون سائر اللغات بايقاع خاص شد الاسماع وران الصمت الرهيب لتدفق موسيقى الكلمات دون فهم لمعناها قبل ترجمتها .. وكانت الكلمات المصرية تقول :

* أيها الصفوة من كتاب وفنانى العالم :

فى البدء كانت الكلمة وبها أنفتحت مغاليق الكنوز للانسان وبها امتدت الجسور بينه وبين أخيه الانسان فى كل مكان ..

ولولا الكلمة لما طار بى جواد الشعر الاصيل يدق بسنابكه هامات الحب والنجوم وتركض عبر البحار الشاسعة ليلتقى بكم هنا ..

واذا كان الانسان وهو يشق طريقه من قبل وسط الاحراش وظلام الكهوف قد اكتشف الحضارة عندما نطق بالكلمة فلماذا فقد الانسان المعاصر بعد هذا الشوط الطويل على طريق الحضارة والمعرفة جسارة الكلمة وعنفوانها ؟

أن تعقد الحياة وتشابك الحضارات وطغيان قوى الشر البشرية وسيطرة اجهزة الاعلام المسمومة ولافتات السينما والنيون الحديثة جذبت انسان هذه العصر الى هوة

الضحالة فآثر السهو واليسر على المعاناة والمكابدة واكتفى بثقافة الشطائر السريعة دون التجوال في الدروب العميقة بحثا عن الاجمل والاكمل فتوارت الكلمة البناءة خلف الجدران الحديدية وكتب الشاعر بدماء القلب بدلا من مداد المحبرة .. فمن يصغي لصوت الشاعر الان والشعراء هم أصدقاء الشمس القدامى وورثة الطبيعة وأطفال الله الغرباء وأحفاد التاريخ لان شعرهم لغة الموسيقى التى لا تحتاج الى ترجمان وهم لا يتلقون الوحي من السماء وانما يضنعونه بأنفسهم كما يقول « ايلوار » : « ان الشاعر العظيم هو الذى يصنع بنفسه الالهام ولا يدع الالهام يصنعه » .

هذا الشاعر كيف يغنى ويشدو للحياه والانسان ورذاذ الدماء يملأ المكان والزمان واشلاء أخيه الانسان تتناثر عبر الارض وتلوث لون الخضرة وعطر الزهور .. وهتاف طبول الصراع والدمار تحجب ايقاع القافية . ! ان الدمار الفكرى الذى يتعرض له أبناء جيلنا أشد خطرا من الدمار الدموى الذى يحيق بالشعوب .

لذلك قبل أن تطالبوا الشعراء بالغناء يجب أن ترتفع الاصوات لايقاف الدمار الفكرى والنزيف الدموى الذى يشوه الان عيون الاطفال ويقتل روح البساطة فى نفوس البسطاء » .

جبل اسكندر بك وشاطىء الأدرياتيك

انقلب الجو مرة أخرى وتساقطت الامطار وانحدرت الرياح الباردة من أعالى الجبال .. ولم يتوقف نشاط المؤتمر ولا رحلات الادباء عبر الجبال والسفوح والبحيرات وتحت رذاذ المطر ــ صعدنا الى قمة الجبل الرهيب على

بعد عشرات الاميال من العاصمة « جبل اسكندر بك » حيث القلعة العتيقة الشامخة التى تضم متحفا يسجل صور النضال والطموح ..

وحيث وقف أهل هذه القرية الجبلية من الفلاحين يصدون غارات الترك الضارية بالحجارة وبصخور الجبل تحت قيادة زعيمهم الاسطورى « اسكندريك » وهزمت سواعد الفلاحين النحيلة وحجارة الجبل الصماء .. رماح وسيوف الغزاة الاتراك .. واصبحت القلعة متحفا .. قرية « كدويا » كعبة للسائحين .

وهناك على شاطىء الادرياتيك .. كانت جولة اخرى .. عبر اجمل الشواطىء الهادئة الساحرة فى مدينة « ديوريس » السياحية حيث الهدوء الشامل.. والفنادق الجميلة ..

وانتهت الجولة فى ارض النسور وانتهى الكونجرس الادبى الثالث .. وخرج موكب الشعراء فى الصباح الباكر فى وداعنا يحملون البسمات والهدايا والحلوى — وانطلق الموكب بنا فى صحبتهم حتى المطار .. وانهمر رذاذ المطر وكأنه يريق دمعه معنا فى لحظة الفراق ..

ومرت الايام الثمانية كأنها اللمح فى البصر ..

وحملتنى الطائرة مرة أخرى .. الى عروس الدانوب « بودابست » ومهد « بيتوفى » شاعر العشق والحرية لابدأ جولة اخرى ..

عشق وحرية على ضفاف الدانوب

« أيها الشعر المقدس لكم حطوا من شأنك !

هل تحسبون ان الشعر عربة تتخيرون لها الفجاج المسلوكة والدروب الممهدة .

الشعر عقاب يطير حرا فى أجواء لم يتخطها أحد بعد !

أيها الراغب ان تكتب :

تناول القلم اذا أنست فى نفسك القوة ثم تقدم الى حيث لم يسبقك أحد ..

والا فخذ محراثا أو قالب اسكاف والق من يدك عودك الحقير ! »

***

تداعت الكلمات أمام عينى كأنها اسراب الحروف المهاجرة فى كتب الاشعار المسافرة .. أقرؤها على جبين الفضاء الرحب فى أناشيد الشعراء الذين حلقوا عابرين السماء كاللمح فى البصر بعد أن ملأوا الارض شدوا وغناء .

وتتألق الكلمات فى دفاتر السحب البيضاء الراكضة مذعورة كالطيور العابرة امام طائر الصلب الحديدى ذى الاجنحة الجمادية وكأنه زائر غريب يشق الفضاء بأزيزه الهادر ويمتطى صهوة الريح مخترقا احشاء السحب هابطا فوق الارض ..

وذكرت ماقاله شاعر الطيارة « فوزى المعلوف » وهو يصف هذا الكائن الغريب والطيور تفر مذعورة أمامه في ملحمته بساط الريح :

هى طير من الجماد كأن
الجن فى صدرها تحث خيولا
جمجمت تضرب الرياح بنعليها
فشقت الى السماء سبيلا
ثم مدت ألى النجوم جناحين
وجرت على السحاب ذيولا !

وانحدر الطائر الحديدى الغريب يسابق الصوت وهو يهبط رويدا رويدا فوق أرض بلاده ..

بلاد شاعر طفولى رحل فى الربيع فى عامه السادس والعشرين بعد أن داسته سنابل الخيل وعجلات المدافع .

وهو فاقد الحراك مسلوب الارادة ..

وقد حملوا رفاقه وسط الموسيقى تحت الرايات السود وسقط شهيدا بلا قبر ولا وطن .

وقالوا : سيعود مع الربيع عندما تهدأ العاصفة وتورق الاشجار وتشتعل نيران المدافىء .

وعاد الشاعر الطفولى مع الربيع .. واوراق الشجر ورماد المدفأة .

ولكن فى تمثاله الشامخ الحى الذى يطل على شاطىء الدانوب فى عاصمة بلاده بودابست .

ومن قبل .. منذ عشرة أعوام وقف العالم كله لا فى المجر وطنه فحسب بل فى انجلترا وفرنسا وأمريكا

اللاتينية وآسيا وافريقيا حيث احتفلت شعوب هـذه البلاد جميعا بعيد ميلاده المائة والخمسين .. فأقيمت الندوات وعزفت الالحان والموسيقى وعرضت الافـلام والمسرحيات ورتلت أشعاره قصيدته « ياتوش البطل » وصدر طابع بريد تذكارى وصكت بعض العملات الذهبية والفضية باسمه ورسمه .. وتمثال بالحجم الطبيعى .. ومهرجان كبير لم يحلم به الشاعر حيا أو ميتا .. ولم يكن يخطر على بال انسان بسيط مثـله .. عرف التشرد والمطاردة ولذع الثلج وعضة الجوع والقتال ..

ذلك لانه عرف مايريد .. وامن به وتوج به أشعاره الانسانية :

« عشـق وحرية

هـــذا ما أريد

لعشقى ابذل حريتى

ولحريتى أبذل عشقى »

هكذا أجاب شاعر طفولى الملامح صغير السن له جناح النسر ولفتة العصفور ..

استمه : بيتوفى .. شندور بيتوفى يحمل البندقية بجانب القلم وكأن لحنه نذير العاصفة ونشيد الثـورة وسقط شهيدا فى سبيل وطنه حتى « لا تختفى المجر من الوجود »

كان من هؤلاء الشعراء .. الذين يؤثرون الخبز على الحلوى ويمدون للغد القادم جسور الامل والمجد .

تلك الحفنة القابضة على جمر الكلمات ..

هذا النوع المتوهج الشاهق الجسور الذين يعبرون السماء فجأة كالشهاب ويزلزلون الارض كالبركان وفى

هدوء شديد ينسلون من الحياة كأنهم أسراب الحمـــام المهاجرة صوب الغمام بعد أن ملأت الافق بالهديل والغناء ونشرت على الناس مظلة من أغصان الزيتون وكتبت بالدم نشيد النهاية .

ترك الشاعر الريفي « ابن القصاب الفقير » الذى لم يتعلم فى الجامعات والمدارس .. وأجاد الالمانيةوالفرنسية والانجليزية وترجم روائع الادب العالمى والمسرحى .. ترك الشاعر عمله بالمسرح وطوافه بالقرى واستجاب لنـــداء الشعب فعبر عن مأساته وانتشرت أشعاره فى أنحـــاء بلاده وهو فى العشرين بعد .

وانتظم فى سلك الثورة .. وقاد جماعات الميلشـــيا وخاض غمار المعارك ليصد زحف القوات النمساوية الغازية وهى تستولى على المجر فى يناير ١٨٤٩ .. فتشتعل شرارة المقاومة .. ويصبح بيتوفى هو خطيبها المقدس يقاتل ويقول الاشعار ويلهب مشاعر الجنود .

وفى يوليو من نفس العام .. تلتقى القوات المجرية بقوات روسية من جحافل الغزاة .. ليسقط الشاعر فى أحد السهول الواسعة مع الوف الشهداء .. لتضـــمهم مقبرة واحدة .. ويصبح الشاعر بلا قبر ولا وطن .. وتعلو كلمات نشيده المقدس :

« اذا تهاويت على الارض جثة فاقدة الحراك فلتدسنى سنابل الخيل فى عدوها الى النصر المظفر ويوم تجمعون رفاتى المحطم وتحتشدون لدفن بقايا عظامى ، وســـط الموسيقى الوليدة تحت الزايات الســـود ضمونى الى اجساد من راحوا شهداء الحرية المقدسة .. »

وصدقت نبوءة الشاعر .. فيضيع جسده مع اجساد رفاقه من الفلاحين والفقراء ..

وتهامس الفلاحون والبسطاء : أين راح الشاعر ؟

هل ذهب ليجني الاشعار من حدائق الخلود أم ذاب في تراب الارض لتخضر بالزهور والاشجار ؟

وقالوا : سيعود مع الربيع ..

وعاد الشاعر مع الربيع .. في عبير الزهور وعيون الاطفال وفي تمثاله الكبير الذي يطل على شاطيء الدانوب الازرق ..

وقد حط بي الرحال في رحلة السفر فوق جواد الشعر .. على ضفافه الباردة وفي ظل تمثال شاعره الطفولي النبيل : بيتوفي .

هبطت الطائرة في مطار « بودابست » بعد طواف طال أياما مابين صعود وهبوط في مطارات العواصم .. روما ـ بلجراد .. تيرانا .. عبورا واقامة وفحصا دقيقا للهويات والجوازات والحقائب .. حتى أصابني الدوار .. وودت لو التقط أنفاسي اللاهثة .. والتمس الهدوء والراحة في ربوع عروس الدانوب الساحرة بودابست البيضاء .

واستغرقت اجراءات المطار أكثر من ساعة .. الحديث باللغة الهنغارية يعطل كل شيء ولا لغة أخرى بيننا حتى حضر ضابط جوازات يتحدث الانجليزية ويلخص كل هذا التعطيل في كلمة واحدة .. لابد أن يكون معك أكثر من ثلاثمائة دولار .. لتدخل المجر .

لاول مرة أعرف انه لابد لكي تدخل المجر أن تثبت أن

معك أكثر من هذا المبلغ .. وفتشت جيوبى وعثرت على المبلغ واكتفوا بكلمة اعتذار .. ولم أجد أحدا فى انتظارى .. وغيرت بعض العملة لاتحدث بالتليفون .. واكتشفت أن التليفون معطل فى أوربا كما يعطـــل فى مصر .. واقتربت منى فتاة رشيقة جميلة لتنبهنى أن التليفـــون معطل وقادتنى الى تليفون آخر .. وصحبتنى الحسناء الصغيرة « كوزر » والتى ذكرتنى بابنتى كانت قادمة من روسيا فى رحلة علمية وهى طالبة تدرس الالكترونات بكلية الهندسة .. وركبنا الاتوبيس معا الى ميـــدان « كارل » الكبير فى وسط المدينة .. وداخت معى حتى حصلنا على تاكسى .. ونصحتنى الا أركب تاكسيا بدون عداد .. حتى لايتقاضى ضعف الاجر ..

وقلت للسائق : « فندق فلامنكا الكبير » .. وانطلق ليعبر الكوبرى الكبير الذى يشبه كوبرى قصر النيل وعليه أربعة أسود مثله . فالمهندس الذى أنشأ الاثنين واحد .. وعبره ليطوف عدة مرات .. وينزلنى أمام الفندق لاجده مكتملا بأفواج السواح التى لاتنقطع .. أخـــذت تاكسيا آخر الى فندق « نوفا أوتيل » الشهير .. واندفع ليعبر نفس الكوبرى الذى يربط شطرى المدينة بودا ـ وينزلنى أمـــام الفنـــدق .. لاجد لافتة كبرى تحمـــل اسم فندق آخر ..؟ وليس نوفا أوتيل !

أخذت تاكسى للمرة الثالثة .. ووجدت الســـائق يتحدث بالانجليزية .. وشكوت له ماحدث من زميليـــه فهون على الامر وقال ستجدنى أن شاء الله من الصادقين وستعرف كيف نحتفل بالسواح والزائرين .. وصدقته واستسلمت وقد هدنى التعب والجوع ، وانطلق صاحبى

لا يلوى على شيء ! عبر التاكسى نفس الكبارى .. ودار حول الجبل وطاف حول المدينة وتسكع فى الازقة القديمة حيث تناثر السكارى الفقراء بملابسهم الرثة على الارصفة ومداخل البيوت ثم يخرج الخريطة ويوقف التاكسى ويبحث فى تضاريسها عن العنوان .. وانا مستسلم له واثق فيه .. وطال الوقت وهو يحدثنى ويشرح لى معالم المدينة .. وبلغت الساعة السابعة . اربع ساعات قضيتها من المطار ودآخل التاكسى لاصل الى فندق .. وأخيرا رجوته أن يرحمنى ويضعنى فى الفندق ودار دورة واحدة فاذا نحن امام أوتيل « نوفا الجديد » وأخرج السائق ورقة وأخذ يسجل الوقت ويطرح أرقاما من أرقام .. فهو تاكسى خدمات ليطالبنى بعشرة دولارات وقبله دفعت نفس المبلغ .. لاصبح ضحية سائقى تاكسى المجر .. كما يفعل سائقو تاكسى مصر مع السواح هنا .. !

كنت مستعدا لدفع مايطلب فى سبيل غرفة دافئة ووجبة ساخنة .. وقلت لنفسى : هنا يضلك سائق التاكسى وفى روما يحاول بعضهم أن يبيع لك ساعة « أوميجا » ذهبية وعلنا فى ميدان المسلة الكبير ! ولعنت مرافقى المجوز « بروفسور موزافور » . مرافقى القديم الذى لم يخطر أحدا باستقبالى ولم يحجز لى العودة .. ولم يكن له من عمل سوى الاكل على مائدتى وسرقة السجائر وامضاء الفواتير نيابة عنى ..

ووضعت حقائبى .. ولذت بالحجرة الفاخرة ولاحقنى عامل الاسانسير الانيق طالبا « البقشيش » مفضلا ان يكون بالدولار !..

وبالرغم من رخص الاسعار هنا نسبيا فكلهم يعشقون الدولار فالفندق الفخم الذي يفوق فخامة الهيلتون يكلفك خمسين دولارا فى الليلة الواحدة ..

والسواح يملأون كل أركان الفندق .. لأمكان فى المطعم ولا فى الملهى الليلى وكرنفال أزياء ووجوه شبه العراة من الجنسين ! نزلت أتسكع فى المدينة وقد زحف الليل وهبت موجة باردة مفاجأة مالبثت أن توغلت بعد أن انحدرت من جليد الجبل وكاد الدم يتجمد فى العروق فأويت الي مطعم صغير كادت صاحبته الحسناء تغلق أبوابه فرق قلبها لى وأشعلت الموقد وقلبت بعض الشطائر وناولتنى بعض الاشربة المجرية القوية فتدفأت قليلا .. وغادرت المكان وعدت الى حجرتى مرة أخرى .. لاتأمل من شرفتها الزجاجية الكبيرة .. منظر الجبل والبيوت المعلقة فيه وقد تلألأت الاضواء كأنها النجوم فى سماء أخرى من الخضرة والاشجار .

بودابست .. جميلة خضراء بيضاء عتيقة معلقة فوق الجبال .. مشطورة نصفين على شاطىء نهرها الكبير .

الحدائق المعلقة فوق الجبال جدائل الخضرة المتدلية فوق الصخور قنوات الماء ألتى تشق طريقها بين الاحجار والكنائس القديمة هضبة القدس « جلبرت » الذى رماه أعداؤه من فوق الجبل فصنع له شعبه تمثالا ضخما فوق قمة الجبل كأنه تمثال الحرية رمزا لتخليد قديسهم وقد التفت الخضرة وتناثرت النوآفير تحت أقدامه ..

جزيرة « مرجليت » على شاطىء الدانوب من الجهة الاخرى .. قديسة أخرى خلدوها لانه عشقت وانتحرت

فى سبيل حبها . ومبنى البرلمان العتيق والقلعة الشهيرة احدى المتاحف النادرة .

وغير بعيد من الجزيرة يرتفع تمثال صديقى الشاعر الطفولى بيتوفى الذى جلست بين يديه وقد انساب امامنا نهر الدانوب العتيق واسع رقراق الخرير دفاق الموج ..

ولكن ليس فى فحولة النيل العظيم .. جد الانهار جميعا رغم افتقاده الخرير والتدفق - والهدير ..

واسترخيت فى ظل التمثال والنهر .. وكأنى فى ضيافة صديق - عزيز من الشعراء يمسح عنى عناء الرحلة وتفصل بيننا المسافات ولكن توحدنا لغة مشتركة نتحدث بها بلا ترجمان هى لغة الشعر ..

ويضمنا سقف بيت واحد هو مأوى المسافرين والغرباء .. وهو الشعر لانه عند قول بيتوفى :

« هو مسكن مفتوح على مصراعيه
للسعداء والاشقياء على السواء
انه معبد مقدس يؤمه جميع الذين
ينشدون الصلاة
حتى ولو كانوا حفاة ! »

فهرس

صفحة

تقديم ٧
سوق عكاظ بين الدانوب وجبال الألب الخضراء ١١
سنجور : عصفور أفريقيا الرقيق ٢٤
الطفل ذو اللحية البيضاء ٣٣
وجه صديقى القديم فى مهد الاغريق العظيم ٤٠
لقاء تحت الراية الحجرية الشمطاء ٥٠
رودان عاشق السين النبيل ، والسجينى .. عاشق
النيل الأصيل ٦٠
باريس والمدن الجميلة كالنساء ٦٧
كل الطرق تؤدى الى لندن .. من روما . فياقلبى لا تحزن ! ٧٢
غريب فى حى سوهو ! ٨٢
الشعراء .. أصدقاء الشمس القدامى ٨٨
ساعات تحت المطر فى سبيل جويا وبيكاسو ٩٤
عمتنا النخلة العربية .. أم النخلات الأوربية ٩٨
الزهراء . "فرساى" العرب وزهرة أكليل جبل العروس ١٠٥
عندما تمطر أوتار القيثارة ١١٤
نبوءة الفتح القادم ومائدة الزبرجد الخضراء ١٢٠
مملكة القرنفلة والسقوط الأخير ١٢٧
رقصة الحزن والغضب فى بحور الشعر واللهب ١٣٧
التيمة .. وشلال الضوء الأسود ! ١٤٧
الهبوط فوق أرض النسور ١٥٩
عشق وحرية على ضفاف الدانوب ١٦٧

كتاب الهلال يقدم

مصر فى عيون أبنائها :

ثلثا قرن من الزمان

مذكرات : محمد عبد الله عنان

يصدر : ٥ يناير ١٩٨٨

رقم الايداع : ٨٧/٨٢٧٤
الترقيم الدولي : ٣ - ٣٣٠ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار بيع للعدد العادى فئة ٧٥ قرشا :

سوريا ١٨٠٠ ق . س ، لبنان ٣٥٠ ليرة ، الأردن ٥٠٠ فلس ، الكويت ٤٠٠ فلس ، العراق ١٦٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ، البحرين ٢٠٠ فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسة ، تونس ١٦٠٠ مليم ، المغرب ١٥٠٠ فرنك ، غزه والضفة ٧٥ سنتا ، اليمن الشمالية ١٣ ريالا ، عدن ١٤٤ سنتا ، الصومال ١٣٠ بنيا ، لاجوس ١٢٠ بنيا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، لندن ١٥٠ سنتا ، اثينا ٢٠٠ دراخمة ، كندا ٥٠٠ سنت ، البرازيل ٦٠٠ سنت ، استراليا ٦٠٠ سنت ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .

● فى الأساطير : أن الله خلق الجواد من خفقة ريح جنوبية نثرها فوق الأرض وكان لونها أصهب داكنا فجاء لون الجواد كذلك وكان الجواد عربيا فقيل له بعد تمام خلقه : « طر بغير جناح وكن سيد جميع الحيوانات »

وهكذا انطلق جواد الشعر يطير بغير جناح هنا وهناك ويدق بسنابكه هام النجوم والأفلاك ينهب المسافات نهبا طوال عشر سنوات متتاليات أطعمه قطع السكر وأسقيه المسك والعنبر وامسح عرق رحلته بقميص الشعر وعباءة الجليد والمطر ! ولا غرابة أن يكابد عشق السفر كبار أهل الشعر والفن رحالة الشرق والغرب أمثال : فولتير وروسو واندريه جيد ولامرتين وبايرون وكلوديل وريناه وابن بطوطة وابن جبير وابن ماجد الملاح .

واذا كانت ألذ الكتابات هى كتابة الرحلات فما أفدح الثمن الذى يقتضى كاتبها تعب العيون والأقدام قبل مضض الأقلام وخفقة الوداع والسلام وكأنك مُودع بعض نفسك فى كل رحلة .

وحسبك .. وأنت تطأ أرض الوطن احساسك بأن لنقلة قدميك فوق ترابه لطف الشفاه عند حلاوة التقبيل وانخطافة القلوب فى طلاوة الترتيل !

ولولا السفر على جواد الشعر ماكانت تلك القطوف فى حدائق الغربة وصحارى التجوال .

كتاب
الهلال

مصر في عيون أبنائها

ثلث قرن من الزمان

مذكرات عبد الله عنان

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن «دار الهلال»

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عبياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ «سبعة خطوط»

KITAB ALHILAL

العدد ٤٤٥ - جمادى الاولى - يناير ١٩٨٨

No . 445 JANUARY 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان :
حلمــــى التـــونـــى

مصـــر
فى عيـون أبنـائهـــا

ثلاثة قرون من الزمان

مذكرات
محمد عبد الله عنان

دار الهـلال

مقدمة

لقد دفعتنى الى كتابة هذه المذكرات دوافع عديدة ، منهـــا ما أتاحه لى المولى القدير ، من طول المدى ، وشهودى خلال ذلك كثيرا من الاحداث التى توالت على وطننا العزيز ، فى مدى أكثر من نصف قرن ، وما أصاب هذا الوطن من محن ، غيرت الكثير من أوضاعه التقليدية، وقضت على كثير من قيمه المعنــوية ، ومثله العالية ، ومظـاهره الشريفة ، التى اقترنت طوال العصور بحياته الاجتماعية ، وازدان به تاريخــه الطــويل . ودفعنى الى ذلك من جهـــة أخرى ، ما اقترن بحياتى الشخصية من احداث هامة يجدر تسجيلها ، وما توالى على حياتى العـلمية من تطورات ، وزخرت به من دراسات هامة ونشاط متواصل ، وما خلفته من تراث تاريخى وأدبى عريض ، كان مبعث اعتزازى طول حياتى . كل ذلك قد بعث الى شعورا ، بأنه من واجبى ، وأنا أقضى هذه الاويقات الباقية من حياتى ، أن أســـــتعرض ، هذه الصفحات التى تلقى كثيرا من الضوء على فترة من تاريخ مصر الحديث ، من خلال حياة رجل شهد ثلاثة أجيال ، وشهد خلالها ما توالى على حياة وطنه ومواطنيه من الاحداث ، والتطورات السياسية والاجتماعيةوالاقتصادية والفكرية .

وأود ان انوه قبل كل شىء بأن كل ما يصـــدر منى

خلال هـذه المذكرات من آراء وتعليقات ، انما يصـدر مني أولا كمصرى ، لم تكن طوال حياته أى ميول او أهواء سياسية خاصة ، ولم يتصل مطلقا بأى حزب او اية طائفة سياسية ، وقد عاش طول حياته مصريا فقط ، ينظر الى سائر الاحداث والتقلبات بنظرته المصرية ليس غير . وثانيا كمؤرخ ، ينظـر الى الحـوادث ، ويحللها بمعياره وقوانينه التاريخية ، وأنه بالرغم من اشتغاله بالصحافة فترة من الزمن لم يشأ أن يغمس قلمه قط فى غمر المسائل السياسية الحزبية ، وأنه حرص طول حياته على الابتعاد عن اى مؤثرات أو اتجاهات خاصة ، ولبث يحمل قلمه حرا ، منزها عن مثل هذه المؤثرات والاتجاهات ، وهو ما كان دائما ، وما يزال موضع فخره واعتزازه . وبهـذا القلم الحر النزيه ، يحاول أن يسجل اليوم ، هذه الصـفحات من حياته ، ويستعرض ما شهده خلالها من الاحداث القوية والصور الاجتماعية .

كما انى لن أقف طويلا عند مراحل حياتى العادية ، ولن أسجل منهـا الا ما يستحق التنويه ، أو ما يكون ذا طابع خاص ، أو له تأثير خاص فى مجـرى هـذه الحياة ، ومن حسن الطالع ان ما تنصب عليه هـذه الصفة من أحداث حياتى ، قد قيـد معظمه فى مفكراتى الخاصة ، التى اعتدت طول حياتى ، أن أقيد بها هذه الاحداث فى أيام وقوعهـا ، سنة بعد أخرى ، معززا ذلك بما رسخ فى ذهنى من ذكريات هذه الاحداث ، التى أذكر الكثير منهـا ، وما زالت تتمثل كلمـا تخيلتها أمام عينى بسائر تفاصيلها وآثارها . ولقد كانت « الذاكرة » فى الواقع لى ذخـرا كبيرا فى تذكر

واستقصاء الكثير من الاحداث والوقائع الشخصية ، منذ طفولتى ودراساتى المدرسية ، ثم من بعدها خلال مراحل حياتى الطويلة ، وقد كانت تسعفنى بأدق التفاصيل عن وقائع وأشياء لا حصر لها .

وقد مرت مصرنا ، منذ الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) التى شهدناها أحداثا ، حتى اليوم بسلسلة طويلة من الاحداث التاريخية الحاسمة ، الثورات الوطنية الكبرى فى سنة ١٩١٩ ، ثم ما ترتب عليها بعد ذلك من استخلاص حريات مصر واستقلالها ، على مراحل متعاقبة . ثم الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) واحداثها وتطوراتها المثيرة ، ونتائجها السلبية بالنسبة لمصر . وأخيرا ما وقع بمصر من انقلابات واحداث عسكرية واجتماعية خطيرة ، القت بها أولا الى المغامرة العسكرية الكبرى ، التى أوقعت بها أعظم نكبة عرفتها فى تاريخها الحديث ، وأضاعت مساحات شاسعة من أراضيها التاريخية ، ثم الى مغامرات عسكرية أخرى ، هلك فيها عشرات الالوف من أبنائها ، كما غيرت هذه الانقلابات أوضاعها التقليدية الراسخة ، واخلت بموازينها الاجتماعية ، ودفعت بها الى حضيض العوز والفاقه ، وهزت تراثها العلمى والثقافى العريق ، واوقعت بها سلسلة من الازمات الاجتماعية والاقتصادية ، التى حطمت أعصاب شعبها ، وقد كانت هذه الكوارث المتوالية فى مجموعها أعظم محنة قومية نزلت بمصر منذ عصور طويلة ، وسوف تتناول ذلك كله بالعرض والتعليق الشافى فى مكانه المناسب ، والله ولى التوفيق .

هذا ، وقد رأيت أن أستعير لهذه المذكرات عنوانا على نسق العنـــوان الذى سبقنى اليه صديقى الأجل المرحوم أحمد شـــفيق باشا ، حيث أسمى مذكراته « مذكراتى فى نصف قرن » وأنا أسمى هـذه المذكرات « مذكراتى فى ثلثى قرن » وهو المدى الزمنى الذى تشغله حوادث هذه المذكرات .

القسم الأول

اني أفتتح هذه الصفحات التى أروى فيهـــا قصـة حياتى ، بحمد الله العلي القـدير ، الذى من على بطول حياتى ، وانفساح أجلى ، ومشاهداتى لاحداث أجيال متعاقبة ، وأعانتى على تحصيل العـلم الغزير ، وعلى خدمة الاسلام وتاريخه ، فى مؤلفـــات عديدة تألقت بهـا حياتى العـــلمية ، وألقت أضواء عديدة على صفحات خالدة من تاريخ الاسلام وحضارته العظيمة .

وانى أكتب هذه الصفحات من حياتى ، وقد جاوزت الثمانين ، وقد ملأت هذه الحياة ،كما سيرى القارىء بالحركة المستمرة والعمـــل الدائب ، والرحـــلات المتوالية فى مشارق الارض ومغاربها ، آنا للســـياحة وغالبا للدراســـة ، ووقفت على الكثير من الخواص الحضارية لمختلف الشعوب الاوربية ، واتصلت بكثير من الدوائر والهيئات العلمية العالية ، وتمتعت بالتجوال فى سائر جنبات أوربا الجميلة ، من السهل والجبل والمصايف الساحرة ، والمنتديات الاجتماعية الانيقة ، والحفـــلات المسرحية والفنائية ، والموسيقية العـالية الشائقة ، فى أشهر أوبرات القـــارة ، وتحدثت الى كثير من أبناء هذه الشعوب بلغاتها القومية ، وأنا أتحدث

بحمد الله خمسا من اللغات الاوربية .

أكتب هذه الصفحات ، وهى خاتمة ما يخطه قلمى ، الذى خط الكثير خلال هذه الحيـــــاة الطويلة الحافلة وأنا على استعداد فى كل لحظـة الى لقاء ربى ، قرير العين ، مغتبط النفس ، بما قدمته فى حياتى ، الى وطنى العــــزيز مصر ، والى أمتى العربية العظيمة ، من ثمار تفكيرى وبحوثى ، راجيا أن تكون للخلف خير ذخر ، ولكاتبها خير ذكرى .

* * *

وأبدأ فأقول انى أنتمى الى أسرة مصرية قديمة عريقة ، تمثل فى تاريخ مصر الاسلامية ، خلال قرون عديدة ، هى الاسرة العنانية . وقد نبغ منهـــا خلال القرون عدد من العلماء ، يحضر ذاكرتى ، وأنا أكتب هذه السطور منهم ثلاثة علماء ، أولهمـــا سيدى محمد بن عنان ، وثانيهما أخوه عبد القـــادر بن عنان ، وهما من أكابر أقطاب الصوفية ، وقد ذكرهمـــا الامام عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه : « لواقح الانوار فى طبقات الاخيار »، وكتب لاولهمـــا ترجمة طويلة يفتتحها بقوله : « كان رضى الله عنه من الزهاد العبـــاد ، وما رأيت فى عصرنا مثله . وكان مشـــايخ العصر اذا حضروا عنده ، صاروا كالاطفال وكان يضرب به المثل فى قيام الليل ، وفى العفة والصيانة ، وكانت له كرامات عظيمة . توفى عن مائة وعشرين سنة فى ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ودفن بجامع القسم بباب البحر ، وصلى عليه الائمة والسلطان طومان باى ، وكان يوما مشهودا » .

ويقول عن الثانى « انه أخو الشيخ محمد رضى الله عنه،

صحبته نحو سبع سنين على وجه الخدمة ، وكان يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، وكان رضى الله عنه يغلب عليه الصفاء والاستغراق ، مات سنة ٩٢٠ هـ (١٥٩٤ م) ، ودفن ببرهمتوش ببلاد الشرقية وقبره بها يزار » .

وأما الثالث ، فهو العلامة شمس الدين العنانى . وقد ذكره الجبرتى فى تاريخه ، فى وفيات سنة ١٠٩٨ هـ ، فقال : « الشيخ الامام شمس الدين محمد بن داود بن سليمان العنانى ، نزيل الجنبلاطية ، اخذ عن على الحلبى صاحب السيرة ، والشهاب الغزى ، والشمس البابلى ، والشهاب الخفاجى ، والبرهان اللقانى وغيرهم ، وحدث عنه حسن بن على البرهانى ، والخليفى والبديرى ، وغيرهم ، توفى سنة ثمان وتسعين والف (١٦٨٦ م) .

مولدى ونشأتى الأولى

كان مولدى ببلدة بشلا مركز ميت غمر دقهلية فى السابع من يوليو سنة ١٨٩٦ (١٣١٤ هـ) ، وفقا لما هو مقيد بالدفاتر ، التى كان يحررها يومئذ عامل التليفون . وفى سنة ١٨٩٨ ، وفقا لشرح المرحومة والدتى ، وذلك أن مولدى كان موافقا لحادث مرور أول قطار بقريتنا من قطارات شركة الدلتا ، وقد كان ذلك فى صيف سنة ١٨٩٨ . هذا وربما كان رقم القيد بدفتر الميلاد ، وهو رقم ٨ ، قد كتب بصورة محرفة ، فقرات ٦ . وقد ولدت فى أسرة متوسطة الحال ، ولكن تمت حسبما تقدم الى أصل عريق . وكان والدى رحمه الله ، رجلا ذكيا ، ومستعلما وفق موازين العصر ،

حيث تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة نظـامية ، خلافا لاخوته الذين ذهبوا كلهم الى الازهر الشريف . وكان يحسن القراءة والكتابة ، ويعرف طرفا بسيطا من اللغة الفرنسية .

وكانت أمى هى ابنة عمة أبى ، وقد ولدا ، حسبما علمت من مؤرخ الاسرة عمى المرحوم الشيخ محمـد عبد المطلب العنانى ، معا فى سنة ١٨٧٤ ، وفقا لتعريفه « السنة التي ولد فيهـا الخديو عباس الثانى » (أقول وكذلك مصطفى كامل) . وكانت والدتى أمية لم تتعلم قراءة ولا كتابة ، حيث عاشت فى عصر لم تجر فيه العادة بتعلم البنات ، الا فى الاسر الارستقراطية العـالية ، ولكنها كانت سيدة وافرة الفهم والذكاء . توفيت أمهـا وهى فى المهد ، فنشأت يتيمة ، وورثت منها ثمانية عشر فدانا ، أضاع معظمها الوصى عليها ، فلم يبق لها منهـا سوى ثلاثة أو أربعة أفدنة ، هى التى كانت فيما بعد ذخرا للانفاق على تعليمى العالى ، حسبما سيأتى .

وحينما بلغت الثالثة من عمرى أدخلت كتاب القرية ، فمكثت به نحو عام . ثم نزح والداى الى القاهرة نحو سنة ١٩٠١ ، ونزلا بمسكن متواضع بحارة قصر الشوق، قرب المشهد الحسينى . ثم انتقلا بعد قليل الى منزل صغير بحى بركة الفيل ، فى مجموعة متماثلة من المنازل تسمى عمارة حسن طاهر باشا ، ومكثنا به نحو عامين . ثم انتقلنـا الى شقة بحارة الجنبكية بحى المغربلين . وكنت فى كل نقلة أدخل كتـابا جديدا ، أحفظ فيه سورا صغيرة من الكتاب العزيز ، وأتعلم الخط وشيئا من الحساب . ثم انتقلنا بعد ذلك الى شقة كبيرة جميلة

بحارة النبقة بدرب الجماميز ، وكان والدى قد التحق بعمل كتابى فى احدى دوائر الباشوات التى كانت يومئذ كثيرة بالقاهرة . وكان يستعين بهذا العمل على الحياة المتواضعة التى كنا نحياها ، الى ما كان يحصل عليه من ايجار اطيـــان والدتى القليلة . وكان مستوى العيش رخيصا جدا ، تكفى فيه بضعة جنيهات قليلة لاسرتنا الصغيرة . وكان والدى قد خلع الملابس البلدية ، التى كان يرتديها فى القرية ، وهى الجبة والطربوش ، وارتدى الملابس الافرنجية ، والتحق بذلك بطبقة الافندية . ثم ثابت له فرصة فى تجارة بعض الاراضى الصحراوية التى كان يشتريها من الدائرة ، وكانت تقع بضـــاحية عين شمس ، وكانت يومئذ رخيصة جدا ، لا يتجاوز ثمن المتر منها قروشا ضئيلة ، فحالفه الحظ ، وبدأ يكتسب منهـــا مبالغ مجزية ، وأخذت حياتنا تميل الى شىء من الترف ، وكنت قد بلغت يومئذ نحو الثامنة من عمرى ، فأدخلت مدرسة أولية من مدارس الاوقاف تسمى مدرسة « اغادار السعادة » تقع بشارع درب الجماميز قريبا من السيدة زينب ، وقد كانت ما تزال قائمة الى عهد قريب بعد انتقالها الى الحارة الموازية الى شارع راتب . وفى هذه المدرسة ، تفتحت مواهبى الدراسية ، وحفظت جانبا من القرآن الكريم ، وتقدمت فى الخط والحساب تقدما كبيرا .

وأود أن أقول هنا ، انى أشـــعر شعورا قويا بأنى اكتسبت بالتعليم فى الـــكتاب وفى المدرسة الاولية ، حصيلة طيبة من الخط واللغة ، وانى اكتسبت من حفظ بعض سور القرآن ، حصيلة طيبـــة من النطق العربى

السليم ، والتمكن من القراءة الجيـــــــدة ، والاملاء الصحيحة ، وذلك على مســــتوى يندر أن يصل اليه تلاميذ المدارس الابتدائية فى سنى دراستهم الاولى ، وكان ذلك من عوامل تفوقى فى دراستى الابتدائية فى اللغة العربية باستمرار .

وكنت يومئـــــذ أمارس القراءة فى بعض القصص المستخرجة من كتاب الف ليلة وليلة ، مثل قصة عجيب وغريب ، وقمر الزمان ، والسندباد البحرى وغيرها ، وكانت تطبع على حدة فى كتيبات يبلغ ثمن الواحد منهـا بضعة مليمات أو نصف قرش ، فزادتنى هذه القراءات قوة فى اللغة حتى انى كنت أجرأ أحيانا على القراءة فى مقامات الحريرى ، وأتغنى بما يعجبنى فيها من الاشعار وكانت لدى والدى نسخة منهـــا ، مما ورثه من المرحوم والده من الكتب ، كما كنت أحاول أحيانا القراءة فى بعض فصول مقدمة ابن خلدون فى نسخة بولاق الموروثة كذلك من الجد ، وبالرغم من أنى لم أكن أفهم الكثير يومئذ مما أقرأه فى هذين المرجعين العاليين وأمثالهما مما كنت أقع عليه من كتب الوالد ، فاننى كنت أستبقى فى ذهنى كثيرا من الكلمات والعبارات .

الدراسة الابتدائية

وتلقيت دراستى الابتدائية بمدرسة العقادين الاميرية الواقعة على مقربة من باب زويلة فى شارع الغورية على رأس حارة الروم ، وكانت لهـــا واجهة سبيل أثرية ضخمة ، ما يزال يزدان به مبناها حتى اليوم . وقـد علمت فيما بعـد خلال دراستى التاريخية أن حارة الروم هذه كانت احدى أحياء العساكر الفاطمية الذين ينتمون

الى أصل رومى ، وتليها بعد ذلك فى نفس الشارع ، حارة الجودرية ، وهى أيضـــا حى آخر من الاحيـاء الفاطمية ، كانت تضم العسكر الذين ينتمون الى جودر ، احد أولياء الدولة الفاطمية . وكانت أسرتي حينما أدخلت الى هذه المدرسة قد انتقلت الى شُقة جميلة كبيرة مستقلة بسراى حافظ باشا بدرب الاغوات . وكانت شقة أثرية بها نافورة رخامية جميلة . وقد خصصنا بها غرفة كبيرة وثيرة للضيوف الذين كانوا يقصدون زيارتنا من الاقارب أو غيرهم من أهل القرية ، اذ لم تكن الفنادق ، قد انتشرت يومئذ ، ولم يجر العرف بأن يقصدها من لهم أقارب فى العاصمة ، ولا سيما السيدات . وكان لنا يومئذ خادم .

ولبثت أربعة أعوام بمدرسة العقادين هيأعوام الدراسة الرسمية ، انتقلنا خلالها الى عدة منازل أخرى ، وكنت أفوز بالنجاح فى كل سنة والانتقال من سنة دراسية الى الى أخرى . وظهر من ذلك الحين عشقى لعلم الجغرافية والبراعة فى رسم الخرائط الجغرافية ، وكذلك عشقى لعلم التاريخ . وأتممت دراستى الابتدائية ، وفزت بنيل الشهادة الابتدائية فى صيف سنة ١٩١٠ .

وكنت خلال دراستى فى مدرسة العقادين ، وخـلال مرورى المستمر فى الطريق الرئيسى لمدينة القـــاهرة المعزية ، أتأمل الاثار الفاطمية والسـلطانية باعجاب ، وأتردد على الجامع الازهر ، حيث كان أصغر أعمامى المرحوم الشيخ على العنانى ، مايزال مجاورا به . وكنت أزوره فى منزله بالباطنية على مقربة من الجامع أو بالجامع نفسه ، كلما تيسر لى ذلك وكنا فى غالب الامر نتناول طعام الغذاء معا فى صحن الجامع خصوصا أيام الشتاء ، حيث

كانت الشمس تغمر صحن الجامع الشهير ، ويستمتع المجاورون (الطلاب) بالجلوس فى الشمس أو الاستلقاء فيها ، أو يحضرون الحلقات المعقودة بها . وكان طعامنا على الاغلب من الطعمية والباذنجان المقلى والسلاطة يبعثنى عمي لشرائها من محل أبي ظريفة الشهير . وقد كان يقع يومئذ فى حارة الباطنية مقابل الجامع من الناحية القبلية ، وكنا نشترى عشر قطع صغيرة من الطعمية بنصف قرش ، والباذنجان بنحو ذلك ، والسلاطة بمليمين . وأما الخبز فكان لدى عمي دائما ، لانه كان يتقاضى من الجامع جراية يومية . وكان رغيف الخبز من الجراية أو من غيرها يباع بربع قرش . وكان عمي يتحفنى دائما عقب الطعام بقدر من العجوة الشرقية ، والفول السوداني يستخرجهما من خزانته الخشبية التى كانت مثبتة فى حائط الصحن ضمن مئات الخزائن الخاصة بالمجاورين ، الى يسار المزولة ، وقد نزعت منه اليوم بعد أن اختتم الجامع الشهير حياته العلمية المجيدة وانتهى عهد المجاورين والمشيخة الاجلاء . وكانت هذه الزيارات تزيدنى حبا فى الجامع الشهير واعجابا به وبمناظره التقليدية ، ولا سيما حلقاته العلمية المختلفة التى كانت تعقد بين أعمدته ، وقد أصبحت اليوم أثرا من آثاره .

\- ١ -

جنازة مصطفى كامل

فى ذلك اليوم ــ يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٠٨ ــ كنت عائدا كالعادة عصرا من مدرستى ــ مدرسة العقادين الاميرية ــ وكنت سائرا الى منزلى الكائن بآخر شارع السيوفية ، مخترقا باب زويلة (بوابة المتولى) فشارع الخيمية ، فشارع المغربلين ، وعند آخر المغربلين ، وجدت شارع محمد على مسدودا بجموع بشرية هائلة ، ولا سبيل الى اختراقه من أية جهة من جهاته ، والصمت العميق مخيم على الجموع الكثيفة المتراصة على جانبيه . وفى الشارع يسير موكب طويل لا نهاية له ، فى صمت مطبق ، ولاحظت أن الدموع تنهمر من أعين الكثير من الوقوف ، ومن كثير ممن يسيرون فى الموكب ، وعندئذ سألت الناس من حولى ، فأجابونى أن هذه جنازة مصطفى كامل باشا ، أجل كانت هذه جنازة الزعيم الوطنى الشاب ، جنازة جليلة رهيبة . وقد احتشد فى مقدمتها طلبة المدارس الاميرية ، الابتدائية والثانوية والعليا ، ومن ورائهم عساكر البوليس ، وباقى المشيعين وكانت كل مدرسة تحمل علما مجللا بالسواد . وكانت عربات الحنتور التى تسير خلف الجموع السائرة ، تسير

فى تكدس وبطىء ، وقد وضع السائقون عصابات سوداء حول رءوس الخيل ، ووضعوا الخرق السـوداء على طرابيشهم ، ومنهم من كان يبكى وترتفع زفراته ، وهو يسوق الخيل هونا ، وكان الموكب من خلف النعش ، ثم العربات من ورائه ، يمتد حسبما يقول الجمهور حتى العتبة الخضراء . واستمر سـير الموكب بطيئا قرابة ساعتين ، وأنا واقف فى مكانى ، مشدوه ، حزين مطرق ، كباقى الناس ، حتى انتهى نحو الغروب ، وعندئذ عبرت شارع محمد على الى منزلنا ، وأنا مطرق مفكر ، حتى وصلت الى الدار ، وكانت فى عطفة صغيرة قبل سبيل أم عباس . وعندئذ سألتنى أمى عن سبب تأخرى ، فرويت لها ما رأيت وأنا حزين مدهوش . وكان ذلك أول حادث وطنى عظيم شهدته فى صباى ، وكنت يومئذ فى نحو الحادية عشرة من عمرى . ومازلت الى اليوم أذكر منظر الموكب الهائل الحزين ، كما أذكر ما قرأته بعد ذلك فى شبابى عند قول المرحوم قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » ، ان قلب مصر قد اهتز مرتين الى الاعماق ، الاولى عندما نفذ حكم دنشواى . والثانية عندما شيعت مصر زعيمها مصطفى كامل الى قبره . ثم يقول قاسم أمين : « لقد ظهر هذا الشعور ساطعا فى جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة » ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر . هذا الاحساس الجديد ، هـذا المولود الحديث ، الذى خرج من أحشاء الامة وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل .

— ٢ —

وفاة جدى

المرحوم السيد عبد المطلب عرفه العنانى

وانى لاذكر من حوادث طفولتى حادثا انطبع فى مخيلتى انطباعا عميقا ، ولم انس تفاصيله حتى اليوم ، وهو وفاة جدى المرحوم السيد عبد المطلب عرفه العنانى . ومازلت اذكر شخص هـذا الجد الوقور ، وقد كان أسمر ممشوق القوام ، ملتحيا ، أنيق الملبس . وكنت اعرفه مذ كنت فى نحو الرابعة من عمرى . وكان يأتى الى القاهرة كل صيف بعد انتهاء موسم الحصاد ، وينزل فى شقة فى شارع خان الخليلى ، ويحضر كل يوم بعض حلقات الجامع الازهر ، وقد زرته مع والدى مرارا فى هذا المقام ، وقد كان يأتى بعد ذلك لزيارتنا كلما حضر الى القاهرة بشقتنا الرخامية الفخمة بسراى حافظ باشا بدرب الاغوات . وكان ذلك حسبما أذكر فى سنتى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ . وفى صيف سنة ١٩٠٨ مرض مرضا خطيرا ، ولزم مندرة الضيوف الكبيرة ، عند مدخل منزله الكبير بقرية الفؤادية (شقلبان سابقا) بجوار بلدة بردين ، وهى التى هاجر اليها من كفر عرفه العنانى مسقط رأسه بجوار شنبارة الميمونة مركز ميت غمر . وقد التف حوله منذ مرضه ، أولاده وبناته وفى مقدمتهم والدى ووالدتى ، وهو خالها اخو أمها . وهرع الى زيارته رهط كبير من الاقارب والاصهار والمحبين . وكنت كل يوم اذهب الى رؤيته وتقبيل يده . وكان يولينى عطفا خاصا ، لانى كنت الوحيد من احفاده الذى يتعلم فى مدرسة أميرية .

وأذكر انه قال لى ذات يوم حينما قبلت يده : ما معناه : « يامحمد اذا شفانى الله ، فسوف أقوم بتعليمك على نفقتى حتى نهايته » . ولكنه كان مرض الموت . فتوفى بعد أيام قلائل . وقد تبين بعد انه كان مصابا بالتيفود ، وكان يحمل له الثلج يوميا من الزقازيق ليوضع حول رأسه . وعملت له ليالى المأتم الثلاث فى سرادق هائل ، كان ينصب الى جوار حديقته المجاورة لمنزله .

- ٣ -

مقتل ناظر النظار
بطرس باشا غالى

فى يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ ، وقع مقتل ناظر النظار (رئيس الوزراء) بطرس باشا غالى . أطلق عليه الرصاص حين نزوله من وزارة العدل (الحقانية) شاب من شباب الحزب الوطنى يدعى ابراهيم ناصف الوردانى ، وهو من الشباب الذين تعلموا فى الخارج ، وكان يدرس الصيدلة فى سويسرا . وكان للحادث دوى عظيم ، وقد اعترف القاتل بجرمه ، وقرر أن الدافع له على ارتكابه ، هو ماعمد اليه رئيس الوزراء من تصرفات ضد مصالح الوطن ، مثل توقيعه لاتفاقية السودان سنة ١٩٠٩ ، ورياسته للمحكمة المخصوصة فى حادثة دنشواى ، ثم سعيه فى انفاذ مشروع مد امتياز قناة السويس . وشغلت الناس بضعة أشهر بمتابعة التحقيق فى هذه القضية الخطيرة ، وقبض على عدد من شباب الحزب الوطنى باعتبارهم شركاء للوردانى ، وترافع عن المتهمين

اقطاب محامی هذا العصر ، مثل احمد بك لطفی ، وابراهيم بك الهلباوی ، ومحمد علی علوبة وغيرهم . واصدر قاضی الاحالة قراره باحالة الوردانی وحده الی محكمة الجنايات والافراج عن باقی المتهمين . وانتهت المحاكمة بأن أصدرت محكمة الجنايات حكمها باعدام الوردانی ، وذلك فی يوم ١٨ مايو سنة ١٩١٠ ، فكان لذلك أثر بالغ فی نفوس الجماهير . وكان مصير هذا الشاب المنكود يثير الاشفاق والاسی فی نفوس الالوف المؤلفة من الناس . وكان العامة يؤلفون فی اقدامه وفی عمله مختلف المواويل الشعبية . ومازلت أذكر منها الی اليوم « ياميت صباح الخير الوردانی ، ... الخ » وكنت يومئذ تلميذا بالسنة الرابعة الابتدائية ، أستعد لامتحان الشهادة الابتدائية . وكان المرحوم والدی يتابع تطورات الحادث فی الصحف ، ويقص علينا خلاصة مايقرأه ، وكانت قلوب الشباب الفتية تذوب عطفا علی الوردانی ، وعلی شبابه ، وتبالغ فی تقدير اقدامه وعمله «الوطنی» .

ومع أنه كان واضحا أن الوردانی قد ارتكب جريمة سياسية ، دفعته اليها بواعث وطنية واضحة ، فقد كان من شديد الاسف أن اعتبر فريق من اخواننا الاقباط ، أنها ترجع الی بواعث دينية . وقد كان لهذا الاعتبار أسوأ الاثر فی توتر العلائق بين شطری الامة ، الاقباط والمسلمين . وكانت مقدمة لتلك الازمة القومية الخطيرة ، التی تفاقمت تباعا بين الطائفتين ، حتی انتهت الی الحقد والعداوة ، واتجاه بعض عناصر الطائفة القبطية الی الاستنصار بالانجليز ، وبعثوا الی انجلترا بمبعوثهم قرياقص ميخائيل لكی يعمل علی اثارة

الرأى العام الانجليزى ضد المسلمين المصريين ، واستمرت تلك الازمة القومية الخطيرة فى تبادل الخصـــــومات والحملات بين الطائفتين بضعة أعوام ، حتى أذن الله بانتهائها حينما شبت نار الثورة الوطنية الكبرى فى سنة ١٩١٩ ، فعاد الوئام الى شطرى الامة ، واندمجا معا فى اخاء الاشقاء خلال حوادث الثورة ، ولعب كل منها دوره الوطنى المجيد فى أحداثها وتطوراتها .

الدراسة الثانوية

ووفقت الى الانتظام فى الدراسة الثانوية بالمدرســة الخديوية العريقة ، التى تخرج منها العديد من رجالات مصر الاعلام . فالتحقت بهــا فى أكتوبر سنة ١٩١٠ . وكانت دراسة موفقة مزدهرة . وكان ناظرنا الانجليزى المستر فرنس ، من خيرة رجال التعـــليم والتربية ، والاخلاق الرضية المـــذبة ، والحلم الوافر فى معــاملة الطلبة . ومازلت أذكر شكله الوسيم ، بقوامه المعتدل المشوق ، وشاربه الطويل الاحمر . وكان يسكن بأسرته فى المنزل الصغير الواقع فى شرق ملعب الكرة المجــاور للمدرسة . وقد توفى ، وهو يقضى بقية حياته ، بعــد احالته الى المعاش ، فى بلده بأنجلترا فى سنة ١٩٤٢ ، خلال الحرب العالمية الثانية ، وقدمت تعزيتى يومئذ فى وفاته الى أخيه الاستاذ فرنس ، الذى كان يومئذ مديرا للرقابة العسكرية بوزارة الداخلية .

ولم يكن بالقاهرة يومئذ من مدارس البنين الثانوية الرسمية ، سوى ثلاث ، هى الخديوية ، والسعيدية ، والتوفيقية . وكانت الخديوية مجمع الطلاب من أبناء الاسر المتوسطة ، ولاسيما الاسر الريفية . والسعيدية

مجمع الطلاب من أبناء الاعيان والذوات . والتوفيقية بالاخص مجمعا لاغلبية الطلاب من اخواننا الاقباط ، الى جانب زملائهم المسلمين . وكان ذلك يرجع بالاخص الى عوامل جغرافية .

وكان التعليم الثانوى فى مصر يومئذ ، تتولاه الى جانب النظار الانجليز ، طائفة من المعلمين الانجليز ، يتولون تدريس اللغة الانجليزية ، والتاريخ والجغرافيا ، والكيمياء ، والطبيعة ، والرياضة أحيانا باللغة الانجليزية. وكان لذلك الوضع الذى كان ينتقده البعض يومئذ ، ويراه عدوانا على اللغة العربية ، ونوعا من الاحتكار الانجليزى للتراث الثقافى المصرى ، اكبر اثر فى تمكين الطلاب من دراسة اللغة الانجليزية واتقانها ، بما لم يتمتع به بعد ذلك اى جيل من الطلاب المصريين . وأنا أشهد أننا حققنا من الدراسة باللغة الانجليزية ، ثروة لغوية عظيمة ، ولم نشعر مطلقا أن تعليم العربية قد اوذى بأى نوع من انواع الايذاء ، أو ناله ضعف أو تقصير ، بل كنا بالعكس طلابا أقوياء فى اللغة العربية ، كما كنا أقوياء فى اللغة الانجليزية .

وكانت تقوم على راس المدارس العليا ، الى جانب مدارس الحقوق والتجارة والهندسة العليا ، مدرسة المعلمين العليا Training college — التى أنشأها الانجليز ، وتولوا التدريس فيها ، على يد نخبة مختارة من الاساتذة والمربين البارعين الانجليز . وقد تخرج فى هذا المعهد التربوى الزاهر ، جيل من أعظم ماشهدت مصر من اقطاب الاساتذة والمربين ، الذين نهضوا بأعباء التعليم فى مصر ، طوال النصف الاول من القرن العشرين.

ونستطيع ان نذكر عشرات ، بل ومئات من خريجي هذا المعهد الجليل ، الذين شرفوا بنبوغهم وجهودهم التربوية جيلهم ، وحملوا على أكتافهم أعباء التعليم الاصيل عصرا ، وتخرج على أيديهم أجيال ذات مستوى عال من الثقـافة والاخلاق ، وهما عنصران يكاد يخلو منهما جيلنا الحالى . وقد كان من نكد الدنيا أن يلغى هذا المعهد الجليل ، لبواعث تتصل بالميول والاتجاهات السياسية . ولكونه من آثار الانجليز ، وازدهر فى عهد الاساتذة الانجليز ، ثم تعجز الحكومة أن تقيم له مثيلا ، يضارعه أو يقاربه اصالة وكفاية . ومن ثم فاننا لا نجد أمامنا فى العصر الاخير سوى اجيال ضعيفة من المعلمين ، لا تمتاز بأى نبوغ او لمعـان ، بل ولا اخلاق متينة . وانه من الاسف أن تتغلب الاهواء السياسية فى مجالات يجب أن تكون بعيدة عنها .

ونعود الى الدراسة الثانوية ، فنقول اننا قد درسنا فى هذا الجو الذى تغلب فيه الانجليزية الادب الانجليزى دراسة حسنة ، وعرفنا شـكسبير ، وحفظنا بعض مسرحياته ضمن برنامج الدراسة ، ودرسـنا النثر الانجليزى فى بعض الكتب الجليلة ، مثل كتاب «اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » The Decline and Fall to Roman Empire لادوارد جيبون ، حيث حفظنا منه جزءا صغيرا عن عصر الامبراطرة الانطونيين the Age of The Antonines . وكان هذا أول وقوف على هذا المؤلف العظيم ، ذى الاسلوب الرائع ، الذى غدا فيما بعد مسرح دراساتى الواسعة ، وكان له أكبر الاثر فى صوغ أسلوبى التاريخى . كما درسنا كذلك فى السنة الرابعة الثانوية

فى باب النثر كتابا جذابا ساحرا ، لانتونى فرود هو . « البحارة الانجليز فى القرن السادس عشر » English Seamer In The 16th Century . وقد فتحت لى هذه الكتب التاريخية الجليلة ، أبواب القراءات التاريخية الواسعة ، فى عدد من المصنفات الانجليزية الجليلة مثل كتابى وليم برسكوت « تاريخ فتح المكسيك » و « تاريخ فتح بيرو » ، هدانى اليهما ماكنا ندرســـه فى تاريخ الاستكشافات الجغرافية ، فقراتهما بشغف عظيم . و « تاريخ الدولة البيزنطية » History of the Byzantine Empire لجورج فنلى ، وغيرها مما كنا نجده فى مكتبة المدرســـة ، التى كانت تزخر بمجموعة كبيرة من آثار الادب الانجليزى .

وكانت لنا كذلك حصيلة طيبة من القراءة والدرس فى كتب الادب الانجليزى . وقد عرفنا منذ السنة الاولى بعض الاثار الادبية الجليلة ، مثل كتب تشارلس دكنز ، الذى كنا نطالع فى مجموعة مختارة من كتبه ، ويقرأها لنا أستاذنا فوستر سميث بأســـلوب ممتع شائق . ودرسنا فى السنة الثالثة رواية التونى هوب الشـــهيرة « سجين زندا » The Prisoner of Zenda ، وان كنت لم اتذوقها ولم أكن متحمسا لها .

وقد انهمكت فى ذلك الوقت فى مطالعات واسعة لاثار الادب الانجليزى ، فطالعت من كتب دكنز ، ولكى كولنس وستانلى ويمان ، ووالترسكوت ، وكونان دويل ، وكبتن ماريات ، ووليم ثاكرى ، وجورج اليوت ، وأوليفر جولد سمت ، وغيرهم . وكان ذلك كله فى طبعة « تاوخنتز » Tauchnitz الالمانية الشـــهيرة ، ومازلت اذكر حتى اليوم ، واقتنى ضمن مكتبتى عددا كبيرا من مؤلفـــات

هؤلاء الكتاب الاعلام ، الذين امتعت آثارهم شبابى ، واغنت معارفى بالادب الانجليزى وتراثه ، واتجاهاته .

وقضيت سنى الدراسة الثانوية الاربع بنجاح مستمر ، ونلت شهادة الكفاءة سنة ١٩١٢ ، ثم شهادة الباكلوريا فى سنة ١٩١٤ ، وكان ترتيبى فيها الرابع عشر ، وحصلت فى الجغرافيا على النمرة الكاملة ، وهى ١٥ ، وفى التاريخ على ٢٤ر٥ درجة من ٢٥ . وكان هذا مؤذنا بما حدث فيما بعد من تطور اتجاهاتى الدراسية العملية .

ومما هو جدير بالذكر أن التعليم كان يومئذ كله بمصاريف يؤديها الطلاب ، وكنا نحن الطلبة الخارجين ندفع مصروفات قدرها خمسة عشر جنيها فى السنة ، وكنا ندفعها بالجنيهات الانجليزية الذهبية ، وسيلة التعامل يومئذ ، وكان الجنيه يحسب بسعره الرسمى وهو سبعة وتسعون قرشا ونصف . وقد استمر التعامل بهذه الجنيهات الانجليزية ، الى أن خرجت انجلترا عن معيار الذهب فى سنة ١٩٣٠ . وهذا غير أثمان الكتب . وكنا نتناول طعام الغذاء بالمدرسة بانتظام حتى يوم الخميس . ومازلت اذكر أصناف الطعام الجيد الدسم المتعدد الاصناف من اللحوم والخضر والأرز والحلوى والفاكهة ، مما تتحسر عليه اليوم كثير من النفوس .

مدينة القاهرة
فى مطالع القرن العشرين

وانه لمن الشائق أن تعرف كيف كانت عليه مدينة القاهرة المعزية يومئذ ، وكيف كانت ظروف الحياة .

لقد كانت القاهرة يومئذ مدينة هادئة لا يتجاوز سكانها مليونا من الانفس ، وكانت ماتزال فى أكثر أحوالها على ما كانت عليه منذ عصور ، فشوارعها مرصوفة بالخرسانة ، ولم تكن قد عرفت يومئذ رصف الاسفلت. وكانت تضاء ليلاً بمصباح الغاز ، اذ لم تكن الكهرباء قد انتشرت بعد . وكانت معظم الاحياء ، فيما عدا الاحياء الاجنبية لا تعرف الكهرباء . وحتى منازل الاعيان والكبراء كانت ماتزال تضاء بالمصابيح والشمعدانات الكبيرة .

وكانت طوائف الشعب معظمها من لابسى العمائم والجلاليب . ولم يكن بين الحرفيين من يلبس الملابس الافرنجية . وكانت الطبقة الوسطى تتكون معظمها من الافندية الموظفين ومن اليهم من متوسطى الاعيان الذين اختاروا الاقامة بالقاهرة للاشراف على تربية أولادهم .

وكانت شبكة المواصلات الرئيسية ، تقتصر على الترام بخطوطه القديمة المعروفة ، ينطلق اليها من مركزها الرئيسى بالعتبة الخضراء ، حيث كان يقوم الى جوارها من الغرب مبنى المحاكم المختلطة ، الذى أزيل بعد الغاء الامتيازات الاجنبية فى سنة ١٩٤٩ ، وأقيم مكانه اليوم بستان مستدير . ولم يكن يوجد الى جانب الترام من وسائل المواصلات ، سوى خطوط سوارس القصيرة التى كانت تسير بها بضعة من عربات « سوارس » ، وهى عربات مستطيلة يجرها بغلان ، وتتكون من دكتين متقابلتين ، تسع نحو عشرين راكبا ، وثمن التذكرة بها ثلاثة مليمات . والى جانب هاتين الوسيلتين ، كانت توجد عربات الحنتور يركبها الخاصة ، وعربات الكارو يركبها العامة ، وهى فى نفس الوقت وسيلة النقل

الرئيسية . ولم تكن بالقاهرة يومئذ سيارات مطلقا ، لان السيارة كوسيلة للركوب لم تعرف بالقاهرة ، الا بعد الحرب العالمية الاولى . وكانت هذه الحالة مدعاة الى الاطمئنان الكبير على حياة صغار الاولاد والتلاميذ ، وعلى حمايتهم من التعرض لحوادث النقل الكثيرة التى تقع فى عصرنا .

ولم يكن هذا بدعا بمدينة القاهرة ، فقد رايت عربية سوارس تجرها البغال ، فى مدينة أزمير التركية خلال زيارتى لتركيا سنة ١٩٢٧ .

وكان الرخاء يعم البلاد ، والحياة ميسورة ورخيصة الى حدود لايمكن تخيلها اليوم . فالمساكن ، وقد كانت متوفرة على سائر المستويات ، يبلغ ايجار الشقة الكبيرة والجميلة منها مابين جنيه واحد واثنين ، والمنزل الكامل من طابقين كان يبلغ ايجاره جنيهين الى أربعة . والشقق التى يسكنها الطلاب نحو خمسين أو ستين قرشا وهكذا. وكانت اقة العيش « وهى خمسة ارغفة » بقرش واحد . واللحم المجالى الرطل باثنى عشر او خمسة عشر مليما . والضأن بقرشين ونصف . والبيض اربعة او خمسة بقرش واحد . وكنا ونحن تلاميذ بالمدرسة الابتدائية يكفينا للافطار نصف قرش . وكان هذا ثمن سميطة كبيرة أو ربع رطل من البسبوسة الفخمة بالزبد ، ويكفينا لطعام الغداء قرش واحد للخبز والجبن الرومى والحلاوة الطحينية ، أو للطعمية والباذنجان المقلى والسلاطة . وكان ثمن الرغيف الفرد ، وهو ضعف رغيف اليوم مليمين ونصف . وكان هذا ما ننفقه كل يوم فى غدائنا ، لان المدرسة الابتدائية لم يكن بها غذاء

للتلاميذ . وكذلك كانت الخضروات والفواكه كلها رخيصة بصورة مدهشة ، وعلى نفس المستوى . وكذلك كانت الملابس ، فقد كنا نشترى البدلة الصوفية من محلال ماير أو شتاين ، وقد كانا متجرى الملابس الرئيسيين ، بمبلغ لا يتجاوز جنيها ونصف أو جنيهين ، والحذاء من محل جستر الانجليزى اشهر محلات الاحذية يومئذ من خمسين قرشا الى جنيه ، وهلم جرا . وهى احوال وأرقام لا يكاد يسيغها الخيال ، فى يومنا .

الدراسة العالية

لما اختتمت دراستى الثانوية وحصلت على شهادة البكالوريا فى صيف سنة ١٩١٤ ، كانت توجد ثمة مشكلة وظروف دقيقة حول التحاقى بالدراسة العالية . وكنت خلال دراستى الثانوية ، اتطلع دائما الى دراسة الحقوق، ومزاولة المحاماة ، التى كنت اشعر انها مهنة نبيلة . ولم اكن ميالا الى الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا ومزاولة مهنة التعليم عدة من السنين . وكان معظم زملائى وفقا لشروطها يميلون الى الالتحاق بها . وكانت دراسة الحقوق فى هذا الوقت تكاد بنفقاتها الكثيرة ، تكون وقفا على الاغنياء وأولاد الذوات . وقد كان الأمر كذلك فى الواقع وكانت مدرسة الحقوق هى المعهد الذى يتخرج فيه الوزراء ، وأكابر الموظفين . وكنت لذلك أتوجس من عجز والدى عن امدادى بهذه النفقات . وكان المرحوم والدى فى الواقع غير ملتحق بعمل منظم وكان قد اشتغل حسبما تقدم ، مدة بتجارة الاراضى فى الضواحى ، وكان ذلك يدر عليه مكاسب مجزية . واستمر على ذلك حتى

جاءت الأزمة المالية المرهقـة فى سنى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ و ١٩٠٨ . وفى سنة ١٩٠٨ توفى والده جدى المرحوم السيد عبد المطلب عرقه العنـانى ، وورث عنه خمسة افدنة . ولكنه لم يحسن التصرف فى شأنها فلم يحاول زراعتها أو تأجيرها ، بل عمد الى بيعها تباعا حتى ضاعت فى نحو عامين أو ثلاثة . وعنـدئذ عادت الأزمة ، وهو يعالجها من آن الآخر ببيع قطعة من الاراضى التى كان يملكها بصـحراء عين شمس ، وكان يقيم أحيـانا فى القاهرة ، وأحيانا فى قرية بشلا مسقط رأسى ، حيث كان لنا منزل ، وكانت المرحومة أمى تملك بها فدانين ، بقيا من ثروة أمها التى ورثتها ، وكانت تشتمل على نحو ثمانية عشر فدانا ، أضـاع معظمها الوصى عليها بحجة الانفاق على تربيتها . ولم يكن ايجار هذين الفدانين يزيد فى السنة على خمسة وعشرين أو ثلاثين جنيها ، وهو ما لا يمكن أن يفى بالمطلوب .

والخلاصة أننى صممت على دراسـة الحقـوق أو الالتحاق بمدرسة الحقوق السلطانية ، كما كانت تسمى يومئذ ، ووضعت عينى على هذين الفدانين المتبقيين من ملك والدتى . واضمرت أن أقنع والدتى ببيعها تباعا على أجـزاء صغيرة تفى بمصـاريف المدرسة ونفقاتى الخاصة . وكانت مصاريف الدراسة يومئذ نحو خمسين جنيها فى السنة ، منها ثلاثون لمصـاريف الدراسة ، والباقى رسوم المكتبة ، واثمان الكتب ، ومقابل الغذاء أحيانا ، وهذا غير أجرة السكن والنفقات الشخصية ، ونفقات الانتقال الى الجيزة ، حيث نقلت المدرسة بعد السنة الأولى من التحاقى بها .

وقد نجحت فيما نويت . وكانت بداية بيع الأطيان

منذ السنة الثانية . وقد حزنت والدتى أشد الحزن ، وبكت بكاء شديدا ، حينما أرغمها المرحوم الوالد على بيع الفدان الأول ، ولكنها أدركت فيما بعد أنه لا مفر من الاستمرار فى امدادى بنفقات الدراسة ، واقتنعت بأن تسلمنى ختمها ، لأوقع به على عقود البيع كلما لزم . وكان المتسلط علينا فى الشراء جارنا الشيخ فلان تاجر الأقمشة بالبلدة ، وهو رجل فى منتهى الجشع والاستغلال . وكنت مضطرا الى معاملته ، لأنه هو الجار اللاصق ، وهو الوحيد الذى يقبل الشراء بهذه الصورة . وسارت الخطة فى طريقها ، ومضيت فى بيع الأرض تباعا على مدارستى الدراسة قطعة فأخرى ، وكانت آخر قطعة قدمت للبيع بعد أن انتقلت الى السنة الرابعة ، ولم يكن بينى وبين نوال الليسانس سوى بضعة أشهر .

وكانت مدرسة الحقوق تقع فى بنائها العريق ، بشارع حسن الأكبر ، وظهرها ملاحق لقصر عابدين . ولكنها لم تلبث أن انتقلت بعد دراستى للسنة الأولى الى الجيزة ، وكان لذلك مقدمة يجب تسجيلها .

اشتراكى فى اول حادث سياسى

فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٩١٥ ، وكنت يومئذ طالبا حديثا بالسنة الأولى بمدرسة الحقوق ، حضرت الى المدرسة بعابدين مبكرا ، فرأيت فى القاعة الواقعة عند يمين مدخل المدرسة ، التى يوضع فيها البريد الوارد الى الطلبة ، كومة كبيرة متشابهة من الخطابات المجللة بالسواد ، ووجدت من بينها خطابا باسمى ، وداخله رقعة مطبوعة ، خلاصتها أن فلانا المحامى الكبير ، قد توفى الى رحمة الله ، وان الجنازة سوف تشيع من شارع

المناخ رقم ... ، ورأيت سائرا لزملاء يفدون على هذه الفرقة ، فيتناول كل منهم الخطاب الوارد باسمه ، ثم ينصرفون متتابعين فى اتجاه المكان المحدد . فسرت معهم . وكان المعروف أن هذا اليوم ، هو الذى تحدد لزيارة السلطان حسين كامل لمدرسة الحقوق فى برنامجه الموضوع لزيارة معاهد العلم . وسرنا زرافات الى شارع المناخ (عبد الخالق ثروت اليوم) وقصدنا الى الرقم المبين بالرقعة ، فاذا به رقم محلات جروبى للحلوى واختلطت بالزملاء ، وفهمت منهم أن هذه العملية قد رتبت كى ينصرف الطلاب جميعا عن المدرسة فى هذا الصباح الذى تحدد للزيارة السلطانية ، فيأتى السلطان ، وقد خلت المدرسة من معظم الطلبة . ونجح هذا الاضراب نجاحا كبيرا ، وخلت معظم الفصول من الطلاب . وأدرك السلطان والمسئولون ما حدث ، وقرروا توقيع العقاب على الطلاب الذين دبروا هذا الحادث ، والذين تغيبوا فى هذا اليوم . وفى الايام التالية جرى التحقيق مع سائر الطلاب المتغيبين ، وكنت ممن قدم للتحقيق أمام مدير مدرسة الحقوق يومئذ السير شلدون ايموس . فسألنى عن سبب تغيبى ، فاعتذرت بما اعتقدته واقعة صحيحة للاشتراك فى تشييع جنازة المحامى الكبير المتوفى . وانتهى الأمر بصدور أحكام الفصل ، والحرمان من امتحان آخر السنة على عدد كبير من الطلاب ، وكنت ممن صدر الحكم عليهم بالحرمان من امتحان آخر السنة مع وقف التنفيذ . وهو أخف الاحكام التى صدرت . ثم صدر فى مارس عفو سلطانى من الطلبة المفصولين والمحرومين من الامتحان ، واستثنى منهم سبعة عشر طالبا ، هم الذين

اثبت التحقيق أنهم هم الذين قاموا بتحريض زملائهم على تدبير هذه المظاهرة ثم صدر القرار بعد ذلك بالعفو منهم ، وعادوا الى المدرسة فى العام التالى .

كان هذا الحادث هو أول عهدى بالمظاهرات السياسية . وقد كان من آثاره أن نقلت مدرسة الحقوق من مقرها القديم بجوار قصر عابدين الى مبنى آخر بالجيزة ، على مقربة من مديرية الجيزة ، وهو المبنى الذى شغله فيما بعد قسم الجغرآفيا بكلية الآداب بجامعة القاهرة . وقد ألقى علينا الأستاذ الدكتور والتون مدير المدرسة الجديد ، بعد ان ترك السير ايموس هذا المنصب على اثر حادث المظاهرة ، قبيل الانتقال الى المبنى الجديد ، خطابا ممتعا يعزينا فيه عن ترك هذا المكان القديم للمدرسة . وجاء فى خطاب يومئذ « أنه تحيط به الأساطير الغامضة » فأثار منا هذا الوصف تساؤلا وابتساما .

وكانت مدرسة الحقوق يومئذ تحت اشراف الأساتذة الانجليز ، والى جانبهم طائفة من الاساتذة الفرنسيين ، لأنها كانت تشتمل يومئذ على قسمين : قسم انجليزى ، وقسم فرنسى . وكنت بطبيعة الحال من طلبة القسم الانجليزى . وكان بين أساتذتنا الذين يتولون الدراسة لنا ، الدكتور والتون مدير المدرسة ، وكان يتولى دراسة القانون المدنى . وكان عالما ضليعا واسع المعرفة ، ممتع الشرح ، وأذكر أن مذكراته عن « التعهدات » وغيرها من الأقسام التى كنا ندرسها فى السنة الثانية من القانون

المدنى ، كانت تشغل نحو الف صفحة كبيرة . والى جانب الدكتور والتون ، كان الاستاذان جوبى وبنتوتشن، وهما يتوليا تدريس مقدمة القانون . والسير ملفيل ، ويتولى تدريس القانون الرومانى ، والاستاذ كلاى ، ويتولى تدريس القانون التجارى . ومن الاساتذة المصريين ، المرحومين الدكتور عبد الحميد أبو هيف ، والدكتور حسن نشأت ، والدكتور بهى الدين بركات .

وأما الاساتذة الفرنسيون ، فقد كان من بينهم أعلام مثل الاستاذ مونييه ، والاستاذ شقالى ، وكنا نتلقى عليهما القانون الدولى .

* * *

ومنذ بدات دراسة الحقوق ، كانت الحرب العالمية الاولى ، قد بدات منذ أوائل اغسطس سنة ١٩١٤ ، وكنا خلال دراستنا نتتبع أحداثها باهتمام شديد . وكنا نحبو المانيا بعطفنا منذ البداية . وكنا نثور حماسا كلما وقع تقدم أو انتصار جديد ضد انجلترا وفرنسا . وكنت أتقن بنوع خاص معرفة المواقع الجغرافية التى تجرى فيها المعارك أو يقع التقدم . ولما طال أمد الصراع ، وامتد خلال أعوام دراستى الأربعة ، أصبحت حوادث الحرب أمرا عاديا لا نعلق عليها كبير اهتمام ، حتى دخلت أمريكا الى جانب فرنسا وبريطانيا فى سنة ١٩١٧ ، بعد أن اشتدت خسائر الحلفاء فى السفن من جراء نشاط الغواصات الألمانية ، واخذ الميزان منذ أوائل سنة ١٩١٨ يميل تباعا ضد المانيا . وعندئذ أخذنا نترقب انتهاء الحرب بهزيمة المانيا فى ذلك الصراع العالمى الخطير . وقد انتهت الحرب بالفعل فى نوفمبر سنة ١٩١٨ بهزيمة المانيا،

وتوقيعها للهدنة ، التى أقرت فيها بقبول سائر شروط الحلفاء القاسية .

ومما يجدر ذكره انه فى أواخر أيام دراستنا للحقوق ، ونحن فى السنة الرابعة ، قام الملك فؤاد (السلطان فؤاد يومئذ) بزيارة مدرسة الحقوق ، وكانت زيارة هادئة ناجحة لم يشبها اضراب ولا تظاهر . والقيت بين يديه خطب وقصائد مديح . وفى نهاية الزيارة ، ألقى فينا كلمة موجزة بعربية أعجمية ، لا تكاد تفهم ، وعد فيها من حسن سيره من الطلاب ، بتحقيق آمالهم فى الوظائف وغيرها .

فى ميدان الحياة العملية

واتممت دراستى فى الحقوق فى صيف سنة ١٩١٨ بالحصول على شهادة الليسانس فى القوانين، وكان ترتيبى بين الناجحين الرابع عشر من ستة وثلاثين فيما أذكر .

وفى اغسطس سنة ١٩١٨ ، قدمت طلبى بالقيد فى جدول المحاماة . وقيدت محاميا بالمحاكم الجزئية . وكان قانون المحاماة فى ذلك الوقت يقضى بأن يمضى المحامى الناشىء عامين فى التمرين ، ثم يجوز امتحانا خاصا بمحكمة الاستئناف العليا ، للحصول على حق القيد فى جدول المحامين المشتغلين أمام المحاكم الابتدائية .

وامضيت عامى التمرين فى العمل فى المحاماة ، أولا فى ميت غمر وزفتى ، وترافعت فى عدد من القضايا فى طنطا والمنصورة . ثم قضيت العام التالى من التمرين فى أسيوط ، مشتغلا بمكتب الاستاذ محمد حامد جودة، وكان يومئذ من أعلام المحامين بأسيوط . ثم عدت بعد ذلك الى ميت غمر . وكان أول ما علمته أن تقدمت الى

الامتحان المقرر أمام محكمة الاستئناف بعد اتمام التمرين، وجزته بسهولة ، وتم قيدى بعد ذلك للمرافعة أمام المحاكم الابتدائية .

وبدأت عملى فى المحاماة فى مكتب مستقل بميت غمر ، وكانت تجربة لا بأس بها ، وكانت ناجحة بحمد الله . وكنت أتلقى كثيرا من القضايا من مختلف أنحاء ميت غمر، وغيرها من المناطق المجاورة ، وكان لنشاطى فى القضايا المدنية سمعة طيبة ، ورجع اتجاهى فى هذا الميدان ، على ميدان القضايا الجنائية .

وبالرغم من أن عملى كان يدر على ما يكفى للانفاق على نفسى ، وعلى أسرتى ، وكانت تقيم يومئذ فى قرية بشلا ، وكنت أقضى بها دائما آخر الاسبوع بمنزلنا الريفى ، وهى لا تبعد كثيرا عن ميت غمر ، فقد كانت تساورنى منذ البداية رغبة ملحة فى الانتقال الى القاهرة والعمل بها . ولم يكن يسرنى أن أبقى محاميا ريفيا يكتفى بلقمة العيش فى وسط محلى ، ليس به ما يشوق ، ولا يثير الاهتمام ، وكنت فيما بعد أقضى أيام أواخر الاسبوع دائما بالقاهرة ، واتصل فيها بأوساط المحاماة ، سواء بزملائى الذين كان من حظهم أن يبدأوا العمل بالقاهرة ، أو بأصدقائى من مختلف الطبقات ، الذين يعرفون ظروف الحياة بالقاهرة ، لنصائحهم فى هذا الشأن قيمتها .

واود أن أقول هنا أن ما قضيته من أوقاتى فى ميت غمر ، وفى قريتى بشلا ، ومع عائلتى المكونة من والدى وشقيقتى الصغرى ، أيام مزاولة حياتى المهنية الاولى ، لم يكن مملا ولا كدرا ، بل كانت تطبعه بالعكس بساطة ممتعة ، فميت غمر حسبما أشرت فى مكان آخر من أجمل مراكز القطن المصرى ، أن لم تكن أجملها جميعا . وهى

بكورنيشها الطويل على النيل العظيم ، وأحيائها الفخمة، ومتاجرها الفنية ، ومقاهيها ومطاعمها وفنادقها الانيقة، وتوفر السلع الغذائية والفواكه الممتازة بها طوال الفصول، تكفل لسكانها الحياة الرغدة . ولقد كنت فى الواقع استمرىء الحياة فى هذا البلد الجميل الساحر . ولم تكن أوقاتى فى القرية بأقل بهجة ومتاعا ، فان بلدى ومسقط راسى بشلا من اجمل القرى النموذجية ، التى يشتهر بها مركز ميت غمر ، مثل صهرجت الكبرى ، وكوم النور، ودنديط ، ودماص ، واوليلة وغيرها من القرى الكبيرة العامرة . وبشلا قرية كبيرة من حيث الحجم ، متسعة الجوانب ، وتحتوى على كثير من المبـــانى والفيلات الفخمة ، ولم يكن سكانها يقلون يومئذ عن عدة آلاف من الانفس . وقد كنا نملك بها منزلا متواضعا من طابق واحد . وبه مندرة وفناء للاستقبال ، وثلاث غرف أخرى والمرافق . وكانت بشلا كما هى اليوم تتمتع بمركز اجتماعى محترم ، وهى تضم مدارس أولية ومدرسة ابتدائيـة وأخرى ثانوية ، أنشأها أهلهـا من أموالهم الخاصـة ووضعت تحت اشراف الوزارة . وفيها كثير من المتعلمين وحملة الشهادات العليا . وقد اشتهرت بالأخص بمن يزاولون من اهلها اعمال المقاولات العـامة ، وما تزال بها اليوم طائفـة محترمة منهم . وهى تتمتع بمستوى مشكور من الرخاء واليسر ، وتحتوى على كثير من المتاجر والخيرات والموارد الغـذائية والفـواكه ، ولم أكن أيام اقاماتى بها ، سواء فى أواخر الاسبوع أو الاعياد ، أشعر بأى قصور أو نقص فى اى مطلب أو رغبة منزليـة أو تموينية . هذا فضلا عن انى كنت فى آخر الاسبوع حين مقدمى اليها من ميت غمر احمل معى الكثير من اللحم

والحلوى والفاكهة ، والخلاصة أنى كنت سعيدا بهذه الأيام التى كنت أقضيها فى مسقط رأسى ، بين أهلى ومواطنى .

بيد أنه كانت تحدونى الى جانب هذه الرغبة ، فى ترك الوسط الريفى ، آمال غامضة فى مزاولة العمل الصحفى، وأود قبل أن أطرق هذا الموضوع ، أن أقرر أن ميلى الى الكتابة ، كان يساورنى منذ كنت طالبا بالدراسة الثانوية، وكنت من آن لآخر أكتب بعض المقالات ، فى صحيفة « الشعب » ، التى كان يصدرها المرحوم أمين بك الرافعى . ولما التحقت بدراسة الحقوق ، كان هذا الميل يزداد عندى باضطراد ، وقد ظهر يومئذ فى قيامى بترجمة بعض أقاصيص ديماس الصغيرة ، من مجموعة « الجرائم الشهيرة » Crimes Celebres ، فترجمت منها قصة Jeanne de Naples ، ونشرتها بعنوان « جرائم نابولى » . وترجمت عن الانجليزية جزءا صغيرا من كتاب السير ريتشارد لودج History of Modern Europe ونشرته بعنوان « تاريخ أوربا الحديث » (١٩٢٤) .

وترجمت فى بداية مزاولتى للمحاماة بميت غمر قصة فرنسية كبيرة للكاتب الفرنسى زافييه دى مونتبان بعنوان « قلنسوة الذهب » Casque d'or ، فقام بنشرها المرحوم مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ، وكان من أنشط الناشرين فى هذا الوقت . وترجمت قصة أخرى عن الفرنسية أيضا نشرتها مجلة الروايات الجديدة بعنوان « المجرم البرىء » . وقد كان ذلك كله متنفسا لأمنيتى الدفينة ، وهى الاشتغال بالصحافة ، والأدب . وكنت فى الوقت نفسه أشتغل بتعلم اللغة الألمانية على

طريقة « هوجو » الانجليزية ، وأتقدم فى ذلك بسرعة ، واتلقى بعض الصحف الالمانية من برلين ، وأمارس قراءتها ، ولا سيما جريدتى Berliner Tageblatt وجريدة Deutsche Allgemeine Z ، وكان العدد الواحد من هذه الصحف يحمل يومئذ من أجر البريد طوابع بمئات ألوف المارك ، اذ كانت المانيا يومئذ (فى سنى ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢) فى حالة انهيار اقتصادى مطبق . وقد كان لتعلمى اللغة الالمانية يومئذ ، واتقانى لها فيما بعد ، أثر بعيد فى تعميق صلتي بالثقافة والآداب الالمانية ، وفى صقل مقدرتى فى الترجمة عن كثير من أكابر الكتاب الالمان مثل هنريش هينه ، وهوتمان ، وشيتفان زفايج ، وارنولد زفايج وغيرهم ، وقراءة الكثير من المصادر التاريخية الالمانية ، والوقوف على اتجاهات الصحافة الالمانية ، وعلى تطورات السياسة الالمانية المعاصرة ، ولا سيما منذ ظهرت الحركة الهتلرية فى المانيا، وما ترتب على ذلك ، من زياراتى العديدة لألمانيا سواء قبل الحرب العالمية الثانية أو بعدها . وما زلت أذكر أول مقال قمت بترجمته عن الصحافة الالمانية ، وهو مقال نشر فى جريدة B. Tageblatt عنوانه Eine Hochschule fur Politik أعنى « مدرسة عليا للسياسة » . وخلاصته أن الالمان يجب أن يتعلموا السياسة فى مدرسة عليا ، لأن النقص الذى كان يعانيه الساسة الالمان ، خلال الحرب الكبرى ، كان من أسباب هزيمة المانيا . ولابد أن يتلقوا دروسا فى السياسة العليا . فقمت بترجمة هذا المقال ، وكان أول ما ترجمت من الفصول الالمانية الجادة ، وأرسلته الى المرحوم

الاستاذ محمود عزمى ، وكان يشرف يومئذ على تحرير جريدة « مصر » لكي ينشره بها ، فقام بنشره فى مكان بارز تحت العنوان السابق ، وكان مقالا قويا ممتعا ، واذكر أن ذلك كان فى سنة ١٩٢٠ . وكانت هذه أول محاولة منى للاتصال بالصحافة وبداية ظهور اسمى فى صحف العصر . وقد اتصلت يومئذ بالاستاذ عزمى ، وتعرفت به ، وكنت أعجب بمقالاته أينما نشرت . وبعد ذلك بقليل قام الاستاذ عزمي باصدار جريدة خاصة به تحت عنوان « الاستقلال » ، وطلب مني أن أمده بما استطعت من مقالات . وعرضت عليه يومئذ ان ينشر لى رواية كنت قد شرعت فى ترجمتها وهى من تأليف اسكندر دوماس ، وعنوانها بالفرنسية : Le Chevalier d'Harmental فقبل أن ينشرها بجريدته فصولا يومية تحت عنوان « المتآمرون » . وفى اثناء ذلك تغيب الاستاذ عزمى فى الخارج بعض الوقت ، وقام مكانه فى رياسة تحرير الجريدة صديقه المرحوم الدكتور طه حسين ، وكان يومئذ قد عاد من فرنسا الى مصر بعد اتمام دراسته وحصوله على درجة الدكتوراه من السوربون . وكان هذا أول اتصال بينى وبين الدكتور طه وأول معرفتى به . ولكن الاستقلال لم تمكث طويلا ، لانها لم تكن من الصحف المنتشرة ، وكانت تصدر بمعاونة الحكومة ، وتتجه الى سياسة عدلى يكن باشا وجهوده فى الاتصال بالحكومة البريطانية فى شأن تحقيق الأمانى المصرية فى الاستقلال . ولكنى مع ذلك بقيت على صلتى بالاستاذ عزمى ، لأنى فوق ما كنت أحمله له من التقدير والاعجاب كصحفى نابه ، كنت آنس الكثير من أدبه ووافر مجاملته

وتشجيعه ، كما اني تلقيت الكثير من تجاربه وتوجيهاته الصحفية النافعة .

وقد شجعتني هذه البـــدايات الادبية والصـــحفية على الانتقال مع أسرتي من بشلا حيث كانت اقامتنا منذ تخرجي من مدرسة الحقوق ، الى العاصمة ، حيث استأجرنا شـقة في حي السيدة زينب في أحد الشوارع المتفرعة من شارع زين العابدين ، وكان ذلك حسبما أذكر فى سنة ١٩٢٣ ، ومن ذلك التاريخ كانت القاهرة المعزية مســـتقري ومحل اقامتي . ولكنى احتفظت بمكتبى فى المحـــاماة بميت غمر بضعة أعوام أخرى ، لان المحـــاماة كانت ما تزال في ذلك الوقت هي مصـــدر كسبى الرئيسى ، وكان نشـــاطي فى المحاماة يشمل ميت غمر والمنصورة وزفتي . وكان يعمل فى المحاماة بالمنصورة ، التى هى مقر القضاء الابتدائى ، عدة من أعلام المحـــامين ، وكانت تربطنى علائق مهنية بنوع خاص بالأستاذين المرحومين ، عبد الوهاب البرعى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وكانت المنصورة مركز نشاطه المهنى مدى أعوام ، وقد توثقت علائقى معه تباعا ، حتى غدا بمثابة أستاذى فى المحاماة ، كما غدا فيما بعـــد ، وهو أبرع مؤرخى العصر ، أستاذى فى التاريخ .

وعقب اختفاء جريدة الاســـتقلال ، اتصـــلت بجريدة « الافكار » ، التى كان يشرف عليهـــا يومئذ الوطني الكبير والنائب المرموق المرحوم عبد اللطيف الصوفاني ، وقد كنت أقرأ الكثير عنه ، وعن نشـــاطه البارز في الجمعيـــة التشريعية . ولكنى تركت الاتصـــال بالأفـــكار بعد فترة قصيرة لما آنسته من اضطراب أحوالها ، وضـــعف مكانتها الصحفية .

ثورة سنة ١٩١٩

ويجدر بى أن أقف هنا قليلا • وقبل أن أمضى فى سرد بقية قصتى فى محاولة النزول الى ميدان الصحافة ، لكى أقدم صورة سريعة من الثورة الوطنية الغامرة التى نشبت فى سنة ١٩١٩ ، أثناء عملى فى المحاماة بميت غمر ، وشهدت الكثير من حوادثها فى القاهرة والاقاليم ، وان كانت قد دونت مقدماتها وأحداثها فى كتب ومصادر عديدة ، أهمها وأغزرها كتاب أستاذى وصديقى العلامة المؤرخ الكبير المرحوم عبد الرحمن بك الرافعى « ثورة سنة ١٩١٩ . تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ » (القاهرة ١٩٤٦) .

وقد بدأت هذه الثورة ، كما هو معروف ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى ، فى نوفمبر ١٩١٨ ، وتأليف الوفد المصرى برياسة المرحوم سعد زغلول باشا فى نفس هذا الشهر للسعى الى المطالبة بالاستقلال ، والسفر من أجل ذلك الى أوربا ، وابلاغ صوت مصر الى الحكومة البريطانية • والى الدول والهيئات الدولية الصديقة • وقد نظمت من أجل ذلك حركة واسعة النطاق لتزويد الوفد المصرى بالتفويض القومى اللازم ، وقامت سائر الهيئات فى طول البلاد وعرضها ، بتوقيع التوكيلات المقدمة اليها لهذا الغرض ، وفى مقدمتها هيئة المحامين ، وقد كانوا طلائع الثورة الاولى ، وكنت ممن وقع عريضة التوكيل المشار اليه مع زملائى محامى ميت غمر • ولكن السلطات البريطانية ، وقد كانت مصر يومئذ تحت الحكم العسكرى البريطانى ، لم تستجب

لطلب الوفد بالسفر الى الخارج • ولما ألح الوفد في طلبه ، وتابع تقديم العـــرائض بذلك الى داز الحمـــاية ، وقدم احتجاجاته الى معتمدى الدول ، انتهت دار الحمـــاية بانذار الوفد ، ثم بالقاء القبض على رئيسه ســعد زغلول باشـــا وثلاثة من أعضائه ، هم محمد محمود باشا ، واســـماعيل صدقى باشا ، وحمد الباسل باشا ، واعتقلتهم بثكنات قصر النيـــل ، ثم بعثت بهم الى جزيرة مالطة ، التى اختـــارتها لنفيهم واعتقالهم وكان ذلك فى يومى ٨ ، ٩ مارس سنة ١٩١٩

وكان هذا الاجراء التعســـفى البغيض نذيرا باضطرام الثورة ، فثارت روح السخط فى كل مكان ، وبدأت الثورة باضراب طلاب سائر المدارس ، وطلاب الازهر ، وألفوا أول مظاهرة وطنية كبرى ، اخترقت شوارع القاهرة ، وانضمت اليها جموع غفيرة من الجماهير • وعطلت المواصـــلات ، وبدأت الدوريات الانجليزية تعترض المتظـــاهرين وتطلق عليهم الرصاص ، وبدأ الشـــباب يتساقط تحت رصـاص الانجليز منذ اليوم الحادى عشر من مارس والايام التـالية ، حيث استمر تنظيم المظاهرات وسيرها • وفى نفس الوقت أعلن المحامون احتجاجهم واضرابهم منـــذ يوم ١١ مارس ، وسجلوا أمام سائر الدوائر القضائية اضرابهم وامتناعهم عن المرافعة • ونظمت السيدات مظاهرة كبرى (١٦ مارس) اشترك فيها العديد من كرام العقائل • ولما اجتمعن بشـارع سعد زغلول باشا ، حاصرتهن قوة بريطـانية ، ومنعتهن من التحرك ، وبقوا زهاء ساعتين تحت الشمس المحرقة •

وكان لهذه الاحداث أعظم صدى فى سائر المدن والاقاليم، فنظمت المظاهرات فى الاسكندرية وســائر المدن الكبرى •

وقام المتظاهرون بقطع خطوط السكك الحديدية ، وتدمير المحطات فى كثير من المواضع • وانذرت السلطات البريطانية بأنها سوف تقوم باحراق القرى القريبة من الاماكن المدمرة • ثم أصدرت أوامرها بعدم التجول من الساعة الرابعة صباحا ، ومنع انتقال سكان القرى من قرية الى أخرى منذ غروب الشمس الى شروقها •

ثم أضرب عمال الترام فى العاصمة ، وأضرب سائقو السيارات والحوذية ، واضطربت المواصلات بين القاهرة والاقاليم ، ووقفت معظم الخطوط الحديدية عن السير • وكان لحوادث الأقاليم ، وانتشار الثورة والمظاهرات فيها من أقصاها الى أقصاها ، صدى عميق فى العاصمة ، فاشتدت المظاهرات فى كل مكان ، بالرغم مما اتخذته السلطات من اجراءات لمقاومتها • وكان الجامع الازهر من أنشط مراكز الثورة ، وأكثرها التهابا • وكانت تبدأ منه المظاهرات بانتظام • وبالرغم مما قامت به سلطات الاحتلال من وضع الدوريات المسلحة حول مخارجه ، فان المظاهرات كانت تقتحم كل عائق • بل ان الازهر لم يلبث أن غدا قلب الحركة الثورية فى العاصمة ، وغدا فى نفس الوقت ، ملتقى رجال الدين المسلمين والاقباط ، ومجمعا وثيقا لشطرى الامة الشقيقتين ، يتعانق فيه الشيوخ والقساوسة ، ويخطبون بالتوالى من منابره ، لبث الثورة الوطنية ، وتدعيم روح الاخاء القومي • ولقد شهدت بنفسى من ذلك مناظر رائعة • ولم يك ثمة شك فى أن تدعيم الوحدة القومية على هذا النحو ، كان له أعظم الاثر فى اضرام روح العزم والاقدام فى الجماهير الثائرة •

واستمرت المظاهرات الوطنية بلا توقف ، وكان من

اعظمها انتظاما ووقارا ، مظاهرة ١٧ مارس الكبرى ، التى سمحت بمسيرتها السلطات العسكرية ، وتقدمها حكمدار العاصمة اللواء رسل باشا • وكان ينتظم فيها عشرات الألوف • وقد طافت بسائر شوارع القاهرة الكبرى ، واستمر سيرها عدة ساعات ، وانتهت دون حوادث ذات شأن •

وكثرت المظاهرات فى مختلف المدن والاقاليم ، واشتدت موجتها ، وبعثت السلطات العسكريةودورياتهاالمسلحةالى عدد من المدن ، لكى تحاول وقف هذا التيار الجارف عند حده • وأطلق الجند الانجليز الرصاص على الجماهير فى كثير من الاماكن ، وسقط شهداء عديدون فى أنحاء عديدة ، مثل المنصورة ، وبلدتى ميت القرشي ودنديط مركز ميت غمر ، وفي الفيوم ، وأسيوط ، وديروط ، وغيرها • وكثرت جنائز الشهداء فى القاهرة والاقاليم ، وكانت مسيرتها تزيد الشعور اضطراما والتهابا •

ولقد شهدت بنفسى الكثير من هذه المناظر الوطنية العظيمة المؤسية معا ، واشتركت فى كثير من المظاهرات ، وكنت معظم وقت الثورة مقيما بالقاهرة ، واشتركت بالاخص فى مظاهرة المحامين الكبرى بالقاهرة ، وقد سار فيها المحامون ، وهم يرتدون روبات المهنة ، فكان منظرا جليلا ، وكانت مظاهرة ذات طابع وطنى مؤثر •

ووقعت حوادث عديدة استطاع المتظاهرون فيها أن يقتلوا جماعات مختلطة من الضباط والجنود الانجليز فى القاهرة ، وغيرها من نواحي الاقاليم • وكانت السلطات البريطانية كلما وقع حادث من هذه الحوادث ،تضاعف اجراءات القمع والفتك بالمتظاهرين •

واستمرت حوادث الثورة على هذا النحو فترة أخرى خلال شهر أبريل ، وارتكب الجند الانجليز خلال ذلك الكثير من حوادث القتل والتعذيب ، فى كثير من المدن والقرى ، فى الوجه البحرى والصعيد .

وكان من أحداث الثورة في هذه الفترة اضراب الموظفين . ثم تلا ذلك اضراب التجار وأصحاب الحرف والمهن الحرة . واستمر اضراب الموظفين وقتا بالرغم من مطالبة رشدى باشا رئيس الوزارة الوطنية الجديدة لهم بالعدول عنه تفاديا للاضطراب والبلبلة ، واهدار المصالح العامة ، وهو ما اضطر رشدى باشا الى الاستقالة . وعلى اثر ذلك انهى الموظفون اضرابهم ، ثم تلاه قرار المحامين بالعودة الى أعمالهم . وقرار عمال العنابر والترام وغيرهم بالعودة كذلك الى العمل . وكان ذلك فى أواخر شهر أبريل .

* * *

ونحن نقف عند هذه الصور السريعة من أحداث ثورة سنة ١٩١٩ ، ونحيل القارىء الى قصتها الكاملة ، مسرودة بمراحلها المتتابعة ، بقلم أستاذنا المؤرخ الجليل عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه الجامع (ثورة سنة ١٩١٩) .

وفى أثناء ذلك اضطرت بريطانيا ، على اثر تفاقم الحوادث ، واستمرارها بمصر ، الى تعيين الجنرال اللنبى مندوبا ساميا لمصر مكان السير ونجت ، ليعالج الحالة ، ويعمل على تهدئة البلاد . وكان أول ما عمله ، أن أصدر قرارا بالافراج عن سعد باشا ، وزملائه فى السابع من أبريل ، وأصدر بلاغا قال فيه : ان جميع المصريين أحرار فى مغادرة البلاد الى حيث شاءوا .

ثم كان سفر سعد باشا وعدد من أعضاء الوفد المصرى الى أوربا . وكان من أولى الصدمات التى تلقاها الوفد ، وتلقتها مصر ، ما انتهى اليه مؤتمر الصلح الذى كان ينعقد عندئذ فى فرساى ، من النص ضمن شروط الصلح على اعتراف المانيا بالحماية التى أعلنتها بريطانيا على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وهو ما قام الوفد بالاحتجاج عليه ، وتقييده فى مذكرة بعث بها الى رئيس مؤتمر الصلح المسيو جورج كليمنصو ، رئيس الوزارة الفرنسية .

وتلا ذلك ندب الحكومة البريطانية للجنة يرأسها اللورد ملنر وزير المستعمرات ، لكى تقوم بتحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت بمصر ، وتقدم تقريرها عن الحالة ، وما يجب وضعه من النظم التى تصلح ، فى ظل الحماية لتحقيق أسباب السلام والرخاء واليسر (سبتمبر سنة ١٩١٩) وقد أثار ندب هذه اللجنة الاستعمارية بمصر سخطا عاما ، ونظمت للاحتجاج على قدومها مظاهرات عديدة ، وتكررت الحوادث المؤسفة من اطلاق النار على المتظاهرين ، ووقوع الضحايا فى القاهرة والاسكندرية ، واضطرت وزارة سعيد باشا ، التى كانت فى الحكم يومئذ ، أن تقدم استقالتها .

ووصلت لجنة ملنر الى القاهرة فى أوائل ديسمبر ، فقابلتها الهيئات المختلفة بالاحتجاج والانكار لمهمتها الاستعمارية ، وقاطعتها سائر الهيئات ، وأعلنت اللجنة فى بيان أصدرته انها قدمت لاجل التوفيق بين أمانى الامة المصرية والمصالح الخاصة البريطانية ، ودعت اللجنة سائر الهيئات والاشخاص أن يمدوها بآرائهم .

ولكن لجنة ملنر لقيت فى مصر سخطا عاما ، وانكارا تاما

لمهمتها ، فعادت الى انجلترا ، وبعثت الى الوفد المصرى ، وهو في باريس ، تطلب اليه ، أن يقدم الى لنـدن لمفاوضـتها ، وأكدت له ، أنها سوف تكون مفاوضـة حرة ، دون قيد ولا شرط • فاستقر رأى الوفد يومئذ على قبول الدعوة • والتقى باللجنة فى لندن • واسفرت المفاوضـات بين الفريقين عن وضع مشروع معاهدة بين مصر وانجلترا ، قدمه اللورد ملنر الى الوفد ، فرفضه وقدم سعد باشا الى اللورد ملنر مشروعا آخر بانهاء الحماية ، وجلاء القوات البريطـانية عن مصر • فرفضت اللجنة قبوله • ووضعت اللجنة مشروعا أخيرا من عندها ، ينص على أن تعقد معـاهدة بين مصر وبريطـانيا العظمى ، تعترف فيها بريطانيا باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ، وتمنح بريطانيا العظمى الحقوق التى تلزم لصون مصالحها الخاصة ، وتعقد بمقتضى تلك المعاهدة محالفة بين مصر وبريطانيا ، تتعهد بريطانيا بمقتضاها ان تعـاون مصر على الدفاع عن سلامة أرضها ، وتمنح بريطـانيا الحق فى ابقاء قوة عسكرية بمصر لحماية مواصلاتها ، وتنقل بمقتضى هذه المعاهدة حقـوق الدول الاجنبية بمصر الى الحـكومة البريطانية •• الخ • وعرض الوفد المشروع على الامة لابداء رأيها فيه ، واتفقت آراء معظم الزعماء والهيئات على اعتباره حماية مقنعة ، ورفض قبوله أساسا للاتفـاق بين بريطانيا ومصر •

وانتهى ذلك كله بالتقرير الذى وضـعه اللورد ملنر عن مهمته، وهو يلخص حل المسألة المصرية على النحو الآتى(١) التوفيق بين أمانى مصر فى الاستقلال ومصـالح انجلترا الجوهرية فى مصر ، ومصالح الاجانب فيها (٢) تسترشد مصر ببريطانيا فى علاقاتها الخارجية ، (٣) يكون لبريطانيا

الحق فى ابقاء قوة عسكرية بمصر لحماية سلامة مواصلاتها الامبراطورية (٤) يكون لبريطانيا مراقبـــة على التشريع المصرى والادارة المصرية فيمـا يختص بمصـــالح الاجانب المشروعة . (٥) تترك انجلترا لمصر شئونها الداخلية ، فيما عدا ذلك ، تتولاها بنفسها (٦) يستبعد السودان اطلاقا من هذه التسوية .

ثم تلا ذلك تبليغ اللورد اللنبى الى السلطان فؤاد (الملك فيما بعد) ابان تعيين مصر وفدا رسميا للشروع فى تبـادل الآراء مع الحكومة البريطانية فيما يختص بالاتفاق السنوى عقده ، وان الحكومة البريطانية قد قبلت التساهل فى أمر الغاء الحماية قبل المفاوضات الرسمية .

واعقب ذلك تأليف وزارة عدلى باشا التى سميت « وزارة الثقة » فى ١٦ مارس سنة ١٩٢١ ، وقامت هذه الوزارة بالمفاوضات مع الحكومة البريطـــانية . ولم تحقـــق هذه المفاوضات بالطبع مطالب مصر وأمانيهـا ، وانتهى الامر بأن أصدرت الحكومة البريطانية من جانبهـــا ، فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، تصريحها المشهور ، وهو الذى أقره البرلمان الانجليزى ، وفيه تعلن الحكومة البريطـانية ، انتهـاء الحماية البريطـانية على مصر ، وأن تكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتسجل احتفاظها المطلق بتولى الأمور الآتية :

(١) تأمين المواصلات الامبراطورية فى مصر .

(٢) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل اجنبى بالذات أو بالواسطة .

(٣) حماية المصالح الاجنبية فى مصر وحماية الاقليات .

(٤) السودان .

وبالرغم من أن تصريح فبراير لم يحقق أمانى الامة كاملة ، فقد كان مع ذلك أول خطوة عملية فى وضع أسس الاستقلال المصرى ، وكان فيما بعد منطلق المعاهدة البريطانية المصرية ، التى عقدت بين البلدين فى سنة ١٩٣٦ ، والتى كفلت لمصر استقلالها التام ، وسيادتها الفعلية ، التى استكملت فيما بعد بالغاء الامتيازات الاجنبية فى سنة ١٩٤٩ ، ثم جلاء القوات البريطانية ، بعد ذلك ببضعة أعوام .

* * *

ونود ، بعد أن قدمنا هذه الصورة السريعة من ثورة ١٩١٩ ، حسبما عاصرناها وشهدناها ، أن نقول أن هذه الثورة ، كانت أعظم ثورة قامت بها مصر الحديثة ، وانها لم تكن ثورة طبقية ، أو مقتصرة على طوائف معينة من الأمة ، بل كانت ثورة وطنية عامة شملت طبقات الشعب المصرى بأسرها من الفلاح ورجل الشارع الى أعلى الطبقات الراقية والميسورة ، والطبقات المثقفة والمفكرة على اختلاف أصنافها ، وجمعت هذه الطبقات كلها فى صعيد واحد حول المطالب الوطنية . وكانت غايتها الاساسية والكبرى تحرير البلاد من ربقة الحكم الأجنبى، وتحقيق استقلالها ، وسيادتها القومية ، وجلاء القوات الاجنبية عن أراضيها ، وما من شك فى أن ثورة سنة ١٩١٩ كانت هى أول خطوة حقيقية وعملية فى تحقيق هذا الهدف . وكل ما وقع بعد ذلك من مراحل الاستقلال ، كان من نتائجها الايجابية .

وما يجب التنويه به فى صدد المقارنة بين هذه الثورة الوطنية الكبرى ، وبين ما وقع فى سنة ١٩٥٢ ، هو أن

الانقلاب الذى وقع سنة ١٩٥٢ ، كان انقلابا عسكريا فقط ، ولم يكن ثورة شعبية ، ترتب عليه قيام الدكتاتورية العسكرية بمصر ، وابعاد العناصر المدنية ، التى تتولى حكم الشعوب عادة عن الحكم . وافنائها بالتدريج حتى يبقى للعسكرية سلطانها المستمر الذى لا ينازع فيه . وفى ظل هذه الدكتاتورية العسكرية ، وقع ما يسمى بالثورة الاشتراكية ، التى تقوم على نهب أموال طبقات، واعطائها لطبقات أخرى ، وتقرير سيادة الكتلة العاملة بطريقة دستورية ، واثارة بغض الطوائف بذلك بعضها لبعض بصورة حادة ، لم تعرفها مصر من قبل قط ، حيث كانت سائر طبقات الأمة وطوائفها تعيش فى مودة وتحاب ، وتحفظ كل منها للأخرى مكانتها وحقوقها وامتيازاتها . وهذا ما سوف نعرض اليه فيما بعد بتفصيل وافاضة .

الحركة الكمالية

وثمة حركة أخرى كان لها صداها القوى فى مصر ، وقد وقعت أيضا ، وقت أن كنت أزاول مهنتى بميت غمر . وذلك أن الحرب قد نشبت فى سنة ١٩٢٥ بين تركيا واليونان . وكانت اليونان ، قد بدأت عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بغزو الاناضول ، وكانت تركيا يومئذ محطمة مهيضة الجناح ، لا تستطيع مقاومة فعالة . ولكن شاءت الظروف أن يتقدم يومئذ لقيادتها مصطفى كمال ، الذى بزغ نجمه فيما بعد . وأضحى زعيم تركيا الحديثة ومصلحها . فالتفت حوله قوى المقاومة ،

واستطاع أن يحصل على معاونات كثيرة من روسيا ، سواء فى السلاح والعدة ، أو الأقوات . ولم يلبث ان انقلب الميزان ، ورجحت مقاومة تركيا ، وأخذت اليونان بضغط المقاومة التركية من جهة ، وضغط السياسة الدولية من جهة أخرى ، تنسحب من الأراضى التركية شيئا فشيئا . وقد كنا يومئذ فى مصر ، وفى مجتمعنا بميت غمر ، نعطف أشد العطف على تركيا ، وعلى المقاومة الكمالية ، وكنا نبذل جهودا متواصلة ، شملت سائر طوائف الشعب لمعاونة تركيا بالأموال والأدوية وغيرها ، فرحين بتقدمها فى تحرير أرضها ، والانتصار على عدوها التاريخى . وكنا سواء فى المجتمع أو فى الصحافة ، نبدى اشد الاعجاب بمصطفى كمال قائد تركيا الحديثة ومنقذها، ولم تكن ندرى يومئذ أن هذا الزعيم ، سوف يتنكر بعد ذلك ، وبعد أن اشتد ساعده ، للاسلام والعالم الاسلامى ، واللغة العربية ، لغة القرآن ، ويعمل جاهدا لمقاومة تراث الاسلام والعربية فى تركيا ، ويصدر مختلف القوانين للحد من آثاره ، ويأمر بالغاء معظم الكلمات والأصول العربية التى أستعارتها اللغة التركية ، واستبدالها بكلمات أوربية حيثما اتفق ، والغاء الكتابة العربية للغة التركية ، واستبدالها بحروف لاتينية ، والغاء الآذان بالعربية ، ثم الغاء الشريعة الاسلامية ، التى كانت تقوم فى تركيا مدى عصور على أساس الفقه الحنفى ، واستبدالها بتشريعات أوربية حديثة ، الغيت فيها سائر الاعتبارات الدينية ، وسمح بمقتضاها للمراة التركية المسلمة أن تتزوج بنصرانى ، بل لقد ذهبت العصبية الكمالية فيما بعد الى محاولة الغاء الصلاة

الاسلامية كلية ، واستبدالها بصلاة الوقوف بالاحذية في المسجد ، ومتابعة الموسيقى على نحو ما يتبع في الكنيسة النصرانية ، لولا ما أثارته هذه المحاولة الجريئة من السخط في سائر أنحاء العالم الاسلامي . والخلاصة ان الحركة الكمالية التي حيوناها في البداية بفيض حبنا واعجابنا ، انتهت بمختلف المحاولات الى فصل تركيا عن العالم الاسلامي ، ومخاصمة سائر الأمم الاسلامية ، ومحاولة الاندماج في العالم الاوربي النصراني ، وهو ما المعنا الى كثير من تفاصيله فيما بعد ، فيما كتبنا ، عما شاهدناه ودرسناه بأنفسنا خلال زيارتنا لتركيا الكمالية في سنة ١٩٢٧ . ولم تحاول تركيا تغيير هذا الجنوح الصارخ الى مخاصمة العالم العربي والاسلامي ، الا في الأعوام الاخيرة ، تحت ضغط الظروف والعوامل المختلفة، وتحت ضغط مصالحها المتدهورة . ونحن نعلم من تاريخ تركيا الحديثة ، أنها تسير مع سياسة الأخذ والعطاء من مختلف الدول ، ومبدؤها سياسة الانتفاع والكسب ، بقطع النظر عن اية اعتبارات أدبية أو اخلاقية ، ووفقا لهذا المبدأ ، فقد كانت منذ البداية من الدول ذات العلائق الودية والتجارية الوثيقة مع اسرائيل .

قصة الحزب الاشتراكي

ولابد لي أن اعقب هنا على ذكر حادث سياسي اشتركت فيه ، وكاد يحملني الى التيار الحزبي والسياسة المحلية، وهو ما اجتنبته دائما ، واحذر ما استطعت من التورط فيه .

ففى سنة ١٩٢٠ ، اجتمعت مع صديقى الدكتـــور على العنـــانى الاستاذ بمدرسة دار العـــلوم ، وكنا نشعر بالتعاطف المشترك لانتسابنا معا الى الأسرة العنانية الكبرى ، وكان قد عاد حديثا من بعثة علمية طويلة ، قضاها فى المانيا خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها ، والاستاذ سلامة موسى وقد كان يومئذ كاتبا معروفا ، تقرأ مقالاته فى مجلة الهلال وغيرها من المجلات والصحف، وتحدثنا فى وجوب القيام بعمل ايجابى فى أعقاب الثورة الكبرى – ثورة سنة ١٩١٩ – الى جانب الجهـود التى تبذل فى سبيل تحقيق امانى مصر فى استرداد حريتهـا وتحقيق استقلالها . واقترح الاستاذ سلامة موسى حسبما اذكر أن نؤسس حزبا اشتراكيا ، لأن هـذا النوع من الاحزاب لم يكن قد عرف بعد فى مصر ،و أيدناه فى ذلك أنا والدكتور العنانى وكان ذا نزعة اشتراكية حملها معه من المانيا . واتفقنا على أن نصدر فى ذلك بيانا يعلن فيه هذه الفكرة ، وما ترمى اليه من العمل على تأييد قضية الحرية والاستقلال . وقد صدر هذا البيان بعد أن قمت انا بتحريره واشترك معى زميلاى فى تنسيقه وتعديله الى الصيغة المرغوبة ، ونشر فى الصحف الكبرى مذيلا بتوقيعنا ، واتفق على أن أتولى سكرتارية الحزب المذكور حتى يتم انشاؤه .

واليك نص البيان المذكور :

« ويحمل البيان حملة شديدة على الاستعمارالبريطانى، واعتدائه على استقلال مصر ، واخضاعها لسيادته،وكذلك على اعتدائه على السودان ، تبعا لهذا الاعتداء ، ويطالب بريطانيا برفع سيادتها عن مصر ، ورد استقلالها اليها ،

ويطالب فوق ذلك بأن ترفع بريطانيا يدها عن وادى النيل كله بمصره وسودانه ، وينذر السياسة البريطانية ، بأن مصر لن تتوانى عن الصراع المستمر ضد الاستعمار البريطانى ، ومقاومته بكافة الوسائل ، حتى تتحقق لمصر سيادتها واستقلالها الكامل » .

واود أن أبادر بالقول بأن فهمى لمهمة الحزب المذكور يومئذ ، لم يكن منصبا على أغراض اقتصادية أو طبقية مما تدعو اليه النظرية الاشتراكية . وقد درست الاشتراكية مع بقية المذاهب الاجتماعية الحديثة بكلية الحقوق فيما كان يسمي يومئذ « بالعلوم السياسية » « Political science » ولكنه كان منصبا على المعنى السياسي ، وعلى ما ترمى اليه الأمانى المصرية من تحقيق الحرية والاستقلال . وقد أوضحنا فى بياننا أننا نرمى الى العمل على تحرير مصر ، بل وعلى تحرير وادى النيل كله من قبضة الاستعمار . ولما كان هذا الحزب جديدا فى اسمه ونوعه ، فقد أقبل كثير من الشباب على الاشتراك فيه ، واتخذنا شقة فى العمارة المواجهة لحديقة الازبكية على مقربة من ميدان الخازندار لتكون مكتبا للحزب واجتماعاته . وكنت يومئذ ما زلت أمارس مهنتى فى المحاماة بميت غمر وأقضى أواخر الاسبوع بالقاهرة ، وأهتم بتنظيم شئون الحزب الجديد بقدر الامكان . وكان من أهم ما قام به الحزب عقب تكوينه أمران ، الاول ، هو لقاء المرحوم سعد زغلول باشا زعيم الامة ، ورئيس حزب الوفد يومئذ ، فذهبنا الى لقائه بموعد فى بيت الامة ، واستقبلنا مع عدد من أعضاء الوفد ، وألقيت بين يديه خطابا قصيرا نوهت فيه بانشاء

الحزب الاشتراكى . وأشرت فيه الى ما اتسم به سعد باشا من الشجاعة والبسالة ، وكونه لم يخش سطوة الانجليز ولا حرابهم المشهرة . فلاحظ سعد باشا على ذلك مبتسما بقوله : « بل كنا خايفين شوية » . والامر الثانى هو أننا أقمنا حفلة شاى احتفالا بلقاء نواب حزب العمال البريطانى ، وكانوا ثلاثة ، وفدوا الى القاهرة لدراسة المسألة المصرية ، وذلك بنادى حديقة «السيروس» الواقع يومئذ فى منتصف سليمان باشا ، وألقيت أنا فيها كلمة بالانجليزية نوهت فيها بأهمية القضية المصرية وعدالتها ، ورجوت تعضيد حزب العمال البريطانى لها ، وسعيهم الى حلها بطريقة عادلة محققة للأمانى المصرية .

واستمر الحزب الجديد فى طريقه بعض الوقت على وضعه الذى أشرت اليه . ولم تشمل حفلات أو تلقى محاضرات ، اذ كنا نجوز مرحلة التأسيس والتجمع ، ولم يوضع برنامج معين للحزب ، اكتفاء بالبيان التأسيسى الذى نشر فى ذلك . وبينما نحن فى هذا الوضع التمهيدى اذ طرأ على الحزب عنصر جديد ، يتمثل فى انضمام اثنين من دعاة الاشتراكية القدامى اليه ، هما الاستاذ حسنى العربى ، وهو من أعيان المحلة الكبرى ، وكانت له سوابق فى الدعوة الى اعتناق الاشتراكية ، والمسيو روزنتال الجوهرى بالاسكندرية ، وكان له فى هذا الميدان نشاط معروف وذائع . وقد تبين منذ البداية أن هذين العضوين الجديدين كانا مدربين على أعمال الدعاية ، كما تبين أن مسيو روزنتال كانت له صلات بالحزب الشيوعى الروسى وغيره من الهيئات الاشتراكية الاوربية ، وأنه كان ينفق بعض المال فى سبيل الدعاية الاشتراكية وغير ذلك وكذا

كان يعمل زميله الاستاذ العـرابى . كذلك تبين انهمـا يسعيان الى أن تكون لهما مساهمة فعالة ، بل مساهمة قيادية فى تسيير الحزب والسيطرة على توجيهه . وفى هذه الفترة بالذات كان يأتى بعض الرسـل من وافدى اوربا يدعي بعضهم الانتماء الى بعض الاحزاب الاشتراكية والشيوعية الاوربية ، ويدعوننا الى الاتصال بأحزابهم .

وهكذا بدأت تتضح المسـاعى التى نظمت لتحـويل الحزب الاشتراكي فى هيئة عاملة لبث المبادىء الاشتراكية والشيوعية ، ومحـاولة الاتصال بالاحزاب الاوربية ، وتنظيم علاقات معها ، وتحوله بذلك عن غايته الاصلية التى أنشأناه من أجلها ، وهى تدعيم الجهود التى تبذل لحل القضية المصرية ، وحصول مصر على استقلالهـا وحرياتها ، وهنا أخذت السلطات تراقب الحزب ونشاطه ومن يتردد عليـه . وكان من المبعوثين الذين حاولوا الاتصال بالحزب وتوجيه نشاطه ، شاب أوربى يدعى افجدور ، والغالب فى الدعوة الى العمـل ، والاتصـال بالأحزاب الخارجية ، والنضال ضد الاستعمار والنظم المستعبدة ، وغير ذلك . وكان عنيفا فى خطبه ودعوته ، فلفت اليه نظر السـلطات وقبض عليـه . ودعيت أنا والدكتور على العنانى وسلامة موسى الى الشهادة بما نعلم عنه وعن أعمال الحزب واتجاهاته . وكان التحقيق أمام رئيس نيابة مصر بمبنى محكمة الاستئناف ببـاب الخلق . فأدلينا بأقوالنا ، وسرد كل منا قصة انشـاء الحزب وأغراضه كما وقعت ، وقدمنا الى النيابة بيانه التأسيسى الذى سبق نشره فى الصحف .

وهنا شعرنا نحن الثلاثة بأن الأمور قد خرجت من

أيدينا، وأن الاستمرار فى وجودنا على راس الحزب او حتى بين أعضائه مما يثير الشبهات حولنا دون مبرر ، خصوصا وأن هذا الاتجاه الذى يأخذه الحزب تحت توجيه العرابى وروزنتال ، كان توجيها شيوعيا صريحا. ومن ثم فقد استقلنا من عضوية الحزب وتركناه وشأنه ، ونشرنا بذلك بيانا موجزا فى جريدة الاهرام ، ذكرنا فيه أننا قد اعتزلنا العضوية وتركنا الحزب لمعارضتنا فى قيام الدعوة الى الشيوعية التى غلبت عليه فى الفترة الأخيرة. وكان ذلك ختام هذه الحركة الصغيرة البريئة التى كنا نؤمل أن تكون مفيدة ومؤيدة لحركة الاستقلال السياسية، وهى التى بدأت تحتل فى ذلك الوقت مكانها فى عرين الصراع الحزبى المعروف .

ولم يخالجنى منذ ذلك الحين اى شعور أو أية رغبة بالانضمام الى أية هيئة سياسية أو أى حزب سياسى، أو اعتناق اية آراء حزبية معينة ، ولبثت طوال حياتى بعد ذلك بعيدا كل البعد عن هذا المعترك ، لا يحركنى سوى شعورى المصرى الصميم ، واتجاهاتى المصرية الخالصة ، وذلك حسبما نوهت فى مقدمة هذه المذكرات.

النزول الى ميدان الصحافة

وفى سنة ١٩٢٤ كان اتصالى بجريدة « السياسة » ، وكانت تصدر يومئذ باعتبارها لسان حال حزب الأحرار الدستوريين . وكان صدورها قبل ذلك بعامين حادثا مدويا فى عالم الصحافة المصرية ، وذلك لما احتشد فى تحريرها من أكابر كتاب العصر ، ولما كانت تبتكره من

ابواب جديدة فى الفن الصحفى . وكان رئيس تحريرها يومئذ المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، وقد لبث فى هذه الرياسة أعواما طويلة ، حتى تطورت الأحوال السياسية واحتجبت السياسة . وكان يعاونه فى تحريرها يومئذ رهط من أعلام الكتاب والصحفيين ، أمثال الدكتور طه حسين ، والاستاذ توفيق دياب ، والاستاذ محمود عزمى بعد ذلك بقليل ، والاستاذ عبد الحميد حمدى ، وغيرهم . ويشترك فى تحريرها من الخارج أصدقاء اعلام مثل المرحومين الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، واخيه على عبد الرزاق ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، والدكتور محمد ولى ، والدكتور محمد صبرى السوربونى ، والاستاذ المازنى ، وغيرهم . وقد كان من حظى أن التحق بهذا الحشد اللامع من رجال الفكر والقلم ، وذلك فى ظروف لم تكن تخطر ببالى . وكان الفضل فى ذلك يرجع الى صديقى وبلديى ، المرحوم الدكتور سيد بك شكرى ، وكان يومئذ مديرا لمستشفى زفتى الاميرى ، وكان يسكن فى الضفة الاخرى بميت غمر، وموظفين فى مقهى ميت غمر الكبير الفاخر المسمى بمقهى « بابا » ، وأحب بهذه المناسبة أن أنوه بما كانت عليه مدينة ميت غمر من الجمال ، وروعة موقعها وكورنيشها على النيل ، مقابل قرينتها مدينة زفتى ، وبفخامة صروحها ومبانيها ومنتدياتها ، وجمال تخطيطها ونظافتها.

وقد كان ذلك يرجع أولا الى غنى ميت غمر ورخائها ، وكثرة رجال المال والأعمال من أعيانها ، وثانيا الى أنه كانت بها جالية يونانية كبيرة نشيطة ، انشأت بها كثيرا من المحال والمنتديات الجميلة من مقاه ومطاعم وفنادق ،

ومنها مقهى بابا الفخم الكبير . وكنت أقول دائما أن بلدتي ميت غمر هي أجمل مراكز القطر المصري ، وأن مدينة المنصورة بندر مديرتي الدقهلية ، هي أجمل بنادر القطر المصري . وقد كان جمال المنصورة في ذلك العهد يرجع الى وجود المحاكم المختلطة بها ، وهي تضم جالية أجنبية مختارة من القضاة والمحامين والموظفين القضائيين ، هذا الى جالية أخرى يونانية كبيرة نشطة على منوال جالية ميت غمر ، ثم الى وجود عدد كبير من البيوتات العريقة والارستقراطية ، ولكن من شديد الأسف أن تغيرت الظروف ، وتطورت الأحوال في معظم المدن المصرية في العهد الأخير ، وفقدت كثيرا من جمالها السابق وفخامتها القديمة . وذلك لاختلاف موازينها الاجتماعية ، نتيجة ما وقع من تغييرات طبقية مفتعلة بقوة التشريع . وكانت خسارة المنصورة وميت غمر في ذلك كبيرة ، أولا ، لانتهاء عهد المحاكم المختلطة ، ونزوح الجاليات الأجنبية عنها نظرا لما وقع من مطاردتها دون تفريق بين العناصر النشطة الشريفة ، والعناصر السيئة ، وثالثا لسوء الأحوال الاقتصادية ، وزحف الفقر الى معظم الطبقات ، وانخفاض المعايير ، والتدهور الأدبي والمعنوي الذي أصاب المجتمع المصري في العهد الأخير .

صداقة العمر

وأعود بعد ذلك الى موضوعي الأصلي ، وهو اتصالي بجريدة السياسة ، وفضل صديقي المرحوم الدكتور سيد بك شكري في عقد هذا الاتصال . وكانت تربط الدكتور صداقة متينة العرى بالمرحوم الدكتور حافظ

عفيفي (باشا) زميله في الدراسة بمصر وأوربا ، وكان يومئذ من أقطاب الأحرار الدستوريين ، ويتولى ادارة جريدة السياسة العليا . وكانت السياسة تصدر يومئذ عن دارها الأولى في شارع المبتديان ، فقدمني اليه الدكتور شكري ، وأطنب فيما كنت أتمتع به من معارف ومزايا لغوية وتحريرية . ووافق الدكتور عفيفي في الحال على أن يضمني الى تحرير السياسة . وكان ذلك في أواسط سنة ١٩٢٤ . وكانت هذه الصلة الأولى بيني وبين الدكتور عفيفي ، بداية لما أصبح فيما بعد صداقة العمر بيني وبينه . وسرعان ما شعرت بما تنطوي عليه هذه الشخصية المصرية الفذة ـ شخصية حافظ عفيفي ـ من صفات ممتازة ، وأخلاق رفيعة ، ومواهب أدبية وفنية لامعة . وكان الدكتور هيكل قد عهد الى بأن أقوم بتحرير عمود الصفحة الأولى من السياسة الذي يحمل عنوان « أخبار خارجية » . وكانت تربطني به الصفة المهنية ، صفة المحامي ، وكان قد اشتغل بالمحاماة وقتا ثم اعتزلها ، ثم ظهر بمقالاته التي كانت تنشرها جريدة الأهرام حول الأحداث المصرية ، والتطورات السياسية التي كانت تتوالى في ذلك الوقت . وكنت أشعر أن هذه الرابطة الأدبية مما يقوي صلاتنا الصحفية . هذا الى ما كان يمتاز به الدكتور هيكل من رقة وأدب جم ، وحديث ممتع ومعارف واسعة . وكان صدور جريدة « السياسة » في نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، حادثا صحفيا عظيما ، لا لأنها كانت فقط لسانا لحزب قوي يضم طائفة من أقطاب السياسة المصرية ، ولكن لأنها كانت بالأخص منذ صدورها ، حسبما أسلفنا مسرحا لأقلام جمهرة من

اعلام الكتاب والصحفيين ، الذين كان لهم أثر كبير فى سير النهضة الأدبية والصحفية .. وكانت نقد عن كونها صحيفة رأى ، وصحيفة كفاح حزبى ، فتحا جديدا فى الفن الصحفى ذاته . وقد اشتهرت بصحفها الأدبية والعلمية والفنية والاقتصادية والزراعية التى كان يحررها اكابر الاخصائيين ، كما اشتهرت بمقالاتها السياسية ، وأسلوبها الأدبى الرفيع . وكان لمقالها السياسى الرئيسى « حديث اليوم » ، وهو الذى كان يحرره على الاغلب الدكتور هيكل دائما وقع ملحوظ فى الدوائر السياسية ، نظرا لصفته الحزبية ، ولما كان يمتاز به من قوة الحجة وبلاغة الأسلوب وكان من وراء السياسة بعض أقطاب الحزب المتازين يوجهونها ويغذونها بآرائهم ومعلوماتهم. وكان فى مقدمة هؤلاء الدكتور حافظ عفيفى بك ، فقد كان له أعظم أثر فى توجيه جريدة السياسة وتنسيقها واختيار موضوعاتها ، وتزويدها بكثير من الآراء والمعلومات القيمة . واشتهرت السياسة أيضا بمحاضرها البرلمانية الشهيرة التى كان يحررهما الأستاذ محمود عزمى أيام وزارة سعد باشا ، والتى كان من أثر تصويرها اللاذع أن منعت السياسة من شهود جلسات البرلمان . وفى وزارة سعد باشا أيضا صودرت السياسة وأغلقت بطبعتها أياما وقدم رئيس تحريرها وصاحب امتيازها الى محكمة الجنايات فى يونيه سنة ١٩٢٤ لحملتها على البرلمان الوفدى فى مقالات رنانة عنوانها «حزب الستمائة» . ولكن حكم القضاء بالافراج عن مطبعتها ، قضى على رئيس تحريرها بالغرامة . واستأنفت السياسة صدورها أشد ما تكون عزما على النضال . وبلغت يومئذ ذروة الانتشار،

اذ كانت تطبع نحو أربعين الف نسخة ، وهو رقم لم تبلغه اية جريدة مصرية أخرى من قبل .

التزام وحياد

وهكذا بدأت عملى فى السياسة بتحرير باب « الاخبار الخارجية » ، وكنت أستعين على تحـــريره بقراءة الصحف الانجليزية والفرنسية ، واختيار ما أستطيع منها من النبذ الاخبارية الطريفة . وكان الدكتور عفيفى من جانبه يقدم الى من آن الآخر بعض اعداد من الصحف الفرنسية التى قرأها ، ووقع فيهـــا على بعض الاخبار والنبذ الشائقة ولا سيما جريدتى « الجورنال » و « الكوتيديان » . وكان هذا التعـــاون بيننا يقوى ويتوثق مع الزمن ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت انشر فى صحف السياسة الخاصة (الثانية أو الثـالثـة) بعض البحوث التاريخية مما كنت قد أعددته من قبل ، أو وقع اختيارى عليه ، وأذكر من ذلك فصـــلا عن « العقاب والتعذيب فى العصور الوسطى » وبحثا عن ابن خلدون عنوانه « ابن خلدون مؤرخ الحضارة فى القرن الرابع عشر » بقلم المستشرق « فون فيسندنك » ترجمته عن مجلة « دويتشه روتشـــارد » الالمانية ، وغيرهما . وهكذا الفيت الميدان أمامى فسيحا للتحرير والنشر ، فى جريدة محترمة ، وفى وسط رفيع من أكابر كتاب العصر ، والى جانب نخبة من رجالات مصر ، الذين كانت تحفل بهم دار السياسة باستمرار . وأود أن أنوه هنا بحقيقة بارزة ، هو أننى بالرغم من مساهمتى

فى تحرير جريدة السياسة ، لسان حزب الاحرار الدستوريين واتصالى بكثير من أقطاب هذا الحزب ، فانه لم يخطر ببالى مطلقا ، أن أتجه الى هذه الناحية الحزبية ، أو اتسنم بها بأية حال . بل ولقد حرصت أشد الحرص على أن لا أغمس قلمى فى أية موضوع سياسى محلى أو حزبى ، لاننى كنت التزم أشد الالتزام بصفتى المصرية ، ولا أبغى نزوعا عنها لاية ناحية حزبية . ولقد كان المشرفون على تحرير السياسة ، وفى مقدمتهم الدكتور هيكل ، والدكتور حافظ عفيفى ، يشعرون منى بهذا الالتزام ، وهذا العزوف المطلق عن الاتجاهات الحزبية ، ويحترمون عزلتى وشعورى ، ويوقنون انى أدين بمبدأ مخلص لا تشوبه أية شائبة ، ولقد كنت حينما توالت بى الاعوام فى تحرير السياسة ، وأضحى من واجبى أن أساهم فى تحرير افتتاحيات الجريدة ، ألتزم الكتابة فى السياسة الدولية ، أو الشئون الدستورية ، وشئون الامتيازات الاجنبية ، والقضاء المختلط وكان لى بالاخص فى شئون الامتيازات الاجنبية والقضاء المختلط حملات شدائد ، كان لها تأثيرها العملى . وأذكر من ذلك اننى عقب وفاة المسيو ستولوف القاضى الروسى بالمحكمة المختلطة (سنة ١٩٢٧) ، ومحاولة اختيار قاض اجنبى مكاننه ، اننى نشرت فى السياسة مقالا شديد اللهجة ، بينت فيه أن روسيا السوفييتية . لم تعد لها أية امتيازات أجنبية ، وان مصر لم تعترف بها ، وان مكان القاضى المتوفى يجب أن يخرج عن سلطان القضاء المختلط ، الى نطاق السيادة المصرية ، وانه من حق مصر

أن تعين قاضيا مصريا فى هذا المنصب القضائى الذى آل اليهـا بفقدان روسيا البلشفية لامتيازاتها القـديمة ، وقد كان لهذا المقال أثر عميق فى الاوساط القضائية ، وكان من أثره أن تراجعت محكمة الاستئناف المختلطة عن محاولتها ، وعينت الحكومة المصرية قاضيا مصريا مكان القاضي المتوفى ، هو المرحوم عبد السلام ذهنى .

وكان من آثار وجودى فى تحرير السـيـاسة ، أن اتصلت فيمن اتصلت بهم ، بآل عبد الرازق : مصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق ، ومحمود عبد الرازق ، وكان مصطفى وعلى يكتبان فى السياسة من آن لآخر . وكان أخوهمـا محمود باشا من قـادة حزب الاحرار الدستوريين ، بل قائده الاول ، وكنت أتردد من آن لاخر مع الدكتور هيكل على منزل آل عبد الرازق الواقع خلف سراى عابدين ، وسرعان ما أدركت ما كانت عليه هـذه الاسرة من العراقة والنبل ، وما كان عليه أولئك الاخوة الثلاثة من رفيع الخلال ، بل أستطيع أن أقول انى لم اشهد بين الاسر المصرية العـريقة أسرة تضـارع آل عبد الرازق فى رقة الخلال ، وفى الـكرم ، والادب ، والتواضع ورحابة الصدر . أذكر انى كنت مع الدكتور هيكل ذات يوم فى حديقة منزل آل عبد الرازق ، وجاء السفرجى يقول « تفضـلوا ، الاكل جاهز » ، فقمت استأذن الدكتور هيكل فى الانصراف ، فقال لى : « الى اين » ، فقلت : « انى لم أدع الى الفـداء » فقال : « وأنا كذلك لم أدع ، ولكن تقليد آل عبـد الرازق أن يشترك دائما فى السفرة من وجد من الاصدقاء والزوار ، أكانوا من المدعوين أم لا . ولقـد توثقت علاقتى على مر

الايام بالاستاذين الـــكبيرين مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق . وكان الاستاذ علي فى أواسط العشرينيات يشرف علي اصدار مجلة شهرية ، تسمى مجلة الرابطة الشرقية تعنى بشئون الامم الاسلامية الشرقية ، فدعانى الى المساهمـــة فى تحريرها ، فأستجبت مغتبطا وكانت تطبع فى مطبعة أحمد باشا شفيق الخاصة التى يقـــوم بطبع « حولياته السياسية » فيهـــا فتعرفت به ، وأردت هذه الصلة فيمـــا بعد الى أن طلب منى شفيق باشا مساعدته على تنظيم مذكراته . وكان يقيم فى شبرا فى فيلته المطلة على النيل . وكنت فيما بعد أسكن فى شبرا قريبا منه ، فكان هذا القـــرب مما سهل على تحقيق رغبته فى تنظيم هذه المذكرات الهـــامة ، التى نشرت فيما بعد تحت عنوان « مذكراتى فى نصف قرن » ، وكان لمـــا ورد فيها دوى شديد فى قصر عابدين ، ودعى شفيق باشا للتحقيق معه فى بعض ما ورد فيهـــا ، وسحبت نسخها من المكتبات . وأذكر بهذه المناسبة أننى التقيت لدى شفيق باشا لاول مرة بالآنســـة مى زيادة ، ابنة الصحفى المعروف الاستاذ الياس زيادة ، صاحب جريدة « المحروسة » وكانت يومئذ قد ذاعت شهرتها الادبية . وكانت فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها فتاة متوسطة القوام تميل الى السمرة ، ولكن السحر كان ينفث من عينيها ومن حركاتها وألفاظها وقد التقيت بها فيما بعد فى احدى حفلات نادى القـــلم ، ثم توطدت بيننا أواصر مودة أشير اليها فيما بعد .

وهنا أقف قليلا ، لاعطف على ذكر حادثين وقعا وقت أوائل عملى فى السياسة ، وكان لهمـــا أثر عظيم فى

حياتي الادبية . أولهما صدور كتابي « تاريخ العرب في اسبانيا » (سنة ١٩٢٤) وقد كان مجهودا متواضعا ، ولكن حسن التنسيق ، غني المادة ، ويشتمل على موجز في تاريخ الاندلس منذ الفتح ، حتى عصر الناصر لدين الله (في نحو مائة صفحة) ، وكنت قد بدأت في كتابته منذ أيام دراستي في الحقوق ، وقرأت من أجله عددا من المصادر العربية الجامعة ، وبعض المصادر الاوربية مثل دوزي ولاين بول ، وقد كانت هذه الفاتحة الاولى في البحوث الاندلسية رغم ضآلتها أساس مجهوداتي الكثيفة الواسعة النطاق فيما بعد ، في ميدان الدراسات الاندلسية ، ودليلا اتبعته في تنظيم مراحل التاريخ الاندلسي في موسوعتي الاندلسية ، التي اشتغلت من أجلها فيما بعد زهاء عشرين عاما في مدريد والاسكوريال وغرناطة والمغرب وغيرها ، والتي تبلغ سبعة مجلدات كبيرة ، تشغل نحو خمسة آلاف صفحة .

والحادث الثاني هو انضمامي الى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التي أسست في سنة ١٩١٤ ، وكنت قد سمعت عن تنظيمها ونشاطها الادبي من زميلي المرحوم الاستاذ يوسف الجندي المحامي ، وقت عملي بميت غمر ، وكان عضوا بها ، فسعيت الى الالتحاق بها ، وقابلت من اجل ذلك رئيسها صديقي المرحوم العلامة الكبير الاستاذ احمد امين ، وكان يومئذ قاضيا شرعيا بمحكمة السبتية ، وعرضت عليه رغبتي ، فرحب بها ، والتحقت عضوا باللجنة ، وقمت بشراء الاسهم المقررة لعضويتها ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٣ ، وما زلت عضوا بها حتى كتابة هذه السطور ، وذلك بالرغم مما آلت اليه

جهودها من الضعف والاضمحلال ، وما رزئت به من وفاة معظم أعضائها العاملين على التوالى . وقد كانت هـذه اللجنة الادبية الجليلة ، أيام ازدهارها تضم رهطا كبيرا من أعلام رجال التربية والعلماء والكتاب والأدباء والشعراء المعاصرين ، اذكر منهم على سبيل المثال ، عدا رئيسها الاستاذ أحمد امين ، احمد لطفى السيد ، أحمد نجيب هاشم ، الدكتور طه حسين ، الدكتـــور عبد الرازق السنهورى ، الاستاذ أحمد حسن الزيات ، الاستاذمحمد فريد أبو حديد ، الاستاذ اسماعيل القبانى ، الدكتور حسين حسنى ، الاستاذ محمد بدران ، الدكتور أحمد زكى ، الدكتور محمد عوض محمد ، الدكتور عبد السلام الكردانى ، الاستاذ الدمرداش محمد ، الدكتـور سيد باشه ، الاستاذ مختـار رسمة ، الاستاذ حسن جلال ، الاستاذ عبد الحميد العبادى ، الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، الاستاذ يوسف الجنــــدى ، الاستاذ صبرى أبو علم ، الاستاذ مرسى قنديل ، الاستاذ راشد رسم ، الاستاذ عوض لطفى ، الدكتور محمود القوصى ، وغيرهم وغيرهم . وقد لقى معظم هؤلاء الاعضاء الاجلاء ربهم تباعا ، ولم يبق من الاعضاء الاحياء العاملين سوى قلة ، فرحم الله من توفى منهم ، ومد الله فى عمر من بقى منهم، وقد لبث أعضاء لجنة التأليف والترجمـة ومعظمهم من أكابر رجال التربية دهرا يسهرون على تربية الاجيــال المتعـاقبة من الشباب ، وكان جلهم من خريجى مدرسة المعلمين العليا ، وقد تولى وزارة التربية والتعليم منهم عدة ، وتولى البعض وزارة الشئون الاجتماعية ، والله يجزيهم خير الجـــزاء على ما قدموا لوطنهم من جليل الخدمات .

وقد تولت اللجنة نشر بعض كتبى : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين . المترجم عن الالمانية ، ولكنى لم أتابع نشر كتبى بها ، لما آنسته من ضعف جهودها فى الطبع والتوزيع .

وقد قامت اللجنة ، خلال حيـــاتها الطويلة ، بنشر عشرات من الكتب العلمية والادبية ، وكتب التراث . وقامت بالاخص بنشر كثير من الـــكتب الدراسية التى تتعلق بالتعليمين الابتدائى والثانوى من تاليف أعضائها ، وجلهم كما أسلفنا من أعلام رجال التربية . وكان معظمها تقرره وزارة التربية ولتلاميذ المدارس ، وكانت أثمـــان هذه الكتب الدراسية ، تكون موردا من أهم موارد اللجنة المالية .

وكان للجنة أثرها البارز فى سير الحـــركة العلمية والادبية فى نصف القرن الماضى ، بما كان تنشره من الكتب والمجموعات الادبية والفنية ، وبما كانت تعقده من ندواتها الادبية ، وكانت هذه الندوات تعقد بانتظام فى مساء كل خميس ، ويجتمع فيهـــا رهط من العلماء والادباء من اعضاء اللجنة وغيرهم من الزملاء والاصدقاء ، وضيوف مصر من أدباء البلاد العـــربية ، ويجرى تبادل الافكار والاحاديث الادبية من كل لون . واذا كان من حظ الندوة، أن يحضرها المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى ، وقد كان صديقا حميما لنا جميعا ، فقد كانت نكاته النادرة الاخاذة ، تبعث فينا جميعا من الضحك والبشر ما ترتاح اليه النفوس ، وتنتعش القلوب .

تفاؤل وتشاؤم !

وكانت ندوات اللجنة تشـــغل فى البداية بالاخبار

والمناقشات ، الادبية . وكان المرحوم الاستاذ كامل كيلاني يحاول دائما أن يجعل من ابن الرومي وأخباره وأشعاره موضع النقاش ، ويحاول أن يستغرق في ذلك الوقت لولا أن كنا نوقفه عند حده . ويتحفنا المرحوم الاستاذ احمد الزين بانشاد ما لم ينشر من أشعاره وفيها الكثير من الجيد والطريف ، ويشير كل منا ما يرد على خاطره من الاخبار والطرائف الادبية والتاريخية . فلما وقعت « ثورة ٢٢ يوليه ، وقام النظام العسكرى الجديد ، كانت الاوضاع والاحوال الجديدة ، تشغل حيزا كبيرا من مناقشات الندوة . وكان التفاؤل بالعهد الجديد وأحواله ، يغلب على معظم الاخوان من أعضاء اللجنة ، ولا سيما في الاعوام الاولى . وكنت وحدى اخالف هذه النزعة ، وابدى تشاؤمي وتخوفي من تطور الاحوال الجديدة ، والاخوان جميعا يقابلون تشاؤمى بالاعتراض واللوم . فلما مضت الاعوام ، اخذ معظم الاخوان يغير رايه ، ويبدون موافقتهم لموقفى وآرائى ، ويقولون « عنان كان عنده حق فى تشاؤمه » « عنان كان أبعد منا نظرا الخ » . ثم اخذت هذه المناقشات السياسية بطبيعتها تتضاءل ، ويعدل عنها لما كانت تثيره عندئذ من حدة المناقشات وعنفها ، واخذت مناقشات الندوة طابعها الادبي المعتاد .

وكان للجنة دار خاصة ، وبها مطبعة كبيرة تقوم على طبع كتبها وغيرها من الكتب العلمية ، وكانت تسير بخطوات ناجحة ، لولا ما توالى فى أواخر عهدها من مشاكل العمال التى اثارها التشريعات العمالية المفرقة ، والتى ذهبت فى التحيز للعمال والاغداق عليهم الى حدود غير معقولة ، والتى كادت اخيرا أن تشل كل شىء فى

نشاط اللجنة ، وتستنزف كل مواردها . ومن ثم فقد اضطرت اللجنة الى أن تتصرف فى دارها وفى مطبعتها بالبيع البخس ، تخلصا من هذه المشاكل . وهى مازالت تعمل حتى اليوم ، بالرغم من ضعف مواردها على نشر كتبها القديمة ، ونشر القليل من الكتب الجديدة . ويجرى اتجاه البقية الباقية من أعضـــائها الى تصفيتها تصفة نهائية ، والله يعمل ما فيه الخير .

* * *

هذا ، وقد كانت الخلافات الحزبية ، قد أخذت تشتد يومئذ بين مختلف الاحزاب والهيئات السياسية . وفى غمرة هذا الخلاف ، وقع حادثان يتعلقان بحرية الفكر والقلم . هما قضية كتاب « الادب الجاهلى » ، وكتاب « الاسلام واصول الحكم » .

فأما القضية الاولى ، وهى قضـــية كتاب « الادب الجاهلى » ، الذى وضعه الدكتور طه حسين ، فقد اثيرت فى الدوائر الازهرية عقب صدور هذا الكتاب ضجة مفتعلة ، وطالب لفيف من أكابر علمـــاء الازهر بالتحقيق مع مؤلف الكتاب لبعض ما ورد فيه مما يعتبر مساسا بالدين الاسلامى ، فنزلت النيابة العمومية عند رغبتهم ، ودعى الدكتور طه حسين أمام النيابة للتحقيق معه فى هذه التهمة . وكان الشعور واضحا بأن هذه الحركة انمـا دبرت ضد حزب الاحرار الدستوريين ، الذى ينتمى اليه مؤلف الكتاب . ونصح الدكتور طه حسين من محامى الحزب ، وفى مقدمتهم رئيسه يومئـذ المرحوم عبد العزيز باشا فهمى ، بالا يجيب عن اى سؤال للنيابة ، وأن يكون رده دائما بقوله « لا أجيب » . وعمل الدكتور طه حسين بهذه النصيحة ، ورفض الاجابة ، على

اى سؤال وجهتـه النيابة اليه . ولم تستطع النيابة أن تجد مجالات تقوم ضده بأى اجراء جنائى .

وبعد ذلك بقليل ، ظهر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لمؤلفه الاستاذ علي عبد الرازق ، فى ابريل سنة ١٩٢٥ ، فأثار ظهوره ضجة جديدة اتسمت بشيء من الخطورة ، لمـا كان له من صلة وثيقة بمسألة الخلافة الاســـلامية ، التى كانت تتبعه اليها يومئذ بعض الاطماع الملوكية ، وكان لمؤلف الكتاب ، رأى جديد فى الخلافة الاســـلامية • وهي « انها كانت حكومة لادينية ، وان الله لم يكلف المسلمين بأن يكون لهم خليفة ، وان الاسلام لم يقرر نوعا معينا من الحـكومة ، وان الخلافة ليست نظاما دينيا ، والقــرآن الكريم لم يأمر بها ، ولم يشر اليها ، وان الدين الاسلامي بريء من نظـــام الخلافة ، وبريء من الأدواء التى عصفت بها ، وعملت كثيرا على تأخير المسلمين » • وقد صـــدرت هذه الآراء العلمية الجريئة المبتكرة فى ظرف كانت الخلافة الاسلامية فيه ، بعد أن ألغيت فى تركيا الكمالية ، موضع أحاديث وتعليقات كثيرة فى مختلف أنحاء العالم الاســـلامى ، وكانت مصر مسرحا خصبا لهذه الاحاديث ، اذ كان عاهلهـا الملك فؤاد ، ممن يطمحون الى احراز هذا اللقب القـديم التالد ، وكانت الاقلام الاجيرة ، وفى مقدمتها أقلام الدعاة الدينيين ، أمثـال صاحب المنار وزملائه ، ترسل صيحاتها فى هذا الاتجـاه ، فكان صدور كتاب « الاسلام وأصول الحكم » وما تضـمنه من الآراء الجديدة فى تقييم مركز الخـلافة الاســلامية ، كانت تتجه اليها يومئذ بعض الاطماع الملوكية • وكان لمؤلف وتجريدها من كل أصل وصفة دنية ، ضربة شديدة لهـذه الاطماع ، ومن ثم فقد تحرك علماء الازهر ، وهم دائما أولياء القصر ، وبادرت هيئة كبار العلماء برياسة شـــيخ الجامع

الازهر ، الشيخ محمد أبى الفضل باستدعاء الشيخ على عبد الرازق ، وهو من أعضائها ، لمحاكمته ، لماورد فى كتابه من آراء وأقول تعتبر مروقا عن أصـــول الدين ، واســـتجاب الشيخ على عبد الرازق لهذا الاستدعاء ، وعقـــدت الهيئة جلستها لاستجوابه ، وتوجيه الاتهام اليه ، واحتج الشـيخ على بعدم اختصاص الهيئة ، فرفض احتجـــاجه ، وانتهت الهيئة بالحكم بادانته ، وقضت « باخراج الشـــيخ على عبد الرازق ، أحد علماء الجامع الازهر والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الشرعية ، ومؤلف كتاب (الاسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء » . وكان ذلك فى ١٢ أسطس سنة١٩٢٥ ثم عزل الشيخ على عبد الرازق بعد ذلك من منصبه القضائى على يد مجلس تأديب قضاة المحاكم الشرعية بوزارة الحقانية، واختتمت المسألة باقالة وزير الحقانية عبد العزيز باشـــا فهمى رئيس حزب الاحرار الدســـتوريين ، لما أثاره من ريب حول قرار هيئة كبار العلماء ، وسؤاله لجنة قسم القضـــايا بوزارة الحقانية عن اختصاصها ومدى حقهـــا فى محاكمة الشيخ على عبد الرازق .

وكان لهذه الحوادث المثيرة المتوالية أصـــداء بعيدة المدى فى سائر الاوساط والاحزاب ، وسائرالصحفعلىاختلاف نزعاتها واضطلعت جريدة السياسة فى هذهالمعركةالفكرية السياسية ، بأعظم قسط ، وشغل الرأى العام بأصـــدائها وأبعادها مدى حين . وكان للانجليز دورهم ، واتجاهاتهم ، ونفثاتهم فى هذا الميـــدان ، لانهم كانوا يرون فى الخلافة سلاحا سياسيا ، يمكن أن يؤدى دوره فى تحقيق أغراضهم ، وتمكين سلطانهم .

وقد انتهى هذا الجدل كله حول الخـــلافة بعد حين ، وتضاءلت الاطماع من حولها ، والغى الحكم الصـــادر ضد

الشيخ علي عبد الرازق من هيئة كبار العلماء ، واسترد مكانته بين أعضائها ، واشتغل مدى حين بالمحاماة الشرعية ٠

* * *

وفي اوائل شهر سبتمبر سنة ١٩٢٥ توفي والدي المرحوم عبد الله عنان عن احدى وخمسين سنة بمنزلنا ببركة الفيل ٠ أصابه التهاب رئوى صاعق فلم يبق عليه سوى بضعة أيام رغم العناية بمعالجته ، وكانت وسائل العلاج يومئذ ما تزال قاصرة عما هي عليه في يومنا ٠ وكانت آخر كلماته لى « اذا كان الأمر فيه قضاء ، فانى داع لك » ، وقد دفن أولا بقرافة السيدة نفيسة ٠ ثم نقل رفاته بعد الى مدفن الاسرة بالامام الشافعى ، رحمه الله ، وجزاه خير الجزاء عما بذل في تربيتى من عناية وجهود ٠

* * *

وأعود الى حديث حياتي الصحفية ، فأذكر ما حدث بعد التحاقي بتحرير السياسة بنحو عامين ، من وقوع حدث صحفى جديد ، هو تأسيس « السياسة الاسبوعية » وكان وراء هذا الحدث المبتكر في الصحافة المصرية ، الدكتور حافظ عفيفي ٠ وكان رأيه يقوم على أن تصدر السياسة ملحقا أسبوعيا ، سياسيا علميا أدبيا فنيا ، على نحو ما تفعله جريدة « التيمس » الانجليزية باصدار ملحقها الاسبوعي « The Weekly » وتمت الاستعدادات لاصدار السياسة الاسبوعية بسرعة ، وصدر عددها الاول في ١٩ مارس سنة ١٩٢٦ ، وتولى رآسة تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ، وعينت سكرتيرا لتحرير الجريدة الجديدة ،

بعرض على سائر ما يرد اليها من البحوث والمقالات، فاختار ما يصلح منها للنشر وأقوم بتنسيقه • وانحصر العمل في ذلك بيني وبين الدكتور هيكل • وكنا نحضر الى دار السياسة في عصر يوم الجمعة ، فنضع اللمسات الاخيرة للعدد ، الذي يصدر في الغد (السبت) • وكان الدكتور هيكل يقوم على الاغلب بكتابة افتتاحية العدد ، وأنشر من جانبي فيه بحثا تاريخيا ، وأقدم اليه فوق ذلك قصة قصيرة ، مترجمة عن الادب (الفرنسي أو الالماني على الاغلب) ، تنشر كل أسبوع ، وتذيل بعبارة « ترجمها ع » وكان البعض يظن أن « ع » هذه تعني (عزمي) ، وينسبون ترجمة هذهالقصص الى زميلنا الاستاذ محمود عزمي، الى ان نشرت أول ترجمة لي في ملحق مجلة الالمانية التي يصدرها معهد اللغات الشرقية في برلين المعنون « زعماء الادب العربي المعاصر » Leaders of Modern Arabic وأعده المرحوم الاستاذ طاهر الخميري ، والقى فيه الضوء على حقيقة مترجم هذه القصص التي ذاع أمرها • وكانت من أبرز خواص السياسة الاسبوعية ، وكان اختيار هذه القصص ، وترجمتها من أمتع أعمالي الادبية الصحفية • ولم أترك كاتبا فرنسيا لامعا من كتاب القصة القصيرة ، الا نقلت بعض قصصه ، وأخصهم فرانسو كوبيه ، بول بورجيه ، بيير لويس • مارسل بريفو • جي دي موبسان • جان رشبان • بول هرفيو • تيودور دي بانفيل • اندريه تيربيه • الفونس دوديه • جان لوران • أناتول فرانس • ترستان برنار • بول وفكتور مرجريت • كلود فارير •• الخ » ••

وأحيانا كانت الترجمة عن بعض الكتاب الالمان مثل

هنيرش هينه ، وهوفمان ، وارنولد زفايج وغيرهم ٠

وقد نشرت فيما بعد طائفة كبيرة من هذه القصص المختارة ، صدرت فى مجموعتين تحت عنوان « قصص اجتماعية ونماذج من أدب الغرب » الاولى فى سنة ١٩٣٢، والثانية فى سنة ١٩٤٧ ٠

وحققت السياسة الاسبوعية نجاحا عظيما واشتد ذيوعها فى مصر وسائر البلاد العربية وساهم فى تحريرها ومراسلاتها معظم كتاب العصر من الشيوخ والشباب ، وكانت تصدر فى أول أمرها فى ثمان صفحات كبيرة من قطع السياسة اليومية ، ولكن رؤى فيما بعد أن هذا القطع ليس مريحا من الناحية التحريرية ، والناحية العملية ، وعدل عنه الى القطع النصفى ، وصدرت عندئذ فى ٢٤ صفحة من هذا القطع ، وأحيانا فى أكثر من ذلك ٠ وكانت فى البداية لا تعنى الا بقدر يسير من المقالات السياسية ، ولكن هذه العناية بالشئون السياسية زادت مع الزمن ، وتنوعت موضوعاتها ما بين أدبية وعلمية وفنية ، وبين المنشىء والمترجم ، ومنذ سنة ١٩٣٠ ، قوى لونها السياسى وأصبحت تصدر بصورة كاريكاتورية سياسية ، يرسمها مصور العصر البارع خوان سنتس ٠ وكان أبرع المصورين الكاريكتوريين يومئذ ، وأصله اسبانى مورقى ، ولكنه اندمج فى الحياة المصرية اندماجا شديدا ، وكان يميل فى العمل الى جانب خصوم الوفد ، والى الدستوريين بصفة خاصة ، ومن ثم فقد كان عمله على الاغلب فى هذا الجانب من السياسة المصرية ٠ وكان ذا شخصية رقيقة ممتازة ، وله أصدقاء ومعجبون كثيرون ٠ وقد توفى فى سنة ١٩٤٧ ٠

وقد نشرت الكثير من بحوثى التاريخية الهامة تباعا فى

السياسة الاسبوعية ، وجمعت الكثير منها فيما بعد لتنشر في بعض مؤلفاتي التي صدرت بعد ذلك • ومازال الكثير منها باقيا قيد النشر ضمن مشروع مجموعة الاجزاء ، التي أرجو أن يتاح لي نشرها متضمنة لطائفة كبيرة من بحوثي ومقالاتي التي نشرت في مختلف الصحف والمجلات مدى خمسين عاما •

وأود أن أنوه بهذه المناسبة بما توثق بيني وبين أستاذي المرحوم الدكتور هيكل من صلات الود والمحبة خلال هذا العمل الصحفي المشترك في السياستين اليومية والاسبوعية ، وقد كنا في أحيان كثيرة ، ننصرف معا من دار السياسة في وقت متأخر من المساء ، ثم نقصد الى مقهى صولت بشارع فؤاد ، وكان منتدى الصفوة المختارة يومئذ ، حيث نلتقي هنالك بالمرحوم أمير الشعراء أحمد شوقي بك ، وكان في معظم الليالي ينتظر الدكتور هيكل ، بعد أن يكون قد قضى سهرته في احدى دور السينما ، ليصحبه معه في سيارته ، وقد كانا يسكنان يومئذ في منزلين متجاورين بالعباسية ، وقد كانت عندئذ من الاحياء الارستقراطية •

وقد تعرفت يومئذ بأمير الشعراء ، وكنت أعجبت برقته وهدوئه ووفرة أدبه ، وأسعد كثيرا بهذه الامسية التي التقى به فيها ، ونتجاذب أطراف الحديث الممتع •

وأود بهذه المناسبة ، أن أشير أيضاً الى لقاءاتي ومشاهداتي لشاعر النيل ، المرحوم حافظ ابراهيم ، وقد كان في أواخر حياته يشغل منصبا اسميا هو « وكيل دار الكتب » • وكنت لكثرة ترددي على هذه الدار ، أرى حافظ ابراهيم في فرص كثيرة • وكنت أراه بالاخص ، واقفا الى

يسار باب دار الكتب بباب الخلق عند البسـطة الى جانب يسـار الباب ، مع لفيف من موظفى الدار وغيـرهم ، كالمرحومين الاستاذ أحمد الزين ، والاستاذ محمد الهرادى، والاستاذ أحمد رامي وغيرهم • وكنت أراه واقفا معهم يدخن سيجاره الكبير ، لأن التـدخين كان ممنوعا داخل الدار ، وهو يتناول الاحاديث مع زملائه وأصـدقائه ، ويتحفهم من آن لآخر ، وبصوته الأجش ، بنكاته الظريفة فتعلو ضحكات الحضور • ولقد سـمعت حافظ ذات مرة (سنة ١٩٣١) يتلو بنفسه قصيدة الرثاء التي نظمها لمناسبة وفاة المرحوم عبد الحليم الغلايلي بك عضو مجـلس ادارة حزب الاحرار الدستوريين ، وكان القـاؤها في حفـل تأبينه عند عتبة مدخل دار جريدة السياسة بشارع المغربي (عبد الخـالق ثروت الآن)وكان القاؤه واضحا قويا أخاذا . وقد عرفت حافظ ابراهيم لاول مرة كشـاعر ، وأنا تلميذ من تلاوة قصيدته المبكية فى رثاء مصـطفى كامل رحمه الله ، والتى مطلعها :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة
فكبر وهلل وألق ضيفك جاثيا

وأذكر الى جانب ذلك انه لما توفى حافظ فى سنة ١٩٣٢ ، وجاءت العربة التى تحمل جثمـانه من الزيتون حيث كان يقيم ، الى جوار محطة كوبرى الليمون ، حيث أقيم سرادق الجنازة وكنت فى لفيف المنتظرين لقـدوم النعش ، تقدم المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى من العربة حاملة النعش ولمسه بيده ، وهو يقول بصوت مبك ، « حانروح بعدك فين يا حافظ » •

وكذلك عرفت شاعر القطـرين المرحوم خليل مطران ،

وقد كان شاعرا ممتازا ، وسمعته فى أكثر من مناسبة يلقى قصائده ، واجتمعت به أكثر من مرة فى حفلات عشاء نادى القلم ، وكان رجلا دمث الخلق جم الأدب والمجاملة .

واستمرت السياسة على الصدور حتى بلغ النضال الحزبى أشده أيام وزارة اسماعيل صدقى باشا ، فعطلت فى أواخر سنة ١٩٣٠ فصدرت مكانها مدى حين جريدة « الاحرار الدستوريون » ، ولكنها عطلت أيضا بعد قليل ، واستأنفت السياسة صدورها فى سنة ١٩٣١ .

عقب صدور قانون المطبوعات الجديد . ولكن شئونها مازالت فى اضطراب حتى احتجبت فى سنة ١٩٣٤ ، واستأنف حزب الاحرار اصدارها حيثما تولى الحكم فى سنة ١٩٣٨ ، فصدرت لبضع أسابيع ثم أغلقت نهائيا .

أما السياسة الاسبوعية ، فقد عطلت فى أوائل سنة ١٩٣١ ، ثم استأنفت الصدور فيما بعد بصورة غير منتظمة ، وكان انزلاقها الى ميدان الكفاح الحزبى قد أضر بسمعتها الادبية . واستمرت بعد ذلك فى الضعف ، وتطورت بها الحوادث حتى انقطعت نهائيا عن الصدور ، بعد أن لبثت مدى حين أقوى وازهر الصحف الادبية المصرية .

وهكذا نزلت الى ميدان الصحافة الصاخب ، ووفقت الى أن أحتل فيه مكانا ثابتا مرموقا ، وانتظم اسمى الى جانب أعلام الكتاب والباحثين . وكانت بحوثى التاريخية بالاخص تلفت الانظار بجدتها ودقتها ، وقد اسبغت على منذ وقت مبكر صفة الباحث « المحقق » . وترامت هذه السمعة الى دوائر المستشرقين ، فوصفنى العلامة المستشرق الكبير

الدكتور كارل بروكلمـــان فى الطبعة الثانية من كتـــابه
الجامع « تاريخ الأدب العربى » Geschichte der Arabischen Litteratur ١٩٤٣
بأننى من صحفى الطليعة فى هذا العصر
ونشرت ترجمتى ، حسبما تقدم ضمن أعلام الأدب
العربى المعاصر ، فى ملحق مجلة Der islam الذى أصدره
بالانجليزية ، المرحوم الدكتور طاهر الخميرى ، تحت
اشراف الدكتور كامبفماير مدير معهــد اللغــات الشرقية
ببرلين ، والذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك الى جانب أسماء
طه حسين ، ومنصور فهمى ومى زيادة ، وغيرهم •

***

وانه لمن الشائق أن نعرف شيئا عن حالة الصــــحافة
المصرية يومئذ ، وقد كانت في الواقع تجوز مرحلة مختلطة
النزعات كثيرة الانفعالات . وكان هذا هو الوقت الذى اشتد
فيه الخلاف بين زعماء الامة ، الوفديين من جهـة ، والاحرار
الدستوريين من جهة أخـرى (١٩٢٣ ــ ١٩٣٠) • ولم يك
ثمة خلاف فى الغاية النهائية ، وهى تحقيق استقلال البلاد ،
وجلاء المحتل عن أرضها ، ولكن الخلاف كان يشـــتد حول
الوسائل ، وبالأخص حول طرق الاتصـــال بالحـــكومة
البريطانية ، وطرق المفاوضات المنشودة حول تحقيق أمانى
الامة ، ومن ثم فقد كان الجدل يشتد بين الفريقين ، وكانت
الصحافة متنفس هذا الجدل المضـــطرم • وكانت جريدة
السياسة ، هى بالطبع لسان الاحرار الدستوريين وأنصارهم
فى هذه المعركة • وكانت جريدتا البـلاغ وكوكب الشرق ،
هما لسان الوفد ، وكانت الاهرام تلتزم الحيدة بين الطرفين،
وتنشر مقالات فى تأييد أو نقد هذا الفـريق أو ذاك ، دون
أن تتورط كعادتها فى تأييد رأى بذاته • وكانت ثمة جريدة

أخرى هى الاتحاد ، وهى تعبر عن وجهـــات نظر السراى ، ولكنها كانت ضئيلة الانتشار ، لا يحفل بأمرها ســـوى الدوائر المختصة • وكانت تشترك فى هذه المعركة المضطرمة أقلام عدة من الطراز الاول ، فكان ثمة من الجانب الوفدى ، عبد القادر حمزة ، وعباس محمود العقاد ، وحافظ عوض ، وزملاؤهم ، وكان ثمة من جانب الاحرار الدستوريين محمـد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ، وطه حسين (فى البداية) وقد انتقل بعــد ذلك الى جانب الوفد وابراهيم عبد القادر المازنى (بعد ذلك) • وغير هؤلاء وهؤلاء وكان من أثر هذا الجدل المستمر ، وهذه المعـــارك الحزبية الملتهبة ، التى تغمرها أقلام هذا الرهط من أكابر الكتـــاب ، وتتنافس فى ابراز وجهات نظرها بالاساليب العالية ، والبلاغة الفياضة ، ان ارتفع مستوى الكتابة الصحفية ونمت ثروتها البيانية ، وأصبحت الى جانب منافستها فى الجـــدل والنقـــاش ، تتنافس فى صوغ العبارات المختارة ، والتعـــابير البليغة • واستمرت هذه النزعة الى الاجادة فى الاسلوب والعبارة ، تسيطر على الصـــحافة المصرية فترة طويلة ، وكان يغذى هذه الاجادة سيطرة أكابر الكتـــاب يومئذ على المقـــالات الأفتتاحية والرئيسية • وكانت المقالة الصـــحفية يومئذ ظاهرة بارزة فى صـــحافتنا • وكان يغذيها كذلك خطب النواب البارزين فى البرلمان ، وكانوا يومئذ كثرة مشرقة • وكانت الحياة النيابية على وجه العموم مليئة بالمناقشـــات والجدل الجاد • واذا شئنا المقارنة ، فانه يسوغ لنا أن نقول ان صحافتنا المعاصرة (صحافة عهد الثورة) قد فقدت كثيرا من ثروتها البيانية القـــديمة ، وذلك أولا لاختفاء المقـــال الصحفى الرصين ، وقد كان مسرحا لابراز المقدرة البيانية ،

واختفاء جيل المصبحفيين العلمـــاء والمثقفين ذوى المعـــارف الواسعة والاقلام البليغـة ، فى ظل الحـكم المطلق ، وتحت وطأة النظم والتشريعات المقيدة الجـديدة ، وانهيـار الحيـــاة العلمية والادبية الرفيعة ، حيث لا يزدهر التفكير والآداب الا في ظل الآفاق الحرة ، وتأميم الصحافة وجعلها تابعة لما يسمى « بالاتحاد الاشتراكى » ونزولها على سياسة التوجيه المرسومة ، وسيطرة الاقلام المفرضة على المهنة الصحفية . وعلى الجملة فان أســاليب الصحافة المصرية قد انحدرت الى مســـتوى مؤلم من الضـعف والركاكة والاسفاف ، وانعدام النزعة المستقلة النزيهة المخلصة .

أول رحلة لى الى الخارج

فى أواخر أبريل سنة ١٩٢٦ ، دعتنى « السياسة » الى القيام برحلة صحفية الى فلسطين وسوريا والعراق وتركيا ، فلبيت مغتبطا ، وغادرت القاهرة ، وسافرت الى غزة بطريق خط سيناء الحديدى ، فى اليوم الثامن من مايو ، فوصلتها مبكرا فى صبـاح اليوم التاسع ، وركبت فى احدى السيارات الذاهبة الى بيت المقدس ، فوصلتها ضحى ، ونزلت فى الفندق الالمـانى ، وكانت فلسطين يومئذ تحت الانتداب البريطانى . وخرجت مبكرا فى صباح اليوم التالى فزرت المسجد الاقصى المبارك ، ووقفت طويلا تحت قبة الصخرة ، أتأمل ما كان محفورا على جدرانها من مختلف العبارات والاشارات الاسلامية والنصرانية . ثم زرت كنيسة القيـــامة الكبرى ، أو كنيسة القبر المقدس ، أعظم واشهر الاثار النصرانية ، ووقفت طويلا أتأمل واجهتها ومدخلها ، ومازلت أذكر انه مكتوب على عتبتها اسم فيليب دوبيني فوق قبره ، وهو المؤرخ ..

وعلى يمينهـــا قبر جوفروا دى بويون قائد الحملة الصليبية الاول وأول ملك نصرانى لبيت المقـدس ، وعلى يســارها قبر آخر لا أذكر صاحبه ، وقضيت في التجـوال فيهـــا أكثر من ســاعتين ، والى جانبى دليل من أدلائها ، يحدثنى بما نسج حول صليب السيد المسيح وحول دفنه من الخرافات ، وما يزعمون من جلده فى مكان معين من الكنيسة مع العلم بأن أول بناء فى موقع هذه الكنيسة المتعددة المبانى ، لم ينشأ الا بعد وفاة السيد المسيح بثلاثة قرون ، وأنشأته القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين الاكبر ، فوق البقعة التى تقول الاسطورة ان السيد المسيح قد صلب فوقها ثم دفن ، ويصفها بأنها بجوار « الجلجوتا » وقد كانت بقعة معروفة من بقاع سور بيت المقدس القديم ، وقد تواردت على خاطرى ، أثناء التجوال فى هـذا الصرح النصرانى العظيم ، كل ماقيل عن أسباب الحروب الصليبية ، وفى مقدمتها العمل على « انقاذ » قبر المســيح . ثم زرت بعد ذلك حائط المبكى ، واقبية فرسان المعبد .

ووفقا لبرنامج مهمتى الصحفية ، فقد بادرت فى اليوم التالى ، الى مقر اللجنة التنفيذية الوطنية ، ولم أوفق الى مقابلة سكرتيرها السيد جمال الحسينى لغيابه عن القدس . ولكنى ظفرت فيما بعد بلقاء السيد كاظم باشا الحسينى ، وتحادثت معـــه طويلا . ثم زرت رئيس البلدية ، ثم بمقر اللجنة التنفيذية اليهودية . والتقيت فى المساء بالسيد عيسى البندك الصحفى صاحب جريدة.

ثم التقيت بعد ذلك بعـدد من الزعماء والعلمـــاء الفلسـطينيين ، وفى مقدمتهم كاظم باشا الحســينى :

والاستاذين اسعاف النشاشيبى وخليل السكاكينى .
وكنت شديد الاهتمام بدراسة وضع اليهود وأحوالهم ، فى ظل تصريح اللورد بلفور ، الذى توافق فيه الحكومة البريطانية على قيام وطن قومى لليهود بفلسطين فى ظل الانتداب البريطانى . ومن ثم فقد قمت بزيارة المستعمرات والمدارس اليهودية فى بيت المقدس . ثم زرت الجامعة العبرية ، وعلمت من عميد كلية الاداب، أن الجامعة بصدد الاستعداد لنشر كتاب تاريخ البلاذرى « فتوح البلدان » . وقد تبين فيما بعد أن كتاب البلاذرى المشار اليه ليس هو تاريخ « فتوح البلدان » ، وانما هو كتاب « أنساب الاشراف وأخبراهم » وهو الذى يعرف أحيانا « بالتاريخ » وهو يقع فى عشرين مجلدا كبيرا . وقد عنيت الجامعة العبرية بالفعل بعد ذلك باصدار مجلدين من الكتاب على يد أستاذين من أساتذتها ، هما المجلدان الرابع والخامس . وتولى تحقيق المجلد الرابع الاستاذ شلسنجر « سنة ١٩٣٨ » . وتولى تحقيق المجلد الخامس الاستاذ جواتين « سنة ١٩٣٦ » . ووقف مجهود الجامعة العبرية عند هذا الحد . ولم ينشر من الكتاب بعد ذلك سوى مجلد واحد اخر بالقاهرة . وهو المجلد الاول « سنة ١٩٥٩ » . وكنت أتوق للاستماع الى وجهة النظر اليهودية . وكانت تمثل اليهود عندئذ « الوكالة اليهودية » التى أقيمت بصفة رسمية لتعمل فى ظل الانتداب البريطانى . وكان من حسن الطالع أن كان من بين أعضائها الاستاذ نورمان بنتوتشين ، أستاذى السابق بمدرسة الحقوق ، فسهل لى الاتصال بها . وتحدثت مع عدة من أعضائها ، وفى مقدمتهم الاستاذ بيك

الفيلسوف الالمانى الشهير ، والاستاذ ماير ، وسمعت منهم ، أنهم يلتزمون العمل بتصريح بلفور ، وليست لديهم أية نية للاعتداء ، بأية صورة على وضع الوطنيين أو حقوقهم .

وكان ممن زرتهم من ممثلى السلطة البريطانية ، المندوب السامى السير سايمس والسكرتير العام ، وأستاذى السابقين فى الحقوق نرمان بنتوتشن ، وكان يشغل منصب النائب العام والاستاذ جودى ، وكان يشغل منصبا قضائيا آخر ، وحاكم القدس ، ومستر بومان مدير المعارف .

ثم زرت ضاحية بيت لحم ، بدعوة من صديقى الاستاذ عيسى البندك ، وكان يسكن بها ، وكان ذلك يوم الاحد ١٥ مايو ، وتناولت لديه طعام الغداء . وطاف معى الاستاذ البندك بعد ذلك فى كنيسة المهد ، وغيرها من الاثار النصرانية القديمة . وتحاط بيت لحم وآثارها المقدسة بشعور عميق من الاحترام والاجلال .

وقد خرجت من زيارة أحياء بيت المقدس القديمة ، وآثارها المقدسة الاسلامية ، والنصرانية بشعور عميق من الاجلال ، لتاريخ هذه المدينة العظيمة العريقة التالدة .

وقد قرأت فيما بعد الكثير عن تاريخها ، وتاريخ صلاح الدين ، منقذها من أيدى الصليبيين ومازلت اليوم بعد خمسين عاما من زيارتها ، وقد كانت مع الاسف أول وآخر زيارة لى ، أتصور فى ذهنى ذلك الجلال المهيب الذى يحيط بأحيائها وآثارها المقدسة .

وأما عن الشعب الفلسطينى ذاته ، وعن أحواله الاجتماعية يومئذ ، فانه لم تتح لى فرص كثيرة للامتزاج به ، ولم أخرج عنه بانطباعات خاصة . وكل ما لفت نظرى هو اتصال الفلسطينيين فى بيت المقدس باليهود اتصالا عاديا

فى الحياة العامة والخاصة ، ومعرفة الكثير من شبابهم للغة العبرية ، وتحدثهم بها مع اليهود ، وتزوج الكثير منهم بزوجات يهوديات فى غاية الحسن والجمال .

مقابلة الامير عبد الله بن الحسين

وقد كانت امارة شرق الاردن ، قد أخرجت من سلطة الانتداب البريطانى ، ووضعت تحت امارة الامير عبد الله بن الحسين ، وقد رايت أن اسعى الى زيارة الامير وأحصل منه على حديث صحفى . فسافرت بالسيارة الى عمان مبكرا فى يوم الاثنين السادس عشر من مايو ، ومررت فى طريقى بمدينة السلط ، وهى مدينة صغيرة تقع فوق ربوة صخرية عالية . ثم تابعت سفرى حتى وصلت الى عمان بعد الظهر بقليل . وقمت فى الحال بمقابلة رئيس الديوان حسن بك العارف ، فاتصل بسمو الامير فى « المقر » ، وتفضل سموه بأن حدد لى الساعة الرابعة من نفس اليوم موعدا لزيارته .

وكنت قد سمعت الكثير عن ذكاء الامير عبد الله وفطنته وحزمه . وقد سمعت حين زيارتى للمندوب السامى السير سايمس ، وعلمه بنيتى فى زيارة الامير ، سمعت منه هذه العبارة وصفا للامير « The Emir Is a shrewd man » ولم أعرف ان كان يقصد أن الامير رجل فطن أم رجل ماكر .

واستقبلنى سمو الامير فى تمام الساعة الرابعة ، فى قصره المسمى « بالمقر » وكان يقع فوق ربوة عالية ، أجمل استقبال ، وكان الامير رجلا متوسط القامة ، أسمر اللون ، بادنا بعض الشىء ، يرتدى الثياب العربية . وعلى رأسه عقال مذهب . فلبثت فى حضرته اربعين دقيقة ،

وحادثته فيما شئت من الشئون السياسية والاجتماعية والادبية . وأذكر حينما تحـدثنا عن الحركة الادبية فى مصر ، أن وصفها الامير « بأنها تغلى كالمرجل » وكان الامير يتحدث بعربية جميلة فصحى ، ويبدو واسع الاطلاع والمعرفة فى سائر ما تحدثنا فيه .

وودعت الامير ، مرتاحا الى جميل ترحيبه ، ووافر رقته وأدبه ، بعد أن أمر باتحافى بصورة فاخرة له ، مذهبة الاطار ، وقد احتفظت بها لدى زمنا طويلا ، ولكنى لا أدرى اليوم أين ذهبت . وعدت الى القدس فى مساء نفس اليوم .

واذكر أنى بعد ذلك بأعوام طويلة ، قرأت نبأ مقتل الامير فى سنة ١٩٥٤ ، فى احدى الصحف الاسـبانية ، حين خروجى فى الصباح من فندقى بمدينة قرطبة .

***

وفى اليوم التالى ، الثلاثاء ، السابع عشر من مايو ، سافرت عصرا الى تل أبيب ، فوصلت اليها عند الغروب ، ونزلت فى فندق هرتسليا . وكانت تل أبيب يومئذ ، فى أطوار نشأتها الاولى ، ولكنها كانت تنمو بسرعة ، وأضحت تضم كثيرا من الاحياء والصروح الانيقة . وأذكر ان معظم المقاهى ، كانت تقع فوق أسطح العمارات . وقد زرت فيما زرت ، من دور الاعمـال بها ، مركز مشروع « روتنبرج » ، وقد كان يومئذ من أكبر المشـاريع الكهربائية ، التى يقوم اليهود بانشائها ، وكان لاقامته صدى عظيم . وقابلت من رجاله المستمر فاينهال ، فشرح لى أغراضه ومراحل عمله . ثم زرت بعد ذلك دار جريدة « الهاآرتز » ، وقد كانت يومئذ ، وماتزال الى اليوم فى طليعة الصحف اليهودية .

السفر الى بيروت

وفى يوم الخميس التاسع عشر من مايو سافرت بالسيارة الى بيروت ، فوصلت اليها عصرا . وكانت لبنان يومئذ تقع تحت الانتداب الفرنسى ، ويعيش أهلها على الاسلوب الفرنسي فى كل شيء . وقد أنفقت بها أربعة أيام ، وقابلت بها رئيس الوزارة ، ورئيس مجلس الشيوخ والنواب . وزرت جريدة الاحرار ، وكلية بيروت ، ولم أجد بها ما يستحق بحثا ولا درسا .

السفر الى دمشق

وفى يوم الاربعاء ٢٥ مايو ، سافرت صباحا بالسيارة الى دمشق ، وذلك بعد أن اشتريت من احدى شركات السيارات من بيروت ، تذكرة السفر الى بغداد بالطريق الصحراوى ، وكان أكثر الطرق المسلوكة يومئذ . فوصلت الى دمشق بعد الظهر بقليل .

وكان لدى برنامج حافل من زيارة المعاهد ، وأكابر العلماء والساسة . ولم يخطر ببالي يومئذ أني سوف أحرم فجأة من تنفيذ برنامجي فى التجول فى المدينة التاريخية العظيمة، ومشاهدة آثارها العريقة التالدة . وكل ما استطعت أن أزوره من آثارها ، هو الجامع الاموى العظيم ، وبه قبر بطل الاسلام الاكبر ، الملك الناصر صلاح الدين . وقد استطعت فى اليوم التالى من اقامتى ، أن أقابل الامير طاهر الجزائرى ، ورئيس الوزارة الشيخ تاج الدين الحسنى ، وكنت قد تعرفت به قبل ذلك بالقاهرة ، والاستاذ احمد كرد على عضو المجمع العلمى ، وشقيق

صديقنا العلامة الجليل الاستاذ محمد كرد علي ، وكان يومئذ غائبا عن دمشق . وفي صباح اليوم التالي زرت دار الامارة ، وكانت سوريا يومئذ تحت الانتداب الفرنسي، وكان يشغل منصب الامير ، أو رئيس الدولة الداماد احمد فامي . وقابلت الداماد ، بموعد سابق ، في الساعة الحادية عشرة والنصف ، ومكثت معه قليلا ، وتبادلت معه بعض أحاديث سطحية ، لانه كان مقلا من الكلام . ولم أستمع منه الى اى راى سياسي أو موضوع ذى أهمية وغادرت دار الامارة الى فندقي . وما كدت أدخل غرفتي ، حتى طرق الباب ، ففتحت لارى من الطارق ، فوجدت اثنين من رجال الشرطة ، وقد أنذراني ، بأنه وفقا للأوامر الصادرة ، يجب أن لا أغادر غرفتي ، ولا اتصل بأحد حتى اليوم التالي ، حيث يجب أن أستقل السيارة الى بغداد ، وهي سيارة الشركة التي اشتريت منها تذكرة سفري . وقد حاولت عبثا أن يسمح لي بأن اتصل بالسفارة المصرية ، سواء ، زيارة أو تلفونيا ، وهكذا امتنعت من كل اتصال . ولزم الشرطيان مكانهما أمام غرفتي ، حتى المساء ، ثم طول الليل ، حتى صباح اليوم التالي . ولم أجد مفرا من النزول عند تلك الاوامر، وحزمت حقائبي . وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، غادرت الفندق في حراسة الشرطيين ، وسرت الى موقف السيارات المسافرة الى بغداد ، وأخذت مكاني الى جانب السائق في السيارة الاولى ، التي تتقدم القافلة ، وكان يومئذ يختبر أفضل أماكن السفر ، ووضعت بها حقائبي ، وركب الشرطيان معي في نفس السيارة . وعند الحدود السورية غادرا السيارة وتركاني وشأني . فتنفست الصعداء ، وسارت القافلة تخترق متاهة

الصحراء العربية ، وليس أمامنا سوى الافق البعيد . وبعد نحو ثلاث ساعات ، وصلنا ألى قاعدة الرطبة العسكرية العراقية ، واستراحت القافلة قليلا . وانتهزت هذه الفرصة فأرسلت من الرطبة الى الدكتور حافظ عفيفى بالقاهرة برقية ، ذكرت له فيها ما تم من ابعادى عن سوريا لاسباب اجهلها ، وتوجهى الى بغداد . ثم سارت القافلة من الرطبة مسرعة الى بغداد ، فوصلنا اليها فى الساعة الحادية عشرة ، بعد أربع ساعات قضيناها فى اختراق الصحراء العربية الكبرى من غربها الى شرقها . وكان ذلك يوم السبت الثاني والعشرين من شهر مايو .

فى بغداد

ودخلت بغداد ، وفى ذهنى ذكريات كثيرة عن مدينة المنصور وهارون الرشيد ، فتبدد الخيال من ذهنى فورا ، ولم أجد حين اختراق المدينة التالدة ، سوى صور باهتة ، وشوارع شرقية قفرة ، وصروح وأبنية متواضعة ، ولم يقع بصرى الا على القليل من المساجد والصروح الاثرية . وكان الحر بالمدينة خانقا ، حتى انى رأيت معظم نزلاء الفندق الذى فيه ، يصعدون مساء للنوم فى العراء فوق سطح الفندق ، وهو ما لم اكن أستطيع فعله .

وكان أول من سعيت الى لقائهم الملك فيصل بن الحسين ، ملك العراق يومئذ وكانت العراق ، مثل فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وتمت مقابلتى لجلالته فى الساعة الخامسة من مساء يوم الاربعاء أول يونيه . ودامت المقابلة ساعة ونصف تحدثنا فيها عن الكثير من الشئون العراقية ، والعربية . وكان الملك فيصل ، رجلا ممشوق

القامة ، هادىء الطبع ، جم الادب والتواضع ، جذاب الشخصية ، فأنست بلقائه وجميل ترحيبه .

وكان ممن قابلتهم وتحادثت معهم من رجالات العراق يومئذ ، نوری السعيد باشا رئيس الوزارة ، وكان شخصية جذابة ، ومتحدثا بارعا ، وقد أقام لى مأدبة عشاء بالمدرسة الحربية ، على ضفة نهر دجلة ، وعقدت بينى وبينه مودة استمرت أعواما . وقد قابلته بعد ذلك غير مرة بالقاهرة . ويسن باشا الهاشمى ، وجعفر باشا العسكرى ، وبعض شخصيات أخرى أدبية وصحفية لا أذكرها .

ولم تجذبنى مدينة بغداد ، ولا مناظرها ، ولا خططها ، ولا آثارها الضئيلة ، ولا مجتمعها الجاف الباهت ، خصوصا وقد كانت تشغلنى طول الوقت مسألة ابعادى عن سوريا ، والبحث عن طريق آخر ، اجوز منه الى تركيا . ولما اعيانى التفكير فى ذلك ، قررت أخيرا أن أعود الى بيروت عن طريق سوريا ، وأسافر منها الى تركيا بطريق السكة الحديدية « سكة حديد الشرق » .

وغادرت بغداد يوم الخميس ، الثانى من يونيه ، وسافرت بالسيارة عائدا من نفس الطريق الصحراوى الى بيروت ، وكنت طول الوقت ، أخشى أن يقع لى ما يكدر حين المرور بدمشق . ولكن وقعت المفاجأة حينما وصلت السيارة الى قلب دمشق ، واشتريت احدى صحفها ، واذا بى اقع على بلاغ رسمى خاص بحادث ابعادى ، وفيه تنكر السلطات السورية حادث الابعاد ، وتذكر أنى تركت سوريا بمحض ارادتى ، وانى حر فى العودة اليها ، أو الخروج منها حسبما اشاء !

وقد علمت فيما بعد أن برقيتى التى أرسلتها الى

الدكتور حافظ عفيفي من الرطبة ، كان لها وقع عميق ، وأن حادث ابعادي قد أنهى الى وزارة الخارجية ، فقامت بالاحتجاج بشدة لدى السفارة الفرنسية بالقاهرة . ومن ثم فقد عمدت السلطات السورية أو بعبارة اخرى السلطات الفرنسية فى سوريا آلى انكار الحادث ، واصدار بلاغها الذى سبقت الاشارة اليه .

***

واني لانتهز هذه الفرصة لكي أوضح سبب موقف السلطات الفرنسية بالقاهرة مني ، وهي العامل الحقيقي وراء حادث ابعادي عن سوريا . وقد سجل اسمي لديها من ذلك الوقت ، فى قائمة الممنوعين من دخول أراضي الانتداب والمستعمرات الفرنسية . وذلك انني قمت قبل سفري بعامين ، خلال عملي بجريدة السياسة ، بترجمة وتلخيص عدة مقالات ظهرت فى صحيفة Berliner Tageblatt الالمانية ، وقد كانت يومئذ كبرى صحف برلين الديمقراطية ، بقلم الدكتور هانز دلبرك ، وفيها يتحدث عن مسئولية الحرب العالمية الاولى ، وعلى من تقع هذه المسئولية فى الحقيقة ، ويقدم عدة وثائق سياسية ، كتبها قبل الحرب المسيو ازفولسكى ، سفير بولونيا فى فرنسا ، وفيها ينوه برحلة مسيو بوانكاريه رئيس جمهورية فرنسا يومئذ ، الى بترو جراد «سنت بتيرسبرج» ، واتفاقه سرا مع القيصر الروسي على القيام باعلان الحرب على المانيا ، ويقدم عديد الادلة على أن مسئولية هذه الحرب ، تقع أولا على فرنسا وروسيا ، وليس على الامبراطورية الالمانية . ونحن نعرف أن معاهدة الصلح

التى امليت فى فرسناى على المانيا المهزومة ، تقرر فى موادها ان مسئولية الحرب تقع على المانيا ، وان المانيا اضطرت قسرا الى قبول المعاهدة بسائر نصوصها — ولكن مندوبها، دحض فى خطابه فى مؤتمر الصلح هذه المسئولية وقال بالنص « ان القول بمسئولية المانيا يعتبر من فمى كذبا » .
والخلاصة أن ما حدث من ظهور خلاصة مقالات الصحيفة الالمانية الكبرى بتوقيعى ، كان له اسوأ الاثر فى السفارة الفرنسية بالقاهرة . وكان أول رد فعل لهذا الحادث الصحفى ، ما أوعزت به السفارة الفرنسية بالقاهرة الى سلطات الانتداب الفرنسي فى سوريا ، بابعادى حين وصلت اليها . وامتد هذا الاثر فيما بعد اعواما طويلة ، وعبثا حاولت غير مرة ، ان أطلب من القنصلية الفرنسية بالقاهرة التصريح لى بزيارة المغرب أو تونس للقيام بدراسات علمية فى مكتباتها، فكان الرد دائماياتى بالرفض، وذلك رغما عما لجأت اليه غير مرة من توسيط صديقى المغفور له العلامة الاستاذ ليفى بروفنسال فى ذلك ، وكان يومئذ يشغل مناصب علمية رفيعة فى المغرب والجزائر ، ولكن شيئا واحدا لم تحاول أن تعمد اليه السلطات الفرنسية بالقاهرة ، وهو منعى من دخول فرنسا ذاتها . فكانت تعطينى دائما تصريح الدخول اليها ، وقد سافرت اليها فيما بعد مرارا وتكرارا ، واكثرت من التجوال فى باريس العظيمة ، وقمت بدراساتى غير مرة فى مكتبة باريس الوطنية . وكتبت عن رحلاتى عدة فصول نشرت فيما بعد فى مجلة الرسالة .
هذا ، وقد انقشع بحمد الله كابوس الاستعمار الفرنسي عن تونس والجزائر والمغرب ، وأصبحنا جميعا

احرارا فى دخول هذه البلاد الشقيقة العزيزة المستقلة ، الحرة ، كلما شئنا .

السفر الى تركيا

وصلت الى بيروت للمرة الثانية ، يوم الجمعة الثالث من يونيه . وسافرت منها فى الساعة الحادية عشر ليلا الى حلب بطريق قطار الشرق ، فوصلت اليها عصر يوم الاحد الخامس من يونيه . وفى حلب قابلت الاستاذ سامى الكيالى ، وعقدت بيننا من ذلك الوقت صلات ودية مستمرة . وفى مساء اليوم التالى ، السادس من يونيه ، ركبت القطار من حلب الى استانبول . وسار بنا القطار خلال الليل حثيثا يخترق وهاد الاناضول . وكنت اركب بالدرجة الاولى فى أحد الصالونات مع طالب فارسى يدرس فى المانيا ، وفى أحد المحطات صعد الى صالوننا ثلاثة من الضباط الترك . وما كادوا يجلسون حتى اخرجوا من حقائبهم زجاجات « الزبيب » وبضعة كؤوس ودعونا لنشاركهم فى الشراب ، فاعتذرنا . وعكفوا على الشراب بلهفة وشره حتى سكروا ، ووقع احدهم على الارض ، فنظر الى الشاب الفارسى ، وقال لى بالالمانية — وكنا نتحدث بها — « هل لديكم مثل هذه الاشياء ؟ » ، فقلت : لا . وكان هذا أول منظر تقع عليه عينى من أوضاع تركيا الكمالية ، وجيشها التحريرى .

ووصلنا الى استانبول الثامنة من مساء اليوم التالى — الاربعاء السابع من يونيه — وكان عبورى البوسفور من محطة حيدر باشا ، تحت الاضواء الساطعة وكان منظرا رائعا . وقد تمثلت فى ذهنى ، فى صور متعاقبة :

بيزنطية القديمة ، ثم قسطنطينية العظمى بلد القياصرة ، ثم استانبول بلد السلاطين ، وسارت بنا العربة فى طريق صاعد صوب حى « بيوغلى » ، حيث كان فندقنا قريبا فى هذا الحى ، وكنت بالرغم من طول الرحلة الليلية ، نشطا مرحا . فلما كدت أصل الى الفندق ، حتى لاحظت أنه يوجد بجواره أو فى بنائه منتدى ليلى « ميوزيك هول » فصعدت الى غرفتى ، واصلحت شأنى من وعثاء السفر ، ثم نزلت الى مطعم الفندق فتناولت عشاء خفيفا . ثم ازدلفت الى المنتهى الليلى ، وكان ساطع الانوار ، وبه موسيقى راقصة جميلة ، تضرب عندئذ أنغام «الشارلستون» وكانت يومئذ آخر صيحة ، فى عالم الرقص ، فأخذت مكانى فى هذه الحفل المرح ، ورقصت بضعة مرات .

وهنا أستميح القارىء أن أذكر له انى كنت من عشاق الرقص وموسيقاه . وكنت قد تعلمت هذه الرياضة فى القاهرة منذ نحو عامين ، وكنت أجيد رقصة الشارلستون وغيرها من رقصات العصر ، ولا سيما « التانجو » . واود أن أقول انه كان لتعلمى هذه الرياضة، وممارستها فى كثير من الاحيان أثر كبير فى تحسن صحتى، واحتفاظى برشاقة قوامى ، التى مازلت احتفظ بها حتى اليوم فى عمرى المتقدم ، وأنا أكتب هذه السطور وكنت خلال رحلاتى الاوربية العديدة ، لا أترك فرصة متاحة لمزاولة هذه الرياضة ، فكنت أمارسها كثيراً فى فينا ، فى الكورصالون ، والباكوس ، وفى باريس فى الكولوزيوم وغيرها من الابهاء الاوربية . وكان اختيارى لمصاحباتى من الفتيات ينصب دائما ، لا على الفتاة الجميلة ، ولكن على الفتاة الرشيقة التى تجيد الرقص . وكانت هذه الرياضة، تكلفنى غالبا ، ولاسيما خلال رحلاتى الاوربية ، ولكنى

كنت أجود دائما بنفقاتها مرتاحا ، كما كنت أجود مرتاحا بنفقات حفلات الاوبرا والموسيقى النمسوية ، وكنت من عشاقها ، أشهدها بانتظام ، طوال آقاماتى العديدة فى فينا .

***

وكان أمامى فى تركيا برنامج حافل ، ومقابلات ودراسات كثيرة تتعلق بما وقع فى تركيا فى الاعوام الثلاثة أو الاربعة الاخيرة ،من تطورات وتغييرات جوهرية كأثر للحركة الكمالية التى كانت تعمل يومئذ بحماسة مضاعفة لتغيير سائر معالم الحياة القديمة فى تركيا ، وقد بدأت منذ اليوم التالى لوصولى الى استانبول ، بزيارة الاثار الشهيرة ، البيزنطية والتركية . فبدأت بزيارة جامع أيا صوفيا (أو كنيسة أيا صوفيا) جوهرة الآثار البيزنطية . وكانت يومئذ جامعا تقام فيه الصلوات وكانت نقوشها البيزنطية ، قد حجبت بالطلاء منذ افتتاح الترك العثمانيين لقسطنطينية فى مايو سنة ١٤٥٣ ، وتحويلها الى جامع للصلاة ، وقد نقشت فى أركان صحنها العظيم المستطيل أسماء الله ومحمد فى الواجهة ، والخلفاء فى الجوانب الاربعة . وقد أمر كمال أتاتورك فيما بعد بالغاء صبغتها الدينية كجامع تؤدى فيه الصلاة ، وأزيلت منها النقوش الاسلامية ، وأعيدت نقوشها البيزنطية ، وحولت الى متحف تاريخى . ثم زرت من بعدها جوامع السلطان أحمد ، والسلطان سليمان ، وجامع الفاتح ، وبنى جامع ، وغيرها .

وأستطيع أن أقول انه لا يوجد بين جوامع اســتانبول العديدة ، وهي كلها آيات فى الجمال والرشاقة ، جامع يدلى بطراز اسلامى خاص ، انها جميعا أو معظمها تكاد تكون نسخة من طراز أيا صوفيا ، ففى أعلاها مجمــوعة القباب الصغيرة ، والمنارتان الرفيعتان الرشـــيقتان ، تميزان هذا الطراز البيزنطى الاياصوفى من الجوامع • ولدينا فى القاهرة من هذا الطراز جامع محمد على بالقلعة وجامع الست صفية الواقع فوق ربوة خلفية فى شـــارع محمد على ، على مقربة من باب الخلق •

ثم زرت الاثار القيصرية القديمة ، عمود اركاديوس ، والهيبدروم (آت ميدانى) ومغاور البازيلكا ، والمتاحف البيزنطية • وبعد أن أقمت فى استانبول خمســة أيام سافرت بالقطار الى أنقرة ، عاصمة تركيا الجديدة ، فى يوم الاثنين الثالث عشر من يونية ، فوصـــلتها فى ظهر اليوم التالى •

وكان لدى فى أنقــرة برنامج حافل ، وكانت أنقــرة ما تزال يومئذ بلدا صغيرا يقع فى عمق الوادى ، وتحف به الجبال ، وأنقرة هذه هى التى سحقت فيها جيــوش التتار بقيـــادة عاهلهم الاعظم تيمور لنك ، الجيـــوش العثمانية بقيادة السلطان بايزيد الاول سنة ١٤٠٢ م ، وأسر فيها بايزيد ، ووضعه خصمه الظافر ، حســـبما تقول الاسطورة ، فى قفص من الحديد ، ولم يكن بأنقرة سوى بضعة شوارع صغيرة ، وقليل من المبانى • وكانت مع ذلك مراكز السفارات الاجنبية • وكان سفيرنا بهــا يومئذ ، صديقى المرحوم عبد العظيم راشد باشا • وكان من معاونيه كسكرتير أول ، صديقى وزميلى فى الدراسة

المرحوم ابو العينين سالم ، وقد انست يومئذ كثيراً بوجوده الى جانبى . وكنت بالطبع اتصل بممثلينا الدبلوماسيين حيث كنت . وكان أول من اتصلت به منهم فى استانبول قنصلنا العام المرحوم الاستاذ الجزايرلى بك (وقد نسيت اسمه الاول) . وقد أطلعنى على تقرير واف كتبه عن أحوال تركيا ، وتفاصيل الحركة الكمالية فاستفدت كثيراً من قراءته ، كما استفدت كثيراً من نصائحه وتوجيهاته .

وكان أول من اتصلت به من رجال الحركة الكمالية فى انقرة ، وزير الخارجية توفيق رشدى بك ، الذى تسمى فيما بعد « برشدى اراس » ، وذلك وفقا لبرنامج تغيير الاسماء القديمة « والمعربة منها خصوصا » الى اسماء تركية محضة . قابلته فى الساعة السادسة من مساء يوم وصولى ، فاستقبلنى بترحاب ومودة . وكان حديثنا بالفرنسية ، وهى التى كان يتحدث بها معظم من قابلتهم . وحدثنى عن كثير مما طلبته منه من التعرف على برامج الحركة الكمالية واتجاهاتها . وحدثنى عن زعيمه مصطفى كمال وقال لى أنه لا يكاد يقابله حتى يشعر بالرجفة تسرى اليه ، وأنه لا يقابل رجال الدولة الا بعد منتصف الليل . وقد سمعت بعد ذلك من بعض العارفين ، أن مصطفى كمال أو اتاتورك كما تسمى فيما بعد ، كان ينفق السهرة دائما فى الشراب ، ولا يكاد يفيق الا فى منتصف الليل فيقابل الوزراء ، ويباشر الأعمال .
وفى يوم الثلاثاء ١٦ يونيه ، استقبلنى كاظم باشا رئيس الجمعية الوطنية بعد الظهر بقليل فى مركز الجمعية . ثم [illegible] عمده وزير الداخلية . ثم وزير الحقانية ، ثم

زرت البرلمان « الجمعية الوطنية » فى الساعة الرابعة من ذلك اليوم .

وفى المساء تناولت العشاء فى السفارة المصرية مع سفيرنا عبد العظيم راشد باشا ، وبعض الاخوان المصريين .

وكانت أهم زيارة قمت بها فى أنقرة ، هى زيارة مكتب الاركوس أو المكتب التجارى الروسى الملحق بالسفارة السوفييتية . وقد كان هذا المكتب يتولى عندئذ تنظيم العلاقات التجارية لروسيا السوفييتية فى البلاد التى يقوم فيها ، ويتولى أحيانا تنظيم بعض العلائق الدبلوماسية غير الرسمية ، مع البلاد التى لم تعترف بروسيا ، ولا ترتبط معها بأى تمثيل دبلوماسى ؛ وقد كانت هذه حالة روسيا فى اتصالاتها بمصر ، التى لم تكن قد اعترفت بها بعد . وكان التبادل التجارى مع مصر ، ولا سيما الحصول على القطن المصرى ، من أهم المسائل التى تشغل بال روسيا يومئذ ، وكانت مصر أيضا يهمها فى ذلك الوقت أن توسع نطاق تصريف قطنها فى الخارج بأحسن الظروف والشروط . وقد زرت مكتب الاركوس خصيصا لدراسة هذا الموضوع وتحادثت فى شأنه مع مدير الاركوس ، وفهمت منه أن روسيا يهمها أن تحصل على القطن المصرى ، وفق ما تحبه مصر ، وبالاسعار والشروط التى تضعها ، ورجائى أن أبرز ذلك بصورة واضحة ، فيما انشره فى الصحف المصرية عن هذا الموضوع . وكان الحديث يدور بيننا على مائدة عشاء ، ودعيت اليها فى مكتب « الاركوس » ، وفيها تناولت شراب الفودكا الروسى لأول مرة فى حياتى ، وكان شديد الوطأة ، فأمسكت بعد تناول القليل منه ، ولم أتناوله فى حياتى بعد ذلك قط .

وقد نجحت مساعي « الاركوس » فيما بعد فى الاتصال بالحكومة المصرية ، فى شأن الحصول على القطن المصرى، واستجابت مصر لهذا المسعى ، وعقدت الصفقات الاولى بين الفريقين ، وكان ذلك بداية انتهت فيما بعد ، باعتراف مصر بروسيا السوفييتية ، وتبادل التمثيل السياسى بين البلدين .

وفى اليوم التالى ، ١٨ يونيه ، قابلت صفوت بك سكرتير حزب الشعب ، وهو حزب الاغلبية فى الجمعية الوطنية، وذلك فى دار المجلس النيابى القديم .

ولبثت فى انقرة يوما آخر ، قابلت فيه ضيا بك ، وكمال بك ، وهما ايضا من زعماء الحركة الكمالية .

ثم غادرت انقرة فى الساعة الخامسة مساء يوم الاثنين ٢٠ يونيه بالقطار الى استانبول ، فوصلتها ظهر اليوم التالى .

وكان القطار بطيئا ، فاستطعت أن القى فى الذهاب ، وفى الاياب ، نظرات خاطفة على وديان الاناضول وجبالها ، وعلى معظم المدن التركية : بورصة ، عاصمة آل عثمان القديمة ، واسكى شهبر ، وأفيون قره حصار ، وازميت، وغيرها .

وكان أمامى فى استانبول برنامج جديد من المقابلات والدراسات . وكان ممن قابلتهم هذه المرة ، بعض السيدات البارزات من أنصار الحركة الكمالية ، مثل نزيهة هانم محيى الدين ، ونقية هانم ، وقد تحدثت معهما فى شئون المرأة التركية فى عهدها الجديد ، وما طرأ على وضعها من التغييرات والاتجاهات الجديدة ، ثم زرت مكتب الزواج المدنى الجديد ، وأطلعت على بعض نماذج من وثائقه .

وعاودني الحنين عندئذ الى زيارة الآثار البيزنطية مرة اخرى ، فقصدت الى الهيبدروم . « آت ميدانى » أو ميدان سباق الخيل الروماني ، وتفقدت الآثار الرومانية مرة أخرى ، والتقيت عندئذ بالعلامة الاثرى الانجليز الاستاذ كاسون Casson وكان يرأس بعثة تقوم بحفريات فى هذه المنطقة البيزنطية القديمة .

ثم زرت القنصلية المصرية فى استانبول مرة اخرى ، وقابلت قنصلنا الجزايرلى بك لاحييه تحية الوداع ، ولارد اليه تقريره القيم الذى اعارنى اياه ، ووقفت منه على الكثير من شئون تركيا الجديدة .

وقد تعذر على أن أحصل على صور أكابر زعماء الحركة الكمالية ، وفى مقدمتهم الزعيم كمال اتاتورك ، وعصمت باشا ساعده الاول .

هذا ، ولم تكن قد وقعت بعد فى تركيا تلك الانقلابات والتغييرات المثيرة التى أحدثها اتاتورك فى الشئون الاسلامية مثل الغاء الأذان الاسلامى والصلاة بالعربية ، وما أحدث فى اللغة التركية من حذف أصولها العربية المستعارة والغاء الكتابة بالحروف العربية القديمة ، واستبدالها بالحروف اللاتينية ، وغير ذلك مما أثار سخط العالم الاسلامى ، وانتهى بسلخ تركيا من جماعة الامم الاسلامية ، التى كانت تتولى زعامتها فى ظل الخلافة ، مدى قرون ، وتوجيهها الى الاندماج فى حظيرة أوربا النصرانية . وقد كان ذلك كله ينم عن حقد دفين للاسلام والعروبة فى صدر هذا الزعيم اللا دينى ، الذى يقال انه يرجع الى أصل يهودى من طائفة « الدونمة » البلقانية .

وكانت الكتب والصحف حتى وقت زيارتى ، تطبع كلها

بالحروف العربية ، وكانت من اجمل نمـــاذج الطباعة العربية .

ولم استطع خلال اقامتي القصيرة بتركيا ، ان اتبين سمات الشعب التركي الجديدة ، بيد انني شعرت انني امام شعب حائر لم يستقر بعد على أوضاعه الجديدة ، وقد استطعنا فيما بعد ، أن نتبين هذه السمات في الجيل التركي الجـــديد ، الذي نشأ على تراث الثورة الكمالية ، في الاربعينات والخمسينات ، وذلك بالاتصال بكثير من المواطنين الترك من مختلف البيئـــات ، في مختلف البلاد الاوربية . ثم بالاتصال بمن كنا نراهم من الزملاء الترك معنا في مختلف المؤتمرات ، ولا سيما في مؤتمرات الملتقى الاسلامي العـديدة بالجزائر : شعب أعجمي باهت متوسط الثقـــافة والعلم ، ضعيف كل الضعف ، في ميدان العلوم والمعارف العربية والاسلامية، لا يتسم بأية مميزات لامعة ، ولا بأية حماية للعروبة والاسلام .

***

وكنت عندئذ قد أعددت العـدة للعودة الى مصر ، ووقع اختياري على ركوب الباخرة « عباسية » التابعة لشركة الخطوط الخديوية ، فاستقلتها ، واقلعت بنا من مياه البوسفور في صباح يوم الاحد السادس والعشرين من يونيه . ولما وصلت الى أزمير توقفت بضع ساعات ، سعدت خلالها بلقاء صديقي العزيز الدكتور حسين حسني (باشا) يومئذ قنصلنا في أزمير ، واستطعت أن ألقى

نظرة خاطفة على أزمير ، وكان مما لفت نظرى وأثار دهشتى ما رأيته فى شوارعها من سير عربات «سوارس» التى تجرها الخيل كوسيلة من وسائل المواصلات فى المدينة . ثم تابعت السفينة سيرها فوصلت الى الاسكندرية يوم الخميس آخر يونية سنة ١٩٢٧ .

وهكذا انتهت بحمد الله هذه الرحلة الاولى من رحلاتى الخارجية ، التى تعددت فيما بعد ، بعد أن استغرقت ثمانية وثلاثين يوما ، وحفلت بكثير من المشاهدات والدراسات .

وقد كتبت من دراساتى فى هذه الرحلة ، ومن أحاديثى الصحفية الهامة بها ، عدة مقالات نشرت تباعا فى « السياسة الاسبوعية » ، وقد كان أبرز ما فيها ، الفصول التى كتبت عن الحركة الصهيونية والاحياء اليهودى ، ثم عن تركيا والحركة الكمالية .

قصة زواجى

فى صيف سنة ١٩٣٠ ، سافرت الى فينا ، وفى نيتى أن أسعى الى التعرف بآنسة نمسوية أقترن بها . وكنت قد حاولت ، قبل ذلك بأعوام ، أن أحقق هذا العزم بمصاهرة احدى الاسر المصرية المحترمة ، فسعيت الى الاتصال بأكثر من أسرة بالقاهرة ، ولكنى شعرت انه توجد ثمة أفكار وتقاليد رجعية لدى معظم هذه الاسر ، وفى مقدمتها ان طالب الزواج يحسن أن يكون موظفا فى الحكومة ، وان الوظيفة تعتبر عنوان الكفاءة والقبول . وقد ذكرت فيما تقدم ، أننى لم أفكر فى بداية حياتى

العامة فى التوظف فى الحكومة ، واننى آثرت للعمل الحر فى المحاماة والصحافة . ومن ثم فقد رأيت ان أترك الاسر المصرية وشأنها فيما تحب ، واتجهت الى الزواج من فتاة أوربية . وآثرت أن تكون هذه الفتاة نمسوية أو المانية . ومن ثم فقد سافرت الى فيينا ، ولم يطل بحثى ، حتى تعرفت بأسرة نمسوية متوسطة ، عميدها مهندس زراعى ، وله ابنة شابة فى الثانية والعشرين من عمرها تدعى يوهنا . وقد زرت الاسرة بمنزلها بحى براتر ، وكانت تتألف من الاب وزوجته ، وهى سيدة جميلة وقورة ، وهى ليست أم الفتاة ، اذ كانت الابنة يتيمة الام . فراقنى ما شهدته لدى الاسرة من البساطة والتواضع والادب الجم ، وراقنى ما أنسته فى العروس من الحسن الهادىء ، والقوام المعتدل ، والسحر المقرون بالحياء ، ومخائل الذكاء . وأبديت فى الحال رغبتى فى الاقتران بها . وفى اليوم التالى زارنى الاب وابنته فى الفندق الذى انزل فيه ، واتفقنا على موعد عقد القران . وتم عقد الزواج بالفعل فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ ، بمقر البلدية « الرات هاوس » ثم تم توثيقه بعد ذلك بأيام قلائل فى القنصلة المصرية بفيينا أمام قنصلنا المرحوم محمد سرور بك ، وعدت بعد ذلك برفقة زوجتى الشابة الى القاهرة . واحمد الله العلى القدير ، أن كان زواجا موفقا لم تحدث به خلافات ، أو أزمات خطيرة . وهى ما زالت الى اليوم ، بعد ثمانية وأربعين عاما ، زوجتى الوحيدة . وقد رزقت منها بأولادى الثلاثة ، محمود وقد درس الطب ، وهو يعمل منذ مدة طبيبا فى انجلترا

وحسين وهو يعمل موظفا فى شركة التليفزيون ، وله مواهب فنية بارزة ، يمارسها فى الأنتاج السينمائى ، وتدر عليه أرباحا مجزية ، وابنتى سعاد ، خريجة قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهى أبرع أولادى الثلاثة فى اللغات اذ تجيد الانجليزية والفرنسية والالمانية والبرتغالية . هذا فضلا عن أسلوبها العربى الجزل فى الكتابة والوصف .

واود ان اذكر هنا ان زوجتى السيدة يوهنا ، وقد عرب اسمها الى هناء عنان ، هى سيدة واسعة الثقافة ، وتجيد فوق لغتها الالمانية ، اللغات الانجليزية والفرنسية والعربية ، ثم أود بهذه المناسبة أن اشير الى بعض جوانب من نشاط السيدة زوجتى العلمى والمهنى ، فقد قامت أولا بالاشراف على تربية حفيداتها الاربعة منذ ادخلتهن مدرسة سان فنسان دى يول الفرنسية فى سن مبكرة ، واشرفت بعد ذلك عن تربيتهن فى التعليم العالى وذلك لتغيب والدهن الدكتور محمود فى الخارج منذ بداية حياته المهنية ، وتخرج تحت كنفها ورعايتها اثنتان منهن من جامعة القاهرة . وأما الاخريان فانهما تكملان دراستهما بانجلترا . وقد تولت ترجمة عدة من الكتب والرسائل العلمية الالمانية الى الانجليزية لمنشأة فرانكلين الامريكية . وهو نوع من الترجمة تخصصت فيه . والى جانب ذلك بذلت نشاطا كبيرا فى انشاء قرية الاطفال الدولية بمدينة القاهرة ، وما زالت تمدها بنشاطها ، ولما كانت هذه المنشآت تنتمى أصلا الى المشروع النمسوى، فقد وصلها كتاب شكر رقيق من رئيس الوزراء النمسوية المستشار برونوكرايسكي يثنى عليها ، وينوه بأن ما تبذله

فى هذا المجال دليل على انها لم تنس وطنهـــا الاصلى ، وقد كان ذلك من دواعى تأثرها وسرورها .

واذا كنت آسف على شيء فى حياتى العائلية ، فهو اننى لم ارزق من يمكن من اولادى أن يخلفنى فى حياتى الادبية ، ويرعى تراثى التاريخى العريض ، ويقوم على الاستمرار فى نشر كتبى التاريخية والادبية المختلفة ، لكى تنتفع بها الاجيال اللاحقة ، وانى لاترك هذا التراث وديعة بين يدى الله سبحانه ، يرعاها ويحفظها وهو خير الحافظين .

ترك العمل فى الصحافة

وأمضيت فى العمل الصحفى بضعة أعــوام أخرى ، وكنت فى نفس الوقت ما زلت أمارس مهنة المحاماة ، ولكن بصورة محدودة . وكنت قد أغلقت مكتبى بميت غمر لبعدها عن القاهرة ، واتخذت مكتبا بمدينة طوخ القريبة من القاهرة ، ولكنى ما لبثت أن أغلقته بعد نحو عام ، اذ لم أجد فى العمل فى هذه المنطقة ما يستحق اضاعة الوقت ، والتنقل من القاهرة الى الريف .

وفى خلال ذلك تطورت الاحداث السياسية ، وانتقلت جريدة السياسة من مكانها القديم فى شارع المبتديات الى مكانها الجديد فى شارع عبد الخالق ثروت (المغربى سابقا) ، وغلب اللون السياسى الحزبى على السياسة الاسبوعية ، وتضاءلت سمعتها الادبية .

ثم دخلت الاحداث السياسية فى طور جديد ، وتمكن

حزب الاحرار الدستوريين من تولى الحكم ، وقام بتأليف الوزارة زعيم الحزب المرحوم محمد محمود باشا ، وسافر الى انجلترا على رأس وفد لاستئناف المفاوضات مع بريطانيا ، واسفرت هذه المفاوضات عن مشروع معاهدة لتنظيم العلائق بين مصر وانجلترا ، ولكنه لم يكن صريحا ولا واضحا فى تحقيق استقلال مصر ، ولم يحظ من الرأى العام ، بتأييد يذكر ، واشتدت عليه حملات الوفد والمعارضين .

واخذت أحوال الاحرار الدستوريين فى الاضطراب ، واشتد عليهم ضغط اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزارة يومئذ ، وقد استطاع أن يجمع برلمانا جديدا على طريقته ، ووقع غلق « السياسة » غير مرة بالطرق الادارية . ثم وقع غلق السياسة الاسبوعية وانتهى الامر بأن كانت السياسة الاسبوعية ، تصدر فى صورة ملحق أسبوعى للسياسة اليومية ، وذلك على نفس نمطها الادبى القديم .

وكانت « السياسة » كلما اغلقت ، لجأ الدستوريون الى اتخاذ لسانهم فى بعض الصحف الثانوية ، فاذا أعيدت عادوا الى اصدارها ، مشددين الحملة على صدقى باشا ووزارته وسياسته . وكان صدقى باشا يحارب السياسة بمختلف الوسائل ، ويرتب شراءها جملة من المتعهدين ، حتى لا تصل الى أيدى القراء ، وكان لهذه الوسائل اثرها فى اضعاف السياسة فتضاءلت مواردها المالية ، وعجزت عن دفع مرتبات المحررين والموظفين . وقد صابرت انا هذه الحالة بعض الوقت ، ولكنى رأيت فى النهاية ، أن الاستمرار على هذه الحالة أمر متعذر ،

فقررت الاستقالة من عملى بها ، بالرغم مما كان يربطنى من روابط المودة والمحبة بكثير من رجالات الدستوريين ، لا من الناحية الحزبية ، ولكن من ناحية الصداقة الشخصية والتقدير المتبادل ، وفى مقدمة هؤلاء الدكتور هيكل رئيس تحريرها ، وأستاذى القديم ، والاستاذ على عبد الرازق ، وغيرهما من الاصدقاء الاعزاء .

وكان انفصالى عن أسرة السياسة فى أوائل سنة ١٩٣٢ ، ولم يخطر ببالى يومئذ أن أشتغل بالصحافة فى جريدة أخرى غير « السياسة » ، أو أن اتصل بأناس آخرين ينتمون الى الاحزاب الاخرى لاعمل فى جريدتهم . ولو قبلت نفسى يومئذ مثل هذا الخاطر لكان فيه الكسب الوفير الهين . ولكنى حسبما سبق أن نوهت ، لم أكن اتسم بأية صفة حزبية ، اعتزازا بصفتى المصرية المحضة ، ولا أميل قط ، حسبما سبق أن ذكرت الى الكتابة فى شئون السياسة المحلية ، وقد عملت فى جريدة السياسة وأصحابها يحترمون طول الوقت منى هذا الشعور . وقد كنت أعمل فى « السياسة » الى جانب الصفوة من المفكرين والكتاب المصريين . فهذه الاعتبارات كلها جعلتنى أصرف النظر نهائيا عن العمل الصحفى فى أية جهة أخرى .

وكنت فى تلك الآونة ، قد بدأت أنشر بعض بحوثى فى مجلة « الرسالة » التى صرح باصدارها لصديقى المرحوم الاستاذ أحمد حسن الزيات ، فكنت أقدم لها مقالا أسبوعيا ، ثم كنت أقدم بحثا شهريا لمجلة الهلال . وكان المفروض أن الاستاذ الزيات قد استصدر تصريح الرسالة ، على أن تكون لسانا علميا وأدبيا للجنة التأليف

والترجمة والنشر ، التى كنا ننتمى اليها جميعا . وكان يحرر معظم فصولهـــا فى الواقع ، أعضـــاء لجنة التأليف والترجمة . وكان مقرها فى جزء من مقر اللجنة القديم بعمارة راتب باشا فى أول شارع الساحة ، بقد محلات عمر أفندى . ولكن الاســـتاذ الزيات ، ما لبث حينما آنس نجاح الرسالة وتقدمها السريع ، ان دبر الاستقلال بهـــا ، فكان له ما أراد ، وان كان زملائى اعضاء اللجنة استمروا فى الـكتابة فيها بصفة مستقلة وخاصة . واستمر هذا الوضع الى أن قيض الله للجنة أن تصدر مجلتها الخاصة « الثقافة » بعد ذلك ببضعة اعوام ...

وكنت فى نفس الوقت ، أقدم للاذاعة بعض الاحاديث التاريخية ضمن برنامجها الثقافى وذلك بصورة اسبوعية منتظمة .

على أن هذه الاعمال الادبية المختلفة لم تكن كافية لان تشغل كل وقتى ، ولا أن تسد كل حاجتى العائلية . ولم أر ، حسبما أن ذكرت ، سوى أن أحاول العـــودة الى ممارسة مهنتى القديمة ، المحـــاماة ، وكانت فى الواقع محاولة صعبة ، وغير مؤكدة النجاح . ولكنى مع ذلك قررت أن أقوم بها . وسهل على ذلك أن اللجنة تركت مقرها القديم ، واتفقت مع صديقى الاستاذ الزيات على ان أحل مكانها معه فى شقتها ، وشغلت بذلك غرفتين من غرفهـــا الاربعة وجهزتها بما يلزم للعمل . وبدأت ملازمة مكتبى بانتظام كل يوم . ومضت الايام متوالية دون أن تقع زيارات مبشرة . وكنت أشغل وقتى عندئذ ، باعداد بعض الفصول والمقالات اللازمة للهلال والرسالة ،والبرنامج

الاذاعي الثقافي . وفي خلال ذلك لم تقع لي سوى زيارات واتصالات قليلة في شأن القضايا والاستشارات القضائية، ومعظمها من أصدقاء ، لا أفكر في الكسب منهم . وكان يبدو على مر الوقت ان محاولة العمل في ميدان المحاماة بصورة ناجحة ، ليست من الامور الميسورة .

فى الوظيفة الحكومية

عندئذ فكرت في أن التحق بوظيفة حكومية ، وهو ما رفضت التفكير فيه والاستجابة اليه عقب تخرجي من دراسة الحقوق . وكانت فكرة مؤسفة . ولكنى كنت اراها السبيل الوحيد فى هذه الظروف . ولم أكن أتصور يومئذ أننى سوف ألقي بنفسى فى وسط موبوء منحل ، واننى سوف أعانى بمخالطته الكثير من الآلام النفسية . وانتهى الامر بأن التحقت بوظيفة من الدرجة الخامسة بادارة المطبوعات بوزارة الداخلية . وسهل على الالتحاق بها أحد أقاربى ، وهو المرحوم حسن رفعت باشا ، كان يشغل يومئذ منصب وكيل الداخلية ، وتقع ادارة المطبوعات تحت اشرافه . وما لبثت أن لاحظت أن هذه الادارة ، التى كان عملها يختص بالاشراف على الصحافة، وتنفيذ قانون المطبوعات ، كانت تقع يومئذ تحت سيطرة الشوام ، من سوريين ولبنانيين ، أنها كانت تعانى كثيرا من ضروب الفساد على يد هذه العصابة ، من اقتضاء الرشاوى ، للسعى فى تعيين الموظفين على اعتماد المصاريف السرية ، ومن مختلف الصحف لمدها بمختلف الامتيازات، ولا سيما الاعلانات الحكومية . وكان رئيسها الاعلى ، أو

وكيلها ، وهو يومئذ سورى درزى يسهل لمرؤوسيه كل شيء ، ويؤمهم فى تلك الاعمال ، وكانت الصحف الاجنبية هى اكثر الصحف انتفاعا فى ظل هذا الفساد . وكان من نصيبى بعد فترة من الوقت أن أتولى شئون هذه الصحف الاجنبية ، من فرنسية وانجليزية ، ورومية ، تصدر بالقاهرة والاسكندرية ، وكان من بينها صحف مرموقة ، كالبورص اجبسيين ، والجورنال دى كير ، والجازيت بالقاهرة ، والزنيفورم وغيرها بالاسكندرية . وكانت هذه الصحف الاجنبية كلهـا ، تخاطب المطبوعات باللغة الفرنسية أو الانجليزية فراعتنى هذه الحال ، وبدأت أطلب من هذه الصحف ، وانصحها ، أن تكتب طلباتها بالعربية الى جانب اللغة الاجنبية ، وبعد معارك ومشادات مستمرة، انتهى الامر بأن بدأت تكتب العربية الى جانب الفرنسية او الانجليزية . ولما رقيت بعد ذلك الى منصب وكيل ادارة المطبوعات ، كنت ارفض كل طلب يكتب باللغة الاجنبية . وانتهى الامر بعد صراع طويل الى تحقيق هذا الاصلاح ، وأدرك كثير من أصحاب هذه الصحف ، والمسئولين فيها ، اننى محق فى طلبه ، وانه مطلب عادل يجب النزول عنده . وكان يسهل على العمل فى هذه الادارة ـ ادارة المطبوعات ـ انها مستقرة بالقاهرة . وليست لها فروع فى أية مدن أخرى ، وبذلك استمر عملى بها أعواما طويلة ، دون ازعاج ، الا ما كان فى أوائل الحرب الثانية ، حينما نظمت الرقابة على الصحف ، وطلب الى فى وقت ما ، ان اتولى أعمال الرقابة بالاسكندرية ، فاعتذرت ورفضت رفضا باتا تولية هذا

العمل ، وانذرت بتقديم استقالتى ، وعندئذ عدل عن هذا الطلب .

وكانت ادارة المطبوعات ، طوال الوقت ، هدفا للتغييرات الحزبية من وفدية ودستورية وسعدية ، يؤتى اليها فى كل حكومة جديدة ، بطائفة من الموظفين الذين لا عال لهم ، على اعتماد المصاريف السرية . وكنت بالرغم من عدم تعاطفى مع حزب الوفد ، اتصرف دائما فى حدود ما أعتقد انه الحق والصواب ، ولم تكن تحدونى أية أغراض حزبية او شخصية . وكنت اذا ما وجهت بأى طلب او مأزق حزبى لا ارتأى صوابه ، أرفع أمره الى وكيل الوزارة ، حسن رفعت باشا ، فكان يقوم بتصريفه بمنتهى اللباقة ، وينتهى الامر بسلام .

وكنت خلال عملى بادارة المطبوعات ، أمثل وزارة الداخلية فى لجنة قبول الصحفيين بمحكمة الاستئناف العليا ، وكانت هذه اللجنة ، تنعقد وفقا لقانون المطبوعات الجديدة، تحت رئاسة رئيس محكمة الاستئناف العليا ، وكان رئيسها يومئذ المرحوم محمد محمود باشا، وكان مستشارا بارعا ، جم الذكاء والادب ، وكنت سعيدا بالعمل معه . وقد ساعدت بمعلوماتى وتوصياتى الشخصية فى اللجنة فى قبول عدد كبير من الصحفيين والصحفيات .

وفى خلال هذه الفترة ، من عملى الحكومى ، الذى استمر بادارة المطبوعات نحو اثنتى عشر عاما قمت خلال أجازاتى الصيفية بعدة رحلات الى المانيا وفرنسا ، وايطاليا والنمسا ، سوف أتحدث عنها فى مواضع أخرى .

نادى القلم الدولى

كان أول من دعى الى تأليف فرع لهذه الهيئة الادبية الدولية بمصر ، المرحوم الدكتور طه حسين . وكان ذلك ذات مساء كنا فيه بمنزل آل عبد الرازق . وكان موجودا الى جانبه المرحومين على عبد الرازق ، والدكتور محمد كامل حسين وانا ، وقد اقترح الدكتور طه ، فيما يبدو بناء على رسالة تلقاها من مركز نادى القلم الدولى بلندن ، الـ P . E . N ، أن تنشيء شعبة لهذه الهيئة الادبية بالقاهرة . فتم الاتفاق بيننا على ذلك ، وتكونت منا هيئة للدعوة والتنظيم ، وندبني الزملاء ، لاقوم بأعمال السكرتارية ، واتولى ارسال الدعوات لمن يقترحهم طه ، وكان ذلك حسبما أذكر فى أوائل سنة ١٩٣٦ . وتولى الدكتور طه الاتصال بمن يدعون من الاجانب المقيمين بمصر للانضمام الى هذه الشعبة . وأرسلت الدعوات الى عدد من الادباء والكتاب المعروفين ، فلم يلبها سوى القليل . ولبى دعوة الدكتور طه من الاجانب عدد منهم مستر سكيف الاستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ومسيو برنار ميشيل الاديب السويسرى ، وهو فى نفس الوقت من رجال الاعمال ، ومسيو جورج فوشنيه مراسل جريدة جورنال دى جنيف ، وهو سويسرى أيضا ، ومستر جون كنتل الكاتب القصصى السويسرى . وكان يقيم يومئذ بمصر ، والسيدة مدام خير وهى سيدة سورية أديبة من الطبقة الممتازة ، وكانت تشتهر بحسنها واناقتها . وكان نشاط الجماعة يقتصر على الاجتماع كل شهر على عشاء فى أحد المطاعم الانيقة . وكان يتولى امانة الصندوق زميلنا

المرحوم الدكتور كامل حسين ، وكنت أنا أتولى أعمال السكرتارية ونجتمع نحن كل أسبوع فى صفة لجنة ادارية. وكنا على اتصال بمركز القلم الدولى العام بلندن وسكرتيره الكاتب المسرحى هرمون أولد. وكانت ترد المكاتبات باسمى، فأتلقاها وأتولى عرضها على اللجنة الادارية ، ثم أقوم بالرد عليها وفقا لما يقع عليه الاتفاق ، وكنا نتولى أحيانا دعوة بعض الاصدقاء من العلمـــاء والخاصة من غير الاعضاء الى العشاء معنا ، واستمر الامر على ذلك حينا ، وكان من هؤلاء الاديبة الكبيرة الآنسة مى زيادة . وكان هذا ثانى لقاء بينى وبين هذه الاديبة الكبيرة ، التى سمعت الكثير عن نبوغها وخلالها الرفيعة ، وعن صالونها الادبى ، الذى يتردد عليه أعاظم العلماء والكتاب . وبالرغم من انها لم تكن رائعة الحسن ، الا أن السحر ينفث حولها من عينيها ومن حديثها . وقد اتصلت بها فيما بعد ، وعرفتها عن كثب ، وتبادلت معها الاحاديث والرسائل ، وذلك حسبما أشير اليه فيما بعد .

وكان ممن دعـــونا من أكابر الكتاب الاوربيين الذين يفدون على مصر ، الكاتب الفرنسى الكبير مسيو جول رومان ، وقد استقبلناه فى حفل عشاء تكريم . وألقى خطابا ممتعا . وكان خطابا طويلا ورائعا . وكان ممن استقبلناهم أيضا ، الشاعر الاسبانى القطلونى السنيور الومار ، وكان يقيم يومئذ فى القاهرة ، لاجئا من نظام الحكم الفاشستى فى اسبانيا ، وقد ألقى بيننا بعض مقطوعاته الشعرية باللغة القطلانية . وكان منهم أيضا العلامة المستشرق الاستاذ ليفى بروفنسال . وكان مستر كنتل القصصى السويسرى يحضر معنا فى معظم الاحيان

على العشاء مع زوجته الانجليزية . وكان يشيع فينا البشر والضحك بنكاته المختارة . وكان مما حدث أيضا خلال اجتماعاتنا الشهرية ، أن خصص منهـا مساء متكريم صديقنا العلامة الراحل الاستاذ احمد أمين ودعى الى هذا الحفل المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر ، وألقى فى الحفل كلمة جميلة مؤثرة ، أشاد فيها بخلاله وعلمه وروعة انتاجه . ثم توالت دعوات الشعبة الى بعض الشخصيات البارزة ، فدعونا المرحوم الدكتور حافظ عفيفى الى حفل العشاء ، وحضرت فى نفس الليلة، بناء على دعوتنا المرحومةالسيدة قوت القلوب الدمرداشية، وقد حضرت الى الحفل سافرة ، وكان هذا يومئذ مما يعتبر حادثا اجتماعيا ولا سيما بالنسبة للسيدة الدمرداشية ، وقد دعتنا السيدة قوت القلوب فيما بعد الى حفل غداء ضخم فى حدائق ضيعتها الكبيرة بالقبة، وهى التى صودرت فيما بعد ، فيما صودر من أملاكها . ثم دعتنا بعد ذلك الى حفل عشاء بقصرها الذى كان يقع بجوار وزارة الخارجية القديمة على مقربة من كوبرى قصر النيل ، وقد أزيل اليوم . وكان ذلك فى فاتحة الحرب العالمية الثانية . وكان الحفل حسـبما فهمنا ، لتكريم زائر انجليزى كبير يدعى مستر سل بيتون ، وكان يتسم بأنه من هواة التصوير . وكان قليل الـكلام كثير الاستماع . وقد شعرت أنا يومئذ أنه شخصية غامضة ، وخـطر بذهنى أنه انما كان على الاغلب من رجال المخابرات البريطانية .

واستمر نشاط شعبة نادى القلم على هذا النمط ، نحو عامين آخرين ، ثم ضعف نشاطها ، وقلت اجتماعاتها ، وتفرق معظم أعضائها الاجانب ، وشغل كل منا بنفسه .

وكان من آخر تصرفاتهـا ، أن بعثت اللجنـة الادارية مذكرة الي هيئة جوائز نوبل بالسويد رسالة ترشح فيها الدكتور طه حسين ، لنيل هذه الجائزة في الادب ، فكانت هذه صرخة من صرخات عديدة ، في هذا السبيل ، لم يكن لها اى صدى .

واخيرا رؤى انه لا محل لاستمرارها ، واقترح علينا الدكتور كامل حسين أن نعتبرها منتهية ، وان نوجه مابقي من رصيد اشتراكاتها ، الى صـــندوق الطلبة بجامعة عين شمس ، وكان الدكتور كامل حسين ، قد عين مديرا لها ، فحبذنا رأيه . وكان هذا فصل الختام فى أمرها ، واخطرت بذلك مستر أولد سكرتير المركز الدولي بلندن .

الآنسة مى زيادة

سبق أن اشرت فيما تقدم ، الى أنى التقيت بالآنسة مى زيادة لأول مرة ، لقـــاء عابرا فى حفل شاى لدى احمد شفيق باشا ، ثم لقيتها بعد ذلك ببضعة أعوام ، فى احدى حفلات عشاء نادى القلم . وكان لهـــذا اللقاء اثر كبير ، فى تقديرى لهـــذه الآنسة الكاتبة الاديبة ، النابغة ، ورفيع خلالها . وكنت أقرأ مقالاتها فى الأهرام وغيرها من الصحف والمجلات باهتمام ومتعة . ومضت على ذلك أعوام قبل أن تسمح لى الظروف برؤيتها والاتصال بها . ثم كان هذا الاتصـــال لمناسبة أدبية لا أتذكرها ، وتوثقت بيننا الصلات الادبية والفكرية تباعا ، وشعرت منها انها تأنس باجتماعنا وأحاديثنا ، وكنا نجتمع دائما بشقتها الجميلة الملاصقة لجريدة الاهرام . وكان ثمة بيننا كثير من النواحي والمعارف المشتركة واجادة اللغات الاجنبية .

وكنا حين تعوق المشاغل اجتماعاتنا ، نتصل تليفونيا ونتبادل بعض الأحاديث . واستمرت صلاتنا على أتم مودة وصفاء ، وتقدير متبادل . ثم كان ذات يوم شعرت فيه بتغير أحوالها ، وتصرفاتها ، وكانت تمتنع عن الطعام ، فكنت أتضرع اليها ان تأكل ، وآكل معها أحيانا لاشجعها على تناول الطعام . وعندئذ عرضت عليها أن أدعو لها طبيبا لفحصها ، وتقدير أسباب متاعبها فوافقت ، واستدعيت لهذه المهمة المرحوم الدكتور عانوس الاخصائى فى الامراض النسائية ، فلبى مرحبا وقام بفحصها فحصا دقيقا . ثم كتب لها بعض الادوية ، وطمأنها ببعض العبارات . ثم صحبته حين غادر شقتها ، وسألته على حدة عما انتهى اليه الفحص ، فقال ان حالتها تنحصر فى أنها بلغت السن الذى تختفى فيه بعض الاجهزة عند المرأة ، وتقع لها من جراء ذلك اضطرابات عصبية ، ويحسن بها أن تنتقل الى مصحة خاصة يعتنى فيها بأمرها ، ولم أقل لمى شيئا من ذلك . ولبثت أتردد عليها للاطمئنان على صحتها . ولكن حالتها كانت تسوء يوما بعد يوم . واخيرا علمت أنها غادرت القاهرة ، وسافرت الى موطنها الاصلى فى لبنان . ولم أعرف ظروف هذا السفر ، ولا من تولى أمر اصطحابها . ثم سمعت فيما بعد أنها قد أصيبت بعارض عقلى،وأودعت مصحة للعلاج . وقد رآها فيما بعد بعض الاصدقاء القدماء ، الذين زاروا بيروت على تلك الحالة ، وكان منهم صديقى المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وكتب عن زيارته لها مقالا مؤثرا ، ذكر فيه أنها رآها ، وقد ابيض شعرها حتى صار لون الثلج . وكان لذلك كله فى نفسي ألم

وقع ، وقد علمت فيما بعد أنها توفيت فى أكتوبر سنة ١٩٤١ ، عفا الله عنها ، وطيب ثراها . وانه ليسعدني أن قد احتفظت ببعض رسائلها ، ومنها الخطاب الذى يرى القارىء صورته هنا .

هذا ، وقد تركت مى عددا من الكتب والرسائل الادبية الممتعة منها : الجزر والمد . وابتسامة ودموع (مترجم عن الالمانية) . ظلمات وأشعة ، كلمات واشارات ، وعائشة تيمور ، وهو من أمتع بحوثها .

موقفي من المسرح والسينما

ولم اكن منذ شبابى من عشاق المسرح المصرى . اجل شهدت بمسرح رمسيس فى العشرينات عدة قطع جيدة ، واستطعت أن أقدر مواهب بعض ممثليه فى هذا الوقت ، وفى مقدمتهم الممثل النابغة المرحوم حسين رياض ، والمرحومة السيدة روز اليوسف . ولم يكن لى بعد ذلك اقبال على مسرح الريحانى وتمثيلياته المشهورة « كشكش بك » وما اليها ، لانى كنت أشعر بالرغم مما كان يحدوها من الاغراض النقدية والاجتماعية ، بأنها تذهب فى الهذر مذهبا يزهد فيه أهل الجد والوقار ، ثم لما توالت زياراتى لمدينة فيينا عاصمة النمسا منذ بداية الثلاثينيات ، وكثر ترددى على الاوبرا النمسوية ، وبهو الموسيقى القيصرى ، اعجبت كثيرا بالاوبرات التاريخية العظيمة وما كان يتخللها من موسيقى رائعة : بيتهوفن ، شتراوس ، فردى ، روسينى ... الخ . وأصبحت من عشاق المسرح الفنائى الاوربى . ونسيت المسرح المصرى بتاتا . وكنت أرحب بمشاهدة كل فرق أوربية عظيمة تحضر للتمثيل أو

شارع علوي رقم ٨

القاهرة في ٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤

هل أنت ناقم عليّ ، يا أستاذ ؟

إني أرهب غضب المحامين وبخاصة إذا جمعوا بين المحاماة والأدب . وبوجه أخص في موقف كهذا حيث يلتحقون جميعاً في شخص الأستاذ عنان الكاتب المحقق والمؤرخ المدقق

أنت محق في الاستياء قليلاً لأني أبطأت كثيراً في تقديم الشكر على الهدية الثمينة ، مجموعة ثلاثة من كتبك القيمة . ولكن أتحكم إنصافاً : أأنا مذنبة إذا كانت موضوعات كتبك رحيبة متشعبة لا حدود لها ، يأبى الوقت إلا أن تطالع مرة بعد مرة ، ثم من يستطيع ذرة المعارف متعجلاً ؟ هذا ، فضلاً عن الفصول المتفرقة التي تنشرها في المجلات ، وأفردتها جميعاً طالبة الدرس والاستفادة معاً

إذا رأيت في هذا ذنباً فأصارحك بأني عازمة على اقترافه لا أبغي التوبة . وعلى ذلك ستكون ناقماً عليّ مدى العمر ... فتقرب !

ولكنك ، على كل حال ، لن تأبى قبول شكري الذي تأخر في إعلانه دون أن أتأخر في الشعور به . هذا مع خالص الإعجاب بتلك الشمائل

« ميّ »

للعرض فى أوبرا القاهرة لا سيما الفرق الغنائية ؛ كما كنت أواظب على شهود الفرق الاوروبية التى كانت تحضر للتمثيل بمسرح الكورسال دالبانى ، وكان منهـا فرق رائعة مثل الفرقة الراقصة الاسبانية : « نساء وزهور اسبانيا » Les femmes et les fleurs d'Espagne

وفرقة بافلوفا Pavlova ؛ أعظم راقصة فى هـذه القرن ، وزميلها الراقص البارع شاليابين ، وقد شهدتهـا مرتين متواليتين على مسرح الـكورسال ، وأعجبت أعظم اعجاب برقصتها العالمية الشهيرة « موت البجعة » وكان لمثولها بالقاهرة ، يومئذ ، أعظم صـــدى ، وكان مسرح الكورسال هذا ، وما يظهـــر عليه من الفرق الاوربية الموسيقية ، أو التمثيلية الشهيرة من محاسن القـــاهرة العديدة ، التى قضى عليها النظام الناصرى ، وكان يبذ مسرح الاوبرا بما يفد عليه من الفرق التمثيلية اللامعة .

وقد صقلت هذه الموسيقى ، وهـــذه المناظر الفنية الرائعة ، التى واظبت على مشاهدتها فى فيينا وغيرها من العواصم الاوربية ، ذوقى الفنى ، فأضـــحى بميوله واتجاهاته يقف عند هـــذه النواحى ، وانصرفت بذلك انصرافا نهائيا عن الاهتمام بالمسرح المصرى حتى يومنا .

وأما السينما ، فقد كنت منذ صباى وشـــبابى من عشاقها ، وقد كنت أواظب على مشاهدة الافلام العالمية التى تعرض فى القاهرة . وكنت منذ أيام دراستى ، أذهب الى السينما كل يوم خميس ، وكانت تجذبنى بنوع خاص أفلام تشارلى شابلن الفكاهية التى كنت أشاهدها بانتظام منذ صباى ، والتى لبثت طول حياتى أعجب بها . هـذا الى جانب الافلام العالمية الاخرى ، التى كانت تعرض فى دور سينما القاهرة بانتظام . وكان منها أفلام تاريخيـة

ودرامية عظيمة اذكر منها : كليوباترا كوفاديس . العربية رقم ١٣ . الجانى لكوبيه . فردى . كاروزو وغيرها . كما كنت أواظب على مشاهدة هذه الافلام العالمية فى الخارج حيثما كنت فى باريس . فيينا او برلين . أو مدريد أو غيرها ، وأما الافلام المصرية ، فلم اكن فى البداية متحمسا لها أو مقبلا عليها ، ولم أبادر الى مشاهدتها الا فيما بعد حينما ارتقت الشاشة المصرية ، وظهرت فيهـــا أفلام متقنة جادة ، وكنت أواظب بصفة خاصة على رؤية الافلام التى تضطلع ببطولتها فاتن حمامة ، أو عماد حمدى ، حسين رياض ، أو المليجى ، أما الافلام الفنائية ، فلم تكن تجذبنى ، وقد أخذ هذا الميل الى زيارة الســينما فى دور القاهرة يفيض لدى شيئا فشيئا ، ولا ســيما حينما انحطت مستويات الجماهير المصرية فى العهـــد الاخير . ثم غاضت هذه الرغبة بعد ذلك بتاتا ، فلم أدخل دارا للسينما فى القاهرة ، منـــذ أعوام طويلة ، وكنت أستعيض عن ذلك بزيارة دور السينما الاوربية خـــلال وجودى بالخارج ، ولا سيما فى فيينا ومدريد . وكنت أفضل رؤية الافلام المصرية الممتازة أو الاجنبية ، بمنزلى على شاشة التليفزيون مع أفراد عائلتى . وما زال هذا رأيى حتى كتابة هذه السطور . كما أنى هجــرت زيارة مقاهى القاهرة ومنتدياتها ، فى العهد الاخير بتاتا ، بعد أن انحطت مستويات هذه المقاهى ، وانحطت مستويات زوارها الى حدود تنفر منها النفوس الكريمة ، مكتفيــا فى ذلك بالاجتماعات الجماعية المحترمة ، خلال المناسبات الرسمية ، أو المؤتمرات العلمية وأمثالها وفى نظرى أن مدينة القاهرة العظيمة غدت مع شديد الاسف فى عهــدنا

الحاضر مدينة موحشة مبتذلة من النواحي العمـــرانية والاجتماعية والجمالية ، ولم تبق بها معاهد أو منتديات تصلح للطبقات المحترمة ، التى كانت تعمر القاهرة القديمة والمنتديات القديمة .

اما عن برامج الاذاعة والتليفزيون ، فانه يؤسفنى أن اقول انها لم تكن غنية ، ولا جذابة فانه لم يكن بها الكثير من الاحاديث أو المواد المغرية بالاصغاء والمشاهدة ، وقد كنت قبل العهد الحالى أقدم لبرنامج الاذاعة الثقـــافى بعض الاحاديث التاريخية والتذكارية بتكليف منهـــا ، ولبثت على تقديمها فى الاعوام الاولى من العهد الحالى . ثم جاءت دعوة العروبة ثم الاشتراكية فغطت فى الاذاعة على كل شىء ، وانقطعت عن المساهمة فى الاذاعة بأى نوع من أنواع المشاركة ماعدا فرص قليلة كنت أدعى فيهـــا مع بعض الزملاء لمناقشة موضوع أو كتاب تاريخى . ومن جهة أخرى فانى لم اقبل أى دعوة من التليفزيون ، لاننى كنت أعتبره كالاذاعة لسان الدعوة للنظام القائم . ومن ثم فقد اعتزمت أن لا أستجيب لاية دعوة من جانبه . وكم كنت آسف حينمـــا أشـــاهد بعض برامج التليفـــزيون الانجليزية عند ولدى الدكتور محمود بانجلترا واشـــعر بالاهتمام والمتعة لما أشاهده من المناظر والاحاديث المختارة واللقطات الجميلة ، واذكر ما يعتور برامجنا فى القاهرة من الضعف والنقص المعيب ، وكيف أنها ترصـــد معظم نشاطها للاحاديث والدعايات المفرضة ، ممـــا يزهد فى متابعتها .

واستطيع بهذه المناسبة أن اقول كلمة عما كانت عليه القاهرة ، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، وهو العهد

الذى بلغت فيه قمة البهاء ، والعمران . فقد كانت القاهرة يومئذ مدينة عظيمة جميلة نظيفة تغص شوارعها الكبرى بالمحلات التجارية الكبرى ، وبالمقاهى والبارات الارستقراطية الجميلة ، ومنها مقهى « صولت » ، وقد كان أفخر مقاهى فؤاد ، ونظير محلات جروبى ، فى الرقى والفخامة ، وكان يقع فى المكان الذى يشغله اليوم محل « أوريكو » التابع لشيكوريل . وكان يوجد بنفس الشارع مقهى فنش الالمانى ، وهو محل بيرة ومطعم على الطريقة الالمانية . ويوجد بشارع عماد الدين مقهى ومطعم الاوبلسك ، كما كان يوجد بشارع الفى على مقربة من الكورسال ، ملعب ومنتدى « البيلوت باسك » الشهير ، الذى تجرى فيه بالليل على الاضواء الساطعة هذه اللعبة الاسبانية المشهورة ، بين طرفين من لاعبيها الاسبان ؛ ويغص عندئذ بالمتراهنين والفيد من مختلف الجنسيات . وكان مترو مصر الجديدة يبتدىء عندئذ من شارع عماد الدين بحذاء الكورسال ، ثم يفارقه قبيل نهايته ، وينطلق فى طريق المحطة فى مساره العادى . وكان عماد الدين يحتوى على معظم المسارح والكباريهات الشهيرة ، وبالاخص كباريه مدام مارسيل . وقد كان مدى أعوام أنجح المنتديات الانيقة وأزخرها ، وفيه كانت تعرض الرقصات والاغانى من أشهر نجوم مختلف البلاد الاوربية، ويؤمه علية القوم من مختلف الطبقات .

قصة الوسام الهتلرى

هذا ، ولابد لى أن أذكر هنا حادثا هاما ، وقع لى فى صيف سنة ١٩٤٩ ، قبيل الحرب بفترة وجيزة ، وكان

له أشد الوقع فى نفسى . ويجب أن أذكر أولا ، أننى بالرغم من محبتى للثقافة الالمانية ، واتصالى بها بانتظـــام أيام عملى الصحفى ، كنت من أشد خصوم النظام النازى ، وأشد خصوم زعيمه الدموى أدولف هتلر . وقد زرت المانيا مرارا قبل قيام النظام النازى ، ثم زرتهـا مرتين بعد قيامه ، وشهدت الكثير من مظـــاهره المروعة ، فى التنفيذ والعمل ، وكان يســهل على الوقوف على أحوال المانيا ونظمها معرفتى الجيدة للغة الالمانية . وقد كتبت منذ قيام النظام النازى ، وتوالى تطوراته ونظمه العنيفة ، الكثير ضده فى حملات وفصول ملتهبة ، ولا سيما فى مجلة الثقافة . وقد مر على بادارة المطبوعات ، قبل قيــام النازية وبعدها ، بعض الصحفيين الالمان ، وكنت أقـدم اليهم من المساعدات والتسهيلات ما أقدمه لســـائر الصحفيين الاجانب ، دون التأثر بصفتهم وجنسيتهم .

ففى ذات يوم حول منتصف يونية سنة ١٩٣٩ ، علمت من مصدر لا أذكره اليوم ، أنه قد ورد لى ولصـــديقى وزميلى الاستاذ حسن يوسف (باشا) الذى كان مديرا لقسم الصحافة بوزارة الخارجية ، ثم فيمــا بعد مديرا للرقابة ، لكل منا وسام : تقديرى من حكومة الريخ الثالثة (الحكومة الهتلرية) . فسألت فى الحال صديقى المرحوم الاستاذ ابراهيم الدسوقى ، الذى كان يومئذ السكرتير الشرقى بالسفارة الالمانية فأكد لى صـــحة الخبر ، وذكر لى أن الوســامين قد وردا فعلا ، وأن السفارة على وشك أن تقدم فى شأنهما مذكرة رســمية الى وزارة الخارجية .

وقد انزعجت لهذا الخبر أيما انزعاج ، وكأننى تلقيت

فى قلبى طعنة أليمة ، وبادرت فى الحال بالاتصال تليفونيا بالسفارةالالمانية. وطلبت محادثة السفير الالمانى أومستشار السفارة ، فقيل لى ان السفير غير موجود ، وتذكرت عندئذ ماقرأته منذ وقت قريب من ان السفير الالمانى (الهيروا خندروف) ، قد غادر السفارة فارا الى الشرق الاقصى ، لانه لم يكن متفقا مع الحكومة النازية . وعندئذ طلبت محادثة المستشار ، ولما اتصلت به رجوت منه أن اقابله فورا لمسألة خطيرة أود محادثته فى شأنها ، وكان ذلك فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، فتفضل بدعوتى الى رؤيته فى الحال . فذهبت مسرعا الى السفارة الالمانية ، واستقبلنى المستشار بمنتهى المودة . وفى الحال ذكرت له مابلغنى من خبر الوسام الممنوح لى من حكومة الريخ الثالثة ، وهو خبر أكد لي صحته ، وقلت له بمنتهى الصراحة ان هذا الامر يدهشنى أعظم الدهشة، لانى من أشد خصوم الحركة النازية والنظام النازى ، وقد كتبت ضده ، وضد زعيمه الكثير من المقالات العنيفة ، فكيف يمكن أن تقدم حكومة الريخ على أن تمنحنى وساما ينطوى على تقديرها . فأجابنى المستشار بأن حكومة الريخ تقدر ماقمتم به من الخدمات والتسهيلات الودية للصحفيين الالمان ، فقلت له أن هذه الخدمات والتسهيلات تمنح لسائر الصحفيين الاجانب . وأنا لم أقم نحو الصحفيين الالمان الا بواجبى . واني أزيد على ذلك بأننى رجل ديمقراطى حر ، ولا يمكن أن أقبل اى تقدير مهما كان نوعه من حكومة الريخ الثالثة الدكتاتورية ، فأجابنى المستشار ، ونحن كذلك فى ظل حكومة الريخ الثالثة شعب ديمقراطى حر ، فأجبته بحزم وصراحة ، أنى اعتذر

اشد الاعتذار عن عدم قبول هذا الوسام بأية صفة ، وقد جئت لأطلعك على رأيي واعتذاري عن هذا الرفض ، وذلك قبل أن تقدم السفارة في شأنه مذكرتهـــا الى وزارة الخارجية . وقد رأيت ذلك من واجبي حتى لا تقع في ذلك أزمة لا تحمد ، فقال المستشار ، أني أشكرك جزيل الشكر على هذه الصراحة ، وهذا المسعى ، وسوف تحقق رغبتك في عدم الكتابة الى وزارة الخارجية ورد الوسام الى حكومة الريخ ، مشفوعا باعتذارك عن قبوله . وشـد المستشار على يدى بحرارة مودة . وغادرت السفارة ، وأنا لا أكاد أصدق ماحدث ، ولا أكاد أحتفظ بتوازنى ، وكأننى نجوت من سهم مسموم كان مصوبا الى صدرى ، وقمت في الحال بكتابة تقرير مفصل عن هذا الموضـوع ، وقدمته لرئيس الوزارة ووزير الداخلية . وقد كان يومئذ محمد محمود باشا . ولم أخطر أحدا بهذا الحادث ، ولم أتصل في شأنه بأية صحيفة ، وآثرت كتمانه واعتباره سرا خاصا .

وانى لأعتبر هذا الحادث الدبلوماسي من أهم الاحداث التي وقعت في حياتي ، ويسعدنى أن عشت حتى استطعت أن أودعه هذه المذكرات .

وانى لأعتبره شرفا عظيما لى أن أرفض بهذه الطريقة الجريئة الحاسمة وسام تقدير من حكومة « الريخ الثالثة » أعظم وأقوى وأعنف الحكومات الاوربية يومئـذ ، وانه لكذلك أسطع شاهد بحرية قلمى ، ورســـوخ مبادىء الديمقراطية الحرة ، التى كان هذا الرفض أعظم تقييم لهـا ، وأعظم دفاع عنها .

وقد علمت فيما بعد أن تقديم هذا الوسام ، قد ألغى كذلك فيما يتعلق بزميلى الاستاذ حسن يوسف (باشا).

وحدث بعد ذلك بأسابيع قلائل أن سافرت ، فى أواخر شهر اغسطس سنة ١٩٣٩ ، الى سويسرا ، ثم سافرت منها الى المانيا ، وكنت فى هذه المناسبة ، مدعوا لحضور مؤتمر نادى القلم الدولى باستوكهلم عاصمة السويد ، وكان من المتفق عليه أن اتسلم تذاكر السفر اليها فى برلين . ولكنى حينما قصدت الى ألمانيا ، بالسكة الحديدية عن طريق شافهاوزن كان جو الحوادث الدولية مكفهرا ، وكانت نذر الحرب ، موضع الحديث فى كل مكان . ولما وصلت الى برلين فى أواخر اغسطس أرسلت تلغرافا الى استوكهلم للاستفهام عن مصير مؤتمر نادى القلم ، فجاء الرد بأنه الغى نظرا للظروف الدولية . وكنت خلال اقامتى ببرلين التقى كل يوم بصديقى المرحوم أمين بك رستم ، وكان يومئذ قنصلنا ببرلين . ولم تمض على ذلك بضعة أيام ، حتى أعلنت ألمانيا الحرب على بولونيا ، على اثر مطالبتها بدانزج وذلك فى أول سبتمبر ، وفى الثالث منه اعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا وبدأت بذلك الحرب العالمية الثانية ، فبادرت بالتفكير فى مغادرة برلين ، قبل أن يقع لى حادث مكدر ، واستطعت بعد البحث ، أن أستقل آخر قطار من محطة انهالت ببرلين متوجها الى ميونيخ ، وكان يحمل سائر الدبلوماسيين الذين قضت ظروفهم أن يغادروا برلين . ووصلنا الى ميونيخ صباح اليوم الثانى ، ونزلت فى فندق قريب من المحطة تديره جماعة من الراهبات ، وأخذت أترقب فرصة للسفر الى فيينا ، واستطعت بالاتصال بسلطات المحطة أن أسافر الى فيينا فى قطار بضاعة كان متوجها اليها . ورأيت الاحوال متغيرة فى فيينا ، وكان الاجانب المقيمون

بها يمنحون بطاقات تموينية ، ولكنى لم أرد الحصول على هذه البطاقة ، وآثرت الاختفاء والاكل المستمر بالمطاعم المتاحة ، واتصلت عندئذ بسفيرنا فى فيينا ، وكان يومئذ صديقى الاستاذ عبد الكريم صفوت ، فلما قابلته ، رجانى ان أصطحب معى فى العودة السيدة حرمه وولده الصغير ، فوافقت على القيام بتلك المهمة الاخوية . وبعد بضعة أيام سافرنا معا بالسيارة الى الحدود النمسوية المجرية ، وسهل الله لنا بالمرور من نطاق بوليس الحدود النازى ، ووصلنا سالمين الى بودابست . ثم سافرنا منهــا بقطار الشرق الى اثينا ، وكان مازال يعمل بانتظام فى أواسـط أوربا ، فوصلنا اليها فى اليوم التالى . ثم وفقنا الى السفر الى الاسكندرية على ظهر باخرة رومانية كانت ترسو فى المياه اليونانية ، ووصلنا بسلامة الله ، وحمده الجزيل الى أرض الوطن . وكان وصولى الى منزلنا بالقاهرة مفاجاة سارة لعائلتى ، التى كان يساورها أشــد القلق على مصيرى .

التدريس فى معهد الصحافة بكلية الآداب

فى سنة ١٩٤٠ ، انشىء بكلية الاداب بجامعة فؤاد الاول (القاهرة فيما بعد) معهد الصحافة العالى ، وندب للاشراف عليه صديقى وأستاذى المرحوم الاستاذ محمود عزمي ، فدعانى الى معاونته . وتوليت فى البداية تدريس تاريخ الصحافة المصرية والاوربية لطلابه ، وكانوا عندئذ عددا قليلا من الطلاب والطـالبات ، وكنت ألقى دروسى مرتين فى الاسبوع . ثم نما المعهد بسرعة ، وكثر الاقبال عليه من الطلاب حملة الليسانس فى الاداب والبكالوريوس

فى العلوم ، وتفاهمت مع أستاذى الدكتور عزمى ، على ادراج مادة جديدة فى برنامج المعهد ، هى مادة المذاهب الاجتماعية ، نظرا لما حدث فى وقتنا من قيام النظام الفاشستى بايطاليا ، ثم النظام النازى بالمانيا ، هذا الى جانب النظام الديمقراطى ، والنظامين الاشتراكى والشيوعى ، وهى كلها مواد يجب على الطالب الصحفى أن يدرسها دراسة جيدة ، ليكون ملما بأوضاع العصر ومشاكله . وكنت قد زرت ايطاليا فى ظل النظام الفاشستى غير مرة ، وكذلك زرت المانيا مرتين بعد قيام النظام النازى ، ووقفت من الناحية العملية على كثير من أوضاع هذين النظامين العنيفين ، وحصلت عنهما على مصادر ووثائق كثيرة . وكانت الفكرة ناجحة ، واقبل الطلاب بشغف على استماع محاضراتى فى هذه المادة التى غدت فيما بعد من أهم مواد الدراسة فى معهد الصحافة العالى. ثم جمعت محاضراتى فيما بعد فى كتاب وضعته للطلاب بعنوان «المذاهب الاجتماعية الحديثة ، وتطوراتها القانونية والدستورية » ، فتلقاه الطلاب بشغف ، وطبع غير مرة ، وهو اليوم مايزال بين أيدى القراء فى طبعته الخامسة ، بعد أن زيدت مواده زيادة كبيرة ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وما ترتب عليها من النتائج والتطورات الخطيرة فى تقسيم أوربا ، وشئونها وأوضاعها . وانفردت بتدريس هذه المادة لطلاب الصحافة بضعة أعوام ، وتركت مادة تاريخ الصحافة ليتولاها غيرى من الزملاء . ولم يكن جو التدريس بالمعهد دائما صافيا . بل كان عرضة للدسائس المستمرة من جانب معيد وغد حقود ، كان يلتمس الى نفوذه وشق طريقه خدمة بعض عمداء الكلية فى

الدعاية للانتخابات وغيرها . ولكني لبثت مع ذلك فى القيام بالتدريس فى المعهد حتى سنة ١٩٤٨ ، ثم تركته . وكان أستاذي الدكتور محمود عزمي قد تركه أيضا لتعيينه نائبا بمجلس الدولة ، ثم ضمه فيما بعد الى وفد مصر لدى هيئة الامم المتحدة .

ومما هو جدير بالذكر ، ومما يدعو الى الاسف فى نفس الوقت ، ان خريجى معهد الصحافة العالى ، بالرغم مما حصلوا عليه فى المعهد من المؤهلات الممتازة ، لم يجدوا حين سعيهم فى الالتحاق بالصحف الكبرى ، بقصد التمرين العلمى ، ما كان واجبا أن يلقوا من ترحاب وتشجيع ، بل بالعكس ، لقوا من المسئولين ، ومن زملائهم العاملين ، معاملة جافة ، خالية من المجاملة ، لان هؤلاء العاملين ، ومعظمهم لايحمل مؤهلات محترمة ، كانوا يشعرون الى جانب خريجى المعهد ، بالغيرة والتوجس ، من تفوقهم العلمى والمهنى ، ومن ثم فانه لم ينجح سوى القليل من أولئك الخريجين فى مزاولة العمل الصحفى فى هـــذا الوسط الشائك .

ولقد كنت على الرغم من المتاعب التى ألقاها فى التدريس بالمعهد ، وضآلة المكافآت التى أحصل عليها ، كنت سعيدا بهذه المهمة ، التى اتصلت خلالها بأفواج لامعة من الشباب الجامعى ، ووقفت خلالها على الكثير من أحوال كلية الاداب وشئونها ، وانى لأنتهز هذه الفرصة لاذكر أنه كان يقوم بالتدريس بكلية الاداب ، أساتذة ليســت لهم مؤهلاتى الدراسية والعملية ، ولم يكن بعضهم يتجاوز فى تعليمه المرحلة الابتدائية ، ومع ذلك فقد تولوا التدريس ، ورقوا الى عمادة الكلية ، بحكم توليهم بعض الوظائف الكبيرة من

قبل ، وبحكم الروتين والمحسوبية على أني لم أكن آسفا على مثل تلك الحالة ، ولا غيرها من الاحوال الوظيفية ، لاني أدركت خلال عملي في الوظيفة الحكومية مبلغ ما ينطوى عليه الوسط الوظيفى من الوضاعة والانحلال الاخلاقى والادبى ، والركود الفكرى وانعدام الضمير والشعور بالمسئولية ، وهو مايبدو اليوم ، وأنا أكتب هذه السطور بعد ثلاثين عاما من ترك الوظيفة الحكومية ، فى أشد صوره بالادارات الحكومية .

عودة الى شئون الوظيفة

قضيت أعوام الحرب العالمية السبعة قائما بعملى فى ادارة المطبوعات ، حتى انتهت الحرب بسحق المانيا النازية وايطاليا الفاشستية ، وفرضت شروط النصر على المانيا النازية ، ومزقت أشلاؤها ، وقامت هيئة الامم المتحدة لتشرف على شئون عالم ما بعد الحرب . وكنت خلال ذلك تساورنى فكرة الاستقالة من العمل الحكومى ، خشية ان يؤثر هذا المدى الطويل فى انتاجى الفكرى . على أننى من الناحية الاخرى كنت حريصا أشد الحرص على متابعة نشاطى الفكرى ، ومتابعة اخراج مؤلفاتى ، وذلك حسبما أذكره فيما بعد فى الفصل الخاص الذى أعقده لذلك الموضوع .

وفى سنة ١٩٤٨ ، حدث ما لم أكن أتوقعه من اقالتى من عملى بادارة المطبوعات لنزعة طارئة لوزير حقود جهول . وذلك انه حدث أن نشرت احدى الصحف الاسبوعية المغمورة مقالا ضد الاستاذ العقاد ينطوى على سب شديد مقذع . فاستدعانى رئيس الوزارة ووزير

الداخلية يومئذ النقراشي ، وطلب مني أن أبعث من ادارة المطبوعات ببلاغ الى النيابة العمومية للتحقيق فى هذا القذف مع كاتب المقال . ولما كان مثل هذا العمل ، ليس من شأن ادارة المطبوعات ، وليس من اختصاصها أن تتولى وكالة التبليغ الجنائى فى المسائل الشخصية البحتة، فقد اتصلت فى ذلك بوكيل الداخلية المرحوم حسن رفعت باشا ، وابلغته ما طلب الى الوزير ، وشرحت له وجهة نظرى فاقرها ، وطلب منى أن أقدم له مذكرة بذلك ، فقدمت اليه المذكرة المرغوبة ، ووافق عليها . ويجب أولا ان أذكر أنه كانت تربطنى بالنقراشي صداقة قديمة ، من وقت ان كان معلما بأسيوط ، وعرفنى به تلميذه المرحوم الدكتور عبد الرازق السنهورى . وكنا طول الوقت على مودة منتظمة ، ومن ثم فقد كنت أعتقد انه سوف يقتنع بوجهة نظرى ، وسلامة نيتى .

استدعانى النقراشي بعد يومين الى مكتبه ، وسألنى عما فعلت فى مسألة تبليغ النيابة ، فشرحت له وجهة نظرى باختصار ، وأفهمته أن هذا ما وافق عليه وكيل الداخلية ، فتجهم وجهه ، ولمعت نظرته ، وصاح بى « هو دا يا فندى مبلغ طاعتك لأوامرى » . اذهب الى مدير الأمن العام لكى تتلقى أوامره .

وعلمت بعد قليل من مدير الامن العام ، وقد كان يومئذ المرحوم عبد الرحمن عمار ان الوزير أمر بنقلى من ادارة المطبوعات الى مكتب وكيل الوزارة . وقال لى أن الوزير صديق للأستاذ العقاد . وهذا سر غضبه .

ويجب ان اذكر بهذه المناسبة ، أننى لم اكن اتعاطف مع العقاد ، ولم اكن اذهب فى تقدير أدبه الى المدى الذى

يذهب اليه كثير من الشباب الذين يلتفون حوله ، ويحضرون ندواته . والعقاد كاتب كبير بلا شك ، ومؤلف خصب وافر الانتاج . ولكن معظم كتبه التي بدأها بالفصول النقدية والعبقريات الخالية من كل مادة علمية حقيقية ، ثم اعقبها بسلسلة طويلة من الكتب المختلفة ، التي لم تكن على الأغلب سوى خلاصة لما يهضمه من قراءة بعض المؤلفات الاجنبية الحديثة ، ولم تكن تجذب اهتمامى ، وأسلوبه بالرغم من سلامته العربية ، أسلوب جاف ، بعيد عن الجزالة ، التى يمتاز بها أسلوب زميله وصديقه المازنى واشراقه . أضف الى ذلك ما كان يتسم به العقاد من التعالى والغطرسة والغرور الذى لا نهاية له . وهذا كله مما كان يبعدنى عن التعاطف معه .

على أن هذا الرأى الخاص بالنسبة للعقاد وأدبه ، لم يكن له أية علاقة بالتصرف القانونى السليم ، الذى اتخذته فى موضوع التبليغ الى النيابة للتحقيق مع الجريدة القاذفة ، ولكن النقراشي كان يرى ان رأيه هو القانون ، وأن رغباته يجب أن تنفذ مهما كانت مخالفته للنظام والقانون . وماذا عليه أن يسخر القانون وسلطات الدولة لتحقيق أهوائه . ومن ثم فقد عز عليه ان يقوم موظف مثلى من التابعين لرياسته وسلطاته بالوقوف ضد رغبة من رغباته .

واذكر بهذه المناسبة اننى ذهبت لمقابلة صديقى المرحوم الدكتور حافظ عفيفى باشا مدير بنك مصر ، ورئيس مجلس ادارته . وقصصت عليه ما فعله النقراشي معى ، فقال لى أن النقراشي رجل حقود (وقالها بالفرنسية Rancunier) طول حياته ، وأنا مستعد لأن آخذك

للعمل معي فى البنك ، وأعطيك ادارة من اداراته الثمانية تكون مديرا لها ، وهى ادارة السكرتارية ، فتأثرت لوفائه ونجدته ، ووعدت بدراسة اقتراحه . وقد فكرت طويلا فى هذا العرض الكريم ، وقد كان عرضا سخيا سواء بمكانته أو مرتبه . ولكني بعد التفكير ، خشيت أن يكون وجودى فى المنصب المصرفى ، وفى هذا الوسط الجديد من الأعمال البعيدة فى نوعها عما ألفته ، مما يشغلنى عن أعمالى وجهودى الأدبية ، وقد استطعت حتى الان ، أن أحافظ على مثابرتى فى معالجتها ، هذا فضلا عن أن هذه الوظيفة لم تكن لتتيح لى الاوقات الحرة التى تحتاجها رحلاتى الدراسية . ولست أعرف أن كنت قد اخطأت أو أصبت فى هذا التفكير . ولكن الذى حدث هو انى اعتذرت عن قبول هذا العمل ، وان كان يسعدنى دائما أن أتعاون مع هذا الصديق الشهم الوفى .

والخلاصة اننى لم ار بعد صلف النقراشى ، ووضيع تصرفه ، الا أن أترك وزارة الداخلية ، فذهبت لمقابلة صديقى المرحوم الدكتور عبد الرازق السنهورى ، وكان يومئذ وزيرا للمعارف ، وأبلغته بما حدث ، فعرض على أن أنتقل تحت رعايته فى وزارة المعارف ، فقبلت هذا العرض ، وتم نقلى الى المعارف بادارة الثقافة العامة ، رئيسا لقسم الترجمة ، وقد كنت حين وجودى بالداخلية مرشحا وحيدا للترقية الى الدرجة الثانية ، وكنت أظن أن النقل من وزارة الى أخرى لا يضيع حقى فى هذه الترقية . ولكن الدكتور السنهورى قال لى انه ليس بوسعه أن يحقق لى هذه الأمنية خشية « أن يثور ضده المعلمون » . فتركت الأمر وفى نيتى أن أترك خدمة الحكومة

متى توفرت لى مدة الخدمة التى تعطيني الحق في المعاش. بيد انه حدث بعد ذلك بنحو عام ونصف أن تولى صديقى المرحوم الدكتور طه حسين وزارة المعارف ، فى وزارة الوفد الأخيرة ، فعرضت عليه موضوعى ، فبادر باصدار القرار بترقيتى الى الدرجة الثانية ، التى كنت أستحقها منذ عامين ، وتعيينى مراقبا بادارة الثقافة العامة ، ولما عرضت عليه رغبتى فى تولى ادارة دار الكتب قال بالحرف الواحد « انها من نصيب فلان ، وهـذه رغبـة السراى بالأمر » . وانتهى تجوالى فى الوظائف عند هذا الحد ، فلبثت اترقب الفرصة لمغادرة هـذا الوسط الحكومى البغيض المتعفن .

وقد سنحت هذه الفرصة غير بعيد عقب الحدث الخطير الذى وقع فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . ففى العام التـالى صدر قانون يجيز للموظفين اعتزال الخدمة بشروط معينة مقرونة ببعض المزايا ، وحفظ حقهم فى قبـض مرتباتهم حتى بلوغ سن المعاش . ففى الحال قدمت طلبى باعتزال الخدمة ، وكان وزير التربية (المعارف) يومئذ صديقى المرحوم الاستاذ اسماعيل القبانى ، فبعث الى صـديق الطرفين المرحوم الاستاذ فريد أبو حديد يطلب منى التريث فى ترك الوظيفة ، انتظارا لترقية سريعة مؤكدة . فبعثت اليه بخالص شكرى واعتـذارى . وتم الأمر ، وغادرت الوظيفة ، مغتبطا سعيدا ، باسترداد حريتى ، والتفـرغ لبحوثى التاريخية (ديسمبر سنة ١٩٥٣) . وكانت فى الواقع خطوة حاسمة مباركة ، كان لها أكبر الأثر فى انتاجى التاريخى الذى كنت أخطط له منذ اعوام طويلة سابقة ، وكانت تعوقنى الوظيفة عن تنفيذه . وكان المفروض أن

معظم دراساتي وبحوثي سوف تجـرى معظم الوقت ، بعيدا عن مصر ، فى المكتبات والمخطوطات الخارجية . وكان هذا فى ذاته مزية كبيرة ، لأنى كنت أشعر شعورا عميقا ، بأن جو العهد الجـديد وظروفه بمصر ، لا تحمـل على الاطمئنان النفسى . وكنت بعد لحظة قصيرة من التفاؤل الذى غمر الشعب عنـد وقوع الانقـلاب ، انظـر الى الدكتاتورية العسكرية الجديدة ، واتجـاهاتها بتوجس وتشاؤم ، اثبتت الأيام فيما بعـد ، اننى كنت صـادق الحس ، بعيد النظر فى فهمه وفى تقديره .

هذا ، وسوف افرد فى مكان آخر ، فصولا خاصـة للتحدث عن هذا الموضوع ، وعن انطباعات هذا العهـد وخواصه ، اما الآن ، فانى سوف امضى فى استعراض جهودى العلمية والدراسية التى استطالت فى المكتبـات والمحفوظات الاسبانية ، والخزائن المغربية ، وعدد آخر من المكتبات والمحفوظات الأوربيـة ، زهاء عشرين عاما ، واسفرت بحمد الله وتوفيقه عن اخراج موسوعة التاريخ الأندلسى .

***

بيد انه يجدر بى قبل ذلك أن أشير هنا الى أمكنة اقامتى بمدينة القاهرة خلال هذا العهد الطويل ، الذى اسطر حوادثه .

كانت عائلتى المتواضعة خلال ايام دراستى تتنقل فى السكنى فى احياء القاهرة الشـعبية التى يسـهل منهـا الوصول الى مدرستى . وكنت أثناء دراسة الحقوق ، اقيم بمفردى فى شقة أرضية متواضعة بالحارة التى توصل

بين شارع الخليج المصرى (بور سعيد الآن) وشارع جامع عابدين . ومنذ عدت من الاقاليم خلال حياتى العملية بالقاهرة ، تنقلت فى السكنى بين حى السيدة زينب وبركة الفيل . ثم سكنت عقب زواجى سنة ١٩٣٠ فى منزل خاص يقع قرب وزارة المالية خلف مدرسة الخديو اسماعيل ، وبه ولد ولدى الأكبر الدكتور محمود ، وانتقلت منه الى شبرا تبعا لنصح الطبيب ، ورعاية لصحة ولدى ، فى حى طلق الهواء . وكانت شبرا يومئذ ما زالت ، فى اواخر أحيائها ، خالية فسيحة الارجاء . فسكنت هنالك فى فيللا جميلة ، ذات حديقة . ولما اشتد ولدى قليلا ، عدت الى المدينة ، وانتقلت الى الحلمية الجديدة فى منزل عائلى كبير من منازل الباشوات القدامى ، يقع فى شارع الهامى ، وكانت جل منازله يومئذ من الفيلات الخاصة ، وتسكنه طائفة من العائلات المحترمة ، ومنها منزل المرحوم محمد نسيم باشا ، وقد حول فيما بعد الى مدرسة .
واستطالت اقامتى فى هذا المنزل نحو عشرين عاما ، وكبر به أولادى الثلاثة . وتخرج فيه ولدى محمود من كلية طب قصر العينى ، وتخرجت ابنتى سعاد من كلية الآداب بجامعة القاهرة . وعندئذ ، وحينما تحولت معظم منازل الشارع الى عمارات سكنية حاشدة ، رأيت أن انتقل الى منزل آخر أكثر جدة وهدوءا ، وفى حى أرستقراطى . واستقر الرأى العائلى ، على أن يكون ذلك فى ضاحية المعادى ، وكان ذلك فى سنة ١٩٥٨ . وكانت هذه الضاحية ما تزال يومئذ علىّ رونقها وفخامتها التى أسبغتها عليها خططها الارستقراطية ، وسكانها الأجانب ، وكانوا يومئذ كثرة بها . ولم يكن قد أصابها الاهمال التدريجى ، والغزو

الشعبى المبتذل . فنزلت بها فى دور كبير فخم ، هو الدور الاول من فيلا جميلة ، تقع فى شارع ٩ ، وبه غرفة كبرى تتسع لمكتبتى الكبيرة ، وبهذاالمنزل تخرج ولدى حسين من كلية الحقــوق . وما زلت أقيم مغتبطا بهذا المنزل الجميل الساحر ، حتى كتابة هذه السطور ، وذلك بالرغم من انى املك فى المعادى نفسها فيلا فخمة ، يسكن بها ولدى حسين وعائلته ، ويتولى شئونها ، وبالرغم مما طرأ على المعادى من تغير كبير فى مستوى سكانها ، وما أصابها من الغزو الشعبى المؤذى ، وما تقاسيه من أهوال المواصلات التى لا تليق بأى مجتمع متمدن . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الدراسات الاسبانية والمغربية

انى اعتقد ان هــذه الفترة الطــويلة ، من دراســاتى التاريخية ، أو بعبارة أخرى دراساتى الاندلسية ، والتى كان مسرحها بالاخص فى اسبانيا والمغرب ، هى المع ما فى حياتى العلمية . وقد بدات هذه الفترة بصدور الطبعة الاولى من كتابى . دولة الاسلام فى الاندلس ، فى سنة ١٩٤٣ . وقد كانت محاولة متواضــعة ، ولم اكن حين صدورها قد وفقت الى دراسة اية من المصادر الاندلسية المخطوطة ، التى ظفرت بالكثير منها فيما بعد ، وقد بدات زياراتى لشبه الجزيرة الاسبانية فى سنة ١٩٥٠ ، بعد أن استقرت الاحوال ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانيــة فدرست اللغة الاسبانية ، وقد بدأت بتعلمهــا بالمــركز الثقافى الاســبانى بالقــاهرة على يد معلمنــا السنيور سواريس ، وكنا فصلا صغيرا بحدود العدد . وحصلت فى

دراستي على بعض الشيء . ولكنني مدين بدراستي الحقيقية ، وتقدمي في تعلم الاسبانية الى أستاذتي السيدة دونيا كارمن دى كامبوس ، حيث درست معها مدى فترات طويلة متوالية خلال اقاماتي بمدريد ، وهي سيدة أندليسية الاصل ذات ثقافة عالية ، وقد درست الادب الفرنسي في باريس ، وقد كانت موظفة بمعهدنا المصري بمدريد ، ثم أقيلت منه لبعض الوشايات . فالى هذه السيدة يرجع الفضل في تقدمي الحقيقي في اللغة الثقافية الاسبانية واجادتها دراسة وحديثا ، دون عيب في النطق ، حتى انتهيت الى القاء العديد من محاضراتي التاريخية بمعهدنا بمدريد باللغة الاسبانية . وكان يشجعني على ذلك حسبما أشرت اليه في موضعه ، صديقي الدكتور حسين مؤنس أيام رياسته لهذا المعهد الجليل وقمت من سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٤ بأربع عشرة رحلة دراسية الى اسبانيا ، وقمت بعشر رحلات الى اقليم الاندلس زرت فيها الحواضر الاندلسية الشهيرة ، قرطبة ، وجيان ، وأشبيلية ، وغرناطة ، ومالقة ، ورندة ، والمرية مرارا وتكرارا ، وهذا عدا ما قمت به من زيارة سائر قواعد اسبانيا المسلمة القديمة في شمال الاندلس ، وفي شرقها ، ووسطها ، وغربها ، ففي الشمال ، في الثغر الاعلى ، برشلونة وسرقسطة ، ولاردة ، ووشقة ، وتطيلة ، وطرطوشة ، وطركونة . وفي الشرق ، بلنسية ، ودانية ، وشاطبة ، ولقنت ، ولوريولة ، ومرسية ، وقرطاجنة ، ولورقة ، وفي الوسط ، مدينة سالم ، ووادي الحجارة ، وآبلة ، وطليطلة ، وشلمنقة ، وفي الغرب ، بطليموس ، وقلمرية ، ومباردة ، وشنترين ، وأشبونة ، ولبلة ، وولبة ، وغيرها،

وغيرها . وما قمت به من زيارة سائر قواعد اسبانيا النصرانية التى لها علاقة بتاريخ اسبانيا المسلمة ، من حواضر قشتالة القديمة ، وقشتالة الجديدة ، وجليقية ، وليون ، وأراجون ، ونبرة . وقد استغرق هذا الطواف المستمر بأنحاء شبه الجزيرة الاسبانية زهاء أربعة أعوام من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٤ . وكانت ثمرة هذا المجهود الكشفى الشامل ، اخراج كتابى « الآثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » .

والى جانب ذلك ، فقد قمت بدراسات طبوغرافية وتاريخية لعدد من ميادين المعارك والوقائع الحربية الاخرى التى اضطرمت بين الاندلس المسلمة واسبانيا النصرانية ، ولا سيما معركة الفتح الاولى بجبهة شريش ، ومعركة الصخرة ، او كسوفادونجا ، التى صمدت فيها فلول القوط أمام المسلمين ، وكان فيها مولد المملكة الاسبانية النصرانية ، ومعركة الزلاقة بجبهة بطليوس ، ومعركة الأرك بجبهة سانتا ماريا دى الاركوس على مقربة من ثيوداد ريال ، ومعركة العقاب الكبرى فى وديان سييرا مورينا ، وفى قرية سانتا ايلينا ، على مقربة من ابدة . كما زرت عددا كبيرا من أطلال الحصون الاسلامية القديمة . وقد كان لهذا التجوال الشامل فى شبه الجزيرة الاسبانية ، ولهذه الدراسات التاريخية والجغرافية العميقة للمواقع والأطلال والآثار ، أكبر الأثر فى تكييف دراساتى التاريخية ، وفى القاء الضوء على كثير من نواحيها الغامضة .

واود أن أسجل باديء ذى بدء ، انى قمت بهذه الرحلات الدراسية كلها ، وغيرها ، الى المغرب ، وايطاليا

وانجلترا ، والتى كلفتنى مبالغ طائلة ، خلال عشرين عاما، قمت بها على نفقتى الخاصة . ولم التمس بل ولم أكن لاقبل أية معاونة مادية من أية جهة حكومية أو أية هيئة علمية ، ضنا بحريتى فى البحث والتفكير ، وحرية قلمى ، التى كنت أضعها دائما طول حياتى ، موضع التقديس ، واستطعت بحمد الله أن أحتفظ بهـا دائما ، وفى كل الظروف .

***

هذا ، وقد كان مجال الدراسات الاندليسية فى اسبانيا غزيرا واسع المدى ، ففى مدريد ، توجد المكتبة الوطنية الكبرى ، وهى بمحتوياتها المخطوطة والمطبوعة ، تعتبر من أعظم دور الكتب فى أوربا . والى جانبها دار المحفوظات التاريخية ، وهى تحتوى على وثائق أندلسية عديدة عربية ومدجنية ، ثم هنالك مكتبة أكاديمية التـاريخ ، وبهـا مجموعتان من المخطوطات العربية النفيسة ، هما مجموعة جاينجوس ، ومجموعة كوديرا ، هـذا الى مجموعة من مخطوطات الالخميادو الموريسكية .

وعلى مقربة من مدريد توجد بقصر الاسكوريال الملكى El Escorial مكتبة الاسكوريال الشهيرة ، وهى المكتبة الملكية السـابقة ، وهى تضم الى جانب ما تضـمه من المجموعات النفيسة ، المخطوطة والمطبـوعة ، مجمـوعة المخطوطات الاندلسية والمغربية الشهيرة ، وعددها نحو الفى مخطوط ، ومن بينها عدد كبير من بقايا مخطوطات المكتبة الزيدانية المغربية الشهيرة (مكتبة السلطان مولاى زيدان) التى استولى عليها الاسبان قسرا فى عرض البحر ، فى المياه المغربية ، فى سنة ١٦١٢ م ، وضمت الى مكتبة

الاسكوريال الملكية ، وكانت مجموعة المخطوطات الأندلسية والمغربية بالاسكوريال ، تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط . ولكن شبت النار في الاسكوريال في سنة ١٦٧١ ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم يبق منه سوى الألفي مخطوط التي سبق ذكرها ، وقد وضع العلامة ميخائيل الغزيري اللبناني المعروف في الغرب باسم ، فهرسا علميا جامعا لهذه المجموعة باللغة اللاتينية ، صدر في مجلدين كبيرين (سنة ١٧٦٠ ــ ١٧٧٠) . ثم قام المستشرق الفرنسي هارتفج ديرنبور في أواخر القرن الماضي بوضع فهرس جديد بالفرنسية للمجموعة الأندلسية المغربية وتوفي قبل اتمامه ، فاتمه بعض تلاميذه من مذكراته ، وهو الذي يرجع اليه معظم الباحثين .

ويوجد بين مجموعة الاسكوريال العربية ، عدد كبير من المصادر التاريخية والأدبية التي تلقى أضواء كثيرة على التاريخ الأندلسي . وقد انفقنا خلال الاعوام المتوالية ، منذ سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٠ ، زهاء عشرين عاما ، أوقاتا عديدة في الاشتغال بهذه المكتبة التالدة ، وزرناها عشرات المرات ، وحصلنا على الكثير من صور مخطوطاتها النفيسة ، وما زلنا حتى اليوم نتردد عليها كلما سنحت لنا الظروف بزيارة مدريد .

ومكتبة الاسكوريال ، وهي حسبما أشرنا ، المكتبة الملكية السابقة ، يقوم بادارتها الآباء الاوغسطنيون ، ومديروها من هؤلاء الآباء الافاضل ، وقد كانت تربطني بهم دائما روابط مودة صادقة ، ولا أذكر أنهم أهملوا قط في تحقيق أية رغبة من رغباتي خلال الاوقات العديدة ، التي كنت اشتغل فيها تحت رعايتهم وجميل مفادتهم .

وأما عن دور المحفـــوظات والوثائق ، فهنـــالك أولا دار المحفوظات الاسبانية العامة Archivo general de Simancas في سيمانقا وهى من أعظم دور المحفوظات فى العالم ؛ وهى تقع فى سيمانقا · SimaNcas على مقربة من مدينة بلد الوليد Valla Dolid فى قلب قشتالة القديمة ، على بعـــد أربع ساعات بالقطـــار من مدريد ، وتضمها قلعة اسلامية قـــديمة ضـــخمة ، قد جددت ونظمت ، وبها أبهاء عديدة تغص بالمحفــوظات والوثائق الثمينة ، ومن بين أبهائها ، أكثر من بهو يضم مجموعات كبيرة من الوثائق العـــربية ، الأندلسية والمغربية ، وبها عدة أبهاء تضم وثائق ديوان التحقيق Inquisicion

وقد زرناها واشتغلنا بها مرارا ، وصورنا هذه المكتبة الملكية السابقة . ويعتبر الاسكوريال من أضخم وأفخم الصروح الملوكية ، أنشأه فيليب الثانى ملك اسبانيا تخليدا لذكرى انتصاره على الفرنسيين فى موقعـــة سان كانتان (سنة ١٥٥٧ م) ، وتنويها بذكر القديس لورنزو الذى استمد فيليب الثانى عونه فى تلك الموقعـــة . واستغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما . وهو يضم قصرا ملكيا وكنيسة وديرا ، ومكتبة ، ومعهدا دينيا ، ومدفنا ملوكيا . وتغص أبهاء الجناح الملكى بالصور والبســـط الفـــاخر والتحف النـــادرة . على أن الذى يهم البـــاحث المتطلع من قصر الاسكوريال هو جناحه الأيمن . ففى هـــذا الجناح تقع المكتبة الملكية الشهيرة ، والى جانبها تقع الكلية الدينيـــة التى يديرها الآباء الاوغسطينيون ، وهم الذين يشرفون

على المكتبة . وتضم المكتبة (١) . بهوا شاسعا فخما بنى سقفه بالحنايا المعقودة ، وتعرض فيه اليوم ، طائفة من المخطوطات النادرة التى تحتويها المكتبة . ومنها مصحف اندلسى ملوكى من القرآن الكريم ، كان ملكا للسلطان أحمد المنصور ملك المغرب ، زينت صفحاته بنقوش ذهبية رائعة، ومنها مخطوط عربى مصور عنوانه : « السلوانات فى مسامرة الخلفاء والسادات » ، ويحتوى على طائفة مصورة من قصص الخلفاء ، وهو من تأليف محمد بن ظفر الصقلى . ومخطوط آخر مصور أيضا من كتاب « منافع الحيوان » من تأليف ابن الدريهم الموصلى . ونسخة خطية قشتالية من كتاب الفونسو العالم فى الفلك ، وهو الكتاب الذى عاون فى تأليفه بعض علماء الأندلس .

ومكتبة الاسكوريال ليست غنية من الناحية الرقمية فهى تضم نحو ستين الف مجلد فقط . منها خمسون الف مجلد مطبوعة . ولكنها غنية بالأخص بما تحتويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية نحو الفى مخطوط .

ولهذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية قصة مشجية ، خلاصتها أن الكتب العربية بدأت تودع فى المكتبة الملكية بقصر الاسكوريال منذ انشائها ، وكان معظمها من المخطوطات الاندلسية التى جمعت من قواعد الاندلس المفتوحة . وكانت يومئذ تبلغ عدة آلاف . ثم

---

(١) واسم هذه المكتبةالرسمى هو : « المكتبة الملكية لدير القديس لورنزو بالاسكندرية »

Real Biblioteca del Monasterio de San Lorenzo de El Escorial

وقع بعد ذلك حادث ترتبت عليـــــه أن ضوعف عدد المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال . هو استيلاء الاسطول الاسبانى على المكتبة الزيدانية المغربية فى عرض البحر ، وهى مكتبة السلطان مولاى زيدان ابن السلطان احمد المنصور . وكان مولاى زيدان قد اضطر تحت ضغط الفتن واشتداد ساعد خصومه ، أن يغـــــادر عاصـــــمته مراكش ، وان يحمل معه امواله وذخائره ومكتبته الثمينة ، وكانت تحتوى على نحو ثلاثة أو أربعة آلاف من نفائس الكتب المغربية والاندلسية والمشرقية ، فى عدد من السفن استأجرها لـكى تحمله مع ذخائره شمالا فى اتجـــــاه ثغر أغادير ، وقد فاجأها الاسطول الاسبانى فى عرض البحر ، واستولى عليها . وكان ذلك فى سنة ١٠٢١ هـ - ١٦١٢ م . وحملت هـذه المـكتبة الثمينة غنيمة لتودع فى المكتبة الملكية بقصر الاسكوريال، وارتفع بذلك عدد المخطوطات العربية فى المكتبة الملكية الى نحو عشرة آلاف مخطـــوط . وكانت أعظم وأثمن مجموعة من نوعها ، ولا سيما لما كانت تحتويه المكتبة الزيدانية من نوادر الكتب التى جمعها صاحبها السلطان الاديب العـــالم مولاى زيدان ، وكان من عشاق نفائس الـكتب .

واستمرت هذه المجموعة النفيسة الضخمة من الكتب العربية بقصر الاسكوريال ، حتى وقع به الحريق الكبير فى سنة ١٦٧١ . وامتد هذا الحريق المدمر الى المكتبة فأتى على معظم الكتب العربية ، ولم يبق من هذه المجموعة العظيمة سوى نحو ألفى مخطوط هى التى ما زالت تثوى الى اليوم بدير الاسكوريال .

وما زالت هذه المجموعة العربية بالرغم مما نزل بها من النكبة الفادحة ، تجذب أنظار الباحثين فى المشرق والمغرب ، وما زالت تضم عددا كبيرا من الكتب النفيسة النادرة ، ومنها نحو مائة مخطوط من محتويات المكتبة الزيدانية السابقة .

وكانت الحكومة الاسبانية أثناء هذه العصور تحرص كل الحرص على اخفاء هذه المجموعة العربية ، عن نظر كل باحث ومتطلع ، كأنمـــا كانت تخشى أن تبث روح التفكير الاسلامى فى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذه الروح كل جهد ووسيلة ، وكان الكتاب الاسبان انفسهم تحملهم نزعة الدين والجنس ، يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادر النفيسة التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة ، وعلى حضارتها وثقافتها . ولا يرجعون فى هذا القسم من تاريخ بلادهم الى المصادر النصرانية وحدها ، ومن ثم كانت كتبهم فى هذه العصور تفيض بالتحـــامل والتعصب . ولم تفق الاسبانية من جمودها ، ولم تفكر فى تنظيم تراث الاندلس والتعريف به قبل أواسط القرن الثامن عشر . فعندئذ رات أخيرا أن تقوم باحصاء المجموعة العربية والتعريف بواسطة فهرس علمى جامع يوضع لها . ووقع اختيارها للقيام بهذه المهمة على عالم يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، وهو الحبر المارونى الســـورى ميخائيل الغزيرى ، الذى يعـــرف فى البحوث الغربية باسم فاســـتدعته الى مدريد فى ١٧٩٩ ، وعينته مديرا لمكتبة الاسكوريال ، وعهدت اليه منذ البداية بالمهمة الرئيسية التى دعته الى القيام بها ، وهى دراسة المجموعة

العربية بالاسكوريال والتعريف بها . وكان الغزيرى رجل المهمة ، فقد درس العلوم الدينية واللغات الشرقية واللغة اللاتينية واللاهوت والفلسفة بالشرق ورمة ، وقضى زهاء عشرة أعوام فى دراسة المجموعة العربية بالاسكوريال ؛ واتبع فى وضع فهرسه قاعـدة التركيز والتحليلات ، وجرى على أسلوب الاقتباسات الموجزة والمطولة فى ابراز قيمة المخطوطات ذات الاهمية الخاصة ، وترجمة هـذه الاقتباسات الى اللاتينية . وفى سنة ١٧٦٠ ، اصـدر الجزء الاول من فهرسه اللاتينى الشهير بعنوان : المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال - Bibliotheca Arabico Hispana Escurialensis مجتويا على ابواب النحو والبلاغة والشعر والكتب اللغوية والمعاجم والفلسفة والاخلاق والسياسة والطب والتاريخ الطبيعي والرياضيات ثم اللاهوت فالعقـائد ثم الكتب النصرانية ، ومنتهيا بالرقم ١٦٢٨ .

ومضت بعد ذلك عشرة اعوام اخرى قبل أن يستطيع الغزيرى اصدار المجلد الثانى من فهرسته وقد صـدر فى سنة ١٧٧٠ باللاتينية أيضا وبنفس العنوان « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » . وهو يفتتحه بقسم الجغرافية مبتدئا بالرقم ١٦٢٨ . ثم يليه قسم التاريخ . وبعد قسم التاريخ ، يستعرض الغزيرى طائفة منوعة من المخطوطات المختلفة المواضيع والصفات مما لم يدخل من قبل فى الاقسام التى سبق ذكرها ، ويصل بتعداد هذه المخطوطات الى الرقم ١٨٥١ . ثم يلى ذلك كشاف عام بالاعلام والكتب يستغرق نحو النصف الاخير من المجلد الثانى .

وقد كان صدور فهرس « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » فتحا جديدا فى ميدان البحوث الاندلسية ، اتجهت اليه أنظار الباحثين ، وألفوا فيما يعرضه من المراجع والوثائق كنوزا من الحقائق والمعلومات التى لم يسبق أن ظفروا بها عن تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها وعلومها وفنونها . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر لا يعرف من تاريخ اسبانيا المسلمة سوى ما تعرفه الروايات النصرانية من شذور مغرضة . وكانت مئات الحقائق ، تغمرها حجب التعصب والتحامل والكذب . فجاءت وثائق الاسكوريال تبدد هذه الحجب ، وتقدم الادلة القاطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الاندلسية ، وظهرت كتب عديدة جديدة فى هذا الموضوع تستقى كثيرا من مادتها من المراجع المخطوطة التى كشف عنها فهرس الغزيرى ، وفى مقدمتها مؤلفات اندرين وماسدى وكوندى ودوزى وغيرهم .

ولبث معجم الغزيرى أكثر من قرن مرجعا فريدا للمجموعة العربية الاسبانية فى الاسكوريال ، حتى قام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور بتكليف من وزارة المعارف الفرنسية بدراسة جديدة لمحتويات هذه المجموعة فأنفق فى هذه المهمة أعواما وأخرج أول جزء من معجمه « Les Manuscrits Arabes de l'Escurial » (المخطوطات العربية بالاسكوريال) . وبالرغم من انه يبدى فى مقدمته ريبة فى قيمة الجهود التى بذلها سلفه ، والى تبيان طائفة من أخطائه ، فانه لم ير مع ذلك بدا من اتباع طريقته فى التنظيم والتبويب والترقيم مع تغيير

يسير . وقد عثر ديرنبور فى زوايا الاسكوريال على نحو مائة مخطوط عربى أخرى لم يذكرها الفزيرى . كما أنه لم يعثر على بعض مخطوطات ذكرها . وقد اختفى فى الواقع كثير من آثار هذه المجموعة خلال الاحقاب المتوالية، وانتهى ديرنبور فى تعداده الى الرقم ١٩٥٥ والفزيرى يقف حسبما قدمنا الى الرقم ١٨٥١ التى تعادل ١٨٥٦ من ترقيم ديرنبور . فهو يزيد على الفزيرى بأكثر من مائة اثر جديد عثر بهـــا . واستطاع ديرنبور أن ينجز فى فهرسه اقسام اللغة والبلاغة والشعر والادب والاخلاق والسياسة ثم توفى سنة ١٩٨٥ . وقــام باتمام مهمته الاســـتاذان ليفى بروفنسال ورينو ، وذلك من واقـــع المذكرات التى تركها ديرنبور . وبذلك أصبح للمجموعة العربية الاسبانية فى الاسكوريال فهرسان كاملان ، يرجع اليهما فى دراسة محتـــويات هذه المجموعة النفيسة النادرة :

***

ويوجد بين مجموعة الاسكوريال العربية ، عدد كبير من المصادر التاريخية والادبية التى تلقى أضواء كثيرة على التاريخ الاندلسي ، وقد أنفقنا خلال الاعوام المتوالية ، منــذ سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٠ ، زهاء عشرين عاما أوقاتا عديدة فى الاشتغال بهذه المكتبة التالدة ، وزرنا عشرات المرات ، وحصلنا على الكثير من صور مخطوطاتها النفيسة . وما زلنا حتى اليوم نتردد عليها كلما سنحت لنا الظروف بزيارة مدريد .

وقد كانت تربطنى خـــلال عملى بمكتبة الاسكوريال

روابط مودة وثيقة بمديريها المختلفين من الآباء الاوغسطينيين . وكانت تربطني هذه المودة بنوع خاص في أعوامي الأوائل بمديرها المغفور له الاب مسيو موراتا الاستاذ بالمعهد الديني ، والمستشرق البارع والاخصائي في فلسفة ابن رشد . ولا أذكر أنه قصر أية مرة في تحقيق أية رغبة من رغباتي . وكان رغم شيخوخته وضعفه يحمل الي بنفسه أحيانا المخطوطات التي أطلبها .

***

وأما عن دور المحفوظات والوثائق ، فهناك أولا دار المحفوظات الاسبانية العامة **Archivo general de Simancas** في سيمانقا **Simancas** أو بالعربية شنت منكش ، وهي بلدة اسبانية صغيرة ، تقع على مقربة من جنوب غربي مدينة بلد الوليد **Valladolid** في قلب قشتالة القديمة ، على بعد اربع ساعات بالقطار من مدريد . والي جانبها قلعة اسلامية قديمة ضخمة ترجع الى القرن التاسع الميلادي . وقد تقرر اتخاذ هذه القلعة منذ عهد الامبراطور شارلكان سنة ١٥١٧ دارا للمحفوظات الاسبانية العامة ، ولكن هذا القرار لم ينفذ الا في سنة ١٥٦٣ في عهد ولده الملك فيليب الثاني ، وذلك بعد أن أدخلت على القلعة التعديلات الهندسية اللازمة على يد أعظم مهندسي ذلك العصر . وهي تحتوي على ستة وأربعين بهوا وغرفة كبيرة ، تغص بالمحفوظات والوثائق الثمينة ما بين محفوظات رسمية ، ومحفوظات خاصة . ومن بين أبهائها ، أكثر من بهو يضم مجموعات كبيرة من الوثائق العربية والاندلسية والمغربية . وبها كذلك عدة أبهاء تضم وثائق ديوان التحقيق ومحاكم التحقيق الشهيرة

Inquisicion . وبها جناح لسكنى الاساتذة الباحثين Casa de los profesores كان وقت ترددى عليها منذ عشرين عاما يدفع فيه أجر زهيد للاقامة والطعام ، وهو ستون بيسيتا فى اليوم ، وهو أجر لا يكاد يصدق اليوم . وقد زرناها واشتغلنا بها مرارا ، وحصلنا على صور الكثير من وثائقها الاندلسية والمغربية والقشتالية القديمة . ومنها عدد منشور بكتابنا « نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين » .

وثانيا ، توجد بمدينة برشلونة مجموعة وثائق التاج الارجونى ، Archivo de la Corona de Aragon وهى تختص بحفظ وثائق مملكة أراجون الملكية ، من اندلسية وغيرها . وبها مجموعة كبيرة من الوثائق المصرية المملوكية ، التى كان يرسلها سلاطين مصر الى ملوك أراجون . وقد حصلنا على صور الكثير من وثائقها .

وثالثا ، توجد فى اشبيلية وغرناطة وبلنسية ، مجموعات هامة من الوثائق الاندلسية والقشتالية ، التى تلقى ضوءا على تاريخ الأندلس ، وتوجد بالمجموعة الغرناطية بالاخص وثائق عديدة ، عن سقوط غرناطة ، وعن دخول الملكين الكاثوليكيين اليها .

***

فى هذا الميدان الفياض بتراث المراجع والوثائق الاندلسية ، العربية والقشتالية ، عملت أعواما طويلة ، بحماسة وهمة ومثابرة ، لم يشبها أى ضعف أو تخاذل، ولم أترك منها جهة أو مصدرا الا عكفت على دراسته ، واستخراج نفائسه ، وكنت فضلا عن العمل فى هذه النواحى الرئيسية ، اطرق بعض الجهات الثانوية الاخرى

كالاديار والكنائس والبلديات . فقد استطعت ان احصل على صورة وثيقة مدجنية هامة من بلدية بنبلونة ، وعلى صور من وثائق مدجنية عديدة من كاتدرائية سرقسطة ، ومن دير سانت كلمنتى بطليطلة ، وغيرها . وكان اتقانى يومئذ للغة الاسبانية ، التى بدأت دراستها ، قبل ذلك بأعوام طويلة ، تمدنى بتسهيلات كثيرة فى أسفارى وتنقلاتى واتصالاتى وبحوثى ، أينما ذهبت ، واينما تجولت فى أنحاء شبه الجزيرة الاسبانية .

ولن انسى أن أسجل هنا ما لقيته خلال دراساتى الطويلة فى اسبانيا ، من معاونة معهدنا المصرى بمدريد « معهد الدراسات الاسلامية » . فقد اسدى الى كثيرا من المعاونات لدى مختلف الهيئات العلمية ، وقد كنت أجد فى مكتبته الغنية عديد المصادر النفيسة العربية والاجنبية . وقد لقيت بالاخص من صديقى وزميلى فى البحوث الاندلسية ، الدكتور حسين مؤنس ، الذى شغل منصب المدير لهذا المعهد الجليل أعواما طويلة ، والذى عمل بجهوده المتوالية على اغناء مكتبة المعهد وتزويدها بأهم المصادر الاندلسية العربية والاجنبية ، لقيت منه كل مودة وعون ومجاملة ، وقد كان يدعونى بصفة منتظمة لالقاء محاضراتى بالمعهد ، وهو الذى شجعنى على القائها باللغة الاسبانية ، بعد أن كنت ألقيها بالانجليزية والفرنسية .

وقد بدأت ثمار هذه الدراسات والبحوث ، تبدو فى كتبى الاندلسية ، منذ سنة ١٩٥٥ ، حيث ظهرت الطبعة الثانية من « دولة الاسلام فى الاندلس » ، ثم طبعته الثالثة فى سنة ١٩٦٠ ، ثم الرابعة فى سنة ١٩٦٩ ، وكل طبعة منها تضم وثائق واضافات جديدة ، مستخرجة من

مختلف المـراجع والوثائق المخـطوطة ، الاندلسية أو المغربية . وقد كان أهم ما تضمنته هذه الطبعة الرابعة طائفة من الوثائق التاريخية الهـامة ، استخرجت من قطعة كبيرة من كتاب المقتبس لابن حيان عمدة مؤرخي الاندلس . وقد وحد هذا المخـطوط ، وهو الوحيد فى العالم ، ضمن محتويات الخزانة الملكية ، وكانت ما تزال يومئذ حبيسة فى أماكنها بمدينة فاس . وقد سعيت الى الاطلاع على هذا المخطوط ، فسمحت لى سلطات الديوان الملكى بذلك ، وأحضرت الى المخـطوط من فاس لأطلع عليه بأحد مكاتب الديوان ، وكان ذلك فى سنة ١٩٦٥ ، وكنت أول من حظى باستعراض هذه القطعة النفيسـة من مؤلف ابن حيان ، وهى قطعة ضخمة تقع فى مائة وثمانين ورقة كبيرة . وكانت يومئذ قبل ترميمها فى حالة مؤسفة من التمزق والتلف . وقد وصفت فى نهايتها بأنها السفر الخامس من « المقتبس » . وتتضمن الحديث عن حوادث الثلاثين سنة الاولى من حكم عبد الرحمن الناصر ، وتورد لنا معلومات شيقة عن أحوال البلاط والوزراء والعمال فى تلك الفترة ، وبها طائفة من الوثائق السياسية والسلطانية الهامة ، مثل كتاب الناصر عن موقعة الخندق ، وصورة الامان الذى أصدره لمحمد بن هاشم أمير سرقسطة ، والامان الذى أصـدره للثـائر عمر بن حفصون عقب الصلح معه ، وصورة المرسـوم الذى أصدره عن اتخـاذه لقب الخـلافة ، وغيرها من الوثائق الهامة . وقد نقلتها جميعا مع شذور وحوادث هامة أخرى ، وكانت القطع الممزقة تتساقط مع المخطوط بين يدى . وقد لبثت مدى أسبوعين كاملين لنسـخ نفائس ما يقع لى ، وأدرجت هذه الوثائق النفيسة كلها

فى الطبعة الرابعـة من « دولة الاسـلام فى الاندلس » الصادرة فى سنة ١٩٦٩ . وقد نشر هذا الجزء الضخم من تاريخ ابن حيان أخيرا بمعرفة المعهد الاسبانى العربى بمدريد ، وذلك فى سنة ١٩٧٩ . وقد انتفعت قبل ذلك بدراسة بعض قطع مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان وعثرت بما فى خزانة القرويين الكبرى تتضمن شذورا هامة من السفرين الثاني والثالث ، وكانت فى حالة يرثى لها من التلف . وقد نشرت هذه القطع فيما بعد بمعرفة صديقى الدكتور محمود على مكى .

وجدث شىء من ذلك فى كتاب « دول الطوائف » فى طبعته الاولى سنة ١٩٦٠ ، ثم فى طبعته الثانية سنة ١٩٦٩ ، وهو العصر الثـانى من « دولة الاسـلام فى الاندلس » . ثم فى كتـابى الـكبير « عصر المـرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس (سنة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥) وهو العصر الثالث من دولة الاسلام فى الاندلس ، وقد امتاز هذا الكتاب بالأخص بدراسة طبوغرافية عميقـة لموقعة من أهم المواقع التى وردت به ، وهى موقعة العقاب الحاسمة التى اضطرمت بين الجيوش الموحدية والجيوش النصرانية فى سنة ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٢ م ، وهزم فيها الموحـدون هزيمة ساحقـة ، وذلك فى وديان سييرا مورتيا بجوار قرية سانتا ايلينا الواقعة على مقربة من ابره . وقد انفقت فى هذه الدراسة أربعة أيام كاملة فى المواقع التى اضطرمت فيها هذه الموقعة الخطيرة بمعاونة زميلى السنيور سالباتور الدليل العارف بدقائق هـذه الناحية ، وصعدت الى قمة اطلال حصن سلبطرة ، الذى كان فاتحة الموقعة وصعدت الى أعلى جبال سييرا مورتيا حيث كانت تعسكر الجيوش النصرانية ، وتجولت فى

الوادى المجاور حيث كانت تعسكر الجيوش الموحدية ، وحضرت بيدى فى هذا المكان بحثا عن أسهم الخيل ، فعثرت بأربعة منها أبرزت صورتها فى كتابى وقد لبثت خلال هذه الرحلة الدراسة بضعة اشهر فى مدريد ، كتبت فيها جزءا كبيرا من كتاب الموحدين . وكان ذلك فى سنة ١٩٦٣ .

وأخيرا حدث نفس الشيء فى كتاب « نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين » فى طبعته الثانية (١٩٥٦) ثم الثالثة (١٩٦٦) وهو العصر الرابع والاخير من « دولة الاسلام فى الاندلس » . وقد تضمنت هذه الطبعة صور عدد من الوثائق التاريخية الجديدة ، معظمها مستخرج من دار المحفوظات الاسبانية العامة فى « سيمانقا » ، ومنها آخر صفحة من معاهدة تسليم غرناطة وقد ظهرت بها توقيعات الملكين الكاثوليكيين وسكرتيرهما فرناندو دى ثغرا . وان المتتبع لمراحل هذه الموسوعة فى التاريخ الاندلسي ، ومختلف وثائقها واضافاتها المزيدة ، يدرك مدى الجهود المتوالية الشاقة ، التى بذلت فى تزويدها بهذه الكنوز الجديدة من الحقائق التاريخيـة ، تؤيدها المراجع والوثائق المخطوطة ، التى لبثت عصورا دفينة فى مراقدها المحفوظة ، وهى اليوم تنشر أضواءها النفيسة على جهود البحث الدائب الصابر الحثيث .

واود أن أشير بهذه المناسبة ، الى بعض العلمـاء والمستشرقين الاسبان الذين كان لى حظ الاتصال بهم ، وتبادل الافكار معهم ، وأبدأ بذكر العلامة الكبير الاستاذ رامون منديث بيدال R. M. Pidal (١٩٦٨ – ١٩٦٩) أعظم مؤرخي اسبانيا فى القرن العشرين ، ورئيس الاكاديمية الاسبانية مدى خمسين عاما . وقد تعرفت

به منذ بداية بحوثي الاسبانية فى أوائل الخمسينيات ، والفيت فيه عالما من أجل علماء العصر ، ومؤرخا من أعظم مؤرخى العصر . وقد اشتهر بالاخص بكتابه « اسبانيا فى عهد السيد » « La Espana del Gid » وهو مؤلف نفيس ضخم يقع فى مجلدين كبيرين . وقد التقيت به مرارا فى فيلته الجميلة بضاحية شمرتين بمدريد . وكنا فى كل مرة نتبادل الآراء فى بعض مسائل التاريخ الاسبانى ، وبالأخص تلك التى لها علاقة بالتاريخ الاندلسى ، ومن هذه المسائل ، تقدير شخصية « السيد » « El cid Campeador » (السيد الكنبيطور)، الذى يعتبره الاستاذ بيدال ، فى كتابه المشار اليه « بطل اسبانيا القومى » ، وأخالفه فى هذا الرأى ، واعتبره ، متفقا فى الرأى مع دوزى ، جنديا عظيما يبحث وراء طالعه ، ومنها مسألة قيام اسبانيا النصرانية ، بهدم معظم الصروح الاندلسية الاسلامية ، من مساجد ومدارس وقصور ، وحصون ، وغيرها ومنها نماذج فريدة من الفن المعمارى . ويبرز الاستاذ بيدال ذلك أولا ، بأن هدم المساجد كان عملا منطقيا ، اذ لم يكن لوجودها مكان بعد انتهاء دولة الاسلام فى الاندلس ، ولابد أن تقوم مكانها الكنائس ، وثانيا لان اسبانيا فى عهد البروتستانية (منذ القرن الخامس عشر) . كانت بلدا متزمتا لا يطلب منه أن يعتنق المبادىء التحريرية . ومنها معاملة اسبانيا للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ومطاردة ديوان التحقيق لهم ، ثم نفيهم بعد ذلك ، فان الاستاذ بيدال ، ينسب شدتها وقسوتها ، كما ينسب النفى الى حركة البروتستانية ، واضطرار اسبانيا أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة ، وان كانت سياسة عنيفة

مفرقة . وهكذا كنا فى كثير من الاحيان نتبادل الآراء فى المسائل التاريخية المشتركة . ومع اننا لم نكن نتفق دائما ، فقد كان هذا الحوار ، مع مؤرخ من أعظم مؤرخى العصر له قيمته العلمية ، وكان بالاخص يلقى أضواء على كثير من مسائل التاريخ الاندلسى المشتركة بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية .

وقد سجلت آراء الاستاذ بيدال ، سواء تلك التى سمعتها منه ، أو استقيتها من مؤلفاته ، سجلتها فى مواضعها من كتبى (ولا سيما كتابى « نهاية الاندلس ، والآثار الاندلسنية الباقية) . وقد توفى الاستاذ بيدال سنة ١٩٦٨ ، عن تسعة وتسعين عاما ، وترك جملة كبيرة من المؤلفات التاريخية واللغوية . وأشهد بأننى تأثرت بكثير من آراء هذا العلامة الجليل ، وطريقته النقدية .

وقد كانت لى صلات علمية وثيقة باثنين من أعلام المستشرقين الاسبان المعاصرين ، أولهما العلامة المستشرق البلنسى الاستاذ أميروزيو هويثى ميرانده المتوفى سنة ١٩٧٣ ، بعد حياة علمية طويلة حافلة . وقد كنا نشترك فى البحث فى عصرين من عصور التاريخ الاندلسى ، الاول عصر الطوائف ، والثانى عصر المرابطين والموحدين ، وقد زرته مرارا ببلنسية ، وتبادلت معه كثيرا من الآراء، وانتفعت بكثير من آرائه وملاحظاته . وكان الاستاذ هويثى يحيط كتبى وبحوثى الاندلسية بكثير من التقدير . وقد خصها بالذكر والثناء فى مقدمته لكتابه الذى كتبه قبل وفاته بقليل « التاريخ الاسلامى لبلنسية »
La Historia Musulmana de Valencia »
(سنة ١٩٧٢) . وكان يرى أن كتابى عن « دول

ويعتزم ترجمته الى الاسبانية ، بتكليف من جامعة الطوائف » ، هو خير كتاب أخرج فى هذا الموضوع ، بلنسية ، ولكنه مع شديد الاسف توفى قبل أن يتاح له تحقيق هذه الامنية ، وقد تولى الاستاذ هويثى نشر المجلد الثالث من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى ، وترجم تاريخه الى اللغة الاسبانية ، ووضع بالاسبانية كتابا ضخما عن تاريخ « الموحدين » ، وكتابا آخر عن مواقع الاسترداد العظيمة .

وثانيهما العلامة المستشرق الغرناطى الاستاذ سيكودى لوثيينا ، المتوفى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان ابرز علماء غرناطة المعاصرين ، وكانت له بحوث كثيرة فى التاريخ الغرناطى. وله مجموعة قيمة من الوثائق الغرناطية ، التى اكتشف الكثير منها ، ونشرها تباعا بمجلة الاندلس ، ثم جمعها فى مؤلف تولى نشره معهدنا المصرى فى مدريد . وقد أهدانى الاستاذ سيكو كتابين نادرين بالاسبانية فى التاريخ الغرناطى ، أولهما مجموعة وثائق تسليم غرناطة ، وثانيهما تاريخ لافونتى القنطرة .

ثم كانت لى بمدريد علائق مودة وتقدير متبادل مع الاستاذ أوليفر آسين، مدير المدرسة العربية . وقد أعجبت بالبحث الذى ألقاه عن العلامة الموريسكى الشهاب الحجرى بندوة مالقة العربية الاسبانية التى سوف نتحدث عنها بعد ، وأطلعته أنا على ما كتبته عنه فى كتابى « نهاية الاندلس » ، فاهتم به ، ووعد بدراسته ، وقد اقترح على أن نعمل معا فى بعض البحوث المتعلقة بهذا الميدان . ولكن الظروف لم تسمح لنا بتحقيق هذه الأمنية .

ولن أنسى أن أذكر الى جانب هؤلاء العلماء الاسبان ، صديقى العلامة المستشرق الفرنسى الاستاذ ليفى بروفنسال المتوفى فى سنة ١٩٥٨ ، وقد كان يجمع بيننا البحث المشترك فى تاريخ اسبانيا المسلمة . وكنت التقى بالاستاذ بروفنسال فى القاهرة ، وفى مدريد ، بانتظام ، ونتبادل الرأى والمعلومات فيما يتعلق بميدان بحوثنا . وقد كتب الاستاذ بروفنسال بحوثا كثيرة فى تاريخ المغرب والاندلس ، نشرت فى مختلف المجلات الاستشراقية ، مثل هسبريس والاندلس . ونشر كثيرا من الكتب والنصوص الهامة المتعلقة بتاريخ المغرب والاندلس ، وانتهى بأن وضع كتابه عن « تاريخ اسبانيا المسلمة » ، حتى سقوط الخلافة الاندلسية . وهو مؤلف قيم ، ويعتبر فى نظرى ، أفضل وأقيم من كتاب العلامة دوزى « تاريخ مسلمى اسبانيا » لان مؤلفه انتفع بكثير من المصادر والوثائق المخطوطة ، التى لم يوفق دوزى فى عصره ، الى العثور عليها ، وقد تلقاها الاستاذ بروفنسال عن العلامة المغربى المرحوم السيد عبد الحى الكتانى .

الخزائن المغربية

ولابد لنا أن نشيد هنا ، الى جانب ما تقدم من دور الخزائن والمحفوظات الاسبانية ، بدور المجموعات المغربية المخطوطة . وقد وقع اتصالى بالمغرب وخزائنه منذ سنة ١٩٥٨ ، أعنى منذ بداية عهد الاستقلال ، وزوال الحماية الفرنسية . وكنت قبل ذلك ، كمعظم زملائى المصريين ، ممنوعا من دخول المغرب ، أثناء قيام هـذه الحماية .

وقمت من ذلك التاريخ بعدة رحلات دراسية الى المغرب . وكانت بحوثى مركزة فى خزانة الرباط العامة ، وخزانة القرويين الكبرى بفاس . ثم الخزانة الملكية فيما بعد . وقد كان من حسن الطالع أن ضمت معظم المجموعات الخاصة من المخطوطات عقب الاستقلال الى خزانة الرباط العامة ، مثل مجموعة الاوقاف ، ومجموعة الكتانى ، ومجموعة الجلاوى ، ثم ضمت اليها فيما بعد مجموعة زاوية تماجروت ، وقد كان من بين نفائسها نسخة مزيدة ضخمة من المجلد الثالث من كتاب «البيان المغرب » ، الذى قام بنشره صديقى المغفور له العلامة المستشرق أمبروز يوهويثى . وقد أنفقت أوقاتا طويلة ، فى خزانة الرباط العامة ، ثم فى خزانة القرويين الكبرى بفاس ، فى دراسة سائر المخطوطات التى لها علاقة بالتاريخ الاندلسى والآداب الاندلسية . وقد أسفرت بحوثى لحسن الطالع ، فى خزانة القرويين ، عن العثور ببعض النفائس المخطوطة ، وفى مقدمتها قطعتان عتيقتان، من السفر الثالث من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وانتفعت بهما أعظم انتفاع ، بالرغم من تلفهما الى حد التلاشى ، وقد سلمت فيما بعد شريطهما المصور الى معهدنا بمدريد ، حيث قام بنشرهما بعد مجهود شاق صديقى الدكتور محمود على مكى . وعثرت كذلك فيما عثرت عليه ، فى قاعة الخروم (الدشت) على ورقتين من كتاب « البيان المغرب » يتعلقان بسقوط سرقسطة وموقعة كتندة ، وكانا ينقصان مجموعة بروفنسال ، التى وجدها قبلى بالقرويين ونشرها العلامة هويثى فيما بعد بمجلة « هسبريس » .

وقد قام الاستاذ هويشى بترجمة هذه الصفحات الاربع الى الاسبانية مع تعليقات ونشرها فى مجلة الاندلس ، فكان لها فى الاوساط الاستشراقية وقع عميق .

كما عثرت بقاعة الخروم على قطعة كبيرة مخطوطة من ديوان ابن دراج القسطلى ، وأخبرت بوجودها صديقى الدكتور محمود على مكى ، وكان يومئذ يعنى بالقيام بنشر ديوان هذا الشاعر الاندلسى الكبير ، ثم بعثنا باستخراج صورتها الى خزائن القرويين . وقد انتفع الدكتور مكى بهذه القطعة النفيسة فى تحقيق ديوان ابن دراج أعظم انتفاع .

وكان من اثمن ما وقفت عليه ، وقمت بدراسته ، قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان « المقتبس » ، من مقتنيات الخزانة الملكية المغربية ، وكانت لم تفتح أبوابها للباحثين بعد ، فسعيت لدى المسئولين بالديوان الملكى للاطلاع عليها ، فتم الإذن بذلك ، وحملت الى المخطوطة بغرفة خاصة بالديوان . وكانت فى حالة تلف شديد ، تتساقط من جوانبها القطع المتلاشية عند تحريك أوراقها ، وتتكون هذه المخطوطة النفيسة الوحيدة فى العالم ، من مائة وثمانين لوحة كبيرة ، وهى حسبما ورد فى خاتمتها عبارة عن « السفر الخامس » من « المقتبس » ، وتتعلق كلها بالثلاثين سنة الاولى من حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فعكفت على دراستها زهاء أسبوعين كاملين ، ونقلت منها شذورا جمة تتعلق بعصر الناصر وأحداثه ، وخصائصه ، أدمجت فيما بعد فى الطبعة الرابعة من كتابى « دولة الاسلام فى الاندلس » ، ومن ضمنها عدة وثائق هامة ، وهى الآن ضمن محتويات

قسم التاريخ بالخزانة الملكية ، وتعتبر من أهم وانفس محتوياتها (١) .

ولم انس بالطبع ان أقوم بدراسة المخطوطات التاريخية، فى خزائن الجزائر وتونس . ومن ثم فقد درست سائر المخطوطات التاريخية والادبية بمكتبة الجزائر الوطنية . ولم أجد الكثير من المخطوطات التى وردت فى فهرس فانيان Fagnan ، مما يدل على أن الفرنسيين قد سلبوا الكثير من محتوياتها . ومع ذلك فقد أطلعت فيها على عدد من المخطوطات الهامة ، ومعظمها نظائر لغيرها مما يوجد فى الخزائن المغربية ، واستوقف نظرى بصفة خاصة نسخة من رسالة الاعتذار الشهيرة التى وجهها ابو عبد الله محمد آخر ملوك الاندلس الى السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى ملك فاس ، مستجيرا به ، مستظلا بلوائه ، والتى كتبها الوزير محمد بن عبدالله العربى العقيلى على لسان مليكه أبى عبد الله ، وهى آية فى التأثير والبلاغة ، وقد نقلها لنا المقرى فى «نفح الطيب»، ولم ترد فى غيره ، مما يدل على أن المقرى قد ظفر بها خلال دراسته لمخطوطات مكتبة الجزائر ، اذ هى النسخة الوحيدة فى العالم . ووقفنا كذلك على نسخة فريدة من كتاب القاضى أبى عبد الله محمد بن الأزرق « الابريز المسبوك فى كيفية ادب الملوك » ، وقد كان ابن الأزرق قد عبر البحر الى المغرب قبل سقوط غرناطة بقليل ،

---

(١) كان من حسن الحظ آن نشرهذا المخطوط النفيس بمدريد برعاية معهد الثقافة الاسبانية العربيةوبتحقيق الدكتور بدوى تليمة تحت عنوان السفر الخامس فى المقتبس« ١٩٧٩ » .

واستقر حينا بمدينة تلمسان ، وكتب بها بعض مؤلفاته، ومنها هذا الكتاب .

وقمت كذلك بدراسة مجموعة مخطوطات جامع الزيتونة ، التى نقلت فيما بعد الى مكتبة تونس الوطنية الحالية ، وبها عدة مخطوطات تاريخية هامة . منها نسخة كاملة من كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » . وقد درسناها بصفة خاصة ونقلنا منها نسخة مصورة ، نظرا لاشتغالنا باخراج هذه الموسوعة الاندلسية الجليلة التى هى أهم مؤلفات الوزير ابن الخطيب . بيد أنه قد تبين لنا بالدراسة المقارنة ، انها نسخة موجزة ينقصها الكثير من التراجم التى وردت فى المخطوطات الاخرى من الاحاطة، وبها كثير من التصحيف ، يذهب بكثير من قيمتها ، وذلك حسبما أشرنا اليه فى مقدمة المجلد الأول من كتاب « الاحاطة » الذى وفقنا بحمد الله الى نشره كاملا ، وتم ظهور مجلده الرابع والاخير فى أواخر سنة ١٩٧٨ .

المكتبات الاوربية

وامتدت دراساتى الى عدة من المكتبات الاوربية ، هى مكتبة الفاتيكان الرسولية برومة ، والمتحف البريطانى ، والمكتبة البودلية (اكسفورد) بانجلترا ، ومكتبة باريس الوطنية ، ومكتبة فيينا الوطنية ، ومكتبة ليدن الهولندية، وغيرها حسبما تفصل بعد .

وقد زرت مكتبة الفاتيكان الرسولية مرارا ، ووقفت بها على أثرين هامين أولهما وثيقة هامة ونادرة ، هى خطاب الخليفة الموحدى المرتضى بالله ، الى البابا الوسان

الـرابع ، وثانيهما مذكـرات المؤرخ والرحالة المصرى عبد الباسط بن خليل الملطى ، عن أحوال المغرب والاندلس فى أواسط القرن التاسع الهجرى ، أعنى أواخر العهد الغرناطى ، وهى الواردة فى رحلته التى يتضمنها كتابه « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » . وقد كانت هذه المذكرات من أقيم ما انتفعنا به فى تاريخ المرحلة الاخيرة من العهد الغرناطى .

ووقفت فيما درسته من مخطوطات القسم الشرقى بالمتحف البريطانى على نصوص ووثائق كثيرة مما يتصل بدراساتى الاندلسية ، وفى مقدمتها جزء من كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، وانتفعت بها فى مواضع مختلفة من كتبى الاندلسية . ودرست فى المكتبة البودلية القطعة الخطية الوحيدة التى انتهت الينا من كتاب « المن بالامامة » لابن صاحب الصلاة ، وهو المتعلق بتـاريخ الموحدين ، وكانت من أهم المصادر فى كتابى عن عصر « المرابطين والموحدين » .

وقمت فى أواخر سنة ١٩٥٤ بزيارة دراسية لهولندة ، وطفت بمدنهـا واهتممت بنوع خاص بزيارة مدينة لاهاى حيث يوجد مقر محـكمة العـدل الدوليـة ، ومنزل الفيلسوف الاشهر باروخ اسبنوزا . ومدينة ليدن حيث توجد جامعتها الشهيرة ومكتبتها الغنية وبها مجموعة من المخطوطات العربية ومنهـا جزء مخـطوط من كتـاب « الاحاطة » لابن الخطيب ، وقد كانت جامعة ليدن ، هى الجامعة التى كان العلامة المستشرق الكبير رينهارت دوزى ، امام التاريخ الاندلسى ، من أعلام أساتذتها .

وانتهزت هذه الفرصة فزرت دار بريل الشهيرة التى

اشتهرت بنشـاطها القـديم فى نشر معـظم كتب أكابر المستشرقين من مختلف انحاء القارة الاوربية مدى زهاء قرنين وما زالت أدارتها قائمة فى دارها التاريخية القديمة، وزرت مطبعتها التى تضم عمالا يعملون فى جمع حروف سائر مختلف اللغات القديمة ، مثل اللاتينية والعبرية واليونانية والامهرية والسريانية والعـربية ، ومختلف اللغات الشرقية ، مثل الفارسية والاوردو والهندستانية والصينية . وهؤلاء العمال لا يفهمون حرفا واحدا من هذه اللغات القـديمة التى يشتغلون بجمع حـروفها ، ولكنهم مهرة فى صف حروفها ، وجمع نصوصها .

وفى أبريل سنة ١٩٦١ ، قمت برحلة الى الدانمارك والسويد ، وزرت المكتبة الملكية فى كوبنهاجن ، وبهـا قسم للمخطوطات العربية . وقد اطلعت هنالك على عدة من المخطوطات العربية الهامة ، ومنها نسـخة من كتاب « الجمان فى أخبار الزمان » منسوبة للعلامة أبى العباس المقـرى ، ونسخة من كتاب « الانيس المطـرب بروض القرطاس » لابن أبى زرع الفاسى ، و « ذيل على خريدة القصر وجريدة العصر » . وفى السويد ، زرت مكتبـة جامعة أوبسالة ، وبها مجموعة كبـيرة من المخـطوطات والوثائق العربية ، ومنها نسخة من ريحانة الكتاب لابن الخطيب » ونسخة من « روض القرطاس » واطلعت بها على مجموعة كبيرة من الوثائق العربية ، ومنها عدد كبير من الرسائل التى بعث بها ملوك المغرب الى ملوك السويد. وقابلت فى أوبسالة المستشرق الدكتور نيبرج ، الاستاذ القديم بجامعتها ، وهو الذى قام بتحقيق ونشر كتاب « الانتصار » لابن الراوندية ، الذى قامت باصداره لجنة التأليف والترجمة والنشر .

بعض اوجه نشاطاتي العلمية الاخرى
في تلك الفترة

كانت دراساتي وبحوثي الاندلسية ، حتى سنة ١٩٧٠ .. وخلال عشرين عاما هي مهمتي العلمية الرئيسية ، وكنت احرص اشد الحـــرص على متابعتها ، وكنت اقــوم برحلاتي الى اسبانيا والمغرب بانتظام ، لا تثنيني عن ذلك اية عقبة. وحتى في الايام العصيبة التي اصبحت مصر فيها سجنا لأبنائها ، ولم يكن يسمح فيها بالسفر الى الخارج ، الا للمبعوثين ورجال الدولة ، واصبحت تأشيرة الخروج عزيزة المنـــــال ، كنت اتوصل الى الحصول عليها ، بكـل وسيلة ممكنة . وذلك بمعاونة بعض أصدقائي القـدامى ، من ذوى النفوذ ، من الوزراء السابقين او الحاليين . واذكر من هؤلاء بجزيل الشكر والعرفان صديقي العلامة الوفي ، الاستاذ أحمد نجيب هاشم ، فقد ســــاعدني خلال توليه وزارة التربية ، غير مرة ، على الخروج الى السفر بطرق رسمية جميلة ، وكان لي خلال هذه الرحلات الدراسية ، نشاط علمي في أبواب ومجالات أخرى ، تتصل بمهمتي الدراسية الاصلية ، من القاء المحاضرات التاريخية ، وشهود بعض المؤتمرات والندوات العلمية .

فأما عن المحـــاضرات التاريخية فقد بدات بالقاء سلسلة من المحاضرات الاندلسية بالمغرب في سنة ١٩٥٨ عقب حصول المغرب على استقلاله ، وذلك بتكليف من

وزارة المعارف المصرية ، واقامت السفارة المصرية بهذه المناسبة لى حفل تكريم كبير بفندق تور حسان أعظم فنادق الرباط يومئذ ، حضره كثير من الوزراء والكبراء والعلماء ورجال السلك السياسي . وكان سفيرنا يومئذ هو الدكتور عبد المجيد رمضان اول سفراء مصر فى المغرب المستقل ، والقيت هذه المحاضرات في حواضر المغرب المختلفة ، الرباط والدار البيضاء وفاس ومراكش وطنجه وتطوان ، وقد كنت خلال القائها ضيفا على وزارة الخارجية المغربية ، فغمرتنى بعنايتها واكرامها، وندبت لمرافقتى خلال هذه الدورة الكبيرة الاستاذ عبد المجيد بن جلون من موظفيها ، وقد عين سفيرا فيما بعد ، ومن حسن الحظ انه كان من تلاميذى بمعهد الصحافة العالى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكانت بيننا مودة وثيقة ، فكان لى خير مرافق ومرشد .

وقد نظم لى الى جانب القاء المحاضرات ، برنامج من المشاهد الاثرية خلال القطر المغربى ، فزرت مدينة صفرو الصيفية ، وسد مراكش وبلدة أغمات حيث يثوى المعتمد بن عباد وزوجته اعتماد الرميكية ، واهم من ذلك فقد زرت منطقة الاطلس على بعد نحو مائة وعشرين كيلو مترا من مراكش ، وزرت هنالك بلدة تينملل التى خرجت منها دعوة المهدى بن تومرت ، وزرت مسجده ، وقبره ، وشهدت بعض عوائد القبائل البربرية هنالك . والى جانب ذلك فقد تفقدت سائر معالم مراكش الاثرية، من مساجد وقصور وحدائق سلطانية ، ومنشآت صناعية وغيرها ، والقيت عدة أحاديث بالاذاعة المغربية، وتعرفت بكثير من أعيان العلماء والوزراء المغاربة ،

وبالجملة فقد كانت دورة علمية وسياحية هامةاستغرقت نحو ثلاثة أسابيع .

ولقد حظيت بهذه المناسبة برؤية صاحب الجلالة ، المرحوم المبرور ، الملك محمد الخامس وسعدت بالاستماع الى عبارات العطف والتقدير الكريمة وشعرت أننى أقف أمام ملك عظيم نبيل يؤمن بحقوق بلاده ، وقد شاء القدر أن يكون هو بطل استقلالها ، وان يحقق بزعامته وفى عهده حريتها واستقلالها ، وقد أصدر لى جلالته فوق ذلك عن طريق مدير ديوانه خطابا يضفى فيه على شرف التكريم والتقدير للمحاضرات التاريخية التي ألقيتها .

ثم قمت بعد ذلك بالقاء العديد من المحاضرات التاريخية والاندلسية بنوع خاص ، وذلك أولا بمعهدنا المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، بعضها بالانجليزية والفرنسية ، وبعضها باللغة الاسبانية . وكان يشجعنى على القائها بالاسبانية حسبما سبق أن أشرت صديقى الدكتور حسين مؤنس ، مدير المعهد فى تلك الحقبة ، اذ أن معظم المثقفين الاسبان ، لا يعرفون سوى لغتهم القومية ، ويندر منهم من يعرف لغة أجنبية أخرى . وألقيت كذلك محاضرات عديدة بالانجليزية واحيانا بالعربية ، بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية التابعة لجامعة لندن : « School of Oriental and Afr. Studies » وبكلية يمبروك بجامعة كامبردج ، كما ألقيت عدة أحاديث تاريخية بالبرنامج الثقافى بدار الاذاعة البريطانية ؛ وألقيت محاضرات

بالفرنسية فى جنيف ، ومعهد نابولى الشرقى . كما القيت محاضرات بجامعة بنغازى ، وجامعة تونس ومختلف حواضر المغرب العربى ، حسبما تقدم وفى مناسبات عديدة أخرى ، وفى الجمعية التاريخية المصرية .

وأما عن المؤتمرات العلمية ، فقد شهدت خلال هذه الحقبة عدة منها ، أولها مهرجان الاحتفال بالذكرى التسعمائة لوفاة الامام الفيلسوف ابن حزم القرطبى ، وقد نظم بمدينة قرطبة مسقط رأسه سنة ١٩٦٣ ، من ١٢ مايو الى ١٨ منه ، وقد اقيم هذا المهرجان تحت الرياسة الفخرية لرئيس الدولة الاسبانية القائد الاعلى الجنرال ف . فرانكو ، ورعاية هيئة شرقية ، مؤلفة من وزير الخارجية الاسبانية ، ووزير التعليم وسفراء الدول العربية فى مدريد ، والحاكم المدنى لمدينة قرطبة، ومديرى جامعات مدريد وبرشلونة وغرناطة واشبيلية ، واشتركت فى تنظيمه بلدية قرطبة ، ومعهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، ومدرسة البحوث العربية بمدريد، والمعهد الاسبانى العربى للثقافة ، والمجمع الادبى الملكى لقرطبة . وشهده جمهرة كبيرة من الشخصيات الرسمية البارزة ومن السفراء العرب ، ومن العلماء والمتخصصين فى الدراسات الاندلسية ، من مختلف البلاد العربية ، والجامعات الاسبانية ، ومختلف دوائر المستشرقين .

واستمر المهرجان ، أسبوعا كاملا ، من الثانى عشر من مايو ، الى الثامن عشر منه ، وهو يحفل كل يوم فى الصباح ، وفى المساء ، بطائفة من الندوات العلمية

والتاريخية والادبية ، والشـــعرية ، والمظاهر الفنية والاجتماعية الرائعة .

وقد افتتح المهرجان ، فى صبيحة يومه الاول ، يوم الاحد ، ١٢ مايو ، بحفل فخم ، رفع فيه الستار عن التمثال الطبيعى المتخيل الذى أقامته بلدية قرطبة لابن حزم ، أمام مدخل باب اشبيلية ، بحضرة جمهور من الصفوة من علماء وسفراء وحكام ، وألقى السنيور رينا عمدة قرطبة خطـــابا مؤثرا بالاسبانية قال فيه « أن مدينتنا لتتشرف بأن تكرم شخصية واحد من أبنائهـا العظام ، هو ابو على بن حزم ، الذى تخطت عبقريته الحدود ، ولم يعش فقط فى زمنه التاريخى ، ولا فى مكانه المحدود ، ولكنه نفث روحه الى العـــالم كله ، وفى الانسانية كلها » . ومن المعروف من حياة ابن حزم ، انه كان يجتاز هذا الباب ـ باب اشبيلية ـ الذى كان يسمى فى العهد الاســـلامى « باب العطارين » كل يوم فى طريقه الى المسجد الجامع ، ومن ثم كان اختيار هذا المكان لاقامة التمثال فيه . وقد نقش حول قاعدته بالخط الكوفى ما يأتى : « لمناســـبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة العلامة أبى محمد على بن حزم القرطبى تهدى بلدية قرطبة هذا التمثال تخليدا لذكراه » .

وعلى اثر رفع الستار عن التمثال ، سارع رهط من السيدات والآنسات ، وفى ايديهن سلال الورد ، ينثرن الورود ، واغصان الورد ، فى مجرى الماء الواقع أسفل التمثال ، والذى يتصل بنهـر الوادى الكبير ، وذلك لكى يحمل تيار النهر هذه الورود ، نحو الغرب ، فى اتجاه مصبه على مقربة من الاقليم الذى يرقد فيه ابن

حزم رقدته الابدية فى احدى قراه ، وقد كانت تسمى باسمها العربى « منت ليشم » وتسمى اليوم باسمها الاسبانى **Casa Montijo**

ثم ذهبنا بعد ذلك الى القصر المواجه للمسجد الجامع لنشهد في قاعته التاريخية الكبيرة حفل الافتتاح الرسمي للمهرجان العظيم . وقد قام بافتتاحه حاكم ولاية قرطبة ، بحضور ممثلى مختلف السلطات والهيئات والجامعات والسفراء ، والعلماء ، وألقيت به بعد ذلك كلمات من ممثلى مختلف الهيئات الاسبانية والعربية والاجنبية ، ومعظمها يدور حول هذه المناسبة التاريخية والمعانى الجليلة التى تنطوى عليها .

ولقد كانت أعمال المهرجان تتألف من شقين ، كلاهما حافل بالاحداث والمناسبات ، وكان الشق الاول يضم طائفة من الندوات العلمية والادبية والشعرية ، وتعقد عادة فى الصباح . وقد القيت فى هذه الندوات التى عقدت جميعها بنادى الصداقة القرطبى ، وهو من افخم الاندية التى شهدناها ، عددا كبيرا من البحوث القيمة ، حول مختلف نواحى التفكير لابن حزم ، من فقهية ولغوية وفلسفية وأدبية وتاريخية وشعرية ، وغيرها ، وعن كتب ابن حزم ورسائله ، وعن قرطبة والمجتمع القرطبى، فى عصره ، وألقيت هذه البحوث بالاسبانية والعربية والفرنسية ، واشترك فى القائها لفيف من العلماء وأساتذة الجامعات الاسبان والعرب والفرنسيين . والقيت أنا فيها بحثا تاريخيا عنوانه « ابن حزم ومجتمع الطوائف » . وكان أبرز مافيها تبيان ما تنطوى عليه عقلية هذا المفكر العربى المسلم العظيم من آفاق شاسعة،

ومجالات مختلفة بعيدة المدى .

وخصصت عدة جلسات للشعر ، والقيت فيهما بالاخص مقطوعات شعرية أندلسية ترجع الى عصر ابن حزم ومجتمعه ، وكانت القصائد العربية تترجم فى كل مناسبة الى اللغة الاسبانية وتلقى بها .

وأما الشق الثانى من المهرجان وهو الشق الاجتماعى، فقد كان مليئا بالزيارات والمناسبات والحفلات الشائقة وان المقام ليضيق عن الاسهاب فى وصف تلك المناسبات الخلابة الممتعة التى نظمتها لجنة المهرجان خلال هذه الايام المشهودة ، والتى كانت تمتاز جميعا بحسن الاختيار وسلامة الذوق ، ووفرة المجاملة والكرم والترحاب .

ولقد كان من هذه المناسبات ، زيارة المسجد الجامع، وهو على الرغم من بقائه على حالته الاسلامية ، يعتبر كنيسة قرطبة الجامعة « كاتدرائية » . وزيارة أحياء قرطبة بالليل ، وقد كانت مناسبة ساحرة زرنا فيها عددا من بيوت قرطبة القديمة وشهدنا فيها بعض الرقصات الاندلسية ، وزيارة ضاحية الرصافة البديعة، وهى تقوم فوق موقع الرصافة القديمة ، رصافة عبد الرحمن الداخل . وزيارة « حى القصر القديم » الذى يقوم اليوم مكان بلاط مغيث » وهو الحى الذى ولد فيه ابن حزم ونشأ . وقد احتفل خلال هذه الزيارة برفع الستار عن لوحة تذكارية أقيمت لذكرى ابن حزم ابن هذا الحى أمام مدخل كنيسة سان لورنز والتى اقيمت فوق موقع المسجد القديم الذى كان يسمى أيام ابن حزم مسجد المنية ، ويتوسط بلاط مغيث .

وكان من أمتع وأروع المناسبات الحفلة الاستعراضية الكبرى ، التى نظمتها البلدية فى مسرح حدائق القصر ، وعزفت فيه فرقة « الفيلا موتس » الاسبانية .

ومناسبات ومشاهد عديدة أخرى لا يتسع المقام لذكرها .

ولقد كان هذا المهرجان العظيم الذى أقيم للاحتفال بذكرى ابن حزم ، فى ذاته ، وما اقترن به من المظاهر والمشاهد العظيمة التى وصفناها ، وما بدا خلاله من اعتزاز مدينة قرطبة وسلطاتها المدنية والعلمية بذكرى هذا العلامة الاندلسى المسلم – ابن قرطبة – كان ذلك كله أسطع دليل على هذا التطور العظيم المستنير الذى طرأ على التفكير الاسبانى ، وعلى نظرته الى الامة الاندلسية ، والى تراثها الحضارى العظيم .

وهذا ما نحييه بمنتهى الاكبار والاجلال .

ثم شهدت فى ديسمبر سنة ١٩٦٧ (ومضان ١٣٨٦) جلسات الدورة الثقافية العربية الاسبانية التى عقدت فى ثغر مالقة ، واشتركت فى أعمالها الى جانب حشد من الزملاء العرب والاسبان والانجليز والفرنسيين وغيرهم . وكانت ندوة زاخرة بالمحاضرات والبحوث المتعلقة بتاريخ الاندلس وآدابها وحضارتها . ولقد كانت هذه الندوة العربية الاسبانية تعقد «بدار الثقافة»، وهى تقع بجوار قصبة مالقة الشهيرة ، وهى من أعظم الآثار الاندلسية الباقية . وقد استمرت منذ التاسع من ديسمبر الى السابع عشر منه . وألقيت فيها بحوث قيمة عديدة منها بحث عن « تلخيص كتاب النفس

ـ لابن رشد ، وبحث العمارة المالقية ، وآخر عن العصر المدجنى فى مالقة ، وعن ابن حزم المنطقى ، وعن منشآت التحصينات فى قشتالة فى عصر الخلفاء ، وعن فلاحة البساتين الأندلسية ، وعن قصر بنى صمادح بالمرية ، وعن سليمان بن جلجل وكتابه ـ طبقات الاطباء ـ وعن الزرقالى وبحوثه الفلكية وغير ذلك من البحوث الاندلسية الهامة ، وألقيت أنا بها بحثا عن ـ الممالك الاندلسية ـ التى قامت بمالقة .

ومما هو جدير بالذكر أنه كانت معنـــا من أعضاء الندوة الثقافية المالقية سيدة اسبانية لا أذكر اسمها . وقد ذهبنا ذات يوم فى زيارة لميناء مالقة وكانت معنـــا هذه السيدة ، وكانت تقول انها تقرأ رسوم الـكف ، فتقدم اليها بعض أعضاء الندوة من رجال وسيدات ، وقرأت كفوفهم وقدمت لهم عند قراءتها بعض أقوال الآمال والتمنيات ، وقدمت أنا كفى لتقرأه ، فتأملته مليا ثم صاحت بالاسبانية :

أعنى حياة طويلة جدا ، وقد كان ذلك فى عام ١٩٦٧ ، وها نحن اليوم فى سنة ١٩٧٩ ، بعد أكثر من عشر أعوام من ذلك التاريخ ، وما زلت على قيـــد الحياة ، وفى صحة جيدة . والله يمنح طول البقاء لمن يشاء .

وفى سنة ١٩٦٩ ، كان الاحتفال العظيم الفخم بعيد القاهرة الالفى . وقد عقد بمدينة القاهرة المعزية منـــذ السـابع والعشرين من مارس الى الرابع من ابريل سنة ١٩٦٩ ، وذلك تحت رعاية الحكومة المصرية . وقد شهدت هذا الحفل التاريخى العظيم ، الذى شـــهده حشد كبير من العلماء والمؤرخين والاثريين من مختلف

البلاد المشرقية والاوربية والامريكية . وكانت جلساته تعقد بالبهو الكبير بالقصر الضخم الذى بناه الخديو اسماعيل على شاطىء النيل لاستضافة الامبراطورة أوجينى ، وقت الاحتفال بافتتاح قناة السويس ،وحول فيما بعد الى فندق سياحى عظيم باسم عمر الخيام ، ثم تم هدمه مع شديد الاسف فى أيامنا هذه ١٩٦٩ . وقد ألقيت بهذه الندوة الدولية العظيمة ، بحوث عديدة عن مدينة القاهرة وخططها وتاريخها وعصورها المختلفة نذكر منها ، منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط . حى الجمالية منذ قرن مضى . احدى نواحى نشاط الازهر فى القرنين السابع والثامن عشر . انجازات العصر الفاطمى . مبانى القاهرة العثمانية القاعة العربية فى المنازل القاهرية . سفارة بيدرو مارتيرى ، سفير الملكين الكاثوليكيين الى السلطان الغورى .: الادارة القبطية فى عهد المماليك . مدينة القاهرة كما يصفها الادريسى . العلاقات بين القاهرة والآستانة فى العهد العثمانى . نساء القاهرة فى عصر سلاطين المماليك .. القاهرة كمركز للحركة الاسماعيلية . القاهرة فى الادب الشعبى . امتداد للقاهرة من عصر الفاطميين الى عصر المماليك . دور الازهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى . جمال الدين الافغانى فى القاهرة . الحياة الادبية فى مدينة القاهرة . وصف مصر عن كتاب السفرنامة لناصرى خسرو ، وغيرها وغيرها . والقيت أنا فى محاضرة عن « العلائق الدبلوماسية بين القاهرة والممالك الاسبانية النصرانية فى العصر المملوكى » وقد جمعت سائر البحوث التى

القيت في النـدوة وطبعت في مؤلف ضخم من ثلاثة مجلدات . نشرت بعنـاية وزارة الثقافة تحت عنوان « أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة » (سنة ١٩٧٠ ـ ١٩٧١) . كما أصدرت وزارة الثقافة عن القاهرة أطلسا تاريخيا طبوغرافيا مصورا نشر باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية ، أهدى الى سائر العلماء الاجانب الذين شهدوا الندوة ، دون زملائهم المصريين . كمـا نظمت بهـذه المناسبة عدة حفلات اجتماعية ورحلات اثرية .

وشهدت بمدينة نيودلهى عاصـمة الهند « مؤتمر التاريخ الاسيوى » ممثلا للحكومة المصرية مع صديقى المرحوم الدكتور عزت عبدالكريم ، وذلك منذ الثامن من ديسمبر الى الثالث عشر منه سنة ١٩٦١ ، وتعرفنا فيه على عدد من أكابر علمـاء الهند وساستها ، وفى مقدمتهم الزعيم الكبير الراحل جواهر لال نهرو ، وهو الذى قام بافتتاح المؤتمر ، بعـد كلمة وزير المعـارف الافتتاحية ، بخطـاب بليغ . وتلاه في حفل الافتتاح العلامة الكبير السردار بانيكار مدير جامعة كشمير ، وقد كان سفيرا للهند بالقاهرة ، بخطـاب رنان ، وتحدث آخرون من أعلام الهند . وقد خطب هؤلاء جميعا باللغة الإنجليزية العالية التى يندر أن يتحدث بها آخرون من غير الانجليز . وكان اتصالنا بأعضاء المؤتمر من الهنود دائما بالانجليزية ، وهم يتقنونها جميعا . وشعرنا من جو المؤتمر ، والايام التى عشناها فى نيودلهى ، واتصلنا فيها بمختلف الهيئات والبيئات أن « الثقـافة الانجليزية » هى أثمن ما خلفه الانجليز وراءهم للهند بعد استقلالها .

وعلمنا أن اللغة الانجليزية هى لغة التخاطب والاتصال بين الهنود « الهندوس » من مختلف الطوائف والمناطق ، اذ لكل منطقة وطائفة لهجتها القومية . وتبلغ اللهجات الهندوسية ، حسبما علمنا نحو المائتين والانجليزية هي علاج هذا المشكل ، وهى لغة التخاطب بين المثقفين من سائر البلاد الشرقية والعربية والاوربية . والقيت فيه محاضرات تاريخيـــــة عديدة ، والقيت انا بالانجليزية محاضرة عنوانها « روايات عربية عن حياة تيمورلنك » . وكانت فرصة سانحة شهدنا فيها كثيرا من معالم دول المغول الاسلامية الاثرية فى الهند ، وفى سائر مقدمتها قبر « التاج محل » الشهير بمدينة أجرا . كما شهدنا بعض المعابد والاماكن المقدسة الهندية .

وشهدت بالجزائر عدة مؤتمرات لملتقى الفكر الاسلامى، الذى يعقد بها كل عام ، والتى يشرف على تنظيمهاودعوتها منذ البداية صديقنا السيد الاستاذ مولود قاسم وزير الشئون الدينية . وكان أول مؤتمر حضرته منها مؤتمر سنة ١٩٧٢ ، الذى عقـــــد بمدينة الجزائر ، بقصر الصنوبر ، وشـــهده عدد كبير من علماء البلاد العربية والمستشرقين ، وعلماء القطر الجـــزائرى . وحضرت المؤتمر الثانى من ملتقى الفكر الاسلامى بمدينة تيزى أوزو فى سنة ١٩٧٤ ، والثالث ١٩٧٥ ، بمدينة تلمسان ، والرابع فى سنة ١٩٧٦ ، بمدينة عنـــابة « بونه » ، والخامس فى سنة ١٩٧٧ ، بمـدينة ورجلة بالصحراء الجزائرية ، والسادس فى سنة ١٩٧٨ ، بمدينة باتنه (وهو من الناحية العددية يعتبر الملتقى الثانى عشر) لانى لم أحضر الملتقيات من بدايتها . وكان يشارك فى كل

ملتقى (او مؤتمر) من هذه الملتقيات ، رهط كبير من علماء البلاد الشرقية ، والافريقية ، والمستشرقين من مختلف البلاد . هذا عدا ما يحضره من مئات الطلبة والطالبات . وتلقي فيه محاضرات عديدة ، في موضوعات مختلفة ، كلاسيكية وعصرية ، وفقا لما يحدد من النقاط والموضوعات في برنامج كل ملتقى . ومعظمها يتصل بالاسلام وثقافته وتاريخه ومشكلاته الاصلاحية . وكنت في كل مؤتمر من هذه المؤتمرات القى محاضرة في احدى النقاط التي يحددها الملتقى في برنامجه ، وتقع فيها التعقيبات والمناقشات . واستطيع ان الخص هنا بايجاز بعض المسائل التاريخية ، التي دارت حولها المناقشات ، والمناقشات العنيفة احيانا ، مما ورد في بعض محاضراتي التي القيتها ، في الملتقيات :

اولا ـ فيما يتعلق بسيرة أمير البحر خير الدين بارباروس ، فقد لاحظت أن اخواننا علماء الجزائر يحيطون اسمه بهالة تدنو من القداسة ، ويعتبرونه منقذ الجزائر من محاولات الاسبان الاستيلاء عليها ، وسمعت احدهم يقول في تعليقه على محاضرتي ، انه لولا خير الدين لما بقي في الجزائر مسلم واحد ، وقد حاولت جاهدا في اكثر من مناقشة ، واكثر من رد على هذه التعليقات المفرقة ، ان اضع امامهم الحقائق التاريخية الواضحة ، وخلاصتها ان خير الدين ، كان فعلا من اعظم امراء البحر في اوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ولكنه لم يكن مجاهدا ، ولم يكن يصدر في حملاته ومعاركه البحرية ضد الاسبان يصدر عن اية نزعة جهادية ، وانما كان يحاول ان يوطد سيادته في تلك المنطقة ، منطقة الجزائر

التى بسط عليها سلطانه منذ سنة ١٥٣٩ ، وعينه السلطان سليم حاكما عليها ، باعتبارها من الفتوحات التركية ، وانه كان فى غاراته البحرية ضد الشواطىء الاسبانية ، يعمل على انقاذ الموريسكيين ، أو العرب المتنصرين من الحكم الاسبانى ، ويحملهم على سفنه الى الشواطىء الاسلامية لقاء أجور عالية ، وان ولده حسن باشا ، الذى خلفه فى حكم الجزائر ، كان يقاتل الاسبان باسم السلطان ولحسابه ، لا باسم الجزائر ، وانه انتصر عليهم فى معركة بحرية عنيفة فى سنة ١٥٤١ انتهت بتحطيم أسطول شارلكان ، والخلاصة أن خير الدين لم يكن سوى أمير بحر مغامر يعمل لحسابه ، ثم فيما بعد لحساب السلطان ، على مثل أمراء البحر الانجليز ، الذين انطلقوا ، بعد ذلك بنحو نصف قرن يجوسون خلال المحيط الاطلنطى ، ويضربون السفن الاسبانية والقوى البحرية الاسبانية اينما استطاعوا ، ومنهم أسماء لامعة مثل السير فرنيس دربك ، والسير والتر رالى ، والسير جون هوكنز وغيرهم .

لبثت جاهدا أشرح فى الملتقيات ، هذه الحقائق التاريخية ، عن خير الدين كلما عرضت سيرته ، وأعتقد انه بمضى الزمن وتكرار الشرح ، قد تغيرت الفكرة الجزائرية ، فى تقدير شخصيته ، وزالت هالة القداسة التى كانت تضفيها على سيرته .

ثانيا ــ ان الدولة العثمانية ، زعيمة الاسلام «وحاميته» فى القرنين ، الخامس عشر والسادس عشر ، لم تقم بأية محاولة عملية لمعاونة الاندلس « مملكة غرناطة » المتحضرة ، ولم تقم بعد سقوط الاندلس فى يد اسبانيا

النصرانية بأية مجهود عملي لمعاونة الموريسكيين او العرب المتنصرين ، وانقاذهم من عنف اسبانيا ومطاردتها الدموية ، وذلك بالرغم من رسائل الاستغاثة العديدة ، التي بعث بها الموريسكيون الى بلاط قسطنطينية ، وقد كان في أستطاعتها ، وهي على ما كانت عليه يومئذ من ضخامة القوى البرية والبحرية ، أن تفعل الكثير في ذلك السبيل ، ولكنها شغلت بفتوحاتها الاوربية ، وتركت بقية الامة الاندلسية الى مصيرها المحزن .

ثالثا ـ القى احد المستشرقين في ملتقى سنة ١٩٧٢ ، بحثا عن المستشرق الالماني الكبير الدكتور كارل بروكلمان، وعن مؤلفاته ، وثار في الملتقى جدل عنيف حول بعض آرائه المتعلقة بالاسلام وتاريخه ،، واشتدت عليه حملات علماء الجزائر ، فطلبت الكلمة ، وقلت ان بروكلمان قد اشتهر بالاخص ببحوثه الفياضة في تاريخ الادب العربي المقارن ، وان كتابه الضخم عن « تاريخ الادب العربي » ، عمل يبعث على أعظم التقدير والاعجاب . وهو مؤلف لم يصدر مثله او ما يقاربه حتى يومنا باللغة العربية . واعتقد انه سوف تمضي أعوام طويلة ، بل قد يمضي نصف قرن او اكثر ، قبل أن نستطيع ان نخرج مؤلفا يضارعه في قيمته العلمية ، وبحوثه الفهرسية الزاخرة .

رابعا ـ ورد في محاضرتي التي ألقيتها في ملتقى باتنة (سبتمبر ١٩٧٨) عن نشأة الجامعة العلمية الاسلامية، وتحدثت فيها عن تاريخ الجامع الازهر كجامعة علمية رائدة ، واعظم الجامعات الاسلامية على الاطلاق ، جاء ما يأتي : « لما وقع الفتح العثماني لمصر في سنة (٩٢٢ ـ ٩٢٣ هـ) ، انهار صرح الحضارة العظيم الذي شادته

دول السلاطين الشامخة بمصر ، كما أصيبت الحركة الفكرية كلها بالتدهور والانحلال ، فاضطربت أحواله (اى الازهر) ونضبت موارده وانخفض عدد طلابه وأساتذته الى أدنى الحدود .

وقد ثار لهذه الفقرة عدد كبير من الزملاء ، وفى مقدمتهم الزملاء الترك ، وهم خمسة وقاموا بالتعليق عليها ، وشاركهم فى ذلك زملاء آخرون من تونس وسوريا ، ورمانى أحد الزملاء ، الترك بأنى أصدر عن نزهة قومية ، ورمانى زملاؤه بأنى متحامل على الدولة العثمانية متعسف فى الحكم عليها .. الخ ، وتحدث آخرون عن دولة الخلافة وخدماتها للاسلام ... الخ .

ولهذه المشادة سوابق قديمة ، ونظرتى فى تاريخ الترك العثمانيين ، نظرية ثابتة لا تتغير ، مبنية على دراسات وثيقة ، وهى أنهم أمة عسكرية غازية ، وليست منشئة لاية حضارة ، بل بالعكس أمة هدامة للحضارة . وانه من الصعب على أى مؤرخ أن يدافع عن حكمها فى أى البلاد التى فتحتها ، لانها لم تترك وراءها دائما سوى الانحلال والخراب ، والامر أشد فى ذلك واضح فى نتائج الفتح العثمانى لمصر ، ويكفى أن نراجع يوميات الفتح حسبما دونها المؤرخ المعاصر ابن اياس ، لنرى ما ارتكبه الفاتحون من المذابح المروعة ، والتخريب الشامل ، حين دخولهم القاهرة . ثم يكفى أن نذكر ، ان سكان مصر ، وقد كانوا عند الفتح نحو ثمانية عشر مليون ، قد انخفضوا فى ظل الحكم العثمانى ، من اثر الظلم والفقر والجوع والمرض ، الى خمسة ملايين ، وأن طلاب الازهر انخفضوا من اثنى عشر الفا الى الفين وهلم جرا .

ونكتفى بالنماذج المتقدمة من المسائل التاريخية ، التى ثار حولها الجدل والنقاش فى حومة الملتقيات الاسلامية المتعاقبة .

وكان آخر المؤتمرات التى مثلت بها ندوة تاريخ شبه الجزيرة العربية ، التى عقدت بمدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية ، تحت رعاية جامعة الرياض ، وذلك فى شهر ابريل سنة ١٩٧٧ ، والقيت فيها عدة محاضرات بالعربية والانجليزية ، تتصل بمختلف نواحى تاريخ الجزيرة العربية وأوضاعها وقد تفضلت هيئة الندوة مشكورة بدعوة من يشاء من أعضاء الندوة الى القيام بأداء رسوم العمرة ، وسنحت لنا بذلك انا وبعض الزملاء المصريين والمغاربة الفرصة لاداء هذه الفريضة الدينية الجميلة . وقد قامت هيئة الندوة بتنظيم زيارتنا اولا للمدينة المنورة ، فزرنا المسجد النبوى الشريف ، واجتلينا روضة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونعمنا بقراءة الفاتحة واستمداد الدعاء والبركات . وكانت هذه هى المرة الثانية التى أسعد فيها بزيارة المسجد النبوى والروضة الشريفة . وكانت زيارتى الاولى للمدينة المنورة فى ديسمبر سنة ١٩٦١ عقب عودتى من الهند بعد انتهاء مؤتمر التاريخ الاسيوى ، فمررت بالمملكة العربية السعودية ، استجابة لدعوة هيئة العلائق العامة لشركة الارامكو بمدينة الظهران ، بالقاء بعض الاحاديث التاريخية بتليفزيون الأرامكو . وعقب انتهاء هذه المهمة سافرت الى مكة المكرمة ، ثم الى المدينة المنورة وتشرفت بزيارة المسجد النبوى الشريف لاول مرة ، وقرأت الفاتحة وسألت الدعوات امام الروضة المكرمة ، ولم يتح لى فى هذه الزيارة العابرة اكثر من ذلك . فلما سنحت فرصة القيام

بتأدية العمرة ، لبيتها سعيدا مع زملائى ، وسافرنا من المدينة المنورة الى جدة ، ومنا من أحرم ، ولكنى انتظرت الاحرام حتى وصلنـــا الى جدة ، وهناك ارتديت ثوب الاحرام . وكان الليل متأخرا حينما ركبنا الســـيارة الكبيرة الى مكة ونحن محرمون ، وذلك بعد منتصف الليل بقليل . وجزنا على الاثر من الفندق المقابل الى الحرم الشريف ومعنا المطوف المكلف بقيادتنا . وفى نحو الفجر بدأنا رسوم العمرة بالطـواف أولا حول الكعبة الشريفة ، وتلاوة مختلف الادعية سبع مرات . وقبلنا الحجر الاسود غير مرة . ثم انتقلنا الى موقع الصفا والمروة فى الناحية الاخرى من الحرم وقمنا بالطـواف والدعاء بينهما كذلك سبع مرات أخرى . وهى مهمـة شاقة على أمثالى من الشيوخ ، ولكنى قمت بها بحمد الله على أفضل وضع وانشطة . وقد علمت الســـلطات السعودية المعنية على ادخال الصفا والمروة ضمن ساحة الحرم الشريف بعد أن كانتا فى الطـريق العام خارج الحرم ، وبنت بجوارها مسجدا . وكان هذا من المشاريع الاصلاحية العديدة التى قامت بها الســلطات السعودية المختصة داخل الاماكن المقدسة وحولها ، وهى مشاريع عديدة بمكة والمدينة ، كان من أثرها تحقيق تسهيلات كثيرة لجموع الحجاج التى تضاعف عددها فى العهود الاخيرة بصورة هائلة ، ثم عدنا بعد أداء العمرة الشريفة الى جدة فى الصباح الباكر استعدادا للسفر . وكانت فرصة سعيدة من فرص العمر التي لا تنسى والحمد لله على ذلك كثيرا . وكان أداء العمرة على هذا النحو يوم الجمعة ١١ من جمادى الاولى سنة ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٩ من ابريل سنة ١٩٧٧ .

الاعمال الصحفية البارزة

تناولت فيما سبق قصـــــة حياتي الصحفية الاولى بجريدتي السياسة والسياسة الاســـبوعية ، وما وقع خلالها من القيام برحلتي الصحفية الاولى الى الخارج في فلسطين وسوريا والعراق وتركيا . ثم أشرت الى مساهمتي ببحـــوثي في مجلات الرسالة والهـــلال والثقافة .

ولم تنقطع مســـاهمتي في الصحافة الادبية خــلال عملي الحكومي ، هذا الى جانب بعض فصول خاصة ، وقصص مترجمة ، كنت أؤثر بها جريدة المصرى ، لما كان يربطني بصاحبها المرحوم الاستاذ محمود أبو الفتح من المودة ، وقـد كان والده المرحوم الشيخ احمد بك أبو الفتح أستاذي في الشريعة الاســـلامية بمدرسة الحقوق .

وقد بدات منذ سنة ١٩٥٠ ، وقبيل اعتزالي خدمة الحكومة بقليل ، بالقيام بعدة مهام صحفية بارزة ، في مختلف انحاء القارة الاوربية أسجلها فيما يلي :

كانت سنة ١٩٥٠ ، سنة حافلة فيما يتعلق برحلاتي ومهامي الصحفية . وقد حظيت فيها أولا بمقابلة قداسة البابا بيوس الثاني عشر ، بمناسبة حلول السنة المقدسة ، وشهود مظاهر وحفلات هذا الموسم الديني العظيم .

وقمت فيها باجراء الاحاديث الصحفية مع الدكتور

هويس ، أول رئيس لالمانيا آلاتحادية والهير هوفمان ، المندوب السامي لمنطقة السار ، والدكتور ليوبولد فجل مستشار النمسا .

كما قمت بزيارة منطقة الرور الصناعية ، وزيارة برلين الغربية لاول مرة ، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

***

وصلت الي رومة فى العشرين من يونية سنة ١٩٥٠ . وكانت مدينة القياصرة ، منذ اواخر العـــام المنصرم ، مقصد الرواد من سائر أنحاء العالم ، وكانت تموج بلا انقطاع بهذه الجموع الزاخرة من الرواد . وكان هـــذا السبيل المنهمر من الجموع ينحدر باستمرار الى مدينة الفاتيكان ، او الدولة البابوية الصغيرة ، اذ كان هـــذا العام ، هو عام السنة المقدسة Anno Santo ، التى يجرى الاحتفال بهـــا كل خمسة وعشرين عاما ، وكان ميدان القديس بطرس الشاسع ، يموج كل يوم ، من الصباح الى المساء ، بجموع لا تحصى من الرجال والنساء والاطفال ، تقصـــد الي الـكنيسة العظمى ، كنيسة القـديس بطرس ، للزيارة أو اجراء مراسم الحج ، أو تتكدس فى الميدان ساعات طويلة لشهود الموكب البابوى، وتتدفق من الناحية الاخرى على قصر الفاتيكان ، الوف من الزوار ، تنساب كالسيل الى أروقته المختلفة ، لتشهد متاحفه وكنوزه الفنية الرائعة التى لا حصر لها .

ولقد شهدت خلال زيارتى هذه لرومة ــ وكنت قـد زرتها من قبل مرارا ــ طائفة من هذه المشاهد التاريخية

الفريدة ، واستطعت أن أتأمل روعتها وجلالها ساعات طويلة ، ولكنى أشهد بأن قلمى ليعجز حقا عن أن يرسم صورا معبرة لهذه المناظر الرائعة ، مناظر عشرات بل مئات الالوف من البشر ، رجالا ونساء ، من مختلف الأمم والنحل ، تجتمع هادئة ، خاشعة فى أتم نظارة ، لتحظى برؤية الحبر الأعظم ـ البابا ـ أو تستمع لعظاته، أو تتلقى بركته الرسولية ، وهى تهتف له هتافا يشق أجواء الفضاء .

وكان من أهم أحداث هذه السنة المقدسة ، مما يتصل بصميم موضوعها وبرنامجها ، حادثان ، كان لهما أعظم وقع فى العالم المسيحى ، وهما تقديس الفتاة الايطالية « ماريا جوريتى » Maria Goretti ، واعلان المجمع المقدس صعود السيدة مريم العذراء الى السماء .

ولقد كنت من شهود الاحتفالات الكبرى التي أقيمت لتقديس « ماريا جوريتى » فى يومى ٢٤ و ٢٥ يونيه وماريا هذه فتاة قروية من أهل أنكونا ، ولدت سنة ١٨٩٠ ، فى أسرة فقيرة ، ولكنها كانت حسناء فاتنة ، فلما بلغت الثانية عشرة ، هام بها فتى من أهل القرية ، ولكنها لم تبادله هواه . وفى ذات يوم فاجأها وحيدة أمام منزلها وراودها عن نفسها ، وهددها بسكين فأبت فانهال عليها بسكينه طعنا ، وحملت الى المستشفى بين الحياة والموت ، ثم توفيت بعد يوم ، واعتبرت شهيدة النقاء والطهر ، واحتفل فيما بعد بنقل رفاتها الى كنيسة أنشئت خصيصا لتخليد ذكراها . ثم نقلت رفاتها الى رومة ، وأعلن البابا تطويبها فى سنة ١٩٤٧ ، ثم احتفل خلال السنة المقدسة ، بنظمها فى سلك القديسين فى

احتفالين رسميين عظيمين اقيم اولهما فى مساء يوم السبت ٢٤ يونيه ، فى ميدان القديس بطرس ، وشــهده زهاء مائة ألف ، واحتشد فى الناحية الاخرى من المنصة ، الكرادلة والسفراء ، وسائر المدعوين من مختلف الهيئات، واقبل البابا فى موكبه التاريخى الى منصة اقيمت أمام واجهة الكنيسـة ، وجلس على عرشــه ، ومن حــوله الكرادلة بأثوابهم القانية . والقى البابا بالايطالية ، خطبة ضافية ، أعلن فيها تقديس « ماريا جوريتى » ، ونوه بسمو الفضيلة والطهر والنقاء فيها .

وفى صباح يوم الاحد التالي ، اقيم قداس حبرى فى كنيسة القديس بطـرس ، وغصت الكنيســـة بعشرات الالوف من المـدعوين والزوار ، وقام البـابا بالمراسيم الدينية ، وأتم ما بدأه بالامس من اجـراءات تقـديس الفتاة الشهيدة ، وكان احتفالا بالغ الروعة والجلال .

وأما الحادث الثــانى ، فهو اعلان المجمع المقـدس المنعقد برياسة البابا ، نظرية جديدة ، تتعلق بالسيدة مريم العذراء ، وهى أنها لم تمت ، بل ارتفعت بجسدها وروحها الى السماء . واعتبار هذه النظرية ، من اصول العقيدة الكاثوليكية . وقد أثار هذا القرار فى كثير من الدوائر الدينية فى مختلف انحاء العالم ، جدلا ، لا نرى موضعا للخوض فيه .

***

وفى خلال ذلك كله ، كانت تساورنى أمنية ملحة ، هى أن أحظى بمقابلة البابا ، وكان يومئذ حسبما أشرنا ،

هو الحبر العلامة بيوس الثانى عشر ، وباسمه القديم (أوجنيو باتشيللى) . ولم يكن هذا الحبر الجليل غريبا عنى ، فقد سبق أن قابلته وحادثته قبل ذلك بعشرين عاما ـ فى سنة ١٩٣٠ ـ بصفتي صحفيا مصريا ، بمكتبه بقصر الفاتيكان . وكان يومئذ يشغل منصب معاون البابا بيوس الحادى عشر ، ومستشاره السياسى . وكان قد نال رتبة الكردينالة فى سنة ١٩٢٩ ، وشغل قبل ذلك منصب استاذ الدبلوماسية الدينية بجامعة رومة . وجرى الحديث يومئذ بينى وبينه عن معاهدة لاتران ، التى عقدها الكرسي الرسولي مع الحكومة الايطالية ، وزعيمها يومئذ موسوليني ، وانشئت بمقتضاها مدينة الفاتيكان، واستردت البابوية نفوذها الدينى ، وسلطتها الزمنية ، على الدولة البابوية الجديدة ، التى تتكـون من قصر الفاتيكان ، وميدان القديس بطرس وكنيسته ، وكنيسة سان جوفانى دى لاترانو داخل رومة ، وكنيسة القديس بولس ، وقصر كاستل جندلفو خارج رومة ، وقد رجوته يومئذ ان ازور قصر الفـاتيكان زيارة علمية تاريخية ، فتفضل بالتجوال معى فى سائر أنحـاء القصر العظيم ، وهو يشرح لى كل كبيرة وصغيرة من آثاره وروائعه . وكنت أحمل لهذا الحبر الجليل كثيرا من التقدير والاعجاب لصفتيه البارزتين ، الاولى علمه الغزير وتضلعه فى اللغات، اذ كان يتحدث فيما علمت بعشر لغات أو تزيد . والثانية خصومته للنازية الهتلرية ومبادئها العدوانية ، وذلك منذ كان مستشارا لسلفه بيوس الحادى عشر . وهو الذى وجه الفاتيكان يومئذ الى مقاومتها والتنديد بها . ولما اضطرمت الحرب العالمية الثانية ظهرت خصومته للنازيا

على اشدها ، وتوالت حملاته عليها ، وتنديده بما كانت تضمره ، « من سبق الاصرار والعدوان المتعمد ، واحتقار الحرية والحياة البشرية ، وما يقترن بكل ذلك من اعمال تصرخ الى الله بطلب الانتقام » .
وكان البابا خلال السنة المقدسة ، يشهد سيلا لا ينقطع من الحفلات الدينية الباذخة ، ويستقبل الوفود والاشخاص من سائر انحاء الارض ، ويلقى مئات الخطب والعظات ، ويضفي بركته الرسولية على الملايين من البشر ، جماعات وأفرادا .

مقابلتى لقداسة البابا بيوس الثانى عشر

ففى هذا البحر الخضم من الحفلات والرسوم البابوية ، اتيح لى أن احظى بلقاء البابا بيوس الثانى عشر ، وكان سفيرنا يومئذ فى رومة الاستاذ العمرى بك، قد نصحنى بألا اقبل يد البابا اسوة بزواره من المسيحيين ، وبأن أكتفي بالمصافحة والانحناءة التامة .
وكان ديوان قداسته ، قد تفضل بواسطة السفارة المصرية ، أن يدعونى الى مقابلة خاصة لقداسته ، فى صباح يوم الخميس ٢٩ يونيه سنة ١٩٥٠ .

ففى هذا الصباح ، ذهبت الى قصر الفاتيكان ، وصعدت الى الجناح البابوى ، وفقا للخطة الموضوعة ، وكانت مقابلات قداسته تبلغ يومئذ زهاء العشرين ، ما بين ساسة وأحبار ، وراهبات ، وكانت مقابلتى لقداسته بصفتى من العلماء المصريين .
وكان البهو البابوى الفخم الذى أخذنا اليه ، مزينا

بالنقوش والفريسكات التاريخيــة الرائعــة ، والستائر الحمراء ، واللون الاحمــر هو اللون الغــالب فى أبهــاء الفاتيكان . فالستائر والمقاعد والزخارف تميل كلها الى الحمرة القانية ، والعرش البابوى نفسه ، مكلل بالستائر الحمراء والكرسى الرسولى الذى يجلس عليه قداسته ، اينما نصب ، مكسو بالحرير الاحمر .

وبعد الساعة الحادية عشرة بقليل دعينا الى بهو آخر، يقع قبالة الجناح البابوى ، ثم رتبنا أفواجا مستقلة ، واعتبرت انا وحدى ، فوجا مستقلا . وكان ترتيبى الاول ، بعد رجال الدين ، وهم من الكرادلة ذوى الاردية الحمراء . وكنت اقف قبالة المكتب البابوى ، وهو يبدو من خلال بهوين آخرين . فلمحت قداسته يخــرج من مخدعه الى البهو الذى فيه الكرادلة . وبعد أن حياهم وحادثهم ، انتقل الى البهو الذى يليه ، وكان به فوج من الراهبات . فحياهن وحادثهن ، وكان كل فوج يخرج بعد التحية ، وتقبل البركة ، باشارة من كبير التشريفات، الذى يسير وراء قداسته .

ثم جاء دورى ، واقبل قداسته نحوى رشيقا ، خفيف الحركة باشا . واشهد حين اقبل انى رايت امامى نفس الرجل الذى رايته منــذ عشرين عاما ، لم تغير فيــه السنون ، ولم يرتسم على وجهه غضن ، وان كان يومئذ اميل الى النحافة . وكان قداسته يرتدى حلة بيضــاء داكنة . وعلى كتفه محرمة من نفس اللون ، وينتعــل خفا احمر ، وعلى راسه قلنسوته التقليدية ، فانحنيت امام قداسته انحناءة تامة ، وتنــاولت يده مسـلما . فسألنى بالفرنسية ، هل انت من مصر ، فأجبت نعم

يا ذا القداسة ، وقد كان لى شرف رؤياكم والاجتماع بكم منذ عشرين عاما . فابتسم قداسته ، وقال ، يسرني أن أراك ثانية . ودار بيني وبين قداسته حديث قصير ، أعربت خلاله لقداسته عما يشعر به العالم الاسلامى ، من العطف والاعجاب ، نحو الكفاح الباسل ، الذى يشهره قداسته فى خطبه ضد المبادىء الهدامة ، والنزعات الالحادية . وقد رد قداسته ، بأن أبدى ارتياحه وشكره. ثم قال « انى أباركك ، وأهديك ميدالية » ثم مد يده مسلما ، فانحنيت مرة أخرى انحناءة كاملة . وحييته بمنتهى الاحترام . وغادرنى قداسته لمقابلة من يلينى من المدعوين • وتسلمت الميدالية البابوية من كبير التشريفات ، وهى ميدالية السنة المقدسة ، وعلى وجهها صورة قداسته ، وهى ما تزال عندى تذكارا لهذا اليوم المشهود .

وقد كان البابا بيوس الثانى عشر ، حسبما قدمت على جانب عظيم من العلم والفصاحة المؤثرة ، وقد سمعته فى ذلك اليوم يتحدث ، الى جانب الايطالية ، لغته الأصلية ، بعدة لغات منها الانجليزية ، والفرنسية ، والالمانية ، والاسبانية ، والبرتغالية . هذا عدا ما عرف من براعته فى اللغة اللاتينية ، وهى التى يلقى بها خطبه الدينية الكبرى .

وقد ولد البابا بيوس الثانى عشر بمدينة فتربو على مقربة من رومة سنة ١٨٧٦ ، وتوفى سنة ١٩٥٨ (١) .

---

(١) تجد مقالا بقلمى عن حياة البابا بيوس الثانى عشر ، فى مجلة الهلال ، فى عددها الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٥٨

مقابلتى لرئيس المانيا الاتحادية
ورحلاتى الى الرور والسار وبرلين الغربية

وغادرت رومة الى اسبانيا فانجلترا ، فألمانيا ، حيث وصلت الى مدينة كولونيا فى الثانى من اغسطس ، وكانت يومئذ ركاما وحطاما شاملة ، وليست بها اية طرق منتظمة أو مبانى قائمة . ولم يكن قائما بها سوى الكاتدرائيـة الكبرى ، تقف أمامها ، وقد أحيطت من جميع نواحيها بالاخشاب العريضة ، تسندها ، وتقويها على الصمود .

وسافرت توا الى بون ، حيث وصلت فى اليوم التالى، وفى الخامس من اغسطس حظيت بمقابلة الدكتـور تيودور هويس أول رئيس الألمانيا الاتحادية ، وجرى لى معه حديث مستفيض استمر نحو الساعة . وسألته رأيه فى مختلف المشاكل ، التى كانت تواجهها المانيا يومئذ ، نتيجة لهزيمتها الساحقة فى الحرب العالمية الثانية ، مثل مشكلة التعويضات التى فرضها الحلفاء الظافرون عليها ، ومسألة الرقابة التى فرضت على منطقة الصناعات الثقيلة (منطقة الرور) ، ومسألة اقليم السار وفصله عن المانيا ، ومسألة احتلال قوات الحلفاء لألمانيا، وتقسيمها الى مناطق ، تحتل كل منها منطقة بعينها الى ذلك من مسائل الساعة . والدكتور هويس كاتب ومؤرخ، وكانت ايجاباته لى ، تتسم بتحليل المؤرخ ، ودقة فى عرض المسائل .

وفى اليوم السابع من اغسطس قمت بزيارة منطقة

لرور الصناعية بتصريح من وزارة الخارجية ، وقد ندبت لمرافقتى فى هذه الرحلة ، الدكتور كارل ملينباخ ، رئيس القسم الاقتصادى بمكتب الصحافة ، وخصصت لنا سيارة للتجوال بها حيثما أردنا . وكانت منطقة الرور تقع يومئذ فى منطقة الاحتلال البريطانى ، وتشمل ولايتين من ولايات الرين ، هما رينلاند ووستفاليا ، ويخترقها نهر الرور فرع الرين ، وباسمه سميت المنطقة كلها . وتعتبر منطقة الرور أعظم مناطق الصناعات الثقيلة فى العالم . وهى ذات طبيعة خاصة ، ففيها تمتد البسائط الخضراء اليانعة على ضفتى نهر الرور ، ولكنك متى سرحت البصر فى الأفق ، فان العين لا تقع الا على المداخن والأفران العالية ، وفوهات المناجم ، تعلوها الآلات الضخمة وتظللها جميعا سحب الدخان ، ومن وراء ذلك كله تلال خضراء نضرة .

وقد طفت برفقة الدكتور ميلنباخ ، عدة من مدن الرور الصناعية ، مثل دبسلدروف وأيسن ، ودويز برج ، ورينهاوزن ، وميلهايم ، وغيرها ، وأتيح لى لأول مرة فى حياتى أن أرى طائفة من مناجم الفحم والمنشآت الصناعية الكبرى ، وبدأنا بزيارة مدين ايسن ، أعظم مراكز الرور الصناعية ، وبها مصانع كروب الشهيرة . وطفنا أرجاء منجم تسول فراين أعظم آبار الفحم فى العالم ، وهبطنا الى قاعة بالمصعد ، على عمق سبعمائة متر تحت الارض ، ورأينا النفق الهائل الذى يؤدى الى مكان الفحم الخام فى باطن الارض ، وهو يمتد نحو ميلين ، وتسير اليه العربات الصغيرة على قضبانها ، ثم تأتى محملة بأحجار الفحم ، وترفع بعد ذلك الى أعلى . وزرنا فى دويزبرج مصانع

صهر النحاس . ثم أتيحت لنا فرصة فى راينهاوزن للتجوال فى مصانع الصلب الكبرى ، وشهدنا بها الافران العالية ، وتتبعت عملية صهر الحديد الخام ، وتنقيته ثم صبه فى قوالب ليكون كتلا نارية ، توضع فى أتون عال وتصهر ثم تنقى ، وتحمل بعد ذلك كتلا صلبة ضخمة فى قطارات خاصة الى مصنع التكييف .ورأينا غير ذلك من المصانع المختلفة والآلات الضخمة . وتلقينا شروحا ضافية من المختصين لكل ما رأينا ، وعند اختتام زيارة مصانع كروب برينهاوزن عرض على مدير مصنع التكييف عقب انتهاء الغذاء بمنتدى المصنع ، هدية تذكارية ثمينة، هى عبارة عن مسدس جميل من صنع كروب . فأجبته شاكرا أنه يتعذر على قبول هذه الهدية لأن حمل السلاح بمصر يقتضى ترخيصا رسميا وله اجراءات معقدة . فذهب وأتى لى بمطواة جيب فاخرة لامعة من النوع الذى لا يصدأ قط فتقبلتها منه شاكرا وهى ما تزال معى الى اليوم بعد ثلاثين عاما تذكارا ثمينا أحمله فى سائر اسفارى وما زالت تحتفظ بلمعانها وجدتها . وقضينا فى هذه الرحلة الصناعية الهامة ثلاثة أيام ، وتركنى الدكتور ميلنباخ فى ديسلدورف ، حيث غادرتها فى اليوم التالى الى بون .

وفى الحادى عشر من اغسطس ، سافرت الى منطقة السار ، وقصدت الى عاصمتها : « ساربروكن » . وكانت يومئذ تحت الاحتلال الفرنسى . ثم قابلت الهيرهوفمان مندوبها السامى ، وحادثته فى أوضاع اقليم السار ، وما يمكن ان يتوقع فى شأنه ، وفى احتمال عودته القريبة الى سيادة المانيا صاحبتها الشرعية . وقد كان الهيرهوفمان

متحفظا معي في حديثه واجاباته .

وفي يوم ١٣ أغسطس سافرت بالطائرة الى برلين الغربية لزيارتها بدعوة من وزارة الخارجية . وقضيت بها بضعة أيام في ضيافة مكتب الصحافة بها التابع لحكومة بون، وكانت برلين عاصمة «الريخ القديمة» قد قسمت وفق اتفاق الصلح الى قطاعين ، هما برلين الشرقية ، وهو يتبع المانيا الشرقية ، وبرلين الغربية ، وهو الذى يحتله الحلفاء الغربيون ، أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، لكل منها منطقة خاصة ، وكانت برلين وقت زيارتي لها ما زالت تسودها الخرائب والركام ، وقد زرت في قطاعها الشرقي، خرائب وزارة الخارجية القديمة (الفيلهلم شتراسه) وجدارها الباقي من المستشارية القديمة التى كان يشغلها هتلر ، كما زرت أنقاض الريخستاج (البرلمان الالماني) وأنقاض (اللوست جارتن) وغيرها من معاهدها القديمة. وكان الزائر لبرلين يومئذ يستطيع أن ينتقل من قطاعها الغربي الى قطاعها الشرقي دون صعوبة . وكان كثير من سكان القطاع الشرقي يفرون الى القطاع الغربي ، وقد شاهدت في برلين الغربية ، معسكر اللاجئين اليها منهم ، وكانوا يتكدسون فيه ، في مناظر مؤلمة ، ولا سيما المتزوجون منهم وأطفالهم الصغار . وقابلت في برلين الغربية زعماء الاحزاب المختلفة ، وتحادثت معهم في شئون برلين وعلاقاتها مع حكومة بون ، كما تحادثت مع وزير الدولة الهير فوكل في كل هذه الشئون .

وعدت من برلين الغربية الى فرانكفورت . ثم سافرت الى ميونيخ ، وعبرت الحدود الالمانية من روزنباخ الى سويسرا ، وسافرت الى امارة لختنشتاين الصغيرة الواقعة

فى اقصى غرب النمسا ، وشمال شرقى سويسرا ، وقضيت ليلة بعاصمتها فادوز (٢٠ أغسطس) وزرت قصر أميرها، وعاينت به مجموعات الصور والتحف النادرة ، وتحادثت مع كبيرة امناء القصر الكونتة بالفى ، وتلقيت منها سائر المعلومات الخاصة بالامارة واميرها . وكتبت عنها فيما بعد فصلا نشر فى عدد الصيف الذى أصدرته جريدة الاهرام .

وسافرت بعد ذلك الى فيينا ، وأقمت بها بضعة أيام، وأجريت مع مستشارها الدكتور ليوبولد فجل ، حديثا عن المشاكل ، التى تواجهها النمسا ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وما تعانيه من متاعب الاحتلال الاجنبى . ونشر حديثى بجريدة المصرى .

وعدت على أثر ذلك الى القاهرة فى السابع والعشرين من شهر سبتمبر .

وهكذا كانت هذه السنة ـ سنة خمسين ـ عامرة بالرحلات والدراسات الصحفية المثمرة .

* * *

وسافرت الى برلين الغربية مرتين أخريين ، الاولى فى فبراير سنة ١٩٦٠ ، وكانت قد غدت عندئذ مدينة جديدة ، واستحالت أحياؤها القديمة ، من خرائب وركام مؤذية الى مدينة من اعظم المدن الاوربية ، تغص بالاحياء الفخمة والصروح العالية المحدثة والشوارع العريضة والمنشآت والمتاجر العظيمة من كل ضرب ، وقد خلعت عنها الثوب البروسى القديم ، الذى خلعته مدن ألمانية كثيرة أخرى جددت بعد الحرب . وتعتبر برلين الغربية اليوم ، من حيث الانتاج والنشاط من أعظم مدن المانيا

الصناعية ، ويبلغ سكانها أكثر من مليونين من الأنفس . وكذلك زرت برلين الشرقية ، وقد قام الروس فيهـــا كذلك بأعمال التعمير ، ولكن بنسبة تقل بكثير عن نظيرتها في القطاع الغربي . وأعظم أعمال التعمير الروسية ، هو اقامة شارع ستالين الشاسع (وهو اليوم شارع كارل ماركس) على أنقاض شارع فرانكفورت القديم ، وهو أفخم شوارع المنطقة الشرقية ، وكان الروس قد أحاطوا برلين الشرقية بسور قوى من الاسمنت يفصلها عن برلين الغربية منعا لحوادث الفرار المتوالية منها ، وكانت تبدو يومئذ كمدينة تحت الحصار ، شوارعها راكدة هادئة والمرور بها قليل . ومعظم مســاكنها مغلقــة النوافذ ، ومنتدياتها ومقاهيها خالية . وهذا بخلاف برلين الغربية التى تغص بالمارة والحركة ، وتبدو فيها الحياة باسمة ناشطة . وفى هذه المرة اتيح لى لقاء عمدة برلين الغربية يومئــذ الهير فيللى برانت ، زعيم الحــزب الديمقــراطى المسيحى ، الذى غدا فيما بعد مستشارا لألمانيا الاتحادية ، وجرى لى معه حديث طويل عن أوضاع برلين الغربية وأحوالها ، وعلائقها بالحكومة الاتحادية . وقد نشر هذا الحديث فى وقته بمجلة المصور .

ووقعت الزيارة الثانية فى يونية سنة ١٩٦٣ . وكانت العلائق قد توترت يومئــذ بين برلين الشرقيــة وبرلين الغربية ، وزاد الروس فى تعلية أسوار برلين الشرقية ، وشردوا فى اغلاق مداخلها ، ومع ذلك فقد زرت برلين الشرقية مرة أخرى ، واحتجزت سلطات الدخول جواز سفرى وسائر أوراقى وآلة التصوير التى كانت معى . وقضيت اليوم اتجول فى أنحائها ، وقد كانت ما تزال على ما كانت عليه من الفقر والسكون الموحش ، وكانت

منازلها كما سبق ان شهدتها من قبل ، ما تزال مغلقة النوافذ والابواب ، لا تكاد تحس بها حسيسا . وغادرتها نحو المساء ، واستعدت جوازى وأوراقى والكوداك ، وخرجت احمد الله على السلامة ، واخذت فى هذه المرة كثيرا من الصور خارج الاسوار ، وأمام أبواب الدخول ، وأتيح لى يومئذ أن أزور متحف دالهم ، وأن أشاهد تمثال نفرتيتى البديع ، وقد وضع به فى بهو خاص ، يفد عليه الزوار بكثرة ، ويتأملونه دهشين معجبين .

وفى مساء يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٩٦٤ ، توفيت المرحومة والدتى السيدة نبيهة على عبد اللاه عن نحو تسعين عاما ، اذ كان مولدها حسبما سبق ان أشرت اليه فى سنة ١٨٧٤ . وكانت وفاتها بمنزلها الذى كنا نملكه بالعلية . وحملت فى ظهر اليوم التالى ، بعد الصلاة عليها فى الجامع المواجه لمنازلنا ، لكى تدفن مباشرة فى مدن السائلة بالامام الشافعى ، وذلك دون اقامة سرادق أو تشييع جنازة ، تجنبا لبعض الاجراءات التى كانت تعمل بالنسبة لوفيات الأشخاص ذوى المكانة الخاصة . ونشر النعى فى اليوم التالى بجريدة الاهرام واحييت ليلة المأتم بمنزلنا بالمعادى ، بيد انه وقعت المفاجأة ، وكانت الدهشة حينما وردت فى اليوم التالى برقية تعزية من السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، وبرقيات أخرى من بعض رجال الدولة ، مثل السيد كمال الدين حسين ، وغيره وبالرغم من انني قمت بما ظننت انه يسدل ستارا على الحادث من الاجراءات ، ويجنبني هذه المجاملات وأمثالها ، الا ان هذه المجاملات الكريمة ذاتها كان لها فى نفسى أطيب وقع ، واقتضى أن ذهبت الى رياسة الجمهورية وقيدت اسمى للشكر بدفتر التشريفات .

النشاط العلمى المحلى

كنت لما اعتزلت خدمة الحكومة فى سنة ١٩٥٣ ، افكر فى العود الى الاشتغال بالمحاماة محاميا لدى القضاء العالى ومجلس الدولة ، وكنت انوى أن أقصر نشاطى على نوع معين من القضايا . وهى القضايا التى تقع فى حيز القانون الدولى الخاص ، والتى تمثل ضروب النزاع بين المصريين والاجانب ، وبين الاجانب المختلفى الجنسية. وتحدثت فى ذلك مع بعض زملائى القدامى ، فأبدوا لى ان هذا التفكير يأتى متأخرا جدا ، وان تقدير العمل فى القضايا المختلطة ، لم يبق له موضع فعلى ، لان معظم الأجانب العاملين ، قد بدأوا يغادرون البلاد تحت وطأة النظام الجديد ، ولن يلبثوا حتى يجلون عن آخرهم . ومن جهة اخرى فان مهنة المحاماة فى ذاتها ، قد أضحى مشكوكا فى مستقبلها وضماناتها . ومن ثم فانه يجب استبعاد التفكير فى العمل فيها .

وقد اقتنعت يومئذ بهذا الرأى ، وشعرت شعورا قويا بأن العمل فى أية مهنة محلية ، يباعد بينى وبين مشروعى الذى انتويه من تكريس سائر نشاطى لبحوثى التاريخية ، والاندلسية بنوع خاص ، ومسرحها الاساسى كما أوضحت من قبل ، يوجد فى الخزائن والمحفوظات الاسبانية والمغربية ، والعمل فيها يقتضى معظم الوقت ، فلم تك ثمة أية فرصة متاحة ، لمزاولة اى عمل آخر .

ولم أفكر على الاطلاق ، أن أشتغل بصحافة العهد الجديد ، مهما كانت طوالعها المغربية ، وان كنت من المع الصحفيين القدامى ، اذ كنت أربا بكرامتى وحرية قلمى ، ان توضع موضع المزايدة والتغرير ، والدعايات الكاذبة ، وتأييد نظام ، بدت طوالعه مصطبغة بالالوان النازية ، ومن ثم فقد ابتعدت عن كل نشاط صحفى ، فيما خلا بعض المهام الخارجية ، التى كنت اضطلع بها وفقا لذوقى واختيارى ، ولحساب نشاطى الخاص ، والتى أوردت منها فيما تقدم نماذج كثيرة .

وكذلك فقد أضربت عن المساهمة فى الكتابة فى المجلات الادبية ، لانها على قلتها ، وضآلة مستواها فى العهد الجديد ، لم تكن خليقة بالبحوث أو الكتابة الادبية العالية . وقد غلبت عليها ما يسمى بالنعرة الاشتراكية . وغيرها من دعايات هذا العهد ، مما يأنف مثلى من المساهمة فى تحريرها .

وكان نشاطى العلمى المحلى ، يقتصر على التحاقى بعضوية « لجنة التاريخ والآثار » بالمجلس الاعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . واشهد أنى قبلت الانضمام اليها نزولا على رغبة مقررها صديقى وأستاذى العلامة المرحوم عبد الرحمن بك الرافعى ، وقد كان ينتظم بها نخبة من اكابر علمائنا ومؤرخينا امثال المرحومين الاساتذة شفيق بك غربال ، ومحمد رفعت باشا ، والدكتور محمد صبرى السوربونى ، والدكتور جمال الدين الشيال ، ومن الاثريين المرحومين الدكاترة أحمد فخرى ، وعبد المنعم ابو بكر ، وجمال محرز ، والاستاذ حسن عبد الوهاب ، طيب الله ثراهم جميعا ، وما زلت

عضوا بها حتى كتابة هذه السطور .

والتحقت فى نفس الوقت عضوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، واشتركت فى كثير من مؤتمراتها وحفلاتها التذكارية للمؤرخين المصريين ، أمثال القلقشندى ، والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، وابن اياس ، والجبرتى ، وألقيت بها محاضراتى عن هؤلاء المؤرخين الاعلام ، والقيت بها كذلك محاضرات عديدة فى موضوعات اخرى .

وانتخبت عضوا بمجمع اللغة العربية الموقر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٧٥ ، ووقع ترشيحى فى غيبتى بالمغرب ، بواسطة جماعة من الزملاء الأوفياء ، وتم انتخابى فى الدورة الاولى فى المكان الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور عبد الحكيم الرفاعى ، وهو كما علمت من رئيس المجمع الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ، أمر نادر الحدوث فى انتخابات المجمع . وتم استقبالى عضوا بالمجمع فى يوم الاربعاء السابع من شهر ابريل سنة ١٩٧٦ ، وقدمنى الى المجمع زميلى الاستاذ ناصف النجدى ، والقيت كلمتى عن سلفى المرحوم الدكتور عبد الحكيم الرفاعى ، وحضرت هذه الجلسة معى السيدة حرمى . وأنا الآن سعيد بمثولى بين زملائى أعضاء المجمع ، الذين يمثلون جمعا من خيرة العلماء الأجلاء .

ثم كان أن حظيت بالحصول على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية فى الجلسة التى عقدت بمجلس الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٧٧ ، وكنت

قد رشحت للحصول عليها من قبل لجنة التاريخ والآثار قبل ذلك بأعوام طويلة .

وقد حصلت أولا على المنحة المالية المقررة لهذه الجائزة وقدرها ألفان وخمسمائة جنيه . ثم أرجئت بقية الاجراءات حتى يتيسر عقد جلسته لموسم العلم . وقد تحدد لذلك أخيرا مساء يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٣٩٩ هـ الموافق للتاسع من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٩ . وقد تقرر أن يكون استلام الفائزين للمدالية الذهبية ووسام الجمهورية فى ذلك المساء ، وأن يكون تسليمها بمعرفة السيد رئيس الجمهورية محمد أنور السادات وحضور السيد وزير الثقافة الاستاذ منصور حسن ، وذلك فى حفل فخم عقد بمسرح الجمهورية المجدد خصيصا ليحل محل الأوبرا القديمة المحترقة ، ولتعقد به الحفلات الرسمية . وكان فى الواقع حفلا وقورا بهجا ، تسلمت فيه الى جانب زملائى الفائزين معى فى سنة ١٩٧٧ بجوائز الدولة التقديرية ، المدالية الذهبية ، وقد نقش عليها اسمى ، كما نقش عليها عبارة « علوم اجتماعية » ، ووسام الجمهورية من الطبقة الاولى فى العلوم والفنون ، تسلمتها من يد السيد رئيس الجمهورية ، وصافحته شاكرا وكان زميلاى اللذان حصلا على الجائزة التقديرية هما السيدة الدكتورة سهير القلماوى ، والاستاذ وزير الثقافة السابق بدر الدين ابو غازى ، كما سلمت فى نفس الحفل المداليات والأوسمة الخاصة بسنة ١٩٧٨ على مستحقيها ، وكانوا عدة آخرين من بينهم السيدة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) . وقد كان هذا حسن الختام فى اجراءات

جائزة الدولة التقديرية . والحمد لله .

وقد شعرت أخيرا ، وبعد طول الوقت أن بلادى العزيزة لم تنسنى ، ولم تنس جهودى العلمية الدائبة الزاخرة ، خلال هذا العمر الطويل ، وان كان هذا التكريم ، قد جاء متأخرا بعض الوقت ، ولم أسعد به الا فى عمرى المتقدم .

وكان يقترن بهذا الاستعراض السريع لنشاطى العلمى بمصر ، فى الفترات التى كنت أوجد فيها بالقاهرة خلال تلك الحقبة الطويلة ، التى انفقتها فى دراساتى الاندلسية فى اسبانيا والمغرب ، كان ذلك يقترن بمتابعتى لطبع كتبى بالقاهرة ، وفى مقدمتها كتابى الضخم : « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس » ، وفى اعادة طبع كتبى الاندلسية ، مرة بعد أخرى ، ثم نشر كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » للوزير ابن الخطيب ، وهو الذى قمت بتحقيقه ، وعكفت أعواما طويلة ، على تصحيح نصه ووضع حواشيه ، والذى قدم الى المطبعة منذ سنة ١٩٧٢ ، واستمر بمجلداته الاربعة تحت الطبع حتى خريف سنة ١٩٧٨ ، حيث تم بحمد الله اكمال طبعه بعد مجهود طويل شاق ، كان يزيد من متاعبه وآلامه ، اهمال « الشركة المصرية للطباعة والنشر » القائمة بطبعه وتسويفها المستمر ، وتقصير عمالة لا ضمير لها ، ولا شعور بالواجب أو المسئولية ، أسوة بمعظم منشآت القطاع العام .

* * *

هذا وكنت قد دعيت فى اكتوبر سنة ١٩٧٤ ، من قبل صاحب الجلالة الملك الحسن الثانى ، ملك المغرب ، للعمل

بالخزانة الملكية المغربية ، فقبلت الدعوة ، وصدر مرسوم جلالته بتكليفي بمهمة بالديوان الملكي . واخترت ان تكون مهمتي بالخزانة الملكية ، وضع فهرس علمي مقارن لقسم المخطوطات التاريخية ، وهو يحتوي على قرابة الف مخطوط ورسالة ، وبه عدة من المخطوطات الوحيدة والنادرة . وكنت أعرف الخزانة الملكية من قبل ، اذ كنت أقوم فيها من آن لآخر بدراسة المخطوطات التي تتعلق ببحوثي ، ولم تكن لي بالقائمين بالعمل فيها أية صلات خاصة . فلما مثلت بها للقيام بمهمتي الجديدة ، واتصلت بطاقمها الملحق بها ، هالني ما وجدت عليه أولئك العاملين من انحطاط المستوى المهني والمعنوي ، فهم جميعا ، ما عدا اثنين او ثلاثة ، لا يعرفون شيئا في أعمال المكتبات المنظمة ، ولا يعرف أحدهم أية لغة أجنبية معرفة مجدية .

ولم يكن بالخزانة اى فهرس علمي أو دولي ، وكان أشد ما يؤلم نفسي ، أن أشتغل في مثل هذا الوسط ، الذي لا يليق وجود مثله بالخزانة الملكية . بيد أنه لم يكن ثمة مجال للتراجع ، وقد لبيت دعوة صاحب الجلالة . وقد حياني جلالته ، حينما تشرفت بمقابلته في فاس في بداية مقدمي الى المغرب ، بقوله موجها كلامه الى ، بين وزرائه ورجالات بلاطه « لقد بحثنا عمن يقوم بهذا العمل، فلم نجد الا عبد الله عنان » وكانت هذه التحية الملكية الرقيقة شعاري طول الوقت .

وقد بدأت عملي بالعمل على تزويد الخزانة الملكية بطائفة من المعاجم والفهارس الدولية ، وفي مقدمتها موسوعة الدكتور كارل بروكلمان عن تاريخ الادب العربي، وموسوعة الأستاذ فؤاد سزجين الالمانية عن تاريخ التراث

العربى ، والطبعة الفرنسية من دائرة المعارف الاسلامية ، وفهارس مكتبة الاسكوريال ، الفزيرى وديرنبور ، ومكتبة الفاتيكان الرسولية ، ومكتبة باريس الوطنية . هذا الى ما كنت أحتفظ به فى ملفاتى الخاصة من دراسات فهرسية كثيرة ، عن عدد من المكتبات الاوربية . وهى دراسات أفرغت منها كل ما يتصل بنظائر المخطوطات الملكية ، فى الفهرس الذى أقوم بوضعه . وقد تم بحمد الله وضع الفهرس المنشود لقسم التاريخ فى أوائل يونيه سنة ١٩٧٨ ، على نمط علمى دولى واسع المدى ، وسلمته الى المسئولين . والامل معقود بطبعه باذن الله فى أقرب وقت .

وأود أن أشير هنا الى المعنى ، الذى تنطوى عليه الدعوة الملكية الكريمة بتكليفى بمثل هذه المهمة العلمية . فان الذى قام بوضع فهارس مكتبة القرويين الدينية الكبرى ، هو المستشرق الفريد بل ، والذى قام بوضع فهارس مكتبة الرباط هو المستشرق ليفى بروفنسال . وما زال اخواننا العلماء المغاربة يلتزمون فى وضع الفهارس بالطريقة الكلاسيكية القديمة ، التى مضت اليوم ، لخلوها عن كل صفة علمية مقارنة ، وذلك لعدم معرفتهم باللغات الاجنبية ، التى يجب توفر العلم بها لتحقيق هذا الطابع العلمى .

وقد أتممت مهمتى بالخزانة الملكية فى أوائل سنة ١٩٨١ ، وكان السيد مدير الخزانة ، قد اقترح بهذه المناسبة على مدير الديوان الملكى ومستشار صاحب الجلالة الاستاذ احمد بن سودة ، ان يتفضل صاحب الجلالة بالانعام على بوسام علمى ، وكذلك بمكافأة مالية

تقديرا لجهودى فى خدمة الخزانة الملكية . ووافق صاحب الجلالة على هذين الالتماسين . ودعيت الى مراكش حيث كان يقيم جلالة الملك ، وحضرت مع باقى المدعوين من رجال الدولة ليلة المدائح النبوية فى يوم ١٨ يناير سنة ١٩٨١ . وفى اليوم التالى ، وهو يوم الاحتفال بذكرى المولد النبوى المعظم ، تشرفت بمقابلة صاحب الجلالة ضمن رجال الدولة ، وتفضل جلالته بمنحى الوسام العلمى (الكفاية الفكرية) ، وقلدنى اياه بيده الكريمة . ولكنى تعذر حصولى على المكافاة المالية ، التى كان قد وافق جلالته على منحها بالرغم من انتظارى بالمغرب وقتا كافيا . وقيل لى أخيرا فى الديوان أن هذه المكافاة سوف ترسل الى بعنوانى بالقاهرة . ولكن لم يرسل الى بشىء من ذلك رغم مرور وقت كاف على هذا الوعد .

انجاز كتابى الاحاطة والريحانة

وكان من نتائج هذه الاقامة الطويلة بالمغرب انى استطعت أن أقوم بانجاز عملين أدبيين خطيرين أولهما القيام على اتمام تحقيق كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب . والثانى ، أن أقوم بعد انجازه بالعمل على تحقيق كتاب « ريحانة الكتاب ونجمة المنتاب » لابن الخطيب أيضا . وقد تم انجاز الاول تحقيقا وطبعا فى سنة ١٩٧٣ بعد عدة أعوام من المثابرة والعمل المضنى . واستطعت فى نفس الوقت ان اقوم بتحقيق كتاب « ريحانة الكتاب » ومخطوطاته فى المكتبات المغربية بعد ان حصلت على نسخته الرئيسية الهامة من مكتبة الاسكوريال . وكان هذا العمل الادبى

الضخم ، يشغل كل أوقات فراغي ، فكنت أعمل فى هذا التحقيق كل مساء مدى ساعات ، وأنجز قسما لا بأس به من هذا الكتاب أو ذاك . وقد تم طبع كتاب «الاحاطة» بمجلداته العريقة أثناء وجودى بالمغرب . وكنت أخصص له فى كل سنة بضعة أشهر من الاجازات التى كنت احصل عليها للراحة والاستجمام بالقاهرة ، فتقوم المطبعة بانجاز قسم لا بأس به ، وينجز الباقى الذى لا أتمكن من مباشرته خلال غيابى بعد الاحتياط لاعداده وترقيمه وتشكيله ، وأما كتـــاب الريحـــانة فقد أنجزت تحقيقه فى العامين الاخيرين من اقامتى بالمغرب ، بعد الانتهاء من انجاز كتاب الاحاطة ، ولم يبدأ بطبعه الا بعد الانتهاء من كتـــاب الاحاطة ، وعودتى الى القـــاهرة واستئناف اقامتى بها ، وقد كان الريحانة بالنسبة للاحاطة عملا هينا • ولــكنه لبث فى المطبعة كالمعتـــــاد وقتا طويلا ، وبذلنا جهـــدا فى مجلديه أســـــتمر نحو ثلاثة أعـوام • وكانت النتيجة اخراج هذين الكتابين الضخمين ، وأولهمـــا الاحالة فى أربعة مجلـــدات كبيرة وثانيهمـــا الريحـــانة فى مجلدين . ويعتبر كلاهما آخر أعمالى الادبية الكبرى . والحمد لله على الظفر بانجازهما خلال حياتى •

***

هذا ، وأنه لمن المناسب ان أشير هنا الى أمكنة اقامتى بمدينة القاهرة خلال هذا العهد الطويل الذى اسـطر حوادثه .

كانت عائلتى المتواضعة خلال أيام دراستى تنتقل فى

السكن بين احياء القاهرة الشعبية ، التى يسهل منهـا وصولى الى مدرستى . وكنت أثناء دراسة الحقوق ، وكانت أسرتى تعيش يومئذ بالقرية ، أقيم وحدى بشقة أرضية متواضعة بالحارة التي توصل بين شارع الخليج المصرى (بور سعيد الآن) ، وشـارع جامع عابدين . ومذ عدت من الاقاليم خـلال حياتى العمليـة ، الى القاهرة ، تنقلت فى السكنى مع عائلتى بين السيدة زينب وبركة الفيل . ثم سكنت عقب زواجى فى سنة ١٩٣٠ ، فى منزل خاص ، يقع قرب وزارة المالية خلف مدرسة الخديو اسماعيل ، وبه ولد ولدى الاكبر الدكتور محمود. وانتقلت منه الى شبرا تبعا لنصـح الطبيب ورعايته لصحة ولدى فى حى طلق الهواء . وكانت شبرا يومئذ ما تزال فى أواخرها ، خالية فسيحة الارجاء . ولما اشتد ولدى قليلا انتقلت الى الحلمية الجديـدة فى منزل عائلى كبير ، من منازل الباشوات القدامى ، يقع فى شارع الهامى باشا (الآن الماس الحاجب) . وكان جل منازله يومئذ من الفيلات الخاصة ، ومنها منزل المرحوم نسيم باشا ، الذى حول فيما بعد الى مدرسة ، وتسكنه طائفة من العائلات المحترمة ، واستطالت اقامتى فى هذا المنزل نحو عشرين عاما ، وكبر به أولادى الثلاثة . وتخرج ولدى محمود من كلية طب قصر العينى . وتخـرجت ابنتى سعاد من كلية الآداب بجامعة القاهرة . وعندئذ رأيت أن أنتقل الى منزل آخر أكثر جدة ، وفى حى ارستقراطى ، ولا سيما أن منازل شارع الهامى ، قد تحول معظمها خلال هذا المدى الطويل الى عمارات سكنية حاشدة ، واستقر الرأى العائلى على أن يكون ذلك فى ضاحيـة

المعادى . وكان ذلك فى سنة ١٩٥٨ . وكانت هذه الضاحية ما تزال يومئذ على رونقها التى أسبغه عليها تخطيطها الأرستقراطى وسكانها الاجانب ، وكانوا يومئذ كثرة بها . ولم يكن قد أصابها التشويه والاهمال التدريجى ، والغزو الشعبى المبتذل . فنزلت بها فى دور كبير فخم مستقل هو الدور الاول من فيلا فخمة ، وبه غرفة كبرى اتسعت لمكتبتى الكبيرة . وبهذا المنزل تخرج ولدى الثانى حسين من كلية الحقوق ، وما زلت حتى كتابة هذه السطور أقيم فى هذا المنزل الجميل الساحر ، وذلك بالرغم من أنى أملك فى المعادى نفسها فيلا كبيرة فخمة ، يسكن بها ولدى حسين وعائلته ، ويتولى شئونها ، وبالرغم مما طرأ على المعادى من تغير كبير فى مستوى سكانها ، وما أصابها من الغزو الشعبى المؤذى ، وماتقاسيه من أهوال المواصلات التى لا تليق بأية مجتمع متمدن ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

بعض الانطباعات عن رحلاتي الاوربية

لقد زرت خلال رحلاتي الدراسية والسياحية بسائر دول أوربا الغربية ، والمملكة المتحدة (بريطانيا) ، ولم أزر قط روسيا السوفييتية ، وهو امتناع مقصود ، لأني صممت على أن لا أزور البلاد الشيوعية ، ولأنني أمقت المذهب الشيوعي ، وكل من يدين به . ولقد كانت مثل هذه الزيارة ميسورة في فرص كثيرة ، انتهزها اخواني أعضاء مجلس الفنون وغيرهم ، وصفوا لي الكثير مما شاهدوه في موسكو من الخطط والمشـاهد العظيمة ، والمنتديات الفخمة . ولكن ذلك لم يستملني قط الى استجابة الدعوة الى زيارة روسيا . وكل ما كنت أود أن أزوره منها هو التركستان المسلمة ، ولكني لم أطمئن كذلك الى القيام بمثل هذه الـزيارة ، لاني أعرف أن السلطات الثقافية الروسية في القاهرة ، تعرف جيدا ما صدر مني من حملات عديدة ضد المذهب الشيوعي ، وضد روسيا السوفييتية .

وهكذا تمت لي زيارة سائر بلاد القـارة الاوربية ، ما عدا روسيا السوفييتية وهو نقص لم أندم عليه قط .

ولقد ترددت على بلاد القارة مرارا وتكرارا ، ولا سيما فرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وبريطانيا ، واتصـلت بشعوبها ، ودرست خواصها الحضارية . وفي رأيي أن الحضارة الاوربية الصميمة تتألق في هذه البلاد الخمسة ،

أكثر من غيرها ، وانهـا تبلغ بين بلاد القـارة ، أعلى مستويات الحضارة الاوروبيـة المنبثقـة من الحضـارة الرومانية ، ومع أن البلاد السكندنافيـة ، ودنماركة والسويد والنرويج ، لا تقل فى مستواها الحضاوى عن هذه البلاد ، فانها تبدو للزائر ، منذ الدراسة الاولى ، انها بالرغم من مسـتواها الحضارى الرفيع ، بلاد باهتة ، ليس لها خواص أصيلة بارزة ، مما يمتازر به البلـد المتمدن عن غيره ، وانما هى بلاد ذات مظاهر حضارية عادية ليس لها لون خاص ، ويمكن ان تلاحظها فى أية بلاد متمدنة أخرى . ومن ثم فان البلاد الخمسة التى ذكرناها ، وهى فرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وبريطانيا، هى حسبما أسلفنا موئل الحضارة الاوربية الصميمة ، وكـل منها تتميز بخـواص بارزة مستلقة ، من حيث الشخصية والعقلية ، والاخلاق ، وأسـاليب التفكير ، والحياة . ولكنها جميعا تبلغ القمة من المستوى الحضارى، وكـل ما ينضوى تحتـه من المستويات الاخـلاقية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والاقتصادية ، والصناعية ، والزراعية ، والتقنية . وكل منها ــ فيما عدا المانيا ــ ذات تاريخ قديم عريق ، وكلها تتمتع بتراثات علمية ، وأدبية بارعة ، وجامعات ومعاهد علمية وفنية عظيمة ، ذات سمعة عالمية ، وحياة اجتماعية زاهرة ، وصحافة عريقة ، ولقد أخذت بطرف من سـائر هذه المظـاهر الحضارية العريقة فى تلك البلاد العظيمة ، وامتزجت دراسـاتى ومطالعـاتى بالآداب الانجليزية والفـرنسية والالمانية ، والايطالية ، وأخـذت من كل منهـا بقسط ملحوظ من الدراسة والقرامة ، والترجمة أحيانا ، وكان

ذلك بنوع خاص فى قصص « السياسة الاسبوعية » ، التى سبق أن أشرت اليها فيما تقدم فى بداية عهدى بالاشتغال بالصحافة ، وكذلك فى مؤلفات وبحوث تاريخية قمت بترجمتها من الالمانية . وكانت دراسة هذه اللغات دائما من أمتع ما كنت أشعر به من اليسر ، والراحة النفسية فى رحلاتى العديدة لهذه البلاد ، حيث كانت اللغة دائما فى يدى سلاحا معينا نافذا ، محققا لكل ما رغبت وطمحت اليه من دراسة شئونها ، والحياة فيها ، والامتزاج بأبنائها ، والتمتع بمنتدياتها الاجتماعية والفنية .

ولم يكن فى أوربا ، غير هذه المجموعة الاوربيةالحضارية العريقة ، سوى هولندة وبلجيكا ، وسويسرا ، وهى من البلاد التى لم تكن ميدانا لدراساتى ، وكذلك المجر ، وبلاد البلقان فانها رغم زيارتى لها لم تكن بالنسبة لى ذات أهمية خاصة ، ولم تكن سوى مجالات سياحة ونزهة أتريض فيها ، واقف على احوال شعوبها .

بقيت من هذا التعداد اسبانيا . وسوف نتحدث عن اسبانيا والشعب الاسبانى بشىء من الشرح والافاضة .

لقد فكرت فى زيارة اسبانيا لأول مرة فى سنة ١٩٣٦ ، وكانت هذه هى السنة التى بدأت فيها الحرب الاهلية الاسبانية ، التى لم يكن يستطيع احد أن يقدر زمنها ولا مداها ، فسافرت الى فرنسا ثم اتجهت الى جنوبها لكى أعبر جبال البرنيه الى اسبانيا . فلما وصلت الى الحدود الفرنسية الاسبانية ، الفيت حرس الحدود الاسبانى يرد القاصدين الى دخول اسبانيا ، وفهمت مما وقفت عليه أن الدخول متعذر الآن ، وفى المستقبل القريب .

وطالت الحرب الاهلية الاسبانية ، واتسع نطاقها ، ثم اضطرمت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، واستمرت مدى أعوام . ولما انتهت بسحق ألمانيا النازية فى سنة ١٩٤٥ ، لبثت الاحوال والمواصلات الدولية أعواما أخرى فى اضطراب ومتاعب حتى كانت سنة ١٩٥٠ ، ففى هذا العام ، أتيح لى أخيرا أن أحقق أمنيتى القديمة فى زيارة اسبانيا ، ووصلت الى مدريد فى هذا العام .

ولقد كانت اسبانيا بلا ريب أهم الدول بالنسبة لى ، لانها كانت مركز دراساتى الاندلسية حسبما بينت فى الفصل الخاص بذلك . وبالرغم من كون اسبانيا تعتبر من الناحية الجغرافية دولة أوربية ، فانها تتميز بسمات حضارية خاصة بها ، وترجع الى جانب الاصول الرومانية والقوطية ، الى أصول عربية . فأنت ترى وتشعر بكثير من الخواص الحضارية العربية والاسلامية ، تبدو فى طبائع الامة الاسبانية ، وفى حياتها العامة والخاصة ، ولا سيما فى قسمها الجنوبى ـ الاندلس ـ الذى طال فيه حكم الاسلام نحو ثمانية قرون . وكذلك تشعر وتجد فى اللغة الاسبانية ذاتها كثيرا من الكلمات التى ترجع الى أصول عربية ، وقد تعلمت اللغة الاسبانية ، حسبما أشرت من قبل ، فى بداية الخمسينيات ، بداية القيام برحلاتى الدراسية الاندلسية ، وقمت فى اسبانيا بأربع عشرة رحلة دراسية ، وامتزجت بطوائف الشعب الاسبانى امتزاجا ، فى المدينة والقرية ، وفى المقهى ، وفى المنتديات الاجتماعية والفنية ، وعقدت صداقات كثيرة مع العلماء الاسبان ، ولا سيما من كان منهم يهتم بتاريخ اسبانيا المسلمة ، وخرجت من ذلك كله ، بأن

اسبانيا تؤلف وحدة حضـــارية خاصة بها ، وأن الشعب الاسبانى يتميز بخواص هذه الحضـارة عن أية أمة أوربية أخرى •

ان الشعب الاسبانى الحـــالى شعب متوســط الرقى ، متوسط الثقافة ، متوسط المستوى الاجتماعى والاقتصادى • وهو مع ذلك شعب فخور بتراثه وتاريخـه ، وما تحـــويه بلاده من المدن العريقة والصروح والكنائس والقصور والاثار الفخمة • وهو فى الادب والانتاج الفـكرى يتمشى مع باقى الدول الاوربية الى حد كبير • ففيه أكابر الكتاب والمفكرين والقصصين ، الذين يروج انتاجهم فى اســـبانيا وأمريكا اللاتينية ، ويترجم منه الكثير الى اللغات الاوربية الاخرى • وقد حصل الاسبان على أكثر من جائزة من جـوائز نوبل ، ومنها فى الادب لخوان خمنيس •

وهو فى الفنون يحتـــل مكانة ممتـــازة ، ولا سيما فى التصوير والموسيقى والرقص والمسرح ، وللفنون الاسبانية الموسيقية والغنائية الراقصـــة طابع خـاص ، يختلف عن الطابع الاوربى العام فى هذا الميدان ، حيث تمتزج الموسيقى والاغانى الاســـبانية بعنـــاصر ومؤثرات رومانســـية ، وأندلسية ، وموريسكية ، وغجـــرية ، يسبغ عليهـا هذا الطابع الخاص الذى لا يوجد فى التراث الموسيقى والغنائى الاوربى • أضف الى ذلك فن مصـــارعة الثيران ، وهو فن تختص به اسبانيا ، ولا يجـــاريها فى ذلك الآن ســــوى المكسيك ، والاســـبان يعشــقون هذا الفن ، ويقبلون على مشاهدته اقبالا شديدا • وتوجد ساحات مصارعة الثيران « الكوريدا » فى معظم المدن الاســـبانية ، ومنها الكثير قد شيدت مداخله على طراز عربى فخم مثل ســـاحة الثيران

برنده وبمدريد ، وغيرها • ولقد شاهدت هذه المصارعة بين الانسان والحيـــوان غير مرة ، وكنت فى كل مرة يتقبض قلبى مما أراه من تعذيب الثور واســالة دمه حتى الموت • وكنت أرى فى غير مرة من يغمى عليهـــن من الســيدات الاوربيات تأثرا بهذه القسوة البشـــعة فى تعذيب الثور وقتله •

والشعب الاسبانى فى مجموعه شـــعب متواضع طيب القلب ، قنوع ، شكور للصنيعة وقد بلوت منه هذه الصفات فى كثير من اتصالاتى ومعـــاملاتى • وهو شعب مرح يحب الحياة ويحاول أن يستمرئها ويستمتع بها ما اســتطاع الى ذلك سبيلا • وتغص المدن الاسبانية ، وفى مقدمتها مدريد بالمقاهى والبارات • وتمتـــاز مدريد بنوع خاص عن أية عاصمة أوربية أخرى بما يوجد بهـــا من المقـــاهى الفخمة الجذابة • والاسبانى يحب حياة المقهى ، وينفـق فيه معظم أوقات فراغه • وهو يحب الشراب ، ويسعى اليه ما دام فى جيبه بضعة فلوس • وتبقى المقاهى الاسبانية مفتوحة حتى مطلع الفجر ، ثم تفتح متأخرة فى الصـــباح • وتقدم اليك مقاهى مدريد أفخم وأشهر الاشربة وفى مقدمتهـــا القهوة التى لا يمكن أن تحصل على مثلها من الجودة والمتعة فى أى بلد أوربى آخر ، وكذلك يحب الاســـبانى الطعام • وفى مدريد وغيرها من المدن الكبيرة مطاعم كثيرة فخمة، والمطبخ الاسبانى يمتاز بألوانه الخاصة ، التى لا توجد فى أى مطعم أوربى آخر • وتمثل الاسماك فى الاطباق الاسبانية بكثرة ، كما تكثر أنواع الطبق الواحد ، وفقا لمختلف اعداده فى كل ولاية وكل مدينة ، الجاليجو ، النبرى ، الاستورى وغيرها • وأشهر الاطباق الاسبانية الخاصة هو طبـــق الارز البلنسى

Arroz Paella ، وهو يعتبر بالفعل بتكوينه الفنى من أشهر وأمتع الاطباق الاوربية ٠

والشعب الاسبانى شعب متـــدين ، بل فى الواقع شعب متعصب من الناحية الدينية ، وتحتوى اسبانيا على أضـخم وأكبر عدد من الكنائس تحتويه أية دولة أوربية ٠ وقد أنفق الاسبان أيام عصور المجد والنهضبة كل ما حصـلوا عليه من ذهب العالم الجديد فى انشاء الكنائس والصروح الفخمة ، وتغص الكنائس أيام الاحاد بزوارها من الرجال والنساء ٠ وتحتفل اسبانيا بكثير من الاعياد الدينية ٠ وقد تبلغ هذه الحفلات الدينية العامة أكثر من خمسين عيدا فى الســنة ٠ ولكل بلد عميدها وحاميها من القديسين ، تحتفل بعيده على حدة . وتحتشد الجماهير أيام هذه الاعياد بكثرة ، وتعطل سائر الاعمال ، وكثيرا ما كانت تفاجئنى هــذه الاعياد أيام دراساتى فى أسبانيا وتعطل كثيرا من أعمالى ، وقد عملت الحكومة الاسبانية فيما بعد على تخفيض عدد هذه الاعياد ، ولكنها ما زالت كثيرة لا تقل عن العشرات فى كل عام ، وهذا بالطبــع غير الاعياد القومية غير الدينية .

ولابد لى أن أعطف هنا على ذكر الفتاة الاسبانية ، فهى تشغل فى المجتمع الاسبانى مكانة مرموقة ، وهى تشتهر بجمالها وسحرها وخفة روحها . ولهذا الجمال طابع خاص ، فهى ليســت كمعظم زميلاتها الاوربيـــات باهتة اللون تغلب عليها الشقرة ، بل بالعكس تغلب عليها السمرة والخمرة ، ومن النــادر أن ترى فتاة اسبانية شقراء . ثم أن الفتاة الاسبانية متوسطة القد ، يغلب

عليها القصر ، ويندر ان تجد فى اسبانيا فتيات يغلب عليهن الطول مثل ما تجد مثلا فى انجلترا والمانيا والسويد . وتمتاز الاسبانية بجمال شعرها الاسود أو القسطلى الداكن • وفى اسبانيا ترى أجمل الشعور وأجمل الأعين السوداء والعسلية ، وأجمل الأهداب ، وتحافظ الاسبانية بمنتهى الحرص على شعرها الطويل الرائع ، ويقص كثير من الفتيات شعورهن من الوراء على مثل ذيل الحصان • وقد كانت الاسبانية حتى عهد قريب ، شديدة المحافظة فى ملابسها . وكان من النادر حتى أواخر الستينات أن ترى فتاة اسبانية تلبس المنى جوب أو البنطلون . وما زلت اذكر ما رأيته يوما فى شارع الجران بيا (خوسى انطونيو) من تتبع المارة لفتاة ترتدى البنطلون ، وتقدم رجل البوليس الى حمايتها وابعادهم عنها ، وقد انتهى هذا العهد ، وترتدى الاسبانية الان كزميلاتها الاوربيات ما شاءت من الثياب والازياء • .

وأود أن أضيف الى ذلك ان مسارح الرقص الاسبانية من الكاباريهات وغيرها تلتزم مستوى مشكورا من الحشمة ، فلا تبدو الفتيات عاريات او نصف عاريات حسبما يقع بنوع خاص فى باريس ، حيث يمكن أن ترى الراقصة عارية تماما فى ملاهى مثل الكازينو دى باريز والمولان روج والفولى برجير . وما زلت أذكر ما حدث بفرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية بقليل من منع البوليس لمنظر رقصات عارية فى الكازينو كانت تقوم بها انجليزية حسناء ، ورفع الكازينو الامر الى القضاء ،

باعتبــار أن هذا المنظر ، انما هو عرض فني لجمــال الانسان الطبيعي . ومن حق الجمهـور أن يستمتع برؤيته وأن يعجب بصنع الله في جمال خلقه . وقد أخذ القضاء بهـذا الدفاع وقضى بوقف تدخل البوليس في رقصــة الكازينو العارية . وأصبح الرقص العـارى اليوم من المنـاظر المـألوفة في باريس وغيرها من العواصم الاوربية . واذكر أننى خـلال عهـد فرانكو الطـويل في اسـبانيا لم أر رقصـــة عارية بمـدريد . وحتى الرقصات التي كان على الفتاة أن تبدو فيها بسيقان عارية ، كانت الفتاة ترتدى قلسونا بلون اللحم الطبيعي ، ولا أعرف ان كان هذا الحظر قد سقط في ظل النظم الجديدة الحرة .

بيد أنه يجب أن ننوه هنا بأن الفتاة الاسبانية مازالت من ناحية المعرفة والثقافة العامة والرياضــة البدنية متخلفة عن زميلاتها الاوربيات في هذا الميدان .

ويجدر بنا أن نخص المرأة الاندلسية باشـــارة خاصة ، فالمرأة الاندلسية ، أعنى في جنــوب اســبانيا مشهورة بجمالها ، وهي تغلب عليها السمرة . ويبدو هذا الجمـال بصفة خاصة في النساء الغـرناطيات فهن أجمــل نساء الاندلس . وهن يتميزن بســحنة تكاد تكون عربيــة . ويشتهرن بالتحفظ والحياة . ومن الواضــح أنهن يحتفظن بكثير من آثار اسلافهن نساء الاندلس المسلمة وشمائلهن . وأنت اذا قرأت وصف ابن الخطيب في كتــاب « الاحاطة » لنساء غرناطة ، فانك تجد هذا الوصف يــكاد ينطبق على نساء غرناطة اليوم ، واليك ما يقوله ابن الخطيب عن نســاء غرناطة في عصره (أواسط القرن الثــامن الهجــرى) :

« وحريمهم حريم جميل ، موصوف بالسحر ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، خفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، الا أن الطول يندر فيهن » ثم ينعى على نساء عصره بقوله : « وقد بلغن من التفنن فى الزينة فى هذا العهد الى غاية نسأل الله أن يغضى عنهن فيها عين الدهر ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفى لطفه بعزمه وقدرته » .

وهذه سمات وصفات تكاد تتميز بها كلها المرأة الغرناطية اليوم ، وهذا أمر منطقى وطبيعى ، فقد حكم المسلمون هذه الانحاء زهاء ثمانمائة عام ، وتركوا فيها أعمق الآثار من سمات الجنس والعوائد والتقاليد التى يشهدها ويعجب بها كل عربى وكل مسلم يزور هذه الارض ، التى تغمرها الذكريات المجيدة المحزنة معا .

والشعب الاسبانى ، يفضل الحياة السليمة الهادئة فى ظل نظام يتضمن العمل ولقمة العيش ، وهكذا كانت سمته فى ظل نظام فرانكو الدكتاتورى ، الذى استمر زهاء أربعين عاما . وقد كانت الحياة فى اسبانيا حتى أواخر الستينيات ، رخيصة والرخاء يعم البلاد ، وأذكر أننى أعوام دراساتى الاولى فى اسبانيا ، فى أواخر الخمسينيات ، كنت أعيش فى بنسيون متوسط بما لا يزيد عن مائة بيزيتا فى اليوم ، للنوم والطعام الكامل ، وهو أمر يستحيل وجوده اليوم . وكانت الفنادق الفخمة من الدرجة الاولى ، لا تكلفك أكثر من مائة وخمسين أو مائتى بيزيتا للغرفة فى اليوم ، وكانت وجبة الطعام تتراوح بين ثلاثين وخمسين بيزيتا . وكان

هذا المستوى الرخيص ، الذى لم يـــكن له أى نظير فى أى بلد أوربى آخر ، يعم سائر المدن الاسبانية ، وكان من أعظم العوامل المشجعة لقدوم السياح الى اسبانيا من سائر أنحـاء العالم • وكانت مدريد وســـائر المدن الأســـبانية تغص باستمرار بأفواج السياح من سائر الامم الاوربية وغيرها • وكان دخل السياحة الذى وصل فى اسبانيا الى ألف مليون دولار فى العام ، هو أهم أبواب الدخل القـــومى • ومن المحقق أن هذا التيار السياحى الهائل قد خبا اليوم الى حد كبير ، لما حدث من التغييرات الســـياسية الاسبانية التى أدت أولا الى أقلاق الامن العام بسبب حـــوادث الارهابيين وكثرة الاضرابات ، وأدت ثانيا بما حدث من تخفيض قيمـة البيزيتا وغيره من العوامل ، الى ارتفاع الاســعار الى حدود غير معقولة • وهكذا انتهت الحياة الهـانئة الرخيصة التى لبثت اسبانيا تقـــدمها الى زوارها مدى أعـــوام طويلة ، وأصبحت من حيث مستوى الاسـعار ، لا تقل عن كثير من البـــلاد الاوربية الاخرى • وهذا الى ما تسرب الى أخلاق الشعب الاســـبانى ذاته من تغييرات ذهبت بالـــكثير من صفاته القديمة الطيبة ، فأصبح أكثر ميلا الى الشغب والطمع والاستغلال والغش ، وذهبت الوداعة القـــديمة ، وحلت محلها الخشونة فى المعاملة ، وربمـا كان ذلك من نتـــائج ما حدث من تغيير عميق فى نظم الشعب الاسبانى وأحواله الدستورية ، بعد عهد طويل من الكبت ، فأصـــبح شـعبا حدثا فى الحرية ومزاياها ، ومازال بعيدا عن أن يتجه اليها فى أفضل صورها ، التى تفيد الفرد فى حياته ، وترفع من مستواه المعنوى والاخلاقى •

ولا بأس أن نشير هنا الى نظام غريب وفريد معا من نظم

العصور الوسطى يطبق ليلا فى العاصمة الاسبانية وهو قيام خفير الحى El Serreno باغلاق سائر العمارات والاماكن التى فى حيه ليلا فى الساعة العاشرة أيام الشتاء والحادية عشرة أيام الصيف ولا يستثنى من ذلك سوى المقاهى والمنتديات الليلية • ولا تستطيع أن تدخل العمارة أو المسكن الذى تقيم به بعد الاغلاق الا بواسطة هذا الخفير ، فانك تناديه حيث يوجد فى أقرب مقهى أو أى مكان آخر لكى يفتح لك باب العمارة ثم باب البنسيون ان كان بها ، وتتحفه لقاء ذلك بما تيسر • ولا يفتح السرينو الاماكن الا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى • وان أردت الخروج قبل ذلك لعذر ما فعليك أن تدق الباب من الداخل حتى يسمعك السرينو ويفتح لك ، أو تكون قد نظمت الامر معه فى المساء عند مقدمك • ويقول أهل مدريد فى الدفاع عن هذا النظام انه يساعد فى حفظ الامن واعاقة اللصوص عن ارتكاب جرائمهم •

ولابد لنا أن نقول كلمة عن الصحافة الاسبانية • ان الصحافة تحتل فى اسبانيا مكانة مرموقة ، وبالرغم من أنها كانت طوال عهد فرانكو من الاربعينيات الى بداية السبعينيات ، عرضة للرقابة والاجراءات الادارية ، فانها مع ذلك كانت وما تزال قوة يحسب حسابها فى حياة الشعب الاسبانى • وفى الصحافة الاسبانية ، صحف كبيرة قوية الذيوع مثل صحيفة فان جوارديا Vn Guardia التى تصدر فى برشلونة ، وصحيفة ا • ب • ت • التى تصدر فى مدريد • وتمثل هذه الصحيفة ، الفكر الارستقراطى والأدب الارستقراطى ، وتصدر فى حجم المجلة الكبيرة فى نحو ثمانين صفحة • ولها ملاحق أدبية وأسبوعية • وهى

جريدة الصفوة الارستقراطية فى اسبانيا • وتصـــدر الى جانبها بمدريد عدة صحف شعبية أخرى مثل جريدة « يا » Ya وأنفورماثيونس Informaziones وجريدة بوببلو Pueblo، وجريدة Arriba التى تمثل بقايا حزب « الفلانكس » وتصدر يوم الاثنين الذى تعطل فيه الصحف بمدريد جريدة واحدة هى جريدة « الاثنين Hoja del Lunes وتصدر فى معظم المدن الكبرى ، مثل قرطبة ، واشبيلية ، ومالقة ، وغرناطة ، وبلباء وشنتاجو ، وليون ، وأوبييد وغيرها صـحف محلية يومية وأسبوعية • وكان للصـــحف الكبرى ، قبل عهد فرانكو الدكتـــاتورى ، دورها الـــكبير فى توجيه الرأى العـــام الاسبانى ، غير أن هذا النفوذ القديم ضعف فى عهد فرانكو الى حدود مؤسفة ، وهو يعود اليـــوم الى أهميته ، بعد أن استعادت الصحافة حريتها ومكانتها القديمة • والصـحافة الاسبانية بالرغم من أنها ليست من حيث القدم كالصحافة الانجليزية أو الفرنسية ، تعتبر من الصحافات الاوربية ذات المكانة الخاصة • وقد كنت طوال أيام وجـــودى بمدريد ، عاكفا على دراساتى الاندلسية ، أفضل دائما قراءة جريدة ال A . B . C اليومية نظرا لاسلوبها الادبى العالى ، وما تتسم به بحوثها من الجد والترفع عن الصغائر • وكنت أشترك فيها لترسل الى بالقاهرة أيام وجودى فيها • ثم اقتصرت بعد ذلك على الاشتراك فى عددها الاسـبوعى الممتاز الذى يصدر يوم الاحد • ومازال عندى بمنزلى بالقاهرة مجموعة كبيرة • والى جانب هذه الصحف اليومية تصـــــدر فى اسبانيا مجلات أسبوعية وشهرية عديدة فى مختلف المجالات والفنون •

وتأتى بعد ذلك كلمة عن مدريد عاصمة اســبانيا ، ان مدريد من أجمل عواصم أوربا • وفى رأيى أنها أجمـــل من

باريس ذاتها كوحدة تخطيطية منسقة ، تحفـــل بكثير من الصروح والابنية التاريخية الفخمة . أجل ان باريس مدينة عظيمة شاسعة ، بها كثير من الشوارع الفسيحة العظيمة ، والميادين الهائلة . وبها من غير شـــك كثير من الاحيـاء الجميلة الفخمة ، ولكنها فى مجموعها ، لا تحمل ســمات مدريد المتناسقة . فلا أذكر أن بها مثلا شـــارع فى جمال الكستليانا ، وطوله ، وسعته ، وروعته ، وما يحفـل به من الصروح والنوافير التاريخية الســاحرة . ولا تشتـــمل باريس على ما تشـــتمل عليه مدريد من المقـاهى الجميلة الفخمة فى الجـــران بيا (خوسى انطـــونيو) وغيره من الشوارع العظيمة ، مثل شارعى الكالا وسرانو وغيرهما . ولا يوجد فى باريس مثلا بستان عظيم مثل بستان الرتيرو، الذى يعتبر بحجمه وآثاره التاريخية وبحيراته أعظم وأجمل بستان فى أوربا كلها ، استثناء لبستان هايد بارك العظيم بلندن والشـــعب المدريدى يحب بلده مدريد حبا شديدا ويغار على سمعتهـا وحسن روائها . وأذكر أيام أقامتى فى مدريد فى أواخر الخمسينيات ، كيف كانت تقطع المياه عن منازل المدينة وكل محالها من الساعة الثالثة الى الخامسـة مساء ، وذلك لكى يتمكن رجال البلدية من غسل شوارعهـا وتنظيفها ، وذلك بالرغم من أزمات المياه يومئذ . ومن ذلك العهد الى يومنا (٧٨) تعمل سـلطات مدريد بكل ما وسعت على تجميل المدينة ، وشق الانفـــاق فى أماكن كثيرة من شوارعها الكبرى لتسهيل المرور وتأمين المشاة ، وشق النفق الكبير تحت شارع الكستليانا وميدان ثبليس العظيم لكى يجرى فيه قطار المترو الآتى من ضاحية الاســـكوريال الى

محطة السكة الحديد الجديدة (شمرتين) وزيادة خطوط مترو مدريد المركزى ، وغير ذلك من المشـــاريع العمرانية الكثيرة ، التي ضـــاعفت من رواء العاصمة الاســـبانية ، وجعلتها الى جانب جمالها الطبيعي ، من أحدث العـــواصم الاوربية خططا •

وأما عن الذخائر الفنية ، فان مدريد تشتـــمل منها على أعظم مجموعة من الصور الفنية فى أوربا كلها يضمها متحف البرادو العظيم وهو يضم ابهـــاء باسرها من مجمـــوعات بلاسكيت وموريليو وجويا ، وغيرهم من العبـــاقرة ، وهو يفوق بلا ريب بضخامته ومحتوياته متحف « الاوفتسى » فى فلورنس وغيره من متاحف الصور الاوربية العظيمة • ولقد سبق أن أشرنا فيما تقدم الى ما وقع فى مدريد واسبانيا من تطور الاحوال الاقتصادية ، واشتداد الغـــلاء بعد الحياة الهنية الرخيصة القديمة • ولكننا نســـتطيع أن نقول مع ذلك ، أن مدريد بالرغم من ارتفاع الاسعار فى وقتنا الحالى ، فانها مازالت بلمسة من الاعتدال ، تدعو الرواد والســـياح الى زيارتها ، والتمتع بجمال الاقامة فيهـــا • واذكر اخرا اننى كنت خلال رحلاتى الدراسية ، أنفق فى مدريد ، وفى نواحي اسبانيا الاخرى ، أوقاتا طويلة تمتد دائما الى شهور عديدة فى كل رحلة ، حتي انه يمـــكن أن تتجاوز أوقات اقاماتى فى اسبانيا مجتمعة بضعة أعوام كاملة •

ولقد كانت كلها بحمد الله اقامات مثمرة ممتعة رغدة ، حيا الله تلك الايام السعيدة المباركة ، التي أعددت فيهـــا مواد موسوعة الاندلس الكبرى •

القسم الثانى

تاملات عن احداث عهد ((الثورة)) ونظمه

بماذا يمكن ان يجيب المواطن المصرى ، اذا سئل عن نوع الدولة القائم بمصر فى ربع القرن الاخير ـ عهد الثورة ـ ممن يعنيه الامر .

ان الاجابة عن هذا السؤال تتضمن شقين ، الاول نوع الحكم القائم من الناحية السياسية ، والثانى نوع التشكيل الاجتماعى القائم .

فأما عن الشق الاول ، فهو ان مصر ، منذ سنة ١٩٥٤ ، بعد عامين من التريث والدراسة بعد الحدث الخطر الذى وقع فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، تخضع الى حكم دكتاتورية مطلقة ، ولا يمنع من صحة هذا الوصف ما ورد فى دستور جمهورية مصر العربية الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٧١ من « ان جمهورية مصر العربية دولة نظامها ديمقراطى واشتراكى ، يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة » (المادة الاولى من الدستور)، وانه يوجد بمصر مجلس نيابى ، يقال انه يمثل هذا النظام الديمقراطى ، ففى سائر البلاد التى تخضع لحكم الدكتاتورية ، عسكرية كانت أو مذهبية ، تقوم برلمانات أو مجالس نيابية لكى تغطى هذا الوصف : روسيا السوفييتية ، تركيا ، يوجوسلافيا ، رومانيا ، بولونيا ، تشيكوسلوفاكيا .. الخ .

ويكفى أن نذكر انه أيام عبد النـاصر ، كان يقوم المجلس النيــابى باسم « مجلس الامة » وكانت تجرى الانتخابات النيابية ، بيد أنه يجب ان نبادر بالقول بأن هذه الدكتاتورية ، قد تطورت أساليبها واتجاهاتها منـذ سنة ١٩٧٣ على يد ما يسمى « بثورة التصحيح » وان كانت باقية على وضعها من الناحية النظرية والدستورية. ويمكننا أن نقول ان هذه الدكتاتورية ، تقع من الناحية الزمنية تحت عهد الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٤ ـ ١٩٧٠) .

وأما الفترة التالية ، فقد تمخضت بعد صراع عنيف بين مراكز القوى التى خلفهـا عهد عبد الناصر ، وبين الرئيس السادات ، عما يسمى بالعهد الجديد ، عهـد التصحيح ، وهو العهد الذى اتجه فيه حكم الدكتاتورية، بالرغم من بقائه على أوضاعه النظرية والادارية ، الى نوع من سياسة الاصلاح ، التى تطبعهـا مسحة من العـدالة واللين والرفق ، والى بعض الاسـاليب الديمقراطية .

هذا عن الشق الاول ، واما الاجابة عن الشق الثانى ، فهو ان التشكيل الاجتماعى القائم بمصر ، يرتكز وفقا لـما نص عليه الدستور اولا ، فى المادة ٨٧ على « أن أعضاء مجلس الشعب المنتخبين ، وعددهم لا يقل عن ثلاثمائة وخمسين عضوا ، يجب أن يكون نصفهم على الاقل من العمـال والفلاحين » ، وما نص عليه ثانيا في المادة ٢٦ من « أن تمثيل العمال فى مجالس ادارة وحدات القطاع العام يجب أن يكون فى حدود خمسين فى المائة من عدد اعضاء هذه المجالس ، وتعمل الدولة

على أن يكفل القانون لصغار الفلاحين وصغار الحرفيين ثمانين فى المائة فى عضـــوية مجالس ادارة الجمعيات التعاونية الزراعية والجمعيـــات التعاونية الصناعية (المادة ٢٦ فقرة ثانية) .

ونود أن نشير هنا الى بعض المقدمات الصغيرة التى تشير الى بعض ما كان يجول بخواطر أولئك الضباط ، الذين قدر لهم أن يبسطوا حكمهم على مصر ، ففى خلال الحرب العالمية الثانية ، حينما استطاع الالمان بقيادة روميل ، أن يصلوا فى زحفهم الى مقربة من العلمين كان ثمة بعض أولئك الضباط (ومنهم الملازم أنور السادات حسبما يقص علينا فى كتابه (يحاولون الاتصال بالالمان وبروميل لـكى ينظموا التعاون معهم لتسهيل مهمتهم ، وقد اختاروا لذلك مجاهدا قديما هو المرحوم عزيز باشا المصرى ، وقد حصلوا على طيارة زودوه بها ، ولـكنها سقطت به كما هو معروف ، وتعذر وصوله الى الالمان . وعزيز باشا المصرى ، كما هو معروف مجاهد ومغـامر قديم ، وقد تلقى دراسته العسـكرية بألمانيا وتركيا . وكانت الفكرة الذائعة فى ذلك ، انه بانتصـــار الالمان وهزيمة انجلترا تتحقق لمصر حريتها واستقلالها . وقد كانت هذه فكرة ساذجة ، بل فكرة غبية ، ممن لا يعرفون اتجاهات النازية وهول سلطانهـا . فلو انتصر الالمـان ودخلوا مصر ، لكان فى ذلك عبوديتها المطبقة ، والقضاء على كل مقوماتها . ولكن شاءت العناية الالهية ، أن تنجو مصر من غزو النازية المدمر ، وأن تحصل على حرياتها فيما بعد بوسائل أخرى .

وثمة واقعة أخرى تتصل بهذا الموضوع ، هى زيارة

السيدة لوسي ماريا روميل ، أرملة الفيلد مارشال ايروين روميل لمصر في شهر مايو سنة ١٩٥٤ ، وما لقيت خلال زيارتها من حفاوة بالغة . وقد وصلت الى القاهرة في يوم ١٧ مايو ، وقد سبقها عرض الفيلم الالماني « روميل ثعلب الصحراء » وكان قدومها بدعوة من الشركة التى قامت بتوزيع هذا الفيلم ، وكذلك بدعوة أخرى من رئيس الدولة يومئذ اللواء محمد نجيب حيث أرسل اليهـــا صورته ومعهـــا دعوة الي زيارة مصر ، وقامت فراو روميل بزيارة رئيس الدولة ، ووزير الارشـــاد السيد صلاح سالم ، وزيارة سائر أعضاء مجلس الثورة ، كما زارت محكمة الثورة ، وأبدت اعجابهـــا فى تصريحات مختلفة نشرت بجـــريدة الاهرام وغيرها من الصحف والمجلات ، بما شهدته في مصر من النظم والمظاهر . وقام اللواء محمد نجيب وكثير من ضباط القوات المسلحة بمشاهدة فيلم روميل ، الذى وصف بأنه شريط حقيقى لمعارك الحرب الافريقيـــة و « الفيلق الافريقي » حتى (١٩٤١ ـ ١٩٤٣) ، وزارت فراو روميل بعـد ذلك منطقة العلمين ، برفقة مندوب الرحلة المعين لمصاحبتها ، القائمقام محمد عارف قـائد المنطقة الشمالية ووضعت أكاليل الزهر على النصب التذكارى الذى يتوسط قبور ضحايا الحـــرب من الالمان والايطاليين ، كما وضعت أكليلا آخر على قبر زوجهـــا الرمزى . وزارت متحف روميل وبه صورة خطة رسمها روميل للموقعة المرتقبة ، وصرحت أرملته بانه كان موقنا بالنصر اذا نفذت هـذه الخطة ، ولكنه استبقى فى برلين . وكان مما جاء في تصريحاتها قولهـا عن النظام النازى : « لقد جعل النظام

النازى من الصعب على الانسان أن يؤمن ايمانا صادقا بشيء . ولكنى أثق بمستقبل الانسانية والديمقراطية والحرية » (١) .

وتلقى هذه التفاصيل المتعلقة بزيارة فراو روميل لمصر، وما لقيته خلالها من الحفاوة البالغة ، بعض الاضواء على هذا العطف الذى كان يبدو من أولئك الضباط ، الذين غدوا يومئذ أعضاء مجلس الثورة ، نحو النازية ومثلها ووسائلها ، ونحن نستطيع أن نقول ان نظم الحكم التي سار عليها عبد الناصر منذ سنة ١٩٥٤ ، كانت فى جوهرها نظما نازية .

وقد شهدت الاعوام التالية ، فى الواقع ، من حكمه للبلاد طائفة كبيرة من الاعمال والتصرفات والاعتداء على الانفس والاموال والحريات ، وقد دفع القضاء الجنائى فيما بعد ، عهده وحكمه بشدة بما أصدره من الاحكام فى عدة من قضايا التعذيب .

ونحن نقف عند امرين : الاول توقيع الحراسات على مئات من المواطنين الميسورين دون أية سند قانونى ، ولشبهات عابرة ، أو مصطنعة ، ورفع يدهم عن التصرف فى أموالهم وأملاكهم ، والتضييق عليهم فى معيشتهم الى حدود محزنة مبكية ، وأخيرا بتبديد معظم أموالهم بمختلف الاعذار والوسائل ، وكل ذلك باسم توقيع

---

(١) جريدة الاهرام عددا ١٧ و ١٨ مايو سنة ١٩٥٤ . ومجلة المصور عددا ٢٨ مايو و ٤ يونيه سنة ١٩٥٤ ، ويمكننا أن نرجع اثر هذا التصريح الى مالقيه الفلد مارشال روميل من قسوة الزعيم هتلر حينما اتهم بالاشتراك فى المؤامرة التى نظمت ضده فى أواخر الحرب ، وأرغم روميل على الانتحار تفاديا لفضيحة المحاكمة والاعدام .

الحراسة على من يسمون أعداء الثورة .

والامر الثاني هو ما وقع في حق القضاء المصرى وذلك باقالة العدد الجم من أقطابه ممن كان سلوكهم القضائي النزيه المستقل يسبب قلقا لذوى السلطان المطلق لانه لا ينضوى وفق اتجاهاتهم وأهوائهم . وقد شملت هذه الضربة التي عرفت فيما بعد بمذبحة القضاء مائة وعشرين من اكابر رجال القضاء ما بين مستشارين ورؤساء محاكم ونيابات ، ومحامين عموميين وغيرهم .

ونحن نكتفي بعد ذلك بأن نقدم هذا العرض الصريح الشامل بخواص حكم « الثورة » في عهد عبد الناصر ، الذى يقدمه لنا السادات في كتابه « البحث عن الذات » . وهو يغنينا عن الاطالة في تقييم ذلك العهد :

« ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلا من أن تبدأ بالثقة ، وتعطى الفرصة الى أن يثبت العكس، بدأت بالشك في كل انسان الى أن يثبت العكس : وهو الثقة ، وهو نادرا ما يثبت ، ولذلك في الاربع سنوات الاولى ، وهو حكم مجلس قيادة الثورة ، كانت هناك اخطاء وانتهاكات في حق الانسان المصرى ، ولكنها كانت في دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد . ففي سنة ٥٦ ، كان يجب على عهد عبد الناصر أن يواصل الانتصار ، بعد انتصاره في معركة القناة ، بأن يعطى للشعب بعد معركة ١٩٥٦ حرية كاملة . ولكنه لم يفعل ، وكانت النتيجة أن أصبح الانسان المصرى سلبيا ، مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب لانه يعرف في أعماقه جيدا أنه لم يشارك ، ولم يؤخذ رأيه في أمرها ... وعندما كان الشعب يتململ من هذا ،

كان تململه يفسر على أنه ثورة مضادة ، فتقع الحراسات والاعتقالات ، وكل هذا هو التطبيق الفعلى لانتهاك كرامة الانسان » .

« وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب فى حق الانسان المصرى ، كان هو زرع الخوف ، فبـــدلا من أن نبنى الانسان ، أصبح كل همنا أن نخيفه . والخـــوف هو أخطر ما يهدد كيان الفرد أو الشعب . فلقد كان أرزاق الناس كلها ملكا للحاكم ، ان شاء منح ، وان شاء منع ، وكان المنع مصحوبا فى أغلب الاحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ، ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ اجراءات ضدهم .

وهكذا تحول الناس الى « مساخيط » ، وأصبحوا دمى فى أيدى حكامهم ، يفعلون بهم ما يشاءون . فلم يعد مسموحا للناس بالسفر ، أو أن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم ، والا اعتقلوا او صودروا فى ارزاقهم . ومن هنا ازداد الناس سلبية . فقد أصبح الامان لهم أن يسيروا الى جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأى شىء مما يدور حـــولهم ، وكأنهم أصبحوا لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون . من اجل ذلك قلت ، وما زلت أقول « انه بقـــدر ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة فى انجازاتها ، فانها كانت ايضا عملاقة فى اخطائها (لكن مع الزمن انتهت الانجازات أو أصبحت أمرا واقعا مجردا من الهالة ، ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهيبة ، تشيع الحقد والخوف بين الناس ، ولكنهم لا يملكون منها فرارا » (١) .

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٨ و ٢٨٩

هذا وقد كان من نكد القدر أن يتجه عبد الناصر منذ عصر مبكر الى محالفة روسيا السوفيتية والارتماء في أحضانها ، كرد فعل لخصومته لامريكا ، لرفضها معاونة مصر في انشاء السد العالى ، وتقدم روسيا الى القيام بتلك المعاونة ، وامدادها لمصر ببيع السلاح اليها . وما ترتب على ذلك من بث روسيا لمثلها الشيوعية ، عبد لناصر والاشتراكية فى نفس عبد الناصر ، وما وقع في نفس الوقت من التقارب بين مصر ويوجوسلافيا الشيوعية ، وتأثير زعيمها الرئيس تيتو فى دفع عبد الناصر الى نفس الاتجاه (١) وان كانت مصر لا تنسي للرئيس تيتو مواقفه الودية العديدة نحو قضاياها . ومن الواضح أنه لم يكن في برنامج « الثورة » منذ البداية ما يحمل على هذا الاتجاه أو التفكير فيه . وانما بدا هذا الاتجاه بادىء ذى بدء ، على اثر تحالف مصر مع روسيا الشيوعية ، ودفعت الصحافة والاذاعة الى تأييده بطريقة منظمة ، متواصلة ، وأنشىء بمصر ما يسمى « بالاتحاد الاشتراكي » كصورة مصغرة للحزب الشيوعى الروسى . ثم صدرت فى يولية سنة ١٩٦٠ «القوانين الاشتراكية»، وشمل التأميم سائر المنشآت والمشاريع التجارية والصناعية والثقافية (الصحافة ودور النشر) . وكانت حركة خاطفة ، قلبت سائر الاوضاع الاقتصادية الحرة ، واحكمت الدولة قبضتها على سائر أوجه النشاط الاقتصادى ، وبدأ بمصر ما يسمى « بالاشتراكية أو النظام

---

(١) من الواضح أن المرحوم الاستاذ عبد الله عنان يردد هنا الاقاويل غير العلمية وغير الصحيحة التى كان ومازال يرددها خصوم عبد الناصر « من كتاب الهلال » .

الاشتراكى » واتسع نطـاق الدعاية لتأييده ، وصدرت كتب ضخمة عن الاسلام والاشتراكية ، وكثر الحديث عن « اشتراكية الاسلام » ، ونسب الى الاشتراكية عـدة اكابر الصحابة ، الى غير ذلك من الاقوال .

ان الاسلام لا يسمح للدولة أن تتدخل فى حرية الفرد الاقتصادية الا فى أضيق الحدود ، وبالقدر اللازم لحماية المجتمع ، وان الاسلام من هذه الناحية أكثر اتفاقا مع النظرية الديمقراطية فى الحرية الاقتصادية .

والاسلام فى نفس الوقت يحارب الاستغلال ، ويعمل على حماية حق الفقير والمعدم فى العول . بيد ان اتجاهات الاسلام فى ذلك هى اتجاهات انسانية قبل كل شىء ، وهى أكثر انسانية من الاشتراكية أو غيرها من المذاهب الاقتصادية الحديثة لانها ترعى مقتضيات العدالة فى نفس الوقت ، الى جانب تحقيق غايات التكافل الاجتمـاعى ، ولا تسمح أن يكون انصاف طبقة أو طائفة مهيضـة على حساب الاضرار بحقوق طبقـة أو طائفة أخرى ، وهو ما حدث فى تطبيق الاشتراكية « الناصرية » ، حيث منح العمال أجورا وامتيازات كثيرة على حساب الطبقـات الميسورة والمتوسطة ، وأضحت أجور العمال الجهلاء تزيد فى معدلها على مرتبات اكابر موظفى الدولة ، ذوى الثقافة العالية (١) .

ثم ان هذه الاشتراكية ذهبت فى التأميم الى حـدود بعيدة ، وطبقتـه على أصغر الوحـدات الانتاجيـة الخاصة . وهذا ما يخالف النظرية الاشتراكية السائدة ، فى أن هذا التوحيد أو التأميم ينصب على وسائل ملكية الانتاج والمرافق العامة كرءوس الاموال والمنشآت الانتـاجية

الضخمة والمناجم ، والقوى المحركة والغابات ، ووسائل المواصلات والنقل ، ويعبر الاشتراكيون عن ذلك بقولهم « ماهو ضرورى من الوجهة الاجتماعية ، يجب أن يقع فى الملكية الاجتماعية الاشتراكية » ، أما ما وقع فى مصر تطبيقا للاشتراكية ، فهو أقرب منه الى الماركسية والنظام الشيوعى (١) ومما يدعم هذا الرأى ، ما نص عليه فى الدستور على قيام نوع من الاغلبية المقررة للعمال والفلاحين فى البرلمان وسائر الهيئات النيابية . وهى الماركسية بذاتها التى تنادى بسيادة الكتلة العاملة .

وبعد فماذا كانت آثار هذا النظام « الاشتراكى » ، بعد أن مرت على تطبيقه أكثر من خمسة عشر عاما ؟

كان من تأثير شديد فى تثبيط همم العمال ، والاغداق عليهم دون استحقاق ، وحمايتهم من كل جزاء أو تعريضهم للفصل الادارى ، حتى مع الاهمال وارتكاب الخطأ الجسيم . ومعظم منشآت القطاع العام لا تفى اليوم بانتاج نفقاتها ، ولا اجور عمالها المتكدسين بها دون عمل . وقد فقدت العمالة فى معظمها كل ضمير ، وكل شعور بالواجب والمسئولية ، واصبحت كلا على الدولة وعلى البلاد ، ولا يبدو اليوم اى أمل فى اصلاح هذه الحالة ، أو تغييرها الى حالة افضل لتمسك العمال بها والدفاع عنها ، لانها تهيىء لهم الحياة الرغدة فوق الكفاية ، دون بذل اية جهود صادقة منتجة .

وفوق ذلك ، فقد كان لهذا الرخاء العمالى أثره الواضح

---

(١) ليس فى دساتير الدول الاشتراكية نص على أن يكون للعمال والفلاحين نصف المقاعد فى المجلس النيابى ، وهذا يدل على أن ما حدث فى مصر لم يكن تقليدا لما حدث فى أى بلد آخر .. « كتاب الهلال » .

فى الانفجار السكانى . فقد عمد كثير من العمال الجهلاء الذين اثروا فجأة نتيجة للقوانين العمـــالية المتحيزة ، والاجور العالية ، الى اتخاذ الزوجات الثوانى والثوالث ، تدفعهم المتعة البهيميـــة قبل كل شىء ، وأكثروا من الانجاب ، حتى انك لتجد منهم الكثير ممن انجب عشرة أو أكثر من البنين والبنات من زوجين أو أكثر دون شعور بالمسئولية ، أو الاهتمام بمستقبل هذا العدد العديد من الاولاد ، فكان هذا عاملا جديدا ، فى ازدياد السكان زيادة غير طبيعية ، وعاملا فى لانفجار السكانى ، الذى يكاد يخنق البلاد(١) .

ان الامم لا ترتقى ، وتأخذ مكانتها المرموقة ، بسواعد العمال ، ولكنها ترتقى وتحرز مكانتها بين الامم الاخرى بعقول أبنائها المثقفين المفكرين . ويوم تضعف الطبقـات المفكرة ، وتفقد عزائمها وهممها ، بفعل الظلم الاجتماعى الذى تعانيه ، فان الامة تنحدر الى طريق الســـقوط الادبى . والطبقـــات المثقفة فى مصر ، لم تتعاطف مع « الثورة » قط ، لانها رات منها ، فوق ما ارتكبته من المظالم الفادحة ، والامور البشعة ، ضغطا على حـرية الفكر ، ومطاردة الاحرار والعلماء والكتاب ، وامتهـانا لانتاج العقول الراجحة ، والاقلام الحرة الشريفة .

ولسنا بحاجة لان ننوه بما وقع فى عهد « الثورة » من تدهور فى المستوى العلمى والثقافى ، وبالاخص من انهيار

---

(١) مازال الاستاذ عنان مستطردا فى تحـامله على العمال ، مرددا الاقاويل والشائعات التى روجها خصوم ثورة ٢٣ يوليو « كتاب الهلال ».

لمستوى التعليم الجامعى ، حتى كاد أن يصبح تعليما مدرسيا خالصا ، فهذه مسألة تقر بها جميع الدوائر ، وما وقع من تطور مؤسف فى المستوى الاخلاقى للشباب المتعلم ، بسبب فتح الجامعات بلا حدود ولا شروط ، ولا اعتبار للبيئة والقيم الاخلاقية . وقد كان جديرا أن تخصص احدى الجامعات على الاقل للطلبة الذين يؤدون المصاريف الجامعية ، ويمتازون بمستواهم العائلى والاخلاقى ، على مثل ماهو واقع فى بعض الدول الاوربية ، مثل انجلترا فى كلية « ايتون » وغيرها .

المغامرات السياسية والعسكرية

كانت بداية المغامرات السياسية والعسكرية ، عقد الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير سنة ١٩٥٨ . وقد وقع هذا الحدث السياسى الخطير دون مقدمات ، ولا تفكير ، ووقع اثر قدوم وفد سورى الى القاهرة ، يتطلب عقد الوحدة بالحاف وشدة ، فكان قبول الرئيس المصرى لهذا المطلب دون بحث ولا دراسة ، ولا التجاء الى اخذ رأى الشعب المصرى . وان كان قد عمل استفتاء شكلى على ذلك بعد وقوعه وابرامه ، وكان من الواضح أن الشعب المصرى لم يكن ميالا الى هذا الاتجاه .

لقد كانت سوريا (الشام) ولاية مصرية ، خلال العصور الوسطى ، مدى ثمانية قرون ، منذ الدولة الطولونية ، حتى الفتح العثمانى فى سنة ١٥١٧ ، وكانت لاهميتها تعتبر « نيابة للسلطة » ، وكانت مصر ، بالرغم مما كانت تبذله فى سبيل حماية الامة السورية ، ورخائها واسعادها ، تعانى الكثير من الدسائس ونكران الصنيعة ، والمؤامرات

التى تدبر من آن لاخر ضد حكومة السلاطين المصرية . ومن ثم فقد كانت لدى الشعب المصرى ، دائمـا ، فكرة راسخة عما كان ينطوى عليه ذلك من عدم الولاء . وحتى العصر الاخير ، ايام الحكم التركى ، كان السوريون لا يرون فى مصر ، الا ملجأ يقصدونه تحقيقا للكسب والامان ، وقد كان واجبا ان يتدبر عبد الناصر واعوانه هـذه السمات والسوابق فى شعب ، لا يقصد من اية حركة سياسية أو اجتماعية ، الا تحقيق المغانم المادية .

ولكن عبد الناصر لم يكن يقف فى طموحه الى زعامة العروبة والامم العربية عند اية وسيلة وكان يظن ان الوحدة بين مصر وسوريا هى فاتحة هـذه الزعامة . وقد ملقه القوتلى رئيس سوريا يومئذ فى خطابه الذى القاه من شرفة رياسة الوزارة بالقاهرة ، حيث تمنى له أن يكون صلاح الدين المصر ، فى تحقيق الوحدة بين سوريا ومصر ، وهو ملق زائف بجانب حقائق التاريخ ، لان ما فعله صلاح الدين يومئذ لم يكن تحقيق اية وحدة بين مصر وسوريا ، ولكنه كان اعادة سوريا ، الولاية المصرية الفاطمية الى امهـا مصر ، التى كان سلطانها يشمل يومئذ فلسطين (الرملة) ، وسوريا (الشام) وولاية حماه وما فى جنوبها (لبنان) . ولم يك ثمة يومئذ مايسمى بالعروبة أو الوحدة العربية ، مما يوجه حركات صلاح الدين وانما كان ثمة جبهة اسلامية موحدة ضد الجبهة الصليبية .

وقد كانت هذه الاعوام الاربعة ، التى استمرت فيهـا هذه الوحدة الاندماجية ، والتى اشترك فيها السوريون والمصريون فى تبادل الوظائف الكبرى والسفارات وغيرها ، بين الدولتين ، من أشد ما آلم نفوس كثير من المصريين ذوى

الكرامة والاباء . وأقسم انني خلال رحلاتي المتعددة الى أوربا خلال هذه الفترة ، لم أدخل قط سفارة مصرية كان يتولاها سوري مهما كان الداعي الى ذلك ، وقد كان هذا بالاخص موقفي من سفارة مدريد ، التي كانت تربطني بها مصالح واتصالات كثيرة ، تتعلق بدراساتي في أسبانيا .

ولقد بذلت مصر خلال هذه الفترة ، جهودا واموالا طائلة لمعاونة سوريا وانعاشها ، وبعثت أسطولها الى المياه السورية ، ردا على تحرك القوات التركية . ثم انتهت هذه المغامرة بكارثة ، وتم الانفصال ، والحمد لله ، في سبتمبر سنة ١٩٦١ ، بطرق مهينة لمصر وابنائها ، وأدرك عبد الناصر ، مبلغ تصرفه في عقد مثل هذه الوحدة مع أمة لم تتعود على الشعور بالولاء وشكران الصنيعة (١) .

ولن ننسى أن نسجل هنا تلك الجريمة الشائنة التي ارتكبت في حق مصر الخالدة ، وذلك بأن قرر بهذه المناسبة ، وأد اسمها التاريخي العزيز الخالد على كر القرون ، وسميت « بالجمهورية العربية المتحدة » . وقد كان لذلك آلم وقع في نفوس أبنائها البررة . وكنا نرفض طول الوقت هذه التسمية المفروضة ، ولا نسجل في أية أوراق رسمية تقدم لنا في الخارج سوى اسم مصر العزيز .

وكانت المغامرة الثانية في سنة ١٩٦٢ ، وهي مغامرة حرب اليمن ، التي لم تعلم بها البلاد الا بعد مسير القوات المصرية اليها بأيام . وقد فسر لنا الرئيس السادات باعثها

---

(١) من العجيب ان يكون هذا هو راى مؤرخ عربى كبير بكى على الاندلس ، ثم هو فى كلماته هنا يتهم سوريا بانها لم تتعود الشعور بالولاء وشكران الصنيعة الخ ... « كتاب الهلال » .

الاصلى وهو مهاجمة هذا القطر الملاصق لحدود المملكة السعودية الجنوبية الغربية ، للقضاء على حكومة الامام الرجعية البشعة ، وتهديد جناح السعودية بذلك ، لانها هى التى قامت بتمويل عملية انفصال سوريا من الوحدة .
ومهما كانت بواعث هذه الحرب ، التى استطالت زهاء خمسة أعوام ، والتى انقلبت غير بعيد ، وفقا لقول الرئيس السادات الى سوق تجارية ، فقد كان واضحا ، أنه لم تكن لمصر فيها أية مصلحة قومية حقيقية ، تستدعى بذل مئات الملايين من الاموال ، والتضحية بأرواح آلاف مؤلفة من الشباب المصرى ، ولم تجن منها مصر اية نتيجة أو منفعة ايجابية مادية او أدبية .

النكبة الكبرى

فى ظهر يوم ١٧ مايو سنة ١٩٦٧ ، كنت جالسا بمقهى الميوزيوم بمدينة فيينا ، اطالع الصحف النمسوية ، واذا بى أقرأ من أخبار مصر ، أن القوات المسلحة المصرية ، تتقدم فى قلب سيناء ، فانزعجب لهذا الخبر ، ولم أفهم سر هذا التحرك العسكرى ، وبادرت بالعودة الى القاهرة ، فوصلت اليها فى العشرين من مايو .

والفت الرأى العام بمصر متوترا ، والمواطنين فى حيرة ، لا يدركون من الامر شيئا واضحا ، وينتظرون وقوع الصدام العاجل بين مصر واسرائيل ، وكان الشائع يومئذ ان تحرك مصر كان لانجاد سوريا ، التى حشدت اسرائيل قوات ضخمة على حدودها ، وهددت باحتلال دمشق .

ونحن نكتفى هنا بأن ننقل تعليق الرئيس السادات على

تصرفات عبد الناصر : « وقد وضع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع ، فى حين كان السوفييت لا يكفون عن التنبيه ، بأن توقيت الاحداث أسرع مما يجب . ولكن عبد الناصر كان مصرا على اندفاعه ، وأنزل الستار على هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفى الذى عقده على مستوى عالمى ، وكان قمة فى التحدى والعنف »(١) .

ووقعت النكبة يوم الاثنين الخامس من يونية ، وبدات اسرائيل بضرب سلاح الطيران المصرى ، ودمرت سائر طائراته فى سائر المطارات ، وهى جاثمـــة على الارض ، وفقدت مصر فى لحظة جناحها الدفاعى الاول . واصدرت القيادة العامة ، وكانت يومئذ بيد عبد الحكيم عامر ، امرها بانسحاب الجيش . ووقع الارتباك والتناقض المذهل فى تنفيذ أمر الانسحاب . وكانت نكبة حقيقية مروعة ، نزلت بجيشنا الضخم الباسل ، دون قتال ولا استحقاق ، وكان ضحية مؤلمة لقيادة عاجزة ، وارتدت فلوله فى مناظر مثيرة مبكية ، تاركا للعدو سائر عتاده ومعداته ، التى تقدر بمئات الملايين . ولم تمض أيام حتى احتل اليهود سائر سيناء ، ووصلوا الى ضفة القنال الشرقية ، ولم يكن أمامهم للمقاومة ، جندى مصرى واحد .

وكانت جماهير المواطنين أثناء ذلك كله ، فى منتهى الحيرة واليأس ، وكان بعضهم يتساءل فى سذاجة ، لماذا لم نتقدم لاحتلال تل أبيب .

ثم يقص علينا موقف الجماهير الساذجة ، التى اجتمعت حشودا كثيفة ، فى شوارع القاهرة تطالب باستمرار زعامة عبد الناصر فى الرياسة ، وهو أمر لا يكاد يصدق ، ولا

---

(١) البحث عن الذات ، ص ٢٢٥

يمكن أن يحدث من جماهير امة واعية مستنيرة ، لها راى وعزيمة ، وقد كان المفروض أن يقع العكس تماما ، وهو أن تطالب الامة بمحاكمة المسئولين عن وقوع هذه النكبة الفامرة المروعة ، وانزال العقاب الصارم العادل بهم .

على أن الرئيس السادات يقدم الينا أبلغ وأصدق وصف لموقف عبد الناصر ، وحالته النفسية بعد النكبة فيقول : « ومن يعرف عبد الناصر ، لابد أن يدرك انه لم يمت يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ ، بل مات يوم ٥ يونية سنة ٦٧ ، بعد المعركة بساعة واحدة . هكذا كان يبدو ، بل وظل يبدو لفترة طويلة ... الميت الحى .. صفرة الموت تغطى وجهه ويديه ، رغم انه كان يسير ويتحرك ، وينصت ويتكلم »(١) .

***

هذا ، وقد شـاء ربك أن ينتصف الجيش المصرى لكرامته ، وان يمحى آثار الهزيمة الظالمة الذى انزلت به ، وذلك فى حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ والسادس من اكتوبر ١٩٧٣ م ، وهى التى وضع خطتها الموفقة الرئيس انور السادات ، فقام بعبوره الخاطف لقناة السويس ، وتدميره لخط بارليف الذى زعم اليهود مناعته ، وهزيمته للقوات الاسرائيلية البرية والجوية فى عدة معارك طاحنة ، وتوغله داخل سيناء الى مسافة كبيرة ، وقضائه بذلك على أسطورة المنعة التى كانت تزعمها اسرائيل عن جيشها الذى لا يقهر . ولم ينقذها من الهزيمة الساحقة الا تدخل

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٣٣ .

الدولتين العظيمتين امريكا وروسيا ، وصدور قرار وقف اطلاق النار ، وقد كان لانتصار مصر فى حرب أكتوبر أعظم صدى فى العالم كله ، وفى العالم العربى بوجه خاص ، حيث شعرت سائر الامم العربية ، انها قد استردت كرامتها وثقتها بنفسها . وقد محت حرب أكتوبر بالاخص آثار الجريمة العظمى التى ارتكبت فى يونية سنة ١٩٦٧ ، دون ترو ولا درس ولا تمحيص ، وأسدلت مدى أعوام ستارا مؤلما على كرامة الامة ، وسمعتها ، واعتزازها بجيشها .

***

والان فان الشعب المصرى ، بعد هذا الكفاح المرير ، والنصر المحقق ، يحق له أن يجنى ثمار كفاحه ، ونتائج نصره ، وأن يخرج من هذه الغمار القاتمة التى احاطت بحياته أعواما طويلة ، وأن يتاح له أن يرفع عن كتفه هذا الكابوس ، الذى يثقل كاهله ، خلال هذا العهد الطويل ، الذى تراكمت فيه الازمات ، والذى اخفقت فيه السلطة القائمة فى أن تعالج مشاكله المريرة المؤلمة ، ان الشعب المصرى يحيى اليوم حياة تعسة فى سائر المجالات ، ما فى ذلك من شك ، وقد أصبح شعبا لا هم له الا تحصيل لقمة العيش بشق الانفس ، ينفق فى سبيلها كل وقته ، ويمضى ساعات وساعات فى طوابير الجمعيات التعاونية ، والمخابز ، لكى يحصل على أتفه مطالب العيش ووسائل الحياة الاليمة الذى لا يستطيع تغييرها ، أو يحاول الوصول الى عمله ثم الى بيته بوسائل المواصلات التعسة التى لا معدى له عن ركوبها . وقد نسى خلال هذا الشقاء الذى طال به العهد ، أن يفكر فى شىء آخر من متاع

الرفاهية والمثل المعنوية أو العقليـــة . اذ كيف ومتى يستطيع ان يقوم بمثل هذا التفكير ، وهو يشغل بهموم العيش النكد الذى يلازم حياته ليل نهار . انا نرجو ونحن نستقبل هذا العهد أن يلقى شعبنا مصيرا أفضل ، وعناية أوفر لمعالجة مشاكله وتخفيف ويلاته ، وتحسين وسائل عيشه ، فى التموين ، وفى الاسكان وفى المواصلات والغلاء ، وغيرها ، ما تراكمت مصائبه خلال أعوام طويلة لم يظفر فيها من حكامه بأية محاولة ، أو جهد منقذ ، أو علاج ناجع . وانا لندعو الله أخيرا أن يمد حكامنا وولاة الامر فينا ، بعونه وتوجيهه لكي يحاولوا أخيرا . وبعد هــذا الجهد الطويل ، ان يعملوا شيئا لمعالجة مشاكل الشعب المتراكمة ، وان يساعدوه على الخروج من هــذه المحن القاهرة التى يتردى فيها ، والله يحقق هــذه الامال المعقودة ، انه هو القوى المعين(١) .

أوضاع الحياة السياسية والاجتماعية قبل سنة ١٩٥٢

انهم يقولون الآن لجيل الشباب الناشىء ، المسكين الحائر ، اننا نجوز فى ظل العهد الجديد ، عصرا أفضل ، وحياة أفضل ، وان عهـد ما قبل « الثورة » كان عهد اقطاع ، يتحكم فيه الاقطاع وأصحاب الاموال فى مصاير الناس ، ويحتكرون السلطان والاموال والمنافع ، وانه كان عهدا مليئا بالفساد والفوضى ، وان البـــلاد كانت تحت سيطرة الانجليز من ناحية ، وســـيطرة القصر والاحزاب من ناحية أخرى . اما اليوم فان الشعب يحيا فى ظل الحرية « والديمقراطية » ، وتكافؤ الفرص ، وقد زالت عنه ســيطرة الانجليز ، وسيطرة القصر ،

---

(١) كتب المرحوم عبد الله عنان هذا الفصل سنة ١٩٧٩ .

وسيطرة راس المال والاقطـــاع ، وتحققت العـدالة الاجتماعية ، الى غير ذلك من الاقوال ، والشـعارات الخلابة ، التى تطالعنا بها صحافة هذا العهد ، ويرددها أصحاب السلطان فى خطبهم وأقوالهم كل يوم .

هذا هو ملخص الصورة القاتمة التى يصمون بها عهد ما قبل « الثورة » والصورة البراقة التى يحاولون أن يسموا بها العهد الجديد ، عهد « الثورة » .

ونود « نحن وقد عشنا في العهدين ، وبلونا ما أقسم به كل منهما من الصفات والخواص ، أن نقول أولا ، أن الاوضاع السياسية قبل سنة ١٩٥٢ ، كانت فعلا تتجاذبها مختلف التيارات ، وانه كان عهدا يتميز بالصراع المستمر بين الوطنية المصرية والسـيطرة الانجليزية . هذه هي الناحية الاولى . وان السلطة لم تـكن بالفعل خالصة للمصريين ، وان الحكومات المصرية المختلفة ، كانت تعانى من ضغط المحتل احيانا ، ومن ضغط القصر احيانا أخرى . ولكننا نود أن نقول الى جانب ذلك ، ان حكم الاحزاب ـ وقد كان يتجاذب النفوذ السياسى يومئذ حزبان أصليان ، أولهما حزب الوفد المصرى ، وهو حزب الاغلبية الشعبية ، وحزب الاحرار الدستوريين (وهو حزب الاقلية الارستقراطية الفكرية والراسمالية الزراعية. ثم انشطر حزب الوفد فيما بعد الى ثلاث شعب متنافسة متخاصمة ـ نقول ان حكم الاحزاب كان يتسم فى هذا العهد بمقدرة فى الحكم ، ومعالجة الازمات القومية ، وان الحياة البرلمانية فى هذا العهـد ، بالرغم مما كان يشوبها من الصراع الحـزبى كانت حياة ديمقراطية صحيحة ، وانهـا كانت من حيث مستوى التكوين

والكفاية ، أرقى بكثير مما تشهده اليوم فى الحياة البرلمانية . أجل كان ثمة نواب وشيوخ من طراز ممتاز ، لا نرى لهم اليوم أحدا من النظائر ، وان الحريات الدستورية والديمقراطية ، كانت أمرا قائما بالفعل ، وكانت مكفولة بالقوانين وأحكام القضاء ، وانه لم يقع فى هذا العهد شيء من ضروب الاستعباد المطبق للشعب المصرى .

ثم يقولون ، ان حكم الاحزاب فيما قبل « الثورة » كان مشوبا بالفساد والفوضى . ونحن نقول أجل ، كان ثمة فساد يشوب حكم الاحزاب . ولكن ما يشوب الحكم فى عهد « الثورة » من الفساد والفوضى ، يزيد أضعافا مضاعفة عما وقع من قبل . ويكفى أن الرشوة أصبحت فى عهد الحكم الحالى تقليدا ثابتا ، لا يمكن أن تقضى بدونها فى الادارات الحكومية المختلفة ، أى حق أو مصلحة لاى مواطن . هذا الى ما يقع بين يوم وآخر من الاختلاسات الهائلة لاموال الدولة . والحرائق المستمرة المتعمدة لاخفاء السرقات والاختلاسات .

ثم يكفى الى جانب ذلك ما ظهر من العجز عن معالجة أية مشكلة من المشاكل القومية ، أمثال مشاكل الاسكان والمواصلات والتموين والهجرة الريفية وغيرها ، وهى مشاكل تتفاقم كل يوم مع مرور الزمن ، ولا تحاول الحكومة أن تبذل أية محاولة ناجعة لمعالجتها .

وأما عن الغاء الاقطاع وتحقيق العدالة الاجتماعية ، فيكفى أن نقول انه ما كان ثمة ، ولا سيادة رأسمالية ؛ وانما كان ثمة بيوت كبيرة ، وعصبيات عائلية ، تحتكم على مساحات كبيرة من الاراضى ، بحكم الزمن والتوازن ،

ونظام المجتمع المصرى منذ عصور ، وكان يمكن أن تعالج هذه الحالة ، بتحديد الملكيات الـكبيرة على مستوى معقول ، وليس بروح الانتقام . وليس من العـدالة الاجتماعية فى شيء ، أن يحصل كثير من العمال في ظل النظام الحالي ، في مختلف منشآت القطاع العام المؤممة باسم وظائف المديرين لكذا وكذا ، على مرتبات تفـوق مرتبات رؤساء محـاكم الاستئناف العليا ، ورؤساء سائر المحاكم الابتدائية واساتذة الجامعات ذوى الكراسي، وأن يحصل صغار العمال الذين يقومون بأعمال تافهة مثل النظافة وغيرها ، على اجور تفـوق مرتبات خريجى الجامعات في الدرجات الخامسة والرابعة . ليس هذا من العدالة الاجتماعية او تكافؤ الفرص فى شيء ، وانما هو تجاوز مقصود ، واخلال بنظام المجتمع الامثل ، ومثل للكفايات المحترمة ، والقوى المعنـوية ، وهدم لمجتمع الاخلاق والفضائل . وسوف نعـود الى مناقشة ذلك فى مكان آخر .

هذا ولا ريب أن الضربة التى أنزلها النظام الحاضر بالقطاع الخاص ، وتأميم سائر منشآته ودوائر نشاطه مهما صغرت ، كانت تصرفا يتسم بالخطأ الفادح ، وقصر النظر ، اذ عـدمت معه سـائر الهمم الخاصة والقرائح المنتجة . واليوم تحاول الدولة عبثا أن تعيد اليه روح النشاط القديم ، بعد أن عدمت لديه الثقة والطمأنينة ، وخصوصا لما تصر عليه الحكومة من التسوية فى تطبيق المزايا المرهقة فى الاجور والاجازات والتامينات وغيرها على عمال القطاع الخاص ، وقد كانت اهم مزايا القطاع الخاص ، هو حرية التعامل والتفاهم بين صاحب العمل

وعماله ، وكان هذا التفاهم الحر هو دعامة الانتاج الناجح، الذى يختفى اليوم تحت وطأة التدخل الحكومى . ومن ثم فاننـــا لا نلحظ ميلا من رءوس الاموال الخاصـــة الى توظيف نشاطها من جديد فى المشاريع الخاصة ، حتى لا تعانى ما يعانيه القطاع العام من الفوضى والانهيار المادى والمعنوى .

القاهرة تحتضر وشعبها يتردى فى الحضيض

كنت كلما عدت من رحلة من رحلاتى الدراسية ، بعد أشهر من التجوال والدرس ، الى مدينة القـاهرة ، يطالعنى ما تجوزه المدينة العظيمة من التغيير ، والعفاء ، الذى يخيم تدريجيا على معاهـدها ومرافقها ، وصـور الحياة بها . بيد انى لم أكن أتصور ، انها سوف تتردى مع مرور الوقت الى هذا الحضيض الذى تتردى فيه اليوم ، بعد ربع قرن من عهد الثورة » .

نحن الآن فى سـنة ١٩٧٩ ، وقـد طرأ على مدينة القاهرة خلال هذا الربع من القرن الذى عشناه فى ظل هذا العهد الجديد ، انقلاب عظيم ، استحالت فيه من مدينة مشرقة ، الى مدينة قاتمة بائسة ، أقل ما توصف به انها مدينة تحتضر ، وقد خفقت أعلام الخراب فى سائر جنباتها ومرافقها ، وساد البؤس والوجوم على أهلها ، وأضحت أحياؤها وطرقها ومنتدياتها ومتاجرها، تقدم الينا مناظر رثة تنطوى على مأساة من أفظع ماشهدته فى تاريخها الطويل الحافل .

وهذا التحول الاليم المحزن ، الذى طرأ على مدينة

القاهرة ، يذكرنا نحن الذين عشنا فى هذه القـــاهرة العظيمة ، قبل العهد الحاضر ، بما كانت عليه عاصمة مصر ، وعاصمة الاســــلام والعروبة الـكبرى قبل سنة ١٩٥٢ . كانت القاهرة يومئذ مدينة فخمة ، تتخللها الشوارع والطرق العامرة ، النظيفة اللامعـة ، وتغص بالمنتديات الانيقة ، من مقاهى وفنادق ومطاعم ، ومن المتاجر الضخمة الفنية ، التى تزدان واجهاتهـا المليئة بمختلف السلع والازياء المختـــارة . ولم يك ثمة شك فى أنه كان للنشـاط الاجنبى ، ورأس المال الاجنبى ، دوره فى تجميل القـــاهرة ، وتزويدها بكثير من المنتديات والمنشآت الاجتماعية الفاخرة ، من المطـــاعم والمقاهى والفنادق والنوادى . ولكن حدث فى بداية هذا العهـد الجديد ، عهد « الثورة » ، ان وقعت مطاردة الاجانب ، ورأس المال الاجنبى ، بعنف وبصفة عامة ، وبلا تمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، فقضى على كثير من المنشآت الاجتماعية والاقتصادية النـــافعة ، ولم نستطع نحن أن نقوم بانشاء نظائرها ، لاننا لم نكن قد مارسناها ، بل ولم نمارس حتى اليوم صـــناعة هذه المنشآت وادارتها . ويكفى أنك اليوم لا تجد فى القاهرة كلها ، مقهى أو مطعما أنيقا ، تستطيع أن تجتمع فيه مع ضيف أو صديق سوى منتديات الفنادق الكبرى الملحقة بها ، وهى باهظة التكاليف . ولا يوجد بالقاهرة اليوم سوى المقاهى والمطـــاعم الشعبية . والمتاجر السوقية الرديئة الفئة ، ومما يدعو الى السخرية والرثاء ان سائر الملابس القطنية المصرية الفـــاخرة ، تحجب عن البيع للمصريين ، وتصدر كلها الى الخـــارج استجلابا للعملة

الصعبة ، ويضن بها على المصريين مثل كثير من الفواكه والاصناف الفاخرة ، التى أصبحت اليوم عزيزة على المصريين .

بيد أنه يجب احقاقا للحق ، أن نقول ان مطاردة عهد الثورة لاوضاع الاجانب لم يكن كله شرا . أجل كانت ثمة نواح مثمرة عديدة من النشاط الاجنبى ، ولا سيما فى الميدان الاقتصادى ، طوردت وقضى عليها باسم التأميم أو غيره ، دون درس ولا تمييز ، وما زلنا حتى اليوم نلمس الاضرار التى أصابت الاقتصاد المصرى بسبب هذه السياسة التى قضت على سائر نواحى التعاون المثمرة والشريفة من النشاط الاجنبى ، الذى نسعى اليوم الى اجتذابه بكل الوسائل ، دون استجابته الينا . بيد أنه كانت ثمة نواح أخرى من النشاط الاجنبى لا يمكن السكوت عليها ، ولا سيما من بعض العناصر ، التى استغلت سياسة التسلح المصرية أشنع استغلال . وان أحوال هذا الفريق من الاجانب ومجتمعهم قبل « الثورة » ، ليستحق كلمة من رجل وقف على هذه الاحوال فى القاهرة والاقاليم قبل عهد الثورة يربى على نصف مليون . وكانت الجالية اليونانية هى أكبر الجاليات الاجنبية ، واكثرها انتشارا فى طول البلاد وعرضها ، وكان أولئك « الاروام » فضلا عن انتشارهم فى القاهرة والاسكندرية ، يتغلغلون بالاخص فى الاقاليم . وقد عشت ، حسبما ذكرت فيما تقدم ، أوقاتا فى ميت غمر والمنصورة ، وهما من ازهر الحواضر ، التى كان يحتشد فيها الاروام ، سواء فى الحواضر أو فى القرى . وقد كانت معظم القرى يحتلها دائما محل

« بقالة » يملكه رومى ، ويعـــــرف لدى أهل القرية « بالخمارة » لانه كان دائمـــــا يحتوى على المشروبات الروحية الرخيصة ، التى يدمنهـــــا بعض السفلة من الاهالى . وكانوا فى مراكز المديرية ــ مديرية الدقهلية ــ مثل ميت غمر وأجا والسنبلاوين ــ يحتــكرون انشاء معظم المقاهى ، والمطـاعم والفنادق والبقالات ، وبعض المهن والحرف ، هذا عدا بندر المنصورة ، التى كانت لهم فيها جالية كبيرة مزدهرة ،. وكانوا يزاولون مهنة الطب، فى وقت كانت فيه معظم المراكز خالية من الاطبـــــاء المصريين . وانا اتحـــــدث هنا من الناحية الزمنية عن العشرينيات . وقد كانت بميت غمر التى كنت أزاول فيها مهنتى ــ المحاماة ــ فى بداية حياتى العملية ، جالية رومية قوية ، تحتل نواحى الحركة التجارية من مختلف المتاجر ، ولا سيما المقـــاهى والمطاعم والفنادق . وكان معظم سماسرة القطن فى معظم انحـاء البنادر والمراكز والقرى من اليونانيين وكان كثير من هؤلاء يشـــــتغل بالاقراض بالربا الفاحش ، ويملك الــــكثير منهم أملاكا عقارية كبيرة من العمارات والمنازل والضـياع . وكان من النادر أن تخلو قرية من وجود متجر رومى ، أو رومى محترف أو رومية تشتغل بالحياكة ، وكانوا على العموم يؤلفون وحدة استعمارية قوية فى الريف المصرى ، اذ كان معظم البنادر والمراكز ، يحتل فيها الاروام مثل هذه المكانة فى الاعمال التجارية والمهنية .

وأما فى القاهرة فقد كان نشاط الاروام يشغل الكثير من جوانب الحركة التجارة والمهنية ، وبالاخص جوانب الحركة الاجتماعية من انشاء المقاهى والبارات والمطاعم

والفنادق ومحال الحلوى ، ويملكون كثيرا من العمارات الكبيرة ومختلف المنشآت العقارية . هذا الى احتكار تجارة البقالة العالية فى مختلف انحاء العاصمة والاشتغال بكثير من المهن والحرف ، كالطب والمحاماة ، ومحال الترزية ، والمحال الكهربائية والميكانيكية ، وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر . وقد استمر هذا النشاط الذى كان يزاوله الاروام بمختلف انحاء القطر المصرى زمنا طويلا ، وكان من أزهر الانشطة الاجنبية فى البلاد . بيد انه لم يكن أرقاها ولا أنظفها ، وقد كان ممعنا فى الاستغلال ، وتخير مختلف وسائل الكسب ، ومنها وسائل كثيرة غير محترمة ولا شريفة ، ومع ذلك فقد كان ثمة كثير من أبواب هذا النشاط التجارية والاجتماعية المشكورة ، والتى كانت تساعد فى تزيين العاصمة ، وتزويدها بمختلف المنشآت والمحال العمرانية ، ولا سيما المقاهى والمطاعم والفنادق والبقالات ، ومحال الحلوى الراقية . وقد استمرت هذه الحالة حتى بداية عهد الثورة . ثم كانت حركة مطاردة الاجانب ، والقضاء على مختلف انشطتهم ومشاريعهم الاستغلالية . وانه لمن الحق أن نقول ان هذه الحركة كانت ضرورية للقضاء على كثير من أبواب هذا الاستعمار الاجنبى لمرافق البلاد ، ولكن من الحق أيضا أن نقول انها قضت كذلك على أبواب من هذا النشاط وجهوده الاجتماعية الطيبة ، التى كانت تزدان بها العاصمة ، وتساعد فى تنظيم حياتها الاجتماعية ، وفى ترويج الحركة السياحية باقامة المنشآت والمنتديات الجذابة ، ومن ثم فقد قضت مطاردة الاجانب ، على كثير من الخير والشر معا ، ولم تقع فى ذلك دراسة

ولا تمييز بين ما يجب أن يكون وما لا يكون .

***

هذا ، وبالرغم انه لم تكن بالقاهرة يومئذ من وسائل المواصلات ، سوى الترام والتاكسي ، والعربة الحنتور ، وقليل من خطوط الاوتوبيس ، فقد كان التجوال بها سهلا مريحا ، ولم تكن العين تقع على مثل تلك المناظر المزرية، التى تبدو اليوم فى كل جانب من جنباتها . اجل لم تكن القاهرة يومئذ قد ازدحمت بهذه الملايين العديدة ، التى تشقى بها اليوم ، ولم يكن سكانها يزيدون على مليونين أو مليونين ونصف . ولكن المسئولية ، فى هـذه الزيادة المروعة فى سكان المدينة العظيمـة ، لا ترجع فقط الى النمو السكانى المعتاد ، ولكنها ترجع بالاخص الى سوء التخطيط ، والى انشاء المصانع المرتجلة في مشارفها ، وفي داخلها ، والى الهجرة الريفية الزاخرة ، التى ترك حبلها على الغارب ، حتى تجاوزت الملايين من أهل الوجه البحرى والصعيد ، ولم توضع لها حتي اليوم أية قواعد أو حدود . ثم ان هذه الفوضى الشاملة فى حياة المدينة العظيمة ، ترجع من جهة أخرى الى العجز الشائن فى تنظيم مرافقهـــا ، وتزويدها بالخدمات العامة ، على مستوى يناسب هذه الزيادة الضخمة فى عدد سكانها . وانه لمن المؤلم ان نقول ان ما نراه اليوم في عاصمة الاسلام والعروبة الكبرى من ضروب الخـــراب فى شوارعها وطرقاتها وافاريزها ، وما نتعثر فيه من الحجارة والاتربة فى أهم وارقى شوارعها . وما نراه فى كل جنباتها من المناظر المهينة المزرية فى حالة المواصـــلات والتموين ، واحتشاد الصفوف الطويلة المحتاجة الجائعة على أبواب

الجمعيات التعاونية ، وعلى المخابز والاسواق ، لا يرى الآن في اي بلد من بلدان العالم المتمدن ، وان ما يشعر به الان كل مصرى من مرير الحاجة ، والفقر ، والعجز عن استيفاء مطالب العيش الضرورية ، ومشقات الحياة المجردة ، مما لم يقع ولم يسمع به منذ احقاب طويلة . اضف الى ذلك أزمة الاسكان الفظيعة ، التى ترتبت قبل كل شيء على سلسلة عشواء من القوانين التى اتخذت ضد ملاك العقارات ، وضد تقدير الايجارات العادلة للأبنية المنشأة ، ومحاربة رأس المال المشروع ، وتثبيط الهمم في توظيف الاموال في انشاء العقارات والمساكن . كل ذلك ادى الى تفاقم ضروب البؤس والخراب بين سكان المدينة العظيمة . يزاد على ذلك كله ما وقع من تفاقم الغلاء الذى لم تحاول السلطات ان تتخذ في شأنه اية اجراءات ناجعة .

وقد سبق أن أشرنا من قبل الى مسئولية النظام ، في وقوع هذا الانفجار السكانى المروع الذى تئن منه البلاد ، وتئن منه القاهرة الكبرى بنوع خاص ، اذ يبلغ سكانها اليوم نحو عشرة ملايين من الانفس ، وهو مستوى لا تبلغه في العالم سوى نحو عشر مدن . ولقد أوضحنا أن ما اتجه اليه النظام من نزع أملاك الافندية وصغار الملاك الزراعيين باسم الاصلاح الزراعى ، وتسليم أطيانهم بطريق التأجير المؤبد الى الفلاحين ، ونزع ملكيتهم الحقيقية بذلك وجعلهم ملاك رقبة فقط ، وتقاضيهم الايجارات التافهة مما لا يبلغ خمس ما تنتجه اراضيهم بينما يتقاضى الفلاح الزراع الباقى ، وما اتجه اليه النظام الحاضر كذلك من الاغداق في الاجور على عمال منشآت

القطاع العام بصورة غير معقولة ، وما ترتب على ذلك من اتجاه كثير من جهلاء الفلاحين والعمال الى تعدد الزوجات ـ أشرنا الى انه كان لذلك أسوأ الاثر في وقوع الانفجار السكاني ، الذى يكاد يقضى على أية جهود تبذل لتحقيق الاصلاح او الرخاء .

ولقد احتفلنا في سنة ١٩٦٩ بعيد القـــاهرة الالفى وأشدنا ، وأشاد زملاؤنا العلماء الاجانب المدعوين الى هذا الاحتفال الدولى العظيم ـ اشدنا وأشادوا بماضي القاهرة الزاهر ، وتاريخها وكنوزها الاثرية العظيمة ، ولم تكن القاهرة قد انحدرت الى هـــذا المنحدر المؤسي ، الذي انحدرت اليه اليوم ، وكنا نؤمل أن يكون هذا الاحتفال التاريخي العظيم نذير انتفاضة من ذوى السـلطان ، وبداية جهود من الاصلاح وتدارك المدينة المتحضرة ، وبها بقية من الارماق ، ولكن الذى حدث ، مع شديد الاسف ، هو أن تيار العفاء والخراب ، مايزال يزحف على المدينة الكبرى ، امام نظر السلطات وتحت سمعها ، والله وحده يعلم الى متى ينتهى هذا الانهيار المادى والمعنوى ، الذى تعانيه المدينة التعسة ويعانيه شعبها البائس المحطم .

***

هذا ، واذا شئت اشارة الى حالة المعيشة ومستوى الاسعار ، في هذه القاهرة العامرة المشرقة ، قاهرة ما قبل العهد الحالى بقليل ، فانك تسمع ما يدهشك ويذهلك ، لقد كان ثمـــة رخاء حيققى بالرغم من كل الازمات الاقتصادية العادية . وكانت المكاسب والمرتبات والاجور الصغيرة تكفى للعيش المرضى الممتع . وأولاً فقد كانت اجور المساكن المحترمة تختلف من ثلاثة الى عشرة جنيهات

(لشقق من ثلاث الى خمس غرف) . وكانت المساكن الخالية توجد فى كل حى ، وعلى كل مستوى . ولافتات الايجار تراها معلقة فى كل شارع وكل زقاق . وكانت تكفى جولة قصيرة لكى تعثر بالمسكن المطلوب والايجار الموافق ، ولم يكن يسمع عندئذ عن خلو أو غيره من فضائح الاسكان ومآسيه فى العصر الذى نعيش فيه اليوم . وكانت نفقات المعيشة فى غاية الاعتدال . فاللحم الذى نشترى منه الكيلو اليوم بجنيهين(١) كان الرطل (نحو نصف الكيلو) الضأن منه يساوى ١٢ قرشا ، والعجالى ثمانية قروش (وهذا حتى سنة ١٩٥٢) . وكان زوج الدجاج البلدى الحى لا يتجاوز خمسة عشر قرشا ، وزوج الحمام ثلاثة الى خمسة قروش ، والبيضة بنصف قرش والاقة (نحو كيلو وربع) من السمك تتراوح بين سبعة وخمسة عشر قرشا ، والزبد بخمسة قروش الرطل ، واللبن بستة مليمات الرطل . وكانت الفواكه فى متناول كل انسان ، العنب والتين ، الاقة بثلاثة قروش ، والبلح الرملى الاصلى بخمسة قروش ، والزغلول بخمسة أو ستة قروش والموز بستة قروش ، والبرتقال كل خمسة الى ثمانية بقرش حسب الحجم ، والبطيخ الصلحاوى من أربعة الى عشرة قروش حسب الحجم . وكانت الخضروات تباع بأسعار مدهشة ، لا تتجاوز قرشا لرطل أو عدد من الارطال ، الطماطم ، الخيار ، الفول الاخضر ... الخ ، وثلاثة الى أربعة قروش لاقة من الاصناف الممتازة (البطاطس ، اللوبيا ، البسلة ، والبقول ، لا تتجاوز نصف قرش :

---

(١) كان هذا سعر اللحم سنة ١٩٧٩ .

الخس الجرجير وأمثالها . وقد كانت هذه الاسعار هى الغالبة فى الاربعينيات ، وفى أيام الحرب العالمية الثانية ، حتى قبيل عهد « الثورة » بقليل . فأين هـذا الرخاء المدهش ، المشبع للبطون ، الدانية قطوفه من مقدرة كل مواطن ، مهما كان كسبه ، مما انتهينا اليه اليوم ، بعد ربع قرن من عهد « الثورة » ، مما لا يطيقه الا أصحاب الدخول العالية ، ومما تئن منه أصحاب الدخول المتوسطة والدنيا ، ومما لم تحاول ، او تنجح السلطات المعنية ، أن تتخذ فى شأنه أى اجراء ناجح ، يخفف من ضغطه وويلاته المرهقة . ثم الى أين ينتهى بنا هذا التيار المروع الجارف ؟ اللهم انا نلتجىء الى غوثك وواسع رحمتك . فارحمنا يارب العالمين .

الاصلاح الزراعى وتحديد الملكية

كان فى مقدمة أعمـال الحكومة الجديدة بعد يوليو ١٩٥٢ ، اصدار قانونين ، اساسيين ، لعبا أكبر دور فى تغيير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، همـا قانون تحديد الملكية الزراعية ، وقانون الاصلاح الزراعى .

فأما قانون تحديد الملكية ، بحد أقصى للفرد الواحد ، قدره مائتا فدان ، فلم يثر يومئذ كبير صدى ، الا فى بعض الدوائر القليلة التى تأثرت بتطبيقه بطريق مباشر .

والواقع أن فكرة تحديد الملكية الزراعية ، كانت قائمة وذائعة بالفعل قبل سنة ١٩٥٢ ، وقد نوقشت غير مرة فى برلمانات هذا الوقت ، وعرضت فى شأنها بعض المشاريع ، ولكن لم يتح لها حظ من التنفيذ .

بل لقد طالب كبار الملاك أنفسهم فى أوائل عهـد

« الثورة » بتحديد الملكية فى مذكرة رسمية كتبوها بذلك ، ورفعوها الى ممثل السلطة الثورية يومئذ اللواء محمد نجيب ، والى رئيس الوزارة على ماهر باشا ، وطالبوا فيها بتحديد الملكيـــات الكبيرة بألف فدان ، وبينوا أن التحديد الضيق يقضى على الزراعات الكبيرة ويؤدى الى خفض الانتاج .

بيد أن هذا القانون الاول لتحديد الملكية ، عدل فيما بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكان موضع أخذ ورد ، وموضع خلافات ومتناقضات متوالية ، وانتهى الامر بأن انقص حد الملكية من مائتى فدان الى مائة فدان للفرد الواحد ، سواء من البالغين أو القصر المشمولين بالوصاية فى العائلة الواحدة . وقد أحدث هذا التغيير مرحلة جـديدة من الاضطرابات فى أوضاع الملكية ، وأوضــــاع العائلات المالكة . وكان كارثة بالنسبة لكثير من الافراد والعائلات . علما بأن هذه المرحلة الجديدة من مصادرة الاملاك الزراعية لتحديد الملكية ، كانت تجرى دون تعويض للملاك ، حسبما وقع فى البداية من اعطاء سندات على الخزينة مقـــابل الاملاك المصادرة .

اجل ، كانت ثمة تجمعات كبيرة من الاراضى ، لدى بعض العائلات الكبيرة ، وكانت ثمة عائلات تملك زمامات قرى بأسرها ، وكان من المعقول أن يوضـــــع حد لهذا التجمع وهذا الاحتكار . فجاء قانون تحديد الملكيـــة ، ليقضى على هـــذا الاحتكار وليقضى فى نفس الوقت على العائلات والعصبيات الكبيرة التالدة . لكن تبين فيمـــا بعد ، أنه قد ترتبت على تطبيق القانون على هـــذا النحو أيضا ، آثار مخـربة لم تكن فى حســـبان المتشرعين ، فقد

عجز واضعو اليد الجدد عن فلح هذه الأراضى الخصبة ، الواسعة ، وقصرت مواردهم وجهودهم عن تعهـــدها وخدمتها ، ولحق بها الجدب والخراب . أما تلك التفاتيش والمساحات الواسعة العديدة ، التى كانت تديرها السلطات المختصة ، والتى كانت قبل نزع ملكيتها جنات خضراء منتجة ، فقد عرضت لنهب المختلســـــين من المكلفين بالاشراف عليها ، واجدبت ، وأضحت عاجزة عن الوفاء بنفقاتها . وهكذا أجدبت وخربت اراضى ومســـاحات شاسعة من الرقعة الزراعية المخصبة المنتجة ، وكان ذلك نتيجة مباشرة لتحديد الملكية على النحو الفاشم الذى تم تطبيقه .

أما قانون الاصلاح الزراعى ، فقد كان المفروض انه وضع لخدمة الفلاح الذى يزرع الارض ، ومعـــاونته وحمايته من تعسف بعض الملاك الذين كانوا يتفننون فى استغلاله وهضم حقوقه ، وقد جرت الحكومة فى البداية على تقرير تجديد الايجار لواضعى اليد كل ســنة ، ثم ثلاث سنوات ، ثم جعلت وضع يد المستأجر بعد ذلك اجباريا ومستمرا مؤبدا ، وحيل بين المالك وبين استرداد ارضه مهما كانت الاتفاقات المعقودة ، وبعبارة أخرى أصبح الامر الواقع أن ارض المالك ، قد نزعت منه بصـــورة نهائية ، واضحى مالكا للرقبة ، لا يحق له سوى تقاضى الايجار الذى حدده القانون بسبعة أمثال ضريبة الاطيان المؤجرة ، وذلك وفقا لتقدير سنة ١٩٤٩ . وقد كانت هذه ضربة لكثير من العائلات المالكة التى كانت قبل تؤجـــر أرضها بأضعاف هذه القيمة ، لان ضريبة الاطيان لم تكن لتعبر مطلقا عن حقيقة معدن الأرض وقيمتها الايجارية .

والانكى من ذلك أنه لما تجدد تقدير ضريبة الاطيان فى سنة ١٩٥٩ ، وزيد منسوب الضريبة ، وامل الملاك أن يتقاضوا ايجارا متحسنا نوعا ، أعلن أن قلم قضايا الاصلاح الزراعي افتى بأن منسوب الايجار يجب أن يستمر وفقا للضريبة القديمة ، والمستأجر يدفع فقط للمالك فرق الضريبة ، وهو مما يخالف القانون نفسه . ولكن الحكومة كانت تجرى على محاباة الفلاح واضع اليد بكل الوسائل ، وكانت تسمح له بالاقتراض على محصول الاطيان دون اذن المالك ، وكان الفلاح بهذه الطريقة يجنى ايرادا من الفدان الواحد ، اربعة أو خمسة أمثال مايدفعه من الايجار . وكانت الحكومة ، شعورا من الدوائر بهذا الغبن الفظيع الواقع على المالك ، قد أصدرت بعد الاصلاح ببضعة اعوام قانون التجنيب الذى يبيح للمالك ان يسترد نصف الزمام المؤجر من تحت يد المستأجر ، ويترك له النصف الثانى . ولكن ما كاد يمضى على صدوره ثلاثة أشهر ، وقبل ان يفيق الملاك الى تنظيم مصالحهم ، حتى سحبته الحكومة بحجة انه استعمال للضغط على المستأجرين . وهكذا أيقن المستأجر أن الحكومة فى صفه على طول الخط ، وأنه اصبح هو المالك الحقيقى للارض ، وما عليه الا ان يؤدى الايجار التافه الذى تحدده فئة الضريبة ، أجل صدر منذ بضعة اعوام قانون بزيادة ايجار الفدان الى عشرة أمثال الضريبة. ولكنها كانت زيادة تافهة لا تجبر الغبن الكبير الواقع على ملاك الاراضى ، ولم يكن ذلك الا علاجا مسكنا .

ماذا كانت النتيجة ؟ لقد ترتب على هذه الاوضاع ، وعلى نزع ملكية الاطيان من مالكيها ، ووضعها بطريق التأبيد تحت يد المستأجر ، أن تضاعفت مكاسب الزارع

من الارض ، وأصبح قادرا على أن يشترى أطيانا جديدة. بل واكثر من ذلك ، اصبح يساوم المالك الذى يرغب فى استرداد أرضه أو جزء منها ، مساومة الشريك المالك ، ويطالب بخلو يبلغ نحو نصـــف ثمن الارض المرغوب استردادها ، وأصبح اليوم هـذا السعر حقيقـة قائمه راسخة ، يؤديه كل مالك ، يريد لضرورة ما ان يسترد ارضه او جزءا منها . وقد اضطر كاتب هذه السطور نفسه أن يخضع لهذا الوضع المجحف ، وأن يدفع هذا الخلو الباهظ حينما باع ضيعته الصغيرة ، وأصر المشترى على استلام الاطيان خالية من المستأجرين ليزرعها بنفسه .

***

ماذا كان تأثير هـذا فى أوضاع القرية وتشـكيلها الاجتماعى ؟ لقد أصاب الخلل هيكل القرية الاجتماعى ، فخيم الفقر والعوز على كثير من العائلات التى بليت بتأجير اراضيها قسرا ، وفقا لقانون « الاصلاح » ، وكانت قبل تعتبر من العائلات المستورة ، وبرزت عائلات أخرى من الفلاحين ، الذين اثروا على حســـاب الملاك القدامى ، وتسرب البغض الى نفوس الطائفتين ، الطائفة القديمـة ذات الحسب القديم ، والطائفة المحدثة العـارية عن الحسب ، والمستأثرة بوضع اليد ، واستغلال الارض ، ونهب المكاسب . فالبغض يسود اليوم بين الطائفتين فى القرية ، وقد زالت آثار المودة القديمة بين الطرفين . ولا يكاد أحد من الملاك القدامى الذين سلبت أراضيهم ، يفتح بابه ، لأحد من الفلاحين المتكسبين ، الا من دعت الحاجة الى خدمة أو معونة . ولقد كانت القرية من قبل نموذجا جميلا للتآخى والمودة ، لا فرق بين كبير أو صغير ،

أو غني أو فقير . وكانت دور (دواوير) الخير تنشيء بكثير من القرى على يد الميسورين من أبنائها ، وتفتح لعابر السبيل وكل معوز تطأ قدمه أرض القرية . وقد شهدت الكثير من ذلك فى شبابى ، ولا سيما بقريتى التى ولدت بها (بشلا) ، فقد كان بها دوار عظيم للخيرات أنشأه آل وحش ، كبراء أعيان القرية ، وأقفوا عليه قدرا كبيرا من الاطيان ، وكان يقصده أبناء القرية ، وكل قادم اليها ، ليجد الطعام ، والاكرام والمأوى . وشهدت مثل ذلك فى قرى كثيرة اخرى . أما اليوم وقد جنى قانون تحديد الملكية وقرينه قانون الاصلاح الزراعى ، على مقدرة الخيرين ، فقد اختفت معظم آثار الخير ، وأغلقت دوره ، التى كانت تعتز بها الاسر الكبيرة الميسورة ، وغاضت آثار التعاطف والتعاون والجود ، التى كانت تسودها من قبل .

هذا ، وفوق ذلك كله ، فانه لا يخفى حسبما اشرنا اليه من قبل ، ما كان لذلك الاغداق المتعمد على الفلاحين ، واثرائهم بما نهب لجانبهم من أموال وأراضى الافندية وكبار الملاك ، باسم الاصلاح الزراعى لا يخفى ما كان لذلك من أثر بارز فى عملية الانفجار السكانى . فنحن نعرف أنه من العوايد الذائعة بين كثير من طبقات الفلاحين ، انه متى توفرت لديه المكاسب ، وان أول مايفكر فيه الزواج من ثانية وثالثة ... الخ . وقد زادت نسبة الزيجات زيادة هائلة ، بين كثير من هذه الطبقات ، التى اثرت حديثا ، فتزوجوا مثنى وثلاث ورباع ، وكثر النسل بينهم كثرة هائلة ، وكان لذلك أثره الواضح فى ازدياد السكان ، والانفجار السكانى المدمر .

الوقت الضائع

وبهذه المناسبة ، فلا بأس من أن أروى قصـــة وقتى الضائع ، فى حوزة الاملاك الزراعية والاشراف عليها . ففى سنة ١٩٤٠ ، حينما كانت أثمان الاراضى الزراعية رخيصة مشجعة اشتريت من بنك الاراضى بالاسكندرية ، عزبة صغيرة مساحتها أربعة وثلاثون فدانا ، وتقع بزمام شـــبارة الميمونة ، مركز ميت غمر ، بجوار قرية أبى نجاح التى ولدت بها أمى . وفرحت يومئذ باقتناء هذه الارض ، اذ كانت تساورنى أمنية قديمة فى أن أعوض ما فقده والداى من أرضهما الزراعية المملوكة لهما بسبب ضغط الظروف الاقتصادية ، وللانفاق على تعليمى . وكنت أحب الاشجار، ولا سيما أشجار التوت المورقة ، وأشــجار الجازورينا المستقيمة الباسقة . وكانت الحرب العالمية الثانية تضطرم يومئذ ، وقد وضعت الحكومة نظما عديدة لتوزيع الاسمدة والبذور على الملاك ، وتوريد الملاك للقمح والقطن ومحاصيل أخرى ، ولم أكن يومئذ قد بدأت بالاضطلاع بدراساتى الاندلسية العميقة ، وكان لدى فســحة من الوقت ، فكنت أسافر كل أسبوع الى عزبتى الجديدة ، وأقضى بها يومى الخميس والجمعة ، وأصطحب بعض أولادى معى ، وكانوا يومئذ صغارا أكبرهم ولدى الدكتور محمود، وقد كان يومئذ فى الثامنة من عمره . وشغفت يومئـذ برعاية مصالح الارض ، وكان الايجار يومئذ زهيدا ،

لا يتجاوز اثنى عشر جنيه للفدان ، ولكنه كان مجزيا لرخص الاسعار الى حدود مدهشة . فكنـا نشترى رطل الزبد بثلاثة قروش ، والبيض كل ثلاثة بقرش ، والعسل النحل بخمسة قروش للرطل ، واللحم كذلك بخمسة أو ستة قروش للرطل ، وهلم جرا . وكنا كل أسبوع نحمل معنا من خيرات القرية ما تيسر الى منزلنا بالقاهرة . وشغفت مدى حين بعمليات اصلاح الارض ، وزراعة أشجار الجازورينا بها ، وخدمة المستأجرين ، ومساعدتهم على تحقيق مطالبهم وحل مشـــاكلهم ، وتزويدهم بالسماد بأسعاره الرسمية وغير ذلك ، ثم صرت بالتدريج أنفق أوقاتا أوسع بالعزبة ، وأقضى بها فى بعض الاحيان الاجازات الكبيرة . كل ذلك وانا لا أشعر بقيمة هذا الوقت الضائع فى هـذه التفاهات ، وما كنت أتكبده من المتاعب فى زيارتها وادارتها ، وما كنت أقاسيه من لؤم المكلفين بالاشراف عليها وحراستها ومن خبثهم وجشعهم وخياناتهم ، وهى صفات شعرت أنها من خصائص الفلاح الصغير ، كما شعرت أن هذا الفلاح الصغير ، لا يكاد يشعر قط بأى شكر للصـنيعة ، أو تقدير للجميل . فعندئذ قررت بيع العزبة ، وبعتهـا بالفعل . ولكن فكرت فى نفس الوقت ، فى أن اشترى عزبة أخرى تكون أقرب بالقاهرة ، ولا تكلفنى مشقات السفر الطويل . ووقعت بعد طول البحث الى شراء عزبة صغيرة جميلة بزمام بلدة قها ، تقع تجاه محطة السكة الحديدية ، وبها منزل جميل انيق به الماء والكهرباء ، وحديقة موالح . ومساحتها الكلية ٢٣ فدانا . منهـا ثلاثة أفدنة مستقلة بها المنزل وحديقة صغيرة متنوعة . وكان ذلك فى سنة ١٩٤٨ . واستمرت هذه العزبة فى

حوزتي زهاء عشرين عاما ، ولعبت دورا كبيرا فى الترويح عن عائلتي واولادى ، وقد كبروا ، وهم محمود وسعاد وحسين ، وكانوا يقضون بها مع والدتهم أياما كثيرة ، ويدعون أصدقاءهم وزملاءهم لقضاء بعض الوقت معهم فى التريض أو المذاكرة .

وكانت حديقة الموالح قديمة ، وقد شاخت وجف معظم أشجارها ، ولم تكن تحمل الينا ايرادا مجزيا ، فقررت قلعها ، وقمت بتأجير ارضها مع باقى أرض العزبة ، وكان الايجار مجزيا يومئذ ، وقد يصل أحيانا الى نحو الاربعين جنيها للفدان ثم صدر قانون الاصلاح الزراعى ، وأخذ ضغطه يشتد على الملاك تباعا ، وكانت الارض مؤجرة عند صدوره ، وكنت اقضى معظم الوقت فى الخارج فى دراستى الاندلسية . واستمر الامر على ذلك ، وايراد العزبة يتناقص تباعا ، ومتاعبها تزيد ، والنهب الذى يسبغه الاصلاح الزراعى على المستأجرين من بخس الايجار ، وتأييد وضع اليد ، يزيد فى جشعهم، وسوء معاملتهم . ولم يكن ايجار الفدان وفقا للقانون يزيد عن اربعة وعشرين جنيها ، يخصم منهـــا المال والدفاع . ثم كان هناك الخفير الوغد اللص ، الذى يحميه وأمثاله قانون العمل ، وسرقاته المستمرة للاشجار وفواكه الحديقة ، وسكناه مع زوجته واولاده ، ثم صهره زوج ابنته فى المبانى الملحقة داخل الحديقة ، حتى صارت كالمستعمرة لهم . وكنت ازور العزبة كل يوم جمعة ثم لما توالت أسفارى الى الخارج ، كانت العزبة تترك معظم الوقت للخفير اللص وأسرته . وتزورها السيدة حرمى او ولدى حسين فى فرص قلائل . ولم

يك ثمة حد لخيانات الخفير وسرقاته للاشجار وفروعها الكبيرة ، وقد كانت كثيرة داخل الحديقة ، وعلى طول الاطيان . ثم امتدت سرقاته الى عروش المبانى ، وعروق الاسقف التى تضاعفت أثمانها ، وسرقاته المنظمة لاعواد البامبو الجميلة كل أسبوع ، وعندئذ اضطررت بعد ما قاسيته من ضغط قانون النهب الزراعى ، واحكامه الغاشمة ، أن أفكر فى بيع العزبة ، آسفا أشد الاسف على ما أضعته فى شئونها من نفيس الوقت ، وما قاسيته من المتاعب والخسائر . ولم يكن بيعها يومئذ سهلا ، لان الارض كانت تحت يد المستأجرين . ولما جاء المشترى ، وابدى رغبته فى الشراء ، واشترط أن يستلم الارض خالية حرة ، دون المستأجرين ، فاضطررت أن أدفع لهم مقابل الخلو ، نحو نصف الثمن عن كل فدان . وتكبدت فى ذلك عدة آلاف من الجنيهات خسارة من أصل الثمن . وتقاضيت الثمن البخيس ، وقاسيت ما أقاسيه فى اخراج الخفير اللص نزولا على شرط المشترى . وهكذا احتملت مظالم قانون النهب الزراعى كاملة شاملة . ولم يكن أسفى على خسارة المال ، بقدر ما كان على الوقت الضائع ، والظلم الفادح ، الذى أوقعه التشريع على صغار الملاك من طبقتى ، واعتبارهم من الاقطاعيين . وقد خرجت من هذه المحنة ، وفى قلبى من البغض للارض وملكيتها ، اضعاف ما كان يحبونى نحوها من المحبة والسحر . والحمد لله على كل حال .

جيل الثورة

لا يمكن لمتحدث عن عهد « الثورة » أن يغفل الكلام عن ذلك الجيل الذى نشأ فى أحضان هذا العهد ، وعن ظروفه وأحواله ، فهو ذلك الجيل المتدهور الحائر ، الذى فقد الكثير من فضائل الاجيال السابقة ، ومن فضائل بلاده المأثورة ، ونشأ فى ظلال دعوات وتعاليم ومبادىء وشعارات وعوائد لم تألفها الاجيال السابقة ، وكانت تعتبر الكثير منها خارجة عن نطاق المبادىء والخلال القومية السليمة ، انه ذلك الجيل الذى فتحت له أبواب التعليم حرة دون قيود ولا تكاليف عملا بمبدأ تكافؤ الفرص والمساواة المطلقة ، ذلك الجيل الخليط من مختلف البيئات والطوائف ، ومنهم أبناء وبنات الكناس والخفير والفسالة الى جانب أبناء وبنات البيوتات العريقة والطبقات الوسطى ذات الاصول العائلية والتقاليد والاخلاق المحترمة(١) هؤلاء جميعا يهرعون الى الجامعات والمعاهد المفتحة الابواب على مصاريعها ، وترتب على ذلك ان اصبح التعليم سلعة رخيصة ، يحوزها الشباب فى كل ضرب وفن دون أية كفايات محترمة أو صفات محمودة أو جهود جادة . وشجعت الدولة هذا الغزو بما جرت عليه من تعيين خريجى الجامعات والمعاهد

(١) هذه هى كلمات الاستاذ عنان ننشرها حفاظا على اصل مذكراته وان كنا لانقره على هذه الكلمات « كتاب الهلال » .

ومختلف دور التعليم فى وظائف الحكومة ، وبعثتهم اكداسا مكدسة الى مختلف المصالح الحكومية دون مراعاة لمطالب العمل ولا مصلحته ، حتى ان المئات والالاف منهم لا يؤدون أى عمل فى المصالح التى بعثوا اليها ، بل لا يجدون بها مقعداً يجلسون عليه . وتنحصر علاقة هذا الموظف الملقى به القاء فى قبض المرتب الحكومى دون أداء أية خدمات جادة ، حتى أصبحت دواوين الحكومة تعج بهذا الغزو الوظيفى ، وتزيد أعباء الدولة باستمرار دون الحصول على أية نتائج عملية من الجانب الاخر . هذا من جانب الشباب المتعلم . وأما الشق الاخر من الشباب فهو يملأ منشآت القطاع العام ، ولا يتسم بأى قدر مشكور من الجد والاخلاص فى العمل ، بل بالعكس يتسم بالكسل وضآلة الانتاج والتحرر من كل حماسة . ومن الضمير اليقظ والشعور بالمسئولية ، أو اخلاص للعمل ، ومن ثم كانت منشآت القطاع العام معظمها عبء على ميزانية تلك المنشآت ، حتى ان معظمها يخرج دائما بخسائر ، ولا ينعم بأية ارباح سنوية . ويرجع قدر كبير من المسئولية ، فى ذلك الى قوانين العمل القائمة وما تتسم به من المنح الغامرة للعمال وتحريرهم من كل مسئولية ، وحمايتهم من الفصل الادارى مهما كانت الاخطاء ، والمسئولية ، ومنحهم من الحقوق والاجازات ما لا يعهد به فى أى قانون أوربى للعمالة ، وقد وضعت هذه القوانين المانحة المانعة فى ظروف سياسية معينة ، ولاغراض ترتبت على هذه الظروف ، ولم تجرا بعد أية حكومة على تغييرها ، وأية محاولة للاصلاح والتعديل يجاوبها العمال بالعنف والهتاف « نحن نحافظ بالمكاسب الاشتراكية » وما اليها .

هذا المزيج من الشـــــباب المتعلم ذوى الاخلاط الاجتماعية المتباينة ، ومن عمالة القطاع العام غير الجادة وغير المنتجة ، الى جانب بقية الطـــوائف الاخرى من أصحاب مختلف المهن والحرف : هــذا المزيج هو قوام الجيل الذى نشأ فى عهد « الثورة » ، وهو الجيل الذى يحمل على اكتافه مستقبل مصر ، وهو جيل لا يتصف مع شديد الاسف بالصفات المطمئنة التى يحتاجهـــا الحفاظ على مصاير البلاد ، وتغلب عليه السطحية فى معظم صفاته ، وتنقصه أولا المزايا الاخلاقية التى يجب أن تتصف بها الاجيال المنتجة العاملة ، وينقصه تحرى الاهداف القومية الجـــادة ، وهو جيل حائر لا يتعرف طرقه ، قليل الكفايات ، معدوم النبوغ ، كل همه فى الحياة أن يعيش بأفضل ما يمكنه ، دون الالتفاف الى اية أهداف عامة أو غايات قومية تقتضى التضحية ، او التعاون القومى . ويمكن أن أقول ، وقد شاركت الحياة الى اليوم مع أجيال ثلاثة ، أن جيلنا الحاضر ، هو أضعف هذه الاجيال التى شـــهدتها ، وأقلهـــا فى المزايا والفضائل .

وأما عن الحركة الفكرية ، فانه من المجمع عليه انهـا تتسم لدى جيلنا الحاضر بمنتهى الضعف ، وانعـدام النبوغ ، وما زالت بقيايا الحركة الادبية ما قبل الثورة ، وقوامها « بقية قليلة من الشيوخ ، هى التى تشرف انتاج مصر الثقافى ، ولم يتميز جيل « الثورة » بأى نبوغ أو انتاج ثقافى ممتاز ، ولم تكسف الحركة الثقافية من جيل الشباب أى جديد تعتز به . هذا كله الى ما صاحب هذا الكساد الفـــكرى والادبى ، من انهيار مستوى التعليم

الجامعي الى حدود يرثى لهـا ، حتى غدا تعليما مدرسيا آليا ، لا يمتاز بسمات البحوث العلمية الجامعية الممتازة، ولا بالانتاج العلمي الرصين .

ولا شك ان المسئولية الاولي فى ذلك التدهور الفكرى، ترجع الى « النظـــام » نفسه ، حيث لجأ الى سلطان التوجيه ، وحاول اخضاع الحركة الفكرية والادبية لهذا التوجيه بكل الوسائل ، ومنها انشـــاء الهيئات العلمية والادبية تحت أسماء مختلفة ، وقوامها لجان العمل تحت سلطان هذا التوجيه بشكل واضح ، فهى لسان النظـام القائم ، والمعربة عن رغباته وغاياته ، والمعتـــذرة عن سقطاته ، واخطائه . ونحن نعرف أن الحركات الفكرية الادبية لا يمكن بطبيعتها أن تزدهر الا فى الاجواء الحرة الطليقة ، البعيدة عن كل ايحاء ومؤثر ، وانه لا يمكنها مطلقا أن تتفتح وتزدهر فى ظل الآفاق الموجهة الواقعة تحت سلطان النظام القائم ، أيا كان هذا النظام .

المشاكل الصعبة

لقد نشأت خلال عهد « الثورة » طائفة من الازمات والمشكلات الصعبة التى جعلت من حياة المواطن المصرى شقاء مستمرا ، وهي مشكلات لا تخف وطأتها ، بل تزداد على مر الايام خطورة وتعقيـــدا . وقد طال أمد هذه المشكلات دون أن تتعرض لهـا الحكومة بأية محاولات جدية للعلاج أو الحل ، وتركتها تتفاقم سنة بعد اخرى والشعب يتخبط فى معركتها ، وقد يئس من العمل على حلها . وأهم هذه المشكلات هى مشكلات الاســكان ،

والمواصلات ، والهجرة ، ثم الغلاء المتصاعد ، الى جانب طائفة أخرى من مشكلات أقل أهمية ، وقد تركت الحكومات المتعاقبة أمر هذه المشكلات تتفاقم وصراخ الشعب المكدود يتضاعف من حولها ، حتى بدأت أخيرا ، وبعد انتهاء الحرب الطويلة ، التي تخوضها مصر منذ أعوام ، قد بدأت الحكومة بعلاج اخطر هذه المشاكل وأكثرها حدة ومساسا بحياة الفرد ، الا وهي مشكلة الاسكان . وقد كانت الحكومة تحاول يائسة أن تتعرض لها من آن لآخر باتخاذ بعض الاجراءات الثانوية كالعمل على توفير مواد البناء واعفاء الملاك من رسوم العوايد على المباني الجديدة لمدة معينة ، وتشجيع الحركات التعاونية وأمثال ذلك . ولكن هذه الاجراءات لم تجد شيئا في كسر حدة الازمة ، التي لبثت تتفاقم حتى خلو الشقق المؤجرة الى الآلاف مؤلفة ، هذا فضلا عن مضاعفة ايجارها . وتركت الحكومة ملاك العمارات الجديدة يجرون على بيع الشقق لا تأجيرها ، ولم تحاول أن تصدر في ذلك قانونا مانعا أو معدلا ، وتركت الحكومة كذلك سائر الحرفيين من عمال البناء يهاجرون الى البلاد المختلفة للعمل فيها ، ولم يبق سوى القليل منهم حتى وصل أجر عامل البناء الى ثمانية وعشرة جنيهات في اليوم الواحد. وتحاول الحكومة أن تصل بالتفاوض مع عدة من الدول الاوربية الى حملها على أن تشترك في مساعدة مصر على حل هذه الازمة باصدارها قروضا طويلة الاجل تخصص لمشاريع البناء ، وقد استطاعت بالفعل أن تقنع عددا من الدول الاوربية الصديقة أن تشارك في هذه المحاولة ، والمقدر أن تنفيذ هذه الخطة التعاونية يقتضي على الاقل خمس سنوات ينشىء فيها عدد كبير من المساكن

الجديدة ، التى تسـاعد على حل أزمة الاسكان . ولم تفطن الحكومة خلال هذا الاتجاه الى المعاونة الخارجية ، الى الناحية الداخلية من الازمة ، والى متابعة الاسباب المحلية فى تفاقمها . وفى رأينا ان معالجة المشكلة من الناحية الداخلية هو أجدى من تلك المعاونة البعيدة المدى . وذلك أن أسباب أزمة الاسكان ترجع من الناحية الداخلية أولا الى عدم ملاءمة التشريع القائم الخاص بهذه المسألة ، أعنى قانون الايجار والمساكن وترجع بنوع أخص الى ما سلكته الحكومة منذ البداية من سياسة مطاردة رأس المال الخاص ، ووضع القيود على حرية التأجير ، مما زهد رأس المال الخاص فى المشاركة فى أعمال البناء ضنا بما يترتب على ذلك من التعرض لمفاجآت الحكومة ، من تخيفض الايجارات فجأة ودون مبرر ، ووضع القيود المستمرة على حرية تصرفات المالك . ونحن نعرف أن سياسة الحكومة تجاه استثمار رأس المال الخاص والمشاريع الخاصة ، كان من أسباب احجامه أولا عن وضع ثقته فى الحكومة واتجـاهاتها ، وثانيا حرصه على عدم التعرض لمفاجآت تسبب له الخسارة أو الضياع . والحكومة ما تزال عاجزة عن كسب ثقة القطاع الخاص بسبب تصرفاتها السابقة التى تتسم كلها بمطاردة رأس المال ، وحرمانه من ضمان الحصول على أرباحه المشروعة فعلى الحكومة أولا أن تعدل قانون الايجارات بما يتفق مع المبادىء . العـادلة ، من اطلاق حرية الاستثمار فى التأجير ، والغاء لجان تحديد الايجارات ، والبعد عن سياسة مطاردة رأس المال الخاص ، ما دام يتصرف فى حدود حقوقه وأرباحه المشروعة ، ولو وفقت

الحكومة أخيرا الى وضع سياسة جديدة لاستثمار راس المال الخاص ، لهرول أصحاب الاموال الخاصة الى اقامة المساكن في كل الانحاء ، كما كان الامر من قبل، خصوصا متى ضمنت لهم حرية التصرف والتأجير ، فى الحدود المشروعة ، ولكان ذلك أكبر العوامل فى حل ازمة الاسكان وأسرعها ، وليس معاونة الدول الصديقة بقروضها وعلى الحكومة أن تعمل فى ذلك الى توفير الحرفيين من عمال البناء وغيرهم بمنعهم من السفر الى الخارج الا فى حدود ضيقة ولأزمنة محدودة .

اما عن مشكلة المواصلات فقد بذلت الحكومة فى ذلك بعض الجهود ، وذلك باستيراد السيارات الكبيرة ، وتزويد الخطوط المختلفة بهذه السيارات ، وانشاء خطوط جديدة طويلة ، فى سائر الاتجاهات . ومع ذلك فان هذه الجهود ليست كافية لحل المشكلة ، التى مازالت تبدو بنواحيها البشعة فى أحياء وقطاعات عديدة . ويكفى أن نذكر فقط مترو حلوان الكهربائى ، وما يبدو من فظاعة زحامه المكتظ باستمرار ، وعرباته المهلهلة ، وحوادثه الخطرة العديدة (١) .

وكذلك فان الحكومة لم تفعل شيئا لوضع حد للهجرة الريفية التى ما زالت تغزو العاصمة باستمرار ، وتزيد فى عدد سكانها الضخم ، وتنافس سكان المدينة الكبرى فى كل المرافق . وعلى الحكومة أن تتخذ فى ذلك بعض

---

(١) سبق ان نبهنا الى ان الاستاذ عنان فرغ من تاليف هذا الكتاب سنة ١٩٧٩ وقبل عمل مترو الانفاق «كتاب الهلال» .

الاجراءات التي تحول دون وفود العناصر الفضولية ، والخطرة على الامن العام ، وحماية العاصمة الكبيرة منها ..

وأما قضية الغلاء والتضخم ، فأنا نستطيع أن نقول بمنتهى الصراحة ان الحكومة لم تبد أى اهتمام ولا شعور بهذه القضية ، وانها تترك الامور تجرى في مجاريها ، وتترك قيمة الجنيه المصرى تنحط باستمرار ، وأثمان السلع ترتفع باستمرار دون أن تحرك ازاء ذلك ساكنا ، أو تتخذ فى هذا السبيل أية اجراءات مالية أو ادارية جادة تحدث اثرها فى وقف هذا التيار الجارف أو تهدئته . وهذا ما تفعله الآن سائر الدول لمعالجة مشاكلها الاقتصادية .

المستقبل

ان مصر الخالدة لابد أن تنهض باذن الله وعونه من عثرتها ، ولابد أن تجد فى آخر الامر من بين أبنائها من يقودها ويرشدها الى مصايرها العظمى ، ويكشف عنها آثار كل المحن التى توالت عليها ، وردتها الى الوراء ، وجعلتها تقاسى الحياة الكدرة فى سائر المجالات ، وحرمت أبناءها الذين شغلهم تحصيل لقمة العيش عن التفكير فى مصاير بلادهم ، وفيما تصبو اليه من المثل العليا أن أبناء مصر ، مهما كان الانهيار المادى والمعنوى الذى شمل كثرتهم الغالبة ، يجب أن يثقوا فى مصاير بلادهم الخالدة ، التى استطاعت ، خلال تاريخها الطويل أن تغالب كل محنة ، وأن تخرج من كل سقطة ، وأن تسترد دائما ثباتها ومنعتها ، وأن تفوق من كبوتها . ان مصر تجوز اليوم عصر محنة وانحطاط ، مادى ومعنوى ، ولكنها لن تلبث أن تجوز هذه الحقبة المظلمة من تاريخها، الى حقبة منيرة مزدهرة ، هذا ما يعلمنا اياه تاريخ بلادنا، التى لم تستحق المحن ، مهما عظمت حيويتها الاصلية ، وعزائمها الراسخة ، بل كانت دائما تصابر الغمار ، ولن تلبث حتى تخرج منها ، وتبدأ حياة جديدة ، ومصر الآن فى عهد تصابر فيه الغمار ، ولن تلبث أن تتغلب عليها ، وأن تخرج منها رافعة الرأس ، مستشرة

القلوب . ان العناية الالهية التي حمت مصر ورعتها طوال هذه القرون العديدة ، وانتشلتها من كبواتها مرة بعد أخرى ، لخليقة بأن ترعاها في محنها الخاضرة ، وأن تمد اليها يد الانقاذ كما فعلت دائما . على أن ذلك كله يتوقف على قدر كبير مما تقوم به مصر نفسها ، ولابد للجيل الحاضر مهما كانت بوادر عجزه وتخلفه أن يبتز في النهاية لعملية الانقاذ التي تتطلبها بلاده ، وأن يفعل المستحيل حتى يتاح له الفوز في أدائها .

هذا ما يشعر به كاتب هذه السطور ، وانه لشعور لابد أن يخالج كل مصري أصيل يؤمن بحق بلاده ومصيرها .

ومن الواضح انه لابد أن تمضي فترة معقولة ، تستغرقها معالجة المشاكل والهموم المعيشية ، ثم يستطيع الشعب بعد ذلك ، أن يعنى بعد المهام الفرعية بالمهام الرئيسية التي يقتضيها التنظيم والبناء . وقد يقتضي ذلك جيلا آخر ، ولكن الجيل في حياة الامم لا يعد حقبة كبيرة ، متى شغلت مراحلها بالتجديد والتنظيم ، والسعي وراء كل ما يجلب الرخاء الى البلاد . ومتى حل اليسر والرخاء ، أصبحت عملية التنظيم والتجديد ممكنة وسهلة ، ومرغوب في اقتحامها وتحمل أعبائها . والعمل في ذلك يقوم على الاغلب على جهود الجيل القادم ، وليس على أيدي جيلنا ، الذي ثبت عقمه في كل مجهود ، وكل محاولة ، واكتفي بالعيش الرتيب في عسر ومشقة لا يجد بديلا عنهما في ظروفه المقرونة بالشقاء والمعاناة .

ومتى انفتح باب العمل والتنظيم لهذا الجيل الجديد المنقذ ، فان مصر تعود فتبدأ مرحلة جديدة من النهوض

والازدهار ، وتستطيع أن تنفض عن أكتافها عثرات الجيل السابق ومتاعبه . ولقد شهدنا مثل هذا التطور عقب الثورة العرابية وخراب البلاد فى بداية عهد الاحتلال ، ثم شهدنا عقب ثورة ١٩١٩ ، ولابد أن نشـــــهد مثيله بعد زوال مشاكلنا فى العهد الحاضر ، وبزوغ فجر الجيل الجديد المنقذ ..

والله جلت قدرته يحفظ بلادنا ، ويمدها بروح من عنده ، ويشملها بجميل عونه .

رقم الايداع : ٨٧/٨٩٣٨
الترقيم الدولى : ٢ - ٣٣٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ 13079 ـ تليفون ٤٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٧٠٠ ليرة ، الأردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، الدوحة ١٠ ريالات ، دبى ١٠ دراهم ، أبوظبى ١٠ دراهم ، تونس ١٧٥٠ مليما ، مسقط ١ ريال ، المغرب ١٧ درهما ، غزة والضفة ١ دولار ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة

سيرة ذاتية للكاتب الكبير الاستاذ محمد عبد الله عنان ، الذى اثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات ، وهو من اعظم حملة الاقلام العرب فى القرن العشرين .

ولم ينقطع خلال حياته الحافلة عن الكتابة فى المجلات الثقافية ، ولعل ابرز مقالاته تلك التى حذر فيها من المخططات الصهيونية والكل غافل عن تلك المخططات والتى نشرها فى مجلة الرسالة فى عددها الصادر يوم ١٦ مارس عام ١٩٣٦ ، وقد شارك بالكتابة فى مجلة الهلال منذ العقد الثانى من هذا القرن ..

وعاش الكاتب الكبير حياته مستقل الفكر ينزع الى الحرية بعد ان مال فى شبابه الى الاشتراكية ، بعدها انصرف الى التأليف ، وفى كل مواقفه كان تعبيرا صادقا عن فكر الصفوة التى كثيرا ما تنظر الى العامة من برجها العاجى ، مما جعل له موقفا خاصا من ثورة ٢٣ يوليو ويشتد فى الحديث عنها ، ولايرى - فى عزلته - الضرورات الاجتماعية والسياسية التى حددت مسارها . ومن المؤسف حقا ان نصيبه من التقدير فى مصر لايساوى مابذله من جهد ، وما اضافه للمكتبة العربية من ذخائر الكتب .

إن نشر هذه المذكرات حدث ثقافى هام ، ورؤية كاملة لأحداث حافلة خلال ثلثى قرن من الزمان .